

الكتاب العربي السعودي

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز
في القرن الرابع عشر للهجرة

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

تهامة TIHAMA
الكتاب العربي السعودي ٣٠

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

١٣٠١ - ١٤٠٠ هـ
١٨٨٣ - ١٩٨٠ م

الجُزءُ الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

جميع الحقوق لهذه الطبعة محفوظة للناشر

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الانسان فسواه ، وصوره فاحسن تصويره ، ووهبه من الصفات والمزايا وفضله على سائر المخلوقات ، وارسل الانبياء والرسل لهدايته وتقويمه ، وجعل له الخلافة فى الارض واسبغ عليه من نعمه مالا يحصيه العد ولا يصل اليه حد ، والصلاة والسلام على خاتم انبيائه ورسله وصفوته من الخلق سيدنا ونبينا محمد الذى ارسله الله هدى للعالمين ورحمة ، والذى اصطفاه ورباه وقومه احسن تقويم ، فكان كما قال تعالى فى وصفه« وانك لعلى خلق عظيم » صلوات الله وسلامه عليه وعلى كافة الانبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وبعد فهذه تراجم لبعض اعلام الرجال الذين عاصرتهم وقد انتقلوا جميعا الى جوار ربهم وهم جميعا ممن ولدوا وتوفوا خلال القرن الرابع عشر الهجرى الذى نقترب من نهايته ، وأغلب هؤلاء الرجال ممن اتصلت اسبابى باسبابهم فعرفتهم عن قرب وخبرت من أمورهم ما قد يخفى على كثير من شباب الامة ورجالها خاصة وان الكثير ممن عاصرهم وعرفهم اما أن يكون قد لحق بهم أو انه مثلى فى الطريق اليهم ، ورأيت أن من الخير التعريف بهم والتذكير بما كانوا عليه من كريم الصفات وما قاموا به من عمل نافع ، على اختلاف وجوه هذه الاعمال التى يمكن ان تجتمع تحت كلمة (النفع العام) نعم فان جميع هؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم كانوا قد وهبوا انفسهم للخدمة العامة على اختلاف السبل ، وتفاوت الدرجات ، ولست ازعم ان هؤلاء الرجال قد سلموا من الشوائب ، أو تبرأوا من النقص فهم بشرٌ كسائر

الناس ولكنى رأيت ان صفات الخير قد غلبت عليهم ، وانهم تغلبوا على الانانية الفردية فوهبوا من نفوسهم واموالهم واوقاتهم للناس ما يجعلهم مثلا يحتذى وحديثا يتردد فهم من الصفوة التى تتخذ قدوة حسنة لمن يرغب السير فى طريق الخير والنفع العام ، كما ان من الواجب ان اوضح أن كلما كتبته عن هؤلاء الرجال هو تسجيل لذكرياتى عنهم وعن اعمالهم ، فهذه التراجم ادخل فى باب الذكريات منها فى باب التراجم التى قد يتطلب فيها الكثير من التدقيق ، كما انى اود ان اذكر ان هؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم لم يكونوا وحيدين فى عصرهم وانما كان لهم اخوة وزملاء لاشك ان الكثيرين منهم يستحق ان يكتب عنه ويشاد بذكره ولكنى انما كتبت عمن اعرف ولعل غيرى من الاخوة الكتاب فى كافة مدن المملكة يكتب عن اعلام بلده ومن عرف منهم إحياء للذكريات الحسنة والاعمال الطيبه ، ولاشك ان هذا ان تم فستكون هناك حصيلة طيبة لاعلام هذا القرن تكون سندا لمن يكتبون تاريخه ويسجلون وقائعه ، فالتاريخ انما يصنعه الرجال .

وهناك مسألة اخيرة أود أن اذكرها فى ختام هذا الحديث لقد كتبت عن الأعلام الذين توفاهم الله والذين ولدوا وتوفوا خلال هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، ولم اتعرض للكتابة عن الأعلام الكثيرين الباقين على قيد الحياة والذين اسأل الله تعالى لهم حياة طيبة مديدة وعملا نافعا طيبا ، فلا يخفى ان الكتابة عن الاحياء لايمكن ان تتم بنفس الاسلوب الذى اتبعته فى الكتابة عن ذكرياتى عن هؤلاء الرجال الذين انتقلوا الى جوار ربهم وهو الاسلوب الخاص بالجانب الحسن من حياتهم لان ذلك ان تم فى حال الحياة ربما اعتبره البعض من اسباب التقرب اليهم وتطلب موداتهم ، وليس هذا هو الغرض من كتابة هذه الذكريات بحال من الاحوال ، ولاشك ان كل من يقوم بعمل نافع فسيلقى جزاءه فى الدنيا ذكرا حسنا وفى الآخرة مثوبة واجرا وانى لأرجو ان يتيسر لى الكتابة عن طائفة اخرى من الاعلام فى وقت قريب والله المعين وعليه الاتكال .

محمد علي مغربي



الشيخ أحمد الزهراء

لعله من المستحسن قبل الكلام عن ترجمة الشيخ احمد الزهراء ان اوضح للقراء الكرام القاعدة التى اتبعها فى الكتابة عن الرجال الذين عاصرتهم او عاصرت اخبارهم وآثارهم ، ان هذه القاعدة تتلخص عندى فى ان تكون حياة صاحب الترجمة واعماله ذات نفع ملموس للمجتمع سواء اكان هذا النفع يتمثل فى خدمة عامة ادَّاها للناس مضحيا بماله او جهده فى سبيلهـا او كان فى عمـل حضارى قدمه لبلاده وان كان قد افاد هو منه ربحا وفيرا او مالا كثيرا وليست القاعدة عندى فى الكتابة عن الرجال هى الشهرة فحسب ، فقد يكون الرجل جهير الاسم ذائع الصيت ولكنها شهرة لاتتصل بالنفع العام اوبخدمة الناس ، قد تكون الشهرة بالطغيان مثلا فى الثراء وفى ظلم الناس واضطهادهم والاساءة اليهم ، ليست الشهرة اوذيوع الصيت هى الدافع عندى فى الكتابة عن اعلام الرجال وانما الدافع هو ما اثمرته حياة هؤلاء الناس وجهودهم من نفع للناس واثراء للحياة نفسها فى شتى المجالات ، وبعد هذه المقدمة التى رأيتها ضرورية بين يدى هذه الترجمة بالذات نعود الى صاحب الترجمة فنقول :

ضئيل الجسم اقرب الى القصر ، اصفر اللون ، مغضن الوجه ، كفيف البصر يرتدى القفطان والعمامة المصرية وهي طربوش داكن الحمرة له زرٌّ طويل اسود وتطوقه عمامة بيضاء وهذا الزيّ فى مجموعه هو زيُّ العلماء المصريين ولايزال سائدا حتى اليوم ، وكان الشيخ احمد الزهراء شديد البخل مضيقا على نفسه فلم يكن يرتدى سوى الملابس الصوفية الغليظة حتى فى ايام الصيف الذى يشتد فى مدينة جدة شدته المعروفة ولم تكن له زوجة او خادم يقوم بشأنه ولم يكن له مطبخ فى داره وانما كان يأكل الغليظ من الطعام كالعيش والبصل والكرَّات ، هذا حينما يأكل فى داره ولقد كان يشترى الجواري فلا تقيم الواحدة منهن فى داره الا اياما ثم تطلب منه ان يبيعها لغيره فلم يكن يطيق العيش معه انسان ، وعلى ذكر الجواري فقد كان هناك سوق للرقيق فى مدينة جدة وفى مكة المكرمة ايضا وكان الرقيق الذى يرد من الحبشة والسودان وافريقيا بصورة عامة يعرض فى هذه الاسواق ويقوم على شؤون هذه الاسواق باعة مشهورون او دلاَّلون على الاصح واشهر دلاَّلى الرقيق الذين ادركتهم فى جده كان رجلا حضرميا اسمه حسن العامودى وقد اختفت هذه الاسواق بعد ذلك ولكن الرقيق كان يعرض للبيع فى بيت حسن العامودى آنف الذكر وكان يذهب اليه المشترون لاختيار الجارية التى يرغبون شراءها وقد تؤخذ للدار لتجربتها لفترة يومين او ثلاثة حتى اذا ثبت للمشترى صلاحها وخلوها من العيوب الصحية اشتراها وقد انتهت هذه التجارة اللاانسانية الى غير رجعة حينما اصدرت الحكومة أوامرها بعتق الرقيق وتعويض اصحابه الاثمان التى دفعوها فى شرائه وكان ذلك فى عهد رئاسة المرحوم الملك فيصل للوزارة اثناء ولاية الملك سعود للعرش رحمهما الله ، ومن ألطف ما اذكره عن تجارة الرقيق هذه ان كبيرا من اثرياء نجد كتب الى صديق له فى الحجاز يطلب منه شراء جوار لايشربن الدخان وليس عليهن زيران ، وشرب الدخان هو

استعمال السجاير كما هو معلوم اما الزيران فجمع زاز وهذا الزار كان نوعا من انواع الشعوذة التى كانت سائدة فى النصف الاول من القرن الرابع عشر الهجرى وكانت تمارس خفية فى العهد السعودى وهى ادعاء بعض المشعوذين والمشعوذات شفاء الامراض بعمل الزار او ما يسمى النعيش وهو اقامة حفلات رقص يلبس فيها النساء ملابس الرجال ويتحدثن الى صانعى الزيران والى الحاضرين بلغة بدوية صرفة وتذبح فيها الذبائح للجن والعفاريت والعياذ بالله وربما تكون هذه البدعة الوثنيه وفدت الى الحجاز من بعض البلاد المجاورة وقد انتهت هذه العادات السيئة التى تدخل مرتكبيها فى ابواب من الشرك والعياذ بالله الى غير رجعة فلم يعد لها اثر فيما اعلم والحمد لله ، نعود بعد هذا الاستطراد الى الشيخ احمد الزهراء فنقول انه لم يكن يطيق العيش معه انسان وهو على ما وصفنا من الضيق والتقتير على نفسه ومن معه ، وكان الرجل الى كل هذا طالب علم له حلقة للتدريس فى مسجد الشافعى وهو اقدم مساجد جدة ، وكان له تلامذة يحبونه ويخدمونه وكان الرجل مقرئا بل عالما بالقراءات السبع ومن اشهر المقرئين المجودين وكان الناس يدعونه الى تلاوة القرآن فى مآتمهم وفى ملحقات هذه المآتم اذا صحَّ هذا التعبير ذلك ان الناس كانوا يتمسكون بعادات كثيرة فى الموت كادت الآن ان تنقرض ، ولقد ادركت الناس اذا مات الميت حضر المعزون الى المسجد المجاور لبيت المتوفى او مسجد يعينونه فيصلون العصر ويتناول الواحد منهم جزءاً من القرآن فيتلوه حتى اذان المغرب فيعزُّون اهل المتوفى ثم يصلون المغرب وينصرفون ثم تطورت هذه العادة فاصبحت تتم فى بيت المتوفى بين المغرب والعشاء وبنفس الطريقة التى وصفناها فيحضر المعزُّون ويمسك كل واحد منهم جزءا من المصحف يتلوه حتى يحين موعد صلاة العشاء فيعزُّون وينصرفون وقد تطورت هذه العادة الى ماهو متبع فى الوقت الحاضر من حضور الناس بعد صلاة

المغرب لفترة بسيطة يستمعون فيها الى تلاوة القرآن من المقرئين الذين يحضرهم اهل الميت ثم يعزُّون وينصرفون ، وكان هناك الى جانب الايام الثلاثة للتعزية يوم العشرين والاربعين والحوْل فاذا مضت عشرون يوما على وفاة الميت اقام له اهله ـ العشرين ـ ويحضر فى هذه الاثناء مقرىء واحد او اكثر من الصباح فيقرأ القرآن على روح الميت الى مابعد الظهر حيث يحضر المدعوون من خاصة اهل المتوفى واصدقائه فيستمعون الى التلاوة ويتناولون الطعام ويقرأون الفاتحة على روح الميت ويدعون له بالمغفرة وينصرفون وبنفس الترتيب يقيمون حفل الاربعين بعد مضى اربعين يوما على وفاة الميت ثم حفل الحوْل وهو بعد مضى عام كامل على الوفاة ، هذا علاوة على مايتلى له من القرآن فى شهر رمضان وكان يتولى هذه التلاوة صغار الاطفال ممن يحسنون القراءة والبعض كان يهتم بامر هذه التلاوة لا فى شهر رمضان وحده وانما فى رجب وشعبان كذلك قلنا وقد انتهت هذه العادات جميعها فلم يبق منها سوى ثلاثة ايام العزاء بين العشاءين ٠

نعود بعد هذا الاستطراد عن عادات الناس فى ايام الوفاة الى الشيخ احمد الزهراء فنقول انه كان من ابرز المقرئين فى مدينة جدة ولهذا كان منشغلا فى كثير من الايام بتلاوة القرآن فى المآتم وفى ايام العشرين والاربعين والحول كما اسلفنا وكان يتناول طعامه فى كثير من الايام فى البيوت التى يدعى اليها ، كما ان تلامذته كانوا يتحفونه بأطيب الطعام فى بعض الايام ويخدمونه ويقومون على تمريضه اذا مرض والله سبحانه وتعالى هو الذى يدبر الامور بحكمته فيسخر لهذا الرجل الكفيف البخيل من يقوم على اصلاح امره وتسيير شؤونه ٠

هذا وكان الشيخ كثير الوسواس فلم يكن على تمكنه من التجويد وحفظه للقرآن الكريم وحسن ترتيله بمستطيع ان يتولى الامامة فى المساجد وهى الوظيفة الطبيعية لامثاله ، لانه كان كثير الوسوسة وكنت اراه فى مسجد الشافعى وهو

ينوى للصلاة ـ صلاة النفل فاسمعه يقول الله الله الله اكبر وما هى الا ثوان ثم يعود لتكبيرة الاحرام بنفس الاسلوب السابق يكرر النطق بلفظ الجلالة مرات ومرات حتى يستفيم له الدخول فى الصلاة ، ولكن الرجل لم يكن بحاجة الى الامامة لان موارده من المآتم وتلاوة القرآن كانت كبيرة فى ذلك الزمان لاينفق منها شيئا وقد اخذ نفسه بهذه الحياة الضيقة الشديدة وقد تجمعت لديه ثروة كبيرة هيأت له ان يشترى ثلاثة بيوت من اشهر بيوت جدة اولها فى منطقة باب مكة مما يلى سوق البدو وكان يسكن فى جزء منه ويؤجر الاجزاء الباقية وهى كثيرة للمستأجرين ويتسلم الغلة فيضيفها الى مايكنزه من مال والبيتان الآخران وكان يطلق عليها اسم بيوت الشرايبى على ماذكر وهما يقعان الان فى قلب شارع الملك عبدالعزيز فى وسط شارع الاشراف بين شارع الملك عبدالعزيز والسوق الكبير وكانت هذه المنطقة قبل تعمير شارع الملك عبدالعزيز تسمى باب الصبَّه وهو باب يؤدى الى البحر وكان هذا الباب من داخل سور مدينة جدة الموازى للبحر وكان هذا الباب فيه حرس للجمارك وتخرج منه العربات المحملة بالارزاق ولعل معنى الاسم انه الباب الذى تنصب منه البضائع الى المدينة او لعل له تعليلا آخر يعرفه المعمرون من اهل جدة او المهتمون بتاريخها .

لقد كان شراء الشيخ احمد الزهراء لهذه البيوت الكبيرة فى مدينة جدة حديث الناس فى ذلك الزمان فكانوا يعجبون لهذا المقرىء الاعمى الذى كان يجمع القرش الى القرش والريال الى الريال والدينار الى الدينار ثم يشترى البيوت الشهيرة التى تعرض للبيع ولست اشك ان كثيرا من التجار كانوا يرغبون فى شراء هذه البيوت او واحد منها على الاقل فجميعها تقع فى مناطق تجارية ولكن التجار كانوالايفكرون كثيرا فى شراء امثال هذه البيوت إذا لم تكن لهم حاجة ضرورية اليها لانها تجمِّد المال السائل الذى يتعاملون به فى تجاراتهم ولم يكن فى

البلاد بنك واحد حتى يتعامل معه الناس او يقترضوا منه وكانت العملة السائدة هى الجنيهات الذهبية بنوعيها العثمانى والانجليزى ثم الدينار الهاشمى والسعودى والريالات المجيدية اولا ثم الهاشمية والسعودية فيما بعد ولم تكن اوراق البنكنوت بالعملة الرائجة الا فى مواسم الحج يشتريها الصرافون من الحجاج حينما يقدمون ويبدلونها لهم بالعملة المحلية ثم يبيعونها للحجاج حينما يعودون الى بلادهم باسعار اقل ويستفيدون الفرق بين السعرين وكانت اغلب العملات التى ترد مع الحجاج عملات فضية كالروبيات الجاوية والهندية وقد رأيت التجار يشترون الروبيات الهندية خاصة ثم يصدرونها الى عدن او الى الهند وبعد ذلك كثر التعامل بأوراق البنكنوت فأصبح الناس يفضلون التعامل بها لأنها اخف حملا واسهل حفظا وباستثناء البنك العثمانى الذى افتتح فرعا له فى مدينة جده فى العهد الهاشمى ثم فى اوائل العهد السعودى ولم يستمر طويلا كان اول بنك اسس فى المملكة هو الشركة التجارية الهولندية وكان الصرافون يشترون العملات المختلفة ويبيعونها

له ويقوم هو بتصديرها الى الخارج عن طريق قسم الحوالات والطرود بالبريد فى ظروف كبيرة مختومة بالشمع الاحمر ومؤمن عليها ويزن الواحد منها ألفى غرام ٠

نعود بعد هذا الاستطراد عن العملات الاجنبية فنقول ان شراء الشيخ احمد الزهراء لهذه البيوت كان حديث الناس والتجار منهم خاصة فى مدينة جدة لأن هذا المقرىء الاعمى استطاع ان يجمع هذا المال الكثير الذى يشترى به هذه البيوت الكبيرة فى مدينة جدة عبر سنوات طويلة من التقتير على نفسه والتضييق عليها ولكن المفاجأة العظمى التى فاجأ بها الشيخ احمد الزهراء الناس جميعا هى انه وهب هذه البيوت الثلاثة الى مدارس الفلاح وأوقفها عليها فختم الرجل حياته احسن ختام اذ تنازل عن ثروته الكبيرة التى جمعها خلال سنوات عمره الطويل من التضييق على نفسه لعمل من انبل الاعمال وأجلها فوهب ثمرة سعيه فى هذه

الحياة لتصرف على العلم والتعليم ممثلة فى مدارس الفلاح التى كانت رائـدة التعليم فى ذلك الزمان وهكذا استحق الشيخ احمد الزهراء ان يسجل اسمه بين اعلام الرجال فى عصره بهذه الهبة العظيمة التى لم يقدم عليها أثرياء عصره فكان بها فريد العصر وواحد الزمان .

ولقد توفى الشيخ احمد الزهراء فى منتصف القرن الرابع عشر الهجرى عن عمر يناهز الثمانين عاما تغمده الله برحمته الواسعة وتقبل منه عمله الطيب العظيم .





احمد صالح قنديل

أحمد صالح قنديل

معتدل القامة اقرب الى القصر ، اسمر اللون شديد السمرة ، ممتلىء الجسم واسع العينين ، ذكي لماح ، خفيف الظل ، مرسل الشعر فى غير اسراف ، كان فى مطلع شبابه يرتدى الكوفية الحجازية والشال وهو ما يستعمل للاعتمام وكان من انواع كثيرة ترد من الشام وبعد ان التحق بوظائف الدولة اصبح يرتدى العباءة والعقال ، ولد بمدينة جدة فيما أقدر فى أواخر العشرينات او اوائل الثلاثينات من القرن الهجرى وتلقى تعليمه فى مدرسة الفلاح وبعد تخرجه منها عمل بها استاذا

وقد ادركته وهو استاذ بالمدرسة التحضيرية فى الفلاح ، والتى كانت تسمى المجتمع وهو البيت الذى انشأه المرحوم الحاج محمد على زينل مؤسس الفلاح ليكون مقرا للاجتماعات الخاصة بالمدرسة ثم تحول الى مدرسة تحضيرية تابعة لمدرسة الفلاح ، وهو منفصل عن مبانى الفلاح الحالية وقد تخرب فلم تمتد اليه يد الاصلاح واخشى ان يكون قد اندثر أو هو فى طريقه الى الاندثار ، ثم عمل استاذا بمدرسة الفلاح الكبرى واستمر يعمل فيها لسنوات طوال الى ان انتقل الى مكة رئيسا لتحرير جريدة صوت الحجاز عام ١٣٥٥ هـ بترشيح من صديقه

المرحوم الاستاذ حمزة شحاتة لدى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان رئيس الشركة العربية للطبع والنشر .

قنديل وحمزه شحاته

وكان الاستاذ احمد قنديل ينشر شعره فى صوت الحجاز بتوقيع الصموت الحساس وقد استرعى هذا التوقيع انتباه الاستاذ حمزة شحاتة فسألنى ان كنت اعرف هذا الشاعر الذى بدأت بواكيره الطيبة منذ القصائد الاولى التى نشرتها له صوت الحجاز فقلت انه الاستاذ احمد قنديل وهو مدرس بمدرسة الفلاح واعرفه منذ ان كنت تلميذا بها وكان هو فى الفصول الاخيرة ثم استاذا بالمدرسة المذكورة ، وطلب منى الاستاذ حمزة ان اجمعه بالقنديل بل واعرفه عليه وكان شحاتة يومها اديبا جهيرا وشخصية مرموقه فاتصلت بالقنديل رحمه الله واعربت له عن اعجاب الاستاذ حمزة بما ينشره من شعر وضربت له موعدا للاجتماع بالاستاذ حمزة فى ـ مربعة الجمجوم ـ وهو مبنى كان يومها خارج مدينة جدة بالعمارية قريبا من مقبرة حواء ، كان قد بناه المرحوم الشيخ محمد انيس جمجوم ، وكان هذا المبنى الخلوى الذى يسمى مربعة اشبه ما يكون بنادٍ يجتمع فيه آل جمجوم واصدقاؤهم عصر كل يوم وصدرا من الليل ، وكنت والاستاذ حمزة شحاتة من رواد هذا المجتمع الجمجومى كل اصيل ونحن جميعا فى مطلع الشباب فى اوائل الخمسينات من هذا القرن وقد استمرت صلة القنديل بالاستاذ شحاته منذ ذلك الوقت والى ان توفى الاستاذ حمزة شحاتة باستثناء فترة ليست بالطويلة حدث بينهما من الجفوة ما اوقف هذه الصلة ولكن هذا التوقف لم يستمر فعادت صلتهما الى ما كانت عليه من قبل يرحمهما الله .

البواكير الأولى

لقد ذكرت ان بواكير شعر القنديل الاولى فى الخمسينات كانت تبشر بميلاد شاعر كبير وأود ان اذكر ان اغلب من عرفت من الشعراء والكتاب الموهوبين كانت بواكيرهم الاولى تنبىء عن نهاياتهم العظيمة ، ولعل الشاعر أو الكاتب الاصيل تولد معه الموهبة فاذا استطاع التعبير ظهرت بذور هذه الموهبة فى بواكيره الاولى وما تلبث هذه الموهبة ان تتمكن وتتجلى بالدراسة والتجاريب .

عود على بدء

نعود بعد هذا الاستطراد الى ترجمة حياة الاستاذ قنديل فنقول انه عمل رئيسا لتحرير صوت الحجاز وانتقل بعمله هذا الى مكة المكرمة وكانت فترة رئاسة تحرير القنديل لصوت الحجاز من الفترات الخصيبة فى تاريخها فقد افسح صدر الجريدة لمقالات الكتاب وقصائد الشعراء كما انه عين المرحوم الاستاذ عبدالله المزروع ـ والد الدكتور المزروع ـ مخبرا صحفيا يوافيه بالأخبار الداخلية وخاصة الاخبار الحكومية وخلال رئاسته لصوت الحجاز نظم قصائده الأولى من الشعر (الحلمنتيشى)وهو الشعر الذى تختلط فيه العربية بالعامية وكانت صحيفة صوت الحجاز مجال النشر لقصائده الاولى من هذا الشعر وقد استمر القنديل رئيسا لتحرير صوت الحجاز من ٤ شعبان سنة ١٣٥٥ هـ إلى ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦ هـ وقد أقصى عن صوت الحجاز بعد أن نشر قصيدة أسيىء تفسيرها بتوقيع رمزى وحملها المرحوم الدكتور محمد على الشواف الى صاحب السمو الملكى الامير فيصل النائب العام لجلالة الملك ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وقد اصدر سموه امره بإيقاف الشاعر واقصائه عن الجريدة ثم تبين ان الشاعر هو رئيس

التحرير نفسه ولم تمض ايام طويلة حتى فاء سموه الى الرضا وأفرج عنه فعاد الى مدينة جدة مسقط رأسه مرة اخرى وعمل فترة فى مكتب رئيس وكلاء مطوفى الجاوه ـ الأندنوسيين ـ الشيخ محمد نور جوخدار رحمه الله ثم انتقل مرة اخرى للعمل فى مكة المكرمة فى ديوان التحرير بوزارة المالية زميلا للاساتذة عبدالوهاب آشى ومحمد حسن فقى ومحمد حسن كتبى ثم عين رئيسا لمصلحة املاك الدولة بوزارة بالمالية وكانت تتخلل مابين هذه الوظائف فترات تعطل ثم عين اخيرا مديرا لادارة الحج بجدة فى اول تأسيسها وكان اول مدير عام للحج هو الشيخ محمد صالح قزاز مد الله فى عمره وكان مركزه فى مكة المكرمة وبعد انتداب الشيخ محمد صالح قزاز للعمل فى توسعة الحرم المدنى لانتقاله الى المدينة المنورة .. اصبح الاستاذ احمد قنديل مديرا عاما لادارة الحج بجدة ثم احيل الى التقاعد وهاجر الى مصر لبضع سنوات افتتح خلالها مكتبا تجاريا له بالاشتراك مع الاستاذ رشاد برنجى واحد اصدقائهما من المصريين ثم عاد مرة اخرى الى الحجاز وما لبث ان هاجر مرة اخرى الى بيروت ، وفى بيروت تفرغ للانتاج الفنى للاذاعة والتليفزيون وعكف على طبع مؤلفاته عن جدة ودواوينه الشعرية الكثيرة وبعد ان اندلعت الحرب الاهلية فى بيروت عاد مرة اخرى الى جده وكان يسافر بين الفينة والاخرى الى القاهرة لموالاة اعماله الفنية سواء فى طبع مؤلفاته او لعرض اعماله الفنية فى الاذاعة والتليفزيون الى ان توفاه الله تعالى وهو يكتب الحلقة الاخيرة من قناديل رمضان لعام ١٣٩٩ هـ فى صباح الجمعة ١٢ شعبان ١٣٩٩ هـ

الشِّعرُ الضَاحِك

تميز الاستاذ احمد قنديل رحمه الله الى جانب ابداعه الشعرى ومكانته فى الكتابة والادب بشعره الضاحك الذى كان ينشر مقطوعة منه كل صباح فى

جريدة البلاد اولا ثم فى جريدة عكاظ تحت عنوان(قناديل)، ثم اصبح يستعمل هذا النوع الضاحك ولكن فى اسلوب نثرى وكان ينشر فى الاعوام الأخيرة فى جريدة البلاد بعنوان قناديل ملونة وهذه القناديل الشعرية خاصة كانت سبب شهرته على المستوى الشعبى وقد خلقت منه شاعرا شعبيا محبوبا يتحدث عنه الناس فى طول البلاد وعرضها كما خلقت له قراء كثيرين يتابعون ما ينشر له فى كل يوم ويتفكهون به ويتحدثون عنه فى مجالسهم ومنتدياتهم وللتاريخ فانى سأورد هنا بداية القنديل فى هذا الشعر الضاحك فأقول ٠

الأُستاذ حُسين شفيق المصري ومجلّة الفكاهة

كانت دار الهلال فى القاهرة تصدر مجلة اسبوعية اسمها(الفكاهة)وهى مجلة فكاهية كما يدل عليه اسمها وكان يتولى رئاسة تحريرها الاستاذ حسين شفيق المصرى وهو شاعر مجيد وزجال مصرى معروف ، وكان الاستاذ حسين شفيق فيما اعرف هو اول من نشر الشعر الضاحك فى اسلوب عامى ولكن هذا الشعر العامى كان يحتفظ بالوزن والقافيه ، وكانت الطريقة انه يفتتح القصيدة بمطلع قصيدة من عيون الشعر العربى القديم ثم ينسج على منوالها كلاما موزونا مقفىً تختلط فيه العامية بالعربية الفصحى وكانت مواضيع هذا الشعر دائما انتقادية ولكنها فى اسلوب فكاهى مقبول ، وكنا نجتمع فى مكة المكرمة الاستاذ حمزة شحاته وأحمد قنديل رحمهما الله وانا وكان الوقت صيفا وكنا نهرب من حر مكة اللاهب الى اطراف الشهداء وكان فى موضع مكاتب وقراج الشركة العربية للسيارات بالزاهر مقهى لرجل اسمه العم حمزة وكان العمران فى مكة ينتهى عند قشلة جرول وكانت الارض بعدها خلاء وكنا نجىء الى هذا المقهى مع الغروب ونتسامر صدرا من الليل ونتناول عشاء خفيفا ثم يأوى كل منا الى فراشه الذى كان يحفظ فى

داخل المقهى والذى يحضره لنا العم حمزة مع ابتداء الظلمة وكنا نتخذ من كراسى المقهى العادية الطويلة سررا ننام عليها تحت السماء ، وذات ليلة جاء ذكر هذا الشعر الفكاهى ، وكان حسين شفيق المصرى يطلق عليه اسم الشعر (الحلمنتيشى) نقول جاء ذكر هذا الشعر (الحلمنتيشى) فسأل الاستاذ شحاته الأستاذ قنديل ان كان يستطيع النظم على هذا النسق فاجابه بالايجاب وفى اليوم التالى بدأت المحاولات الأولى للقنديل فى هذا الشعر وكانت موفقة جدا وما هى الا فترة بسيطة حتى بدأ القنديل فى نشرها فى صوت الحجاز فترة بعد اخرى ووجدت صدى شعبيا واسعا واستقبالا حسنا من جميع القراء خاصة وان (قنديل) رحمه الله تحاشى العامية المصرية التى كان يستعملها حسين شفيق المصرى ولجأ الى العامية الحجازية ثم توسع فيها وخلطها بالعامية النجدية فيما بعد ومن هذه القصائد التى لاتزال عالقة بالذاكرة مانشره القنديل فى صوت الحجاز والمطلع لقصيدة مشهورة لابن الفارض :

غيرى على السلوان قادر   وسواى فى العشاق غادر

لى فى الصباح فطيرة   والبيض أليق بالفطائر

وهناك قصيدة اخرى والمطلع كذلك لشاعر قديم :

صاح فى العاشقين يالكنانه   رِشَأٌ فى الفؤاد منه كنانه

شِمْرِقِىٌّ مكحل ومُحَنّى   حامل فى يمينه خيزرانه

هذه هى البدايات الاولى لهذا الشعر الضاحك وكانت القصيدة تنشر طويلة وليست مقطوعة صغيرة كما صارت اليه القناديل اخيرا ولكن النشر لم يكن يوميا كما هو الحال مع القناديل اليومية وانما كان اسبوعيا او اكثر من اسبوعى وآخر ما

نظمه قنديل فى هذا المجال الغزاوية الأخيرة وهى قصيدة القاهـا فى الجلسة الختامية للمؤتمر الأول للأدباء السعوديين وصف فيها الادباء القدامى والمحدثين ودعا فيها الى تكريم شيخ شعراء مكة الاستاذ احمد ابراهيم الغزاوى مدّ الله فى حياته وقد قوبلت بالاستحسان وقوطعت بالتصفيق وهـى تمثـل شعـر قنـديل الضاحك وقد نشرت بالمجلد الاول عن بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين كاملة فليرجع اليها من رغب الاطلاع عليها .

حمزة شحاته والشعر الضاحك

ولعل معظم القراء بل والأدباء لايعرفون ان المرحوم الاستاذ حمزة شحاتة كان ينظم هذا الشعر ولكنه لم يستمر عليه وإنما نظمه مرة واحدة او مرتين وله قصيدة جميلة اذكر بعض ابياتها فيما بعد وهذه القصيدة لها قصة لابأس من ايرادها فقد عُلم ان العراق سيرسل بعثة كشّافة الى المدينة المنورة ومكة المكرمة ولعل ذلك فى زمن الحج وارادت الحكومة ان تكرم كشافة العراق فاعدت لهم برنامجا حافلا كان من ضمنه إقامة حفل تكريم لهم فى جدة وتولى الاخ الشيخ محمد عبدالله رضا يومها امر ترتيب هذا الحفل الشعبى فارسل دعوة إلى شباب مدينة جدة للحضور إلى منزله ودعاهم للتبرع لإقامة هذا الحفل ولكن المرحوم حمزة شحاته لم يدع الى هذا الاجتماع مع اننا كنا جميعا على علم بالحفل الذى كان سيقام فى بيت نصيف وكان صديقنا المرحوم الاستاذ حسين محمد نصيف ـ مؤلف كتاب ماضى الحجاز وحاضره ـ يخبرنا يوميا عن هذا الحفل ويحثنا على الحضور فيه وغضب حمزة لعدم دعوته من قبل الشيخ محمد عبدالله رضا فانشأ قصيدة ضاحكة صور فيها ما وقع من المجتمعين للتبرع فى اسلوب ضاحك جميل والقصيدة اخذ مطلعها من قصيدة ابى تمام الشهيرة :

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب ويضرب سيف اللـه أيأن تضرب
وبالامس قد ارسلت حِتّة دعوة الى فتية بالصالحات تحزبوا
فلم تك الا ساعةً او دقيقةً تجازوْا سراعاً بعدها وتكركبوا

ومنها يصف ملابسات التبرعات :

فجاء فتى منهم جرىء حَجَنْجَلُ فجاد بربع ريال فانبروا وتعجبوا
وقال استحي ياسى فلانٍ فانه قليلٌ ومن يكتب قليلا يُؤَنبَّ
فقال لهم ليش نسبتى تقتضى كدا ؟ فان راقكم قولى والاَّ فأحْسِبُوا
فبان حماسٌ فوقَ وَجْهِ زعيمهم فسجَّل عشريناً وقد كاد يغضب

والقصة ان المرحوم الاستاذ محمد لارى ـ والد الاستاذ رضا محمد لارى ـ كان من ضمن من حضروا الاجتماع فجاد بربع ريال فقال المجتمعون انه قليل فقال لهم انه ليس قليلا بالنسبة لما تبرع به الشيخ محمد رضا فتحمسً الداعى وسجل عشرين ريالا اخرى وسواء اكانت القصة حقيقيةً ام من خيال الاستاذ حمزة شحاتة رحمه الله ، واغلب الظن انها حقيقة فان محمد لارى كان معروفا بالجرأة ، فان ايرادها على هذا النحو فى هذا الشعر الضاحك كان مناسبة يتفكه بها مجتمع الشباب بل مجتمع جدة كلها فكاهة تخلو من الحرج والبذاء .

عَودَةُ القَناديل

نعود بعد هذا الاستطراد الى القناديل التى توسع فيها الاستاذ احمد قنديل وطورها الى ان صارت الى ما يعرفه جميع القراء فنقول ان الاسلوب الذى بدأ به قنديل هذا الشعر الضاحك ربما كان احبَّ الى الادباء من القراء لانه لم يسرف فى استعمال اللفظ العامى كما هو الحال بالنسبة للقناديل ولكن جوهر الفكرة واحد وهو النقد الاجتماعى واذكر ان قنديلا رحمه الله اراد ان يصدر المجموعة الاولى من

شعره الاصيل فعهد الى الاستاذ حمزة شحاتة رحمه الله ان يكتب مقدمة لهذه المجموعة ، كما انه حينما اراد اصدار المجموعة الاولى من شعره الفكاهى طلب منى كتابة مقدمة لها واذكر انى كتبت فى تقديم هذه المجموعة ولعل اسمها المركاز مامعناه :-

« اذا كان هذا الشعر الفكاهى لايدخل التاريخ من باب الأدب والشعر فانه يدخل التاريخ من اوسع ابوابه كفنٍ يصور الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد فى اسلوب ساخر ضاحك فهو يتحدث عن امور يعانى منها كل فرد ـ ولا تخلو حياة أى مجتمع من المعاناة ـ مما يتصل بحياته اليومية فى مختلف وجوه هذه الحياة فى داخل المنزل ، او فى خارجه فى السوق ، فى المدرسة ، وفى الدائرة الحكومية ، فى البيع والشراء ، فى السفر والاقامة ، فى متطلبات الحياة اليومية ومشاكلها ، وسيعود المؤرخون الى هذا الشعر الساخر ليجدوا فيه مادة تصف الحياة بل تصف كثيرا من دقائقها وادوائها مما ينطوى مع الزمن ويتغير مع الايام » انتهى معنى ما كتبته لهذه المقدمة التى لم يكتب لها النشر فقد عدل قنديل رحمه الله عن نشر الكتابين بالمقدمات التى طلب من اصدقائه كتابتها وعلمت انه فضّل ان يقابل القراءُ مؤلفاته دون تقديم وهو رأى له وجاهته على اى حال .

اقول ان هذا الذى كتبته عن هذا الشعر قبل اربعين عاما لايزال يمثل رأيى فى هذا الشعر او هذا الفن على الاصح فان هذا الشعر العامى لايمكن ان يدخل التاريخ كشعر رفيع ولكنه يدخل من اوسع ابواب التاريخ كفن يمثل الحياة الاجتماعية ومشاكلها وكفن يمثل النقد الفنى للحياة اذا جاز هذا الوصف وما تحفل به من مفارقات ومشكلات ، وقنديل غنيٌ بشعره المبدع الاصيل وبفنه الرائع الذى يتجلى فى مؤلفاته الشعرية الكثيرة عن اضافة هذه القناديل الى شعره

الاصيل ، انها فن مستقل يمثل الناحية الشعبية فى قنديل والتى سنتحدث عنها فيما يلى .

شعبيّة أحمد قنديل

الاستاذ احمد قنديل رحمه الله كان شعبيا بالمعنى الدقيق للكلمة او ابن بلد كما يقول العامة من الناس ولا غرو فى ذلك فقد ولد فى بيئة شعبية وبيت قنديل الذى ولد ونشأ فيه فى العلوى من محلة اليمن ـ كان من منازل جدة القديمة وكان آل قنديل جميعا يسكنون فيه وكان قنديل رحمه الله يسميه القرية لكثرة من يسكنه من آل قنديل والبيت يقع فى قلب حى شعبى مشهور يحيط به سوق العلوى المشهور والمؤدى الى باب مكة وتحف به بيوت شعبية للطبقة الوسطى من المجتمع التى عاش قنديل بينها والتى عبر عنها فى شعره الفكاهى أصدق وأجمل تعبير ـ ولقد كان ابوه الشيخ صالح قنديل رحمه الله مدرسا للقرآن فى الصفوف الاولى من مدرسة الفلاح كما كان من اشهر المقرئين والمأذونين وكان رجلا ظريفا سريع النكتة حاضر البديهة أنيس المجلس وقد اخذ عنه ابنه قنديل هذا الظرف ، كما ان شقيقه الاكبر يوسف قنديل كان ظريفا عفويا فى كلامه وتصرفاته وكان محبوبا من اصدقائه الكثيرين وقد نشأ قنديل فى هذه البيئة الضاحكة وكان اتصاله بالصحف والكتابة فيها وانتقاله الى مكة احدث له شهرة فى هذه البيئة الشعبية فكان الجميع يطلقون عليه لقب الاستاذ ، فاذا قيل الاستاذ فهو احمد قنديل وهو عند اصدقائه الخُلَّص ـ قنديل وكفى ـ وقد احتفظ قنديل بشعبيته هذه طيلة حياته واتخذ منها مادة لفنه الشعرى الضاحك وهذه الشعبية تتجلى فى كل شىء فى وصف المكان والزمان واللهجة الخاصة الشعبية واصطلاحاتها والمقارنة بينها وبين الحاضر ، وبين يدى الآن قصيدته الغزاوية

التى اسلفت الحديث عنها انقل منها بعض الابيات فهى ابلغ فى وصف هذه المادة الشعبية من كل تعبير :

وقـد تعجـب من حالى بلا سبب — البـاب والعقـب والروشـان والقفف
كما تطلّـع نحـوى زاغـرا ابدا — فى سقفه القندل المرصوص والحَصفْ

ومنها :

وكل تمشيتـى ـ بولطـا ـ أقـوم بها — فوق السطوح يوازينـى بهـا الطنف

ومنها :

بردان ففضفت من ظهرى وفى ركبى — شىء اذا غزهـا من جلستـى اقف

وليس هذا مجال الاطالة فى الاقتباس فان كل ابيات هذا الشعر الضاحك تمثل الشعبية الصميمة التى تتجلى فى كل كلماته ومقاطعه ٠

شعر الأفراح

ولعل القراء لايعرفون ان « قنديلا » كان ينظم الشعر للمنشدين الذين جرت العاده بحضورهم احتفالات العرس ،فكانوا جميعا يلجأون اليه لينظم لهم الشعر الذى يلقونه فى هذه الحفلات والذى يجب ان يتضمن اسم العريس واسم آل العروسين والذى يلقى حين خروج العريس من داره بصحبة المأذون والرجال الذين يصاحبونه فيقف المنشد ويحييه ويهنئه بما هو مقدم عليه ، فإذا وصل الموكب الى دار العروس وقف الجميع فى فناء الدار وألقى المنشد مقطوعة اخرى يحيى فيها العريس ولابد من تحية اهل العروس كذلك بذكر اسم اسرتهم واسم اسرة العريس ، وبعد انتهاء حفل العقد يلقى المنشد تحيته الاخيرة للعروسين وآلهما وكان المنشدون فى جدة يلجأون وخاصة فى حفلات العرس الكبيرة الى قنديل

رحمه الله فينظم لهم المقطوعات المطلوبة من الشعر الفصيح متضمنة اسم العريس واسماء آل العروسين ولم يكن يتقاضى منهم مقابل ذلك شيئا وانما يفعله بدافع من صداقته لهم وهذه العادة لاتزال باقية الى اليوم ولكنها فى نطاق ضيق جدا وفى بعض الأعراس الكبيرة التى يحرص اصحابها على احياء هذه العادات القديمة ٠

القناديل والنقد

يتميز شعر القناديل بالنقد الساخر وهو النقد لأوجه الحياة اليومية التى يعانى منها الناس ولايملكون شيئا لتغييرها أو إصلاحها والقارىء اليومى للقناديل كان يرى فيها تعبيرا عما يشعر به او يشكو منه ولكن فى اسلوب ضاحك ساخر ولهذالقيت نجاحا على المستوى الشعبى لأنها كانت تعبيرا واقعيا عن الحياة اليومية فى اسلوب ساخر ينفس به الناس عن شعورهم ازاء مايحسون به من ضيق وقد شمل هذا التعبير كل اوجه الحياة ـ تعطيل المعاملات ، زحمة المرور ، تعطيل الكهرباء ، انقطاع الماء ، غلاء الاسعار ، تخريب الشوارع ، كثرة الاجانب ـ وقل ما شئت من مظاهر الحياة اليومية فستجدها واردة فى القناديل ولهذا احبها الناس وقرأوها وتحدثوا عنها فى كل يوم وهذه القناديل او هذا الفن الضاحك هو ما امتاز به قنديل من بين أدباء جيله فكان له هذا الصدى الشعبى الواسع الذى جعله بحق اديباً شعبيا راسخ القدم ، ثابت البنيان وكان اذا القى قصيدة من شعره الضاحك قوبلت بالاستعادة والاستحسان والتصفيق وعلى ذكر الالقاء اذكر هنا ان « قنديلا » رحمه الله فى بدء حياته الادبيه لم يكن يرغب فى القاء شعره ويفضل ان يلقيه غيره ممن يحسنون الالقاء او ممن اشتهروا بذلك ولكنه ما لبث ان اكتشف فى نفسه موهبة الالقاء ولذلك قصة نذكرها للتاريخ ٠

قنديل وإلقاء الشعر

أقامت السفارة اللبنانية فى جدة حفل تكريم لمعالى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان قدم له فيها القائم بأعمال السفارة اللبنانية السيد أسعد الأسعد فى ذلك الوقت ، الأمين المساعد للجامعة العربية حاليا ـ قدم له فيها وسام الأرز من درجة فارس على ما أذكر وطلب منى المرحوم الشيخ محمد سرور إلقاء كلمة الشكر نيابة عنه ، وحضر قنديل رحمه الله وقد اكتمل المدعوون وبدأت فقرات الحفل بخطاب السيد أسعد الأسعد فوقف إلى جانبى وقال لقد أعددت قصيدة لهذه المناسبة وأريدك أن تلقيها نيابة عنى قلت أنى سألقى كلمة الشكر نيابة عن الشيخ محمد سرور وقال وما العمل قلت قصيدتك أنت ولا يلقيها غيرك ·

وهكذا كان وقد قوبلت القصيدة يومها أحسن استقبال وانطلق بعدها قنديل يلقى شعره بنفسه وهو خير من يلقيه بلا مراء ·

قنديل الشاعر

لقد أطلنا الحديث عن فن قنديل الضاحك الذى تختلط فيه العامية بالفصحى والذى تحول إلى القناديل اليومية وآن لنا أن نتحدث قليلا عن أحمد قنديل الشاعر العربى الأصيل ·

أحمد قنديل شاعر مبدع ظهر إبداعه من القصائد الأولى والتى نشرت له فى صوت الحجاز فى الخمسينات وقد نظم فى جميع فنون الشعر شعرا جيدا موزونا وتميز عن كثير من أدباء جيله بأنه كان يوالى النظم والكتابة كما يوالى النشر إما فى الصحف أو فى دواوين خاصة بكل مجموعة شعرية وأمامى الآن خمس من

مجموعات هذا الشعر هى : اللوحات ، أوراقى الصفراء ، شمعتى تكفى ، قاطع الطريق ، الراعى والمطر ، ولاشك أن له مجموعات أخرى لم أذكرها وليست هذه الترجمة دراسة لشعر أحمد قنديل وإنما هى تصوير لحياته التى تميزت بالشعر فليس الاستقصاء من متطلبات هذه الترجمة وإنما هو مطلب الدراسة الكاملة لشعر أحمد قنديل وعطائه وسأورد بعض أبيات من هذه المجموعات دون اختيار للتعبير عن مكانته فى الشعر الأصيل ..

« أيها العاشق لاقى ما لقينا واصطبر
نحن كنا آية فى الحب تتلى فى حذر
يوم عشنا خفقة فى القلب رنَّتْ كوتر
إنما اليوم غدونا مثلما شاء القدر »

ويقول فى قصيدة أخرى : -

ودعت أيام الشباب تفيأت ... زهراتها ظل الشباب الأملد
رفرافة الأوراق حيتها الصّبا ... باللمس بين تَوُجّدٍ وتَوَدّدِ
ممتدة الأعراض طاب غراسها ... فى السفح فى الأغوار لم تتأبد
رفَّتْ على الأغصان نافحة الشذى ... سفرا تنهد بغية المتنهد

والقارىء لمجموعات القنديل الشعرية يجدها حافلة بالصور فياضة بوهج العاطفة التى هى جوهر الشعر كله وبعض مجموعات القنديل تمثل موضوعات معينة مثل الراعى والمطر وقاطع الطريق ولا شك أن هذا العطاء الكثير ليستحق دراسة جادة شاملة متأنية تضع القنديل فى مكانه الصحيح لا بين شعراء المملكة فحسب وإنما بين شعراء العرب جميعا فى هذا العصر .

مكة المكرمة في الشعر

لقنديل قصائد شعرية فى مدينة جدة ومكة والمدينة بل وحتى فى سويسرا حينما زارها لأول مرة وقد كان يعمل قبل وفاته يرحمه الله على إصدار كتاب عن كل ما قال شعراء المملكة فى مكة المكرمة وقد زارنى وطلب منى موافاته بما لدى فى هذا المجال فبعثت إليه بعض ماعندى ولست أعرف أنِ هذا الكتاب قد طبع وربما كان تحت الطبع أو مازال مخطوطا بين أوراقه فقد علمت منه أن الكتاب قد اكتمل فحبذا لو عمل أبناؤه الأساتذة أمل وسمير على استخراج مخطوط كتـاب مكة ونشره أو الأتفاق مع أحد النوادى الأدبية على إصداره وأنا على ثقة من أن جميع النوادى الأدبية ترحب بالمساهمة فى مثل هذا الأمر ٠

كتاب قنديل عن جدة

وللقنديل كتابان عن جدة مزينان بالصور وهو من الشعر الضاحكك الذى تختلط فيه العامية بالفصحى وهو يصف جدة الجديدة ويقارن بينها وبين جدة القديمة كما أن له كتابا آخر عن ذكريات طفولته وشبابه وهو يجمع بين هذا الشعر الضاحك والنثر يصور فيه بعض الشخصيات الشعبية التى صاحبت طفولتـه وشبابه كما يصور بعض الحكايات الشعبية فى أسلوب يجمع بين العامية والفصحى وهذه الكتب جميعها تصور شعبية القنديل التى تحدثنا عنها فى صدر هذه الترجمة بإسهاب ٠

(١) وللقنديل كتاب آخر ظهر بعد وفاته اسمه (الجبل الذى صار سهلا) وقد قامت بنشره ادارة النشر بمؤسسة تهامة وهو يمثل (قنديل)متحدثا اكثر مما يمثله كاتبا ولكن الكتاب فى حد ذاته تسجيل فريد لذكريات القنديل فى شبابه وهو مما يدخل فى باب التراث ٠

شعر الملاحم

ولقنديل إلى جانب هذا الشعر الضاحك والمجموعات الشعرية الأصيلة التى تحدثنا عنها ملحمة شعرية عظيمة نشرت كاملة فى المجلد الأول من بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين تصل إلى ما يقارب الألف بيت من الشعر استعرض فيها سيرة النبى الكريم صلى الله عليه وسلم وتاريخ الجزيرة العربية وهى من أطول ما أنتج القنديل من الشعر وهى تدل على اطلاع واسع وتمكن فى النظم والتصوير .

إنتاجه للإذاعة والتلفزيون

كما أن للقنديل إنتاجا وافرا كان يبثه التليفزيون السعودى وخاصة فى شهر رمضان من كل عام تحت عنوان « قناديل رمضان » وكان هذا الانتاج فى معظمه يلقى ترحيبا شعبيا واسعا لأنه تصوير لعادات الشعب وحياته .

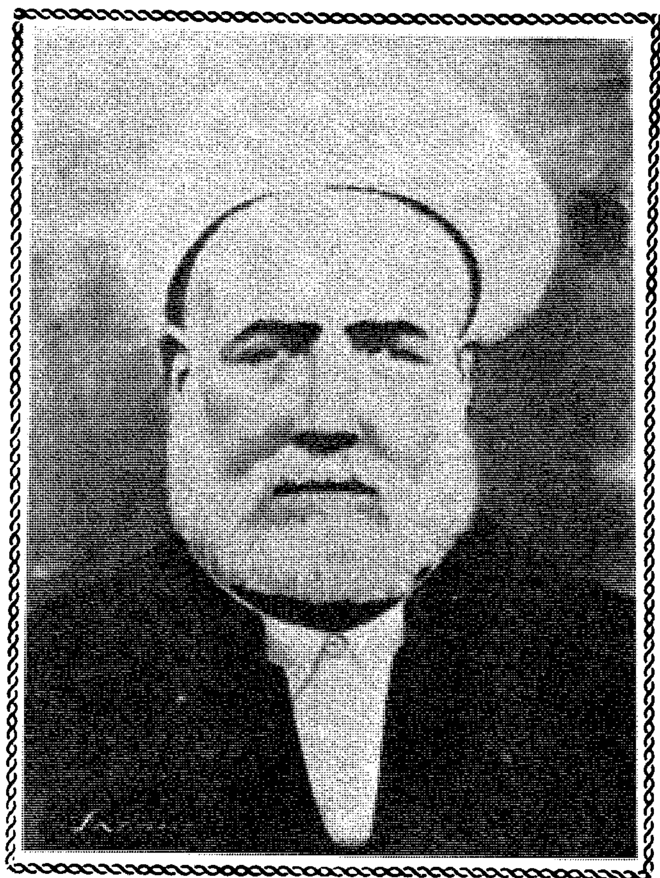
لقد كان قنديل وفيا للقلم ، حفيا بالفن ، معطاء لا تفتر حماسته للكتابة والشعر وقد صور نفسه أصدق تصوير حين قال من قصيدة قديمة :

صناعتى فى الورى الكلامُ ☆ به أحيا وحرفتى الأدب

وقد استمر فى تقديم انتاجه للصحف ولوسائل الاعلام وللطباعة خمسين عاما دون توقف وحين أدركته الوفاة كان يكتب الحلقة الأخيرة من « قناديل رمضان » كما ذكرت فى صدر هذه الترجمة فقضى والقلم فى يده وكانت وفاته صباح يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شعبان ١٣٩٩ هـ وقد تركت وفاته رنة حزن عميق وشارك الناس جميعا فى عزاء أبنائه وأفراد أسرته وقامت بلدية جدة مشكورة

باطلاق اسمه على الشارع المؤدى الى منزله بجدة وهو تكريم يستحقه بلا مراء وشارك الأدباء والشعراء فى رثائه ، رحمه الله رحمة واسعة فقد كان من الشعب وإلى الشعب لسانا معبرا ناطقا وشعرا مصورا سائرا يصور حياة الناس اليومية ويعبر عن آمالهم وأحلامهم • غفر الله له وأحسن جزاءه فى دار الخلود ••





الحاج زينل على رضا

الحاج زينل علي رضا

قصير القامة أبيض اللون تشوب بياضه حمرة ، تزين وجهه لحية بيضاء متكاملة ونظرة رقيقة حانية وكان دائما يرتدى البياض فتراه فى لباسه الأبيض من الكتان وقد وضع العمامة الحجازية على رأسه فتطالعك صورة رجل وقور الا أنك تشعر أن هذه الصورة تفيض حنوا وحبا ، وقد أدركته فى الأربعينات قبل دخول السيارات إلى البلاد وهو يمتطى صهوة حصان أحمر اللون ـ ولقد كان كبراء جدة جميعا يستعملون الخيل فى تنقلاتهم فى العهد العثمانى والعهد الهاشمى ـ حيث لم تكن السيارات قد وصلت إلى البلاد أو على الأصح لم يكن يسمح بدخولها الشريف الملك الحسين بن على كما أسلفنا فى حلقات سابقة من هذه التراجم وكان لهؤلاء الكبراء اسطبلات للخيل وسواس يرعونها ولقد أدركت هذا العهد الذى ظل سائدا فى مدينة جدة إلى أن بدأ العهد السعودى فسمح بدخول السيارات وتألفت شركات خاصة وعامة لها بعد ذلك ٠

نعود بعد هذا إلى الحاج زينل على رضا فنقول إنه كان من أكبر تجار جدة وقد أسس مع شقيقه الأصغر الحاج عبدالله على رضا قائممقام جدة الأسبق بيتهم التجارى فى مدينة جدة ثم فى بومباى ، وكان الحاج عبدالله هو المدير الفعلى لهذا البيت التجارى فى الوقت الذى كان فيه الحاج زينل يكبره فى السن ٠

إن ما يلفت النظر فى سيرة الحاج زينل ليس ثراؤه وتجارته فما أكثر التجار وأصحاب الثراء ولكن ما عرف عنه من البذل الكثير وخاصة للفقراء والمساكين ، لقد رأيت الحاج زينل والمساكين يحيطون به فى مسجد المعمار كلما ذهب لأداء الصلاة ويلتفون حوله وهو خارج من داره سواء للمسجد أو لزيارة بعض أصدقائه ، فيقف لهم باسما ويمنحهم الأعطيات ، ولم يكن يظهر عليه التأفف أو الضيق وهم يعانقونه ويتوددون إليه ، بل كثيرا ما رأيتهم يوقفونه فى الطريق ويدلون إليه بحاجاتهم فلا يجدون إلا يداً سخية ووجهاً باشا وكلاما حسنا ، وهذه الصفات لا تدل على الكرم المطبوع فحسب وإنما تدل على أن نفس الرجل قد اشربت حب الخير والعطف على المحتاجين فبذل لهم من نفسه كما بذل لهم من ماله ورفده .

وخلال الحرب السعودية الهاشمية كانت مدينة جدة محاطة بالأسلاك الشائكة وكان السلطان عبدالعزيز يعسكر بجيشه فى الرغامة وكانت المدينة تعانى من الحصار ، كما أن واردات جدة من البضائع قد تأثرت بسبب حالة الحرب أقول فى تلك الأيام كان الحاج زينل على رضا يتولى ذبح الذبائح وطبخ الطعام من الأرز ليطعم هؤلاء الفقراء والمساكين وكنت أراه وهو يقف بنفسه أمام القدور العظيمة التى يطهى فيها الطعام وينظر إلى الطاعمين فى بشاشة ولطف وإيناس ، كما رأيته وهو يأمر باخراج بالات السليطى ـ قماش من القطن نباتى اللون تستعمله البادية فى الثياب ـ فتوزع على هولاء الفقراء ثيابا تكسو أجسادهم وتدخل السعادة إلى قلوبهم ولقد اشتهر الحاج زينل رحمه الله بحبه للفقراء وحدبه عليهم حتى لقب بأبى المساكين .

وَالِـد مُؤَسِّس الفَلاح

ولعل من المهم هنا أن نذكر أن الحاج محمد على زينل مؤسس مدارس الفلاح الشهيرة والعظيمة هو الابن الأكبر للحاج زينل رحمهما الله فكأنَّ حب الخَير الذى تأصل فى نفس الحاج زينل قد انتقل إلى ابنه البكر الحاج محمد على فقام بعمله العظيم الخالد فى إنشاء مدارس الفلاح والإنفاق عليها طيلة ما يقرب من أربعين عاما فكانت حسنة عظيمة وصدقة جارية فكان هذا الشبل من ذاك الأسد . ولقد كان الحاج زينل يرغب أن يرى ابنه محمد على وهو يعمل فى بيته التجارى ليكون امتدادا لاسمه وعمله ولكن فكرة نشر العلم التى استأثرت بجهود محمد على صرفته عن العمل فى ظل أبيه فانفرد بعمله الخاص فى تجارة اللؤلؤ ، وقرت عين الحاج زينل بابنه محمد على وهو من أعظم الرجال ثراء وإن كان يستعمل هذا الثراء فى تعليم أبناء الأمة وإعدادهم رجالا للبلاد ، ولا شك أن الله تعالى اختار لكليهما ما هو خير فليس أسعد من أن يرى الانسان ابنه وقد شق طريقه فى الحياة وأثمر سعيه وتهيأت له أسباب النجاح فظهر اسمه ولمع نجمه .

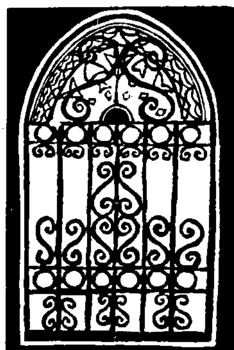
ولقد رأى الحاج زينل ذلك فى ابنه محمد على كأحسن ما يمكن أن يرى أب فى أبنائه وهذا هو صنع الله العلى القدير لمن شاء من عباده وحكمته البالغة فى التدبير والتقدير .

وَفَـاة الحَـاج زيـنل

هذا ولقد توفى الحاج زينل على رضا عام ١٣٤٨ هـ بمدينة جدة عن عمر يناهز الرابعة والثمانين من العمر إذ كانت ولادته عام ١٢٦٥ هـ واشترك أهل

جدة كلهم فى تشييعه والصلاة على جثمانه ، وكان أبرز ما رؤى فى هذه الجنازة بكاء الفقراء وعويلهم على الفقيد الراحل ومزاحمتهم الأعيان والأثرياء فى حمل جثمانه والصلاة عليه ، تغمده الله برحمته الواسعة فلقد كان مثلا فى البر بالفقراء والمساكين .





أعلام الحجاز
في القرن الرابع عشر للهجرة



الشيخ ضياء الدين حمزة رجب

الشيخ ضياء الدين حمزة رجب

مستدير الوجه واسع العينين عظيم الأنف ، حنطى اللون معتدل القامة أقرب إلى الامتلاء خفيف اللحية حليق الشارب والعارضين ، يتخذ زيّ العلماء السلفيين فيرتدى العباءة والغترة ولا يضع على رأسه عقالا وقد تمسك بهذا الزي طيلة حياته رحمه الله ، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٥ هـ وتلقى العلم على أيدى علماء المسجد النبوى الشريف ومن أبرز أساتذته الشيخ الطيب الأنصارى العالم السلفى المشهور والشيخ أبوبكر التمبكتى والشيخ عبدالكريم كردى والشيخ العايش وهو من علماء الأزهر المجاورين بالمدينة المنورة ، كما أنه تأثر بخاله الشيخ عبدالحفيظ كردى شاعر المدينة المنورة ومن قضاتها المشهورين فى العهد الهاشمى ، وبعد إتمام دراسته اشتغل بالتدريس فى مدارس المدينة المنورة كما عمل فى تحرير جريدة المدينة المنورة أول ظهورها ، ولم تطل إقامته بالمدينة المنورة فعين ١٣٥٧ هـ قاضيا بمدينة العلا شمال المدينة المنورة وانتقل اليها لبضع سنين وما لبث أن عاد الى المدينة المنورة بعد أن ترك العلا ليعمل فى المحاماة وضاقت المدينة بنشاطه فى المحاماة فانتقل إلى مكة المكرمة فى أواخر الخمسينات وعمل بها فى المحاماة فترة من الزمن ، ثم عين رئيسا لكتاب

مديرية الأوقاف العامة بمكة المكرمة ثم مستشارا قضائيا لأمانة العاصمة فى عهد المرحوم الشيخ عبدالرؤوف الصبان ثم عضوا بمجلس الشورى فى أوائل عهد الملك سعود وقد بقى يمارس عمله فى مجلس الشورى إلى أن انتقل بأسرته إلى سوريا ثم إلى مصر وتكرر انقطاعه عن المجلس فترات طويلة فأحيل إلى التقاعد ، وقد بقى فى مصر عدة سنوات إلى أن حصل نجله حمزة رحمه الله على البكالوريوس من جامعة القاهرة فعاد بأسرته الى جدة وافتتح مكتبا للمحاماة نجح فيه نجاحا كبيرا وقد بقى يمارس هذا العمل إلى أن توفى فجأة بالرياض بتاريخ ٢٤ صفر ١٣٩٦ هـ رحمه الله رحمة واسعة ، كان الشيخ ضياء الدين رجب نمطاً فريدا من الناس وقد استطاع بما وهبه الله من سماحة نفس وهدوء طبع أن يجمع القلوب حوله فأحبه الناس والتفوا حوله فكانت داره كما كان مكتبه يزدحم بالناس من كافة الطبقات وكانت له قدرة عجيبة على الاستماع إلى الناس ومشاركتهم فيما يهتمون به من شؤون أنفسهم وكانت هذه المشاركة تقتضى منه التوسط لدى المسؤولين فى الإدارات المختلفة ، أو لدى القادرين من الناس ولم يكن عمله فى المحاماة قائما على المادة وحدها وإنما كانت معظم أعماله تتصف بالصبغة الانسانية أكثر مما تتصف بالعمل المادى المنظّم ، وكان هذا الأمر يتجلى إذا كان أصحاب الحق من المستضعفين من الناس أو من النساء اللاتى فقدن الناصر والمعين ، ولم يكن يلجأ فى مثل هذه الحالات إلى المقاضاة وإنما كان يتخذ طريق الإصلاح وسيلة لفض هذه المنازعات وقد اكتشفنا بعد وفاته رحمه الله حوادث كان يمكنه أن يربح من ورائها الملايين ولكنه بدلا من أن يلجأ إلى التعاقد مع أصحاب ـ أو على الأصح ـ صاحبات القضايا دخل فيها بروح النجدة لامرأة استضعفها أهلها فحرموها حقوقا كثيرة فقام هو باستخلاصها لها بهذه الروح الطيبة التى تندفع بدافع المروءة والنجدة وتتناسى ما يجنيه أمثاله فى هذه

المواقف من أموال طائلة تعتبر بالنسبة لمن يمارسون هذا العمل من الفرص القليلة النادرة ، وكان الشيخ ضياء الدين ذا صلة وثيقة بالمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وعُرفت هذه الصلة بينهما خاصة خلال الفترة التى ولى فيها المرحوم الشيخ محمد سرور وزارة المالية ، وخلال إقامته فى مصر بعد خروجه من الوزارة فكان الشيخ ضياء الدين ينقل إليه حاجات الناس ومطالبهم وخاصة أولئك الذين يمنعهم الحياء من الطلب أو الذين يتحرجون فى إيصال مطالبهم إليه وكان الشيخ محمد سرور رحمه الله يستجيب لهذه المطالب بروح من السماحة والبذل وبدافع من ثقته الشخصية بالشيخ ضياء الدين وسعيه فى الخير وكان الرجلان يكتمان من أمور الناس ما يجب كتمانه ويستران من العورات ما يجب ستره ، وكان الشيخ ضياء الدين رحمه الله كريما فى جميع الحالات حتى فى الأوقات التى كان يعانى فيها من ترك العمل أو خلو ذات اليد فإذا وصل إلى يده شىء سرعان ما أسعف به غيره من أصحاب الحاجات ولعل البعض من هؤلاء الناس كان أحسن منه حالا ولكنه يرحمه الله كان مفطورا على النجدة والعطاء على الإقلال والإعسار ، وحينما حسنت أحواله كان له الكثير من الإحسان الخفى وكان ينفق على ذوى قرباه ويصلهم ويرعى شؤونهم .

وكان أصدقاء الشيخ ضياء الدين من كافة الطبقات بدءاً بالعامة من الناس وانتهاء بالوزراء كما كان معروفا لدى الكثيرين من العلية والحكام وكان الجميع يحبونه وكان الكثيرون يعتمدون عليه فى قضاء حوائجهم ، وما أكثر هذه الحوائج وكنت أعجب له رحمه الله كيف يستطيع احتمال كل هذه الأعباء إلى جانب عمله الشاق فى المحاكم وفى مكتبه الذى يغص بأصحاب القضايا والحاجات حتى وقت متأخر من الليل ، وكان هاتفه لا ينقطع من المكالمات التى تحمل فى ثناياها هذه التكاليف العجيبة ولكنه كما ذكرت كان ذا قدرة عجيبة على إرضاء الناس وعلى

الإصغاء اليهم ، وتفهم حاجاتهم وكان ذا بصيرة بطباع أصدقائه والمتحدثين إليه فكانوا يتركونه وهم يشعرون بالراحة وحتى ولو لم تقض لهم حاجة أو يتحقق لهم مطلب فإن شعور المرء بأن هناك من يشاركه فى همومه ومشاكله يخفف من أعبائه النفسية ويشعره بالراحة والاطمئنان ، وهكذا فإن مشاركة الشيخ ضياء الدين رحمه الله للناس فى اهتماماتهم أكسبه محبة الناس وتقديرهم ، وقد تجلّىٰ هذا الحب فى حياته حينما فقد ابنه الشاب المرحوم حمزة ضياء الدين رجب وهو فى اكتمال فتوته وأوج شبابه فكانت مشاركة الناس للشيخ ضياء الدين فى فجيعته بوحيده البكر ، ـ كان المرحوم حمزة رجب هو الولد الوحيد وبقية ذرية الشيخ ضياء الدين من الإناث ـ مشاركة عظيمة تجلت فى إقبال الناس عليه بالتعزية والمواساة ، وتجلّت فيما كتبه الكثيرون من أصدقائه أو معارفه فى رثاء ابنه ومواساته ، كما تجلت هذه المشاركة بعد وفاة المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب رحمه الله فقد لمسنا من مواساتهم مقدار ما كان يتمتع به فى نفوس الناس من محبة وتقدير ٠

وللشيخ ضياء الدين رحمه الله إلى جانب أخلاقه الشخصية الكريمة نواحٍ أخرى فهو شاعر من أكبر شعراء المملكة وكاتب من أقدر الكتاب وكان ينشر إنتاجه الأدبى بجريدة المدينة المنورة فى أول ظهورها فقد كان أحد كتابها البارزين ، كما كان ينشر بين الفينة والفينة فى جريدة صوت الحجاز والمنهل ما تجود به قريحته من شعر ونثر وفى السنوات الأخيرة من حياته واصل الكتابة للاذاعة السعودية فكانت له أحاديث يومية مذاعة ، كما واصل الكتابة فى جريدة البلاد وكانت له كلمة يومية تنشر بعنوان « قطوف » كما كان له مقال أسبوعى فى هذه الصحيفة ، هذا عدا ما تنشره المجلات الأخرى مثل « قافلة الزيت » « والمنهل » وخلافهما من شعر ونثر ، والكتابة اليومية فى الصحف إذا كانت ناجحة ليست عملا سهلا كما يتصور البعض من الناس ، لأنها تعتمد أولا على

ذكاء الكاتب وسعة إطلاعه ، وشمول إدراكه وحساسيته إزاء ما يصادفه فى حياته اليومية مما يقرأ ويسمع ومما تضطرب به حياته وحياة من حوله من الناس ، فإذا استطاع الكاتب أن يشدَّ القراء إلى عموده اليومى مهما كان قصيرا فهو كاتب أصيل ممتاز وأشهد أن قطوف الشيخ ضياء الدين رحمه الله كانت تجذبنى إلى قراءتها صباح كل يوم ضمن القليل الذى أحرص على قراءته فى مختلف الصحف مع ضيق وقتى عن القراءة بما يزدحم به يومى من أعمال ، وإذا كان لى أن أقول كلمة صغيرة عن الشيخ ضياء الدين رحمه الله كأديب فهو فى رأيى كاتب مجيد وشاعر عظيم يذكرنى بالصفوة المختارة من الشعراء بأسلوبه العربى الأصيل ، وعاطفته الدافقة الثَّرَّةَ وهو يمثل نمطا فريدا من الشعراء فكأنـك تستمـع إلى الفحول من شعراء العصر العباسى كالشريف الرضى ومهيار الديلمى أو كأنك تستمع إلى شوقى فى ديباجته الناصعة ولعلى لا أفشى سرا إذا ذكرت هنا أن الشيخ ضياء الدين رحمه الله كان يسره أن يستمع إلى من ينشد ما ينظمه من شعر فكان يحضر إلى مكتبى إذا نشرت له قصيدة ويطلب منى إنشادها وأشعر بنفسه تهتز رضا وهو يستمع إلى هذا الانشاد ، ولعله كان يعجب بحرصى على فهم معانى القصيدة ومراميها ، فقد كنت أناقشه دائما فى كل ما ينشر له من شعر ، وكثيرا ما كنا نعقد المقارنات بين القصائد التى تنشر لأعلام الشعراء فى موضوع واحد وإنى لأذكر هنا أننا تدارسنا القصائد التى نظمت فى رثاء المرحوم رياض الصلح زعيم لبنان الكبير وفى أمثال هذه المناسبات كنـا نتـدارس القصائـد الموسمية التى تلقى فى موسم الحج والتى يشترك فيها شعراء كثيرون من داخل المملكة وخارجها وكان الشيخ ضياء الدين رحمه الله على صلة واسعة بشعراء عصره وأدبائهم فحين إقامته فى الشام توثقت صلته بشعراء سوريا الكبار شفيق جبرى وسليمان الأحمد وغيرهم كما أنى اجتمعت فى داره بدمشق بالأستاذ نصوح

بابيل صاحب جريدة الأيام الشهيرة فى سوريا إذ ذاك وكان على صلة وثيقة بالسيدين أبو الخير الميداني والسيد محمد مكى الكتانى رحمهما الله وكليهما من علماء سوريا وزعمائها الدينيين وفى مصر اجتمعنا فى منزله بالأستاذ الشاعر أحمد رامى الذى كان ممن توثقت صلة الشيخ ضياء الدين بهم رحمه الله ، كما علمت أنه كانت له صلات كثيرة برجالات العلم والأدب فى كل من القطرين وفى مصر كنت أرى الشاعر المرحوم محمد مصطفى حمام والشاعر محمد جبر لدى الشيخ ضياء الدين فى أوقات متقاربة وغير هؤلاء كثيرون ممن لا تحصيهم الذاكرة وحينما كان فى مصر كان على صلة كبيرة بالأمير عبدالكريم الخطابى قائد ثورة المغرب الشهيرة ضد أسبانيا وفرنسا وحينما توفى رثاه بقصيدة عصماء نشرتها له مجلة « قافلة الزيت » فى تلك الأيام أما صلة الشيخ ضياء الدين رحمه الله بشعراء وأدباء عصره فهى صلة الصداقة الكريمة والحب الخالص ، كان يحب الجميع وكان الجميع يحبونه ويقدرونه وكان بما وهبه الله من خلق سمح ولسان عف يبعد عن المنازعات التى تكدر علائق المودة بين الأدباء فلا يهاتر ولا يخاصم ووقف من هذه الخصومات الأدبية التى كانت تحدث بين أدباء عصره وشعرائهم موقف المحايد النائى بنفسه عن التورط فيما لايليق بمقام العالم والأديب .

نعم لقد كان الشيخ ضياء الدين قبل كل شيء وبعده لا ينسى أنه طالب علم ، وأنه تقلد القضاء وهو عمل من أرفع الأعمال وتولى التدريس وهى مهنة شريفة كريمة ، وقد كان مع من يحيط به من الشباب الذى يحبونه فى مقام الأبوة الحانية يرشد ويعلم ويحنو ويكرم دون أن يشعر من حوله بشيء من الاعتزاز بعلمه أو الإدلال بمكانته ، بل أنه يشعر من حوله بأنه منهم وإليهم وبهذه الصفات الكريمة السمحة تبوأ مكانه فى النفوس ورسخت محبته فى القلوب رحمه الله رحمة واسعة .

مُبالغتهُ في تقديرِ سِنّه

ومن طرائف الشيخ ضياء الدين رحمه الله أنه كان يبالغ فى تقدير عمره خلافا لما جرى عليه العرف بين الناس وقد رأيته مرة يذكر أنه فى الثمانين من العمر وكانت المبالغة واضحة فقلت له الم تذكر لى أنك توليت القضاء وأنت فى العشرين من العمر قال نعم قلت فكيف بلغت الثمانين ولم يمض على هذا الأمر الأربعون عاما فضحك وقال إننى فى الحقيقة لا أدرى قلت ولكنك تتعمد المبالغة قال لقد رأيت الناس يحاولون إنقاص أعمارهم فأردت أن أخرج من النزاع فى هذا الأمر بالزيادة بدل النقصان ..

الشّيخ ضياء الدّين والنسيان

ومن طرائفه أيضا أنه كان كثير النسيان حتى عرف بذلك بين أصدقائه ، وأنا شخصيا أعرف أنه كان يبالغ فى التظاهر بكثرة النسيان فقد كان كما ذكرت فى صدر هذه الترجمة مقصودا من الناس فى أمور كثيرة ومن المؤكد أن وقته كان يضيق بالقيام بهذه الأمور بل ببعضها فكان النسيان والسرحان هو العذر الذى يلجأ اليه والذى يقبله الناس عملا بالحديث الشريف « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ، ولقد رأيته رحمه الله يحفظ أرقام التليفونات ولا يكتبها فى مذكرة وإنما يستمدها من ذاكرته العجيبة التى تحفظ ما تريد وتتناسى ما لاتريد ، ولاشك أنه كان لاينسى إطلاقا ما يهم من الأمر ولكن حادثة طريفة سمعتها منه تعتبر من أعاجيب السهو والنسيان

قال:وفد عليه من الطائف المرحوم محمد بصراوى ـ وكان يلقب بالبيك ـ وكان مديرا لأوقاف الطائف وخرجا من إدارة الأوقاف بالمالية بمكة بعد انتهاء

ساعات العمل وذهبا إلى منزل الشيخ ضياء الدين فى جرول لتناول الغداء وترك الشيخ ضياء الدين ضيفه فى الدور الأول من المنزل ونسى أن يذكر لأهل الدار أن ضيفا سيتناول الغداء معه قال الشيخ ضياء الدين:وكنت متعبا فاستلقيت على السرير ونمت ولم أقم إلا وقد غشينا العصر فتغديت ونسيت الضيف الذى ينتظرنى فى الدور الأول وقد أوشكت الشمس على المغيب وحينما هبطت اليه وجدته يكاد يبكى من الجوع وضاعت معه كل حيلى فى الاعتذار بالسهو والسرحان وظل يشكونى إلى كل من يراه إلى أن توفاه الله ٠

المحاماة في القرآن

ومن الطرائف التى ذكرها لى الشيخ ضياء الدين رحمه الله ، أنه كان يعمل بالمحاماة بعد أن صرف عن قضاء العلا ، ويبدو أن بعض القضاة شكوه إلى جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله واقتضى الأمر أن يقابل هو جلالة الملك عبدالعزيز ويشرح له الموضوع قال ، قال لى جلالة الملك:ولكن المحاماة لا أصل لها فى الشرع ، قال فقلت لجلالته إن لها أصلا فى القرآن قال هاته ٠ قال : قلت :قال تعالى فى سورة النساء « ولا تكن للخائنين خصيما » ، أى مدافعا عنهم والمحاماة هى الدفاع عمن لا يستطيع الإدلاء بحجته فقبل جلالته ذلك راضيا. ومما يذكر أن هذه الآية كانت مكتوبة بخط جميل فى لوحة خشبية وكان الشيخ ضياء الدين يضعها فى مكتبه الذى يمارس فيه عمل المحاماة بحيث يراها كل من يجلس إليه من أصحاب القضايا ، وكأنه بهذا يوحي إليهم أنه لا يقبل من القضايا الا ما كان أصحابها على حق وهو مبدأ لو تمسك به المتخاصمون لأراحوا واستراحوا ٠

ديوان الشيخ ضياء الدين

هذا وقد جمع المرحوم الشيخ ضياء الدين قصائده فى مجموعات كبيرة مجلدة ومنسوخة بالآلة الكاتبة وكثير من هذه القصائد لم ينشر فى حياته وقد اتفقت أسرته مع نادى جدة الأدبى على نشر هذه القصائد فى مجموعات متفرقة ولابد أن المجموعة الأولى ستنشر قريبا بإذن الله وهى خدمة عظيمة للأدب السعودى يقدمها نادى جدة الأدبى مشكورا فإن الشيخ ضياء الدين يعتبر مفخرة من مفاخر الشعر العربى فى هذا العصر لا فى المملكة العربية السعودية وحدها وإنما فى الوطن العربى كله وهو بأسلوبه الناصع ومعانيه الثرة وعاطفته المتوهجة يمثل النسق الشعرى الأصيل فى صفائه وجودته ورقته ٠

بعد كتابة ما تقدم يسرنى أن أذكر أن المجموعة الكاملة لشعر الشيخ ضياء الدين رجب قد تم إعدادها للطبع على نفقة صاحب السمو الملكى الأمير الشاعر عبدالله الفيصل وآمل أن تكون قد ظهرت قبل طبع هذا الكتاب ٠

تمسكه بالشعر العمودي

ولعل مما يحسن ذكره ونحن نتحدث عن شعر الشيخ ضياء الدين أنه كان من المتمسكين بالشعر العمودى المنظوم ولم يكن يمارس هذا الخلط الذى يسمونه الشعر المنثور بل ولا يستسيغه أو يعترف به كما هو شأن الكثرة من الشعراء المجيدين ٠

فتى سلع

كما أن الشيخ ضياء الدين كان ينشر شعره الغزلى بتوقيع مستعار هو ـ فتى سلع ـ ولقد كان يتبع هذه الطريقة منذ بداية نشره للقصائد الشعرية فى الخمسينات وإلى أن توفاه الله وهو يهدف إلى الشيخوخة ٠

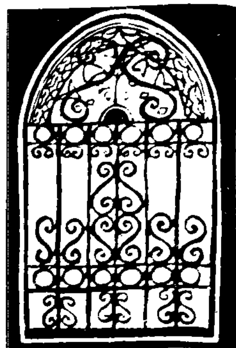
مؤلّفاتُه الأخرى

هذا وقد كان الشيخ ضياء الدين رحمه الله أخبرنى أن له مؤلفا صغيرا بعنوان ـ وقفة فى ديار ثمود ـ وقد ألفه حينما كان قاضيا بالعلا ولكنى لم أجد مخطوط هذا الكتاب ضمن ما تركه من آثار أدبية ، وإنى لأرى أن أديبا كبيرا كالشيخ ضياء الدين يستحق أن تتكفل كلية الآداب بإحدى جامعاتنا بجمع آثاره المنشورة بالصحف والمذاعة بالمذياع لاختيار ما يصلح منها للنشر توطئة لطبعه ونشره لتكون هذه المنشورات وسيلة كافية للدراسة الكاملة لأدبه وإنتاجه ٠

وفـاتُـه

هذا وقد أدركت الوفاة المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب فى الرياض فى ليل الرابع عشر من شهر صفر ١٣٩٦ هـ وكان بدار ابنته « لميس » فشعر بضيق فى التنفس وألم فى الصدر وحينما نقل إلى المستشفى لإسعافه أسلم الروح وهو فى الطريق إلى المستشفى رحمه الله وكانت لوفاته رنة حزن عظيمة فى جميع الأوساط وقد نقل بطائرة تابعة لوزارة الدفاع من الرياض فى صباح يوم الخامس عشر من صفر ١٣٩٦ هـ إلى جدة حيث جهز ونقل إلى مكة المكرمة وصلى على جثمانه فى المسجد الحرام ودفن بمقبرة المعلاه رحمه الله رحمة واسعة فلقد كان رجلا خيرا وعالما نيرا وأديبا وشاعرا كبيرا ٠٠





أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة



سليمان أمان قابل

سليمان أمين قابل

متوسط القامة ممتلىء الجسم شديد السمرة واسع العينين يضع على عينيه نظارة ذهبية كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ثم أصبح يرتدى العباءة والعقال المقصب فى العهد السعودى .

إن ما لفت نظرى فى تاريخ الشيخ سليمان قابل هى عصاميته الفذة فلقد بدأ حياته مع أخيه الشيخ عبدالقادر قابل بداية بسيطة ولكنه استطاع بطموحه وعصاميته ان يتبوأ المناصب الكبيرة فى العهد الهاشمى ثم فى العهد السعودى وان يستطيع محله التجارى افتتاح شارع من أهم شوارع مدينة جدة كما سيأتى ايضاحه فيما بعد .

رئيس المحكمة التجارية

عرفت الشيخ سليمان قابل وهو يتولى منصب رئيس المحكمة التجارية بمدينة جدة ، وهى أول محكمة من نوعها تقام فى العهد السعودى للفصل فى الأمور التجارية التى لها طابع خاص وذلك لما تتميز به مدينة جدة من التخصص فى أمور التجارة بأنواعها(١) ، كما كان يمارس الأمور المتعلقة بالتجارة منذ العهد

(١) كما كان رئيسا لبلدية جدة فى العهد الهاشمى .

الهاشمى فلقد كان يرأس الإدارة التى تمنح تراخيص الاستيراد فى وقت من الأوقات وهو أمر إن دل على شىء فإنما يدل على أن الرجل قد استطاع الفوز بثقة الدولة فى العهد الهاشمى والعهد السعودى على السواء وهو يدل كذلك على ان شخصيته العصامية وطموحه قد مهدا له السبيل للبروز بين أقرانه من الرجال ولعله من المناسب أن نذكر أن الشيخ سليمان قابل تولى رئاسة أول شركة للسيارات تأسست فى مدينة جدة فى أوائل العهد السعودى ولكن هذه الشركة لم تستمر فقد واجهتها مشاكل كثيرة انتهت بتصفيتها .

شارع قابل

على أن أهم إنجاز يتميز به الشيخ سليمان قابل فى نظرى هو افتتاحه لشارع قابل المعروف والمسمى باسم أسرته حتى اليوم وهو شارع من أهم شوارع مدينة جدة كما هو معلوم ، ولهذا الشارع قصة يحسن ذكرها فان الملك الحسين بن على هو الذى قام ببناء الشارع فى الثلاثينات فى عهد ولايته عرش الحجاز وفى عهد ابنه الملك على بن الحسين اشتراه آل قابل من الملك على مقابل بعض المال وبعض الأغذية التى كانت حكومته فى أشد الحاجة إليها لتصرف للجند خلال الحرب السعودية الهاشمية ، قالوا وكانت الصفقة فى مصلحة المشترى أكثر منها فى مصلحة البائع وليس هذا هو المهم فى الأمر ولكن المهم ان الشيخ سليمان قابل استطاع بذهنيته المتفتحة ان يجعل من هذا الشارع أهم شارع فى مدينة جدة فى ذلك الزمان فلقد كان الشارع مكشوفا فتعاقد بيته التجارى مع شركة ألمانية على تسقيفه وتم تغطية الشارع بسقف من المعدن المضلع ـ التوتوه ـ يقوم على أعمدة حديدية ويرتفع ارتفاعا كبيرا لأن علو الشارع كان قد بنى عليه دور من المكاتب التجارية ، ولقد شاهدت العمل فى تغطية الشارع فى الأربعينات فى أوائل العهد

السعودى وهو يسير على قدم وساق حتى تمت التغطية على أحسن ما تكون فى ذلك الزمان ولم يكتف آل قابل بهذا التجديد ، ولكنهم استوردوا مكينة كهربائية ضخمة وأدخلوا النور الكهربائى والتهوية الكهربائية إلى كل دكان ومكتب فى الشارع فتدافع أصحاب الدكاكين إلى الاستئجار فى شارع قابل وأصبح الشارع مختصا بالقماشين ومن اليهم ممن تحتاج بضائعهم إلى مثل هذه التحسينات والتجديدات التى تميز بها شارع قابل ، إن آل قابل قد أفادوا كثيرا من التحسينات التى أدخلوها على شارعهم ، ولكنهم فى نفس الوقت قد أفادوا الناس ، وقدموا للمدينة التى ينتمون اليها خدمة حضارية لاشك فيها ، ولقد ذكرت فيما مضى من هذه التراجم أن الربح لا يغض من قيمة العمل المفيد ولا ينقص من تقديره وأن الجانب الذى يعنينا منه هو مقدار ما يفيد منه الناس وما يدخل على الوطن من أسباب الحضارة والتيسير وفى رأيى أن هذا العمل إذا كان تجاريا فان توفر عنصر الربح جوهرى لبقائه ودوامه .

موائد الإفطار في رمضان

وكان منزل آل قابل فى مدينة جدة يتميز كذلك باقامة موائد الإفطار فى كل يوم من أيام رمضان من بداية الشهر إلى نهايته وكانت هذه الموائد تضم فى كل يوم كبار موظفى دائرة حكومية مع بعض أعيان المدينة وتجارها وكانت هذه العادة الجميلة تتيح لآل قابل توثيق علاقاتهم بكبار موظفى مدينة جدة وهو نوع مما يسمى فى الوقت الحاضر بالعلاقات العامة لم يكن معروفا فى ذلك الزمان ، على أى حال لقد كان منزل آل قابل مفتوحا مغرب كل يوم فى رمضان وكانت موائدهم منصوبة لاستقبال الضيوف كما كان منزلهم فى مساء كل يوم مفتوحا لأصدقائهم من أعيان المدينة وكنت أرى الحاج عبدالله على رضا قائممقام جدة وشقيقه

الحاج زينل على رضا ممن يحضرون إلى منزل آل قابل أصيل كل يوم حيث يصلون المغرب جماعة ويتسامرون ساعة من الليل ثم يعود كل منهم إلى داره على عادة كبار أهل جدة فى ذلك الزمان •

وكان منزل آل قابل من المنازل القليلة التى تضاء بالكهرباء فى وقت لم تكن فيه الكهرباء معروفة إلا فى منازل السفارات والشركات الأجنبية •

وكان منزل آل قابل يقع فى الحدود ما بين حارة الشام وحارة المظلوم ولايزال هذا المنزل قائما ولكن أهله قد تركوه منذ سنوات طويلة بعد وفاة كبار رجال العائلة وأصبح المنزل خربا غير مسكون •

أهل الحارة وعنعناتهم

وعلى ذكر منزل آل قابل الذى ذكرنا أنه يقع فى الحدود ما بين حارة الشام والمظلوم نذكر هنا حادثة طريفة تتعلق بموضوع حارات جدة والعنعنات التى كان يتمسك بها رجال الحارة أو الحارات على الأصح وهى تدل على مدى العقلية التى كانت تتحكم فى عقول بعض الناس فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجرى الذى ودعناه منذ بضعة شهور ، كانت مدينة جدة تنقسم إلى أربع حارات هى : حارة الشام وكانت فى شمال المدينة وفيها مقر الحكومة ومقر السفارات والشركات الأجنبية ، مما يلى البحر والشمال وحارة المظلوم وهى تقع فى شرق مدينة جدة وتمتد إلى وسطها ، وحارة اليمن وهى فى جنوب جدة وكان يتمركز فيها وكلاء الحجاج وينزل فيها الحجاج قبل بناء مدينة حجاج البحر وحارة البحر وهى ممتده إلى جوار البحر من الجنوب باتجاه الشرق ويسكن فيها البحارون وملاك الزوارق البحرية وما إليها وكل من تتعلق أعمالهم بالبحر يوم

أن كان للبحر رجاله وعماله من أهل المدينة قبل التطور العظيم الذى أدخل على ميناء جدة[1] .

نقول كان رجال كل حارة يعتبرون حارتهم معقلا لهم وينظرون إليها نظرة فيها كثير من العصبية إذا جاز هذا التعبير فلا يسمحون لرجال الحارات الأخرى بالدخول إليها فى المواكب والحفلات إلا بعد ترتيب خاص يخبرون فيه أهل الحارة بقدومهم ، وحدث أن أقام الشيخ محمد الطويل كبير جدة فى ذلك الزمان عرسا لأحد أقربائه وكان الشيخ محمد الطويل من سكان حارة الشام وكان أهل العروس يسكنون فى حارة اليمن وفى الهزيع الأخير من الليل قام موكب العريس من بيت الشيخ محمد الطويل بحارة الشام يحف به المنشدون المشهورون فى ذلك الوقت وتتقدمه المصابيح الغازية الكبيرة ـ الأتاريك ـ يحملها الرجال ، كما كان يمشى حملة مباخر العود بين يدى العريس وحينما وصل الموكب الذى كان يمشى فيه كثير من أعيان المدينة ورجالها وشبابها إلى حدود حارة اليمن وتقع هذه الحدود أمام مسجد المعمار عند بيت آل الجمجوم فى ذلك الوقت تعرض بعض أهل حارة اليمن للموكب وطلبوا منه العودة من حيث أتى قائلين ـ هذه حارتنا ولن نسمح لكم بالدخول وأصر أهل حارة الشام على الدخول فكيف يعودون ومعهم هذا الموكب الضخم العظيم وفقد رجال الحارتين اعصابهم فتسابوا ثم استعملوا عصيهم يضربون بها بعضهم بعضا وانفرط عقد الموكب وتفرق الناس خائفين على أنفسهم من نتائج المعركة المجنونة التى نشبت فجأة دون إنذار والتى أوقد شعلتها شباب غير مسؤولين فقدوا أعصابهم فى ساعة من ساعات الحمية الكاذبة ولم يستطع العقلاء التدخل وإيصال العريس إلى منزل عروسه الا بعد مشقة وتعب ولكن كان الضرب قد حدث وكذلك الإصابات فى الجانبين وتدخلت الشرطة وأخذت

(١) اصبحت محلات جدة او حاراتها الان اكثر من عشرين حيا واصبحت لها عدة بلديات بعد ان تضاعف نمو المدينة اكثر من عشرين ضعفا ..

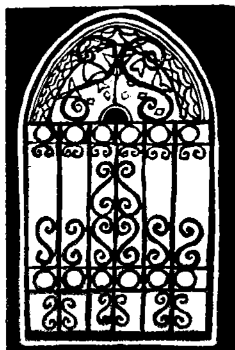
الجميع إلى السجن وكان مساعد قائممقام جدة يومها المرحوم الشيخ عبدالعزيز ابن زيد وسمعته يقول : إن كانت هذه المعركة بسبب الحدود فاننا سنرسل المتقاتلين الى الحدود الحقيقية لحمايتها أما هذه الحدود داخل المدينة الواحدة فهى حدود كاذبة مفتعلة ولقد كانت هذه الحادثة هى آخر ما أعرفه عن حوادث الحدود بين الحارات إذ كان تصرف الدولة الحازم كفيلا بالقضاء على هذه النعرات الى غير رجعة والحمد لله .

نعود بعد هذا الاستطراد الذى جرنا إليه موقع منزل آل قابل فى مدينة جدة الى الشيخ سليمان قابل فنقول إنه توفى الى رحمة الله تعالى بعد مرض أَلَمَّ به سافر من أجله للاستشفاء فى مدينة القاهرة ثم عاد الى مدينة جدة ولكن الأجل كان قد دنا فتوفى وكأنما كانت وفاته نذيرا بانطواء تاريخ الأسرة التى كان يجمع شملها ويرفع اسمها رحمه الله رحمة واسعة فلقد كان رجلا عصاميا طموحا وقد استطاع أن يبرز بين رجال مدينة جدة بهذه العصامية وبهذا الطموح .



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





السيد صالح بن بكري شطا

السيد صالح بن بكري شطا

طويل فارع ، معتدل الجسم ، أبيض اللون تشوب بياضه حمرة خفيفة ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، يضع على عينيه نظارة ذهبية ، كان فى العهد الهاشمى يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، وقد أدركته فى الخمسينات وهو يرتدى العباءة العربية والغترة البيضاء دون عقال وهو الزى الذى يتميز به علماء الدين والقضاة ، ولا عجب فى ذلك فالرجل من بيت علم ودين وقد ظل محتفظا بصفته هذه رغم المناصب الكبيرة التى أسندت إليه فهو من أولئك الرجال الذين تنفرد شخصياتهم بما وهبها الله من صفات فتضع بصماتها على ما يسند اليها من منصب أو عمل فلا يجرفها المنصب أو الجاه ، ولا يبطرها الثراء أو الحسب لأنها تستمد قوتها من صفاتها الشخصية التى تفرض حبها على الناس فى بساطة ويسر .

ولد السيد صالح شطا عام ١٣٠٢ هـ بمكة المكرمة وتوفى والده وهو فى الثامنة من العمر فكفله أخوه الأكبر السيد أحمد شطا المدرس بالمسجد الحرام ، وحفظ القرآن الكريم فى صباه وتلقى تعليمه على أيدى أعلام العلماء من أسرته ومن علماء مكة المكرمة الذين تعقد حلقات دروسهم فى رحاب المسجد الحرام

أمثال السادة : احمد وعمر شطا والسيد عبدالله دحلان والسيد حسين الحبشي وغيرهم[1] وبعد أن أتم دراسته حصل على إجازة بالتدريس من هيئة العلماء بمكة المكرمة فكان يلقى دروسه فى رحاب المسجد الحرام بباب الزيادة ·

سمعت باسم السيد صالح شطا رحمه الله أول مرة فى أوائل الأربعينات حينما وفد بأسرته من مكة المكرمة إلى جدة خلال الحرب السعودية الهاشمية ونزل بدار الشيخ عبدالرحمن باجنيد ـ كانت هذه الدار فى شارع قابل أمام مسجد المعمار وقد أزيلت وأدخلت مع البيوت التى حولها فى الشارع الجديد المسمى شارع الذهب حاليا ـ أقول سمعت باسم صالح شطا لأول مرة حينما وفد بأسرته من مكة المكرمة ولكن لم يمض طويل وقت حتى شاع فى مدينة جدة خبر التجائه الى مخيم السلطان عبدالعزيز آل سعود بالرغامة ـ خارج مدينة جدة ولهذا الالتجاء خلفية لابد من ذكرها وقد حدثنى عنها السيد صالح شطا نفسه رحمه الله قال : كنت أقاوم حكم الشريف الحسين بن على لأنه كان ظالما بطاشا ولقد سجنت ومعى الشريف رضا « والد المرحوم الشريف محمد شرف رضا » فى سجن الحسين بمكة المكرمة لأن الحسين كان يعرف عنا هذه المعارضة ، قال وكنت أرسل المقالات إلى الجرائد المصرية « ولعله ذكر اسم مجلة المقتطف » أعدد فيها مظالم الحسين بتوقيع مستعار ، وكانت هذه المقالات تنشر ولا يعرف كاتبها إذ كانت الصحيفة تحتفظ باسم الكاتب سرا إذا رغب فى ذلك ، أقول ان هذه الخلفية للسيد صالح شطا رحمه الله توضح اختراقه للأسلاك الشائكة التى تحيط بمدينة جدة فى أيام الحصار والتجاءه إلى مخيم السلطان عبدالعزيز فهو إنما فعل هذا مدفوعا بكراهيته للعهد القائم إذ ذاك وهذه الحادثة بالذات تظهر مدى قوة شخصية الرجل وشجاعته فى اقتحام المخاطر ، فلو أن محاولته للخروج من مدينة

---

(١) سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر الهجرى تأليف عمر عبدالجبار صفحة ١٤١ ··

جدة كشفت أو ألقى القبض عليه من قبل الجيش المدافع عن المدينة ، لكان مصيره فى مهب الريح ، ولكان فى موقف من أسوأ المواقف التى يتعرض لها من يقتحم هذه الأخطار بينما كانت أسرته الكبيرة مقيمة بمدينة جدة • هذا ماكنت قد كتبته عن هذه الحادثه المشار اليها ونشر فى الحلقة الخاصة بالمرحوم السيد صالح شطا • وقداتصل بى ابنه الأخ السيدمحمود شطا عضو مجلس الشورى وأخبرنى أن والده لم يلجأ إلى مخيم السلطان عبدالعزيز وأنه إنما ذهب مع من ذهبوا من زعماء مكة وجدة لمقابلة السلطان عبدالعزيز بالرغامة لإبداء آرائهم فيما تتعرض له مدينة جدة من المخاطر بما تضمه من الأهالى ورعايا الدول الأجنبية وأن الشريف الملك على بن الحسين لم يكن راضيا عن ذهابهم ولكنه لم يستطع منعهم وأنهم حينما عادوا سجنوا بالقشلة وأبعد منهم من أبعد عن البلاد وأن والده السيد صالح شطا كان من ضمن المسجونين بالقشلة مع المرحوم الأفندى محمد نصيف والشيخ سليمان عزايه • هذاوقد وجدت فى كتاب ماضى الحجاز وحاضره للأستاذ حسين محمد نصيف رحمه الله ما يدل على أن السيد صالح شطا كان أحد أعضاء الحزب الوطنى الذى تأسس فى مدينة جدة أيام الحرب الهاشمية السعودية وللتوفيق بين ما كنت كتبته عن التجاء السيد صالح شطا إلى مخيم السلطان عبدالعزيز حسب المعلومات التى كانت متداولة فى ذلك الوقت وبين ما ذكره لى ابنه السيد محمود شطا أقول إن السيد صالح رحمه الله كان معروفا بمعارضته الشديدة للحكم الهاشمى ولابد ان البعض حينما علم بذهابه مع من ذهبوا لمقابلة السلطان عبدالعزيز على كره من الملك على أنهم ظنوا أنه لجأ الى مخيم السلطان عبدالعزيز أو أن هذه الاشاعة أطلقت لتبرير سجنه مع زملائه الذين سجنوا وأبعدوا فيما بعد •

ولعله من المناسب أن نذكر الآن طرفا من الحالة الاجتماعية التى كانت تسود

البلاد فى هذه الفترة من الزمان فى أوائل الأربعينات من هذا القرن الهجرى الذى يوشك على الانتهاء .

كانت الحياة الاجتماعية فى الحجاز مبنية على الترابط والسماحة وكانت البيوت مفتوحة لاستقبال الضيوف ولم تكن هناك فنادق أو خانات ينزل فيها المسافرون بين مدينة وأخرى وإنما كانت هناك علاقات صهارة أو صداقة أو عمل تربط بين الناس فكان المسافر من مكة إلى جدة . أو من جدة إلى مكة ينزل فى بيت قريب أو صديق وكانت أغلب المنازل بها أماكن مخصصة للضيافة وكانت ضيافة الرجال فى الدور الأرضى من المنزل الذى كان يحتوى على دواوين ومقاعد بما يلزم لها من خدمات ، أما النساء فكانت استضافتهن فى الأدوار العليا مع نساء العائلة فإذا حضر الرجل بأهله دعى ليلا إلى الصعود إلى مجلس فى هذه الأدوار يخصص لمبيته مع أهل بيته لايختلط بنساء العائلة أو رجالها فإذا كان الصباح ترك هذا المجلس إلى الدور الأرضى حيث يجتمع الرجال جميعا لتناول الإفطار ثم طعام الغداء وتبقى هذه البيوت مفتوحة طيلة النهار وصدرا من الليل يقوم على خدمتها المكلفون بذلك من الرجال . لهذا فإنه حينما وقعت الحرب الهاشمية السعودية وهاجر الكثيرون من أهل مكة إلى مدينة جدة بعائلاتهم نزل كل هؤلاء المهاجرين تقريبا فى بيوت أهل جدة فالقريب نزل عند أقربائه أو أصهاره والصديق نزل فى بيت صديقه ، والذى لا قريب له أو صديقا نزل كذلك فى بيوت عرف أصحابها بالكرم والنخوة ، ولقد كان لكبير جدة فى ذلك الوقت الشيخ محمد الطويل رحمه الله دور عظيم فى إسكان الوافدين من أهل مكة وإنزالهم فى جدة بحكم منصبه العظيم وزعامته فى مدينة جدة فى ذلك الزمان .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن السيد صالح شطا رحمه الله

فنقول كان من المؤكد بعدما ذكرنا عن معارضته الشديدة لحكم الشريف الملك الحسين بن على ثم لابنه الملك علي مع ما للرجل من صفات شخصية ومركز عائلى مرموق أن يكون من أبرز رجال العهد السعودى فى الحجاز بعد ان اصبح السلطان عبدالعزيز ملكا على الحجاز عام ١٣٤٤ هـ ـ فكان عضوا بمجلس الشورى عن مكة المكرمة فى بداية تأسيس المجلس عام ١٣٤٥ هـ ثم عهد إليه بإدارة المعارف العامة ، ثم عين مساعدا للنائب العام لجلالة الملك فى الحجاز ـ وكان النائب العام فى ذلك العهد هو صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وهو منصب من أرفع المناصب الإدارية وقد استقر الأمر بالسيد صالح شطا بعد أن أصبح النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى (النائب الأول للمجلس هو صاحب السمو الملكى الأمير فيصل) وكانت رئاسته للمجلس شرفية إذ أن سموه لم يكن يحضر إلا حفلات افتتاح المجلس الرسمية فى كل عام وكانت الرئاسة العملية هى للنائب الثانى وهو المنصب الذى شغله المرحوم السيد صالح شطا سنوات طويلة وأداره بمنتهى الكفاءة والحزم ·

ولعله من المناسب أن نذكر هنا ان مجلس الشورى كان له تأثير كبير فى شؤون الدولة وخاصة فى النواحى القانونية والتنظيمية فى الوقت الذى لم تكن الوزارات فيه قد تأسست ولم يكن هناك كذلك مجلس للوزراء فكانت جميع الأنظمة التى تفكر فيها الدولة تحال الى المجلس لصياغتها أو دراستها واقرارها ، وأذكر أننى ذهبت إلى مجلس الشورى اكثر من مرة لمناقشة الأنظمة الاقتصادية التى وضعت لبعض الشركات العربية فى ذلك الوقت كشركة التوفير والاقتصاد وغيرها منتدبا من مجلس ادارة هذه الشركات وكانت مواد هذه الأنظمة تناقش بدقة كما كان يحال إلى المجلس الكثير من القضايا الإدارية وغيرها لدراستها وإبداء الرأى فيها ، وكان لرأى المجلس وزن كبير فيما يعرض عليه وخاصة فى

عهد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز ولم يكن السيد صالح رحمه الله رئيسا عاديا ولكنه كان شخصية مؤثرة فالرجل طالب علم منذ نشأته وهو بحكم مركزه الاجتماعى من دعاة الإصلاح والتنظيم ، فلم يكن يكتفى بادارة جلسات المجلس وإنما كان يشارك فى المناقشات ويؤثر فيها بشخصيته القوية الحازمة فكان بعمله هذا يضفى على مناقشات المجلس حيوية دافقة تجعلها ذات قوة وتأثير (ولعل أستاذنا الكبير الشيخ أحمد ابراهيم الغزاوى النائب الثانى لرئاسة المجلس حاليا يحدثنا عن المجلس وتاريخه بحكم خبرته العملية الطويلة وخاصة عن ذكرياته فيه بكل معجب وطريف مد الله فى حياته وأسبغ عليه أثواب الصحة والعافية) .

إلغاء الكوشان

حينما سمح الملك عبدالعزيز بدخول السيارات إلى الحجاز لأول مرة فرضت الدولة رسما مقداره أربعة وثلاثون قرشا ذهبا « مايساوى ثلث الجنيه » للسفر الى مكة المكرمة ، ورسما آخر لعله يكون جنيهين للسفر إلى المدينة المنورة ـ وكنت ذكرت قبلا أن واردات الدولة قبل ظهور الزيت كانت تتألف من الجمارك ومن هذا الرسم الذى كان يسمى الكوشان والذى كان مفروضا على الأهالى كما كان مفروضا على الحجاج ـ ولعل كلمة الكوشان من أصل تركى تؤدى هذا المعنى ـ نقول إن هذا الرسم أو هذه الضريبة فرضت مع السماح بدخول السيارات الى المملكة واستعمالها فقد كانت ممنوعة فى العهد الهاشمى كما أسلفنا إذ كانت سياسة الشريف الحسين بن على تتلخص فى أن إدخال السيارات إلى البلاد تستنزف ثرواتها فهو يعتبر أن الجمل هو الوسيلة المثلى للنقل من الناحية الاقتصادية لأن البادية وهى تكون سواد الشعب إنما تعيش على الجمل فى حين أن السيارات تحتاج فى وقودها وصيانتها وإدارتها إلى الخارج وهو أمر يستنزف ثروات البلاد بينما أن

الجمل يحفظ ثروة الأمة داخل حدودها ، ولهذا فلم يكن فى العهد الهاشمى أى نوع من السيارات يسمح به باستثناء سيارة الملك نفسه ، قالوا وكان فى مكة المكرمة ثرى كبير اسمه السيت جان كندوانى وهو من أصل هندى وكان يرغب فى استيراد سيارة له فاستأذن الشريف الحسين فى ذلك فلم يجب عليه بشيء فظن أن سكوت الشريف معناه الموافقة فاستورد السيارة وحينما وصلت السيارة إلى مكة وأراد استعمالها تعرض له الصبية والسفهاء فقذفوها بالحجارة وأتلفوا بعض أجزائها ولما لم يجد من يعترض على هذا الأذى أدرك أن الشريف لم يوافق على استيراد السيارات ولن يوافق عليها وهكذا كان ونعود الآن إلى موضوع الكوشان فنذكر أن هذه الضريبة كانت مفروضة على السفر إلى كل من مكة والمدينة المنورة فلما تم توحيد المملكة كان بقاء هذه الضريبة رغم أهميتها للدولة لاختصاصها بالمدينتين المقدستين غير مستساغ ، قالوا وكان أول من طالب بإلغائها فى المدينة المنورة هو المرحوم الشيخ سعود دشيشة نائب المدينة المنورة فى مجلس الشورى حيث خاطب الملك عبدالعزيز بما معناه إنك ياطويل العمر قد وحدت هذه المملكة وآخيت بين الرعية فلماذا يدفع أهل المدينة ضريبة كلما أرادوا ان يعودوا إلى مدينتهم حينما يخرجون منها فرفع جلالته الضريبة عن أهل المدينة المنورة وفى الحال تقدم السيد صالح شطا الى جلالته قائلا إن نائب المدينة طلب إعفاء أهلها من الضريبة وانا أتقدم باسم أهالى مكة المكرمة لطلب إعفائهم منها وقد استجاب جلالة الملك عبدالعزيز لطلبه فألغيت هذه الضريبة أو الغى رسم الكوشان عن الأهالى وبقى مفروضا على الحجاج الى أن تم الغاؤه فى عام ١٣٧٠ هـ ، وهكذا أثبت السيد صالح شطا رحمه الله أنه كان رجل مكة المكرمة ونائبها بحق فلقد كان الرجل رغم مناصبه العظيمة يعيش مع الناس يتحسس آلامهم ويتفهم مشاكلهم وكانت داره مفتوحة لاستقبال الناس طيلة النهار وصدرا من الليل يفد إليهاالوافدون لا

يصدهم عن لقائه حجاب وإنما يجدون صدرا رحبا ووجها كريما باشا وبساطة محببة .

لعمرك ليس الجود أن تطعم القرى
ولكنما وجه الكريم جواد

الطائف وعاصمة الدولة في الصيف

ومما يدخل فى هذا الباب عن تحسسات السيد صالح شطا رحمه الله نذكر ان الدولة كانت تنتقل إلى الطائف صيف كل عام بكامل أجهزتها طيلة عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله وأوائل عهد الملك سعود وكانت عاصمة الدولة الرسمية فى مكة المكرمة فإذا حل الصيف انتقلت الدولة بكامل إدارتها إلى الطائف وكان أهل مكة المكرمة كما هو معلوم ترتبط مصالح الكثيرين منهم بأعمال الحج ، وشؤون الحجاج ، فإذا ما اقترب موسم الحج رغبوا فى العودة إلى مكة المكرمة لمباشرة أعمال الحجاج وكان الكثيرون منهم إلى جانب ارتباطهم بأعمال الحج والحجاج موظفين فى الدولة ولا يستطيعون العودة إلى مكة إلا إذا اذنت الدولة بذلك ، وكان الجميع مرتبطين بصاحب السمو الملكى الأمير فيصل النائب العام لجلالة الملك فى الحجاز جلالة الملك فيصل فيما بعد وكان الإذن بالعودة يتأخر فى كثير من الأوقات عن الوقت الذى يرغب فيه الموظفون وخاصة إذا تأخر الصيف واقترب الموسم وبدأت طلائع الحجاج فى القدوم فمنهم من يرغب فى استئجار البيوت اللازمة لحجاجه ومنهم من يرغب فى تأجير منزله على الحجاج ، والكثيرون منهم يرتبطون بعمل الحج بشكل من الأشكال وكان الشخص الوحيد الذى يتصدى لهذا الأمر هو المرحوم السيد صالح شطا فيتحدث إلى سمو النائب العام

فى الأمر ويستصدر الإذن بعودة الدوائر الرسمية الى مكة المكرمة بينما يبقى هو شخصيا بالطائف الى حين عودة سمو الأمير نفسه إليها ·

إمامة المسجد الحرام

قالوا وكان السيد صالح شطا يؤدى صلاة المغرب يوما فى المسجد الحرام فتأخر الإمام المرحوم الشيخ عبدالظاهر أبوالسمح، وكان يسكن بالصفا بجوار المسجد قبل إدخال هذه البيوت فى التوسعة الأولى فى المسجد الحرام ، ورأى السيد صالح أن تأخر الإمام قد زاد عن الحد الطبيعى فلم يكن منه إلا أن تقدم الى المحراب وأشار إلى المؤذن بإقامة الصلاة وصلى بالناس وكان الشيخ عبدالظاهر قد حضر بعد إقامة الصلاة فتقدم من السيد صالح شاكرا وداعيا له بالخير ·

هذه الحوادث البسيطة وأمثالها تدل على مدى شعور الرجل بالمسؤولية إزاء الناس سواء فى أمور دينهم أو دنياهم وهى تحسسات قد يشعر بها الكثيرون ولكنهم لا يملكون الشجاعة للتعبير عنها بالأسلوب العملى الذى يحل المشكلات ويرفع الضيق عن الصدور ·

تشجيع الكفاءات

ولقد لمست كما لمس غيرى فى السيد صالح رحمه الله تشجيعه للكفاءات وخاصة للشبان الذين لم تعرف أسماؤهم أو تظهر مواهبهم وأذكر لذلك حادثة او حادثتين وقعت معى شخصيا وأبدأ بالحادثة الثانية فلقد فوجئت يوما فى أوائل عهدى بالعمل التجارى أن دعيت لحضور إجتماع رسمى للبحث فى أمور العملة فى الطائف وكان هذا فى منتصف الستينات وذهبت إلى الطائف لحضور الاجتماع

وكنت فى عجب من دعوتى اليه بينما أننـى تاجر حديث وهناك من هم أكبر سنا وأعظـم خبرة وأكثـر تجربة من أصحــاب الاسماء الكـبـيرة والتقيت فى الطـائف بالصديق الأستاذ محمد عمر توفيق ـ معالى وزير المواصلات فيما بعد ـ وكان يعمل بديوان سمو النائب العام ولم أكتمه عجبى من اختيارى لحضور الاجتماع فقال لى أن السيد صالح شطا كان يتابع ما تكتبه من مقالات اقتصادية فى صوت الحجاز وهو الذى رشحك لدى سمو النائب العام لحضور هذا الاجتماع أمـا الحادثة الأولى فاذكر أننـى كتبت مرة بحثا عن النقد فى جريدة صوت الحجاز ونشر فى حلقتين او أكثـر أوضحت فيه رأيى فيما يجب أن يكون عليه النقد والصفات التى يجب أن يتحلى بها الناقد من علم تام بما ينقد ، ومن حيدة لا تؤثر فيها العواطف والأهواء وقلت فيما قلته إن الناقد هو قاض عادل يزن الأمور بميزان دقيق فيؤدى أمانـة النقد كاملة فيذكر ما له كما يذكر ما عليه وكنت يومها أصيف بالطائف ولم اشعر إلا والمرحوم السيد عبدالحميد الخطيب عضو مجلس الشورى والسفير السعودى فى باكستان فيما بعد ، يزورنى ويذكر لى ثناء السيد صالح رحمه الله وإعجابه بما قرأ وحديثه عن ذلك فى المجلس وحينما أعـود الآن بذكرياتى عن هذا الامر بعد ما مر بى من تجاريب الحياة يتمثل لى السيد صالح شطا وأمثاله من عظماء الرجال رجالا كبارا ، فلقد كان الرجل فى ذروة مجده رئيسا لمجلس الشورى وزعيما من زعماء مكة المكرمة بل من أكبر زعمائها وكنت أنا شابا فى بداية الطريق أعمل سكرتيرا لمعالى الشيخ محمد سرور وكان الفارق بينى وبينه كبيرا فى كل شىء ولكن هذه الفوارق على سعتها لم تمنع الرجل من التحدث بما استحسنه حتى وصل به الأمر إلى الأخذ بيدى إلى الظهور بينما أننى رأيت بعد ذلك من الناس الأعاجيب فى غمط حقوق الغير وطمس اثارهم وإظهار الحسنات بمظهر السيئات وهذه هى الصفة الغالبة على الناس بكل أسف لم ينج منها إلا كبار النفوس والعقول .

وهذا الذى فعله السيد صالح رحمه الله معى من المؤكد أنه فعل أمثاله مع الكثيرين غيرى ولعل من يقرأ هذه الحلقات يستطيع أن يضيف إلى ما اكتبه وما كتبته عن هؤلاء الأعلام الكثير من الأخبار والحوادث التى تجلو شخصياتهم وتبرز مآثرهم فما أحق هذا التاريخ أن يدون وأن يعرفه أبناؤنا وأحفادنا ليكون لهم قدوة تحتذى ومنارا به يهتدى ·

محاضرات جمعيّة الإسعاف

كانت جمعية الإسعاف بمكة المكرمة تنظم محاضرات أسبوعية لتثقيف الجمهور وكانت تستدعى كبار العلماء والأدباء لإلقاء محاضراتهم فيما بعد صلاة العشاء من احدى ليالى الأسبوع وكان الإعلان عن هذه المحاضرات يتم بالنشر عن ذلك فى جريدة صوت الحجاز وفى لوحة ترفع أمام مبنى الجمعية الذى كان أمام الحميدية فى أجياد ـ وقد هدم هذا المبنى فيما بعد مع المبانى الكثيرة وأدخل ضمن التوسعة الأولى للمسجد الحرام وكان الناس يقبلون على سماع هذه المحاضرات بأعداد كبيرة مما يجعل الصالة المخصصة لذلك تضيق بالحاضرين وكان من أبرز المحاضرين فى جمعية الإسعاف السيد محمد شطا ـ مد الله فى حياته ـ وكانت محاضراته عن قصص القرآن وكان مبدعا فى القائه وتعبيره كما أن مبنى الجمعية شهد محاضرات دينيه كثيرة من فضيلة الشيخ بن حميد وسعادة الشيخ احمد ابراهيم الغزاوى وكان موضوع محاضرته ما نحن احوج اليه ، واذكر ان أطول محاضرة القيت فى الجمعية هى محاضرة المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة لأنها كانت عبارة عن مؤلف صغير استغرق عدة ساعات نقول وكان السيد صالح شطا من ابرز المحاضرين فى جمعية الاسعاف وكان الناس يحرصون ألا تفوتهم محاضراته لما عرف عنه من صراحة واخلاص وقد تم جمع القسم الاول من هذه المحاضرات وطبعت فى كتاب صدر منه جزء واحد باسم محاضرات الإسعاف ·

وفاة السيد صالح شطا

وكان موضوع محاضرته الأخيرة « الإسلام والدعوة القومية » وفى الليلة التى تحدد فيها إلقاء المحاضرة قبيل المغرب رن جرس التلفون فى مكتب الشيخ محمد سرور ورفع السماعة ثم وجم وجوما شديدا ثم قال الدوام لله فسألته ما الأمر قال : لقد ذهب السيد صالح إلى رحمة الله وساد المجلس وجوم وأسى فلم تكن الفجيعة فى فرد من الناس وإنما كانت فى رجل عظيم كبير .

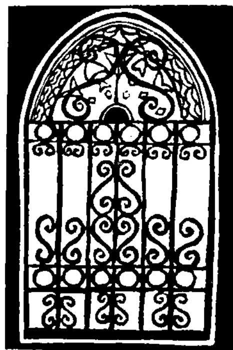
ولم يكن خبر الوفاة قد أعلن فحضر الناس إلى جمعية الإسعاف للاستماع إلى السيد صالح شطا وهو يحاضر عن الدعوة القومية فى نظر الإسلام فأعلنت الجمعية للحاضرين وفاة السيد صالح شطا ثم ألقيت المحاضرة نيابة عنه وكان رأى السيد صالح رحمه الله كما هو متوقع أن الاسلام لا يعترف بالقومية فالمسلمون إخوة كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى ولا أبيض على أحمر الا بالتقوى وهكذا كان مسك الختام للسيد صالح شطا رحمه الله دعوة بالقلم واللسان إلى الخير والإصلاح .

رحم الله السيد صالح شطا رحمة الأبرار فلقد كان من عظماء الرجال .



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





الشيخ عباس يوسف قطان

الشيخ عباس يوسف قطان

متوسط القامة ، ممتلىء الجسم قمحى اللون واسع العينين يضع على عينيه نظارة طبية له لحية خفيفة كان يرتدى العباءة والعقال المقصب فى العهد الهاشمى ثم أصبح يرتدى العباءة والعقال العادى فى العهد السعودى .

ولد الشيخ عباس قطان بمكة المكرمة سنة ١٣١٣ هـ وتلقى تعليمه الابتدائى فى الكُتّابْ . والكتاب عبارة عن مدرسة صغيرة يتلقى فيها الأولاد مبادىء القراءة والكتابة على يد أحد المشايخ وبعد فترة قصيرة انتقل الى المدرسة الصولتية وهى من أوائل المدارس الخيرية الخاصة التى أنشئت بمكة المكرمة فى أوائل القرن الهجرى الرابع عشر من قبل بعض أثرياء الهنود المسلمين. وكانوا يتولون الإنفاق عليها وهى لا تزال قائمة حتى الآن وهى تقوم على تعليم العلوم الدينية وكان لها دور بارز فى هذا المجال وخاصة قبل انتشار المدارس الحكومية فى العهد السعودى ، وكان الشيخ يوسف قطان وهو من أثرياء مكة وأعيانها المعروفين قد عنى عناية خاصة بتعليم ابنه البكر الشيخ عباس قطان فكان يحضر له بعض المشايخ فى الدار لتجويد القرآن الكريم ولتلقى بعض دروس الفقه واللغة كما كان يرسله لحضور حلقات الدرس فى المسجد الحرام بين العشاءين فكان يحضر حلقات الدروس التى يعقدها علماء مكة المكرمة فى ذلك الزمان أصحاب الفضيلة الشيخ

عباس مالكى والشيخ سعيد يمانى والسيد المرزوقى والشيخ عمر باجنيد والشيخ عمر حمدان وجميعهم من أعلام العلماء فى مكة المكرمة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر رحمهم الله وهكذا تزود الشيخ عباس قطان من العلم بقدر ما كان يسمح به الزمن الذى نشأ فيه ٠

وقد نشأ الشيخ عباس قطان فى ظل والده الشيخ يوسف قطان الذى كان من اكبر اعيان مكة المكرمة وأثريائها وكان وزيرا للنافعة ـ وزارة النافعة هى وزارة الأشغال العامة ـ فى عهد الملك الشريف الحسين بن على كما كان على صلة تامة بأمراء مكة قبل ذلك ولقد قيل لى أنه هو الذى أشرف على بناء قصر شبرا فى الطائف للشريف على باشا أمير مكة الأسبق فى العهد العثمانى ، كما أنه كان من المقربين لجلالة المرحوم الملك عبدالعزيز بعد فتح الحجاز وقد زاره جلالته فى داره حينما مرض فهو اذا من أولئك الرجال الذين تظهر شخصياتهم فى مختلف العهود ، نقول ان الشيخ عباس قطان نشأ فى ظل والده الذى أسلفنا ذكره وكان هذا الوالد عظيم الثراء فلم يهيىء إبنه للوظائف الحكومية ولعله كان منشغلا بأعمال والده ولكنه على أى حال أصبح عضوا فى المجلس البلدى بمكة المكرمة فى أوائل العهد السعودى وفى عام ١٣٤٧ هـ عينه جلالة الملك عبدالعزيز أمينا للعاصمة ـ وكانت مكة المكرمة هى عاصمة الدولة منذ أوائل العهد السعودى واستمرت كذلك طيلة عهد الملك عبدالعزيز وفى عهد الملك سعود تم نقل العاصمة الى الرياض وأصبحت مكة المكرمة هى العاصمة المقدسة فيقال الآن عن رئيس بلدية مكة المكرمة أمين العاصمة المقدسة للتفريق بينها وبين العاصمة الرياض وقد استمر الشيخ عباس قطان أمينا للعاصمة بمكة المكرمة من عام ١٣٤٧ هـ إلى نهاية عام ١٣٦٤ هـ وبعدها عين عضوا فى مجلس الشورى إلا أنه طلب من جلالة الملك عبدالعزيز إعفاءه من هذا العمل حيث كان راغبا فى التفرغ للأعمال الخيرية التى كان ينوى القيام بها ٠

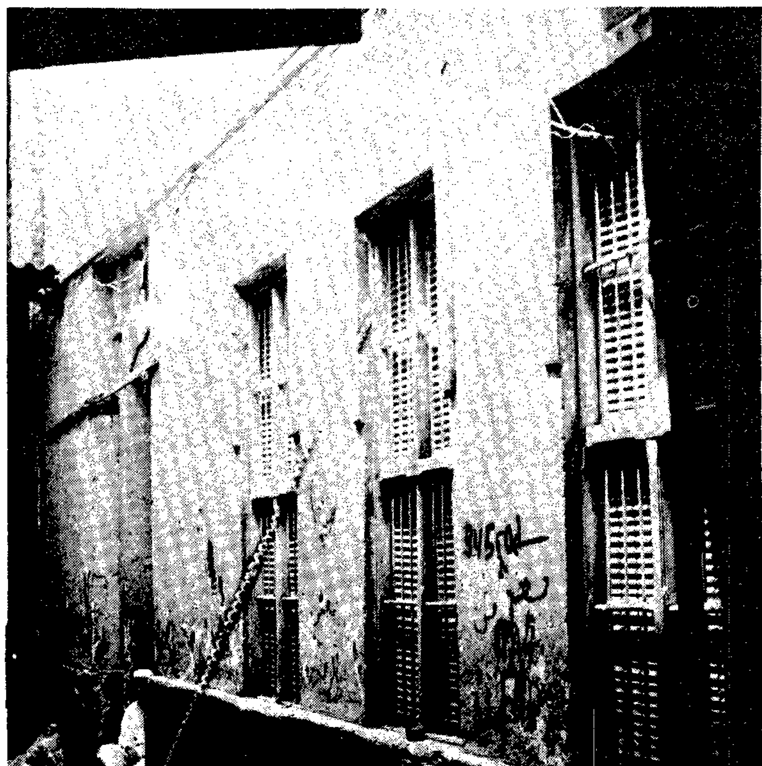
ولقد كان الشيخ عباس قطان موضع ثقة جلالة الملك عبدالعزيز فكان يكلفه بمهام الأمور فى عهد رئاسته لأمانة العاصمة فحينما انتهت امارة الأمير عبدالعزيز إبن إبراهيم على المدينة المنورة كلف جلالته الشيخ عباس قطان بالسفر إلى المدينة المنورة وتصريف شؤونها إلى حين تولى الأمير عبدالله السديرى إمارة المدينة المنورة ، كما كان يعهد إليه بالعمل فى بعض الأمور التى تطرأ والتى يرغب جلالته اتخاذ إجراء معين فيها ، وكانت دار الشيخ عباس قطان فى مكة المكرمة وفى الطائف أيام الصيف مفتوحة للناس تغص بروادها من أهل العلم والفضل ومن الضيوف الذين كانت تنصب لهم الموائد صباح مساء وكانت هذه الدار تستقبل الضيوف من كبار الحجاج فى موسم الحج ، من كل عام وحينما قدم الدكتور محمد حسين هيكل باشا الكاتب المصرى المعروف ورئيس مجلس الشيوخ المصرى إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج نزل بدار الشيخ عباس قطان بمكة المكرمة بالشامية وفى هذه الرحلة رغب التعرف على آثار مكة ومعالمها فطلب من الشيخ عباس قطان أن يختار له مرافقا ملما بهذه الآثار فاختار له المرحوم الشيخ عبدالحميد حديدى العضو بأمانة العاصمة ومن أبرز رجالات مكة العارفين بتاريخها وآثارها وقد صحب الشيخ عبدالحميد رحمه الله الدكتور محمد حسين هيكل إلى زيارة آثار مكة المكرمة ومن أبرزها غار حراء وقد كتب الدكتور هيكل عن ذلك بالتفصيل فى كتابه المشهور فى منزل الوحى الذى الفه بعد كتابه « حياة محمد » ﷺ ومما أذكره عن رحلة الدكتور هيكل هذه إلى مكة المكرمة أنه كان أحد الخطباء فى الحفل الذى كان يقيمه شباب مكة وأدباؤها فى كل عام فى منى فى أيام التشريق ولم يكن قد أعد نفسه للخطابة ولكنه استجاب للطلب وألقى خطابا جيدا فى ذلك الحفل نشرته جريدة صوت الحجاز فيما بعد وأشرف على تصحيحه الشاعر والكاتب الكبير الأستاذ محمد حسن فقى بطلب من الدكتور هيكل نفسه كما علمت منه فى ذلك الزمان .

مَـوْلِـدُ النَّـبيّ ﷺ

ولد النبى صلى الله عليه وسلم بمحلة شعب على المعروفة بمكة المكرمة والتى تسمى فى الوقت الحاضر سوق الليل وكان الشيخ عباس قطان يتمنى أن يقيم فى هذا المكان مكتبة عامة واتفق مع اصهاره آل الكردى أن يشترى منهم مكتبة المرحوم الشيخ ماجد كردى الشهيرة بالمكتبة الماجدية وهى من أثمن المكتبات الخاصة وينقل محتوياتها إلى هذه الدار صيانة للموضع الذى ولد فيه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أن يبقى معرضا للاهمال وتكريما له باقامة عمل نافع للناس فيه ، وكانت العقبات التى واجهها الشيخ عباس قطان لتحقيق هذه الأمنية الكبيرة كثيرة ولكنه استمر فى محاولاته تلك دون كلل أو ملل فاستطاع بعد سنوات طويلة من الصبر وتصيد الفرص المناسبة أن يحظى بموافقة جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز للسماح له باقامة المبنى الذى يريد وما أن حصل على الإذن من جلالته بإقامة المبنى حتى سارع باتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك عام ١٣٧٠ هـ وكان يشرف على البناء بنفسه فى كل يوم راغبا فى سرعة إنجازه وتحقيق الأمنية التى كان ينشدها برؤية المكتبة العامة مشيدة فى موضع مولد النبى صلى الله عليه وسلم وفى يوم من أيام شهر رجب ١٣٧٠ هـ ذهب كعادته لرؤية العمارة مصطحبا بعض أصدقائه ولكنه شعر بألم مفاجىء وهو واقف فى الموقع فقد فاجأته نوبة قلبية حادة فأمسك به الحاضرون من أبنائه واصدقائه واستدعى له أحد الأطباء ثم نقل إلى بيته وفى اليوم التالى فارق الحياة فكانت هذه العمارة التى تمنى أن ينشئها هى الخاتمة السعيدة لحياته ولقد قام أبناؤه من بعده بإكمال العمل الطيب الذى بدأه والدهم العظيم كما نقلوا إليها المكتبة الماجدية وسلمت إلى وزارة الحج والأوقاف وهى مفتوحة للجميع .



موضع مولد النبى ﷺ



موقع بيت السيده خديجه رضى الله عنها

دَارالسَيّدة خَديجَة

حينما تزوج النبى ﷺ أم المؤمنين السيدة خديجة بنت خويلد كان يسكن فى منزلها فى زقاق الحجر المعروف بزقاق الصَّوَّغ وفى هذا المنزل نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وفيه ولدت السيدة خديجة رضوان الله عليها أولاد النبى صلى الله عليه وسلم من ذكور وإناث وبعد وفاة السيده خديجة رضوان الله عليها استمر النبى ﷺ ساكنا هذه الدار الى حين هجرته إلى المدينة المنورة فأخذ الدار عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه وباعها إلى الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان فجعلها مسجدا[١] ، ولقد عدت على هذه الدار عوادى الزمن فأصبحت خرابا وكان الشيخ عباس قطان قبل وفاته قد استأذن من جلالة الملك عبدالعزيز فى إنشاء مدرسة لتحفيظ القرآن فى هذا المكان الذى نزل فيه القرآن والذى كان مسكنا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه لسنوات طويلة وكما حصل على الإذن ببناء موضع ولادته صلى الله عليه وسلم حصل على الإذن بتشييد المدرسة المطلوبة فى دار السيدة خديجة والتى أصبحت تسمى أخيرا (مولد السيدة فاطمة) نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وقد باشر الشيخ عباس قطان عمارة هذا المكان عام ١٣٦٨ هـ مبتدئا به قبل عمارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وحينما توفى أكمل أبناؤه من بعده إتمام العمارة المذكوره وسلمت إلى وزارة المعارف لافتتاحها للغرض الذى بنيت من أجله وقد تم افتتاح المدرسة لهذه الغاية وهى مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ولا تزال باقية حتى اليوم • إن هذا العمل العظيم الذى قام به المرحوم الشيخ عباس قطان هو من الأعمال الجليلة دون شك فعلاوة على ما بذله من المال

---

(١) ملخصا عن كتب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم لمؤلفه الشيخ محمد طاهر الكردى •

فى تشييد المكتبة والمدرسة وافتتاحهما للإفادة منهما فإنه صان بذلك المكان الذى ولد فيه النبى ﷺ كما صان المكان الذى نزل فيه القرآن على قلبه صلوات الله وسلامه عليه ، ولقد كانت محاولة الحصول على الاذن ببناء هذين المكانين فى حد ذاتها تتسم بالإخلاص والشجاعة لأن بعض الناس كانوا يتخذون من بعض الأماكن الكريمة مقرا للشعوذه والضحك على بسطاء العقول وخاصة من الحجاج والجهلة ولقد أدركت الناس فى جدة فى العهد الهاشمى وهم يتخذون من مقبرة حواء مكانا للشعوذة ويدخل إليها الحجاج للتبرك ويستدرون منهم الأموال بهذه الوسيلة ولست أشك أن جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله كان يعرف أولا إخلاص الشيخ عباس قطان وصفاء عقيدته ولهذا سمح له باقامة المدرسة والمكتبة فى المكانين المشار اليهما ولم يكن من السهل على غير الشيخ عباس قطان فى ذلك الزمن الوصول إلى ما وصل اليه وقد أعانه الله على ذلك فكانت له هذه الحسنة الجارية فى بلد الله الأمين تقبل الله منه وجزاه أفضل الجزاء ٠

القِرى لِقاصِدِ أُمّ القُرى

ومما يذكر للشيخ عباس قطان رحمه الله انه قام على طبع القرى لقاصد أم القرى لمؤلفه محب الدين الطبرى وهو كتاب جليل فى تاريخ مكة المكرمة فكلف بعض النساخين بنسخ أصل الكتاب المذكور وطبع منه ألفى نسخة على نفقته الخاصة قام بإهدائها إلى العلماء والأدباء وإلى أصدقائه من محبى المعرفة والاطلاع وهى مأثرة حسنة تضاف إلى مآثره الكثيرة ٠

إصلاحُ ذاتِ البَيْن

حينما كنت آقيم بمكة المكرمة فى الفترة ما بين ١٣٥٥ ـ ١٣٦٤ هجرية كان الشيخ عباس قطان مشهورا بإصلاح ذات البين وكان يتحرى الاصلاح بين

العائلات التى يطول بينها الجفاء أو يستقر بينها العداء أو الأفراد الذين تشتد بينهم البغضاء فتقطع أواصر المودة ويحل الكره محل الحب ولقد كان قضاة مكة يحيلون إليه من القضايا التى تعرض عليهم ما يرون أن من المصلحة تدخله فيها حفظا لصلة الرحم وحسن الجوار وكان الشيخ عباس قطان رحمه الله يبذل جهده ووقته للإصلاح ما وسعه ذلك مستعينا بمن يتوسم فيهم الخير من الرجال لتحقيق هذه الغاية باذلا فى ذلك جاهه وماله وربما اقتضى الأمر مراجعة المسؤولين فى دوائر الحكومة لتذليل العقبات التى تعترض سبيله حتى إذا أثمر سعيه جمع المتخاصمين فى داره المضيافة على مائدة العشاء أو الغداء مع من إشترك معه فى الاصلاح ليذهبوا فى اليوم التالى إلى المحكمة فيطلبون من القضاة إلغاء القضايا التى كانوا يقيمونها معلنين تصالحهم وتراضيهم ولاشك أن هذا العمل من أجل الأعمال التى لا يقوم بها إلا أولئك الرجال الكبار الذين اتسعت صدورهم لمشاكل الناس فرأبوا الصدع وأقاموا المودة مقام العداوة وسعدوا بما رأوا من ثمار سعيهم الطيب بين الناس .

وفــاتــه

لقد ذكرت أن الشيخ عباس قطان فاجأه المرض وهو يقف على العمارة التى أنشأها فى مولد النبى ﷺ وقد توفى فى اليوم التالى بداره بالشامية صباح الاثنين ١٦ رجب ١٣٧٠ هـ عن عمر يناهز الثانية والخمسين عاما بعد حياة قضاها فى العمل الطيب تغمده الله برحماته الواسعة وأحسن جزاءه فى دار الخلود .





عبدالله محمد باحمدين

عبدالله محمد باحمدين

قصير القامة ممتلىء الجسم أسمر اللون واسع الجبهة نظراته تشع ذكاء وفطنة يضع على عينيه نظارة ذهبية ويرتدى العباءة العربية بينما يعمم رأسه بعمامة ملفوفة على الطريقة الحجازية ـ وهذه العمائم يستعمل فيها الشال البغدادى وهو من صناعة حلب ـ ولد بمكة المكرمة فى عام ١٣٢٩ هجرية وتعلم بمدارسها ثم تعلم اللغة الانكليزية على يد بعض أساتذتها من الهنود بمكة المكرمة كذلك ، وكان المتكلمون بهذه اللغة فى مكة بالذات من أبناء البلاد ندرة قليلة تعد على الأصابع ٠

وتوفى والده وهو شاب وكان يعمل فى متجر أبيه بالجودرية واراد الشاب عبدالله باحمدين أن يجمع شمل الأسرة وأن يبقى المتجر الذى أسسه والدهم مفتوحا يعمل فيه الجميع ، ولكن إخوته لم يوافقوا على هذا الرأى واقتسموا الثروة التى تركها والدهم وانفرد كل منهم بعمله الخاص ، ورأى عبدالله باحمدين نفسه وحيدا ولم يكن نصيبه القليل من تركة أبيه كافيا لتحقيق طموحاته الكبيرة حدثنى عن هذه الفترة من حياته ، قال كنت قد اشتريت سيارة لاستعمالى الشخصى وكانت السيارة تحتاج الى سائق وإلى مصاريف للوقود فتركتها مخزونة بضع شهور لأنى لم أكن قادرا على توفير ما يلزم لها من منصرفات ٠

وانكب الشاب عبدالله باحمدين على العمل فى المتجر الذى أسسه لنفسه وأخذ يواصل عمل أبيه فى استيراد الأقمشة وما إليها ولكن طموحه كان أعظم من هذا العمل الروتينى المحدود فما أكثر حوانيت الأقمشة من حوله وما أكثر مستورديها ، إنه يفكر فى أعمال كثيرة تحتاج اليها مكة المكرمة ولم يقدم عليها أحد بعد وهكذا فكر عبدالله باحمدين رحمه الله فى صناعة الثلج ·

مَصْنع الثّلج

كان هناك مصنع وحيد للثلج فى مكة المكرمة أسسه رجل سورى إسمه الحاج نسيم واشترك معه فى تأسيسه من الناحية المالية بعض أهالى مكة وكان عبدالله باحمدين واحدا من هؤلاء المساهمين ولست أدرى أن كانت هذه المساهمة من عهد والده وأرجح انها كانت كذلك المهم فى الأمر ان عبدالله باحمدين وجد نفسه فى المجال الذى يرغب والذى يعلم أنه الأصلح لمواهبه والألزم لبلاده ولم يكن عبدالله باحمدين راضيا عن شركة الثلج بأوضاعها تلك ففكر فى استيراد مصنع خاص للثلج يديره هو ، وكانت مكة مفتقرة إلى أكثر من مصنع فالبلد شديد الحرارة والجو الحار يبقى أكثر من سبعة شهور فى العام ولم تكن هناك الكهرباء ولا الثلاجات ـ فكانت الحاجة إلى الثلج تستمر طيلة العام وتزداد فى موسم الحج وهكذا أقدم عبدالله باحمدين على الدخول فى مضمار العمل الصناعى وهو فى مطلع شبابه فاستورد لنفسه مصنعا كبيرا للثلج واختار له مكانا مناسبا فى منطقة المعلاة بجوار مقبرة المعلاة ، ولقد استطاع التغلب على المشاكل الفنية التى واجهته فى استيراد المصنع ونقله إلى مكة ثم تركيبه وإدارته ولقد علمت أنه كان يشرف على كل صغيرة وكبيرة أثناء تركيب المصنع الذى تم بواسطة فنيين محليين ويشارك فى تذليل الصعاب التى تعترض إتمام هذا العمل حتى أنه قضى ما يقرب

من يوم وليلة فى مقر المصنع منهمكا فى العمل ناسيا أنه لم يطعم ولم ينم حتى تم إنجاز العمل ورأى الآلات تدور ، وهذا التصميم إن دل على شيء فانما يدل على العزيمة القوية والإرادة العظيمة لتحقيق النجاح مهما كانت المصاعب والعقبات •

الشركة العربية للتوفير والاقتصاد

لم يكتف عبدالله باحمدين بما حققه لنفسه من تأسيس مصنع كبير للثلج يسد حاجة مكة المكرمة فى ذلك الوقت أو معظم احتياجاتها من الثلج فلقد كان رجلا واسع الطموح ، عظيم الهمة وكان يرى أن بلاده مفتقرة إلى الكثير الذى يمكن تحقيقه من الأعمال الجديدة وخاصة ما يتعلق بالصناعة ولكن إمكانياته المادية لم تكن لتساعده على تحقيق ما يريد ، وكان عضوا فى مجلس إدارة الشركة العربية للتوفير والاقتصاد بمكة المكرمة ثم أصبح رئيسا لمجلس إدارة الشركة وأخيرا عهد اليه بإدارة أعمال الشركة المذكورة فوجد المجال أمامه مفتوحا لتحقيق بعض طموحاته فى هذه الشركة الفتية فقام بشراء باخرتين صغيرتين للشركة وأخذ يسيرهما بين موانىء البحر الأحمر وخاصة بين موانىء جدة والحديدة ، ولقد شهدت الرجل يتنقل بين مكة وجدة كلما وردت هذه البواخر أو إحداهما ليهيىء لرحلتها القادمه مستخدما كل جهده وتفكيره فى إنجاح هذا العمل الجرىء ، ولقد علمت أن معالى الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية حين ذاك قدر هذا العمل لمدير عام الشركة العربية للتوفير والاقتصاد وأبدى له من صنوف التشجيع ما جعله مطمئنا إلى الاستمرار فى العمل فليس سرا أن عملا من هذا النوع معرض للخسارة أكثر مما هو معرض للربح وفى الأوقات المعتادة تضمن الحكومات لشركات البواخر نسبة معنة من الأرباح للإبقاء على الاتصالات البحرية بين

بلادها والبلاد الأخرى حاملة للبضائع والركاب فالموضوع له أهمية اقتصادية عظيمة للدول ولقد افتتح عبدالله باحمدين فرعا فى جدة لمواجهة أعمال البواخر والاشراف عليها من قريب وبقيت هذه البواخر تمخر عباب البحر الأحمر طيلة المدة التى قضاها عبدالله باحمدين على قيد هذه الحياة ·

مَصْنع النسِّيج

وكان لشركة التوفير والاقتصاد مصنع صغير للنسيج فقام عبدالله باحمدين بادخال التحسينات عليه وهو مصنع يدوى على الطريقة القديمة ولقد رأيت الصناع من الشباب السعودى يعملون على هذه الأنوال اليدوية وينتجون بعض الأقمشة وكان هذا فى أيام الحرب العالمية الثانية وأذكر أننى كنت فى القاهرة وكان عبدالله باحمدين هناك وكنا جميعا فى مجلس الشيخ محمد سرور الصبان - رحمه الله - بداره بمصر الجديدة وكان يحضر المجلس أحد كبار أصحاب مصانع النسيج من أصدقاء الشيخ محمد سرور فجاء ذكر مصنع الشركة العربية للتوفير والاقتصاد فاقترح معالى الشيخ محمد سرور أن يقوم عبدالله باحمدين وأنا بزيارة مصانع الغزل الذهبية التى أسسها الرجل الحاضر معنا بالمجلس وحدد لنا الرجل فى الحال موعدا فى اليوم التالى وذهبنا إلى هناك فرأينا الآلات الميكانيكيه تنتج الأقمشة المتنوعة فى سرعة وإتقان وجمال وخرجنا من المصنع ونحن ممتلئون إعجابا بما رأينا ، وتحدثنا فى الأمر فاتفق الرأى على أن مصر تزرع القطن ولديها مصانع الغزل التى تحول القطن إلى خيوط ومن ثم يمكن لمصانع النسيج أن تستعمل هذه الخيوط فى نسج الاقمشة وإنتاجها ، ونحن فى بلادنا نحتاج إلى استيراد كل شيء ، استيراد خيوط الغزل من الخارج ثم نسجها إذا أردنا استيراد مصانع للنسيج مثل تلك التى شاهدناها ، وكان السؤال الذى يدور فى رؤوسنا

أيهما أجدى اقتصاديا هل هو استيراد خيوط الغزل ونسجها فى البلاد أم استيراد القماش منسوجا وجاهزا ؟ وهل تستطيع الصناعة المحلية الناشئة مزاحمة السيل المتدفق من الصناعة الخارجية من جميع أنحاء العالم ، هذا هو السؤال الذى كان يدور فى أذهاننا بعد مشاهدة هذا المصنع الميكانيكى للنسيج ويبدو أنه كان هاما ولايزال ليس لصناعة النسيج فحسب ولكن لأى صناعة يراد إدخالها إلى البلاد ولهذا فإن وزارة الصناعة تطالب قبل إصدار ترخيص بأى صناعة جديدة تطالب بدراسة للجدوى الاقتصادية وتقوم الوزارة نفسها بالدراسات للصناعات المختلفة قبل اتخاذ قرار بشأنها وهى الطريقة المثلى لإقامة الصناعات على أسس سليمة قوية حتى لا تتعرض للتعثر والانهيار ٠

المحافظة العربية

فى أيام الحرب العالمية الثانية حدث نقص فى أشياء كثيرة كما يحدث فى أيام الحروب وكان بمستودع الشركة العربية للطبع والنشر التى تطبع فيها جريدة صوت الحجاز فى ذلك الزمان كميات من الورق على اختلاف أنواعه ٠ وكانت الشركة تعانى من الخسارة وعلم عبدالله باحمدين بالأمر فقال ليس من المعقول أن تخسر الشركة وفى مستودعاتها الورق المعدوم فى الأسواق والذى يحتاج إليه الناس وطلب الاطلاع على قائمة البضائع الموجودة بالمستودعات وما أن إطلع عليها حتى أبدى استعداده لشرائها وقد دفع فيها ثمنا يبلغ أربعة أضعاف الثمن المقدر لها فى ذلك الوقت.وتمت الصفقة وكنت أتوقع أن يقوم بعمل عادى مثل تصنيع الورق إلى دفاتر للكتابة وبيعه فى الأسواق ولكنه فاجأنى كما فاجأ الناس جميعا بشىء لم يكن فى الحسبان ، كانت فى مستودعات الشركة كميات كبيرة من الورق المتين الذى يصلح لغلافات الكتب.وكانت الشركة فيما

مضى تمارس طبع بعض الكتب المدرسية ثم توقفت عن ذلك وبقى هذا الورق بمستودعاتها كميات مهملة لا يستفاد منها ، أقول أن عبدالله باحمدين فاجأنى باستخراج هذا الورق وقصه وتقسيمه الى ملفات لحفظ الأوراق مثل الملفات - (الدوسيهات) التى كانت ترد إلينا من الخارج والتى كانت معدومة فى الأسواق تماما ، وطبع على هذه الملفات كلمة (الحافظة العربية) ولم يكتف بهذا فأحضر إلى مقر المطبعة بعض السماكرة الذين كانت دكاكينهم مجاورة لها بالشامية - وأطلعهم على الحدايد التى تمسك الأوراق التى توضع فى الملفات واشترك معهم فى ترتيب الصنع وما هى إلا أيام حتى كان السماكرة الوطنيون قد صنعوا هذه الحدايد وخرجت الحافظة العربية ملفا كاملا لا أغالى إذا قلت أنه كان يمتاز على الملفات الخارجية بجودة الورق وجمال الطبع . وأذكر أن وزارة المالية اشترت كل ما أنتجه عبدالله باحمدين من هذه الملفات لأن الدوائر الحكومية كانت تفتقر إليها . أن الورق كان موجودا فى مخازن الشركة ولكن المسؤولين عنها كانوا يعتبرونه كمية مهملة وقد استطاع عبدالله باحمدين بفكره النير أن يحول هذه الكمية المهملة إلى عمل نافع يسد به حاجة البلاد فى ذلك الوقت العصيب ، ومن هنا تظهر إتجاهاته الفكرية التى تدل على ذهن متفتح يبحث دائما عن الجديد والمفيد[1] .

مكائن الكهرباء

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أدخل عبدالله باحمدين تطورا ملموسا على تجارته أو على الأصح حاول إدخال تطور مفيد فى التجارة فى مكة المكرمة فلقد كان من أوائل الناس الذين قاموا باستيراد المكائن الزراعية ومكائن الانارة -

---

(١) بعد نشر هذه الحلقة اتصل بنا كثير من اصدقاء المرحوم عبدالله باحمدين مشيرين الى مصنع الحلاوة الطحينية الذى اسسه عبدالله باحمدين فوجبت الاشارة الى ذلك ..

المجموعات الكهربائية ـ فى مكة المكرمة وبذلك يسر على الناس إنارة بيوتهم أو محلاتهم التجارية ، وإنى لأذكر مدينة جدة والإنارة الكهربائية مقتصرة فيها على بيوت السفارات ولم يكن فى مدينة جدة كلها مكينة كهربائية إلا فى بيت الشيخ محمد نور جوخدار. وكان من أوائل المواطنين الذين أدخلوا الكهرباء إلى بيوتهم وأذكر أن الحاج عبدالله على رضا حينما احتفل بزواج ابنه ـ معالى الشيخ محمد عبدالله رضا ـ وزير التجارة الاسبق ـ قام الشيخ محمد نور جوخدار بمد النور الكهربائى من منزله إلى منزل الحاج عبدالله على رضا لهذه الغاية كما أن آل قابل كانوا من أوائل الناس الذين أدخلوا الكهرباء لا إلى منزلهم فحسب وإنما قاموا بإنارة شارع قابل المعروف باسمهم حاليا وزودوا كل دكان بمصباح للإضاءة ومروحة كهربائية.وكان هذا العمل فى ذلك الوقت يعتبر فتحا جديدا لأنه أتاح الانارة الكهربائية والتهوية لشارع كامل. وبهذه المناسبة فإن هذا الشارع كان قد قام بتعميره الشريف الملك الحسين بن على ابان العهد الهاشمى الأول وفى عهد الملك على بن الحسين اشتراه آل قابل من الحكومة ومن الملك على شخصيا رحمه الله لأنه كان محتاجا إلى المال والتموين لصرف أغذية ومرتبات الجنود أثناء الحصار الذى كان مضروبا على مدينة جدة خلال الحرب الهاشمية السعودية .

نعود الآن إلى المرحوم عبدالله باحمدين فنقول إنه بعمله هذا فى إدخال التطور الحضارى على تجارة مكة المكرمة فقد يسر للراغبين الحصول على المكائن الكهربائيه لإنارة بيوتهم ومحلاتهم بما يتبع هذه الإنارة من تهوية وتبريد وأنى لأذكر أن هذه التجارة كانت محصورة فى أيدى البيوت التجارية الأجنبية فإذا رغب المرء فى شراء مكينة كهربائية ذهب إلى أحد هذه البيوت التجارية وطلب مترجما للدخول على المدير الانجليزى وبعد شرح الطلب يدفع معظم القيمة التى

يحددها هذا المدير وهى عادة كبيرة ومبالغ فيها ثم ينتظر بضعة شهور حتى ترد الماكينة فتسلم له أوراقها لإخراجها من الجمارك ثم يبحث عن مهندس لتركيبها واذا كان هذا الأمر يتم بهذه الصعوبات فى مدينة جدة التى يكثر فيها الأجانب ويكثر فيها الفنيون والمتكلمون باللغة الانجليزية فإن الأمر بالنسبة لمكة المكرمة أكثر صعوبة دون شك ، ولهذا فإن النظرة إلى هؤلاء الرجال الذين اتجهوا بتجاراتهم إلى توفير الوسائل الحضارية للناس يجب أن تكون نظرة تقدير وإكبار وخاصة فى ذلك الزمن السحيق .

رحلته إلى أمريكا

انتهت الحرب العالمية الثانية وقبيل انتهائها قام عبدالله باحمدين رحمه الله برحلته الأولى إلى امريكا وأراد الله أن أقوم برحلة بعده مباشرة إلى هناك وكانت السفارة السعودية فى واشنطن قد قامت مشكورة باختيار مرافق لى فى هذه الرحلة وكان هذا هو نفس الرجل الذى رافق عبدالله باحمدين أثناء زيارته للولايات المتحدة ، وحدثنى الرجل عن انطباعاته عنه بعد مرافقته بضع أسابيع ، قال كان عبدالله باحمدين مهتما باستيراد قطع الغيار ولكنه لم يكن يتصل بالبائعين وإنما يحاول الوصول إلى الصناع الذين يمونون البائعين بإنتاجهم ولقد سمعت أحد رؤساء الشركات الأمريكان يثنى عليه ويقول له إنك نمط فريد من الرجال الذين يزورون هذه البلاد من الشرق الأوسط أحدثك عن البيع فتحدثنى عن الصنع ، وهذه الحوادث وأمثالها تظهر طريقة تفكير الرجل كما تكشف عن تطلعاته .

مصانع باحمدين

وبانتهاء الحرب العالمية الثانية أتيح لعبدالله باحمدين أن يحقق بعض طموحاته فحصل على أرض كبيرة خارج مكة المكرمة وأنشأ عليها مصانع

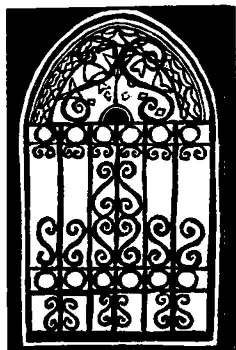
باحمدين ، هذه الأرض أقامت عليها الدولة فندق مكة انتركونتنتال وهدمت مباني مصانع باحمدين بعد شراء الدولة لها لإقامة هذا المبنى عليها ، والذى كان الغرض منه أن يكون مبنى للمؤتمرات الدولية ثم تحول إلى فندق كما هو عليه الحال الآن . نقول أقام عبدالله باحمدين على هذه الأرض مصانعه أو على الأصح النواة الأولى لهذه المصانع فأنشأ عليها مصنعا كبيرا للثلج ومصنعا كبيرا للنجارة كذلك وورشة ميكانيكية ، وكان قد بدأ النواة الأولى لتأسيس عمله العقارى بشراء أرض فى مدخل مكة المكرمة وإقامة فيلات صغيرة عليها ثم بيعها للراغبين وقد أنشأ فعلا فيلا بمدخل مكة المكرمة اشتراها فيما بعد المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب من ورثته كما أسس فيلا أخرى أمام المصانع وقد بيعت لأحد المواطنين حين بيع المصانع .

وفاة عبدالله باحمدين

كان عبدالله باحمدين يفكر فى أشياء كثيرة ويعمل لأشياء كثيرة وكان منكبا على عمله فى متجره وفى مصانعه وفى الشركة العربية للتوفير والاقتصاد بجهد عظيم فلقد كان من الرجال الذين يحبون العمل ويتفانون فيه حتى أنه كان يقضى كل نهاره فى مكتبه ومتجره متناولا غداءه وربما عشاءه فى مقر العمل ولا يعود الى داره إلا بعد صدر من الليل وفى يوم من ايام رمضان عام ١٣٦٩ هجريه شعر بتأثر فى صحته فلم يستسلم للراحة أو يستدعى الطبيب وظن انه مرض عارض لا يلبث ان يزول وذهب إلى المسجد الحرام للافطار هناك وصلاة المغرب جماعة كما تعود وطاف بالبيت وصلى المغرب وعاد الى داره وبعد الإفطار شعر بأعراض المرض ولكن النوبة القلبية التى داهمته كانت شديدة فأسلم

الروح وانطفأ كما ينطفىء المصباح وهو أكثر ما يكون حيوية وأعظم ما يكون نشاطا وأشد ما يكون طموحا نعم اختطف الموت عبدالله باحمدين وهو فى عنفوان رجولته إذ كان عمره حوالى الأربعين ولكن للقدر أحكامه وللخالق حكمته فتوفى مبكيا عليه من كل من عرفه من الناس وما أكثرهم ودفن فى اليوم التالى بمقبرة المعلاه وظلت الصحافه تنشر للكتاب من أصدقائه مرثياتهم له وذكرياتهم عنه رحمه الله رحمة الأبرار فلقد كان طلعة بين من عرفت من الرجال فى ذلك الزمان .





أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

الشيخ عبدالرؤوف جمجوم

ولد الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بمدينة جدة عام ١٢٩٩ هـ وكان أبوه الشيخ عبدالعزيز جمجوم قد ورث عن والده الشيخ صلاح جمجوم تجارة واسعة وكان بيت الجمجوم معروفا بمركزه التجارى الكبير فى مدينة جدة فى ذلك الزمان وتعلم الشاب عبدالرؤوف جمجوم الكتابة والقراءة والعلوم الدينية على أيدى أساتذة عصره وكان جميل الخط جيد الحساب وبعد اكمال تعليمه عمل فى بيتهم التجارى إلى أن توفى والده وهو فى سن الشباب وكانت وفاة الوالد كارثة على الشاب وإخوته من آل الجمجوم مما اضطر الشاب عبدالرؤوف إلى العمل كاتبا لدى التجار بعد أن كان لأسرته بيت تجارى مرموق ، وكانت العائلة التى يتكون منها آل الجمجوم كبيرة وتحتاج الى مصرف كبير فعمل الشاب عبدالرؤوف وكان كما قلنا حسن الكتابة جيد الحساب عمل لدى أربعة من التجار فى وقت واحد فكان يعمل لدى الحاج على لطيفه ، جد معالى الشيخ محمد عبدالله رضا ـ وزير التجارة الأسبق لوالدته ـ ولدى الشيخ عبدالله الصغير التلمسانى ، سبقت الترجمة له فى إحدى الحلقات السابقة ، ولدى الشيخ على شبكشى والد الأستاذ عبدالمجيد شبكشى واخوانه ، ولدى التاجر صديق ميرخان وكان يقسم أوقاته فى العمل لدى هؤلاء التجار الأربعة من الصباح إلى ما قبل منتصف الليل وكان فى

نفس الوقت يشترى الغاز بالجملة حيث يقوم أخوه الشيخ محمد صالح جمجوم على بيعه بالتفرقة فى بيتهم التجارى كما كان يقوم بأعمال الدلالة بين التجار وهكذا وجد الشاب عبد الرؤوف نفسه ملزما بالعمل المتواصل من الصباح الباكر إلى منتصف الليل ليقوم بالإنفاق على هذه العائلة الكبيرة التى تركها أبوه ولتربية اخوته وتعليمهم ولقد استمر على هذه الحال ثلاث سنوات ثم تولى العمل وكيلا لتجار مكة المكرمة بالدلالة يقوم بشراء البضائع لهم وتحميلها بالجمال إلى مكة المكرمة وكان يقوم بالعمل بمفرده مشتريا للبضائع ومشرفا على استئجار الجمال ثم تحميلها وعلى كتابة الرسائل المتعلقة بها إلى التجار المكيين وقيد حساباتهم فى الدفاتر وهو عمل مضن يتولى القيام به عدة أناس ولكن عبدالرؤوف جمجوم وجد نفسه متحملا مسؤوليات عظيمة وهو فى هذه السن الباكرة فاضطر أن يجعل من نفسه وكيلا يقوم بكافة الأعمال فى وقت واحد ٠

وعلى ذكر البيوت التجارية أود ان أذكر ان البيوت التجارية فى جدة كانت عبارة عن مدارس صغيرة يتعلم فيها الطلبة أعمال الحسابات التجارية حيث يعملون كتاب حسابات للتجار يمسكون دفاترهم (على طريقة الدوبيا) وبعد سنوات طويلة يتحول قدامى الكتبة التجاريين الى تجار وقد حذقوا أثناء عملهم الطويل فى البيوت التجارية أعمال التجارة نفسها ولقد كان بيت المرحوم الشيخ محمد بن حمد ـ والد الشيخ أحمد بن حمد التاجر المعروف حاليا ـ من أبرز البيوت التى يلتحق بها التلاميذ التجاريون إن صح هذا التعبير ولقد التحقت شخصيا كتلميذ فى هذا البيت وأول ما كنا نتعلمه هناك هو القيد فى دفتر الخرطوش ، وهو دفتر صغير تسجل فيه الأعمال اليومية للمبيعات ثم ينقل منه الى القيد فى دفتر اليومية الدفتر الكبير ، كما تعلمنا فيه كتابة التحارير التجارية وتتم بأن يجلس الكاتب بين يدى التاجر فيملى عليه الرسائل الى العملاء مبتدئا بافتتاح الكتاب

مستفسرا عن صحته أولا هو وصحة عائلته ثم يتحدث عما يريده مما يتعلق بالأعمال التجارية ثم يختم الكتاب بالتحيات وما إلى ذلك وبعد إتمام كتابة الرسائل تطبع فى مطبعة (البالوظة) ويتم الطبع بإلصاق الرسالة فى دفتر معد لذلك من الورق الخفيف بعد أن توضع بداخله الرسالة وعليها قطعة مبللة بالماء من الخيش ثم يوضع الدفتر بكامله تحت مكينة ضغط من الحديد تدار باليد لتضغط على الرسالة فيتم طبعها على الورق الخفيف داخل الدفتر بطريقة الضغط فإذا الرسالة مطبوعة نصا وحرفا وهذا بطبيعة الحال قبل وجود الآلات الطابعة والآلات المصورة التى تزخر بها المكاتب التجارية فى الوقت الحاضر ، ويتدرج التلميذ فى العمل فإذا أنس التاجر منه نجابة كلفه بالكتابة فى الدفاتر الكبيرة مثل دفتر اليومية او دفتر الذمامات والصوافى وما إلى ذلك فإذا احتاج البيت التجارى إلى كاتب حسابات انتقل التلميذ الى مرحلة العمل ولقد عرفت كثيرا من تجار جدة الكبار وقد بدأوا حياتهم كتابا فى هذه البيوت التجارية أذكر منهم المرحومين الشيخ محمد بن حمد والشيخ حسين فايز وكانا يعملان فى بيت الفضل ثم انفرد كل منهم بتجارته الخاصة وأصبح من اشهر تجار جده وخلفهم أبناؤهم من بعدهم والشيخ عبدالرزاق عجلان شفاه الله وعافاه كان كاتبا لسنوات طويلة فى بيت الشيخ محمد بن حمد ثم انفرد بعمله التجارى المستقل ، والشيخ محمد على أبوداود كان كاتبا فى بيت الشيخ ابوبكر باغفار رحمه الله ثم أسس عمله التجارى الضخم المعروف الآن مع شقيقه الشيخ إسماعيل أبوداود رئيس الغرفة التجارية وآل داود هم أصحاب مصانع التايد والكلوركس ومؤسسوها والغرض من ذكر هذا الاستطراد هو أن البيوت التجارية كانت عبارة عن مدارس صغيرة يتخرج منها المحاسبون ثم التجار ، وكان البيت التجارى مفتوحا من الصباح إلى المساء يتناول فيه التاجر مع أبنائه وكتبته وضيوفه طعام الغداء ،

ويستمر العمل فيه إلى المساء ثم يعود أكبر الكتاب بعد صلاة العشاء ليقضى ساعة أو أكثر فى القيد فى الدفاتر وفى هذه الحالة يتناول الجميع طعاما خفيفا العشاء ، وهكذا فإن العمل كان يستمر طيلة النهار وصدرا من الليل فى بعض الأحيان كما أن أيام الجمع لا تعتبر ايام أجازات إذ تفتح فيها المكاتب التجارية فى النصف الأول من النهار إلى وقت الصلاة وغالبا يتبادل فيها التجار الزيارات مع أصدقائهم من الموظفين والأعيان وكانت المكاتب التجارية فى مدخل البيت أو الدور الأول فيه بينما يسكن التاجر فى الأدوار العليا ، وكانت أغلب البيوت التجارية مزودة بمخازن تخزن فيها البضائع ، ولايزال بعض هذه البيوت موجودا بجدة حتى الآن على الوضع الذى وصفناه .

نعود بعد هذا الاستطراد الطويل عن البيوت التجارية ودورها فى تخريج التجار إلى الشيخ عبدالرؤوف جمجوم لنقول انه استطاع بعد جهاد شاق إعادة بيتهم التجارى إلى المركز المرموق الذى كان له فى حياة أبيه وجده .

مدارس الفلاح

ذكرنا فى ترجمة الحاج محمد على زينل رضا مؤسس الفلاح أنه حينما قام بتأسيس المدرسة الفلاحية فى جدة كان هناك له زملاء تعاونوا معه فى تأسيسها وذكرنا أن الشيخ عبدالرؤوف جمجوم وشقيقه الشيخ محمد صالح جمجوم كانا من هؤلاء الشبان الذين تعاونوا مع مؤسس الفلاح فكانوا يأخذون التلاميذ من بيوت آبائهم بعد غروب الشمس ويعيدونهم إلى بيوتهم فى جنح الظلام حينما كانت الدراسة فى المدرسة تتم ليلا لعدم الحصول على الترخيص من الحكومة العثمانية بافتتاح المدرسة وبعد الحصول على الترخيص لم تكن هناك حاجة لهذه الرحلات الليلية وخصوصا بعد أن أشترى الحاج محمد على المبنى الأول لمدارس الفلاح

والذى لاتزال المدرسة تشغله كواحد من أهم مبانيها ولقد ذكرت ان التوسع فى الدراسة اقتضى من الحاج محمد على زينل أن يهاجر الى الهند للعمل هناك حتى يتمكن من التوسع فى الصرف على مدارس الفلاح وهى تنمو عاما بعد عام ويزيد طلبتها فى كل يوم ·

حينما قرر الحاج محمد على زينل السفر الى الهند كان محتاجا الى رأس المال الذى يبدأ به عمله هناك كما كان محتاجا إلى الانفاق على مدارس الفلاح فترة غيابه وقد اختار الشيخ عبدالرؤوف جمجوم وكان صديقا شخصيا له ومن اكبر معاونيه ليتولى وكالة مدارس الفلاح فى جدة ومكة ولقد قام الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بهذه الوكالة خير قيام فكان هو يتولى الإنفاق على المدارس الفلاحية ويحرص على تقديم مرتبات مدرسيها وموظفيها شهريا دون تأخير وكثيرا ما كان يدين المدرسة أو على الأصح مؤسسها المبالغ الطائلة فى سبيل هذا الإنفاق الى ان تصل المبالغ المطلوبة من الهند فى شكل بضائع أو نقود ، وجاءت الحرب العالمية الأولى فانقطعت التجارة بين الهند والحجاز وكان الحلفاء قد قرروا حصة الحجاز فى البضائع التى تصدر له من الهند فى باخرة واحدة شهريا تحضرها باخرة اسمها الكويت وكان الحاج محمد على يرسل فى هذه الباخرة ما تسمح به ظروف التصدير منها وكانت أقل كثيرا من حاجة مدرستى الفلاح فى مكة وجدة حتى أنه فكر فى الاكتفاء بمدرسة واحدة خلال سنوات الحرب ولكن الشيخ عبدالرؤوف جمجوم أصر على أن تبقى المدارس فى مكة وجدة مفتوحة الأبواب وأخذ على نفسه تدبير الإنفاق عليها مما اضطره إلى التضييق على عمله التجارى والاختصار فيه ، كان الناس يقبلون على شراء العقار والذهب الذى كان يباع بأرخص الأسعار ويكدسون أموالهم فيها ليستردوها مضاعفة بعد انتهاء الحرب ويقال ان بعض تجار جده اشتروا الكثير من العقار فى مكة فى تلك الأيام حيث كان يباع

البيت الواحد بما يساوى خمسين جنيها ذهبا ، وكان هو يجمع الدينار فوق الدينار ليواجه به مرتبات المدرسين والموظفين لمدارس الفلاح محتسبا ذلك كله عند الله قائما بعمله كوكيل لمدارس الفلاح بروح المؤمن المحتسب وكان بعض التجار يدفعون للمدرسة إعانات شهرية فلما طال زمن الحرب امتنعوا عن تقديمها ولم تكن ذات شأن .

ويروى الشيخ عبدالرؤوف جمجوم فى ذلك قصة لطيفة ، قال كنا فى أواخر شهر رمضان ١٣٣٤ هـ وحل موعد دفع مرتبات الفلاح وكنت قد دفعت آخر جنيه فى الصندوق لمرتبات المدرسين وآويت الى فراشى فى الليل وأنا مغموم فالعيد سيأتى غدا أو بعد غد ولم يبق عندى ما انفقه على أسرتى بما تضمه من أولاد وبنات كثيرين وفى الساعة السابعة ليلا ، قبيل الفجر وأنا أتقلب على فراشى وقد جفانى النوم من كثرة التفكير والهم وإذا مناد ينادينى من أسفل البيت ويدعونى الى مقابلته فنزلت فوجدت المرحوم الشيخ محمد الطويل ناظر عموم الرسوم ومعه الشيخ أحمد ناظر باشكاتب الجمرك ـ رئيس الكتاب ـ والشيخ محمد نور تركى امين صندوق الجمارك وهم يحملون معهم صرة من الريالات وقال لى الطويل : هذا مبلغ ستمائة ريال مجيدى ارسله لك الملك الشريف الحسين بن على لتصرف منه مرتبات خدم المساجد والأئمة والمؤذنين ـ وكان الشيخ عبدالرؤوف مديراً لأوقاف جدة ـ قال الشيخ عبدالرؤوف ولاشك أن هذا الفرج الذى أرسله الله إلى كان ببركة مدارس الفلاح وبحسن النية الذى انطوت عليه النفس فى القيام بهذا العمل ، قال وفى اليوم التالى صرفت مرتبات موظفى المساجد وكانت تبلغ ثلاثمائة ريال مجيدى واستدنت الثلاثمائة ريال الباقية للانفاق على أهلى وأولادى لأعيدها بعد العيد

ولسنا فى حاجة لأن نقول إن مؤسس الفلاح قام بتسديد كل ما أنفقه الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بعد نهاية الحرب وعودة الأمور إلى طبيعتها الاعتيادية ولكن

الفكرة هى : ماالذى كان يحدث لمدارس الفلاح لو لم يكن وكيلها الشيخ عبدالرؤوف على هذا المستوى العظيم من التفانى فى الإبقاء عليها وإبعادها عن أى تأثير يعوق مسيرتها الخيرة ؟ ففى مثل هذه المواقف العصيبة يظهر عظماء الرجال وتظهر تضحياتهم وأعمالهم ، ولقد كان الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بعمله هذا عظيما ومخلصا فى حبه للعلم وتيسيره للناس .

بدل مصاريف زواج ووفاة للفلاح

ولقد انعكس حب الشيخ عبدالرؤوف جمجوم للعلم الذى كانت مدارس الفلاح مثالا حيا له فى ذلك الزمان على التصرفات الاجتماعية بالنسبة لعائلة الجمجوم فقد اطلعت على الوصية التى تركها المرحوم الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بخط يده لإخوانه وفى مقدمتهم المرحوم الشيخ محمد صالح جمجوم الذى قام بعبء وكالة الفلاح من بعده أحسن قيام ، أقول اطلعت على الوصية التى كتبها الشيخ عبدالرؤوف جمجوم والتى يوصى فيها اخوته وفى مقدمتهم الشيخ محمد صالح جمجوم رحمهم الله أنه فى حالة حدوث زواج فى الأسرة ألا تقام الحفلات الباذخة بل تتم فى غاية البساطة ويستعاض عنها بدفع خمسين جنيها لمدارس الفلاح كما أنه فى حالة حدوث وفاة ان تتخذ اجراءاتها ببساطة متناهية وألا تقام الولائم فى العشرين والأربعين التى كانت تقام فى ذلك الزمان وأن يستعاض عنها بمبلغ عشرين جنيها ذهبيا تدفع لمدارس الفلاح ولاشك أن هذا التصرف يدل على منتهى الحكمة لدى الشيخ عبدالرؤوف جمجوم وآل الجمجموم لأنه توفير للمال وصرفه الى مصارفه الصحيحة النافعة وإعطاء القدوة الحسنة للناس على ما يجب أن يفعله الأغنياء فى سبيل الخير العام ولقد أدركت آل الجمجوم وهم يتبعون الوسائل المتناهية فى البساطة فى تزويج أولادهم وبناتهم فى الأربعينات وأوائل

الخمسينات رغم مركزهم التجارى الكبير ومكانتهم بين أكبر الأسر فى مدينة جدة ، ولقد قيل لى إنهم كانوا يسمون البنت حين ولادتها على ابن عمها الذى يكون قريبا من سنها ويكون معروفا لدى الأبوين أن فلانة لفلان وكان منزلهم الكبير فى جدة ملاصقا لمسجد المعمار وكان رجال العائلة وأولادهم يصلون الفرائض كلها فى المسجد ويراقبون أولادهم بل ويعاقبونهم أن تأخروا عن أدائها فاذا رأوا الفتى والفتاة قد بلغا مبلغ الزواج قام الأب فى صمت بإعداد حجرة الابن وجهزها بالفرش البسيط السائد فى ذلك الزمان وإعداد مراتب النوم والألحفة وشراء سحارة للملابس وكانت تقوم مقام الدواليب وكذلك تجهيز هذه الحجرة بالمصباح الغازى اللازم لها ويقوم والد العروس بالإشارة الى زوجه بإعداد الملابس اللازمة للفتاة وهى فى حدود المعقول ، ويجتمع الأبوان بعد صلاة العشاء فيعقدان للعروسين فى المسجد وينطلق الفتى ليجد عروسه وقد زفت اليه فى تلك الليلة ، وبعدها فى حفل يقتصر على كبار العائلة من رجال ونساء ولقد كنت أعزو ذلك إلى كثرة أفراد الأسرة واضطرارهم إلى تزويج أولادهم وبناتهم فلو انهم اتخذوا الأساليب المعتادة فى دفع المهور الغالية واقامة الأفراح والليالى الملاح التى تليق بمكانتهم فى المجتمع لما وسعهم ذلك ولم أكن أظن أن للشيخ عبدالرؤوف جمجوم يدا فى اتباع هذه الخطة الحميدة وأن وراءها فكرا ثاقبا ورغبة خيرة الا بعد أن اطلعت على الوصية التى كتبها بخط يده رحمه الله

مرضه ووفاته

فى عام ١٣٣٨ هـ شعر الشيخ عبدالرؤوف جمجوم بأعراض المرض فى صدره وبعد أن طال به الأمر سافر إلى الهند للاستشفاء واستقبله صديقه الحاج محمد على زينل أحسن استقبال وانزله بداره فى مدينة بومباى وعرضه على الأطباء

المختصين وبعد أن بقى فى الهند ما بقى عاد إلى الحجاز ولكنه كان يشعر بآثار المرض ونصح له أصدقاؤه بالسفر إلى الطائف وكان موسم الحج قد حل فذهب الى مكة وأدى فريضة الحج ونزل بمدرسة الفلاح وكانت بالقشاشية قريبا من المسجد الحرام ولكن المنية لم تمهله فتوفى فى شهر ذى الحجة عام **١٣٣٨** هـ بمكة المكرمة ودفن بمقبرة المعلاة وهو فى الثامنة والثلاثين من العمر ولئن كانت سنو عمره قصيرة فلقد كانت هذه السنوات مباركة مملوءة بالعمل الجاد النافع فلقد استطاع إعادة مجد الأسرة وحفظ كيانها كما استطاع القيام بأعباء مدارس الفلاح فى أشد الأوقات وأصعبها . جزاه الله خير الجزاء .





عبدالله السليمان الحمدان

عبدالله السليمان الحمدان

نحيل الجسم ، قصير القامة ، كبير الرأس ، أسمر اللون ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، خفيف اللحية ، يرتدى العباءة العربية والعقال ٠

ولد الشيخ عبدالله السليمان الحمدان بمدينة عنيزة عام ١٣٠٢ هـ وتلقى العلم على أيدى علماء بلده كما أتقن الكتابة والحساب وكان يتميز بحسن الخط وجماله وكان عبدالله السليمان طموحا منذ نعومة أظفاره فما أن بلغ مرحلة الفتوة حتى توجه إلى الهند وعمل كاتبا فى بيت آل الفوزان فى مدينة بومباى كما كان يعمل أمثاله من الفتية الطامحين ، يلتحقون بالبيوت التجارية العربية فى الهند فيفيدون من ذلك دخلا حسنا ودربة جيدة على شؤون التجارة ، ولم يمض طويل وقت حتى انتقل إلى البحرين فافتتح له مكتبا تجاريا برأس ماله البسيط الذى جمعه أثناء عمله فى الهند ، فلقد كان الفتى عبدالله السليمان طموحا إلى عمل تجارى مستقل ، ولكن الفتى يقدر لنفسه شيئا وتريد الأقدار له شيئا أعظم فقد كان أخوه الأكبر محمد السليمان كاتبا فى ديوان السلطان عبدالعزيز آل سعود ـ جلالة الملك عبدالعزيز فيما بعد ـ فمرض محمد بأذنيه واضطر أن يعتزل العمل فترة من الزمان استدعى فيها أخوه عبدالله السليمان ليحل محله فى الكتابة للسلطان وانقضت الفترة المرضية وعاد محمد السليمان إلى عمله بديوان السلطان عبدالعزيز

فعاد هو إلى عمله فى البحرين الذى كان أخوه حمد السليمان يديره فى غيابه ، ولكن المرض يعاود الأخ الأكبر فيعتزل عمله لدى السلطان عبدالعزيز نهائيا ، ويطلب السلطان من عبدالله السليمان ١٣٣٠ هـ أن يتسلم الكتابة فى ديوانه ويعتزل عمله نهائيا فى البحرين ويتكفل السلطان عبدالعزيز بسداد ديون محله التجارى وتسوية أموره ليتفرغ لخدمة السلطان عبدالعزيز بصورة نهائية وهكذا دبر الله الأمور لعبدالله السليمان بحكمته الأزلية حين ربط أسبابه بأسباب السلطان عبدالعزيز الذى كان نجمه يسطع فى سماء الجزيرة العربية فى ذلك الزمان فتنضم أقطارها واحدة تلو الأخرى إلى عقد مملكته العظيمة فتنضم إليه إمارة حائل وعسير ، ومملكة الحجاز ، وقبلها تنضم إليه إمارة الهفوف ثم أخيرا إمارة الأدارسة فى جيزان ، ويرى جلالة الملك عبدالعزيز بفراسته العظيمة أن مجال عبدالله السليمان الحقيقى ليس هو فى ديوان الكتابة وإنما هو فى المهام العظيمة لهذه الدولة الفتية التى تمتد رقعتها يوما بعد يوم والتى تخرج من دور البساطة إلى مجال يتعاظم مع الزمن والتى تفتقر إلى جهود الرجال الكبار الذين يشيدون صرح الدولة ويقيمون أسسها بما يتفق مع متطلبات ضخامتها وامتدادها وتشابك مصالحها الداخلية والخارجية فأسند جلالته إلى عبدالله السليمان الشؤون المالية للدولة فكان مديرا لها ثم وكيلا للمالية وللتاريخ فإن أول من ولى الشؤون المالية لجلالة الملك عبدالعزيز بعد فتح الحجاز هو المرحوم الشريف شرف رضا ـ عضو مجلس الوكلاء فيما بعد ـ ثم النائب الثانى لرئيس مجلس الشورى أخيرا ـ وبعدها تسلم شؤون المالية الشيخ عبدالله السليمان ولم يمض طويل وقت حتى أصبحت وكالة المالية وزارة وكان عبدالله السليمان أول وزير لها ثم اسندت إليه وزارة الدفاع فيما بعد وفى وقت من الأوقات تولى وزارة الخارجية نيابة عن صاحب السمو الملكى الأمير فيصل الذى كان يتولى وزارة الخارجية منذ تأسيسها ـ جلالة الملك فيصل رحمه الله ـ

عَبدالله السُّليمان وَزير الماليّة

ولكى نتحدث عن عبدالله السليان لابد أن نذكر للتاريخ شيئا عن الصلاحيات الضخمة التى كانت فى يد الرجل أثناء ولايته لوزارة المالية التى امتدت طيلة حياة الملك عبدالعزيز رحمه الله ـ وفترة من عهد ولاية الملك سعود ٠

كانت أمور الدولة مقسمة إلى قسمين أو على الأصح بين رجلين ، الرجل الأول هو صاحب السمو الملكى الامير فيصل ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وكانت وظيفته الرسمية النائب العام لجلالة الملك فى الحجاز وكان مرجعاً للشؤون الداخلية فكانت الشرطة والمعارف والبلديات والصحة والبريد والتلغراف تابعة له كما كان يتولى الشؤون الخارجية وهى تمثيل جلالة الملك عبدالعزيز فى الخارج كما كانت اتصالات السفراء الأجانب ومفاوضاتهم تتم عن طريق مكتب وزارة الخارجية ويرجع إلى سموه فى كل الأمور الخارجية وهو يعرض بدوره ما يرى عرضه على والده المغفور له الملك عبدالعزيز ، أما وزارة المالية التى كان وزيرها الشيخ عبدالله السليان فكانت تمثل فى الواقع كل شيء فى الدولة باستثناء ما ذكرناه عن مهام النائب العام لجلالة الملك فكانت وزارة المالية هى المرجع فى الشؤون المالية جميعها ، كما كانت تقوم إذا صح هذا التعبير بأعمال وزارة الأشغال والحج والمواصلات والدفاع وأعمال الخاصة الملكية وكان الشيخ عبدالله السليان يتلقى صلاحياته العظيمة من ثقة المغفور له الملك عبدالعزيز الشخصية فيه فكان يتمتع بسلطة عظيمة لانغالى إذا قلنا إنه كان ينفرد بها طيلة السنوات الطويلة التى قضاها فى منصبه العظيم ولقد قام بتدوين الدواوين فى وزارة المالية وأسند رئاستها إلى رجال أكفاء كما قام بتأسيس الدوائر الرسمية فى الملحقات الشرقية والجنوبية فتأسست رئاسة أموال وجمارك الإحساء كما تأسست رئاسة

أموال وجمارك جيزان وأخذ ينتدب الرجال المشهود لهم بالقدرة والكفاءة لإدارة هذه المراكز وتأسيسها وتثبيت قواعدها ، وكان يلقى من جلالة الملك عبدالعزيز تأييدا كبيرا وثقة كاملة فاستطاع بهذا التأييد وبهذه الثقة أن ينهض بالأعباء الضخمة التي وكل إليه أمرها فكان رجل الدولة وواحدها في ذلك الزمان ، ولقد بلغ من ثقة جلالة الملك عبدالعزيز فيه أنه كان يدخل كل صباح مهجع جلالته دون استئذان ، وللتاريخ فان عبدالله السليمان كان رجلا يتميز بالإخلاص التام فى خدمة الدولة حتى أنه يعتبر من أكبر العاملين فى تأسيسها .

الملك فيصل وعبدالله السليمان

حدثنى المرحوم الشيخ إبراهيم السليمان بن عقيل رئيس ديوان صاحب السمو الملكى النائب العام لسنوات طويلة ـ السفير السعودى بالقاهرة فيما بعد ـ قال جاء الشيخ عبدالله السليمان مريضا إلى مصر وذهب إلى مدينة حلوان للاستشفاء وكان سمو الأمير يقصد الأمير فيصل رحمه الله ـ إذ ذاك فى القاهرة وعلم بالأمر فقال لى انه سيذهب لزيارة عبدالله السليمان فى حلوان ولكنه طلب منى أن أكتم أمر الزيارة لأنه يريد أن يفاجئه بها فلو علم عبدالله السليمان بأن فيصل سيزوره لسارع هو إلى ترك المصحة ، وبدأ سموه بالزيارة فكتمت الأمر وفى أصيل ذلك اليوم ذهبت بمعية سموه إلى حلوان وفوجىء عبدالله السليمان بزيارة فيصل فبكى من التأثر وقال لسموه أنت فيصل بن عبدالعزيز تحضر لزيارتى وما أنا إلا خادم لأبيك . قال الشيخ إبراهيم السليمان ولكن فيصل طيب خاطره وقال له إنك من بناة الدولة ـ والذين يعرفون الملك فيصل رحمه الله يعرفون أنه فى مثل هذه المواقف إنما يزن كلامه بميزان الذهب والواقع أن الرجلين يمكن أن يطلق عليهما أنهما من بناة الدولة رحمهما الله .

إلغـاء رُسُـوم الحَجّ

حينما تم توحيد المملكة العربية السعودية كانت الدولة تعانى من صعوبات مالية عظيمة وخاصة فى سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينات الميلادية وكانت واردات الدولة تتمثل فى الرسوم الجمركية ثم رسوم الحج وهو مبلغ خمسة جنيهات ذهبية تتقاضاها الدولة على كل حاج باعتبارها رسم المحجر الصحى ، وكان من أجلِّ أمانى الملك عبدالعزيز رحمه الله أن يلغى هذه الرسوم المفروضة على الحجاج لأن ضميره لم يكن مطمئنا لها ـ وطالما أفضى بأمنيته تلك إلى وزير ماليته عبدالله السليمان ، ولكن عبدالله السليمان لم يكن باستطاعته المجازفة بإلغاء مورد يعتبر المورد الثانى من موارد الدولة إذ ذاك وهى فى حاجة إلى المزيد من المال ، وحينما ظهر الزيت لأول مرة فى شرق المملكة راود جلالته الأمل فى أن يكون هذا الزيت سببا فى الغاء هذه الرسوم يعوض الله به الدولة ما تفقده منها ، ولقد كان من أعز أمانى عبدالله السليمان أن يحقق لجلالة الملك عبدالعزيز هذا الحلم العظيم ، وحينما توصل الشيخ عبدالله السليمان مع شركة أرامكو إلى اتفاق المشاركة الذى يسمح للدولة بمشاركة شركة أرامكو أرباحها أسوة بما فعلته فنزويلا فى اتفاقياتها سارع بالكتابة إلى جلالة الملك عبدالعزيز يزف إليه بشرى التوصل إلى هذه الاتفاقية ومن ثم يستطيع جلالته إلغاء رسوم الحج وتحقيق الأمنية الغالية التى كان يتمناها فبادر جلالة الملك عبدالعزيز بالغاء رسوم الحج وأعلن هذا الالغاء فى حينه ، وكان لهذا الإلغاء رنة فرح كبرى فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وللتاريخ فان إتفاقية المشاركة هذه تعتبر أول اتفاقية من نوعها فى المنطقة بالنسبة للدول المنتجة للنفط فى ذلك الزمان وكان ذلك عام ١٩٥٠ ميلادية الموافق لعام ١٣٧٠ للهجرة ·

انجازات عبدالله السليمان

إذا أردنا تقييم رجل من الناس فلابد أن ننظر فى إنجازاته وما قام به من عمل نافع فى حياة قومه وأثر هذا العمل فى نهضة البلاد وتقدمها فاذا تلمسنا هذه الآثار النافعة فى تاريخ عبدالله السليمان وجدناها بارزة فى إنجازاته سواء أكانت هذه الإنجازات وهو فى مركز القوة والسلطان وزيرا يأمر فيطاع أو رجلا عاديا تخلّى عن المنصب والنفوذ وأصبح واحدا من الناس لايتميز عنهم إلا بما وهبه الله من صفات ، كما هو شأن الخاصة من الناس ، ولسنا هنا فى مجال إنجازات عبدالله السليمان كوزير للمالية فلسنا نترجم هنا للتاريخ وزيراً ورجل دولة بقدر ما نترجم لعبدالله السليمان كشخصية عامة ظهرت فى حياة الناس فأثرت بأعمالها فى هذه الحياة ولهذا فاننا سنترك الجانب الرسمى الحكومى من تاريخ عبدالله السليمان ونتحدث عن الجانب الشخصى الذى هو هدف الترجمة فنجلو منه ما يظهر الصورة الحقيقية للرجل بعيدا عن المنصب والسلطان .

إنشاء الفنادق

كانت المملكة فى العقود الأولى من تاريخها تعانى من نقص فى كل مظاهر الحضارة والتمدين فالحياة كانت تتخذ شكلا بسيطا فى النصف الأول من هذا القرن الهجرى ولقد كان القادمون إلى البلاد يفتقرون إلى فندق ينزلون فيه فلا يجدون من ذلك شيئا فى أى مدينة من مدن المملكة وكان هذا يظهر بصورة جلية فى مواسم الحج حينما يؤم البلاد أعداد ضخمة من الحجاج الموسرين والذين يرغبون أن يجدوا الفندق الملائم فى مكة وجدة والمدينة المنورة ومشاعر الحج ، كما أن الدولة نفسها كانت تفتقر إلى ذلك بالرغم من بيوت الضيافة التى خصصتها

لضيوفها وكان زعيم مصر الاقتصادى الكبير محمد طلعت حرب باشا قد أسس شركة مصر للملاحة كما أسس شركة مصر للسياحة وحضر إلى الحجاز لاداء فريضة الحج واتصلت أسبابه بأسباب الشيخ عبدالله السليمان رحمهما الله فأبدى رغبته فى إيجاد فنادق لحجاج مصر فى كل من جدة ومكة لينزل بها الحجاج المصريون وقام فعلا باستئجار منزل الحاج يوسف زينل على رضا ـ أمام فندق جدة بلاس ـ ليكون فندق مصر فى جدة ولكن المشكلة كانت فى إيجاد فندق فى مكة يضم الأعداد الكبيرة من الحجاج التى تفد للحج والتى تستقر جميعها فى مكة قبيل أيام الحج وبعد أداء المناسك وهنا انبرى الشيخ عبدالله فتكفل ببناء الفندق على حساب وزارة المالية وأفردت للفندق قطعة أرض فى شارع اجياد امام مبنى وزارة المالية وقامت الوزارة فعلا بتشييد الفندق الضخم المكون من عدة طوابق وبهذا تم تأسيس أول فندق حديث فى مكة المكرمة وأطلق عليه اسم فندق بنك مصر وقد تم تأجيره على شركة مصر للسياحة وكان الفندق يضم المئات من الحجاج المصريين وغيرهم فى كل عام ، هذا الفندق باعته وزارة المالية فيما بعد على الشيخ صدقة وسراج كعكى ولايزال يدار كفندق حتى اليوم ، الواقع أن عبدالله السليمان لم يكتف بهذا وانما شجع كذلك الشيخ عطا الياس على انشاء فنادق التيسير فى مكة وجدة والمدينة المنورة ومنى وكان هذا التشجيع نواة لانطلاق الحركة الفندقية فى البلاد ولكن عبدالله السليمان بطموحه لم يرض عن الفنادق المذكورة فقام هو شخصيا بإنشاء الفنادق الخاصة به فى جدة وهى فندق الكندرة وفندق البساتين ثم فندق قصر الكندرة ثم فندق قصر جدة الذى تم بناؤه بعد ترك الوزارة واستقدم لهذه الفنادق المديرين المتخصصين وأجهزة الادارة والخدمة الكاملة حتى أصبحت هذه الفنادق هى أولى فنادق الدرجة الأولى فى المملكة واعترف بها على المستوى الدولى للفنادق وهو بهذا العمل الجرىء قد

أدى لبلاده خدمة من أجل الخدمات لأنه سد حاجة البلاد من الفنادق كما أسبغ عليها مظهرا حضاريا كانت فى أشد الحاجة إليه ، قد يقول البعض ولكنه أفاد شخصيا من هذا العمل ربحا ماديا ودخلا مثمرا ونقول أنه ليس من الضرورى أن يكون العمل النافع مجردا من المنفعة والربح فما أكثر الأعمال المربحة والمثمرة ماديا ! ولكن العمل إنما يقاس بنفعه للبلاد والعباد فإذا كان يحقق هذا النفع ويعود على صاحبه بالربح فهو عمل طيب مشكور لا مراء فى ذلك ولا جدال ، ولا ينتقص منه إلا حاقد أو كسلان ..

المستشفى اللبنانى

وكما كانت البلاد تعانى من نقص الفنادق كانت تعانى كذلك من قلة المستشفيات ولعل الكثيرين لا يعلمون أن مدينة جدة بل كل المدن الكبيرة فى المملكة لم يكن فيها سوى مستشفى واحد هو المستشفى العام ـ مستشفى حكومى واحد فى كل مدينة ـ ومن المعلوم أن المستشفى العام الحكومى هو غير المستشفى الخاص سواء فى تجهيزاته أو خدماته ، وحينما قدم إلى جدة بعض الأطباء اللبنانيين ولديهم فكرة افتتاح مستشفى خاص فى جدة لم يجدوا من يحقق طلبتهم سوى الشيخ عبدالله السليمان فهل يعلم القراء ماذا فعل عبدالله السليمان لاخراج الفكرة إلى حيز الوجود ، لقد شجعهم فى البداية على افتتاح المستشفى وافتتح فعلا ولكن فى مبنى قديم متهالك فلم يلبث الشيخ عبدالله السليمان أن أخلى فندق الكندرة فى جدة ـ بعد استكمال بناء فنادقه الأخرى وحوله إلى مستشفى فانتقلت إليه إدارة المستشفى اللبنانى وقام الشيخ عبدالله السليمان ببناء جناح جديد فى المستشفى وهكذا قام أول مستشفى خاص فى مدينة جدة بل فى المملكة بتشجيع كريم من الشيخ عبدالله السليمان رحمه الله وبمثل هذه الأعمال تقاس همم الرجال ..

عَبْدالله السُّليمان وَالملكِ عَبْدالعزيز

كان الشيخ عبدالله السليمان يسكن فى جدة فى بيوت صغيرة فى محلة الكندرة فى موضع فنادق الكندرة الحالية قبل بناء هذه الفنادق وكان بمعية جلالة الملك عبدالعزيز فى السيارة أصيل يوم فمر موكب جلالته أمام هذه البيوت فسأله جلالته أين يسكن ؟ فأشار إلى هذه البيوت الصغيرة فقال جلالته كيف ترضى وتطمئن للسكن فى هذه الدور الصغيرة فقال إننى مكتف بها يا طويل العمر وأثناء هذه الرحلة مر الموكب من طريق المدينة فرأى جلالة الملك عبدالعزيز قصراً مشيداً فى طريق المدينة المنورة فسأل لمن هذا القصر؟ فقيل : إنه للشيخ محمدرضا ولم يكن من جلالته إلا أن طلب من الشيخ محمد رضا أن يتنازل عن القصر بأثاثه لعبدالله السليمان ولم يجد الشيخ محمد عبدالله رضا بدا من إجابة الطلب واستدعى جلالته عبدالله السليمان وقال له : هذا القصر أصبح لك فانتقل إليه ولكن عبدالله السليمان قال لجلالته إن سمو الأمير فيصل لا بيت له فى جدة وهو أحق بهذا القصر منى أما أنا فيكفينى ما أنعم به من رضاء جلالتكم وهكذا يثبت الشيخ عبدالله السليمان بأدبه العالى أنه رجل الدولة يؤثر جانب المليك وأبنائه على نفسه ، ولم تكن هذه هى الأولى من عبدالله السليمان ، فحينما ولى العرش جلالة الملك سعود كانت الحاجة تدعو إلى وجود صاحب السمو الملكى فيصل بجانب أخيه الملك سعود فى جدة وكان الملك سعود قد بنى قصورا له فى جدة ولم يكن لفيصل سوى البيت الذى أشرنا إليه آنفا والمخصص لسكنه وأسرته ، وذهب عبدالله السليمان إلى فيصل فى مكة يقول له لابد من بقائك بجانب أخيك فى جدة قال ولكن لا يوجد لى مكتب فى جدة وكانت السيدة نورة الخريجى حرم الشيخ عبدالله السليمان وأم ابنه خالد قد شيدت فيلا جميلة فى جدة وأتمت تأثيثها فلم يكن من

عبدالله السليمان إلا أن قال له هذا بيت أم خالد بين يديك فاستعمله مكتبا لك ولم يقبل سموه بذلك فأرسل الشيخ عبدالله السليمان السيدة نورة إلى سموه ترجوه أن يقبل المنزل وهكذا كان •

هذه الالتفاتات العالية من الشيخ عبدالله السليمان تدل على علو همته ونبل شخصيته ولو كان غيره فى مكانه لفرح بمنحة الملك واستأثر بالقصر كما استأثرت زوجه بقصرها ولكن الرجل كان يتصرف بروح رجل الدولة وأحد بناتها ومؤسسيها رحمه الله •

الاستقالة

بعد وفاة جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وولاية الملك سعود للعرش تقدم الشيخ عبدالله السليمان إلى جلالة الملك سعود باستقالته من منصبه ولكن الملك (سعود) أصر عليه بالبقاء واستمر الشيخ عبدالله السليمان فى منصبه فترة من الزمن ولكنه رأى بثاقب نظره أن الظروف تتغير وأن الدولة الجديدة قد تحتاج إلى نمط جديد من الرجال ـ لكل زمان دولة ورجال ـ وهكذا لم يمض طويل وقت حتى رأى عبدالله السليمان نفسه مضطراً للتخلى عن المنصب الذى احتفظ به طيلة عهد الملك عبدالعزيز والذى امتد نحوا من خمسين عاما أو تزيد فتقدم من جديد إلى جلالة الملك سعود بالاستقالة وراجيا بإلحاح إعفاءه من العمل بعد أن كبرت سنه وضعفت صحته وهكذا أجيب إلى طلبه وصدر بلاغ من الديوان الملكى بقبول هذه الاستقالة مع كلمة تقدير طيبة لجهود الرجل فى بناء الدولة وتفانيه فى الإخلاص وهكذا بدأ لوزارة المالية عهد جديد كان مختلفا عن العهد الماضى القديم ، حينما كانت أمور وزارة المالية إنما تدبر بأمر رجل واحد وقد يكون ذلك العهد يفتقر إلى التنظيم ، على أى حال كان يتميز بالنفوذ العظيم لهذا الرجل الذى كان إخلاصه للدولة وللمليك واضح المعالم بارز السمات •

مَصْنع الإسْمَنت

لم يقبع عبدالله السليمان بعد تركه الوزارة فى منزله ليأسى على ما فاته من سلطان أو لينعم بما تجمع له من ثروات طيلة الخمسين عاما التى قضاها فى خدمة الملك عبدالعزيز وإنما نظر بثاقب بصيرته إلى ما تحتاجه البلاد من مشروعات وما تنتظر من مستقبل عظيم فقام بتأسيس أول مصنع للأسمنت فى المملكة فى مدينة جدة أكبر ميناء فى البلاد ، وكانت مدينة جدة قد بدأت تنمو وتمتد بعد إزالة السور الذى كان يحيط بالمدينة وبعد وصول الماء إليها ، كان هذا السور يمتد فى الناحية الشمالية أمام ميدان البيعة من عمارة النشار حاليا إلى عمارة الشيخ أحمد موصلى المتخذة كفندق وفيه باب اسمه باب جديد ويمتد شرقا من أمام عمارة باخشب إلى باب مكة وكان هناك باب يسمى باب مكة ويمتد غربا من موضع فندق قصر البحر الأحمر إلى موضع عمارة الشيخ سليمان الحمد فى ميدان الملك عبدالعزيز ، وتمتد جنوبا من موضع البنك العربى ماراً بامتداد شارع الملك عبدالعزيز إلى مقبرة الأسد وفيه باب اسمه باب شريف ، وكل العمران الذى حدث بعد ذلك هو حديث بعد إزالة السور وهو يساوى مئات أضعاف مساحة المدينة القديمة نقول رأى عبدالله السليمان إن المدينة ستنطلق وتنمو وتمتد ، وأنه لابد من إيجاد مصنع للأسمنت يسد حاجة البلاد وكان قد حصل على امتياز ببناء مصنع الأسمنت ، هذا ـ لعل ذلك فى أواخر عهد الملك عبدالعزيز ـ فقام بإبراز الفكرة إلى حيز الوجود وأسَّسَ شركة الأسمنت السعودية فى جدة التى باشرت فى بناء أول مصنع للأسمنت فى المملكة حيث قام ولايزال يقوم بسد كثير من حاجة البلاد إلى هذه المادة الهامة للإعمار ، وهكذا ساهم عبدالله السليمان بعمله هذا فى تعمير البلاد وتطوير وسائل الإعمار فيها .

توزيع الأراضي وتأجيرها

وعلى ذكر الإعمار ـ أود أن أذكر أن عبدالله السليمان رحمه الله ساعد على تعمير مدينة جدة بطريقة عملية فقد قام بتوزيع الأراضي فى شارع الكندرة وهو الشارع الممتد من مقبرة حواء إلى ميدان المطار القديم ـ فبنى فى هذه الأراضى آل الخريجى والمعلم محمد بن لادن رحمه الله والشيخ محمد السليمان التركى وغيرهم كما وزع أراضى أخرى من موضع عمارة الشيخ أحمد موصلى أمام قصر جدة إلى باب مكة وقد قام بالبناء فيها كل من الشيخ أحمد موصلى والمرحوم محمد باخشب والشيخ محمد سرور الصبان ، وغيرهم وكانت الأراضى فى منطقة البغدادية شمال جدة محجوزة لشركة عقارية تقدمت إلى الدولة بفكرة تعمير الأرض وبيعها بالتقسيط ولكنها لم تفعل شيئا طيلة سنوات ، فأشار عبدالله السليمان على البلدية بتأجيرها بأجور رمزية على الراغبين ثم بيعها عليهم

وهكذا انطلقت حركة البناء بعد أن أصبحت الأرض ميسورة وأخذت الأيدى تتداولها بأسعار زهيدة وهكذا انتشر العمران وامتد ، وأصبحت مدينة جدة تتميز فى ذلك الوقت عن سائر مدن المملكة بأن العمران الذى امتد فيها هو عمران أهلى وليس عمرانا حكوميا كما هو الشأن فى بعض المدن الأخرى الذى بدأ العمران الحكومى فيها أولا ثم جاء التعمير الأهلى وهكذا أثبت عبدالله السليمان أنه رجل دولة يعمل لمصلحة البلاد وإعمارها بكل وسيلة يراها مؤدية لذلك ، ولم نر أنَّه استأثر لنفسه أو لذويه بشيء من هذه الأراضى التى يسرً الحصول عليها للناس تيسيرا لا مزيد عليه ٠

عَبْدالله السُّليمان وجامعة الملك عبدالعزيز

ويأبى عبدالله السليمان إلا أن يختم حياته بعمل من أعظم الأعمال بهبته السخية العظيمة لجامعة الملك عبدالعزيز فلقد كانت له مزرعة فى شرق مطار جدة وبنى حولها أربعة قصور ، مساحة أرض كل قصر أربعون ألف متر ، وبنى فيها فيلا كبيرة لابنته السيدة أسماء عبدالله السليمان كما الحقت بكل قصر ملاحق كثيرة وقد انقطع الماء عن المزرعة بسبب نضوب العين التى اشتراها - وهى عين فرج يسر - والتى كانت تمد المزرعة بالماء فبقيت هذه القصور غير مسكونه رِدْحاً من الزمن ثم ظهرت فكرة الدعوة إلى إنشاء جامعة الملك عبدالعزيز فى مدينة جدة وبدأت اللجنة التأسيسية فى جمع التبرعات للجامعة وكان الشيخ عبدالله السليمان رحمه الله مريضا فبعث إلى أعضاء الجامعة يدعوهم للاجتماع به وفاجأهم بتقديم القصور الأربعة مع ملحقاتها والفيلا هدية منه للجامعة وأردف ذلك بما يحتاجونه من الأرض التى بلغت نحوا من ستمائة ألف متر وهكذا أخرج عبدالله السليمان رحمه الله فكرة الجامعة من طور الخيال إلى عالم الحقيقة والواقع وللتاريخ فإن المرحوم محمد باخشب باشا كان أول من تبرَّع بمبلغ سخى للجامعة واقترح إطلاق اسم جلالة الملك عبدالعزيز عليها وكان المبلغ الذى سمّاه لتبرعه هو مليون ريال وكان هذا المبلغ فى ذلك الزمان يعتبر ثروة عظيمة وبينما كانت التبرعات تتراوح بين الألف وعشرات الألوف وأعظم المتبرعين لم يزد تبرعهم عن مائتى ألف أو ما حولها كان تبرع محمد باخشب رحمه الله مليوناً كاملا من الريالات ، وهذا التبرع الضخم الذى دفع الكثيرين فيما بعد إلى التبرع مع هبة الشيخ عبدالله السليمان العظيمة الضخمة هما اللذان أسرعا باخراج الجامعة إلى عالم الحقيقة والواقع كما ذكرنا ، بقى أن نقول إنه إذا كان تبرع باخشب بمليون ريال

فان قيمة تبرع الشيخ عبدالله السليمان فى وقتها كان يزيد عن العشرة ملايين ريال فالقصور الأربعة والفيلا كانت تتراوح تكلفتها دون قيمة الأرض المقامة عليها ـ نحوا من أربعة إلى خمسة ملايين من الريالات ، وحينما نقرر هذا الرقم فإننا نقوله من واقع نعرفه أكثر مما يعرفه الغير لأن كاتب هذه السطور هو الذى تولى الإشراف على بناء هذه القصور وملحقاتها للشيخ عبدالله السليمان رحمه الله أما الأرض فقدر ثمنها فى ذلك الوقت بنحو من ستة ملايين من الريالات وهى فى الوقت الحاضر تساوى بضع مئات من ملايين الريالات إن لم تصل إلى أكثر من ذلك .

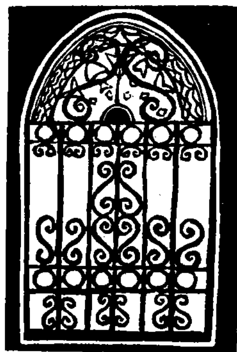
وهكذا ختم الشيخ عبدالله السليمان حياته بهذه الهبة العظيمة التى هى من أعظم الحسنات الجارية وأجلّها إذ وهب قصوره للعلم فأصبحت هذه القصور تمثل كليات الجامعة الفتية جامعة الملك عبدالعزيز وأخذت الجامعة تُعِدُّ مخططات توسعها على الأرض الكبيرة التى وهبها لها الرجل العظيم وهكذا أراد الله تعالى لعبدالله السليمان أن يختم حياته بأجل الأعمال وأعظمها إذ هيأ بهبته السخية هذه بيوتا للعلم جزاه الله خير الجزاء وأحسن ثوابه فى جنات الخلود .

وفاة عبد الله السليمان

هذا وكانت وفاة عبدالله السليمان رحمه الله عام ١٣٨٥ هـ بعد مرض طويل استقدم له بعض كبار الأطباء من انجلترا وبعد ان أجريت له استعدادات الجراحة وجد أن الداء قد استشرى وتمكّن فلم يجد فيه علاج فغادر هذه الحياة وقد وصل فيها إلى ذروة المجد والسلطان كما وهب من ثروته ما نسأل الله تعالى أن يكون له عوضا فى دار البقاء رحمه الله وأحسن مثوبته فلقد كان من أعظم الرجال .

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة



عبدالله محمد الصغير

متوسط القامة لا بالطويل ولا بالقصير ، حنطى اللون واسع العينين يضع على عينيه نظارة ذهبية ، عظيم الأنف ، خفيف شعر اللحية والعارضين حتى لتظنه أجرد يرتدى الجبة والعمامة الحجازية فيه سمت ووقار ، ذلكم هو الشيخ عبدالله محمد الصغير أحد رجالات مدينة جدة وأعيانها البارزين ٠

لم أتمكن من تحديد تاريخ ميلاده ، وأرجح أنه توفى فى العقد السادس من هذا القرن الهجرى الذى نقترب من نهايته ٠ كان الشيخ عبدالله محمد الصغير نمطا فريدا من الرجال وقد هيأ نفسه لخدمة الناس والسعى فى مصالحهم ، ولم يكن حينما عرفته ذا مال ولكنه كان يملك القدرة على أصحاب الأموال ، قدرة منبعها الحب ومبعثها الثقة والتقدير ، وقد كان كما عرفت فى مطلع حياته تاجرا من أوساط التجار ولكنه ما لبث أن ترك التجارة واكتفى بما يصل إليه من غلة البيت الذى يسكن جزءا منه ويؤجر الجزء الآخر ، ومن بيت ثان يؤجره للغير وكان ليس له ولد وإنما يعيش هو وزوجه السيدة مصباح بنت محمد سعيد جاسر ثم ما لبثا ان تبنيا ابن أخيها على جاسر الذى ولد لأخيها بجزائر جاوه ثم أرسل اليها بعد وفاة والده هناك ٠

عرفت الشيخ عبدالله محمد الصغير فى الفترة ما بين الأربعينات إلى أواخر الخمسينات إذ كانت تربط زوجه صلة قربى بعائلتنا وكما علمت فإنها زفت اليه من منزل أسرتنا فى جدة عرفت الرجل فى هذه الفترة وقد وهب نفسه لخدمة الناس ورأيته يدخل إلى مكاتب التجار من أصدقائه ومحبيه فيقول لأحدهم بلهجة الأمر هات جنيها أو جنيهين أو عشرة فيؤديها له فى الحال دون أن يسأله عن وجهة صرفها ودون أن يفصح هو عن ذلك يحافظ بها على أسرار الناس ، يستر عوراتهم ويقضى حوائجهم ويؤدونها له راضين وهم يعلمون أنها أنما توضع فى موضعها الصحيح لأنها إنما تؤدى عن يد الثقة الأمين ، وكان له مجلس فى مدخل داره التى هدمت وأدخلت فى الشارع الجديد شارع الذهب صباح كل يوم فيفد اليه أصحاب الحاجات ويسرون إليه بشؤونهم فاذا كان الضحى انطلق إلى داخل المدينه يزور أصدقاءه فى مكاتبهم ومتاجرهم والكل يحتفى به ويوسع له ويسارع الى طلبه عن رضى وارتياح ، وأصبح الرجل مقصدا لأصحاب الحاجات يهرعون اليه فى حوائجهم فلا يتردد لحظة فى الاستجابة وما أسرع ما يكون قضاء هذه الحاجات على يديه لما وهبه الله من حب القادرين وما حبب إليهم من الاستجابة لكل ما يطلب دون تردد أو سؤال .

وسعى به الساعون إلى الدولة فى فترة حرجة فأمر بمغادرة البلاد وهاجر الى مصر واشتركت مدينة جدة كلها فى توديع الرجل الكريم منهم من ودعه فى بيته ومنهم من ودعه فى الميناء والخاصة من أصدقائه وهم كثيرون استقلوا الزوارق الى الباخرة وبقوا معه فيها حتى أوشكت على الرحيل وأصبحت زوجه محل عناية أصدقائه فكانوا يترددون عليها ويتفقدون شؤونها تقديرا لزوجها ووفاء له فى محنته وسعى الكثيرون من تجار مدينة جدة ووجهائها فى إظهار الحقيقه لأولى الأمر ، وإبطال الفرية المدسوسة . وماهى إلا أشهر قليلة حتى اصدر جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز أمره بالسماح له بالعودة إلى البلاد وكان قد قضى هذه الفترة

ضيفا كريما بمنزل آل باناجه بالعباسية بالقاهرة وكان يوم عودته يوما مشهودا اشتركت مدينة جدة كلها فى استقباله من الباخرة وعلى الميناء وضاق منزله بالزائرين الذين توافدوا عليه ليل نهار يهنئونه بسلامة الأياب ويهنئون أنفسهم بعودته اليهم .

« عين الوزيرية »

وكانت مدينة جدة تعانى من نقص شديد فى الماء وكان كبار أهلها يفكرون فى الوسيلة أو الوسائل التى يمكنهم بها توفير الماء اللازم لمدينتهم وقد بذلت فى هذا الصدد مساع كثيرة من ضمنها إصلاح العين الوزيرية التى عنيت حكومة السلطان عبدالحميد الثانى بايصالها إلى جدة فى عام ١٣٠٤ هـ والتى كانت تتوقف وتملح حينما تشح الأمطار ، وكانت إذ ذاك متوقفة من سنوات طويلة فتم اصلاح مجاريها وبذلك تدفق منها الماء مرة أخرى وكان الشيخ عبدالله محمد الصغير أحد الساعين فى إنجاز هذا المشروع فأسندت اليه ادارة هذه العين ولكنها ما لبثت أن توقفت فيما بعد إلى أن أكرم الله مدينة جدة بالمأثرة الكبرى لجلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وهى إجراء العين العزيزية التى كانت من أكبر عوامل نمو مدينة جدة واتساعها وذلك فى أول المحرم ١٣٦٥ هـ .

نقول: إن الشيخ عبدالله الصغير اختير لإدارة العين الوزيرية بعد اصلاحها ، لما يتمتع به من سمعة عاطرة فى مجال الخدمة العامة للشعب ، وهكذا وجد الشيخ عبدالله الصغير فى هذا المشروع مجالا يكرس فيه وقته للعناية بأهم مرفق فى حياة المدينة التى احبته وأحبها حتى توفاه الله ، ولقد أصيب فجأة بالشلل النصفى وقضى أيامه الأخيرة التى لم تطل كثيرا وهو يعانى من هذه العلة الفادحة حتى اختاره الله تعالى إلى جواره فكان يوم وفاته يوما مشهودا شاركت فيه مدينة جدة كلها فى تشييعه إلى مثواه الأخير وكانوا يعزون أنفسهم فيه كما يعزون ذويه ، فقد كان فقيد الجميع تغمده الله بواسع رحمته وأحسن مثوبته فى دار الخلد إنه على ما يشاء قدير .



عبدالله عريف

الأستاذ عبدالله عريف

أسمر شديد السمرة ، أسود العينين أقرب الى الطول منه الى القصر كان معتدل الجسم فى شبابه ولكنه ثقل بعد ان أكتهل فأصبح جسيما ، يرتدى العباءة العربية والعقال ويضع نظارة على عينيه بصورة دائمة ٠

ولد عبدالله عريف بمكه المكرمة عام ١٣٣٦ هـ وتلقى تعليمه الابتدائى بها ثم ابتعث الى القاهرة وتخرج من دار العلوم بمصر ، وكان خلال سنوات ابتعاثه على صلة مستمرة بمعالى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان الذى كان يشجعه كما كان يفعل مع الكثيرين من الطلاب المبتعثين ، وبعد عودته الى مكة المكرمة عمل فترة من الوقت بديوان التفتيش بوزارة المالية ، وفى عام ١٣٦٥ هـ أسندت اليه رئاسة تحرير جريدة البلاد السعودية ـ صوت الحجاز سابقا ـ بعد ان عادت الى الصدور بعد احتجابها مع بقية الصحف طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية ولم يكن عبدالله عريف غريبا عن دنيا الصحافة والكتابة فقد كان يكتب فى جريدة صوت الحجاز كما كان يكتب فى جريدة أم القرى ، وفى صوت الحجاز جرت بينه وبين الأديب المُجيد الأستاذ حمزة شحاتة مناقشات طويلة عن الفن وعلاقته بالأدب ، ولقد ذكرت من قبل ان أغلب من عرفت من الكتاب والشعراء كانت لهم بدايات حسنة تنبىء عن الأصالة وعبدالله عريف كان واحدا من هؤلاء

الكتاب ، فقد لفتت كتابته الأنظار وهو مايزال طالبا فى دار العلوم بالقاهرة الى ان استوى كاتبا كبيرا يرأس تحرير اول جريدة يومية فى المملكة وهى جريدة البلاد السعودية ، التى تحولت فى عهده الى جريدة يومية بعد ان كانت تصدر باسمها الأول صوت الحجاز ـ اسبوعية ـ كما زادت صفحاتها ولقد ظل عبدالله عريف رئيسا لتحرير جريدة البلاد فترة طويلة امتدت الى ما يقرب من عشرة أعوام من عام ١٣٦٥ هـ الى عام ١٣٧٥ هـ وعرف فيها ككاتب يعالج الشؤون العامة بأسلوب رزين وكان ناقدا يطالب بالاصلاح شأنه شأن من يتصدى للكتابة اليومية فى الصحف وخاصة فيما يتعلق بالأمور التى تتصل بحياة الناس اليومية فى المجالات العامة وخلال رئاسته لتحرير جريدة البلاد أصدر كتابه المسمى « رجل وعمل » وهو ترجمة لحياة الشيخ محمد سرور الصبان وأعماله .. ولقد اضطر عبدالله عريف الى ترك العمل فى جريدة البلاد السعودية بعد ان ظل حليف القلم طيلة سنوات عشر وبعد ان كان اسمه يصافح القراء كل صباح ، ولعل بعض ما كتب كان السبب فى اقصائه عن العمل الذى أحبه وعرفه الناس منه وليس هذا هو المهم فى حياة عبدالله عريف ولكن المفاجأة التى كانت تنتظره والتى كانت الاختبار الحقيقى الذى تعرض له هى عمله فى أمانة العاصمة فى مكة المكرمة .

أمين العاصمة

قالوا : ـ كان صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ـ جلالة المغفور له الملك فيصل فيما بعد ـ على علم بما يكتبه عبدالله عريف كما كان يتابع أهم ما يكتب فى الصحف باعتباره المرجع الأعلى فى البلاد ، كان فى ذلك الوقت هو النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء كما كان ولى العهد ، وذلك من منتصف الستينات الى منتصف السبعينات ـ فلما أقصى عن العمل فى جريدة البلاد وخلت بعد ذلك

بفترة وظيفة أمانة العاصمة فى مكة المكرمة استدعاه جلالة الملك فيصل ـ كان يومها رئيسا للوزراء ووليا للعهد ـ وقال له اننى قد عينتك أمينا للعاصمة فى مكة المكرمة وأريد منك ان تحول الأقوال التى كنت تنادى بها الى اعمال فمجالك اليوم ليس فى القول وإنما فى العمل ولديك الفرصة لتترجم الاصلاحات التى كنت تدعو اليها الى عمل ملموس ، قالوا : وقال عبدالله عريف،اننى اذا لقيت من سموك العون فإنى فاعل ذلك باذن الله ، وقد انطلق عبدالله عريف أمينا للعاصمة بتأييد قوي من ولى الأمر معتمدا على جهده الشخصى فى اعداد المشروعات التى يرى انها لازمة للمدينة المقدسة مجندا لذلك كل ما يقع تحت يده من خبرات الخبراء وجهد العاملين فكان يعد المشروع ويذهب به الى جلالة الملك فيصل شارحا أهميته ومطالبا برصد المال اللازم له فاذا أخذ الموافقة عليه انطلق فى تنفيذه فى غير تردد ولا إحجام متخطيا كل العقبات متغلبا على كل الصعاب ، وللحقيقة فان عبدالله عريف كمكى كان متيما بحب بلده ـ أم القرى ـ وكان يرى ككاتب ومثقف ان مكة المكرمة هى ام المدائن ، فهى مهبط الوحى ، ومقر البيت الحرام ، ومهد الرسالة واليها يتجه الناس من كل أقطار الأرض خمس مرات كل يوم واليها تحج مئات الألوف كل عام وان مدينة هذا شأنها يجب ان تكون آية فى النظافة والتنظيم وقدوة فيما يجب ان يتوفر فى أى مدينة كبيرة مثلها ، وبهذا الحب العميق ، وبهذا الوعى الذكى وبذلك التأييد القوى استطاع عبدالله عريف أن يحول القول الى عمل ، وان ينحى القلم جانبا ليعمل بكلتا يديه وبعقله وكل قوته فى بناء مكة المكرمة مدينة حديثة نظيفة فشقت الشوارع بل وفلقت الجبال لتكون طريقا ممهدا للناس واصلحت حوافيها وزينت وانتشرت الاضاءة فى كل شوارع مكة المكرمة التى امتدت وتضخمت فأصبحت تمتد من ناحية الشرق حتى تجاوزت منى وابتلعتها ومشت من ورائها عشرات

الكيلومترات فكان حيُّ العزيزية وحوض البقر ، وامتدت من جنوبها حتى شملت شارع المنصور والحفاير وحيُّ النزهة وامتدت شمالا فاتصل حى الشهداء بها الذى اصبح يطلق عليه الزاهر ، وقامت نواطح السحاب فى مكة المكرمة طبقات تعلوها طبقات كل هذا مع الحرص على توفير كافة الخدمات التى صاحبت هذا النمو من شوارع عريضة ، ومن اضاءة كافية ، ورصف للطوار وتشجير للشوارع وامتدت يد الاصلاح الى ضواحى مكة فكان القادم الى الحديبية على بعد بضع عشرة كيلومترات يجد مدخل مكة المكرمة هناك مضاء يمتد الشجر على جانبيه وكأنه يشير الى ما سيجده القادم فى مكة نفسها من جمال وتنظيم ، بل أن عبدالله عريف سعى لتجميل مدينة بحرة وهى فى منتصف الطريق بين جدة ومكة باعتبارها تابعة لمكة المكرمة ، ولم تقتصر جهود عبدالله عريف على ذلك ولكنه سعى الى ايجاد المسالخ الحديثة فى مكة ومنى كما انه كان يجند كل امكانات امانة العاصمة لنظافة منى والمشاعر المقدسة فى مواسم الحج وكان دائم التفكير والتخطيط لكل ما يراه لازما لتجميل المدينة المقدسة وتحسين مرافقها واظهارها بالمظهر اللائق بمكانتها الدينية والتاريخية ونستطيع ان نقول ان عبدالله عريف قد نجح فيما هدف اليه فتغير وجه مكة المكرمة فى عهد رئاسته لامانة العاصمة المقدسة تغيرا ملموسا يلمسه كل زائر وكل مقيم . وكانت النظافة اهم المرافق التى حرص عليها عبدالله عريف فقد كان يمر بنفسه على الشوارع وخاصة الشوارع النائية ليرى حال النظافة فيها ويحاسب المسؤولين عنها فاستطاعت مكة بهذا ان تحافظ على نظافة شوارعها وطرقها فى الوقت الذى كانت تشكو فيه مدن كثيرة اخرى من تردى أعمال النظافة فيها وللحق فإن العمل فى تحسين مكة المكرمة لم يكن وقفا على امانة العاصمة وحدها وإنما كان يشترك فى ذلك بحكم مركز المدينة المقدسة جهات كثيرة فالدولة نفسها كانت ترعى مشروع توسعة

الحرم المكى الشريف وهو أضخم مشروع من نوعه فى التاريخ للمسجد الحرام شمل مشعرى الصفا والمروة ، كما أن الدولة وخاصة بعد تأليف الوزارات المختصة تكفلت بشتى المشاريع التى تعتبر ضرورية للمدينة المقدسة والتى ساعدت فى تحسينها وإكمال مرافقها كمشاريع مياه عين زبيدة والعزيزية التى كانت ادارة مستقلة ثم أصبحت تابعه لوزارة الزراعة والمياه ، ومشاريع الحج سواء مايتعلق منها بمنى وعرفات والمزدلفة أو ما يتعلق بمكة المكرمة والتى تألفت لها لجان خاصة ترعاها الدولة ويضطلع بها سمو أمير منطقة مكة المكرمة وسمو وزير الداخلية ووزارة الحج واللجان المتفرعة عن هذه الجهات كلها ومشاريع الكبارى والطرق فى منى وعرفات وطرق الحج والتى امتدت الى مكة المكرمة فشملت مداخلها وبعض شوارعها الرئيسية ، نعم إن الدولة بكامل أجهزتها كانت ولاتزال مجندة فى تحسين مرافق المدينة المقدسة وما يتبعها من مشاعر الحج.فمن العدل ان نذكر هذه الجهود كلها الى جانب جهود امانة العاصمة ، ولعل من حظ عبدالله عريف أن عهد رئاسته لأمانة العاصمة شهد كل هذه المشاريع وكل هذه الانجازات ولاشك انه امين للعاصمة محظوظ ولاشك أيضا انه كان يستحق هذا الحظ الطيب لأنه لم يركن الى الحظ فينام متكلا على أعمال غيره وإنما ساهم بكل قوته فى تجميل المدينة وتحسينها وكان منسجما مع كل إصلاح يطرأ ومع كل مشروع ينفذ كما كان يحافظ على مكتسبات هذا النجاح بالسهر الدائم والعمل الدؤوب .

تقدير الدولة

وحين تأسست أول وزارة للبلديات فى المملكة وأرادت ان تكافىء القائمين على بلديات المدن تقديرا لأعمالهم كان عبدالله عريف أمين العاصمة المقدسة هو

الوحيد بين رؤساء البلديات الذى استحق تقدير الدولة فقلد وساما منحه له جلالة الملك خالد بتوصية من صاحب السمو وزير الشؤون البلدية والقروية تقديرا لجهوده فى خدمة المدينة المقدسة وتحسين مرافقها والمحافظة على نظافتها ومرافقها .

تكريم المواطنين

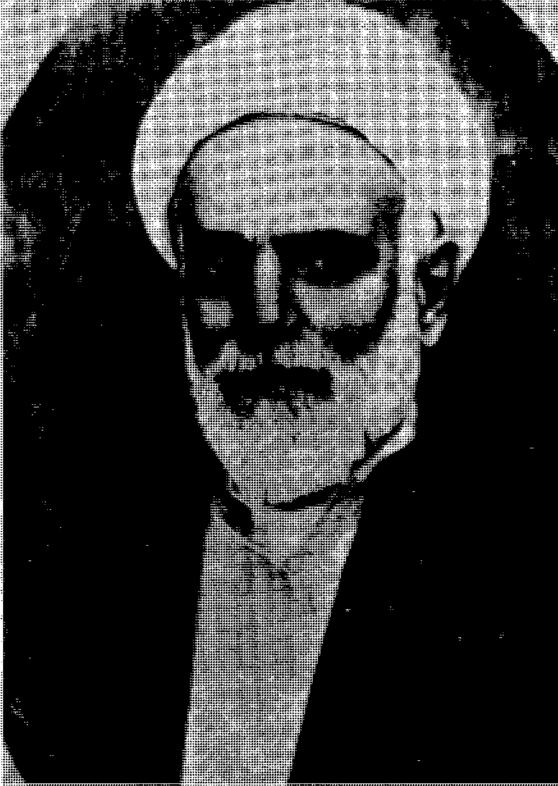
ويطيب لى هنا أن أذكر كلمة وردت فى إحدى مقالات عبدالله عريف عن نفسه وعما يطمح إليه وأن علق عليها.أذكرانه قال مرة في احدى مقالاته يخاطب نفسه ما معناه « من انت يابائع الفحم حتى تضع نفسك بجانب هذه الأسماء الكبيرة الشهيرة » وهو يشير بهذا الى انه نشأ فى اسرة متواضعة كان يعمل بعض أفرادها فى تجارة الفحم ، ولكنه كان منذ نشأته طموحا الى المجد يرنو ببصره الى الاعمال العظيمة الكبيرة التى كانت تسند دائما الى كبار الرجال وأقول إن عبدالله عريف استطاع ان يخرج من محيط اسرته المتواضع ليكون أولا كاتبا كبيرا يرأس تحرير أول وأكبر جريدة يوميه طيلة عشر سنوات ثم استطاع ان يصل ليكون أنجح امين للعاصمة المقدسة شهدت المدينة فى عهده من التوسع والازدهار ما لم تشهده فى عهد أمين آخر ممن سبقوه من ذوى الأسماء الكبيرة الذين هيأت لهم مراكز أسرهم ان يتبوأوا هذا المنصب ، نعم استطاع عبدالله أولا بعلمه وثانيا بجهوده واخلاصه ان يضع اسمه الى جانب هذه الأسماء الكبيرة بل وان يتفوق عليها وهكذا فان الطموح اذا ما صاحبه العلم والعمل كان من أكبر أسباب النجاح ، ولقد سعد مواطنو مكة المكرمة بتقدير الدولة لأمين عاصمتهم فسارعوا الى الدعوة لاقامة حفل تكريمى له بهذه المناسبة وساهم الجميع فيه متبرعين بالمال الكثير ، فلم يكن من عبدالله عريف إلا أن استجاب لهذه

العواطف الزاخرة من المواطنين ولكنه فاجأ المجتمعين بطلب إحالة هذه الأموال التى تجمعت الى مشروع خيرى نافع للبلد المقدس وساهم هو فيه بمبلغ مائة الف ريال وقد أحيلت هذه المبالغ جميعها الى احدى الجمعيات الخيرية بمكة لتصرف فى أعمال البر للمدينة المقدسة ومساعدة المحتاجين للعون من سكانها ، وهكذا أبى حب عبدالله عريف لبلده إلا أن يظهر فى كل مناسبة من المناسبات ٠

وفـــاتــه

هذا ولقد فوجىء الناس بوفاة عبدالله عريف رحمه الله فى أواخر رمضان من عام ١٣٩٧ هـ فلقد كان يقضى بأسرته بعضا من هذا الشهر فى مدينة الطائف فحضر الى مكة فى نهاية الشهر معتمرا وبعد أن أدى نسك العمرة وصلى الفجر ذهب الى بيته ليخلد الى شيء من الراحة ولكنه وجد بعد ذلك فى سريره وقد أسلم الروح ، تغمده الله برحمته الواسعة ، فلقد كان رجلا مخلصا محبا لوطنه كل الحب ولقد كانت لوفاته رنة أسى فى جميع الأوساط لما عرف عنه من جليل الأعمال ، اسبغ الله عليه شآبيب رحمته وأحسن جزاءه فى جنات الخلد إنه سميع مجيب ٠





الحاج عبدالله علی رضا

الحاج عبدالله علي رضا

قصير القامة ممتلىء الجسم واسع العينين أبيض اللون أشيب اللحية والعارضين كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، وظل محتفظا بهما إلى آخر حياته ولكنه كان يرتدى العباءة والعقال المقصب حينما يذهب للقاء جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز ولذلك قصة رواها لى ابنه معالى الأخ الشيخ محمد عبدالله رضا قال كان والدى يوما فى مجلس جلالة الملك عبدالعزيز فأهداه جلالته عقالا مقصبا فكان بعدها يرتدى العباءة ويضع هذا العقال المقصب كلما ذهب للقاء جلالته ٠

ولد الحاج عبدالله على رضا فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى وقد أدركته فى أواخر عهد الملك الشريف الحسين وهو قائممقام جدة ـ محافظ المدينة كما هو الاصطلاح حاليا ـ وقد استطاع هذا الرجل أن يحتفظ بمنصبه هذا فى العهد العثمانى ثم فى العهد الهاشمى ثم فى العهد السعودى ، ولعل مما يجدر ذكره ان الحاج عبدالله على رضا هو الذى تولى تسليم مدينة جدة إلى السلطان عبدالعزيز حينما اتفق على تسليمها صلحا فقد سافر الملك على بن الحسين من جدة بالباخرة وفى اليوم الثانى بدأ تسليم المدينة للسلطان عبدالعزيز ـ جلالة الملك فيما بعد ـ وقد رأيت الحاج عبدالله على رضا يذهب بسيارته إلى مقر الملك عبدالعزيز فى الكندرة ويعود ومعه كبار رجال الملك عبدالعزيز الذين عهد إليهم

بالدخول إليها قبل جلالته ، وهكذا استمر الحاج عبدالله فى الذهاب والأوبة إلى أن عاد مع الملك عبدالعزيز فى سيارة واحدة ودخلا من باب مكة حيث نزل جلالته فى بيت نصيف وتقبل البيعة من الناس ، هذا ولقد كان الملك عبدالعزيز يؤثر الحاج عبدالله على رضا بمودته وإكرامه فلم يُعَيِّنْ أميراً لمدينة جدة طيلة حياة الحاج عبدالله على رضا وكان أول أمير لها هو الأمير عبدالعزيز بن معمر رحمه الله وذلك بعد وفاة الحاج عبدالله على رضا ، ولم يكن يتقاضى مرتبا على عمله كقائممقام وإنما كان يخدم المنصب بصورة شرفية دون مرتب فلقد كان واسع الثراء ، وكان هو وأخوه الأكبر الحاج زينل قد قاما بتأسيس بيتهم التجارى فى جدة عام ١٢٨٤ هـ ثم قاما بتأسيس فرع لهم فى مدينة بومباى بالهند ، وحينما انقسمت الهند إلى دولتين بعد الاستقلال انتقل بيتهم التجارى إلى مدينة كراتشى مع ميلاد دولة باكستان .

إن ما لفت نظرى فى تاريخ الحاج عبدالله على رضا ليست قدرته على الاحتفاظ بمنصبه كحاكم إدارى لمدينة جدة خلال ثلاثة عهود سياسية مختلفة فحسب ، وإنما محاولاته الأولى لاستخلاص الأعمال التجارية من أيدى الأجانب الذين كانوا يسيطرون عليها ، فلقد كانت هناك بيوت تجارية أجنبية كثيرة فى مدينة جدة : إنجليزية ، وفرنسية ، وهولندية ، وايطالية . وكانت هذه البيوت تتولى وكالة البواخر المختلفة التى ترد إلى مدينة جدة وكان الحاج عبدالله على رضا من أوائل التجار الوطنيين الذين فكروا وعملوا لاستخلاص بعض هذه التواكيل من أيدى هؤلاء الأجانب مفتتحا بذلك وكالته التجارية للبواخر وهو أمر كان يعتبر فى ذلك الزمان عملا عظيما بلا مراء .

ولعله من المستحسن أن نذكر الآن طرفا عن ماضى التجارة وأحوالها فى الحجاز خلال العهد الهاشمى وأوائل العهد السعودى .

كان العمل التجارى يعتمد بصورة تكاد أن تكون كلية على الاستيراد وكانت الهند هى المصدر الأعظم للاستيراد فلقد كانت الهند تصدر كل شيء إلى جدة سواء من الحبوب أو الأقمشة الشعبية أو الأحذية وأوانى الطعام وما إليها وكانت البواخر الشراعية خلال أواخر العهد العثمانى فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى هى واسطة هذا الاستيراد وكان كثير من التجار يملكون هذه البواخر أو قسما منها ، كان يشترك تاجران أو أكثر فى ملكية باخرة واحدة وكان هناك ربابنة وطنيون للبواخر ومازال بعضهم يمارس هذا العمل مثل آل سلامة والرقبان وخلافهم ، ولم تكن هناك بنوك تجارية لتحويل النقود بواسطتها وإنما كانت ترسل صرًّا فى هذه البواخر الشراعية إلى البيوت التجارية فى الهند وكان التجار يعمدون إلى تقسيم المبالغ المرسلة فى عدة بواخر حتى إذا غرقت باخرة لم يفقد التاجر إلا جزءا من ماله المرسل إلى الهند وكانت هذه البواخر الشراعية تسافر فى مواعيد معينة وتعود كذلك فى مواعيد معينة متجنبة أوقات الفيضانات واضطراب البحر ولقد علمت أن هذه البواخر الشراعية كانت تجلب حاجة الحجاز من الأقوات والبضائع كما تجلب حاجة مصر منها وذلك قبل شق قناة السويس فكانت هذه البواخر الشراعية بمثابة مخازن عائمة تبقى فى البحر وينزل منها إلى ميناء جدة ما تحتاجه البلاد ويبقى الباقى فى هذه البواخر لتصديره إلى مصر التى كانت تستورد كثيرا من البضائع التى تحتاج إليها بواسطة التجار الحجازيين وعن طريق هذه البواخر التي تصدر هذه البضائع إلى ميناء السويس والقصير ، وبعد شق قناة السويس انتهت حاجة مصر إلى الاستيراد عن طريق ميناء جدة ، وأصبحت تستورد ما تحتاج إليه سواء من الغرب أو الشرق عن طريق قناة السويس .

أقول وقد أدركت البواخر الشراعية وهى تسير بين ميناء جدة وميناء الحديدة فى اليمن ، حيث تستورد الغلال من ميناء الحديدة أو جيزان كما كان استيراد

الشعير والتمر يتم من ميناء البصرة فى العراق ، هذا وقد انتهت الحاجة إلى هذه البواخر الشراعية بعد توفر البواخر التجارية الكبيرة ، وتعاظم كميات البضائع التى تحتاج إليها البلاد ، وكانت هناك بيوت تجارية معينة فى مدينة بومباى بالهند هى بيوت الحاج عبدالله بهائى وهو هندى مسلم ، كما كانت هناك بيوت تجارية حجازية هى بيت الحاج عبدالله على رضا وبيت الحاج سليم الخنجى ولقد كانت الطريقة أن ترسل هذه البيوت التجارية برقيات إلى عملائها من التجار فى جدة بأسعار البضائع حينما يتعين تاريخ سفر إحدى البواخر الكبيرة إلى جدة ويرتبط التجار بالشراء لترد بضائعهم فى وقت واحد وعلى باخرة واحدة وكان وكلاء البواخر يعمدون إلى التبليغ عن وصولها وسفرها بواسطة المنادى ـ حينما كانت مدينة جدة محصورة داخل أسوارها وكان المنادى يطوف فى شوارع جدة وأسواقها ينادى ويقول على سبيل المثال ـ بابور بوسطة إنجليزى اسمه جهانكير ان شاء الله بكره حضوره هنا ، كل من عنده صرَّه أو أمانة يراجع فى الحال الوكيل الحاج عبدالله على رضا وهكذا على البواخر الأخرى موضحا اسم الباخرة وموعد وصولها واسم الوكيل •

ولقد ظلت التجارة محصورة مع الهند تقريبا ولم يتم الانفتاح بصورة عامة إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية وبانتهائها بدأت النهضة التجارية العظيمة فى البلاد وأصبح الاستيراد والتزاحم مفتوحا للجميع ، وبدأت البيوت التجارية السعودية تمارس نشاطها الواسع الذى قضى على النفوذ التجارى للبيوت الأجنبية بل وأنهى وجودها تماما ولعله من الطريف أن نذكر هنا أنواعا من التجارة انتهت تماما فلم يعد هناك من يمارسها •

كانت هناك تجارة الماء ، وكانت لمدينة جدة صهاريج كبيرة لحفظ مياه الأمطار ، وكانت هذه الصهاريج تبنى فى طريق السيول خارج المدينة ، ومن أشهر

هذه الصهاريج صهريج المشاط ، وصهريج باناجه ، وحفرة حميد الشيخ فاذا جاءت الأمطار وامتلأت هذه الصهاريج تغلق فوهاتها ويبقى الماء محفوظا فيها إلى حين الحاجة إليه بعد انتهاء موسم الأمطار فتفتح هذه الصهاريج ويباع الماء للجمهور ، وكانت أغلب بيوت جدة القديمة مزودة بهذه الصهاريج لحفظ الماء الذى ينحدر من السطوح بواسطة مواسير من القماش إلى الصهريج فى أسفل المنزل ، وكان البعض يملأ هذه الصهاريج بشراء الماء فى موسم الأمطار وتخزينه فيها إلى حين الحاجة إليه ، وكما كانت هناك تجارة للماء ، كانت هناك تجـارة السمن يوم كان اعتماد الناس على السمن الطبيعى وهناك مثل مشهور متداول وهو من لا يشترى السمن فى التور تور والمعنى أن السمن يكثر فى فصل الربيع فى برج الثور فكان الناس يقبلون فيه على الشراء لحاجة بيوتهم أو لتجارتهم ، ومثل ذلك ينطبق على الفحم قبل دخول الكهرباء والغاز إلى البلاد فكانت هنـاك مواسم معينة يكثر فيها الفحم ويقوم بعض تجاره بشرائه وتخزينه لبيعه بأثمان أعلى حين الحاجة إليه ٠

ونعود بعد هذا الاستطراد الطويل عن ماضى التجارة إلى كبير تجار جدة الحاج عبدالله على رضا لنقول إنه كان يعيش بين الناس وكأنه فرد منهم لا يشعرهم بهيمنة الحاكم ولا بسلطان الحكم ، أذكر أن الحاج عبدالله على رضا حينما كبر ابنه البكر محمد ـ معالى الشيخ محمد عبدالله رضا وزير التجارة الأسبق ـ أراد أن يزوجه ويفتتح له بيتا تجاريا خاصا باسمه وكان المنزل الذى يسكنه آل الجمجوم تعود ملكيته إلى زوجة الحاج زينل فطلب الحاج عبدالله من الشيخ محمد صالح جمجوم إخلاء المنزل لهذا الغرض فامتنع الشيخ محمد صالح عن ذلك قائلا اننا نسكن هذا البيت من عشرات السنين وفيه محلنا التجارى وعوائلنا الكثيرة ولا نجد بيتا آخر يسعنا فنحن أحوج إليه منكم ، لم يلجأ الحاج عبدالله إلى

سلطته كحاكم ، ولا إلى صلته الشخصية بجلالة الملك او سمو النائب العام ، وإنما ذهب إلى كبير تجار جدة الشيخ عبدالرحمن باناجه رحمه الله وشكا إليه الأمر وطلب منه أن يفصل فيه باعتبار أن القضية هى بين تاجرين يحتكمان إلى كبير بينهم ، وبهذا الأدب العالى كان يتصرف هؤلاء الرجال الكبار ، وكان الحاج عبدالله يستقبل الناس فى بيته التجارى ويقرأ معروضاتهم ويشرح عليها بخط يده ويحيلها إلى الجهات المختصة فى بساطة ويسر وكان يخلط نفسه بزملائه من التجار فيزورهم ويزورونه وكان يعتبر نفسه مسؤولا عن المدينة التى يمثل الدولة فيها فيعنى بأمور أهلها ما وسعته العناية وأنى لأذكر له حادثة واحدة تدل على كبر نفسه ونبل خصاله •

فى أوائل الخمسينات وحينما قامت فتنة ابن رفادة الذى وصل إلى مدينة الوجه عن طريق السويس مع مجموعة من المسلحين بادر المغفور له الملك عبدالعزيز بالقضاء على هذه الفتنة فى مهدها بصورة سريعة وكانت العلاقات بين البيت السعودى والبيت الهاشمى الذى كان يمثله الملك عبدالله بن الحسين لم تتحسن بعد • أقول فى ذلك الوقت بالذات كانت مجموعة من شباب جدة قاموا بتأسيس أول ناد أدبى فى جدة ، وكانت الاجتماعات تتم فى هذا النادى حتى قبل الحصول على الترخيص الرسمى بافتتاحه من الدولة وكانت أغراض النادى ثقافية واجتماعية ، وكانت تلقى فيه المحاضرات والقصائد ، وكان هذا النادى يعقد بمنزل المرحوم عبدالعزيز جميل ثم بمنزل المرحوم الشيخ صالح اسلام وكان من أعضاء النادى الأستاذ حسن عواد والأستاذ حمزة شحاته والمرحوم أحمد لارى ، والشيخ حسن أبو الحمايل والأستاذ يونس سلامه وغيرهم وكان كاتب هذه السطور أصغر أعضاء النادى على الاطلاق •

ويبدو أنه نقل إلى الحكومة بعض أخبار هذا النادى بصورة مبالغ فيها فى الوقت الذى كانت فيه الحوادث التى ذكرناها آنفا ويبدو أن جلالة المغفور له

الملك عبدالعزيز أراد اتخاذ إجراء بالنسبة لهذا النادي وغيره من الناس ، ولكنه آثر إرجاء النصح والانذار قبل أي إجراء وعقد لهذا الأمر اجتماع كبير في مبنى وزارة المالية بمكة سبقه تبليغ كثير من الناس بواسطة الشرطة ضرورة حضور هذا الاجتماع ، وإني لأذكر أنه عين لنا موعدا للحضور في الخزنة ـ المبنى الذى كانت تشغله قائممقامية جدة وهو أمام ميدان البيعة حاليا وقد أزيل المبنى لقدمه ـ فحضرنا وقابلنا المرحوم الشيخ على طه رضوان الذى كان معاوناً لقائممقام جدة وقال لنا جميعا إن السيارات ستأخذكم إلى مكة فتقابلون الحاج عبدالله على رضا فى منزله بزقاق الحفرة بالشبيكة ، وقد أكد المرحوم على طه عليَّ بصورة خاصة أن أذهب إلى هناك فذهبنا ، وكنا مجموعة مختلفة من الناس نجمع بين فئات كثيرة فهناك التجار وأساتذة المدارس والشباب وأرباب الحرف المختلفة ، وحينما وصلنا إلى مكة تناولنا طعام الغداء فى منزل الحاج عبدالله وقبل الذهاب إلى الاجتماع استدعانى وقال لى اسمع ما أقوله لك إذا انتهى جلالة الملك من خطابه تحضر إليَّ لأقدمك إليه قلت لماذا ، قال : هذا ما ستعرفه بعد ولكن احرص أن تكون قريبا منى وتحضر لأقدمك لجلالة الملك وبالفعل ذهبت إليه بعد إنتهاء خطاب الملك عبدالعزيز رحمه الله فأخذنى بيدى وكنت صغير السن صغير الحجم ، ولعلى كنت أصغر من حضر الاجتماع ، وقال لجلالة الملك عبدالعزيز بالحرف الواحد هذا هو محمد على مغربى يا جلالة الملك ـ ولقد كان جلالته فى قامته الفارعة وجسمه المليء وكنت أقف أمامه فى حجمى الضئيل كطفل صغير رحمه الله .

ولقد علمت بعدها أن سبب تقديمى لجلالته من قبل الحاج عبدالله على رضا أنه أراد إقناع جلالة الملك عبدالعزيز بأن ما نمى إليه عن النادى الأدبى أو عن شباب جدة لاصحة له ، وأراد أن يرانى جلالة الملك عبدالعزيز شخصيا ليرى أن من كان فى سنى الباكر لايمكن ان يصدر عنه ما يسيء إلى الدولة ، وأن ما أخبر به جلالته مبالغ فيه .

كما علمت أنه تعمد أن يدعى إلى حضور الاجتماع هذه المجموعة المختلفة من الناس حتى لايعرف المقصودون بالدعوة أو يرتاع أهلوهم ، هذا التصرف من رجل كالحاج عبدالله على رضا يدل على الشجاعة لأنه وهو يمثل الحكومة لم يقف موقفا سلبيا إزاء المدينة التى يمثل الدولة فيها وإنما حاول جهده الدفاع عن أهلها بحق شارحا لوليّ الأمر ما يعرفه فى أمانة وشجاعة .

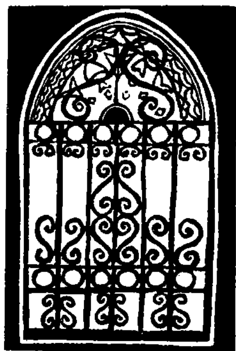
هذا ومن الحق أن أذكر أن بيت آل زينل فى الهند الذى أسسه صاحب الترجمة مع أخيه كان إلى جانب عمله التجارى يقوم بعمل إنسانى نبيل فكثيرا ما أرسل الحاج عبدالله والحاج زينل المرضى إلى الهند لعلاجهم أو إجراء العمليات لهم على نفقتهم ممن لا تتوفر لهم فرص العلاج فى البلاد فى ذلك الزمان .

وفى عام ١٣٥٢ هـ مرض الحاج عبدالله على رضا مرضا طويلا فى مدينة الطائف وكان يصيف بها فكان جلالة الملك عبدالعزيز يزوره فى الدار التى ينزل فيها بالمثناة ويكرر له الزيارة وقد قدم المرحوم الحاج محمد على زينل ابن اخيه خصيصا لزيارته من الهند واستقدم معه الطبيب المصرى الشهير محمد عرفان بك ولكن المنية عاجلته فتوفى بمدينة الطائف فى صيف عام ١٣٥٢ هـ وحضر الصلاة عليه المغفور له الملك عبدالعزيز ودفن بمقبرة ابن العباس تغمده الله برحمته الواسعة فلقد كان من عظماء الرجال .



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





محمد حسن عواد

محمد حسن عواد

متوسط القامة معتدل الجسم ابيض اللون تشوب بياضه حمرة ، له عينان واسعتان ملونتان ، أجرد اللحية والعارضين ، ولد بمدينة جدة عام ١٣٢٠ هجرية وتلقى تعليمه بمدرسة الفلاح وبعد تخرجه منها عين استاذا فيها ، كان يرتدى الكوفية الحجازية والشال وبعد تركه العمل فى مدرسة الفلاح كما يأتى بيانه اصبح يرتدى الجبة والعمامة الحجازية لفترة قصيرة وبعد انتقاله للعمل فى الحكومة ارتدى العباءة العربية والعقال واستمر على ذلك الى آخر حياته وقد ظهر تفوق العواد وبدت اشارات نجابته منذ ان كان تلميذا بالفلاح الى ان استوى استاذا بارزا فيها ، وقد ادركته فى اوائل الاربعينات وهو من ابرز مدرّسى الفلاح ومن احبِّ الاساتذة الى التلاميذ وهو فى ريعان شبابه وأوج فتوته ، ومما تجدر الاشارة اليه أن العواد رحمه الله كان استاذا لكثير من ادباء جدة الذين ظهرت اسماؤهم فيما بعد مثل الاساتذة حمزة شحاتة ، واحمد قنديل ، رحمهما الله والاستاذ محمود عارف وعباس حلوانى ومحمد على باحيدرة وخلافهم من ادباء جدة البارزين ، ولست فى حاجة لأن اقول اننى كنت من تلامذته فى مدرسة الفلاح ووجدت من حسن رعايته وتشجيعه ما كان له اعظم الأثر فى نفسى فلقد كان اول من شجعنى على الكتابة اذ كان يدرِّس لنا مادة الانشاء ـ وهو الاسم الذى كان يطلق على مادة

اللغة العربية فى ذلك الوقت ان صح هذا التعبير ، ولعل الكثيرين لايعرفون ان اول مؤلفات العواد كان فى شرح هذه المادة واسمه (الاكليل الذهبى فى تعليم الانشاء العربى) وقد اهدانى نسخة منه تشجيعا لى على تجويد ما اكتب وكان لهذه الجائزة اثرها الكبير فى نفسى وانا تلميذ صغير فى المرحلة الابتدائية ، وللعواد رحمه الله مؤلف آخر أو على الاصح مشاركة فى مؤلف صغير اسمه معارضات ياليل الصب ، ذلك أن العواد نظم قصيدة يعارض بها قصيدة الحصرى الشهيرة

ياليل الصب متى غده ✫ أقيام الساعة موعده

وشجع اصدقاءه من الادباء على نظم معارضات لهذه القصيدة وجمعت هذه المعارضات فى كتيب صغير وطبعت تحت اسم معارضات ياليل الصب وأذكر انه كان من ضمن المشاركين فيها الاساتذة محمود عارف وهو شاعر غنى عن التعريف ، وله دواوين مطبوعة ومحمد على باحيدرة وعباس حلوانى[1] وغيرهم من الأدباء من تلاميذ العواد واصدقائه وكان لهؤلاء الادباء منتدى صغير يجتمعون فيه مساء كل يوم للسمر والمحادثة ولكنه لم يكن منتدى ادبيا على اى حال .

بريد الحجاز

وحينما وقعت الحرب الهاشمية السعودية وتولى الملك على بن الحسين عرش الحجاز صدرت فى مدينة جدة جريدة بريد الحجاز اصدرها الشيخ محمد صالح نصيف رحمه الله ، وكان العواد ابرز كتابها لأنه كان ابرز الادباء فى ذلك العهد واننى انقل هنا ما كتبته عن بريد الحجاز فى الحلقة الخاصة بالمرحوم الشيخ محمد صالح نصيف مما له صلة بالاستاذ محمد حسن عواد ما يلى :

---

(١) وعبدالوهاب نشار رحمه الله

« وقد وجدت عن بريد الحجاز والاستاذ محمد حسن عواد فى كتاب « ابتسامات الايام فى انتصارات الامام » ما يستحق الاقتباس وهذا الكتاب هو ديوان يضم قصائد شاعر نجد الكبير الشيخ محمد عبدالله بن بليهد من عام **١٣٣٧** الى **١٣٧٠** هجرية ومعظم قصائد هذا الديوان فى الوقائع التاريخية التى خاضها جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز وأنجاله الكرام جلالة الملك سعود وجلالة الملك فيصل رحمهما الله والكتاب مهدى الى صاحب السمو الملكى الامير عبدالله الفيصل ، وكيل نائب جلالة ملك المملكة العربية السعودية « هذه كانت وظيفة سموه الرسمية حين طبع الكتاب » أقول جاء فى هذا الكتاب فى الصفحة ٨٦ عن بريد الحجاز والاستاذ محمد حسن عواد ما نصه وقلت : وانا فى مكة مع الامام عبدالعزيز وقد وردت قصيدة لرجل من اهل جدة يقال له حسن عواد وجعل توقيعه تحت قصيدته الاخطل الاصغر فرددت على ذلك الشاعر وقلت القول اللطيف فى الرد على شويعر الشريف الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده فقد ورد فى بريد الحجاز الخارج من جدة من بلد الشريف على بن الحسين قصيدة لمن سمى نفسه الاخطل الاصغر فقلت وهذا خليفة الاخطل النصرانى فقال فى قصيدته فى رجب **١٣٤٣** هجرية وهذا مطلع قصيدته على الخفيف :

حدثيهم عن بأسنا يا حراب ☆ واذقهم نكالنا يا عذاب
وامطريهم قذائفا يا مناطيد ☆ كأنَّ الدخان منها سحاب

الى ان قال :

ايها المصلحون فى الشرق مهلا ☆ اين اصلاحكم واين الصواب ؟

الى آخرها وهى ثمانية وعشرون بيتا فقلت مجيبا له :

ما اصبتم وما لديكم صواب ☆ بعد ما نُصَّ فى البريد كتاب
وانتبهنا لقولكم حين قلتم ☆ حدثيهم عن بأسنا يا حراب
إن هرمتم على الحروب فإنّا ☆ كلما طالت الحروب شباب

والقصيدة فى خمسة وخمسين بيتا ومنها فى وصف الاسلاك الشائكة التى كانت تحيط بمدينة جدة خلال فترة الحصار ·

ان ظننتم بان سلككم اليوم ☆ عن رحى الحرب والمنون حجاب
فارقبوها من الكثيب سراعا ☆ طالعات كأنهن الهضاب

ومنها فى وصف ما كان يعانيه الحجاج من فقدان الامن :

كم اخذتم من الحجيج فلوسا ☆ طالما ازعج الحجيج النهاب
كم عثت فيهم اللصوص وأمست ☆ عندكم ما على اللصوص عقاب

انتهى نص ما نقلناه عن كتاب ابتسامات الايام والغرض من هذا النقل هو الاشارة الى الناحية التاريخية فى الموضوع لأنَّ هذا العهد قد انقضى والحمد لله بكل ما كان فيه واستعاضت البلاد عنه امنا شاملا ووحدة كاملة ورخاء عظيما وهكذا نرى ان الشعر السياسى كان وسيلة من وسائل الاعلام فى ذلك العهد وكان يمثله شاعران من اكبر شعراء المملكة احدهما الاستاذ الشيخ محمد حسن عواد من اكبر شعراء الحجاز والثانى الشيخ محمدبن عبدالله بن بليهد من شعراء نجد ومؤرخيها ومن اعلم الناس بالمواقع والآثار فى الجزيرة العربية وله مؤلف عظيم فى هذا الباب رحمهما الله ·

خواطر مصرّحه

فى عام ١٣٤٥ هـ اصدر العواد كتاب « خواطر مصرحة » وهذا الكتاب

احدث ضجة عظيمة فى وقته لأنه كان صريحا فى معالجته للامور التى تناولها بل نستطيع ان نقول انه كان جريئا بصورة غير مألوفة ولقد تعرض العواد باصدار هذا الكتاب لمشاكل كثيرة فقد عينت الحكومة لجنة للتحقيق معه فيما ورد فى كتابه هذا[1] وخاصة فى مهاجمته للعلماء التقليديين الذين هزأ بهم فأكثر الهزء وكلفهم كما كلف نفسه شططا وفقد العواد بهذا الكتاب مكانته الممتازة كأستاذ ملحوظ فى مدرسة الفلاح بجدة وهى اهم مدرسة فى المدينة وانتقل للعمل فى المدرسة الحكومية الابتدائية التى كانت شبيهة بالفلاح ولكن لم تكن لها مكانتها ولم يطل به الامر فى المدرسة الابتدائية فانتقل للعمل فى مكة فى شعبة الطبع والنشر ثم انتقل الى جدة ليعمل رئيسا لكتاب المحكمة التجارية التى كان يرأسها الشيخ سليمان قابل رحمه الله وهو بهذا الانتقال اصبح يعمل فى غير مجاله الصحيح وهو مجال العلم والتعليم والأدب والفكر ثم انتقل أخيرا الى مكة المكرمة ليعمل محققا بالقسم العدلى فى ادارة الامن العام بالحميدية وبانتقاله الى مكة امكنه المساهمة فى تحرير جريدة صوت الحجاز حين ظهورها لأول مرة فقد كان احد رؤساء التحرير الثلاثة الذين اطلق عليهم اسم (نخبة من الشبان) وهم الاساتذة عبدالوهاب آشى ومحمد حسن فقى مد الله فى حياتهما والاستاذ محمد حسن عواد رحمه الله ، وكانت الجريدة تصدر اسبوعية وكان كل رئيس تحرير يكتب افتتاحية احد اعدادها ولم يستمر العمل فى رئاسة تحرير الجريدة بهذا الاسلوب الا فترة من الزمن ثم عين لها رئيس تحرير مسؤول وقبل ان نستطرد فى ذكر الاعمال التى تقلدها الاستاذ العواد لابد ان نقف بعض الوقت عند كتاب « خواطر مصرحة » .

---

(١) كانت اللجنة مؤلفة من صاحب السمو الملكى الامير فيصل والشيخ محمد صالح نصيف ومهدى المصلح - انظر ديوان العواد الافق الملتهب صفحة ٥٧ و ٥٨ ..

لقد قلت فى حلقة سابقة اننا نستطيع ان نؤرخ لظهور الادب الحديث فى الحجاز بظهور كتابى ادب الحجاز والمعرض اللذين اصدرهما المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وهما مجموعة مقالات وقصائد لأدباء الحجاز فى ذلك العهد وقد شارك فيهما الاستاذ عواد رحمه الله مشاركة واضحة وكذلك بظهور كتاب « خواطر مصرحة » للاستاذ محمد حسن عواد وهو كتاب مستقل بذاته وجميع هذه الكتب ظهرت فى النصف الاول من الاربعينات وفى اوائل العهد السعودى عام ١٣٤٥ هـ ولقد كان الأدب والشعر فى هذه البلاد فى حالة ركود تام والأدباء الذين ظهرت بعض آثارهم من قبل كانوا ادباء تقليديين ان صح هذا التعبير فالنثر تضيع معانيه بين ثنايا السجع ، والشعر تغلب عليه المحسنات البديعية التى تحفل بالمبالغات والاستحالات ، والجو الأدبى يخيم عليه الركود والانحلال فى هذا الوقت بدأ شباب مكة وجدة ممن تعلموا فى مدارس الفلاح خاصة يفتحون عيونهم على ما تحفل به الصحف المصرية من نثر وشعر وما تنتجه المطابع العربية من ثمرات القرائح والأفكار لأدباء العرب فى مصر وسوريا ولبنان بل وفى المهجر فقد كانت هناك الرابطة القلمية ولها مجلة تصدر فى نيويورك وكانت تنشر آثار الأدباء السوريين واللبنانيين المهاجرين فى امريكا كما تطبع مؤلفاتهم ومن ابرزهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وايليا أبوماضى وغيرهم .

وكانت هذه الصحف وتلك الكتب بما تحتوى عليه من افكار وما تضمه من آثار تجد صدى عظيما فى نفوس الشباب المتعطش للعلم والراغب فى تجديد الحياة فى جميع مجالاتها، فلما أتيح لهؤلاء الفتية من المتعلمين ان يعبروا عن رغباتهم وافكارهم كان هذا التعبير ممثلا اولا فى الكتابين اللذين اصدرهما المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وهما كتاب « ادب الحجاز والمعرض » وفى كتاب الاستاذ محمد حسن عواد « خواطر مصرحة » الذى هو موضوع هذه الحلقة ، لهذا كان كتاب العواد فى

حينه بما حواه من افكار جريئة مفاجأة لكل من قرأه لا فى داخل البلاد وإنما فى خارجها ولقد اعتبره الدارسون بداية للتجديد فى الادب الحجازى واستشهد به عميد الادب العربى الدكتور طه حسين رحمه الله ، كما اشار إليه الكاتب العربى الكبير محب الدين الخطيب حينما ذكر ان موجة التجديد وصلت الى الحجاز ولكنها بدأت من الشارع الخامس فى نيويورك اشارة الى ما يحفل به كتاب العواد من النثر الفنى على طريقة ادباء المهجر فى ذلك الزمان •

ومما اذكره عن « خواطر مصرحة » اننى اشتريت نسخة منه وانا طالب بمدرسة الفلاح اول ظهوره وابصر الشيخ عمر حفنى رحمه الله وكيل المدرسة النسخة فى يدى فسألنى عنها فقلت انها « خواطر مصرحة » قال وهل تريد ان تقرأه ؟ قلت : نعم قال: لا تقرأه قلت ولكنه لأستاذنا العواد قال: ولو ، انه كتاب سيىء ولكن هذا النهى لم يزدنى الا إصرارا على قراءة الكتاب والاحتفاظ به ولايزال عندى حتى اليوم ، كما اذكر ان استاذنا الشيخ حسين مطر مدير مدرسة الفلاح رحمه الله القى كلمة فى الطلاب بعد صلاة الظهر حين ذاك قال فيها ما معناه ان محمد حسن عواد كان تاجا على رأس المدرسة ولكنه بعد ان اصدر كتاب « خواطر مصرحة » فقد مكانته فيها ، ولست فى حاجة لأن اقول ان كل هذا العداء لم يزد العواد الا اصرارا على موقفه وتصلبا فى آرائه. فقد كان عنيدا لا يتراجع ولو وقف الجميع ضده ، والواقع اننا لو اردنا تقييم الكتاب بمحتواه بعيدا عن الظروف التى شرحناها لوجدنا انه عبارة عن مجموعة مقالات تدعو الى الاصلاح والى التجديد فى كل شيء ولكن بعضها ينتهج اسلوبا جارحا فى التعبير وخاصة فى تلك المقالة التى يوجهها الى العلماء وكان من الممكن التعبير عن هذه الافكار بأسلوب اكثر هدوءا واقل اندفاعا ، ولكن الكتاب كما قلنا كان مفاجأة مذهلة للناس فاستحق ان يدخل التاريخ ايذانا بابتداء حركة التجديد فى الادب

فى الحجاز مع ما سبقه من كتابى « ادب الحجاز والمعرض » وما تلاهما من ظهور جريدة صوت الحجاز التى كانت تعبيرا مستمرا عن هذا الأدب لسنوات طويلة فيما بعد ·

ولقد اصدر العواد بعد ذلك الجزء الثانى من « خواطر مصرحه » عام ١٣٨٠[١] فمرت الخواطر دون ان يشعر بها احد ذلك ان ما كتبه العواد فى عام ١٣٤٦ هـ كان جديدا على الناس وجريئا فى ذلك الزمن ، اما ما جاء بعد ذلك فقد اصبح امرا عاديا ومألوفا ولكل زمان حكمه ، وقد كان حظ العواد فى الخواطر الاولى هو فضل السبق والجرأة فاستحق بذلك ان يدخل التاريخ كأديب مجدد رائد شجاع ·

المعارك الأدبيّة

خاض العواد معارك ادبية كثيرة سنتحدث عن ابرزها إكمالا لتصوير شخصيته الادبية ومن ابرز هذه المعارك معركته مع الاستاذ عبدالقدوس الانصارى صاحب مجلة المنهل فقد اصدر الأستاذ عبدالقدوس قصة بعنوان (التوأمان) لعلها اول ما طبع له من اثار - وانتقد العواد القصة نقدا لاذعا ورد عليه عبدالقدوس واستمرت المعركة بينهما بعض الوقت كما ان له معركة اخرى مع المرحوم الشيخ حسين باسلامه مؤلف كتاب « سيد العرب » وبعض الكتب عن تاريخ مكة والمسجد الحرام كما ان له معارك اخرى مع الاستاذ حمد الجاسر والاستاذ عبدالعزيز الربيع وغيرهم ولكن اهم معاركه الادبية هى معركته مع الاستاذ حمزة شحاتة رحمهما الله واننى استمد الآن من الذاكرة ما اعرفه عن

---

(١) خواطر مصرحه جزءان فى مجلد واحد مطبعة المدنى الطبعة الثانية ··

خفايا هذه المعركة التى استمرت شهورا طويلة والتى كانت معركة شعرية رمزية ثم انتهت نهاية سيئة مؤسفة ٠

كان العواد محققا بالقسم العدلى بإدارة الأمن العام فى مكة المكرمة وكان المرحوم الاستاذ طلعت وفا رئيس القسم العدلى صديقا حميا للاستاذ حمزة شحاتة وكان حمزة دائم الشكوى من العواد ينتقد تصرفاته واعماله واحب طلعت وفا ان يجمع بين الأدبين الكبيرين لإصلاح ذات البين وتصفية النفوس فاجتمعا وكنت انا وطلعت نحضر هذا الاجتماع بمنزله فى أجياد وطال النقاش وكنت أمل كما كان الأستاذ طلعت وفا يأمل أن ينتهى الاجتماع بالوفاق خاصة وان العواد هو استاذ حمزة شحاتة ولكن حمزة غفر الله له هاجمه مهاجمة شديدة جارحة وانتهى الاجتماع بالقطيعة بل اسفر عن خصام شديد وإنى لأذكر انى عاتبت حمزة رحمه الله بعد ذلك واوضحت له انه كان قاسيا فى هجومه على العواد وانه استباح فى مهاجمته مالايستباح فاعترف حمزة بذلك ولكنه كان عنيدا وبدأت المعركة بقصيدة او على الاصح بقصائد شعرية ينظمها حمزة ويرد عليها العواد وكانت قصائد طويلة تنشر جميعها فى جريدة صوت الحجاز وكان الناس يترقبونها كل اسبوع ، وكانت الجريدة اسبوعية فى ذلك الوقت وكان حمزة قد اتخذ اسم الليل رمزا له فى هذه المعركة ثم تحول فيما بعد الى العاصف ان لم تخنى الذاكرة اما العواد فكان الساحر العظيم هو الرمز الذى اختاره لنفسه ، من الناحية الفنية كانت هذه القصائد كسبا للأدب لأنها جاءت فى اسلوب فنى لشاعرين من اكبر الشعراء فى ذلك الزمان فى البلاد كما كانت مجالا للنقاش المستمر بين الأدباء والقارئين ، ولو ان المعركة اقتصرت على هذا الحد لكان ذلك حسنا ولكنها تطورت للأسف الشديد الى مهاجاة مقذعة تناول فيها كل صاحبه تناولا سيئاً حتى وصل الى الأعراض واستباح ما لايستباح وكانت هذه المهاجاة لاتنشر فى صوت الحجاز لانها لم تكن

صالحة للنشر بما حوته من فحش القول وجارح التعبير ولكن هذه القصائد كانت تكتب باليد على نسخ متعددة وتوزع فى اماكن تجمعات الناس فى مكة وقد جَّرت المهاجاة بين حمزة والعواد الى دخول شاعرين آخرين فيها وهما الاستاذ الشاعر احمد قنديل رحمه الله مساعدا لصديقه حمزة شحاتة ومدافعا عنه ، والاستاذ الشاعر محمود عارف مساعدا ومدافعا عن استاذه محمد حسن عواد ولم يكف كلاهما عن هذه المهاجاة الا بعد ان اتسع نطاق توزيع هذه القصائد الهجائية وخشى الطرفان ان تجرَّ عليهما الجرائر فطويا تلك الصفحة السوداء وحسنا فعلا وقد اعتذر العواد فيما بعد لحمزة بمقطوعة بعنوان « عتاب » منشورة فى ديوانه نحو كيان جديد فى صفحة (١٧٥) فليرجع اليها من اراد .

العـوَّاد وشـوقي

ومما يدخل فى باب المعارك الأدبية للعواد وان لم تكن معركة ادبية حقيقية لأنها من طرف واحد اذا صح هذا التعبير هو تعريض العواد بشعر امير الشعراء أحمد شوقى رحمه الله ومحاولة اظهاره بمظهر المقلد المسفٍّ حتى انه بلغ من تعصبه فى هذا المجال انه رحب بظهور ديوان شاعرة سعودية هى الآنسه « ثريا قابل » وقيَّم شعرها حتى فضلها على احمد شوقى امير الشعراء ولست فى حاجة الى القول ان ثريا قابل نفسها قد فوجئت كما فوجىء الناس جميعا بآراء العواد رحمه الله فيها وفى شوقى معا ولكن العـواد كان عنيدا كما أسلفنـا وكان معجبـا شديد الاعجاب بالعقاد رحمه الله ولكل ما انتج من شعر ونثر وكان العقاد خصما عنيدا لشوقى فاندفع العواد فى مهاجمة شوقى متأثرا بآراء العقاد فيما اقدر لأنى لم اجد مبررا واحداً لموقف العواد من شوقى بعد وفاته وهو اكبر شعراء العصر ومن القمم

البارزة فى تاريخ الشعر العربى على امتداد العصور خاصة وان العواد قد رثى شوقى حين مات[1] وان كان هذا الرثاء لم يسلم من التعريض به الا انه كان ظاهر التقدير له ولشعره ومن المهم ان نقول ان المعركة التى افتعلها العواد انما جاءت بعد وفاة شوقى بزمن طويل ٠

النادي الأدبي

عرف الناس المرحوم الأستاذ محمد حسن عواد رئيسا للنادى الأدبى بجدة والذى تم تأسيسه مع بقية النوادى الأدبيه فى المملكة ولكن اول ناد ادبى اسس بجده كان فى أوائل الخمسينات وكان العواد ابرز اعضائه وقد كتبت عن هذا النادى فى حلقة سابقة ونوجز الحديث هنا عنه مرة اخرى لعلاقة المرحوم الاستاذ العواد به فنقول انه فكر جماعة من الشباب المتعلم فى مدينة جدة فى تأسيس ناد ادبى وتقدموا للحكومة بطلب الترخيص لهذا النادى فى اوائل الخمسينات ولكنهم باشروا نشاطهم فيه قبل ان يتلقوا الإذن بافتتاحه وكان من اعضائه المرحومين عبدالعزيز جميل وابراهيم وصالح اسلام وحمزة شحاتة ، والشيخ حسن ابوالحمايل ويونس سلامه وانيس جمجوم وغيرهم وكان كاتب هذه السطور اصغر اعضاء النادى فى ذلك الحين كما كان العواد ابرز شخصية فى النادى لانه كان استاذاً لمعظم الاعضاء باستثناء الشيخ حسن ابوالحمايل الذى كان يدرس مادة الفقه فى الفلاح وهوأسنُّ من المرحوم الأستاذ عواد وكان هذا النادى يتخذ له مقرا فى دار المرحوم الشيخ عبدالعزيز جميل بحارة اليمن ثم انتقل الى دار المرحوم الشيخ صالح اسلام بجوار مسجد المعمار وكانت تلقى فيه قصائد ادبية ومقالات وقصص

---

(١) نحو كيان جديد

وكان نشاط النادى اجتماعيا وادبيا ولكن النادى لم يستمر ولم توافق الحكومة على الاذن بتأسيسه فى ذلك الوقت لظروف شرحناها[1] فى حلقة سابقة وانى لأذكر للعواد قصيدة حيا بها النادى فى ذلك الوقت وكان مطلعها :

الى عصبة النادى والليل هدأة ☆ وللفكر فى هذا الهدوء تبتل
تحية مملوء الجوانح غبطة ☆ بان ضم فيكم عنصر متحلل

ومنها إن لم تخنى الذاكرة :

ويارب شيخ جلل الشيب رأسه ☆ ينازعه العليا فتى متدلل

والقصيدة طويلة ولم اجدها منشورة ضمن مانشر من شعره ولعلها مطوية بين ما ترك من أوراق رحمه الله •

الأديب الرائد

العواد اديب بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى فهو شاعر مبدع وكاتب فنان وقد ذكرنا انه وزملاءه من الرعيل الاول الذين ظهرت آثارهم فى كتابى « ادب الحجاز والمعرض » كانوا هم النوّاة الاولى لظهور الأدب الحديث فى الحجاز قبل اكثر من نصف قرن ويحتل العواد بين هذه الكوكبة الأولى من الادباء والشعراء مكانة بارزة عظيمة باصداره أولا كتاب « خواطر مصرحة » وباستمراره فى العمل الأدبى منذ نشأته الى ان فارق هذه الحياة والمتأمل لبواكير العواد الأولى من شعر ونثر يرى معالم التجديد فى الاسلوب وفى الافكار معاً واضحة وكأنها تشير الى الطريق فهو من المعالم البارزة فى التاريخ الادبى فى الحجاز وهو بهذا يعتبر رائدا من اوائل الرواد ومن اعظمهم اثرا فقد اقتدى به الجيل الجديد من

(١) راجع الحلقة الخاصة بالحاج عبدالله على رضا

الأدباء والشعراء وكان العواد كما ذكرنا استاذا لكثير منهم ولئن تميز كل منهم فيما بعد بشخصيته وباسلوبه الخاص فان ذلك لن ينقص من مكانة الأستاذ الرائد العظيم ولقد عرفت العواد رحمه الله كما عرفه الكثيرون يشجع الأدباء الناشئين ويأخذ بيدهم ويبصرهم بمواضع النقص ليتفادوه ، وبجوانب الاجادة حتى يصلوا الى الإبداع وقد احتفظ العواد بمميزات شخصيته الأدبية طوال حياته ولم يقتصر فى تشجيعه للكتاب من الشباب وانما كان من اوائل الرجال الذين شجعوا الفتاة وكرموا انتاجها وهللوا لتعليمها ولقد عنى بتعليم ابنته الوحيدة السيدة نجاة حسن عواد فكانت من اوائل المتعلمات وكان برنامجها الناجح فى الاذاعة السعودية « البيت السعيد » يشير الى ما بذله العواد لكريمته الوحيدة من علم وتهذيب ولعله هو الذى اطلق على المرأة اسم الجنس العطوف بدلا من الجنس اللطيف والعواد بهذا يشير الى مافطرت عليه المرأة من رقة وعطف أمّاً وزوجة وأختاً وبنتا ·

مؤلفات العوّاد الأخرى

وللعواد مؤلفات أخرى نثرية اهمها كتابه عن سليمان بن عبدالملك وكتاب تأملات فى الادب والحياة واخيرا كتابه الطريق الى موسيقى الشعر الخارجية ولم تتيسر هذه الكتب لى وانا اكتب عنه ولم ارغب تأخير الكتابة الى ان تصلنى بقية مؤلفاته فانى مازلت ألوم نفسى على التأخير والرجل له على فضل الاستاذ وحق الصديق وانى لأرجو ان يكون فيما كتبته عن الخواطر ما يؤدى بعض حقه على ، وللذين يدرسون ادب العواد ان يقرأوا جميع ما كتب وما انتج لتكون دراستهم اوفى وأكمل ولعله من المستحسن ان نذكر هنا ان العواد كان يكتب باسم مستعار وهو « اريج نسرين » ولعل كثيرا من انتاجه فى الصحف يحمل هذا التوقيع ·

العـوّاد الشـّاعِر

العواد شاعر مبدع وقد مارس نظم الشعر هواية ان صح هذا التعبير في سن مبكرة يقول هو أنها بدأت وهو في الحادية عشرة من العمر[1] واستمرت الى آخر العمر وقد بدأ شاعرا مكثرا وانتهى الى الاقتصاد بعد ان علت به السن وقد جمع العواد شعره في ديوانين كبيرين حرص فيهما على اعطاء اسم معين لكل فترة من فترات العمر فالفترة الأولى من الحادية عشرة الى العشرين « آماس وأطلاس » وألحقها فيما بعد بالبراعم وهي امتداد للآماس والأطلاس « ونحو كيان جديد » وهذه تمثل الفترة الثانية فترة الرجولة والنضج ويمكن ان تكون ما بعد العشرين الى الأربعين او ما قبلها ، « والساحر العظيم » وهو مجموعة القصائد التي نظمها إبان المعركة التي نشبت بينه وبين الشاعر الراحل الاستاذ حمزة شحاتة واستعرض فيها العواد كل المعارك الادبية التي خاضها وقد طبعها العواد عـام ١٣٧٢ هـ وان كنت اعرف ان هذه المعركة كانت في النصف الأول من الستينات،« وفي الأفق الملتهب » ولعلها تمثل شعره ما بين الأربعين الى الخمسين .

والصورة التي يخرج بها القارىء لهذه المجموعة الضخمة التي تضم هذه الدواوين كلها او الصورة التي خرجت بها من هذه القراءة بعد ان غادرنا العواد الى رحاب الله هي صورة الانسان الثائر على الجمود الراغب في التجديد والاصلاح،الواقف بالمرصاد لخصومه ونقاده،العنيف في خصومته المسفه لآراء نقاده الذاهب بنفسه كل مذهب ، فالعواد الشاعر هو العواد الكاتب الذي عرفناه في « خواطره المصرحة » ثائرا مجددا عنيفا مسرفا على نفسه وعلى خصومه سواء اكان

---

(١) انظر مقدمات ديوانية آماس واطلاس والبراعم في الجزء الاول من الديوان وكذلك مقدمات دواوينه الساحر العظيم وفي الافق الملتهب رؤى، ابولون في الجزء الثاني من ديوان العواد ..

هؤلاء الخصوم من الأدباء او من غيرهم من الناس وعندى ان العواد كان مخلصا فى التعبير عن نفسه اخلص التعبير واصدقه والصدق فى التعبير عن النفس بعواطفها وافكارها وشعورها هو اعظم مقومات الأديب ، وكماله انما يكون بالابداع الفنى فى صياغة هذا التعبير سواء اكان ذلك شعرا او نثرا والعواد كان اديبا مفتنا أستوت له هذه الصياغة فى مختلف شكولها فكان كاتبا مبدعـا وشاعـرا عظيما ولنحاول الآن اعطاء بعض النماذج عن هذا الذى وصفناه فيما مضى من سطور ٠

القلم المكسور[1]

يقول العواد فى ديوانه الاول آماس وأطلاس :

قـد كسرت القلما ☆ وهجرت الكلمـــا
وتطرفت الــــى ☆ ان جفــوت الحكما
اذ ارى فى امتى ☆ فشــلا فيما نما
يابنــى قومــى أما ☆ آن ان نرقــى أما
فابعثوها يقـــظة ☆ تقلــب الارض سما

نحو النور[2]

ويقول فى نفس الديوان :

افـلا زحــام على الحياة ولا اقتحام ☆ حتــى متــى قواد فكرتنــا نيام
هبـوا معـا نعنــى بفــوضى الاجتماع ☆ حكماءنـا خطباءنـا كتابنـا شعراءنــا
لاتهملوا مرضا المَّ بنا سنين
داووا الحياة وبــرروا علل الصراع ☆ سلُّوا الــيراع ، ودعــوا النزاع

---

(١) آماس واطلاس صفحة (٤٦)
(٢) آماس واطلاس صفحة (٥٠)

نشأة[1]

وفى ديوان البراعم يقول :

يا صديقى إليك نشأة رهط ☆ هيجوا شعبهم وما اصلحوه
ادباء سماهم الناس والنا ☆ س اذ عَنَّ حادث كبرّوه

ومنها يقول عن نفسه بعد ان استعرض الشعراء القدامى ابوفراس وزهير والأدباء المحدثين الزملاء ، البيارى والفدا والعمودى ومحمد[2]

وسأسمو غدا بأروع مما ☆ راح يسمو به ولم يهضموه
رافعا راية الجديد من الفكر ☆ فقد ضقت بالذى رسموه
سوف املى على الجميع احترامى ☆ واعترافا ياطالما همسوه
فأزجّى خواطرى والخليون نيام ☆ ومطمعى عرفوه
وليدوروا السنين حول التخاميس ☆ وتقليد كل ما سمّوه[3]

ومنها

ليس بالمعرض الرتيب ☆ ولا صورة ما سطروه او حفظوه[4]
لا ولكنه شعور وافكار ☆ حرار تسود ما كتبوه

ومنها

وتدوّى فى الجيل ثم تدوى ☆ فى الذى بعده ومن يتلوه

والعواد يذكر ان هذه القطعة نظمت قبيل اصدار الخواطر وبعد ظهور كتاب المعرض الذى اشار اليه العواد وانتقد المشتركين فيه وهو احدهم وقد ظهر المعرض

(١) البراعم صفحة (٤)
(٢) محمد البيارى وعبدالله فدا ومحمد سعيد العمودى ومحمد سرور الصبان .
(٣) البراعم (٧) .
(٤) نحو كيان جديد صفحة (١٨)

عـام ١٣٤٥ هـ كما ان الخواطر ظهرت فى نفس العام وليس من شأننا التحقيق فى التواريخ وانما الغرض هو الاشارة الى ما ستحدثه الخواطر من ضجيج بعد ظهورها وقد أثبتت الأيام صحة هذا الشعور .

داعى الوئام

وفى البراعم قصيدة حيا بها الشاعر جريدة بريد الحجاز التى اسلفنا الحديث عنها والتى كان هو ابرز كتابها بل وشعرائها ومطلعها :

صاح حى الرقى حى السلاما ☆ حى داعى الوئام حى الوئاما
حى عصر النهوض حى التعالى ☆ حى بالمجد أمة تتسامى

ومنها

قد حرمنا حرية العقل عصرا ☆ وحرمنا حتى حرمنا الكلاما[1]
طال عهد السكوت حتى مللنا ☆ وأردنا ان نكسر الاقلاما

ومنها

طال سجن اليراع والآن يبغى ☆ ان يرى فى فم الزمان ابتساما

ومنها

طال عهد السكوت حتى حسبنا ☆ ان هذى الحياة عادت مناما

المثل الأعلى

وفى قصيدة المثل الأعلى وهى من عيون شعر العواد يقول :

ياحبيبى ابدا فى كل ظرف يتحورفى ضجيج الصبح فى همس المساء الهادى

---

(١) يشير بذلك الى عهد الشريف الحسين بن على حيث ان بريد الحجاز ظهرت فى عهد ابنه الشريف على .

فى غمار الجد فى سعى الحياة الهازئى ☆ انت فى العين وفى القلب مصور غيرمنسى

ومنها :

ولنجاوز مُسَخاً تمعن فى الاسفاف فى هذا الكفاح
ولنمايز بين من يفعل مخفياً وذى الفعال الصراح
ولنساير روعة الدنيا بأقدام الجرىء
ولنعضد محسن الأمر ونرثى للمسىء

رَثاء عَبْدالله حِمدوه

رثى العواد الشيخ عبدالله حمدوه مدير مدرسة الفلاح بمكة المكرمة حين توفى بقصيدة مطلعها

وقارك لايزجى الوقار منونا ☆ حقيق بأن ينـدى عليك عيونا
أ أرثيك شيخ النشء والنشء كله ☆ يذرف دمعا فى رداك هتونا

ومنها :

وربة يوم ثرت فيه فخلتنى ☆ أداجيك رأيا او أنيلك لينا
فألفيت منى عارفا حق رأيه ☆ عزوما فصافحت العزوم ضنينا
وأذهلك الحق المبين على فم ☆ تؤمل منه لثم كفك هونا
وذى شرعة السبعين فيمن ترزمتوا ☆ تُصَبُّ على رأس الشيبة دينا

يَدُ الفنّ تحطّم أصنام الإتباع
(أو الساحر العظيم)

نظم العواد قصيدته الكبرى الساحر العظيم فى اكثر من خمسمائة بيت وأفرد لها جزءا خاصا من ديوانه وهى تمثل الخصومة الشعريه الكبرى التى نشبت بينه وبين الأديب الراحل الأستاذ حمزة شحاتة كما اسلفنا ولم يكتف العواد فى الساحر العظيم بحمزة وانما تعرض لكل من جرت بينه وبينهم معارك ادبيه مثل المرحومين احمد قنديل والشيخ حسين باسلامه مؤلف كتاب سيد العرب والاستاذ عبدالقدوس الانصارى مدَّ الله فى حياته وغيرهم وقد رمز العواد لكل منهم برمز معين وحسنا فعل وليس هنا مجال الفصل بين حمزة والعواد رحمهما الله وانما يترك ذلك للدارسين وبعد ان تظهر الى النور آثار المرحوم حمزة شحاتة التى لم تطبع حتى الآن لتكون المقارنة ويكون الحكم ومطلع القصيدة او الملحمة الكبرى هو :

عشق الخلد طامحا نزَّاعا ☆ فامتطى فنه اليه طماعا

شاعر فنه يحلق بالفكر ☆ الى عالم اشد ارتفاعا

ومنها فى وصف هذا الشاعر الذى هو العواد نفسه

واذا قَصَّ فالشخوص تناجيك ☆ عيانا كان تحس رئيا(١)

فترى اسطرا تفيض حياة ☆ كل لفظ تخاله آدميا

---

(١) الساحر العظيم صفحة ٢٠

ومنها

لم يكن ساحرا كما يفهم الدهماء ☆ لكنه تدفق نورا[1]

وهو فن علمته انت اياه ☆ فسبحانك العليم الخبيرا

وفيها يصف خصومه :

ان آثارهم ثغاء شياه ☆ تبصر الذئب وانذر دجاج[2]

هم على ما ترى وتعلم منهم ☆ ادباء قد ركبوا من عجاج

ومنها وهي من اجمل مقطوعات القصيدة :

وانجلى الامر عن خميلة زهر ☆ واذا شئت فهي روض انيق[3]

ابدعته من الحياة يد الفن ☆ فذا هائل وذاك رشيق

غرسته أنامل الشاعر الفذ ☆ فغرس باهر ودوح سحيق

لا تقل انها ورود ففيها الشوك ☆ في كل خطوة مطروق

ومنها

الغروب الجميل يلبسه الزهر ☆ ويكسوه بالبهاء الشروق

فاذا الشمس في الغداة اطلت ☆ فالحبيب المسلم المعشوق

واذا ودعت أصيلا فحفل ☆ باهر فيه نشوة وغبوق

ونكتفي بهذا القدر من النماذج التى اوردناها والتى تصور العواد الثائر العنيف والفنان المبدع العظيم لنتحدث عن جوانب اخرى من هذا الشاعر العظيم المتعدد الجوانب .

---

(١) الساحر العظيم ٢٢

(٢) الساحر العظيم صفحة ٢٣

(٣) الساحر العظيم صفحة ٢٥

الجزء الثاني من ديوان العواد قسم الاول الساحر العظيم صفحة (١٧)

الشـــؤون العـــامّـة

عنى العواد بالشؤون العامة ان صح هذا التعبير لا لبلاده فحسب وإنما للبلاد العربية كلها وقد بدأ عنف العواد ضد التأخر والجمود والتزمت ثم تحول بعد ذلك الى عنف مع الخصوم الذين وقفوا فى سبيله مصلحا مجددا ثم الى الخصوم من الشعراء والنقاد الذين عاصرهم واتصلت أسبابه بأسبابهم يقول العواد فى قصيدة يودع فيها الملك الشريف الحسين بن على بعد ان ترك العرش عام ١٣٤٢ هـ والعواد فى اوائل العشرينات والقصيدة بعنوان •

وخز الضمير (١)

يامـــالك الملك اليك المآب ... ما الملك فى ملـــكك الاسراب
يا صاحبـــى يا خدمـــى يا اولى ... الشـــأن بملـــكى واللظـــى والحراب
حسبـــى عذابـــا اننـــى سامع ... صوتـــا من الداخـــل حسبـى عذاب

ومنها :

دعونـــيَ الداهـــيَ فى امة ... لا تعـــرف الســـواس الاصعاب (٢)
أهالـــت الألقـــاب لى ضخمة ... فاورمـــت أنفـــى وذاك المصاب
فخلـــت نفسى فى ربـــا مكة ... هرون بغـــداد رفيع الجناب
ولـــم اقـــدر اننـــى خادم ... للشعـــب والشعـــب دقيق الحساب

ومنها :

عاهـــدت جونبـــول ولكنه ... لم يرع عهـدى ما امـــرَّ الخلاب (٣)
وكان جيرانـــيَ أوْلى بأن ... اوليهـــم العهـــد وعـــون الصحاب

---

(١) البراعم صفحة (١٦)

(٢) البراعم صفحة (١٧)

(٣) البراعم صفحة (١٨)

ومنها

والحكم عندى تابع للهوى ☆ أساسه رجراجة كالسحاب
شورى امام الناس لكنها ☆ ابعد عن نهج الصواب
مجلسها مستبعد زائف ☆ اصنامه مركوزة لا تهاب
ليس لها رأى ولا حرمة ☆ تلحظ او حرية تستجاب

وللعواد قصيدة اخرى بعنوان :

متى

متى نرتقى المجد الصريح المخلدا ☆ ونكتب فى التاريخ فخرا مؤبدا[1] ؟
متى نملك الشأو الرفيع جلالة ☆ ونرمى الى العلياء سهما مسددا ؟
أنبغى المعالى بالتقاعس ضلة ☆ ونطلب عزا فى الخليقة رقّدا ؟

ومنها :

أرونا نهوضا واتركوا اللهو واكتبوا ☆ على صفحات العصر ذكرا مؤبدا[2]
ولا تتوانوا إن سمعتم مقالة ☆ يرددها الشانى وقولا مفنّدا
يفيض على الأسماع والسمع مطرق ☆ محاسن أوروبا ويطرى مرددا
ويوحى إلينا أن للغرب عزة ☆ تربع منها هامة النجم مقعدا

ومنها :

فما ولد الغربى فى الكون راقيا ☆ وما ولد الغربى فى الكون سيدا
وما هو الا الجد من حاك خيطه ☆ تناول عن بعد سماكا وفرقدا

---

(١) البراعم صفحة (٢٥)
(٢) البراعم صفحة (٢٦)

والعواد شاعر وحدوى نادى بوحدة العرب من المحيط إلى الخليج وقد حيًا بعثة الكشافة العراقية التى قدمت للحج بقصيدة تلمس فيها هذه المعانى واضحة جلية •

إلى الكشافة العراقية

للنـديد النبيل عنـد النديد ☆ كل ما للعقيد عنـد العقيد[1]

ومنها :

إن فى فكرة التآخـى لارهاصا ☆ يرينـا قرب النهـوض الأكيد
ولهـذا شعارنـا فى بلاد العرب ☆ هذا دين الإخـاء الوطيد
لا حجـاز لا سوريا لا عراق ☆ لا ولا نجـد فى رضى التوحيد
إنمـا أمـة كبـيرة آمال ☆ جسام عدوة التبـــــديد
شعـب حق مسترجـع عربى ☆ واحـد سـيره عريق الجدود
إن تنـادى فإنمـا يتنادى ☆ بِـمَعَـدٍّ فى تاجـه المعقـود

ومن المهم أن نذكر أن هذه القصيدة إنما نظمت قبل أن تنال معظم البلاد العربية استقلالها فقد كان العراق ومصر وفلسطين والأردن تحت الحكم البريطانى كما كانت سوريا ولبنان والمغرب والجزائر تحت الحكم الفرنسى وليبيا تحت الحكم الايطالى وللعواد قصيدة أقـدم من هذه فى وحـدة العـرب تعـود إلى منتصف الأربعينات ومطلعها •

وحدة العرب[2]

عرب الجـزيرة كم تكون سعيدة ☆ هذى الحياة بوحـدة الأبعاد
تتوحـد الأشتـات فى مجموعها ☆ ويعـزز المجمـوع بالأفراد

(١) نحو كيان جديد صفحة (١٨٧)
(٢) آماس واطلاس صفحة (١٨)

فيقـــوم من بردى إلى صنعائها ☆ أمـــل يرن صداه فى الأبعاد
ومـــن القصيم إلى ربـــى غرناطة ☆ تبنـــى الحياة عميقـــة الأوتاد

كفاح الجزائر المقدس (١)

وللعواد قصيدة فى كفاح الجزائر من أجمل الشعر ومطلعها

روعـــة الوثبـــة فى همس الحراب ☆ فى بنيك الصيد يا آســـاد غاب
أو على البيض الرقيقـــات الحرائر ☆ فعلى اســـم الله ســـيرى يا جزائر

ومنها :

هذه الأمـــة من أين أتاها ☆ ذلك الايمـــان فى كل خطاها
شيخهـــا يكرع منـــه وفتاها ☆ أنـــه دين كفـــاح وحميه
وتباشير حـــياة عربـــــــــــــية ☆ فعلى اســـم الله ســـيرى يا جزائر

وللعواد قصيدة أخرى بعنوان قوميتى (٢)

أحـــب الجـزيرة والموطـــــــــــــنا ☆ ومستقبـــل العـــرب أن يعلنا
أحـــب الحجـــاز أحـــب السراة ☆ مدار العروبـــة أصـــل المنا
ونجـــدا وإحساءهـــا والعسير ☆ وحائـــل واليمـــن الأيمنا
أحـــب العـــراق أحـــب الشآم ☆ ومصـــر ولبنـــان والاردنـــــــــــا

وقد استعرض فيها العواد أسماء البلاد العربية جميعها ولا يتسع المقام لأكثر مما أوردناه عن شعره الوطنى فى الشؤون العامة فلننتقل الآن إلى جانب آخر من جوانب هذه الشخصية الفذة ٠

---

(١) الافق الملتهب صفحة (١٠٦)
(٢) الافق الملتهب صفحة (١١٠)

الشعر الروحي

للعواد قصائد فى الرسول الأعظم صور فيه شعوره حينما زار المدينة المنورة ، كما صور فى قصيدة أخرى قصة التجائه صلى الله عليه وسلم والصديق الأكبر إلى غار ثور وقصيدة بعنوان النبى فى شعور الدهر وغيرها من القصائد الروحية ونكتفى بأن نورد بعض المقاطع من هذه القصائد كنماذج على الشعر الروحى .

الغار (١)

فـى ذات أمسية لئيمة ☆ إبليس أودعها سمومه
جمعت قريش أمرها ☆ لاحبذا هى من سخيمة
فتجمهرت للكيد والشيطا ☆ ن يلهمها علومه
فكأنما هو مأتم ☆ دامٍ ومعركة أثيمة

وبعد أن يصف ائتمار قريش بالرسول الأعظم وتبييتهم أمر القتل وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الغار وخشية الصديق على الرسول مما قد يكون فى الغار من الأخطار وتثبيت النبى الأعظم صديقه ورفيقه يقول بعد ذلك :

ولشد ما أتت السكينة ☆ فاستحال الغار أفقا (٢)
وتبدلت أمنا مخافة ☆ من تجهمة فرقا
ورأى السماء تكاد تحتضن ☆ الثرى حدبا ورفقا
وإذا السماء تكفلت ☆ بالأرض فالنزعات غرقى
فمن السكينة كان منبثقا روح السلام على الألى غبروا
وبها يعود بروعة دعيت فى الأرض إسلاما سينتشر

(١) الافق الملتهب صفحة (٧١)
(٢) الافق الملتهب (صفحة ٧٧)

دافق النور

وفى قصيدة النور يقول العواد فى المطلع (١)

دافق النور رحمة وسلاما ☆ ومنميه عزة ووئاما
فاعتنقناه يقظة وسموا ☆ وعقلناه حكمة ونظاما

ومنها

لست رباً كما يبالغ بعض ☆ الناس لا لست رباً (٢)
أنت الغيث كل رب سوى الله ☆ وأضرمتها على الشرك حربا
أنت حطمت كل رب على الأرض ☆ دعى مشى إلى الطفولة دربا
فنشرت التوحيد فى الناس يمشى ☆ ثورة فى النهى وعدلا وحبا
وسلاما ورحمة ومساواة ☆ وعطفا على الضعاف وقربى

ونكتفى بهذا القدر من الشعر الروحى لنتحدث قليلا عن الشعر الفلسفى بل الشعر الفكرى فهذا هو التعبير الأدق عما سنعرضه من نماذج لأنه إنما يتحدث عما يجول فى ذهن الشاعر من أفكار وما يراود خياله إزاء أحوال الحياة ومظاهر الكون ، والفلسفة هى كما هو معروف لا تكتفى بالتعبير ولكنها تبحث كذلك عن التعليل وتخرج منه بمذهب متكامل والعواد لم يكن فيلسوفا ولكنه كان مفكرا وحسب وحينما يقف أمام التناقض الذى يظهر فى الحياة أو الذى يراه هو تناقضا ينتهى إلى التسليم والإيمان ، فهو إذا مفكر مسلم ، والفلسفة لا تعترف بالتسليم وإنما تخترع المذاهب ولهذا كان الضلال ٠

---

(١) الافق الملتهب صفحة (٨٦)

(٢) الافق الملتهب (٨٩)

سر الطبيعة والحياة (١)

يقول العواد فى قصيدة بهذا العنوان

لم هذى الـرياح تدوى شمالا ☆ وجنوبـا تفـرق الأمطـارا
لم ذا البحـر فى هدوء إذا شاء☆ وإن شـاء أرسـل التـيارا
لم فى البحـر بَعْـدُ جزرٌ ومَدٌّ ☆ يتبع البدر تارة والسـرارا
لم تسرى سيارة الأرض ☆ حول الشـمس دَآبَـةَ السرى ادهارا
لم هذى الاجـرام تشرق ليلا ☆ لم ذا الشـمس تبهـر الأبصارا

ومنها

لم نحيا على البسيطـة جبرا ☆ ونعيش السنـين فيهـا حيارى
ولـم الموت والحياة بكرهٍ ☆ يسلـب النفس عزة واقتدارا

ومنها

نحـن كالأولـين نحيا دواليك ☆ ويحـيا من بعدنـا أعمـارا
وتـدور الحياة والشـمس والأقمار ☆ واللـيل والنـهار بـدارا
وسيبقـى سر الحياة معمى ☆ وستلقـى العقـول بعـد خمارا

ولكن الشاعر سينتهى إلى الايمان فيقول :

رب آمنـت أنـك القـادر☆ الفـرد ملـكت الظـلام والأنوارا
ونهُـانـا نـار الحـباحـب فى ☆ الليل وأوهـى من الحباحـب نارا

---

(١) نحو كيان جديد صفحة (٢٧)

يا ليل

وللعواد قصيدة أخرى فى هذا المعنى يقول فيها

يا ليل كم سامرت أنجمك ☆ الصماء تحكى العقد منتثرا
درر تفوق الدر حيث بها ☆ معنى الحياة يشع منبهرا
وألِتُّ أسألها وما برحت ☆ تعطى الجواب أغف مختصرا
لا تستطيع إبانة وكذا ☆ تحلو الحياة لطالب أثرا

وينتهى فى هذه المرة إلى أن هذا الغموض هو الذى يعطى للحياة سحرها فلو كان كل شىء واضحا لغدت الحياة تافهة رتيبة :

لو كان مافى الكون متضحا ☆ كل الوضوح لما غدا صورا
وغدت حياة الناس تافهة ☆ وغدا الخيال العذب محتقرا
كم فى الحياة مظاهر عجب ☆ تقضى وتمنع كلها الوطرا
ومفاتن شتى منوعة ☆ ووراءها المعنى قد استترا

ونكتفى بهذا القدر من أفكار العواد الشعرية رغم كثرة ما يمكن الاستشهاد به فى كل باب لأن نَفَسَ الحديث قد طال أكثر مما كنت أتوقع ولنتحدث الآن عن لمحة من شعر العواد فى الغزل •

شعر الغزل

لعلى أفاجىء القارىء كما فوجئت أنا برأيى فى غزل العواد فالوصف الغزلى عند العواد هو وصف حسى لم يخرج فيه عما فعله القدامى الذين نقدهم فأوسعهم نقدا بعد أن بليت عظامهم فى الثرى ولا تعليل عندى لهذا إلا لأن العواد شاعر

فكر أكثر منه شاعر عاطفة ، كما أنه يذهب بنفسه كل مذهب فاذا كانت المرأة تملك مفاتن الجسم فانه هو يملك مفاتن العقل وجرأة الرأى وليس هذا الادلال بالنفس من الغزل فى شيء وليس المحب من يذكر محاسنه وإنما الأديب هو الذى يدع هذه المحاسن تتحدث عن نفسها حتى يلمسها المحب فيتحدث عنها يقول العواد فى قصيدة بعنوان :

الروض الضائع ـ ١ ـ

شاقنى الروض فانجذبت اليه ☆ ساعة وانتجعت أطلب ظلا
فسبتنى زهوره والأفانين ☆ التى حولها غدت تتدلى
وتذكرت من غدائرك السود ☆ انسيابا يرى بهن وشكلا
وتذكرت من لواحظك الذبل ☆ ارسالها إلى القلب نبلا [٢]

ومنها :

وتذكرت من قوامك ذاك ☆ الهيف الرائع المدِلَّ المذلا
ومن الوجنتين ما يرسل الحمرة ☆ من ذلك الشعاع المحلى
ومن المقلتين ما يخجل النرجس ☆ فيه إذا بدا يتجلى

فهذا الوصف الحسى لم يخرج عما وصف به المرأة قدامى الشعراء ولقد كان المنتظر من العواد الشاعر المجدد أن يكون فى شعره الغزلى ذلك الوهج الذى يحس به القارىء لذع العاطفة وتوهجها ودفق الشعور فى خفقات القلب والوجدان ولكن العواد على أى حال ينتهى فى هذه القصيدة إلى نهاية شعرية جميلة فيقول :

(١) نحو كيان جديد

(٢) نحو كيان جديد صفحة (٨٣)

فتلفت باحثا فاذا الروض ☆ على ذكريات حسنك ولى
ضاع منى فلست أبصر ما فيه ☆ من المغريات إلا الأقلا
وامحى كالخيال إذا اخذ الواقع ☆ منه مكان ماهو أولى
أنت يا من أحب روضى وهل ☆ مافيك فى الروض ؟ لا وربك كلا

يد عبقرية تهب الحب ـ ١ ـ

ويقول فى مقطوعة أخرى :

غرام سحقناه فقدرتُ عهده ☆ وآخر قد وافى فلله مجده
فمرحى لذا الحب الجديد ومرحبا ☆ ولا دَر دَرُّ الذاهب الصعب رده

وما هكذا يناجي الحبيب الذاهب ، ولا الغرام الماضى ، لكأن العواد يتحدث عن خصم من خصوم أفكاره أو ناقد من نقاد شعره وأدبه ، أين القلب وإحساسه ازاء ما مضى ، وأين آثار ما بقى ويقول بعد ذلك

فلم يدر دارٍ حينما حل مهجتى ☆ أيعبد روحى أم هو الروح عبده
فيا مشعلا منى شبابا أجله ☆ وممتلكا منى فؤادا أعده
ومتخذا عندى يدا عبقرية ☆ بعثت بها حبا طفقت تمده
هنيئا لك القلب الذى منك نوره ☆ وتعسا لحقد كان والتعس بعده

ونختتم الحديث عن شعر الغزل بقصيدة من أجمل ما نظم العواد فى الغزل رغم ما فيها من الإدلال بنفسه إلا أنها تستحق الاشادة والتسجيل ، فقد تجافى فيها عن الوصف الحسى وتسامح مع المحبوب فى خطئه النحوى بل وجاراه فيه وهى عندى من أجمل ما نظم العواد فى الغزل .

(١) نحو كيان جديد صفحة (٣)

استمالة ـ ١ ـ

يا هاجرى واجلُ حسنك ☆ ان تبتلى بالهجر خدنك
لطعنتنى بالكبرياء على الهوى ☆ وأجدت طعنك

ومنها

أفذاكر أنت العهود ☆ الغابرات وما أفدنك
أفذاكر أنى أبحتك ☆ قلبى الفد المحنك
وأبحتنى ما لا تبيح ☆ من الغرام ولن أظنك

ومنها

وأقول والبسمات فى فمك الجميل تبين سنك
ممن تعلمت العناد ☆ منسقا فتقول مِنِّك
لحن قهرت به صحيح اللفظ ما أن شان حسنك
فنٌ تتيه به على الفن القوى فديت فَنَّك
فجررتنى نحو الدعابة لاحقا لأوانسَكْ
وختمتها بمقالتى أنى ☆ أخذت الحب عنَك

وهكذا تكون الدعابة فى الغزل عذبة حلوة وهى ساعة من الساعات التى غفل فيها شيطان العواد العنيف ليستيقظ فيها الشعور الرقيق اللطيف ٠

الشعر الإنساني

ونختتم الحديث عن شعر العواد بمختارات من شعره الانسانى الذى تجلى

---

(١) نحو كيان جديد صفحة (٩٤)

فيها شاعرا إنسانيا دافق العاطفة والشعور وأبدأ هذه المختارات بقصيدة العواد فى رثاء أمه ·

فى بيتها وعلى قبرها ـ ١ ـ

ايه يانفس هذه شارة القدس ☆ وذا الشعر فانظمى قدّسيها
هذه أمى الجليلة فى بيت ☆ على قدر زهدها يحتويها
ههنا تكمن الطهارة والزهد ☆ فتعلو مسرة النفس فيها

ومنها :

ها هنا ها هنا جمال جليل ☆ ها هنا ها هنا العزيزة امى

ويقول فى وصف بيت أمه :

هو بيت يلوح جد حقير ☆ قد خلا من مناعم مستطابه[٢]
ليس فيه حفاوة تبهج العين ☆ ولا فيه جدة وخلابه

ثم يقول :

قد تعرَّى عن كل ذاك وهذا ☆ من شؤون لكنه بيت أمى

ومنها :

فهو لى فى الحياة شارة قدس ☆ وهو لى فى مفازة العيش راحه
وهو الكنز إن شكت نفسى ☆ العسر ومعنى الغنى يرينى انفساحه
وهو عيدى اذا انقضت فرحة ☆ العيد لدى الناس انه بيت أمى

ثم يقول

إنه مسجدى وهل يقصد المسجد الا للطهر أو للصفاء
أو لترقى العقول فيه الى ☆ الله وقد جردت من الأهواء

(١) نحو كيان جديد صفحة (١٠٥)

(٢) نحو كيان جديد صفحة (١٠٦)

فاذا ما أممت أمك للبر ☆ فقد زرت مسجدا من نقاء

ثم ينتهى إلى وصف قبر أمه بعد أن وصف بيتها أو على الأصح إلى وصف شعوره بعد موتها فالقصيدة كلها قطعة من الشعور تحس فيها خفق القلب ورجفاته وتدفق الوجد حتى يستحيل شجنا يستدر الدمع ويسرى فى الوجدان وهذا هو الشعر بل هذا هو جوهر الشعر وروحه .

قلمى ما نكرت منك انطلاقا ☆ فى حياتى فما أصاب انطلاقك
عدت من دفنها كئيبا ☆ أقاضيك انسياقا فما منحت انسياقك
اندفق فالشعور عندى موفور ☆ كفيل ألا يعوق اندفاقك

ولكن القلم يأبى على العواد ان يندفق كما تعوَّد ، فالفاجعة أكبر من أن توصف أو يقوى على وصفها وهو فى تلك الحال فتظل مكبوتة تشتغل فى النفس إلى أن تهدأ الثورة أو تسكن الفورة ولقد ذكر العواد أنه لم يستطع رثاء والدته إلا بعد مرور عام ونصف العام على وفاتها ـ ١ ـ

والقصيدة طويلة ولكنا نذكر المقطع الأخير منها تجنبا للإطالة .

رحمة الله للدفينة فى الأضلع ☆ من قبل دفنها فى الحفير ـ ٢

وجلالا لها وسقيا لقبر ☆ ضمها بين نشر ذاك العبير
وسلاما من موطن الخلد والرضوان ☆ يغشى جثمانها بالعطور
ووداعا يزف ما انحبس الدمع ☆ لديه إلا لهذا الزفير

وللعواد قصيدة أخرى شهيرة بعنوان :

---

(١) نحو كيان جديد صفحة (١٠٥)
(٢) نحو كيان جديد صفحة (١٠٨)

صلاة النفس ـ ١ ـ

قالـــت النفس قم نصـــل إلى الله ☆ فشر النفـــوس من لم تُصَلِّـــي
قلـــت يانفس سبحـــى الله طوعا ☆ وأصيخـــى واستنـــكرى أن تملى
سبحـــى الله فالطبيعـــة يقظى ☆ وتعـــالى قرب الخضـــم نصلى
فى صفـــاء يشـــع من فلك ☆ الالهـــام مســـتمليا إذا الكون يملى

ومنها :
هذه صيحـــة الحياة فى العالـــم المطـــوى بـــين النفـــوس طى السجل[٢]
فيجـــوب الضمـــير والفـــكر يجـــرى فى النـــواميس بـــين بعـــد وقبل
فـــيرى ما يكمـــن فى الماء والزهـــرة والأرض والفضـــاء المطل
هذه صيحـــة الحياة تنادى عاشقيهـــا لفهـــم معنـــى التجلى

ومنها :
(٣)
سعـــداء أولـــو الصـــلاة ولكن ☆ عندمـــا يدركون مجـــد الصلاة
كم صلاة قوامهـــا الجســـد الطالب ☆ سقـــط المتـــاع والنزهـــات

ومنها :

ان فى القلـــب جنة وجحيا ☆ واتساعـــا لفهـــم هذه الحياة
وخشوعـــا وعـــزة واعتـــلاء ☆ وهـــويا لأسفـــل الدركات
وصعـــودا إلى السماء بلا ☆ اذن ولـــو بـــواســـع الفلوات
فدعـــى كونـــك الصغـــير ☆ سويعـــات وهيا إلى الخضـــم نصلى

(١) نحو كيان جديد صفحة (٣٦)

(٢) نحو كيان جديد صفحة (٣٦)

(٢) نحو كيان جديد صفحة (٣٦)

والقصيدة طويلة ولكنا نختتمها بهذه القطعة :

كلهـا كلهـا الأنـاسى والأنعام ☆ والطـير والـرؤى والطيوف
والجمادات والبهائـم والأملاك ☆ والجـنُّ والصـدى والحفيف
والأمـاثيل والعنـاصر والأزمان ☆ والقفـر والمكان الأليف
والسنـا والظـلال والفكرة ☆ والحسـن والهـوى الملفوف
كلهـا تضمـر الصـلاة وتبديها ☆ صنوفـا تمتـاز عنهـا صنوف
قُوَّمـا بالخشـوع للواحـد الفرد ☆ الوفـا تبزهُـنَّ الوف
فجمـوع منهـا تواثـب سرا ☆ وجمـوع على الحياة تطوف
غـير أنـا لانفقه الحمـدوالتسبيح ☆ منهـا لأننـا غـير أهل

والقصيدة من أجمل الشعر الروحى وأعذبه ولو لم يكن للعواد سواها لكان بها واحدا من أعظم الشعراء ·

وللعـواد قصيدة من أرق الشعـر الغـزلى وأعذبـه ولعلى بتسـجيل بعض مقطوعاتها أسجل أن العواد قدير على الابداع فى كل فن من فنـون الشعـر وأبوابه ·

تذكير ـ ١ ـ

يـا متعـة الأنفـس يـا ساحره ☆ ويـا رضـا الشعـر وياشـاعره
يا مصـدر الوحـى وموضوعه ☆ ويا غذاء الفـكرة الحائرة
لم أنس أيامـك لم أنسها ☆ يا حبـذا أيامـك الناضره

---

(١) نحو كيان جديد صفحة ٦٠)

ومنها بعد ان يستعرض عهده معها ولقاءه بها

لم أنسها لم أنسها فاسمعي ☆ من عمق قلبي ذلك الاعتراف
رسائل الحب على عهدها ☆ باقية فى نفس ذاك الغلاف
غلافها الأحمر لم تنتثر ☆ منه ولن تبصرها باصره
ثم الرسوم اللات أهديتها ☆ صديقك الحافظ عهد الوداد
وخلفها الألفاظ قد أعربت ☆ عما انطوى تحت شغاف الفؤاد
الفاظ اهدائك معسولة ☆ شفافة كالسحب الماطره

بلا قلب ـ ١ ـ

وللعواد قصيدة أخرى تصور شجونه فى هذه الحياة وحظه فيها يقول فيها :
حبيبة قلبي لو عرفت بلاءه ☆ لأقصرت لومي والحياة بلاء
أنا التعب المكدود فيما أريقه ☆ تجشمني نفسى العلا فأناء
ومنها
تلث على فكرى الحياة بهولها ☆ وتزعجني فى نظمها البرحاء
فأوغل فى استقصاء ما يستحثنى ☆ من الفكر فيها والظنون فضاء
ومنها :
حبيبة قلبي إن تسرك بسمة ☆ من النجم خفاقا عليه رداء
تزين الدجى فى ليلة راق صحوها ☆ لها لمعان بارع وضياء
فان هنا قلبا ازاء جمالها ☆ له موقف فيه أسى وهناء
ومنها :
فكم من فروق فى الحياة منظما ☆ مساعى نهى يحدو بهن عماء

---

(١) نحو كيان جديد صفحة (٦٩)

وكم وقفـة بـين الرجـاء وضده ☆ لِحرّأبِـيِّ في الحياة يساء
تباعـده أخلاقـه عن مباءة ☆ يعيش بهـا الأوشـاب والبلداء
وتسمـو به نفس تعلمـت العلا ☆ وقـاد خطاهـا في الحياة حياء
إذا ابتدرت طرق المعـالى تعرضت ☆ لهـا عقبـات طرقهـن وباء
وبينـا كثـير من رفـاق وإخوة ☆ سفائنهـم تجـرى بهـن رخاء
تراه وقـد أغـرى به الحـظ صرصرا ☆ لهـا أبـدا في مسـمعيه عواء
ومـا هو بالمنقـوص في ملكاته ☆ ومـا فيه الا قدرة وكفاء
تضيء معـاليه وتسمـو صفاته ☆ وتشرف أخـلاق لديه وضاء

ونختتم الآن هذه المختارات بعد أن طال بنا نفس القول فى شعر العواد ولكننى أشعر وأقولها مخلصا إننى لم أوفه حقه فهو من هذه القمم التى يجد الدارس فيها مجال القول رحبا واسعا وما قصدت إلى دراسة شعره فليس من أغراض هذه التراجم أن تقدم الدراسة وإنما غرضها تصوير شخصية صاحب الترجمة ما أمكن هذا التصوير فاذا كان المترجم أديبا أو شاعرا وجب أن تقدم الصورة من انتاجه لتكون أصدق أداء وأوفى تعبيرا ، وللعواد جوانب أخرى لم نتحدث عنها فهو قد شغف بالأدب اليونانى فيما وصل إليه من تراجم لعيون هذا الأدب وكذلك نظم بعض المقطوعات عن توماس هاردى بعد أن ترجمها العقاد نثرا ، وعن رديارد كبلنغ كما نظم موعظة المسيح عليه السلام وتحدث كثيرا عن الآلهة اليونانية الخرافية والقارىء يجدها مثبتة فى دواوينه وقصائده ويبدو لى أنه لو أتيح للعواد أن يتعلم اللغة الانجليزية او الفرنسية وتعمقت قراءاته فى عيون الأدب الأجنبى لكانت له جوانب مشرقة فى هذا المجال .

الشعر المنثور

وبعد فانني قرأت ما استطعت قراءته من شعر العواد وخرجت من هذه القراءة بهذه الانطباعات التي شرحتها آنفا وهناك أشياء أخرى لم أكتب عنها لأن ما فيها لا يخرج عن الصدد الذي ذكرنا وأشياء أخرى تعمدت الاغضاء عنها إذا صح هذا التعبير فللعواد ديوان آخر اسمه رؤى ابولون القسم الأعظم منه سماه عواد (شعر منثور) وأنا أسميه النثر الشعري ولي في هذا الموضوع رأي تحدثت عنه في التليفزيون وفي صحيفة البلاد بعد أن ثارت أقلام كثيرة للرد علي ومن ضمنها استاذي العواد رحمه الله فليرجع إليه من شاء لأن الشعر عندي هو الشعر الذي تحكمه الاوزان الشعرية والقوافي وقد تقبلت تعدد الأوزان وتعدد القوافي ما دامت الموسيقية متوفرة أما هذا الشعر المنثور فهو نثر وان اتسمت الأخيلة فيه بالاسلوب الشعري فانا أتقبله كلون من الوان النثر وما أكثر الوان النثر في لغتنا العربية الغنية بتعابيرها وأخيلتها وما أغنى الشعر العربي بمختلف الوانه وفنونه ، وطريقتي أن اسمي الأشياء باسمائها والعواد غني عن اضافة هذا اللون إلى شعره بما انتج وأبدع من الشعر الحق وهو يُعَدُّ من أياديه على النثر الفني المبدع وما أكثر أياديه في هذا المجال وما أطولها .

آثار عواد الباقية

ان ما لدينا من شعر العواد وهو ما اشتملت عليه مجموعة دواوينه في جزأين كبيرين يقف عند منتصف السبعينات أو الثمانينات وقد امتد به العمر الى عام ١٤٠٠ هـ فهناك فترة ربع قرن لم يطبع فيها ما انتجه العواد من الشعر ولا يمكن ان يكون خلال ربع قرن أو حتى خلال عشرين أو خمسة عشر عاما قد توقف

عن النظم وقد يكون قليل الانتاج فى هذه الفترة ولكنه لم يتوقف تماما ومن المؤكد أن يكون بين ما ترك من أوراق ومخطوطات ما يسدُّ هذه الثغرة أو يجليها فلعل ابنته الكريمة السيدة نجاة عواد تتفرغ لتخرج للناس ما بقى من آثار والدها العظيم ·

النَّادي الأَدبي

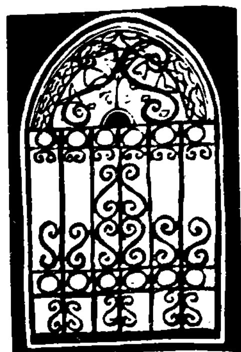
للعواد ولصديقنا الاستاذ عزيز ضياء فضل السبق فى الدعوة لإنشاء النوادى الأدبية التى تنتظم مدن المملكة فى الوقت الحاضر والتى تقدم إنتاج الأدباء والمؤلفين بتشجيع عظيم من رعاية الشباب ذلك أن العواد وضياء دعيا للمشاركة فى الحفل الذى أقيم فى الرياض للبحث فى أحياء سوق عكاظ وقد اغتنما هذه الفرصة السانحة فتقدما إلى صاحب السمو الملكى الامير فيصل بن فهد ابن عبدالعزيز رئيس رعاية الشباب بفكرة انشاء النادى الأدبى فاستجاب سموه أعظم استجابة واجاز الفكرة وأخرجها إلى حيز الوجود فكان النادى الأدبى فى جدة هو أول النوادى التى انتشرت فيا بعد فى مدن المملكة الأخرى وبفضل المعونة السخية التى تقدمها رعاية الشباب لهذه النوادى امكن لها أن تقف على قدميها وأن تستمر وتنمو وتقوم بطبع الكتب فى مختلف فنون الأدب والعلم وكان العواد أول رئيس للنادى الأدبى بجدة وقد انتخب ونال من الأصوات ما يرشحه لهذه الرئاسة التى كان هو جديرا بها وقد منح رحمه الله النادى الأدبى وقته كله فكان يجلس فيه صباح مساء وكنت أعجب له وهو فى الثمانين من العمر كيف يقوى على هذا الجهد ولكنه كان يمارس أعمال النادى بروح الشباب فلقد عاش عمره كله يحلم بأن يكون للأدباء مكان يجمعهم وللأدب كيان يرتكز إليه وقد تحقق له هذه الحلم قبل وفاته بل تحقق له بحمد الله أن يرى بعينيه كثيرا مما دعا إليه فى .

مطلع شبابه نهضة عارمة تشمل التعليم والتطبيب والاقتصاد والبناء نهضة تشمل جميع نواحي الحياة التي كان العواد يحلم بها ويتخليها ويدعو إليها ٠

وفــاة العــوّاد

هذا وقد توفى العواد رحمه الله فى ١٤٠٠ هـ بعد مرض قصير ألم به وكان يتهيأ للسفر إلى الخارج للعلاج ولكن المنية عاجلته فصعدت روحه الى بارئها وقد بلغ الثمانين عاما من عمر حافل بالعطاء وإذا كان قد فات العواد حظه من متاع هذه الدنيا فلم يترك لأهله مالا أو عقارا فان الثروة الأدبية والعقلية التى تركها لا لأهله وإنما للشعر والأدب عظيمة وكبيرة فلقد كان بحق رائد جيل وزعيم نهضة واستاذا عظيما وصديقا كريما ، رحم الله العواد وغفر له وأحسـن جزاءه فى دار الخلد ـ إنه سميع مجيب ٠٠







محمد جعفر لبنی

محمد جعفر لبنى

معتدل الجسم والقامة اقرب الى الطول منه الى القصر ، ابيض اللون تخالط بياضه صفرة بيضاوى الوجه ، اسود العينين ، قصير اللحية ، حليق العارضين ، يرتدى الجبة الحجازية ويعتم بعمامة غالبا ما تكون من قماش ابيض رقيق فى الصيف تحتها كوفية جاوية كما يفعل عامة اهل الحجاز ٠

ولد الشيخ محمد جعفر لبنى بمكة المكرمة فى ٧ رجب ١٣٢٣ هـ وحفظ القرآن الكريم فى الحرم المكى الشريف[1] كما تعلم على ايدى علماء المسجد الحرام وقد عرفته وهو مكتمل الرجولة يتولى رئاسة لجنة قضايا المطوفين فى مكة المكرمة وكانت مكة يومها عاصمة الدولة ومركز الحكومة فى عهد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز فى الخمسينات من هذا القرن ، وكان قد اختاره المغفور له الملك فيصل لرئاسة لجنة قضايا المطوفين لما عرف به من تحرى الحق والعدل ، ولما يتمتع به من ثقة من عامة اهل مكة علاوة على المامه التام بشؤون المطوفين وقضاياهم ، وكان الى جانب رئاسته للجنة قضايا المطوفين[2] كان يعمل محاميا امام المحاكم الشرعية بمكة ، كما كانت له مكتبة صغيرة لبيع الكتب فى حانوت صغير فى باب السلام

---

(١) على يد الشيخ سليمان النورى كما تلقى تعليمه بمدرسة الفلاح بمكة وتخرج منها ٠

(٢) كما عين مساعدا لامين العاصمة بمكه لفترة محدودة

وكان يسكن البيت الذى يقع هذا الحانوت فى مدخله وقد تم هدم البيت مع كافة البيوت التى حوله وادخل فى التوسعة الأولى للمسجد الحرام ، وقد توثقت صلتى بالمرحوم الشيخ محمد جعفر لبنى منذ ان عرفته فى مكة فى اوائل عام ١٣٥٦ هـ واستمرت صلتى به الى ان توفاه الله تعالى فى ٧ رجب سنة ١٣٧٠ هـ حسبما سيرد فى ترجمته بعد ، عرفت الشيخ محمد لبنى خلال هذه السنوات فوجدت فيه رجلا وقف نفسه فى خدمة الناس وخاصة الأرامل والضعيفات والفقراء من الناس فكان يتولى قضاياهم والدفاع عنهم دون مقابل وقد اصبح بهذا مقصدا لأصحاب الحاجات من الناس وخاصة من النساء الضعيفات والمغلوبات على امرهن فكان يتولى شؤونهن فى المحاكم والدوائر الرسمية كما كان يتولى الإصلاح بين الناس وخاصة حينما يقع الخلاف بين زوجين أو أخوين أو ابناء عمومة وكان الرجل يتمتع بحب الناس لما يبذله فى خدمتهم من وقته وجهده واستطيع ان اقول انى على قدر ما عرفت الشيخ محمد لبنى لم اره مشغولا بأموره الخاصة بقدر ما هو مشغول بشؤون الناس ولعله لم يكن يجد اى وقت للاهتمام بعمله الخاص فقد كان له حانوت لبيع الكتب كما ذكرت ولكنى لم اشهده مرة واحده يبيع كتابا او يتحدث عن بيع او شراء الكتب ولكنى كنت ارى هذه المكتبة مملوءة باصحاب القضايا من الاصدقاء والفقراء من النساء والرجال فى جميع الاوقات وخاصة فى اصيل كل يوم وما بين المغرب والعشاء ، وكان الرجل معروفا بتفرغه للخدمة العامة وبالتفانى فيها فكان الحكام ورؤساء الدوائر يوسعون من صدورهم له ويكرمون وساطته وكان بهذا يقضى حوائج الناس التى لم يكن ينقطع لها مدد وكان جلالة المغفور له الملك فيصل يعرف فيه هذه السجايا فكانت وساطته لدى جلالته منذ ان كان نائبا لجلالة الملك فى مكة تحظى بالقبول ٠

حدثنى رحمه الله قال حبس جار لى فذهبت الى سمو الامير وكان وقتها جلالة الملك فيصل نائبا عاما للملك فى مكة ـ فشرحت القضية لسموه فوافق

رحمه الله على اطلاق سراحه وكان فى مجلس سموه احد الأمراء فسألنى ما هى صلتك بالرجل اهو قريب لك قلت كلا ولكنه جار لى فى المنزل ، ومرت شهور وذهبت الى سموه ارجوه فى قضية مشابهة وكانت تخص احدى جاراتى وتفضل سموه فأصدر امره بشأنها وكان نفس الامير حاضرا فى المجلس فسألنى وما هى قرابة هذه المرأة لك قلت انها جارتى قال الا ليتنى جار لك ! هكذا كان الشيخ محمد جعفر لبنى رجلا شهما يبذل جاهه فى خدمة الناس ومعونتهم وهكذا كان الحكام والعظماء يستجيبون له لثقتهم باخلاصه وحبه للنفع العام ٠

وخلال عام ١٣٦٤ هـ سافر الشيخ محمد لبنى مع اسرته الى مصر لتطبيب والدته هناك وكنت اذ ذاك اقيم بالقاهرة لغرض مماثل فرأيت الرجل وقد انفق اغلب ما حمله من مال فى مساعدة الكثيرين ممن يعرف ممن كانوا يزورون القاهرة فى تلك الايام ولم يكن الشيخ محمد جعفر لبنى من اصحاب الاموال ولكنه كان كريما لايبَخل بما يصل الى يديه وكان يتوسط للكثيرين من اصحاب الحاجات لدى اصدقائه من اصحاب المال والنفوذ فكانوا يستجيبون لطلبه لما يعرفونه من حبه لخير الناس ونفعهم ، وحينما كنت اعمل مديرا لمكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان كانت طلبات الشيخ محمد جعفر لبنى لمساعدة الناس وخاصة ـ الشناقطة الموريتانيين الآن ـ تتوالى بطلبات الإركاب لهم من المدينة الى مكة المكرمة ومن مكة الى المدينة وكانت للكثير منهم صلة حسنة بالشيخ محمد جعفر لبنى رحمه الله ٠

وقد عمل الشيخ محمد جعفر لبنى فى آخر حياته فى تجارة الارزاق وافتتح دكانا بمدينة الطائف فى موسم الصيف لتوزيع الأرزاق ولكن الزمن لم يطل بهذا العمل ، فان الشيخ محمد لبنى لم يكن متهيئا للتجارة وشؤون المال ، وانما كان

مهيئا للخدمة العامة بعيدا عن الحسابات والارقام وفى السنة التى توفى فيها عين عضوا بمجلس الشورى عام ١٣٧٠ هـ وقد توفى فى نفس العام ٠

ومرض الشيخ محمد لبنى مرة بالقلب وأمره الطبيب بالراحة التامة فتحول منزله الى منتدى يقصده الناس صباح مساء ، وصدرا من الليل وزرته فوجدت عشرات الناس ذاهبين آتين وهو يستقبلهم ويتحدث اليهم ويجاملهم فقلت له ، ان الطبيب طلب اليك البقاء فى المنزل للراحة لا لتستقبل العشرات من الناس صباح مساء قال : ولكننى لا استطيع ان امنع الناس من زيارتى واغلق بابى دونهم وهكذا كان فقد قضى ما قضى فى سرير المرض وهو مع الناس الذين احبوه واحبهم دون حجاب ٠

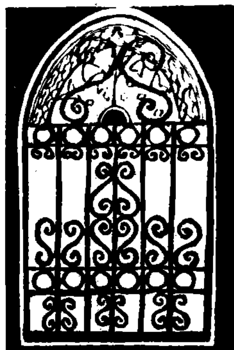
وكانت نهاية المرحوم الشيخ محمد جعفر لبنى نهاية فاجعة اذ اصطدمت السيارة التى كانت تقله مع المرحومة والدته وابنته الصغيرة نايلة بالسيارة التى كان يستقلها المرحومون الشيخ حسنى قامه والشابان فوزى عابد قزاز، ومحمد عباس سالم فى الطريق بين مكة والحديبية قريبا من وادى فاطمة ، وكان الاصطدام فظيعا اسفر عن موت الجميع ولم ينج من السيارة التى كان يستقلها الشيخ محمد لبنى سوى السائق وباتت مكة ليلة فاجعة حزينة حيث شيعت فى اليوم التالى الاربعة رجال والمرأة والطفلة وكانت مقبرة المعلاه غاصة بالمشيعين والمعزين وكانت وفاة الشيخ محمد لبنى فى يوم ٧ رجب سنة ١٣٧٠ هـ ـ ومن الغريب ان مولده كان فى يوم ٧ رجب كذلك ـ عن سبعة واربعين عاما ٠

تغمده الله برحمته الواسعه واحسن جزاءه فى جنات النعيم ٠٠



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





الدكتور محمد خالد خاشقجي

الدكتور محمد خالد خاشقجي

معتدل القامة ، معتدل الجسم ، ابيض الوجه تشوب بياضه حمرة خفيفة ، واسع العينين يطلق لحيته ويعفي عارضيه ، أنيس المحضر ، ذكى لماح ، يجمع بين دقة العالم وانطلاقة الفنان •

نشأته وتعليمه

ولد الدكتور محمد خالد خاشقجى بالمدينة المنورة عام ١٣٠٩ هجرية وتلقى تعليمه الابتدائى بالمدينة المنورة وتوفى ابوه وهو طفل فكفله أخوه الأكبر عبدالله الخاشقجى ابن محتسب المدينة المنورة وفى اوائل الثلاثينات قام حزب الاتحاد التركى العثمانى بنفى اربعين رجلا من اعيان المدينة المنورة الى الاناضول وكان من بين هؤلاء الرجال عبدالله الخاشقجى الذى كان ابوه من ابرز رجال العهد السلطانى فى المدينة المنورة والذى قامت على انقاضه حكومة حزب الاتحاد والترقى ، وأبى محمد خاشقجى ان يترك اخاه الأكبر الذى يحبه الحب كله والذى احلَّ محمداً محل الابن فكان له الوالد والأخ الأكبر أبى محمد خاشقجى أن يترك هذا الاخ يذهب وحيدا إلى منفاه البعيد فى الاناضول فأصرَّ على مرافقته للقيام

على خدمة اخيه وايناسه فى منفاه القصى ، وكان هذا المنفى الاختيارى مصدر خير وبركة للصبى الصغير اذ اتاح له فرصة التزود من العلم الذى كان يفتقر اليه والتى كانت مدارس الحجاز محرومة منه فى ذلك العهد ، اذ كان التعليم فى مدارس الحجاز لايتعدى المرحلة الابتدائية ، فالتحق هناك بمدرسة السلطنة ليتم دراسته الثانوية وبعد اتمام دراسته الثانوية رغب فى مزيد من العلم فاتجه بذهنه وقلبه الى الطب فسافر من ازمير الى دمشق والتحق بمعهد الطب هنـاك وفى هذاالمعهد تعرَّف الى كثير من زملائه الشباب العرب من العراق والشام ومصر وكانت حياته فى المعهد حياة جادة وكانت امكانياته قليلة محدودة وكان يعمل ليلا لدى احد تجار دمشق ليستعين على دراسته نهارا بالكلية هناك ، حدث عن نفسه فقال كانت لدىّ بدلتان احداهما ثقيلة للشتاء والاخرى خفيفة للصيف وكنت اسكن مع زملائى من طلاب الكلية فى مسكن مشترك وكان طعامنا متواضعا كما كانت معيشتنا متواضعة ، ولم يكن لنا من هدف سوى العلم والعلم وحده[١] وكان يعرف ان بلاده مفتقرة الى الطب قبل كل شىء فكان اول طبيب من المدينة المنورة تخرَّج من معهد الطب فى دمشق واصبح جرَّاحا مناوباً فى المستشفى العام هناك وتخرَّج منه بامتياز ، وبعد التخرج عاد الى البلاد .

مَاضي الطِبّ في الحِجَاز

واود ان اذكر هنا شيئا عن ماضى الطب فى الحجاز فى هذا العهد الذى سبق ظهور اول طبيب سعودى وعودته الى بلاده ، كانت مدينة جدة ليس فيها الا المستشفى العام وفيه طبيب او اثنان ، وكان هناك مستشفى الكورنتينة ـ المحجر

(١) مجلة الشرقيه العدد ٥٤ صفحة (٩٩) يناير ١٩٧٩

الصحى ـ وهو خاص بالبواخر التى تصل الى ميناء جدة للتأكد من عدم وجود امراض وبائية فى السفن القادمة الى جدة ولست فى حاجة لأن اقول ان امكانيات المستشفى الحكومى الوحيد بتجهيزاته البسيطة كانت اقل كثيرا من حاجة المدينة وكانت سفارات الدول الاجنبية تقوم بفتح مستوصفات او عيادات لاستقبال مرضى رعاياهم الموجودين فى البلاد ، فكان هناك مستوصف السفارة الانجليزية الذى يقوم على حساب حكومة الهند ـ التى كانت اذ ذاك مستعمرة بريطانية ـ وكان يديره طبيب هندى يرافقه صيدلى ، وكانت هناك عيادة السفارة الهولندية التى تقوم على حساب حكومة جاوة التى كانت مستعمرة هولندية ويديرها طبيب جاوى وصيدلى ، ثم قامت حكومة ايطاليا بفتح عيادة لها فى جدة بعد احتلال ليبيا وكان يدير هذه العيادة طبيب ايطالى ، كما كانت هناك عيادة روسية حينما كانت روسيا ممثلة دبلوماسياً فى جدة ويدير هذه العيادة طبيب وصيدلى روسى ، وآخر هؤلاء الاطباء الدكتور عبدالرحمن الطبيب الروسى الذى اسلم فيما بعد ، وكان الناس يترددون بكثرة على هذه العيادات طلبا للعلاج ، وفى مكة والمدينة كانت هناك المستشفيات الحكومية على النمط الذى وصفناه سابقا كما كانت هناك مستوصفات التكية المصرية وكانت تقوم بنفس الغرض ، اما العمليات وما اليها فلم تكن محل تفكير المرضى فى ذلك الوقت فاذا كان المريض يحتاج الى عملية جراحية سافر الى مصر او السودان او اسمرة ليجريها فى المستشفيات الموجودة هناك ، هكذا كان الحال فى الأربعينات من هذا القرن الهجرى • وكان الموسرون من الناس يستقدمون هؤلاء الاطباء الى دورهم ويجزلون لهم الاجر ، لأن الفحص والدواء فى هذه العيادات مجانى ، وكان الاحرار من المواطنين يشعرون بهذا النقص ويأسون له اشدَّ الأسى ولكن هذه هى امكانيات البلاد فى اوائل العهد السعودى فى الأربعينات وقد تطورَّ الأمر فيما بعد

الى الأحسن حينما قام الدكتور خالد ادريس بفتح عيادته فى جدة وكان قد قدم طبيباً فى عيادة امريكية تابعة للسفارة الامريكية ، كما قدم بعض الاطباء اللبنانيين الى جدة وقاموا بفتح المستشفى اللبنانى فى جدة وقامت المستشفيات الحكومية فى نفس الوقت بإدخال كثير من التحسينات على الخدمات الطبية ٠

الطّبيب الجرّاح

فى هذا العهد الذى وصفناه كان قدوم الدكتور محمد خاشقجى بعد تخرجه طبيباً جراحا فكانت فرحة الناس به فرحة عامة خاصة بعدما رأوا من نجاحه الباهر فى اجراء العمليات الجراحية،لقد اذن الله للبلاد اخيرا بان يكون فيها طبيب من ابنائها يعرفه الناس ويعرف هو الناس فيتفانى فى خدمتهم ليل نهار، ولقد رأيت الدكتور الخاشقجى فى اوائل الخمسينات وهو يعمل جراحا بالمستشفى العام بمكة المكرمة مستفيض الشهرة ، يحسن استقبال الناس ويعاملهم معاملة كريمة طيبة فيجد منهم الحب كل الحب والثناء كل الثناء، ولقد عمل الدكتور خاشقجى مديرا للصحة فى جدة وطبيبا اول جراحا فى مستشفاها كما عمل فى المستشفى العام بمكة المكرمة جراحا وكان يجرى عملياتـه حيثما يكون فى مدن المملكة فى المدينة المنورة او الرياض او الطائف وما هو الا ان عينه جلالة الملك عبدالعزيز طبيبا جراحا له يرافقه حيثما حل او ارتحل بين مدن المملكة ٠

الدكتور يوسف عز الدين حسنين

وأود للتاريخ ان اذكر ان هناك طبيبا مكيا آخر ظهر فى هذا العهد ونال من الشهرة والنجاح بمقدار ما نال الدكتور الخاشقجى الا انه لم يبق فى البلاد فرحل عنها بعد فترة قصيرة ٠

هذا الطبيب هو الدكتور يوسف عزالدين حسنين وهو من أبناء مكة المكرمة وأبوه كان الصيدلى الوحيد فى مكة واسم صيدليته ، صيدلية حسنين على اسم الاسرة وقد ادركت هذه الصيدلية يديرها شقيق الدكتور يوسف عزالدين وكانت داخل المشعر الحرام قرب المروة وكان المشعر كله من الصفا الى المروة سوقا من اهم أسواق مكة المكرمة وكانت به اشهر المبانى واكبرها ثم هدمت جميعها وادخلت فى التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام واصبح المشعر الآن جزءاً من الحرم ، ليس بداخله الا الساعون بين الصفا والمروة ، ونعود بعد هذا الاستطراد الى الدكتور يوسف عزالدين فنقول إنه كان كذلك فى اوائل الخمسينات يعمل طبيبا جراحا فى مكة المكرمة والطائف ولكن لم تطل اقامته بالمملكة فهاجر الى الاردن والى سوريا أو غيرها من بلاد الله وهنا يظهر فضل الدكتور الخاشقجى الذى لم يبال بما صادفه من عقبات أو مضايقات لم يألفها فاستمر يعمل فى مستشفيات المملكة كالجندى فى المعركه لأنه وجد ان بلاده مفتقرة الى علمه وعمله فتفانى فى اداء واجبه واهبا وقته كله لتطبيب المرضى واسعافهم حيثما كانوا .

التخصص فى الأشعة

وفى الخمسينات حضر الى الحجاز زعيم مصر الاقتصادى محمد طلعت حرب للحج مفتتحا خطا جويا لشركة مصر للطيران بين القاهرة وجدة لخدمة الحجاج المصريين وكذلك خطا آخر بحريا للبواخر الكبيرة التى تنقل الحجاج فأهدى الى الدولة اول جهاز للاشعة ، وكان هذا الجهاز يحتاج الى اخصائيين للاستفادة منه وهنا ظهر طموح الدكتور الخاشقجى فطلب من جلالة الملك عبدالعزيز انتدابه الى باريس للتخصص فى العلاج بالأشعة ولقد وافق جلالة الملك عبدالعزيز فتم ابتعاث الدكتور الخاشقجى الى باريس لهذه الغاية وبقى هناك حتى أتم دراسته

الجديدة ولم يعد الى بلاده الا وقد تعاقد على شراء جهاز كبير للأشعة يستعمله فى عيادته الخاصة ٠

كهرباء الخاشقجي

ولم يكتف الخاشقجى بهذا فالجهاز يحتاج الى القوة الكهربائية لتشغيله والبلاد لم تدخلها الاضاءة الكهربائية الا فى بعض البيوت الخاصة فاشترى مولدات ضخمة لتوفير القوة الكهربائية لا لجهاز الأشعة وحده وانما لتوفير الاضاءة للمنطقة التى يوضع بها جهاز الأشعة وهكذا ظهرت موهبة الدكتور الخاشقجى التجارية بوضوح فهو يعرف كيف يستفيد من الفرص المتاحة له بذكاء واقدام ،لقد تخطى العقبات التى وقفت فى سبيل تعليمه فتعلم وتخطى العقبات حتى اصبح طبيبا شهيرا وتخطى الصعاب حينما آثر البقاء فى البلاد على العيش الخفيض فى بلد آخر،وأخيرا تخطى الصعاب حينما طمح الى تخصص جديد يُعدُّ الاول من نوعه فى البلاد ولم يكتف به بل ادخل الاضاءة الكهربائية الى منطقة ولو كانت محدودة من مكة المكرمة ، نعم لقد استأجر الدكتور الخاشقجى عمارة جديدة اقامها الأشراف فى القشاشية بالقرب من المسجد الحرام فجعلها عيادة لأشعته التى تخدم البلد فى هذا المجال من الطب وكان لديه الفائض الكثير من القوة الكهربائية فتقدم اليه الناس بطلب الاضاءة ،فأضاء شارع القشاشية كله ولعله ربح من هذه الاضاءة اكثر مما ربح من عمل الأشعة ، واكرر هنا ان الربح الحلال لايغض من قيمة العمل النافع بل هو مدعاة لاستمراره وتحسينه ، ان عملية اضاءة حوانيت شارع هام من شوارع مكة المكرمة بالقرب من المسجد الحرام يعتبر فى ذلك الوقت عملا حضاريا مهما كان محدودا ، فاذا كان الرجل الذى اقدم على هذا المشروع ليس تاجرا وانما هو طبيب جراح او دكتور أشعة

كانت نظرة التقدير الى عمله اكبر واذا كان هو قد استفاد فإن الحى الذى ادخلت اليه الكهرباء قد استفاد كذلك فالمنفعة متبادلة والفضل للرجل المبدع الذى استطاع ان يوفر المنفعة حين الحاجة اليها .

عِلاج الطّحَال بالأَشِعَة

هل قنع الدكتور الخاشقجى بما احرز من نجاح كطبيب جراح وكطبيب أشعة وبما تدره عليه عيادة الأشعة وبيع الكهرباء ؟ كلا ان الرجل لم ينس قط انه طبيب والطبيب الحاذق يستزيد من المعرفة كل يوم فهو يتابع احد ث ما توصل إليه الطب أولا بأول ، وان لم يفعل هذا فانه يتجمد عندما وصل اليه علمه ويتخطاه الآخرون ، يقول الدكتور الخاشقجى[1] من خلال الممارسة الكثيفة للتشخيص بالأشعة جمعت خبرة ومعلومات دونتها فى رسالة بعنوان معالجة الطحال المتضخم نتيجة الملاريا المزمنة باشعة اكس ، والملاريا كما هو معلوم منتشرة فى كثير من البلاد الحارة من العالم وكان يعمد فى حالتها القصوى الى اجراء عمليات جراحية لاستئصال الطحال وكان الهدف من الرسالة هو الدعوة الى علاجها بالأشعة .

عُضوالجَمعَية الوَطنِية الفِرنسَيَّة للعِلاج

ووجدت الرسالة ما تستحقه من تقدير فعينت الجمعية الفرنسية الوطنية للعلاج صاحبها عضوا من أعضائها وهو نصر علمى يضاف الى امجاد الدكتور الخاشقجى ويستحقه كل الاستحقاق .

---

(١) مجلة الشرقية العدد (٥٤) يناير ١٩٧٩

تكريم الوطن

وما ان ترامى هذا التقدير الفرنسى لطبيبنا الكبير الى أسماع المواطنين حتى قامت حفلات التكريم له بعد وصوله الى ارض الوطن فأقام له اعيان مكة المكرمة من آل الشيبى وشطا والقزاز وسواهم من المواطنين حفل تكريم بمدينة الطائف تقديرا لجهوده العلمية واعتزازا بالطبيب السعودى الناجح كما اقام له اهل المدينة المنورة حفل تكريم حافل حين وصوله اليها فى شعبان عام ١٣٥٧ هـ للعمل فى مستشفاها ٠

سكرتير وزارة الصحة

وحين تم احداث اول وزارة للصحة فى المملكة كان وزيرها الاول هو صاحب السمو الملكى الامير عبدالله الفيصل وفى عهد سموه بدأت النهضة الصحية فى البلاد إذا جاز هذا التعبير فتوسعت الحكومة فى فتح المسنشفيات فى المدن وكان ان ابتعث سموه الدكتور الخاشقجى اول سكرتير لوزارة الصحة الى مصر للتعاقد مع الاطباء ولم يعد من هناك الا وقد تعاقد على استقدام خمسين طبيبا للعمل فى مستشفيات المملكة مع ما يتبعهم من ممرضات وتجهيزات طبية وهكذا ساهم الدكتور الخاشقجى بخبرته فى تأسيس الكيان الطبى وترسيخه فى البلاد حينما اصبحت الظروف مواتية لتحقيق ذلك ٠

مصنع الجبس

وحينما رأى الدكتور خاشقجى انه قد آن الأوان لانشاء صناعات وطنية فى البلاد بادر مع قيام النهضة العمرانية فى المملكة الى السعى للحصول على انشاء

مصنع للجبس واستثماره فى مدينة الرياض لمدة خمسين عاما واسس لهذا الغرض شركة الجبس الاهلية وتولى ادارتها وقد نجحت صناعة الجبس فى المملكة وأخذت تسد نقصا كبيرا فقد كانت البلاد تستورد احتياجاتها من هذه المادة من الخارج فقام هذا المصنع بسد جزء كبير من استهلاك البلاد المحلى ، ولم يقتصر عمل المصنع على صناعة الجبس وانما عمد الى تصنيع الجبس فى اشكال زخرفية تزين بها المبانى وقد نجحت هذه الصناعة كذلك واصبح الكثير من القصور والدارات تزين بها كما ان صناعة الجبس شقت طريقها الى اسواق دول الخليج العربى جميعا والى بعض الدول العربية المجاورة كالسودان وهكذا لم يقف نشاط الدكتور الخاشقجى عند مهنة الطب التى اتقنها ونجح فيها وانما تجاوزها بطموحه وتطلعاته الى مجالات اخرى تفتقر اليها البلاد وقد ظل الدكتور الخاشقجى يدير شركة الجبس الاهلية ويشرف على اعمالها إلى أن اشتد ساعدها فتركها مكتفيا بالاشتراك فى مجلس ادارتها وظل كذلك الى ان توفاه الله .

تقاعُد الدّكتور الخَاشِقجي

هذا وقد هاجر الدكتور الخاشقجى بأسرته الخاصة بعد أن تقاعد عن العمل لعلو سنه وبعد أن رأى الدكتور من ابنائه من يمارسون نشاطهم الكبير فيها ، فهاجر إلى لبنان ولكنه ظل دائما متصلا بوطنه الأم وبعد ان نشبت الحرب الأهلية فى لبنان انتقل الى بريطانيا فكان يفد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة فى شهر رمضان من كل عام للاعتمار وقضاء بعض الأيام فى المدينة المنورة كما كان يحضر ببعض أفراد أسرته للحج فى كل عام وكان منزله فى لندن وبيروت غاصا بالضيوف من الأهل والأصدقاء كل يوم فلقد كان رحمه الله مطبوعا على الكرم وحسن الخلق وكان أنيس المحضر متدينا حتى وهو فى أوج شبابه حينما كان يدرس الطب فى فرنسا ، حدثنى معالى الشيخ محمد رضا كيف قرأ لهم الدكتور

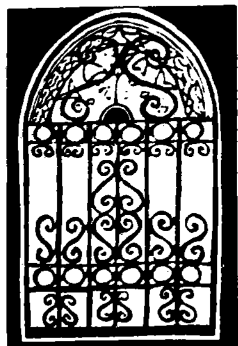
الخاشقجي السيرة النبوية فى باريس ، قالوا حضر الحاج محمد على زينل رضا رحمه الله إلى باريس يوم كان يباشر أعماله العظيمة فى تجارة اللؤلؤ هناك وجاء الدكتور الخاشقجي للسلام عليه فأراد أن يضيفه فقال انه صائم واعجب الرجل العظيم بالشاب المدنى الذى يصوم فى باريس ، وربما كان هذا الصيام تطوعاً فأحبه وما هى إلا أيام حتى حل الموعد السنوى لذكرى ولادة النبى ﷺ فأقام الحاج محمد على رحمه الله حفلا بهذه المناسبة دعى فيه الدكتور الخاشقجي إلى تلاوة السيرة النبوية بمناسبة المولد فاستجاب لذلك مسرورا رحمهما الله جميعا •

وفاة الدكتور الخاشقجي

هذا وقد حضر الدكتور الخاشقجي بأسرته الى مكة المكرمة فى حج عام ١٣٩٨ هـ ولكنه شعر بأعراض المرض وبحكم خبرته كطبيب ادرك انه محتاج الى عملية جراحية ولكنه طلب حضور جميع ابنائه وبناته واجتمع شمل الاسرة كلها فى الرياض والتفوا من حوله قالوا: وكان يشعر انها النهاية وبالفعل فقد اسلم الروح بعد اجراء تلك العملية الخطيرة له يوم ١٩ ذى الحجة ١٣٩٨ هـ ونقل جثمانه الى مسقط رأسه بالمدينة المنورة فصلى عليه فى المسجد النبوى الشريف ودفن فى مقبرة البقيع مأسوفا عليه من اهله ومن محبيه وعارفى فضله وما اكثرهم •

رحمه الله رحمة واسعة فلقد كان رجلا عظيما احب بلاده وامته فسعى فى سبيلهما ما وسعه السعى فكان طبيبا عظيما واداريا حازما واقتصاديا كبيرا •

تغمده الله برحمته الواسعة واحسن جزاءه فى عليين •





محمد حسين نصيف

مُحَمَّد حسين نَصِيف

مستدير الوجه ، أبيض اللون ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، أقرب الى الطول منه إلى القصر، وسيم، جسيم، قوى البنية، متين الأركان، تزيَّن وجهه لحية غلب فيها البياض على السواد يرتدى الجبة والعمامة الحجازية وكان له سمت خاص فى لباسه فهو سلفى المذهب والشارة ، فحينما كان يلبس العمامة كانت عمامته بيضاء خالصة ولم تكن تزدان بالنقوش الحمراء والخضراء التى تتميز بها العمامة الحجازية وحينما تحوَّل عن الجُبَّة والعمامة الحجازية إلى العباءة والعقال كانت عباءته بيضاء كذلك ولم تكن مزدانة بالقصب الذى تتميز به العباءة العربية ، وكان عقاله أبيض خالصا ، فهو رجل متميز بطبعه يتخذ سمات العلماء السلفيين ويرتدى ما يراه متفقا مع كرامة العلم ومقام العلماء

ولد الشيخ محمد حسين نصيف فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ١٣٠٢ هـ ومات أبوه وهو طفل فكفله جده لوالده الأفندى عمر نصيف وكان كبير أعيان جدة أو على الأصح كان ثانى اثنين هما أكبر أعيان جدة فى ذلك الزمان أما الثانى فهو الأفندى موسى البغدادى وكان الرجلان كما سمعنا يكيدان لبعضهما البعض وينفس كل منهما على الآخر مكانه فيحاول النيل منه وكان الأفندى عمر نصيف وكيل شريف مكة ولعله كان وكيلا لكل من يتولى امارة

مكة من الاشراف كما كان على صلة كبيرة بالوالى التركى فى الحجاز والذى كان يتخذ من قصر الأفندى عمر نصيف الشهير بجدة مركز إقامة له فى فصل الربيع ، قالوا وكان فى أعلى القصر مجلس منيف يتخلله الهواء من كل مكان وكان الوالى التركى راتب باشا يصعد بفرسه إلى هذا المجلس الذى كان يسمى بالتركية (كشك) وفى حضانة هذا الجد الكبير وفى ظل هذا المجد تربىّ الشيخ محمد حسين نصيف،وكان الولد الوحيد لجده كما بلغنا فقد كانت ذرية الأفندى عمر نصيف جميعا من البنات ثم تزوج الزوجة الثانية فولدت له حسين نصيف والد الشيخ محمد نصيف،ولكن حسينا هذا توفىً فى أوج الشباب وترك بعده محمداً الذى احتضنه جدة الأفندى عمر نصيف،فكان هو الذكر الوحيد لهذا الجد وهو المعُصِّب له حين وفاته ٠

قصْـــرُ نَصِـيْـف

والحديث عن الشيخ محمد حسين نصيف يقتضى الحديث عن قصر نصيف الذى فيه نشأ وتربىْ وعاش طيلة حياته التى امتدت نحوا من تسعين عاما أو تزيد ٠

كان قصر نصيف الذى بناه الأفندى عمر نصيف جدُّ المترجم مَعْلَماً من معالم مدينة جدة بل أبرز معالمها فى حينه نزل فيه الملوك والأمراء والعلماء والوزراء وقد شهدت السلطان وحيد الدين آخر سلاطين العثمانيين ينزل فيه بعد أن أقصى عن الخلافة ودعاه الشريف الملك حسين بن على لزيارة الحجاز ، وكان الوالى التركى يتخذ منه مركزا لإقامته فى بعض فصول العام كما أسلفنا ، وكان أمراء مكة من الاشراف ينزلون فيه ثم تحولوا إلى قصر آل مهنا فكان الملك حسين ثم ابنه الملك على ينزلون فيه ، وكان كل من قدم إلى الحجاز من الملوك والأمراء وأعاظم

الرجال ينزلون فى هذا القصر المنيف قصر نصيف ، فلم يكن فى مدينة جدة فندق او دار ضيافة فكان قصر نصيف هو قصر الضيافة لكل من قدم إلى الحجاز من عظماء الرجال وفى عام ١٣٤٤ هـ حين استيلاء المغفور له الملك عبدالعزيز على الحجاز بعد انتهاء الحكم الهاشمى كان قصر نصيف بجدة هو منزل جلالته حين دخوله إلى جدة لأول مرة وفى هذا القصر كانت الوفود تصل إلى جلالته لمبايعته ملكا على الحجاز كما شهد هذا القصر كل الاجتماعات التى كانت تعقد لترتيب امور الدولة الجديدة وقد اتخذ جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله من هذا القصر مقرا له لسنوات طويلة كلما قدم إلى مدينة جدة ، ثم انتقل إلى القصر الأخضر بالعمارية الذى بناه المرحوم الشيخ على العمارى ناظر عموم الرسوم بجدة خصيصا لنزول جلالته وقد سميت المنطقة بالعمارية نسبة إلى اسم الشيخ على العمارى رحمه الله ، وبعدها انتقل جلالة الملك عبدالعزيز إلى قصر خزام بالنزلة وهو القصر الذى قام ببنائه خصيصا لجلالته المعلم محمد بن لادن رحمه الله واستمر جلالته يتخذ من قصر خزام مقرا له إلى حين وفاته ٠

ولما توفى الأفندى عمر نصيف انحصر إرثه فى بناته الست وفى الشيخ محمد نصيف الذى كان المعصب لجده المتوفى فعمل والى جدة التركى راتب باشا على أن يكون القصر من نصيب الشيخ محمد نصيف لأنه الشخص الوحيد من الورثة القادر على ابقائه مستعدا لاستقبال الضيوف من ملوك وعظماء وهكذا كان ، وتقديرا لمكانة هذا القصر ومنزلته التاريخية امر جلالة المغفور له الملك فيصل بشرائه من ورثة الشيخ محمد نصيف بعد وفاته بما يحويه من مكتبة المرحوم الشيخ محمد نصيف ليكون القصر بالمكتبة نواة لمكتبة عامة فى مدينة جدة حيث يقع القصر فى قلب المدينة القديمة وقد اشترته الدولة ولكن استعماله كمكتبة عامة لم يتم حتى الآن ٠

نعود الآن بعد هذا الاستطراد عن قصر نصيف إلى إكمال ما بدأناه من حديث عن الشيخ محمد نصيف ففى هذا القصر المجيد وفى ظل جده الكبير نشأ محمد نصيف وتربى وتعلم على أيدى خيرة العلماء فى زمانه وكان القصر منتدى لكل من تضمهم مدينة جدة من علماء ورجال سياسة فلم يكن يفد إلى جدة عضو فى سفارة عربية أو اسلامية الا كانت زيارة قصر نصيف والاجتماع إلى الشيخ محمد نصيف من أوائل الأعمال التى يقوم بها بعد وصوله إلى المدينة ، وكان الشيخ محمد نصيف يقضي سحابة نهاره وصدرا من الليل فى الدور الأرضى من القصر الذى كانت المكتبة تحتل أجزاء كثيرة منه وكان يتناول الوجبات الثلاث فى غرفة المائدة فى هذا الدور مع أولاده ومن يضمهم القصر من الضيوف والأصدقاء وكانت هناك مضيفة ملحقة بالقصر لاستقبال الضيوف بصورة دائمة طوال العام وخاصة فى موسم الحج ولعلى لا أفشى سرا إذا قلت أن واردات الشيخ محمد نصيف من العقار الكثير الذى ورثه عن جده الأفندى عمر نصيف لم تكن تكفى دائما لمقابلة المصاريف الضخمة التى كان ينفقها فى إبقاء قصره مفتوحا للضيافة طوال العام وقد علمت بحكم صلة القرابة التى تربط أسرتنا به أنه كان

يبيع فى بعض الأعوام بعضا من عقاره لسدَّ هذه النفقات الطائلة التى كان يتكلفها كل عام ، وخلال الخمسينات من هذا القرن وحين اشتداد الأزمة الاقتصادية العالمية وهبوط قيمة العقار كان واضحا ان الشيخ محمد نصيف اخذ يعانى من هذه الازمة وما أن علم جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز بذلك حتى أصدر أمرا بصرف قاعدة سنوية له كل عام وكان الشيخ ابراهيم بن معمر قائممقام جدة فى ذلك الوقت هو الذى كتب لجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز ودون علم الشيخ محمد نصيف بذلك ولا شك ان الشيخ محمد نصيف كان من أحق الناس بعطف جلالة الملك عبدالعزيز ومعونته فقد كان معروفا بعقيدته

السلفية منذ نشأ وقد أخبرنى المرحوم الشيخ عبدالرؤوف الصبان وكان من رواد مجلس الشيخ محمد نصيف كما كان من أوائل المتعلمين فى ذلك العهد قال كنا نجلس فى مجلس الشيخ محمد نصيف وكان يمر بنا جماعات الطرق الصوفية وهم يرقصون ويغنون وكان هذا فى العهد الهاشمى قال فكنا نسفه آراءهم ونحصبهم بالحجارة ، وحينما تم فتح مكة المكرمة فى عام ١٣٤٢ هـ وأحاطت جيوش الملك عبدالعزيز بمدينة جدة كان معروفا ان الشيخ محمد نصيف على صلة بجلالة الملك عبدالعزيز وسواء أكان الخبر صحيحا أم مبالغا فيه فقد سجن الشيخ محمد نصيف ومعه الشيخ سليمان عزايه وغيرهم فى الثكنة العسكرية خارج مدينة جدة اذ ذاك ولم يطل الأمر بهما فقد أطلق سراحهما بعد أيام قلائل ثم لم يمض طويل وقت حتى دانت مدينة جدة بالولاء لجلالة الملك عبدالعزيز واتخذ جلالته كما اسلفنا من قصر الشيخ محمد نصيف مقرا لإقامته على مدى سنوات حينما كان يحضر إلى جدة كل عام وهكذا بقىَ قصر الشيخ محمد نصيف يمثّل الوجه المشرق لمدينة جدة منذ تأسيسه فى أوائل هذا القرن وعلى مدى ما يزيد من ستين عاما ولولا ان الشيخ محمد نصيف كان رجلا مطبوعا على الكرم والفضل لما استطاع ان يقوم وحده بهذا العبء الذى لايضطلع به الا الأفذاذ من الرجال ٠

هذا ولقد كان الشيخ محمد نصيف مرجعا لكثير من المعلومات التاريخية عن العهود التى عاصرها وهى كما ذكرنا تقرب من قرن كامل وإنى لأذكر حينما وصل ماء العين العزيزية الى جدة عام ١٣٦٧ هـ ان أصدرت مجلة الحج عددا خاصا عن هذا الموضوع وقد كلفنى يومها معالى المغفور له الشيخ محمد سرور الصبان بكتابة بحث عن تاريخ الماء فى مدينة جدة ولم أجد فى مدينة جدة كلها إذ ذاك مصدرا لهذه المعلومات سوى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وانى لأذكر كيف كان يتدفق فى حديثه عن تاريخ الماء فى مدينة جدة بأسلوب يجمع بين حقائق التاريخ

وطرافة المعلومات وقد نشر هذا البحث فى مجلة الحج وذكرت فيه مصدر هذه المعلومات فى صلب البحث المذكور ، كما كان فضيلة الشيخ محمد نصيف يوافى المجلات والصحف فى بعض المناسبات بمعلوماته التاريخية عن الأحداث التى يرى ضرورة التعليق عليها كما كان يجيب السائلين سواء فى رسائل خاصة أو على صفحات الصحف عما يسألونه عنه فلم يكن ممن يضنون بعلمهم أو يكتمونه ٠

مَكْتبة نَصِيف

ولا يكتمل الحديث عن الشيخ محمد نصيف إلا بالحديث عن حبه للكتب واقتنائه لها فلقد نشأ وتربى على حب القراءة وكانت صلته بعلماء عصره سواء المقيمين او القادمين مدعاة لتنمية حبه للقراءة والدرس وهكذا عكف الشيخ محمد نصيف منذ فجر صباه على جمع الكتب واقتنائها وتتبع النادر منها حيث وجد،وإنى لأذكر أنه علم بوجود نسخة من أحد الكتب الأندلسية القديمة فى مكتبتى فلم يتردد رحمه الله فى الكتابة إلى بطلبها ولم أتردد فى تقديمها له لأن وجودها ضمن مكتبته الثمينة أولى من وجودها لدى وهكذا صرف الشيخ محمد نصيف حياته الطويلة المديدة فى جمع مكتبة تعد أثمن مكتبة خاصة فى مدينة جدة كلها وهى من أثمن المكتبات الخاصة فى الحجاز كله وهذه المكتبة هى التى آلت ملكيتها كما ذكرنا الى الدولة مع القصر لتكون نواة لمكتبة عامة فى جدة ونرجو ان يتم تنفيذ هذا المشروع الهام قريبا ليتم النفع به ٠

ومما يجب ذكره فى هذا المقام ان الشيخ محمد نصيف قام بطبع ونشر كثير من الكتب على نفقته وبالاشتراك مع الغير منها كتاب العلو للعلى الغفار الذهبى طبع فى عام ١٣٢٥ هـ وكتاب الجواب الباهر فى حكم زيارة المقابر وبهامشه ٠[(١)]

(١) كتب التوسل والوسيلة لابن تيمية والخطوط العريضة لمذهب الشيعة لمحب الدين الخطيب والرحلة اليمانية للشريف عبدالمحسن والجيل الثانى لعدة مؤلفين كما طبع كتاب الأدب المفرد للامام البخارى على نفقة الحاج يوسف زينل رحمه الله ٠

كما اعرف أنه شجع بعض أصدقائه على طبع ونشر بعض الكتب على حسابهم الخاص مثل المرحوم الشريف شرف رضا الذى قام بطبع ونشر كتاب للامام البخارى على ما أذكر بمشورة الأفندى نصيف وتشجيعه ، وتوفى الشيخ محمد نصيف بمدينة الطائف بمستشفى الملك فيصل فى ٨ جمادى الثانى سنة ١٣٩١ هـ ونقل جثمانه الى جدة حيث دفن بها فى مشهد حافل شاركت فيه الجموع الكثيرة وواسى فى وفاته رجال الدولة وعلى رأسهم جلالة المغفور له الملك فيصل رحمه الله وكبار الأمراء وأعيان البلاد ٠

تغمده الله برحمته الواسعة فلقد كان نمطا فريدا من الرجال استطاع بفضله وكرمه أن يكون مصدر فخار لحقبة طويلة من الزمن لمدينةجدة بل للحجاز كله وليس هذا بالأمر السهل أو القليل الأثر فمثل هؤلاء الرجال يعدون من مفاخر الأمم ٠





محمود حسنين نصيف

محمود حسين نصيف

معتدل القامة والجسم ، أبيض تخالط بياضه صفرة ، أسود الشعر والعينين ، خفيف اللحية ، حليق العارضين ، يرتدى العباءة والعقال •

ولد بمدينة جدة عام ١٣٥٣ للهجرة الموافق لعام ١٩٣٤ للميلاد وتلقى تعليمه الابتدائى بالمدرسة السعودية بجدة ، وحصل على الشهادة الثانوية من القاهرة ثم سافر فى بعثة إلى أمريكا فحصل على شهادتى البكالوريوس والماجستير فى الهندسة المدنية من جامعة جنوب كلفورنيا بمدينة لوس انجلوس بالولايات المتحدة الامريكية •

وعُينَّ فَوْر عودته ملازما أول بسلاح المهندسين بوزارة الدفاع ورُقِّى الى رتبة مقدم ثم نقل إلى الملاك المدنى واسندت اليه وظيفة مدير الأشغال الهندسية العسكرية وظل يشغل هذا المنصب حتى توفاه الله فى أوج الشباب فى ٩٥/١٢/٢٩ هـ وهو لم يكمل الثالثة والأربعين من العمر بعد أن استعصى الداء ولم يُجْدِ الدواء رحمه الله رحمة الأبرار •

كان المرحوم محمود نصيف وهو من أسرة نصيف الشهيرة فى جدة فوالده المرحوم الأستاذ حسين محمود نصيف مؤلف كتاب ـ ماضى الحجاز وحاضره ـ وجده العلامة والمؤرخ والوجيه الكبير المرحوم الشيخ محمد نصيف نقول كان هذا الشاب نمطا فريدا فى خلقه وعمله ، فقد ولى أخطر المناصب وهو فى سن مبكرة بعد أن حصل على شهاداته العليا من احدى كبرى الجامعات فى الهندسة فى أمريكا ، فلم يقنع بمجد أسرته التليد وإنما بنى لنفسه مجدا جديدا حينما تبوأ مركزه كمدير للأشغال العسكرية الهندسية فى وزارة الدفاع بالمملكة وهو منصب جدُّ خطير تحيط به المغريات من كل جانب ولم يهيئه لهذا علمه فحسب وانما هيأته لذلك صفاته الشخصية ، فلقد اشتهر بالاخلاص والنزاهة ، ونظافة اليد والضمير واذا علمت ان محمود نصيف أشرف على عدد من المشاريع البالغة الضخامة مثل مشروع المدينة العسكرية فى خميس مشيط ، ومطار جدة الدولى ومطار الرياض الدولى ، وكان فى كل أعماله مثالا للنزاهة التى تصل الى درجة الزهد ، أدركت مدى قوة الخلق فى هذا الشاب العظيم الذى كان يتعالى على كل أسباب الإغراء مترفعا بنفسه عن كل مظنة حتى أصبح مضربا للمثل فى عصر عزَّ فيه ، هذا المثال النادر من الرجال ، كتبت عنه احدى المجلات الامريكية المتخصصة فى الهندسة والانشاءات كواحد من المهندسين القلائل فى العالم الذى أشرف على عدد ضخم من المشاريع الهندسية التى تقدر ببلايين الدولارات فى وقت قصير .

وكان إلى جانب هذا المنصب متدينًا شديد التدين قوى الايمان وقد أسبغ عليه هذا التدين ما تميَّز به من صفات التواضع الجم والامانة القليلة النظير .

تفـرّغ لخـدمة الجامعة

ولقد عرفت المرحوم محمود نصيف أول ما عرفته حينما انضم الى عضوية المجلس التأسيسى لجامعة الملك عبدالعزيز فرأيت فيه شابا يجمع بين العلم والتواضع ويساهم بعلمه وجهده فى خدمة مشاريع الجامعة وما أكثر ما كانت الجامعة فى حاجة إلى هذا الجهد على قلة الموارد فى ذلك الوقت ٠

كان المبنى الذى تشغله كلية العلوم قديما لايقوى على البقاء كما أنه لا يفى بمتطلبات الكلية فاقترح المهندس محمود نصيف اقامة مبنى خاص بالكلية ولكن موارد الجامعة لم تكن تسمح فى ذلك الوقت باقامة المبنى المطلوب فقام هو بجمع التبرعات العينية والنقدية للجامعة من الشركات الهندسية والفنية الكبيرة التى كان على صلة بها ، وجَند كل أصدقائه من المهندسين والفنيين لانشاء المبنى فى أسرع وقت وبأقل تكلفة وهكذا قام مبنى كلية العلوم بجهد عظيم من المرحوم محمود نصيف خاصة وبمن لبى نداءه من المخلصين والعاملين وقد شمل هذا الجهد كل ما يتعلق بالمبنى من تصميم وتنفيذ ٠

ولم تقف جهود المرحوم محمود نصيف عند مبنى كلية العلوم فلقد ساهم بجهد عظيم فى كل عمل هندسى للجامعة فكان يشرف على أعمالها الهندسية وانشاء مبانيها منذ أن كانت جامعة أهلية وحتى بعد أن تحولت الى جامعة حكومية دون مقابل ولقد تابع بجهوده الشخصية اخراج المخطط العام للجامعة بجدة الى مرحلة التصميم ، كما شارك فى اخراج مخطط الجامعة بمكة وكان يندفع بكليته فى العمل دون تفكير فيما يجب لنفسه من راحة ولصحته من عناية ، ولقد علمت أنه كان يغادر بيته فى الصباح المبكر دون ان يتناول طعام الافطار منهمكا فى عمله حتى

المساء ، بل إنه حتى فى رحلاته للعلاج بعد أن ظهرت عليه أعراض المرض كان يبحث فى هذه الرحلات الأعمال الهندسية للجامعة مسرفا على نفسه فى الجهد والعمل الى ان توفاه الله ٠

محمود نصيف والخدمة العامة

ولم تقف جهود محمود نصيف رحمه الله على أعمال الجامعة ومشروعاتها ولكنه كان يندفع الى بذل جهوده فى كل عمل يحس فيه النفع العام ولقد علمت انه ساعد على تصميم وانشاء طابق جديد فى المبنى الذى كان يشغله البنك الاسلامى بجدة أول تأسيسه وكان المبنى يضيق بمتطلبات البنك وأعماله فقام رحمه الله بعمل التصميم للطابق الجديد وأشرف على انشائه بسرعة مذهلة ٠ وأستطيع أن أقول إنى خبرت شيئا من هذا الاندفاع فى الخدمة العامة لا فى الجامعة وحدها أو فى البنك الاسلامى وانما فى كل عمل نافع ، فلقد وهب الرجل شبابه للخدمة العامة ولم يكن ينتظر الدعوة إلى العمل وإنما كان يقدم نفسه كما فعل فى الجامعة والبنك الاسلامى وغيرهما من الأعمال ٠

ولا يظن ظان ان محمود نصيف كان يستغل مركزه الكبير فى وزارة الدفاع لهذه الخدمة دون علم من رؤسائه فقد أخبرنى شخصيا أنه علم أن احد الرجال المعروفين كان يفكر فى انشاء مسجد فى مدينة أبحر لخلوها من المساجد فلم يكن منه الا أن استأذن صاحب السمو الملكى الامير سلطان وزير الدفاع والطيران فى أن يقوم المكتب الهندسى لوزارة الدفاع بتصميم المشروع فوافق سموه على ذلك ، وهكذا كان الرجل مبادرا إلى كل عمل نافع وكأنما قد سُخِّر لذلك تسخيرا ، وبينما كان غيره يسخِّرُون عملهم ووظائفهم للنفع الشخصى وجر المغانم كان هو يسخر نفسه للخدمة العامة فكان بذلك مثالا فريدا قليل النظير ٠

مرضـــه ووفـاتـه

أحسَّ المرحوم محمود نصيف بأعراض الداء قبل فترة من الزمن ولكنه لم يسارع إلى العلاج كما كان الواجب بل كان يؤجل السفـر للفحص والعـلاج أسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر حتى أصبحت الحمى لا تفارقه وكان مع ذلك منهمكا فى أداء الأعمال التى كلف نفسه بها حتى ظهرت عليه العلَّة صفرة فى الوجه ونحولاً فى البدن فسافر إلى أمريكا ولم ينس أن يحضر أولا اجتماعا لبحث مخطط الجامعة العام فى مدينة غير التى يقصدها للعلاج ، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة روشستر بولاية مينسوتا بأمريكا وقد اقتضى الأمر اجراء جراحة عاجلة له ولكن الداء كان قد استفحل وبقى فى غرفة الانعاش وقتا غير عادى مما استدعى إرسال زوجه وأولاده إليه كما سارع بعض أفراد اسرته للسفر وهكذا أراد الله لهذه الروح ان تعود إلى بارئها مودعا هذه الحياة وهو فى مطلع رجولته بمدينة روشستر بأمريكا بتاريخ ٩٥/١٢/٢٩ هـ وقد نقل جثمانه الى جدة بعد ثلاثة أيام من وفاته فاستقبله اصدقاؤه الكثيرون وصلى عليه فى جامع الملك سعود ودفن بمدينة جدة مسقط رأسه وقد نعته صحف المملكة جميعها واستمر الكتاب والشعراء فى رثائه وتعداد مآثره وقتا طويلا ، فلقد كان شابا نادر المثال تغمده الله برحمتـه الواسعة وأحسن جزاءه فى دار الخلود ..





محمد سرور الصبان

محمد سرور الصبان

طويل بائن الطول ، سمهرى القوام ، داكن البشرة ، عظيم الشفتين ، اقنى الأنف حلو النظرة ، حسن الخلق رقيق أنيق يرتدى العباءة العربية والعقال ، وهبه الله سماحة فى النفس واليد فكان من أكرم من عرفت من الرجال ، وكان يسع الناس ببذله وكرمه كما يسعهم بأخلاقه وحلمه حتى تبوأ مركز الزعامة بما بذل من نفسه وماله .

ولد الشيخ محمد سرور الصبان بمدينة جدة كما ورد فى ترجمته التى كتبها عن نفسه فى كتاب أدب الحجاز فى اواخر عام ١٣١٦ هجرية وتعلم فى مكة ثم فى مكتب صادق بمدينة جدة بعد ان هاجر والده الحاج سرور الصبان اليها حيث كان يدير اعمال اسرة الصبان ، وكانت يومها من اكبر البيوتات التجارية التى تخصصت فى تصدير الجلود ، وفى اوائل العهد السعودى كان موظفا بأمانة العاصمة بمكة المكرمة كما كانت له مكتبة لبيع الكتب يعمل فيها اخوه المرحوم الشيخ عبدالله سرور الصبان ، وفى السنوات الأولى من العهد السعودى استقدمه جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز الى الرياض وبقى بها بعض الوقت ثم عاد بمعية جلالته الى الحجاز وكانت قد اتصلت اسبابه باسباب المرحوم الشيخ

محمد الطويل فى الرياض وقد عادا معا الى الحجاز بمعية المغفور له الملك عبدالعزيز فأسند الشيخ محمد الطويل الى الشيخ محمد سرور ادارة شركة القناعة للسيارات بمكة المكرمة والتى كانت رئاستها للشيخ محمد الطويل كما ورد فى ترجمته المنشورة من قبل ·

وفى شركة القناعة للسيارات اتصلت أسبابى بأسباب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان فقد كان هو مديرا لإدارة الشركة بمكة المكرمة ، وكنت اعمل بإدارتها فى جدة ، وبعد ان اسندت الى الشيخ محمد الطويل رئاسة اموال وجمارك المنطقة الشرقية اصبح الشيخ محمد سرور هو القائم بادارة شركة القناعة فى جدة واصبحت اعمل معه جنبا الى جنب طيلة شهور الموسم ، وما لبث الشيخ محمد سرور ان أسس شركة خاصة للسيارات باسمه واسم اخوانه اطلق عليها اسم شركة الفلاح وأسندت ادارتها الى اخيه المرحوم الشيخ عوض سرور الصبان وكانت من اكبر شركات السيارات فى ذلك الزمان ـ هذه الشركات جميعها توحدت فيما بعد فى شركة واحدة هى الشركة العربية للسيارات ـ وفى النقابة الأولى للسيارات التى كان مركزها الرئيسى فى مكة المكرمة تجلت عبقرية الشيخ محمد سرور وظهرت مواهبه ، وكانت شؤون السيارات تهم الدولة اذ ذاك فوقع اختيار معالى المرحوم الشيخ عبدالله السليمان على الشيخ محمد سرور ليتولى ادارة قسم التحريرات فى وزارة المالية وللأيام الأولى التى باشر الشيخ محمد سرور فيها هذا العمل ظهر اثره وتبين تأثيره ، وكان معالى الشيخ عبدالله السليمان خبيرا بأقدار الرجال فما لبث ان اسند اليه منصب مدير عام وزارة المالية ، وكانت وزارة المالية اذ ذاك هى كل وزارات الدولة تقريبا فوزارة المالية هى التى تقوم بأعباء وزارات المالية والأشغال والحج والمواصلات والتجارة بينما كان ديوان النيابة العامة الذى كان يتولاه فى ذلك العهد سمو الامير فيصل نائب جلالة الملك فى الحجاز اذ

ذاك ـ جلالة الملك فيصل الاول فيما بعد ـ تتولى الإشراف على الداخلية والأمن العام والمعارف ومجلس الشورى وهيئات الامر بالمعروف والمحاكم الشرعية والبلديات ، وهكذا وجد الشيخ محمد سرور فى وزارة المالية المجال الرحب لإظهار مواهبه وقدراته فكان فى ذلك العهد ولسنوات طويلة من اكبر الرجال تأثيرا واعظمهم نفوذا فقد كان يستمد سلطاته القوية من اقوى رجل فى الدولة بعد ولى العهد والنائب العام ، وقد استطاع الشيخ محمد سرور ان يحسن العمل فى وزارة المالية فالتحق بها فى عهده صفوة المثقفين إذ ذاك فتحسنت لغة الكتابة فى الدواوين بعد ان عمل فيها ادباء معروفون كالاساتذة عبدالوهاب آشي ومحمد حسن فقي ومحمد حسن كتبي واحمد قنديل وكلهم كتاب وشعراء بارزون وكانوا جميعا يعملون بالتدريس فى مدارس الفلاح بمكة وجدة وبالمدارس الحكومية وكلهم تولى رئاسة تحرير صوت الحجاز فى وقت من الاوقات وللشيخ محمد سرور مأثرة أدبيه كبرى ينفرد بها حين يكتب التاريخ الأدبى للحجاز فقد كان اول من اصدر « كتاب ادب الحجاز وكتاب المعرض » ، وكتاب « خواطر مصرحة » للاستاذ محمد حسن عواد ، وكتاب ادب الحجاز بالذات كان اول مؤلف يضم شعر ادباء الحجاز فى الاربعينات من هذا القرن الهجرى كما كان اول صوت يسمع فى داخل المملكة وخارجها عن الأدب والأدباء وقد جاء هذا الكتاب بعد فترة من الركود والخمول منذ أواخر العهد التركى وخلال العهد الهاشمى فكان ظهور ادب الحجاز بشيرا بفجر النهضة الادبية فى الحجاز وهو على صغر حجمه لم يكن الا تعبيرا شديد الاختصار عن ولادة الادب الحديث فى هذه البلاد ولكن هذا التعبير جاء فى وقته فكان له صدى قوى فى داخل البلاد وبشارة حسنة لمن يترقبون الأحداث الادبية فى خارجها ، وكتاب ادب الحجاز هو كتاب شعرى بينما ان كتاب المعرض هو كتاب نثرى فاذا كان الاول يعبر عن الشعر الحديث اذ ذاك فى الحجاز فان

كتاب المعرض هو تعبير عن لغة الكتابة فى ذلك العهد ، اما كتاب « خواطر مصرحة » فهو من تأليف الاستاذ محمد حسن عواد وقد احدث فى حينه ضجة واسعة ، ومهما كان الرأى فيه فلقد كان حدثا قويا وجريئا فى حينه ، وللشيخ محمد سرور الى جانب هذه المأثرة الأدبية الاولى مآثر كثيرة فقد طبع ونشر على نفقته كتبا كثيرة جليلة منها كتاب تفسير معانى كلمات القرآن للشيخ محمد حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية وكتاب العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين للفاسي[1] وغيرها من الكتب المفيده الجليلة وكانت هذه الكتب تطبع وتوزع على نفقته بغير مقابل جزاه الله خير الجزاء ، كما أن الشيخ محمد سرور كان مؤسس ورئيس الشركة العربية للطبع والنشر التى اشترت جريدة ومطبعة صوت الحجاز من صاحبها المرحوم الشيخ محمد صالح نصيف وقد كان الشيخ محمد صالح نصيف من اوائل السباقين الى نشر الصحف فقد كان يصدر جريدة بريد الحجاز فى جدة فى اواخر العهد الهاشمى ثم اصدر جريدة صوت الحجاز بمكة فى الخمسينات من هذا القرن الهجرى وكانت جريدة صوت الحجاز اول جريدة وطنية فى المملكة بعد جريدة ام القرى الرسمية وكانت فى حينها حدثا عظيما لأنها كانت مجالا لأراء الكتاب والمفكرين من الرعيل الأول وكانت محل اهتمام كبير على جميع المستويات وهى تصدر الآن باسم جريدة البلاد ، نعود بعد هذا الاستطراد لنواصل الحديث عن المرحوم الشيخ محمد سرور بعد توليه منصب مدير عام وزارة المالية ، وقد كانت هذه الوزارة كما اسلفنا فى ذلك العهد قطب الأعمال ومركز الآمال فالتجار كل التجار يتعاملون معها ، اذ كانت تتولى كافة شؤون الدولة المالية والانشائية والصناعية ، وكانت الوظائف مرتبطة بها والصرف والقبض من اهم اختصاصاتها

(١) وكتاب الصحاح للجوهرى بتحقيق الأساتذة أحمد عبدالغفور عطار وعبدالسلام هارون وكتاب جواهر العقود ومدارج السالكين وشذرات البلاتين وكتاب الانصاف فى الفقه وهو فى أحد عشر مجلدا وديوان شاعر العرب الكبير فؤاد الخطيب .

وبهذا اصبح الشيخ محمد سرور مقصدا للناس يقصدون اليه فى قضاء امورهم فلم يكن يخيب لهم املا ولا يرد لهم مطلبا ما وسعه ذلك ولهذا كان يجلس الى الناس بعد عصر كل يوم يستقبلهم ويستمع اليهم ويحاول قضاء مطلبهم ، وكان هذا المجلس يمتد حتى صدر الليل ، ولم يكن يعتريه سأم او برم فقد وهبه الله نفسا سمحة وخلقا كريما فكان يهب من يهب ويقرض من يقرض ويعين من يعين كل هذا فى صمت عجيب وتواضع جم ولقد عملت الى جانبه تسع سنوات رأيت فيها العجب من احسانه وحلمه وكثيرا ما انقذ تجارة منهارة او قضى دين كريم وكثيرا ما أقال العثرات وكان يعطى عطاء من لايخشى الفقر وكثيرا ما اشفقت عليه مما أرى فكنت ألفت نظره بلطف إلى ما يفعل ولكن أنّى للسيل العارم أن يرتد فقد جبله الله على الكرم والسخاء •

وكانت للشيخ محمد سرور مطامح اقتصادية واسعه فكان اول رئيس للعديد من المؤسسات والشركات الوطنيه مثل مشروع القرش ، الشركة العربيه للتوفير والاقتصاد ، الشركة العربية للصادرات ، الشركة العربية للطبع والنشر ، الشركة العربيه للسيارات ، شركة ملح وكهرباء جيزان ، شركة الزهراء للعمارة ، شركة مصحف مكة ، وللأسف فإنه لم يبق من هذه الشركات جميعا سوى الشركة العربية للسيارات وشركة مصحف مكة ، اما الشركات الاخرى فقد انتهت تماما ولعل الشيخ محمد سرور كان يتخذ من زعيم مصر الاقتصادى المرحوم طلعت حرب مثالا يحتذى فى تأسيس هذه الشركات ، والواقع ان البعض من هذه الشركات تعرض للصعوبات والمتاعب والبعض كانت تنقصه المهارة الإدارية والخبرة والكل كان فى حاجة الى التطوير والتمشى مع متغيرات العصر ، ولعله مما يؤخذ على الشيخ محمد سرور انه لم يكن يشرك الجمعيات العمومية للشركات فى دراسة ما تتعرض له هذه الشركات من مشاكل لتكون القرارات المتخذة قرارات جماعية وليكون المساهمون على علم بتطورات الأمور فى شركاتهم وهكذا انتهت هذه الشركات إلى الانقراض والفناء •

والواقع ان الشيخ محمد سرور يتصرف بمثل هذا فى شؤونه الخاصة وكان رجلا واسع الخيال كبير الأحلام ، وكانت هذه الصفات فيه مدعاة لاستغلاله من كثير من الناس فكان كل من تقدم له بمشروع وطلب منه المشاركة فيه استجاب إليه فأمده بالمال شراكة أو قرضا، وكثير من هذه المشروعات كان ظاهر التهافت ولم يبن على دراسة كما ان الكثير من اصحاب هذه المشاريع لم يكن التعامل معهم موحيا بالثقة والاطمئنان • كان البعض يفكر فى مشروع يصوره له خياله ويأتى الينا فى دار الشيخ محمد سرور وهو نفسه غير متأكد من صحة تفكيره او من نجاح مشروعه فما هى الا ساعة او بعض ساعة يجلس فيها الى الشيخ محمد سرور حتى يخرج والبشر يطفح من وجهه والأمل يملأ جوانحه فقد وجد من الشيخ وتعضيده ما يحمله على الظن بأنه عبقرى الدهر وواحد الزمان ويأخذ دفعة من المال يبدأ بها الخطوات الأولى لمشروعه العتيد وتمضى الأسابيع والشهور واذا بهمة الشيخ تفتر عن السير مع احلام الرجل ولكنه لايصارحه بشيء وتبدأ الأمور فى التعقيد وينقلب اعجاب الرجل بالشيخ محمد سرور وثناؤه عليه الى نقد صارخ فيسبق إلى ذهنه انه اساء إليه وأوقعه فى ورطة ولا يجد الشيخ محمد سرور مفرا من تفادى المشكلة إلا بالتنازل عما دفع من مال بفدية أخرى يفتدى نفسه مما كان ، وكان من الممكن تفادى كل هذا الحرج وكل هذه الخسارة بصرف الرجل من البداية صرفا حسنا أو بالاعتذار المؤدب عن الدخول فى هذه المشاريع . والواقع أنى لست أدرى حتى الآن وبعد معايشتى للشيخ محمد سرور السنين الطوال هل هو حب المجاملة للناس ، أو الطموح الكبير هو الذى كان يدفع الشيخ محمد سرور إلى مثل هذه المواقف أو انهما الصفتان معا كانتا الدافع إلى مثل هذه الأمور ، وأستطيع أن أضيف إلى صفات الشيخ محمد سرور رحمه الله انه كان كثير الحياء كاتما لأسرار الناس ، وكانت هذه الصفات فيه تمنعه من

مصارحتهم بما يكرهون ، وبالاسراف فى مجاملتهم وملاطفتهم . كما أن كتمانه لأسرار الناس كان يمنعه من تقصى أحوالهم والواقع أن هناك فرقا بين كتمان أسرار الناس وبين التقصى فيا يجب التقصى فيه خاصة فى الأمور الاقتصادية . وقد جاء وقت أصبح فيه الكثير من الناس يدعون انهم شركاء للشيخ محمد سرور فيا يقومون به من أعمال ومشاريع ، والكثير من هؤلاء الناس لايستحقون أن يقرن اسمهم إلى اسمه ، فشتان بين مشرق ومغرب وقد انتهت هذه المشاركات كلها إلى التلاشي وفقد الشيخ محمد سرور رحمه الله أموالا طائلة فيها نتيجة لعدم التقصى عن أحوال هؤلاء الناس وعدم التروى فى الدخول معهم فى أى مشروع .

وكان الشيخ محمد سرور رحمه الله يقرض الكثيرين المال الكثير فلما ظهرت حاجته اليه وبدأ يطالب الناس به لم يجد منه الا القليل او اقل القليل ، وقد شكا لى فى آخر حياته من بعض الناس الذين كان اقراضه لهم بمثابة انقاذ من الهاوية وستر من الفضائح وكنت اعرف سلفا ان هذا سيحدث وحينما كنت مديرا لأعماله من عام ١٣٥٥ هـ ـ ١٣٦٤ هـ كنت انبهه الى شيء من ذلك ولكن ما جبل عليه من حب للخير وإسداء للمعروف جعله يندفع فى الطريق الذى يسير فيه .

هذا وقد بقى الشيخ محمد سرور فى منصبه مديرا عاما لوزارة المالية وتقلبت به الايام فى هذا المنصب علوا وسفلا فاذا كان الرضا عنه كانت له السلطة والتصرف ، واذا أُغْضِى عنه وحل محله من ينال ثقة الوزير الشيخ عبدالله السليمان بقى مجمدا فى منصبه او سافر الى الخارج ينتظر تغير الاحداث .

وبعد تولى الملك سعود العرش خلفا لجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز واستقالة الشيخ عبدالله السليمان الحمدان من وزارة المالية عين الشيخ محمد سرور وزيرا لها فى اول وزارة رسمية يرأسها جلالة المغفور له الملك فيصل ، وكان

الانفاق الضخم الذى صاحب بداية عهد الملك سعود فى ولاية الشيخ محمد سرور لوزارة المالية سببا فى الازمة المالية التى حدثت فى ذلك الوقت ، وارتفاع اسعار العملات الاجنبية مع ان تسعين فى المائة من واردات الدولة كان من العملات الاجنبية ولم يتمكن الشيخ محمد سرور من معالجة الوضع لأن العلاج كان يقضى حزما وسيطرة كاملتين على النفقات وخاصة فيما يتعلق بالعملات الاجنبية وهذا هو الذى قام به جلالة المغفور له الملك فيصل شخصيا فما هو إلا عام او بعض عام حتى استقرت الأمور وتحدد الصرف وتوازنت الميزانية ، وكان الشيخ محمد سرور اذ ذاك قد سافر الى اوربا فى رحلة للعلاج ولكنه أقيل من منصبه قبل عودته الى المملكة بسبب هذه الأحداث وبقى الشيخ محمد سرور فى مصر فترة طويلة من الزمن حتى استدعاه جلالة المغفور له الملك فيصل للعودة الى البلاد .

وخلال اقامة الشيخ محمد سرور فى القاهرة كانت داره مفتوحة للناس ويده مبسوطة اليهم بالإنفاق الكثير فكان يبعث المرضى على نفقته الى المستشفيات ويعين العائلات الكثيرة المهاجرة فى مصر ممن يحتاجون الى العون ، وقد شمل كرمه الكثير من أحرار العرب المقيمين بالقاهرة وبيروت والذين شردتهم الأحداث السياسية عن بلادهم وهكذا كان المرحوم الشيخ محمد سرور كالغيث يعم نفعه اينما حل ويصل خيره الى الكثيرين فى صمت وتواضع وحياء .

وبعد عودة الشيخ محمد سرور الصبان اسندت اليه الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامى حين تأسيسها فكانت ولايته لها خير استهلال للأمانة الوليدة وبمهارته وحذقه استطاع ان يخلق من الرابطة على قلة مواردها اذ ذاك كيانا كبيرا ضخما ، وقد ساعد تأييد جلالة المغفور له الملك فيصل للرابطة على انجاحها ، كما ساعدت علاقات الشيخ محمد سرور الصبان الكبيرة والمتشعبة بالكثيرين من رجالات العالم الإسلامى على ترسيخ قواعد الرابطة وامتداد تأثيرها وللتاريخ

فإن كلا من معالى الشيخ محمد سرور الصبان ومعالى الشيخ صالح قزاز كانا يعملان فى الرابطة دون، مقابل منذ بدء تأسيسها وحتى وفاة الشيخ محمد سرور رحمه الله وهو امينها العام ، وكذلك حتى استقالة الشيخ صالح قزاز بعد ذلك من أمانتها العامة بعد اسنادها اليه اذ كان الامين العام المساعد منذ بداية التأسيس وتوفى الشيخ محمد سرور رحمه الله بالقاهرة بتاريخ الثانى من ذى الحجة ١٣٩١ هـ اثر نوبة قلبية وكان يشكو فى السنوات الأخيره من عمره من لغط فى القلب وقد نصحه الأطباء فى بريطانيا باجراء عملية عاجلة ولكنه فضل التأجيل والتريث وكانت رنة حزن كبيرة لدى جميع عارفيه ومحبيه فى شتى البلاد الاسلامية والعربية وفى وطنه خاصة وارسلت الدولة طائرة خاصة لنقل جثمانه من القاهرة حيث صلى عليه فى المسجد الحرام ودفن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة فى الثالث من ذى الحجة سنة ١٣٩١ هـ واشترك فى استقبال جثمانه وتشييعه كثير من الأمراء والأعيان والجموع الشعبية الكثيرة التى كانت تدين له بالحب والولاء ·

رحمه الله رحمة واسعة وأحسن جزاءه فى جنات الخلود فقد كان رجلا محبا للخير مقيلا للعثرات ساترا للعورات ·

مكتبة الشيخ محمد سرور الصبان

هذا وقد ترك المرحوم الشيخ محمد سرور مكتبة قيمة تعد من أحسن المكتبات الخاصه فى مكة المكرمة وهى تحتوى على كثير من أمهات كتب المطبوعة وبعضها مخطوط ولعل أبناءه الاساتذة الاخوة عبدالرحمن وعبدالبارى وسعدا يهتمون بها او يضمونها الى احدى المكتبات العامة لينتفع بها الراغبون.

فى الحلقة الخاصة بترجمة معالى الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله ضمن تراجم اعلام القرن الرابع عشر ذكرت ان لديه مكتبة ، تعتبر من اكبر المكتبات

الخاصة فى الوقت الحاضر وانها تحتوى على مجموعة ثمينة من الكتب الى جانب المخطوطات القيمة التى تضمها المكتبة وتمنيت على ابنائه السادة الاخوة عبدالرحمن وعبدالبارى وسعد ان يعملوا على اتاحة الفرصة للانتفاع بما تضمه هذه المكتبة بإهدائها الى جامعة الملك عبدالعزيز ولقد تلقيت خطابا من سعادة الاخ الشيخ عبدالرحمن سرور يذكر فيه أن المكتبة قد سبق ان قدمت من قبلهم الى جامعة الملك عبدالعزيز بتاريخ ١٣٩٧/٧/١٩ هـ وارفق بخطابه صورة من محضر الاستلام والتسلم وهو يضم خمسة آلاف ومائة وستة وسبعين كتابا منها مائتان وثلاثة مخطوطات وقد رأيت إكمالا لترجمة معاليه ان انوه بهذا العمل الطيب الذى قام به ابناء المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ولاشك انهم حققوا بهذا رغبة من أهم رغبات والدهم الكريم كما انهم ساروا فى هذا العمل على النهج الطيب الذى اتسمت به حياته وأعماله جزاهم الله خير الجزاء ووفق الجميع الى مافيه الخير .. ويسرنى أن أثبت هنا صورة من المحضر الذى تم به استلام هذه المكتبة من قبل مندوب الجامعة وهو بتاريخ ١٣٩٧/٧/١٩ هـ

محضر استلام وتسلم

إنه فى يوم الثلاثاء الموافق ١٣٩٧/٧/١٩ هـ تحرر هذا المحضر بين الأستاذ عبدالحميد فهمى اسماعيل مندوبا عن ورثة المرحوم معالى الشيخ محمد سرور الصبان .. والاستاذ حلمى عيد العزب مندوبا عن جامعة الملك عبدالعزيز بمكة المكرمة عن سعادة مدير عام المكتبة المركزية للجامعة وذلك لتقرير استلام السيد مندوب الجامعة لكافة الكتب المخطوطة والمطبوعة والمصورة وغيرها والتى قام

بجمعها المغفور له طيب الذكر معالى الشيخ محمد سرور الصبان وكانت بمكتبة معاليه بأم الدرج بمكة المكرمة وأهداها المكرمون ورثة معاليه للجامعة تحقيقا للنفع العام لطلبة وأساتذة الجامعة والناطقين بالضاد بما احتوت عليه فى شتى العلوم والمعارف ، وهى تراث من أمجاد العرب لتحفظه الأجيال عبر السنين ٠

وقام السيد مندوب ورثة المغفور له معالى الشيخ بتسليم تلك المجموعة من الكتب طبقا للكشوف التى أعدت ووقعت للسيد مندوب الجامعة تنفيذا للاهداء بادىء الاشارة اليه

وبيان تلك المجموعات والكتب حسب الكشوف مع ملاحظة أن الكتب مرقمة على أساس العناوين وبعض العناوين يشمل أكثر من نسخة طبقا لما هو مقيد بالكشوف وبيانها كالآتى :

١ ـ دوائر المعارف من ١ إلى ٢
٢ ـ القرآن وعلومه من ١ إلى ١٩٢
٣ ـ الحديث وعلومه من ١ إلى ٢٤٦
٤ ـ الفقه وأصوله من ١ إلى ٦٢٣
٥ ـ الاسلاميات من ١ إلى ٨٠٦
٦ ـ اللغة العربية من ١ الى ٢٣٢
٧ ـ الأدب من ١ الى ٦٠٦
٨ ـ التاريخ والتراجم من ١ الى ٨٥١
٩ ـ المتفرقات من ١ الى ١٢٢٥
١٠ـ مجموعة كتب الرابطة من ١ الى ٢٧
١١ـ المخطوطات من ١ الى ٢٠٣

١٢ـ المصورات من ١ الى ١١

١٣ـ كتب قديمة مطبوعة من ١ الى ١١

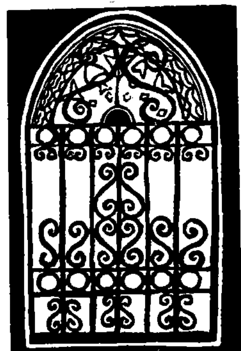
١٤ـ الدوريات من رقم ١ الى ١٤١

وبعد مراجعة الكشوف مع مصادرها بمعرفة مندوب المكرمين ورثة معالى الشيخ قد نقلت تلك المجموعات والكتب بواسطة السيد مندوب الجامعة ومعاونيه الى مقر الجامعة بمكة المكرمة على أن يتم اعادة فرزها وختمها بخاتم خاص وحفظها بمكتبة الجامعة ٠



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





الشيخ محمد صالح ابوزنادة

الشيخ محمد صالح أبوزنادة

متوسط القامة ممتلىء الجسم واسع العينين تشوب بياضه حمرة خفيفة يطلق لحيته وعارضيه ، كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية فى العهد الهاشمى وأوائل العهد السعودى ثم أصبح يرتدى العباءة العربية والغترة البيضاء دون عقال ٠

ولد الشيخ محمد صالح ابوزنادة بمدينة جدة عام ١٣١٤ هـ وتلقى تعليمه فى مكتب صادق ومكتب صادق هذا يعتبر هو أول تطوير فى الدراسة من الكتّاب الى المدرسة النظامية وفيه تعلم الشيخ محمد سرور الصبان وكثير من رجالات جدة الذين ولدوا فى الربع الأول من القرن الرابع عشر ، وفى مطلع شبابه عمل كاتبا للحسابات فى بيت آل عاشور التجارى وهذا البيت كان فى عهده من أجمل بيوت جدة ولايزال من أجمل وأفخم البيوت القديمة فى جدة وهو فى امتداد شارع قابل بجوار مسجد المعمار وقد بناه آل الصبان فى اوائل القرن الثالث عشر وهو قريب من قصر نصيف المشهور بجدة ولعله بنى تقليدا لهذا القصر أو محاولة لتقليده فى ذلك الزمان والقصر الآخر الذى يشبه قصر نصيف هو قصر آل الجوخدار فى حارة اليمن بناه الشيخ محمد نور جوخدار رئيس وكلاء مشايخ الجاوه فى جدة نقول إن منزل آل عاشور هذا آل اليهم بالشراء من آل الصبان وكان آل

الصبان من أكبر تجار الجلود فى مكة وجدة وقد أدركتهم وهم يجمعون جلود الذبائح ويدبغونها دباغة ابتدائية ثم يصدرونها للبيع فى أسواق عدن ، وكان لهم بيت كبير فى مكة وآخر فى القنفذة وكان الحاج سرور الصبان والد معالى الشيخ محمد سرور الصبان رحمهم الله يدير بيتهم التجارى فى القنفذة ثم فى جدة وحينما باع ابن الصبان الكبير هذا المنزل فى جدة استعاده الحاج سرور لملكية ابناء الصبان ولكنهم باعوه مرة اخرى الى آل عاشور وهذا البيت لايزال موجودا وقد باعه ورثة عاشور الى احد قدماء التجار الهنود فى جدة ولايزال البيت يعتبر من أجمل البيوت التى تمثل فن البناء القديم محتفظا بجماله وهندسته وقوته كأجمل ما يكون عليه البناء مع أنه مضى عليه ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن أو أكثر ، نعود بعد هذا الاستطراد الى الشيخ محمد صالح أبوزنادة لنقول انه عمل فى مطلع حياته كاتبا فى بيت آل عاشور التجارى ثم انتقل للعمل فى بيت الشيخ ابراهيم الفضل فى جدة ثم انتدب للعمل فى مدينة بومباى وكان للشيخ ابراهيم الفضل بيت تجارى كبير فى جدة وآخر فى مدينة بومباى وكان أحد كبار التجار العرب فى الهند ، وكان يعمل فى تجارة اللؤلؤ كما علمت من ابن شقيقته وزوج ابنته المرحوم الشيخ ابراهيم السليمان بن عقيل السفير السعودى الأسبق فى القاهرة ، ثم عاد إلى جدة بعد ذلك مع بداية تأسيس أول شركة للسيارات فى العهد السعودى فعين مديرا لها بجدة وكان الشيخ محمد صالح قد افتتح كذلك عمله التجارى الخاص الى جانب عمله فى ادارة الشركة السعودية للسيارات وكان يعمل فى استيراد الارزاق كالدخن والشعير من موانىء جيزان والقنفذة وموانىء اليمن الأخرى ، ولم تستمر الشركة السعودية للسيارات وقتا طويلا بعد تعرضها للمشاكل الكثيرة فانحلت ولكن الشيخ محمد صالح أبوزنادة أنشأ لنفسه شركة خاصة للسيارات وأطلق عليها اسم شركة (قاصد كريم) ثم أصبح عضوا فى نقابة السيارات الأولى

بجدة حين تأليفها وحين توحيد شركات السيارات جميعها فى شركة واحدة اختير الشيخ محمد صالح أبوزنادة مديرا لفرع الشركة الموحدة فى جدة والتى أطلق عليها اسم (الشركة العربية للسيارات) كما انتخب عضوا بمجلس إدارة الشركة لسنوات طويلة ولعله من المستحسن أن نذكر الآن طرفا من تاريخ دخول السيارات الى البلاد والمشاكل الكثيرة التى تعرض لها كثير من المشتغلين بها وكيف تطور الامر الى الوضع الحاضر ٠

لقد ذكرنا فى حلقات سابقة ان السيارات كانت ممنوعة منعا باتا فى العهد الهاشمى اذ أن الملك الشريف الحسين بن على كان يعتبر ان هذه السيارات تهدد اقتصاد البلاد وتنزح ثروتها الى الخارج على اعتبار ان السيارات صناعة أجنبية وتحتاج فى تشغيلها من وقود وصيانة الى مستوردات اجنبية كقطع الغيار والبنزين والزيوت والإطارات وما اليها كما انها ستحتاج فى قيادتها وصيانتها الى القوى البشرية الأجنبية ولهذا فهو يعتبر أن الجمل هو الوسيلة الاقتصادية المثلى للبلاد فى ذلك الزمان فهو حيوان وطنى والجمال الذى يقوده وطنى كذلك وصناعة الشقادف (الهوادج) التى كانت تنقلها الجمال صناعة وطنية تعمل فيها ايد وطنية كثيرة وهو يضمن للبادية وهى تمثل السواد الأعظم من الشعب وسيلة ارتزاق يجب إلا تحرم منها ، هذه هى الأفكار التى كانت لدى الشريف الحسين والتى بسببها منعت السيارات من دخول البلاد فلما انتهى العهد الهاشمى كان رأى جلالة الملك عبدالعزيز هو الأخذ بمبدأ التطور ومسايرة العصر خصوصا وأن المملكة واسعة الرقعة كبيرة المساحات وهذا هو التفكير الصحيح بطبيعة الحال فسمحت الحكومة باستيراد السيارات وأسست لذلك الشركة السعودية للسيارات كما ذكرنا برئاسة الشيخ سليمان قابل فى جدة كما قامت الحكومة بتأسيس عدة شركات باسمها لأغراض النقل الحكومى ثم ساهمت فى نقل الحجاج كذلك ، وانطلق

الناس من كل حدب وصوب يشترون السيارات وكان محل جلاتلى هنكى وشركاه الانجليزى فى جدة يجمع كل وكالات السيارات تقريبا باستثناء الفورد فقد كان وكيلا لشركة جنرال موتورز لسياراتها المختلفة كما كان وكيلا لشركة دودج وهى من انتاج شركة كريزلر اما شركة فورد فقد كان وكيلها المستشرق الانجليزى المسلم سانت جون فيلبى والذى سمى نفسه فيما بعد عبدالله فيلبى وبعد فترة من الزمن اصدر جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله امرا با ـصار دخول السيارات على شركة فورد والكفرات على ماركة قوديير التى كان وكيلها فيلبى المذكور والتى أسس لها شركة تجارية باسم الشركة الشرقية ويبدو ان جلالته رأى السيارات الاخرى ولا وكلاء رسميون لها يعانى مشتروها من نقص قطع الغيار واقنعه عبدالله فيلبى بقصر الاستيراد على شركة فورد المهم ان هذا الامتياز بقى لشركة فورد ولكفرات قوديير بضع سنوات الى ان طلب المسؤولون فى الشركة العربية للسيارات الغاءه محتجين باستغلال الشركة الشرقية لهذا الامتياز فوافق جلالته على ذلك فى الحال وأصبح الاستيراد مسموحا به لجميع انواع السيارات والاطارات بلا استثناء ·

ان اقبال الناس على شراء السيارات دون سابق خبرة بإدارتها وصيانتها قد حدثت عنه مشاكل من عدة جهات الأولى هى استقدام اعداد كبيرة من السائقين والميكانيكيين من مهندسين وسائقين وعمال صيانة من السودان والهند وعدن وكانت تصرف لهم المرتبات الضخمة بطبيعة الحال لأنهم تركوا أوطانهم وأهليهم فكان لابد من تقديم الاغراءات الكبيرة لهم ، وكانت هذه السيارات محتاجة الى قطع الغيار التى لم تكن متوفرة فى البداية بالشكل الكامل ، كما ان البلاد لم تكن قد عرفت الطرق المزفتة او المعبدة فكانت السيارة الجيدة تقطع طريق مكة جدة فى ساعتين وكثيرا ما تتعرض للتعطيل فى الرمال المتحركة فى

منطقة الحديبية وكانت تسمى فى ذلك الزمان ـ زقاق حدة ـ حيث كانت السيارات تغرز فى هذه المنطقة وهى منطقة رمال متحركة ويقضى السائق والمسافرون ساعات فى اخراجها من الرمال ودفعها الى منطقة صلبة ، اما طريق المدينة المنورة فكانت السيارة الجيدة تقطعه فى يومين كاملين اذا لم تتعطل فى الشفيا وآبار ابن حصانى أو سبخة رابغ ولكن الاجور التى كانت مقررة على الحجاج كانت مغرية اذ كانت الأجرة تبلغ خمسة عشر جنيها ذهبا لنقل الحاج إلى المدينة المنورة وإعادته الى مكة وكان المطوفون يتولون التعاقد مع اصحاب السيارات سواء أكانوا أفرادا ام شركات ولكثرة التنافس بين أصحاب السيارات انخفضت الاجرة او تأجل استلامها الى ما بعد الموسم وقد لاتدفع كلها أو بعضها فيا بعد فأصبحت العملية خاسرة تماما وفقد كثير ممن أقدموا على هذا العمل ثرواتهم والبعض باع عقاره أو مجوهرات عائلته ليضعها فى السيارات ، وحينا تفاقم الامر اضطرت الحكومة للتدخل فأسست النقابة العامة الأولى للسيارات وجرى تحديد الأجور بمعرفة الدولة كما ان نظام النقابة كان ينص على ان تكون شركة السيارات مكونة من عشرين سيارة كبيرة كحد ادنى وان يتم دفع الاجور فى النقابة التى تتولى هى احالة الحجاج على الشركات حسب تعداد مقاعد كل شركة وكانت هذه البداية هى اول عمل تنظيمى جيد لشركات السيارات وكان هذا فى النصف الثانى من الاربعينات وأوائل الخمسينات ثم رأت الدولة ان المصلحة تقضى بتوحيد الشركات جميعها فى شركة واحدة فتم ذلك بعد جهود مضنية وتألفت الشركة العربية للسيارات وأصبحت صاحبة امتياز النقل للحجاج والبريد لسنوات طويلة وحينا تعرضت الشركة للمتاعب وعجزت عن نقل الحجاج مما اضطر الحكومة الى التدخل سنويا لانقاذ الحجاج فى عرفات ومزدلفة ومنى أصدرت الدولة فى عام ١٣٧٢ هـ قرارا بالسماح للسعوديين أفرادا

وشركات بالاشتراك فى نقل الحجاج وحددت العدد الأدنى للشركة بمائة سيارة كحد أدنى وعلى أثر ذلك تأسست الشركات الحالية للسيارات ولاتزال تقوم بعملها فى نقل الحجاج حتى الآن ٠

مُستشفى أبوزناده

نعود بعد هذا الاستطراد الى الشيخ محمد صالح ابوزناده فنقول ان للرجل مبادرات تلفت النظر فلقد كان من اوائل الذين قاموا بتأسيس المستشفيات بمدينة جدة وان كان هذا المستشفى لم يستمر طويل وقت فلقد قام الشيخ محمد صالح ابوزناده فى عام ١٣٧٠ هـ بتأسيس مستشفى خاص فى شارع الملك عبدالعزيز مما يلى باب شريف وكان قد قام بانشاء بنايات فى هذا الشارع وتم افتتاح المستشفى بالفعل وكان يديره اطباء المان ولكن هذا المستشفى كما ذكرت لم يستمر طويل وقت بسبب اختلاف الشيخ محمد صالح أبوزنادة مع بعض شركائه على ادارة المستشفى فتحول الى فندق بعد ان استمر اربعة اعوام وافتتح فيه اول فندق باسم فندق الحرمين الذى اسسه السيد حسين العطاس ولايزال هذا المبنى مستعملا كفندق بهذا الاسم حتى اليوم هو والمبنى الصغير المجاور له ٠

كهرباء وَثلج أبوزنادة

وكما قام الشيخ محمد صالح ابوزناده بانشاء المستشفى فى عام ١٣٧٠ هـ قام فى عام ١٣٦٠ هـ باستيراد مكينة كهربائية وأسس لها مبنى فى شارع الملك عبدالعزيز بجوار بنك الرياض حاليا وكانت هذه المكينة تمد الشارع كله

بالكهرباء ثم امتدت الى شوارع اخرى ، كما انه اسس فى هذا المبنى مصنعا للثلج وورشة كهربائية وكان الشيخ محمد صالح ابوزناده ينفذ هذه المشـاريع بأيدى الايطاليين الذين هاجروا من أريتريا خلال الحرب العالمية الثانية الى جدة واتصلت أسبابهم بأسبابه فاستفاد الرجل بفكره الثاقب من خبرتهـم فى تنفيذ الأعمال الجديدة التى أقدم عليها وقد استمرت كهرباء أبوزنادة فى العمل الى أن تأسست كهرباء جدة وحصلت على امتياز الإنارة فى مدينة جدة كلها فاضطر الشيخ محمد صالح أبوزنادة الى ايقاف العمل فى الانارة ويبدو انه كذلك أوقف العمل فى مصنع الثلج والورشة الكهربائية بعد ذلك ، على أى حال ان اقامة مشروع للكهرباء ولو كان صغيرا يعتبر فى ذلك الزمن مبادرة لها مدلولها فالبلد كانت محرومة من الانارة الكهربائية وكان الإقدام على مشروع كهذا له معوقاته الكثيرة وفى مقدمتها المعوقات الفنية ان صح هذا التعبير وكذلك المعوقات المالية فالتجار العاديون يرغبون فى استثمار أموالهم فى بضائع يقومـون هم بتوريدهـا وبيعها ، ويتركون المشاريع الصناعية كالإنارة وما شابهها للدولة او للشركات التى تؤلفها الدولة وهكذا كان بالفعل فبالنسبة لكهرباء جدة فان وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان كلف شركة بكتل الامريكية بالقيام بالمشروع الابتدائى لكهرباء جدة تم تحول الى شركة مساهمة وتسلمه مجلس ادارة سعودى وبالنسبة لكهرباء مكة فحينما تقدم آل الجفالى الى جلالة الملك عبدالعزيز بطلب الامتياز للمشروع كان جلالته يشفق عليهم من تبعاته ومشاكله ولكنهم أقدمـوا عليه بحماس الشباب فكان لهم ما أرادوا .. ان الغرض من ذكر هذا كله ان الاقدام على مثل هذه الاعمال قبل اربعين عاما او اكثر كان يدخل فى باب المجازفات

اكثر منه فى باب الأعمال المربحة ، والشيخ محمد صالح ابوزناده افاد من الربح فيما أقدم عليه من مشروع الانارة وفى غيره من المشروعات دون شك ولكنه كان فى زمنه كالرائد الذى يكتشف الطريق وهذه البادرات وأمثالها هى عندى موضع التقدير لأنها تدل على الشجاعة وبعد النظر وكان عمل الشيخ محمد صالح أبوزنادة وأمثاله يكون كاملا لو انه حول مشروعه الصغير الى مشروع كبير بعد ان رأى كثرة الاقبال عليه وبوادر النجاح تلوح امامه فلو انه استعان بالجهات الفنية المتخصصة فى الخارج وألف شركة للإنارة وتقدم بها الى الدولة فى ذلك الزمن لكان السابق ولبقيت له كهرباء جدة كما فعل آل الجفالى وقد أصبحوا عنصرا هاما فى اغلب شركات الكهرباء التى تأسست بعد ذلك .

صندوق البر

وللشيخ محمد صالح ابو زناده مساهمات اخرى فى سبيل المصلحة العامة فحين تأسيس صندوق البر فى جدة عام ٨٣ هـ كان الشيخ محمد صالح ابوزناده من المؤسسين له وقد تولى رئاسته العملية منذ تأسيسه حتى وفاته وصندوق البر فكرة انسانية جليلة وهى تقوم على دعوة القادرين للاشتراك فى هذا الصندوق بمبالغ سنوية او شهرية يتم توزيعها على العائلات الكريمة التى فقدت عائلها وأصبحت فى حاجة الى ما يقيم الأود وهم فى نفس الوقت من كرام الناس الذين تحسبهم اغنياء من التعفف فيقوم الصندوق بإيصال مرتبات شهرية اليهم ولايزال صندوق البر يعمل منذ بدء تأسيسه حتى الآن وقد علمت ان عدد المستفيدين منه يبلغ خمسمائة وخمسين اسرة وفرداً وأن المبالغ التى تدفع لهؤلاء المستفيدين تبلغ حوالى الثلاثمائة وستين ألف ريال فى كل عام وهو مبلغ زهيد فى هذا الوقت الذى أشتد فيه الغلاء وفاض فيه المال فهو بحاجة الى دعم القادرين من زكاة أموالهم

لتنفق فى وجوهها الصحيحة بواسطة رجال خيرين موثوق بأمانتهم وعلمهم بأمور الناس ·

أبوزنادة مندوب جدة

أخبرنى الأستاذ عبدالرؤوف أبوزنادة ان والده الشيخ محمد صالح توجه لمقابلة الملك عبدالعزيز فى مكة قبيل تسليم مدينة جدة وقال لى ان الرجل الذى رافق والده فى هذه الرحلة لايزال حيا يرزق ، وبالفعل فقد بعث إلى المرافق المذكور وبعد أن استمعت منه إلى قصة هذه الرحلة رجعت إلى كتاب ماضى الحجاز وحاضره للمرحوم الأستاذ حسين محمد نصيف فوجدت فى الصفحة ٢٠٢ ، ٢٠٣ ما أورده المؤلف عن تسليم جدة انه تم بواسطة نائب معتمد وقنصل بريطانيا العظمى المستر جوردن بناء على طلب الملك الشريف على بن الحسين ، ووجدت فى هامش الصفحة ما نصه « سمع البعض من الأهالى عن وساطة القنصل الانجليزى فى الأمر فأبوْا ذلك وذهبوالدار الملك على واحتجوا وطلبوا أن يسلمهم البلاد وهم يسلمونها لابن السعود ولا دخل ولا وساطة لأجنبى فى بلادنا فوعدهم وأخلف - انتهى مانقلناه - من كتاب ماضى الحجاز وحاضره وقد استنتجت من ذلك أن أهالى جدة حينما علموا بأمر الاتفاق على التسليم لم يعجبهم ان يتم التسليم بوساطة القنصل الانجليزى فاختاروا ارسال الشيخ محمد صالح ابوزناده لمقابلة الملك عبدالعزيز فى مكة ويعود هذا الاختيار أولا الى ما يتمتع به الرجل من إتزان وتعقل وثانيا الى انه كان وكيل محل الشيخ ابراهيم الفضل التجارى فى جدة وصلته بآل الفضل قديمة كما ورد فى مقدمة ترجمته وقد التحق آل الفضل بالملك عبدالعزيز فى مكة من حين فتح الملك عبدالعزيز لها

وباعتبارهم من كبار النجديين المقيمين فى الحجاز والمطلعين على الأمور فيها فقد كانت صلتهم بالملك عبدالعزيز قوية فى ذلك الزمان هذه هى الأسباب التى رجحت إختيار الشيخ محمد صالح أبوزنادة لهذه المهمة ونعود الآن إلى حديث المرافق لهذه الرحلة قال : غادرنا جدة فى لباس الإحرام الشيخ محمد صالح ابوزناده وأنا ويرافقنا سائس يعتنى بدوابنا وكانت هذه الدواب من الحمير الجيدة التى كانت وسيلة السفر إلى مكة فى ذلك العهد قال : حينما وصلنا إلى بوابة الاسلاك الشائكة فتحت لنا الأبواب مما يدل على أن الأمر قد اعطى لحراس البوابة بذلك قال : وانطلقت بنا الدَّوابُّ إلى الرغامة ولم نشعر الا ببعض البدو من الجنود النجديين وقد هَبُّوا شاهرين أسلحتهم فقال لهم الشيخ محمد صالح اننا إخوة لكم ونرغب فى مقابلة امير المعسكر لأننا نحمل رسالة للسلطان فاقتادونا الى امير المعسكر على بعد بضع كيلو مترات وتحدّث معه الشيخ محمد صالح عن مهمته فأرسل امير المعسكر مندوبا إلى جهة بعيدة وبعد ساعتين أو أكثر عاد المندوب واصطحبنا إلى بحرة ثم تركونا نتوجه الى مكة المكرمة ، ووصلنا اليها ضحى اليوم التالى ، وذهبنا إلى بيت الفضل وبعد أن استرحنا وأدَّينا مناسك العمرة ذهب الشيخ محمد صالح أبوزناده لمقابلة السلطان عبدالعزيز فى قصر السقاف بالمعابدة قال المرافق وقضينا فى مكة يومين أو ثلاثة وبعدها حضر سائق سيارة الملك عبدالعزيز صدِّيق الهندى وطلب من الشيخ محمد صالح ان يذهب معه إلى الرغامة لمقابلة الملك عبدالعزيز قال وذهب الشيخ محمد صالح بسيارة الملك وذهبت أنا والسائس والدواب إلى الرغامة للقاء الشيخ محمد صالح هناك قال المرافق :

وفى اليوم التالى حضر أهالى جدة للسلام على السلطان عبدالعزيز وكان الشيخ محمد صالح أبوزناده يقدمهم لجلالته ويذكر أسماءهم وسأل السلطان

عبدالعزيز عن محمد الطويل لماذا لم يحضر مع الحاضرين وكان المرحوم الشيخ محمد الطويل من أركان الحكومة الهاشمية وممن وقفوا إلى جانب الشريف على وضحُّوا بأموالهم حتى أنه باع المنزل الذى كان يسكنه ودفع مرتبات الجنود الذين اعتصموا بمسجد عكاش وكان السلطان عبدالعزيز معجبا باخلاص الرجل ويرغب ان يراه قال : فقيل للملك عبدالعزيز ان الطويل يرغب الحضور للسلام على جلالتكم ولكنه يطلب الامان على نفسه أولاً وهنا قال الملك عبدالعزيز والله لو حضر الشريف على نفسه لأنزلته بين عينى وبعدها قدم الطويل للسلام على السلطان فأحسن وفادته واستقباله ٠

هذا ما أستطعت استنتاجه عن هذه الوفادة فقد رأى أهلُ الحلِّ والعَقْد بمدينة جدة ان يبعثوا واحدا منهم للسلطان عبدالعزيز لينقل إليه آراءهم بعد أن تم تسليم المدينة دون اشراكهم خاصة وأن الاتفاق تم بواسطة القنصل الانجليزى وهو أجنبى عن الجانبين وأنى لأرجو ان يكون من بين الرجال الذين عاصروا هذه الاحداث ولا يزالون على قيد الحياة من يستطيع القاء الضوء على هذه الأمور التى أصبحت فى ذمة التاريخ ٠

رئاسة المجلس البَلديّ وَالمجلِس الإداري

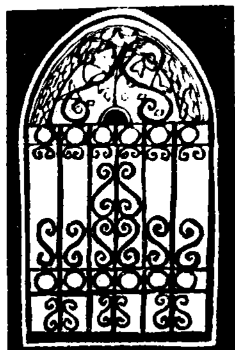
هذا وقد كانت للشيخ محمد صالح أبوزنادة مشاركة فى الحياة العامة فقد كان عضوا بالمجلس الادارى لمدينة جدة كما تولى رئاسة المجلس البلدى فترة طويلة وفى وقت من الأوقات تولى رئاسة بلدية جدة وكالة عن الشيخ محمد الهزازى ثم أصالة إلى حين تعيين رئيس جديد ٠

وفـــاتـــه

أدى الشيخ محمد صالح أبوزناده صلاة الفجر فى المسجد الذى وفقه الله تعالى لانشائه بجوار منزله بالشرفية كعادته فى المحافظة على أداء الصلوات كلها جماعة وبعد أن عاد إلى داره وأوى إلى فراشه يلتمس بعض الراحة فاجأته المنية صباح يوم ١٣٨٧/٣/١٧ هـ وقد طلب أحبابه الكثيرون نقل الجثمان الى مسجد عكاش حيث كان يؤم الناس فى كثير من الصلوات واشترك فى الصلاة عليه وتشييعه الى مثواه الأخير الجموع الكثيرة من المواطنين رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه ..



أعلام الحجاز
في القرن الرابع عشر للهجرة





الشيخ محمد صالح جمجوم

الشيخ محمد صالح جمجوم

طويل القامه مملوؤها بيضاوى الوجه اشقر تخالط بياضة حمرة ، اشهب اللحية خفيفها ، وهبه الله بسطة فى الجسم وسماحة فى الطبع وقوة فى العقيدة والخلق كما وهبه بسطة فى المال ومحبة فى البذل ، كريم فى تواضع ، عظيم فى بساطة احب الناس واحبه الناس ، فكان زعيما ابويا محبوبا من الجميع ٠

ذلكم هو المرحوم الشيخ محمد صالح عبدالعزيز جمجوم عميد آل جمجوم فى عصره وأحد أعلام مدينة جدة بل أحد أعلام المملكة فى منطقة الحجاز ٠

ولد الشيخ محمد صالح جمجوم فى اوائل القرن الرابع عشر الهجرى عام ١٣٠٣ هـ وتوفى بمدينة حرج بولاية ميسور بالهند فى ١١ جمادى الأولى من عام ١٣٦٣ هـ بعد ان ذهب اليها مستشفيا من المرض الذى الم به بصحبة ابن اخيه رجل الأعمال المعروف الشيخ محمد نور صلاح جمجوم وقد بلغ من العمر ستين عاما قضى معظمها عاملا فى سبيل الخير والنفع العام فلقد كان من الرجال القلائل الذين عاونوا المرحوم الحاج محمد على زينل رضا فى تأسيس مدارس الفلاح والإشراف عليها طيلة حياته ، فلقد كان هو واخوه المرحوم الشيخ عبدالرؤوف المتوفى عام ١٣٣٨ هـ يتوليان القيام على شؤون هذه المدارس كوكلاء مفوضين من قبل مؤسسها الحاج محمد على زينل والذى كان يقضى ايامه

كلها فى الهند وأوربا ، ولقد عرفت الشيخ محمد صالح جمجوم وكيلا لمدارس الفلاح بعد وفاة اخيه الشيخ عبدالرؤوف وانا تلميذ صغير بها وكان يحضر الى المدرسة فى كثير من الاوقات ويلجأ اليه مديرها واساتذتها بل وطلابها فى كل ما يعرض لهم من امور ، واذا عرفنا المهام التى كان يتولاها الشيخ محمد صالح جمجوم الى جانب وكالته للفلاح ادركنا بعض جوانب العظمة فيه فلقد كان عميد بيت الجمجوم التجارى وهو من ابرز البيوتات التجارية فى جدة انذاك ، كان له فرع فى الهند يتولاه اخوه الشيخ محمد عبدالعزيز جمجوم ، وكانت الهند انذاك هى مصدر التجارة للجزيرة العربية كلها ، وكان الى جانب هذا وذاك مديرا لأوقاف جدة وهو منصب شرفى اسنده اليه جلالة المرحوم الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه ، وكان الى جانب كل هذا من زعماء البلاد المحبوبين فلقد تطوع من تلقاء نفسه بتيسير العمل لكل راغب فيه وذلك بتقديم كفالته الشخصية للدوائر الحكومية للرجال والشبان الذين تتطلب وظائفهم كفالة مالية لدى الدوائر الحكومية كأمناء الخزانة والمستودعات وغيرهم ممن يشترط توفر الكفالة المالية فى قبولهم للوظائف ، بل تعدت هذه الكفالة الوظائف فأصبحت مبذولة لكل من يطلبها دون تمييز وكثيرا ما قام بكفالة المسجونين لإطلاقهم من السجون وكذلك المسافرين سواء عرفهم او لم يعرفهم ، وقد رأيت الرجل كما رآه غيرى من معاصريه يوقع الكفالات وهو يسير فى الشارع دون ان ينظر اليها او يعرف اصحابها وأسبابها فكان كل من يلجأ اليه يجد طلبته دون تردد او امتعاض ، فلقد كان رجلا كبير القلب يسع الناس جميعا بمحبته وعونه ولقد جنت عليه هذه الطيبة فيما بعد اذ أخل بها بعض المكفولين فى مبلغ ضخم فى ذلك الوقت وألزم المرحوم الشيخ محمد صالح جمجوم بدفعه ولم يكن قادرا على ذلك فخير بين الدفع او السجن ولما لم يكن قادرا على الدفع فقد قبل راضيا بالسجن الذى تم فى غرفة خاصة بإدارة شرطة

جدة ولم يلبث هذا السجن ان تحول الى مجمع شعبى كبير فقد تقاطر الناس صباح مساء لزيارة الشيخ محمد صالح فى غرفته تلك معبرين عن تعاطفهم معه وحنقهم على من تسبب له فى هذا الاذى وما هى الا أيام قلائل اذن الله فيها بالفرج اذ امر جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز باعفائه من الغرامة وغادر الشيخ محمد صالح مكانه ذاك عائدا الى منزله بين تكريم كل الناس ومحبتهم وابتهاجهم وهكذا عرف الشيخ محمد صالح مكانه فى القلوب ولم يكن هذا المكان بالمجهول او المنكور .

والمتتبع لتاريخ حياة هذا الرجل العظيم يجدها تشير فى جميع اطوارها الى حب الخير للناس ومساعدتهم وبذل العون لهم ، ولقد قلنا فى مقدمة هذا البحث ان الشيخ محمد صالح وأخاه الشيخ عبدالرؤوف كانا من الرجال القلائل الذين عاونوا الحاج محمد على زينل مؤسس الفلاح حين تأسيسه لمدرسة الفلاح بجدة وقد سبق لى ان تحدثت وكتبت عن الحاج محمد على زينل يرحمه الله انه حينما فكر فى تأسيس مدرسة الفلاح بجدة لم يكن قد حصل على ترخيص حكومى بافتتاح المدرسة وكان هذا فى العهد العثمانى فى عام ١٣٢٣ هجرية فلجأ هو واصدقاؤه الى اخذ التلاميذ من بيوت آبائهم فى جنح الظلام ثم اعادتهم الى بيوتهم بعد انتهاء الدرس ، واقول الآن ان من هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا يقومون بهذا العمل النبيل الشيخ محمد صالح جمجوم واخوه الشيخ عبدالرؤوف ، واذا علمنا ان الحاج محمد على زينل اسس مدارس الفلاح عام ١٣٢٣ هـ وكان من مواليد ١٣٠١ هـ ادركنا انه كان وصحبه فى اوائل العقد الثالث من اعمارهم اى بين العشرين والثانية والعشرين من العمر وهى سن باكرة جدا لايقوم فيها بمثل هذا العمل العظيم الا اولئك الرجال الذين وهبهم الله الغيرة على دينهم وأمتهم وهيأهم للقيام بالعظائم من الأمور وبعد الحصول على الترخيص الرسمى بافتتاح

المدرسة وتوسع التعليم فيها غادر الحاج محمد على زينل الحجاز الى الهند معتمدا على كل من الشيخ عبدالرؤوف واخيه الشيخ محمد صالح جمجوم فى الاشراف عليها وبعد وفاة الشيخ عبدالرؤوف جمجوم فى عام **١٣٣٨** هـ انفرد محمد صالح جمجوم بإدارة شؤون المدرسة إلى أن توفاه الله تعالى عام **١٣٦٣** هـ ولقد كان طوال هاتيك السنين يهب هذا العمل الكثير من وقته وجهده رغم مشاغله العظيمة فى ذلك الزمان .

أُسَـرة آل الجَمْجُوم

والحديث عن الشيخ محمد صالح جمجـوم يقتضى الحـديث عن اسرة آل الجمجوم التى كان الشيخ محمد صالح عميدها وهى من اكرم العائلات فى مدينة جدة ومن اكبرها عددا ان لم تكن اكبرها عددا على الاطلاق وحينما كانت الاسرة مجتمعة فى مكان واحد فى الخمسينات من هذا القرن الهجرى وفى عهد عميدها الشيخ محمد صالح كان تعدادها يزيد على المائة شخص وكانت اسرة كريمـة مضيافة تسير فى حياتها اليومية على النمط الذى كان متبعا فى ذلك الحين فكان رجال الاسرة وشبابها يجتمعون على مائدة واحدة لتناول طعام الغداء ، كما كان نساء الأسرة وضيوفهن يجتمعن على مائدة واحدة لهذا الغرض ، وكان معروفا ان جوالا ضخما من الدقيق يرسل يوميا الى الفران ليصنع منه الخبز الذى يكفى هذا العدد الضخم كما ان خروفا كبيرا واكثر مع كميات ضخمة من الخضار تشترى يوميا من الحلقة لصنع طعام غداء الاسرة اما العشاء والافطار فكان اعضـاء الاسرة يتناولونه فى الاماكن المخصصة لهم من هذا البيت الكبير .

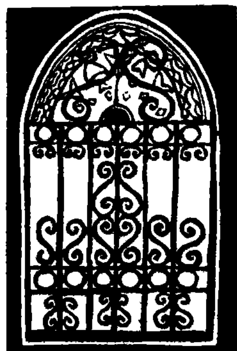
وكان إخواننا الشناقطة ـ الذين أصبحوا الآن موريتانيين ـ ضيوفا دائمين على آل الجمجوم حينما يفدون من الخارج لأداء فريضة الحج أو العودة منها أو حينما

يمرون بمدينة جدة فى طريقهم إلى مكة أو المدينة وما اكثر الشناقطة المهاجرين بها ، وما اكثر مايفدون لأداء العمرة فى رمضان أو لأداء فريضة الحج وكانوا يفدون بنسائهم واطفالهم ، اما النساء فتستقبلهن نساء الاسرة واما الرجال فقد خصص لهم المكان بل الامكنة التى ينزلون بها وكانت هذه الضيافة لاتقتصر على المأوى وانما تشمل الطعام والشراب والكساء بل وقضاء الحوائج على اختلاف هذه الحوائج واكثرها يقتضي بذل المال وبعضها يقتضى السعى فى دوائر الحكومة لإنجاز الامور التى تقتضى الإنجاز وكان الشيخ محمد صالح جمجوم بقلبه الكبير يرعى هؤلاء الوافدين ويتفقد امورهم ويحقق مطالبهم حتى قيل مرة ان احدهم تمنى عليه الزواج فحقق له ما طلب وهناك ناحية اخرى شاهدتها فلقد كان الميت يموت ويعجز اهله عن تجهيزه فاذا طلب من الناس العون اشاروا له الى بيت الجمجوم ولقد سمعت احدهم ، وهو يقول ماذا تطلب منى ؟ هل هنا بيت الجمجوم ؟ كأنما كان بيت الجمجوم بيتا للمال فى ذلك الزمان ، اخيرا وليس آخرا فان الشيخ محمد صالح جمجوم كان كما ذكرنا عميد بيت تجارى كبير وكان لهذا البيت التجارى معاملات كثيرة مع الناس واخذ وعطاء وعملاء لهم حسابات مفتوحة وعليهم ديون كثيرة وكان مما عرف عن الشيخ محمد صالح جمجوم انه كان ييسر على الناس فلا يثقل عليهم بالوفاء ولا يلح ، وقد استغل بعض ذوى النفوس الضعيفة هذا الخلق العالى فاستمرأوا المماطلة واستباحوا عدم الوفاء فبقيت بذمتهم المبالغ الطائلة التى تبلغ الالوف المؤلفة من الجنيهات الذهبية وما لبثوا ان جاهروا بالامتناع عن الدفع مستأثرين بما وصل اليهم من هذا المال ليستخدموه فى اعمال تجارية خاصة بهم آمنين ان احدا لايقاضيهم او يزعجهم وهكذا كان ، فلقد كان الشيخ محمد صالح يرفض كل الرفض فكرة المقاضاة او الشكوى سواء للعملاء المماطلين او للمستأجرين الذين يستبيحون السكنى فى

عقار آل الجمجوم السنوات الطوال دون ان يدفعوا بدل الإجارة مستغلين طيبة الرجل وحياءه وحسن ظنه بالناس جميعا فلقد كانت هذه الطيبة التى ظنها البعض غفلة هى من اسباب اجتراء المجترئين واستهتارهم وليست هى من الغفلة فى شىء وانما هى النفس الكبيرة تحاول اصلاح النفوس وتقويمها بالصبر والتسامح والإيثار .

رحم الله الشيخ محمد صالح جمجوم فلقد كان نمطا فريدا فى العمل للناس بجهده وماله وجاهه طيلة حياته ثم مضى الى لقاء ربه قبل خمسة واربعين عاما ولكن ذكراه لاتزال تعمر قلوب عارفيه ، فلقد كان مثلا كريما وقدوة حسنة تغمده الله برحمته الواسعة واحسن جزاءه فى دار الخلود .





أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة



محمد صالح نصيف

مُحَمَّد صَالِح نَصِيف

طويل فارع ممتلىء الجسم فى غير اسراف ، حنطى اللون ، حسن الملامح تزين وجهه لحية كاملة ، وقد ادركته فى العهد الهاشمى فى عهد الشريف الملك على بن الحسين وهو رئيس بلدية جدة وكان يومها يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، ثم تحول عنها فى العهد السعودى الى العباءة والعقال ، ولد الشيخ محمد صالح نصيف بمدينة جدة فى عام ١٣١٠ هجرية وهو من اسرة نصيف الغنية عن التعريف ، وفى اوائل العهد السعودى عين عضوا بمجلس الشورى عن مدينة جدة وانتقل بأسرته الى مكة المكرمة ، ان ما لفت نظرى فى تاريخ الشيخ محمد صالح نصيف رحمه الله انه كان رائدا من رواد الصحافة فى الحجاز وان لم يكن هو من رجال القلم ولا من اعلام الادب والكتابة ، إلاّ انه كان من السابقين الى اصدار الصحف فى الحجاز وقد اصدر جريدة بريد الحجاز فى عهد الملك الشريف على بن الحسين من عام ١٣٤٣ هـ الى عام ١٣٤٤ هجرية ثم حصل على امتياز اصدار جريدة صوت الحجاز فى صفر ١٣٥٠ هـ فى اوائل العهد السعودى وكان قد استورد مطبعة من مصر ، كما شارك الاستاذ عبدالفتاح قتلان فى تأسيس المكتبة والمطبعة السلفية بمكة المكرمة وكان الغرض منها طبع الكتب التى تعبر عن المذهب السلفى ونشرها فى هذه المطبعة وقد تم طبع جريدة صوت

الحجاز بها منذ بدء صدورها ، وقد اتفق الشيخ محمد سرور الصبان معه فيما بعد على نقل امتياز جريدة صوت الحجاز الى الشركة العربية للطبع والنشر والتى كان الشيخ محمد سرور رحمه الله مؤسسها ورئيسها وتم كذلك شراء المطبعة التى استوردتها المكتبة السلفية من قبل شركة الطبع والنشر وذلك لطبع جريدة صوت الحجاز بها ولقد ادركت هذه المطبعة فى منزل الشيخ محمد صالح نصيف رحمه الله فى بئر بليلة بأجياد فى مكة المكرمة قبل انتقال ملكيتها الى شركة الطبع والنشر وطبع جريدة صوت الحجاز عليها لسنوات كثيرة وهذه المطبعة اصلاً هى مطبعة المنار وقد باعها المرحوم السيد رشيد رضا الى اصحاب المطبعة والمكتبة السلفية وهما الشيخ محمد صالح نصيف وعبدالفتاح قتلان وانتقلت من دار المنار بالقاهرة الى مكة المكرمة لتطبع عليها جريدة صوت الحجاز لسنوات طويلة جدا كما ذكرنا وهى مطبعة قديمة تدار باليد وهى لاتزال موجودة حتى اليوم وان كنت اشك انها تستعمل مع وجود المطابع الحديثة المتطورة .

اقول ان ما لفت نظرى فى سيرة الشيخ محمد صالح نصيف رحمه الله هو هذا السبق فى تأسيس المطابع واصدار الصحف وهو ليس من رجال القلم ولا من اعلام الكُتاَّب ، ولكنه بعمله هذا هيأ الفرصة الكبيرة للكتاب والادباء فقام بعمل جليل فى نشر المعرفة وتنوير الأذهان ، وهو امر يستحق الإشادة به والترجمة له ، لأنه عمل نافع وعظيم ، ولعله من الخير ان نذكر بعض ما علق بالذاكرة من امر هاتين الصحيفتين اللتين اصدرهما الشيخ محمد صالح نصيف للذكرى والتاريخ .

بريد الحجاز

اما الصحيفه الاولى فهى جريدة بريد الحجاز التى صدرت عام ١٣٤٢ هـ واستمرت الى اوائل عام ١٣٤٤ هـ فى عهد الملك الشريف على ابن

الحسين رحمه الله ، وكانت هذه الجريدة تعبر عن وجهة نظر العهد الهاشمى فى ذلك الحين بطبيعة الحال وتطبع بمطبعة رمزى بجدة وكان ابرز كتابها هو الاستاذ الشيخ محمد حسن عواد شيخ أدباء جدة ولعل الكثيرين لايعرفون ان أدباء جدة الكبار المعروفين حمزة شحاتة واحمد قنديل رحمهما الله ومحمود عارف ومحمد على باحيدرة وعباس حلوانى هم تلامذة الأستاذ محمد حسن عواد ، كما ان كاتب هذه

السطور هو من تلاميذه كذلك وله تلاميذ كثيرون هم من اعلام الرجال فى مختلف المجالات ، نعم لقد أدركت الأستاذ محمد حسن عواد (رحمه الله) استاذا من ابرز اساتذة الفلاح فى مدينة جدة وكان كلُ الاساتذة الشعراء الذين ذكرت أسماءهم آنفا وغيرهم من تلاميذه فى مدرسة الفلاح واذكر اننى كنت فى الصفوف الأولى من هذه المدرسة الجليلة وكان الأساتذه شحاتة وعارف وقنديل وعباس حلوانى وباحيدرة فى الصفوف العليا منها .

نقول إن الأستاذ محمد حسن عواد كان ابرز كاتب فى جريدة بريد الحجاز فى هذا العهد لأنه كان بالفعل ابرز الادباء فى ذلك العهد[1] ، وقد وجدت عن بريد الحجاز للاستاذ محمد حسن عواد فى كتاب ابتسامات الايام فى انتصارات الإمام ما يستحق الاقتباس وهذا الكتاب هو ديوان يضم قصائد شاعر نجد الكبير الشيخ محمد عبدالله بن بليهد من عام **١٣٣٧ هـ** الى **١٣٧٠ هـ** ومعظم قصائد

---

(١) كما كان الاستاذ احمد ابراهيم الفزاوى يراسل بريد الحجاز من مهجره فى بورسودان ويرسل اليها القصائد التى تنشرها له فيها .

هذا الديوان فى الوقائع التاريخية التى خاضها جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز وانجاله الكرام جلالة الملك سعود وجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمهم الله ، والكتاب مهدى الى صاحب السمو الملكى الامير عبدالله الفيصل (وكيل نائب جلالة ملك المملكة العربية السعودية) هذه كانت وظيفة سموه الرسمية حين طبع هذا الكتاب اقول جاء فى هذا الكتاب فى الصفحة ٨٦ عن بريد الحجاز ما نصه:

وقلت وأنا فى مكة مع الامام عبدالعزيز وقد وردت قصيدة لرجل من اهل جدة يقال له حسن عواد وجعل توقيعه تحت قصيدته الأخطل الأصغر فرددت على ذلك الشاعر وقلت القول اللطيف فى الرد على شويعر الشريف ، الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده أما بعد فقد ورد فى بريد الحجاز الخارج من جدة من بلد الشريف على بن الحسين قصيدة لمن سمىً نفسه الأخطل الأصغر فقلت وهذا خليفة الأخطل النصرانى فقال فى قصيدته فى رجب ١٣٤٣ هـ وهذا مطلع قصيدته على الخفيف .

حدثيهم عن بأسنا يا حراب ☆ واذقهم نكالنا يا عذاب
وأمطريهم قذائفا يا مناطيد ☆ كأنَّ الدخان منها سحاب

إلى ان قال :

ايها المصلحون فى الشرق مهلا ☆ أين اصلاحكم وأين الصواب ؟

الى آخرها وهى ثمانية وعشرون بيتا فقلت مجيبا له :

ما أصبتم وما لديكم صواب ☆ بعد ما نُصَّ فى البريد كتاب
وانتبهنا لقولكم حين قلتم ☆ حدثيهم عن بأسنا يا حراب
ان هرمتم على الحروب فإنا ☆ كلما طالت الحروب شباب

والقصيدة فى خمسة وخمسين بيتا ومنها فى وصف الأسلاك الشائكة التى كانت تحيط بمدينة جده خلال فترة الحصار ٠

إن ظننتم بأن سلككم اليوم ☆ عن رحى الحرب والمنون حجاب
فارقبوها من الكثيب سراعا ☆ طالعات كأنهن الهضاب

ومنها فى وصف ما كان يعانية الحجاج من فقدان الأمن :

كم اخذتم من الحجيج فلوسا ☆ طالما أزعج الحجيج النهاب
عبثت فيهم اللصوص وأمست ☆ عندكم ما على اللصوص عقاب

انتهى نص ما نقلناه عن كتاب ابتسامات الأيام ٠ والغرض من هذا النقل هو الأشارة الى الناحية التاريخية فى الموضوع لأن هذا العهد قد انقضى والحمد لله بكل ما كان فيه واستعاضت البلاد عنه امناً شاملا ووحدة كاملة ورخاء عظيما ، وهكذا نرى ان الشعر السياسى كان وسيلة من وسائل الإعلام فى ذلك العهد وكان يمثله شاعران من اكبر شعراء المملكة احدهما الاستاذ الشيخ محمد حسن عواد من اكبر شعراء الحجاز مد الله فى حياته والثانى الشيخ محمد ابن عبدالله بن بليهد من شعراء نجد ومؤرخيها ومن اعلم الناس بالمواقع والآثار فى الجزيرة العربية رحمه الله ٠

ومن البديهى أن نقول إن صحيفة بريد الحجاز انما كانت صحيفه سياسية صدرت فى عهد معين للتعبير عن وجهة نظر معينة ثم انتهت بانتهاء الظرف الذى وجدت من اجله ولكن الشيخ محمد صالح نصيف لم يكتف ببريد الحجاز وانما اصدر فيما بعد صحيفة صوت الحجاز كما ذكرنا ٠

صوت الحجاز

حينما يكتب تاريخ الأدب والصحافه فى هذه البلاد يستطيع المؤرخ ان يربط ولادة الأدب الحديث بظهور المطبوعات التى اصدرها المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان فى أوائل العهد السعودى فى الأربعينات وهى ادب الحجاز والمعرض وخواطر مصرحة للأستاذ محمد حسن عواد ثم بجريدة صوت الحجاز التى اصدرها الشيخ محمد صالح نصيف عام ١٣٥٠ هـ واذا كانت المطبوعات التى اصدرها الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله والمذكورة آنفا هى ايذان بولادة الأدب الحديث فى هذه البلاد فان ظهور صوت الحجاز واستمرارها لسنوات طويلة وحتى الآن مع تغيير اسمها الذى سنتعرض له فيما بعد ، نقول ان ظهور صوت الحجاز هو التعبير المستمر عن نشوء هذا الأدب الوليد ونمائه وانتشاره فلقد كانت صحيفة صوت الحجاز اول صحيفة تصدر فى هذه البلاد محررة بأقلام أبنائها ، ومما يلفت النظر ان صحيفة صوت الحجاز انما صدرت بتوجيه من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وقد بعث الىَّ الاستاذ محمد خليل عنانى مدير فرع رابطة العالم الاسلامى بجدة نص الكتاب المرفوع الى جلالته فى هذا الصدد والذى استخلصت منه هذا التوجيه وهذا نصه :

(صاحب الجلالة الملك المعظم ايده الله)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فى تاريخه ادناه اجتمع الموقعون على هذا تحت اشراف الشيخ عبدالعزيز الرشيد للنظر فى اصدار جريدة يومية حسب الإرادة الملكية التى بلغت الينا بواسطة الأستاذ المذكور وقد قررنا انتخاب الأستاذ فؤاد شاكر ليكون مديراً مسؤولا لهذه الجريدة ورئيسا لتحريرها ولأجل

اصدار إرادتكم السامية الملكية بهذا الشأن ، نرفع هذا الى السدة الملكية أدام الله جلالتكم ذخرا للعرب والمسلمين • وفيما يلي اسماء الموقعين على هذا الكتاب •

عبدالوهاب آشي ☆ احمد ابراهيم الغزاوى ☆ بكر فالح ☆ عبدالله عبدالكريم الخطيب ☆ محمد عنانى ☆ محمد سرور الصبان ☆ عبدالله فدا ☆ حسين نصيف

وواضح من نص هذا الكتاب ان اصدار الجريدة انما كان بتوجيه من جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ، كما أن مما يلفت النظر ان امتياز هذه الجريدة انما صدر باسم الشيخ محمد صالح نصيف ولم يكن من الموقعين على هذا الخطاب ، ولعل وجود المطبعة السلفية بمكه تحت ادارة الشيخ محمد صالح نصيف وعمله السابق فى اصدار بريد الحجاز هو الذى هيأ له الفرصة لإصدار امتياز جريدة صوت الحجاز باسمه ، كما ان الاقتراح بتعيين الأستاذ فؤاد شاكر رحمه الله مديرا مسؤولا للجريدة ورئيس تحرير لها لم يتم ، فحينما صدرت الأعداد الأولى منها عام ١٣٥٠ هـ لم يكن لها رئيس تحرير معين وإنما كان يحررها نخبة من الشبان وهؤلاء الشبان هم الاساتذه عبدالوهاب آشي ومحمد حسن فقى ومحمد حسن عواد وكانت تصدر اسبوعية وكان كل واحد منهم يكتب افتتاحيتها أسبوعيا ثم يكتب الافتتاحية فى الأسبوع الثانى كاتب آخر من الثلاثة وهكذا ، وكانت الصحيفة الى جانب هذه الافتتاحيات حافلة بالشعر والادب والنقد والدعوة الى الاصلاح والتجديد ولم يكن هناك أثر للصورة ، كما انها لم تكن تنشر الأخبار الداخلية الا فى حدود ضيقة جدا نعم لقد كانت صحيفة رأى قبل كل شيء وكان الناس جميعا يقرأونها ولم يكن يتقاضى كتابها أجرا على كتابتهم باستثناء رئيس التحرير المنوط به امر الجريدة ككل •

ولقد عرف الناس الأستاذ عبدالوهاب آشي ككاتب كبير كما عرفوا الأستاذ محمد حسن فقي كشاعر كبير ولكنى اود ان اذكر هنا ان الاستاذ محمد حسن فقي فى السنوات الاولى لصدور صوت الحجاز كان كاتب مقالة ممتازا إلى جانب ما عرف عنه من مكانة شعرية ، ولكنه فى ذلك الزمان كان يعنى بالكتابة اكثر من عنايته بالشعر وكانت مقالاته تتميز بأسلوب جزل رصين وقد تفرغ للشعر فيما بعد فكان فيه المجلىً كما هو معلوم ، ومن الجدير بالذكر ان نذكر ان الأستاذ عبدالوهاب آشي كان شاعرا مرموقا كما كان الأستاذ محمد سعيد العامودى شاعرا بارزا وهؤلاء جميعا كانوا من أبرز كتاب صوت الحجاز فى بداية عهدها وقد تولى رئاسة تحرير صوت الحجاز الأستاذ محمد حسن كتبى والأساتذة احمد قنديل رحمه الله واحمد السباعى ثم المرحوم فؤاد شاكر ثم كاتب هذه السطور وكان من الكتاب الذين عملوا فى تحرير الجريدة الأساتذة حسين عرب وأحمد جمال والمرحوم حسين خزندار ولست فى حاجة لأن أقول أن جميع الكتاب والشعراء المعروفين كانوا ممن يوافون الصحيفة بانتاجهم الشعرى والنثرى ، كما كانت الصحيفة ميدانا للنقد تصول فيه الأقلام وتجول .

ولعله من الطريف أن نذكر أن المرحوم الشيخ محمد صالح نصيف عهد فى وقت من الأوقات إلى الأستاذ محمد حسن كتبى - وزير الحج السابق - برئاسة تحرير صوت الحجاز ويبدو ان خلافا وقع بين الرجلين فصدرت الصحيفة فى احد الاعداد وكل ما فيها بتوقيع الأستاذ محمد حسن كتبى ابتداء من الأفتتاحية إلى آخر عمود فى الصحيفة ولقد ظهر فيما بعد ان المرحوم الشيخ محمد صالح نصيف تعمد ذكر اسم السيد محمد حسن كتبى على كل ما نشر بهذا العدد لأنه أراد إحراجه واظهاره بمظهر المستأثر بالكتابة فى الصحيفة وحده ولو كان هذا الامر صحيحا لما تعمد الاستاذ الكتبى اغفال توقيعه عن كل ما يكتبه فى الصحيفة

باستثناء الافتتاحية مثلا ولكن هذا ما وقع وظهر العدد الثانى وقد انتهت علاقة الاستاذ الكتبى بالصحيفة وصاحبها معا ·

وقد توقفت صحيفة صوت الحجاز عن الصدور فى أوائل الحرب العالمية الثانية ثم عادت إلى الظهور عام ١٣٦٥ هجرية بعد أنتهاء الحرب باسم البلاد السعودية وتولى رئاسة تحريرها المرحوم عبدالله عريف ، وعلى ذكر توقف جريدة صوت الحجاز فى اوائل الحرب العالمية الثانية انقل هنا من كتابى « حبات من عنقود » هذه الطرفة عن هذا الموضوع ·

كنت رئيسا لتحرير جريدة صوت الحجاز خلال الحرب العالمية الثانية ولم يمض على الحرب إلا بضعة شهور حتى اصدر جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله امراً بإيقاف الصحف عن الصدور لعدم وجود الورق والاكتفاء بجريدة ام القرى الرسمية ، وكان لدينا فى صوت الحجاز كمية من الورق تكفى لصدور الجريدة وقتا طويلا ، وكنا نتقاضى اشتراكا شهريا من الحكومة مقداره اربعمائة ريال عن اشتراك الحكومة والدوائر الرسمية فى الجريدة وبايقاف الصحف توقف هذا الاشتراك وكانت الأربعمائة ريال مبلغا كبيرا فى ذلك الوقت ، وبالاتفاق مع سعادة رئيس الشركة العربية للطبع والنشر كتبت الى جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله كتابا قلت فيه :

لقد اصدرتم جلالتكم الأمر بتوقيف الصحف لعدم وجود الورق وبما اننا فى جريدة صوت الحجاز نملك كمية من الورق تكفى لصدور الجريدة وقتا طويلا فإننا نتعهد لجلالتكم بأننا لن نطالب الحكومة باعطائنا ورقا لاصدار الجريدة ، وان كان هذا الامر لحكمة سياسية اقتضاها رأى جلالتكم فالرأى ما ترونه ، لكن جريدتنا تتقاضى أشتراكا شهريا مقداره اربعمائة ريال من وزارة المالية وقد توقف صرف هذا الاشتراك نتيجة لتوقف الجريدة عن الصدور وفى الجريدة ومطبعتها

موظفون تتأثر احوالهم بتوقف الجريدة فلا اقل من الاستمرار فى صرف هذا الاشتراك الشهرى لنا »

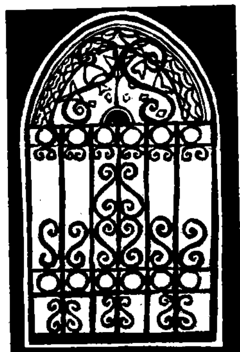
ولم اتلق اى جواب على خطابى ولكن الامر صدر برقيا الى وزارة المالية من جلالته بالاستمرار فى صرف مخصص الجريدة الشهرى وعدم توقيفه وكانت جريدة صوت الحجاز فيما اعلم هى الجريدة الوحيدة التى كانت تنبض قيمة الاشتراك طوال مدة توقفها عن الصدور ·

وحين صدور الأمر بإدماج الصحف اندمجت جريدة البلاد السعودية مع مجلة عرفات التى كان يصدرها الأستاذ حسن قزاز فى صحيفة واحدة باسم البلاد واسندت رئاسة تحريرها إلى الأستاذ محمد حسين زيدان ثم إلى الأستاذ حسن قزاز وحين تحولت الصحافة إلى مؤسسات أسندت رئاسة تحريرها إلى الأستاذ عبدالمجيد شبكشى بتاريخ أول ذى القعدة ١٣٨٣ هـ ·

نعود بعد هذا الاستطراد التاريخى عن الصحافة إلى المرحوم الشيخ محمد صالح نصيف لنذكر انه اختير لرئاسة ماليات وجمارك جيزان فى عهد وزير المالية الأسبق الشيخ عبدالله السليمان وأنتقل الى هناك لعدة سنوات ثم عاد الى الحجاز وقد توفى رحمه الله بعد ان أسن عام ١٣٩١ هـ فى مدينة جدة عن عمر يناهز الواحد وثمانين عاما ·

تغمده الله برحمته الواسعة وأحسن جزاءه لقاء ماهدف اليه من خدمة الفكر والقلم ·





أعلام الحجاز
في القرن الرابع عشر للهجرة



السيد محمد طاهر الدباغ

السيد محمد طاهر الدباغ

أبيض الوجه تخالط بياضه حمرة ، أقنى الأنف ، ممتلىء الجسم أقرب إلى الطول منه إلى القصر ، تزين وجهه لحية اختلط سوادها بالبياض ، ثاقب النظرة شديد الذكاء تلوح فى وجهه مخايل الشهامة عرفته وهو يرتدى العباءة العربية والعقال بعد عودته إلى المملكة من مهجره فى الخمسينات من هذا القرن ٠

ولد السيد محمد طاهر الدباغ بالطائف عام ١٣٠٨ هجرية وتلقى علومه الابتدائية بمكة ثم بالاسكندرية ثم عاد إلى مكة وتلقى العلم على أيدى علماء عصره بالمسجد الحرام حتى حصل على اجازة التدريس واشتغل به فى المسجد الحرام مدة من الزمن ثم التحق مدرساً بمدرسة الفلاح حتى أصبح مديرا لها وفى عام ١٣٣٦ هـ انتقل إلى مالية جدة وأصبح رئيسا لها ومعتمدا للمعارف بمدينة جدة وتوابعها فى عهد الملك الشريف حسين بن على يرحمه الله وفى عهد الملك على بن الحسين عام ١٣٤٣ هـ الى ١٣٤٤ هـ تولى وزارة المالية ، وللسيد محمد طاهر الدباغ موقف تاريخى مشهود فقد كان هو الذى أبلغ الشريف الحسين بن على بلسان المجتمعين فى الخزنة بجدة ، وهى مكتب القائممقام « وكانت أمام باب جديد قريباً من ميدان البيعة فى الوقت الحاضر نقول ان السيد محمد طاهر

الدباغ كان هو الذى تحدَّث إلى الشريف الحسين بن على فى مكة تليفونيا وأبلغه بأن المجتمعين وهم أهْلُ الحل والعقد قد قرروا عزله عن العرش وتولية ابنه وولى عهده الشريف على بن الحسين ملكا على الحجاز ، وقد وردت هذه القصة بتفاصيلها فى كتاب المرحوم الأستاذ خير الدين الزركلى « ما رأيت وماسمعت » ولقد كان الشريف الحسين كما يعرف معاصروه معروفا بالصرامة والجبروت وكان ينزل بطشه وعقابه لأتفه الأسباب فالاقدام على إبلاغه بقرار أهل الحل والعقد إقالته من الملك وتنصيب ابنه بدلا عنه ليس بالأمر السهل وإنما هو من عظائم الأمور التى تدل على تمتع صاحبها بالشجاعة المفرطة ، التى تؤهله للاضطلاع بعظائم الأمور ·

هجرته إلى الخارج

من هذه الحادثة يتبين لنا أن السيد محمد طاهر الدباغ كان من الرجال البارزين فى العهد الهاشمى ولقد هاجر بأسرته جميعا من الحجاز بعد ان دان الحجاز بالولاء لجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله وعلمت من السيد طاهر انه توجه أولا إلى الهند ثم تنقل بعدها فى مختلف البلاد العربية والاسلامية مشتغلا بالتدريس إلى أن أصدر جلالة الملك عبدالعزيز نداءه المشهور إلى رجال العهد الهاشمى المهاجرين فى الخارج يدعوهم إلى العودة إلى بلادهم ليعملوا تحت لوائه فى سبيل خدمتها والنهوض بها إلى ما يطمح إليه الجميع من رقى وتقدم ·

عودته إلى المملكة

وكان السيد محمد طاهر الدباغ من أوائل من استجاب لهذه الدعوة الكريمة من المهاجرين كما عاد فى نفس الوقت كل من المرحوم الشيخ عبدالرؤوف

الصبان ، والشيخ محمد صادق ، وكانوا جميعا ينشرون مقالات فى جريدة صوت الحجاز توضح استجابتهم للنداء واستعدادهم للخدمة فى المجال الذى يختاره لهم جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وقد رأيت السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله يوم عاد فى لباس الإحرام عشية يوم عرفه فى مخيم الشيخ محمد سرور الصبان فى عرفات فى حج عام ١٣٥٤ هـ .

مُديـرِيّة التعليم العَامّة

وقد أسند جلالة الملك عبدالعزيز إلى السيد محمد طاهر الدباغ إدارة التعليم فى المملكة وكانت إدارة بسيطة فجعلت مديرية عامة ، ولقد كان جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ذا فراسة فى الرجال يعرف أقدارهم ويستفيد من قدراتهم وكان بهذا الاختيار قد أعطى القوس باريها فانطلق السيد محمد طاهر رحمه الله بالمعارف الانطلاقة الكبرى التى كانت النواة الطيبة للنهضة التعليمية فى المملكة .

مَدرَسة تحضِير البعثات

وكان أول ما فكر فيه المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ هو تنظيم الابتعاث إلى الخارج للدراسات العليا المتنوعة فأسس مدرسة تحضير البعثات فى مكة المكرمة واستقدم لها الأساتذة وذلك لتهيئة الطلاب للدخول إلى الجامعات والمعاهد العليا فى مصر بعد التخرج منها حيث وضعت برامجها بحيث تكون متفقة مع مناهج المدارس الثانوية فى مصر وكان الطلاب الذين يكملون الدراسة فى مدارس المملكة اذ ذاك يلتحقون بها فى مكة المكرمة وكانت مدرسة داخلية بالنسبة للطلاب القادمين من أنحاء المملكة الأخرى سواء من مدن الحجاز أو من مدن

نجد أو المناطق الأخرى فى المملكة ونستطيع أن نقول للتاريخ ان مدرسة تحضير البعثات كانت هى المهد الذى احتضن كل المبتعثين إلى الخارج فى ذلك الوقت والذين تخصصوا فى الدراسات العليا المختلفة كالطب والهندسة والتعليم وخلافهم ومن تلامذتها تخرج الوزراء والأطباء والمهندسون والعلماء نذكر منهم على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر السادة أحمد جمجوم ، الدكتور حسن نصيف ، المرحوم السيد احمد شطا ، الدكتور عبداللطيف جمجوم ، الدكتـور الهرسانـى ، السيد عبدالله الدباغ ، العلامة الشيخ حمد الجاسر وكثيرون غيرهم ممن لايتسنى ذكرهم فى هذه العجالة ٠

هذا وكان الطلبة المبتعثون من قبل يتعثرون فى دراساتهم حينما يصلون إلى مصر فيتضح انهم أقوياء فى بعض المواد بينما أنهم لم يكونوا قد تزَّودوا بالمقدار الكافى من المواد الأخرى العلمية كالرياضيات واللغة الانجليزية وغيرها ، فكان وجود مدرسة تحضير البعثات سببا فى سدْ هذه الثغرة ومنطلقا للنهضة التعليمية التـى هيأت للبـلاد النـواة الأولى من المتخصصـين فى مختلف فروع العلـوم والفنون ٠

دَارالبعثاتِ فى مِصْـر

وكما عنى المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ بتأسيس مدرسة تحضير البعثات فى مكة المكرمة عنى بتهيئة دار البعثات العلمية بالسعودية بالقاهـرة وأسنـدت إدارتها الى مديرين مشهود لهم بالكفاءة والاخلاص وأذكر منهم على سبيل المثال المربى القدير السيد ولى الدين أسعد رحمه الله ، وكانت هذه الدار تضم الطلبة المبتعثين حيث يتهيأ لهم فيها المسكن والطعام ويشرف السيد ولى الدين رحمه الله ومعاونوه على إلحاقهم بالمعاهد المختلفة ويهتم بشؤونهم الدراسية والمعاشية فى آن

واحد مما هيأ للطلبة الجو المناسب للدراسة المنظمة الجادة التى آتت أكلها فيما بعد ثمرا جنياً ورجالا عاملين فى شتى المجالات هذا وقد تم فيما بعد تأسيس دار للبعثات السعودية بالاسكندرية تولاه المرحوم الأستاذ صادق ماجد كردى وكان يرعى الطلبة السعوديين الذين يتلقون دراساتهم فى جامعة الاسكندرية ٠

نشر المدارس في أنحاء المملكة

ولم يكتف السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله بالعناية بالدراسات العليا وتهيئة أسبابها فحسب وإنما بذل جهودا جبارة فى نشر التعليم فى كثير من مدن المملكة فبعد أن كانت مدارس المعارف فى المدن الكبرى محدودة العدد توسعت المديرية العامة للمعارف فى عهده بتشجيع من جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز فى افتتاح المدارس وخاصة الابتدائية ، والمتوسطة فكنا نرى فى كل عام زيادة ملحوظة فى عدد المدارس فى جميع المدن وفى كثير من القرى مما هيأ الجو المناسب للنهضة التعليمية الكبرى فيما بعد مع ادخال الاصلاحات الجذرية على مناهج الدراسة وتهيئتها لتكون متساوقة مع المدارس المماثلة فى البلاد العربية المجاورة (١) ٠

مدرسة الأمراء في الرياض

وقد قام المرحوم السيد محمد طاهر الدباغ كذلك بتأسيس مدرسة الأمراء فى الرياض أو على الأصح بتوسيعها وتنظيمها فقد كانت المدرسة موجودة من قبل ولكنها كانت فى نطاق ضيق فقام بتوسعتها وتنظيمها وقد أصبحت هذه المدرسة فيما بعد تضم مختلف الطبقات ولم تكن قاصرة على الامراء فحسب وهكذا فإن العلم مباح للجميع ٠

(١) للاستزادة عن تطور التعليم فى المملكة يراجع كتاب محمد طاهر الدماغ للاستاذ بكر الصباغ فهو يحتوى على معلومات قيمة فى هذا الشأن ٠

وقد بقى السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله قائما بأعباء هذا العمل العظيم لسنوات طويلة من عام ١٣٥٥ إلى عام ١٣٦٤ هـ ثم عين عضوا بمجلس الشورى ثم أحيل إلى التقاعد عام ١٣٧٢ هـ .

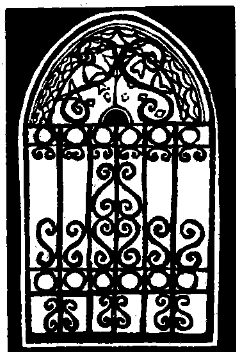
المرض والرحلة إلى مصر

وقد شعر السيد محمد طاهر الدباغ رحمه الله بالمرض الذى بدأ يؤثر على بصره فسافر إلى مصر طلبا للعلاج ولكن الداء كان قد استشرى فذهب بصره ولكنه كان كالعهد به دائما شجاعا مؤمنا فتحمل المرض فى صبر وايمان ولم يكن يشكو ذهاب بصره ، بل لم يكن يتحدث عن ذلك بتاتا ، حدثنى أحد أبنائه وكان معه فى مصر قال كنا نعرف أن لاعلاج للمرض الذى ألمّ ببصره ، وكنا نكتم عنه ذلك مراعاة لشعوره قال وكنت أشعر أن الوالد يعرف من أمر مرض عينيه ما نعرف وكان لايتحدث عن ذلك اشفاقا علينا ، لقد كان رحمه الله رحيما وزعيما عظيما ، ورجلا من أشجع الرجال هذا وقد أدركته الوفاة رحمه الله بالقاهرة فى ١٨ رجب ١٣٧٨ هـ ودفن بها مأسوفا عليه من كل الناس الذين عرفوا فضله وجميل صفاته رحمه الله جزاء ما أسدى للأمة من خير وما عمل فى سبيلها من جهد مخلص ونفع عظيم .



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





محمد علي زينل رضا

محمد علي زينل رضا

معتدل الجسم وسط فى الرجال لا بالطويل ولا بالقصير ، مستدير الوجه ابيض اللون ، واسع العينين ، اقنى الانف ، يضع على عينيه نظارة ذهبية ويرتدى الجبة والعمامة الحجازية وقد احتفظ بلباسه هذا حتى فى زياراته الكثيرة إلى اوربا بعد ان افتتح مكاتب بها لأعماله التجارية الواسعة ، قويُّ الشخصية وهبه الله مهابةً واسبغ عليه محبة فاذا رأيته هبته واحببته فى وقت واحد ولا عجب فى ذلك فقد هيأه الله تعالى بتوفيقه للزعامة بما وهبه من صفات البذل فى سبيل العلم من مال كثير وجهد عظيم استمر معه منذ نشأ الى ان توفاه الله تعالى وقد اشرف على التسعين من عمر طويل قضاه فى خدمة العلم والدين ·

ولد الحاج محمد على زينل رضا بمدينة جدة فى اول القرن الهجرى سنة ١٣٠٠ هـ فى ظل والده الحاج زينل على رضا وكان هو واخوه الحاج عبد الله على رضا من اكبر تجار مدينة جدة وابرزهم وتعلم القراءة والكتابة فى دار والده على ايدى بعض علماء عصره كما بدأ دراسته اللغة الانجليزية والفارسية كذلك على ايدى من يعرفونها ممن يعملون فى بيت والده التجارى وكان مجاله الطبيعى بعد هذا العلم المحدود ان يعمل فى تجارة ابيه وعمه موظفا يتدرج فى الاعمال

ويتمرن عليها حتى يستطيع ان يمسك زمام الامور حين يشتد ساعده ولكن محمد على زينل كان شغوفا بالعلم منذ الصغر وخاصة بعلوم الدين ولم يجد فى مدينة جدة ما يشبع نهمته ويسد جوعته فاستأذن من أبيه فى السفر الى مصر والالتحاق بالجامع الازهر وهو أكبر مصدر لتلقى علوم الدين فى عصره ، ولكن والده الذى كان يرغب فى تهيئة ابنه للعمل التجارى لم يوافق على هذه الرغبة ، كما انه كان راغبا فى بقاء ابنه محمد على بجانبه وهو اكبر ابنائه ولكن حب محمد على زينل للعلم والدراسة استحوذ على فكره وأخذ بمجامع قلبه فما هو الاً ان حزم أمره وترك مدينة جدة دون علم والده ، وذهب الى مصر وبدأ الدراسة فعلا بالجامع الازهر ، ولكن الحاج زينل الذى لم يطق فراق ابنه تبعه الى مصر وأعاده الى بلده ، ورأى محمد على نفسه مرة اخرى فى مدينة جدة وقد حيل بينه وبين ما يرغب من تعليم ، رأى نفسه كما حدثنى رحمه الله فى جدة وهو شاب فى العشرين أو دونها وكان يصف حال العلم والتعليم فى أوائل القرن الرابع عشر قال عن :

نشوء فكرة مدارس الفلاح

« كان يقوم الجمَّال من مكة المكرمة باحماله ومعه ورقه بها اسم الرجل الذى له البضاعة فيدخل من باب مكة الى ان يصل الى الخاسكية ـ قلب شارع الملك عبدالعزيز الآن ـ فلا يجد من يحسن قراءة الورقة التى بيده الى ان يُيَسِّر الله من يقرأها بعد الجهد والتعب فيستدل على صاحب الاحمال وينزلها لديه قال وكانت فى مدينة جدة كلها مدرسة واحدة هى ـ المدرسة الرشدية ـ كان موقعها امام مسجد الباشا وقد هدمت بعد خرابها وتقرر ابقاء الارض دون بناء توسعة للشارع ـ وكانت هذه المدرسة تعلم اللغة العربية بالتركية ـ كان هذا فى اواخر العهد العثمانى ـ وحين انتشار حركة التتريك التى كانت تمارسها جمعية الاتحاد والترقى

التركية ـ قال الحاج محمد على وهالنى الأمر ووجدت انه لابد من عمل شيء لتغيير الحال وتعليم الأولاد القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة على الاقل ولم يكن مسموحا بافتتاح المدارس او الكتاتيب فى ذلك العهد ، ولكن هذه العقبات جميعها لم تكن لتحول بين الرجل العظيم وما يريد قال فاستأجرنا مقعدا فى بيت ذاكر بحارة الشام ـ المقعد هو المجلس الذى كان يوجد فى مدخل كل بيت لاستقبال الرجال وجلوس صاحب المنزل به فى ذلك الحين ـ واتفقنا مع احد الفقهاء على تدريس الأولاد مبادىء القرآن الكريم والكتابة وتعليمهم صغار السور بين المغرب والعشاء قال الحاج محمد على وقد اخترنا هذا الوقت لنختفى عن عيون الدولة حيث لم يكن مصرّحاً لنا بهذا العمل ولأوّل مرةٍ وجدنا ان هناك مخاطر فى خروج الأولاد للدراسة وعودتهم تحت جنح الظلام فاتفقت واصدقائى عبدالرؤوف جمجوم ومحمد صالح جمجوم ، ويحيى سليم ومحمد صالح نوار أن يذهب كل منا الى منازل الاولاد (بعد الاتفاق مع آبائهم) لنأخذهم الى هذه المدرسة الصغيرة ثم نعيدهم الى منازلهم بعد انتهاء الدروس ، وهكذا كان فكان هؤلاء الشبان وجميعهم فى مطلع الشباب يذهبون الى بيوت الأولاد لإيصالهم إلى المدرسة ثم يعودون بهم بعد العشاء ليوصلوهم الى أهليهم بأمان .

تخذوا الظلام الى الضياء وسيلة ☆ والفجر يولد فى الدجى فيشيب

قال وكنا قد تقدمنا الى الحاكم التركى بطلب التصريح لنا بافتتاح مكتب لتعليم القرآن الكريم وقد حصلنا اخيرا على هذا التصريح فأصبحت المدرسة تمارس نشاطها فى وضح النهار واخذنا نشجع الكثيرين على ارسال اولادهم اليها ، وكان ما يأخذه الحاج محمد على زينل من مرتب شهرى لقاء عمله فى مكتب ابيه التجارى عشر روبيات[1] يذهب جميعه فى نفقات هذه المدرسة

---

(١) محمد على زينل رضا لمؤلفه محمد احمد الشاطرى .

الصغيرة وبدأ يفكر فى ايجاد موارد اكبر لتغطية نفقات المدرسة ومواجهة ما يحلم به من تكبيرها وتوسيع اغراضها ومن اهم ذلك ايجاد مبنى اكبر وأوسع ، وفى ذلك الوقت عرض مبنى مدرسة الفلاح الحالى بباب مكة للبيع وكان هذا المبنى بموقعه وبنائه الحديث وكثرة غرفه هو اصلح مكان للمدرسة التى يحلم بها هذا الشاب العظيم »

تَبرُّع زَوجتِهِ بحُليِّها وَجَواهِرها

وأخذ الرجل يفكر فى الطريقة التى يستطيع بها توفير المال اللازم وهو لا يملك منه شيئا واخذت الفكرة بمجامع قلبه حتى ارقت جفنه وأقضت مضجعه ورأت زوجه ـ السيدة خديجة بنت عمه الحاج عبدالله على رضا ـ ما هو عليه من تفكير فسألته عما يشغله فأسرَّ اليها بالأمر ولم يكن من هذه السيدة العظيمة الكريمة الا ان قدمت كل ما تملك من مجوهرات وحلى لزوجها ليبيعه ويشترى به البناء المطلوب ، وهكذا كانت هذه المكرمة العظيمة من تلك السيدة العظيمة سببا فى شراء المبنى الكبير لمدرسة الفلاح فى شهر شوال **١٣٢٣** هـ

هبـــة تطـــوق كل أنثى عزة ☆ ان كاثرتنـــا بالهبـــات وهوب

ولعله من المناسب هنا ان نذكر للتاريخ ان الجامعة المصرية ـ جامعة فؤاد الاول ـ اوجامعة القاهرة اخيرا حين تأسيسها كانت تفتقر إلى المال فتقدمت أحدى الأميرات المصريات الى الجامعة بمصوغاتها ومجوهراتها فوهبتها للجامعة وقد اشادت الصحف المصرية اذا ذاك بهذا الحدث ، نقول ان هبة السيدة خديجة بنت الحاج عبدالله على رضا لشراء مدرسة الفلاح كانت قبل ذلك ، وكان سبقها بهذه الهبة من الاعمال الجليلة التى تدل على سمو نفس صاحبتها جزاها الله خير الجزاء .

وبعد شراء مبنى المدرسة بدا لمحمد على جليا ان من الضروری العمل على ايجاد موارد مالية كافية للمدرسة ، فالمدرسة كل مدرسة كما هو معلوم كالمزرعة تبدأ فصلا واحدا ثم تنتهى الى فصول عديدة بحسب تدرج قدرة الطلاب على الاستيعاب وهكذا قرر محمد على الهجرة الى الهند طلبا لمجال أوسع من الرزق والعمل وسافر الى الهند تاركا المدرسة فى رعاية اصدقائه وزملائه وفى مقدمتهم الشابان عبدالرؤوف ومحمد صالح جمجوم وقد حدثنا الحاج محمد على شخصيا عن هذه الفترة ، فترة البداية فى مهجره بالهند قال كنت محتاجا الى المال الذى ابدأ به العمل وكان صديقى يحيى سليم يعرف ذلك فحسَّن لوالده ان يرسل معى مبلغا من المال لأرسل لهم به بعض البضائع بعد وصولى الى الهند قال محمد على وقد انتظر الشيخ سليم وقتا طويلا حتى وصلت اليه البضائع المطلوبة وكان ابنه يحيى سليم مطلعا على كل شيء .

ملك اللؤلؤ في العالم

وفى الهند اشتغل محمد على زينل بتجارة اللؤلؤ حيث كان يشترى اللآلئ فى مواسم الغوص من الموانىء الخاصة بذلك وهى البحرين والكويت ودبى فى الخليج ثم يصنف هذه اللآلىء حسب احجامها بعد ثقبها وصقلها فى عقود واساور وحلقان ويبيعها حسب أصنافها وأحجامها فى العواصم الأوربية العالمية فكان له مكتب فى لندن وآخر فى باريس بالاضافة الى مكاتبه فى بومباى بالهند وفى موانىء الخليج حتى اصبح من اشهر العاملين فى هذا العمل واطلق عليه ملك اللؤلؤ فى العالم ، وكان العهد العثمانى قد انتهى فى الحجاز وبدأ العهد الهاشمى وتمكن محمد على بما افاء الله عليه من خير من التوسع فى التعليم بمدارس الفلاح فأسس مدرسة الفلاح بمكة المكرمة سنة ١٣٣٠ هـ بعد مدرسة الفلاح فى جده كما اسس

مدرسة الفلاح فى بومباى سنة ١٣٥٠ هـ ومدرسة الفلاح فى عدن ومدرسة الفلاح فى دبى سنة ١٣٤٧ هـ ومدرسة الفلاح فى البحرين وكان يزمع تأسيس مدرسة الفلاح فى المدينة المنورة كذلك إلا أن ذلك لم يتم وقد حدثنى الشيخ محمد صالح جمجوم وكيل مدارس الفلاح فى جدة ومكة ان مقدار ما كان ينفقه الحاج محمد على زينل على المدرستين فى مكة وجدة سنويا وصل الى ثلاثة عشر الف جنيه من الذهب ، واستمر فى هذا الانفاق مايقرب من ثلاثين عاما وحينما بدأ العهد السعودى فى جدة كانت مدارس الفلاح تقريبا هى المدارس الوحيدة فى مكة وجدة التى اشتهرت بحسن إدارتها وجودة برامجها التعليمية وكان متخرجوها هم الأساس الذى قام عليه بناء الأدارة الحكومية فكانوا يشكلون القسم الأكبر من موظفى الدولة كما كانوا يمسكون بالاعمال الكتابية فى البيوت التجارية فى المدينتين كما اشتغل الكثيرون منهم بالتدريس فى مدارس الفلاح نفسها وفى المدارس الحكومية الأخرى فى بداية العهد السعودى .

البعثات التعليمية

ولم يكتف الحاج محمد على زينل بما تقوم به مدارس الفلاح فى كل من مكة وجدة على علو برامج الدراسة فيها فى ذلك الزمان باختيار أجود المدرسين وأستقدامهم من مصر وسوريا بالاضافة الى افضل المدرسين الوطنيين فقد كان يفكر فى اخراج جيل من الرجال المتعمقين فى دراسة الإسلام ليقوموا باداء رسالة الاسلام الحقيقية فى بلادهم ومن ثم عمد الى اختيار أفضل المتخرجين من طلاب الفلاح وابتعثهم إلى الهند ليكونوا تحت إشرافه الخاص بعد ان اعدَّ لهم برنامجا

علميا حافلا واستقدم لهم اعظم المدرسين من البلاد الاسلامية وكان يهدف بذلك الى اعداد جيل من الدعاة الاسلاميين الواعين لرسالة الاسلام وكان يغرى الطلاب بالاستمرار فى الدراسة او الابتعاث الى الهند بترتيب مرتبات شهرية مغرية لهم وخاصة لمن يكون أهلوهم من ذوى الدخل المحدود وهكذا كانت هذه المرتبات الشهرية للطلبة ولابائهم فى السنوات الثلاث الاخيرة من الدراسة فى الفلاح وهى السنوات العلمية كما اطلق عليها اذ ذاك وهى بعد الست سنوات العادية حافزا كبيرا للآباء لإبقاء ابنائهم مستمرين فى دراستهم كما كانت حافزا للموافقة على ارسال ابنائهم للاستزادة من العلم فى بومباى فى المدرسة التى اعدها الحاج محمد على هناك لهذه الغاية ٠

الدِّرَاسَة مجَانيَّة

ولست فى حاجة لأن أقول إن الدراسة فى مدارس الفلاح كانت مجانية لأبناء الفقراء والأغنياء على سواء ولم يكن يتكلف ولى امر الطالب سوى شراء الكتب المدرسية فى أول كل عام وكانت هذه الكتب تباع باسعار زهيدة يسهل توفر ثمنها لكل انسان ٠

انهيار تجارة اللؤلؤ

وبينما كان الحاج محمد على زينل يواصل جهوده العظيمة فى حقل التعليم كما اسلفنا وينفق المال الكثير فى هذا السبيل تعرضت اعمال هذا الرجل العظيم للانهيار بعد ظهور اللؤلؤ الصناعى اليابانى فى الخمسينات من هذا القرن الهجرى وكان هذا الحدث بعد ان اشترى الحاج محمد على اكبر كميات من اللؤلؤ فى مواسم الغوص من موانىء الخليج وهكذا وجد محمد على زينل نفسه بين يوم وليلة

يملك من اللآلىء الكثير الذى انفق فيه الملايين ولكن هذه اللآلىء لا تشترى ، فقد اتجه الناس الى شراء اللؤلؤ اليابانى الزائف الرخيص والذى لافارق بينه وبين اللآلىء الأصليه من ناحية المنظر فى شيء وتعرض الرجل لمصائب مالية تنوء بها العصبة اولو القوة ولو لم يكن الرجل على ايمان قوى بالله وعلى سمعة عالية لدى البنوك لكانت هذه المصاعب كافية للقضاء عليه ولكنه ثبت ثبات المؤمنين ، وقال وقد سلمت كل ما لدىَّ من لآلىء ومجوهرات الى البنوك تأمينا لهم لقاء ما استدنته من اموال وكانوا يقدرون الموقف فصبروا حتى يجعل الله من بعد عسر يسرا .

توقُّف الصّرف على مَدارس الفَلاح

وفى هذه الظروف البالغة السوء أنّىٰ يستطيع الحاج محمد على زينل ان ينفق ما كان ينفقه على الفلاح ، بل انّى له ان ينفق اى شيء وقد بلغ به الامر ما بلغ فاضطر الرجل العظيم آسفا ان يعلن ذلك للقائمين على شؤون الفلاح وكان لهذا الأمر أبلغ الأثر فى نفوس الناس عامة .

الأُمّة تتَولى الصّرف على الفَلاح

فقامت الأمة مجتمعة بما كان يقوم به فرد واحد هو الحاج محمد على زينل رضا ، وقد اجمع تجار مدينة جدة ان يتقدموا للدولة بفرض رسم مقداره قرش واحد على كل طرد يصل الى ميناء جدة ويستوفى هذا القرش لصالح مدارس الفلاح ، وكان الشيخ حمد السليمان الحمدان وكيل وزارة المالية مدعوا على العشاء بمنزل الشيخ عثمان باعثمان أحد أعيان جدة ومدير العين العزيزية فيما بعد ـ فتقدموا اليه

مجتمعين بهذا الطلب الذى وافق عليه فى الحال واصبحت حصيلة هذا الرسم تستوفى فى جميع جمارك المملكة وتؤدى لمدارس الفلاح ومن المهم هنا ان نذكر ان هذا القرش يضيفه التجار على تكلفة بضائعهم وهم يستردونه بطبيعة الحال ضمن هذه التكلفة حين البيع فهو ليس منحة من فئة معينة وانما هو مشاركة عامة من الأمة كلها فى الإنفاق على مدارس الفلاح ٠

الدَّوْلة تتولى تغطية مصاريف الفلاح

ولقد قامت الدولة فيما بعد مشكورة بتغطية مصاريف مدارس الفلاح فى كل من مكة وجدة وأصبح هذا القرش الذى كان يستوفى باسم الفلاح عائدا لمصلحة التعليم كله باسم (قرش المدارس) لأن هذا القرش لم يعد يكفى لسد متطلبات الانفاق على الفلاح بعد تطور التعليم فيها وتوسعه ليشمل المراحل الثلاث مثل مدارس وزارة المعارف وهكذا شملت الدولة اخيرا مدارس الفلاح برعايتها فأصبحت تعامل معاملة المدارس الحكومية سواء بسواء ٠

محمد علي زينل لا يقبل التبرع للفلاح

ولعله من الخير ونحن نستعرض حياة الحاج محمد على زينل وتاريخ الفلاح ان نذكر هنا انه كان لايقبل تبرعا من اى انسان ، فحينما كان قادرا على الانفاق أنشأ مدارس الفلاح وأنفق عليها من حرِّ ماله واستمر فى هذا الانفاق حتى عجز عنه تماما فتركه للأمة كلها تتولى الأمر نيابة عنه وهكذا كان ولقد حدث ان قدم الحاج محمد على زينل الى الحجاز فى احدى زياراته المعتادة التى كانت تتم كل بضعة اعوام مرة ، اقول قدم الى الحجاز فى الستينات وكانت مدارس الفلاح

معروضة للبيع فى مكة المكرمة وكانت مدارس الفلاح تشغل مبنيين فى القشاشية بمكة المكرمة قرب باب على ـ من ابواب المسجد الحرام ـ وكانت هذه المبانى مملوكة لأولاد الشريف على باشا امير مكة الاسبق ، وكان معلوما يومها ان ثمن هذين المبنيين هو مائة الف ريال وانى إنقل هنا من كتابى حبات من عنقود ما سبق ان كتبته عن هذا الأمر قبل سنوات :

سأبني رجالاً

(كنت عضوا فى مجلس إدارة الشركة العربية للتوفير والاقتصاد بمكة المكرمة ، وكان رئيس المجلس الصديق المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين ، وذات ليلة حضر الينا الشيخ عبدالله فى المجلس وقال هو بادى التأثر ، لقد علمت اليوم أن البناية التى تشغلها مدرسة الفلاح بالقشاشية معروضة للبيع وأن ثمنها يبلغ مائة الف ريال ، وإننى لا أتصور ماذا يكون حال التلاميذ وحال المدرسة بعد أن تباع بنايتها ؟ ثم استطرد قائلا الا يوجد مائة شخص من خريجى مدارس الفلاح فى مكة وجدة يستطيع كل منهم أن يدفع الف ريال فيجمعون قيمة المدرسة ويقدمونها هدية للحاج محمد على زينل رئيس مدارس الفلاح الموجود حاليا بين ظهرانينا ، قلنا إن ذلك واجب لا مناص منه وأن خير هدية تقدم للحاج محمد على وقد اعتذر عن قبول حفلات التكريم هى قيمة بناية هذه المدرسة التى غذّاها بعقله وماله وجهده طوال ثلاثين عاما أو تزيد ثم قلت للمجتمعين ، إن لدينا إلى جانب جمع التبرعات لشراء المدرسة وسائل أخرى بعضها فى يدنا هنا فى مجلس إدارة الشركة ، فإن لدينا بنداً للأعمال الخيرية مخصصا له بموجب نظام الشركة خمسة فى المائة من صافى أرباح الشركة سنويا ، وفى يدنا أن نصدر قرارا فى الحال باعتماد المخصص جميعه لمدارس الفلاح ، كما أننا نستطيع أن نفعل مثل ذلك فى الشركة العربية للسيارات وفى شركة الطبع والنشر ، وكل منكم له صلة بهاتين

الشركتين من قريب أو بعيد ، وإذا رغبتم فاننى سأشرح للشيخ محمد سرور وهو رئيس الشركات العربية جميعها الموقف كله وآخذ موافقته عليه ، ونكون بهذا قد جمعنا قسما هاما من المبلغ المطلوب من أيسر طريق ثم نلجأ بعدها إلى جمع التبرعات ، استحسن المجتمعون جميعا الفكرة ورحبوا بها وكلفونى أن أتحدث إلى الشيخ محمد سرور نيابة عنهم فيها ، وأعددت تقريرا مفصلا أوضحت فيه المبالغ التى يمكن جمعها من الشركات العربية وشرحت فيه الأمر شرحا وافيا ، وقدمته فى اليوم التالى للشيخ محمد سرور وقرأ التقرير بإمعان ثم قال : إننى موافق على كل ماجاء فى هذا التقرير ، ولكن هل تحدثتم إلى الحاج محمد على وأخذتم موافقته ؟ قلت : اننا نريد أخذ موافقتك أولا ثم نتحدث إليه ، قال : اننى موافق فخذوا موافقته وأخبرونى ، واتصلت بإخواننا فى مجلس ادارة الشركة العربية للتوفير والاقتصاد وأخبرتهم بالأمر فقرروا انتدابى مع الأستاذ الشيخ عبدالوهاب آشى والأخ السيد هاشم زواوى لمقابلة الحاج محمد على زينل وأخذ موافقته على الأمر ، وعهدنا إلى السيد هاشم بالاتصال بالحاج محمد على وتحديد موعد معه للمقابلة ، واتصل بى السيد هاشم فى اليوم التالى وقال : الاجتماع بعد صلاة الظهر مباشرة فى بيت الآشى بالقشاشية ، (هذا البيت هدم وأدخل ضمن التوسعة الأولى للمسجد الحرام) وذهبت إلى الموعد وبعد دقائق حضر الحاج محمد على وشرحت له الفكرة بحذافيرها ، وأشرق وجه الرجل العظيم وتهلل وهو يستمع إلى ثم قال : لقد فكرت يوما من الأيام أن أشترى محلا كبيراً هنا فى القشاشية أشيد فيه بناء المدرسة وأحيطه بدكاكين تكون موردا للمدرسة نفسها ، ولكن وقد حالت الظروف دون تحقيق هذا المطلب عزَّيت نفسى قائلا : إننى سأبنى رجالا ، وانى لأحمد الله تعالى أن جاء اليوم الذى رأيتكم فيه يا أبنائى ، يا أبناء الفلاح تغارون على مدرستكم وتفكرون فى شراء المبنى الذى يضم التلاميذ بعد أن علمتم أنه معروض للبيع وأنكم تخشون عليهم من الضياع ٠٠ ثم أردف

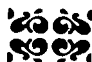
قائلا : ان أفكارى فى الواقع تتلاقى معكم ، وإننى هنا على اتصال بمالك الدار فى هذا الشأن وان لدى مبلغا أحضرته من الهند لهذه الغاية ، هذا ولم أر فى حياتى رجلا ساحر الحديث كالحاج محمد على زينل « مد الله فى عمره » هذه الحلقة نشرت قبل وفاته رحمه الله ، لم اجتمع اليه مرة الا وانطوى الوقت وهو يتحدث وأنا أستمع ، فلا نشعر بمرور الزمن ولا انقضاء الساعات ، وظل يومها يتحدث عن مدارس الفلاح وكيف أنشأها وهو موظف فى بيت أبيه بمرتب عشر روبيات فى الشهر الواحد ، وكيف كان وصحبه يأخذون التلاميذ من بيوت آبائهم بعد الغروب إلى المدرسة ثم يعيدونهم إلى دورهم فى صدر الليل لأن الدراسة كانت فى السر بعيدا عن أعين الدولة التركية ورقابتها ، وكيف سافر إلى الهند طلبا لتدبير المال لهذه المدارس وكيف تبرعت زوجه بحليها لتساهم فى شراء مدرسة الفلاح بجدة حينما عرضت للبيع ولم يكن يملك مالا لشرائها ، واستمر يتحدث ونحن نستمع إليه مأخوذين ولم نشعر الا وقد اذن للعصر ولم نتناول غداء ولم نفكر فى راحة وانتبه الرجل العظيم فقال لقد أضعت عليكم وقتا كبيرا ولكنى سأجتمع اليكم مرة اخرى ، قلت : ولكنى لم أسمع جوابا منك على اقتراحنا ، ان الشيخ محمد سرور ينتظر موافقتك لنبدأ الخطوات الأولى للمشروع ، قال : لا تفعلوا شيئا حتى أخبركم ، وأردف سأتقابل مع الشيخ محمد سرور ثم اجتمع اليكم مرة اخرى ، وانتظرنا وطال انتظارنا ، وكلما قدم لزيارة الشيخ محمد سرور تعرَّضت له مذكِّرا فيعدنى بأنه سيخبر الشيخ محمد سرور بما يستقر عليه رأيه ، وأخيرا سافر إلى جدة ومنها الى الهند وسألت الشيخ محمد سرور ألم تتلق شيئا من الحاج محمد على ؟ فقال فى هدوء كلا : ثم ابتسم وقال : انك لاتعرف الحاج محمد على إنه لايقبل تبَّرعا من احد قلت : حتى ولا من أبناء الفلاح ؟ قال لقد

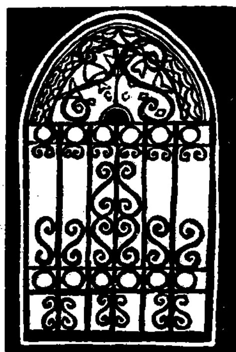
خبرت بنفسك الأمر فلا داعى للجواب ٠

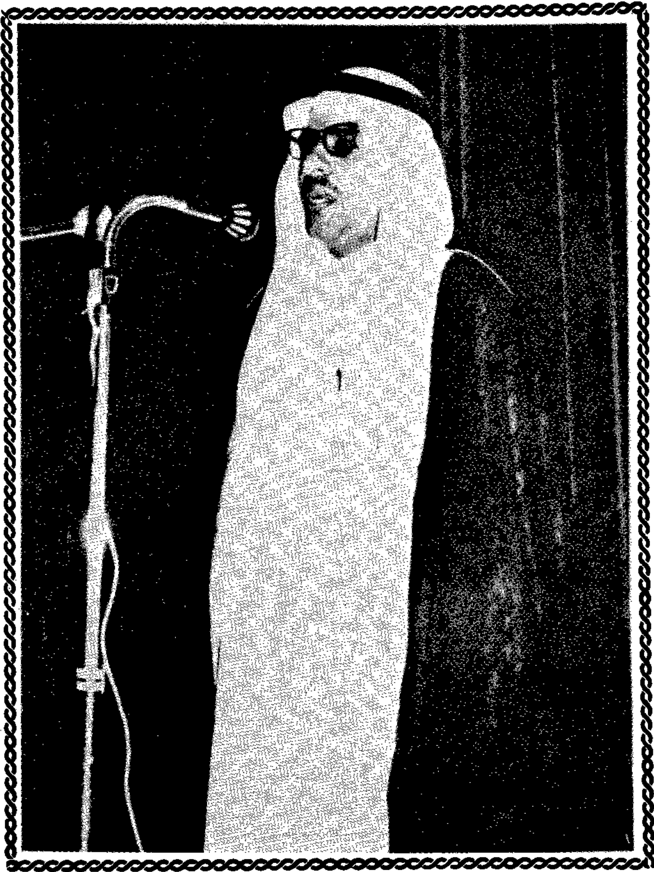
مد الله فى عمر مؤسس الفلاح فلقد كان ومايزال بأخلاقه العالية وعصاميته الفذة وغيرته العظيمة مدرسة كبرى تبنى الرجال ـ(هذا ما نقلته من كتابى حبات من عنقود مما سبق نشره قبل سنوات فى جريدة البلاد وهو مثل من أمثلة كثيرة تدل على أن محمد على زينل لايقبل تبرعا من أى جهة كانت لمشاريعه العظيمة التى أسسها وحينما عجز هو عن الانفاق على الفلاح لم يلجأ إلى جمع التبرعات وإنما ترك المدارس وديعة فى يد الأمة كلها تحتضنها دون أن يتدخل فى الأمر بصورة من الصُور وهو تصرف يدل على نفس عظيمة كريمة أبيّة ٠

ولقد استطاع الرجل العظيم بمرور الزمن ان يتغلب على الأزمة العظيمة التى تعرض لها وأخذ يعمل فى تجارة المجوهرات فى نطاق محدود ، وحينما علت سِنُّه أخذ يفكر فى العودة إلى وطنه والاستقرار فى الحجاز حيث تقيم أسرته الكبيرة وأحبابه الكثيرون ، وكنت أراه فى كل مرة يقدم فيها إلى الحجاز فأسأله عن موعد هذه العودة المرتقبة فيقول باق لى بالهند سنتان سنة تخليه وسنة تحليه ، والذى ظهر لى أن ارتباطاته الكثيرة فى الهند بعد أن قضى معظم عمره هناك لم تكن تسمح له بتركها ، وقد علمت من شقيقته السيدة عائشة زينل التى زارته فى السنوات الأخيرة من حياته أن بيته هناك كان مفتوحا للناس وخاصة للسيدات اللاتى لا عائل لهن ، كما علمت انه كان يساعد الحركات الاسلامية من ماله فى صمت ما وسعه ذلك ، وتعرض فى أواخر حياته لمرض خطير سافر من أجله لآل زينل بعد أن استقدموا له طبيبا من انجلترا لإجراء جراحة عاجلة كللت بالنجاح ولم تمض فترة من الزمن بعد ذلك الا وقد أدركته المنية فى مدينة بومباى ، وما أن علم جلالة المغفور له الملك فيصل بالأمر حتى أمر بارسال طائرة خاصة لنقل جثمانه إلى الحجاز ولكن الحاج محمد على رحمه الله أوصى أن يدفن حيث يقبض

فدفن فى مدينة بومباى بالهند وقد تركت وفاته رنة حزن وأسى لدى كل عارفيه ونعته صحف الحجاز خاصة وكتب الكثيرون عنه رحمه الله رحمة الأبرار وكانت وفاته بتاريخ ٢ شعبان ١٣٨٩ هـ أحسن الله جزاءه وأسبغ عليه شآبيب رحمته ورضوانه فقد كان من أعظم الرجال ..







محمد عبدالصمد فدا

محمد عبد الصمد فدا

متوسط القامة معتدل الجسم أسمر اللون له لحية خفيفة يضع نظارة على عينيه ويرتدى العباءة والعقال ٠

ولد الأستاذ محمد فدا بمكة المكرمة عام ١٣٤٣ هجرية وتلقى تعليمه فى مدارس الفلاح بمكة المكرمة ثم ابتعث الى مصر والتحق بكلية الشريعة بجامعة الأزهر متخصصا فى القضاء وعاد منها الى الحجاز عام ١٣٧٠ للهجرة وعين عقب تخرجه قاضيا بمدينة رابغ الا انه كان يرغب العمل فى سلك التعليم فاعتذر عن قبول الوظيفة التى أسندت اليه ومن ثم عين مدرسا بالمعهد العلمى السعودى أوائل عام ١٣٧١ هـ وحينما ظهرت مواهبه فى التدريس عين فى ١/١١/٧٢ هـ مديرا للمدرسة الرحمانية الثانوية وانتقل فى ١/٢/٧٦ هـ إلى المدرسة العزيزية الثانوية مديرا لها ثم عين مستشارا بمكتب المستشارية لوزارة المعارف فى ١/١١/٧٧ هـ الى ١/٥/٧٨ هـ حيث اختير مديرا للمدرسة النموذجية بالطائف التى تحولت فيما بعد الى مدرسة الثغر النموذجية بجدة ٠

المدرسة النموذجية بالطائف

قام المرحوم ابراهيم أدهم وهو والد سعادة الأستاذ كمال ادهم بإنشاء المدرسة النموذجية بالطائف لغرض نبيل فقد أسست المدرسة فى البداية لتكون مدرسة للأمراء وقام المرحوم ابراهيم أدهم باحتضان التلاميذ اليتامى فى المدرسة المذكورة ، لإيوائهم وتعليمهم وسرعان ما أصبح عدد هؤلاء التلاميذ اليتامى كبيرا وأصبحت العناية بالمدرسة المذكورة ضرورة حتمية فشملها برعايته صاحب السمو الملكى الأمير فيصل النائب العام لجلالة الملك ـ جلالة الملك فيصل فيما بعد ـ وحولها الى مدرسة نموذجية ومن ثم اختير الأستاذ محمد عبدالصمد فدا رحمه الله مديرا لها لما عرف عنه من القدرة الادارية الفائقة وقوة الشخصية الى جانب مؤهلاته العلمية وخبرته السابقة فى التعليم حوالى الثمانية أعوام ومنذ تولى الاستاذ محمد فدا ادارة المدرسة النموذجبه بالطائف استطاع ان يكتسب ثقة جلالة الملك فيصل رحمه الله فاتخذ بتأييد من جلالته الاجراءات التى تكفل لهذه المدرسة ان تكون نموذجية فعلا لا اسما وقد رؤى ان تنتقل المدرسة الى مدينة جدة ليكون الانتفاع بها شاملا لا يقتصر على سكان مدينة الطائف وحدها ولقد بدأت المدرسة النموذجية بالطائف تكتسب سمعتها الأولى فانتقل اليها بعض ابناء كبار رجالات مكة وخاصة من موظفى الدولة وحينما تم بناء المدرسة بجدة واعدادها انتقلت المدرسة النموذجية اليها بكامل طلبتها وخصصت لها ميزانية ضخمة فى كل عام واطلق عليها اسم « **مدرسة الثغر النموذجية** » .

وفى هذه الفترة عرفت المرحوم الأستاذ محمد فدا اداريا قديرا ومربيا عظيما ، ورجلا قوى الشخصية لا يتهاون فى تطبيق أنظمة المدرسة ازاء صغير أو كبير

فالطالب الذى يسقط فى سنة من السنوات ولا ينجح فى الملحق لابقاء له بين صفوف طلاب الثغر وإنما ينتقل الى مدرسة اخرى ، والدراسة فى المدرسة علمية فى مرحلة التوجيهية فالطالب الذى لا يتفوق فى المواد العلمية أو الذى لا يميل اليها لا بقاء له فى المدرسة ولو كان متفوقا فى المواد الأدبية ولن يشفع له قط ان يكون ابن أمير أو كبير ولن يشفع له كذلك ان يكون ابوه صديقا حميما لمحمد فدا بالذات ، ولعله كان أشد ما يكون صرامة مع الطلاب من أبناء اصدقائه وذوى قرباه وعلامات الطالب تراقب فى الاختبارات الشهرية وترسل نتائجها الى آباء الطلاب وكنا نترقب هذه العلامات فى كل شهر بقلوب واجفة خشية ان يكون أحد الابناء مقصرا فى بعض الدروس والويل لمن تأتى الشهادة الشهرية وفيها علامة حمراء فمعنى هذا أن الخطر على الأبواب .

وتحل المصيبة العظمى اذا أساء الطلاب أحدهم او بعضهم سلوكه فى المدرسة ولم يعترفوا بما اقترفوا ويدلوا على الفاعل هنالك ينتقل الأمر الى آباء الطلاب وأولياء أمورهم وهناك ترسل الخطابات الى هؤلاء الآباء بطلب الحضور وكنا نعرف ان المقابلة ستكون عاصفة وإننا لا نملك فيها الا التسليم بما يرتئيه الاستاذ فدا ، وبهذه الوسائل كان البيت مرتبطا بالمدرسة اشد ارتباط وكان الآباء والأمهات على علم تام بأحوال ابنائهم الدراسية بل وبسلوكهم واخلاقياتهم ، وهكذا كان الاستاذ محمد فدا شخصية يحسب حسابها الجميع ويحبها الجميع اشد الحب لانهم يضعون بين يديه مستقبل أبنائهم ويعرفون أن هؤلاء الأبناء فى يد أمينة كريمة .

ولتكتمل الصورة لدى القارىء عن هذه المدرسة او المؤسسة العظيمة (مدارس الثغر النموذجية) لابد ان نذكر ان المدرسة تضم قسما داخليا تهيىء

فيه للطلاب كل وسائل الراحة من المأكل والمضجع والتطبيب الى مختلف النشاطات الرياضية التى تحفل بها برامج هذه المدارس وكذلك البرامج الاجتماعية

والفنية وكان الاختيار لكل العاملين في هذه المدارس من مدرسين وعاملين فى مختلف أعمال المدرسة وشؤونها يتم على أسس مؤهلات علمية وخبرات سابقة وكان الاستاذ محمد فدا يشرف على الكبيرة والصغيرة فى شؤون هذه المدارس مواصلا الليل بالنهار فى تقصى هذه الأمور لضمان سيرها على الوجه المطلوب وكانت الحفلة السنوية التى تقيمها المدرسة والتى تعرض فيها نشاطات الطلاب يتخللها بعض البرامج التمثيلية الناجحة يدعى لها آباء الطلاب بل والأمراء والوزراء ويحضرها صاحب السمو الملكى الأمير فيصل ولى العهد - ولم ينقطع عن حضورها الا بعد ان ولى العرش وأصبح وقته كله مشغولا بشؤون الدولة ، نقول ان هذا الحفل السنوى كان أشبه بمظاهرة ثقافية يحرص الجميع على حضورها فى كل عام ٠

وليس سرا ان مدارس الثغر النموذجية سبقت جميع المدارس الى تقديم الوجبة الغذائية التى كانت اجبارية على جميع الطلاب والتى كانت غنية بأصناف الطعام ولقد سألت الاستاذ فدا رحمه الله لم لا تكون هذه الوجبة اختيارية ؟ فقال حتى لا يشعر الطلاب الذين يحتاجون اليها بالفارق بينهم وبين زملائهم الذين يجدون مثلها فى بيوتهم فى كل يوم وليست هذه بأولى ملاحظات الاستاذ فدا بل ومحافظاته على شعور ابنائه من الطلاب وغرس روح المساواة بينهم ، كما كانت مدارس الثغر اول مدرسة فيما اعلم توحد زى الطلاب وهو الزامى فيها ، ولقد كان الاستاذ فدا يعرف قدرات طلابه ويرعاهم الرعاية الكاملة ٠

حدثني مرة انه يعرف طالبين من أنجب الطلاب فى مكة المكرمة وكان يترقب لهما مستقبلا زاهرا اذا اتما دراستهما وكان يرغب ان ينقلهما الى مدارس الثغر توطئة لابتعاثهما الى الخارج ولكن والد الطالبين كان يعارض حتى فى مجرد انتقالهما الى جدة فضلا عن السفر الى امريكا واوربا فمازال به حتى اقنعه وانتقل الطالبان فعلا الى مدارس الثغر بجدة ولقد صحت نبوءة الاستاذ فدا رحمه الله حينما عاد احد الطالبين مهندسا عظيما من الولايات المتحدة ولم يمض طويل وقت حتى اسند اليه منصب رئيسى فى مجال عمله ، بل استطيع ان أقول ان معظم من عرفت من طلاب الثغر هم من أصحاب المكانة المرموقة فمنهم من أكمل الدراسة الجامعية الى اقصى مراحلها واصبحوا من الأساتذة المعروفين فى الجامعات ومنهم من برز فى ميدان الهندسة او فى الأعمال التجارية ، والجميع يذكرون استاذهم محمد فدا بالإكبار والحب ولعلى لا أفشى سرا حينما أقول ان ابنائى وقد قرأوا ما اكتبه عن أعلام القرن الرابع عشر سألونى لماذا لا أكتب عن أستاذنا محمد فدا ؟ ولقد اكبرت فيهم هذا الوفاء لأستاذهم العظيم ولم اكن له ناسيا فهو علم من أعلام هذه البلاد فى مجاله يرحمه الله .

عُضوجَامِعَةِ المِلكِ عَبْدالعَزيز

وفى رحاب مدرسة الثغر ولدت فكرة جامعة الملك عبدالعزيز أو على الأصح ولدت الترتيبات الخاصة بها وكان المرحوم محمد فدا فى رحلة فى الخارج حينما ظهرت الفكرة ودعى الناس للاجتماع لانتخاب الهيئة التأسيسية للجامعة وكان المطلوب من الراغبين فى عضوية هذه الهيئة ترشيح أنفسهم لها ولما كان الأستاذ محمد فدا

غائبا عن البلاد فقد ارتأت الهيئة التى تشرف على فكرة الجامعة ان يكون الاستاذ فدا من ضمن المرشحين لهذه العضوية فأعلن المرحوم السيد احمد شطا اسمه كأحد المرشحين الذين لم يستطيعوا ترشيح انفسهم لغيابهم وقد نال فى هذا الانتخاب الكثير من الاصوات لما يتمتع به من سمعة طيبة ومقام ملحوظ ، ولقد اختارت الهيئة التأسيسية للجامعة مدرسة الثغر مقرا لاجتماعاتها الأسبوعية والتى كانت حافلة بالجهود الكبيرة للتأسيس ولم تنقل منها إلا بعد ان تسلمت مبانى الجامعة التى قدمها لها المرحوم الشيخ عبدالله السليمان وتم إصلاح المبنى الاول فيها وهكذا ساهمت مدارس الثغر فى احتضان فكرة الجامعة التى هى مفخرة من مفاخر مدينة جدة ومعلم من اكبر معالم النهضة فى البلاد كما ان الحفل الذى نظم لجمع التبرعات للجامعة اقيم كذلك فى مسرح مدرسة الثغر بجده وحضره جلالة المغفور له الملك فيصل وتدفقت التبرعات السخية للجامعة فى ذلك الحفل الكبير .

هذا وقد تفضل الأخ الأستاذ محمد سعيد طيب بزيارتى قبيل طبع هذا الكتاب وقدم لى قصاصات كان يحتفظ بها مما نشرته الصحف بعد وفاة المرحوم الصديق الأستاذ محمد فدا مدير مدارس الثغر النموذجية وتحدث الى بمعلوماته عن الاستاذ فدا رحمه الله الذى كانت تربطه به زمالة الصداقة والعمل منذ فجر شبابه الباكر ولقد كنت حريصا دائما على اضافة معلومات الإخوان الكرام إلى ما أكتبه فى تراجم أعلام الحجاز وكنت ألجأ إلى اهليهم وأصدقائهم مستمدا ما لديهم من هذه المعلومات التى قد يكون بعضها بعيدا عنى ، وحسنا فعل الأستاذ محمد سعيد طيب لأنه أتاح لى الاطلاع على أشياء جديدة كان من الواجب أن تضاف إلى ما كتبته عنه .

محمد فدا الشاعر

إن أهم ما لفت نظرى فيا قدمه الأستاذ محمد سعيد طيب عن المرحوم الأستاذ محمد فدا أنه كان شاعرا مشرق الديباجة رائع المعانى والكلمات ولقد أورد المرحوم الاستاذ فؤاد شاكر بعض قصائده التى نظمها وألقاها فى مناسبات معينه ذلك أن صاحب السمو الملكى الأمير عبدالله الفيصل زار دار البعثات السعودية فى مصر فاحتفل به الطلاب وكان محمد فدا أحد أعضاء البعثة فرحب بسموه بقصيدة شعرية ثم دعا سموه أعضاء البعثة فى رحلة ترفيهية إلى القناطر الخيريه فألقى محمد فدا كذلك قصيدة فى هذه الرحلة وإننى اورد هنا بعضا من أبيات هذه القصائد التى أوردها المرحوم الأستاذ فؤاد شاكر الذى كان مشاركا فى هذه الحفلات :

يقول فى وصف مرابع القناطر الخيرية :

مشهد الحسن والخفر ☆ فتنة الماء والزهر
معهد الفن والهوى ☆ متعة الروح والبصر
يسعد العاشقون فى ☆ جوها الحالم العطر

ويخاطب الأمير الشاعر قائلا :

شاعر الحسن قف تزود ☆ لأيامك الأخر
واندفق يافؤاد الشعر ☆ نشوان وابتكر
واقتبس للقصيد من ☆ رائد الفن والشعر

ومنها :

شـاعــر انــت عندمـا ☆ اختـرت ذا المربـع النضر
ومثــال لفيصـــل ☆ فى طبــاع له غرر

والسؤال الذى ورد على ذهنى بعد قراءة ما أورده الأستاذ فؤاد شاكر هو اين ذهب شعر الأستاذ فدا ؟ فمن المؤكد ان له قصائد اخرى كثيرة أو قليلة وقد عرف الناس محمد فدا خطيبا مفوها يعتلى المنبر فيرتجل من الكلام أحسنه غير مستعين بورقة مكتوبة أو بإعداد سابق ـ سوى الإعداد الذهنى ـ اذا صح هذا التعبير كما انى علمت أنه كان لايستسيغ الخطابة التـى تعتمـد على الاوراق المكتوبة أما اللحن اللغوى أو النحوى فانه ينفر منه نفورا شديدا بل ويزدريه وكل هذا الذى ذكرته إنما يدل على أصالة الحاسة الادبية وتمكنها وكل هذا يجعل ممارسة الشعر أمرا سهلا لمن توفرت له هذه الصفات ولئن استطاع الأستاذ محمد فدا ان يبعد الانظار عنه كشاعر فلن يستطيع فيما أرى ألا يمارس نظم الشعر أو التدفق به فى بعض المواقف لأن تجربتى فى الشعر انه يملى على الشاعر ما يقول وفى الوقت الذى تتجلى فيه الدوافع التى لا يملك الشاعر لها مقاومة أو دفعا ٠

ولهذا فان للشاعر محمد فدا أو يجب أن يكون له قصائد قليلة او كثيرة ضمن محفوظاته وإن كان لم يظهرها للناس ولابد ان تكون كريماته وهن المثقفات يعلمن عن هذا الأمر فلا أقل من إظهار هذه الآثار للنشر لتكون الصورة عن محمد فدا الشاعر مجلوة إلى جانب الجوانب الأخرى لهذه الشـخصية الكريمـة والعظيمـة الصفات ٠

مرضه ووفاته

فى أحد اجتماعاتى بالاستاذ فدا بعد ان توثقت أواصر الصداقة بينى وبينه قال لى : إننى اقرأ ما تكتبه عن رحلاتك فى الخارج وأود لو رافقتك فى بعض هذه الرحلات فاننى أزور انكلترا ولكنى لا اعرف شيئا عن معالمها السياحية فحركتى محدودة بين الطبيب والسفارة ومنازل بعض الأصدقاء الى جانب جولات فى شارع اكسفورد (استريت) الذى انزل فى أحد فنادقه بعد العشاء ، قلت إننى مسافر هذا الصيف ورحلتى فيه تشمل مدنا فى أواسط اوروبا وشمالها وإنه ليسعدنى كثيرا ان تكون رفيقى فى هذه الرحلة وتواعدنا على الاجتماع فى لندن وحضر رحمه الله فى الموعد الذى عينه ونظمنا برنامج الرحلة بحيث نزور الدانمرك والمانيا وسويسرا معا وقبل سفرنا من لندن بثلاثة أيام حضر المرحوم الصديق الشيخ محمود عطار وكان معنا فى لندن وقال لى أبلغ الأستاذ فدا أن الطبيب فلان يريد أن يراه فقد علم منى عرضا أنه هنا فى لندن وهو يصر على ذلك وأبلغت الأستاذ فدا ما سمعت فوجم فألححت عليه أن يذهب طالما أن الأمر يتعلق بصحته فوافق وفى اليوم التالى قال لى وفى صوته رنة حزينة لا تنتظرنى فإنى سأطيل المقام هنا حسب نصحية الطبيب وكنت أعلم عن مرضه فطمأنته وأعطيته أسماء الفنادق التى سأنزل بها وقلت له إننى سأتصل به فيما بعد ومن مدينة ميونيخ بألمانيا اتصلت به وقلت له إننى سأكون موجودا فى جنيف بعد ثلاثة أيام قال وستجدنى هناك وفى فندق مجاور للفندق الذى تنزل فيه وفى الموعد المعين حضر وكان بادى الانشراح منبسط الأسارير وقضينا بضعة أيام فى سويسرا نزور معالمها كما نظمنا رحلة بالسيارة تشمل كثيرا من المدن السويسرية وتخترق بعض المدن الفرنسية وتناولنا الغداء فى مدينة لوزان وخلال جلسة الغداء أدهشنى الأستاذ فدا

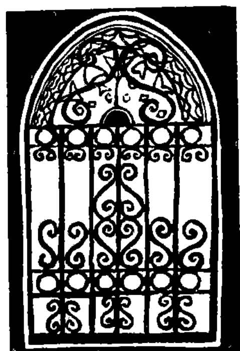
بمحفوظاته من الشعر وقد أسمعنى قصائد قديمة من الشعر الغزلى نشرت لى فى الخمسينات فأدركت أن للرجل ذوقا أدبيا إلى جانب شخصيته الحازمة فى التربية والتعليم • ثم اقترب موعد عودتنا الى المملكة فافترقنا على أمل أن نجتمع مرة أخرى فى الصيف القادم وقد صمت فجأة ثم قال يبدو لى أنه ليس فى عمرى بقية لرحلة أخرى اننى اقترب من النهاية قلت اتق الله يارجل فإنك فى خير حال وفى الصيف التالى قال إننى قررت الذهاب هذه المرة إلى أمريكا فإنى لم أزرها من قبل فتمنيت له كل خير وقلت له إن الطب هناك متقدم كثيرا عنه فى انكلترا التى تزورها دائما لهذه الغاية •

وسافر إلى أمريكا وما لبثنا أن علمنا أنه أدخل المستشفى ثم اشتد عليه المرض فكان هناك يتنفس فى خيمة من الأوكسيجين وأن صحته تتداعى ومع ذلك فقد أصر على أن تعود زوجته وبناته إلى جدة للالتحاق بمدارسهن حيث كان موعد افتتاح المدارس قد أزف وفى مساء الخميس ١٣٨٥/٧/١١ هـ أسلم الروح بمدينة واشنطن فى امريكا ونقل جثمانه بالطائرة حيث دفن بمقبرة المعلاة بمكة المكرمة مساء الثلاثاء ١٣٨٥/٧/١٦ هـ فى مشهد مهيب اشترك فيه أصدقاؤه وطلابه رحمه الله فلقد كان مربيا قديرا وأستاذا عظيما تغمده الله برحماته وأحسن جزاءه فى جنات الخلود •



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة





الشيخ محمد ماجد الكردى

الشيخ محمد ماجد كردي

ولد الشيخ محمد ماجد بن صالح كردى بمكة المكرمة عام ١٢٩٤ للهجرة وتلقى العلم على أيدى علماء مكة المكرمة فى عصره وحفظ القرآن الكريم وكان شغوفا بالعلم والدراسة منذ نعومة أظفاره كما كان شغوفاً بالقراءة فكان يقتنى الكتب المطبوعة والمخطوطة ومما لاشك فيه أن رغبته الصادقة فى التزود من المعرفة هى التى هيأته لجمع هذه المجموعة العظمة من الكتب مع ما وهبه الله من ثراء يسرَّ له شراء الكتب المخطوطة والمطبوعة وضمها إلى مكتبته العظيمة قالوا : وكانت مكتبة الشيخ ماجد كردى فى مكة المكرمة تعتبر أكبر وأغنى مكتبة خاصة بما تحويه من مجموعات قيِّمة فى التفاسير والأحاديث النبوية وكتب الفقه واللغة ودواوين الشعر وكتب التراث وكانت تمتاز بالمخطوطات النفيسة النادرة التى تضمها هذه المكتبة القيِّمة ، وكان الشيخ ماجد كردى على اتصال بأصحاب المكتبات وعشاق الكتب فى جميع أنحاء العالم الإسلامى فكان يستورد كل جديد ونادر من الكتب المخطوطة والمطبوعة ويضمها إلى مكتبته الفريدة القيمة والتى أطلق عليها اسم المكتبة الماجدية .

المطبعة الماجدية

وكان الشيخ ماجد كردى من أوائل الناس الذين فكروا فى تأسيس المطابع فى الحجاز وفى مكة بصورة خاصة وله بحث قيم عن تاريخ المطابع نشر بجريدة أم القرى وكتب عنه كتابة مطولة الأستاذ عثمان حافظ فى كتابه نشأة الصحافة وتطورها فى المملكة العربية السعودية ·

نعم لقد رأى الشيخ ماجد كردى بما وهبه الله من بصيرة نافذة أن نشر العلم يجب أن يستند إلى وسائل تتيح تعميمه وتيسيره للناس ولما كان الكتاب هو وسيلة نشر العلم وكانت الكتب فى الماضى تعتمد على نسخ النساخ أو نسخ طلبة العلم أنفسهم فان هذه الوسيلة البطيئة لم تعد قادرة على إشباع نهمة الطلاب الذين يتكاثرون وخاصة مع انتشار المدارس وتكاثر عدد الطلاب فقام أولاً بشراء مطبعة شمس الحقيقة الموجودة بمكة والمؤسسة عام ١٣٢٧ هـ ولكنه وجد أن هذه المطبعة قديمة ولا تقوم بإنجاز ما كان يطمح إليه ، فاستورد المطبعة الماجدية إلى مكة المكرمة ، حدثنى ابنه الشيخ عادل ماجد كردى عضو مجلس الشورى قال حينما قام الوالد باستيراد المطبعة الماجدية واجه صعوبات جمة فى نقلها إلى مكة المكرمة فإن الأجهزة التى تتألف منها المطبعة ثقيلة الحجم ولم تكن هناك السيارات ولا الرافعات فإن عصر السيارة لم يكن قد حان فى الحجاز ولم تكن هناك وسيلة للنقل سوى الجمال والخيل والبغال فاختار الوالد أن تكون البغال هى وسيلة النقل إلى مكة لما تتمتع به من قوة على حمل الأثقال ، ومع ذلك فإن حجم المطبعة كان أثقل من أن تتحمله البغال فى طريق صحراوى رملى غير معبد ، فكانت البغال تنوء بحملها الثقيل وبعضها يضعف عن مواصلة الحمل والبعض الآخر ينفق

تحت وطأة هذه الحمولة الثقيلة فتستبدل البغال بغيرها وهكذا تم النقل على مراحل وفى عناء شديد ولولا رغبة الوالد الشديدة فى إنشاء المطبعة بمكة المكرمة لكانت هذه الصعوبات كافية فى إثنائه عما يريد ، ولكن همم الرجال لا تقف أمام العقبات وإنما تتخطاها وتذللها وهكذا كان الشيخ ماجد كردى بهمته العظيمة وبحبه الكبير لنشر العلم مثالا فريدا فى قوة الارادة وفى البذل لبلوغ الهدف الذى يريد ، ولم تقف العقبات عند وصول المطابع الى مكة المكرمة وتركيبها فكان لابد من توافر الأيدى الفنية لتشغيل هذه المطابع وكان الطبع فى ذلك الوقت يعتمد على صف الحروف التى تسبك سباكة مستقلة ، ولم يكن قد عرف (اليونوتيب) وما إليه من أجهزة الصف الحديثة فكان جمع الحروف وتوضيبها يتم باليد ، تصنف الحروف المسبوكة سابقا فى ادراج معينة فى المطبعة ويجمعها عمال الصف فى سطور بطريقة معلومة لعدم تداخل الحروف فى بعضها فاستقدم الشيخ ماجد عمالا لهذه الغاية وأمر أولاده أن يتعلموا كيف يقومون بصفٍّ الحروف وبادارة آلات المطابع كلها وكل ما يتعلق بها موفرا لمطبعته الاكتفاء الذاتى حتى لاتتعطل عن العمل ، قال الشيخ عادل فكنا نعمل فى المطبعة بأيدينا عمال صف وطبع ولم يأنف ماجد كردى أن يكون اولاده عمال صف وطبع وهو من هو فى ثرائه ومكانته الاجتماعية الكبيرة بل رأى أن هذا العمل هو نوع من حسن التربية للأولاد الذين أمرهم من قبل بحفظ القرآن الكريم على عادة الكثيرين من أهل مكة المكرمة فى ذلك الزمان وهكذا أنشأ الشيخ ماجد كردى المطبعة الماجدية .

وهكذا كنا فى مقاعد الدراسة فى ذلك الزمان نجد بين أيدينا كتب الفقه والحديث والتاريخ والتجويد والنحو وما إليها وقد كتب على غلافها (طبع بالمطبعة الماجدية بمكة المكرمة) وهذا هو المجد الذى حققه ماجد كردى رحمه الله

إذ يسرَّ لمدارس الحجاز حاجتها من الكتب المدرسية فلا تتعطل الدراسة انتظارا لوصول الكتب من الخارج وإنما هى مطبوعة فى مكة المكرمة وموجودة بين أيدى المدرسين والطلاب فى الموعد الصحيح ولم تقتصر المطبعة الماجدية على طبع الكتب المدرسية وانما كانت تقوم كذلك بطبع المطبوعات التجارية والكتب الأخرى ومن أهم ما طبعته كتاب تاريخ مكة للأزرقى فى مجلدين وهو من أقدم وأهم كتب التراث قام بتحقيقه الأستاذ رشدى ملحس رحمه الله وكان يعمل بجريدة أم القرى فى مكة المكرمة فى أواخر الأربعينات ، وهكذا أنشأ ماجد كردى رحمه الله بمكتبته العظيمة ومطبعته منارة لنشر العلم فى بلد الله الحرام وبذل فى سبيل ذلك من المال والجهد ما جعله علما من الأعلام .

بيت الكردي في القرارة

ولن يتم الحديث عن الشيخ ماجد كردى إلا إذا المحنا بشيء عن أخلاقه الشخصية فلقد كان الرجل طالب علم محبا للعلماء وكان بيته فى مكة المكرمة بالقرارة مفتوحا للناس وخاصة للعلماء ورجال الدين والمقرئين من حجاج بيت الله الحرام وكان الرجل بحكم صلته العلمية بالعلماء محط الأنظار فكان يستضيف العلماء ورجال الدين وأعلام الأدب الذين يصلون الى مكة المكرمة من جميع أنحاء العالم الإسلامى فيجدون فى داره حسن الضيافة وطيب المقام ، وكانت هذه الدار علاوة على ما توفره لمن تستضيفهم تعتبر منتدى علميا وأدبيا فى موسم الحج خاصة ، فتعقد فيها الندوات يستمع الناس فيها إلى قراءة القرآن الكريم من مقرئين أصواتهم حسنة ، وإلى تفسير للآيات من عالم بالتفسير وإلى أبحاث دينية وعلمية يسهم فيها أصحاب الاختصاص من الحاضرين كما يلقى فيها

الشعر ويتبارى فيها الأدباء وأصحاب الفكر فهي منتدى حافل بكل طريف ومفيد وكان الشيخ ماجد يحرص على أن يوفر للقادمين إلى هذا النادى ما يحببه اليهم من حسن الضيافة وكرمها وجميل الاستقبال والترحيب ٠

دَار الكُردِي بمُنىٰ

وللتاريخ فإن دار الشيخ ماجد كردى بمنى حتى بعد وفاته رحمه الله كانت تؤدى نفس الغاية ولكن على نطاق اكبر فكان يعقد فيها فى ليالى التشريق هذه الندوات ومن أشهرها الندوة الخطابية التى يقيمها شباب مكة المكرمة وأدباؤها فى كل عام للوافدين من حجاج بيت الله الحرام وكان كل من قدم من أعلام الرجال للحج يحضر هذه الندوة وقد شهدت الدكتور محمد حسين هيكل مؤلف الكتب الاسلامية الشهيرة فى منزل الوحى وغيره يحضرها ويخطب فيها كما شهدت زعيم فلسطين الحاج محمد أمين الحسينى رحمه الله حضر فيها ومعه زعيم لبنان المرحوم رياض الصلح وقد طلب الحاضرون منهما الخطابة فألقى الحاج محمد أمين الحسينى كلمة فيها كما كانت للمرشد العالم للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا رحمه الله فيها مواقف خطابية شهيرة كل عام ، ولقد كانت الدار على رحبها تضيق بالمئات من الناس الذين يؤمونها فى تلك الليلة المشهودة وإنى لأذكر أن هناك مَنَصَّةً فى رحبة الدار ناءت بما تحمله من الناس ، وكانت من الخشب فتكسرت ولم تحدث أى أضرار وكان الشيخ حامد الفقى رئيس جماعة أنصار السنة حاضراً فى تلك الليلة فقام وطلب التبرع لإصلاح الدار ولكن سارع الشيخ كامل ماجد كردى أكبر أبناء المرحوم ماجد كردى إلى القول بأن أصحاب الدار يشكرون له وللحاضرين هذا الشعور ولكنهم بحمد الله قادرون على

إصلاح ما تضرر ويعتذرون عن قبول التبرع ، قال هذا الدكتور محمد على الشواف رحمه الله بلسان الشيخ كامل كردى وإخوانه وهكذا فإن حسنات الشيخ ماجد كردى امتدت الى مابعد وفاته فقد سار أبناؤه ما أمكنهم فى الطريق الذى رسمه لهم والدهم العظيم .

مصير المطبعة

هذا وقد أدركت المطبعة الماجدية يديرها الشيخ طاهر كردى ابن الشيخ ماجد كردى رحمه الله فى مكة المكرمة فى الخمسينات وعهدى بها أنها استمرت بعد ذلك ولكننى لا أدرى ماذا تم فيها بعد ذلك وبعد التطور الكبير الذى أدخل على المطابع وانشغال أبناء الشيخ ماجد بالعمل الحكومى ووفاة البعض الآخر فقد كان الشيخ صادق ماجد كردى مديرا لدار البعثات السعودية بالاسكندرية لفترة طويلة كما ان الشيخ عادل ماجد كردى هو عضو مجلس الشورى فى الوقت الحاضر .

هذا بالنسبة للمطبعة أما المكتبة فكما قدمنا انها كانت تضم نوادر المخطوطات الى جانب ما تحويه من الكتب المطبوعة القيمة فى شتى العلوم والفنون ولعل الشيخ عادل كردى يتحدث الينا عما آل إليه أمر هذه المكتبة الفريدة فى زمانها فإذا كانت المطابع قد فقدت قيمتها بما جدّ من فنون الطباعة الحديثة وآلاتها فإن الكتب والمخطوط منها لا تفقد قيمتها وإنما تزيد على الأيام(١)

---

(١) لقد تم نقل هذه المكتبة الى دار الكتب التى انشأها المرحوم الشيخ عباس قطان فى موقع الدار التى ولد فيها النبى صلى الله عليه وسلم راجع ترجمة الشيخ عباس قطان ..

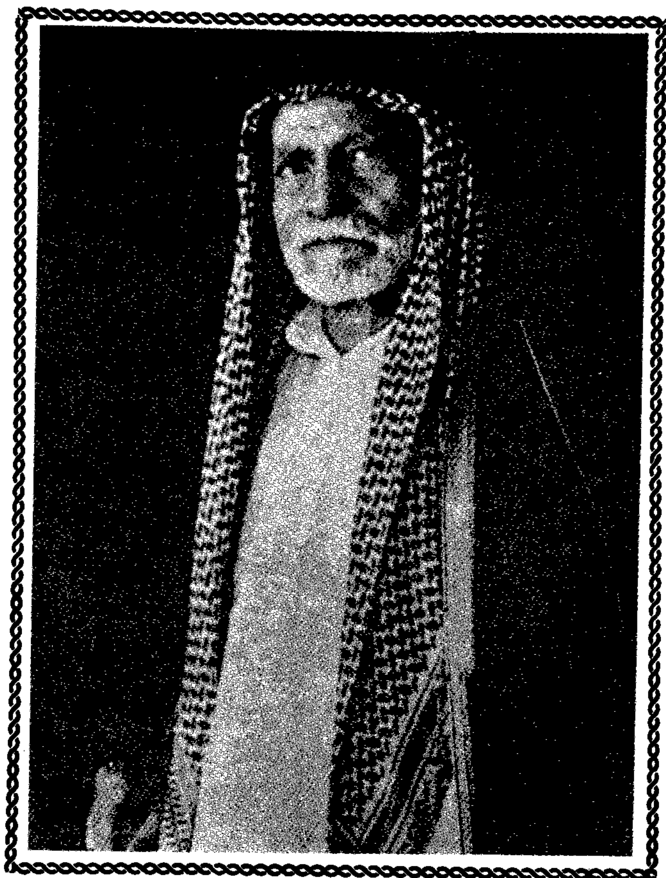
وظائف الشيخ ماجد كردي

وفى أوائل العهد السعودى عين الشيخ ماجد كردى مديرا للمعارف تقديرا لعلمه وفضله ثم أسندت إليه مديرية الأوقاف العامة بمكة المكرمة وفى عهد إدارته للمعارف تم إرسال أول بعثة علمية من أبناء المملكة للدراسة فى معاهد مصر ومدارسها وكان هذا فى الأربعينات من هذا القرن .

وفاة الشيخ ماجد كردي

الحجاج على صعيد عرفات فى يوم التاسع من ذى الحجة ومخيم الشيخ ماجد كردى فى عرفات يغص بالوافدين من ضيوف الرحمن الذين يستضيفهم كل عام والجو عاطر بالتلبية والناس يضجون بالدعاء والكل مبتهل إلى الله سعيد فى ضيافه الرحمن والشيخ ماجد كردى فى لباس الإحرام الأبيض يتفقد راحة ضيوفه من الحجاج وهو فى أكمل صحة ولكن الله تعالى أراد له حسن الختام فاختاره الى جواره فى هذا اليوم العظيم وفى ذلك المشهد العظيم وهو فى لباس الإحرام فدفن حاجا محرما ملبيا فى عرفات وكان هذا فى التاسع من ذى الحجة ١٣٤٩ هـ وهو فى الخامسة والخمسين من العمر فكانت لوفاته رنة حزن وأسى فى جميع أنحاء البلاد ولدى عارفى فضله فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، تغمده الله برحمته الواسعة واحسن جزاءه فى دار الخلود فلقد كان واحدا من أفذاذ الرجال ..





محمد الطويل

محمد الطويل

قصير القامة ، معتدل الجسم ، اشقر الوجه واللحية ، أزرق العينين ، أقنى الانف ، أصلع الرأس ، أنيق الملبس ، كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية ، ثم تحول عنها إلى العباءة والعقال ، ذو سمت وهيبه ، وقد استحوذ بكرمه وهمته على قلوب الناس فكان زعيما محبوبا ، كما نال ثقة الحكام فكان رجل الدولة فى العهد الهاشمى ، وأحد كبار الرجال الذين تسند اليهم المهام فى عهد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز ٠

لم أستطع الحصول على تحديد دقيق لولادة المرحوم الشيخ محمد الطويل وكل ما نستطيع أن نذكره أنه ولد فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى وكان فى مطلع شبابه موظفا بدائرة الجمارك فى جدة فى العهد العثمانى ، وحينما قام المغفور له الملك حسين بن على بالثورة على الحكومة العثمانية عام ١٣٣٤ هـ كان الشيخ محمد الطويل من أبرز الرجال الذين نالوا ثقته فكان ناظرا لعموم الرسـوم فى جدة ، وقد اطلق عليه لقب الناظر ـ نسبة إلى هذا المنصب الـرفيع إذ ذاك ، وكانت موارد الدولة الهاشمية فى ذلك الوقت تعتمد على الرسوم الجمركية وكان جمرك جدة الذى يتولى رئاسته الشيخ محمد الطويل هو أهم موارد الدولة لأن جدة

كانت ولاتزال أكبر موانىء الحجاز ، وكان مقر الحكومة فى مكة ، ولكن الموارد كلها تأتى من جدة سواء من الرسوم الجمركية التى تمثل القسم الأعظم من هذه الموارد ، أومن الضرائب التى كانت تجبى على وسائل النقل التى تتمثل فى الجمال سواء ما كان منها خاصا بنقل البضائع أو الحجاج ، وكان الشيخ محمد الطويل أشبه ما يكون بوزير كبير فى عهد الدولة الهاشمية فإلى جانب رئاسته للواردات المالية الضخمة ، كان يتولى تموين الحكومة بما تحتاجه من أرزاق ومستلزمات وكان الشيخ محمد الطويل بحكم منصبه الكبير وجاهه العظيم مقصوداً من الناس ، وكان الرجل كريما عالى الهمة شهما ذا نجدة ومروءة فكان بيته مفتوحا للناس ويده مبسوطة لهم ورفده موصولا لكل طالب ، فأحبه الناس وتعلقوا به ، والتفوا حوله ، ولم يكن يبذل للناس من ماله فحسب وإنما كان يبذل لهم من جاهه كذلك ، حدثنى من أثق بروايته أن الشيخ محمد الطويل كان يتوجه الى مكة لمقابلة الشريف حسين بن على بين وقت وآخر حسب متطلبات منصبه ، وكان أهل مكة يترقبون مقدمه حيث ينزل فى بيت باناجه ـ فى باب على ـ هذا البيت هدم وأدخل مع غيره فى التوسعة الجديدة للمسجد الحرام فإذا قدم وفدوا عليه بحاجاتهم وكان أكثر هذه الحاجات طلب وساطته لدى الشريف للعفو عن الغرامات وإطلاق المساجين وكان الشريف الحسين رحمه الله مشهورا بصرامته وشدته فى هذه الأحكام ، وفى إحدى زياراته لمكة تجمع لديه حصيلة من هذه الوساطات فجمع اوراقها وكتب معها رقعة موجهة للشريف قال فيها ما معناه ـ إن ما حبانى به جلالتكم من عطفه وما شرفنى به من خدمته جعلنى مقصدا للناس ومحل حسن ظنهم وإنى أقدم لجلالتكم ما قدم به على الناس من مطالب فان رأيتم أن تكرمونى بالعفو عنهم فليس هو بكثير على جلالتكم قال الراوى وقد استجاب الشريف لهذا الطلب فأطلق المسجونين وعفى عن الغارمين « وفى عام

١٣٤٢ هـ هاجر الكثيرون من أهل مكة إلى جدة بعد أن دخل الجيش السعودى مدينة الطائف ، ولم تكن هذه الهجرة منظمة فكان الناس يفدون بعائلاتهم وينزلون فى بيوت من يعرفون من أهالى جدة ولكن البعض لم يكونوا يعرفون أحدا ، كما أن منهم من كانت تنقصه وسائل النقل فكان البعض منهم يفد ماشيا أو يستعمل وسائل غير مريحة وما أن علم الشيخ محمد الطويل بذلك حتى استنفر الرجال لاستقبال القادمين من مكة فى ضاحية الرغامة وزود المكان بالماء والدواب والأغطية ثم تولى أسكان القادمين وإنزالهم فى بيوت الأهالى الذين كانوا يتسارعون إلى تلبية نداء النجدة والمروءة »

وقبيل نهاية الحرب السعودية الهاشمية هاجر الشيخ محمد الطويل بعائلته إلى مدينة اسمرا وقد أوشكت الحرب على النهاية وبدا أن البلاد كلها ستدين بولائها لجلالة المغفور له الملك عبدالعزيز وكان الطويل بوصفه من أكبر رجالات العهد السابق يخشى أن يكون لهذا الأمر تأثير عليه فى العهد الجديد فبقى خارج البلاد حتى أذن المغفور له الملك عبدالعزيز بالعودة إلى وطنه فعاد إلى مدينة جدة مكرما آمنا على نفسه وماله[1] وكانت عودته مقترنة بدخول السيارات إلى الحجاز فقد كان الشريف حسين يحرم دخولها واستعمالها ويصر على استعمال الجمل كوسيلة للنقل سواء للحجاج أو البضائع واجتمع لفيف من تجار جدة وكلهم من أصدقاء المرحوم الشيخ محمد الطويل وألفوا شركة للسيارات سميت (شركة القناعة للسيارات) وعينوا الشيخ محمد الطويل رئيسا لها وخصص له مرتب شهرى مقداره ستون جنيها ذهبا فى الشهر ، وكان هذا المرتب كبيرا جدا فى ذلك الحين ،

---

(١) لقد علمت فيا بعد ان الشيخ محمد الطويل كان ممن بايعوا جلالة الملك عبدالعزيز بعد تسليم جدة ويبدو ان الشيخ محمد الطويل سافر مرة اخرى الى مصر بعد ان دانت البلاد لجلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله انظر ترجمة الشيخ محمد صالح ابوزناده ٠

وكان معروفا أن الغرض من ذلك هو تكريم الشيخ محمد الطويل وتأمين كفايته من المال حتى لاتتغير عليه الأمور والأحوال ، ثم استقدمه جلالة الملك عبدالعزيز إلى الرياض وأبقاه فترة ثم ما لبث أن أذن له بالعودة الى جدة مع موكب جلالته واستقبله الناس استقبالا عظيما وعاد مرة أخرى إلى عمله فى رئاسة شركة القناعة للسيارات ، وفى شركة القناعة للسيارات اتصلت اسبابى باسباب المرحوم الشيخ محمد الطويل فقد كنت كاتبا بادارة حسابات الشركة وكان هو رئيسها وقد أتاح لى ذلك الاطلاع على جانب من كرم الرجل إذ كانت ترد الى الرقع بخطه الجميل يمنح بها أصحاب الحاجات من مرتبه حتى أنه أصبح بعد فترة من الزمن مدينا للشركة بمبلغ كبير من المال ٠

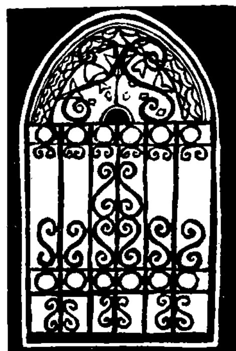
ولم تطل الأيام بالشيخ محمد الطويل فى شركة القناعة للسيارات فقد اختاره جلالة الملك عبدالعزيز لإدارة جمارك وماليات الإحساء والمنطقة الشرقية ، وكان الملك عبدالعزيز رحمه الله ذا فراسة فى الرجال وهكذا قام الشيخ محمد الطويل بتأسيس الجمارك ووضع الأسس لتنظيم الأموال وكان يفـد كل عام إلى جدة لزيارة اهله فيفد الناس للسلام عليه وتمتلىء داره بالمهنئين والزائرين طيلة بقائه حتى يعود ، ومضت سنوات ثم اختاره جلالة الملك عبدالعزيز ليكون مستشارا له ضمن مجلس المستشارين الذى كان يسمى مجلس الربع ولكن الشيخ محمـد الطويل ما لبث أن استأذن من جلالة الملك عبدالعزيز طالبا السماح له بتأسيس شركة نجد للسيارات وحصل على امتياز للشركة بالنقل بين الحجاز ونجد وقام فعلا بتأسيس الشركة المذكورة ولكنها ولدت ضعيفة فلم يكتب لها البقاء إذ كان مساهموهـا من أصحـاب السيارات الـذين لم ينضمـوا إلى الشركة العـربية للسيارات حين توحيدها ولم تتوفر لها الإمكانيات المالية والادارية التى تضمن

حسن سيرها فتمت تصفيتها ، وعاد الشيخ محمد الطويل إلى جدة وقد خلا من كل عمل حكومى أو أهلى ، ولكنه أشغل نفسه بخدمة الناس ، فقد فتح بيته لاستقبال أصحاب الحاجات وخاصة من الأرامل الضعيفات فكان بيته يؤوى الكثيرات منهن ، وكان يستقل سيارته كل صباح إلى مختلف الدوائر الحكومية ليقضى حوائج الناس ، فكان هو لسان من لايستطيعون إيصال أصواتهم إلى رؤساء الدوائر من عائلة فقدت عائلها وتعثرت أوراق المتوفى بين أدراج الموظفين أو بين براثن الروتين وكثيرا ما سعى إلى إطلاق السجين وإغاثة الملهوف ، أما الأرامل الضعيفات فقد نصب من نفسه مدافعا عنهن وكثيرا ما تحول بيته الى محكمة صغيرة يستعين فيها بمن يختار من الناس فيحل الكثير من المشكلات العائلية المستعصية بإصلاح ذات البين أو الفراق بإحسان ، وكان يستخدم ماله الخاص فى هذا السبيل ، حتى أصبحت هذه الشؤون مشغلة له طيلة النهار وصدرا من الليل ، وحتى أصبح من المعتاد أن يرى ضحى كل يوم وهو يؤم الدوائر الحكومية فينجز أمور الناس ويقضى حوائجهم حيث كان يقابل دائما بالترحيب والاكبار .

ونشب المرض العضال فى دم الرجل الكبير فتوجه للاستشفاء بمدينة فينا بالنمسا وصاحبه إلى هناك بعض محبيه وأدركته المنيه غريبا عن وطنه فقد صرعه الداء ونعته الصحافة فتدفق الناس على منزله يعزون ابنه الاستاذ يوسف الطويل وبنتيه السيدتين نور وانجى الطويل وطال انتظار الناس لوصول الجثمان فكانوا يترددون يوميا للاستفسار عن موعد وصوله مما اضطر ابنه الاستاذ يوسف الطويل إلى نشر مايرده من أنباء فى الصحف يوميا وأخيرا وصل الجثمان وكان أهل جدة جميعا يشتركون فى تشييع الرجل العظيم مما جعلهم يصلون عليه فى الخلاء أمام

الثكنة العسكرية فى جدة قريبا من مقبرة حواء التى استقر بها جثمانه بعد طول سعى فى الخير ، وبعد عمل دائب فى خدمة الناس وكانت وفاته فى ليلة الخميس ٢٧ ربيع أول سنة ١٣٨١ هـ بالنمسا ودفن بمدينة جدة بتاريخ ٤ ربيع ثانى سنة ١٣٨١ هـ تغمده الله برحمته الواسعه وأحسن ثوابه فى جنات الخلود .





أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة



الشيخ عبدالرؤوف الصبان

الشيخ عبد الرؤوف الصبان

قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، حنطى اللون ، له عينان صغيرتان ، يضع عليهما نظارة طبية ، كان يرتدى الجبة والعمامة الحجازية فى العهد الهاشمى ، ثم أصبح يرتدى العباءة العربية والعقال بعد عودته إلى المملكة مع من عاد إليها من الحجازيين الذين غادروا البلاد فى أعقاب الحرب السعودية الهاشمية .

ولد الشيخ عبدالرؤوف الصبان بمكة المكرمة عام ١٣١٦ هجرية وهو من أسرة الصبان التى كانت طائلة الثراء فى ذلك الوقت وكانت تتخصص فى تجارة الجلود فتجمعها من جميع أنحاء البلاد وتصدرها إلى عدن بعد دبغها دباغة ابتدائية وكان فريق من آل الصبان يسكنون القاهرة وكانوا يعملون فى أعمال المواصلات بالعربات التى تقودها الخيول قبل دخول الترام وانتشار السيارات وكانت معروفة بخطوط الصبان ثم توقفت بعد دخول الوسائل الحديثة فى النقل إلى القاهرة .

تلقى الشيخ عبدالرؤوف الصبان تعليمه الابتدائى فى مكة المكرمة ثم ابتعثته أسرته الى مصر فدرس بها وتخرج من دار العلوم وهو يعتبر من أوائل المتعلمين الذين تلقوا دراسة منتظمة خارج البلاد فى ذلك العهد ، وحينما عاد إلى الحجاز كان ثائرا على ما تحفل به حياة المجتمع اذ ذاك من الخرافات نتيجة التأخر

والجمود ، وقد أخبرنى أنه كان من أصدقاء الشيخ محمد حسين نصيف وكان يقضى الأماسى فى مجلسه بدار نصيف وكان هو والشيخ محمد حسين نصيف يتعرضون للمواكب الخاصة بمشايخ الطرق ومريديهم فيسفهون آراءهم ويحصبونهم بالحجارة وكان هذا فى أواخر العهد العثمانى ثم فى العهد الهاشمى لأن العهد السعودى قضى على كل هذه البدع والخرافات من اليوم الأول لتسلمه زمام الأمور وإنى لأذكر انه كان فى محلة المظلوم قرب سوق الجامع زاوية السيد البدوى وكانت تعلق فيها مسبحة من الخشب كبيرة ، حجم حباتها مثل حجم البيضة وكان يدعى أنها المسبحة التي كان يستعملها السيد البدوى للذكر ، كما كان هناك جبة خضراء وعمامة عظيمة وغيرها وكنت وأنا صغير السن أتسلق الشباك لأرى المسبحة والعمامة وكان عقلى الصغير لايسلم بصحة ما أرى لأن المبالغة فيها والتهويل واضحان بجلاء .

كما كان فى حارة المظلوم زاوية أخرى للطريقة القادرية ، وفى حارة الشام زاوية للطريقة الجيلانية وفى العيدروس قريبا من مستشفى جدة الحكومى العام زاوية العيدروس ، وكانت الزوايا كثيرة والطرق عديدة وكانت لهم احتفالات كثيرة ومتعددة فهم يحتفلون مثلا بالمواسم التى اعتاد الناس الاحتفال بها فى ذلك الزمان مثل ليلة النصف من شعبان وليلة القدر وغيرها وغيرها علاوة على أيام خاصة بالطرق نفسها وكانت لهذه الاحتفالات شنة ورنة تذبح فيها الذبائح وتمد فيها موائد الطعام الكثيرة وتوزع فيها الحلوى ويمارس فيها شيخ الطريقة وأتباعه أسلوب طريقتهم وتتخللها الأغانى التى ينشدها المنشدون وتسير فيها مواكب كبيرة يتقدمها شيخ الطريقة وأتباعه ويشترك فيها الدهماء والأطفال وهم يغنون ما يعتبرونه ذكرا وفى مثل هذه التجمعات قد يحدث من المساوىء ما يبرأ منه الذكر

الصحيح وما لايرضاه الخلق القويم وهى فى جملتها من البدع السيئة التى نحمد الله تعالى على تخلص البلاد منها فهى منافية للدين ومضيعة للمال والوقت وملهية للناس عن الصالح من الأعمال .

الهجرة من الحجاز

نعود بعد هذا الاستطراد عن الطرق ومشايخها وأساليبها إلى الشيخ عبدالرؤوف الصبان فنقول انه كان من اصدقاء الشيخ محمد نصيف وجلسائه فهو سلفى بحكم ثقافته المستنيرة وصفاء عقيدته كما كان أحد الأعضاء البارزين فى الحزب الوطنى الذى طالب الحسين بالتنازل عن العرش والذى مارس نشاطه فى الفترة الأولى لولاية الشريف على بن الحسين عرش الحجاز ، ولكنه لأمر ما انضم إلى قافلة الرجال الذين هاجروا من الحجاز فى نهاية العهد الهاشمى ، وقد علمت منه أنه سافر إلى مصر وإلى العراق ، وكان فى العراق يعمل سكرتيرا خاصا للملك على بن الحسين وقد روى لى رحمه الله قصة طريفة عن الملك على وابنه الامير عبدالاله ، قال كان الامير عبدالاله يدرس فى انجلترا ورغب فى العودة الى العراق فاستأذن أباه فلم يأذن له فلم يكن منه إلا أنه استقل الطائرة وعاد إلى بغداد ولم يعجب الملك على تصرف ابنه الشاب فأوعز الى الشيخ عبدالرؤوف ان يلومه ويعاتبه قال الشيخ عبدالرؤوف للملك على ، إننى سأعاتبه على مخالفة أوامرك له ، ولكنى لا أملك الا ان اقدر فيه اصراره على تحقيق ما يريد وهكذا كان ، كما علمت من الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله أنه كان صديقا للمرحوم الشيخ ابراهيم بن معمر وكان ابن معمر وعبدالرؤوف يقيمان فى مصر بغرض الدعاية الإعلامية وكان الشيخ ابراهيم بن معمر يعمل فى خدمة المرحوم

الملك عبدالعزيز بينما كان الشيخ عبدالرؤوف فى خدمة الملك على بن الحسين ، قال لى الشيخ عبدالرؤوف كنا صديقين إلا فيما يتعلق بالعمل السياسى فقد كنا ضدين ولم يكن الواحد منا يسمح للآخر بالاطلاع على عمل الثانى بحال من الأحوال رحمهما الله جميعا .

العودة إلى الوطن

وحينما اصدر الملك عبدالعزيز رحمه الله فى عام ١٣٥٤ هـ نداءه إلى المهاجرين بالعودة إلى بلادهم والعمل لإنهاضها كان الشيخ عبدالرؤوف من أوائل الرجال الذين استجابوا لهذا النداء وعاد إلى المملكة وكتب فى جريدة صوت الحجاز يعلن استجابته لهذا النداء ويقدم ولاءه وإخلاصه وقد عينه جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله عضوا فى مجلس الشورى فكان من أبرز الأعضاء العاملين فى المجلس وبعد وفاة المرحوم السيد عبدالوهاب نائب الحرم - والد الأستاذ أحمد عبدالوهاب رئيس التشريفات الملكية عين محله مديرا عاما للأوقاف بمكة المكرمة ثم عين أمينا للعاصمة وبعد عودته إلى الحجاز توثقت صلته بصاحب السمو الملكى الامير فيصل النائب العام - جلالة الملك فيصل فيما بعد - ومما أذكره عن هذه الصلة إننى حينما أصدرت قصة البعث وهى أول مؤلف لى فى الستينات أهديت الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله نسخة من هذه القصة وفوجئت بعد أيام بخطاب كريم من صاحب السمو الملكى الأمير فيصل بن عبدالعزيز يقول فيه إننى اطلعت على قصتكم - البعث - وإننى أتمنى لكم النجاح فى أعمالكم الأدبية ، ولم أكن قد قدمت الكتاب لسموه فلقد كنت أخشى أن يكون فيه مالا يعجب بعض الناس لأن القصة كانت وصفا للحاضر بما فيه من نقص وتطلعا إلى

المستقبل المرجو بما فيه من خير ، وذهبت إلى دار المرحوم الشيخ محمد سرور فوجدت الشيخ عبدالرؤوف هناك وأطلعته على الكتاب وقلت إننى لا أعرف كيف وصل الكتاب إلى سموه وإننى محرج لأننى لم أقدمه لسموه شخصيا أو أبعثه إليه ولكنى سعيد بأن الكتاب قد مرَّ بسلام فضحك وقال إننى بعد أن قرأت القصة قدمتها لسموه وألححت عليه أن يقرأها وإننى لسعيد أن يكون سموه قد فعل وكتب إليك مهنئا بها ، وإن هذه اللفتات الكريمة من هؤلاء الرجال انما تدل على علو نفس ، وأصالة طبع وكرم أخلاق ٠

ولقد كان الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله دائم التشجيع لى فى أعمالى الأدبية وأذكر أن المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان أقام حفلة فى موسم الحج فى الستينات لمجموعة كبيرة من كبار الحجاج المصريين وعلمنا أنه ستلقى فيها بعض الخطب فطلب منى رحمه الله أن أعد شيئا لإلقائه فى الحفل ردا على ما سيلقى من كلمات فنظمت على عجل قصيدة كان مطلعها ٠

هذا الحجاز وهذه مصر ☆ جمعا فكان الماء والزهر

ولا أذكر الآن بقية القصيدة فقد فقدت ضمن ما فقد من شعرى وألقيتها بعد أن انتهى الضيوف من إلقاء كلماتهم وكان الشيخ عبدالرؤوف حاضرا فكان أول المهنئين لى وقال لقد سددت خانة كان لابد وأن تسد فلم يكن من اللائق أن يخطب الخطباء فلا يجدون من يرد التحية بمثلها من قبلنا ٠ وحينما رجعت فى اليوم التالى إلى القصيدة وجدت فيها خطأ لغويا لم أتنبه إليه حينما نظمتها بتلك الصورة المستعجلة ، وقلت للشيخ عبدالرؤوف إن القصيدة التى هنأتنى عليها كان فيها خطأ لا أغفره لنفسى قال لقد أدركت هذا الخطأ وأنت تلقيها ولكنى أؤكد لك أن أحدا لم يلتفت إليه وأضاف إن مثل هذه الأخطاء تغفر فى هذه

المناسبات على شرط تدارك الخطأ وتصحيحه ، وهكذا كان الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله رجلا واسع الأفق نيرً الذهن وكنت أعجب به كرجل فكر تمرس بأمور الحياة وخاض لججها محتفظا بقوة شخصيته وصفاء ذهنه وكان هو يتنبأ لى بمستقبل طيب ، وأذكر اننى حينما بدأت عملى التجارى لم يكن راضيا من تحولى إلى التجارة وقال لى إننى أعرف إنك ستحقق نجاحا عظيما ولكنى أريد لك أن تكون محمد على مغربى الكاتب والشاعر ومع ذلك فحينما أسندت إليه أمانة العاصمة كلفنى بأعمال كثيرة للأمانة كان فى حاجة إليها على وجه السرعة كما كلفنى بأعمال أخرى للأوقاف العامة ولم يبخل بتشجيعه واعلان رأيه الطيب فى كل مناسبة رحمه الله .

إدخال الميكروفونات إلى المسجد الحرام

ولعل من أهم ما تميز به عهد الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله فى الوظائف الحكومية ، أنه كان أول من أدخل الميكروفونات إلى المسجد الحرام وكان التبليغ سواء للأذان أو للتلاوة من الامام إنما تعتمد على أصوات المؤذنين والامام وكانوا يُختارون من ذوى الأصوات الحسنة والقوية فى آن واحد وكان المؤذنون يرتقون المنائر العالية المشيدة فى أطراف الحرم وحينما بدأت الإذاعة السعودية فى البث بعد الحرب العالمية الثانية اتصل بى الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله وقال لى إننا سندخل الميكروفونات إلى الحرم الشريف لنقل الأذان وإننا نحتاج إلى مولدات كهربائية ذات تيار معين فسألته عن التفاصيل المطلوبة فقال إن المهندس المختص بجوارى وهو الذى سيخبرك بذلك وتحدث إلى مهندس مصرى لعل اسمه أبوبكر ولا أذكر بقية الاسم فأخبرنى بالمطلوب وأضاف أننا لم نجد هذه المولدات فى المملكة وحينما رفعنا الأمر للشيخ عبدالرؤوف قال إنك تستطيع

إيجادها قلت أرجو ذلك ، وكان وجود المولدات الكهربائية قليلا ونادرا فى تلك الأيام وكان الشيخ عبدالرؤوف يتعجل الأمر وقد وفقنى الله تعالى الى تحقيق طلبته فقد علمت أن شركة جلاتلى هنكى فى جدة وهى شركة انجليزية ضخمة اشتراها فيما بعد صاحب السمو الملكى الامير عبدالله الفيصل وحولها إلى شركة سعودية باسم المؤسسة العربية للملاحة ، أقول علمت إن هذه الشركة الانجليزية استوردت كمية من المعدات من مخلفات الحرب فذهبت إلى هناك ولحسن الحظ وجدت المرحوم الشيخ أحمد عشماوى مؤسس شركة ـ الأسواق السعودية فيما بعد ـ وكان مدير المبيعات فى شركة جلاتلى هنكى فى ذلك الوقت وأخبرته بحاجتنا إلى هذه المولدات فقال لى اننا لانعرف ان كان الموجود لدينا ضمن هذه المخلفات تتوفر فيه المواصفات المطلوبة فاستعنت بمهندس آخر وأخذنا نبحث بين هذه المخلفات حتى وجدنا مولدين جديدين بالتيار المطلوب وأخبرت الشيخ عبدالرؤوف ان المولدات موجودة وطلبت منه أن يبعث الى مهندسا من قبله لفحصها واستلامها وهكذا كان ونقلت المولدات إلى مكة وما هى إلا أيام قليلة حتى سمعنا صوت الأذان ينطلق من المسجد الحرام من خلال الميكروفونات مما جعل إدارة الحرم تتوسع فى المشروع فيما بعد فأعفى المؤذنون من صعود السلالم الكثيرة الدرجات فى المآذن خمس مرات فى اليوم •

تسقيف المسعى

ولكن أهم انجاز قام به الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله حينما أسندت إليه أمانة العاصمة أنه قام لأول مرة فى التاريخ بتسقيف المسعى ، ولعل الكثيرين من الناس لايزالون يذكرون أن المسعى كان سوقا تجاريا من أهم أسواق مكة المكرمة

تقوم على جانبيه الدكاكين التجارية بمختلف أنواعها وترتفع فيه العمائر الشاهقة على جانبي الشارع ابتداء من الصفا وحتى المروة وكانت دكاكين الصرافين والحلاقين وبائعي المشروبات وأصحاب المتاجر المختلفة تنتشر على جانبي الشارع كما كانت أهم عمارات مكة المكرمة في ناحية الصفا بل وأغلاها وأعلاها ، وكان الساعون بين الصفا والمروة يؤدون نسكهم في وسط هذه الأسواق وضجيجها مما يضطر المرء إلى الشعور بالخروج عن حالة النسك والعبادة إلى ضجيج الحياة وزحامها وكانت المسعى إلى ذلك في بعض أجزائها مكشوفة تخترقها الشمس فكان الناس يتحاشون السعي في أوقات الحرارة ويؤدون نسكهم بعد صلاة الفجر او بعد صلاة العصر أو في الليل في أوقات الصيف وكان القسم الآخر مسقوفا بسقف من الخشب كئيب المنظر إن حمى من حر الشمس فهو لا يحمى من المطر في الشتاء وإنني لأذكر انني اجتمعت بأحد كبار تجار الكويت الذي قدم حاجا في تلك الأيام فقال لي إن المسعى باقية على حالها منذ مئات السنين ألا تفكرون في إدخال شيء من التغيير عليها قلت إن هذا موضع نسك فكيف تريدنا أن نغيره ؟ قال وهل من النسك أن يكون موضعه سوقا للبيع والشراء ؟ والواقع ان كل عاقل كان يتمنى للمسعى أن يكون مصانا وقد أذن الله بذلك فيما بعد حينما تمت توسعة المسجد الحرام وأدخلت المسعى ضمن نطاق الحرم فتخلصت من السوق وضجيجه وغوغائه . أما دور الشيخ عبدالرؤوف رحمه الله فقد كان قبل هذه التوسعة بسنوات طويلة وقد بدأ هذا الدور بقيام الحكومة ممثلة في شخص وزير المالية الأسبق الشيخ عبدالله السليمان برصف شارع المسعى وكان شارعا ترابيا غير مبلط ومما أذكره عن هذا الرصف أن المهندس المصري الذي كان يشرف عليه وكان اسمه بهجت سليمان أعاد الرصف مرات في المنطقة التي تصل بين شارع القشاشية وأجياد جهة باب علي وما حولها وكل ما تم الرصف أو أوشك جاء السيل من أعلى مكة مخترقا شارع القشاشية فأزال الرصف في طريقه إلى أسفل مكة وأخيرا تم الرصف والحمد لله . هنالك تحرك الشيخ عبدالرؤوف فتقدم إلى المسؤولين بإكمال تجميل المسعى وذلك بإزالة السقف

القديم المتآكل الكئيب المنظر بسقف جميل حديث وهكذا تم له ما أراد وأسند المشروع إلى شركة عرين التى أسسها الأستاذ كمال ادهم والتى كان يديرها مهندس مصرى ضابط اسمه ابراهيم عويس وقامت الشركة المذكورة فى عهد الشيخ عبدالرؤوف بإزالة السقف القديم وتركيب سقف حديث جميل مرتفع قائم على أعمدة حديدية وكان هذا السقف مع الرصف أولَ تحسين أدخل على شارع المسعى فى التاريخ إن صحَّ هذا التعبير إلى أن تم العمل العظيم الكامل بإدخال المسعى نفسه كاملا فى الحرم كما هو بوضعه الحاضر مما أتاح للحجاج والمعتمرين أداء نسكهم فى جو صاف هادىء لا تعكره ضوضاء الشارع ولا أصوات الباعة والمشترين .

عضو مجلس إدارة الشركة العربية للسيّارات

هذا وقد انتخب الشيخ عبدالرؤوف عضوا فى مجلس ادارة الشركة العربية للسيارات لفترة من الوقت ثم سافر إلى مصر فى السبعينات بعد أن تقاعد عن العمل وأقام بها بضع سنين ثم انتقل إلى لبنان وقد توفى رحمه الله بعد مرض قصير يرحمه الله فلقد كان من أعلام الرجال .



محمد جميل حسن

طويل فارع ، حنطى اللون ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، يضع على عينيه نظارة طبية ، وكان له زى متميز عن الزى العادى لملابس الشباب من أمثاله فلقد كان يلبس القصير من الثياب تحتها سروال أشبه بالبنطلون السابغ كما كان يرتدى الكوت الطويل ولعله سافر إلى الهند فأعجبه الزي السائد هناك ولقد لاحظت أن كثيرا من الشبان الذين سافروا إلى الهند عادوا إلى الحجاز وهم يرتدون زيا مشابها لهذا مع اختلاف فى بعض التفاصيل .

ولد الأستاذ محمد جميل حسن سنة ١٣٢٢ هـ بمكة المكرمة وتعلم فى مدارسها وأرجح أنه تعلم فى مدرسة الفلاح لأنه عمل بعدها أستاذا فيها وقد عرفت الأستاذ محمد جميل حسن مدرسا بمدرسة الفلاح بجدة فى النصف الأول من الأربعينات وبالتحديد خلال الحرب الهاشمية السعودية وكان الأستاذ محمد جميل حسن نمطا فريدا من الناس له شخصية مستقلة تحدث عن نفسها فلم يكن يكثر الاختلاط بزملائه المدرسين والأساتذة ما بين الحصص وإنما كان يصطحب معه كتابا يعكف على قراءته فى أوقات الفراغ فإذا دخل إلى الفصل ساد النظام وبطل الهرج ووقف الجميع تحية له فيحييهم مشيرا بالجلوس وهو نفسه الذى عودنا على هذا النظام فاتبعناه طائعين ، وكانت الحصة التى يقضيها فى التدريس حصة

جادة إذا صح هذا التعبير فالرجل كان متمكنا من العلوم التى يدرسها فيشرحها شرحا جيدا ويفيض فى هذا الشرح ويوجه الأسئلة الى بعض الطلاب ليعرف مدى استيعابهم لما ألقى اليهم ، وقد يكون كل هذا الذى ذكرت من الأمور التى يتميز بها كثير من الأساتذة ولكن الظاهرة الفريدة التى تميز بها محمد جميل حسن عن غيره من المدرسين أنه كان يلقى الدروس الوطنية على طلابه فيعرفهم بتاريخ بلادهم وامجادها ومايجب أن يفعلوه لاسترجاع ماسلب وإعادة ما اغتصب ، ولم يكن الرجل مدرس تاريخ ولكنه كان مدرس جغرافيا « علم تقويم البلدان » وكنا نتلقى هذا العلم على أيدى مدرسين قبله وبعده فكان حديثهم منحصرا فى تقسيم البحار والأنهار والجبال والوديان وحدود الممالك والدول ، ولكن محمد جميل حسن كان نمطا آخر غير هذا .

كانت الخرائط الجغرافية معلقة فى الجدار أمام التلاميذ وكان الأستاذ محمد جميل حسن يقف أمام هذه الخرائط فيتحدث الحديث المعتاد عن تقسيم البلاد بحارها وأنهارها وسهولها وجبالها والقارات وحدودها وما إلى ذلك ، ولكنه سرعان ما يدخل فى الحديث التاريخى الذى يصل به إلى دروس الوطنية التى خالطت قلبه وملأت شعوره وجوارحه .

أذكر أنه كان أول من حدثنا عن فلسطين وكان هذا فى النصف الأول من الأربعينات وكانت تحت الانتداب الإنجليزى ولم يكن اليهود فيهـا ألا اقلية ولكن أطماعهم فيها كانت معروفة فكان يضع يده على موضع فلسطين فى الخريطة ويتحدث عن تاريخها وأطماع اليهود فيها ويقول هذه القطعة السليبة من بلاد العرب لابد أن تعاد إلى أهلها ، هذا الجزء الغالى من أرضنا الحبيبة تتكالب عليه

قوى الشر مؤيدة بالاستعمار الانجليزى الغاشم ولا يكتفى بذلك فإذا به يحدثنا عن تاريخ فلسطين منذ الفتح العربى إلى تسلم الفاروق مفاتيح المدينة المقدسة ، ثم ينحدر إلى صلاح الدين واسترجاعه لبيت المقدس ووقعة حطين وكنا نصغى مشدوهين إلى مدرس الجغرافيا الذى تحول درسه الى درس عظيم فى التاريخ ، وإلى خطاب حماسى فى حب الأوطان ·

كانت البلاد العربية كلها باستثناء الجزيرة العربية تحت الاستعمار الغربى فى ذلك الوقت فكانت مصر والعراق والأردن وفلسطين والخليج تحت الحكم الانجليزى ، وكانت سوريا ولبنان والمغرب العربى كله تحت الحكم الفرنسى ، وكان محمد جميل حسن يتحدث عن هذه البلاد جميعها وعن مكافحتها للاستعمار ولكنه يطيل ويفيض إذا وصل حديثه إلى فلسطين وكأنه رحمه الله كان يتنبأ أن هذه البلاد جميعها ستحظى باستقلالها وأن العقبة الكبرى ستكون هى فلسطين ، ولا أريد أن أطيل فلقد كان الرجل شعلة متقدة من الحماس والنضال وكان ملما إلماما تاما بالمادة التى يدرسها وكثيرا ما ذكرنا بأمجاد المسلمين والعرب وفتوحاتهم فى أوروبا ولست فى حاجة إلى أن أقول إننا كنا نترقب الحصص التى يدخل فيها علينا واننا نتحول جميعا إلى آذان صاغية وقلوب متفتحة تموج بالعواطف والأحاسيس وكان الرجل على صلة بالملك الشريف على بن الحسين أيام حكمه وكان يرى دائما فى القصر ولعله كان على صلة بالأسرة الهاشمية كلها فلقد كان واضحا فى أحاديثه معرفته بالملك فيصل الأول ملك العراق ، والملك عبدالله ابن الحسين ملك الأردن رحمهما الله ، وكان يوما يلقى علينا درسه المعتاد وإذا بنا نسمع ضجيجا وأصوات طلقات نارية ، فانفلت الاستاذ محمد جميل حسن من القاعة لينظر ما الخبر ؟ وكان الجنود المرتزقة الذين استقدمهم الملك على بن

الحسين للدفاع عن مدينة جدة وهم من الدروز يتظاهرون مطالبين بصرف مرتباتهم التى انقطعت عدة شهور فلم يكن من محمد جميل حسن الا أنه خرج إليهم منفردا وتحدث إلى رؤسائهم فانقطع صوت الرصاص وخفتت الضجة ومضوا مواصلين مسيرتهم فى هدوء ، ولقد سمعته بعدها يحدث مدير المدرسة والأساتذة الذين التفوا حوله أنه أفهم رؤساء المتظاهرين أنهم يمرون أمام مدرسة تضم المئات من التلاميذ وأنه لا حاجة لإطلاق النيران فى هذا المكان بالذات فاستمعوا لنصحيته وهو موقف يدل على الشجاعة والإقدام ·

وعلى ذكر الجنود المرتزقة نذكر أن هؤلاء الجنود كانوا من الدروز الذين يسكنون فى أراضى سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان الملك الحسين بن على حينما غادر جدة بعد خلعه وتولية ابنه الملك على ذهب إلى العقبة وكان ابنه الملك عبدالله بن الحسين يرسل إليه هؤلاء الجنود المرتزقة لترحيلهم إلى الحجاز وكان قائد هؤلاء الجنود ضابطا سوريا اسمه تحسين الفقير وكان الدفاع عن مدينة جدة مقسما على ثلاث فئات الدروز واليمنيين والمتطوعين من أبناء البلاد وكان يحيط بمدينة جدة سور من الأسلاك وكانت كل فئة تتمركز فى ناحية من النواحى وقد باع الملك على شارع قابل كما أسلفنا فى حلقة سابقة لمواجهة مصاريف الحرب بأبخس الأثمان ، وحينما تظاهر الدروز فى المرة التى أشرنا إليها اعتصموا بمسجد عكاش فى قلب مدينة جدة ذهب اليهم كبير جدة المرحوم الشيخ محمد الطويل وتعهد لهم بتسديد استحقاقاتهم وباع المنزل الوحيد الذى كان يملكه لسكنه الخاص وأوفى لهم بجميع حقوقهم وأعادهم الى بلادهم ، نعود بعد هذا الاستطراد إلى الأستاذ محمد جميل حسن فنذكر طرفة عنه سبق أن ذكرتها فى كتابى حبات من عنقود والطرفة بعنوان « **رجل فى التراب ورأس فى السحاب** » ··

كان الأستاذ محمد جميل حسن رحمه الله أستاذا لنا بمدرسة الفلاح بجدة وكان يعلمنا الجغرافيا والإنشاء والحساب ، وكان مربيا قديرا وأستاذا مثاليا وقدوة تحتذى ، وكان يختصنى بكثير من الرعاية والتشجيع وكان درس الجغرافيا أو علم تقويم البلدان كما يسمونه الآن من أحب الدروس إلينا على عهد الاستاذ جميل حسن فلقد كان درسا فى الوطنية والاقتصاد قبل أن يكون درسا فى أسماء المدن والممالك والبحار والغابات ·· وإننى لأذكر كيف يفيض ويتدفق حينما كان يقف أمام خريطة البلاد العربية فيتحدث عن كل قطر منها وما تضمه أرضه من خيرات ، وكيف كان يهاجم الاستعمار الذى كان مازال رابضا على أرض أجزاء كثيرة من البلاد العربية ، وكان يتجلى حنقه وسخطه حينما كان يصل إلى فلسطين فينقلب إلى خطيب مصقع وهو يومىء بعصاه الصغيرة إلى موقعها من الخريطة ويقول هذه القطعة المغتصبة من أرض الوطن العربى ، هذا الجزء العزيز على نفوس الأمة العربية جمعاء لن نقبل بتسليمه لليهود ، ويفيض فى مثل هذه المواقف بحماس يملأ التلاميذ شعورا متدفقا من الغيرة والحمية ·· وأعطانا الأستاذ يوما فى درس الإنشاء بيتا من الشعر وطلب منا أن نشرح مقصد الشاعر منه وهذا البيت ··

وكن رجلا رجله فى الثرى ☆ وهامة همته فى الثريا

ولم يفتح الله علينا بشىء ، فهمنا أن المقصود أن يكون الرجل رجله فى الثرى ، ولكن ما هى هامة الهمة هذه المطلوب أن تكون فى الثريا ؟ وحضرنا فى اليوم التالى وجاء زميلنا الاستاذ عبدالكريم بكر وهو الآن من كبار موظفى الشركة التجارية العربية بجدة ـ وقال : لقد عرفت حلّ البيت قلنا هات ·· قال : إن مقصد الشاعر أن يكون الانسان رجله فى التراب ، ورأسه تدق السحاب ثم قال : إن الهامة هى الرأس والثريا هى نجم مشهور فى السماء فهل تريدون ان

تخلقوا معانى من غير كلمات الشاعر ، وفهمنا ضمنا أنه استعان بأحد العارفين فى الشعر .. فتوصل إلى هذه المعانى ، وكتبنا جميعا ما قال الزميل عبدالكريم ، ان مقصد الشاعر ان يكون الانسان له رجل مغروسة فى التراب ، ورأس ملتصق بالسحاب ، وقدمنا الكراسات للأستاذ وكلها مكتوبة فى سطر واحد وصيغة واحدة دون تنويع أو تغيير ، واعتقد الاستاذ جميل أننا نسخر منه وكان صارما بقدر ما كان مخلصا ونظر إلى كراستى واستدعانى من دون التلاميذ وقال ، حتى أنت فعلتها معهم ؟ وصمت حياء وخجلا وعاقب التلاميذ جميعا دون استثناء وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى أتعرض فيها لعقابه فكان شعورى بالخزى من العقاب أكبر من شعورى بالعقاب نفسه .

وفى مساء هذا اليوم بالذات كنا نسير خارج البلدة وكان الاستاذ جميل حسن يقوم بنزهته المسائية وحيدا كعادته واقترب منى أحد الناس وسألنى هل تعرف الأستاذ جميل حسن المدرس بمدرستكم ؟ قلت نعم قال : أين يسكن ؟ قلت لا أدرى ولكنه أمامك وأشرت إليه فذهب اليه وتحدث معه قليلا .. وعدت إلى منزلى وعدنا فى اليوم التالى إلى المدرسة ولكن الأستاذ جميل لم يحضر فى ذلك اليوم ولا فيما تلاه من أيام وقيل لنا أخيرا إنه سافر الى مكة وانقضت شهور طويلة علمت بعدها أن الله تعالى اختاره الى جواره فتأثرنا جميعا لوفاته رحم الله الاستاذ محمد جميل حسن فلقد كان استاذا عظيما ومربيا قديرا وكان أول من علمنا الوطنية ، انتهى ما نقلناه بنصه من كتابنا حبات من عنقود .

وقبل أن نختتم الحديث عن الأستاذ محمد جميل حسن نقول إنه كان من أوائل الأدباء الذين شاركوا فى كتاب أدب الحجاز الذى أصدره المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان فى عام ١٣٤٤ هـ وله فى قسم المنثور مقالان يفيضان حماسة

ووطنية وقد علمت أنه بعد عودته إلى مكة المكرمة أصيب بمرض عضال وكان يقضى أيامه فى المطالعة ولم يتزوج وتوفى فى أواخر الأربعينات فى حوالى الثلاثين من العمر تغمده الله برحمته الواسعة وأجزل ثوابه فى عليين ..



الشيخ محمد علي ملطاني

طويل فارع ، حنطى اللون ، مستطيل الوجه ، واسع العينين ، له لحية متكاملة خفيفة ، يلبس العباءة العربية ويضع على رأسه غترة بيضاء في الصيف أما في الشتاء فيعتم بعمامة من الصوف ، وكان يشد وسطه بحزام خفيف من القماش وكان يحمل ساعة معدنية مربوطة بخيط أسود إلى عروة الثوب لتستقر بين ثنايا هذا الحزام فهو في لباسه هذا يمثل طبقة الأعيان من رجال الحارة الذين أخذوا بنصيب من عادات المتحضرين من أهل المدينة واحتفظوا في نفس الوقت بشارات زعماء الحارة وتقاليدهم والواقع أن الملابس في النصف الأول من القرن الهجري الرابع عشر كانت تمثل الطبقة التي ينتمي إليها المرء تمثيلا يكاد أن يكون دقيقا فبالنسبة لطبقة التجار يلبس الثوب من الشاش الرفيع في الصيف ويشد الوسط بشال من القرمسود غالبا ما يكون مشغولا من صنع الشام وهو من الحرير الخالص ويكون هذا الحزام رفيعا رقيقا وفوق الثوب تلبس الشاية من الكتان الأبيض وفوقها الجبة والعمامة الحجازية المعروفة أما في الشتاء فتكون الجبة من الصوف وأحسن أصنافه نوع اسمه « الانقورى » وفي هذا الحزام توضع الساعة « الراسكوف » والتي تشد إلى عروة الثوب بسلسلة من الذهب وربما كانت الساعة ذهبية كذلك ، كما يوضع بين ثنايا الثوب كيس من القماش من نوع قماش

الجبة فيه بعض النقود الفضية أما طبقة الأفنديات من أبناء التجار فيلبسون الثوب وفوقه الكوت ويضعون على رؤوسهم أو على الاصح على أكتافهم شالا مشغولا إما من اللاس وهو قماش كذلك من الحرير أو هو من البريسمى وهو من الإبريسم الذى كان يصنع فى تركيا أو فى سوريا ويكون داكن اللون مشغولا وغالى الثمن ، وفوق الثوب كوت من نفس القماش يوضع فيه القلم الذهبى والساعة وذلك قبل انتشار ساعات اليد وبينما ينتعل الرجال الحذاء الحجازى الذى يصنع محليا فى جدة ومكة والذى كان يتزين بشىء من القصب وأحسن أنواعه يسمى « ابوخرزين » فان الشبان يلبسون الأحذية الجلدية الواردة من الهند فإذا ترك هؤلاء الشبان عهد الدراسة لبسوا الجبة فوق الكوت والعمامة الحجازية بدلا من الشال فالفارق بينهم وبين الكبار هو تميز الأولين بالشاية وحزام الوسط وتميز الآخرين بالكوت دون حزام للوسط فاذا انتقلنا الى الطبقة الشعبية الوسطى وجدنا أن الثوب يكون من قماش متين وغالبا مايكون ملونا كما أن السروال الذى يرتديه التجار والأفنديات طويل سابغ يغطى العقبين مشغول الأطراف تشده دكة كذلك مشغولة بينما يكون السروال الشعبى قصيرا إلى حد الركبة والحزام الذى يشد الوسط عريض من الصوف المشغول وغالبا ما يكون أخضر اللون أو أحمره ويجىء الشال الذى يوضع على الكتف من نفس النوع أما الرأس فتوضع عليه كوفية صغيرة لا تغطى إلا الجزء الأوسط من الرأس بينما تكون هذه الكوفية لابناء الطبقة الوسطى وأبناء الذوات سابغة كبيرة تغطى الرأس جميعه وتميل على الجبين ، ويغلب حفاء الأقدام على الطبقة الشعبية الفقيرة وإذا كان منهم من يلبس الاحذية فهى من الاحذية المحلية التى تصنع فى مكة وجدة فإذا وصلنا الى زعماء الطبقة الشعبية كالعمدة ومن يتصلون به من أعيان هذه الطبقة وجدنا أن لباسهم هو كما وصفناه ويزيد على ذلك عمامة كبيرة على الرأس

إما من البغدادى فى الصيف أو الصوف المشغول فى الشتاء ثم مِصْنَفْ أو حَمُّودي وهو قماش متين مخطط يوضع على الكتف ويمسكون فى أيديهم عصا من العصى الغليظة التى تسمى « الشون » هذا بالنسبة للباس أهل الحجاز أما الجاليات الأجنبية فكانت تتميز بملابسها الخاصة التى تدل على جنسياتها والواقع أن الحديث عن الأزياء وخاصة فى النصف الأول من العام الهجرى الرابع عشر طويل ومتشعب ولا تتسع له هذه العجالة .

نعود بعد هذا إلى الشيخ محمد على ملطانى رحمه الله فنقول إن الرجل كان زعيا محبوبا لدى معارفه بحق فهو يعرف الكثيرين من الطبقة الوسطى والشعبية بحكم نشأته بينهم كما أن مواهبه رشحته لصداقة عظماء الرجال فى عصره وخاصة من كان بيدهم الحل والعقد فكان هو واسطة هؤلاء الناس لديهم لقضاء حوائجهم ، وقد عرفته فى منتصف الخمسينات حينما عملت بمكتب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله بمكة المكرمة فعرفت رجلا لَمّاحاً بارع الذكاء رغم ضآلة تعليمه ولكنه كان عظيم الخبرة بالحياة والناس وكان يخاطب الناس على قدر عقولهم ويتفانى فى خدمتهم بل ولا يتأفف من ذلك .

كان يحضر إلينا فى مكتب الشيخ محمد سرور عصر كل يوم تقريبا وبيده قائمة بطلبات الناس هذا يريد إركابا بالبريد وكانت سيارة البريد الوسيلة الوحيدة للسفر سواء إلى مكة أو المدينة أو الطائف وكانت تابعة للشركة العربية للسيارات فلم تكن هناك أتوبيسات أو تاكسيات وإنما كان الناس يركبون فى سيارات البريد والمحظوظ منهم من يجد محلا له بجوار السائق أما بقية الركاب فيتخذون مقاعدهم داخل الصندوق مع طرود البريد وأكياسه نقول إن الشيخ محمد على ملطانى يحضر الينا عصر كل يوم وبيده قائمة بطلبات الناس ابتداء من طلبات الإركاب إلى طلبات المساعدة إلى تعقيب المعاملات إلى غير ذلك من

مختلف الاغراض والطلبات ، وأذكر أنه حضر إلى يوما وكنت مشغولا وكان المكتب يغص بالزائرين ورأى بعضهم كيف أطال الشيخ الملطانى الكلام معى وهو ينظر فى القائمة وأنا أخبره بما تم إنجازه من الطلبات السابقة ، وبما وعد به الشيخ محمد سرور أو أشار به فى الطلبات الأخرى فقال لى أحدهم بعد أن ذهب الشيخ الملطانى لقد أخذ هذا الرجل من وقتك الكثير فهلا اختصرت الحديث معه ؟ فان غيره من الجالسين ينتظرون على أحر من الجمر قلت إن الرجل لم يطلب شيئا لنفسه وإنما كان يسعى فى طلبات الناس فهو لسان من لايستطيع إيصال حاجته،أو يمنعه الحياء أو يقعد به المرض أو الحاجة فسكت والواقع أن صلتى بالمرحوم الشيخ محمد على ملطانى امتدت إلى أن توفاه الله وعلى كثرة ما كان يسعى لقضاء خاجات الناس لم أره يوما يطلب شيئا لنفسه أو يسعى إلى منفعة وكان الرجل مضيافا له بيت مفتوح فى الطائف صيفا يستقبل فيه الضيوف من معارفه الكثيرين كما كان يسافر إلى المدينة كل عام فتكون داره فى المدينة المنورة مفتوحة للناس ليل نهار وكان الرجل مغرما بألعاب الورق والطاولة والبجيس وغيرها وكان بارعا فيها فكان يسهر بعض الأحيان إلى الهزيع الأخير من الليل وربما صلى الفجر ثم نام ، ومع اسرافه فى هذا اللهو البرىء فقد كان رجلا عاملا غير هامل .

مَصْنَعُ الخِيَام

فكان له بيت فى القرارة جهة المروة يتخذ منه مكتبا وإدارة لمصنع الخيام ولعله كان أول من صنع الخيام بمكة المكرمة وكنت أزوره فى هذا المكتب فأجد العمال الذين أحضرهم وجميعهم من أهل مكة المكرمة يعكفون على صنع الخيام وكان يشترى لهم القماش الجيد المتين ويصنعون الخيام الكبيرة والصغيرة ويؤجرها فى

زمن الحج وقد استأجرت منه بعض الخيام الكبيرة فى حج أحد الاعوام وأدركنا المطر فى عرفات وكان مطراً عظيما فاظلتنا الخيام دون أن تنزل منها قطرة ماء بينما كانت بعض الخيام المصنوعة فى مصر أو الهند لا تظلل المجتمين بها ولو أن الشيخ محمد على رحمه الله توسع فى مشروعه هذا وحسنه واستعان فيه ببعض الآلات الحديثة لكان لنا مصنع أو مصانع كثيرة للخيام الجيدة بدلا من استيراد عشرات الألوف منها كل عام ..

والشيخ الملطانى كان رجلا أنيس المجلس حاضر البديهة وقد رويت فى كتاب حبات من عنقود بعض الطرائف عنه أوردها فيما يلى :

وَاحِدَةٌ مِن أعدَاءِ الله تَكفِي

كان المرحوم الشيخ محمد على ملطانى يجمع الكثير من حميد الخصال ، فلقد كان محبا للخير مشاء فى خدمة الناس ، وكان يحضر إلينا يوميا فى مكتب الشيخ محمد سرور الصبان ومعه قائمة بطلبات الناس ، هذا يريد له إركابا إلى المدينة أو الطائف ، وهذا يعقب له على معاملة بوزارة المالية وذلك يحتاج إلى مساعدة أو وظيفة ، وتوثقت صلتى به رحمه الله حتى أصبحت اعتمد عليه فى كثير من أمورى الخاصة ، وكان رجلا عاملا يجمع إلى الجد فى العمل أنس المحضر ، ومحبة الناس وكان منزله فى الطائف أو فى المدينة المنورة مجمعا للأصدقاء والأحباب من جميع الطبقات .

وكان قديرا على إرضاء النزعات المختلفة بأساليب غاية فى اللطف وحسن المخرج وله طرائف عجيبة أذكر منها أن إحدى بناته ولدت ولدا وأرادت هى وزوجها أن يسمياه أحد الأسماء الحديثة فى ذلك الوقت كفاروق ولطفى وفؤاد وما إلى ذلك ، وأراد جد الطفل لأبيه أن يسمى باسمه وكان هذا الجد هو الشيخ

حامد مؤمنة ، وتدخل الشيخ محمد على رحمه الله بوصفه جد الطفل لأمه وهنا تظهر براعته فى إرضاء جميع الأطراف مع تحقيق ما يريد ، واجتمع الناس لحضور التسمية وكان السيد محمد السقاف رحمه الله الذى كان معروفا فى أوساط مكة المكرمة يقوم بمراسم التسمية ونهض الشيخ محمد على وقال « نعمل قرعة » وأحضر أوراقا صغيرة مكتوبا فيها الأسماء المقترحة ودعى السيد السقاف لاختيار أحدها وفض السيد الورقة فإذا الاسم المكتوب بها هو حامد اسم جد الطفل وتهلل وجه الجد وأشرق ، وقال الشيخ محمد على بلهجته المعروفة للسيد السقاف هيا سم الطفل حامد وتمت التسمية بين سرور الجميع ، وحضر المرحوم الشيخ محمد على فى اليوم التالى وحدثنى عن الأمر وهو يضحك قال أرادت البنت وزوجها أن يسميا طفلهما الأول بأسماء الملوك ولم يراعيا شعور جد الطفل وهو أحق بالمراعاة فقلت لهم سنعمل القرعة وكتبت الأوراق جميعها باسم الجد وهو حامد ودعوت السيد السقاف لاختيار الاسم وكان الاختيار واحدا لا مفر منه وهكذا حققت رغبة الجد دون أن أشعر الآخرين بأن هذا الاسم قد أملى عليهم ، قلت ولكن ماذا لو رجعوا إلى الاوراق فوجدوها جميعا باسم واحد ؟ قال لقد مزقت الأوراق كلها حالما أعلن الاسم لئلا يعود إليها أحد ..

وذات يوم كنا مسافرين من مكة إلى الطائف مع معالى الشيخ محمد سرور وكان المرحوم محمد على ملطانى معنا ، ووصلنا إلى السيل وتناولنا عشاءنا بها ، ويبدو أن الشيخ محمد سرور كان راغبا فى المبيت تلك الليلة بالسيل ولاحظ الشيخ محمد على ملطانى ذلك فقال أليس الأولى أن نواصل السير فنبيت فى بيوتنا بالطائف ؟ ونظر إليه الشيخ محمد سرور وقال له مداعبا أتنوى الزواج الليلة ؟ فضحك رحمه الله وقال واحدة من أعداء الله تكفى وكان يعنى بهذا .. ومعذرة إلى القارئات الكريمات أن زوجة واحدة تكفيه فما له وللثانية .. وواصلنا

سفرنا إلى الطائف ومضت بضعة أيام علمت بعدها أن الشيخ الملطانى أعرس فى تلك الليلة بالطائف وأن واحدة من أعداء الله كما وصفها أو من أحبائه كما يصفها غيره لاتكفى ‥ وقلت له مداعبا لقد فعلتها ‥ وكتمت الأمر عنا حتى ونحن رفاقك فى السفر ‥ فضحك ثم قال إنك تعلم ان لى سبعا من البنات ليس لهن أخ ولقد تزوجت الزوجة الثالثة آملا أن يرزقنى الله منها أخا لهم ٠

ولم تمض عدة شهور حتى انتقل الشيخ محمد على الى رحمة الله تعالى مأسوفا عليه من محبيه الكثيرين وكانت الزوجة الجديدة حاملا وبعد وفاته وضعت بنتا أخرى ‥ رحم الله الشيخ محمد على ملطانى فلقد كان يمثل الرجل المكى الأصيل بما طبع عليه من خلق يجمع بين الجد والفكاهة ، وكان واسطة عقد الأصدقاء يوسع لهم من نفسه وداره ويختصهم بالسعى فى شؤونهم مع أنس المحضر ، ولطف المدخل وعدم الإدلال بشىء مما يفعل رحمه الله ‥

انتهى ما نقلناه بنصه من كتاب حبات من عنقود المطبوع عام **١٣٨٧** هـ ٠

شارع الملطاني

وقبل أن نختتم الحديث عن المرحوم الشيخ محمد على ملطانى نذكر أنه كان يملك بيتا كبيرا فى مدينة الطائف أمام باب شبرا وقد قام بهدمه وأنشأ فى موضعه شارعا به حوانيت كثيرة على الجانبين وبنى فى واجهته منزلين يطلان على باب شبرا ولعله بنى فى مؤخرته مثلها وكان يسعى رحمه الله إلى جعله شارعا لمهنة من المهن ولكن الوفاة أدركته فجأة قبل أن يتحقق له ما أراد فقد توفى بعد الانتهاء من عمارة الشارع مباشرة وقد علمت فيما بعد أنه أصبح شارعا للخياطين أو خلافهم وهو عمل جرىء وجيد اختتم به الشيخ محمد على رحمه الله حياته العاملة الطيبة ٠

هذا وكانت وفاة الشيخ محمد على ملطانى رحمه الله بالطائف فى النصف الأول من الستينات عن عمر يقرب من الخمسين تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته ٠



اتبعنا فى ترتيب نشر هذه التراجم ان تكون مسلسلة على الحروف الابجديه وقد حدث بعض الخطأ فى هذا الترتيب بصورة غير مقصودة ولم يكن من الممكن تفادى هذا الخطأ بعد اتمام الطبع فالى ذلك نلفت الانتباه ٠

مراجع الكتاب

اسم الكتاب	المؤلف
ابتسامات الايام فى انتصارات الامام	محمد بن عبدالله بن بليهد
ابو عرام والبشكه	احمد قنديل
أدب الحجاز	محمد سرور الصبان
الراعى والمطر	احمد قنديل
المركاز	احمد قنديل
المعرض	محمد سرور الصبان
اللوحات	احمد قنديل
الموسوعة الأدبية	عبدالسلام طاهر الساسى
أوراقى الصفراء	احمد قنديل
تاريخ مدينة جدة	عبدالقدوس الأنصارى
تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية	عثمان حافظ
خواطر مصرحه (جزئين)	محمد حسن عواد
ديوان العواد (جزئين كبيرين)	محمد حسن عواد
رجل وعمل	عبدالله عريف
سير وتراجم بعض علمائنا فى القرن الرابع عشر للهجرة	عمر عبدالجبار
شمعتى تكفى	احمد قنديل
عروس البحر (جزئين)	احمد قنديل
قاطع الطريق	احمد قنديل
ماضى الحجاز وحاضره	حسين محمد نصيف
مجموعة جريدة بريد الحجاز	
مجموة جريدة صوت الحجاز	
بعض المجلات والصحف المحلية والعربية	
محمد طاهر الدباغ	بكر الصباغ
محمد على زينل رضا	محمد احمد الشاطرى
نار	احمد قنديل
همسات العريف	زهير محمد جميل كتبى

فهرس الصور

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منها:

الكتاب	المؤلف
* الجبل الذي صار سهلاً	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية	ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية	دكتور محمود محمد سفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا	دكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة (قصة طويلة)	دكتور عصام خوقير
* غداً أنسى (قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة	دكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين؟	دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل	المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة (دراسة وتحقيق)	دكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية (ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام	المرحوم الشيخ حسين باسلامة
* وقفة	دكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان (مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن	الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد	الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الابحار في ليل الشجن [ديوان شعر]	الاستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه	دكتور غازي القصيبي

* الحضارة تحد — دكتور محمود محمد سفر
* عبير الذكريات (ديوان شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
* لحظة ضعف — الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الخلق الفاضل — المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم — الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ — الأستاذ حمزة بوقري
* اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة — الاستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي — الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت — الأستاذ أحمد السباعي
* نبض.. — الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض — الدكتورة فاتنة أمين شاكر

تحت الطبع:

* السعد وعد (مسرحية) — الدكتور عصام محمد علي خوقير
* قصص من سومرست موم — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* عن هذا وذاك — دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* قصص من طاغور — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز — الأستاذ أحمد السباعي
* افكار تربوية — دكتور ابراهيم عباس نتو
* تأملات في دروب الحق والباطل — الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها (مجموعة قصصية) — الأستاذ عبد الله بوقس
* نقر العصافير — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* السنيورا (قصة طويلة) — الدكتور عصام خوقير
* أيامي.. — الأستاذ أحمد السباعي

* التاريخ العربي وبدايته — الأستاذ أمين مدني
* ماما زبيدة [مجموعة قصصية] — الأستاذ عزيز ضياء
* مدارسنا والتربية — الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع
* دوائر في دفتر الزمن «مجموعة قصصية» — الأستاذ سباعي عثمان
* جسور الى القمة — الأستاذ عزيز ضيـــاء
* قال بيدبا — الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
* هكذا علمني وردزورث — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* عام ١٩٨٤ جورج أورويل [ترجمة] — ترجمة الاستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة — الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد — الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها — فضيلة الشيخ حسين باسلامة
* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* الإسلام في نظر أعلام الغرب — الشيخ حسين باسلامة
* فلسفة المجانين — الأستاذ سعد البواردي
* الأصداف (ديوان شعر) — المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* عن هذا وذاك — دكتور غازي القصيبي
* الدمعات الخمس (ديوان شعر) — المرحوم الاستاذ أحمد قنديل
* العقاد — الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — دكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق [باللغة الانجليزية] — الدكتور : فؤاد زهران، الدكتور : عدنان ججوم، الدكتور : محمد عيد
* النمو من الطفولة إلى المراهقة — دكتور محمد جميل منصور، دكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا — دكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره — دكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الآباء بالأبناء [دراسة فقهية] — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* مبادئ القانون لرجال الأعمال في المملكة العربية السعودية — دكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم

تحت الطبع :

* الملامح الجغرافية لدروب الحج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة — دكتور محمد جميل منصور
* هندسة النظام الكوني في القرآن — دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر

* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي
* النظرية النسبية — دكتور عبد الرحمن فكري
* الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — دكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* شعراء التربادور — دكتورة مريم البغدادي
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد



مطبوعات
PUBLICATIONS

صدر منها:

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح ابراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي — الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)
* ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)
* تسالـــي — دكتور حسن يوسف نصيف

تحت الطبع:

* مجلة الأحكام الشرعية — للمرحوم الشيخ أحمد بن عبد الله قاري

دراسة وتحقيق:

د. عبد الوهاب أبو سلميان د. محمد ابراهيم أحمد علي

* النفس الانسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق
* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الاسلام. — الأستاذ أمين ساعاتي
* خطوط وكلمات [رسوم كاريكاتورية] — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن ودنيا الانسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطـــر وموسيقـــى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* اضواء على نظام الأسرة في الاسلام — دكتوره سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — دكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — دكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — دكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر

رسائل جامعية

تحت الطبع:

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة
* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر

- نظام الحسبة في العراق حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
- افتراءات فليب حتّى، وبروكل مان على التاريخ الإسلامي. — الأستاذ عبدالكريم على باز

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة ـ للاستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها:

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الاسد
- البغل
- الفار ..
- الحمار الاهلى

تحت الطبع:

* الذئب
* الحمار الوحشى
* الفراشة
* الخروف
* الببغاء
* الوعل
* الجاموس
* الحمامة
* الفرس
* الدجاج
* البط
* الغزال

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

[حلقات] يكتبها الأستاذ يعقوب إسحاق

صدر منها :

جدة القديمة

تحت الطبع :

جدة الحديثة.

حكايات للأطفال — يكتبها الأستاذ عزيز ضياء

قصص للأطفال — تكتبها الأستاذة فريدة فارسي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

١٣٠١-١٤٠٠هـ
١٨٨٣-١٩٨٠م

الجزء الثاني

محمد علي مغربي

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المقـدمـة

الحمـد لله الـذى علم بالقلم علم الانسـان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى ارسله ربه رحمة وهدى فاخرج البشرية كلها من ظلمات الجهالة الى نور العـرفـان ، ومن ضلالات الوثنية الى عبادة الواحد الديَّان ، وبعد فهذا هو الجـزء الثـانى من اعـلام الحجـاز وقـد اشتمـل على تراجم بعض العلماء والادباء والمؤرخـين والشعـراء وكلهم عَلَمٌ فى فنـه ومجـالـه . ولقد كان حديثي عنهم بحثا فى الآثـار التى تركـوهـا والتى ظهـرت فى حيـاتهم أو استخـرجت مما خلفوه مخطوطا فى اوراقهم ، وقـد اتخـذ الحـديث عنهم طابع الاسهاب لأني رأيت من الخير تلخيص بعض هذه الآثـار التى تضمهـا الكتب الكبـيرة فى صفحاتها ، ليسهل على الناس قراءتها والاحاطة بها ، وخاصة ما يتعلق منها بتاريخ مضى وعهد انقضى ، وليكون هذا الحـديث دافعـا لمن رغب الاستـزادة للرجوع الى الاصل الذى منه استقيت ، والمورد الذى منه نهلت ، واني لأرجو ان يجد فيها القارىء بعض الفائدة والامتاع .

ان اعلام الحجاز الذين يستحقون أن يترجم لهم أكثر من أن يحيط بهم كتاب ، وإنى باذل الجهد فى جمع كلما يتيسر لي من أخبارهم والاطلاع على ماتركوا من آثار وتقـديمـه للقارىء بالاسلوب الذى اتبعه فى هذا الكتاب وفى الكتاب الأول الذى سبقـه ، متـوخيـا الصدق فى الرواية ، والبعد عن المطاعن مظهرا للحسنات ، عملا بالحديث الشريف «اذكروا محاسن موتاكم» متجاوزا عن النقص الذى لايخلو منه انسان .

وبعـد فلقـد ظن بعض النـاس أن أعـلام الحجـاز هم أعيانه وسراته ووجهاؤه

فاخذوا عليَّ أني أغفلت الحديث عن كثير من الرجال الذين قرنت أسماؤهم بالمال والجاه، أو الذين تقلدوا المَناصب وحظوا بالالقاب، وأنى أكرر هنا ما سبق أن ذكرته للاخوة العاتبين والسادة اللائمين أني أكتب عن الرجال الذين تميزت حياتهم بما بذلوه من جهد مادي أومعنوي فى خدمة المجتمع الذى عاشوا فيه فتركوا هذه الحياة وبقيت آثارهم شاهدة عليهم مشيرة إلى النافع من أعمالهم، وحسابهم أولا واخيرا على الله المطلع على السرائر والذى لايضيع عمل العاملين. . ومرة أخرى فان هذه التراجم هى لرجال فارقوا هذه الحياة الدنيا الى رحاب الله تعالى فالحديث عنهم هو للعبرة والذكرى إحياء للعمل الطيب، وتسجيلا للذكر الحسن ورغبة فى اعتبار الاحياء لاتباع القدوة الحسنة ممن سبق من الآباء والاجداد.

وقبل أن اختم الحديث أود أن اقول أن أي عمل لايخلو من نقص فإن رأى القارىء نقصا يستطيع أن يكمله فلا يبخل علي بذلك، فلست ادعى الكمال الذى لايصل إليه بشر، وأسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم خالية من العجب والرياء، كما أسأله تعالى أن يوفقنى إلى الحديث عن طائفة أخرى من الأعلام فى كتاب لاحق إن كان فى العمر بقية والحمد لله أولا وآخرا ومنه أستمد العون والسداد. .

محمد علي مغربي

الشيخ أحمد بن عبد الله القاري



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ أحمد بن عبدالله القاري

اسمر اللون يميل إلى الصفرة معتدل القامة متوسط الجسم واسع العينين، أقنى الأنف مسبل اللحية والشارب، حليق العارضين، عرفته فى النصف الأول من الأربعينات يرتدى الجبة والعمامة الالفي الحجازية ومن تحتها الشاية وهو زيّ العلماء فى ذلك الزمان، ثم تحول الى العباءة والغترة بدون عقال وهو زي رجال الدين فى العهد السعودى، انيق الملبس، يكسووجهه الوقار وتلوح مخايل الذكاء بين عينيه.

ولد بمكة عام ١٣٠٩ هجرية وحفظ القرآن الكريم وجوده على يدى والده شيخ القراء الشيخ عبدالله القارىء والتحق بالمدرسة الصولتية بمكة المكرمة وتلقى علومه بها اضافة الى مواظبته الحضور لتلقى الدروس بالمسجد الحرام، وكان من انبغ الطلاب بالمدرسة الصولتية كما توضح ذلك الترجمة المسهبة التى اوردها الاستاذ الدكتور عبدالوهاب ابراهيم ابو سليمان والاستاذ الدكتور إبراهيم احمد على (١) وقد كان لهذا النبوغ المبكر تأثيره الحسن فى نفوس أساتذته فانضم إلى سلك المدرسيين بالمدرسة وهو طالب بها وكان هذا التقليد من الوسائل التشجيعية التى تتبعها المدرسة الصولتية مع تلاميذها النابهين.

---

١ - انظر ترجمة المؤلف فى مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٦٤ - ٦٧

وحصل الشيخ أحمد القارى على أجازة التدريس بالمسجد الحرام بتفوق عظيم وقد وصف العلامة الشيخ حسن المشاط الكيفية التى تم بها اختيار الشيخ أحمد القارى فقال:

كانت هيئة الامتحان مكونة من اربعة علماء يطرح كل واحد منهم سؤ اله فى مختلف العلوم ويناقشون المتقدم مناقشة قوية مفحمة قَلَّ من يستطيع النجاح فيها، وكان الأمر بالنسبة للشيخ أحمد القاري إنه إذا طرح عليه السؤ ال يسهب فى الأجابة بطريقة تحليلية عجيبة فاذا ما اراد احد العلماء المتحنين مقاطعته قال له به ـ على رسلك فالكلام إلى نهايته ـ واستطاع باسلوبه وقوة عارضته وعلمه الغزير أن يمتلك إعجاب المتحنين والحاضرين، وعلى أثر ذلك إستحق بجدارة ان يكون من مدرسي المسجد الحرام (١)

وهكذا أثمر هذا النبوغ المبكر ثمرته فاقتعد استاذنا الشيخ أحمد القاري مقعده فى رحاب المسجد الحرام فى حصوة باب ابراهيم فى هذه السن المبكرة وكان الطلاب الذين يجلسون بين يديه يكبرونه سنا، ويكبرهم هو مقاما وعلما.

تقلد الشيخ أحمد القارى وظائف علمية كثيرة الى جانب استمراره فى التدريس فى المسجد الحرام والمدرسة الصولتية فى عام ١٣٣٤ هـ.

وفى عام ١٣٣٦ هـ انتخب معاونا لأمين الفتوى بمكة المكرمة.

وفى عام ١٣٣٩ هـ عين عضوا بهيئة التدقيقات الشرعية الى جانب عمله السابق. وانتقل الى جدة فى عام ١٣٤٥ هـ ليتولى القضاء بها، فى أوائل العهد السعودى.

كما تولى التدريس والدعوة والامامة بمسجد عكاش بجدة وفى هذه الفترة عين مدرسا بمدرسة الفلاح بجده للعلوم الدينية حيث إتصلت أسباب كاتب هذه السطور به استاذا بالمدرسة المذكورة كما سنوضح ذلك بعد، وفى عام ١٣٤٩ هـ عين الشيخ أحمد القارى عضوا بمجلس الشورى فى مكة المكرمة .وفى عام١٣٥٠هـ

---

١ ـ انظر ترجمة المؤلف فى مجلة الأحكام الشرعية صفحة ٦٥

عين رئيسا للمحكمة الشرعية الكبر ى بمكة المكرمة فعاد إلى مركزه الطبيعى فى سلك القضاء

وقد استمر الشيخ أحمد القاري فى هذا المنصب الى ان عين عضوا فى رئاسة القضاء ـ هيئة تمييز الاحكام حاليا ـ فى عام ١٣٥٧ هـ وكان رئيس القضاء هو الشيخ عبدالله بن حسن إمام وخطيب المسجد الحرام وهووالد الشيخ حسن آل الشيخ وزير التعليم العالي حاليا.

وقد بقى الشيخ أحمد القاري فى هذا المنصب الى ان توفاه الله تعالى فى عام ١٣٥٩ هـ كما سيأتى تفصيله بعد. وينحدر الشيخ أحمد القارى من أسرة تشتغل بالعلم والتعليم فوالده الشيخ عبدالله القارى كان شيخ القراء بمكة المكرمة الى جانب اشتغاله بطلب العلم فى المسجد الحرام والمدرسة الصوليته فكان استاذا لمئات التلاميذ فى مكة المكرمة وعمه الشيخ عبدالرحمن بن محمد القاري كان كذلك من العلماء المشهود لهم بالفضل وكان مدرسا بالمدرسةالصوليتة كذلك ،ثم سافر الى الهند لنشر علم القراءات والتجويد فمكث بها طيلة حياته واخواه حامد بن عبدالله القارى والشيخ محمود بن عبدالله القاري وهما كذلك من رجال التعليم وقد أورد الاستاذان الدكتور عبدالوهاب ابوسليمان والدكتور محمد ابراهيم أحمد علي تراجم وافية عن هذه الأسرة الكريمة فليرجع إليها من شاء (١)

عرفت المرحوم الشيخ أحمد القاري أستاذا لنا بمدرسة الفلاح بجدة فى النصف الأول من الأربعينات وفى أوائل العهد السعودي وكان يدرس العلوم الدينية بالفصول العليا من المدرسة والتى كانت تسمى الفصول العلمية وتبدأ من السنة السابعة إلى السنة التاسعة وقد رأينا فى أستاذنا الجديد نمطا فريدا بين أساتذتنا ومعلمينا، كان الرجل ذكيا لماحا، وكان فى نفس الوقت متمكنا من العلم الذى يلقيه إلينا، وكان مهيبا لايجرأ الطلبة على ازعاجه بما تعود بعضهم أن يفعله من ضوضاء وشغب وكان إلى جانب هذا وذاك شخصية محببة تجمع بين الوقار واللطف

---

١ ـ مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٦٤ ـ ٧١

ولا اذكر أنه عاقب أحدا من الطلبة حتى ولابكلمة قاسية، وكانت له كلمة لطيفة يرددها أثناء الدرس وكلما انتهى من الشرح فيقول متسائلا مفهوم يامشايخ؟ فنجيب فى أدب مفهوم يامولانا.

وكان المعروف عن أستاذنا أنه كان يتولى القضاء ثم حدث ماصرفه عنه فعين استاذا للصفوف العليا بالمدرسة، وكان يعلمنا الأصول والتفسير وأذكر أنه كان يدرس لنا تفسير القرآن للامام النسفي وهومن أجل التفاسير للكتاب الكريم، كما أنه كان الاستاذ الوحيد فى المدرسة الذي يتقن علم الجبر، وكان يلقى دروسه علينا فيه فى تؤدة يحاول ان يشرح لنا معمياته، وهوعلى اي حال كان من الدروس الصعبة لا بالنسبة لي وانما لكافة زملائى فى الصف.

وكنا نشعر أن أستاذنا له شخصية مستقلة فلم نره يخلط نفسه ببقية أساتذة المدرسة وإنما كان يصل إلى المدرسة فى مواعيد الحصة الأولى ويأخذ طريقه الى الصف الذى يلقى فيه درسه، فاذا انتهى الدرس جلس وحيدا فى غرفة الانتظار أو مع كبار معلمي المدرسة، وكنت تلمح دائما أمارات الاتزان فى حركاته وحديثه، فى غير اعتداد بالنفس أو تعالٍ على الاخرين..

وكان الشيخ احمد القارى يتقاضى مرتبا ضخما من مدرسة الفلاح فى ذلك الزمان خمسة عشر جنيها ذهبا فى كل شهر ولعل هذا كان أعلى مرتب تصرفه مدرسة الفلاح لكل أساتذتها بما فيهم نائب مدير المدرسة الذى كان يتقاضى عشرة جنيهات فحسب، وكان الشيخ أحمد يستحق ذلك دون شك فالرجل عالم متمكن من علمه وقد ولي القضاء فى العهد الهاشمي كما وليه فى العهد السعودى.

لكن ظروف المدرسة مالبثت ان تغيرت،كانت المدرسة تتلقى مصروفاتها من مؤسسها الحاج محمد على زينل رضا الذى كان من أغنى الأغنياء وكان يتجر فى اللآلي ثم ظهر اللؤلؤ الصناعي فانهارت تجارة اللؤلؤ الأصلي وتعرض مؤسس الفلاح لازمة اقتصادية عظيمة اضطر معها الى التخلي عن الصرف على مدارس الفلاح كما اسلفنا بيان ذلك فى الجزء الأول من اعلام الحجاز (١)

١ - انظر الحلقة الخاصة بالحاج محمد علي زينل رضا فى كتابنا اعلام الحجاز صفحة ٢٧٨/٢٩٢ الجزء الأول.

لما ظهرت بوادر هذه الازمة اضطرت المدرسة ان تطلع الشيخ أحمد القارى رحمه الله على الظروف السيئة التى تعرضت لها، والتى اضطرت معها الى ان تستغني عن خدماته لانها لاتستطيع الاستمرار فى صرف المرتب الضخم الذى يتقاضاه فى هذه الظروف، ولم يكن من أستاذنا رحمه الله إلا أنه أصرَّ على البقاء فى المدرسة والعمل فيها بدون مرتب، لم يقبل منهم أن يدفعوا له مايدفع لزملائه الآخرين، ولم يقل أنه يقنع ببعض الراتب، وانما أصر على أن يعمل بلا مقابل على الاطلاق وهكذا كان.

ولم يكن الشيخ أحمد غنيا ولاصاحب تجارة أو عمل، وإنما كان رجل علم وهب حياته للعلم وسلخ مامضى من حياته طالب علم ومدرس علم ثم تدرج فى وظائف المحاكم الشرعية حتى وصل الى القضاء بين الناس ولقد كان صاحب أسرة ولكنه كان عظيم الثقة بالله تعالى، وانه لن يضيع أجر من أحسن عملا، لهذا آثر البقاء بين طلابه فى مدرسة الفلاح بجدة يقوم بأشرف عمل فى هذه الحياة ابتغاء مرضاة الله تعالى حتى يجعل الله له وللمدرسة فرجا ومخرجا. ولقد طلب الشيخ أحمد القارى بعد ذلك للعمل مرة أخرى فى مجلس الشورى ثم فى سلك القضاء فى مكة المكرمة وانتقل اليها كما قرأنا فى صدر هذه الترجمة. هذا ولقد كان استاذنا محباً لتلاميذه حفيا بأمرهم.

حدث أني تركت المدرسة بعد نهاية العطلة المدرسية وحين بداية العام الجديد، اذ رأى أهلي أن من الخير لهم أن اعمل فى إحدى الوظائف بدلا من الاستمرار فى الدراسة، وكان المتخرجون من الفلاح يعملون فى الوظائف الكتابية الحكومية أو الأهلية، ولم ير أهلي مايوجب استمرارى عامين آخرين للانتقال من سلك الدارسين الى سلك الموظفين، فالحقوني بمالية جدة بوظيفة ملازم، والملازم هو الموظف الذى يلازم الدائرة التى يلتحق بها ليتمرن على العمل الوظيفى إلى أن تخلو وظيفة فيعين بها بعد ان يكون قد اكتسب من الخبرة مايؤهله لذلك، وبعد ان يكون قد اتيح لرؤسائه ان يطلعوا على مبلغ مايحسنه من الكتابة أو الحساب.

وقضيت مايقرب من شهر فى وظيفة ملازم بمالية جدة وكان رئيسها المرحوم السيد

هاشم سلطـان ، وذات يوم لقيت استـاذنـا الشيخ أحمد القاري وهو فى طريقه الى مدرسة الفلاح وانا فى طريقي الى مالية جدة وكانت فى مبنى الخزنة ، وكان هذا المبنى يقـع امـام باب جديد فى مواجهة ميدان البيعة الحالي وكان يضم قائم مقامية جدة وادارة المالية والمحكمة الشرعية وقد ازيل هذا المبنى بعد ان اصبح خربا وآل الى السقوط .

وكـان الشيـخ أحمـد رحمـه الله يسكن فى حارة الشـام فى مواجهـة مبنى الخـزنـة المـذكـورة . لقيت الشيـخ فوقفت اسلم عليـه فسألني لماذا انقطعت عن الـدراسـة فاخبرته أن أهلي رغبوا لي أن أتوظف قال وماهى الوظيفة التى عملت بها قلت أني لا زلت ملازمـاً ـ والمـلازم لا يتقـاضى أي راتب ـ وقـد يبقى بلا عمل إن لم يهتم به أحد من الموظفين أو يوصي عليه .

قال الشيـخ حسنـا ، وقـابلتـه مرة اخـرى فاستوقفني وقال لي انه وجد لى وظيفة حسنـة وراتبهـا اربعـمائـة قرش ذهب وهى وظيفـة معاون مأمور الحوالات والطرود بادارة بريد جدة وقال لي اذهب الى هناك وقابل الشيخ سالم ناظر مأمور الحوالات والطرود فقد حدثته فى امرك وهو محتاج الى معاون له ، شكرت الشيخ وقلت اني لابد لي الرجوع الى والدي وخالي فى الأمر فقال على بركة الله .

وهكذا اوجد لى الشيخ رحمه الله اول وظيفة عملت بها وانا دون الخامسة عشرة وكانت فى وقتها تعتبر احسن مايمكن ان يبدأ به موظف صغير مثلي ، وهكذا اظهر الشيخ اهتمامه بتلميذ من تلاميذه يرحمه الله .

مجلة الاحكام الشرعية

هذا ولقد فوجئت كما فوجيء غيرى من الناس بالمرجع الشرعي الضخم الذى كرس الشيخ أحمد رحمه الله حياته لتأليفه ، والذى قام على مراجعته وتحقيقه وشرح مايتعلق به فى الهـوامش الضخمـة كل من الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان ، والدكتور محمد إبراهيم أحمد علي الاستاذين المشاركين بجامعة أم القرى . وقامت ـ

تهامة مشكورة باصداره فى طباعة جيدة واخراج حسن.

ان مجلة الاحكام الشرعية ليست كما يتصور القارىء مجلة من المجلات الدورية التى تصدر فى كل اسبوع أو كل شهر أو فى كل بضعة شهور وانما هو اصطلاح سبقت اليه الحكومة العثمانية حينما اصدرت مجلة الاحكام العدلية فى عام ١٢٠٣ هـ وهو كتاب يشتمل على المعاملات الفقهية ووسائل الدعاوى واحكام القضاء كما اوضح العالمان الفاضلان اللذين قاما بمراجعة المجلة المذكور واخراجها للناس.

وهو علم الغرض منه وضع الاحكام الشرعية فى صيغة قانونية اذا صح هذا الوصف، لتكون مرجعا لذوي العلاقة من العلماء والقضاة وطلاب العلم والمحامين واصحاب القضايا وقد كانت الحكومة العثمانية وضعت هذه المجلة على اساس مذهب الامام ابي حنيفة النعمان الذى كان المذهب الرسمي لدولة الخلافة العثمانية.

وقد تفرغ الشيخ احمد القارى رحمه الله لوضع الاحكام الشرعية على مذهب الامام أحمد بن حنبل فى هذه المجلة التى اعطاها نفس الاسم الذى سبق ان اعطي للمجلة التى ظهرت فى العهد العثمانى باعتبار ان هذا الاصطلاح اصبح علما على هذا الامر.

وليس هنا مجال البحث فى هذه المجلة الشرعية التى كرس استاذنا الشيخ أحمد القارى رحمه الله حياته لجمع احكامها وتبويبها وترتيبها فهذا شأن المتخصصين من أرباب هذا العلم، وهم احق بالحديث عنه مني ومن امثالي. ولكني استطيع ان اقول ان هذا العمل العظيم يضطلع به فى العادة جماعة من أفاضل العلماء، يتفرغ كل منهم على ناحية من النواحى فيجمع احكامها ويراجعها ويبوبها ويرتبها، ويعلق عليها، كأن يتفرغ واحد منهم مثلا لشئون البيع وانواعه وامور التجارة ومايجوز منها وما لايجوز، ويتفرغ الآخر مثلا لاحكام الشركات وانواعها ومايتعلق بها ومايتفرع عنها. ويتفرغ الثالث لاحكام العقار وما اليه وربما اختص كل واحد

منهم بنوع من انواع الاحكام الشرعية، وهكذا حتى تستكمل هذه الجماعة جميع الاحكام الشرعية التى تتعلق بحياة الناس وامورهم. اما ان يقوم فرد واحد بعبء هذا العمل العظيم كله فهو الاعجوبة التى تنحني لها الرؤوس اجلالا وتقديراً.

ولقد ذكر العالمان الفاضلان اللذان قاما بتحقيق هذه المجلة الشرعية إن جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله اعتزم تأليف لجنة من خيار العلماء المتخصصين لوضع مجلة للاحكام الشرعية تستقى الاحكام من جميع المذاهب الشرعية بما تراه فى صالح المسلمين مدعما باقوى الحجج ولكن جلالته تيقن ان هذا الامر يقتضي الوقت الطويل والجهد الكبير فاكتفى بتعيين المراجع الشرعية التى يرجع اليها فى القضاء بين الناس. (١)

واني لانقل هنا ماكتبه الاستاذان الفاضلان اللذان قاما بدراسة وتحقيق هذا الكتاب العظيم تحت عنوان تقويم المجلة.

تعتبر هذه المجلة أول عمل علمي حديث فى الفقه الحنبلي سبق غيره من الأعمال فى هذا المجال وقد ساعد القاضي أحمد تأليفها واخراجها فى هذا الثوب الفقهى الجديد تكوينه العلمي ووضعه الوظيفى ذلك انه يعتبر من كبار فقهاء الحنفية فى البلد الحرام، وقد مارس المذهب الحنفي تعلما وتدريسا فهو على معرفة والفة تامة بالمذهب الفقهى لمجلة الاحكام العدلية العثمانية فسهل هذا عليه هضم منهجها والاسلوب الذى صيغت فيه احكام ذلك المذهب.

اما معرفته بالفقه الحنبلي فهى معرفة عميقة لانه عايشه قضاء ولسنين عديدة فلا عجب ان تكون هذه المجلة التى نقدمها للباحثين والدارسين ثمرة تلك الروافد الصافية والملكة الفقهية الاصيلة (٢). وجاء كذلك فى تقويم المجلة مايلى:

استطاع المؤلف فى كثير من المؤاد والاحكام صياغتها وحبك عبارتها فى صورة يمكن اعتبارها قاعدة وقانونا فاصلا فى موضوعها. ومنها:

اظهر المؤلف رحمه الله تعالى جانبا مشرقا من ملكته الفقهية فقد ذكر فى كتاب

---

١ - انظر صفحة ٢٩ مجلة الاحكام الشرعية. ٢ - مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٥٢ باب تقويم المجلة.

الـوقف قضـايـا واقعية مأخوذة من سجلات المحاكم الشرعية مستشهدا بها لتطبيق علمي لحكم المـادة، ولـو قدر للمؤلف سعـة فى عمـره لذيل كل مادة فقهية بقضية شرعية مناسبة لها خصوصا وهويعمل فى القضاء ويعتبر هذا الاسلوب فكرة متطورة سبق بها زمانه .

وختم الاستاذان الفاضلان حديثهما عن تقويم المجلة بما يلى :

ان هذه المجلة بما لها ومـاعليهـا تجربـة رائدة فى المذهب الحنبلى وعمل جليل فى الفقـه الاسـلامى يتطلب من البـاحثـين متـابعة هذا المنهج والمثابرة عليه نحوكتب تراث الفقـه الاسـلامي حتى تسهل الاستفادة منه، ويكسر الحاجز الذى حال بين المسلمين وبين ورود منابعه الصافية فى وقت هم أحوج مايكونون إلى ذخائره وكنوزه (١)

هذا والمجلة سفر ضخم يتكون من ستمائة وتسعة وسبعين صفحة ويحتوى على واحـد وعشـرين كتابا شملت الاحكام الشرعية للبيع واحكامه وانواعه والاجارات وانـواعهـا وفى العارية والوديعة وفى الغصب والاتلاف والحجر والاكراه وفى الشفعة والصفـح والابـراء وفى الشـركات وأنواعها وفى القضاء والبينات والشهادة وخلافها وكـل كتـاب من هذا الكتب يحتـوى على فصول كثيرة صيغت فيها مواد الأحكام الشرعية فى تفصيل وتحقيق عظيمين وبلغ مجموع المواد التى صيغت فيها الأحكام الفين وثلاثمائة واثنين وثمانين مادة .

ولقـد بقيت المجلة الشـرعيـة التى الفهـا استـاذنا الشيخ أحمد القارى رحمه الله حبيسة خزانة الشيخ حتى توفاه الله تعالى فقام اخوه العالم الفاضل الشيخ حامد بن عبـدالله القـارى بحفظهـا والمحافظة عليها حتى اذن الله تعالى لها بالظهور بعد ان علم بها العـالمـان الفـاضـلان الاستـاذ الـدكتـور عبـدالـوهـاب إبـراهـيم أبـوسـليمان والأستـاذ الـدكتـور محمـد إبـراهيم أحمد على الأستـاذان المشـاركـان بجـامعة أم القرى فقاما بعبء مراجعتها وتحقيقها والتعليق

---

١ - مجلة الاحكام الشرعية صفحة ٥٣ ، ٥٤ باب تقويم المجلة .

عليهـا وإخـراجهـا للنـاس فى هذا السفـر الضخم العظيم الذي يتألف من حوالي سبعمائة صفحة. وقامت تهامة مشكورة بطبعها واخراجها للناس عملا رائعا عظيما ينتفـع به النـاس فى كل زمـان ومكان. ولقـد لاحظت ان مجلة الاحكـام الشـرعية لم تتعـرض لاحكـام الـزواج والطـلاق والأرث، ولم يورد المحققـان الفاضلان تعليلا لذلـك، ولكن هذا لايطعن بحـال من الأحـوال فى قيمـة العمـل العظيم والجهـد الكبـير الـذى بذلـه المؤلف الفـاضـل فى تدوين أحكـام المجلة وأرجـو أن يقـوم من علمائنـا الأفـاضـل من يستكمـل وضـع الاحكـام التى لم ترد فى المجلة لتكـون استكمالا لهذا العمل العظيم الذى بدأه استاذنا الكبير رحمه الله.

إنها صدقة جارية ادخرها الله تعالى لشيخنا الجليل الأستاذ أحمد لتظهر بعد أن مضى عليه مايزيد على ثلاث وأربعين سنة وهو في رحاب الله تعالى فخرجت إلى الناس بريئة من العجب والادلال لان صاحبها قد غادر هذه الحياة الدنيا الى دار الجزاء والحساب. سليمة من الفخر وتقبل الثناء لأنَّ ماعند الله ابقى واجزل مثوبة.

وقـد توفى الشيـخ أحمـد رحمـه الله فى عام ١٣٥٩ هـ بمدينة الطائف بعد مرض طويل ودفن فى المقبرة الملاصقة لمسجد ابن العباس بعد الصلاة عليه فى المسجد المذكور.

رحم الله استـاذنـا الشيخ أحمد القاري بقدر ما أسدى للعلم وأهله وأحسن جزاءه فى جنـات عدن وشكـر الله للاستـاذين الفاضلين الذين قاما على مراجعة هذا العمل العظيم وتبويبه وترتيبه والتعليق عليه واخراجه الى النور لينتفع به الناس، وشكر الله لتهامة ماتقوم به من عمل طيب متواصل فى نشر روائع العلم والادب بين الناس.

محمد علي مغربي

● حسين عبدالله باسلامة ●



حسين عبدالله باسلامة

معتـدل القـامة، حنطي اللون واسع العينين، كبير الأنف معتدل الجسم تزين وجهه لحية غلب البياض فيها على السواد يرتدي العباءة العربية ويضع على رأسه عقـالاً ابيض وهـوزيّ اتخذه بعض العلماء اما معظم رجال الدين فيكتفون بالغترة البيضاء على رؤوسهم ، ولقد كان الشيخ محمد حسين نصيف كبير جدة فى القرن الماضى اذا لبس العقـال لبس عقـالا ابيض كهـذا الـذى وصفناه فى لباس الشيخ حسـين باسـلامـة وعلى ذكر الشيخ محمد نصيف او الافندى نصيف كما كان يطلق عليـه اهـل جدة فهو صديق حميم للشيخ حسين باسلامة وقد كتب له ترجمة مسهبة نشرت كتعريف له فى كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام الذى سنتحدث عنه بعد، وقد استندنا الى هذه الترجمة فى التعريف به ونختصرها فيما يلى :

ولادته وتعليمـــــه

ولـد حسـين بن عبـدالله بن محمد باسلامه آل باداس الكندي الحضرمي المكي بمكـة المكـرمـة فى غرة شهـر صفـر من عام ١٢٩٩ هـ ، وتعلم على ايدى اساتذة مختلفين فى الكتاتيب البسيطة التى كانت سائدة فى ذلك الزمان ثم انتقل مع والده

الى مدينة الطائف فالتحق بالمدرسة الرشدية لمدة عامين ولم يكمل تعليمه بها، والمدرسة الرشدية او المكتب الرشدى كما ذكره الشيخ محمد نصيف هو المدرسة الرسمية الابتدائية للتعليم فى العهد العثمانى وكانت هذه المدارس موجودة فى مكة وجده والمدينة والطائف(١).

ثم قرأ بعض كتب الفقه ومبادىء التفسير على يد الشيخ يوسف اليمانى امام مسجد الهادى بالطائف.

ولكن طالب العلم حسين باسلامة اضطر للانقطاع عن الدراسة لوفاة والده فاشتغل بالتجارة ليعول نفسه واسرته.

بيد ان الرغبة الشديدة للدراسة لم تفتر فى نفس حسين باسلامه فكان يجمع بين العمل والطلب كلما لاحت له الفرصة يقول الشيخ محمد نصيف.

تعرف المؤلف فى عام ١٣٢٠ هـ بحضرة محمد عبدالله افندى الذى كان مبعوثا لآيدين بمجلس المبعوثان العثمانى درس عليه فن الجغرافيا ومبادىء التاريخ وشيئا من فن الحساب ومبادىء علم الفلك ولازمه ملازمة تامة الى ١٣٢٣ فتلقى عنه كثيرا من العلوم العصرية المتعلقة بالسياسة والاجتماع وما اشبه ذلك.

وكما اتصلت أسباب حسين باسلامة بمن اخذ عنه بعض العلوم العصرية فى زمانه فقد اتصلت اسبابه كذلك بعلامة المغرب الأقصى المحدث النابغة اللغوي الحافظ كما يصفه الشيخ محمد حسين نصيف وهو الشيخ محمد شعيب المغربى فتلقى عنه مصطلح الحديث وعلم التفسير وشيئا من أصول الفقه كما درس فن الحديث والتراجم على المرحوم الشيخ محمد الفا هاشم الفلاته التكرونى وكذلك درس فن الأدب على المرحوم الشيخ عبدالجليل براده امام الأدب فى الحجاز حال اقامته بمكة من عام ١٣٢٣ الى عام ١٣٢٦ هـ.

ودرس العلوم الدينية فقها وتفسيرا للقرآن الكريم ولعلم الحديث وعلم اللغة

---

١ ـ انظر ماكتبناه عن ماضى التعليم فى الحجاز فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة فى تراجم السيد محمد طاهر الدباغ والحاج محمد على زينل رضا.

على علامـة مكـة الفقيـه المحـدث السيد حسين بن محمد الحبشى مفتى الشافعية لمكة وطالت ملازمته له نحوا من عشر سنين حتى توفي السيد حسين بمكة فى شوال من عام ١٣٣١ هـ.

وهكذا تتجلى صورة طالب العلم حسين باسلامة الحريص على طلب العلم مع السعي فى هذه الحياة للقيام على شؤون نفسه واسرته.

كان يقيم بمكة وكانت مكة كما لاتزال مهوى لأفئدة الناس، يؤمها العلماء من كافة اقطار الأرض لاغراض شتى فكان صاحبنا يسعى الى هؤلاء الرجال ليتلقى عنهم مايتقنون من علوم الدين والدنيا حتى تزود بحصيلة طيبة من العلم والمعرفة فى ذلك الزمان.

وكان موسم الحج يجمع الكثير من علماء المسلمين وأدبائهم فكان الشيخ حسين باسـلامـه يسعى إلى مقـابلة هؤلاء الأعـلام الـوافدين للحج يبحث معهم قضايا العصر وشؤون العلم فأفاد واستفاد وباحث وناظر وتعرف على هؤلاء الأعلام من الرجال، ثم أكمل ثقافته بالرحلة إلى مصر وسوريا اكثر من مرة واجتمع إلى كثير من مشـاهـير العلماء فى البلدين وخـاصة من سبق له الوفود إلى مكة، كما اتصل فى هذه الرحلات بأرباب الصحف والمجلات العربية فى الاستانة ومصر وسوريا وكتب ونشـر كثـيرا من المبـاحث الاجتـماعـة والعلميـة والسيـاسيـة كما نشـر فى الصحف الحجـازيـة بعضـا مما كتب وهكـذا كان الـرجـل حركة دائبة فى طلب العلم ونشره والاتصال بأهله فى كل مكان يصل إليه.

وظائفــــــــه

اشتغـل حسـين باسـلامـه بالتـدريس فكـان أستاذا للجغرافيا والتاريخ فى عام ١٣٢٧ بالمـدرسـة الخـيرية التى انشأها الاستاذ العلامة الشيخ محمد حسين خياط رحمه الله.

أمـا أول وظيفــة باشـرهـا فهى سكـرتـير مجلس الشيـوخ فى حكـومـة الملك

الشريف الحسين بن على فى عام ١٣٣٥ هجرية.

وحينما تولى المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود ملك الحجاز اختير الشيخ حسين باسلامه عضوا فى المجلس التأسيسى الذى شكل آنذاك لوضع النظام الأساسى لحكومة الملك عبدالعزيز وذلك فى عام ١٣٤٤ ثم انتخب عضوا فى اللجنة التى شكلت لوضع التعليمات الأساسية، كما انتخب عضوا فى المجلس التشكيلى الذى شكل بجده لترتيب دوائر الحكومة السعودية ثم انتخب عضوا فى المجلس الأستشارى فى عام ١٣٤٥ تم تأسيس مجلس الشورى وانتخب الشيخ حسين باسلامه عضوا فيه، كما عين عضوا فى لجنة الحج فى بداية تأسيسها وعين كذلك عضوا فى هيئة الأمر بالمعروف حين تأسيسها.

ويبدو أن عضوية بعض المجالس كانت تتم بالانتخاب فاعيد انتخاب الشيخ حسين باسلامة فى عام ١٣٤٩ مرة ثانية فى لجنة الحج كما أعيد انتخابه للمرة الثانية فى مجلس الشورى وكذلك ثم انتخابه عضوا فى مجلس المعارف وفى عام ١٣٥٤ أنتخب عضوا فى هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين.

هذا ماجاء فى الترجمة الوافية التى كتبها الشيخ محمد نصيف عن الوظائف والأعمال التى تقلدها الشيخ حسين باسلامه.

مؤلفـــــاته

ألف الشيخ باسلامه كثيراً من الكتب لايزال القسم الأكبر منها مخطوطا لم يظهر إلى النور، وربما يكون الكثير منها قد فقد أوتلف مع تطاول السنين وسنذكر اسماء هذه الكتاب كما وردت فى الترجمة التى كتبها الشيخ محمد نصيف بعد.

أما القسم الآخر الذى تم طبعه فبعضه نفذ وسنذكره كذلك بعد، ولكن القسم المطبوع الذى وصل الينا هو الذى سنتحدث عنه فى هذه الترجمة واهم ماوصل إلى يدى من مؤلفات الشيخ باسلامه كتاب.

تاريخ عمارة المسجد الحرام

صدرت الطبعـة الأولى من هذا الكتـاب فى عام ١٣٥٤ للهجرة ثم اعيد طبعه مرة ثانية بعد عشرين عاما من وفاة المؤلف بتحقيق الأستاذ عمر بعدالجبار ومراجعة الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى مع اضافة فصول جديدة اليه ولم اطلع على هذه الطبعة ، وقامت دار تهامة للنشر باعادة طبع المطبوعة الأولى من تاريخ عمارة المسجد الحـرام فى عام ١٤٠٠ هجـريـة وحرصت على اصدار هذه الطبعة الثالثة بالشكل الطبـاعى الـذى صدرت به الطبعـة فى عام ١٣٥٤ اى قبـل ستة واربعين عاما من تاريخ الطبعة الثالثة .

وكتـاب تاريـخ عمارة المسجـد الحـرام يمكن وصفه بأنه أول كتاب من نوعه فهو يتحدث أولا عن صفة المسجد الحرام قبل الأسلام ثم يتحدث عن الزيادة الأولى التى احدثها الخليفة الراشد امير المؤمنين عمر بن الخطاب ثم زيادة امير المؤمنين عثمان بن عفـان فزيـادة عبـدالله بن الـزبـير والـزيـادة الـرابعـة فى عهد الوليد بن عبدالملك فزيادة الخليفـة العبـاسى ابـوجعفـر المنصـور ثم زيـادة الخليفة المهدى فزيـادات الخلفـاء العباسين المعتضد والمقتدر موضحا مقدار الزيادات التى زيدت فيها مساحة المسجد فى كل عهد من العهود ومقدار ماانفق على ذلك من الأموال فى تفصيل دقيق .

وكما يتحدث المؤلف عن الزيادات التى زيدت فى المسجد الحرام فانه يتحدث كذلك عن العمارات التى احدثت فى المسجد عبر القرون واصفا ماتم فى كل عمارة من اصلاح وما أدخل على المسجد من تحسين اوزخرفة مبتدئا بالعمارة التى تمت فى عهـد الخليفـة الأمـوى عبـدالملك بن مروان ثم عهـود الخلفـاء العبـاسـين فملوك الجراكسة فسـلاطين آل عثمان بدءا بالسلطان سليمان وانتهاءا بالسلطان مراد كل ذلـك فى تفصيـل شائق ودقيق ، فاذا كنت ممن يهتمـون بالتـاريخ فان الكتاب يقدم اليك قصة شائقة تتسلسل احداثها عبر مئات القرون ولكنها قصة حقيقة من واقع الـزمـان وليست من نسـج الخيـال ، ولااكتم القـارىء انى حينما قلبت الصفحات

الأولى من كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام لم اكن اقدر ان الكتاب سيستهوينى الى حد اكمال جميع صفحاته كنت اقدر اننى ساقرأ بعض الفصول قراءة تامة ، وأمُرّ ببعضها مرورا عابرا ولكنى لم استطع الانفكاك من تأثيره علي .

عمـارة المسـجد عبر التاريخ

ولعل من المفيد ان نذكر فى ايجاز الادوار التاريخية لعمارة المسجد الحرام كما وردت فى كتاب الشيخ حسين باسلامة .

ان العمـاير التى تمت فى المسجـد الحرام عبر التـاريخ كان معظمها يتم لظهور الحاجة اليها ولقد كانت مساحة المسجد الحرام محددة منذ ان بنى قصي بن كلاب الذى وحد قبيلة قريش منذ ان بنى البيوت حول الكعبة اذ كانت الكعبة فى المكان الذى بناها فيه الخليل ابراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل وكان ماحولها فضاءايخلو من البناء فكان الناس يطوفون حول الكعبة وكانت قبائل قريش تسكن بعيدا عنها ، فلما آل حكم مكـة الى قصي بان كلاب بنى الـدور حول الكعبـة وبهـذا تحددت المساحة المحيطة بالكعبة بهذه الدور لاول مرة فى التاريخ .

وأول توسعـة تمت للمطـاف كانت فى عهـد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فى العـام السـابـع عشـر للهجـرة الذى رأى ضيق المطاف بعد ان ازداد عدد المسلمين فاشـترى الـدور المحيطـة بالمسجد ووسع المطاف وجعل له ابوابا لدخول الطائفين اليـه ، وتبعـه فى ذلـك الخليفـة الراشد عثمان بن عفان وزاد على الزيادة فى مساحة المطـاف بنـاء رواق مسقـوف فى المسجـد للغرض الذى اجريت توسعة المطاف من اجله وهـو زيـادة المسـاحة للمصلين والطائفين وتمت هذه الزيادة فى العام السادس والعشرين للهجرة .

ثم جاء عبدالله بن الزبير فى سنة ٦٤ للهجرة فزاد فى المسجد زيادة عظيمة من جهاته الشرقية والجنوبية والشمالية واشترى دورا كثيرة بذل فيها مالا كثيرا وادخلها فى المسجـد الحـرام كما سقف المسجـد وجعل فيه اعمدة الرخام وبلغت المساحة فى

عمارة ابن الزبير اثنين وثلاثين الفا واربعمائة ذراع معماری.

وفى سنة ٧٥ للهجرة اجرى الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان عمارة فى المسجد الحرام الا انه لم يزد فى مساحته ولكن ابنه الوليد بن عبدالملك أجرى عمارة عظيمة فى المسجد الحرام استورد لها أساطين الرخام من مصر والشام وزاد فى مساحته رواقا واحدا دائرا على حافة المسجد الحرام وذلك فى سنة واحد وتسعين للهجرة.

وفى سنة مائة وثلاثين للهجرة امر الخليفة المنصور العباسى عامله على مكة بتوسيع المسجد الحرام فتم شراء دوركثيرةوزاد فيه فى جهته الشمالية والغربية،وكانت زيادة المنصور رواقا واحدا دائرا على صحن المسجد الحرام بحيث اصبحت مساحة المسجد الحرام بعد هذه الزيادة ضعف ماكانت عليه قبلها، وتمت العمارة فى ستة مائة واربعين للهجرة.

وفى خلافة المهدي العباسي جرت للمسجد الحرام عمارتان عظيمتان الأولى اكمل بها عمارة ابيه الخليفة المنصور والثانية لما قدم للحج ورأى ان العمارة التى حدثت لم تجعل المسجد مربعا بحيث تظهر الكعبة المشرفة فى وسطه تماما وقد انفق الخليفة المهدى الاموال العظيمة فى العمارتين وأصبحت مساحة المسجد الحرام بعد هاتين العمارتين ستة افدنة ونصف وربع، الفدان عشرة آلاف ذراع بذراع العمل المستعمل فى البناء بمصر وهو ثلاثة اشبار تقريبا.

وفى سنة ٢٨١ ادخل الخليفة المعتضد العباسى دار الندوة بعد ان تخربت ادخلها فى المسجد الحرام وكانت مسجدا مستقلا عن المسجد وهذه الزيادة هى التى ينسب اليها باب الزيادة المعروف بمكة او على الاصح الذى كان معروفا بها قبل العمارة السعودية.

وزاد الخليفة المقتدر بالله العباسى فى سنة ٣٠٦ زيادة سميت بباب ابراهيم وكان هناك ساحة بين بابين من أبواب المسجد الحرام احدهما يسمى باب الخياطين اوباب الحزورة والثانى باب بنى جمح وكانت هذه الساحة امام دارين لزبيدة ام

الخليفة الامين فادخلت هذه الساحة فى المسجد الحرام .

وفى سنة ٨٠٣ للهجرة شب حريق عظيم فى لمسجد الحرام اتى على الجانب الغربى من المسجد الى ان وصل الى الجانب الشمالي واستمر الحريق فى هذا الجانب وهو يلتهم سقوف المسجد واعمدته الرخامية الى ان وصل الحريق الى اسطوانتين هدمهما السيل العظيم واسقط ماعليهما من الاعمدة والسقوف فى باب الباسطية فتوقف الحريق ، وقد قام السلطان ابي السعادات زين الدين فرج برقوق بتعمير ما اتلفه الحريق من سقوف المسجد واعمدته ولم تحدث فى هذه العمارة زيادة فى مساحة المسجد الحرام .

أما عمارة السلطان سليم فى سنة ٩٨١ / ٩٨٤ فقد كانت شاملة للمسجد الحرام كله بعد ان ظهر الخراب فى بعض اروقة المسجد وبرزت رؤ وس اخشاب السقوف من مواضعها فجرت للمسجد عمارة عظيمة ابدلت فيها السقوف الخشبية بالقباب الموجودة حاليا فى العمارة العثمانية للمسجد والقائمة على دعامات قوية من الحجر أو أساطين الرخام ـ وقدتوفى السلطان سليم قبل إكمال العمارة فاتمها ابنه السلطان مراد خان قد استمرت هذه العمارة أربعة أعوام وكانت تجديدا كاملا للمسجد الحرام منذ عمارة الخليفة المهدى العباسى التى انتهت فى سنة ١٦٤ للهجرة ولكن مساحة المسجد الحرام قد بقيت على حالها دون زيادة باستثناء الزيادتين اللتين تمتا فى باب الزيادة وباب ابراهيم والتى اسلفنا الحديث عنهما قبل .

هذه خلاصة وجيزة للادوار التاريخية ا التى مرت بها عمارة المسجد الحرام ، وهناك عمارة اخرى تتصل بالمسجد وان كانت لاتدخل ضمن مساحته فقد أنشاء سلطان مصر الجركسي قايتباى فى سنة ٨٨٢ للهجرة اول مدرسة تدرس فيها المذاهب الأربعة كما أنشأ الخلاوى المعروفة فى المسجد فاستبدل بعض الأربطة المجاورة للمسجد كما اشترى بعض الدور فبنى فيها مجمعا كبيرا مشرفا على المسجد الحرام وعلى المسعى ومكتبا ومنارة كما بنى فيها اثنين وسبعين خلوة وصير المجمع المذكور مدرسة تدرس فيها علوم الدين على المذاهب الأربعة

وحبس عليها الاوقاف فى مصر وفى مكة نفسها وقرر فيها أربعة مدرسين وأربعين طالبا وقد تم بناء هذه المدرسة بالرخام المكوف وسقفها بسقف مذهب وارسل السلطان قايتباى لها خزانة كتب وضعها فى المدرسة واوقفها على طلبة العلم وقد بلغت إيراد غلة هذا الوقف الفي دينار ذهبي خلاف غلات القرى والضياع الموقوفة عليه بمصر يقول القطب الحنفي بعد ذكر ماتقدم وذلك باق إلى الآن ألا ان الأكلة قد استولت على تلك الاوقاف وضعفت جدا وهى آيلة الى الخراب وصارت المدرسة سكنا لأمراء الحاج فى ايام الموسم وسكنا لغيرهم من الامراء اذا وصلوا الى مكة فى وسط السنة وصارت أوقافها مأكلة.

وسأوجز للقارىء بعض المعلومات التاريخية الهامة والطريفة التى يشتمل عليها هذا الكتاب الفريد وسنبدأ بالاوليات فى هذه المجال.

أوليات فى المسجد الحرام

١ ـ أول من بنى الدور حول الكعبة قصي بن كلاب.

٢ ـ أول من هدم الدور المنشأة حول المسجد الحرام وادخلها توسعة للمطاف وأحاط المطاف بسور له ابواب هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتبعه فى ذلك أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

٣ ـ أول من بنى السد لتحويل مجرى السيل لئلا يدخل المسجد الحرام هو كذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

٤ ـ أول من أحدث الأروقة وسقف المسجد أمير المؤمنين عثمان بن عفان.

٥ ـ أول من جلب أساطين الرخام واقامها فى المسجد هو عبدالله بن الزبير وتبعه فى ذلك الخلفاء.

٦ ـ أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبدالله القسرى فى خلافة عبد الملك بن مروان.

٧ ـ أول من سقف المسجد بخشب الساج وهو امتن انواع الخشب ورفع جدار المسجد وزين رؤوس الاساطين فى المسجد بالذهب عبدالملك بن مروان .

٨ ـ أول من أزّر داخل المسجد الحرام بالرخام وجعل له شرفات وجعل فى حوائطه العقود وزين واجهة هذه العقود بالفسيفساء الوليد بن عبدالملك وكذلك هو أول من جعل السرادقات فى الحصوة ليستظل بها المصلون حينما يكثر الحجاج .

٩ ـ أول من البس جدار حجر اسماعيل الرخام هو الخليفة أبوجعفر المنصور.

١٠ ـ أول من ربع المسجد الحرام لتكون الكعبة المعظمة فى وسطه هو الخليفة العباسى المهدى وقد امر المهندسين بتمثيل ذلك له وصعد على جبل ابي قبيس ليرى الدور التى ستدخل فى المسجد وقد نصبت عليها الرماح ورأى ماسيهدم من البيوت ومايكون مجرى للسيل ومحلا للسعى لكي تكون الكعبة المعظمة فى قلب المسجد الحرام .

١١ ـ أول من شيد المنائر فى المسجد الحرام الخليفة المنصور ثم الخليفة المهدى .

١٢ ـ أول من وضع مصباحاً للطائفين بالمسجد الحرام عقبة بن الازرق بن عمرو الغساني وكانت داره لاصقة بالمسجد من ناحية وجه الكعبة فكان يضع مصباحا على داره وكانت مساحة المسجد صغيرة فيضيء للطائفين وأول من وضع القناديل فى المسجد لاضائته معاوية بن ابي سفيان .

١٣ ـ أول من اضاء المسجد الحرام بالكهرباء هو الملك الشريف الحسين بن علي ثم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمهما الله .

١٤ ـ أول من خطب على منبر فى المسجد الحرام معاوية بن ابي سفيان .

١٥ ـ أول من عمل مظلة فى شارع المسعى للساعين بين الصفاء والمروة الملك الشريف الحسين بن علي فى عام ١٣٣٩ هجرية(١) .

١٦ ـ أول من رصف شارع المسعى بالحجر الصوان الملك عبدالعزيز بن سعود

---

١ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٤ تاريخ عمارة المسجد الحرام .

وذلك فى عام ١٣٤٥ للهجرة وكانت ارض المسعى موحلة وكان هذا اول شارع تم رصفـه فى مكـة المكـرمـة (١) وبهـده المناسبة فان مساحة المسعى فى ذلك العهد كما ذرعها المؤلف بلغت ثلاثمائة واربع وتسعين مترا وخمسة وثلاثين سنتما.

هذه بعض الاوليات التى استخلصتها من الكتاب وهى فى غاية الايجاز، فمن اراد الاستـزادة من هذا المنهـل العـذب فليرجع الى هذا الكتاب الثمين ليجد فيه مايشفى الغلة فالكتاب يتميز بالتفصيل الدقيق المستند الى مصادر تاريخية كثيرة.. وقـد ناقش المؤلف ماكتبـه المؤرخـون السابقون مناقشة العالم المتمكن من فنه وقام بعـد ذلـك بتحقيق بعض الامـور بنفسـه مثل قيامه بذرع المسجد الحرام من جميع جوانبه وتفسير ما قد يكون ظاهرا من أسباب اختلاف المؤرخين فى ذلك ونورد هنا على سبيـل المثـال بعض المعلومـات التى اوردهـا المؤلف بالنسبـة لذرع المسجـد الحرام فى اختصار شديد.

مساحة المسجد الحرام

١ ـ كانت مساحة المسجد الحرام بعد الزيادة الأولى التى احدثها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لاتتجاوز حدود المقامات الأربعة وسنتحدث عن هذه المقامات بعد.

٢ ـ بلغت مساحة المسجد الحرام بعد الزيادة التى احدثها عبدالله بن الزبير رضى الله تعالى عنه اثنين وثلاثين الف واربعمائة ذراع.

٣ ـ بلغت مسـاحـة المسجـد الحـرام بعـد زيـادة الخليفة ابي جعفر المنصور ضعف ماكانت عليه مساحة المسجد بعد زيادة ابن الزبير والوليد بن عبدالملك ـ أما زيادة الوليد بن عبدالملك فقد كانت رواقا واحدا من الجهة الشرقية.

٤ ـ زادت مسـاحـة المسجـد الحـرام بعـد الـزيادتين اللتين ادخلهما الخليفة المهدى

---

١ ـ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ نفس المصدر

٥ ـ قام المؤلف بذرع المسجد الحرام قبيل تأليف كتابه الذى نتحدث عنه وبعد العمارتين اللتين احدثتا فيه من قبل السلطان سليم والسلطان مراد خان العثمانيين فبلغ ذرعه ثمانية وعشرين الفا وثلاثة امتار وهذه المساحة هى التى بقيت الى ان تمت التوسعة العظيمة للمسجد فى عهد المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود واستمرت بعد وفاته الى ان تمت فى عده ابنائه الملك سعود والملك فيصل رحمهما

أبواب المسجد الحرام

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الخاص بأبواب المسجد الحرام ولعل مما يجدر ذكره أن أول من فتح الأبواب فى المسجد الحرام هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلقد كانت البيوت تحيط بالكعبة ويخرج الناس من بيوتهم اليها فلما نزع ملكية بعض الدور لتوسعة المطاف جعل لهذه التوسعة سورا وفتح فيها ابوابا يدخل الناس الى المسجد منها، وقد بلغت ابواب المسجد بعد توسعة الخليفة العباسي المهدى تسعة عشر بابا، ثم توالت الزيادات فى الأبواب حتى بلغت فى عصر المؤلف فى عام ١٣٥٤ هـ ستة وعشرين بابا، وقد ذكر مواضع هذه الأبواب من جهات المسجد الأربعة بابا بابا وتحدث عن تاريخ احداث هذه الأبواب وماكتب عليها كما تحدث عن اسماء هذه الأبواب فى تسلسل تاريخى ممتع مع محاولة تعليل هذه التسميات وأوردهنا بعض المعلومات الخاصة بأبواب المسجد الحرام كمثال على مايحتويه الكتاب من معلومات ثمينة قيمة.

١ ـ باب اجياد الصغير ذكره بهذه الاسم ابن ظهيرة وقطب الدين فى الاعلام وابن جبير فى رحلته وسماه ابن جبير ايضا باب الخلفيين وعرفه الازرقي بباب بنى مخزوم، احدثه وانشأه أمير المؤمنين محمد المهدى فى عمارته الثانية سنة ١٦٤ وقد جددت عمارته سنة ٩٨٤ التى أجريت بأمر السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان وعليه ١٩ شرفة وله منفذان وله كذلك باب خشبي قوى بمصراعين ويعلوعن

أرض الرواق بتسع درجات وقد كتب عليه نقرا على الحجارة بالخط البارز.

«بسم الله الرحمن الرحيم ، ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد فقال اني احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب» .

٢ ـ باب النبي سمى بذلك لان النبى صلوات الله وسلامه عليه كان يدخل المسجد ويخرج منه من تلك الجهة حيث كانت فى تلك الجهة دار زوجه خديجة رضوان الله تعالى عليها ، يقول المؤلف ويقال لهذا الباب باب الجنائز والظاهر من تسميته بهذا الاسم ان الجنائز كانت تخرج منه فى ذلك العصر حيث انها تخرج الآن من باب السلام غالبا ، ويقال له ايضا باب الحريريين لانه كان يباع الحرير فى الدكاكين التى بجواره من الخارج ، ويقال له ايضا باب القفص لان الصاغه كانوا يقطنون قديما تلك الجهة ويضعون الحلي فى اقفاص بقرب الباب المذكور ويقول المؤلف ولايزالون لحد الآن نحو الباب المشار اليه وقد احدثه الخليفة المهدي فى عمارته ، وهذا الباب يعلو عن ارض المسجد الحرام بثمان درجات ولم يجدد بناؤه فى العمارة الاخيرة التى وقعت فى سنة ٩٨٤ حيث انه كان قويا بحكم البناء وانما جددت الشرفات التى عليه وعددها (٢٤) شرفه وقد عمره الملك الأشرف برسباي احد سلاطين مصر وهو لايزال على تلك العمارة الى الآن ـ هذا بطبيعة الحال قبل التوسعة السعودية العظيمة ـ وقد كتب نقرا على الحجارة داخل دائرة مستطيلة على علو الباب المذكور بالخط البارز.

«بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله.واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة» .

امر بتجديد الباب الشريف للنبي ﴿ﷺ﴾ سيدنا ومولانا المقام الشريف السلطان الملك الأشرف ابو النصر برسباي خادم الحرم الشريف وأمير المؤمنين اللهم اعز نصره على يد الفقير الى الله تعالى الوزير المقدم مقبل القديدى المكي الاشرفي بتاريخ ذى القعدة الحرام احد شهور سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، وهذه

الكتابة قديمة من عهد عمارة الباب المذكور ثم فى سنة ١٣١٤هـ جرت عمارة فى المسجد الحرام ومرمات وكتب تاريخها على هذا الباب، وكتب اسم السلطان عبدالحميد خان بن السلطان عبدالمجيد خان ضمن طرة سلطانية بالذهب وكتب باسفلها تاريخ العمارة بالرقم وهي سنة ١٣١٤ هـ حيث جرت بأمر السلطان عبدالحميد خان العثمانى المذكور وهذا الباب يفتح على منفذين ولكل منفذ باب خشبي قوى بمصراعين.

هذا مثال لما ورد فى الفصل الخاص بأبواب المسجد الحرام وهو كما يرى القارىء حشد من المعلومات التاريخية والطريفة فى آن واحد جمعها المؤلف من المصادر المختلفة وحقق فيها وعلل مسمياتها المتعددة وهو جهد عظيم مشكور.

الخطبة والمنبر فى المسجد الحرام

وفى الكتاب معلومات هامة عن الخطبة فى المسجد الحرام بل عن المنابر والخطباء نوجز بعضها فيما يلى :-

كان الخلفاء الراشدون وولاة مكة يخطبون قياما على اقدامهم فى المسجد تجاه الكعبة المعظمة فلما ولي معاوية بن ابي سفيان الخلافة وكان جسيما وضع له منبر صغير ذو ثلاث درجات قدم به من الشام وذلك لما قدم للحج فكان هو أول من خطب على منبر فى المسجد الحرام، وقد بقي هذا المنبر يخطب عليه الخلفاء كلما قدموا للحج، كما يخطب عليه ولاة مكة الى ان حج الخليفة هارون الرشيد فخطب على منبر منقوش عظيم له تسع درجات اهدى إليه من عامله على مصر موسى بن عيسى فبقي هذا المنبر فى مكة ونقل منبر معاوية الى عرفات ثم أصبح الخلفاء والملوك يتنافسون فى إنشاء المنابر العظيمة لا فى مكة وحدها ولكن فى مكة وعرفة ومنى فأرسل الخليفة العباسي الواثق منابر ثلاثة لمكة وعرفة ومنى ولما حج الخليفة المنتصر ابن المتوكل جعل له منبراً عظيماً خطب عليه بمكة وخلفه بها ، وكانت المنابر والخطابة فى المسجد الحرام تعكس الحالة السياسية للبلاد الاسلامية فى تلك

العصور فقد عمل وزير المقتدى العباسى منبراً هائلاً استقام كما يقول المؤلف بالف دينار وبعثه الى مكة ليخطب عليه باسم الخليفة المقتدى العباسى فمنع المصريون ذلك واحرقوا المنبر ولم يبد أمير مكة محمد بن جعفر إعتراضا على ذلك وخطبوا للمستنصر العبيدى صاحب مصر وقد حذا ملوك مصر من الجراكسة لما اشتد ساعدهم حذو الخلفاء من بنى العباسى فارسل الملك الاشرف فى عام ٧٦٦ منبرا خطب له عليه كما ارسل الملك الظاهر برقوق منبرا فى عام ٧٩٧ وكذلك فعل الملك المؤيد فى موسم عام ٨١٨ يقول المؤلف فخطبِ عليه فى سبع ذى الحجة وجرت الخطبة على المنبر الذى كان قبله وكان خطب على منبر الملك الاشرف واحداً وثلاثين سنة .

يقول المؤلف لما احرق المصريون المنبر الذى ارسله وزير الخليفة المقتدى العباسى وخطبوا للمستنصر العبيدى لم يبد امير مكة محمد بن جعفر اعتراضا،وكان هذا الأمير هو أول من قطع الخطبة لملوك مصر وخطب لملوك بنى العباسى بعد ان قطعت الخطبة لهم نحو مائة سنة، وابى أهل مصر الا ان تكون الخطبة للمستنصر العبيدى صاحب مصر فخطب له، ثم كان بعد ذلك يخطب حينا لبني العباس وحينا لملوك مصر، يقدم منهم من يجزل له العطاء.

وقد تتابع ارسال المنابر الى مكة من مصر وكان يحرص مرسلوها على ان يخطب عليها فى موسم الحج وقد استقر الأمر بالنسبة للمنابر بالمنبر الرخامى الذى بعث به السلطان العثمانى سليمان ابن سليم فى سنة ٩٦٦ وهذا المنبر تحفة معمارية فريدة

وهو موجود حتى هذا اليوم بالمسجد الحرام وقد مضى على وجوده حتى الآن أربعمائة وستة وثلاثين عاما وقد خطب عليه للخلفاء العثمانيين وغيرهم على تتابع

العصور الى أن ابطلت حكومة الملك عبدالعزيز رحمه الله الخطبة للملوك باسمائهم وجعل الدعاء بنصر الاسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الدين فسلم المسجد من ضوضاء السياسة ووعثاء الساسه فجزاه الله خير الجزاء .

موكب الخطيب

وقد اورد المؤلف وصفا شائقا لموكب الخطيب اذا صح هذا التعبير فى مختلف العصور ننقل منه مايلى . فى يوم الجمعة يلصق المنبر الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الأسود والركن العراقي ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم ، فإذا خرج الخطيب اقبل لابسا ثوبا اسود معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود ، وكل ذلك من كسوة الملك الناصر ، وعليه الوقار والسكينة وهويتهادى بين رايتين سوداوين يتمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه احد القدمة فى يده الفرقعة مفتول ينفضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمع داخل الحرم وخارجه فيكون إعلانا بخروج الخطيب ولايزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا له بيده ، وتركز الرايتان على جانبي المنبر فإذا صعد أول درجة من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنعل السيف ضربة على الدرج يسمعها الحاضرون وهكذا على سائر الدرج فإذا استوى عليه استقبل الناس وسلم عليهم ثم يقعد ويؤذن المؤذن على قبة زمزم فإذا فرغ من خطبته صلى وانصرف على الوضعية التى أتى بها ثم يعاد المنبر إلى مكانه إزاء المقام - إنتهى .

أقول هذا ما أورده المؤلف لموكب الخطيب نقلا عن رحلة ابن جبير وهو وصف لما كانت عليه مراسم خطبة الجمعة فى عهد الملك الناصر فى سنة ٥٧٨ فى القرن السادس للهجرة .

وأورد المؤلف كذلك وصفا شيقا لموكب الخطيب فى العصور العثمانية ننقل عنه مايلى :

يصل الخطيب يوم الجمعة عند الزوال إلى المسجد الحرام فيدخل المدرسة الواقعة بين باب بازان وباب علي المسماة بقبة الساعات حيث وضعت فى ذلك العصر ساعتان كبيرتان للتوقيت .

فيصلي فيها ركعتين ومن عادة الخطيب فى ذلك العصر أن يرتدى جبة واسعة

الاكمام تسمى الفرجية ويعتم بعمامة من الشاش الأبيض على كفية هندية مصنوعة من القماش الحرير الملون ومبطنة بالخيزران اللطيف وتلف العمامة الشاش عليها لفا منتظما متراصا بعض الطيات على بعض وتسمى تلك اللفة بالمدرج (١) ثم يأتى المرقي الى المدرسة المذكورة يحمل الطيلسان والعصا التى يعتنز عليها الخطيب حال صعوده المنبر ، وهذه العصاة داخلها سلاح من نوع السلاح الأبيض رفيع السلة اشبه بسنان الرمح يسمى (بالغدارة) وهذا المرقي هو من ضمن المبلغين بالمسجد الحرام قد تخصص لهذه الوظيفة فيضع المرقي الطيلسان على رأس الخطيب فوق العمامة فيلتف به الخطيب ويخرج من المدرسة المذكورة ميمماً نحو المنبر ، فإذا بلغ الحصوة المواليه لرواق المدرسة التى كان بها وجد هناك بيرقين من الحرير الاحمر، ونفرين من أغوات الحرم ونفرين من مشدية الحرم فاذا وصلوا اليهم ساروا جميعا امام الخطيب يتقدمهم المرقي حامل عصا الخطيب، ثم يتبعه حاملا البيرقين ثم اغوات الحرم، ثم المشدية، ويسير ون على هذه الحالة الى ان يصلوا المنبر فاذا وصلوه ركزت الرايتان على باب المنبر ووقف الاغوات عند باب المنبر أيضا ثم ترفع الستارة الخضراء المزركشة باسلاك الفضة المموهة بالذهب الموضوعة على باب المنبر ويسلم المرقي العصا الى الخطيب فيصعد الخطيب على درج المنبر وخلفه المرقي فاذا وصل الخطيب أعلى المنبر جلس على مسطبته وقام المرقي فى وسط درج المنبر ، واذن اذان الجمعة الثانى تابعا فى ذلك رئيس المبلغين من قبة زمزم ، فاذا تم الاذان قام الخطيب وشرع فى الخطبة الأولى فاذا أتمها جلس ، فيقوم المرقي ويصلى على النبى ﴿ﷺ﴾ رافعا بها صوته فمتى أتمها قام الخطيب وألقى الخطبة الثانية حتى اذا بلغ فيها ذكر النبى ﴿ﷺ﴾ جهر المرقي بالصلاة على النبى ﴿ﷺ﴾ ثم اذا بلغ الخطيب ذكر اصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ جهر المرقي بالترضى عنهم فإذا ذكر الخطيب اسم الخليفة أو السلطان أو الملك جهر المرقي بالدعاء له بالنصر والظفر والتأييد، يقول المؤلف وكان من ادركتهم من سلاطين آل عثمان هما

١ ـ هذا الوصف مطابق لوصف العمامة الحجازية انظر ماكتبناه عنها فى فصل الملابس والازياء فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة.

السلطان عبدالحميد خان الثانى والسلطان محمد رشاد الخامس وكان يدعى لهما بالخلافة . وهذا الوصف كما هو واضح لما كان عليه الحال فى أواخر عهد الخلافة العثمانية حيث عاصر المؤلف ذلك .

ولم يختلف موكب الخطيب فى العهد الهاشمي عما كان عليه الحال فى أواخر العهد العثمانى إلا إن الرايتين أصبح لونهما اخضر وكانتا كذلك مزركشتين بإسلاك الفضة المموهة بالذهب .

وحينما استولى الملك عبدالعزيز رحمه الله على الحجاز ابطل كل هذه المراسم والمواكب فعادت الأمور الى بساطتها الأولى وأصبح الخطيب يأتي من بيته القريب من الحرم فيرقى الى المنبر فيجد اثنين من اغوات الحرم الشريف واقفين عند باب المنبر فيحمل العصا المعتادة للخطابة ويصعد درجات المنبر فإذا بلغ اعلاه جلس على مسطبته وقام المؤذن على قبة زمزم فى اذان الجمعة الثانى فإذا فرغ من الآذان قام الخطيب والقى خطبة الجمعة أما ملابس الخطيب فهى لاتختلف عن ملابس امثاله من العلماء ورجال الدين(١)

كثرة الخطباء والائمة فى المسجد الحرام

هذا ولم تكن الخطابة ولا الامامة مقصورة على شخص أو اثنين كما هو الحال فى العصر الحاضر وإنما كانت كما يقول المؤلف على المذاهب الأربعة ومشاعة فى كثير من أهل مكة المكرمة على اختلاف أجناسهم فمنهم آل ميرداد والعجيمي وآل خوقير ، وآل الريس ، وآل الكتبي ، وآل شطا ، وبيت المال من آل عبدالشكور ، وآل الزواوي ، وآل الكردى ، وآلى الحريرى ، وآل جمل الليل ، وآل تقي ، وآل المفتى ، وآل كمال ، وآل المالكي ، وآل بن حميد ، وآل صديق ، وآل الفقيه ، وآل حجي وآل البسيوني وآل القلعي ، وآل دحلان ، وآل الحبشي ، وآل بابصيل ، وغيرهم كما يقول المؤلف ممن لم تحضرني اسماؤ هم ، وكان من بعض هذه العوائل الخطيب والخطيبين واكثر ، والامام والامامين واكثر وقد بلغ من تسجلت اسماؤ هم

---

١ - ٢٠٦ - ٢١٢ تاريخ عمارة المسجد الحرام .

من الخطباء فى مديرية الأوقاف وشيخ الخطباء نحو الخمسين خطيبا ومن تسجل من الأئمة عشرين إماما فى المذاهب الأربعة(١).

المقامـــات الأربعـة

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الذى عقده المؤلف عن المقامات الأربعة وهذه المقامات منسوبة الى المذاهب الأربعة فلقد كان الناس قبل العهد السعودى يصلون جماعات أربعة بل كانوا يصلون فى بعض العهود خمس جماعات باضافة المذهب الزيدى كما وصفه ابن جبير فى حج عام ٥٨٨ هـ.

يقول المؤلف نقلا عن ابن جبير ، وللحرم أربعة ائمة سنية وخامس لفرقة تسمى الزيدية واشراف هذه البلدة على مذهبهم وهم يزيدون فى الاذان ـ حي على خير العمل ـ أثر قول المؤذن حي على الفلاح، ولايجمعون مع الناس انما يصلون ظهرا اربعا ويصلون بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

فأول الائمة السنية الشافعى وهو يصلي خلف مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم المالكي وهو يصلي قبالة الركن اليمانى ، وله محراب يشبه محاريب الطرق الموضوعة فيها، ثم الحنفي وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له وهو اعظم الائمة ابهة وافخرهم آلة من الشمع وسواها. وسبب ذلك ان الدول الأعجمية كلها على مذهبه، ثم الحنبلي وصلاته مع صلاة المالكي فى حين واحد، وموضع صلاته يقابل مابين الحجر الأسود والركن اليمانى وله حطيم معطل هو قريب من حطيم الحنفي وللشافعى مقام بازاء المقام ـ حطيم حفيل وصفة الحطيم خشبتان موصول بينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة قد عقدت هذه الخشبة على رجلين من الجص غير بائنة الارتفاع واعترض فى اعلا الخشب خشبة فيها خطاطيف حديد فيها قناديل معلقة من الزجاج.

هذا ماوصف به ابن حبير المقامات الأربعة فى حجته التى اشرنا اليها فى القرن

---

١ ـ ٢١٠ تاريخ عمارة المسجد الحرام.

السادس الهجرى وقد تتبع المؤلف ماطرأ على هذه المقامات من كتب الرحلات والمؤرخين الى العصر الذى عاش والف كتابه فيه، وليس مايهمنا هوذكر هذه التطورات وانما الذى يهمنا هو وصف كيفية الصلاة للائمة الأربعة سواء فى أوقات متتابعة أوفى وقت واحد كما هو الحال فى صلاة المغرب لضيق وقتها وماينتج عن قراءة الائمة الأربعة وتبليغ المبلغين عنهم فى الركوع والسجود من اختلاط وتشويش على الناس فى ركوعهم وسجودهم.

يقول ابن بطوطة فمن عاداتهم - أهل مكة - ان يصلي أول الأئمة أمام الشافعية وهو المقدم من قبل أولى الأمر وصلاته خلف المقام الكريم - مقام إبراهيم - وجمهور الناس بمكة على مذهبه فإذا صلى الأمام الشافعى صلى بعده إمام المالكية، ويصلى معه إمام الحنبلية فى وقت واحد، ثم يصلى إمام الحنفية الى أن يقول وترتيبهم هكذا فى الصلوات الأربع، واما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلي بطائفته ويدخل الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذى يُسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو.

ولقد كان تقدم ائمة المذاهب فى الصلاة قبل غيرهم مرتبط بالحالة السياسية فى تلك العصور فما نقلناه عن ابن حبيران إمام الشافعية كان المقدم عليهم تغير عام ٦٩٠ واصبح المقدم إمام الحنفية وهكذا، ولقد كان بعض العلماء والوافدين فى المواسم يعترضون على هذه الفوضى وصدرت بعض الفتاوي بكراهية تعدد الجماعات فى المسجد الحرام ووصل الامر الى ملك مصر الناصر برقوق الجركسي فبرز امره فى ذلك العام ان يصلى إمام الشافعية المغرب وحده واستمر الناس يصلون المغرب فى جماعة واحدة الى ان تولى الملك المؤيد فاصدر مرسوما بإن يعود الائمة الثلاثة الى صلاة المغرب كما كانوا قبل ذلك.

وقد انتهى تحقيق المؤلف ان حدوث هذه البدعة وقع فى القرون الوسطى على اختلاف اقوال المؤرخين فى ذلك فمنهم من ذكرها فى عام ٤٩٧ ومن ذكرها فى عام

٥٤٠ و ٥٥١ وقد تحدث عنها ابن حبير فى القرن السادس كما تحدث عنها التقي الفاسي بعده بمائة عام وقد استمرت هذه البدعة رغم اعتراض ائمة علماء المسلمين عليها طيلة هذه القرون حتى ابطلها المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله بعد استيلائه على الحجاز فوحَّد الصلاة فى المسجد الحرام وفى غيره من المساجد بإمام واحد فى عام ١٣٤٣ للهجرة فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء(١)

معلومـــات عددية

ونواصل حديثنا عن كتاب عمارة المسجد الحرام بالمعلومات العدديه التى وردت فيه :ـ

١ ـ بلغ عدد الاساطين الرخام فى المسجد الحرام التى أحصاها المؤلف ثلاثمائة واحدى عشرة اسطوانة رخامية وستةعشرة اسطوانة من الحجر الصوان المنحوت .

٢ ـ كما بلغ عدد الدعائم المبنية من الحجر الشميسي أو الحجر الصوان مائتين وثمانية وسبعين عمودا وكان المتبع فى بناء هذه الاعمدة ان يكون سفلها اللاصق بالأرض من الحجر الصوان الى ثلث العمود ثم يبنى بقية العمود بالحجر الشميسى المنحوت على أربعة الوان اسود واحمر قاتم ـ وأصفر بلون البرتقال ، ورمادى (٢) .

٣ ـ وبلغ عدد العقود المطوية فى المسجد الحرام تسعمائة واربعة وثمانين عقدا وهذه العقود هى التى تقوم على الاعمدة والاساطين الحاملة للسقوف ، اما العقود الكبيرة فى الاماكن المختلفة من المسجد فتبلغ واحدا وثمانين عقدا (٣)

٤ ـ وبلغ عدد القبب فى المسجد الحرام مائتين وسبع وعشرين قبة (٤) .

٥ ـ كانت قناديل الزيت تضىء المسجد الحرام الى عام ١٣٣٥ هجرية وبلغ

---

١ ـ ٢٢٤ ـ ٢٤٠ تاريخ عمارة المسجد الحرام . . .

٢ ـ ١٠١ ـ ١٠٦ تاريخ عمارة المسجد الحرام /٣ ـ ١٠٦ ـ ١٠٩ نفس المصدر

٤ ـ ١١٠ نفس المصدر /

عددهـا الفـا واربعـمائـة واثنـين وعشـرين قنـديـلا خلاف ماكان يضيء المنائر من القناديل (١)

٦ ـ جرى استبـدال قنـاديـل الـزيت بالكهرباء والاتاريك الغازية الكبيرة اللوكس واستمر زيادة القوة الكهربائية حتى بلغت فى عام **١٣٥٤** هجرية مايساوى عشرين ضعفا فى قوة الاضاءة عما كانت عليه حين كانت الاستصباح بالقناديل (٢)

ونختتم الحديث عن كتاب عمارة المسجد الحرام بنبذة عن أهم الاحداث التى وقعت فى المسجد كما وردت فى الكتاب.

أحداث هامة فى المسجد

١ ـ فى السنة السابعة عشرة للهجرة فى خلافة الفاروق رضوان الله تعالى عليه جاء الى مكـة سيـل عظيم يسمى سيـل أم نهشـل فدخل إلى المسجد الحرام من أعلى مكة من ناحية المدعى فاقتلع مقام الخليل ابراهيم عليه الصلاة السلام من موضعه وذهب به الى اسفل مكة فلما جف السيل وجد المقام باسفل مكة فجيء به والصق بالكعبـة وربـط بها، ومـا ان علم الفـاروق رضى الله تعالى عنه بالامر حتى خف مسرعا الى مكة فقدمها واعاد المقام الى مكانه وحول مجرى السيل ووضع المطاف فى حديث طويل مبسوط فى موضعه من الكتاب (٣)

٢ ـ فى سنة ثمانمائة واثنتين للهجرة ظهرت نار في رباط يدعى رامشت الواقع بين باب إبـراهيم وبـاب الـوداع فى الجهـة الغربية من المسجد الحرام فاتصلت النار بسقف المسجـد الحـرام فالتهمت النـار اسقف المسجـد من الجهـة الغـربية وبدأت تلتهم سقـوفـه من الجهة الشمالية ولم يقف الحريق الا بعد ان وصل الى موضع كانت فيه اسطـوانـات مهدمة بفعل السيل الذى دخل المسجد فى ذلك العام، وصار ماتجمع

١ـ ٢٥٠ / ٢٥٤ نفس المصدر ٢ ـ ٢٥٦ ـ ٢٦٠ نفس المصدر. ٣ـ ١١ ـ ١٥ نفس المصدر

من آثار الحريق يمنع رؤ ية الكعبة المعظمة لعظم ذلك كما منعت الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد الحرام وقد بلغ عدد الأعمدة الرخامية التى احترقت فى هذا الحريق مائة وثلاثين عمودا تحولت كلها الى كلس فلما بلغ ذلك ملك مصر الناصر لدين الله بعث الامير بيسق الظاهرى لعمارة المسجد الحرام وقد استمرت العمارة من عام ثمانمائة وثلاثة للهجرة الى ان انتهت فى عام ثمانمائة وسبعة للهجرة(١)

٣ - فى سنة تسعمائة وتسعة وسبعين للهجرة ظهر الخراب فى المسجد الحرام وبدى الرواق الشرقي للمسجد مائلا الى جهة الكعبة المعظمة حتى برزت اخشاب السقوف من اماكنها وظهر أن الخراب كان عظيما بحيث لايجدي فيه الاصلاح ولا الترميم فاسندت السقوف باخشاب تمنعها من السقوط ثم صدر امر السلطان العثماني سليم خان بالمبادرة ببناء المسجد الحرام جميعه وتقرر البدء بهدم البناء القديم وبدأت المعاول تهدم فى جدران المسجد وشرفاته فى منتصف ربيع الأول سنة تسعمائة وثمانين وانتهت العمارة فى آخر عام تسعمائة واربع وثمانين فى عهد السلطان مراد خان ابن السلطان سليم خان (٢)

وهناك مرمات كثيرة وتحسينات ادخلت على المسجد الحرام وعلى مقام إبراهيم وبئر زمزم وعلى المدارس التى انشئت فى المسجد وغيرها وهى مبسوطة فى ثنايا هذا الكتاب الثمين.

لقد طال بنا الحديث عن كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام وآن لنا ان نقول الكلمة الاخيرة فيه - ان الميزة التى يمتاز بها الكتاب تتلخص فى ان المؤلف قد حشد كلما توفر لديه من سجل الأحداث والمعلومات المتعلقة بالمسجد الحرام في كتاب واحد

وكانت هذه الحوادث متفرقة فى كتب كثيرة ، فالتاريخ لايكتبه المؤرخون انشاءاً من عندياتهم ، وانما يتتبعون اخباره ويتحرونها من مصادرها والمصادر هى الكتب والوثائق والرواة الذين شاهدوا هذه الحوادث او سمعوا اخبارها ممن شهدها ويأتى

---

١ - ٦٩ - ٧٥ عمارة المسجد الحرام - ٢ / ٨٢ - ٩٦ عمارة المسجد الحرام.

بعد ذلك تمحيص هذه الاخبار سواء كانت مروية أو مكتوبة وترجيح الراجح منها، والاشارة الى المشكوك فيه، وتحقيق ما في الوسع تحقيقه، ولقد كان الشيخ حسين باسلامه مؤرخا أمينا لأنه أجهد نفسه في استخلاص هذه الحوادث والاخبار من مصادرها الكثيرة المتفرقة ثم في تحقيقها والتعليق عليها، كما قام بعمل مشكور في بعض هذه التحقيقات الخاصة بذرع المسجد الحرام وذرع شارع المسعي وغيرهما، ولااكتم القارىء انني مولع بهذه المباحث التاريخية وخاصة مايتعلق منها بالمسجد الحرام والكعبة المعظمة والمسجد النبوي الشريف والمشاعر العظيمة التى خص الله تعالى بلادنا بها، وكثيرا ماكنت اسجل المعلومات التى اصل اليها في قراءاتى، لهذا فان سرورى بكتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام وهو بالصفة التى ذكرتها لا يعدله له سرور.

ان الشيخ حسين باسلامه قد سد فراغا عظيما بكتابه القيم هذا وحبذا لو توفر من المؤرخين من يقوم باكمال ما بدأ به فيؤرخ لعمارة المسجد الحرام والكعبة المعظمة من منتصف القرن الرابع عشر الهجرى حيث تمت العمارة السعودية العظيمة للمسجد الحرام والترميم للكعبة المعظمة في السبعينات والثمانينات من هذا القرن ليكتمل تاريخ عمارة اقدس بيت على وجه الكرة الأرضية منذ بدء الخليقة وحتى آخر أيام الزمان.

ولايفوتنى ان اذكر ان الكتاب مزين بالصور الفوتوغرافية وبعض هذه الصور بل معظمها اصبح نادرا لأنَّ التغيير الذى احدثته العمارة السعودية ابدل الصور القديمة بصور حديثة وحبذا لو أن العناية بهذه الصور كانت افضل مما ظهرت عليه، كما ان الكتاب يخلو من الخريطة او الخرائط التى توضح تطور الزيادة في مساحة المسجد الحرام، وكان المؤلف دائما يرجع القارىء اليها ولكن الطبعة التى بين يدى كانت خالية من هذه الخريطة، وعلى اى حال فهذه الأمور في الوسع تداركها ليكون العمل تاما وسبحان من تفرد بالكمال.

العمارة السّعوديّة

مقدمة البحث

كنت حريصا بعد الحديث عن عمارة المسجد الحرام فى العهود المختلفة كما وردت فى كتاب الشيخ حسين باسلامة ان اكتب عن العمارة السعودية ولو بصورة موجزة ليكون تاريخ عمارة المسجد الحرام تاما امام القارىء ولقد سعيت للحصول على المعلومات الخاصة بهذه العمارة ولقد وفقنى الله تعالى فى هذا السعى فقدم إلي سعادة الأخ الأستاذ محمد أمين العطاس وكيل وزارة الحج والأوقاف لشئون الأوقاف الذى كتبت اليه أستعين به قدم لي ثلاث مجلدات أصدرتها وزارة المالية والاقتصاد الوطني وقام باعدادها وطبعها اتحاد المهندسيين الاستشاريين الذي اشرفوا على عمارة المسجد الحرام لمدة عشر سنوات منذ عام ١٣٨٥ للهجرة وحتى نهاية العمارة السعودية فى عام ١٣٩٦ هـ.

وقد ضمت هذه المجلدات معلومات وافية ومفصلة عن هذه العمارة واطوارها كما ضمت العديد من الصور والوثائق والخرائط ومن هذه المجلدات الثلاثة استقينا المعلومات التى نوجزها للقارىء فى الصحفات التالية :-

بقى المسجد الحرام مايقرب من اربعة قرون بعد عمارة السلطانيين سليم ومراد العثمانيين فى عام ٩٨٤ الى ان بدأت العمارة السعودية فى عام ١٣٧٥ وكان السبب الأول لهذه العمارة هو التكاثر المتصاعد فى جموع الحجاج الوافدين الى مكة المكرمة

لاداء فريضة الحج، وقد اورد الكتاب الذى اصدره اتحاد المهندسين الاستشاريين الباكستانيين فى عمارة المسجد الحرام بيانا لاعداد الحجاج الاجانب القادمين الى مكة خلال خمسين عامنا نستطيع ان نستخلص منه الحقائق الآتية :

كان تعدداد الحجاج الاجانب خلال السنوات ١٣٤٦ ـ ١٣٦٨ اقل من مائة الف حاج واعلى الأرقام كان فى الاعوام ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨ حيث كان تعداد الوافدين على التوالى :

٩٦٢١٢ سنة ٤٦

٩٠٧٦٤ سنة ٤٧

٨١٦٦٦ سنة ٤٨

ثم هبط الرقم الى اقل من النصف خلال السنوات ١٣٥٠ ـ ١٣٥٤ اما عام ١٣٥٩ فقد سجل ادنى رقم وهو ٩٠٢٤ وذلك باسباب الحرب العالمية الثانية.

ومنذ عام ١٣٦٩ تجاوزت اعداد الوافدين مائة الف حاج واستمر التصاعد الى ان واصل الى ذروته فى عام ١٣٧٤ حيث بلغ تعداد الوافدين ٢٣٢٩٧١ حاجا.

وبهذا التصاعد الذى بدا انه سيستمر كانت الحاجة ماسة الى توسعة المسجد الحرام توسعة كبيرة تستوعب هذه الاعداد المتزايدة بعشرات الألوف بل ومئاتها فى قابل الاعوام.

وكانت عمارة المسجد الحرام من اغلى اماني جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله وخاصة بعد ان وفقه الله تعالى الى عمارة المسجد النبوى الشريف لهذا فقد اقترنت هذه الامنية العظيمة مع الحاجة الداعية الى توسعة المسجد الحرام، فصدر الأمر الملكي الى المعلم محمد بن لادن بنقل المعدات التى استعملت فى عمارة المسجد النبوي الشريف الى مكة المكرمة استعداد للشروع فى عمارة الحرم المكي الشريف، وقد بدأ المعلم محمد بن لادن باختيار المهندسين الذي يقومون بعمل التصميم اللازم للعمارة الجديدة واسند هذا العمل فى بداية الامر الى المهندس مصطفى مؤمن وكان من المتخصصين فى العمارة الاسلامية فقدم تصميما

دائـريـا للمسجـد الحـرام باعتبار ان القبلة هي الكعبة وان المصلين يدورون حولها ولكن هذا التصميم لم يجز القبول .

التصميـــــــــــم

فاسنـد الشيـخ محمـد بن لادن هذا العمـل الى المهنـدس طاهر الجوينى فقدم تصميما مثمنا يقتضى ازالة المسجد العثمانى القائم ازالة تامة وتخفيض مساحة الجزء المكشـوف الى النصف ثم جرى تعـديل هذا التصميم بحيث يزال القسم الغربي من المسجد العثماني فحسب ولكن المرحوم الملك فيصل ابن عبدالعزيز ابدى رغبته فى الاحتفاظ بالمسجد العثمانى كاملاً وهذا هو الذى تم بالفعل

وبـدأ العمـل فى الـرابـع من شهـر ربيع الثانى ١٣٧٥ من جهة المسعى واجياد وحـول طريق القشاشية وتم نزع ملكية العقارات الكثيرة التى كانت قائمة فى هذه المنـاطق والتى كانت تحيـط بالمسجـد الحرام احاطة السوار بالمعصم وكان الساعون بين الصفـا والمـروة يؤدون نسكهم فى شارع تقـوم الحـوانيت المتصلة على جانبيـه وتعتلى فوقهـا الـدور فهدمت هذه الدور والدكاكين واصبح مكانها فضاء استعدادا للعمل الذى وضع الملك سعود بن عبدالعزيز حجره الاساسي فى شهر شعبان من سنة ١٣٧٥ هـ .

ثم بدأ العمل فى العمارة على مراحل :

المـرحلة الأولى : تم فيها بنـاء القسم الخـاص بالسعى بين الصفـا والمروة وايصاله بالمسجد الحرام .

المـرحلة الثـانيـة : تم فيها توسيع منطقة المطاف الى شكلها الحالى كما اقيمت السلالم الحالية لبئر زمزم .

ولقـد كان المطـاف حول الكعبـة بيضاوي الشكل بمحاور كبيرة وصغيرة وكان موضعه فى مواجهة الكعبة يشكل عنق زجاجة تسبب ازدحام الطائفين كما كانت قبة زمـزم التى يعتليهـا المؤ ذنـون تواجه باب الكعبة والركن الذى به الحجر الأسود وقد

ازيـل المبنى الخشبي للمقـام وابـدل بالصنـدوق الزجاجى الذى وضع به المقام فى موضعـه السـابق امـا قبـة زمـزم فقـد ازيلت تماما وجرى تأخير مدخلها الى مابعد منطقـة الطـواف وعمـل للبئـر مدخـل من الصحن ينـزل اليـه بسـلالم كثيرة ، اما المؤذنـون فقـد بنى لهم مبنى خاص على حدود المطـاف ووسـع هذا المبنى بحيث اصبـح يشمـل قسـما خاصـا للاذان والبث التلفـزيـونى . وقد تم عمل البدروم فى شارع المسعى على عمق اربعة امتار لان اساسات التحميل وجدت على هذا العمق .

ثم تم تجديـد الحـرم القـديم وشطفت اركـانه لتسمح بانشاء البوابات الرئيسية الثـلاثـة وشقت الطـرق المحيطـة بالحـرم الشـريف كما انشئت الميادين المحيطة به وكذلك الدكاكين .

وقـد استخلصنـا البيـانـات الآتيـة للمعارة السعودية وهى تبين مساحة المسجد قديما وحديثا ومقدار استيعابه للمصلين والطائفين فى الأوقات المختلفة .

كانت مسـاحـة المبنى القـديم للمسجد الحرام ككل ٢٩١٠٠ مترا مربعا وكان المسقوف منها ١١٤٥٠ مترا مربعا .

اما العمارة السعودية الجديدة فقد اضافت الى المبنى السابق المساحات الآتية :ـ

٤٦١٠٠ المساحة المغطاة داخل الحرم والمتصلة بالأبواب .

٤٦١٠٠ المساحة المغطاة فى الدور العلوى .

١٣٢٥٠ المناطق المكشوفة المبلطة حول الحرم الشريف

٣١٢٠٠ مسـاحـة البـدروم وفيـه امـاكن فسيحـة للصـلاة علاوة على ما مائتين وخمسين غرفة للخدمات وللزمازمة .

١٣٦٦٥٠

ويـرتفـع الـدور الأول عن الـدور الأرضى حوالى اثنى عشر مترا يرقى اليهـا

بواسطة ثلاثة عشر سلما كبيرا. ويرتفع جدار مبنى الحرم للدورين أربعة وعشرين مترا.

اما مقدار استيعاب المسجد الحرام للمصلين فقد قدره تقرير مكتب الخبراء الاستشاريين الذى ننقل عنه هذه المعلومات كما يلى:

عدد المصلين

١١٤٥٠ مساحة المبنى القديم لنحرم المسقوف.

٩٦٦٥٠ مساحة المبنى الجديد لنحرم فى الدوريين المسقوفين.

٢٣٣٥٠ صحن المسجد والمناطق المحيطة به.

١٣١٤٥٠

وقد قدرت اعداد المصلين على اساس حجم سجادة الصلاة العادية اذا مافرشت فى المسجد ولكن الحرم يتسع فى المواسم الدينية مثل شهر رمضان ومواسم العمرة الى مائتى ألف مصل، أما فى زمن الحج فان عدد المصلين داخل المسجد والأرصفة المحيطة به يصل الى **٣٣٠** الف بل الى أربعمائة الف مصل فى وقت واحد - كما يقول تقرير الاستشاريين الباكستانيين.

عدد الطائفين

تبلغ سعة المطاف الحالي **٣٠٥٨** مترا مربعا حول الكعبة ويتسع المطاف لحوالي ثمانية آلاف وخمسمائة طائف.

اما فى وقت الحج فان المطاف يتسع لاربعة عشر ألف طائف حيث يستعمل الطائفون الممرين المؤديان الى المطاف وسعتها **٤١٥٤** مترا.

الرخام

ونورد فيما يلى بعض المعلومات الخاصة بالرخام الذى استعمل فى فرش المسجد وجدارنه واعمدته.

١ - يغطى الـرخـام المستعمـل فى الارضيـات ما مساحته ١١٥٤٥٠ مترا مربعا كما يغطى سـتـين الف مترا مربعـا من الجـدران والاعمـدة وحواجز السطح والشرفات والسـلالم البـالـغ عددهـا ثمانية وستين سلما وكذلك الجزء السفلي من جدران المآذن السبـع ، كما يغطى ثمانيـة آلاف مترا من المناطق المكشوفة حول الحرم وبذلك يبلغ مجمـوع الـرخـام المستعمـل فى العـمارة الجـديدة ١٨٣٥٥٠ مترا مربعا ويستخرج الرخام من محاجر فى وادى فاطمة قرب مكة المكرمة ، ومن محاجر المدركة وفرسان فى الشـواطىء الجنـوبيـة للمملكـة العربية السعودية ويتم نقله الى جدة حيث يقطع ويلمـع تحت اشـراف خبير ايطالى وفنيين مصـــــــريين .. اما الحجر الصناعى فتستخدم فى صبه الاحجار المحلية ويقوم بهذا العمل صناع مصـــــريون وسوريون .

صحـــــن المســـجد

يبلغ طول صحن المسجد مائة وستة امتار وعرضه مائة وثلاثة وستين مترا .

المســـــعى

يبلغ طول المسعى ٣٩٣ مترا وعرضه عشرون مترا وهومكون من دورين ويبلغ ارتفاع المسعى ١١,٢٥ احدى عشر مترا وربع المتر . .

ابواب المسعى

وللمسعى سـتـة عشـر بابا منها خمسة ابواب فى الجانب الغربى بعد باب السلام واحد عشر بابا فى الجانب الشرقي فى مواجهة شارع القشاشيه .

ابواب المسـجد

امـا ابـواب المسجـد الحـرام الرئيسية فهي ثلاثة باب السلام فى الجانب الشمالي ومنـه يصـل الـداخـل الى الـركن العراقي للكعبة المشرفة وباب العمرة فى الجانب

الغـربى وهـويفضي الى الـركن الشامى للكعبة، وباب الملك عبدالعزيز فى الجهة الجنوبية وهو يفضى الى محور الركن اليماني للكعبة ويقابل الحجر الاسود كما يقابل القبة على الصفا.

صناعـة الأبــواب

وقـد تم صنـع هذه الأبـواب الرئيسية الثلاث فى مصر كما صنع فيها باب صغير واحد اما بقية الأبواب فقد صنعت فى ايطاليا خلال الفترة من عام ١٣٨٦ - ١٣٩٠.

والأبواب مصنوعة من هيكل من الصلب مغطى بالنحاس المزخرف اما الجواجز فمصنوعة من الالمنيوم المؤكسد.

وتبلغ مسـاحـة سطـح الأبواب المعدنية اكثر من ستة الاف وستمائة متر مربع كما تبلغ مسـاحـة الحـواجـز على واجهـات الابواب الخارجية والدربزينات والفواصل خمسة آلاف واربعمائة متر مربع.

المــآذن

وللمسجـد الحـرام سبعـة مآذن، مئـذنتـان عنـد كل باب من الأبواب الرئيسية الثـلاثـة والمأذنة السابعة عند باب الصفا، وقد بنيت هذه المآذن بالخرسانة المسلحة وكسيت بالرخام وبالحجر الصناعى ويبلغ ارتفاع المئذنة الواحدة ستة وتسعين مترا عن سطـح الأرض، وتمثـل هذه المـآذن معـالم بارزة لقـاصـدى المسجـد الحرام من مسـافـات بعيدة علاوة على ماترمز اليه من المعانى الروحية حيث تنقل الاذان الى مسامع المسلمين.

الخطوط والذهب

بخـط كوفى واضـح ظاهـر فى القشـرة الـذهبيـة على ارضية بيضاء تتكرر رسوم خطيـة فى كل انحـاء المبنى الجديد للحرم وقد وضع فوق كل مدخل اطار مستطيل

كتبت فيـه البسملة ـ بسم الله الـرحمن الـرحيم ـ وفى قاعـة الصلاة الفسيحة كتبت كلمة ـ الله ـ لا اله الا الله محمد رسول الله .

اما فى قبة الصفا فتوجد آيات قرآنية مذهبة على شريط متواصل متداخل . وقد استعملت قشـرة ذهبيـة فى كتـابـة الآيات كما استعمل الذهب فى تغطية الأهلَّة فى أعلى المـآذن فهي مغطـاة بقشرة من الذهب كما كسيت قاعدة القبة الزجاجية لمقام إبراهيم بطبقة سميكة من الذهب .

المـــــواد

وقد بلغت الكميات المستعملة من الاسمنت العادى فى المبنى الجديد مائة الف وسبعمائة طن كما استعملت كميات كبيرة من الاسمنت الأبيض فى صناعة الحجر الصناعى واعمال التبليط والموزاييك .

اما كمية الحصى الذى استعمل فى الخراسانات فقد بلغت مائتين واحدى عشر الفا وثلاثمائة متر مكعب .

كما بلغت كميات الحديد الذى استعمل فى البناء سبعة عشر الف وثلاثمائة طن .

عـــدد العمال

وكان يعمل فى عمارة المسجد الحرام خلال الاعوام ١٣٧٥ ـ ١٣٧٧ مابين الف ومائة الى الفين وخمسمائة عامل يوميا بينهم حوالى خمسمائة من العمال المهرة .

وقـــد نقص هذا العـــدد الى النصف خلال الاعـوام ١٣٧٨ ـ ١٣٩٢ نصفهم تقـريبـا من العـمال المهـرة والفنين . اما فى الاعوام الثلاثة الاخيرة للمشروع فكان عدد العمال نحوا من مائتى عامل نصفهم من الفنيين والعمال المهرة .

تكاليف العمارة الجديدة

بلغت التكاليف الاجمالية للعمارة الجديدة ستمائة وواحد وعشرين مليونا وستمائة

واثنـين واربعـين الف ريـال منها ثلاثمائة وثمانية وخمسين مليونا وتسعمائة وخمسة عشر الف ريـال قيمـة ملكيـات العقـار المنـزوع ومـائتـين واثنـين وستين مليونا وسبعمائة وعشرين الف ريال تكاليف العمارة .

اصلاح الكعبة المشرفة

وقـد جرى اصـلاح الكعبـة المشـرفة بعد عامين من بدء العمل فى العمارة حيث كانت الاخشـاب الحـاملة لسقفى البيت العتيق قد تآكلت بفعـل القـدم وتقلبات الجو، بعد ان مضى على آخر اصلاح لسقف الكعبة ثلاثمائة وثمانية وثلاثين عاما . وقـد تم ازالـة سقف الكعبـة المصنـوع من الخشب وصنع بدله سقف من الخرسانة المسلحة وكذلك تم اصلاح الكمر الخشبى الذى يقع تحت السقف العلوى بمقدار ١,٣٥ وهذا الكمر الخشبى فى الواقع هو السقف الثانى للكعبة وكذلك تم اصلاح الجـدران الـداخلية وواجهاتها الرخامية وبدأ الاصلاح فى يوم الثامن عشر من شهر رجب وانتهى فى الحادى عشر من شهر شعبان عام ١٣٧٧ للهجرة .

تاريخ بدء العمل ونهايته

استغـرق العمـل فى العـمارة السعـودية للمسجد الحرام عشرين عاما حيث بدأ العمـل الفعلى فى الـرابـع والعشـرين من شهـر ربيـع الثـانى سنة ١٣٧٥ هـ وتم الانتهاء من هذه العمارة المباركة العظيمة فى شهر رجب من سنة ١٣٩٦ للهجرة .

ان العـمارة السعـوديـة للمسجـد الحـرام هى من أعظم المـآثـر التـاريخية للدولة السعـوديـة ممثلة فى مؤسسها العظيم المغفور له الملك عبدالعزيز وابنائه الملك سعود والملك فيصـــل والملك خالـد رحمهم الله جميعـا وجـزاهم خير الجـزاء على عملهم الطيب انه على ما يشاء قدير.

واود ان اذكر ان يد الاصلاح والعناية لاتزال ممتدة الى المسجد الحرام حتى الآن فهنـاك التـوسعة المقررة لعمل الميادين حول المسجد الحرام والتى جرى الأعداد لها

وبـدأ العمـل فى نزع ملكيـات الـدور والعـماير المنوى انشاء هذه الميادين فى مكانها ليكـون المسجـد الحـرام محاطـا بالميـادين الفسيحـة التى ستكـون مكـانـا طبيعيـا لاستيعـاب المصلين فى زمن الحجـاج علاوة على المنظـر الجمالي الذى ستظهر معالمه بعد احداثها.

وإذا كان من كلمـة اخـيرة تقـال فى هذا الشأن فهي ان لجلالة الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله الفضل فى الاحتفاظ بالعمارة العثمانية للمسجد الحرام باصراره على ابقـائهـا وعـدم المسـاس بها الأمر الذى يستطيع به المشاهد رؤ ية تطور العمارة الاسلامية عبر القرون ممثلة فى اقدس بقعة على سطح الأرض.



تاريخ الكعبة المعظمة

للشيخ حسين عبدالله باسلامه كتاب آخر اسمه (تاريخ الكعبة المعظمة) يتحدث عن عمارة الكعبة وكسوتها وسدانتها وكلما يتعلق بشؤونها وهو كتاب ضخم يقع فى اربعمائة صفحة، وهذا الكتاب مكمل لكتابه الذى تحدثنا عنه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» وقد اصدره بعده بعام أوعامين ثم اعادت تهامه طبعه مرة اخرى فى عام ١٤٠٢ هـ.

والكتاب فريد فى موضوعه فهو خاص بالكعبة المعظمة قبلة المسلمين فى صلواتهم ومهوى افئدتهم فى دعائهم وتوجههم الى ربهم، وهي أمل كل مسلم على سطح هذه الأرض فى الوفود اليها حاجا ومعتمرا وزائرا لبيت الله، مطوفا به ومصليا فيه، وساعيا بين الصفا والمروة وواقفا بعرفات والمشاعر الكريمة المقدسة.

يتحدث الكتاب حديثا طويلا عن البيت الحرام منذ فجر التاريخ بل من قبل التاريخ المعروف فيتحدث عن بناء آدم للبيت كما يتحدث عن بناء الملائكة له ثم بناء شيث فبناء ابراهيم عليه السلام وهو البناء الذى نجد سنده التاريخي الصحيح فى القرآن.

وقد خلص المؤلف من استعراض جميع الروايات التى تتعلق ببناء الكعبة المعظمة قبل بناء ابراهيم عليه السلام الى إنها روايات لايمكن القطع بصحتها،

كما لايمكن القطع بانها غير صحيحة والشيء الثابت الوحيد انه كان هناك بناء للبيت قبل بناء ابراهيم عليه السلام الا انه لايمكن القطع بنسبته تاريخيا الى من قام ببنائه، ولهذا فان الامر الثابت الذى اعتمد عليه المؤلف هو بناء ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه للبيت حيث يمكن اعتباره الاساس الذى تؤيده النصوص القرآنية والاحاديث الواردة فى الصحيح من السنة النبوية ثم فى كتب التاريخ والسير.

والكتاب كما ذكرت يستعرض تاريخ الكعبة المعظمة وكلما يتعلق بها ومايتسب اليها حتى يصل الى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة الذى اصدر فيه المؤلف هذا الكتاب الفريد. وقد رأيت ان الخص للقارئ الاطوار التاريخية المختلفة للكعبة المعظمة منذ بناء الخليل عليه السلام لها الى عصرنا الحاضر كما وردت فى كتاب الشيخ باسلامه لاهمية الموضوع لكل مسلم، ولأهل هذه البلاد خاصة حيث شرفهم الله تعالى ان يكونوا من اهلها فلا اقل من ان يعرفوا ولو بصورة موجزة تاريخ اقدس بقعة فيها.

وسيرى القارىء ان هذا التاريخ مملوء بالعبر كما انه لايخلو من الحوادث والطرائف التى تستثير شوق القارىء الى المزيد.

بناء ابراهيم للكعبة

كان مكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية وكانت السيول تأتيه فتأخذ عن يمينه وشماله.

وجاء ابراهيم عليه الصلاة والسلام الى مكة من الشام وخاطب ابنه اسماعيل.

ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر

قال إسماعيل فاصنع ما أمر ربك

قال إبراهيم وتعيننى / قال اسماعيل وأعينك.

قال إبراهيم فإن الله امرني أن أبنى بيتا هنا، وأشار إلى اكمة ترتفع على

ماحولها، بدأ البناء وجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر.

مقـــــام إبراهيم

فوضعه فقام عليه إبراهيم ـ فسمى ذلك الحجر ـ مقام إبراهيم ، واقدامه عليه السلام ظاهرة فيه واستمر يناول الحجارة لابراهيم وهو يبنى البيت وهما يقولان :

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وجعلا يدوران بالبناء للبيت وهما يرددان هذا الدعاء.

صفة بناء ابراهيم

بلغ ابراهيم من الاساس أساس آدم عليه السلام، وجعل طول البيت فى السماء تسعة اذرع وعرضه فى الأرض ـ المقصود دورة البناء ـ ثلاثين ذراعا وذلك بذراعهم، وكان موضع الحجر فى بناء ابراهيم داخلا فى البيت ، وبناه بحجارة بعضها على بعض ـ المقصود ان البناء كان رضماً لم تدخله مواد اخرى كالاخشاب وغيرها مما يتماسك به البناء ـ ولم يجعل له سقفا، وجعل للبيت بابا، وحفر له بئرا عند باب خزانة البيت يلقى فيها مايهدى الى البيت.

وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت

ورأى إبراهيم عليه السلام على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة، واطل من هذه الغمامة مثل الرأس فكلمه فقال / ياإبراهيم ابن على ظلى أوعلى قدرى، ولاتزد ولاتنقص وفى ذلك يقول الله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود.

الحجـــر الأسود

بنى إبراهيم البيت وبقي موضع يحتاج إلى حجر لاكمال البناء وأمر إبراهيم

إسماعيل أن يذهب إلى الوادى فيحضر الحجر المطلوب وذهب إسماعيل إلى الوادى فنزل جبريل عليه السلام من السماء بالحجر الأسود وكان قد رفع الى السماء حين غرقت الأرض بالطوفان وعاد اسماعيل فرأى الحجر الأسود وقد وضع فى مكانه وسأل أباه من جاءك بهذا؟ قال إبراهيم من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك. (١)

جرهم والعماليق

انتشر العمران فى مكة بعد بناء البيت ومرت اطوار تاريخية اصبح فيها امر مكة الى قبيلتي جرهم والعماليق وكانت تثور الحروب بين القبيلتين فتارة تكون الغلبة لهذه القبيلة واخرى لتلك ومما يذكر عن هاتين القبيلتين ان ملك جرهم الحارث ابن مضاض هو أول من ولي البيت وكان ينزل بقيقعان وهو جبل شهير بمكة يقع فى الجهة الغربية من المسجد الحرام ويقابل جبل ابى قبيس المطل على المسجد الحرام وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرها عليه ملك جرهم . وذلك للداخل من اعلا مكة ،وكان ملك العماليق السميدع بن هود بن حدرة بن مازن وكان ينزل اجياد من اسفل مكة وكان يعشر التجارة الداخلة الى مكة من اسفلها.

ومن هذا يتبين لنا ان الرسوم الجمركية على البضائع الداخلة الى البلاد يرجع تاريخها الى ازمان ممعنة فى القدم . وكان آخر ملوك مكة هو الحارث بن مضاض الاصغر الذى تنسب اليه القصيدة الشهيرة.

كان لم يكن بين الحجون الى الصفا   انيس ولم يسمر بمكة سامر (٢)

بناء قصي للكعبة

وقد انتهى امر مكة إلى قصي بن كلاب الذى اجتمع أمر قريش على ولايته عليهم ويبدو أن البيت قد تخرب بعوامل القدم ومرور الزمان فجمع قصي نفقة ثم

---

١ - «٣٤ - ٣٩ تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ - «٤٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

هدم الكعبة فبناها بنيانا لم يبن أحد ممن بناها قبله مثله وسقفها بخشب الدوم الجيد وبجريد النخيل. (١)

أقول وإذا صح ما ورد عن بناء قصي للكعبة فان هذا البناء لم يتجاوز الحد الذى قام عليه بناء إبراهيم عليه السلام، وسنرى ان قريشا حينما قامت ببناء الكعبة إنها اعتمدت على بناء ابراهيم لها وزادت ارتفاعها تسعة اذرع حيث كان بناء ابراهيم يرتفع تسعة أذرع فرفعت قريش البناء تسعة أذرع أخرى فكان طوله فى السماء ثمانية عشر ذراعا، واقتصروا من عرضها ستة اذرع وشبر لقصور النفقة لديهم وجعلوا مكانها الحجر - حجر اسماعيل عليه السلام بسكون الراء - ورفعوا بابها وجعلوا فى داخلها ستة دعائم فى صفين ثلاثة فى كل صف من الشق الذى فى الحجر الى الشق اليماني وجعلوا فى ركنها الشامي عند مدخلها درجة يصعد منها الى اسطحها وجعلوه سطحا وجعلوا فيه ميزابا يصب فى الحجر (٢)

بناء قريش للكعبة

اجمرت امرأة الكعبة فطارت شارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت فتشاورت قريش فى أمر هدمها وهابوه فقال الوليد وفى رواية أبو وهب بن عمرو بن عائد المخزومي وهو خال النبى ﴿ﷺ﴾ وكان شريفاً إن الله لايهلك من يريد الاصلاح فارتقى على ظاهر البيت ومعه العباس فقال اللهم لانريد الا الاصلاح ثم هدم فلما رأوه سالما تابعوه.

قالوا وأقبلت سفينة من الروم حتى اذا كانوا قريبا من جده انكسرت فخرجت قريش لتأخذ خشبها فوجدوا الرومي الذى فيها نجارا وكان اسمه باقوم وكان يتجر الى بندر وراء ساحل عدن فانكسرت سفينته بالشعيبة فقال لقريش ان اجريتم عيرى من عيركم الى الشام اعطيتكم الخشب ففعلوا وقدموا به وبالخشب ليبنوا به

---

١ - «٤٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ - «٥٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

البيت فهـدمت قريش الكعبـة وكانت مبنيـة بالـرضم ليس فيها مدر وكانت قدر ما تقتحمهـا العنـاق وكانت ثيابها توضع عليها تسدل سدلا وكانت ذات ركنين كهيئة الحلقـة وذكـروا ان السيـل كان يأتى فيصيب الكعبة فيتساقط من بنائها وكان رضماً فوق القامة وبنوها بحجارة الوادى فرفعوها فى السماء عشرين ذراعا وكان قد سرق كنز الكعبة فأرادوا تسقيفها .

النبي ﴿ﷺ﴾ يشارك فى بناء الكعبة

عن عمرو بن دينار قال سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول ـ لما بنيت الكعبة ذهب العباس والنبي ﴿ﷺ﴾ ينقلان الحجارة فقال العباس للنبي ﴿ﷺ﴾ اجعل ازارك على رقبتك فخرَّ الى الأرض فطمحت عيناه السماء فقال أرني ازارى فشـده عليـه ، وكانوا يضعون ازرهم على اعناقهم يحملون عليها الحجارة فاذا دنوا من النـاس لبسـوا أزرهم فلما وقـع ما وقـع للنبي ﴿ﷺ﴾ سأله عمه ماشأنك؟ قال نهيت أن أمشي عريانا قال العباس فكتمته حتى أظهر الله نبوته .

قريش تبني الكعبة من طيب مالها

ولمـا أجمعت قريش أمـرهـا فى هدم الكعبـة وبنـائها قام أبو وهب بن عمرو عائد المخـزومى فتنـاول من الكعبـة حجـرا فوثب من يده حتى رجـع الى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيباء لايدخل فيه مهر بغي ولابيع ربـا ولامظلمـة لاحـد من الناس قال ابن اسحق ووهب خال النبي ﴿ﷺ﴾ وكان شريفا ،وكانت النفقة على الكعبة قد قصرت بقريش فتركوا موضع الحجر واحاطوه بجـدار وقـد جاء ذلـك فى حديث عائشـة ام المؤمنـين رضى الله عنها قالت سألت رســول الله ﴿ﷺ﴾ عن الجدار أمن البيت هو؟ قال نعم قلت فما لهم لم يدخلوه فى البيت قال الم ترى قومك قصرت بهم النفقة ، قلت فما شأن بابـه مرتفعـا؟ قال ذلـك قومك ليـدخلوا من شاؤ وا ويمنعوا من شاؤ وا ، ولـولا ان قومـك حديثـو عهـد بجـاهليه فاخاف ان تنكسر قلوبهم ان ادخل الجدار فى البيت وان الصق بابه بالأرض .

الحجـر الأسـود

لما بلغ البناء موضع الركن أرادت كل قبيلة أن تستأثر بوضع الحجر الأسود فى مكانه فاختصموا حتى وصل بهم الأمر إلى الاعداد للقتال فقربت بنو عبدالدار جفنة مملوءة دما وتعاقدواهم وبنو عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم ثم اجتمعوا وتشاوروا واتفقوا ورضوا بأول داخل من باب بني شيبة فدخل النبى ﴿ﷺ﴾ فقالوا هذا الأمين كلنا نرضى به فحكموه فى ذلك فوضع الحجر فى ثوب وأمر واحدا من كل قبيلة ان يأخذ بطرف الثوب ثم وضعه فى موضعه بيده الكريمة.

وقريش تقسم البناء اجزاء

وتجزأت قريش الكعبة فكان شق الباب لبني عبدمناف وزهرة ومابين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ابني عمر بن هصيص بن كعب بن لؤى، وكان شق الحجر لبني عبدالدار بن قصي ولبني اسد بن عبد بن قصي ولبني بن كعب بن لؤى وهو الحطيم.

كنـوز الكعبـة

وكان فى بطن الكعبة جب تحفظ فيه الهدايا التى تهدى للكعبة وقد سرق من الكعبة حلة وغزال من ذهب كان عليه در وجوهر قالوا وكان فيها قرنى الكبش الذى افتدى به إسماعيل عليه السلام فلما عزموا على هدم الكعبة اخرجوا هذه الكنوز وجعلوها عند أبي طلحة عبدالله ابن عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار بن قصي، واخرجوا هبل وكان على الجب الذى فى داخل الكعبة نصبه عمرو بن لحي - ونصب عند المقام، وهناك رواية تقول انه كان فى داخل الكعبة افعى كبيرة مخيفة فلما اذن الله بهدم الكعبة أرسل اليها طائرا عظيما فاخذها من الكعبة فقذف بها فى اجياد. (١)

---

١ - «٤٦ - ٦٧ تاريخ الكعبة المعظمة».

بنـاء عبدالله بن الزبير للكعبة

أرسـل يزيـد بن معـاوية جيشا إلى مكة لحرب عبدالله بن الزبير الذى استولى على الحجاز وبايعه أهله خليفة عليهم بعد موت معاوية ووصل هذا الجيش بقيادة الحصـين بن نمـير فاستـولى على مكـة كلهـا إلا المسجـد الحرام، ولجأ ابن الزبير وأصحـابـه الى المسجـد فبنوا حول الكعبة خصاصا (بيوتا من القصب) ورفافا من الخشب كما نصبـوا خيـامـا يكتنـون فيهـا من حجـارة المنجنيقـين الذين نصبا على اخشبى مكة ابي قبيس وقعيقعان وكان الحصين قد قدر على اصحابه عشرة آلاف حجر يرمون بها الكعبة وكانوا يرمون ويرتجزون، واخذت حجارة المنجنيقين تنصب على الكعبة حتى تخرقت كسوتها فصارت كانها جيوب النساء ترتج من اعلاها الى اسفلها، واستمرت الحجارة تتساقط على الكعبة أياما.

إحتراق الكعبة

وفى ليلة السبت لثلاث خلون من ربيع الأول عام ٦٤ ذهب رجل من اصحاب الـزبـير يوقـد نارا فى بعض تلك الخيـام بين الركن الأسود والركن اليمانى ،والمسجد يومئذ ضيق فطارت شرارة فى الخيمة فاحترقت الخيام والتهب المسجد حتى تعلقت النـار بالبيت فاحـترق، وكـان يومـا شديـد الرياح والكعبة يومئذ مبنية ببناء قريش مدمـاك من خشب السـاج ومـدمـاك من حجـارة من اسفلهـا الى اعـلاها وعليها الكسـوة فطـارت الرياح بلهب تلك النار، واحترقت كسوة الكعبة واحترق خشب الساج الذى بين البناء.

وهناك رواية اخرى تقول ان اصحاب الحصين بن نمير رموها بالنفط فاحترقت ولكن الحصـين وجمـاعتـه من اهـل الشـام ينكـرون ذلك. وقد احترق مع الكعبة الحجر الاسود حتى اسود لونه، وكان لونه مثل لون المقام وتصدع الحجر ثلاث فرق فانشطـرت منـه شظيـة كانت عند بعض آل شيبة بعد ذلك بدهر طويل، وقد شده

ابن الزبير بعد ذلك بالفضة إلا تلك الشظية من أعلاه وضعفت جدر الكعبة حتى أنها لتنقض من أعلاها الى اسفلها ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها، وهي مجردة متوهية من كل جانب.

فزع اهل مكة وأهل الشام جميعا لما اصاب الكعبة، وتركها ابن الزبير ليراها الناس، ويروا ماصنع اهل الشام بها.

موت يزيد بن معاوية

وبقي الحصين بن نمير محاصرا ابن الزبير حتى وصل الخبر إلى مكة بنعي يزيد بن معاوية في ليلة الثلاثاء هلال ربيع الآخر. وعلم عبدالله بن الزبير بوفاة يزيد قبل أن يعلم الحصين بذلك، عندها أرسل ابن الزبير رجالا من أهل مكة من قريش وغيرهم فيهم عبدالله بن خالد بن أسيد ورجال من بني امية إلى الحصين بن نمير فكلموه وعظموا عليه ما أصاب الكعبة وقالوا إن ذلك منكم وقد رميتموها بالنفط فانكروا، وقالوا للحصين لقد توفي امير المؤمنين فعلى ماذا تقاتل؟ ارجع الى الشام حتى ترى ماذا يجتمع عليه رأى صاحبك يعنون معاوية بن يزيد.

والحصين يرتحل

ولم يزالوا به حتى لان لهم ثم ارتحل الحصين من مكة الى المدينة لخمس ليال خلون من ربيع الآخر.

وعبدالله بن عمرو بن العاص يبكى

لما ارتحل جيش الحصين بن نمير دخل عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما المسجد الحرام والكعبة محترقة تتناثر حجارتها فوقف ومعه ناس غير قليل فبكى حتى ان دموعه تحدر كحلا فى عينه من اثمد كأنه رؤوس ذباب على وجنته.

ويعـــظ الناس

وقـال يا أيهـا النـاس والله لو أن أبـا هريـرة أخـبركم انكم قاتلوا ابن نبيكم بعد نبيكم ومحرقوا بيت ربكم لقلتم ما من أحد أكذب من إبى هريرة، انحن نقتل ابن نبينا ونحرق بيت ربنا فقد فعلتم، لقد قتلتم ابن نبيكم وحرقتم بيت الله فانتظروا النقمـة، فو الله الـذى نفس عبـدالله بن عمـرو بيـده ليلبسنكم الله شيعـا وليذيقن بعضكم بأس بعض يقولها ثلاثا.

رفع عبدالله بن عمرو رضى الله تعالى صوته فى المسجد فما فى المسجد أحد إلا وهـو يفهم مايقـول فان لم يكن يفهم فانـه يسمـع هذا الصوت. ثم قال عبدالله بن عمـرو : أين الآمـرون بالمعـروف والنـاهـون عن المنكر، فوالذى نفس عبدالله بن عمـرو بيـده لوقـد البسكم شيعا واذاق بعضكم بأس بعض لبطن الأرض خير لمن عليها لمن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر.

ابن الزبير يستشير الناس فى هدم الكعبة

وجمع ابن الزبير وجوه الناس وأشرافهم فشاورهم فى هدم الكعبة. انقسم الناس فى آرائهم فاشار فريق بهدمها منهم جابر بن عبدالله وكان قد جاء معتمرا، وعبيد بن عمـير، وعبـدالله بن صفـوان بن اميـه وغيرهم. ولكن اكثر الناس لم يوافقوا على الهدم، وكان ابرز هؤلاء عبدالله بن عباس رضى الله عنهما قال لابن الزبير دعها على ما اقرها رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأني اخشى ان يأتي بعدك من يهدمها، ثم يأتى بعد ذلك آخر فلا تزال ابدا تهدم وتبنى، وأمر عبدالله ابن الزبير بالخصاص التى كانت حول الكعبة فهدمت وبالمسجد فكنس مما فيه من الحجارة والدمار وتبين ان الكعبة قد مالت حيطانها مما اصابها من حجارة المنجنيق كما تبين ان الركن قد اسود واحترق وتقطع ثلاثة اجزاء. فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ويتهاون الناس بحرمتها ولا احب ذلك ولكن ارقعها.

ابن الزبير يرد على ابن عباس

قال الزبير ، والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر إليه ينقض من أعلاه إلى أسفله حتى إن الحمام ليقع فتتناثر حجارته .

ابن الزبير يحزم أمره على الهدم

أقام ابن الزبير أياما وهو يفكر ويشاور ثم أجمع أمره على الهدم ، وكان يحب أن يكون هو الذي يعيد البيت على قواعد ابراهيم كما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ فى وصفه لعائشة رضى الله تعالى عنها .

ابن الزبير يجمع المؤن قبل مباشرة الهدم

سأل ابن الزبير رجلا من أهل العلم عن المواضع التى اخذت قريش حجارة الكعبة منها حين قامت ببنائها ، قالوا له أن حجارة الكعبة اخذت من حراء ومن ثبير والمقطع وهو الجبل المشرف على الطريق ومن قافية الخندمة ، ومن جبل حلحله المشرف على ذى طوى وهو عند الثنية البيضاء فى طريق جده ومن جبل باسفل مكة على يسارما انحدر من ثنية بنى عضل ويقال له مقطع الكعبة ـ يقول الشيخ باسلامه والظاهر ان هذا الجبل هو المسمى فى العصر الحاضر ـ جبل الكعبة ـ وهو واقع على يمين الداخل ومن مردلة من حجرها يقال له الملجوى

امر ابن الزبير بنقل الاحجار التى يحتاج إليها فى بناء الكعبة من الجبال التى ذكرنا وارسل رجلا إلى صنعاء فاشترى قصة باربعمائة دينار ليكون بناء الحجارة بها .

ابن الزبير يخرج كنوز الكعبة

لما استكمل ابن الزبير اعداد المؤن اللازمه للبناء عمد الى كنوز الكعبة وكان

فيها الحلي والثياب والطيب فوضعها فى خزانة الكعبة فى دار شيبة ابن عثمان.

وأهل مكة يغادرونها الى منى والطائف

ثم عزم على هدم الكعبة فخاف بعض أهل مكة ان ينزل عليهم العذاب لهدمها ففارقوا مكة الى منى والبعض ذهب الى الطائف، ولم يعودوا اليها إلا بعد ان تم الهدم وبوشر فى البناء وكان ممن ترك مكة ابن عباس ولم يعد إليها حتى اكتمل بناؤها.

ابن الزبير يباشر هدم الكعبة بنفسه

امر ابن الزبير العمال بهدم الكعبة فتلكأوا ولم يجترىء أحد منهم على مباشرة الهدم فعلاها بنفسه واخذ المعول وأعمله فى الهدم وبدأت الحجارة تتساقط والناس ينظرون إليه فلما رأوا أنه لم يصب بسوء اجترأوا على الهدم، وارقى ابن الزبير فوق الكعبة عبيدا من الاحباش يشاركون فى هدمها، رجاء ان يكون فيهم الحبشى الذى قال فيه رسول الله ﴿ﷺ﴾ - يخرب الكعبة ذو السريقتين من الحبشة - عملت المعاول فى هدم الكعبة فلم تترجل الشمس حتى الصقت بالأرض وجعل ابن الزبير الحجر الأسود فى ديباجة وادخله فى تابوت وقفل عليه ووضعه عنده فى دار الندوة، وكان فى بعض جدار الكعبة قرنا الكبش الذى فدى به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلما هدمت الكعبة كشف ابن الزبير عن القرنين فوجدهما مطليين بمشق فتناولهما فلما مسهما همدا من الأيدى، وقيل ان قرني الكبش احترقا لما احترقت الكعبة وقد تم هدم الكعبة فى يوم السبت نصف جمادى الآخرة من ذلك العام عام ٦٥ للهجرة.

نصب الخشب حول الكعبة وتغطية بالستور

وأرسل عبدالله بن عباس رضى الله عنهما الى ابن الزبير يقول: لاتدع الناس

بغير قبلة انصب لهم حول الكعبة الخشب واجعل عليه الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلون اليها ففعل ذلك ابن الزبير وقال اشهد لسمعت عائشة رضى الله تعالى عنها تقول ـ وذكر حديثها المتقدم .

الكشف عن أساس ابراهيم

لما تم الهدم كشف ابن الزبير عن أساس بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة فوجده داخلا فى الحجر نحوا من ستة اذرع وشبر كانها اعناق الأبل آخذ بعضها ببعض فاذا تحرك الحجر من القواعد تحركت الاركان كلها . فدعى ابن الزبير خمسين رجلا من وجوه الناس واشرافهم وأشهدهم على ذلك الاساس فادخل رجل من القوم يقال له عبدالله بن مطيع العدوى عتلة كانت فى يده فى ركن من اركان البيت فتزعزعت الاركان كلها جميعا .

أشهد ابن الزبير أشراف الناس ووجوه أهل مكة على أساس إبراهيم عليه السلام للكعبة ، ثم امر بالبناء على ذلك الأساس ، ووضع حداث باب الكعبة على مدماك الشاذروان الملاصق بالأرض ، وجعل الباب الآخر بازائه فى ظهر الكعبة مقابله ، وجعل عتبته على الحجر الأخضر الطويل الذى فى الشاذروان الذى فى ظهر الكعبة قريبا من الركن اليماني وكان الناس يطوفون من وراء الستور والبناة يبنون فى الداخل .

وضع الحجر الأسود فى الركن

فلما بلغ البناء موضع الركن امر ابن الزبير بنقر موضعه فى حجرين من تحته ومن فوقه بمقدار حجم الركن وامر ابنه عباد بن عبدالله ابن الزبير وجبير بن شيبه بن عثمان ان يجعلوا الركن فى ثوب وخاطبهم قائلا ، اذا دخلت صلاة الظهر فاحملوه واجعلوه فى موضعه واخبرهم انه سيطيل فى صلاته فإذا فرغتم من وضعه فكبروا حتى اخفف صلاتي ، وكان ذلك فى يوم شديد الحر ، فلما أقيمت الصلاة كبر ابن

الـزبـير وصلى الـركعـة الأولى خرج عبـاد وجبـير بـالحجـر من دار الندوة واختر قا الصفـوف حتى ادخـلاه فى موضعـه من البنـاء فلما اقـراه فى موضعـه وطـرقـا على الحجرين كبرا، لما سمع ابن الزبير التكبير خفف صلاته، وهكذا تم وضع الحجر الأسود فى مكانه من الركن وقد ذكرنا ان الحجر الأسود انقسم الى ثلاثة شظايا من تأثـير الحـريق فشـد ابن الـزبـير الشظيتـين اللتـين وجدهما من الحجر بالفضة أما الشظية الثالثة فقد بقيت عند بعض آل شيبة دهرا طويلا.

غضب بعض الناس لعدم اشراك القبائل فى وضع الحجر الأســود

تسـامـع النـاس بما كان من أمر وضع الحجر من قبل عباد ابن الزبير وشيبة ابن جبير والناس فى صلاة الظهر فغضب بعضهم ان لم تدع قبائل قريش لوضع الحجر كما تم حين بناء قريش للكعبة، ولكن ابن الزبير انفذ الأمر فى هدوء وسرية تامتين منعا للخوض فى الأمر.

زيادة ابن الزبير فى طول البناء

هذا وقـد ابلغ ابن الـزبـير طول بنـاء الكعبة سبعة وعشرين ذراعا وكانت ثمانية عشر ذراعا فى بناء قريش وتسعة اذرع قبل بناء قريش فكانت زيادته فى طولها تسعة اذرع عن بنـاء قريش وجعـل عرض جدارها ذراعان، وجعل فيها ثلاث دعائم فى صف واحـد وكـانت قريش فى الجـاهليـة جعلت فيها ست دعائم فى صفين وبناها بالرصاص المخلوط بالورس.

تزيين الكعبة بالرخام

واستقـدم ابن الـزبـير رخاما من صنعاء اسمه البلق فجعله فى الروزن الذى فى سقف الكعبة للضوء.

الأبواب والميزاب

قالوا وكان باب الكعبة قبل بناء ابن الزبير مصراعا واحدا فجعله ابن الزبير مصراعين طولها احد عشر ذراعا من الأرض الى منتهى اعلاها اليوم وجعل الباب الآخر الذى فى ظهرها بازائه وجعل اليها درجة فى بطنها فى الركن الشامي من خشب معرجة تصعد فيها الى ظهرها وجعل فى سطحها ميزابا يصب فى الحجر.

تطييب الكعبة وكسوتها

لما اتم ابن الزبير بناء الكعبة خلق - طيَّب - جوفها بالعنبر والمسك ولطخ جدارها بالمسك من الخارج من اعلاها الى اسفلها، وسترها بالديباج وقيل بالقباطي.

ويفرش حول الكعبة بالحجارة

وبقيت حجارة من بناء الكعبة ففرشت حول البيت واديرت بمقدار عشرة أذرع تاريخ انتهاء البناء.

وكان الفراغ من عمارة الكعبة المعظمة فى سابع عشر من شهر رجب من نفس العام عام خمس وستين للهجرة.

ابن الزبير يطلب من الناس ان يعتمروا ويتصدقوا

لما اتم ابن الزبير عمله العظيم خاطب الناس قائلا : من كان لي عليه طاعة فليعتمر من التنعيم شكرا لله عز وجل، ومن قدر ان ينحر بدنة فليفعل، ومن لم يقدر فليذبح شاة، فمن لم يقدر فليتصدق بقدر طَوْله

خرج ابن الزبير يمشى حافيا وخرج معه رجال من قريش مشاة منهم عبدالله بن صفوان وعبيد بن عمير فأحرم وأحرم الناس معه من اكمة أمام مسجد عائشة بمقدار غلوة - ومسجد عائشة على مقربة من المسجد المنسوب لعلي - وجعل ابن الزبير طريقه على ثنية الحجون المفيضة الى المعلاة ، ولبى حتى نظر البيت فلما

طاف بالكعبة استلم الاركان الأربعة جميعا، وقال انما كان ترك استلام هذين الركنين الشامي والغربي لان البيت لم يكن تاما. يقول ابن فهد القرشي وبقيت هذه العمرة سُنَّةً عند أهل مكة فى هذا اليوم يعتمرون فى كل سنة من هذه الاكمة يقصد من الينبوع فما دونها.

ابن الزبير ينحر مائة بدنه

وكانت فرحة ابن الزبير وأهل مكة فرحة عظيمة بإعادة بناء الكعبة فاهدى ابن الزبير فى ذلك اليوم مائة بدنة نحر بعضها فى جهة التنعيم والبعض الآخر فى طرف الحل ولم يبق من أشراف مكة وذوى الاستطاعة فيها الا من اهدى ونحر، ولم ير يوم كان اكثر عتيقا ولا اكثر بدنة منحورة أو شاة مذبوحة، ولا صدقة من ذلك اليوم، واقام اهل مكة يطعمون، ويتنعمون وينعمون شكرا لله على ما انعم من التيسير فى بناء بيته الحرام على الصفة التى كان عليها حين بناه إبراهيم الخليل عليه السلام.

تحلية اساطين الكعبة بالذهب

قالوا وجعل ابن الزبير على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب كما جعل مفاتيحها ذهبا، كما قالوا انه ادخل الرصاص والورس فى بناء الكعبة.

هكذا أعاد ابن الزبير رضى الله تعالى عنه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام وكان الاختلاف هو ان طول جدار الكعبة فى بناء إبراهيم تسعة أذرع فجعلها ابن الزبير سبعاً وعشرين ذراعا وجعل لها سقفا ولم يكن لها سقف فى بناء الخليل عليه السلام، وجعل فى ركنها الشمالي درجا يصعد عليه الى سطحها وحلاها بالذهب وغير ذلك مما اسلفنا بيانه فجزاه الله على عمله الطيب خير الجزاء. (١)

بناء الحجاج للكعبة المعظمة

تأبي السياسة ألا أن تدس أنفها فى كل أمر فلم تمض عشر سنوات على بناء

---

١ ـ «٦٧ ـ ٨٥ تاريخ الكعبة المعظمة».

عبدالله ابن الزبير للكعبة المعظمة حتىاختلفت الأمور فعادت جيوش الشام مرة اخرى إلى مكة بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى وحاصرت أبن الزبير فى المسجد وضربت الكعبة بالمنجنيق مرة أخرى وحارب ابن الزبير حتى قتل فلما استتب الأمر فى مكة للخليفة الأموي عبدالملك بن مروان كتب إليه الحجاج بن يوسف عن الزيادة التى أحدثها بن الزبير فى بناء الكعبة ووصف حديث عائشة رضوان الله تعالى عنها الذى اعتمد عليه الزبير فى اعادة بناء الكعبة على قواعد ابراهيم وصف هذا الحديث بانه مفترى على عائشة وان الزبير يزعم انه سمعه منها فكتب إليه عبدالملك، إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء أما ما زاد فى طوله ـ طول بناء البيت ـ فاقره، وأما مازاد فيه من الحجر فرد إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه، ولم يكذب الحجاج خبراً فسارع إلى نقض الزيادة التى ادخلها ابن الزبير رضى الله تعالى فى الكعبة، والتى أعادها بها إلى ماكانت عليه حين بناها الخليل عليه السلام وأعاد بناء الكعبة فى الجدار الذى من جهة الحجر ـ حجر إسماعيل وهو بمقدار ستة أذرع وشبر كما قام بسد الباب الغربى فى ظهر الكعبة عند الركن اليماني وهكذا أعيدت الكعبة إلى ماكانت عليه حين بناء قريش لها، اما ما احدثه ابن الزبير من الطول فى البناء فبقي على حاله.

عبدالملك يندم بعد فوات الأوان ويلعن الحجاج

ولقد ندم عبدالملك بن مروان على تعجله فى الأذن للحجاج بنقض مابناه الزبير من الكعبة فقد وفد عليه الحارث بن عبدالله فى خلافته فقال له عبدالملك : مأظن أبا خبيب ـ يقصد ابن الزبير سمع من عائشة ماكان يزعم أنه سمعه منها؟

قال الحارث : بلى أنا سمعته منها.

قال عبدالملك : سمعتها تقول ماذا؟

قال الحارث : قالت : قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثةعهدهم بالشرك أعدت ماتركوا منه فان بدالقومك من بعدى

ان يبنوه فهلمي لاريك ماتركوا منه ـ فاراها قريبا سبعة اذرع ـ وتكملة هذا الحديث انـه قال ﴿ﷺ﴾ لها ـ ولجعلت لها بابـين موضـوعين فى الأرض شرقيا وغربيا، وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها؟

قالت عائشة : لا

قال النبى صلوات الله وسـلامـه عليـه تعـززا أن لايـدخلها إلا من ارادوا فكان الرجل اذا هو اراد ان يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى اذا كاد ان يدخلوه دفعوه فسقط.

قال عبدالملك للحارث : أنت سمعتها تقول هذا

قال الحارث : نعم.

فنكث ساعة بعصاه ثم قال وددت أنى تركته ـ يقصد ابن الزبير وماتحمل، وقال أبوأويس أخبرني غير واحد من أهل العلم ان عبدالملك ندم على اذنه للحجاج فى هدمها ولعن الحجاج.

والحقيقة أن حديث عائشة رضوان الله تعالى عليها ثابت فى كتب السنة، وكان الأحرى بعبدالملك بن مروان أن يتقصى الأمر قبل ان يحكم فيه وهويعرف الحجاج ومـاجبـل عليـه من الحقد والبطش فالمسألة تتعلق هنا بهيبة البيت وقدسيته، حيث يجب عدم تعرضه للهدم والتغيير فى غير موجب، وقد رأينا ابن العباس وهومن هو فى فقهـه وعلمـه ينصـح ابن الزبير ان يقوم بترقيع الكعبة، أى ترميمها وأن لا يقوم على الهدم، ثم يترك مكة إلى الطائف فلا يعود إليها إلا بعد اتمام بناء البيت مرة اخرى.

لاتجعل كعبة الله ملعبة للملوك

وهـذا الـذى فعله ابن عبـاس رضى الله تعالى عنهما هوما افتى به الامام مالك ابن أنس امام دار الهجرة حينما سأله هارون الرشيد وقيل أبوه المهدى العباسي ماذا يرى فى هدم الكعبة وردها إلى بناء عبدالله بن الزبير.

قال الامام مالك ـ يا أمير المؤمنين لاتجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لايشاء أحد

أن يهدمها إلا هدمها، فتذهب هيبة البيت من صدور الناس فتركها الرشيد.

الطواف من خارج الحجر

ولهذا فان الطواف يكون من خارج الحجر - حجر إسماعيل - لأن ستة أذرع من الحجر مما يلى البيت تعتبر محسوبة من البيت بلا خلاف

خــلاصة القول

وخــلاصــة القول كما يقول المؤلف، فكل شيء فيها - الكعبة - بناء ابن الزبير الا الجـدار الـذى فى الحجـر - حجـر اسماعيل - فانه بناء الحجاج - كما سد الحجاج البـاب الـذى ظهـر فى الكعبـة، كذلـك رفع الباب الشرقي الذى يدخل منه اليها اليوم بمقدار اربعة اذرع وشبر وكان يصل الى الأرض، وكذلك الدرجة التى فى باطن الكعبة والبابان اللذان عليها اليوم هما ايضا من عمل الحجاج. (١)

الســـيل يهدم الكعبة

بقيت الكعبة المعظمة على بناء ابن الزبير لها والتعديل الذى احدثه بها الحجاج ابن يوسف تسعـمائـة واربـع وستـين عامـا لم يصبهـا وهن ولاخراب باستثناء بعض المرمات البسيطة، بقيت الكعبة المعظمة كذلك الى عام **١٠٣٩** للهجرة، ففى يوم الأربعـاء التـاسـع عشـر من شعبـان عام تسع وثلاثين والف للهجرة، هطل بمكة المكرمة مطر عظيم ابتدأ فى الساعة الثانية صباحا - بالتوقيت الزوالى - واشتد نزوله بين صلاتي الظهر والعصر واتصل المطر الى ليلة الخميس، يصاحبه برد عظيم.

وفى آخـر النهـار من يوم الأربعـاء هبـط من جراء هذه الأمطار سيل عظيم لم يرد مثله فى الأزمـان القـريبـة، دخـل السيـل الى المسجد الحرام وامتلأ المسجد بالماء، ودخـل المـاء الى الكعبـة المشـرفـة من بابهـا ووصـل ارتفـاع الماء الى نصف جدار الكعبة، كما بلغ ارتفاعه الى طوق القناديل، ودخل السيل بيوت أهل مكة المكرمة

---

١ - «٨٦ - ٩١ تاريخ عمارة الكعبة المعظمة».

وأخـرج امتعـة هذه البيـوت وذهب بها الى اسفـل مكـة ، ومات فيه خلق كثير من مختلف طبقات الناس وصل تعدادهم كما يقول أحمد بن علان ألف إنسان من كبير وصغـير وجليـل وحقـير ، وبقى ماء السيـل تلك الليلة بالمسجـد الحـرام إلى الصباح . . وفى عصريوم الخميس عشرين من شعبان عام ١٠٣٩ هـ سقط الجدار الشـامي للكعبـة ، كما سقـط بعض جداريهـا الشـرقي والغـربي كما سقطت درجة السطح بعد ذلك ، ذعر الناس لما حدث من سقوط جدار الكعبة وضجوا وارتاعت القلوب لهول ذلـك . وكـان أمـير مكـة الشـريف مسعود ابن ادريس ابن حسن قد حضر الى المسجد صباح الخميس ، وامر بفتح سراديب المياه الخاصة بالحرم مما يلي باب إبراهيم وبعد ان تم تصريف معظم المياه عاد الى داره باجياد ولكنه ما لبث ان عاد الى المسجـد فزعـا حينـما علم بسقـوط جدار الكعبـة وحضر معه أشراف مكة وعلماؤ ها وسادن البيت الشيخ محمد بن أبي القاسم الشيبي .

أمر الشريف مسعود بايقاد الشموع فاوقدت وأمر السادن بالدخول الى الكعبة واخـراج القنـاديـل الثمينـة الخـاصـة بالكعبة ، وكانت عشرين قنديلا من الذهب احدها مرصع باللؤ لؤ ، كما اخرج الميزاب والمعادن الثمينة ، وحفظت جميعها فى دار سادن البيت بعد ان تم ضبطها .

وفى اليـوم التـالى وهـو يوم الجمعة ٢١ شعبان ١٠٣٩ حضر أمير مكة الشريف مسعود إلى المسجد الحرام ومعه أشراف مكة وعلماؤ ها واعيانها وباشروا فى تنظيف المطـاف ومـاحـولـه فبـاشـر الخطيب خطبة الجمعة وأقام صلاتها بالناس فى موضع المطاف . وبعد الفراغ من الصلاة شرعوا فى جمع الحجارة التى سقطت من الكعبة المشـرفـة فنقلوهـا من المطـاف ووضعوها فى اماكن قريبة حتى تكون فى متناول اليد عند اعادة البناء .

كان الحجـاز فى ذلـك العهـد ضمن البـلاد الاسلامية التابعة للخليفة العثمانى ولكنـه كان مرتبطـا فى ادارتـه بمصر ، وكان مقر الشرفاء امراء مكة فى مكة المكرمة ، وكان مقر الولاة سواء اكان الوالي من قبل الخلافة العثمانى او من قبل صاحب مصر

فى جدة ، وقد استدعى ماحدث السعي لانقاذ الكعبة باحضار مال عاجل من جدة فارسل الى صاحب مصر فيها فبعث خمسمائة دينار بصورة عاجلة .

استفتاء الشريف علماء مكة فى اصلاح الكعبة

وقد حضر الشريف مسعود امير مكة الى المسجد الحرام وحضر لحضوره علماء البلد الأمين واعيان الناس ومندوب من صاحب مصر فسأل أمير مكة العلماء الحاضرين الفتوى فى إصلاح ماوهى من الكعبة وهل يجوز استعمال مال الكعبة فى اصلاحها ـ والمقصود بيع القناديل الثمينة التى تحتويها خزانة الكعبة وغيرها مما اهدى الى الكعبة ـ ام لايجوز ، ووجه السؤال مكتوبا الى العلماء وعين لهم مكانا خاصا فى باب الرحمة وقد اجتمع العلماء وتداولو الأمر ثلاثة أيام رجعوا فيها الى المراجع الفقهية ثم اجابوا على السؤال بان تعمر الكعبة من مالها ، كما يجب المبادرة الى العمارة ممن له امارة على الحرمين الشريفين وان المخاطب بهذا هو السلطان مراد خان ثم نائبه الشريف مسعود أمير مكة .

وقد جهز امير مكة وفدا للسفر الى مصر لمقابلة صاحب مصر وعرض الأمر عليه مصحوبا بفتاوى العلماء وشهادة اعيان مكة لرفع الأمر الى السلطان مراد خان .

تنظيف المسجد واحاطة الكعبة بسور من الأخشـــــاب

وفى نفس اليوم أمر الشريف مسعود المهندسين والفعلة بمباشرة تنظيف المسجد الحرام وباطن الكعبة مما أصابها من الأحجار والوحول المتراكمة ، ووصلت من والي جده خمسمائة دينار اخرى لصرفها كذلك على التنظيف والاصلاح الابتدائى . وقد استغرف تنظيف المسجد الحرام مما أصابه من الوحول مايقرب من شهر كامل فتم تنظيف المسجد والكعبة ثم احيطت الكعبة بستارة من الخشب بعد احضاره من جده وغيرها ، وامر الشريف مسعود بعمل ثوب اخضر كسيت به الاخشاب المحيطة بها ودخل الأمير الى داخل الستار الخشبي فصلى فى داخل

الكعبة ثم خرج وطاف بالبيت وذلك فى السابع من شهر شوال عام ١٠٣٩ هـ.

الاهتمام باصلاح الكعبة

وصل الوفد المرسل من مكة الى مصر وقابل واليها محمد باشا الألباني فاهتم بالامر اهتماما عظيما ورأى المباشرة بعمارة الكعبة حتى قبل ورود امر السلطان بذلك، فبعث من قبله مندوبا إلى مكة وخوله صلاحية تامة لاتخاذ التدبير المستعجلة للاصلاح، ووصل هذا المندوب الى مكة المكرمة يوم ١٦ شوال وفى اليوم التالى لوصوله قابل امير مكة الشريف مسعود وكان يصطحب معه خلعة سلطانية البسها لامير مكة فى المسجد الحرام. وكما اهتم صاحب مصر بالأمر فقد اهتم به السلطان مراد حينما وصل اليه الخبر فارسل السلطان فى شهر ربيع الثانى من عام اربعين بعد الألف رجلا اسمه السيد محمد افندى قاضيا للمدينة المنورة ومعينا لعمارة الكعبة المشرفة وحينما وصل الى مكة كان الشريف مسعود امير مكة مريضا فاستقبله فى بستان له خارج مكة المكرمة والبسه الخلعة السلطانية وتوفى الشريف مسعود فى الثامن عشر من ربيع الثاني عام أربعين وألف وقام بالأمر بعده الشريف عبدالله بن حسن بن أبي نمي.

ووصلت المؤن اللازمة للعمارة من مصر فى ٢١ من الشهر نفسه.

العمل فى بناء الكعبة

وقد بدأ الاستعداد للعمل الجاد فى بناء الكعبة فى الأسبوع الأخير من شهر ربيع الثانى فاحاط النجارون الكعبة بسياج من الخشب للعمل من داخله واخذوا من مدار المطاف نحو ستة اذرع لهذه الغاية. وكانت الاحجار الكبيرة التى اقتطعوها من جبل الكعبة المعروف حاليا قد احضرت قريبا من باب العمرة وشرع النحاتون فى نحتها. وهطل مطر بمكة فى يوم السابع والعشرين من ربيع الثانى سقط على أثره حجران من الجدار الغربي واحجار صغيرة اخرى مما دل على ان بناء الكعبة

جميعة قد وهى . وبالكشف على ماتبقى من بناء الكعبة ظهر ان الحاجة تدعو الى ازالة البناء القديم جميعه وتشييدها على أسس جديدة واختلف الناس فى ذلك

فالبعض يحبذ الهدم والبعض يميل الى البناء على ماتبقى من البناء ولكن تغلبت فكرة الهدم الكامل فى النهاية، فتم الشروع فى الهدم فى آخر يوم من شهر جمادى الأولى واستمر المهندسون والعمال فى إزالة البناء القديم كله وهو بناء ابن الزبير الى الثانى والعشرين من شهر جمادى الثانية ولم يبق فى مكانه من بناء ابن الزبير الا الحجر الأسود وذلك خشية عليه من التفتت، وقد تم قلع احجار الشاذروان ـ الشاذروان هو حجر الاساس ـ كما نقضوا سقف الكعبة وحفظوا كسوتها وأبوابها ومازينت به من النحاس المموه بالذهب والرخام فى مواضع أمينة .

وفى ضحى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربعين بعد الألف بدأ العمل فى صب الاساسات فى جدار الكعبة الشامي، واقيم لذلك احتفال حضره أمير مكة الجديد الشريف عبدالله ومعه اولاده كما حضر هذا الاحتفال مندوب السلطان مراد خان ومندوب صاحب مصر وكثير من علماء مكة واعيانها وسادن البيت وشارك الجميع على سبيل التبرك فى عمل الاساسات كما جرى ذبح الذبائح عند باب السلام وباب الصفا وباب إبراهيم تقربا إلى الله تعالى رجاء قبوله وتوفيقه .

وقد استعملت الاحجار فى المدماك الأول من البناء بسمك أربعة وعشرين قيراطا وفى المدماك الثاني بسمك اثنين وعشرين قيراطا وجرى صب الرصاص المذاب بين الاحجار لمساواتها وتقويتها .

ولما بلغ البناء الى موضع الحجر الذى يستلمه الطائف فى الركن اليماني وضع ذلك الحجر فى مكانه بعد ان ضخمه السادن بالعنبر والمسك وبخره بالعود وكان طرف الحجر الذى نحته انكسر من اعلاه فوضع فى محل ذلك رصاص مذاب

ليكون مسامتا لباقى الاحجار واستمر البناء بغاية الدقة والاتقان الى موضع الحجر الأسود فحضر مندوب السلطان مراد خان والشريف عبدالله ابن الحسين بن ابي نمي امير مكه واولاده وجمع كبير من العلماء والاعيان واصحاب الوظائف الكبيرة فى الحرم وسادن بيت الله الحرام وذلك للاحتفال بتثبيت الحجر الأسود فى موضعه من الركن.

حادث مثير للحجر الأسود

أخذ كبير المهندسين ومعه المعلم عبدالرحمن زين الدين باصبع الحديد ماطاف بالحجر الأسود والفضة التى احيطت بالحجر وكذلك بالجير الذى الصق به وكان ولد امير مكة الشريف محمد يتلقى هذه المواد بمحرمة فى يده وهم يتلطفون فى الامر ولكن الذى كان بيده المعمول ضغط دون قصد على الحجر فإذا به ينقسم الى أربع شظايا وكادت هذه الشظايا ان تسقط فلما رأوا ذلك احضروا السيد على ابن بركات فهاله ما رأى من امر الحجر كما هال الحاضرين ما علموا من ذلك وماشهدوا واخيرا اجمع الرأى على ابقاء الحجر فى مكانه من الركن واصلاحه دون اخراجه من موضعه خشية ان يتحول الى شظايا صغيرة متفرقة ان هم اخرجوه من الركن، واصلاحه دون اخراجه من العنبر واللاذن واعادوا الفتات التى خرجت من الحجر اثناء التنظيف الى مكانها منه ووضعوا عليه طوق الفضة الذى أعدّله وباشر اتمام ذلك امير مكة وأكابر الحاضرين، ولكن مركب العنبر واللاذن لم يدم طويلا فلما حميت الشمس ذاب هذا المركب فأُوقدت الشموع ليلا وعملوا مركبا آخر من كثير من المواد الثابتة واضافوا اليها المسك والعنبر وتم الصاق الشظايا مرة اخرى بهذا المركب الذى انتهى العمل فيه عند منتصف الليل وقد بلغت شظايا الحجر ثلاثة عشر فلقة الكبار منها أربعة وقد حدث فى التاسع من شهر شوال انه لوحظ تحرك طوق الفضة المطيف بالحجر الأسود وتخلخل احجاره وربما كان ذلك من كثرة اللمس والتقبيل للحجر بعد ان كان محجوبا عن الناس بضعة شهور فاعيد صنع مركب آخر ملئت به الثغرات بين احجاره ليتم تماسكها، وفى أول يوم من ذى

الحجة من هذا العام جرى دهن الحجر وطلى بالسندروس فصلح ماتخلخل منه.

تاريخ انتهاء البناء فى الكعبة

هذا وقد استمر العمل فى بناء الكعبة المعظمة ستة شهور ونصف ، أورد الشيخ باسلامه تفاصيلها نقلا عن المصادر التاريخية الكثيرة يوما بيوم الى ان انتهى العمل النهائى فيها ثانى أيام ذى الحجة من عام أربعين وألف وهذه العمارة التى قام بها السلطان مراد خان هى الباقية حتى هذا اليوم ولم يطرأ عليها سوى بعض الترميمات التى كان آخرها فى سقف الكعبة فى العهد السعودى عام ١٣٧٧ للهجرة.

ونكمل الحديث عن بناء السلطان مراد للكعبة ببعض المعلومات المتعلقة بالموضوع :

١ ـ الباب الذى جعل للكعبة فى هذه العمارة اشترك فيه اكثر من سلطان فقد ارسل السلطان بيبرس سلطان مصر بابا ثمينا من الخشب للكعبة، ثم قام السلطان سليمان العثمانى بتلبيسه بالفضة المموهة بالذهب.

٢ ـ تم تسقيف الكعبة بالاخشاب وبلغت الاعواد التى استعملت كحامل للسقف ثمانية وثمانين عودا وتم تلبيس هذه الاعواد بصفائح الخشب.

٣ ـ جعلت للكعبة ثلاثة بساتل من الخشب القوي وقد وصل البستل الأول وهو قطعة من دقل مركب وحمل من جده على عجل وجُرَّتْ باثنى عشر جملا، ولما وصلت الى باب الصفا حملها اثنا عشر رجلا ثم ركبوا اربع بكرات بحبال قوية ليرفعو البستل الى سقف الكعبة وهكذا فعلوا فى البساتل الباقية، والبستل هو عمود ضخم من الخشب القوي الصالح لحمل الاثقال وقد تم دهن هذه العمد بالجير والزعفران وطليت بغراء الجلود.

٤ ـ للكعبة سقفان سقف يعلوه سقف.

٥ ـ الميزاب المركب فى سطح الكعبة ارسله السلطان العثمانى أحمد خان هدية الى الكعبة فى سنة ألف وعشرين للهجرة وطوله ثلاثة اذرع ونصف الجزء البارز منه

مصفح بالفضة المحلاة بالذهب وعليه اسم السلطان أحمد خان وقد بقي فى مكة عشرين عاما ثم جرى تركيبه فى العمارة الاخيرة التى اجراها السلطان مراد خان.

٦ ـ تم فرش سطح الكعبة بالرخام وكان قد تكسر من رخامه عشر رخامات ابدلت بعشر رخامات جديدة.

٧ ـ كان الجدار الذي بني به الحجر تم بناؤه فى عمارة الملك الأشرف قانصوه الغورى من ملوك الجراكسه بمصر فى القرن العاشر الهجرى، وقد اعيد بناء هذا الجدار فى العمارة الاخيره وفقدت رخامة من الرخام الملبس به البناء فابدلت بغيرها ـ وكذلك أبدل الرخام المكسر فى المطاف برخام سليم.

٨ ـ كان السلطان أحمد خان العثمانى قد بعث لوحا ذهبيا يعلق على اعلى باب الكعبة مكتوبا عليه باللون اللازوردى ـ الأزرق الفاتح ـ ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعاملين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من إستطاع اليه سبيلا ـ وتحت هذه الآيات ثلاث ابيات فيها تاريخ بعمل الحزام للسلطان أحمد خان وهو عام عشرين الف وهذه الثلاث أبيات تدل على الحالة التى كان فيها النظم الركيك يعتبر شعرا وكان هذا هو التفكير السائد فى ذلك الوقت.

اللوح ذا لما استرم فجددا قد بدل السلطان أحمد عسجداً
فبدا له من جديد ذو جدا الله انعم بالمجدد وايدا
الهمت فى تاريخه لما بدا اللوح للسلطان أحمد جددا

٩ ـ لما تم تجديد بناء الكعبة المعظمة كتب تاريخ العمارة على لوحة رخامية كتب فيها «بسم الله الرحمن الرحيم»، (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)، تقرب بتجديد هذا البيت العتيق الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين، وسائق الحجاج

بين البر ين والبحرين السلطان ابن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطـان محمـد خان خلد الله تعـالى ملكـه وايـد سلطنتـه فى أواخر شهر رمضان المبـارك المنتظم فى سلك شهـور سنة أربعين وألف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل التحية .

وقـد الصقت تلك اللوحـة على الجـدار الغـربى بداخـل الكعبـة المشرفة ومن المعلوم ان هذا التـاريـخ ليس هو التـاريخ النهائى للعمل فى البيت وربما كان تاريخ الانتهاء من البناء ، لان التاريخ النهائى لعمارة البيت كان فى الثانى من ذى الحجة من نفس العام المذكور كما اسلفنا بيانه .

١٠ ـ زينت أرض الكعبـة وجـدرانهـا بالرخام الملون وفيها أربعة دعائم ، والدرجة الصاعدة الى السطح فى بطن الجدار الشامي عليها باب صغير وعلى يسار الداخل كرسي من الخشب يجلس عليه فاتح البيت وقد كسيت من الداخل بحرير أحمر .

١١ ـ تبلغ مساحة الكعبة بالامتار كما وردت فى الكتاب كالتالى :ـ

أ ـ طول الكعبة من وسط الجدار اليماني الى وسط الجدار الشامي ١٠,١٥

ب ـ طول الكعبة من وسط الجدار الشرقي الى وسط الجدار الغربى ٨,١٠

ج ـ يبلغ عرض جدار الدرجة التى بداخل الكعبة الواقعة فى الركن الشمالي الشرقي المصعدة الى سطح الكعبة من الشرق الى الغرب متر ين وثلاثين سنتما ومن الشمال الى الجنوب مترا ونصف المتر .

١٢ ـ يوجد فى داخل الكعبة سبعة الواح من الرخام تحمل اسماء السلاطين والملوك الذين قاموا بعمارة فيها وهى كالتالى حسب الترتيب الذى اورده المؤلف .

١ ـ السلطـان الملك الأشـرف ابـو النصر قايتباى فى مستهل رجب عام أربع وثمانين وثمانمائة للهجرة .

٢ ـ والدة السلطان العثماني خان مصطفى بمباشرة أحمد بيك شيخ الحرم المكى فى عام مائة وتسع بعد الألف .

٣ ـ الخليفة العباسى أبوجعفر المنصور عام تسع وعشرين وستمائة .

٤ ـ الملك المظفر صاحب اليمن الذى قام بتجديد رخام البيت المعظم عام ثماني وستمائة .

٥ ـ السلطـان مراد خان بن السلطـان محمد خان فى شهر رمضان سنة أربعين والف من الهجرة .

٦ ـ السلطـان محمـد خان الـذى قام بتجـديـد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه سنة سبعين والف .

٧ ـ السلطان الملك الأشرف أبوالنصر برسباي سنة ستة وعشرين وثمانمائة .

١٣ ـ توجد فى وسط الكعبة ثلاثة اعمدة من الخشب القوي التخين يقدر قطر تخن الـواحـدة منهـا بنصف متر ولـون هذه الاعمدة بين الحمرة والصفرة وقد بقيت هذه الأعمدة ثلاثة عشـر قرنا حيث وضعها عبدالله ابن الزبير فى بنائه للبيت وقد عمل لهذه الأعمدة قبل اربعين عاما دوائر من الخشب من اسفلها بإرتفاع متر ونصف من أرض الكعبـة بعـد ان ظهـر بعض التصـدع فى هذه العمد التى عاشت طيلة هذه القرون كما يقول المؤلف فى منتصف القرن الماضي .

١٤ ـ أرض الكعبـة مفـروش بالـرخـام الأبيض والقليـل منه ملون إما جدارها فهو مكسو برخام ملون ومزركش بنقوش لطيفه .

١٥ ـ وصف المؤلف الستـارة الحمـراء التى بداخـل الكعبـة والتى اهـديت لها من السلطان عبدالعزيز خان عام ١٢٩٠ للهجرة ومكتوب عليها بالنسيج الأبيض ـ لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله جل جلالـه ، ثم سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، ثم ياحنان ياسلطان ياحنان ياسبحان ـ وهذه الأسماء مكتوية على شكل دوائر وتوجد ستارة أخرى على باب الدرجة المصعدة الى سطح الكعبة من الداخل وهى من الحرير الأسود ومطرزة بالقصب الفضي المذهب .(١)

الحجـــــر الأســـود

أفرد المؤلف فصلا خاصا فى كتابه تحت عنوان ـ خبر الحجر الأسود ـ استعرض

١ـ٩٢ ـ ١٤٣ تاريخ عمارة المسجد الحرام

فيه الحوادث للحجر ونبدأ بالحادثة الشهيرة التى اخذ فيها القرامطة الحجر من مكة وساروا به إلى هجر وغيبوه هناك اثنتين وعشرين عاما ـ يقول المؤلف نقلا عن التقي القاسي فى شفاء الغرام وعن ابن فهد فى اتحاف الورى ماملخصه . ان أبا طاهر سليمان ابن ربيعة الحسن القرمطي صاحب البحرين دخل مكة فى شهر ذى الحجة سنة ثلاثمائة وسبعة عشرة للهجرة وكان قد حضر للحج بالناس نيابة عن الخليفة العباسي عمر بن الحسن بن عبدالعزيز وفاجأ القرمطي هذا الناس بان دخل المسجد الحرام يوم التروية ومعه تسعمائة رجل من أصحابه وكان يمتطى فرسا له وبيده سيف مسلول يقول ابن فهد فصفر القرمطي لفرسه فبال عند البيت واسرف هو أصحابه فى قتل الحجاج واسرهم ونهبهم وكان الناس يطوفون والسيوف تأخذهم وقد بلغ عدد القتلى في المسجد الحرام الفا وسبعمائة شخص فى احدى الروايات بينما بلغ فى رواية اخرى ثلاثة عشر الفا وايا كان العدد فقد كانت حادثة رهيبة وفظيعة وقد امتلأ المسجد الحرام بجثث القتلى بعد ان امتلأ بهم بئر زمزم وحينما سمع ابوطاهر هذا الناس يصيحون ـ تقتل جيران الله فى حرم الله؟ قال لعنه الله ـ ليس بجار من خالف أوامر الله ونواهيه وتلا الآية الكريمة ـ انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية . .

ثم صعد على باب الكعبة واستقبل الناس بوجهه وهو يقول :ـ

إنا بالله وبالله أنا   يخلق الخلق وأفنيهم أنا

قالوا وضرب بعض اصحابه الحجر بدبوس فانكسر، وقيل ان الذى ضرب الحجر الأسود بالدبوس أبوطاهر نفسه وصاح ياحمير ـ أنتم تقولون من دخل هذا البيت كان آمنا فأين الأمن وقد فعلت مافعلت؟ وعطف دابته ليخرج فاخذ بعض الحاضرين بلجام فرسه وقد استسلم للقتل فقال له ـ ليس معنى الآية ماذكرت وانما معناها من دخل فامنوه فلوى القرمطي فرسه ولم يرجع اليه .

ثم استمر القتل والنهب من القرمطي واصحابه فى سكك مكة وظاهرها وشعابها من الحجاج المغاربة والخراسانين نيفا وثلاثين الفاً وسبى من النساء والصبيان مثل

ذلـك ولم يقف احـد هذه السنـة بعـرفـه ولا وفى نسكا الا قوم يسير ون غرورًا فاتموا حجهم دون إمام وكانوا رجالة .

ونهب أبـو طاهـر ورجـالـه امـوال النـاس وحـلي الكعبة ، وهتك استارها وقسم كسـوتهـا بين أصحـابـه قال ابن فهـد ونهب دور مكة وقلع باب الكعبة ، وامر بقلع الميزاب وكان من الذهب الابريز فصعد احد رجاله ليقلعه فاصيب بسهم فى عجزه اطلق عليه من جبل أبي قبيس فسقط فمات ، وقيل ان الرجل وقع على رأسه فمات .

فقال القرمطي ـ اتركوه على حاله ـ يعني الميزاب فانه محروس حتى يأتي صاحبه يعنى المهـدى قالـوا وأراد أخذ المقام فلم يظفر به لان سدنة المسجد غيبوه فى بعض شعـاب مكـة ، فتألم لفقـده فعاد عند ذلك على الحجر الأسود فقلعه جعفر بن أبي علاج البنـاء المكي بأمـر القـرمطى بعد صلاة العصر من يوم الاثنين رابع عشر ذى الحجه قالوا وقال عند ذلك شعرا يدل على عظيم زندقته حيث يقول :

فلو كان هذا الـبـيـت لله ربـنـا لصـب علينـا النـار من فوقـه صبـا
لانـا حجـجـنـا حجـة جاهـليـة محللة لم تبـق شرقـا ولاغـربـا
وانـا تركـنـا بين زمـزم والـصـفـا جنـايـز لاتـبـغى سوى ربهـا ربـا

قالوا وقلع القرمطي قبة زمزم واقام هو واصحابه بمكة احد عشر يوما ثم انصرف الى بلده هجـر وحمـل معـه الحجـر الأسود يريد ان يجعل الحج عنده ، قال ابن فهد وهلك تحت الحجر اربعون جملا وبقى موضع الحجر الأسود من الكعبة خاليا يضع الناس فيه ايديهم للتبرك .

وكان القرمطي يخطب بمكة لعبد الله المهدى صاحب المهدية بافريقية .

أقـول ـ ان مايلفت النظر فى هذه الـروايات التى سقناها عن القرمطي والمنقولة

عن ابن فهد ان تعداد جيش القرمطي كان تسعمائة رجل وقد عاث هذا الفساد كله فى اقدس بقعة على وجه الأرض وقتل الألوف من الحجاج والاهليين ، وسبى الألوف المؤلفة كذلك من الصبيان والنساء ، وهتك حرمة البيت الحرام وبقى احد عشر يوما ولم يتصد لقتاله ومناجزته احد|ترى الم يكن لدى امير مكة من الجنود والحرس من يتصدى لهؤلاء المفسدين فى الأرض وقد حضر الحج مندوب الخليفة ومعه حتما من الجند والحرس من كان ينضم الى أمير مكة وجنده ، كما ينضم اليهم المتطوعون من أهل مكة والحجاج .

ولقد ذكر ابن فهد ضمن أسماء القتلى أمير مكة ابن محارب كما ذكر اسماء كثير من الأعلام الذين قتلوا فى هذه المعركة الفظيعة .

على اي حال ـ يبدو ان هذا القرمطي اعتمد على مفاجأة الناس باعتدائه الفظيع الغاشم الذى تم فى اليوم الثامن من ذى الحجة ، وفى قلب المسجد الحرام ، ويبدو ان هذه المفاجأة اذهلت الناس فشلت عقولهم كما شلت حركتهم ، كما ان مقتل ابن محارب أمير مكة كان من أكبر الأسباب فى استرسال القرمطي هذا وأصحابه فى القتل والافساد دون رادع أو واعز ، اما تعداد القتلى و الاسرى والسبايا فان المبالغة فيه واضحة لايفتقر تبينها الى عناء ، والناس فى امثال هذه الحوادث يعظمون الأمور ويبالغون فى الروايات وقد ينطقون الناس مالم ينطقوا او يقولوا ، ولكن الحادثة مهما صاحب روايتها من المبالغة والتهويل كانت من أسوأ الحوادث التى مرت فى تاريخ المسجد الحرام وافظعها ، وهى سبة لهذا القرمطي واصحابه ولعنة تلحقهم عبر الازمان والدهور .

اعادة الحجر

ذكرنا ان هذا القرمطي الفاجر اللعين كان يخطب لعبد الله المهدى صاحب افريقية قالوا فلما بلغ المهدى ذلك كتب الى القرمطي يقول ـ والمعجب من كتبك

الينا ممتنا علينا بما ارتكبت واجتريت باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم الدماء فيها وإهانة أهلها ثم تعديت ذلك إلى أن قلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته إلى أرضك ورجوت ان نشكرك على ذلك ، فلعنك الله ثم لعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من يسلم المسلمون من لسانه ويده .

لما وصل هذا الكتاب من الخليفة العبيدى عبدالله المهدى انحرف القرامطة عن طاعة العبيدين قالوا وأقام الحجر بالاحساء اثنتين وعشرين سنة يستميلون الناس اليهم ، ثم يئسوا فردوه فلما كان يوم النحر من سنة ثلاثمائة وتسعة وثلاثين وافى سنبر بن الحسن القرمطي مكة ومعه الحجر الأسود فلما صار بفناء الكعبة ومعه امير مكة أظهر الحجر من سفط وعليه ضباب فضه .

وقد قيل ان الخليفة المقتدر العباسي اشترى الحجر من ابي سعيد الجنابي بثلاثين ألف دينار ولكن الناقل لهذه الرواية نجم الدين ابن فهد ردها . قالوا ولما رد سنبر هذا الحجر الى مكانه وجرى شده بالجص الذى احضره معه قال سنبر ـ اخذناه بقدرة الله ، ورددناه بمشيئة الله .

ونظر الناس الى الحجر فتبينوه واقبلوا عليه يقبلونه ويحمدون الله تعالى على رده الى مكانه من البيت الحرام .

وقد جرى اخراج الحجر بعد بضعة شهور من اعادته الى مكة وتطويقه بالفضة كما كان عليه الحال فى خلافة عبدالله ابن الزبير وقد وقعت حوادث كثيرة للحجر الأسود عبر التاريخ نذكر منها مايلى :

١ ـ ذكر ابن فهد القرشيى فى حوادث سنة ٣٦٣ انه بينما كان الناس فى وقت القيلولة وشدة الحر وانقطاع حركة الطواف بالبيت إلا من رجل او رجلين شوهد رجل عليه ملابس بالية يغطى رأسه ويسير رويدا حتى دنا من الركن فاخذ معولا وضرب به الركن ضربة شديدة حتى ظهر اثرها فيه ورفع يده ليضرب الضربة الثانية فابتدره رجل من السكاسك من أهل اليمن وكان يطوف بالبيت فطعنه

بخنجر طعنة عظيمة فسقط ارضا واقبل الناس من نواحي المسجد ونظروه فاذا هو رجل رومي يحمل معولا عظيما حديد السن وقد جعل له مال كثير على ذهاب الركن فاخرج من المسجد الحرام وجمع الحطب الكثير فاحرق بالنار.

٢ ـ وذكر ابن الاثير فى حوادث سنة ٤١٤ جاء الى المسجد فى يوم النفر الأول ولم يكن الناس عادوا من منى رجل أحمر اللون اشقر الشعر تام القامة جسيم طويل وبإحدى يديه سيف مسلول وبالأخرى دبوس فقصد الحجر الأسود بعد أن اتم الأمام صلاته يظهر كان يريد استلامه فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متواليات بالدبوس فتقشر وجه الحجر من تلك الضربات وسقطت منه شظايا صغيرة.

واقبل الرجل بوجهه متسائلا، إلى متى يعبد هذا الحجر الأسود ولا محمد ولا علي يمنعني عما أفعله فأنى أريد اليوم أهدم هذا البيت فتهيب الحاضرون الأقدام على الرجل، وكان قد وضع على باب المسجد عشرة من الفرسان لينصروه، ولكن رجلا من أهل مكة احتسب حياته فثار به فطعنه بخنجر وتكاثر عليه الناس فقتلوه وقطعوه اربا واحرقوه بالنار وقتل جماعة ممن شاركوه واعانوه واحرقوا بالنار.

قالوا وكان الظاهر منهم عشرين رجلا فثارت الفتنة وعلم ابو الفتوح أمير مكة بالأمر فاطفأ الفتنة التى كادت ان تعم المصريين لان الرجل كان كما يقول ابن الاثير ممن استغواهم العبيدى حاكم مصر.

٣ ـ وجاء فى منائح الكرم نقلا عن الشيخ محمد بن علان المكي انه فى عشر التسعين والتسعمائة جاء رجل اعجمي بدبوس فضرب الحجر الأسود، وكان الأمير ناصر جاوش حاضرا فطعن ذلك الاعجمي بالخنجر فقتله واراد العجم المقيمون بمكة ان يثأروا له وزعموا انه شريف فحال بينهم وبينه قاضي مكة حسين المالكي.

٤ ـ وقد اورد الشيخ باسلامه آخر الحوادث التى شهدها عن الحجر الأسود فقال: جاء رجل فارسي من بلاد الأفغان فى آخر شهر المحرم سنة **١٣٥١** فاقتلع قطعة من الحجر الأسود د وسرق قطعة من ستارة الكعبة، وقذعة فضة من مدرج

الكعبة الذى هو بين بئر زمزم وباب بني شيبة فشعر به حرس المسجد الحرام فاعتقلوه ثم اعدم عقوبة له كما حدث لامثاله ممن تجرأوا على الحجر الأسود فى مختلف ازمان التاريخ بحيث اصبح ذلك سنة متبعة.

يقول الشيخ باسلامه ثم لما كان يوم ٢٨ ربيع الثانى من عام **١٣٥١** حضر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود من مصيفه بالطائف قبل توجهه الى الرياض ومعه رئيس هيئة القضاء الشرعي الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ، وحضر أيضا الشيخ عبدالله الشيبي نيابة عن والده رئيس السدنه المرحوم الشيخ عبدالقادر الشيبي وحضر كذلك بعض الاعيان، ثم احضر مدير الشرطة العام محمد مهدى بك تلك القطعة التى اقتلعها ذلك الفارسي التعيس وعمل الاخصائيون مركبا كيماويا مضافا اليه المسك والعنبر وضعه الاخصائيون لتثبيت تلك القطعة ثم وضع جلالة الملك عبدالعزيز بيده قطعة الحجر فى محلها واثبتها الاخصائيون اثباتا محكما. (١)



١- «١٤٩ - ١٦١ تاريخ بناء الكعبة المعظمة»

كسوة الكعبة

تعـددت الـروايـات فى أمـر كسوة الكعبة وقد استنتج الحافظ ابن حجر من هذه الـروايـات أن أول من كسى الكعبـة أسـماعيـل عليـه السلام ثم عدنان وهو الجد الأعلى للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ثم تبع ملك اليمن واسمه اسعد.

وفى كسوة تبـع للكعبـة انه كان وقومه اصحاب اوثان يعبدونها فسار الى مكة بقـومـه حتى إذا كان قريبـا منهـا بين عسفان وامج اتاه نفر من هذيل فقالوا له ـ ايها الملك الا ندلـك على بيت مال وأثـر اغفلتـه الملوك قبلك فيـه اللؤلؤ والـزبـرجـد والياقوت والذهب والفضة؟

قال تبـع بلى ـ قالـوا بيت بمكـة يعبـده اهله ويصلون عنـده . . قالوا وانما اراد الهذليون بذلك هلاك تبع وجيشه لما عرفوا من هلاك من اراده من الملوك بسوء قبله.

اجمع تبع امره على السير الى مكة والاستيلاء على الكنوز النفيسة التى وصفها له الهذليون فاستشار حبرين كان عنده باليمن يعلمان ما جاء فى الكتب.

قال الحبران لتبع : ما ارادا القوم الا هلاكك وهلاك جندك، وما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت مادعوك اليه لتهلكن ومن معك جميعا.

قال تبع فماذا تأمرانني ان اصنع اذا انا قدمت عليه؟

قالا تصنع عنده ما يصنع أهله، تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده وتذلل له حتى تخرج من عنده

قال تبع للحبرين فما يمنعكما انتما من ذلك؟

قالا ـ أما والله انه لبيت أبينا إبراهيم وإنه كما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالآوثان التى نصبوها.

استمع تبع لنصيحة الحبرين وعاقب الهذليين بقطع أيديهم وأرجلهم ثم سار إلى مكة، فلما وصل إليها طاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه، وأقام بمكة ستة أيام فيها يذكرون ينحر بها الذبائح لأهل مكة ويسقيهم العسل.

ورأى تبع فى منامه أن يكسو البيت فكساه الخصف وهي ثياب غلاظ وقيل نسيج من الخوص والليف وهو الأقرب إلى إسم الخصف(١) ثم رأى تبع فى منامه ان يكسوه احسن من ذلك فكساه المعافير ثم رأى أن يكسوه أحسن من ذلك فكساه الملاء والوصائل وهي ثياب حبرة من صنع اليمن، وجعل للكعبة بابا يغلق وقال تبع فى ذلك شعرا:

وكسونا البيت الذى حرم الله	ملاءاً معضدا وبرودا
واقمنا به من الشهر عشرا	وجعلنا لبابه اقليدا
وخرجنا منه نؤم سهيلا	قد رفعنا لواءنا معقودا

أقول وهذه الأبيات تدل على أن إقامة تبع بمكة طالت حتى بلغت شهورا عشرة كما وردت فى البيت الثانى.

---

١ ـ الحصف بسط تصنع من أوراق النخيل يستعمله الناس فى الحجاز لاغراض كثيرة اهمها ماكان يفرش فى البيوت والمساجد، انظر كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

وتـروى النـوار بنت مالـك أم زيـد بن ثابت رضى الله عنـه قالت : رأيت على الكعبـة قبـل أن ألـد زيـد بن ثابت وأنابه نسىء مطارف خز خضراء وصفراء وكرار واكسية من اكسية الأعراب وشقاق شعر والكرار هي الخيش الرقيق واحدها كر.

ويبـدو ان النـاس قبل الاسلام كانوا يكسون الكعبة تقربا فكل من اراد كسوتها وضع الكسوة التي عليه فعلقهـا بها فكنت تجد معلقـا على وجـه الكعبة الاكسية من الحـريـر والخيش والشعـر وغيرها من مختلف الثياب التي تهدى اليها وتعلق عليها . وكـانت هذه الاكسيـة تتكـاثر على الكعبة وربما حفظ بعضها فى خزانة الكعبة فاذا بلى شيء من الاكسية المعلقة عليها ازيل ووضع مكانه ، وكان الطيب يهدى الى الكعبة فتضمخ به كما يهدى اليها العود فتجمر به .

و فى وقـت من الأوقـات كانت قريش تفـرض كسوة الكعبة على القبائل بقدر احتـمالهـا فتسهم كل قبيلة بما فرض عليهـا من هذه الكسـوة حتى نشأ ابو ربيعة بن المغـيرة بن عبـدالله بن عمـر بن مخزوم وكان يتجر مع اليمن فأثرى ثراء عظيما فكان يكسـو الكعبـة سنـة وتكسـوهـا قبـائـل قريش سنة ، وكان يأتى بالكسوة من أرض السكاسك باليمن وكانت هذه الكسوة حبرة جديدة واستمر على ذلك حتى مات وكانت قريش تسميه العدل لانه عدل بفعله فعل قريش كلها واستمر هذا الاسم لابنائه من بعده فكانو يسمون بنو العدل .

وقيـل أن أول من كسى الكعبـة الـديبـاج خالـد بن جعفر بن كلاب ، قالوا أنه أصـاب لطيمـة فى الجاهلية فيها نمط ديباج فأرسل به الى الكعبة فنيط عليها وقيل أن أول من كسـاهـا الديباج نتيلة بنت حبان والدة العباس بن عبدالمطلب قيل أنها اضلت ابنهـا العبـاس ، وقيـل شقيقـه ضرارا بن عبـدالمطلب فنذرت ان وجدته ان تكسو البيت فرده عليها رجل من جزام فكست الكعبة ثبابا بيضا .(١)

١- «٣٤٤ - ٢٤٩ تاريخ الكعبة المعظمة»

كســـــوة الكعبة فى الاسلام

أمـا كسـوة الكعبَـة فى الاسـلام فقـد ورد أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كسـاهـا الثيـاب اليـمانيـة ثم كساها أبوبكر وعمر وعثمان القباطي ، وهي ثياب من صنـع مصـر كانت معـروفـة فى ذلـك الـزمـان ، ثم كسـاهـا الحجاج الديباج بأمر عبدالملك بن مروان .

ويبـدو أن كسـوة الكعبـة لم تكن تتم بشكـل دورى فى مواعيـد معينة ، لهذا فان النـاس كانـوا يسـاهمون فى كسوتها فقد روى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنه كان يكسو بدنه القباطي والحبرات كان يحرم بها فاذا كان يوم النحر نزعها ثم أرسل بها الى شيبـة بن عثـمان سادن البيت فنـاطهـا ـ علقها ـ على الكعبة . وروى ان عمر رضى الله تعـالى عنـه كان يكسـو الكعبـة القبـاطى يوصي عليها من مصر تحاك له هنـاك وفعـل بعـده ذلك عثمان فلما كان عهد معاوية كساها القباطى كما كان يفعل عمر وكساها الديباج فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطى فى آخر شهـر رمضـان واجرى معاوية لها وظيفة من الطيب لكل صلاة وكان يبعث بالطيب والمجمر والخلوف فى الموسم وفى رجب واخدمها معاوية عبيدا بعث بهم اليها فكانوا يخدمـونهـا وعلى هذا فان كسـوة الكعبة انتظمت فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه حيث تحاك من مصـــــــر وترسل اليها ثم صارت تكسى فى عهد معاوية مرتين فى العام .

وكان يزيد بن معاوية وعبدالله ابن الزبير يكسوان الكعبة الديباج المصنوع من خراسـان فلما ولي عبـدالملك بن مروان الخلافة كان يكسوها الديباج ويرسل به من الشـام الى المـدينـة فينشر يوما فى مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه على اساطين المسجد ثم يطوى ويبعث به الى مكة وكذلك كان يبعث بالطيب وبالمجمر ـ العود ـ الى مسجد رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وكان الديباج اذا وضع على الكعبة يوم الـتر ويـة علق على نصفهـا دون ان يخاط فتبدوا الكعبة وكانها محرمة كما هى العادة اليوم ، فإذا اتم الناس حجهم وصدروا من منى اكملت كسوتها فإذا كان يوم العاشر من محرم اتموا الكسوة بخياطة اثواب الكعبة عليها فبدت كاملة وتبقى كسوة الديباج

على الكعبة الى آواخر رمضان فتكسى القباطي المصرية لاستقبال عيد الفطر - القباطي هي نسيج حريرى من صنع مصر واليمن - فلما ولي المأمون العباسي الخلافة صار يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطى يوم هلال رجب والديباج الأبيض فى السابع والعشرين من رمضان.

وكان الخلفاء والملوك يكتبون اسماءهم على كسوة الكعبة كما هى العادة الجارية الى يومنا هذا وكانت هذه الكسوة غالبا من الديباج والقز الرقيق وبالوان مختلفة فيها الأبيض والأحمر والأصفر، وكان بعض الخلفاء والملوك يحضرون الكسوة معهم اذا حضروا للحج ويتنافسون فى ذلك.

وفى سنة سبعمائة وثلاثة وأربعين للهجرة اوقف عليها الملك الصالح اسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون قريتين من نواحى القاهرة يقال لهما - بيسوس وسندبيس اشتراهما بماله من وكيل بيت المال ووقفها كلها على كسوة الكعبة ولم تزل تكسى من هذا الوقف كما يقول ابن حجر فى فتح البارى الى سلطنة الملك المؤيد شيخ سلطان العصر.

ولقد كانت الحالة السياسية فى البلاد الاسلامية تنعكس آثارها على كسوة الكعبة كما كان الحال بالنسبة للخطبة والدعاء للخليفة مما سلف تفصيله فى حديثنا عن المنبر والخطبة فى المسجد الحرام فكان صاحب النفوذ الأكبر من السلاطين والملوك هو الذى تقدم كسوته فيكسى بها البيت الحرام فلقد ذكرنا ماكان من أمر أرسال الكسوة من مصر من ريع القريتين اللتين اوقفهما الملك الصالح إسماعيل لهذا الغرض، ولقد حاول ملك الشرق شاه بروخ فى عهد سلطنة الملك الأشرف برسباي أن يكسو الكعبة وطلب الأذن له بذلك من الملك الأشر ف فلم يقبل فراسله أن يسمح له بكسوة الكعبة من الداخل فأبي فكتب إليه مرة أخرى أن يرسل الكسوة إليه وهو يرسلها من قبله وتكسى بها الكعبة ولو يوما واحدا لانه نذر كسوتها ويريد الوفاء بنذره، قالوا واستفتى الملك الأشراف علماء العصر فتوقف الكثيرون منهم عن الجواب، وافتى بعضهم بعدم الجواز ممالأةً لهوى السلطان وقال

بعضهم ان خشي الفتنة فيجاب منعا للضرر، وتوفى الملك الأشرف دون ان يسمح لسلطان الشرق بالوفاء بنذره.

وفى بعض الاحيان كانت تكسى الكعبة من قبل ملكين من ملوك المسلمين فى وقت واحد كما حدث لكسوة نظام الملك وزير السلطان ملكشاه بن الب ارسلان السلجوقي فإرسل بها الى مكة وجعلت فوق كسوة ابي النصر.

وكان لملوك اليمن دور فى هذا التنافس بين ملوك المسلمين فكانوا يرسلون بالكسوة الى الكعبة فتكسى بها اذا كانت القوة والنفوذ فى ركابهم او تحفظ ويظفر بالكسوة صاحب القوة والسلطان.

وكانت بعض الكساوى توضع فى داخل الكعبة، بل ان الكعبة كانت تكسى من الداخل ولكن لبس بصورة منتظمة ، كما تكسى الحجرة النبوية بالمسجد النبوي الشريف بصورة غير منتظمة . ولكن مايلفت النظر ان الوقفية التى اوقفها الملك الصالح اسماعيل بن الناصر قلاوون استمرت دهورا طويلة حتى حينما تحولت السلطة الى الخلافة العثمانية فقد ابقى سلاطين العثمانيين المتعاقبين على هذه الوقفية بل وزاد السلطان سليمان بن السلطان سليم خان عدة قرى بمصر واوقفها كذلك على كسوة الكعبة الشريفة وهى سبع قرى ذكرها مؤلف مرآة الحرمين وذكر اسماءها.

وفى عهد محمد علي باشا خديوى مصر جرى حل هذه الوقفية فى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة وتعهدت الحكومة المصرية بصنع الكسوة من مالها العام يقول المؤلف ولايزال ذلك دأبها الى الآن.

ومن اطرف الحوادث التى تتعلق بالكسوة ان هذه الكسوة كانت تصل مع ركب الحجاج المصريين وتحفظ ضمن امتعتهم وقد سرقت بعض أجزاء الكسوة فى أحد الاعوام ولم يستطع أمير الحج المصرى إسترداد هذه الأجزاء إلا بعد أن بذل المال الكثير فى سبيل هذه الغاية، وبعدها صار العمل على تسليم الكسوة لسدنة بيت

الله الحرام لحفظها لديهم إلى أن يحين وقت أسدالها على البيت الحرام. (١)

مصـــر تمتنع عن أرسال الكســـوة

ولقد اورد المؤلف صورة الوقفية الخاصة بهذه القرى التى اوقفها الملك الصالح اسماعيل والسلطان سليمان خان العثمانى ، كما اورد ماتغله هذه القرى من المال وهو يكفى لكسوة البيت فى كل عام وكسوة الحجرة النبوية الشريفة وكسوة داخل الكعبة فى كل خمسة عشر عاما مرة بل وتفيض كثيرا كما ذكر ان حلً هذا الوقف من قبل محمد علي باشا والي مصـر فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى نتج عنه امتناع خديوى مصر عن إرسال الكسوة كما حدث فى عهد الشريف الملك حسين بن علي وكذلك فى اوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود وتفصيل ذلك.

ان اختلافا وقع بين الحكومة المصرية وحكومة الشريف الحسين بن على ملك الحجاز فى سنة ١٣٤١ يقول المؤلف فلما وصل المحمل المصرى فى باخرة خاصة الى جدة وكان معه كسوة الكعبة وحنطة الجراية وحرس المحمل وبعثة طبية منع الشريف الحسين دخول البعثة الطبية الى مكة المكرمة فعادت الباخرة التى تحمل الكسوة الشريفة وحنطة الجرايةومايتبعها من الصرر والصدقات وذلك فى آخر شهر ذى القعدة من سنة ١٣٤١ للهجرة، ولقد استطاع الشريف الحسين التغلب على الوضع الخاص بالكسوة فابرق الى أمير المدينة المنورة ان يرسل كسوة الكعبة الشريفة التى كانت الحكومة التركية اودعتها فى المدينة الى ثغر رابغ على وجه السرعة وأرسل الحسين احدى بواخره المسماة رشدي الى ثغر رابغ لنقل الكسوة الى جدة ومن ثم جرى الاسراع بنقلها الى مكة المكرمة وتم كل هذا فى سرية تامة وفى سرعة بالغة فكانت الكسوة معلقة على الكعبة المعظمة فى اليوم العاشر من ذى الحجة.

يقول المؤلف ، وقد حدثت ضجة عظيمة فى مصر وتساءلت الصحافة المصرية

١- «٢٤٩ - ٢٧٠ تاريخ الكعبة المعظمة»

كيف امكن عمل الكسوة واحضارها فى عشرة ايام ولم يدر بخلد الصحافة المصرية ان الكسوة كانت موجودة بالمدينة المنورة من العهد التركى حيث قامت الحكومة التركية بصنع كسوة متقنة للكعبة ظنا منها ان الحكومة الانجليزية ستمنع وصول الكسوة الى الكعبة بعد دخول تركيا الحرب مع المانيا ضدها بعد اعلانها الحماية على مصر وارسلت هذه الكسوة بالسكة الحديدية برا الى المدينة المنورة ولكن الحكومة المصرية لم تمنع إرسال الكسوة المعتادة بل ارسلتها وكتبت عليها اسم السلطان حسين كامل سلطان مصر فاتفق الشريف الحسين مع الوالي التركي فى مكة على نزع اسم السلطان حسين ووضع اسم السلطان محمد رشاد خان العثماني وقام آل الشيبي بهذا العمل وبقيت الكسوة التركية بالمدينة المنورة فقام الحسين باحضارها بينما كان المصريون حائرين كيف استطاع معمل للنسيج فى رابغ ان يصنع الكسوة فى عشرة ايام بينما لاتستطيع مصانع اوروبا صنع ذلك فى شهور، وكان مراسل رويتر فى جدة قد ابرق بوصول الكسوة من ميناء رابغ. هذا وقد سارع الشريف الحسين بعمل الكسوة للكعبة الشريفة فى العراق وجرى نسجها من القيلان وكسيت بها الكعبة فى عام ١٣٤٢ لان حكومة مصر امتنعت عن ارسالها، وفى عام ١٣٤٣ استولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود على مكة المكرمة واستمرت الحرب الى منتصف جمادى الآخرة عام ١٣٤٤ فكسيت الكعبة بالكسوة المصنوعة من القيلان التى صنعها الشريف الحسين لها فى عام ١٣٤٣ هـ.

وبعثت الحكومة المصرية الكسوة فى عام ١٣٤٤ ولكن حدثت حادثة المحمل فى موسم حج ذلك العام بمنى وكادت ان تكون معركة حربية بين الجنود المصريين وجموع الاخوان من أهل نجد الذين ثاروا لرؤية البدع ممثلة فى المحمل المصرى والحجاج يتبركون به وبالجمل الذى يحمله الامر الذى يعتبر مجافيا لصفاء العقيدة الاسلامية وسلامتها، وتطور الامر الى استعمال السلاح من قبل جنود المحمل المصرى والاخوان، وما ان علم الملك عبدالعزيز رحمه الله بالامر حتى سارع بنفسه

فوقف فى ميدان المعركة معرضا نفسه للخطر وطلب من جموع الاخوان اغماد سلاحهم والعودة الى السكينة حفاظا على أرواح الحجاج وعلى حرمة المشعر الحرام. وكان ذلك فى ليلة التاسع من ذى الحجة ومقذوفات حرس المحمل المصرى من مدافع ورشاشات وبنادق تمطر نيرانها هنا وهناك حتى امكن تغليب الحكمة وسكون الحال.

وفى العام التالى ١٣٤٥ هـ لم تبعث الحكومة المصرية بالكسوة فسارعت الحكومة السعودية ممثلة فى شخص الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بعمل كسوة مؤقته للكعبة من الجوخ الأسود الفاخر ومبطنة بالقلع القوى، كما صنع الحزام المعتاد للكعبة والمكتوب عليه الآيات باسلاك الذهب والفضة وكذلك ستارة باب الكعبة ولم يأت العاشر من ذى الحجة الاوكانت هذه لكسوة قد علقت على الكعبة المعظمة وتم هذا كله فى بضعة أيام وهكذا فان عزائم الرجال تخلق المستحيل (١)

انشاء مصنع الكسوة بمكة المكرمة

لما رأى جلالة الملك عبد العزيز ان موضوع كسوة البيت قد دخل فى اعمال السياسة امر بإنشاء دار خاصة لكسوة الكعبة المعظمة فى مكة المكرمة، وأولى وزير المالية الشيخ عبدالله السليمان اهتمامه للأمر فبنيت دار خاصة للكسوة على أرض مساحتها ألفا وخمسمائة متر بمحلة اجياد وتم البناء خلال ستة شهور، واستقدم عمال الحياكة كما استقدمت المواد اللازمة للكسوة وتطريزها من الهند كما استوردت الأنوال الخاصة للحياكة وعددها اثنى عشر نولا، كما بلغ عدد الصناع من النساجين والمطرزين أربعين عاملا وعشرين تابعاً وعين الشيخ عبدالرحمن مظهر الموظف اذ ذاك مترجما بوزارة الخارجية مديرا لدار الكسوة وكان الشيخ اسماعيل الغزنوي احد علماء الهند هو الذى اشرف على استيراد الأنوال والعمال الخاصتين بالعمل وتمت حياكة الثوب الجديد للكعبة بنفس الجودة والاتقان التى كانت ترد بها

---

١ - «٢٧٠ - ٢٩٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

الكسوة من مصـــر وكتب عليه اسم الملك عبدالعزيز رحمه الله ولم يحل موسم الحج إلا وكـانت الكســوة المصنوعة فى مكة المكرمة حاضرة لتعلق على الكعبة المشرفة فى موعدها المعتاد كل عام .

وفى عام ١٣٤٧ هـ عينت الحكومة السعودية مديرا لدار الكسوة ويدعى الحاج محمـد خان واشـترطت عليـه تعليم العمال السعوديين وتدريبهم وتم بالفعل الحاق الشباب الراغبين فى تعلم هذه الصناعة بالدار وفى عام ١٣٥٢ هـ اصبح جميع عمال الدار من الشباب السعودى وقد اتقنوا هذه الصناعة اتقانا كاملا بحمد الله .

اقـول وقـد تم بنـاء دار عظيمة للكسوة فى مدخل مدينة مكة المكرمة قبل بضعة اعـوام وهى تابعـة فى ادارتهـا لوزارة الحـج والأوقـاف وتقوم هذه الدار بصنع كسوة الكعبة الشريفة ومايتبعها فى كل عام .(١)



١- ٢٩٣ ـ ٣٠١ تاريخ الكعبة المعظمة

باب الكعبة

قيل أن أول من جعل للكعبة بابا ملك اليمن واستدل على ذلك بما جاء فى الشعر الذى روى عنه .

واقمنا به من الشهر عشرا　　　وجعلنا لبابه اقليدا

ولقد كان بناء تبع للبيت قبل بناء قريش لها ، فلما عمرتها قريش جعلت لها بابا بمصراعين ولما بنى ابن الزبير الكعبة جعل لها بابا بمصراعين وكان طول ذلك الباب أحد عشر ذراعا ، فلما اعاد الحجاج بناء الكعبة على ماكانت عليه قبل بناء ابن الزبير لها ردم وبنى تحت بابها فجعل الباب ستة اذرع وشبر .

وفى سنة مائة واربع وتسعين للهجرة ارسل الخليفة الأمين محمد بن هارون الرشيد ثمانية عشر ألف دينار الى سالم بن الجراح عامله على الصوافي فى مكة وأمره ان يجعلها صفائح على باب الكعبة ، فقلع عامل الأمين ماكان من الصفائح على باب الكعبة وزاد عليها من الثمانية عشر ألف دينار التى ارسلها الامين فضرب على الباب الصفائح والمسامير وكذلك على حلقتى باب الكعبة وعلى الفيازير والعتب .

ووصف الارزقى باب الكعبة فى عصره فى اوائل القرن الثالث فذكر أن طوله ستة أذرع وعشرة اصابع وعرض مابين درفتى الباب ثلاثة اذرع وثمانى عشرة

اصبعا. والباب من خشب الساج المتين وملبس بصفائح الذهب المنقوش، وعلى الباب أربعة عشرة حلقة من حديد مموهة بالفضة فى كل درفة سبع حلقات. والمسامير المضروبة على الباب مموهة بالذهب المنقوش، وباطن الباب ملبس بالفضة.

وبعث المعتصم العباسى فى سنة ٢١٩ للهجرة قفلا للكعبة ثمنه ألف دينار وارسل الى الحجبة عامل مكة صالح بن العباس فدعاهم ليقبضوا القفل الذى ارسله المعتصم ويسلموه القفل القديم على باب الكعبة ليرسله الى الخليفة فابوا وطلبوا منه ان يأذن لهم بالخروج الى الخليفة فخرجوا اليه وكلموه فترك لهم قفلها واعطاهم القفل الذى بعث به اليها فقسموه بينهم، اقول ولعل الاصح انه ترك لهم القفل القديم فقسموه بينهم.

وفى سنة خمسمائة وخمسين للهجرة بعث المقتفي العباسي بابا للكعبة مصفحا بالنقرة المذهبة واخذ المقتفي الباب الذى كان قائما على الكعبة فصنع منه تابوتا لنفسه اوصى ان يدفن فيه اذا مات وقيل ان الباب الأول عمل منه تابوت لوزير المقتفي جمال الدين المعروف بالجواد وحمل فيه الى المدينة ودفن بها.

هذا وقد تنافس الملوك والخلفاء فى صنع الأبواب للكعبة عبر عصور التاريخ ونحن نذكر هنا بعضا منها.

صنع الملك المظفر صاحب اليمن بابا للكعبة وعليه صفائح الفضة وقد بلغت زنتها ستون رطلا ولم يذكر الفاسي تاريخ هذا الباب.

وفى سنة سبعمائة وثلاثة وعشرين صنع الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بابا للكعبة مصفحا بالفضة وكان عليه من الفضة خمسة وثلاثين الفا وثلاثمائة درهم والباب مصنوع من خشب السنط الأحمر، وقد امر صاحب مصر بقلع الباب الذى صنعه الملك المظفر صاحب اليمن وتركيب الباب الذى ارسله قلاوون بدلا منه.

وفى سنة سبعمائة وواحد وستين امر الملك الناصر حسن بن الناصر قلاوون بصنع باب الكعبة بمكة المكرمة وهو من خشب الساج وما لبث ان قلع منها فى سنة

سبعمائة وست وسبعين لتحليته واعيد اليها الباب الذى صنعه ابو الملك الناصر قلاوون ثم اعيد الباب الذى صنعه الناصر حسن بعد اتمام تحليته فى سنة سبعمائة وواحد وثمانين وهذا الباب كان يحمل اسم الملك الناصر محمد بن قلاوون فى اسفله واسم حفيده الملك الاشرف شعبان حسين فى بعض فبادين الباب وفى جانب آخر من الباب كتب اسم الملك المؤيد ابى النصر شيخ صاحب مصر ومالبث ان حضر بعض خواص الملك المؤيد للحج في سنة ثمانمائة وستة عشر فاضاف حلية الى جانب آخر من باب الكعبة من الفضة وطلاها بالذهب وكتب عليها اسم الملك المؤيد.

وهكذا نرى الملوك يتنافسون فى نقش اسمائهم على باب الكعبة ويغيرون أبوابها ليكون لهم شرف ذكر اسمائهم على هذه الأبواب حتى رأينا باباواحداً يكتب عليه اسماء اربعة من ملوك مصر.

سرقة الفضة من أبواب الكعبة

وذكر قطب الدين فى الاعلام انه ادرك الباب الشريف مصفحا بالفضة ، قال وكان يختلس من فضته اوقات الغفلة من قلَّ دينه وخفَّتْ يده الى ان انكشف سفل الباب الشريف عن خشب الباب، وقبض على من يفعل ذلك اكثر من مرة كما يقول قطب الدين المكي فى الأعلام وحبسوا وبهدلوا، وجرى عرض الأمر على السلطان سليمان خان فى سنة تسعمائة وستة عشر فامر بتصفيح الباب الشريف بالفضة بعد ان اخرجوا الفضة التى كانت مصفحة على الباب وزادوا عليه فضة اخرى وجعلت صفائح وسمرت بمسامير الفضة وصفحت الفضة بالذهب.

باب الكعبة فى العهد العثمانى

فى سنة تسعمائة وثلاثة وخمسين امر السلطان سليمان العثمانى بقلع الباب الذى عمله السلطان محمد بن قلاوون وعمل بابا غيره حلاه بحلية كثيرة. وفى سنة ألف وأربع وأربعين امر السلطان مراد خان بن السلطان أحمد والي مصر ان يصلح ما وقع فى سطح الكعبة المشرفة من الخلل وان يجعل لها بابا جديدا وان يرسل اليه الباب

القديم، وفى السابع عشر من ربيع الأول سنة خمس وأربعين بعد الألف وصل مندوب السلطان لهذا الغرض وجرى قلع باب الكعبة ووضع محله بابا من الخشب لم يكن محلى بشيء بل وضعت عليه ستارة بيضاء، وقد وزنت الفضة التى كانت على الباب المقلوع فبلغت زنتها مائة واربعة وأربعين رطلا، وقد استعملت هذه الفضة فى تحلية باب جديد للكعبة كتب عليه اسم السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان وتم تركيب هذا الباب فى شهر رمضان من سنة خمس وأربعين بعد الألف

وأرسل الباب القديم الى السلطان مراد، وجدد السلطان أحمد خان حلية باب الكعبة فى سنة ألف ومائة وتسعة عشر وكتبوا تاريخ التجديد مضافا إليه اسم السلطان أحمد خان.

يقول المؤلف وهذا الباب الأخير الذى عمله السلطان مراد خان هو الباب الموجود على الكعبة المشرفة فى العصر الحاضر وهو الذى تم تركيبه فى شهر رمضان من سنة خمس وأربعين بعد الألف.

أقول هذا ماذكره المؤلف الشيخ باسلامه فى الخمسينات من القرن الرابع عشر للهجرة وهو يدل على إن هذا الباب الأخير الذى صنع بأمر السلطان مراد خان قد استمر مركبا على الكعبة مايزيد عن أربعة قرون.

ولقد تم صنع اكثر من باب للكعبة المشرفة فى العهد السعودى وكان آخرها الباب الذى امر بصنعه المرحوم الملك خالد بن عبدالعزيز يرحمه الله وقد استعمل فيه كثير من الذهب مع ارتفاع اسعارة وعلو اثمانه فى العصر الحاضر، وحبذا لو استطعنا الحصول على المعلومات التاريخية الصحيحة الخاصة بهذا الموضوع وامثاله مما تم في المسجد الحرام والكعبة المعظمة لوصل ماانقطع من هذا التاريخ الهام لعمارة المسجد الحرام والكعبة المعظمة بعد كتابي الشيخ حسن باسلامه رحمة الله عنهما.(١)

بعد كتابة ماتقدم اطلعت على الكتيب الذى اصدرته وزارة الحج والأوقاف فى

١- «١٩٤ - ١٩٨ تاريخ باب الكعبة المعظمة»

٢٢ العقـدة سنـة ١٣٩٩ هـ عن أبـواب الكعبـة فى العهد السعودى وخاصة الباب الحـالى الـذى صنـع فى عهـد المرحوم الملك خالد ابن عبدالعزيز ومن هذا الكتيب نقلنا المعلومات التالية .

باب الكعبة فى العهد السعودى

الباب الأول فى عهد الملك عبدالعزيز

فى عام ١٣٦٤ هـ أمـر جلالـة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بصنع باب للكعبـة المعظمـة وتم صنـع الباب المذكور من الالمنيوم بسماكة ٢,٥ سم وبمقياس ٣١٠×١٦٨ سنتمـتر ويتكـون الباب المذكور من درفتين تتألف كل درفة من ثلاث قطع طولية تم صبها وتجهيزها فى مكة المكرمة واستخدمت قضبان الحديد من خلف كل درفـة لدعمهـا وربـط القطع بعضها ببعض وهى ظاهرة من الخلف، كما ترتبط كل درفـة بثـلاث مفصلات من الحديد الصلب مثبتة على اطار ـ حلق من الحديد المتين ـ وتم صنع الوجه الخارجى للباب من الواح الفضة الخالصة المطلية بالذهب والمثبت على قاعدة خشبية من خشب التيك بسماكة ٥و٢ سم .

وقـد صنعت الـزخـرفـة ولوحات الخطوط فى محل شيخ الصاغة بمكة المكرمة فى ذلك الوقت المرحوم محمود يوسف بدر وبإشرافه كما قام بوضع الرسم والخط الشيخ عبدالرحيم أمين .

أما الجوانب فكانت مصنوعة أول الأمر من الخشب الجاوى سماكة ٦ سم وفوقها كذلـك الـزخـرفة واللوحات التى تحمل اسماء الله الحسنى بشكل بيضوى وعددها ثلاثـة عشـر لوحـة من الفضـة المطليـة بالذهب، وقد استغرق صنع الباب المذكور ثلاث سنوات وفى عام ١٣٩٥ هـ جرى تغيير القاعدة الخشبية لجوانب الباب حيث استبـدلت بها صفـائـح من الالمنيوم المسكوب وذلك بعد فك اللوحات التى تحمل اسماء الله الحسنى والزخرفة واعادتها الى وضعها السابق .

الباب الثانى فى عهد الملك
خالد بن عبدالعزيز

ظل البـاب الـذى امـر بصنعه الملك عبدالعزيز ثلاثة وثلاثين عاما قائما فى مكانه

من الكعبـة المعظمـة . وفى شهـر جمادى الأولى من عام ١٣٩٧ هـ تشـرف المرحوم الملك خالـد ابن عبـدالعـزيز بالصلاة فى جوف الكعبة المعظمة فلاحظ قدم الباب ووجـوب تغيـيره فاصـدر امـره الى وزير الحج والأوقاف بان يتم صنع باب للكعبة المعظمة الخارجى وكذلك الباب الداخلي للكعبة - باب التوبة من الذهب الخالص

تصميم الباب

اتفقت وزارة الحـج والاوقـاف مع المهنـدس المعـمارى المسلم منير الجنـدى اخصـائى التصميـمات والعـمارة الاسـلاميـة للمشاركة فى التصميمات والدراسات الخاصة بالبابين ومتابعة التنفيذ وقد بلغت قيمة الدراسات ثلاثمائة الف ريال .

وقد تم اختيار التصميم النهائى الذى روعي فيه ان يكون منسجما مع الزخرفة التى تتميز بها ستارة الباب وكان خط الثلث هو العنصر الهام المميز فى هذه الزخرفة .

وروعي صنـع داوئـر لكتـابـة الآيات القرآنية الكريمة مع أضافات الزخاف فى الـزوايـا العلويـة بحيث يبدوا الباب غنيا بالفن الاسلامي بزخارفه العريقة وقد قام بكتـابـة الخطـوط الشيخ عبدالرحيم أمين الذى تولى خطوط الباب السابق فى عهد الملك عبـدالعـزيـز رحمـه الله ، وكـان اهتـمام صاحب السمو الملكى الأمير فهد بن عبـدالعـزيـز - جلالـة الملك فهد - فى ذلك الوقت عظيما فى اختيار التصميم الأمثل ومتـابعـة تنفيـذ العمـل حيث قام سموه بزيارة موقع العمل الذى عهدت به الدولة الى أحمد إبراهيم بدر شيخ الصاغة بمكة المكرمة والذى أقام ورشة خاصة لصناعة البـابـين . وكتبت اسـماء الله الحسنى وعـددهـا خمسة عشر فى دوائر فوق الباب وفى جانبيه الايمن والايسر .

وكتبت الآيـات القـرآنيـة الكـريمـة على لوحات من الذهب الخالص مزخرفة بطـريقـة النقش . ويبلغ ارتفـاع باب الكعبـة المشـرفـة اكثر قليـلا من ثلاثة امتار ويقـارب عرضـه المـتر ين اما سماكة الباب فتبلغ نصف متر وهومكون من درفتين ،

ويتألف هيكل الباب من قاعدة خشبية سمكها عشرة سنتمترات من خشب التيك ووزنـه النـوعي ٨, ٤٠ سم ٢ وزودت نهايـة الباب بعارضة من الأسفل لمنع دخول المطـر الى داخـل الكعبـة المشرفة وتحتوى على قضيب خاص يضغط حرف الباب على العتبة عند الاغلاق.

وقد ثبتت صفائح الذهب على هذه القاعدة الخشبية بوضع مادة لاصقة ركبت بطريقة تضمن استمرار التصاق الذهب بالخشب الى فترة غير محدودة وتم كذلك صنـع قفـل البـاب بنفس مواصفـات القفـل القديم مع تناسب التصميم الخاص بالبـاب الجـديـد. ولكى يتم تركيب البـاب بسهـولـة اعـد اطار من الصلب صنع خصيصا وثبتت عليه المفصلات بحيث تتحمل كل درفة مايزيد على خمسمائة كيلو جرام وجهزت المفصلات على عجلات دائرية لسهولة الحركة.

بـــاب التوبـــة

امـا البـاب الـداخلى الكعبة المشرفة وهو باب التوبة فقد جرى تصميمه مطابقا للباب الرئيسى من حيث الزخرفة وطريقة الكتابة بحيث يظهر التجانس بين البابين ويبلغ إرتفـاع باب التـوبـة ٢,٣٠ متر ين وثـلاثين سنتما وعرضه ٧٠ سم وصنعت قاعدته من نفس الخشب ولكنه اقل سماكة من باب الكعبة بمقدار سبعة سنتمترات.

التكاليف

وقد بلغت تكاليف صنع البابين ثلاثة عشر مليونا واربعمائة وعشرين ألف ريال خلاف قيمة الذهب الذى قدمته مؤسسة النقد العربي السعودى والذى بلغ مائتين وثمانين كيلو جراما عيار ٩, ٩٩٩.

مـدة الصنع

بدأ العمـل فى صنـع البابين اعتبارا من غرة ذى الحجة ١٣٩٨ هـ واستغرق العمل عاما كاملا

الكتابة التى على الباب

اسماء الله

فوق البـــاب	ياواسع	يامانع	ينافع	
الجانب الايمن	ياعالم	ياعليم	ياحليم	
	ياعظيم	ياحكيم	يارحيم	
الجانب الأيسر	ياغني	يامغنى	ياحميد	
	يامجيد	ياسبحان	يامستعان	

واضيفت فى الـزاويتـين العلويتين زخارف متميزة لابراز شكل قوس محيط بلفظ الجلالة ـ الله جل جلاله واسم رسول الله ـ محمد ﴿ﷺ﴾ والآيات القرآنية الكريمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

ادخلوها بسلام آمنين، جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام.

رب ادخلني مدخل صدق واخرجنى مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، وقال ربكم ادعوني أستجب لكم.

ويلي ذلك حشوتان على شكل شمستين مشرقتين وسطهما كتابة «لا إله إلا الله محمـد رسـول ﴿ﷺ﴾ على شكـل بروز دائـرى. وكتب تحت الحشوتين العلويتين الآية الكريمة.

«قـل ياعبـادي الـذين أسـرفـوا على أنفسهم لاتقنطـومن رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم».

كما كتبت العبارات التاريخية التالية بخط صغير :

«صنـع البـاب السـابق فى عهـد خادم الحـرمين الشريفين الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود سنة ١٣٦٣ هـ».

وتحتهـا «صنـع هذا البـاب فى عهـد خادم الحـرمـين الشـريفين الملك خالد بن

عبدالعزيز آل سعود سنة ١٣٩٩ هـ.

وكتب فى الدرفة اليمنى تشرف بافتتاحه بعون الله تعالى الملك خالد بن عبدالعزيز آل سعود فى الثانى والعشرين من ذى العقدة سنة ١٣٩٩ هـ

وفى الدرفة اليسرى «صنعه أحمد إبراهيم بدر بمكة المكرمة ، صممه منير الجندى ، واضع الخط عبدالرحيم أمين.

وقد تم صنع هذا الباب بإشراف مباشر من معالى وزير الحج والأوقاف الشيخ عبدالوهاب عبدالواسع الذى عهد اليه جلالة المرحوم الملك خالد بهذا العمل التاريخي العظيم.

والباب المذكور هو الباب الحالي للكعبة المعظمة.

الحفرة التى امام الكعبة

الحفرة التى امام الكعبة المعظمة من الجهة الشرقية بين الركن الشامي وباب الكعبة والتى تسمى فى الوقت الحاضر ـ المعجن ـ وردت فيها روايات كثيرة اشهرها رواية تقول انها المصلى الذى صلى فيه جبريل بالنبي ﴿ﷺ﴾ حين فرضت عليه الصلوات الخمس ، وهناك رواية تقول انها موضع حجر مقام ابراهيم بعد بنائه للكعبة المشرفة وان النبى ﴿ﷺ﴾ هو الذى أخر المقام بعد ذلك وقيل فى سبب تسميتها بالمعجن انها المكان الذى عجن اسماعيل فيه الطين لبناء الكعبة حين بناء البيت المعظم يقول المؤلف ولايوجد مايؤيد صحة هذا الخبر ، وقد ذكر ابن جبير فى رحلته سنة خمسمائة وثمانية وسبعين انها كانت مصبا للماء الذى تغسل به الكعبة ولم يقل بذلك احد غيره وربما ظن ابن جبير ذلك حينما رأى الماء الذى تغسل به الكعبة يتجمع فيها.

وتبلغ مساحة هذه الحفرة أربعة اذرع طولا من الشمال الى الجنوب وعرضها من الشرق الى جدار الكعبة ذراعان وسدس ذراع وعمقها نصف ذراع كل ذلك بذراع الحديد.

وقـد امـر بتلبيسهـا بالـرخام ابو جعفر المنصور المستنصر بالله سنة ستمائة وواحد وثلاثين كما هو مثبت فى لوحة بها كما ورد فى تحصيل المرام للقطبي .

ميزاب الكعبة

أول من وضـع ميـزابـا للكعبـة قريش حين قامت ببنائها قبل خمس سنوات من البعثة النبوية ذلك ان بناء الخليل ابراهيم للكعبة لم يجعل لها سقفا ولهذا فلم تكن هنـاك حاجـة للميـزاب وفى بناء ابن الزبير للكعبة وضع لها ميزابا وجعله يصب فى حجـر اسماعيـل وكـذلك فعل الحجاج بن يوسف وأول من حلى الميزاب بالذهب الوليد بن عبدالملك ونذكر هنا شيئا عن الميزاب فى العهود المختلفة .

١ ـ ذكـر الأزرقي ان الشـريف رميثة صاحب مكـة عمل ميزابا للكعبة طوله أربعة اذرع وسعتـه ثمانيـة اصـابـع فى ارتفـاع مثلهـا وان هذا الميزاب كان ملبسا بصفائح الذهب من داخله وخارجه .

٢ ـ ارسـل رامشت بن الحسـين الفـارسي صاحب الـربـاط المشهـور بمكة فى سنة خمسـمائـة وتسـع وثـلاثـين ميـزابا وركب فى الكعبة فى هذا العام ويبدو ان الميزاب السابق كان قد تلف .

٣ ـ فى سنـة خمسـمائـة وواحـد وأربعـين أرسل الخليفة العباسى المقتفي ميزابا ركب بالكعبة وقلع الميزاب الذى كان ركبه رامشت الفارسي .

٤ ـ كذلك ارسـل النـاصـر العباسي ميزابا كتب عليه اسمه وهو من خشب مبطن بالرصاص فى موضع جريان الماء وظاهره محلى بالفضة .

٥ ـ قام سودون باشـا بتعمـير الميزاب ضمن العـمارة التى اجراها فى المسجد الحرام سنة سبعمائة وواحد وثمانين .

٦ ـ امـر السلطـان سليم بعمـل ميزاب حُلِّيَ بالفضة وطلي بالذهب وركب فى سنة تسعمائة وتسع وخمسين وامر السلطان بنقل الميزاب القديم الى خزانة الروم فتعرض

---

١ ـ «١٨٦ ـ ١٩٠ تاريخ الكعبة المعظمة»

له بنو شيبة ـ سدنة البيت ـ فاعطوا مقابله فضة بوزنه من بندر جدة وقد قدر الوالي والقاضي قيمة ذلك بالفين وثمانمائة درهم فضة .

٧ ـ ارسل السلطان أحمد خان ميزابا فى سنة ١٠٢٠ وتم تركيبه فى عمارة السلطان مراد بعد عشرين عاما من أرساله كما اسلفنا بيانه .

٨ ـ آخر ميزاب مركب فى الكعبة هو الميزاب الذي بعثه السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان وقد صنع هذا الميزاب فى القسطنطينية وجاء به الحاج رضا باشا وركب فى سنة الف ومائتين وست وسبعين للهجرة فى ولاية أمير مكة الشريف عبدالله بن محمد بن عون ، وحمل الميزاب القديم الى الأبواب العالية ، والميزاب الجديد مصفح بالذهب ويقدر وزنه بنحو خمسين رطلا .

وهذا الميزاب هو الموجود فى الكعبة الى العصر الحاضر كما يقول الشيخ باسلامه حيث لم يحدثنا التاريخ انه وضع ميزاب بعد هذا الميزاب والله اعلم .(١)

حجر إسماعيل

حجر إسماعيل هو الحائط المبني على شكل نصف دائرة والواقع شمال الكعبة ، جاء فى تاريخ الأزرقي إن إبراهيم عليه السلام جعل الحجر الى جنب البيت عريشا من أراك تقتحمه العنز ، وقيل انه كان زربا لغنم اسماعيل . ومساحة المستقيم من الحجر كما ذرعه الشيخ باسلامه فى عام ١٣٥٢ للهجرة تسعة اذرع بذراع اليد منها ستة اذرع وشبر تعتبر من داخل الكعبة لان هذه الستة اذرع هى التى تركتها قريش من البيت حين بنائه لقصور النفقة لديهم ، ولما بنى ابن الزبير البيت ادخلها فيه ثم جاء الحجاج فنقض بناء ابن الزبير واعاد الحجر الى ماكان عليه فى بناء قريش وقد سبق تفصيل كل ذلك ، وآخر مرة بنى فيها الحجر فى عصر السلطان عبدالمجيد خان الثانى سنة الف ومائتين وستين للهجرة .

ولايجوز الطواف من داخل الحجر كما اسلفنا من ان ستة اذرع وشبر منه تعتبر من البيت ـ وهذه المساحة هى الملاصقة للجدار الشمالي للكعبة والتى هى فى الوقت

---

١ ـ «١٩٠ ـ ١٩٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

الحاضر تعتبر مدخلا الى الحجر اما بقية المساحة فهى الحجر.

وقـد سمى بعض المؤرخين الحجر بالحطيم وعللوا ذلـك بانـه مال حطم من الكعبة ولم يدخل فيها بينما ذكر بعض المؤرخين ان الحطيم هو مابين الركن الأسود والمقام وزمزم لان الناس يزدحمون على الدعاء فيه ويحطم بعضهم حطما، والدعاء فيه مستجاب.

وقـد تواتـرت روايـات كثيـرة ان اسماعيل عليه السلام دفن فى الحجر بجوار امه هاجر ولكن الشيخ باسلامه يقول انه لايوجد مايثبت صحة ذلك رغم تواتر روايات المؤرخين له ويعزى ذلك الى طول المدة بين بناء إبراهيم عليه السلام للبيت وبين العهد الاسلامي حيث ان بناء ابراهيم عليه السلام للبيت كان قبل الفي عام.

وأول من زين حجـر اسـماعيل بالرخام هو الخليفة ابوجعفر المنصور العباسى فى عام ١٤٠ هـ وجـدده الخليفـة المهـدى العبـاسي فى سنـة ١٦١ وفى عام ٢٤١ امـر بتجـديـده الخليفـة المتوكل العباسى بعد ان رث رخامه، وفى هذا العام ٢٤١ بعث أحمد بن طريف مولى العباس بن محمد الهاشمي الرخامة الخضراء التى فى الحجر تحت الميـزاب وبعث معهـا رخـامـة اخـرى خضـراء وضعت فى سطـح الكعبة وقد وصفت الرخامة الخضراء هذه بانها من الرخام الثمين النادر.

وفى عام ٢٨٣ عمر الحجر المعتضد العباسي والبسه الرخام من داخله وخارجه كما عمره الناصر العباسي وفرشه بالرخام فى سنة ٥٧٦.

وقـد توالى تعمـير الحجر وتزيينه على مدى عصور التاريخ من خلفاء المسلمين وملوكهم فكان من بينهم الملك المظفر صاحب اليمن، والناصر محمد بن قلاوون فى سنـة ٧٨١ والملك الظـاهـر برقـوق صاحب مصـر فى سنة ٨٠١ وأبو النصر قانصوه الغورى فى سنة ٩١٧. وفى سنة ٨٢٢ عمره القائد علاء الدين عمارة حسنة وكان قد تداعى للسقـوط وفى سنـة ٨٢٦ عمـر بامـر زين الـدين مقبل القديدى بالجبس واصلح الكثير من رخامه. وفى سنة ٨٣٣ احضر سودون المحمدى ستين ذراعا من الرخام من مصر لتعمير الحجر.

قال التقي الفاسي وقد خفي علينا شيء كثير من خبر عمارة الحجر من دولة المعتضد العباسي الى خلافة الناصر فانه لايبعد ان يخلو فى هذا الزمن الطويل من عمارة والله اعلم .

ثم قال وممن عمره الوزير جمال الدين المعروف بالجواد وذلك فى عشر الخمسين وخمسمائة وذكر نجم الدين بن فهد القرشي فى حوادث سنة ٨٨١ انه تم تغيير رخام الحجر داخلا وخارجا ولم يذكر العامل لذلك .

وجاء فى الارج المكي لعلي بن عبدالقادر الطبري وعمَّره - الحجر - من ملوك آل عثمان السلطان محمد خان بن السلطان مراد خان كما عمره السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان فى سنة ١٠٤٠ والسلطان عبدالمجيد خان فى سنة ١٢٦٠ وفى سنة ٩١٦ اصدر السلطان الغورى أمره بهدم الحجر واعادة بنائه يقول ابن فهد القرشي وكان الحجر كله بالرخام داخلا وخارجا ولم يكن به مايعاب الا أن الله قدر بالتلاعب فبنى من داخله بالحجارة ومن خارجه بالرخام فظهر الخلل فيه فى سنة ٩١٧ فارسل السلطان رخاما ومرخمين إبالبحر وصلوا مكة فى آخر رمضان وشرعوا فى يومهم فى اعادته بالآجرّ والرماد ثم نقض ذلك ثانى يوم واعيد الحجارة والجبس والرصاص وكتب على علوه فى الرخام الأبيض اسماء من عمروه من الملوك وتاريخ عماراتهم وعمارته الاخيرة .

كسوة الحجر

وأرسل جقمق الجركسي فى القرن التاسع كسوة لدائر خارج الحجر من حرير أسود ككسوة الكعبة الشريفة ولم توضع عليه ثم وصلت بعدها بعام كسوة لدائر الحجر من الداخل فألبست الكسوة للحجر من داخله وخارجه . وتعتبر كسوة الحجر هذه كما يقول الشيخ باسلامه الأولى والأخيرة فى بابها حيث لم أقف فيما وقفت عليه أن احدا كسى حجر إسماعيل كما تكسى الكعبة المعظمة ولا بعده ، فكان قد تفرد بذلك ثم يقول الشيخ باسلامه والظاهر أنها لم تدم كثيرا ولم تجدد من قبله والله أعلم بذلك .

آخر عمارة للحجر :

وجاء فى منائح الكرم أنه فى سنة ١٢٨٣ حصل تجديد نصف أ رض الحجر من المقـام الحنفى وذلـك فى سلطنة السلطان عبد العزيز خان وأمير مكة الشريف عبد الله بن محمـد بن عون . وهـذه العـمارة هى آخـر ما تم من عمارة للحجـر الى عصر المؤلف فى أوائل النصف الثانى من القرن الرابع عشر للهجرة والله أعلم .

مساحة الحجر :

قام بذرع الحجـر إبـراهيم رفعت باشـا مؤلف كتـاب مرآة الحـرمـين فذكـر القياسات الآتية :

ارتفـاع جدار الحجـر ١,٣١ متر عرض الجدار من الأعلى ١,٥٢ متر وعرضه من الأسفـل ١,٤٤ متر وسعـة الفتحة التى بين طرفه الشرقى الى آخر الشاذروان ٢,٣٠ متر .

وسعة الفتحة التى بين طرفه الغربى ونهاية الشاذروان ٢,٢٣ متر .

والمسافة بين طرفي الدائرة ثمانية أمتار ووراء الحطيم بمسافة ١٢ مترا المطاف .

والمسافة بين منتصف جدار الكعبة الشمالى ووسط تجويف الحطيم ٨,٤٤ مترا .

وقـد أخـترت ماذكـره صاحب مرآة الحـرمـين لأنـه أحدث قياس للحجر ولأنه أستعمل المتر وكسوره فيه بينما أستعمل المؤرخون السابقون الذراع وهو قد يختلف من شخص وآخر، لأنه بذراع اليد والله أعلم .(١)

سدانة الكعبة المعظمة :

كانت سدانـة الكعبـة المعظمـة بعـد بناء إبراهيم الخليل عليه السلام إياها بيد إبنـه إسـماعيـل عليـه السلام ثم بعد وفاته صارت لولده ثابت بن إسماعيل الى أن

١-«١٦٣ - ١٨٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

أغتصبهـا من ولده أخواله جرهم ومكثت السـدانـة فى جرهم عدة قرون الى أن اغتصبتها منهم خزاعـة ومكثت فى خزاعـة عدة قرون الى أن آل أمـر مكـة والكعبة المعظمـة الى قصي بن كلاب بن مرة القـرشى وهـو الجـد الخامس للنبى ﴿ﷺ﴾ فأسـترجعهـا من خزاعـة بعـد حرب دامية ثم صارت من بعده فى ولده الأكبر عبد الدار ثم صارت فى بنى عبد الدارجاهلية وإسلاماإلى أن آل أمر السدانة الى شيبة بن عثـمان بن طلحـة واسمـه عبـد الله بن عبد العزى بن عثمان الى العصر الحاضر يتوارثونها كابرا عن كابر.

عثمان بن طلحة يغلظ للنبى ﴿ﷺ﴾

جاء فى طبقات ابن سعد عن عثمان بن طلحة قال كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الأثنـين والخميس فأقبـل النبى ﴿ﷺ﴾ يومـا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ونلت منه فحلم عنى ثم قال : ياعثـمان لعلك ستر ى هذا المفتـاح يوما بيدى أضعه حيث شئت قال عثمان فقلت لقد هلكت قريش يومئذ وذلت فقال بل عمرت وعزَّت ودخل الكعبة يقول عثمان فوقعت كلمته منى موقعا ظننت يومئذ أن الأمـر سيصـير الى ماقـال فلما كان يوم الفتـح قال ياعثـمان أئتنى بالمفتـاح فأتيته به وأخذه منى ثم دفعه اليَّ.

خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم :

وقـال ـ خذوهـا خالـدة تالـدة لاينـزعها منكم إلا ظالم ياعثمان ان الله أستأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف .

ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها :

وفى رواية أن العباس بن عبد المطلب سأل النبى صلوات الله وسلامه عليه أن يجمع له الحجابة مع السقاية وذلك فى فتح مكة حينما أخذ المفتاح من عثمان بن طلحة فقـال بأبى انت وأمى يارسول الله أعطنا الحجـابة مع السقاية فأنزل الله عز وجل

على نبيه ﴿ﷺ﴾ ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ـ يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فماسمعتها من رسول الله ﴿ﷺ﴾ قبل تلك الساعة فتلاها ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: غيبوه وفى رواية اعينوه ثم قال: خذوها يابنى ابى طلحة بأمانة الله واعملوا فيها بالمعروف خالدة تالدة لاينزعها من أيديكم إلا ظالم.

آل الشـــــيبى

والشيبيون أو آل الشيبي الذين لهم سدانة البيت فى العصر الحاضر هم من نسل شيبة بن عثمان بن ابي طلحة وهو ابن عم عثمان ابن طلحة لأن عثمان هذا لم يكن له ولد فانتقلت الحجابة اليه بعد وفاة عثمان بن طلحة الذى بقى فى المدينة الى وفاة النبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ثم عاد الى مكة.

وقد اسلم شيبة يوم فتح مكة وشهد حنينا وقيل اسلم بحنين ،قال الزبير كان شيبة قد خرج مع رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم حنين مشركا يريد ان يغتال رسول الله ﴿ﷺ﴾ غرة فاقبل يريده فرآه الرسول صلوات الله وسلامه عليه فقال ياشيبة هلم لا أم لك فقذف الله فى قلبه الرعب ودنا من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ووضع يده الكريمة على صدره ثم قال: اخسىء عنك الشيطان فاخذه ونزع فقذف الله فى قلبه الايمان فاسلم وقاتل مع رسول الله ﷺ وكان ممن صبر معه يومئذ وكان من خيار المسلمين وحين اعطى صلوات الله وسلامه عليه مفتاح البيت اعطاه لعثمان وابن عمه شيبة هذا. . اقول وهذا يدل على أن شيبة أسلم يوم الفتح وليس يوم حنين وايا كانت الرواية الصحيحة فان الحجابة لابناء ابي طلحة وقد توفى عثمان ولا ولد له فآلت الحجابة إلى ابن عمه شيبة وهى باقية فى نسله الى هذا اليوم وستبقى أبد الدهر حتى يرث الله الأرض ومن عليها مصداقا لقول الرسول الكريم خذوها خالدة تالدة لاينزعها منكم إلا ظالم.

شيبة ابن عثمان يحج بالناس

ومن الحوادث التاريخية التى تتصل بالحجابة أن عليا رضي الله تعالى عنه بعث

قثم ابن العباس فى سنة تسع وثلاثين ليحج بالناس وأرسل معاوية فى هذا العام يزيد بن شجرة فتنازعا فسعى بينهما أبوسعيد الخدرى رضي الله عنه وغيره فاصطلحا على أن يقيم الحج والصلاة بالناس شيبة بن عثمان .

الحجابة لاكبر العائلة سنا

وقد سار آل الشيبي على قاعدة اسناد الحجابة لاكبر العائلة سنا وهكذا اصبح الأمر بها الى هذا الوقت .

صحة نسب آل الشيبى

وقد ذكر الشيخ باسلامه ان بعض من يضمر السوء لآل الشيبي ادعوا فى أوقات مختلفة انقطاع نسبهم محاولين بذلك سلب الحجابة منهم وأورد من البراهين مايثبت هذه الاكاذيب والافتراءات فقال .

إن سدنة الكعبة المعظمة من اجلّ وأعظم الوظائف التى يتنافس المتنافسون عليها بل أشد المتنافسين عليها الملوك والسلاطين فلو ان الأمر كما قاله ذلك المفترى بان نسبهم قد انقطع فى زمن هشام بن عبدالملك فلماذا ترك المنافسون هذه الوظيفة للمنتسبين لآل الشيبي بدون ان يستلبوها منهم كما استلبوا كثيرا من الوظائف التى هى اقل مكانة وسؤددا وفخارا؟ هل هنا قوة قاهرة تمنعهم غير قوة القاهر فوق عباده الى آخر ماقال . «١»

١- «٣٠١ - ٣٤٦ تاريخ الكعبة المعظمة»

هـدايا الكعبة

كانت الهـدايـا الثمينـة ترسـل الى الكعبة فى مختلف العصور وأول ما ورد ذكر ذلـك حين حفـر عبـد المطلب لبئـر زمزم فوجد فيها غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا كثيرة قيل ان الذى أهداها للكعبة ساسان بن بابل وقيل انها كانت لجرهم وروي كذلـك ان كعب بن لؤى القـرشي أول من جعـل فى الكعبـة السيـوف المحـلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة هذا ماكان من أمر هدايا الكعبة قبل الاسلام .

الهدايا فى الاسـلام

ذكـر الأزرقي روايـة عن الـواقـدى عن أشيـاخـه قال، لما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنـه مدائن كسـرى كان مما بعث به اليـه هلالان فبعث بهما فعلقهـما فى الكعبـة . أقـول ولانجـد فى كتب السـير والتـواريـخ الموثوقة ذكرا لهذا الأمر وهو مما يستبعد على الخليفة الراشد عمر بن الخطاب فلقد كان حريصا على قسمة الفيء بين المسلمين مهما بلغ ثمنه ومهما كانت محتوياته ثمينة والله اعلم .

ونذكر هنا بعض هدايا الكعبة كما اوردها المؤلف :

بعث عبـد الملك بن مروان الشمسيتـين وقـدحين من قواريـر وضـرب على الاسطوانه الوسطى بالذهب من اسفلها الى اعلاها صفايح .

وبعث الوليد بن عبدالملك بقدحين .

اقول ولابد ان هذه الاقداح التى بعثها عبدالملك بن مروان وابنه الوليد من القوارير الثمينة النادرة .

وبعث الوليد بن يزيد بالسرير الزيني وبهلالين كتب عليهما اسمه وذلك فى سنة احدى ومائة .

وبعث ابوالعباس السفاح أول الخلفاء العباسين بالصفحة الخضراء .

وبعث ابوجعفر المنصور بالقارورة الفرعونية .

يقول المؤلف وكل هذا معلق فى البيت .

وفى سنة مائة وست وثمانين وضع الخليفة هارون الرشيد قصبتين علقهما مع المعاليق وفيهما بيعة محمد وعبدالله ابنيه وماعقد لهما وما اخذ عليهما من العهود .

وبعث المأمون بالياقوتة التى كانت تعلق فى كل سنة فى وجه الكعبة فى الموسم بسلسلة من الذهب .

وبعث المتوكل بشمسة عملها من ذهب تعلق فى وجه الكعبة كل موسم .

ملك التبت يرسل سريره وصنمه

ذكر الازرقي رواية عن سعيد بن يحي البلخي قال: اسلم ملك من ملوك التبت وكان له صنم من ذهب يعبده فى صورة انسان وكان على رأس الصنم تاج من الذهب مكلل بخرز الجوهر والياقوت الأحمر والاخضر والزبرجد وكان على سرير من الفضة مربع مرتفع عن الأرض على قوائم وكان على السرير فرشة الديباج وعلى اطراف السرير ازرار من ذهب وفضة مرخاة والازرار قدر الكرين فى وجه السرير.

فلما اسلم ذلك الملك اهدى السرير والصنم الى الكعبة فبعث به الى امير المؤمنين هدية للكعبة والمأمون يومئذ بمرو من خراسان فبعث به المأمون الى الحسن بن سهل بواسط وامره ان يبعث به الى الكعبة فبعث به مع نصير بن إبراهيم الاعجمي وهو من أهل بلخ فقدم به الى مكة فى سنة ٢٠١ وحج بالناس تلك

السنة اسحق بن موسى بن عيسى بن موسى فلما صدر الناس من منى نصب ابن ابراهيم السرير وماعليه من الفرشة والصنم فى وسط رحبة عمر بن الخطاب بين الصفا والمروة فمكث ثلاثة أيام منصوبا ومعه لوح من فضة مكتوب فيه «بسم الله الرحمن الرحيم».

هذا سرير فلان بن فلان ملك التبت اسلم وبعث بهذا السرير هدية الى الكعبة فاحمدوا الله الذى هداه الى الاسلام.

وكان يقف على السرير محمد بن سعيد ابن اخت نصير الاعجمي فيقرأه على الناس بكرة وعشية ويحمدوا الله الذى هدى هذا الملك الى الاسلام. ثم دفع السرير والصنم الى الحجبة آل الشيبي وأشهد عليهم بقبضة فجعلوه فى خزانة الكعبة فى دار شيبة ابن عثمان.

وكيل أمير مكة يأخذ السرير والصنم ويسكه دراهم

بقي هذا السرير والصنم والتاج الذى اهداه ملك التبت فى خزانة الكعبة عاما كاملا ثم استولى عليه يزيد بن محمد وكيل أمير مكة حمدون ابن علي بن عيسى بن ماهان الذى استخلف يزيد على امارة مكة حين خرج الى اليمن، قالوا واقبل إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي الى مكة مقبلا من اليمن فسمع يزيد بامره فخندق على مكة وسكها بالبنيان من انقابها وارسل الى الحجبة فاخذ السرير وماعليه فاستعان به على حربه، وقال أمير المؤمنين يخلف لها وضربه دنانير ودراهم وذلك فى سنة ٢٠٢ وبقى التارج واللوح فى الكعبة الى اليوم - يعنى فى عصر الازرقي.

اهداء الجواهر الى الكعبة

قالوا واهدي الى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد وبالماس وياقوته خضراء وزنها اربعة وعشرين مثقالا ودفعت هذه الهدية الى الحجبة فكتبوا فى أمرها إلى أمير المؤمنين المعتمد على الله، واخذوا الدرة وأخرجوها وجعلوها فى سلسلة من

ذهب في وسط الطوق مقابلة الياقوت والزمرد وجاء الكتاب من المعتمد بتعليقها مع معاليق الكعبة في سنة ٢٥٩ .

تعليق بيعة أبناء الخلفاء

وكما اودع الرشيد بيعة الأمين والمأمون وعلقهما في الكعبة فقد أودع المعتمد قصبة من فضة فيها بيعة ابنه جعفر بن المعتمد وبيعة أبي أحمد الموفق .

اهـــــداء القناديل الكعبة

وبعث المطيع العباسي قناديل للكعبة من الفضة ومعها قنديل من الذهب زنته ستمائة مثقال وذلك في سنة ٣٥٩ . وفي سنة ٤٢٠ أهدى صاحب عمان الى الكعبة قناديل ومحاريب مبنية زنة المحراب منها اكثر من قنطار وسمرت المحاريب في الكعبة مما يلي بابها .

وفي سنــة ٦٣٢ اهـدى للكعبـة المنصـور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن قناديل ذهب وفضة وفي سنة ٧١٨ بعث الوزير على شاه وزير السلطان أبي سعيد بن خدا بنــده ملك التــتر على يد الحــاج مولا واح حلقتــان مرصعتــان باللؤ لؤ والبلخش وكل حلقة زنتها الف مثقال وفي كل حلقة ست لؤ لؤ ات فاخرات وبينهما ستـة قطـع بلخش فاخـر ولمـا اراد تعليق ذلـك ببـاب الكعبـة منعه بن أمير الركب المصـرى في ذلـك العـام وقـال لابد من الاذن بذلك من السلطان الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الوزير علي شاه المذكور قد نذر ان ظفر بخواجه رشيد الدولة وقتله ان يعلق على باب الكعبة معلقتين ، وقيل أن أمير الركب المصرى اذن لمولا واح هذا بتعليق الحلقتـين زمنـا قليـلا ثم رفعتـا واخـذهما اذ ذاك رميثـة بن ابي نمي من آل قتادة .

واهدى السلطان شيخ ادريس صاحب بغداد في سنة ٧٧٠ أربعة قناديل حجم كل قنديل منها مثل الدورق المكي اثنان منها من الذهب واثنان من الفضة وعلقت في

الكعبة فترة من الزمن ثم اخذها أمير مكة عجلان بن رميثه .

أين ذهبت هدايا الكعبة

قال التقي الفاسي ، وأهدى بعد ذلك للكعبة قناديل كثيرة والذى فى الكعبة الآن من المعاليق ستة عشر قنديلا منها ثلاثة فضة وواحد ذهب وواحد بلور واثنان نحاس والباقى زجاج حلبي وهى تسعة وليس فى الكعبة الآن شيء من المعاليق التى ذكرها الأزرقي ولاما لم يذكره مما ذكرناه سوى الستة عشر قنديلا وليس فيها شيء من حلق الذهب والفضة التى كانت فى اساطينها وجدارنها بسبب توالى الايدى عليه من الولاة وغيرهم على ماذكره الأزرقى فى تاريخة ووقع ذلك بعده ايضا .

اقول ولعلم القارىء فان التقى الفاسي من رجال القرن التاسع للهجرة وقد توفى عام ٨٣٢ هـ

الذين اخذوا أموال الكعبة

ذكر ابن فهد القرشي فى كتابه اتحاف الورى فى حوادث سنة ٢٠٠ ، قال وفى أول ايام المحرم بعدما تفرق الناس من مكة جلس الحسن بن الحسين الافطس خلف المقام على نمرقة مثنية وامر بالكعبة فجردها حتى بقيت حجارة مجردة ثم كساها كسوتين انفذهما أبوالسرايا من الكوفة من قز رقيق أحدهما صفراء والاخرى بيضاء مكتوب عليها :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وأهل بيته الطيبين الأخيار أمر أبو السرايا الأصفر بن الأصفر داعية آل محمد صلى الله عليه وسلم بعمل هذه الكسوة لبيت الله الحرام وان يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب فى سنة تسع وتسعين ومائة» .

علق الافطس هذه الكسوة التى وصف فيها ولد العباس بالظلم على الكعبة ، ثم اخذ مافى خزانة الكعبة وكان مالا عظيما نقله اليه ، وقال ماتصنع الكعبة بهذا

المال موضوعا لاينتفع به نحن احق به نستعين به وقسم المال مع كسوة الكعبة على اصحابه .

وفى سنة مائتين وواحد وخمسين اخذ إسماعيل بن إبراهيم الحسني مافى الكعبة من الذهب وما فى خزانتها من الذهب والفضة والطيب والكسوة ، يقول ابن فهد وذلك عقب فتنة عظيمة وقعت فى مكة .

وفى سنة ٤٦٢ قطع أمير مكة أبوهاشم محمد بن جعفر المعروف بابن ابي هاشم الحسن خطبة المستنصر العبيدى صاحب مصر واخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب لما لم يصله شيء من جهة المستنصر العبيدى واعاد الخطبة لبني العباس بعد قطعها من الحجاز نحو مائة سنة وخطب للخليفة القائم بأمر الله ثم للسلطان عَضد الدولة .

وفى سنة ٥٨٦ اخذ أمير مكة داود بن عيسى بن فليته ما فى الكعبة من أموال وطوقا كان يمسك الحجر.

هدية السلطان مراد

قال قطب الدين فى الاعلام : أرسل السلطان مراد سنة ٩٨٤ ثلاثة قناديل من ذهب مرصعة بالجواهر لتعلق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى والثالث فى الحجرة النبوية الشريفة فعلقا فى الكعبة وهو أول من علق الذهب فى الحرمين الشريفين من آل عثمان .

هدية ملكة بندر آشي

وقال الطبري المكي فى الاتحاف : ارسلت ملكة بندر آشي خمسة قناديل ذهب للكعبة فى إمارة الشريف سعيد ابي بركات سنة ١٠٩٤ فعلقت بها .

أقول وبندر آشي أوجزيرة آشى هى من جزر جاوا التى تسمى فى الوقت الحاضر اندونيسيا .

الهدايا المعلقة فى الكعبة

يقول الشيخ باسلامه ويوجد الآن معاليق كثيرة فى سقف الكعبة غير اني لا أعلم عن حقيقتها هل هى معمولة من ذهب او فضة أو نحاس كما ان آل الشيبي سدنة الكعبة المعظمة لايعلمون بالضبط عن حقيقتها لقدم تعليقها ولعدم تعهدهم لها بالتمسيح والتنظيف اجيالا .

ثم يقول الشيخ باسلامه : وربما انها من عهد بناء الكعبة الاخير الى الآن لم تنقل من موضعها ولذلك تعذر علي ان اصفها وصفا صحيحا والله اعلم بحقيقتها (١)

تطيـــب الكعبـــة

ذكر التقي الفاسي فى شفاء الغرام نقلا عن الأزرقي انه روى عن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها انها قالت / طيبوا البيت فان ذلك تطهيره ، وروى عنها أيضا انها قالت : لأن أطيب الكعبة أحب إلي من أن أهدى لها ذهبا وفضة .

وقد ذكرنا أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أجرى للكعبة وظيفة الطيب لكل صلاة وكان يبعث لها بالمجمر والخلوق فى الموسم وفى رجب وأخدمها العبيد وتبعه فى ذلك الولاة (٢)

وكان عبدالله بن الزبير يجمر الكعبة كل يوم برطل من مجمر ويجمر الكعبة كل جمعة برطلين وقد طيب الخليفة العباسى محمد المهدى الكعبة بالغالية والمسك والعنبر ، وكان الملوك والسلاطين يرسلون الى الكعبة بأجود أنواع الطيب والبخور ولما صارت ولاية البيت لسلاطين آل عثمان صار الطيب والبخور يرسل الى الكعبة من القسطنطينية سنويا ضمن المرتبات التى خصصت للحرمين الشريفين ، وفى عهد الشريف الملك الحسين بن علي خصص مبلغ من المال يصرف لرئيس السدنة

١- «٢٠٩/٢١٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

٢ - المجمر مايتجمر به وهو عود الرطب لعله بخور العود المعروف فى هذه الأيام والخلوق طيب يتخذ من الزعفران وغيره من أنواع الطيب ويغلب عليه الصفرة والحمرة .

من من خزينة المالية برسم الطيب مع ماهو مخصص لها لغسيل الكعبة . وقد استمر الحال على ذلك فى العصر الحاضر كما يقول الشيخ باسلامة . (١)

خـــــدام الكعبة واغوات الحـــرم

ذكرنا أن أول من رتب العبيد لخدمة الكعبة معاوية بن أبي سفيان ثم تبعه الولاة فى ذلك الى العصر الحاضر يقول الشيخ باسلامه .

والقائمون بخدمة الكعبة الآن هم الأغوات وليسوا مماليك لاحد بل هم احرار قد اعتقـوا من قبـل أوليـائهم ولهم مرتبـات شهرية تصرف من خزينة الدولة . ولهم ادارة خاصـــة ورئيسهم منهم وقـد جرى العرف بينهم ان يكـون رئيسهم اقـدمهم خدمة ولهم بيت مال خاص بهم ويتوارثون بعضهم بعضا . ووظائفهم منحصرة فى تنظيف المطـاف ، وحجـر إسـماعيـل ومقام إبراهيم والفرش الحجرى المحيط بمدار المطاف الذى عليه مقامات الائمة ولهم وظائف أخرى مثل وضع الشماعدين على باب الكعبـة من الغـروب الى بعـد صلاة العشـاء ومن طلوع الفجـر الى الاسفار وكانوا قبل دخول الكهرباء بالمسجد الحرام يضيئون القناديل التى على الاساطين المحاطة بصحن المطاف والمقامات الأربعة .

ولهم نظـام خاص فى تسلسـل الـوظائف يسير ون عليه من أقدم الأزمان ونوجز هذه الوظائف فيما يلي :

حينما يبدأ الأغا العمل فى الخدمة يسمى نفر ويستمر فى ذلك ثم يرقى بالتسلسل حتى يصل الى وظيفة شيخ المفتاح وهذه الوظيفة هى أمانة مفاتيح غرف الادوات من شماعدين وأوانى تنظيف المطاف والحجر وأطراف الكعبة وغير ذلك . ثم يرقى الى وظيفة (دوز ورى) وهى مراقبة الأغوات حال قيامهم بتنظيف الصحن وماحوله ، ثم يرقى الى رتبـة ضابـط ويسمى ضابـط أول ويـدخل فى سلك البطالين ووظيفة البطـالـين كنس مدار المطـاف ومـايتبعه مع حجر إسماعيل وتنظيم صفوف المصلين

١- «٣٦٢ - ٢٦٣ تاريخ الكعبة المعظمة»

داخل الصحن والفرش الحجر المحيط بالصحن الذى عليه مقامات الائمة فقط. ثم يرقى الى رتبة (خبزى) وهؤلاء الخبزية لايتجاوز عددهم أحد عشر نفرا على الدوام فإذا مات أحدهم ارتقى الى وظيفة اقدم البطالين خدمة ثم يرقى من الخبزيه فيبلغ وظيفة بيت المال الخاص لهم ثم يرقى الى نقيب ثم يرقى الى وظيفة شيخ الأغوات اذا خلت الوظيفة بوفاة الشيخ السابق. (١)

غســـــل داخل الكعبة

أول من غسل الكعبة هو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوم فتح مكة، وذلك بعد ازالة الاصنام ومعالم الشرك التى كانت فيها، يقول مؤلف الكتاب فتجرد المسلمون فى الازر واخذوا الدلاء وارتجزوا على زمزم وغسلوا الكعبة ظاهرها وباطنها فلم يدعوا اثرا من آثار المشركين الا غسلوه ومحوه.

وقد صار غسيل الكعبة عادة جارية وسنة متبعة من عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾ الى العهد الحاضر. وتغسل الكعبة كما يقول المؤلف مرتين فى العام مرة قبيل الحج ومرة فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول.

أقول والذى اعرفه ان موعد الغسيل الثانى للكعبة هو فى شهر رجب من كل عام، ويتم غسل أرض الكعبة وجدرها الى ارتفاع قامة الانسان بماء الورد الممزوج بماء زمزم وتطيب جدران الكعبة بعطر العود كما تجمر الكعبة بالعود والند والعنبر، بعد تجفيف ارضيتها ويحضر عادة الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة والاعيان لغسيل الكعبة ويشاركون فيها تبركا مع رئيس الحجبة والمسئولين عن شئون المسجد الحرام ولاتزال هذه العادة سنة متبعة حتى هذا اليوم. (٢)

سرقة مفتاح الكعبة

جاء فى تاريخ السنجارى ان سادن البيت الشيخ عبدالرحمن الشيبي فتح الكعبة

١- «٣٦٣ - ٣٦٥ تاريخ الكعبة المعظمة».

٢-«٣٦٥ - ٣٦٧ تاريخ الكعبة المعظمة»

للنساء فى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسعمائة وست وسبعين على ماجرت به العادة فى ذلك الزمان فسرق مفتاح الكعبة من حجره وهو مصفح بالذهب. يقول السنجارى فوقعت الضجة واغلقت ابواب الحرم وفتشت الناس فلم يظفروا بالمفتاح.

قال السنجارى ثم وجده سنان باشا باليمن مع رجل أعجمي فاخذ الرجل وكبست داره فوجد عنده المفتاح وغيره من السرقات التى اقر بها فقطع رأسه وأعيد المفتاح إلى السادن.

اشتعال ثوب الكعبة

ذكر الشيخ باسلامه أن حريقا وقع فى ثوب الكعبة فى يوم الثالث والعشرين من شهر شعبان سنة ١٣٤٤ اثناء الحرب التى وقعت بين الشريف الحسين بن علي والجنود الاتراك المحاصرين فى قلعة اجياد بمكة المكرمة بعد أن أعلن الشريف الحسين نفسه ملكا على الحجاز وانفصل عن دولة الخلافة العثمانية.

وكان الجنود الأتراك يطلقون القنابل من مدافعهم باتجاه المسجد الحرام لان رجال الحسين كانوا يحتلون الدور المجاورة للمسجد الحرام، وبعضهم اتخذ من منائر المسجد الحرام مكانا يطلقون منه نيران بنادقهم على قلعة اجياد. وكانت القنابل التى يقذفها الاتراك تصيب قباب المسجد الحرام وخاصة فى باب الزيادة وباب أم هانىء.

وقد وقعت شظية من احدى القذائف على الكعبة المعظمة من الجهة الجنوبية قريبا من سطح الكعبة واشتعلت النار فى ثوب الكعبة قرب الحجر الأسود وقد فزع الناس لذلك فزعا شديدا وتجمعوا فى المسجد الحرام من كافة اطراف مكة فسارع ساذن البيت الشيخ محمد صالح شيبي بإرسال ابنه محمد ففتح الكعبة وصعد الناس فاطفأوا النار فى لحظة. (١)

هذا الحديث الطويل عن الكعبة المعظمة هو الخلاصة لكتاب الشيخ حسين

١- «٣٧٨ - ٣٨٢ تاريخ الكعبة المعظمة»

عبدالله باسلامه تاريخ الكعبة المعظمة الصادر فى سنة ألف وثلاثمائة وأربع وخمسين قبل مايقرب من نصف قرن، وهو من أهم الكتب فى موضوعه وهويمتاز بأنه قد جمع كلما كتب عن الكعبة المعظمة فى كتاب واحد يجعل القارىء ملما بتاريخها منذ فجر التاريخ وربما قبل ذلك حتى اليوم.

والكتاب هام ومفيد لانه يؤرخ لاقدس بيت لله على سطح الأرض ومفيد بما احتواه من الحقائق التاريخية كما انه لايخلو من الحوادث الطريفة عبر هذه القرون الطويلة.

وهو كما ذكرنا مكمل لكتاب الشيخ باسلامة الذى تحدثنا عنه قبل تاريخ عمارة المسجد الحرام ومن المعلوم ان للشيخ باسلامة مؤلفات كثيرة ذكرها الشيخ محمد نصيف فى ترجمته(١) ولكنى أود أن أذكر أنه لو لم يكن للشيخ باسلامه سوى هذين الكتابين اللذين تحدثت عنهما لكان ذلك جديرا بتسجيل اسمه بين الأعلام من المؤرخين فى هذا المجال.

ذكرياتي عن الشيخ حسين باسلامه

سمعت باسم الشيخ حسين باسلامه لأول مرة حينما ثارت المعركة الأدبية بينه وبين الاستاذ محمد حسن عواد على صفحات جريدة صوت الحجاز فى الخمسينات من القرن الهجرى الماضي إن لم تخني الذاكرة على أثر ظهور كتاب الشيخ حسن باسلامة تاريخ النهضة الاسلامية مع العلم والمدنية كان العواد(٢) رحمه الله قد انتقد هذا الكتاب حين ظهوره واجاب عليه المؤلف الشيخ حسين باسلامه وثارت بين الرجلين معركة عظيمة استمرت زمنا طويلا وشغل بها الناس، ولعل العواد وهو المجدد فى الأدب كان ينظر الى الشيخ باسلامه على انه من الطبقة التى تسلك نهج القدامى من المؤرخين فى الأسلوب والتعبير، وليس هذا مجال

---

١ ـ انظر هذه الترجمة فى كتاب تاريخ عمارة المسجد الحرام

٢ ـ انظر ترجمة محمد حسن عواد فى كتابنا اعلام الحجاز.

الحكم بين الرجلين فكلاهما قد غادر هذه الحياة الدنيا إلى رحاب الله الذى نسأله لهما الرحمة والغفران.

وقد رأيت الشيخ باسلامه حينما انتقلت الى مكة المكرمة بها وكنت من المواظبين على ارتياد المكتبات بباب السلام وكان هو يحضر لزيارة الاستاذ عبدالله فدا رحمه الله وهو أديب وصاحب مكتبة فكنت أراه فى الأصائل يجلس فى مكتبة الفدا ويتجاذبان أطراف الحديث.

ثم رأيت الشيخ باسلامه مع أعضاء مجلس الشورى فى جلسة طويلة دعى فيها الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله أعضاء المجلس جميعا الى عشاء فى بستانه بالطائف وكانت هذه الجلسة حافلة بالطرائف التى كانت تحفل بها مجالس الاعيان والافاضل من المكيين وكان مما يدور فيها ويتندر به الحاضرون أن أحدهم ينشد بيتا من الشعر فينشد الثانى بيتا يبدأ بالحرف الأخير من البيت الأول وينشد الثالث بيتا يبدأ بالحرف الأخير من انشاد الثانى وهكذا حتى يكتمل الأنشاد من قبل الحاضرين جميعا فى المجلس ولتمثيل هذه المجالس للقارىء نفترض ان أول من ابتدأ الانشاد أنشد البيت الآتى:

عيون المهابين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

فينشد الثانى بيتا يبدأ بالراء المكسورة فيقول مثلا:

ريم على القاع بين البان والعلم أحلّ سفك دمى فى الأشهر الحرم

فينشد الثالث بيتا يبدأ بالميم فيقول:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وهكذا يستمر الحاضرون فى الأنشاد دون توقف والا تحول الإنشاد الى التالى وهكذا كان يتخلل هذه الجلسات الكثير من المرح والطرائف فإذا انتهى الانشاد اختاروا حرفا من الحروف وبدأوا بالسؤ ال عن اسم مدينة مثلا يبدأ بهذا الحرف ولنفترض ان هذا الحرف هو الألف فتذكر اسم المدينة (الطائف ـ فيسئل مثلا ماهى ميزتها؟ فيجيب ارتفاعها ثم يسئل من تعرف فيها؟ فيكون الجواب مثلا

أميرها؟ ثم يسئل مالذى يعجبك فيها؟ فتقول اعنابها؟ وهكذا يمضى المجلس فى هذه الندوة الطريفة وكثيرا مايعجز المجيب عن الاجابة بنفس الحرف فيضطر الى ان يجيب إجابة مضحكة يتندر عليه السامرون.

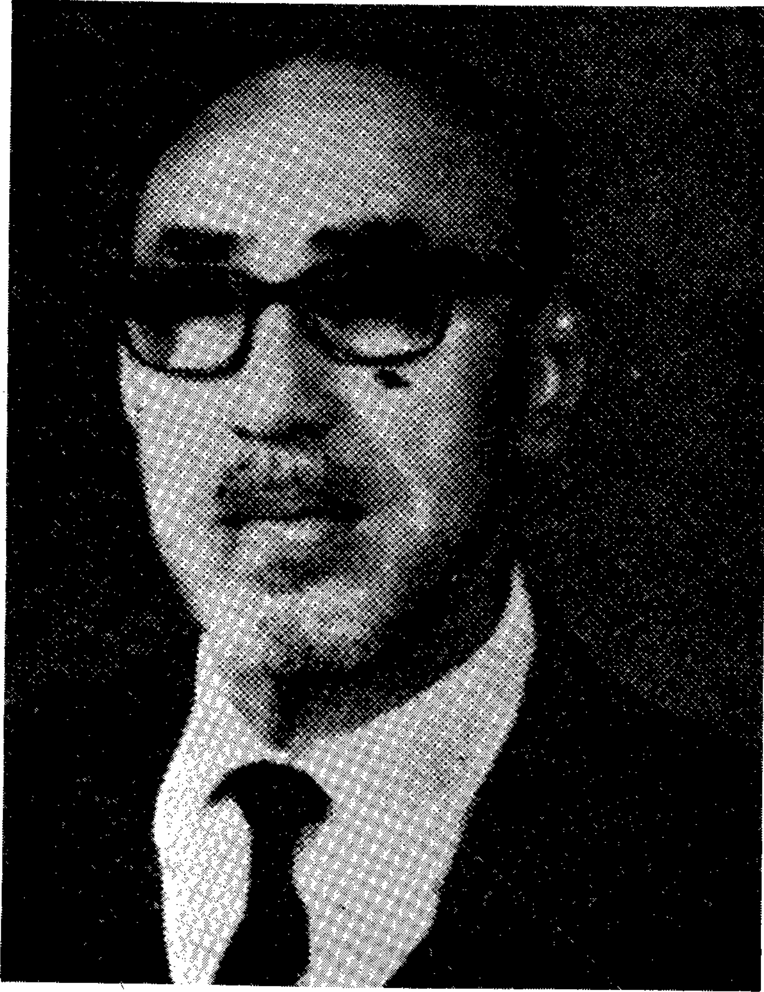
أقول رأيت الشيخ حسين باسلامه رحمه الله فى هذا المجلس وكان بعض الحاضرين يلح عليه فى الاسئلة وكان يجيب ببديهة حاضرة وظرف وجرأة وكان يشاركه تلك الصفة تلك اللية المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوى وكان سكرتيرا لمجلس الشورى رحم الله الجميع فلعل كل من حضر تلك الجلسة قد صاروا إلى رحاب الله تعالى فقد مضى عليها مايقرب من نصف قرن من الزمان.

توفى الشيخ حسين باسلامه فى عام ١٣٥٩ للهجرة كان قد فارق هذه الحياة الدنيا فقد ابقى له ذكرا خالدا فى مؤلفاته التى تحدثنا عن اهمها هذا الحديث الطويل الذى يستحقه كتاباه تاريخ عمارة المسجد الحرام وتاريخ الكعبة المعظمة.

رحم الله الشيخ حسين باسلامه واجزل جزاءه فى دار الخلد لقاء مابذل من جهد فى سبيل العلم النافع المفيد.



• حمزة شحاته •



حمزة شحاتة

طويـل القـامة ممتلىء الجسم أسمر اللون اقنى الأنف واسع العينين يضع على عينيـه نظـارة طبيـة وهـو لايستطيـع الرؤ ية بدون هذه النظارة أصلع الرأس، تزين وجهـه لحيـة صغـيرة، حليق العـارضـين، جسيم وسيم متنـاسق الأعضاء له قامة رياضية، عرفته فى النصف الثانى من الأربعينات وكان يرتدى الثوب القصير وتحته السروال الطويل الذى يشبه البنطلون، وهذا هو زى الشباب الذين عاشوا فى الهند يتعلمون اويعلمون (١) وكان حمزه واحدا منهم كما سيأتى بعد. وفوق الثوب يرتدى الكوت الطويل ويضع على رأسه كوفية حجازية ويضع الشال على كتفيه اويعتم به اتقاء للشمس، وعلى اى حال فقد كانت له هيئة متميزة فى ملابسه، وكان انيق الملبس دائـما يختـار الألـوان الهـادئة والاقمشة الجيدة، واذكر ان استاذا مصريا كان يعمل فى المدرسة السعودية الابتدائية فى جدة اجتمع به مرة فوصفه لأحد اصدقائنا قائلا ـ الافندى اللي هيأته كويسة ـ وذلك تمييزا له عن الآخرين وربما لم يكن يعرف اسمـه، وعلى اى حال فان حمزه اصبـح فيـما بعـد يرتـدى العبـاءة العربية والعقال خاصة بعد ان عمل موظفا فى وزارة المالية بمكة المكرمة، ومديرا للنقليات الحكومية

---

١ ـ انظر تفصيل ماكتبناه عن الأزياء فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

فى عهد معالي وزير المالية الأسبق الشيخ عبدالله السليمان يرحمه الله .

ولـد بمكـة فى سنة ١٣٢٨ هـ وتلقى مبـادىء تعليمـه بها أولا ، ثم فى مدرسة الفلاح بجدة وكان الشيخ عبدالرؤوف جمجوم عميد آل الجمجوم (١) قد سافر الى مكـة وكـانت تربطـه بعـلي شحـاتـه ومحمد نور شحاته اشقاء حمزه صلات صداقة وعمـل ، وحينـما انتقـل آل شحـاتـه الى مدينـة جدة كان بيتهم ملاصقـا لبيت الجمجـوم ، وكـان الشيخ عبدالرؤوف يعنى عناية خاصة بالغلام حمزه شحاته رحمه الله حتى انه كلف احدى بناته بالعناية بحمزه ومذاكرة دروسه فكان يقضي أوقات فراغـه كلهـا بدار آل الجمجـوم ، واتم حمزه دراستـه فى مدرسـة الفلاح وكانت مدة الدراسة بها ست سنـوات ، وقد ادركته وهو طالب فى آخر مراحل الدراسة بالفلاح وانـا مبتـدىء بها ثم سافـر إلى الهنـد ليعمـل فى دار آل زينـل هنـاك وأقام فى مدينة بومبـاي عدة سنـوات ثم عاد بعـد انتهـاء الحـرب السعودية الهاشمية ليتسلم أولى وظـائفـه الحكـوميـة سكـرتـيرا للمجلس التجـارى بجده الذى كان يرأسه الشيخ سليـمان قابـل(٢) لم تطـل مدة عمل حمزه يرحمه الله بالمجلس التجارى فقد كان من النمط القلق الذى لايستطيع الاستمرار، وكانت طموحاته وتطلعاته تدفعه الى التغيير .

وقـد جاء هذا التغيـير بالحـاح من أخيـه المـرحوم الشيخ محمد نور شحاته الذى اسس شركـة للنقـل بالسيـارات فى أوائـل العهـد السعودى تعمل بين مكة المكرمة والمـدينـة المنـورة لنقـل الحجـاج وكـانت هذه الشركة تسمى شركة السلام (٣) وقد اخـبر ني حمزه انـه أضطـر مرة إلى قيـادة السيارة اللورى من جدة إلى المدينة المنورة والعودة بها بعد ان لاقت شركتهم كما لاقت غيرها من الشركات المصاعب الكثيرة

---

١ ـ انظر ترجمته فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ١٠١ ـ ١١٠ ج أول .

٢ ـ انظر ترجمته فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ٥٥ ـ ٦٢ ج أول .

٣ ـ انظر ماكتبناه من شركات السيارات فى ترجمة الشيخ محمد صالح ابوزنادة فى كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة صفحة ٢٣٩/٢٤٢ الجزء الأول .

من السـائقـين الأجـانب الذين كانوا يتولون قيادة تلك السيارات . . ومالبثت هذه الشركة ان انضمت كما انضم غيرها من الشركات الى الشركة العربية للسيارات، ولكن محمد نور وحمزه شحاته كانا قد عملا فى استيراد وبيع قطع الغيار للسيارات وفى هذا العمل بالذات اتصلت اسبابي باسباب حمزه شحاته يرحمه الله فى النصف الثانى من الأربيعينـات فى جدة، حيث كنت اعمـل فى شركـة القناعة للسيارات وكـانت تبيـع قطـع الغيـار للسيـارات كما تبيـع المحـروقـات والاطـارات الخـاصة بالسيارات وبحكم تجانس العمل كان يزورنا الشيخ محمد نور شحاته وكذلك حمزة فاتصلت اسبابي باسبابه وتوثقت عرى الصداقة بيني وبينه.

كان حمزه نمطا فريدا من الأدباء لم يكن يشبهه غيره وكان ساحر الحديث يمتلك قلوب سامعيـه وافكـارهم وكـانت لغة حديثه اقرب الى الفصحى منها الى العامية ولكنها الفصحى المحببة التى لاتصدمك منها لفظه موحشة أو كلمة غريبة قاسيه، وكان يمزج احاديثه بالطرائف والنكات فى إسلوب اخاذ.

وكان اذا كتب لايختلف كثيرا عنه حينما يتحدث وكانت رسائله قطعا أدبية رائعة ، ولـو جمعت هذه الـرسـائـل التى كان يبعثها الى أصدقائه الكثيرين لتكونت منها مجلدات ولكانت فنا عجبا فى أدب الرسائل، وقد جمعت ابنته شيرين الرسائل التى كان يرسلها اليها واصدرتها فى كتاب يحمل هذا العنوان - الى ابنتي شيرين - وحسنا فعلت السيدة شيرين بجمعها لهذه الرسائل وحسنا فعلت تهامة بطبعها ونشرها بين الناس.

ان هذه الـرسـائـل تمثـل فترة من حيـاة حمزه شحـاته هى لعلها فترة الكهولة فى حيـاتـه ولـو جمعت كل الـرسـائـل التى كتبهـا فى صدر شبـابـه ورجولته لرأينا فيها (العجبُ العـاجب)، فلقـد كان حمزه أحسن من يعبر عن عواطفه وخواجه، ولقد كان يكتب الي كما كان يكتب الى قنديل، وإلى عزيز ضياء، والى عبدالله عريف والى محمـد عمـر توفيق وإلى الأخ الشيـخ محمـد نور جمجـوم وإلى غيرهم من أصدقائه الكثيرين، وبالنسبة لرسائله الي فاني فقدتها كلها، فقدت بين الكثير من

أوراقي الضائعة، ولعلها تكون موجودة بين ركام الأوراق الكثيرة التى لااستطيع فرزها والتى لاأعرف مكانها، على أي حال كان حمزه فريدا فى أحاديثه وفريدا فى رسائله (لايشابهه أحد)، ولا يشبه أحدا فهو صاحب اسلوب خاص فى الحديث وفى الكتابة على سواء. توثقت الصلة بينى وبينه عقودا من السنين فكنت القاه أصيل كل يوم وصدر كل مساء حينما كان بجدة ولكن حمزه مالبث أن غاب عن جده مرتين، مرة بدون اختيار منه والمرة الثانية باختياره.

أما المرة الأولى فقد كان أحد المعتقلين الذين رحلوا إلى الرياض فى أوائل الخمسينات وكان من بينهم الكثير من شباب مكة وجده أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأساتذه محمد حسن عواد، وعبدالوهاب آشي، والشيخ سليمان أبو داود، والشريف محمد مهنا وعبدالعزيز جميل وغيرهم، وعلى أى حال فإن التحفظ على هذا الفريق من الناس كان من باب الاحتياط فما لبث جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ان اطلقهم، وقد روى لي المرحوم الشيخ إبراهيم السليمان ابن عقيل رئيس ديوان النائب العام لجلالة الملك فى الحجاز فى تلك الأيام رواية طريفة اذكرها هنا للتاريخ.

قال: كان صاحب السمو الملكي الأمير فيصل - جلالة الملك فيصل فيما بعد - فى زيارة والده المغفور له جلالة الملك عبدالعزيز فى الرياض، وحينما قرب موعد عودته الى الحجاز وكان لايستطيع العودة الا إذا أذن له الملك عبدالعزيز رحمه الله، وكان هذا الاذن يصدر ابتداء من الملك عبدالعزيز بمعنى أن آداب الأسرة المالكة لم تكن تسمح لمن يرغب فى السفر أن يستأذن الملك فيه، وانما يصدر الأذن من الملك نفسه حينما يرى أن المدة التى قضاها الزائر فى الرياض قد تمت وأن عليه أن يعود الى عمله بالحجاز.

قال الشيخ إبراهيم: قال جلالة الملك عبدالعزيز لسمو الأمير فيصل، يمكنك الآن أن تعود الى الحجاز فقد طال غيابك عنه.

قال سمو الأمير فيصل، ولكن كيف أعود إلى الحجاز وكثير من أهل الحجاز هنا

فى المصمـك؟(١) هنـاك أمـر جلالة الملك عبدالعزيز بإطلاق سراحهم فوصلوا إلى الحجاز قبل عودة سمو الأمير فيصل اليها رحمه الله.

عاد حمزه من الرياض إلى مكة وبقي بها بعض الوقت وكتبنا له مهنئين وجاءتنا رسـائله بنفس الأسلوب السـاحـر الساخر، لم يؤ ثر النفي فى نفسه وعلمت أنه كان يقوم فى بعض الأحيان بطبخ الطعام لزملائه فى المصمك وكان حمزه من اكثر الناس إجادة فى صنع الطعام وتذوقه يرحمه الله.

هذه هي المرة الأولى التى غادر فيها جدة مختارا بعد أن عرفته ولكنه لم يلبث أن عاد اليها أما المرة الثانية فقد ذهب إلى مكة للعمل سكرتيرا للشيخ محمد سرور الصبان بطلب منه.

وكان حمزه كما ذكرت لايطيق البقاء فى عمل واحد حتى ولو كان هذا هو العمل التجاري الذى يمتلكه هووأخوه، ولعل خلافا دب بين الأخوين رأى حمزه معه أن يترك عمله التجارى ليعمل سكرتيرا خاصا للشيخ محمد سرور الصبان، وقد بقي حمزة فى هذا العمـل عامـا واحـدا أونحو ذلك إن لم تخني الذاكرة فى تحديد الوقت. وكـان من ضمن أعـمال السكـرتـاريـة لدى الشيـخ محمـد سرور الصبـان رحمه الله الاجـابـة على عشـرات الـرسـائل التى ترد اليه يوميا من شتى أنحاء المملكة ومن مختلف طبقـات النـاس وكثـير منها يتعلق بمعاملات لهم فى وزارة المالية وفى شئون خاصـة بهم، وضـاق حمزه ذرعا بهذا العمل الروتيني فطلب من الشيخ محمد سرور اعفـاءه ولكن الشيـخ محمـد سرور لم يوافق على اعفائه ومازال حمزة يلح حتى وافق الشيـخ محمـد سرور على إجـابـة الطلب، ولكنـه ألزمه أن يختار له من يقوم بعمل السكرتارية بدلا منه، وكتب الي حمزة رحمه الله يعرض علي العمل لدى الشيخ محمد سرور فى مكـة فاعتـذرت باديء ذى بديء لان ظروفى العـائليـة لم تكن تسمـح لي بالانتقال الى مكة، وعاد حمزه الى جدة ثم طرأ ماجعلني اقبل العمل لدى الشيخ

---

١ ـ المصمـك إسم القصـر الـذى كان المسجـونـون يعتقلون فيـه فى الـرياض وللعواد فيه قطعة شعرية انظر مجموعة دواوين العواد.

محمد سرور فى مكة وانتقلت اليها وكان ذلك فى شهر ذى القعدة عام ١٣٥٥ هـ، عاد حمزة مرة أخرى للعمل مع أخيه فى جدة ولم يمض على هذه العودة الكثير من الـزمن حتى رأيت حمزة يسـافـر الى أبهـا وجيزان بصحبة المرحوم الشيخ عبدالعزيز جميل وكان يعمل هناك مديرا لماليات وجمارك جيزان وتوابعها.

كانت هذه الرحلة رحلة تفقد للمنطقة واحوالها وكان لحمزة صديق آخر فى أبها هو المرحوم طلعت وفا الذى كان مديرا لشرطة أبها والذى وصل فيها بعد الى منصب مدير الأمن العام فى مكة المكرمة.

وقضى حمزة بضعـة شهـور وهو يتنقل بين جيزان وأبها وصبيا وأبو عريش ورجال المـع ثم عاد إلى مكـة المكـرمـه يصحبـة الشيـخ عبـدالعزيز جميل الذى نقل رئيسا لماليـات وجمـارك الاحسـاء وتـوابعها، وبعد هذه العودة عهد معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية الأسبق الى حمزة بادارة سيارات النقليات الحكومية وبقي فيها بضعة شهور، ثم انتقل بعد ذلك للعمل فى ديوان المحاسبة فى وزارة المالية.

ثم ترك العمل فى وزارة المالية وعاد إلى جدة لادارة العمل التجارى مع شقيقه محمد نور، الذى مالبث أن سافر الى مصر وإستقر بها، إبان الحرب العالمية الثانية.

كان حمزة يحلم بالهجرة إلى مصر والاستقرار بها، وكان خياله الخصيب يصور له جمال الحياة على شاطىء النيل، وامكانية النجاح الاقتصادى الكبير فى أرض الكنانة.

ونسيت ان أذكـر أن حمزة جاء إلى مصـر قبـل ذلـك مريضا وكنت فى القاهرة فى تلك الأيـام، فبعث إلي من يخبر ني بوصـولـه إلى القاهرة ونزوله فى مستشفى مورو بالـدقى، وأسـرعت اليـه فوجـدته فى سرير المرض وقد أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وكنت أزوره يوميا وكان هذا فى عام ١٩٤٢ مـ خلال الحرب العالمية الثانية وترك المستشفى بعد أن تماثل للشفاء، ولكنه لم يعد إلى جدة وتزوج بإحدى الفتيـات المصـريات وبقي هناك بضعة شهور، وحينما حان أوان عودته إلى الحجاز سافر وطلب اليها أن تلحق به فيما بعد، ولكنها لم تحضر.

وكـانت ابنتـه الطفلة شير ين فى القـاهـرة فى حضانة امها هناك وكانت هي بكر أولاده من زوجته الأولى التى تزوجها فى جدة، وكان حريصا على ضمها اليه بعد ان تعذرت سبل الوفاق بينه وبين زوجته وأسرتها.

تهيأت الأسبـاب لسفـره إلى مصـر فسافر إليها مع بناته وأسرة أخيه جميعا ونزلوا أول نزولهم فى مدينة حلوان ثم استقر بهم الأمر فى القاهرة وكان هذا فى عام **١٣٦٤** هجرية وكنت هناك وكنت أرى حمزه تقريبا فى كل يوم، وكان اخوه الشيخ محمد نور قد اشـتر ى قطعـة أرض فى الـدقى وكانت البعثات السعودية تسكن فى دار مؤجرة وكـان القـائمـون على شئـون البعثـة يتمنـون لو أنهم سكنـوا فى دار مملوكـة لاحد السعـوديـين، وقـام حمزه وأخوه محمد نور ببناء دار للبعثات السعودية على جزء من الأرض المملوكـة لهما بالـدقى وأصبحت هذه الدار مقرا للبعثات السعودية ثم تعين حمزه محاسبا لادارة البعثات لبعض الوقت ولكنه مالبث أن ترك العمل فى دار البعثات.

وعاد الى مكة بناء على طلب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله تعالى ليكون أول رئيس لنقابة السيارات فى عهدها الجديد فى **١٣٧٢** هـ ولم تطل إقامته فى هذا العمل كما لم تطل فى أي عمل مارسه من قبل.

كان قلق النفس لايستقـر على حال، كانت طمـوحـاتـه تتمـرد على العمـل الـروتيني الـرتيب، وكـانت افكـاره أقـوى من واقع حياته، كانت تلك هى ضريبة العبقرية التى تتحدى القيود والأعراف.

وعـاد حمزة أخـيرا ليستقـر فى القـاهرة، وقد استشرت الخلافات بينه وبين أخيه حتى بلغت حد القطيعـة، قلت له يومـا إن وفـاقك مع اخيك وتعايشكما ملزم لكما جميعا فأنتما لم تنجبا ولداً، كل ذريتكما من البنات فاطويا صفحة الخلاف، وليضع أحدكما يده فى يد الآخر، ولكنهما كانا عنيدين.

ولقد ضعف بصر حمزة فى السنوات الأخيرة فكان اذا خرج صحبته صغرى بناته وكان قد أصيب بانفصال الشبكية، كما أصيب قبله اخوه محمد نور بها، وفقد كل

منهما بصره فى آخر حياته غفر الله لهما.

إن فقد حمزه لبصره فى آخر حياته أثر فى نفسه واستطيع ان أقول إنه أدخل الكثير من التغيير على أفكاره، ويتضح هذا فى حديثنا عن رسائله إلى ابنته شيرين.

إلى ابنتي شـــــيرين

إسم الكتاب الذى يضم ستين رسالة كتبها حمزة إلى كبرى بناته بعد أن غادرت مصر عائدة الى الحجاز اثر زواجها، وهذه الرسائل تظهر بجلاء الحب الكبير الذى يربط شيرين بأبيها فقد أصبحت له كل شىء البنت وسيدة البيت والصديقة التى يتحدث اليها ويبثها مكنون صدره وأفكاره، وليس هذا بغريب على أى حال وقد اخترت بعض المقتطفات من بعض الرسائل التى كتبها حمزه إلى شيرين وهى تمثل أسلوبه فى كتابة الرسائل كما تمثل أفكاره وخواجه.

وأبدأ بالنماذج التى تمثل حالته النفسيه فهويقول فى الرسالة (٣٠) لقد تحطمت قبل أن أبدأ قصة حياتى التى شغلنى عنها ولوعي بإنقاذ الغرقى وإطفاء الحرائق[١]

ويقول فى الرسالة الرابعة : تمت عزلتى الآن ولم تعد لي علاقة بأحد إلا بالمقدار الذى لايزيد عما يتهيأ لأي نزيل فى فندق صغير. ومنها:

اننا فى سفينة أو اتوبيس وكل الفرق ان الرحلة أطول، انني أشعر بضغط الوحدة ضغطا مخيفا أراني غريق اتخبط وأرسل صرخات الهلع، وأسمع أصوات ضحكات السخرية ممن يتظاهرون بانقاذي.

أبدا أبدا لم اعد اقوى على احتمال هذا الشقاء وحدى بلامعين، انني أبدأ الفكرة ولا أعرف كيف أتمها، وفى الليل عندما يهدأ كل شيء وينام، أظل أنا كالآلة الدائرة تدور بلا نهاية (٢)

---

١ ـ صفحة ١٢٧ الى ابنتي شيرين

٢ ـ صفحة ٥٤ الى ابنتى شيرين.

ويقول فى الرسالة العاشرة : بعد أن فقد البقية الباقية من بصره فيها اظن .

اني لا أنـام الليـل أبـداً حتى السـاعة السابعة أو الثامنة ، لاتسألي لماذا ؟ فأنا لا أعـرف شيئـا يقتضى هذه الأرق الثابت ، ربما كانت الشيخوخة ، اوطبيعة إنعدام الشاغل الليـلي كالقـراءة والتلهي بنظم الشعـر أوعلى الأصح ما أصطلح الناس على تسميته بالشعر لتمييزه بأنه الكلام غير المألوف ، وربما كانت طبيعة الوحدة ، والشعور بالظلمة التامة ، ويظهر أن وقتا كافيا للاعتياد لم يمر على هذه التجربة القاسية(١)

ويقول فى الرسالة السابعة والعشرين :

لاتتأثـرى إنهـا النهـايـة الطبيعيـة لانسان لم يسر على الطريقة التى يسير عليها الآخـرون ، بل ظل يحلم بأن يعلو على مستوى الطـين والـتراب ويخـالف معـرفته للحقيقـة التى فهمهـا الجهـلاء والأغبيـاء على الوجه السليم ، لاتظني أنني أبكي بهذه الكلمات .

اني أضحك واقهقه ساخراً بنفسي لاني كنت الغبي الذى يتهمه الناس بالفطنة ، والضحك بهذا الاسلوب هو العزاء الوحيد الذى بقي لي (٢)

والرسائل تتضمن أفكارا وآراء كثيرة تستوقف القارىء والمتأمل .

يقول فى الرسالة الرابعة عشر.

إن غايات الحياة والعقل والقدرة لاتنتهى ، وهذا مايجعل الحياة تجددا مستمرا ، ومتعة دائمة وامجاداً مضيئة(٣) ويقول فى الرسالة الثامنة :

إن شقـاء الانسـان وعذابه ليست نتيجة لاخطائه ، هناك أناس يخطئون دائما ، ولايفعلون الا الخطأ ولكنهم لايـدفعـون ثمن اخطـائهم ، ويعيشـون فى انفصال

---

١ ـ ٥٢ إلى ابنتي شيرين

٢ ـ ١١٨ إلى ابنتي شيرين

٣ ـ ٥٦ إلى ابنتي شيرين

عنها وعن تأثيراتها، وأناس لايخطئون على الأقل لأنهم لايجدون الوقت، ولا الامكان للخطأ مع ذلك فهم فى عذاب باخطاء غيرهم، إن العاطفة البشرية أقل الأشياء أمانا وثباتا، ولاسيما عندما تتوهج انفعالاتنا بها. وفى هذه الرسالة كذلك يقول:

مايعزينا أن الناس لايموتون، ولاسيما عندما يفقدون حبهم، وإن العلاقات لاتنتهى اذا حدث أشكال.

إن الانسان يعيش طويلا وهو يحمل مرض موته ويصارعه، والعلاقة تعيش بين قلبين متنافرين وربما يجيء ظرف يتغير فيه التنافر الى حب (١)

وفى الرسالة العاشرة يقول:

لاتصدقي إن كلمة الطموح تعني شيئا من الجشع، وهو التطلع إلى المزيد .. إن مطالبنا فى الحياة لايمكن أن تريحنا ما لم نضع لها حدا بالبساطة والقناعة. أقول تريحنا لأن لاشيء يتعب ويجهد كالرغبة فى المزيد هذا ينطبق على كل شيء.

ان طلب المزيد لايحقق الأحلام بقدر ما يقضي عليها، يقضي عليها ليحلم بغيرها بها لم يتحقق بعد (٢) ويقول فى الرسالة الحادية عشر.

عندما نفعل خيرا للغير ينبغي لنا أولا أن لا ننتظر او نتقبل جزاء عليه من غير الله، وأن نحتمل مايقابلنا من مكاره اقلها الجحود (سوء الجزاء) إلا إذا عافانا الله من التعرض لها إن احتمال مغارم الخير وماقد يجره علينا من البلاء مضاعفة لجزائنا عليه من الله (٣)

ويقول فى الرسالة الثامنة عشر

هناك اشاعات يرفضها العقل تتوفر لها القدرة بإستمرار على قتل الحقائق وعلى

---

١ - ٤٧ إلى ابنتي شيرين

٢ - ٥٣ الي ابنتي شيرين

٣ - ٥٦ إلى ابنتي شيرين

التشكيك في الواقع وتزييفه، وهي ليست أكثر من إشاعات ترفضها كل مقاييس العقل والمنطق والواقع الملموس.

يقول كذلك في هذه الرسالة:

كثير من الانتصارات باهظ التكاليف اكثر كثيرا من أية هزيمة. وفيها أيضا يقول.

إن بعض الظروف تضع الانسان فجأة أمام مثير من نوع مافتكون الاستجابة المتسرعة مانعة من صحة التقدير والتروى ولاغرابة فى هذا(١)

ولقد كان حمزه يفكر في العودة إلى الحجاز ويبدوا أنه كان يتحدث بآماله هذه إلى شيرين حينما كانت معه في القاهرة ولاغرابة في هذا وقد عبر عن سعيه للهجرة إلى مصر والاقامة بها ثم سعيه للنزوح عنها والعودة الى بلاده تعبيرا ساخرا طريفا في الرسالة السادسة عشر قال:

وصف مفكر الرجل الامريكى من الطبقة العادية بأنه يقضى نصف عمره في الريف في محاولة الانتقال الى المدينة، ويقضى النصف الآخر في محاولة العودة الى الريف، وهذا بالضبط ماحدث لي ولم أعد بعد إلى الريف (٢)

إلى جانب رسائل إلى ابنتي شيرين كتاب آخر نشرته تهامة كذلك مشكورة لحمزه شحاته، بعنوان رفات عقل، وهى عبارة عن مذكرات كان يكتبها حمزة لنفسه كما يقول الأستاذ عبدالحميد مشخص الذى استخلصها من بين أوراقه المتناثرة، وليست هي مذكرات بالمعنى الذى يسبق الى ذهن القارىء لانها عبارة عن أفكار وآراء في شكل مفكرات أومذكرات يرجع إليها فيما بعد وحسنا فعل الأستاذ عبدالحميد مشخص بجمعها ونشرها، فهي تصور حمزة شحاته الكاتب والمفكر ويفتتح حمزة الحديث في هذه المذكرات بسؤال عنوانه من أنا؟ فيقول:

يبدو لي أنني لم أستقبل حياتي منذ وعيت حتى هذه الساعة.. كنت أعيش

---

١ ـ ٨٤ رسائل الى ابنتي شيرين   ٢ ـ ٧٦ رسائل إلى ابنتي شيرين

متأثرا بجملة الظروف والدوافع والمقاومات. . أسير . . وأتقهقر. . وأقف. . وأحيانا اعدو بجنون . وحيث يتاح لي أن أتأمل ذاتي أرى انني أداة تملى عليها مقـدرات حركتهـا وسكونها، لم أشعر قط بتحرير ارادتي ، وحين بدا للآخرين انني اكتهلت بحكم السن، وإتسـاع افق التجـربـة ، وجدت ان مايسمى الارادة فينا ، ليس إلا حاصل ظروف وعوامل ينسحق فيها ماهو ذاتي وداخلى تحت وطأة ماهو خارجي .

فإذا قلت الآن بصـدق انني أجهـل من أنـا . . أوما أنـا فلأنى لم استقبل قط ما استطيـع ان أسميـه حياتي ولكيلا يعتبر كلامي عن حياتى كلاما يكتنفه الغموض أقـول . . إنني كنت كالجنـدي الـذى قضى أيـامـه ولياليه فى التدريب والأستعداد لمعـركـة لم يقـدر له ان يخوضهـا ، أوكالمتعلم الذى قضى شطر عمره للتخصص فى مجال معـين وقضى الشطـر الثانى عاملا غير ثابت فى كل مجال غير مجال تخصصه . هذا هو أنا، وهذا مااستقبله واستدبره من حياة هذا الانسان(١) .

ويقول تحت عنوان لم انتم لاية مدرسة :

أحب ان اوضـح اننى قرأت الكثـير ، كل شىء وصـل الى يدى . . تأثـرت وانفعلت بكـل ماكـان له صدى فى نفسي وفكـرى ولم التـزم منهجـا معينـا ففـاتني التخصص فى أي شىء، كما فاتنى الاحتراف .

ومنهـا يقـول / لم امـارس الأدب على انـه وسيلة ، ولا على إنه غاية ، وانما كان تنفيسا عن شعورى بمرارة العيش وحرارة القلب(٢)

ويقول عن الأدب والمجتمع مايلي :

سيظـل الأدب فنـا قوامـه الجمال والتأثير والفكرة والعاطفة وهدفه الانسان متابعاً لتحولاته ، قائدا لمشاعره، موجها لاهتماماته .

---

١ - رفات عقل - ١٢ -

٢ - رفات عقل

وفيها يقول : ان الانسان هدف الوجود وغايته ومغزاه والانسان وعلاقاته بالطبيعة مجتمعين أو متفرقين هدف الأديب والفنان . ومنها ـ والأدب فى خدمة المجتمع لايكون ولن يكون ادباً متجردا من جمال الفن ، وفن الجمال (١).

وقد تضمن كتاب رفات عقل المقدمة التى كتبها حمزة لكتاب شعراء الحجاز فى العصر الحديث للمرحوم الأستاذ عبدالسلام الساسي وفى هذه المقدمة يتحدث حمزة عن رأيه فى الشعر وعن الفوارق بين الكاتب والخطيب والشاعر فيقول : والشاعر يستهدف ماشاء فى حياة الفكر والخيال والشعور وحركة النفس وخلجاتها، واستجاباتها وحقائقها واوهامها، أو فى حياة الواقع والقانون والمنطق والقاعدة والعمل والتكوين والرأى والعقيدة ولكن من هذا السبيل، وبهذا الأسلوب سبيل الجمال وأسلوبه الخاص.

ويصف الشعر بأنه : الترف الحافل بمعاني القدرة المعبرة وذخائرها النفيسه فى أبهى الحلل والاثواب حتى بساطته وهى اسمى صفاته وغاياته انما تكون ترف البساطة الفنية بالمزخورات، لافقرها العارى او المتكلف.

ومنها ـ ولو سألنا الآن ـ ماهى أغراض الشعر لوجدنا أنها الجمال والتأثير وإبداع الصور واستعادتها لتوشيتها وجلائها ، وتلوين الحقائق والأفكار أو صنعها او صنعها لا ما شاءت المذاهب والطاقات والكتاب يضم قصائد لثلاثين شاعرا حجازيا يقول حمزة عنهم فى هذه المقدمة :

وبعد فان من شعراء هذه المجموعة من لايفخر الحجاز وحده بهم ويتيه، بل كل بلد عربى وهم السرحان وعواد وقنديل وحسين عرب وإشباههم فى معظم السمات وفى بعضها دون جملتها.

ومنهم من يستحق الرثاء، ومنهم مستوجب التعزير حتى يعلن التوبة عن رفع عقيرته يمثل هذا الهراء ظنه شعرا فافسد به أو كاد جو هذه المجموعة الرقيق حتى

---

١ ـ ٢٢/ رفات عقل

اوشك ان يتحول به إلى جومظاهرة من المظاهرات التى يغلب عليها عنصر الرعاع والدهماء (١)

ويتحدث عن القديم والجديد فيقول:

التـزام القـديم هروب طبيعى من مشقـات الجـديد، ولكن من حسن الحظ ان الحيـاة هى التى تتـولى دائـما دفـع الانسـان الى الامـام مكرها كان أو راضيا. إن الشعـوب التى تتـوقف عن السـير مع تيـار الحياة والتغيير تضطر بعد إلى أن تعدوا لاهثـة بجنـون لكي تعـوض مافـاتها من الوقت وفى هذا العَدْو الاضطرارى مزالق الخطأ وكبواته (٢)

وهذه مقتطفات أخرى نختتم بها هذه المقتبسات:

الذى يسيء الى من أحسن اليه ليس شريرا.. أنما هو نذل.

إذا كان الطعام ردئيا أو قليلا تنعدم المجاملات على المائدة.

إن للنذل ضميره أيضا.. ولكنهما دائما على وفاق.

العمل لايقتل مهما كان شاقا وقاسيا ولكن الفراغ يقتل حتى انبل ما فى الانسان.

إن من لايندفع إلى الامام. يدفعة تيار الحياة الى الوراء.

ان الفاقه تقتل أشرف الدواعى فى النفس.

لو كان للتاريخ ان يسألنا ماذا تنتظرون؟ لقلنا المعجزة وهذا صحيح ولكن اتراه ميسورا (٣)

وهنـاك كتـاب ثالث اصـدرتـه تهامة لحمزه شحاته بعنوان ـ الرجولة عماد الخلق الفاضل ـ وهذا الكتاب عبارة عن محاضرة طويلة ألقاها حمزه يرحمه الله فى مقر جمعية

---

١ ـ ٣٦/٢٤ رفات عقل

٢ ـ ٤١/ رفات عقل

٣ ـ ٤٤ / ٤٩ رفات عقل

الاسعاف الخيري بمكة المكرمة فى شهر ذى الحجة عام ١٣٥٩(١) وأستطيع أن أقول إني عايشت كتابة هذه المحاضرة أو على الأصح هذا البحث القيم، كما استمعت اليها مع الجمهور الذى حضر لاستماعها وكان حمزة يرحمه الله يشكو ألماً فى الحلق قبل القاء المحاضرة بيوم وقد عرض علي أن القيها نيابة عنه فاعتبرتها مزحة من مزحاته، وقد القاها واستغرق القاؤها أربع ساعات كما يقول الاستاذ عزيز ضياء مقدم الكتاب، وكان الشيخ محمد سرور رئيس جمعية الأسعاف يفضل لو أن حمزه جزأها والقاها فى عدة محاضرات بدلا من محاضرة واحدة لان الوقت طال فعلا وهو يتكلم ولكن احدا من الحاضرين لم يترك المكان أو الاستماع.

على أي حال إن القارىء لهذا الكتاب يشعر أنه اكثر من محاضرة تلقى فى مكان عام يحضره جمهور متفاوت الثقافة والفهم والذوق، ولقد احسنت تهامة بإصدار هذه المحاضرة فى كتاب فهو للقراءة المتأملة المتأنية، وليس للالقاء فى حشد من الناس، ولو حاولت ان أصور المحاضرة أو الخصها لما استطعت ولجاء هذا التصوير أو التلخيص فى صورة مبتورة لا أرضى عنها ولا يرضى عنها أحد لهذا فإنني انصح القراء بقراءتها قراءة متأنيه والتأمل فى معانيها فى هدوء وأكتفى بأن اقتبس نتفا صغيرة منها وانا احذر القارىء سلفا واعترف له بانها لا تهدف الى شيء اكثر من تشويقه الى هذه القراءة وتحبيبه فيها فلنبدأ الاقتباس وامرنا الى الله - يقول الكتاب:

لاتكون النظرة إلى حقائق الحياة والفكر خالصة، إلا من إناس يرون أنفسهم فوق قيودها وقوالبها وهؤلاء يدعون بالمجانين تارة، وبالفلاسفة وقادة الفكر تارة،

لان حظ الصفات والمبادىء والنزعات يرتبط بحظ الداعين اليها والمتصفين بها من الانجاح والفشل.

ويقول: ونحن نحلم بالقمم الشامخة، ولكننا نرجو أن نصحح مقياسا من

---

١ - انظر ماكتبناه عن المحاضرات فى هذه الجمعية فى كتابنا أعلام الحجاز فى ترجمة السيد صالح شطا

مقـاييسنـا الفكـريـة ولـو بالشـك فيـه ، لأن الركود فى تاريخ أمة تتطلع الى ماوراء حدودها الجامدة شر من الخطأ .

ويقول كذلك :

والايـمان بالفضيلة قديم ، كما ان الكفـر بالـرذيلة قديم ، والحـرب بينهـما لاتزال قائمـة ، ماتهـدأ لها ثائـرة وهي سجـال بينهـما ، ميـدانها النفس الانسانية تارة ومجال الحيـاة الظـاهـرة تارة اخـرى وستبقى سجـالا هكـذا إلا إن أراد الله ، فاذا انهزمت الرذيلة فى مجال الحياة الظاهر لم تنهزم فى مجالها الباطن فعرشها مايزال موطد الاركان فى النفوس .

ثم يقـول : ولامـراء فى ان الايـمان الكـامـل الصحيـح بالفضيلة معـرفة وعمل تقتضيه هذه المعرفة وارادة وحرية .

ويقول أيضا :

وحب الـــوطن فضيلة ولاشـــك ، هو فضيلة المتـوحش والهمجى والاجتـماعى والمتمدن وفضيلة قد تتسع وتمتد حتى تكون أساسا لحب الموطن العام للبشرية كما كان حب المأوى الخـاص أسـاسـا لحب المـوطن الجماعى فالموطن القومي فهل كان أسـاسهـا إلا الضـرورة؟ وهل كان الوطن عند الانسان القديم الا هذه المعاني وإلا قرابة مدلولاتها من حياته؟

ويقول كذلك :

كان الناس يتحاربون على سطح الأرض ، صاروا بتحاربون فى أعماق البحار وفى أجواء الفضاء

كانـوا يفتتحـون المـدن بالقـوة ، صاروا يفتتحونها ، ويفتتحون النفوس والأفكار بتسميم عقائدها بالدعاية

كانت الحرب حرب اجساد ، صارت حرب أعصاب وعقول وأفكار ، ليس هذا هو الفارق بين الأمس واليوم إنما هو الفارق بين إنسان الأمس وإنسان اليوم .

تقدم الذكاء والعقل والعلم ، هزم القوانين المسلحة وهزأ بها لانه أقوى منها .

ويقل أيضا:

كانت فى حياة محمد ﷺ تضحية صادقة الى آخر حدود طاقة النفس الانسانية واحتمالها. كانت حياء يدفع الناس ألّا ينهزموا فى مواطن الجهاد، أمام الكثرة وأمام الموت المحقق كانت حياء لايترك الغنى يأكل حتى يشبع الضعيف. وكانت مثلا أعلى تضربه قطعة لحم كما تضربه قافلة ضخمة يجلبها عثمان للتجارة فينفقها للحياء.

قطعة من لحم تطوف على بيوت الأنصار والمهاجرين مطافها الطويل حتى تعود الى الأول، وكانت مثلا تضربه شربة ماء يدفعها جريح يعالج سكرات الموت، يستحي ان يشرب وهو يسمع أنين أخيه الجريح فيقول حياؤه ربما كان أحوج اليها مني فتدور يدفعها جريح الى جريح حتى تعود الى دافعها فاذا هو قد مات وإذا هم قد ماتو.

وأمسك عن الاقتباس بعد هذا الابداع الذى نقلت اليكم صورة باهتة منه لتقرأوا بأعينكم وتستمتعو بقلوبكم.

ان كتاب الرجولة عماد الخلق الفاضل يمثل حمزة شحاته كاتبا مفكرا رائع الأسلوب بعيد الغور ثاقب النظرات فإذا اردتم ان تعرفوا حمزة شحاته الكاتب المفكر فأقرأوا هذا الكتاب.

ونكتفى الآن عن نثر حمزه شحاته بما كتبناه عن رسائله ومذكراته وكتابه الأخير لنفتتح الحديث عن شعره وهو فى القمة ليس بين شعراء بلادنا وحسب ولكن بين شعراء العرب فى الوطني العربى كله.

حمـــــزة شــــــحاته الشـــــاعر

عرفت حمزة شحاته في أواخر الأربعينات وكان يومها في العشرين من عمره وكان في هذه السن البـاكـرة شاعـرا مرمـوقـا يحتل مكانه بين كبار الشعراء في الحجاز وقد أطلعني حمزة على قصـائـد له نظمت قبـل ذلـك بسنـوات وهي في نفس المستـوى العـالي الـذي عرف به شعـره فيما بعد، لقد ذكرت في تراجمي لكثير من الأعلام أن بدايـاتهم دائـما كانت تبشر بالاجادة والابداع، أما حمزة فكان الأبداع سمته البارزة منـذ ان عرف النـاس شعـره، فهـل اخفى هوما لايـرتضيه من بداياته حتى يظهر للناس بالصورة المشرقة التي أراد بها ان يواجه الناس؟

ان كان ذلـك فهـو دليـل جديد على تمكن حمزة من ناحية الفن الذي يزاوله فلا يطلع الناس منه إلا على الجودة والأبداع.

لقـد تأخـرت في الكتـابـة عن حمزه لأني لم اجد المراجع التي أرجع اليها بالنسبة لشعـره، فلقـد كان كلما نشـر في حيـاتـه بعض القصائد المتداولة والتي سجلت في بعض المراجع ولكنها لاتطفىء الغلة لمن يعرف مقدار مانظم من الشعر وخاصة بعد رحيله إلى القاهرة وبقائه بها السنوات الطوال.

والقصائد الوحيدة التي نشرت بانتظام كانت هي المباراة الشعرية التي حدثت بينـه وبـين الأستاذ محمد حسن عواد في صوت الحجاز والتي سنتحدث عنها حديثا مستقلا فيما بعد.

وهـذه المجمـوعـة على تعـدد القصائد فيها وكثرة تعداد أبياتها لا تمثل إلا جانبا واحدا من الجوانب الشعرية لحمزة، وهو متعدد الجوانب فالحديث عنها لايكون إلا حديثا مبتورا، لهذا فأني لجأت الى الصديق الشيخ محمد نور جمجوم رجل الأعمال المعروف وهو صديق عمر الشاعر وصفيه ووصيه بعد وفاته لجأت اليه حيت علمت إنـه يحتفـظ لديـه بمجمـوعة كبيرة من قصائد حمزه شحاته، وكان الشيخ محمد نور جمجـوم عنـد حسن الظن به فوضـع بين يدي المجمـوعة الكاملة لشعر حمزة شحاته وأضـاف اليها القصائد المطبوعة بعد وفاته بعنوان «شجون لاتنتهى» وكذلك بعض

المؤلفــات التى سجلت بعض قصــائـد حمزة، وكــان لاطـلاعى على المجمـوعـة المكتـوبـة بخط الشاعر اكبر الاثر فى تشجيعى على اظهار ترجمته وهى تحمل صورة لا أقول كاملة ولكني أرجو ان تكون وافية بإذن الله.

وقبـل كل هذا اود أن أذكـر ان صديقنـا الشيخ محمد نور جمجوم باحتفاظه بهذه الثـروة الشعـرية ومحافظته عليها طيلة هذه العقود من السنين قد أسدى يدا عظيمة للشعـر فى هذه البـلاد سيـذكـرهـا له المعنيـون بتاريخ الأدب والشعر وخاصة حينما يظهرها الى النور مجموعة بين دفتي كتاب كبير بإذن الله، والآن فلنفتتح صفحات هذا الكتـاب أو هذه المجمـوعـة التى ستكـون كتابا لنختار من هذه العقود الثمينة بعض اللآلىء التى نتحف بها القراء، من هذا الكنز المخبوء.

نظم حمزه فى فنـون الشعـر المختلفـة وأبدع فيها أيما إبداع، والقارىء لمجموعة اشعـاره يخرج بانطبـاع يصور الشاعر متشائما بالحياة، هازئا بما اصطلح الناس على الاحتفال به والتطلع اليه حتى ليذكرك بالمعرى.

ما أرى فى الـبـقــاء الا علالات خيــال مآلهــا الـتنغيص
والـردى صائـد النفـوس فما فر كنـاس منـه ولم ينـج عيص
فعــلام العنــاء يضني المجــدين ويصـلاه طاعم وخميص
يالهــا رحلة برانــا بها الجهـد ولكن قد عز فيهـا النكـوص

هذه زفـرة متشـائمـة يرى فيهـا الشـاعـر ان لاجدوى من السعي فى هذه الحياة والعناء فيها فالردى بالمرصاد لم ينج منه كبير ولاصغير.

ولكن متى وصل الشاعر الى هذا، انه جدَّ وكافح فلم يصل به السعي إلى نيل مايريد.

قطعنـا سبيـل الغمـر جهـدا وراحـة … نروم منــى ضنـت بهن الـعــواقـب
فهــا نحن والآمـال رهن مصيرهـا … فلول روت مأســاتهـن الـغيــاهب

ومنها

شقينـا بما قد كان فى مشـرق الصبا … فهــا نحن فى ماكـان والعمـر غارب

مرامي نضال طول الأين عمرها   فطالت به آصارنا والمتاعب
إلى أين لاتدري وقداهم السرى   سوى أنَّ وهماً فى الدجنة ضارب
وفيم وغايات المساعي موارد   تطيب بها للناعمين المشارب

ويختتم هذه القصيدة بهذا البيت:

وتقضى بها تلقى نفوس كريمة   وتدفن فى ظل الخمول مواهب

وهذه قصيدة أخرى تذكرنا بأبي العلا كذلك

علام بكى الباكون فى الحيِّ هالكا   وكل وجود شعلة سوف تطفأ
وهل يعقل المفجوع فى غمرة الأسى   مقالك ان الصبر للحزن ادرأ
الا ربَّ شاك من مساءة يومه   تطامن لليوم الذى هو أسوأ
تنبأت بالأحداث قبل وقوعها   فما حاطني مما حذرت التنبؤ

ومنها

تسائلني كيف انتهيت الى الرضا   وماعلمت ان العزائم تصدأ
اهبت بعزمي فاستجاب فردني   لسالف أطواري حياء ومبدأ
تشبهت بالساعين عزما واهبة   فأخرني انى عجلت وأبطأوا

ومنها :

رأيت دروب العيش شتى لمن وعى   مسالكها واحترت من أين أبدأ
وقد حَظِيَ اللاهون بالصيت والغنى   فشادوا وسادوا وانتشوا وتبوأوا

وهذه قصيدة عنوانها الى صديق

من ذاكر العهد الى ذاكر   تحية الشاعر للشاعر
فيها الهوى الماضي بآثاره   مكتومها المطويِّ والظاهر
والود والصدق وذكرى المنى   فى يومنا أو أمسنا الغابر

ومنها :

تحيـة الـبـاكـي على مامـضـى ... والهـازىء الـكـافـر بالحـاضـر
تؤوده أعـبـاء .احـسـاسـه ... مما يرى فى كونـه الـسـادر
من صور الـعـيش وأسـراره ... أعيـت على القـائف والـزاجـر
مكـرورة فى أبـد آبـد ... مطـويـة فى لجه الـزاخـر
من أيـن؟ لاتـدرى وحتـى متـى؟ ... وأيـن مرسـى فلكـهـا الحـائـر
ماهـي ؟ ما الـغـايـة من قذفـهـا ... على متـون الـشـبـج الـثـائـر

ومنها :

تحيـة المـفـجـوع فى قلبـه ... وفـكـره وحظـه الـعـاثـر
عاف الهـوى والحسـن مذ جافيـا ... ايـمانـه بالخـلق الطـاهـر
وجـانـب الـنـاس لما هالـه ... من شبـه الـفـاضـل بالـفـاجـر

ويقول أخيرا

تحيـة الـشـاكـي الـى مثـله ... والـسـاهـر المكـدود للسـاهـر
عاشـا على ضنـك سواء فما ... هانـا لمسـتـعـل ولاهـاجـر
حالاهما حال على سوئـهـا ... خليـقـة بالفخر من فاخـر
وحـلقـا فى الجـو لم يعـبـآ ... بجـارح يـنـقض أو كاسـر

ونكتفي بما أوردنـاه من هذه الصـور المتشـائمـة لننتقـل إلى صور أكثر اشراقا وأوفر بهجة تتجلى فى شعره الغزلى الرائع

يقول فى قصيدة بعنوان نفيسه وهي من شعره فى المهجر - فى مصـــــــــــر -

الهـمـت والحـب وحـيي يوم لقيـاك ... رسـالـة الحسن فاضت من محيـاك
من أيـن ياأفقي الســامي طلعت بها ... حقيقـة ما اجتـلاهـا النـور لولاك

كانت بنفسي وقد طال المدى حلما | فصورته لعيني اليوم عيناك
لم أشهد الحسن يبدو قبل مولدها | الا صناعة اصباغ وأشراك
حتى برزت به فى ظل معجزة | يضاعف الصدق معناها بمعناك

ومنها :

ياشاطىء النيل مافاضت شواطئه | سكرا وعربدةً ألا من حمياك
ولا استهل شراع فوق صفحته | مغالبا وجده الا ليلقاك
ولاسرت عبر مجراه نسائمه | الا لتلثم فى صمت الدجى فاك
ولاتنفَّس فجر فى خمائله | الا ليملأ عينيه بمرآك

ومنها :

يامنحة النيل ياأحلى روائعه | هل أنت من سحره أم قد تبناك
وهل ترعرعت طفلا فى معابده | أم كاهن فى ربا سيناء ربَّاك
أم كنت لؤلؤه فى يمّه سحرت | فصاغك اليمّ مخلوقا وأنشاك
أم أنت حورية ضاقت بموطنها | فهاجرته صنيع المضنك الشاكي
أم أنت روح ملاك حلَّ فى امرأة | فخافك الملأ الأعلى فأقصاك
فضمَّك النيل فى رفق فهمت به | حبا ووثَّقت نجواه بنجواك

ومنها :

يافجر يا بدر يازهر المنى ابتسمت | ياخمر ياجمر فى احساسي الذاكى
ماكنت قبلك الا صادحا صمتت | به الهموم فلما لحت غنَّاك

ومنها :

الحب قلبان فى مسراهما التقيا | فكيف الزمنى قيدى وخلاَّك
وفيم انفذ فى قلبي ارادته | وقادني لمصيرى اذ تحاماك
لم يعطني منك الا الحسن همت به | حتى استردك غيرْ انا وحاباك

وأيـن قلبــك لم أسـمــع لخفـقـتــه صدى ألم يعـنــه اني معـنّــاك

ومنها :

يابـنـــت حواء هل بالـــدنّ باقيـــة تغـني فيشـــر بها من ليس ينـســاك
فقــد حملت غليـل الـوجـد مرتضيـا نعـمـاك ودا فلم أظــفــر بنــعــماك
اظـمأتـني وصـــرفت الكأس ظالمــة عني بثغــر على الحــالـين ضحـاك

ومنها :

طامنت من كبر يائي فيك فاحتكمي فالحـب ارخص من قدرى واغـلاك
انـــت الحــيــاة بلونـيـهـا محببــة فما ارقــك فى نفـســي واقـســاك
فليت لي منـك بالـدنيـا ومـا وسعت يومــا تجود به للوصــل مســراك

والقصيـدة طويلة تبلغ المـائـة بيت اوتزيـد وكلها من هذا النسق العالي عاطفة ثائرة متدفقة ، وديباجة مشرقة ناصعة وتسلسلا عذبا كالغدير الصافي لاتصدمك فيه لفظة موحشة أوكلمة نابية أومعنى دخيل وفوق كل هذا وذاك تحس فيه بهذا الوهج الـذى يصهـر القلب، ويثـير العـاطفة ويسيطر على الاحساس وهذا هو الشعر فى صورته الرفيعة الحافلة بالجمال .

حمـــــــزه وقنديل

وهذه قصيدة أخرى بعنوان «لم أهواك» ولهذه القصيدة قصة يحسن بنا ان نذكرها فقـد نشـر الشـاعـر الأستاذ أحمد قنديل يرحمه الله قصيدة فى صوت الحجاز بعنوان ـ «مالذى فيك» ومطلعها :

مالذى فيك يامعيدا الى القلب صباه من بعد ان عاد كهلا

وهى من غرر شعر القنديل وقرأها حمزه وأعجب بها ايما اعجاب وكأنما كان هذا الأعجـاب بالقصيـدة ومـا تضمنتـه من المعـانى الجميلة الرائعة باعثا له على نظم قصيدة لم أهواك ومطلعها :

ياحبيبي ياملتقى السحر والفتنة ... ياغالبى على امر نفسي
لم كانت ولاأسومك لوما ... قسمتي فى هواك قسمة وكسى
الانى آثرت فى حبك القاهر ... عزى ذهبت تطلب تعسى

ثم يتساءل :

لم أهواك؟ أيها المفعم النفس شجونا وحيرة وشقاء
الحسن ؟ فالحسن فى البدر والزهرة اندى وقعا واضفى رواء
ام لمعنى شفت مفاتنك العذبة عنه فكاد ان يتراءى
فالمعاني فى الكون ليست على الانسان وقفا الا هوى ودعاء

ومنها :

فتراها فى قطعة الأرض والصخرة شعرا لم يبله الترديد
وتراها فى نأمة الظبي للظبية سحرا يبدى وحبا يعيد

وتراها فيما ترى من جميل ... وقبيح وهين وعظيم
صورا حية يناجيك منها ... ألف وجه من كالح ووسيم
كل وجه دنيا بتاريخه النابض ... تصبي بحادث وقديم
وفضاء لايعرف الحد والقيد ... ولا وغرة الضنى والسهوم

ومنها :

أتراني أهواك حقا؟ فما فيك لمثلي معنى يمازج حسي
أم تراني اهواك زورا؟ فلم يصبح قلبي على هواك ويمسى
أم تراني احب فيك وما أشعر نفسي وأنت عندى نفسي

لانا منك فى سبيل من الحيرة ... تضني عقلي وتثقل حدسي

والقصيدة طويلة فى اكثر من ستين بيتا وهى حافلة بهذه المعاني التى يتساءل فيها الشاعر لم يهوى حبيبه ويدفعه هذا التساؤ ل الى الشك ولكن الأحساس الذى

يعانيه يرده الى دنيا الواقع وبين هذا الشك وتساؤ لاته، والواقع واحساساته تتجلى هذه الروائع التى ابدعها الشاعر فنا معجبا وشعرا مطربا يشرق فيه الفكر، كما تشرق فيه العاطفة أيما اشراق.

وما دمنا نتحدث عن علاقة القنديل بحمزة وهما صديقان حميان جمعت بينهما الصداقة فى أواخر الأربعينات فهناك قصيدة أخرى لحمزه أو على الأصح قصيدة للقنديل أوحت الى حمزة بنظم قصيدة من أجمل قصائده، هذه القصيدة هى قصيدة جدة وهى من مشهور شعر حمزة، وقد سجلت بعض أبياتها فى نصب فى مغنى الكورنيش على ساحل البحر الأحمر فى جدة.

أما قصيدة قنديل فقد نشرت كذلك فى صوت الحجاز وأعجب بها حمزة فكانت سببا فى اظهار رائعته الشهيرة عن جدة. وقصيدة قنديل مطلعها:

لك ياجدة الحبيبة فى القلب مكان محبب مألوف
طار فيه صدى الجديدين بالأمس ومازالت الحياة تطوف

أما قصيدة حمزة فمطلعها:

النهى بين شاطئيك غريق — والهوى فيك حالم مايفيق
ورؤى الحب فى رحابك شتى — يستفزُّ الأسير منها الطليق
ومعانيك فى النفوس الصديَّات — إلى ريِّها المنيع رحيق
سحرته مشابه منك للخلد — ومعنى من حسنه مسروق
كم يكرُّ الزمان متئد الخطو — وغصن الصبا عليك وريق

هذا واني لأخشى ان الاقتباس هنا يفسد تسلسل المعنى فالقصيدة وحدة كاملة مترابطة الاجزاء ولو تركت لنفسي لاثبتها كاملة ولست اقصد لهذا وإنما أنا ارمي الى اعطاء القارىء صورة مصغرة عنها فليرجع اليها كاملة من أراد الاستمتاع حقا بما فيها من المعاني والصور الرائعة.

ومنها

انت دنياي رفافة بمنى الروح — وكونٌ بالمعجزات نطوق

رضـى الـقـيـد فى حماك فؤاد		عاش كالطـير دأبـه الـتـحـليق
ماتـصـبتـه قبـل حبـك ياجـدة		دنـيـا بسـحـرهـا او عشـيـق
حبـذا الاسـر فى هواك حبـيـبـا		بهوى الـفـكـر والمنى مايفـيـق
منهجى فيـه منهـج الطـائر الآلف		ينـزوا به الجـنـاح المـشـوق
فاذا همٌّ اشـغـلتـه فروض		من هواه واثـقـلتـه حقـوق

وهـذا معنى جديـد فى حب الـوطن صاغـه الشـاعـر فى هذه الصـورة البـارعة السـاحـرة تأبى طبيعـة مزاج الشـاعر الا ان تظهر فى هذه القصيدة كما تظهر فى كل شعره فيقول:

كم معنًى مثـلي يطـارحـك الحب		فيـنـبـو به السـبيـل الـزلـيق
ودعـيٌّ يصطـك فى فمـه الـقـول		عثـارا مكـانـه مرمـوق
امـن الـعـدل ان يشـاركني فيـك		جبـان عما اريـغ فروق
وقـصـاراه فى هواك هوانـا		أمـل ضارع ووجـه صفـيـق
لاتـلومـي على عتـابـك حرًّا		قلبـه منـك بالجـراح شريـق

والقصيـدة كذلـك فى نحو ستين بيتا وهى من أروع الشعر واعذبه، وأودُّ هنا ان انبه القارىء الى أن مجاراة شاعر لشاعر فى النظم فى موضوع معين لايعيب الشاعر ولاينقص من مكـانتـه، فالشعـر فن يتصـل بالعاطفة فى صورها المختلفة وقد يتفق الشعـراء فى المعـانى بل وفى الالفـاظ وفى المـوسيقية الشعرية ولكن هذا لايقدح فى قدراتهم وللنقـاد مقـاييس يلجأون اليهـا فى هذه المـواقف ليس هنـا مكان بسطها، وبالنسبة للشاعرين فكلاهما عبر عن الموضوع بإسلوبه الخاص، وهو أسلوب متميز عن أسلوب الآخـر، وقـد تصـرف حمزة فى كلا الحـالتـين تصـرف الشـاعـر القـادر المتمكن، ولقـد كان شوقي يعـارض قدامى الشعـراء فى روائعهم فينسـج قصـائده على مثـل القـافيـة والوزن، وقال الرافعى رحمه الله واصفا ذلك من شوقي فأراهم غبـاره وولىًّ ولكنـه وقف عنـد المتنبي، وقـول الـرافعى هذا كان فى مجال الأكبار لما صنع شوقي وليس فى مقام الأزراء عليه.

ونكمل الآن حديثنا عن حمزة والقنديل بالشعر الضاحك الذى اشتهر به قنديل فنقول إن حمزة نظم هذا الشعر ولكنه احتفظ فيه باللفظ الفصيح ولم يلجأ الى اللهجة العامية كما فعل قنديل وأذكر هنا بعضا من قصائده التى عثرت عليها فى هذه المجموعة التى تصور هذا النوع من الشعر الضحاك ولكني أنقل هنا من كتابي أعلام الحجاز ماذكرته عن بداية قنديل فى نظم هذا الشعر وعن القصيدة التى نظمها حمزة منه فى مناسبة من المناسبات ، كانت دار الهلال فى القاهرة تصدر مجلة أسبوعية اسمها الفكاهة وهى مجلة فكاهية كما يدل عليها اسمها ، وكان يتولى رئاسة تحريرها الأستاذ حسين شفيق المصرى وهو شاعر مجيد وزجال مصرى معروف ، وكان الأستاذ حسين شفيق فيما أعرف هو أول من نشر الشعر الضاحك فى أسلوب عامي ، ولكن هذا الشعر العامي كان يحتفظ بالوزن والقافية ، وكانت الطريقة أنه يفتتح القصيدة بمطلع قصيدة من عيون الشعر العربى القديم ثم ينسج على منوالها كلاما موزونا مقفى تختلط فيه العامية بالعربية الفصحى وكانت مواضيع هذا الشعر دائما انتقادية ولكنها فى أسلوب فكاهي مقبول ، وكنا نجتمع فى مكة المكرمة مع الاستاذين حمزة شحاته وأحمد قنديل رحمهما الله وجاء يوما ذكر هذا الشعر الذى كان يسميه الأستاذ حسين شفيق المصرى الشعر الحلمنتيشي ـ فسأل حمزة قنديل ان كان يستطيع النظم على هذا النسق فأجاب قنديل بالايجاب وفى اليوم التالي بدأت المحاولات الأولى للقنديل فى هذا الشعر وكانت موفقة جدا وما هي الا فترة بسيطة حتى بدأ القنديل فى نشرها فى صوت الحجاز ووجدت صدى شعبيا واسعا واستقبالا حسنا . . الخ

ثم قلت بعد ذلك / ولعل معظم القراء بل والادباء لايعرفون ان المرحوم الأستاذ حمزة شحاته ينظم هذا الشعر ولكنه لم يستمر عليه ، وانما نظمه مرة واحدة أو مرتين وله قصيدة جميلة أذكر بعض أبياتها فيما بعد ، وهذه القصيدة لها قصة لابأس من ايرادها ، فقد عُلم ان العراق سيرسل بعثة كشافة الى المدينة المنورة ومكة ، ولعل ذلك فى زمن الحج وارادت الحكومة ان تكرم كشافة العراق فأعدت لهم برنامجا

حافلا كان منَ ضمنه إقامة حفل تكريم لهم فى جدة وتولى الأخ الشيخ محمد عبدالله رضا يومها أمر ترتيب هذا الحفل الشعبي فأرسل دعوة الى شباب مدينة جدة للحضور الى منزله ودعاهم للتبرع لاقامة هذا الحفل ،، ولكن المرحوم

حمزة شحاته لم يدع الى هذا الاجتماع مع اننا كنا جميعا على علم بالحفل الذى كان سيقام فى بيت نصيف، وكان صديقنا المرحوم الأستاذ حسين محمد نصيف - مؤلف كتاب ماضي الحجاز وحاضره - يخبرنا يوميا عن هذا الحفل ويحثنا على الحضور فيه، وغضب حمزة لعدم دعوته من قبل الشيخ محمد عبدالله رضا فانشأ قصيدة ضاحكة صور فيها ما وقع من المجتمعين للتبرع فى أسلوب ضاحك جميل والقصيدة أخذ مطلعها من قصيدة أبي تمام المشهورة:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ويضرب سيف الله أيان تضرب
وبالأمس قد أرسلت حتة دعوة الى فتية بالصالحات تحزبوا
فلم تك الا ساعة أو دقيقة تجاروا سراعا بعدها وتكركبوا

ومنها يصف كيف حاول المجتمعون الهرب حينما علموا أن عليهم التبرع للحفل

وبصوا الى الباب الكبير ليهربوا ولكن باب الدار ما منه مهرب
لان حواليه الحضارم وقَّفٌ وفى يد كل منهمو كان شبشب

ثم يصف ملابسات التبرع

فقام فتى منهم حريىء حجنجل فجاد بربع ريال فانبروا وتعجبوا
وقالوا استحى ياسي فلان فانه قليل ومن يكتب قليلا يؤنب
فقال لهم ليش نسبتي تقتضى كدا فان راقكم قولي والا فاحسبوا
فبان حماس فوق وجه زعيمهم فسجل عشرينا وقد كاد يغضب

والقصة ان المرحوم الاستاذ محمد لارى - والد الأستاذ رضا محمد لارى - كان من ضمن من حضروا الاجتماع فجاد بربع ريال فقال المجتمعون انه قليل فقال

لهم انـه ليس قليـلا بالنسبـة لما تبرع به الشيخ محمد رضا فتحمس الداعي وسجل عشرين ريالا أخرى وسواء أكانت القصة حقيقية ام من خيال الأستاذ حمزه رحمه الله وأغلب الظن أنها حقيقية فان ايرادها على هذا النحو فى هذا الشعر الضاحك كان مناسبة يتفكه بها مجتمع جدة كلها، فكاهة تخلو من الحرج والبذاء (١) وهنا قصيدة تبدأ بهذه الأبيات :

ماذا وقــوفــك بالأطــلال والـدمن — موزع الـنفس بين الشعــر والشجن
يرمي بك الـوجـد فى صحـراء مجدبة — طوت حيــاتــك طي البحـر للسفن
تهيــم فيــهــا شريــداً لاقــرار له — وتــرسـل الــدمـع مدرارا بلا ثمن

ثم يقــول بعــدهــا

(بعـزقت) عمرك لا الاحباب منك دنوا — ولابـلغـت مكــانــا فى ذوى الفطن
الكــاسبــين ملا يينــا ومـاكـدحـوا — وأنـت فى قـفص من عقـلك الـزّمن
تمرجــلوا واسـتـغـلوا كل سانـحــة — من المــصــالــح فى سرٍّ وفى علن
وقــدت انـت رعيــل الفن متكئــا — على مبــادىء سقــراط واهــرمــن

ومنها :

وكــان درسـك فيهـا لوفطنت له — درســا تفيق به من سكـرة الــوسن
اذ قام يصــرخ والمـلقــاط فى يده — كالـسيـف يهتــز فى كف بن ذى يزن
وجــاء من كركـون الـريـع ضابطـه — على الـزعيق وحشد من ذوى حسن
وكــان يومــا تشــاطــرنــاه بهدلــة — وكـنت فيــه وحــدى دافــع الشلن
كيـنوم وقـعتنـا بعــد الغــداء على — قرشــين لم يدفـعــا فى مطعم البُــيِنِ
خرجت فيــه بلوح الكتف منخلعــا — ورحــت خلفــك فيــه دارم الأذن

---

(١) انظر كتابنا اعلام الحجاز صفحة ٢٢ - ٢٦

تجاربٌ وحشــة خضنــا معــاركهــا وكــان شعــرك فيــه مصـدر المحن
امــا لنــا غير قرض الشعــر مشغله نقضى بها فضـل عمـرينا على سنن
الا وظيفــة نرجــوهــا ولـو صغـرت نقـضي بها دين راعي العيش واللبن
ونســـتردُّ بها فى النــاس سمعتنــا بعــد الـضيــاع بلا شعــر ولاسفن
وحـسبنــا مالـقينــا من بهادلهــا وأنهــا مهــنــة من أخســر المهـن

ويقول فى آخرها

فما وراءك الا الــنـحس ملتطم الأمواج دهمل ارطـالا ودهملني
وايــه لزوم كلامــي منـت عارفــه مذ ضاع عمــرك بين الشام واليمن
وداب ضهــرك بين الآخــذيــن به رقــعــا تمثّلت فيــه لعبــة الأنِـنِ
قد شدتهــا من صميــم الفن أبنيــة فهــل بنيـت بها حوشــا من الـلبن
بل نمت فى دكـة الـزيـدان منطـرحا على البـلاط طوال الصيف كالـورن
لا انـت ضيــف فيرجى يوم رحلتــه ولا انـت فى نفقــات البيت ذا شطن
وزغت من فنــدق التيسـير لاهـربـا من نامس الليل بل من اجرة السكن
باظت حيـاتـك ماضيهـا وحـاضرها مادام شعــرك فيهــا عقــدة الكفن
وخضت من غمـرات الصبر أحلكها فى قهــوة الســد أوفى مقعــد اللبني

والقصيدة كما يرى القارىء صورة لشاعرين صديقين يندبان حظهما العاثر بعد أن صفرت أيديهما من المال، كما خلت أوقاتهما من العمل، وكيف تعرضا للفضائح فى مركز الشرطة بالريع ـ والريع كما لابد وان يعلم القارىء هوباب الريع فى مدينة الطـائف وهـو مسرح هذه القصيدة أما المعركة التى تعرضا فيها لخلع الكتف وورم الأذن فهى فى مطعم بُيَنْ وبُيَنْ هذا كما لابد أن يعلم القارىء صاحب مطعم شهير للأكل الجاوى فى مكة المكرمة أما الأنن الذى ورد فى البيت:

وداب ضهرك بين الآخذين به رقعا تمثلت فيه لعبة الانن

الأنَنِ هذه لعبـة شعبيـة يغمض فيهـا أحد اللاعبين عينيه، ويضربه أحد اللاعبين حوله وعليه أن يمسك اليد التى صفعته اوعلى الأقل يميزها فإن اهتدى اليه حل

الضارب محله واذا فتح المضروب عينيه هز الجميع حوله أياديهم وهم يقولون إننن ،إننن
أما الـزيـدان فهـو صديقنا الكاتب والمؤرخ الأستاذ محمد حسين زيدان والمعروف للجميع وكان له منزل قروى فى مدينة الطائف ولعلهما كانا ضيفين عليه.

أقول والقصيدة كما ترى فصيحة فى جملة تعابيرها بإستثناء بعض الالفاظ التى وضعناهـا بين قوسـين والفارق بين ما نظمه قنديل من الشعر الضاحك أن قصائد قنـديـل تغلب عليها العامية الفاظا ومصطلحات وامثالا، بينما يحتفظ حمزة بالألفاظ الفصيحــة.. باستثنــاء بعض الكلمات وعلى أى حال فإن مانظمـه حمزه من هذا النوع من الشعر لايتجاوز أصابع اليد الواحدة عددا بينما ان قنديل نظم الكثير من هذه القصائد والرباعيات حتى أصبحت له دواوين كاملة منها.



حمزة شحاته والعواد

المعـركـة الشعـريـة العظيمـة التى دارت بين الشاعرين حمزهٔ شحاته والعواد فى النصف الثانى من الخمسينات أو فى أوائل الستينات ان لم تخنى الذاكرة معروفة فى أوسـاط الأدبـاء، دارت رحى هذه المعـركـة على صفحـات جريدة صوت الحجاز قصـائـد شعـريـة تبادلها الطرفان بعد أن رمز كل منها لنفسه باسم مستعار أخذ حمزة لنفسه اسم الليل رمزا واتخذ العواد لنفسه اسم الساحر العظيم رمزا وبدأت المعركة بقصائد رمزية ينتصر فيها كل منهما لنفسه تحت ستار الحرب بين عناصر الطبيعة وما إليهـا وقـد تحولت المعركة بعد ذلك الى هجاء مقذع تناول الأعراض ولم يكن ينشر بصحيفـة صوت الحجـاز وانما كان يكتب باليد ويوزع على احياء مكة (١) ونواديها وشـاع امـر هذا الهجـاء وذاع حتى بلغ الى سمـع المعنيـين فى الحكـومـة فخـاف الشـاعـران وطـوى كل منهـما هذه الصفحـة السـوداء بعـد ان انـزلق معهما فى هذا الطـريق الأستـاذان أحمد قنديل ومحمود عارف وكانت القصائد التى نظمها حمزهٔ فى هذه المعـركـة ونشـرها مفقودة بينما ان العواد اثبت قصائده فى ديوانه الشعرى لعلها تحت عنـوان (يـد الفن تحطم الاصنام وهى تمثل جزءاً هاما من شعر العواد ويسرني ان اذكر هنا اني وجدت القصائد التى نظمها حمزه ضمن المجموعة التى احتفظ بها صديقنـا وصـديقـه الشيـخ محمـد نور جمجـوم وإنـه ليسـرني هنـا ان اثبت بعض مقـاطعهـا، وحينـما يتم نشـر ديـوان حمزهٔ شحاته وتنشر فيه هذه القصائد سيتمكن الـدارسـون لشعـر الشـاعرين من الحكم فى هذه المعركة الشعرية التاريخية اذا صح هذا التعبير.

ملحمـــــــــــة

هذه الملحمـة تتكـون من سبعـة عشـر مقطـوعـة كل مقطـوعة تتألف من خمسة أبيات، وهى تصور مفاخرة بين البحر والعاصف يرويها الليل، وقد رمز حمزهٔ لنفسه بالعاصف ولخصمه العواد بالبحر وتبدأ الملحمة هكذا:

---

١ ـ انظر تفاصيل اوفى عن هذه المعركة فى كتابنا أعلام الحجاز فى الحلقة الخاصة بمحمد حسن عواد.

حدث الليل والحديث شجون وحديث العظيم لهوٌ وجَدُّ
تتلهى به نفوس الخليلين ويعنى بلبه المستمد

قال : كانت عناصر الكون كالاحياء قدما تروح فيه وتغدوا

لم يقيد كل بقانونه الصارم والقيد حاكم مستبد
فتلاحت يوما وجد بها الشر وللشَّرِّ ثورة ماتُحَدُّ

****

وادعى كل عنصر قصب السبق وادلى بحجة المتحدى
قالت النار، انني عنصر الفتك اذا اورت المطامع زندى
اتلقى الحديد بالجاحم المودى واردى الصلاب إن جد جدى
ويعيد الاجرام حرّي رمادا وينير السبيل ضوءاً ويهدى
انا للكون بدء تاريخه النابض مذ قلت ياحياة استعدى

هكذا قالت النار فاجاب التراب انه هو العنصر الذى صنع منه الانسان والوحش والنبت فهو سر البناء ولم يكن للوجود أصل لو لم يكن التراب فاندفع البحر غاضبا قائلا :

قال ماذا الست من يطفىء النار اذ آذنت بوشك شبوب
الذى يسكن العناصر ان ثارت وتعنوا من خيفة ووجيب
والذى اغرق الشواطىء لوشاء وجاز الأمداء غير هيوب

ثم يقول :

حدث الليل قال واندفع البحر يظن الشطآن كل الوجود

ومنها

من له بالجبال ترميه بالهزء صنيع القوى بالمكدود

شامخـات إذا تطـامـن بحـر أو تنـزى به عرام الحـقـود

من له بالنجـوم بالبـدر بالشمس اليست بصيرة وهو اعمى
من له بالطيـور تسبح فى الجـو خفـافا معنى وروحا وجسما
من له بالنسيم بالـريـح بالعـاصف تغزو الحياة حربا وسلما

ثـم :

حدث الليـل قال واستقبـل العـاصف هذا الطاغى الجهول وهما
همٌّ فارتَـدَّ فارتمى فطـوى الـدنيـا حيـاة ومسـرحـا وخضمًا

هذه هى المعركة مفاخرة بين العناصر تنتهى بالعاصف يثور على البحر فيطويه فاذ بالبحـر يلفـظ كلما اشتمـل عليـه وإذا شطآنه ساكنة هادئة ، وإذا به يرجف من هول مالقي من العاصف فيرتد الى قرار مهين .

واسـتـنـجـد الـبـحـر فلانـا أو قال طودا أشـمًّا
معلنـا ضعفـه وقـد آنس المـوت عيانا يدعو الضراعة حزما
وتـرامى إليـه يلتمس العـون والقى قيـاده واستـذمـا
قال هيهـات ان يجير من العـاصف طود يرى غرورك جرما
بيـد اني محاول لك مارمت وملق على سجـايـاى غرمـا

هكـذا وسـط البحـر الطـود حتى يرحمـه العـاصف مما حل به من المصـائب والخذلان ، فيمشى الطود بالوساطة الكريمة التى تنتهى بعفو العاصف عن البحر فكم كان هذا العاصف كريما عظيما .

حدث الليل قال ماأكرم العاصف ، ما أكـرم القـوى الرحيمـا

والقصيـدة كما ترى فن مبـدع فى وصف خواص العنـاصـر الطبيعية فى أسلوب مفعم بالحماسة والمفاخرة يذكرنا بالملاحم اليونانية فى الالياذة عن أساطير اليونان .

ولم يكتف حمزةْ بهذه الملحمـة التى لخصنـاهـا عن البحر والعاصف والتى يرويها بلسـان الليـل فاتبعهـا بملحمـة عظمى تتكـون من خمس وأربعـين مقطوعة وتزيد

أبياتها على مائتين وعشرين بيتا ووجهها الى الساحر العظيم تتناول الموضوع ذاته بأساليب شتى ولن نقتبس منها خشية الاطالة.

وفى القصيدة الثالثة ـ الليل والشاعر ـ تحول فيها الشاعر الى تمجيد الليل، بعد ان استكملت ملاحم البحر والعاصف اغراضها فيما يبدوا ـ فاتخذ الليل رمزا له واكتفى باقتباس بعض أبياتها:

يا ليل يا ليل الهوى والرؤى   يا ملتقى الفن وديوانه
ويا شعاع السحر يا نبعه   ومشعل الفكر وربانه
يا نافث الفتنة رفافة   وعبقر الشعر ودهقانه
تلقّن المطرب الحانه   وتلهم الشاعر اوزانه
رداؤك الأسود ملقٍ على   الدنيا رؤى الحسن وأفنانه

وإلى جانب ماذكرنا قبل هناك ثلاث قصائد أولاها بعنوان ضلاله، والثانية موجهة الى الصنم الخاوى وعصبته والثالثة بعنوان إلى، والقصائد فى مجموعها كسب للأدب والشعر لان التنافس بين الشاعرين حفزهما الى الابداع، والشعر لايصدر إلا عن حوافز عظيمة، والحافز هنا هو طلب النصر فى معركة ادبية يشاهدها الناس ويترقبونها وتسرى أنباؤ ها فى كل مكان.

ان القصائد التى نظمها حمزة فى هذه المعركة الشعرية تمثل ديوانا قائما بذاته يتميز بوحدة الموضوع، كما يتميز بالشاعرية الأصيلة والاجادة البارعة لشاعر عظيم.

حمزة وبناته

تزوجت شيرين وتركت بيت أبيها وكانت تقوم بوظيفة الأم وسيدة البيت فهى الأخت الكبرى لاخواتها الصغار، ولقد سجل حمزه واقع البيت بهذه القصيدة الجميلة التى يوجهها إلى شيرين:

وكما تركت البيت مازالا   قلقا واعباء وأطفالا
ومعاركا بين الصغار غدا   حُلم النظام بهن أطلالا

****

أخــذت كتــابى ضيعــت قلمي　　شدت يدى قفــزت على ظهــرى
ذات الحــيــاة وربــما اخــتــلفــت　　عما كرهــت، ونــحــن لانــدرى

* * * *

فاذا الــصــبــاح اطــل خضنــاهــا　　حربــا يكــون وقــودهــا اختــى
عامــان مرًا أو لعــلهــما　　هذى تقــول حذاؤهــا ضاعــا
زلــفــى تســائــل ايــن مريــلتي　　وسـهــام تبحـث عن حقيـبتهـا
وتــصــيــح ليــلى لم اجــد قلمي　　فتــجيبـهــا نجــلا بدمعــتهــا
وأنــا صحــوت فلم أجــد كتــبي　　ويجــد أهــل الــبــيــت فى الطــلب

كلثـــــــــــــوم

وهناك قصيدة بعنوان كلثوم وفيها يتحدث الشاعر الى طفلة لا أدرى مكـان قرابتهـا منه ولكن فى القصيدة لمسة إنسانية رقيقة لايملك القارىء الا مشـاركة الشاعر شعوره إزاء هذه الطفلة التى تعلق بها ويوجـه اليهـا حديثه قائلا :

حدقــي في عابــســا أو طروبــا　　لاتــراعــى لظــاهــرى اوتســرًى
لك مني صدر رحــيــب وان　　ضاق بها فى الحــيــاة ذرعــا فقــرًى
والصقى وجهــك الصغــير بكتفي　　وكــلى لليــديــن تجميش صدري
وإذا شاقــك الــوصــول الى رأسي　　لكــي تعــبثي قليــلا بشعــرى
فاقــفــزى قفــزة المجــازف فى رفق　　تكــوني فى لحظــة فوق ظهــري
وافــعــلي بي ماشئت وافــترضــيني　　لعــبــة بادلــتــك فرًا بكــرٍ
فقــريــبــا ستــصــبــحــين فتــاة　　لاتــرى الشمس حسنهــا ذات خدر
ليت شعــرى ماذا تكــون حيــاتى　　ان خلت منــك يانــضــارة عمــرى
اقــســمــي لي بحــب أمــك الا　　تتنــاســي فى يوم عرســك ذكــرى

ومنها :

سوف أحيــا نعــم ولكــن حيــاة　　تتــهــادى بها أعوامــل قهــر

قانعـا من اليم عيشي بالـذكـرى أداوى مريـرهـا بالأمـر

وأقدر ان هذه القطعة من شعر الشاعر فى صدر شبابه قبل ان يتزوج وأن يصبح أبا لخمس بنات، وهى على أى حال من أعذب الشعر وأطربه.

الحنين الى الوطن

هاجـر الشـاعـر إلى مصـر وابتعد عن الوطن وطالت غربته فكان الحنـين يعـاوده الى مغـانى بلاده وفى هذه القطعة بعنوان وج يعبر الشاعر عن هذا الحنين، ووج كما يعلم القراء هو واد مشهور فى مدينة الطائف.

وج

ان وُجـاً وسـامـح الله وجـا لم يدع لي الـى الـسـلامـة نهجـا
كان ليـلي به مسـيـلا من الـنـور يغـشى جوانـب الـعـيش وهـجـا
فانـا الـيـوم بعـده فى ظلام انـتـحيـه وعـمـرا اطـويـه لجا
بين قيـديـن من حنـين وعـجـز كلما قرت المـراجـع لجا
يارمـال الـوادى الحبيب تنـاسيت طويـلا هذا الـعـليـل المسجَّى
انـه جارك الـقـديـم ونـجـواه لعـهـد من الـوفـاء مرجـى
اطـلقـت ذكـريـاتـه دمـع عينـيٌّ بما سرَّ فى هواك واشـجـى
اتـرانـى الـيـك استقبـل الفجـر ملاذا بعـدوتيك ومـنـجـى
كذب الـعـيش بعـد يومـك ياوج مريـرا والـعـمـر بعـدك فجـا

الشـعر الحر

لحمزة شحاته قصائد قليلة من الشعر الحر ولكنها لاتتجاوز أصابع اليد الواحدة وجميعهـا مما أنتجـه الشـاعـر وهـو فى مصـر والمتأمل فى بعض هذه القصائد يجد أنها تحتفظ بالموسيقية بل أنها تلتزم فى بعض المقاطع بالقوافي حتى ليخيل للقارىء انها من الشعـر العمـودى وإن تعـددت فيها الأوزان والقوافي وسنورد بعض المقاطع منها استكمالا لتصوير جوانب شعر حمزة شحاته.

أمــا أنــا فقــد انــتــهــيــت
وشــربــت من حلو الــكؤوس
ومــرهــا حتــى ارتــويــت
وبــلغــت من غايــات حبــك
ماكــرهــت بها اشــتــهــيــت
وافــقــت من حلمــي الجــمــيــل
على الحــقــيــقــة
وهــي كابــوس ثقــيــل
وتــســللت من حاضــرى
أوهــام ماضــيــك الحــفــيــل
وفــرغــت من رهــب الخــيــال
فلا أشــتــيــاق ولاغــلــيــل

وإذا كان الشعـر الحـر يتخـذ هذا السمت فلا اعـتراض عليـه وعلى أى حال فان الحكم على ما أنتجه حمزة شحاته من هذا الشعر سواء انتظمت فيه الموسيقية أو لم تنتظم بالقيـاس الى المجمـوعة الضخمة من قصائده الغراء من الشعر العمودى ، هذا الحكم سيكـون ميسـورا للنقاد والقراء حينما تنشر هذه القصائد مع ماينشر من شعره كله بإذن الله .

الكلمة الأخـــــيرة

وبعـد فكـل هذا الـذى قدمته للقارىء انما هو زهرات مقتطفة من هذه الروضة الغنـاء لشـاعـر عظيم ، ظهـرت عبقـريته الشعرية منذ بواكير انتاجه وهو فى مطلع الشبـاب ، وريق العمـر ، وهو يذكرك حينما تقرأه بفحول الشعراء العرب فى العصر العبـاسي أمثـال مهيـار الـديلمي والشـريف الـرضي واضـرابهـا من كبار الشعراء والقـارىء للديـوان يجد هذه المـلامـح واضحـة فى شعـره ، ديبـاجة مشرقة وكلمات ناصعـة وسـلاسـة تركيب ، وتـدفق كل هذا تنتظمه عاطفة شعرية حارة تحس فيها

بهذا الوهج الذى انصهرت فيه عواطف الشاعر واحاسيسه حتى خرج الى الناس بيانا هو الأبداع الذى لايتأتي الا للموهوبين والعبقريين.

عـازف العـود

هذا ولعـل مما يحسن ذكـره ان حمزة رحمـه الله كان الى جانب ابـداعـه فى الشعر والادب عازف عود مجيد، وقد كانت له مكتبة للتسجيلات يحتفظ بها ويرجع اليها وكـانت هذه المعـزوفات مسجلة على الاسطوانات، فلم يكن الكاسيت قد عرف يومها - لاكابر الموسيقيين العرب والشرقيين وكان يستمع اليها كما كان يعزف بانتظام.

لقـد كان فنـانـا اصيـلا، اخذ بجوانب متعددة من الفنون فهو كاتب، شاعر، عازف، مفكـر فنـان هذا وقـد توفى حمزة فى القـاهـرة في ١٢/١٢/١٣٩٠ هـ ونقل جثمانه الى مكة المكرمة حيث دفن بها.

رحم الله حمزة شحـاتـه وغفـر له فلقـد كان من أعـلام الشعراء ليس فى الحجاز فحسب وانما فى بلاد العرب جميعا.

****

۞ عبدالسلام طاهر الساسي ۞



عبدالسلام طاهر الساسي

قصير القامة، نحيل الجسم، قمحي اللون، تكسو وجهه صفرة، واسع العينين، كبير الأنف ناتىء الجبهة، لم يكن يطلق لحيته ولكنه لم يكن من المواظبين على استعمال شفرة الحلاقة، فغالبا ماترى الشعر النابت يكسو عارضيه وشاربه، ذكي تبدو امارات الذكاء فى عينيه. يرتدى الكوت ويعتمر بالعقال ولا يرتدى العباءة الا فى المناسبات والواجبات.

ولد عبدالسلام رحمه الله فى عام ١٣٣٥ هـ بالمدينة المنورة وتعلم القراءة والكتابة فى كُتَّابُ الشيخ محمد بن سالم وكان له كُتَّابٌ لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن فى باب المجيدى داخل المسجد النبوى الشريف، وقد أزيل هذا الكُتَّابُ مع الجزء الذى أزيل من المسجد النبوى الشريف حين اجراء العمارة التى امر بها جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله وتمت فى عهد جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز رحمه الله.

مات والد عبدالسلام صغيرا وتركه فى كفالة أخيه الأستاذ عبدالله الساسي رحمه الله وهو من رجال التعليم، انتقلت وظيفة عبدالله الساسي الى مكة فى عام ١٣٤٦ هـ فانتقل عبدالسلام بصحبته اليها حيث ألحقه اخوه بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة فحفظ القرآن الكريم وحصل على الاجازة بذلك ولكن عبدالله الساسي لم يستقر به المقام فى مكة المكرمة فنقل الى جده فى عام ١٣٤٨ هـ وانتقل

عبـدالسـلام معـه اليهـا والتحق بالمدرسة السعودية فيها حتى حصل على الشهادة الابتدائية وتخرج منها.

وفي هذه المـدرسـة اتصلت أسبـابه لأول مرة بالمرحوم الأستاذ محمد حسن عواد الـذى كان مدرسـا بها بعـد ان انقطع عمله بمدرسة الفلاح اثر ظهور كتابه خواطر مصرحة وما ثار بسببه من الجدل الذى ادى الى محاكمته بعد (١)

يقـول عبـدالسلام وكان من اساتذته في هذه المدرسة الأستاذ محمود محمد شاكر والأستـاذ الشيـخ حسن ابـو الحـمائـل أمـا الأستـاذ محمود محمد شاكر فكان قد قدم مهـاجـرا من مصـر بعد ان وقع بينه وبين الأستاذ الدكتور طه حسـين رحمه الله من الخلافات ما آثر به البعد عن بلده ولقد الف الأستاذ محمود محمد شاكر وهو من أدباء مصـر الكبار كتابين خصص واحدا منها للحديث عن معاركه مع طه حسين وغيره من أدباء مصر والتالى حول بحثه الخاص بالمتنبي الشاعر العظيم.

بعـد أنْ حصـل عبـدالسلام على الشهادة الابتدائية إنتقل مع أخيه مرةً اخرى الى مكة المكرمة فعمل في وظائف كتابية صغيرة كثيرة كما كان الحال بالنسبة لامثاله من حديثي التخـرج، عمـل بإدارة الأمن العـام في مكـة المكرمة كما عمل في إدارة سيـارات الحكـومـة ، وناسخا على الآلة الكاتبة في وزارة المالية ولم يطل به المقام في الحجـاز فانتقـل للعمـل في منطقة الاحساء كاتبا في جمرك أم رضمه وانتقل منها الى ممثليـة المملكـة في الدمام وكان هذا الاسم يطلق على المكتب الذى يقوم بالتنسيق بين الدولة وشركة ارامكو.

وفي عام ١٣٦٠ هـ عاد الى الحجـاز فالتحق بالعمـل في وظـائف شتى بوزارة المـاليـة حتى انتهى به الأمـر الى أن عين رئيسـا لمكتب مشروع توسعة الحرم المكي الشريـف (٢)

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابنا اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر.

(٢) استقينا هذه المعلومات من الترجمة التى كتبها عبدالسلام عن نفسه، انظر صفحة ٦٢ الموسوعة الأدبية الجزء الثالث.

عشق عبدالسلام رحمه الله الادب فكان يلتهم كلما يصل الى يديه من الكتب والصحف، وعشق الأدباء المبرزين فاتصلت أسبابه بأسبابهم صديقا يمحضهم الحب الخالص، ويتحمل بدواتهم ونزواتهم كما يتحمل المحب دلال المحبوب ولكنه كان يجد مكانه بينهم كراوية متميز فريد.

وكتب عبدالسلام كما يكتب امثاله فى الصحف ولم يكن كلما يكتبه يجد طريقة الى النشر ولكنه على أى حال بعلاقته الخاصة بالأدباء ورؤساء تحرير الصحف كان أحسن حظا من غيره من الناشئين. ولكن الميزة الكبرى التى تميز بها عبدالسلام بين أبناء جيله ومن تلاهم هى الحماس الدائم والشديد لقضية الأدب والفكر، وقوة الحفظ التى كانت معلما من معالم حياته الأدبية إذا صح هذا التعبير.

وقد ظهرت هذه الميزة حينما تولى الأشراف على الصفحة الادبية فى الندوة حينما كانت مملوكة للأستاذ صالح محمد جمال. كما ظهرت فى مؤلفاته التى توالى ظهورها قبل عمله فى الندوة وبعدها.

وإذا استعرضنا هذه المؤلفات نجد معظمها مجموعات شعرية ونثرية للآخرين وهى كما اثبتها عبدالسلام نفسه فى الجزء الثانى من الموسوعة الأدبية.

١ ـ نفثات من أقلام الشباب الحجازى ١٣٥٥ وهو كتاب تعاون فى اصداره مع صديقيه الأستاذ هاشم الزواوى وعلى حسين فدعق.

٢ ـ فى ظلال الصراحة فى عام ١٣٧٢ هـ.

٣ ـ نظرات فى الأدب المقارن فى عام ١٣٧٧ هـ.

٤ ـ الشعراء الثلاثة فى عام ١٣٦٨ هـ

٥ ـ شعراء الحجاز فى العصر الحديث عام ١٣٧٠ هـ.

٦ ـ الموسوعة الأدبية وقد صدر منها ثلاثة أجزاء.

ولسنا بسبيل دراسة هذه المؤلفات أو نقدها ، فليست الدراسة والنقد من أغراض هذه الترجمة المراد منها إعطاء صورة عن الشخصية التى تتحدث عنها وعن ملامحها البارزة .

لم يكن الساسي رحمه الله أديبا مبدعا ولكنه كان يعشق الابداع ، ولم يكن شاعرا ولكنه كان يحفظ روائع الشعر، ويرويها وهذه ميزته العظمى التى ظهرت فى ماجمع من آثار فى هذه المؤلفات التى ذكرنا اسماءها قبل .

وإذا قرأت ماكتب الساسي أو كنت ممن يستمعون اليه حين يتحدث فستخرج بفكرة واحدة عنه هى حماسه العظيم للأدب والفكر، ولروائع الشعر وكان إذا انفعل تدافعت الكلمات فى فمه لتنطلق من بين شفيته فى سرعة وحماس وقد ظل هذا الحماس ملازما له طيلة حياته وبسببه أخرج ما أخرج من مؤلفات تجمع آثار الشعراء والأدباء، لهذا فاننا قبل أن نتحدث عن أهم مجموعة أخرجها للناس وهى الموسوعة الأدبية التى صدر منها حتى الآن ثلاثة أجزاء الأول والثانى منها على نفقته وهو محدود الموارد وقام النادى الأدبي فى الطائف بطبع الجزء الثالث منها، . وحديثنا عن الموسوعة الأدبية هذه هو لاعطاء القارىء فكرة موجزة عن محتوياتها وعن الجهد الذى بذله الساسي رحمه الله فى جمعها واخراجها، سنتحدث أولا عن كتابين للساسي احدهما شارك فى تأليفه والآخر قام وحده بعبء تأليفه واخراجه .

نفثات من أقلام الشباب الحجازى

هذا الكتاب كما يدل عليه اسمه نفثات من أقلام الشباب الحجازى اشترك فى جمعه وتأليفه مع الساسي الصديقان السادة هاشم يوسف الزواوى وعلى حسن فدعق ، ولعل نصيب صديقنا الأستاذ السيد هاشم فى الجهد كان اوضح كما يظهر ذلك من المقدمة التى كتبها المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان لهذا الكتاب الذى طبع فى اوائل عام ١٣٥٥ هـ.

والكتاب مقتصر على نشر آثار طبقة معينة من الأدباء كانت فى ذلك الزمان تضع خطواتها الأولى فى الطريق الطويل، لتظهر فى دنيا الفكر وبين حملة الأقلام،

ولست أشك أن الساسي رحمه الله بما وهب من حماس دافق كان من المساهمين بحق فى جمع هذه الآثار وانه بذل من الجهد مايستطيع فى سبيل اظهار هذا الكتاب.

هذا الكتاب ونحن نتحدث عن الساسي لايخرج عن الأسلوب الذى تميز به والذى تحدثنا عنه وهو الحماسة والجمع ولكنه مختص بطبقة معينة من الكتاب والشعراء كانوايعتبرون فى ذلك الوقت الجيل الثانى أو الثالث من الأدباء بحكم اسنانهم ولهذا أعطى المؤلفون إسم الشباب لهذه الأقلام ـ نفثات من أقلام الشباب.

الطريف فى هذا الكتاب أن بعض من اشتركوا فيه أصبحوا فيما بعد من ذوي الأسماء اللامعة المحلقة مثل المرحوم عبدالله عريف، والعلامة الفاضل الشيخ حمد الجاسر، والأخ الصديق الأستاذ حسين عرب، وصديقنا الباحث الكبير الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار، وغيرهم ومن الطرائف الأخرى فى هذا الكتاب أننا نقرأ شعرا للعلامة الشيخ حمد الجاسر وللصديق الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار وكذلك للمرحوم الأستاذ عبدالله عريف وهم الذين عرفوا بابحاثهم الجادة والذين لم يشتهروا بالشعر أما بالنسبة لصديقنا الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار وكذلك اسمعنى قبل بضع سنوات قصيدة معجبة رجوت ان ينشرها، وان يستثير هذا الوتر الاخاذ ليضرب عليه كلما تهيأت له الأسباب.

أما صديقنا الأستاذ حسين عرب فقد اصبح من أعلام الشعراء فى هذه البلاد ولكنه يختص نفسه بهذا الشعر اكثر مما يخص به الآخرين. أما الأستاذ حمد الجاسر مد الله فى حياته فانني انقل هنا بعض ابيات من القصيدة التى نشرت له فى هذه النفثات ومطلعها.

عاش الشباب الذى للمجد قد طلبا ... واستشعر الحزم حتى يدرك الاربا
وجدَّ يدأب فى تنفيذ خطته ... ولم يهن عزمه عجزا ومارهبا

ومنها:

فتى العروبة هل فى القوم مستمع ... فبين جنبيَّ نار جمرها التهبا

اذا تذكــرت ماقــد فات من زمــن   كنــا برغم عدانــا فى الــورى شهبـا
كنــا الملوك لاهــل الأرض نحكمهم   بالــعــدل طرا وكنــا سادة نجبــا
الــعــدل منتشــر والجــور منحــدر   والـعلم مزدهــر والجهــل قد غربــا

ولست اقــول ان القصيــدة من روائـع الشعـر، ولكني أقول أن هذه البداية كان يمكن أن تبشر بميلاد شاعر عظيم لو أن صاحبها استمر فى إحياء هذه الملكة التى كانت من أحسن البـدايـات ولست أدرى ان كان اشتغال الشيخ حمد بالتحقيقات التـاريخيـة العظيمـة التى يضطلع بها عن الامـاكن التـاريخية فى الجزيرة العربية قد صرفتـه عن الشعـر أم أنـه يعـود اليـه بعد الحين والحين ولكنه يطويه عن الناس كما يفعـل صديقنـا الأستـاذ أحمد عبدالغفور عطار. ونكتفى بهذا القدر فى حديثنا عن النفثات لنتحدث عن كتاب آخر من مؤلفات الساسي هو.

فى الأدب المقارن ومساجلات الشعراء

حينــما قرأت عنـوان هذا الكتاب ظننت اني سأقرأ بحثا فى الأدب المقارن يعقده صديقنـا السـاسي رحمـه الله وإذا بي افـاجأ بإن الكتـاب عبـارة عن سؤ ال وجهـه السـاسي الى كثـير من الأدبـاء يطلب منهم المقـارنـه بين أدب العقـاد وطه حسين وابداء الرأى فى أى الاديبين الكبير ين ينتهج الأسلوب العلمي فى بحثه ودراساته، وجـه هذا السؤ ال الى كثـير من اعـلام الشعـراء بينهم المـرحـومـين الأستاذة أحمد إبراهيم الغزاوى ومحمد حسن عواد والسادة محمد سعيد العامودى وأحمد محمد جمال وغيرهم وقد أجاب السادة الأدباء فنشر الساسي اجاباتهم وليس هنا مجال البحث فى الاجـابـات ولا فى السؤ ال نفسـه، ولكن الساسي يؤ كد الرأى الذى ذكرته عنه وهو أنه جامع للأدب والشعر وليس مبتدعا فيه وليست هذه الصفة بالتى تنقص من قدره فكـل امـرىء ميسـر لما خلق له، وقـد حفلت كتب التراث فى الأدب العربى بالروائع لما جمعه الرواة ويكفى ان تعلم ان ياقوت الحموى مؤ لف الاغاني ومعجم الأدبـاء وغـيرهـا من أمهـات كتب التراث لم يؤ ثر عنه الكثير من الشعروالانشاء،

كان الـرجـل خزانـة ادب تنقله إلى الناس وتتوارثه الأجيال وقد احتل اسمه مكانه العظيم بهذه الصفة وحدها صفة الجمع والتدوين.

ولست أقول ان الساسي يأتى فى هذه المرتبة من الرواة ولكني استطيع ان أقول انـه كان فرعـا صغـيرا فى شجـرة عظيمـة، وان هذا الفرع الصغير فيه من الشذى والثمـر ما يزكـو ويطيب وعلى هذا الأسـاس وحـده نقـوّم عمل الساسي فى الحفظ والجمع فابداعه هو فى حفظ الابداع وجمعه ثم نشره على الناس.

وكأنما أبت طبيعة الساسي عليه ان يقتصر كتابه فى الأدب المقارن على اجابات الأدباء فاضاف الى الكتاب بعض مساجلات الشعراء انه عاشق شعر وقد ضمت هذه المسـاجـلات الشعـريـة قصائد ومقطوعات شعرية للاساتذة العواد والغزاوى وحمـزه شحـاتـه وأحمـد قنـديـل رحمهم الله وحسين عرب وحسين سرحان مد الله فى حياتهما ولعل بعض ماسجله الساسي فى هذه المساجلات لم يرد فيما نشر من دواوين هؤلاء الشعراء، فهي بصورة من الصور يمكن ان تكون مما يرجع اليه الدارسون لشعر هؤلاء الشعراء.

ونقتطف الآن شيئـا من هذه المسـاجـلات ونبـدأهـا بالمسـاجلة بين الشـاعرين الكبيرين محمد حسن عواد وأحمد إبراهيم الغزاوى: بعث العواد إلى الغزاوى يقول:

أيهـا البـلبـل المغـرد بالـشعـر ... الا أيـن ذلـك الـتـغـريـد؟
لم آثـرت تـنـزوى الـشـهـر ... تلو الشهـر مستعصيـا عليك القصيد
(ادلالا هجـرتـه أم ملالا) ... أم اتـاه منـك الـقـلى والـصـدود
لاتـغـادر فن الـنظـيم يعـانـى ... منـك ما لايطـيـقـه المـعـمـود
فلقـد كنـت والـنظـيم شقيقـين ... وسـيـان منـشـد ونـشـيـد

وقد أجاب الغزاوى العواد بهذه الأبيات

أيهـذا الـذى تواضـع شكـرا ... انـما انـت فى الـبيـان المجيـد
كيـف لا أوثـر الـسكـوت وأصغى ... لشعـور يصـوغـه الـتجـديـد

أنـا ماقـلتـه تظـالـع ضعـفـا   والـذى حكتـه الضليع الشـديـد
وتـعـالـى جد الآلـه فماذا   بعـد فرقـانـه يحيـط الـنـشـيـد
مازج الـروح فهـو حي   وهـو الـرشـد والهـدى والخـلود

ونجد فى هذه المساجلات ان الشاعر الأستاذ حسين سرحان يوجه قصائده إلى الشعراء أحمد قنديل، حمزه شحاته، فيقول فى القصيدة المهداة الى القنديل:

أقتـات من روحي وأشـرب من دمى   ان كنـت عالمـة وان لم تعـلمـى
حتـى اذا حم الـردى لاقـيـتـه   غراد كمـثـل الطـائـر المترنـم

ومنها

يابـنـت ذى سيـارة حسـانـة   تنسـاب فى الـترب إنسيـاب الأرقم
لاتـعـنـفـى فى الـقـول اني فاهـم   من غمـرة الأحـداث مالم تفـهمى
ما هذه الـدنـيـا ومـا غايـاتهـا   ومـن الـذى تكـويـن كي الميسم؟
المـال؟ اهـون مايكـون طلابـه   ان كنـت اعـبـده عبـادة درهـم
الجـاه ايـسـر مايكـون منـالـه   لثـقـيـل غنـم او لخفـة مغـرم
ماذا وراء حيـاتـنـا.. تبـابهـا   ان لم تتـمَّ بجـنـة وجـهـنـم؟

ويوجه إلى حمزة شحاته قصيدة بعنوان سراب يقول فيها:

انس وربـك قد ملأن شغـافـا   حبـا وهجن بك الهـوى الرجـافـا
هاتـيـك أم هاتيـك؟ كل خريـدة   هيـفـاء زانـت ثوبهـا الهـفـهـافـا
علقـت بهن الـعـين ذات عشيـة   فحبـونهـا الاتحـاف والالطـافـا
يخطـرن فى بسـط النسيم وقـد رأى   ما فيـه فاسـتـشـفـى بهن وشـافى
الحسـن زخـرف كل طرف رامـل   والطـيـب فوَّق نشـره الآنـافـا

والقصيـدة كلهـا كبقيـة شعـر السرحان من هذا النمط العالي الفريد فى أسلوبه ومعـانيـة ولقد سجل لنا الساسي استجابة حمزه شحاته لقصيدة السرحان من نفس

الوزن والقافية وبنفس هذا النسق العالي فى معانيه وأسلوبه يقول حمزه شحاته :

أفبعد ماسنح الخيال ووافى	ودَّعْنَ سرحك وانطلقن خفافا
وعدت سوابق وُدِّهنَّ ذواهبا	بالبرء ليس وراءهن معافى
من كل نافرة الهوى لم تقضها	حقا فكيف تميلها استعطافا

ومنها

يا أنت ما كل الغيوم تحملت	مطرا فشيمى العارض الوكافا

ومنها

صرنا الى زمن ينازع قاعد	فيه الفخار الراحل الطوافا
ليت الذى خلق المطامع كالها	للحالمين كما تراد جزافا
أوليت ملتمس السلامة نالها	عرضا كما تجني الزهور قطافا

ولقد استهوت هذه المساجلة صديقنا الأستاذ حسين عرب فوجه الى حمزه شحاته قصيدة من نفس الوزن والقافية يقول فيها :

تركتك مسلوب الفؤاد مجافى	مضنى الهوى تتعجل الانصافا
هيفاء ذابلة العيون كأنما	تسقيك من نظراتهن سلافا
لاحت لعينيك العشية فانطوى	فيها خيالك هائما رفافا

ومنها

والغانيات وعودهنَّ خديعة	تبدى الوفاء وتضمر الاخلافا
هن الرزان اذا خطون على الثرى	فإذا اسرن القلب طرن خفافا

والقصد كما يرى القارىء ناصعة الأسلوب، فريدة المعاني، وليت شعرى مالذى يجعل صديقنا الأستاذ حسين عرب يضن بهذا الشعر أن يضمه كتاب او ديوان ليكون غذاءا للقلوب والاذهان. ولقد اعدانا الساسي بإسلوبه فإذا بنا ننقل هذه الروائع من المساجلات التى اوردها فى كتابه، ولم يكن فى حسباني ان افعل ،

فلست اترجم الان لهؤلاء الشعراء حتى انقل عنهم ولكن الساسي هو الساسي رحمه الله، عاشق شعر وناقل ابداع ، فنحن ننقل عنه هذا الشعر وذلك الأبداع .

الموسوعة الادبيـــة

الموسوعة الأدبية هى أكبر الأعمال التى قام عبدالسلام بعبئها ابتدأ فيها النشر للأدباء والشعراء على ترتيب الحروف الهجائية .

فبدأ بحرف الألف فى الجزء الأول وانتهى الى حرف الغين فى الجزء الثالث .

وقد احصيت عدد الأدباء والشعراء الذين تبدأ اسماؤ هم بحرف الغين فكانو خمسة وثلاثين ادبيا وشاعرا ، ويكاد الجزء الثالث من الموسوعة ان يقتصر عليهم فهم يشكلون مائتين وسبع وخمسين صفحة من هذا الجزء البالغ مائتين وسبعين صفحة ، كان عبدالسلام نفسه ضمن الاسماء التى وردت فى هذا الجزء ولكن الحيز الذى منحه لنفسه كان حيزا ضيقا للغاية فقد نشر لنفسه مقالين فى خمس صفحات احدهما بعنوان وجوب التفرغ للأدب الخالص ، لاينبغى ان نظل عالة على ممارسة بعض أنواع الفن ، هذان عنوانان لمقال واحد اما المقال الثانى فهو كذلك يحمل عنوانا طويلا هو نقد الأدب،والحياة النقد الزم مايكون للبناء وضبط القواعد والأصول ونبذ المساوىء(١)

كانت ميزة عبدالسلام الأولى كما ذكرنا هى حماسة الشديد لقضية الأدب والفكر وكانت ميزته الثانية هى قوة الذاكرة التى تشبه الكمبيوتر فهي تحفظ كلما يلقى اليها وتختزنه ، ولم يكن عبدالسلام يكتفى بحفظ مايعجبه من الشعر والنثر ولكنه كان يلقى ذلك الى الناس رواية شعرية اونثرية تصاحبها الحماسة والانفعال وكان يحتفظ بما يعجبه مما ينشر فى الصحف ويختص به نفسه ليحفظه ويثرى به المجموعة الضخمة التى تختزنها ذاكرته العجيبة .

ومن الطرائف التى اذكرها فى هذا المجال إنه نشر لى قصيدة غزلية حينما كان

---

١ ـ الموسوعة الأدبية للساسي الجزء الثالث من ٥٣ ـ ٦٨

مشـرفـا على تحريـر الصفحة الأدبية بالندوة، كانت القصيدة غزلية كما ذكرت تعود إلى عهد الشباب وكانت قد نشرت قبل سنوات طويلة فى جريدة صوت الحجاز فى الخمسينـات، وكتبت الى عبـدالسـلام رسـالة اعاتبه فيها على نشر هذه القصيدة التى جعلتني اشعــر بالحــرج أمــام أولادى وأرسلت اليـه قصيـدة طويلة بعنـوان التجاريب اشترى بها نفسي منه حتى لايعود الى نشر امثال القصيدة السابقة، ولم يكن من عبدالسلام إلا أن قام بنشر الرسالة والقصيدة معا . . ثم حضر الى جدة فسألته عاتبا ماهو الداعي لنشر الرسالة؟ ألم تكتف بالقصيدة التى نشرت على حلقتين؟

قال فى حماسـة وانفعـال هذا ادب الرسائل . . ثم أضاف وهذا هورأى الأستاذ صالـح جمال وإلى هنـا نستطيـع ان نعتبر الحادث عاديا، ولكن الذى حدث بعد ذلك اني كتبت اليه منذ عام تقريبا اخبره اننى اقوم باعداد ديواني للطبع وسألته ان يبعث الي بنسخ من القصائد التى يحتفظ بها من شعري أو التى تصل يده اليها. ولم يرد عبدالسلام على هذه الرسالة وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى لايرد فيها، وبعـد فترة بسيطـة أرسل الي الجزء الثالث من موسوعته الأدبية وبمطالعتها ادركت أن عبـدالسـلام لم يمتنـع عن الـرد إلا لأنـه أراد أن يحتفظ لموسوعته الأدبية بما لديه خاصة إذا كان البعض من أمثالي لايحتفظون لانفسهم بما يحتفظ به هو عنهم.

ولقـد كنت انتظـر صدور الجـزء الرابع من الموسوعة الأدبية وكنت على ثقة انني سأجـد فيـه بعضـا مما فقدت، ولكن المنية ادركت عبدالسلام رحمه الله قبل اصدار الجزء الرابع الذى لعله يكمل موسوعته الأدبية واغلب الظن ان هذا الجزء مكتمل لديه لانه ذكر فى الجزء الأخير من الموسوعة أنها ستكون من أربعة اجزاء.

ونعود الآن الى الموسوعة نفسها أو إلى ماصدر منها من اجزاء.

لقد ذكرت ان الجزء الثالث يضم آثار خمسة وثلاثين اديبا وشاعرا، ويضم الجزء الثاني آثار واحد وثلاثين أديبا وشاعرا، ولاشك ان الجزء الأول يضم هذا العدد أو مايقرب منه، ولعل الجزء الرابع والأخير يضم مثل ذلك ونستطيع ان نقدر ان عدد

الأدبـاء والشعـراء الـذين تضمهم الأجـزاء الأربعة من موسوعته الأدبية بحوالى المائة وعشرين أديبا وشاعرا وهو عدد ليس بالقليل .

بعض هؤلاء الـذين تضمهم المـوسـوعـة من أصحـاب الأسماء الجهيرة الذين فرضـوا اسماءهم في دنيـا الأدب والفكـر ولكن آثارهم لم تجمع حتى ظهور مجموعة السـاسي في كتـاب أو ديوان، البعض منهم غادر هذه الحياة الدنيا ولم ينشر له ديوان مطبـوع فالمجمـوعـة على هذا الاعتبـار تعتـبر مرجعـا من المراجع التى تنير سبيل الـدارسـين لآثار هؤلاء الشعراء والأدباء الى أن ينتظم لكل منهم مرجع يضم كلما انتـج من أدب وشعـر وعلى سبيـل المثال فان مانشره الساسي لحمزه شحاته وضياء الـدين رجب قبـل ظهـر المجمـوعـات الشعـريـة لهما. لم يضمه كتاب قبل ولايزال مانظمـه صديقنـا الأستـاذ عبـدالوهاب آشي مد الله في اجله من الشعر مطويا بين أوراقـه إن لم يكن مفقـودا بينـما تطالعنا موسوعة الساسي بقصائد ومقطوعات جميلة للأستـاذ الكبـير . ولقـد غادر الأستاذ عبدالقادر عثمان رحمه الله هذه الحياة دو ن ان تجتمـع آثـاره في كتـاب فجاءت موسوعة الساسي لتضم بعضا من هذه الآثار وهذا وذلك ينطبق على كثير ممن تضمهم المجموعة من اسماء .

ليست المـوسـوعـة الأدبيـة عمـلا متكـامـلا ولكنها نواة طيبة للدراسين وخاصة بالنسبة لأولئك الذين عزفوا عن النشر أو الذين غادروا هذه الحياة ولم تجمع لهم آثار في كتاب مطبوع .

قد يأخذ البعض على المجموعة أنها تضم آثارا لا وزن لها وهذا ليس عيبا فيها وقد كان الأجـدر بالعمـل المـوسـوعي ان تتفـرغ له مجمـوعة من الرجال المتخصصين ولكني احكم سلفا بأن تحقيق مثل هذا الحلم لايزال بعيد المنال .

ولقـد قام السـاسي بجهـده الخـاص وحده بعبء اخراج هذه الموسوعة وجمعها وطبـع الجـزء الأول والثـانى على نفقتـه الخـاصـة وهو محدود الموارد ولقد شكى مر الشكـوى في مقـدمـة كل جزء منهـا مما لقيه من تجاهل الأدباء والشعراء وتثاقلهم في الأستجـابـة اليـه وانـا بتجـربتي الخـاصة أصدق كما ذكره رحمه الله في هذا المجال .

نستطيـع ان نعتـبر المـوسـوعـة الأدبية هي أهم عمل قام به الساسي يرحمه الله وهو

يستحق على هذا العمَل الذى قام به بحب واخلاص كل التقدير.

شخصية الساسي

عرفت عبدالسلام رحمه الله فى منتصف الخمسينات من القرن الماضي واتصلت اسبابي بأسبابه حينما كنت اعمل بمكة المكرمة فى مكتب الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله فكنت أراه فى معظم الأيام إما زائرا فى المكتب أوفى جريدة صوت الحجاز أو فى منتزهات مكة فى الأمسيات حيث يجتمع الأدباء والشعراء من الأصدقاء.

كان الأستاذ أحمد قنديل رحمه الله رئيسا لتحرير جريدة صوت الحجاز فى منتصف الخمسينات وكنت إذا فرغت من عملي فى آخر النهار أمرُّ به فى الجريدة ونخرج معا الى المسفلة ثم ينتهى بنا المطاف فى جرول حيث نبيت فى مقهى هناك فى ليالي الصيف هربا من الجو القائظ فى مكة المكرمة وكان عبدالسلام رفيقا ثالثا لنا فى المبيت وانني انقل هنا من كتابي حبات من عنقود الطرفة التالية عن عبدالسلام.

كنا فى ليالي الصيف نخرج إلى ظاهر مكة فنقضي الليل بعيدا عن البعوض والجو القائظ فى البيوت، وكنا جماعة من الأصدقاء، الأستاذ أحمد قنديل وأنا والأستاذ عبدالسلام الساسي وغيره من الأصدقاء، وكنا فى تلك الأيام نتخذ من قهوة - العم حمزه - بالشهداء، وفى موضع جراج الشركة العربية للسيارات الآن، نزلا مختارا للعشاء والمبيت، نقضي الأصيل بالمسفلة مع اصدقائنا من الأدباء الكثيرين، ثم نعود الى الشهداء فنأخذ عشاءنا من جرول، ونمضي به الى العم حمزه فنجد المركاز مهيئا للمبيت، وكان عبدالسلام ولايزال اعجوبة من الأعاجيب فنقضي صدرا من الليل نسمع روايته للشعر، وحماسته للأدب، فتندر معه، وربما هجاه القنديل هجاء الأصدقاء الألداء.. ووفد علينا من جدة الأستاذ أحمد عمر عباس - يرحمه الله - موظفا جديدا فى مكة، وانضم الى الحلقة فى مركاز العم حمزة، وفى الليلة الأولى التى وفد علينا فيها الأستاذ أحمد وكان ضيفا علينا قال انه كان يعمل فى شركة التعدين فى مهد الذهب.. وإنه تعود ان يشرب قهوة باللبن كل

صباح وابدى إنه لاطاقة له بالسير على الريق من الشهداء الى القشاشية دون شرب هذه القهوة بالحليب.

وعقدنا جلسة مستعجلة مع العم حمزة لبحث الموضوع، ولم يخيب العم حمزة امل الأستاذ أحمد فأبدى استعداده لصنع القهوة وأحضارها قبل مطلع الشمس ليستيقظ الأستاذ أحمد فيجدها طوع يديه، وكان عبدالسلام أكثر الحاضرين حماسا لهذه القهوة.. فلقد حاول معنا من قبل تناول شيء فى الصباح ولم نوافقه بحال من الأحوال..

وكان من عادة عبدالسلام كل ليلة ان يحافظ على امتعته فيضع الكوت والغترة تحت المخدة ويرفع الحذاء - اكرمكم الله - فى جوانب الكرسي الذى ينام عليه، وكنا نعجب لهذا الحرص، ونتندر عليه ولكنه افهمنا انه رقدي قديم، وليس حديث عهد بالنوم فى المقاهى، وهو يعرف أصول الرقدية وقوانينهم و لرقدي كما لابد وان يعرف القارىء بضم الراء وتشديدها وفتح القاف دون تشديد هو مفرد راقد ويختص ذلك بمن تعود النوم فى المقاهي، وهو اصطلاح لاتتنكر له اللغة الفصحى فيما اظن.

ونام عبدالسلام ليلتها فى موجة عارمة من الفرح، ونسي فى غمرة هذه الفرحة ان يقوم بالأجراءات الاحتياطية التى يتخذها لامتعته وحذائه، ونمنا. واستيقظت فى الصباح الباكر على حركة قدوم العم حمزه بالقهوة واستيقظ عبدالسلام وادخل قدميه فى الحذاء، وصرخ صرخة مفزعة طارت منها بقية النوم من عيني، واستيقظ لها كل من فى المقهى من الناس، وسألنا عبدالسلام مابك؟ ولكن اجاباته كانت مختلطة بالصراخ فلم نفهم شيئا، ولكنا أدركنا أن هناك حدثا إصابه، وسارعنا إليه فرفعناه الى الكرسي فإذا بقدمه التى ادخلها فى الحذاء يصب منها الدم وقد بدا عليها التورم والاحتقان ووجدنا فى الحذاء عقربا..

وتجمع الناس وفى السيارة الوحيدة الموجودة فى المقهى فى ذلك الصباح بعثنا عبدالسلام الى مستشفى اجياد لاسعافه ولم يشرب القهوة، ولم يتمتع بها، ومن مأمنه يؤتى الحذر. حيا الله صديقنا عبدالسلام فلقد كان مصدر سرور حتى حينما

يتعرض للأذى . . وقاه الله من كل سوء .

انتهى مانقلناه من كتابنا حبات من عنقود الذى نشر فى الحجة من عام ١٣٨٧ هـ .

ونعـود الآن الى مواصلة الحـديث عن شخصية الساسي فنتحدث عن دوره فى المعركة بين الشاعرين الكبير ين حمزه شحاته ومحمد حسن عواد رحمهما الله .

صلة الســـاسي بالعـواد وشحاته

عاصرت المعركة الشعرية التى نشبت بين المرحومين الاساتذه محمد حسن عواد وحمـزه شحـاتـه والتى بدأت على صفحـات صوت الحجـاز ثم انتهت الى الهجاء المقـذع الـذى لايمكن نشـره فى الصحف فكـانت القصـائد تنسخ باليد ، ولم تكن الآلات النـاسخـة موجـودة الا فى دوائـر الحكـومـة ، وتوزع فى أماكن معينة فى مكة المكرمة وقد اشترك بعد ذلك فى المعركة المرحوم الأستاذ أحمد قنديل متحزبا لصديقه الأستاذ حمزه شحاته ، والأستاذ محمود عارف مد الله فى أجله متحزبا للعواد .

كان حمزه مقيـما فى مكـة المكـرمـة فى تلك الأيـام وكنت انـا وقنـديـل على صلة مستمـرة به وكـان ينظم القصيـدة فيأخـذهـا عبـدالسلام ويقوم بمساعدة البعض بكتـابـة عدة نسـخ منهـا ويبدأ توزيعها على أناس يعرفهم فى حارة الباب واجياد ، والقشـاشيـه والمسفلة والمعـلاة وجرول وهكذا ومن المؤكد انه كان يوصل القصيدة أولا إلى عواد الـذى يقـوم بدوره بالرد عليها ولعل عبدالسلام كان يقوم معه بنفس الـدور ولم يكن السـاسي يظهـر انـه كان على خلاف مع العواد ، لم المس ذلك منه اطـلاقـا ولكنه كان متحمسا للمعركة باعتبارها معركة أدبية تثير شاعرية الشاعرين الكبـير ين وتـدفعهـما الى موالاة النظم والانتـاج وان كان هذا الشعـر يجافى الخلق الكـريم فلقـد اسـرف الشاعران حين احتدمت بينهما المعركة فى الهجاء ولم يكفًا الا حينما شعرا بأن الأعين قد التفتت لرصدهما ، وحسنا فعلا .

ولست أشـك أن عبـدالسـلام كان مسرورا ومزهوا لصلته بالشاعرين الكبير ين ولقـد كان يحب حمزه كما يحب العـواد ولقـد سمعته مرارا وهويقسم على هذا الحب

وكان حمزة كذلك ولكنه لم يكن يعفيه من السخرية اللاذعة وكان عبدالسلام يتقبل ذلك ضاحكا ، ولقد كان قنديل رحمه الله يطلق السجع الساخر مستخدما لقب الساسي فيه وهو يستمع إليه فى سرور وجذل ، أما عواد فقد هجا الساسي بقصيدة مقذعة خاصمه الساسي بسببها بعض الوقت ولكنه مالبث أن عاد الى الاتصال به والاشادة بأدبه وشعره فى كل زمان ومكان .

وكان الساسي على أى حال إنسانا سمحا يحب الناس ويكثر من الاتصال بهم ويألفه الناس ويحبونه ويكثرون ممازحته ، ويتقبل هو ذلك المزاح ضاحكا وإذا غضب فما يلبث ان يفىء الى الرضا والسكون .

وكما كانت صلة الساسي قوية بكبار أدباء عصره فلقد كانت صلته قوية كذلك بشباب الأدب وناشئته وكان الساسي يتخذ بينهم مركز الأستاذيه ويستقطب اهتمامهم بما يرويه لهم من أحاديث أصدقائه من كبار الأدباء والشعراء وبما ينشده لهم من محفوظاته الشعرية لهؤلاء الشعراء واخبارهم ، ولهذا يمكن اعتبار الساسي همزة وصل بين كبار الأدباء وصغارهم فى ذلك الزمان .

ولابد ان نذكر ان الساسي لم يتزوج فى سن مبكرة وحينما تزوج لم ينجب فخلت حياته من مسئوليات الولد وهموم العائلة ، ولم يكن هناك إلا زوجه التى رأيتها ترافقه فى أحدى رحلاته الى لبنان ولقد ساعده هذا على التفرغ للأدب الذى احبه طيلة حياته .

والساسي على أى حال نشأ فى أسرة تشتغل بالعلم والأدب فأخوه الأكبر المرحوم الشيخ الطيب الساسي كان رئيسا لتحريرة جريدة القبلة فى العهد الهاشمي وقد هاجر مع من هاجر فى بداية العهد السعودى ثم عاد ليعمل رئيسا لتحرير جريدة أم القرى فى مكة المكرمة وهو رجل يتميز بالعلم والفضل .

وأخوه الشيخ عبدالله الساسي الذى كفل عبدالسلام وقام على تربيته كان مدرسا فى مدارس المدينة المنورة وجدة ومكة ولقد أدركته فى مكة المكرمة فى منتصف

الخمسينات وهو مدير لاحدى المدارس الحكومية .

والدكتور عمر الطيب الساسي الذى يصافح إسماع القراء فى الأذاعة بحديثه عن الكتب والذى كان من أساتذة كلية الآداب بجامعة الملك عبدالعزيز ، واظنه يعمل الآن فى المانيا هو ابن شقيق عبدالسلام رحمه الله فلاعجب ان يكون عبدالسلام متعلقا بالأدب والرواية وقد نشأ فى هذه الأسرة الكريمة التى تعمل فى هذا المجال .

هذا وقد ألم المرض بصحة عبدالسلام فبقى فى داره لبعض الوقت ولكن المنية كان قد حانت حينها فأسلم الروح صباح الأربعاء ٢٣ ذى الحجة ١٤٠١ هـ ودفن فى مكة المكرمة البلد التى نشأ فيها وأحبها وقضى معظم حياته بها .

رحم الله عبدالسلام رحمة واسعة فقد قضى حياته منشغلا بالأدب والشعر وعمل ماوسعه الجهد لتسجيل هذا الأدب وحفظه ثم اذاعته بين الناس ، وحبذا لو قامت النوادى الأدبية بطبع الباقى من مؤلفاته وأهمها الجزء الرابع من الموسوعة الأدبية ، وشعراء الحجاز فى القرن الماضي الذى نوّه عنه فى كتابه الأخير وبالله التوفيق .



۞ عبدالقدوس الأنصاري ۞



عبدالقدوس الأنصاري

معتدل القامة، أقرب إلى الطول منه إلى القصر، معتدل الجسم أقرب إلى النحافة منه إلى الأمتلاء شديد إسمرار الوجه عالي الجبين واسع العينين عظيم الشفتين.

ولد الأستاذ عبدالقدوس الأنصاري فى سنة ١٣٢٤ للهجرة بالمدينة المنورة وتوفى والده وهو فى الخامسة من العمر فكفله قريبه الشيخ محمد الطيب الأنصارى العالم والمدرس بالمسجد النبوي الشريف.

تلقى عبدالقدوس دروسه الأولى فى قراءة القرآن الكريم بالمسجد النبوي الشريف وهو فى السابعة من العمر وأتم حفظه فى سنتين وكان يتلقى دراسته فى مختلف الدورس الدينية فى حلقات المسجد النبوي الشريف خاصة على يد أستاذه وكافله الشيخ محمد الطيب الأنصاري كما تعلم الكتابة على يد أحد الخطاطين الأتراك. وحينما بلغ السادسة عشرة من العمرة انتقل للدراسة بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة فى عام ١٣٤١ هـ عند بداية تأسيسها وكان الشيخ الطيب الأنصاري مشرفا عليه وحصل على الشهادة النهائية منها فى سنة ١٣٤٦ للهجرة.

وبعد تخرجه من مدرسة العلوم الشرعية شغل بها وظيفة أستاذ الأدب العربي، ثم انتقل إلى العمل الحكومي فعمل بديوان الأمارة بالمدينة المنورة معاونا لرئيس

الديوان، وفى سنة ١٣٥٩ هـ عين رئيسا لتحرير جريدة أم القرى فانتقل عمله إلى مكة المكرمة فبقي بها إلى نهاية سنة ١٣٦١ هـ (١). حيث انتقل للعمل بديوان نائب جلالة الملك فى مكة المكرمة، ثم عين سكرتيرا لمجلس الوكلاء وتنقل فى الوظائف الادارية الى أن عين مستشارا فى الديوان ثم مديرا للشئون المالية بديوان رئاسة مجلس الوزراء ثم تفرغ بعد ذلك لاعماله الخاصة.

ثقافتـــــــــــه

لم يكتف عبدالقدوس بما تلقاه من العلوم فى حلقات الشيخ الطيب الأنصارى بالمسجد النبوي الشريف ولا بما تعلمه فى مدرسة العلوم الشرعية فلقد كان الشاب عبدالقدوس محبا للقراءة منذ نشأته فأكب على ما كان يصل الى يديه من كتب الأدب والشعر قديمه وحديثه يقرأ ويحفظ ويتحدث إلى زملاء دراسته وأصدقاء صباه فى كل هذا الذى يصل اليه. ولقد كانت حلقة قريبه وكافله الشيخ الطيب الأنصاري تضم الكثير من شباب المدينة الذين لمعت إسماؤ هم فيها بعد، وكان من زملائه فى حلقة الشيخ الأنصاري الشيخ ضياء الدين رجب والسيد عبيد مدني والأستاذ عبدالحميد عنبر رحمهم الله ومعالي الشيخ محمد الحركان والأستاذ عبدالحق نقشبندى وغيرهم ممن نسأل الله لهم العافية والعمر المديد.(٢)

كانت قراءات عبدالقدوس الأولى تجعل الأدب القديم هو القدوة التى يحذو حذوها ولكن صلته بصديق صباه وزميله فى حلقة الشيخ الطيب الأنصارى السيد عبيد مدني رحمه الله فتحت له المجال للأطلاع على الأدب الحديث فقرأ دواوين شوقي وحافظ والزهاوى وسامي البارودى، كما قرأ مؤلفات المنفلوطي والرافعى فتفتحت أمامه الآفاق ليسلك هذا الطريق الجديد وكان لتشجيع صديقه السيد عبيد مدني الذى وصفه بأنه رائد الأدب الحديث فى المدينة المنورة كما وصف نفسه

---

١ - ١١٤ تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية لعثمان حافظ.

٢ - انظر الحلقتين المنشورتين بجريدة المدينة المنورة عن السيد عبيد مدني فى سلسلة أعلام الحجاز.

بأنـه الـرجـل الثـانى بعـده فى ريـادة الأدب الحديث فى مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة واتم التسليم .

ذكرياتي عن الأنصـــــارى

عرفت عبـدالقـدوس رحمه الله من مقالاته التى كان تنشر فى صوت الحجاز أولا ثم من مجلة المنهل التى اصدرها فى الحجة من عام ١٣٥٥ هـ وتوثقت صلتي به بما كنت أنشـره فى مجلة المنهـل من قصص ومقـالات وشعـر ثم حضر إلى مكة المكرمة للحـج فى النصف الثـاني من الخمسينـات على مااذكـر ونـزل ضيفـا على معـالى المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان الذى كنت سكرتيرا له فكنت أراه فى كل يوم ، وقـد زادتني هذه اللقاءات معرفه به فرأيت فيه الأديب الذى يجمع بين الأدب والعلم ، فكان أديبا محققا يزن الكلام الذى يكتبه ويقوِّم الكلام الذى يقرأه ويتنبه إلى مايقع فيه الكثير ون من أخطاء فى اللغة فى نطق بعض الكلمات وتصريفها ومن يتتبع مجلة المنهـل يجد الكثـير من هذا الـذى اذكـره مبثـوثـا بين صفحاتها ، وكان الرجل الى جانب هذا وذاك أديب الطبع والخلق فكان يتنزه فى مجلسه وفى كلامه عما يسف به الكثير ون .

غرامــــه بالآثار

وكان مغرما بالآثار وتحقيقها وله فى ذلك المؤلفات التى سنتحدث عنها بعد ومما اذكره عن ولعه بالآثار اني ذكرت له يوما وكنا نصطاف بالطائف ولعل ذلك كان فى أوائل الستينات انى بينما كنت أسير فى ضواحى الطائف عثرت على مقبرة وجدت بها شواهـد على كثـير من قبـورهـا وقـد كتب فى هذه الشـواهد اسماء المتوفين ومن أعجب ما رأيت شاهدا وضعه زوج ثكل زوجته وبعد ان ذكر اسمها وتاريخ وفاتها سأل الله ان يلحقـه بها فكتب هذه الجملة «والحق بها زوجهـا» واهتم عبـدالقدوس رحمـه الله بأمـر هذه المقـبرة وطلب ان اصفها له فاخبرته انني كنت امشى على غير جادة بعـد عصـر أحـد الأيـام وكانت الطائف محصورة بين أسوارها ولم يكن خارج

مسجد ابن العباس الا بعض البيوت والبساتين وكانت الأرض خلوا من البناء بين شهار وحوايا وقروى والسلامة، وبعد الحاح منه تواعدنا على الخروج معا، وكنا نسير على الأقدام، فلم يكن لواحد منا فى ذلك الزمان مايركبه من دابة فضلا عن السيارة والحمد لله على ماأعطى ووهب، وكنا فى اكتمال الشباب ومطلع الرجولة قويين نشطيين فخرجنا وقضينا الوقت من بعد العصر الى ان ادركنا الظلام نضرب على غير هدى ولم استطع العثور على المقبرة التى رأيتها والتى حرص عبد القدوس رحمه الله ان يراها.

اطلاعــــه الواســـــع

وكان عبدالقدوس رحمه الله واسع الاطلاع على الكتب قديمها وحديثها وكان يخص الكتب القديمة منها بكثير من اهتمامه ولعل ذلك يعود الى ولعه بالتاريخ والآثار والمتتبع لمؤلفاته المطبوعة وآثاره المنشورة يدرك سعة اطلاعه وعظيم معرفته.

اخبرنى رحمه الله ان مكتبته الخاصة تشغل شقة كاملة فى العمارة التى يملكها والتى يدير منها مجلة المنهل وقال لي فيها قال ان كتب الرحلات فى المكتبة اصبحت تشغل جزءا كبيرا منها. ومما اذكره فى هذا الباب انني كنت اقيم فى مكة منذ عام ١٣٥٥ إلى عام ١٣٦٤هـ وقد استلفت نظرى ما رأيته فى المسجد الحرام مما لم يكن معهودا أو مذكورا فى العهد النبوي وفيما تلاه مثل المطوفين الذين يقودون الطائفين بالبيت الحرام وبين الصفا والمسعى، وكذلك الحمام الموجود فى المسجد الحرام وهو بلون واحد وشكل واحد مما يدل على انه من فصيلة واحدة وكذلك الاغوات الذين ينظمون الصفوف فى ساحة المطاف ويقومون على شئون النساء.

استلفتت هذه الأمور كلها نظرى وبدأت أسأل عنها فضلاء المكيين وابحث عن جذورها الأولى ومتى بدأت، وكنت أعد لذلك كتابا ذهبت مع كل أسف أصوله كما ذهب الكثير من أوراقى عبر السنين وكنت قد كتبت بعض الفصول عن بعض هذه المواضيع ونشرتها قديما فى جريدة البلاد السعودية.

كما نشرت أخيرا شيئاً من ذلك فى جريدة المدينة المنورة

ونعـود بعـد هذا الاستطـراد الى صديقنـا المـرحـوم الأستاذ عبدالقدوس ، فقد كتبت اليه وهو فى المدينة المنورة قبل انتقاله الى مكة ورجوته ان يبحث فى مكتبات المدينة المنورة عن كلما يتعلق بأغوات الحرمين ويزودنى به ، ولم يكذب عبدالقدوس رحمه الله ظني فلما لم يجد كتابا باللغة العربية فى هذا الشأن أرسل الي بترجمة كتاب باللغـة الـتركيـة فى هذا المـوضـوع . اريد بذكر هذه الحادثة ان أثبت سعة اطلاعه ومدى اهتمامه بالابحاث التاريخية والأثرية رحمه الله .

مجـــــلة المنهل

اصـدر عبـدالقـدوس مجلة المنهـل فى ذى الحجـة من عام ١٣٥٥ هـ وهـو مقيم بالمدينة المنورة وقد اتخذ لها مقرا بشارع العنبر ية قريبا من المسجد النبوي الشريف وكان يصدرها وهو يعمل بالوظائف الرسمية التى كان يتقلدها .

ومجلة المنهـل تمثـل الكثـير من شخصيـة عبـدالقـدوس رحمه الله فقد اصر على اصـدارهـا واستمرارها رغم قلة الموارد ولست أشك انه لقي الكثير من الصعوبات المالية خاصة حتى ابقاها مستمرة مايقرب من نصف قرن دون كلل او ملل ، فالمنهل ليست من المجـلات التى تحظى باعـلانـات المؤ سسات والشـركات أو الأفراد ولقد كانت ارامكـو تنشـر بها اعـلانـات ثابتـة لا أشك ان الباعث عليها هو التقدير لهذا العمل الثقافى الرائد ولم تكن الجدوى الاعلامية للاعلان فى حسبانها .

ومجلة المنهـل كما يعلم قراؤ ها مجلة متخصصـة تعنى بالشئـون الثقـافية والأدبية والعلمية فليس للاعلان فيها سوق رائج لان قراءها طبقة خاصة من الناس . ولكن عبـدالقـدوس استمـر فى اصـدارها رغم العوائق بل واستمر فى تطوير طباعتها عاما بعـد عام فاخـذت تسـايـر المجـلات الأخـرى فى الطبـاعـة الانيقة المزودة بالصور والرسوم مع جودة الورق وجمال الأخراج .

والمنهل تصدر شهرية منذ بدء تأسيسها ولكني لاحظت فى السنوات الأخيرة ان

المجلة تصـدر كل شهـرين مرة إلا فى بعض الشهـور التى تتجمع فيها المواد فيصدر بها عدد خاص لكــل شهـــر، وعلى أي حال فان هذا الـــدمـــج قابله زيـادة عدد الصفحـات وكثـرة المـواد التى تحتـويهـا. وإلى جانب تطور المجلة هذا من الناحية المـاديـة فإن المحتـوى كان دائـما يزخـر بالمـواد الثقافية فى شتى فنون العلم والأدب وبعض هذه المـواد كان يتميـز بالتحقيق والتـدقيق وخـاصـة فى المبـاحث التـاريخية والأثرية واللغوية التى كان عبدالقدوس نفسه يرحمه الله يعنى بها.

وقـد حظيت مجلة المنهـل بتقـديـر كثـير من العلماء والباحثين من خارج المملكة العربية السعودية فكانوا يرسلون اليها بعضا من آثارهم تقديرا لدورها البارز فى نشر العلم والأدب والـدين. وقـد احتفظ عبدالقدوس للمنهل بمكانتها الطيبة بابتعاده عن المهـاتـرات وتـرفعـه عن الاسفـاف فى الجدل أو الخروج عما رسمه للمجلة من حدود البحث فى نطـاق مقـارعـة الحجـة بالحجـة والمجادلة بالحسنى، وتخير النافع والمفيد. ولقد كان لاحتفاظ المجلة بهذا المستوى اكبر الأثر فى استثنائها حين صدور قرار دمج الصحف وتحويلها إلى مؤسسات فكانت المنهل هي المجلة الوحيدة التى استثنيت من بين جميـع المجـلات والصحف التى كانت تصـدر فى المملكة العربية السعودية وبقيت خالصة بإسم صاحبهـا دون شريك، ولقد كان هذا الاستثناء سببا فى احتفاظ المنهل بملامحها الخاصة دون تغيير.

المنهل مرجع هـــام

وأستطيع أن أقول ان اعداد المنهل عبر هذه العقود من السنين تعتبر مرجعا هاما لكثـير من الشخصيـات والمبـاحث ولقد رجعت اليها في ترجمتى للسيد عبيد مدني رحمه الله فى أعلام الحجاز كما رجعت اليها فيما انا بسبيل اعداده من ترجمة للشيخ أحمد إبراهيم غزاوى الشاعر المعروف يرحمه الله، وستبقى مرجعا للباحثين بما تضمه بين جوانبها من كنوز الثقافة والعرفان، واني لارجو ان يعنى الأستاذ نبيه الانصارى بالسـير بها على خطى والده الكـريم وأن يحافظ على تطويرها مادة ومعنى وهو

القادر على ذلك بعون الله .

مؤلفــات عبدالقـــدوس

ألف عبدالقدوس رحمه الله مؤلفات كثيرة نثبت هنا اسماءها :

التوأمان ـ قصة اجتماعية

آثار المدينة المنورة

بين التاريخ والآثار

الانصاريات ـ ديوان شعر

بناة العلم فى الحجاز وهو ترجمة للسيد أحمد فيض آبادى مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة .

موسوعة تاريخ جدة وهو كتاب ضخم فى تاريخ جدة .

الملك عبـدالعـزيـز فى مرآة الشعـر وهـو البحث الـذى قدمـه الى مؤتمر الأدباء السعوديين الأول الذى عقد بمكة المكرمة فى ١٣٩٤/٣/٤ هـ

تاريخ الكعبة المعظمة قبل الاسلام

شاعر العرب عبدالمحسن الكاظمي

اصلاحات فى لغة الكتابة والأدب

بنو سليم

رحلة فى كتاب من التراث

التحقيقات المعدة بحتمية ضم جدة .

مع أبن جبير فى رحلته

طريق الهجرة النبوية

تحقيق اماكن مجهولة بالحجاز وتهامه .

والقسم الأكـبر من هذه المؤلفـات يتسم بطابع التحقيق التاريخي ، ويدل على اهتـامـات عبـدالقـدوس رحمـه الله بالآثـار والتـاريخ أما القسم الآخر فيدل على

اهتماماته بالتحقيقات اللغوية والأدبية وهى مكملة لاهتماماته التاريخية والأثرية.

هذا هو المطبوع من مؤلفاته ولقد ترك بعض المؤلفات التى لم تطبع فمنها ما قد كمل وماهو تحت الأكمال، ولن تتسع هذه الترجمة للكتابة عن كل هذه المؤلفات لذا فقد اخترت الكتابة عن اضخم كتبه وهو موسوعة تاريخ مدينة جدة والذى بذل الكثير من الجهد والوقت فى جمعه وتحقيقه.

وكذلك عن كتابه الهام آثار المدينة المنورة الذى ظهرت طبعته الأولى قبل نصف قرن ولنبدأ بآثار المدينة المنورة

آثار المدينة المنورة

لعبد القدوس رحمه الله كتاب صغير الحجم ولكنه عظيم القيمة والقدر هو كتاب آثار المدينة المنورة الذى ألفه قبل نصف قرن، فقد ظهرت طبعته الأولى فى سنة **١٣٥٣** هـ، وعبدالقدوس يومها فى الثلاثين من العمر ثم أعيد طبعه فى عام **١٣٧٨** هـ وطبع للمرة الثالثة فى سنة **١٣٩٣** هـ وقد قسم الكتاب الى عشرة أقسام هى كما يلى :-

١ - قسم الدور

وقد تحدث فيها المؤلف أولا عن الدور التى نزل بها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه أول وصوله إلى المدينة المنورة وهى دار كلثوم بن الهدم وسعد بن خيثمه بقباء ثم دار أبي أيوب الأنصارى التى اتخذها ﴿ﷺ﴾ مسكنا الى أن بنى دوره بجوار المسجد. كما تحدث عن دور عبدالله بن عمر وجعفر الصادق وعثمان ابن عفان وأبي بكر الصديق ودار ريطة ودار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ودار مروان بن الحكم. وحدد المؤلف مواقع هذه الدور مستشهدا بالأدلة التاريخية التى توصل اليها.

٢ ـ قسم القصـــــور

أمـا عن القصـور الأثـرية فقد تحدث الكاتب عن قصر سعيد بن العاص الذى لاتزال آثاره باقية حتى اليوم تشهد بماضٍ عريق لهذا القصير الذى قال الشاعر فى وصفه :

القصر فالنخل فالجماء بينهما   احلى الى القلب من أبواب جير ون

وزين حديثـه عن القصـر بصـورة فوتـوغـرافيـة لبقـايـاه الشاهدة بماضيه الغابر التليد . وكذلك تحدث عن قصر عاصم والسد الذى بناه بجوار قصره .

٣ ـ قسم الحصون

وفى هذا القسم تحدث المؤلف عن حصن كعب بن الأشـــرف فى بنى النضـــير واثبت له أو على الأصـح لبقـايـاه صورة فوتوغرافيه ، وقد زار عبدالقدوس رحمه الله الحصن ثلاث مرات ليتثبت من ان هذه البقـــايـــا هى حصن كعب بن الأشـرف ، وليست بقـايـا حصن آخـر أو منـازل أخـرى ويقص علينـا الشكوك التى قامت فى نفســه ، والأدلـة التى توصـل اليهـا بعـد البحث فى كتب التـاريخ والاستفسار من سكـان المنطقـة من الأحيـاء ، وكـذلـك الأمر بالنسبة لأطم الضحيان الذى اثبت صورة فوتـوغـرافيـة لبقـايـاه وهـولا حيحة بن الجلاح وماذكرناه عن اطم الضحيان بنطبق على اطم ابي دجانة الساعدي الانصارى .

٤ ـ قسم المساجد

تحدث فيـه المؤلف عن مسجـد قبـاء ومسجد الجمعة والمسجد النبوي الشريف ومسجـد المصلى أو مسجـد الضمان ومسجد الفتح ومسجد ذباب ومسجد القبلتين ومسجد بني ظفر ومسجد السقيا ومسجد الاجابة ومسجد السجدة ومسجد الشمس .

المسجد النبوى الشريف

وقـد رأيت ان استخلص للقارىء بعض المعلومـات عن المسجـد النبوى الشريف لما لهذا المسجد من مقام عظيم فى نفوس المسلمين عامة ولاثره البالغ فى تاريخ الاسلام.

١ ـ بني المسجـد النبـوي الشـريف فى السنـة الأولى للهجـرة على يدى النبي صلوات الله وسلامـه عليـه وكـان بنـاؤه بسيطا بالغ البساطة كان اساسه الحجارة وجدره من اللبن وعمده من جذوع النخل وسقفه الجريد وكانت مساحته نحوا من ٣٥ مترا من الجنـوب الى الشمال و ٣٠ مترا من الشـرق الى الغـرب وقـد اشترك المسلمون فى البناء وشاركهم فى ذلك النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

٢ ـ زاد النبي ﴿ﷺ﴾ فى المسجد فى السنة السابعة للهجرة فاصبح مربعا.

٣ ـ زاد عمـر بن الخطـاب رضى الله تعـالى عنـه فى المسجـد فى السنـة السابعة عشرة للهجرة خمسة أمتار فى الجنوب وعشرة امتار فى الغرب و ١٥ مترا فى الشمال.

٤ ـ جدد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فى عمارته فى سنة ٢٩ للهجرة فبناه بالحجـارة والجص والعمـد المحشوة بالحديد وسقفه بالساج وزاد فى الشرق والغرب والشمال والجنوب، يقول المؤلف وهى منتهى الزيادات بجنوبي المسجد حتى الآن.

٥ ـ جدد الوليد بن عبدالملك عمارة المسجد فى عام ٨٨ للهجرة وانتهت العمارة فى سنة ٩١ للهجرة، وزاد فيه من الغرب والشرق وادخل حجر امهات المؤمنين فى المسجـد وأقـام الـدائر المخمس على الحجرة، وعمره بالحجارة المطابقة، والجص والعمد، ونقش جدرانه بالفسيفساء والمرمر وسقفه بالساج وذهبه.

٦ ـ زاد المهدى العباسي فى عام ١٦١ هـ فيه وانتهت عمارته فى سنة ١٦٥ هـ ولم يذكر المؤلف مقدار هذه الزيادة.

٧ ـ وقـع حريق فى المسجـد النبـوي الشـريف فقام الخليفة المستعصم بتجديده وبدأت العمارة فى سنة ٦٥٥ للهجرة وانتهت فى عصر الظاهر بيبرس البند قدارى.

اقـول ولايضـاح الأمـر نذكـر ان الخليفـة العباسى المستعصم امر بتجديد عمارة المسجد النبوي الشريف وبدأت العمارة فى سنة ٦٥٥ هـ وفى عام ٦٥٦ هاجم التتار بقيادة هولاكو بغداد واجتاحوا واسرفوا فى قتل أهلها حتى يذكر ان عدد القتلى بلغ اكثر من ألف ألف نسمة ـ مليون قتيل ـ وقتلوا الخليفة رفسا.

ثم ساروا الى الشام فالتقى بهم المصريون بقيادة قطز فى عين جالوت وهزم الله التتار على يد جيش المسلمين فى الخامس عشر من رمضان سنة ٦٥٨هـ ، ثم تولى الظاهر بيبرس البندقدارى السلطنة فى مصر بعد أن قتل قطز ومد نفوذه الى الحجاز فقام بعدة اصلاحات بالحرم النبوى الشريف وارسل الكسوة الى الكعبة كما أرسل الصدقات والزيت والشموع ، ويبدو انه بدأ سياسته فى مد نفوذه الى الحجاز باكمال العمارة فى المسجد النبوى الشريف التى بدأها الخليفة المستعصم العباسي فى سنة ٦٥٥ هـ. (١)

٨ ـ جدد الملك النـاصـر محمـد بن قلاوون سقفـه شرقي رحبتـه وغـربيها وزاد رواقين فى السقف الجنوبي مما يلى الرحبة عام ٧٧٥ و ٧٠٦ و ٧٢٩ للهجرة.

٩ ـ وقد تم تجديد الرواقين المذكورين آنفا فى عهد الأشرف برسباى عام ٨٣١ للهجرة.

١٠ ـ جدد الظاهر سقف الروضة وسقوفا أخرى عام ٨٥٣ للهجرة (٢)

١١ ـ عمره قايتباى سنة ٨٧٩ هـ.

١٢ ـ قام بعمارته العظمى المنتهية فى آواخر القرن التاسع الهجرى.

---

(١) «٣٠٨ / ٣١٦ تاريخ الخلفـاء امـراء المؤمنـين للسيـوطى . «١٩٥ / ١٩٨ قيـام دولة المماليك الاولى فى مصر والشام لأحمد مختار العبادى»

(٢) أقول هو الظاهر جقمق من سلاطين المماليك الجراكسة. جاء فى وفاء الوفاء للسمهودى مايلى :

(ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جقمق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسـين وثـمانـمائه وماقبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره . «٢٦٨ المماليك للدكتور السيد الباز العريفى» ٤٣٣ وفاء الوفاء . . . . الجزء الثانى» . . .

أقـول والظـاهر مما ذكره المؤلف ان قايتباى قام بعمارتين للمسجد الأولى فى سنة ٨٧٩ هـ والثانية التى وصفها بالعظمى هى التى انتهت فى سنة ٨٧٩ هـ.

١٣ ـ جدد السلطان سليمان كامل الجدار الغربي من حذاء باب الرحمة إلى المنارة السليـمانيـة سنة ٩٧٤ هـ كما هو منقوش بعلو الجدار المذكور من الداخل قرب باب الرحمة، وبنى المحراب السليماني عام ٩٣٨ هـ والمحراب النبوي على مايبدو من هيئته.

١٤ ـ عمره السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٠ هجرية.

١٥ ـ بنى السلطان محمود القبة على القبر الشريف ثم أمر بترميمها ودهنها باللون الأخضر الذى لاتزال تصبغ به الى اليوم وذلك فى سنة ١٢٣٣ كما ورد فى مرآة الحـرمـين لابـراهيم رفعت، وقـد ذكـر المؤلف نقلا عن كتاب مرآة الحرمين لايوب صبرى المؤلف باللغة التركية والمطبوع فى الآستانة سنة ١٣٠٠هجرية ما ملخصه:

فى عهد السلطان محمود خان الثانى وجد فى القبة الخضراء تشقق، بسبب عدم متـانـة جدرانهـا، وعـدم متـانـة حزامها العلوى، فأمر السلطان محمود بهدمها من قواعدها، وبناها على قواعد مثبتة ورفع بناءها الحالي.

ويعلق المؤلف على ذلـك قائـلا، ويتضح من ذلك ان القبة التى بناها قايتباي هى غير هذه القبة الخضراء الحالية ويؤيد ان القبة الخضراء الحالية عثمانية البناء هذا الهلال الموضوع فوقها وهو شعار الدولة العثمانية كما هو معروف.

أقول: والذى استطعت إستخلاصه مما نقلناه آنفا هو أن السلطان قايتباى بنى القبـة الخضـراء على القـبر الشـريف فى عمارته العظمى للمسجد والتى انتهت فى اواخر القرن التاسع الهجرى، ثم ان هذه القبة ظهر فيها التشقق فى عهد السلطان محمـود خان فى سنـة ١٢٣٣ هجرية فقام بهدمها وإعادة بنائها ومن ثم اتخذت هذه العمارة الطابع العثماني الذى أشار اليه المؤلف وعلى هذا فإن القبة الخضراء المقامة على القبر الشريف يرجع تاريخها الى أواخر القرن الهجرى التاسع والله اعلم.

١٦ ـ قام السلطان عبدالمجيد العثماني بالعمارة الكبرى للمسجد فى عام ١٢٦٥

هـ وانتهت فى عام ١٢٧٧ هـ وفى هذه العمارة فتح الباب المجيدى وسمي باسم فاتحه السلطان عبدالمجيد العثماني.

الترميمات فى المسجد

١ ـ رمم فخري باشا الوالي التركي المحرابين النبوي والسليماني ورمم البئر التى كانت فى صحن المسجد عام ١٣٣٦ هـ ومعلوم ان هذه البئر قد طمت.
٢ ـ رمم المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود أرض المسجد مما يلى رحبته فى الجهات الأربع عام ١٣٤٨ هـ ووضع اطواقا حديدية على بعض الاساطين التى حدث فيها تشقق بغربي الرحبة وشرقيها وذلك فى سنة ١٣٥٠ هـ.
٣ ـ رممت الحكومة المصرية المسجد فى سنة ١٣٥٤ هـ من غلة أوقاف الحرمين الشريفين بمصر ولم يورد المؤلف تفاصيل هذا الترميم.

العمارة السعودية للمسجد النبوى الشريف

على أثر ظهور الخراب فى بعض اعمدة المسجد النبوى الشريف أمر الملك عبدالعزيز رحمه الله بتوسعة المسجد النبوى الشريف وقد اصدر امرا بذلك بتاريخ ٥ رمضان ١٣٦٨ هـ وبدىء بتنفيذ العمارة السعودية فى ٥ شوال ١٣٧٠ هـ.

هدم الدور والاماكن المحيطة بالمسجد

وبدأ المشروع بهدم الدور والاماكن المحيطة بالمسجد بعد انتزاع ملكيتها وتعويض اصحابها تعويضا سخيا وبلغت الدور والاماكن المنزوعة للتوسعة وللميادين والشوارع المحيطة بالمسجد ٢٢٩٥٥ مترا مسطحا.
استمر العمل فى البناء من ٥ شوال ١٣٧٠ هـ وانتهى فى أوائل ١٣٧٥ هـ وقدرت المواد التى استعملت فى العمارة السعودية بثلاثين الف طن من الأسمنت والحديد والأخشاب والمؤن حملتها الى ميناء ينبع اكثر من ثلاثين باخرة ونقلت

بالسيارات الضخمة من ميناء ينبع الى المدينة المنورة ، واقيم مصنع خاص لاعمال الموازييك فى منطقة ذى الحليفة وجلب له المهندسون والاخصائيون.

وبلغ عدد العاملين فى عمارة المسجد النبوى الفا وخمسمائة عامل يشاركهم مائتي صانع ويشرف عليهم أربعة عشر مهندسا جميعهم من الدول الاسلامية من مصر وسوريا والباكستان والسودان واليمن وحضرموت علاوة على السعوديين وبلغت مجموع الزيادة التى تمت فى العمارة السعودية للمسجد ستة آلاف وأربعة وعشرين مترا.

مراحل الزيادات فى المسجد النبوى الشريف

وننقل فيما يلى مراحل الزيادات التى تمت فى مساحة المسجد النبوى الشريف منذ تأسيسه على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وحتى هذا الوقت الحاضر كما اثبتها المؤلف وهى موضحة بالأمتار:

امتار مربعة

٢٤٧٥ مساحة بناء النبي ﴿ﷺ﴾

١١٠٠ زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

٤٩٦ زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه

٢٣٦٩ زيادة الوليد بن عبدالملك الأموى.

٢٤٥٠ زيادة المهدى العباسى

١٢٠ زيادة الملك الأشرف قايتباى

١٢٩٣ زيادة السلطان عبدالمجيد العثمانى

١٠٣٠٣ مجموع المساحة العامة للمسجد قبل التوسعة السعودية

٦٠٢٤ الزيادة السعودية الحالية الأولى

والواقع ان العمارة السعودية تنقسم الى قسمين،القسم الأول هوهدم بعض

أجـزاء المسجـد القديم وإعادة تعميرها وكذلك ترميم بعض أجزائه والقسم الثانى هو التوسعة التى زيدت فى مساحة المسجد وقد أوضح المؤلف ذلك كما يلى :

٦٠٢٤ مقدار التوسعة السعودية

٦٢٤٧ مقدار الأجزاء القديمة التى هدمت واعيد تعميرها وهى الجهات الثلاث

١٢٢٧١

٤٠٥٦ مساحة الجهة القبلية ـ الجنوبية ـ الباقية من البناء القديم.

١٦٣٢٧ المجموع الكلي لمساحة المسجد النبوى حاليا.

معلومـــات عامة عن المسجد

أســـاطين المسجد ونوافذه

يبلغ عدد الأسـاطـين فى المسجـد النبـوى الشريف قبل العمارة السعودية ٣٢٧ اسطوانة:يبلغ عدد الأعمدة فى العمارة السعودية ٤٧٤ عمودا محيطة بالجدار و٢٣٢ عمـودا مستـديـرا. يبلغ طول كل من الجدار الغربى والشرقي للمسجد ١٢٨ مترا ويبلغ طول الجدار الشمالي ٩١ مترا. يبلغ عدد النوافذ فى الجدار القبلى للمسجد أربعـة عشـر نافـذة مكونة من شبكة حديدية فى منتهى الدقة والجمال وأمام الواجهة الشريقة نافذة تطل على دار عبدالله بن عمر.

المحراب العثمانى

يقع المحراب العثمانى قبلي المسجد وهذا المحراب هو الزيادة التى زادها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه فى المسجد ويدخل اليه من باب السلام وفيه محراب الامام وفى نهاية المحراب موضع الزيارة للقبر الشريف.

المحراب النبوي ـ والروضة الشريفة

يقع المحراب النبوى فى شرقي المنبر وما بين المنبر والقبر الشريف هو الروضة ومساحة الروضة ٢٢ مترا فى عرض ١٥ مترا ، وفى الجانب الغربي من المحراب كتب بخط نافر هذا مصلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ .

يقول المؤلف وشكل بناية هذا المحراب ينبىء بانه قرين المحراب السليماني فى طراز العمارة وقد حصل فيه ترميم أيام فخرى باشا وبعدها .

المحراب السليماني

أما المحراب السليماني فيقع فى غربي المنبر وهو على شكل المحراب النبوي فى زخرفته وبنائه وقد بناه السلطان سليمان العثماني فى سنة ٩٣٨ هـ كما يظهر من الكتابة المثبتة فيه وقد رمم فى عهد الوالي التركي فخري باشا ابان الحرب العالمية الأولى .

المنـــــبر

يقع غربي المحراب النبوي وبه اثنتا عشرة درجة ثلاث بخارجه وتسع بالداخل وهو مصنوع من المرمر وظاهره مغمور بالتذهيب والنقوش الفائقة وفوقة قبة لطيفة تقوم على أربعة أعمدة مضلعة من المرمر ،وقد أمر ببنائه السلطان مراد العثماني وأرسل الى المدينة سنة ٩٩٨ هـ كما هو مثبت على بابه شعرا ويتم طلاء المنبر والمحراب فى المسجد النبوى الشريف بالذهب

الحجرة النبوية الشريفة

وكانت تسمى قديما المقصورة ومساحتها من الشمال الى الجنوب ستة عشرا مترا ومن الشرق الى الغرب خمسة عشرا مترا وقد أمر ببنائها الملك الأشرف قايتباي وجعل لها السور الخارجي مَن النحاس الأصفر ووضع عليها القبة الداخلية وهى مبنية بالحجر الأسود والأبيض وتقع فوق الحجرة الشريفة وللسور الخارجى المعروف

بالشباك باب قبلي اى جنوبي ويسمى باب التوبة، ويقول المؤلف وعليه صفيحة فضية مرقوم عليها تاريخ صنعها سنة ١٠٢٦ هـ.

أقول : لعل المقصود وهو تاريخ صنع الباب المذكور.

وللحجرة الشريفة باب فى الشمال يقال له باب التهجد.

وباب فى الشرق يدعى باب فاطمة. وكذلك باب فى الغرب.

صب الرصاص حول الحجرة

وقد حفر الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٥٧ هـ خندقا عميقا حول الحجرة وصب فيه الرصاص للحيلولة بين الجسد الشريف ومن يريد الوصول اليه.

الكوكب الدري

وكانت الهدايا تهدى الى الحجرة النبوية الشريفة، وقد ذكر المؤلف نقلا عن كتاب مرآة الحرمين لابراهيم رفعت باشا أن من ضمن ماكان فى الحجرة الشريفة من الذخائر قطعتان كبيرتان من الالماس نقلتا الى الاستانة خلال الحرب العالمية الأولى ولم تعادا الى الآن.

حجرة فاطمة

وبشمالي الدائر المخمس فى داخل الشباك حجرة فاطمة أو قبرها ـ والاصح أن فاطمة دفنت فى بقيع الغرقد كما يقول المؤلف ـ وبخلف هذه الحجرة محراب يقال له محراب فاطمة.

محراب التهجد

وفى شمال الشباك من الخارج محراب يسمى محراب التهجد جدد فى عهد

السلطان عبدالمجيد وقد ازيل اخيرا .

الصُّـــــفَّة

وتسمى فى الـوقت الحـاضـر دكـة الاغـوات وكانت هى المكان الذى يجلس فيه فقراء المهاجرين فى حياة النبي ﴿ﷺ﴾ وهى مواجهة لمحراب فاطمة وهى عبارة عن دكــة طولهـا ١٢ مترا فى عرض ٨ أمتـار تعلوعن الأرض التى حولهـا بنصف متر . وعليهـا داربـزين من الصفـر وبجـانبهـا الى الشـرق مخزن امـامه دكة كانت معدة لجلوس شيخ الحرم النبوي فى أيام الدولة العثمانية .

المـــــآذن

مآذن المسجـد خمس أربـع منهـا شامخـة وهى ١ ـ الرئيسية بالجنوب من المسجد بنـاهـا قايتبـاي ٢ ـ منـارة باب السلام بالجنوب الغربي منه . ٣ ـ السليمانية شرقي البـاب المجيـدي . ٤ ـ الشكليـة بشـماله . ٥ ـ منارة باب الرحمة وقد ازيلت وضم مكـانهـا الى رحبـة باب الـرحمـة وكـان بناؤ ها فى عهد قايتباى وهى أقصر من جميع المآذن وقد حصل فى كل المآذن ترميم فى العمارة السعودية الجديدة .

أبواب المسجد النبوى الشريف

كان للمسجد خمسة أبواب كعدد مآذنه قبل التوسعة السعودية وهذه الأبواب هي :

باب السلام فى الجنوب الغربي وكان يسمى باب مروان .

باب الرحمة بالشمال الغربي وكان يقال له باب عاتكة .

باب النساء وهو يقابل باب الرحمة من المشرق وكان يسمى باب ريطة

باب جبر يل بحذاء باب النساء من الجنوب .

البـاب المجيـدى بشمال شرقي المسجد ونسبته الى السلطان عبدالمجيد العثماني الذى عمر فى عهده المسجد النبوى العمارة التى سبقت التوسعة السعودية مباشرة .

وقد زيد فى التوسعة السعودية خمسة أبواب هى :ـ

باب الصديق ابي بكر وهو بثلاث فتحات متلاصقة ويقع بين باب السلام وباب الرحمة غرب المسجد.

باب الملك وله ثلاث فتحات متلاصقة أيضا ويقع كسابقه فى غرب المسجد.

باب عمر بن الخطاب فى شمال المسجد الغربى.

باب عثمان بن عفان فى شمال المسجد الشرقى.

باب عبدالعزيز وهو ذو ثلاث فتحات متلاصقة وموقعه فى الجهة الشرقية من المسجد النبوي.

جـــدران المسجد

هى بصفة عامة مبنية من الحجر الأسود المنحوت المطابق وهى فى غاية المتانة وسمكها نحو ٣ امتار وكلها مطلية بالجير داخلا وخارجا وهذا الوصف للجدران فى العمارة العثمانية وقد هدم بعضها فى العمارة السعودية وبنيت بقوالب الأسمنت وطليت من الداخل والخارج بالدهانات.

إنــارة المســـجد النبوى

كانت الأنارة فى المسجد النبوي تعتمد على قناديل الزيت التى لاتزال بقاياها معلقة فى العوارض الحديديه بين أعمدة المسجد، كما كانت الشموع توقد فى المسجد للاضاءة الى جانب القناديل، وأول من أضاء المسجد النبوى بالكهرباء هو السلطان عبدالمجيد الثانى العثماني الذى بعث مكينة كهربائية لاضاءة المسجد وكان بدء الانارة بالكهرباء يوم ٢٥ شعبان ١٣٢٦ هجرية وهويوم الاحتفال بإفتتاح السكة الحديدية الحجازية بالمدينة المنورة.

ولما قدمت المكينة المذكورة أهدى الحاج الشاوي الجزائرى المغربي مكينة جديدة لاضاءة المسجد الشريف وبقيت هذه المكينة مستعملة كما يقول المؤلف الى سنة ١٣٥٣ هجرية وهى سنة تأليف كتابه هذا.

التوسعة الثانية للمسجد النبوى

لقد ظهرت الحاجة الى توسعة المسجد النبوى الشريف على أثر تكاثر الحجاج عاما بعد عام وكذلك لسهولة المواصلات بين مدن المملكة مما سهل للمواطنين القدوم الى المدينة المنورة بطريق الجو والبر ولهذا فقد جرى الاعداد للتوسعة الثانية للمسجد وتم نزع ملكيات كثير من المباني والاماكن ويقول المؤلف ان هذه التوسعة ستتم باتجاه الغرب وستمتد من الجدار الغربي للمسجد الى الشارع العيني بطول يبلغ مقداره ١٦٥ مترا كما ستمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الغربي حتى محلة الساحة ويبلغ مجموع مساحة التوسعة الجديدة مايزيد على ستة وعشرين ألف متر وتزيد قيمة التعويضات فيها على خمسين مليون متر.

هذا ماكتبه المؤلف فى سنة ١٣٩٣ هـ فى آخر طبعة لكتابه القيم الذى نتحدث عنه، وقد تم نزع ملكيات اخرى حول المسجد النبوى الشريف كما والحقت مساحات كبيرة من الأرض به واحيطت بالأسوار واضيئت بالكهرباء واعدت للصلاة والمأمول ان تجرى العمارة الجديدة المنوية وان تتم كما تمت سابقتها فى المسجد النبوى والمسجد الحرام وفق الله ولاة الأمور وأعانهم على اتمام ذلك انه سميع مجيب.

وقد تحدث المؤلف فى كتابه القيم عن اودية المدينة وعيونها ومحلاتها الشهيرة الى غير ذلك من المباحث الهامة والقيمة التى نكتفي بالاشارة اليها خشية الاطالة ونحيل الراغب فى الاستزادة الى هذا الكتاب الصغير فى حجمه والكبير فى قدره ومحتواه.

ان كتاب آثار المدينة المنورة الذى الفه عبدالقدوس رحمه الله وهو فى الثلاثين من العمر من الكتب النادرة فى موضوعه وهو خلاصة جهد عظيم ودأب وتحقيق كبيرين، ولقد كنت اتمنى لو أنه رحمه الله افاض فى بعض المواضيع التى عالجها لكن ذلك اشفى لنفس القارىء واكثر فائدة لأن هذه المباحث العزيزة يتشوق اليها

الـراغب فى المعـرفـة وهى مرتبطـة بتـاريـخ المـدينة المنورة عاصمة الاسلام الأولى ومنطلق الجهاد ومهبط الوحي ومستقر صحابة رسول الله ومن تبعهم من اعلام الاسلام .

وأخـيرا فان هذا الـذى ذكـرت لاينقص من قيمة الكتاب فالمؤلف كان يكتب الآثار ولم يكن يكتب التاريخ ولكل كاتب اسلوبه فيما يكتب وطريقته فيما يعالج من الأمور.

ان الكتاب من المراجع الهامة التى لم يؤلف مثلها فى بابها ولهذا يقرأ على توالى السنين والأيام .

موسوعة تاريخ مدينة جدة

ألف عبدالقدوس كتاب تاريخ مدينة جدة وظهرت طبعته الأولى فى سنة ١٣٨٣ هـ بطلب من رئيس بلديـة جدة ثم أصـدر طبعتـه الثـانيـة فى سنـة ١٤٠٠ باسم موسوعة تاريخ مدينة جدة واضاف اليه اضافات كثيرة كما ذكر لي ان للكتاب جزءا ثانيا هو بسبيل اعداده وأظهاره للناس وهذا الجزء هو لتاريخ جدة بعد عام ١٣٨٣ هـ حيث شهـدت المـدينـة بعـد هذا التـاريـخ الكثـير من التطور والامتداد بحيث اصبحت تسـابق الـزمن فى تطـورها واتساعها كما سبقت المدن الأخرى بما نالته من عناية فى جميع الأحوال.

ولقـد اخـبر ني نجله الاستـاذ نبيـه ان القسم الاكـبر من الجـزء الثانى من هذا الكتـاب قد اتمـه عبـدالقـدوس رحمه الله قبل وفاته وانه كان قد حدد مواد المواضيع الباقية لهذا الجزء لاكمالها.

على اي حال فإن الجزء الأول بين ايدينا والذى يحتوى على مايقرب من ألف صفحة والمحلى بكثير من الصور وبعضها نادر وبعضها قديم يمثل الجهد الضخم الـذى بذلـه المؤلف فى اعـداده وتأليفه. وبعد هذه المقدمة عن الكتاب فلنتحدث عن مدينة جدة التى هى موضوع الكتاب .

قدم مدينة جــدة

تعـددت الـروايـات التى اوردها المؤلف عن قدم مدينة جدة فبعض الروايات يذكر ان عمرو بن معد بن عدنان نزل بها واتخذها له ولقومه سكنا ومرعى ، وعمرو هذا هو قضـاعـة ويستشهـد على ذلك بان احد احفاده ـ جدة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمرو بن الحارث بن قضاعة ولد بجدة فسمى باسم الموضع الذى ولد فيه .

وحـدد عاتق بن غيث البـلادى فى معجم معالم الحجاز مساكن قضاعة ومراعيها من شاطىء البحـر ومـادونهـا الى منتهى ذات عرق الى حيـز البحـر من السهـل والجبل . ويحدد الأستاذ عبدالقدوس هذا التاريخ بصورة تقريبية الى القرن الثانى قبل الميلاد . (١)

بناء الفرس لمدينة جده

أما الرواية الثانية فتذكر ان الفرس ـ العجم ـ هم الذين بنوا مدينة جده فى عهد ملكهم يزدجـرد وبنوا عليهـا سورا من الحجـارة عرضه خمسة عشر شبرا كما احاطوها بخندق من الماء يدور حول المدينة بما يجعل وضعها الجغرافى فى شكل شبة جزيرة . ويحدد المؤلف هذا التاريخ بمنتصف القرن السادس الميلادى . (٢)

اما سبب بناء فرس لمدينة جدة فهو خراب الميناء الفارسي سيراف ورغبة ملك الفـرس فى ايجـاد ميـنـاء آخر بدلا عنه . وهناك رواية اخرى تجعل بناء الفرس لمدينة جده مرتين المرة الأولى ممعنة فى القدم والثانية هى التى تمت فى عهد الملك يزدجرد فى القرن الميلادى (٣)

على أى حال فان ارتباط مدينة جدة بالفرس يبقى واضح المعالم خلال القرون المتتالية بعد الاسلام كما ورد على ألسنة الرحالة والمؤرخين مما سنتعرض له بعد .

---

(١) «ص ٦٦ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

(٢) «ص ٦٦ نفس المصدر»

(٣) «ص٦٦ نفس المصدر»

جدة قبل الاسلام

فإذا تركنا العهود الممعنة فى القدم التى اشرنا اليها نجد ذكرا لشاطىء جده قبيل الاسلام حينما اعتزمت قريش بناء الكعبة قبل الاسلام بعد احتراقها فعلموا ان سفينة لبحار رومي كسرت قريبا من شاطىء جدة وقد بعثت قريش فاشترت اخشاب السفينة واحضرت صاحبها باقوم وكان نجارا ليساعدهم فى بناء الكعبة وهذا البناء هو الذى وضع الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فيه - الحجر الأسود - بيده الشريفة حين اختلفت قبائل قريش فى الأمر كما هو معلوم وكان هذا قبل البعثة النبوية بخمس سنين(١)

جدة فى العهد الاسلامي الأول

فإذا وصلنا الى العهد الاسلامى وجدنا أن أهل مكة طلبوا من الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ان يجعل ميناء مكة فى ساحل جدة بدلا من الشعيبة ، ويتطرق المؤلف الى الشعيبة ويناقش ماورد فى بعض الروايات من انها ميناء مكة قبل جده ويخلص الى القول ان جدة هى المدينة وهى الميناء القديم وان الشعيبة لاتعدوا ان تكون قرية صغيرة كل ميزتها ان ميناءها لاتكثر فيه الشعاب المرجانية التى تضطر السفن فى ميناء جدة للرسو بعيدا عنها وان الخليفة المهدى العباسي اختارها - الشعيبة لرسو السفن التى تحمل الرخام المرسل لعمارة الحرم المكي الشريف فى عهده لهذه الغاية ليسهل نقله من السفن الى مكة ويقول المؤلف ان بعض هذا الرخام لايزال حتى اليوم مدفونا فى رمال الشعيبة . (٢)

---

١ - انظر ماكتبناه عن تاريخ الكعبة المعظمة فى ترجمة الشيخ حسين عبدالله باسلامه ضمن اعلام الحجاز

٢ - «٦٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

جــده فى روايات الرحالة والمؤرخين

وصف البلخي المتوفى سنة **٣٢٢** هجرية جدة فى كتابه ذكر المسافات والاقاليم . بأنها كثيرة التجارات والأموال وليس بالحجاز بعد مكة اكثر مالا وتجارة منها وقوام تجارتها الفرس (١)

ووصفها البشارى فى كتابه احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم بانها :

مدينـة حصينـة عامرة آهلة أهلها أهل تجارات ويسار، خزانة مكة مطرح اليمن ومصـر وأهلهـا فى تعب من المـاء وقـد غلب عليهـا الفرس، ولهم بها قصور عجيبة وازقتها مستقيمة ووضعها حسن شديدة الحر جدا . (٢)

اقـول ولايضـاح ماذكـره البشـاري فى وصف جدة انها مطرح اليمن ومصر ـ ان هذا الـوصف كان لجدة فى القـرن الرابع الهجرى، ولقد كانت جدة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى الموافق للقرن الثالث عشر الهجرى مطرحا لمصر واليمن والقصد بالمطرح هنا ان البضائع التى ترد الى مصر من الهند تطرح بمدينة جدة، ثم يجرى نقلهـا بالسفن الشـراعيـة الى القـاهـرة وذلـك قبل حفر قناة السويس فى منتصف القـرن التـاسـع عشـر للميلاد . والواقع ان تجار جدة كانوا يحتفظون بهذه البضـائـع فى السفن التى كانت عبـارة عن مخازن عائمـة ثم يصـدرونهـا الى مصر بطريق البحر الى ميناء السويس حسب الحاجة (٣)

ونعـود بعـد هذا الاستطـراد الايضاحى لنتابع وصف الرحالين لمدينة جدة عبر القـرون ، وصف ناصـر خسـرو جدة فى القـرن الخامس الهجرى بانها مدينة جميلة محصورة فى داخل سورها الحصين كما لفت الانتباه الى عدم وجود الاشجار والزرع بها رغم ازدهـارهـا العمـراني، وعلل ناصر خسرو ذلك الى ندرة وجود الماء العذب

---

١ ـ صفحة ٧٧ موسوعة تاريخ مدينة جده .

٢ ـ صفحة ٧٧ نفس المصدر

٣ ـ انظر ماكتبناه مفصلا عن ذلك فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز صفحة ١٧٢ / ١٧٣ .

بها، وقدر ناصر خسرو سكان مدينة جدة بخمسة آلاف ووصف اسواقها بانها نظيفة جدا ولها بابان مما يلى مكة، وباب البحر وقال ان اميرها مملوك لامير مكة الذى هو فى نفس الوقت أمير المدينة المنورة (١) واسمه ابو المعالي ابن ابي الفتوح.

فإذا وصلنا الى القرن السادس الهجرى نجد الرحالة الاندلسي الشهير ابن جبير يقدم لنا وصفا مخالفا كل المخالفة لوصف من سبقه من الرحالين فى القرنين الماضيين فعمارتها الضخمة استحال اكثرها الى خصاص اما اهلها الذين وصفوا بالثراء وكثرة المال فيصفهم بانهم يستخدمون انفسهم فى كل مهنة لتحصيل لقمة العيش

فكان منهم من يكري الجمال ومنهم من يبيع اللبن أو الماء للحجاج وإذا لم يكن لاحدهم شيء مما ذكر فهو يلتقط التمر من الشوارع او يحتطب الحطب من ضواحى البلد ويبيع ماجمع، وربما تناول نساؤ هم الشريفات ذلك بانفسهن(٢)

ويعلق المؤلف على وصف ابن جبير بان الحالة السياسية المضطربة فى العالم الاسلامي واشتغال السلطان صلاح الدين الايوبي بالحروب الصليبية فى فلسطين ومهاجمة الصليبين للسواحل الاسلامية كل هذا أدى الى الاضطراب السياسي الذى انعكست آثاره على الحالة الاقتصادية مما أدى الى رحيل ثراة جدة وسراتها بأموالهم واهليهم وخدمهم إلى مكان أمين وان هذا الرحيل اخلى مدينة جدة من عناصر الثروة والقوة بها فلم يبق فيها الا الضعفاء الذين ليست لهم القدرة على الهجرة او القلة القليلة المتمسكة بالبقاء فى البلاد رغم المتاعب والصعاب(٣)

ابحـــــــر

ومن الأخبار الطريفة فى رحلة ابن جبير وصفه لمرسى ابحر الذى رسى المركب

---

١ - ٧٩/ ٨٠ تاريخ موسوعة مدينة جدة.

٢ - ٨٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

٣ - ٨٠ / ٨٢ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

القـادم به ابن جبير فيهـا فيقـول وفى عشي يوم الأحـد ثانى ربيـع الآخـر أرسينـا بمـرسى يعـرف بابحـر وهوعلى بعض يوم من جدة وهومن اعجب المراسي وضعا وذلك ان خليجا من البحر يدخل الى البر والبر مطيف به من كلتا حافتيه فترسى الجلاب به من قرارة هادئة (١)

عودة الى الرحالين

قدم المؤرخ العـربي جمال الـدين أبـو الفتح بن يوسف بن يعقوب المعروف بابن المجـاور الى الحـج بعـد ابن جبـير بنحـو قرن من الـزمان فوصف جدة بانها مدينة صغـيرة على ساحـل البحـر مزدحمة الحجاج وذكر ان الماء بها قليل وانه يجلب اليها من اماكن بعيدة كما ذكر ان اهلها من نسل العجم وان ابنيتها من الحجر الكاشور ومن الخـوص وانـه يوجـد بها خانـات من الخـوص تؤجر فيها الغرف للمسافرين، وقـال ان بها خانيـين كبـير ين متقـابلين بمخـازن كبـار وانـه كان تجبى بها رسـوم ـ ضرائب ـ للعقار من قبل سلطان مصر مقابل تعمير كل بيت مبني بالخوص ومقدار هذه الرسوم العقارية هى ثلاثة دراهم على كل بيت (٢)

والمتأمـل يرى ان وصف ابن المجـاور الـدمشقي يقـترب من وصف الـرحـالـة السـابقـين باستثنـاء وصف ابن جبـير، الـذى يقـول المؤلـف انه ربما أنزل فى هذه الخانات المبنية من الخوص فاخذ الانطباع القاتم عن المدينة واحوال اهلها.

أهل جدة يرحلون منها

ويقدم المجاور الدمشقي قصة تحمل فى طياتها أسباب ترك ثراة جدة لمدينتهم فى سنة ٤٧٣هـ فيقول ما معناه:

أرسل أمير مكة الى شيخ تجار جدة يطلب منه إرسال حمل من الحديد فأمر شيخ

---

١ ـ ٨٠ / ٨٢ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

٢ ـ ٣٢ موسـوعـة تاريـخ مدينـة جدة ويقـول الأستـاذ حمد الجـاسـر ان كتاب المستبصر ليس من تأليف ابن المجاور الشيباني الدمشقي وانما هو منسوب اليه خطأ وان مؤلفه فارسي الأصل.

التجـار غلامـه بإرسـال الحـديد إلى مكة وأرسل الغلام الحديد المطلوب فلما وصل الى صاحب مكـة وجـد ان الحمل الذى أرسل كان من الذهب الخالص وقد علاه الصـدأ من طول بقـائـه فتغير لونه فظنه الغلام حديدا فبعثه على انه من الحديد، ولكن والي مكـة الـذى عرف ان الـذهب فى مخازن تجار جدة موجـود على شكـل قضبان من الحديد طمع فى حمل آخر فارسل الى شيخ التجار يطلب حملا آخر من نفس الصنف، وقـد تنبـه التاجر فاستدعي غلامه الذى أرسل الحمل الأول وسأله عن الحديد الذى ارسله الى مكة فقال حمل حديد اصفرٌ بتشديد الراء.

ايقن شيـخ التجـار ان الحمـل الـذى أرسـل إلى صاحب مكة كان من الذهب الخالص وليس من الحديد كما ايقن باطماع أمير مكة وماتجره هذه الاطماع عليه على تجار المدينة جميعا، وهنا تختلف الرواية، فتقول احدى الروايتين ان أمير مكة الأمير

داود بن إبـراهيم هاجم جدة بالأعـراب وحـاصرها فهرب التجار بإموالهم واهليهم وكلما يملكون ، والرواية الأخرى تقول ان شيخ التجار استشار أحد كبار السن فى المدينة فأشار عليه بالنزوح من المدينة فنزح تجار جدة بكل ما يملكونه وركبوا البحر فسكن قوم منهم السـرين والـراحـة وعـتر والجرعة والدرعة والشميد وجزيرة ذهبان وكسـران وبنـو موسى وبـاب موسى، ويعلق ابن المجـاور على القصـة فيقول فلما خلت الأرض من الأحباب ملكها الاعراب. (١)

ويعلق المؤلف على ذلك ان هجرة أهل جدة نتيجة لمحاصرة الأعراب لها كانت جماعيـة وأنهـا كانت الى ناحية الجنوب لأن اكثر الأسماء التى اوردها الدمشقي هي من مدن اليمن.

اقـول والمتأمـل فى الرواية التى اوردها ابن المجاور لايطمئن الى حكاية الحديد الـذى طلبـه أمـير مكة فإرسل اليه حمل ذهب بدلا منه فالذهب مهما كثر عند شيخ

---

(١) ٨٧ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

التجار أو أي ثري لايلقى فى المخازن حتى لايفرق بينه وبين الحديد، ولقد أدركت الناس يبنون الغرف السرية فى بيوتهم أومتاجرهم ليودعوا بها مايخشون عليه ولكن الحقيقة التى يمكن استخلاصها من رواية ابن المجاور ان حصار الأعراب والبادية لمدينـة جدة طمعـا فى ثروات أهلها وعدم اطمئنان الناس الى وجود الحماية الكافية لهم تجاه هذا الغـزو هي التى دفعتهم الى الـرحيـل بأولادهم وثـرواتهم هذا إذا صحت الرواية وليس هناك مايمنع صحتها.

وذكـر ابن المجـاور كذلـك شيئـا عن الرسوم التى كانت مفروضة على الحجاج المغاربة والتى تستوفى منهم بأمر والي مكة المكرمة كما ذكر ان بعض الحجاج الذين لم يستطيعوا دفع الرسوم جرى ايقافهم فى جزيرة قريبة من جدة (١)

أمـا الـرحـالـة الشهـير ابن بطـوطه الذى قدم الى الحج بعد قرن من قدوم ابن المجاور لها فى القرن الثامن الهجرى فيقدم لنا وصفا يشبه وصف ابن جبير فيذكر ان سكان المدينة قليل بحيث لايجتمع النصاب لصلاة الجمعة فسبحان مغير الأحوال.

ويـعـلل المؤلف هذا الانحـدار المؤسي الـذي آلت إليـه أحـوال جدة إلى اضطـراب الأحـوال السيـاسية فى العالم الاسلامي فالاندلس يتقاسمها المسيحيون وبنـو نصـر، والصـومـاليون الوثنيون انتزعوا الساحل المناوح لمدينة جدة، والحجاز نفسـه كان طعمـة سائغـة لاطـماع ونزوات امرائه الأشراف وكانوا شيعا ذوى اهواء متفـرقـة، والبـاديـة فى الحجـاز تعيث فسـادا فى الأرض بدون رادع أوزاجر، ويد السـلاطـين خارج الحجـاز قاصـرة عن ان تمتـد اليهم لاعـادة استقرارا الأمن الى ربـوعـه، فلا غرو ان يهبـط كما يقـول المؤلـف مستوى التجارة البحرية فى البحرين الأحمـر والأبيض الـذين تعتمد عليهما تجارة جدة فى تقدمها وازدهارها، وهكذا فاننا نرى ان فقدان الأمن فى المدينة بسبب تنازع وتسلط البادية واطماعها ادخل الرعب

---

١ ـ ٨٥ موسوعة تاريخ مدينة جدة

الى قلوب الناس فتركوا ديارهم ورحلوا بأموالهم وذرياتهم الى حيث يجدون الأمن والاطمئنان.

البرتغاليون يهاجمون جدة

فى سنة ٩٤٨ للهجرة هاجم البرتغاليون مدينة جدة بحراً بنية الاستيلاء عليها وكان الاستعمار الغربي قد بدأ يزاول نشاطه فى احتلال الشرق الأقصى والأوسط والاستيلاء على البلاد الهامة فى آسيا وأفريقيا وكان البرتغاليون هم أول الشعوب الغربية المستعمرة للبلاد البعيدة، وكانت نواياهم قد أصبحت معلومة بعد ان استولوا على اجزاء من الهند، كما حاولوا الاستيلاء على بعض مدن المغرب العربي، ولما كان الله تعالى قد تكفل بحماية الحجاز من هذه الشرور لأنه موضع المقدسات الاسلامية فى مكة والمدينة فقد الهم الله السلطان قانصوه الغورى قبل ذلك بتحصين مدينة جدة ضد الغزو المنتظر وكان الحجاز فى تلك الحقبة تابعا لولاية سلاطين المماليك فى مصر.

أمر السلطان قانصوه الغورى باحاطة مدينة جدة بسور حصين وبناء القلاع فى مواجهة البحر وتزويدها بالمدافع الحربية وبالرجال لصد المغيرين على المدينة وأرسل جيشا من الترك والمغاربة للدفاع وعهد برئاسة الجيش الى حسين الكردى الذى أمر أهالى المدينة عامة بالمشاركة فى بناء السور وتم بناؤه فى سنة ٩١٥ للهجرة ولكن البرتغاليون لم يفدوا للغزو الا فى سنة ٩٤٨ للهجرة الموافقة لسنة ١٥٠٩ للميلاد.

دفع البرتغاليون حملتهم البحرية من الهند الى جدة وكانت مدينة جدة مستعدة للدفاع عن المدينة وكان أمير مكة الشريف ابونمي على علم بخطورة الحالة فترك الحج وحضر الى جدة مع جنوده والمتطوعين من الناس لمواجهة الغزاة فحاصر البرتغاليين واصلاهم نارا حامية وشاركت القلعة البحرية التى كانت فى مواجهة السور باطلاق النيران من المدافع ولم يجد البرتغاليون سبيلا الى المدينة فلاذوا بالفرار مخلفين الذخائر والسلاح.

وقد شكر السلطان سليمان للشريف أبي نمى صنيعه هذا وقدر عمله الطيب

وجهاده فى صد البرتغاليين عن مدينة جدة مدخل مكة المكرمة ودهليز الحرمين الشريفين (١)

أقول لقد ادركت سور جدة الذى كان يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم والذى ازيل فى سنة ١٣٦٤ تقريبا كما ادركت القلعة البحرية التى ورد ذكرها وكانت قد تحولت الى سجن جدة (٢) ولم يبق من آثارها سوى ملامح البناء القديم.

الشريف والوالي

انتقل الحكم فى الحجاز من سلاطين مصر الى دولة الخلافة بالقسطنطينية وكان لما ابداه الشريف ابو نمي أمير مكة من استبسال فى صد الغزاة النصارى عن مدينة جدة اثره الطيب لدى السلطان فاصبح الحكم فى الحجاز مشتركا بين شريف مكة والوالي التركي الذى تعينه السلطنة بمرسوم من الخليفة، وكان لابد لهذه الازدواجية فى الحكم ان تظهر آثارها منافسة بين الشريف والوالي وكان لكل منهما انصاره ورجاله وكان الشريف يقيم بمكة ويعين وكيلا له بجدة والوالي يقيم بجدة وكان لكل من الشريف والوالي انصاره الذين يلجأ اليهم فى دار الخلافة وهكذا يقع الشد والجذب وتعانى المدينة من جراء التنافس بين الحزبين هزات تهدد امنها واقتصادها وقد اورد المؤلف بعض الأمثلة على ذلك.

كان أمير مكة فى سنة ١١٨٢ هـ الشريف مساعد وطمع شريف آخر هو الشريف أحمد بن الشريف عبدالكريم فى الأمارة ولم يجد وسيلة لذلك الا اظهار الشريف مساعد بمظهر الرجل العاجز عن السيطرة على الأعراب والبدو الذين يتبعون أمير مكة عادة فهاجم الشريف أحمد مدينة جدة بواسطة البدو لنهب أموال تجارها ودافعت جدة عن نفسها متحصنة بسورها واصلت المهاجمين نارا حامية ولكن المهاجمين اطلقوا على المدينة قنابل المدافع وسهام الكبريت الموقد فى رؤوسها كالرياش فاحترقت عشش جدة.

---

١ - ٨٨ - ٩١ موسوعة تاريخ مدينة جدة.

٢ - يراجع تفصيل كل ما يتعلق بسور مدينة جدة في كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز صفحة ٥٩ / ٦٢

ويـرى المؤلف ان الـوالي الـتركي كان ضالعـا فى هذه المؤ امـرة والا ماتمكن المهاجمون من احداث الحريق فى جدة (١)

ولكن المؤلف لم يعـط مصـدرا تاريخيـا لهذا الاستنتـاج والذى اراه ان الطمع فى امـارة مكـة هو الـذى احـدث الحريق وليس من المعقول ان يساعد الوالي الشريف الذى يمهد لعهده بالاخلال بالامن وحصار مدينة تجارية كبيرة كمدينة جدة والله اعلم.

والواقع ان الفتن بين ولاة مكة من الأشراف كانت اظهر من الخلافات بين الوالي التركي والشريف المكي واخطر وقد اورد المؤلف بعد ذلك حادثة توضح هذا الرأى نوجزها فيما يلى:

فى سنـة ١١٨٥ هـ كان شريف مكـة أحمـد بن سعيد وكان وكيل الأمارة فى جدة التـاجـر الشهـير يوسف قابـل أحـد أعيـان جدة ودهاتها كما يصفه المؤلف غضب شريف مكة على وكيله هذا فعهد بوكالته فى جدة الى حسين ابن إبراهيم الشامي وكـان حاضـرا فى مجلس الشـريف بمكـة وأمـره أن يتـوجـه الى جده ليقبض على يوسف قابـل ويضعـه فى الاغـلال ويتولى وكالة إمارة مكة بدلا منه. يقول المؤلف ولحسن حظ يوسف قابل وسوء حظ شريف مكة ان صديقا للتاجر يوسف قابل كان حاضـرا بالمجلس وسمـع فى شأن صديقه ماسمع هذا الصديق هو الشريف سرور بن مسـاعـد فأسـرع بالسفـر الى جدة واخبر صديقه يوسف قابل بما يراد به، وكان سرور ابن مسـاعـد يطمـع فى إمـارة مكـة كما ان يوسف يريد دفع الاذى عن نفسه فاتفقـا ان يمـد يوسف قابـل الشـريف سرور بالمال الوفير ليستولى على إمارة مكة ويعـزل الشـريف أحمـد بن سعيد، وهكذا تمكن الشريف سرور بمساعدة يوسف قابل من عزل شريف مكة والاستيلاء على إمارتها وإبقاء يوسف قابل وكيلا للامارة بجدة. (٢)

---

١ ـ ٩٣/٩٢ موسوعة مدينة جدة

٢ ـ ٩٤/٩٣ موسوعة تاريخ مدينة جدة

ويـذكـر المؤلف ان قبـائل حرب اشتبكت فى قتال مع أمير مكة الشريف سرور ابن مساعد فى سنة ١١٩٥ للهجرة وان مدينة جدة قد وقفت الى جانبه وانجدته فى هذه الحروب ولكنه كذلك لايعطى تفصيلا عن هذا الأمر(١)

الانكليز يقذفون جدة بالقنابل

فى سنـة ١٢٧٤ للهجـرة أرسـل الانجليز بعض قطع الأسطول الى مدينة جدة وقذفوا المدينة بالقنابل وذلك على أثر مقتل القنصل الانكليزي والقنصل الفرنسي وبعض الفرنجة من قبل الأهالى والسبب فى ذلك هو انه سرت اشاعة بأن القنصل الانجليـزى دعس بقـدمـه علم الـدولـة العثـمانيـة فاعتـبر الاهالي ذلك اهـانة للاسلام وقام عبدالله المحتسب ومعه جماعة من الأعيان بتهييج الاهالي على الافرنج فاقـدمـوا على قتـل القنصليين كما ذكرنا ورأت انكلترا ان تنتقم لمقتل قنصلها ومن معه بإرسال أسطولها الى جدة ولم تكن المدينة مستعدة لمقابلة الأسطول الانجليزى فتدخلت الحكومة العثمانية فى الأمر ووعدت الانجليز بالتحقيق فى الحادث ومعاقبة المعتـدين وتم بالفعـل القبض على المحـرضين وصدر الأمر بقتل المحتسب وسعيد العامودى ونفي الآخرين الى جزيرة قبرص واطفاء الفتنة(٢)

إرسال الأسطول الانجليزى مرة اخرى الى جدة

وفى سنة ١٣١١ للهجرة أرسل الانجليز قطعا من اسطولهم مرة أخرى الى جدة أثر قتل الأعراب لوكيل القنصل الانجليزى وقد جرح فى هذه الحادثة كذلك وكيل القنصـل الفـرنسي والقنصل الروسي وتدارك الشريف عون الرفيق امير مكة الامر قبل ان يستفحل فحضر الى جدة وعالج الأمر صلحا وعادت المراكب الانجليزية .

---

١ - ٩٣ نفس المصدر

٢ - ٩٤/٩٥ موسـوعـة تاريـخ مدينـة جدة وانظر تفصيل هذه الحادثة فى ترجمة عبدالله باشا باناجه فى الجزء الثاني من كتابنا اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة.

دون ان تتعرض للمدينة بأذى(١)

هجرة أهل جدة الى مكة

فى سنة ١٣٣١ هجرية هاجر كثير من سكان جدة الى مكة خشية من ان تتعرض المدينة لمهاجمة الأسطول الأيطالى من البحر وذلك على اثر نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا فى طربلس الغرب، ويبدو انه وردت بعض الأخبار بذلك ولكن شيئا من ذلك لم يحدث (٢)

الانجليز يضربون جدة بالقنابل

وفى سنة ١٣٣٤ للهجرة اطلقت البوارج الانجليزية قنابلها على المدينة واستهدفت بالذات الثكنة العسكرية التى كانت الحامية التركية معتصمة بها وذلك على أثر اعلان الشريف الحسين ابن علي الثورة على الحكومة التركية وقد قاومت الحامية التركية خمسة عشر يوما فاستقدم الانجليز بعض الطائرات التى القت منشوراتها على المدينة محذرة ومنذرة وكان الشريف الحسين قد حاصر جدة برًّا فلما طال الامر اتصل الشريف الحسين بأهلها وانذرهم بضرورة التسليم وتم ذلك بالفعل واستسلمت الحامية التركية وغنم الشريف الحسين الاسلحة والذخائر الموجودة لديها فى جدة وتم نقلها الى مكة لمحاربة الحامية التركية المعتصمة بقلعة اجياد (٣)

جدة مقرا للملك علي بن الحسين

وفى سنة ١٣٤٣ هـ على أثر خروج الملك حسين بن علي من الحجاز بعد أن

---

١ ـ ٩٥ موسوعة تاريخ مدينة جدة.
٢ ـ ٩٦٩٥ نفس المصدر.
٣ ـ ٩٦ نفس المصدر

خلعـه أهـل الحجـاز عن الملك وتولية ابنه الملك علي بن الحسين ملكا على الحجاز اتخذ الملك علي من جدة عاصمة له وكانت جدة معرضة للحصار من قبل جيوش السلطان عبدالعزيز آل سعود الذى استولى على الطائف واستسلمت مكة له دون حرب وكانت الحرب مستمرة بين الهاشميين والسعوديين فى جدة الى إن تم الصلح بين الطرفين فى جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ وغادر الملك علي جدة نهائيا ٣ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ ثم دخلهـا السلطـان عبدالعزيز آل سعود ـ جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله ـ وانتهت بذلك المحنة التى تعرضت لها البلاد(١)

وهكـذا طاف بنـا المؤلف عبر التـاريخ لنرى كيف تقلبت الأحوال بمدينة جدة عسرا ويسرا وحربا وسلما وخوفا وأمنا فسبحان من له البقاء والدوام والعزة والملكوت .

كان الحكم فى الحجاز وخاصة فى العهد العثمانى مناصفة ـ اذا صح هذا التعبير ـ بين امراء مكة الذين جرت العادة على اسناد الامارة اليهم وهم من الأشراف ، والولاة الاتراك الذين تختارهم الحكومة العثمانية وترسلهم من قبلها . وكان أمير مكة يعين له وكيلا فى جدة يطلق عليه لقب ـ الوزير ـ وكان امراء مكة من الأشراف يناط بهم شئـون البـاديـة والأعـراب والمحـافظة على الامن وخاصة فى الطريق بين مكة وجدة وبينهما وبين المدينة الذى تعبره قوافل الحجاج الى جانب ادارة الأمور فى مكة المكرمة والمشاعر المقدسة .

وكان مقر الولاة الاتراك فى جدة وكان هؤلاء منوطا بهم الشؤون الادارية والمالية المتعلقة بجباية الضرائب الحكومية والرسوم الجمركية وإدارة شئون جدة من النواحى الادارية والعسكرية والمالية ، وكان لأشراف مكة معاليم تدفع لهم من واردات جدة ويبدو ان هذه المعاليم مرتبطة بنسبة مايتحقق من الواردات التى كان أهمها الرسوم الجمـركيـة ولمـا كانت الـواردات المـاليـة تستـوفى بجـدة فإن شريف مكـة يتسلم استحقاقاته بواسطة وزيره فى جدة من الوالي التركي .

---

١ ـ ٩٧/٩٨ نفس المصدر

وكانت هذه الازدواجية فى السلطة بين الوالي التركي والشريف المكي توجد الكثير من التنافس لرغبة كل طرف بالاستئثار بالسلطة الكاملة، ولهذا فان تاريخ جدة حافل بالكثير من الحوادث التى وصل الأمر فيها بين الشريف والوالي الى الحروب ونحن ننقل هنا بعض الحوادث الهامة الواردة فى الكتاب عن هذه الأمور لاهميتها التاريخية التى تنبىء عما كانت عليه أحوال البلاد من الاضطراب فى تلك العصور.

حكام جدة

كان حسين الكردى حاكم جدة من قبل السلطان قانصوه الغوري وهو الذى بنى بأمر السلطان قانصوه سور جدة وقلعتها البحرية التى صدت البرتغاليين حينما هاجموا البلدة وكان حسين الكردي هذا جبارا صارما فعندما أمره قانصوه ببناء السور فرض على عامة اهالي البلدة وتجارها المشاركة فى البناء وحمل الطين والاحجار حتى اتم السور فى اقل من عام وقد حدث ان احد البنائين تأخر يوما فى الحضور فأمر حسين الكردي ببناء السور عليه وهكذا دفن الرجل حيا تحت هذا السور.

وقد انفصل الحجاز عن حكم السلطان الغوري وانتقلت السلطة الى السلطان سليم أول السلاطين العثمانيين الذين الذى حكموا الحجاز فى سنة ٩٢٣ ويبدو ان الشكوى من حسين الكردى وجبروته وصلت الى مسامع السلطان فأصدر أمره الى والي جدة قاسم الشرواني بإغراق حسين الكردى فى بحر جدة ونفذ الشرواني أمر السلطان فربطت على ظهره صخرة والقي فى البحر (١)

قيطاس بك

وفى سنة ١٠٦٠ ولي حكم جدة غيطاس أو قيطاس بك وهو أحد مماليك رضوان العقادي أمير الحج المصرى ولاّه سيده إمارة جدة نكاية بالشريف زيد أمير مكة فدس انفه فى شؤون الأمارة واخذ يناصر الشريف عبدالعزيز بن الشريف ادريس

---

١ - «٢٩٨/٢٩٩ نفس المصدر»

على أمـير مكـة ويغـريه بالاستيلاء عليها حتى انتهى الأمر الى نشوب قتال عظيم بين الطـرفـين فى مكـان يقع قريبا من السيدة ميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد اصيب عدد كبير من الجانبين.

ولـما اشتـد القتـال وخشي الشـريف عبدالعزيز من الهزيمة طلب الامان لنفسه ولقيطـاس بك ومن معهـما فاعطـاهما الشـريف زيـد الأمـان وأرسـل مع غيطـاس اشخاصا يوصلونه الى جدة وبعد ذلك صدر الأمر بعزل غيطاس بك وترحيله الى مصر مع الشريف عبدالعزيز الذى تآمر معه. (١)

حسين باشا

وفى سنة ١٠٧٩ اسندت الدولة إلى حسين باشا أمر جدة ومشيخة الحرم المكى والنظـر فى أمـر مكـة وكان هذا الوالي طموحا ، غاضب الشريف سعد بن زيد امير مكة وعاكسه فى توزيع الصرِّ المرسل معه لمستحقيه ولم يعتن به ثم توسط بينهما بعض أمـراء الحـج فتـواصـلا على مضض وحذر، وبعد انتهاء حج عام ١٠٧٩ عاد الى جدة مقر امارته وظهر منه شقاق كبير على أمير مكة الشريف سعد وبارزه بالعداوة وقطـع معـاليمـه من جدة ـ المعـاليم ـ هى المخصصات المالية التى كانت مخصصة لشريف مكة بأمر السلطان ـ ثم قدم الى مكة فى حج ١٠٨١ فلما كان اليوم الثالث من منى اطلقت عليـه رصـاصة وقيل ثلاث رصاصات فاصيب فى فخده عند جمرة العقبة في وقت الغروب وهو منحدر الى مكة فوقع من حصانه فاحتمله العسكر الى التخت ونزلوا به الى مكة بعد ان قتلوا من وجدوه تجاههم من الحجاج الفقراء الى أن وصلوا الى بيته فى باب الباسطية بمكة.

وبلغ الخـبر الشـريف سعـدا فنزل من منى بمن معه من العسكر والأشراف فى لبـاس الحـديد، واستعدت عساكر حسين باشا للحصار وجعلوا المدافع على باب السـدرة وربـاط البـاسطيـة ومن جهـة باب الشبيكـه بمكـة. واجتمع امراء الحج بالشـريف فأخـبرهم أنه لم يعلم بهذا ولم يأمر ـ وطلب الشريف محاسبة حسين باشا

---

١ ـ «٣٠٢/٣٠١ نفس المصدر»

عن استحقـاقـه الذي منعه حسين باشا بدون حق . ووكل الشريف وكيلا من قبله فأقـام الـدعـوى لدى قاضي مكـة على البـاشـا واحضـرت دفاتر بندر جدة فصح للشريف عند الباشا مبلغ ٢٤٠٠٠ قرش وتوسط الأمراء بينهما فاخذ الشريف عشرة آلاف وسامح فى الباقي ، ثم توجه حسين باشا عائدا الى جدة فى السابع عشر من ذى الحجـة وتـوجـه منهـا الى المـدينـة المنورة وكان يضطرم غيظا على شريف مكة فاستـدعى الشـريف أحمـد بن محمـد الحارث بن الحسين بن ابي نمي وولاه شرافة مكة والبسه الخلعة فى الروضة الشريفة ونادى له فى البلد وأمر بالدعاء له على المنبر .

وأرسل الى جدة يطلب الذخيرة والسلاح ليتوجه الى مكة لخلع الشريف سعد وبلغ الشريف سعدا ماحدث فسافر من مكة الى ينبع لقتال حسين باشا ثم توالت الحـوادث حتى ورد عزل حسـين باشـا الى الشريف سعد وجاءته البشرى بامداده بالـذخـيرة والخـزانـة التى طلبهـا حسين باشا فارسلت اليه من جدة ، ثم وافى خبر العزل حسين باشا فتوجه من المدينة الى غزة وتوفي بالطريق . (١)

الاشراف يشكون أمير مكة الى الوالي سليمان باشا

وفى سنـة ١١١١ اسنـدت ولاية جدة الى سليمان باشا واستمرت ولايته لها الى سنة ١١١٨ وخلال هذه السنوات اختلف الأشراف مع أمير مكة الشريف سعد ، واخـذوا يعيثون فى الأرض فسـادا فتعـرضـوا لنهب المسـافـرين بين مكة وجدة من الحجـاج وغـيرهم وكـان أمـير مكة الشريف سعد قد امتنع عن دفع استحقاقات الأشـراف الـيـهـم فكـاتـبـهـم الـوالي سليـمان باشـا ووعـدهـم بضـمان حقـوقهم واعـادتهـا اليهم وطلب منهم تأمـين طريق مكـة للحجـاج فانصـاع الأشـراف لرغبـة الـوالي وأمنوا الطريق بل وصار البعض منهم يصطحبون القوافل فى ذهابها الى مكة وايابها محافظة عليها وكتب الوالي الى الشريف بما فعل

---

(١) ـ (٣٠٢/٣٠٣ نفس المصدر)

وطلب منه اطلاق حقوق الأشراف اليهم، ولكن الشريف سعيدا امير مكة لم يحفل بالأمر فما كان من الأشراف الا انهم اجتمعوا وعزلوا الشريف سعيد وولوا بدلا منه الشريف عبدالمحسن وتجمع الأشراف قرب جدة فى منطقة غليل وارسلوا الى سليمان باشا يذكرونه بوعده لهم وبها تم الاتفاق عليه معهم وطلب منهم سليمان باشا الدخول الى جدة فدخل بعضهم وبقى البعض الآخر فى غليل على حذر.

ويبدو ان سليمان باشا كان من دهاة الرجال وقد احكم خطته فاستبقى الاشراف فى جدة وكتب الى الشريف سعيد أمير مكة وكذلك الى والده رسالة يقول فيها:

ان الأشراف نزلوا غليلا لمحاصرة جدة ومنعهم اهلها من الماء (١) وربما يحدث منهم خلاف على البندر - مدينة جدة - وليس لنا قدرة على دفعهم، وارجو ان تخرجوا اليهم ونحن من عندنا معكم او تدفعوا ماهو لهم من المعاليم ليرجعوا عما هم فيه من مضرتنا ومضرتكم وليدخلوا تحت الطاعة، وان كنتم عاجزين عن ذلك فاخرجوا من البلاد فقد نعين لها من يقوم بحفظها.

إن المتأمل فى رسالة الوالي يجدها مبطنة بالتهديد فهو يخيره بين القضاء على مشكلة الأشراف الذين يعبثون بالأمن اما بالقوة ويعده بالمساعدة على ذلك، أو بالحسنى بدفع مالهم من استحقاقات وفى حالة عدم استجابته لأي الامرين يدعوه الى ترك إمارة مكة لانه يصبح عاجزا عن القيام بواجباته.

وركب الشريف سعيد رأسه فكانت اجابته لسليمان باشا - ليس لهم عندنا الا السيف او يرضون بالحيف.

لم يضع سليمان باشا وقتا فاستدعى الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد فعقد له إمارة مكة بحضور القاضي والأشراف والأعيان وهيأله كل ما يحتاجه من عساكر خيالة ومشاة وأمن له المرتبات اللازمة من المطعم والمشرب، وكتب الى المدينة المنورة

---

١ - منطقة غليل فيها عين الماء التى ن تستقي منها جدة

بامرتـه فنـودى به أمـيرا لمكة وخطب بأسمه على المنبر النبوي كما كتب الى قبائل حرب وإلى شمال الحجـاز وإلى اليمن والطـائف بامـرتـه فاطاعوا . ولكن والي مكة الجديد بقي بجدة لأن الأمير الشريف سعيد مازال بها .

ولم يرضـخ الشـريف سعيـد للأمر الواقع فقابل الكيد بالكيد اذ استصدر فتوى شرعيـة من قاضى مكـة المكـرمـة بابطـال البيعـة للشريف عبدالمحسن وبعزله هو وسليـمان باشـا من منصبيهـما ، ولكن سليـمان باشـا كان فيما يبدو قد استصدر امرا سلطانيا باطلاق يده فى تولية إمارة مكة من يشاء وعزل من يشاء وكان قد اعذر الى الشريف سعيد برسالته التى أرسلها اليه .

ابرز سليمان باشا الأوامر السلطانية بتفويضه فى أمر ولاية إمارة مكة فلم يستطيع الشريف سعيد أن يفعل شيئا واضطر فى نهاية الأمر الى الخروج من مكة ليدخلها الشريف الجديد عبدالمحسن بن أحمد بن زيد .

وكما ولي سليمان باشا الشريف عبدالمحسن بن أحمد بن زيد فإنه قام بعزله عن منصب الأمـارة وتـولية الشريف عبدالكريم بن محمد بدلا منه ، ويقول المؤلف ان الباشا شعر ان الشريف عبدالمحسن يعمل على التخلص من نفوذ الباشا .

وعلى أى حال فان هذه الـوقـائـع تظهـر قدرة هذا الـوالى على السيطـرة على حكـام مكـة من الأشـراف واخضـاعهم لنفوذه استنادا الى ما بيده من تفويض من السلطان ، وقد اقترنت ولاية سليمان باشا بالقضاء على تمرد المتمردين من الأشراف والبدو سواء بالحسنى كما رأينا فى تأمينه طريق القوافل بين مكة وجدة وبالقوة حينما جرد حملة بحـريـة قوامهـا السفن الشـراعيـة على الشريف عبدالله بن عبدالكريم الذى استولى على مدينة ينبع وكذلك حملة بحرية اخرى على الشريف سعد والد الشريف عبدالكريم الذى حاول انتزاع القنفذة بواسطة الأعراب فى الجنوب ولكن الشريف سعيدا لم يهدأ بالا حتى استصدر امرا من السلطان باعادته الى الامارة مرة أخرى وفوجى سليمان باشا بأمر السلطان الذى رضخ له فبايع الشريف سعيدا بالامارة وبذل الشريف سعيد لسليمان باشا الأمان ولكن هذا لم يلبث ان استصدر

فرمانا من السلطان أحمد بعزل الشريف سعيد وتولية الشريف عبدالكريم مكانه، وهكذا انتصر سليمان باشا الوالي الداهية اخيرا واجلس صديقه الأمير عبدالكريم على دست الأمارة فى سنة ١١١٧ للهجرة.(١)

شـــــريف مكة يهاجـــم جـــدة

ادت الخلافات المتفاقمة بين امراء مكة من الاشراف وولاة جدة من الترك الى حدوث احتكاكـات ادت الى هجـوم أشـراف مكـة بجيـوشهم على مدينـة جدة ومحاصرتها واجبار الوالي التركي على الهرب من جدة.

فقـد اسنـدت ولايـة جدة سنـة ١١٤٦ الى الـوالي علي باشـا وحدثت بينه وبين الشريف مسعود أمير مكة منازعات بسبب المقررات الخاصة للشريف فى بندر جدة وقـدمت جنـود الشـريف مسعـود لمحاصرة جدة وكان الوالي قد استعد لهذا الحصار ونشبت المعـارك الا ان وكيـل شريف مكـة فى جدة وانصـاره فيها اشاروا على قائد جيش الشـريف مسعـود بمهاجمة المدينة من الجهة الجنوبية لضعف الدفاع فى تلك الجهـة وبـالفعـل تمكن الجنـود والمهـاجمـون من التسلل من الثغرات الضعيفة فى السور واصبحوا داخل المدينة، فلاذ الوالي التركي بالفرار بحرا وتمكنت جيوش امير مكـة الشـريف مسعـود من الاستيـلاء على جدة وبـالحاح من الشريف مسعود تم عزل الوالي التركي وارسلت القسطنطينية واليا آخر.(٢)

وقـد حدث نفس الشيء بالنسبـة للوالي الـذى عينتـه مصـر فى سنة ١١٨٣ هـ واسمه حسن اغاشبكة - ويبدو ان المصريين تمكنوا من استعادة بعض سلطتهم فى الحجـاز فى ذلـك الوقت فتوجه الوالي الى وادى فاطمة ثم الى جدة ولكن الشريف أحمد بن سعيد أمير مكة لم يكن راضياً عن وصول هذا الوالي المصري فأرسل اليه يأمـره بالخـروج من جدة فلم يقبـل فأرسل اليه جيشا يزيد على أربعة آلاف مقاتل

---

(١) ٣١٤/٣٠٧ نفس المصدر

(٢) ٣١٩/٣١٨ نفس المصدر

ومعـه بعض قبـائـل اليمن، واستعـد حسن اغا للدفاع عن المدينة وأخرج المدافع الكبيرة ونصبها على الكدوة وصارت خيله تخرج كل ليلة وتعسّ الى الرغامة.

وصلت سرية من جيش شريف مكة الى غليل ولجأوا الى وسيلة أخرى فارسلوا كتـابـا الى الشـريف أحمـد رئيس جند حسن اغا وجعلوا له مقدارا معلوما من المال ليفسـد الجنـود على الاغـا، وتم التـواطؤ بين الشريف أحمد وقائد سرية أمير مكة وأوعز اليهم ان يهاجموا البلدة من الباب اليماني لضعف وسائل الدفاع فيه. وبادر هو بالهجوم مع السرية الواردة من مكة فتمكنوا من الاستيلاء على جدة فى نهاية جمادى الآخرة.

وقد استسلمت لهم البلدة بعد ان قتلوا جملة من الاتراك واخرجوهم من البلدة ولم يبق فى يد والي جدة الا القلعـة التى احـاطت بها جيـوش شريف مكـة ولما ايقن قائـد القلعـة ان القلعـة لاتحميـه خرج منها من الباب المطل على البحر وخاض فى البحـر بخيله وتـوجـه بمن معه الى رابغ ومنها الى مصر وبذلك انتهت ولاية حسن اغا على جدة. (١)

غـــزو الاحبـــاش لجدة

وإكـمالا لما حدث من الـوقـائع الحربية بجدة نذكر ان الاحباش قاموا بغزو جدة بحـرا فى سنـة ١٨٣ للهجـرة واوقعـوا بأهلهـا فخرج الناس من مكة يومئذ غزاة فى البحـر وعليهم أمـيرهم عبـدالله بن محمـد بن إبـراهيم المخـزومي الـذى ولي مكة لهارون الرشيد العباسي.(٢)

وكـذلـك غزاهـا اسماعيـل الاخيضر سنة ٢٥٦ للهجرة فنهبها وقتل اهلها قتلا ذريعا.(٣)

تعداد سكان جدة

اختلف المؤرخـون فى تعـداد سكـان مدينـة جدة فقـدرهم ناصر خسرو فى عام

١- «٣١٩/ ٣٢٠ نفس المصدر»

٢ - «١٠٣ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٣- «موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٤٤٢ للهجرة بخمسة آلاف نسمة وقدر الرحالة المستشرق بوركهات سكان جدة فى سنة ١٢٣٠ مابين اثني عشر الفاً وخمسة عشر ألفا وفى سنة ١٢٧٧ قدر مالتزن عدد سكان جدة لما حج الى مكة بخمسة عشر ألفا، وفى سنة ١٢٨١ قدرهم هوجلين بأربعين ألفا، وقدرهم فانديك باثنى عشر ألف نسمة، وفى سنة ١٣٠١ قدرتهم دائرة معارف البستانى بثمانية عشر الف نسمة، وقدر عدد سكان جدة فى مطلع هذا القرن الهجرى سنة ١٣٠٠ هـ محمد صادق باشا بخمسة وعشرين ألف نسمة، وكذلك كان تقدير إبراهيم رفعت باشا، وفى سنة ١٣٢٧ هـ قدرهم محمد لبيب البتانوني بخمسين ألفاً بينهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارمة وهنود وبخاريين، أما الافرنج فيبلغ عددهم مائة اويزيد قليلا واغلبهم من الاروام. وفى سنة ١٣٣٠ هـ قدرتهم دائرة المعارف البريطانية بعشرين ألفا، وفى سنة ١٣٣١ هـ قدرتهم دائرة المعارف الاسلامية بنحو ثلاثين ألفا من العرب المختلطين بالتكارير ونحو ٥٠ نصرانيا. وقدرهم محمد فريد وجدى فى دائرة معارفه بنحو ثلاثين ألف نسمة. (١)

عدد الاجانب فى جدة

فى سنة ١٣٥٥ هـ الموافق لسنة ١٩٣٧ م ذكرت دائرة المعارف البريطانية انه كان بجَدة من الأجانب مايأتي :

٥٠ أمريكيا - ١٩ ايطاليا - ٤٤ بريطانياً - ٥ روس - ٥ فرنسيين - ١١ هولندياً وفى سنة ١٣٧٥ هـ قدرت دائرة المعارف البريطانية سكان جدة بمائة وستين ألف نسمة، وقدرتهم دائرة المعارف الامريكية فى سنة ١٣٧٦ هـ بستين ألف نسمة، وقدرهم توتشل بثمانين ألف نسمة وجاء فى هامش الصفحة ان عددهم الفعلى ١١٢ ألف نسمة ونشر قارى اوين ممثل شركة الزيت العربية الامريكية مقالا فى مجلة المنهل ذكر فيه ان الخبراء يقدرون عدد سكان جدة قبل عشر سنوات بخمسة وثلاثين الفا. ويقدرونهم اليوم سنة ١٣٧٩ هـ بثلاثمائة وخمسين ألفاً أو نصف

١- «١١٠» ١١٧/ نفس المصدر»

مليون، وقدرهم عبدالله عبدالجبار فى كتابة التيارات الأدبية الحديثة فى قلب جزيرة العرب بأربعمائة الف وقدرت منظمة الصحة العالمية فى الاحصاء الذى قامت به العدد بمائة وستة آلاف فى سنة ١٣٨١ هـ وورد فيه ان ٣٥٪ منهم من الاجانب معظمهم من العمال وأصحاب الحرف. ودل المصور الجغرافى لجدة سنة ١٣٦٨ هـ ان تعداد السكان يقدر بـ ٢٤٤٠٠ نسمة وان تعدادهم سنة ١٣٧٥ هـ كان ٩٤٢٠٠٠ وفى سنة ١٣٧٩ هـ وصل الى ١٠٦٠٠٠ والاحصاء الذى اجرى سنة ١٣٨٢ هـ أظهر أن عدد السكان قد بلغ ١١٤٠٠٠.

تعداد المباني فى جدة

أما بالنسبة لتعداد المبانى فى جدة على اختلاف أنواعها فإن الكتاب يضم هذه المعلومات:

جاء فى كتاب الجواهر المعدة للحضراوي ان دكاكين جدة تزيد على خمسة آلاف ومقاهيها تزيد على المائة وجاء فى نشرة احصاء السكان والمؤسسات التى اصدرتها وزارة المالية والاقتصاد الوطني فى ذى القعدة سنة ١٣٨٢ هـ ان عدد مباني جدة - ٣٢٣١٧ مبنى(١) وعدد شوارع جدة حاليا ١٣١ شارعا، هذا فى عام ١٣٨٣هـ(٢)

شـــــارع قابل

وفى زمن حصار الملك عبدالعزيز آل سعود لجدة باع الملك علي بن الحسين هذا الشارع لسليمان قابل بثلاثة آلاف جنيه ذهبا واعطاه سليمان قابل ارزا وشعيرا بدلا من النقود المشار اليها ومن ثم صار الشارع ملكا له. (٣)

البحر الأحمـــر

يبتدىء البحر الأحمر من خط عرض ٣٠ شمالا من خليج السويس وينتهى عند ١٣/٤٠ جهة باب المندب ويبلغ طوله نحو ٢١٥٠ كيلومترا وعرضه فى المتوسط

١- «٥٦٠ موسوعة تاريخ مدينة جدة»

٢- «٥٦١ نفس المصدر».

٣- «٥٦٧ نفس المصدر»

٢٨٠ كيلو متر ويتسع فيما بين مدينتي جازان شرقا ومصوع غربا ويبلغ نحو) ٣٤ كيلو متر.

وتبلغ اعماقه بالقرب من السواحل نحو ٢,٢٠٠ قدم وتنحدر الى ان تصل الى زهاء ٦٦٠٠ قدم ويبلغ امتداد السواحل فى المملكة العربية السعودية مايزيد عن ١٠٠٠ ميل.

الماء فى جدة

كانت جدة تعاني من شح الماء عبر القرون وفى القرن العاشر الهجرى قام السلطان قانصوه الغورى بجلب الماء العذب الى جدة من وادى قوص الواقع شمال الرغامة وتبعد الرغامة عن جدة ساعتين سيرا على الاقدام ولكن هذا الماء كان يتعرض للملوحة اذا شحت الامطار ويعذب بكثرتها، فلما دخل القرن الحادى عشر الهجرى انقطعت العين ثم اجريت ثم انقطعت مرة اخرى فى القرن الثالث عشر الهجرى، وذلك تبعا للتطورات السياسية والامنية التى تتعرض لها البلاد ولتوفير الصيانة والتنظيف واهمالها. وفى سنة ١٢٧٠ هـ، قام التاجر فرج يسر باعادة اجراء العين بعد اصلاحها وجمع لذلك التبرعات من التجار واستمر جريانها الى سنة ١٣٠٤ هـ وفى سنة ١٣٠٦ هـ تم ايصال الماء الى جدة بأمر من السلطان عبدالحميد الثانى فوصل الماء الى جدة فى عهد الوالى التركي صفوت باشا وسميت هذه العين بالحميدية نسبة الى السلطان عبدالحميد الثانى ، ولكن الاسم الذى غلب على هذه العين لدى أهل جدة هو العين الوزيرية وكانت هذه العين تنبع من سفوح الجبال الشرقية لجدة والتى تبعد مسافة نصف ساعة عن جدة ، وبنيت لهذه العين مناهل فى انحاء متفرقة من مدينة جدة ليأخذ الناس منها حاجاتهم من الماء كما تأخذ البواخر منها حاجتها كذلك.

تقطير الماء من البحر

تكرر انقطاع الماء عن مدينة جدة فجلبت الحكومة التركية فى سنة ١٣٢٥ هـ أول آلة لتقطير مياه البحر وكان أهل جدة يسمونها الكنداسة، ولم تكن هذه الكنداسة كافية لسقيا مدينة جدة فكانت موردا مساعدا للصهاريج الموجودة فى جدة والآبار الأخرى. وقد تعرضت هذه الآلة للخراب حينما انقطع الفحم

الحجرى الذى كان وقودها فى عام ٤٣ و ١٣٤٤ هـ وفى سنة ١٣٤٦ هـ استوردت الحكومة السعودية آلتين مقطرتين بدلا من الآلة البخارية.

عـين العـــزيزية

اجتمـع أهـل جدة فى ١٣٦٧ هـ وقـرروا جمع المال من أثر يائهم لجلب الماء إلى جدة بعد ان تكرر انقطاع العين العزيزية عنها وقد جمع الأهالي نصف مليون ريال واستقـدمـوا خبيـرا انجليـزيا لهذه الغاية ولما علم جلالة الملك عبدالعزيز بالأمر أمر بجلب المـاء على حسـابـه وكلف الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية بهذا المشروع وقـد جلب المـاء من عيون وادى فاطمة بعد الاتفاق مع أهلها على ذلك وتعاقدت الحكومة مع شركة جلاتلي هنكي الانجليزية على تنفيذ المشروع وبدىء العمل به فى منتصف عام ١٣٦٧ هـ وفى غرة المحـرم ١٣٦٧ هـ وصـل المـاء الى جدة منقولا بالأنابيب بطول خمسه وستين كيلومترا وبذلك انتهت قصة انقطاع الماء التى دامت عبر القرون(١).

وعلى ذكـر الكنـداسـة نورد هنـا بعض أبيـات من قصيدة المرحوم محمد سعيد العتيبي فى الكنداسة:

ياذوى الـرأى والحجي والكيـاسـة	خلصـونـا من دوشـة الكنـداسـة
كلكـم تأخـذون بالـدَّسِّ ماءاً	ونشـوف النجـوم من أجـل كاسـه

ومنهـا

كل عشـريـن طابـقـون حمارا	ويـل من عضّـه الحـمار وداسـه
منظـر يضحـك الخـواجـات منه	والأديـب الـلبيـب من هز رأسـه

ويضم الكتاب كثيرا من المعلومات التى تجمع بين الطرافة والغرابة وقد اخترنا منها ما يلى: (٢)

---

(١) ١٤١، ١٥٦/ نفس المصدر.

(٢) ١٥٢، ٥٣/ نفس المصدر.

امتيـــازات الحضارمة فى جدة

جاء فى مذكـرات المـرحـوم الشيـخ محمـد صالـح بن علي باعشن ان كثيـرا من تجارات جدة كانت بيـد الحضـارمـة وان لهم تقـاليدهم الموروثة فى جدة وكانت لهم مكـانـة فى المجتمـع باعتبـارهـم من رجالاته وكانت الدولة العثمانية تقدر لهم هذه المكـانـة وكـانوا يمتازون عن سكان المدن الأخرى فى الحجاز ـ مكة والمدينة وغيرها من مدن الحجاز ـ بإن دعاواهم وتركاتهم وبيع وشراء دورهم تتم عند شيخ السادة ولايتعرضهم وال ولا قاضٍ .

وقد صدر بذلك فرمان سلطاني فى سنة **١٢٣٧** هجرية من السلطان محمود خان ويبقى هذا الامتياز ساريا فى العهد العثمانى ثم فى العهد الهاشمي ، ولما تولى الملك عبـدالعـزيـز امـر الحجاز طلب منه الحضارمة ابقاء امتيازاتهم لهم فوافق على ذلك ولكنهم اختلفوا فيما بينهم فى أمر المشيخة وكانت اجتماعاتهم تتم فى دار الشيخ محمد صالح باعشن ولم يتفقوا على شيء فضاعت امتيازاتهم وتغير الأمر بالنسبة اليهم(١) .

ثـروات البحر

وصف الـرحـالة الحميري جدة وضخامة الثراء بها فقال وفى أعلى منازلها قباب محكمة ويذكر أهلها ان من بلغ كسبه مائة ألف دينار بنى على داره هذه القبة ليعلم ان كسبه قد بلغ العدد المذكور(٢) .

صادرات جـــدة

وصف بطرس البستانى تجارة جدة بأنها متسعة جدا تجرى على الاكثر بواسطة مراكب انجليـزيـة ومـراكب عثـمانيـة ووطنيـة صغيرة محمولها نحو ٨٠ طنا وأن من صادراتها البن والصمغ والطيوب والبلسم والبخور والسنا والعاج والعطر والخيارشنبر وصدف اللؤلؤ وتروس السلاحف وريش النعام والتمور والسكاكين والخزف والجلود .

(١) ٢٣١/٢٣٢ نفس المصدر.

(٢) ٢٧٥ نفس المصدر.

رأس المـــــال

يقول الشيخ محمد صالح بن علي باعشن : وكان من يبلغ رأس ماله ستة عشر ألف ريال يعتبر تاجرا ناحجا مرموقا . (١) .

اللؤلـــــؤ فى جـــدة

وقد ذكر توتشل ان بعض اللآلى وجدت على طول البحر الأحمر قرب جدة الى الجنوب ولكن الغوص لم يكن حتى الآن احد المشروعات الناجحة . (٢) .

واردات جــــــدة

حددت دائرة المعارف الاسلامية واردات جدة بانها كانت بعد فتح قناة السويس بمقدار مليون وخمسمائة الف جنيه ذهب(٣) .

وذكـرت دائـرة المعارف المطبوعة سنة ١٩٦٠ ، ان استيرادات جدة من البضائع فى سنة ١٩٥٥ م بخمسة ملاين جنيه .

صـادرات المملكة ووارداتها فى سنة ١٣٧٩ هـ

ذكر تقرير رئيس الغرفة التجارية بجدة الأرقام التالية :

٣,٣١٣,٥٠٦٧٤٤ ريال صادرات المملكة فى سنة ١٣٧٩ هـ .

٩١٧,٦٣٢٧٠٢ ريالا واردات المملكة فى العام المذكور . (٤)

حـــارة المظـلـوم ـ سبب التسـمية

فى سنة ١١٣٤ هـ وقعت بالمدينة المنورة فتنة أهلية أتهم أغوات المسجد النبوي فيهـا العـالم الـديني السيـد عبـدالكريم البر زنجي بأنه من مشعلي الفتنة ورؤ وسها وصـدر الأمـر من السلطنـة بقتـل السيـد البر زنجي ومن اتهم معه من زعماء الفتنة ومثـيريها . وبقي السيـد عبـدالكريم البر زنجي بالمدينة خائفا ولم تلجأ الدولة الى القبض عليـه فى المـدينـة وتنفيـذ حكم القتـل فيـه تحسبا لما قد ينجم عن ذلك من

(١) «٢٧٦ نفس المصدر» .
(٢) «٢٧٩ نفس المصدر» .
(٣) «٢٨٠ نفس المصدر» .
(٤) «٢٨٣ نفس المصدر» .

القلاقل ، ويبدو ان لمكانة الرجل الدينية الاثر الاكبر فى تحسب الدولة لذلك .

لهذا فقد اغروا به من زين له الخروج من المدينة والانتقال الى جـدة حيث انها آمن له من المـدينـة ، وقـرر السيد البر زنجى الخروج من المدينة والانتقال الى جدة فلما وصل الى مكة فى طريقه الى جدة قبض عليه الوزير ابوبكر باشا وأرسله الى جدة فحبس بقلعتها وقتل خنقا والقي بجسده فى سوق جدة يوما كاملا وكان قتله بهذه الصفـة الشنيعـة ثم القـاؤه فى السوق قد أثار حنق أهل جدة وسخطهم على الحكـومـة العثمانية فسموه المظلوم وسميت المحلة التى القى بها جسده محلة المظلوم من يومئذ الى اليوم .

يقـول المؤلف امـا كتـاب السلاح والعدة فى فضل جدة فيسمى البقعة التى فى داخـل السـور بالجهـة الشـماليـة باسم بقعة المظلوم نسبة الى عفيف الدين مظلوم المدفون فيها(١) أقول والرواية الأولى تتفق مع ماسمعته من بعض العارفين بتاريخ جدة من أهلها والله أعلم .

باب المغاربة ـ سبب التسمية

وكـان هذا البـاب يقـع أمام عمارة معرض الجفالي ، ولعل منشأ التسمية انه كان مدخـل حجـاج المغـاربـة أيام كانت تفرض عليهم رسوم حج باهظة من قبل امراء مكـة ، كما حدثنـا ابن المجـاور الـدمشقي من أهل القرن السابع الهجرى فى كتابه تاريـخ المستبصـر ، وقـد افادنا ابن المجاور بأن صلاح الدين الأيوبي أنفذ من مصر الى الأمـير مكثـر أربعـة آلاف اردب حنطة (والأصح ستة آلاف أردب حنطة) إلى جدة وإلى مكـة وقـال له خذ هذا القـدر واتـرك عن المغاربة الجزية مع دية الكلب فازال الأمير مكثر ذلك كله فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ثم أراد الأمير قتادة ان يرد الشيء الى أصله ـ يعنى اخذ الجزية من المغاربة فادركه الموت وارتفع عنهم . وقد وصف ابن جبـير الانـدلسي الـذى حج فى زمن امـارة الأمير مكثر ما كان يمنى به الحجـاج من أرهـاق فى أخـذ المكـوس على اشخاصهم «وكان مقدار الجزية سبعة يوسفية على كل رأس كما كان القواد فى جدة يأخذون من كل رأس منهم يوسفيا» .

(١) . «٣١٦ نفس المصدر» .

قال ابن جبير ولولا ماتلافى الله به المسلمين فى هذه الجهات الحجازية بصلاح الدين لكانوا من الظلم فى امر لاينادى وليده لايزجر شديده فانه رفع ضرائب المكوس عن الحجاج وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها الى أمير مكة، فمتى ابطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم، عاد هذا الأمير الى ترويع الحاج بسبب المكوس واتفق لنا من ذلك ان وصلنا الى جدة فامسكنا بها خلال ماخوطب مكثر الأمير المذكور فورد امره ان يضمن الحاج بعضهم بعضا ويدخلوا الى حرم الله فان ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين والا فهو لايترك ماله قبل الحاج، ثم قال ابن جبير ـ والذى جعل له صلاح الدين بدلا من مكْس الحاج الفى دينار والفي أردب من القمح وهو نحو الثمانمائة قفيز بالكيل الاشبيلي عندنا حاشا اقطاعات اقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور، ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام فى حروب له هناك مع الأفرنج لما صدر عن هذا الأمير المذكور ماصدر فى جهة الحاج.(١)

أوليات فى جدة

الفرنجة ـ القنصليات الأجنبية

فى سنة **١٢٥٢** هـ كان وصول أول قنصل انجليزى الى جدة وتوطنه بها ونصبه أول علم للأجانب بها فكانت القنصليات الأجنبية فى جدة تابعة لبريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا وهولندا وبلجيكا وإيران وكان للحكومة البولندية قنصلية فى جدة وانقطعت العلاقة معها بعد استيلاء الروس على بولندا، اما العلاقة السياسية مع روسيا فقد بدأت فى **١٦** فبراير سنة **١٩٢٦** م وانقطعت فى سنة **١٩٣٨** م. (٢)

وكان للمسيحيين فى جدة نظام خاص فى لباسهم وتنقلهم كما يظهر فى الفقرة التالية.

١ـ «٥٥٨/٥٥٩ نفس المصدر ـ عن رحلة ابن جبير   نفس المصدر ـ عن رحلة ابن جبير ٥٤/٥٥».

٢ـ «٣٩٣/ ٣٩٨ نفس المصدر»

المســـيحيون فى جدة

ويوجد مسيحيون يقيمون فى جدة وهناك يونانيون قليلون يعملون فى التجارة ، وكان قدومهم الى جدة من مصر وكانوا مجبرين فى ايام الشريف على ارتداء لباس خاص وكانو ممنوعين من الوصول الى باب مكة فى مدينة جدة وعندما حكم الاتراك الحجاز ازيل هذا النظام الدقيق ، والآن للمسيحي كامل الحرية فى التنقل فى جدة واذا مات لايـدفن فى جدة لانهـا تعتـبر ارضـا تابعـة للأرض المقـدسة ويوجد محل خاص فى الجزر الصغيرة يؤذن لهم فى الدفن به . (١)

أما اليهود فقد طردوا من جدة كما يظهر من الفقرة الثالية .

اليهـــود فى جدة

وكــان اليهـود وهم سماسـرة هذا البلد ولكنهم طردوا منـذ سبعـين عامـا لسـوء أخـلاقهم و نزحـوا الى اليمن وصنعـاء على مايقـولـه بوركهارت . وبوركهارت مستشرق سويسري تسمى بإسم إبراهيم عبدالله وتزيى بزي المسلمين ودخل جدة ومكة والمدينة ووصف موسم الحج وصفا بارعا فى كتاب سماه السفر الى بلاد العرب وظهر باللغة الانجليزية سنة ١٨٢٩ م . (٢)

وتعليقـا على ذلـك اقـول أن مايتعلق بالمسيحـين ربـما كان فى العهـود السابقة للحكم العثمانى والتى تبدأ فى أواخر القرن العاشر الهجرى والمقصود بكلمـة أيام الشـريف الـواردة فى الخـبر هو شريف مكـة . لقـد ادركت المسيحيـين فى العهـد الهـاشمي واوائـل العهد السعودى وهم يعيشون حياة عادية فى ملابسهم وتحركاتهم وكـانت لهم شركـاتهم واعمالهم أما بالنسبة لمدافنهم فقد كانت لهم مقبرة فى جدة فى الجهة الجنوبية قرب الميناء ولاتزال موجودة حتى هذا اليوم ، اما عن اليهود فلم يكن بجدة الا يهودي واحد اسمه ماركو وكان له دكان فى شارع متفرع من السوق الكبير وقـد رحـل من جدة بعـد ان تزوجت ابنته الخواجه نقولا وكان يونانيا مسيحيا على

١- «١١١ نفس المصدر»

٢- «١١١ نفس المصدر»

غير رضاء منه فترك جدة غاضبا الى غير رجعة.

اضاءة الشـــــوارع

واضيئت شوارع جدة بالمصابيح الغازية فى أول عهد الحرية فى سنة ١٣٢٧ هـ وكـان المتصـرف سوريـا اقـول والمقصـود بعهـد الحـرية هو الانقلاب الذى قام به الأحـرار العثـمانيـون وكـان شعـاره حريـة مساواة عدالة وكان حزبهم يسمى حزب الاتحاد والترقى. (١)

دخول فن التصوير الفوتوغرافي

يقول المؤلف : حدثني الشيخ محمد نصيف بأنه فى سنة ١٣٠٠ هـ اخذ رسمه ـ فوتوغرافيا ـ وهو ابن ستة اشهر المستشرق الهولندى سفوك هوجرنة الذى كان يومئذ نزيـل جدة قادمـا اليهـا من مصـر وكـان ذلـك برغبـة من جدة الشيـخ عمـر نصيف. (٢)

الحسبة والمحتسب

المحتسب هو المتصـرف فى شئـون المـدينة وبيده مفاتيح أبوابها وهو المسئول عنها وكان لديه مراكب مؤلفة من بغال وحمير وجمال ولديه رجال شجعان مسلحون لنشر الأمن فى البلدة واذا حدث أمر هام فى الليل مثلا فان الكتب الرسمية التى يكتبها حاكم جدة إلى إمارة مكة فى هذا الشأن لاترسل الا مع رجل خاص من رجالات المحتسب. وكانت إمـارة مكـة تبيـع الحسبـة لطـلابها مقابل مبلغ من المال يدفعه المحتسب لخزانـة أمـير مكـة وربـما كان الحـال فى جدة شبيهـا بذلـك فى بعض الظروف. وكانت لحسبة فى عام ١٢٧٠ هـ تدور بين ثلاثة اشخاص من أهل جدة هم محمد طويل جد محمد الطويل رحمه الله وعبدالله محتسب وآخر من بيت جاسر. وفى مطلع القـرن الهجرى الـرابـع عشر حولت الحسبة الى رئاسة بلدية جدة مثل سواها من مدن الحجاز.

١- «٣٩٣ نفس المصدر»

٢- «٤٩٥ نفس المصدر»

قبر حــــواء

كان موضـع هذا القـبر هيكـلا عبـدتـه قضـاعـة قبـل الاسلام وبقي اثره بعد الاسلام فاقيم القبر مكانه، ولقد حاول الشريف عون الرفيق هدم هذه القبة ـ قبة قبر حواء ـ وقـام قنـاصـل الـدول فى وجهه حيال عزمه المذكور وحيلولتهم بالتفاهم الـودى بينـه وبين تنفيذ ماعزم عليه بحجة ان حواء ليست أم المسلمين وحدهم بل ويشاركهم فى بنوتها جميع البشر من الاجناس غير الاسلامية. (١)

أقول وهذا الخبر فيه شيء من الغرابة والله أعلم.

تقييم الكتـــــاب

وبعد فهذا الحديث الطويل عن جدة هو مارأيت نقله من موسوعة تاريخ مدينة جدة وهو من أهم الكتب التى الفها المرحوم الأستاذ عبدالقدوس الانصارى فتتبع كلما يتعلق بمـدينـة جدة فى كتب الـرحلات والمؤرخين والجغرافيين ودوائر المعارف اضافة الى ابحاثه الخاصة فى شتى المجالات حديثها وقديمها والاتصال بالعارفين من أهلهـا كالشيـخ محمـد نصيف والشيخ محمد صالح بن علي باعشن رحمهما الله وهما من كبـار أهـل جدة الـذى يجمعـون بين العلم والخبرة ومعـاصرة الاحداث، والتنقيب عن المـذكـرات والكتب المخطوطة فى تاريخ جدة واستخلاص المعلومات منهـا. ان الكتـاب حجـة فى موضوعه ولقد بذل فيه المؤلف من الجهد والوقت ما لم يبـذلـه سواه من أهـل جدة أوغيرهـا مما يجعله مرجعـا قيـما لكـل مؤرخ أودارس والكلمة الاخيرة فى هذا الكتاب هى استحثات الاستاذ نبيه الأنصارى ابن المرحوم عبدالقدوس فى إكمال مابدأه والده واخراج الجزء الثانى من هذه الموسوعة الضخمة فى تاريخ جدة.

١- «٤٨/ ٤٩ نقلا عن رحلة لبيب البتنوني».

خاض عبدالقدوس رحمه الله معارك أدبية كثيرة أولها فيها اذكر مع الأستاذ محمد حسن عواد يرحمـه الله حينـما اصـدر عبـدالقدوس كتابه التوأمان وكان رأي الأستاذ عواد فيه سيئـا ودارت المعـركـة فى جريدة صوت الحجاز بين الأديبين، وقد اصدر عبدالقدوس كتابه هذا ولعله أول كتبه فى مطلع شبابه وكان العواد قد فرض نفسه فى دنيا الأدب وذاع اسمه وصيته.

أمـا المعـارك الأخـرى فلقـد كانت مع الأستـاذ حمد الجاسر والأستاذ عبدالله بن خميس ولعلهـا ان لم تخني الـذاكـرة تتعلق بابحاث تاريخية وأثرية . . وعلى اى حال فليس من غرض هذه الـترجمـة الحكم بين عبـدالقدوس وغيره من الأدباء والعلماء وأنما اعطاء صورة عن حياته الأدبية والعلمية.

ولقد كان الرجل فيها أعلم موضوعيا فى هذه المعارك يترفع عما يسف من الكلام ويلتـزم أدب البحث ولكنـه يجهر بما يعتقد انه الصواب رحم الله الانصارى وعوادا وغفر لهما وامد الله فى حياة الأديبين الكبيرين حمد الجاسر وعبدالله بن خميس فهما من أعلام الأدب والعلم فى هذه البلاد.

الكلمـــة الأخـــيرة

وإذا كانت هنـاك كلمـة اخـيره تقـال فى آثار عبدالقدوس رحمه الله فلعل المنهل الـذى رعـاه عبدالقدوس شابا ورجلا وشيخا هو الموسوعة الحقيقية لمعارفه وتحقيقاته، وهي المرجع الضخم لادبه وعلمه، وهو كذلك من أهم المراجع لكثير من الأدباء والعلماء الأموات منهم والأحياء.

لقد وهب عبدالقدوس رحمه الله نفسه للأدب والعلم والتحقيق والبحث فقضى حيـاتـه كلهـا فى عمـل دائب مفيـد وتـرك لنـا هذا الـتراث الضخم من الأبحاث والتحقيقات سواء فى كتبه الخاصة أو فيما كان ينشره فى مجلته العظيمة المنهل خاصة وفى الصحف الأخرى عامة وهو بهذا الدأب يصور لنا حياة رجل العلم الذى وهب

حياته كلها للعلم النافع المفيد.

مرضه ووفاته

مرض عبـدالقـدوزس رحمه الله مرضا شديد تردد فيه على المستشفيات فى جدة والـريـاض ويبـدو ان العلة كانت قد استعصت على العـلاج وآذان مصباح حياته بالانطفاء فتوفى فى ليلة الثانى والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ عن عمر يناهز الثمانين عاما ودفن بمكة المكرمة فى مقبرة المعلاة بعد ان صلي عليه صلاة الظهـر من يوم الثـلاثـاء الثـالث والعشـرين من جمادى الآخرة ، تغمده الله برحمته الـواسعـة وانـزله منازل رضوانه وتقبل منه عمله الطيب فى خدمة الأدب والعلم انه سميع الدعاء..



عبدالله باشا باناجه



عبدالله باشا باناجه

معتدل القامة نحيف البدن حنطي اللون واسع العينين، اقنى الانف، مهيب المنظر يكسو الشيب لحيته وعارضيه وشاربه وحاجبيه، يرتدى الجبة والعمامة الالفي وتحتها الشاية وهى اللباس الخاص بالتجار فى ذلك الزمان.

ولـد بمـدينـة جدة فى الفـترة حوالي عـام ألف ومائتين وسبعين للهجرة، وسافر بصحبة والده التاجر يوسف باناجة الذى نفي مع من نفي من تجار جدة الى جزيرة قبرص على اثـر غزو الأسطـول الانجليـزى لمينـاء جدة اثر قيـام الاهالي بقتل القنصل الانجليزى والقنصل الفرنسي وبعض الفرنجة فى جدة.

وتفصيل هذه الموقعة ان شائعة انطلقت فى مدينة جدة فى ذلك الزمان مفادها ان القنصـل الانجليـزى دعس العلم العثماني بقـدمـه فى إحـدى البواخر الراسية فى الميناء، واعتبر الأهالى ان هذا العمل الذى قام به القنصل الانجليزى اهانة للعَلَم الذى هو رمز الاسلام فقتلوه وقتلوا معه القنصل الافرنسي كما قتل فى هذه الحادثة بعض الافرنج المقيمين بجدة ونهبت دورهم.

استشاطت حكومة الانجليز غضبا لما حل بقنصلها وغيره من الفرنجـة فارسلت بعض قطـع اسطـولهـا الى مينـاء جدة، واطلقت بعض هذه القطـع قنـابلها على

المدينة فالحقت الخراب ببعض اجزائها، ولم تستطع القلعة البحرية مقابلة هذا الهجوم بما لديها من مدافع قديمة وأسلحة اكل عليها الدهر وشرب.

وقد رأت الدولة العثمانية ان من الحكمة تسوية هذه المسألة فاجرت تحقيقا فى الحادث الخطير وعاقبت القائمين به والمحرضين عليه بالقتل والنفي، وقد نفذ القتل فى عبدالله المحتسب الذى كان محتسب مدينة جدة - المحتسب هو رئيس البلدية - وسعيد العامودي وغيرهم وكان من ضمن المنفين الشيخ يوسف باناجة والد المترجم (١).

وقد توفي الشيخ يوسف باناجه فى منفاه بجزيرة قبرص فعاد عبدالله باناجه مع أخيه عبدالرحمن ووالدتهما إلى جده، وكان اخوهما الاكبر محمد باناجه هو الذى يشرف على شئون العائلة منذ نفي والدهم من البلاد. ونشأ عبدالله باناجه فى جدة وتعلم أولا فى قبرص حينما كان والده منفيا بها وربما اتاح له هذا تعلُّم اللغة التركية هناك فقد كانت الجزيرة تحت حكم الاتراك وبها جالية تركية اسلامية كبيرة وعلى اي حال فقد نال من العلم ماكانت تسمح به ظروف ذلك الزمان، ولما بلغ مبلغ الشباب عظم الخلاف بينه وبين أخيه الاكبر محمد الذى هو رئيس العائلة وكان جافي الطبع شديدا فى تصرفاته فلم يستطع عبدالله العيش مع اخيه هذا فهاجر إلى مدينة الاستانة - اسطنبول - عاصمة الخلافة العثمانية وهي فى اوج مجدها وازدهارها.

واشتغل عبدالله باناجه بتجارة المجوهرات من اللآلىء والاحجار الكريمة، وكان لهذه التجارة سوقها الرائج اذا جمع صاحبها بين حسن الاختيار وجمال التنسيق وصاحب ذلك الكياسة وحسن السياسة.

ووجد عبدالله باناجه طريقه الى بلاط الخليفة وقصوره بما تحمله من نفيس الجواهر وكريم اللآلىء فاصبح مقربا الى البلاط ولم يمض طويل وقت حتى عيَّنه

---

١ - انظر تفاصيل القصة فى كتاب موسوعة تاريخ مدينة جدة ٩٤/٩٥ للاستاذ عبدالقدوس الانصارى.

السلطـان عبـدالحميـد عضـوا فى مجلس المبعـوثـان وانعم عليـه بلقب الباشوية الرفيعة فى ذلك الزمان فاصبح اسمه ـ عبدالله باشا باناجه ـ وهو الوحيد فيها أعلم من أهـل الحجـاز الـذى حصـل على هذه الرتبة الرفيعة العالية بها لها من امتيازات واوسمـة باستثنـاء بعض اشـراف مكـة المكرمة الذين منحت لهم رتبة الباشوية من السلطان فى ذلك الزمان.

بزغ نجم الفتى وطابت له الاقامة فى عاصمة الخلافة وتزوج بها واقتنى الضياع وطـالت اقـامتـه هناك حتى يئس اهله واخوته من رؤ يته بينهم فى جدة مرة اخرى، ولكن للأقـدار احكـامهـا التى تغـير ماقدر الناس لانفسهم وما ارادوا، مات محمد بانـاجـه الاخ الاكـبر، واصبـح عبدالله هورئيس العائلة فعاد الى وطنه مرة اخرى ليكون على رأس البيت الذى تركه شابا وكانت هذه العودة سببا فى كلما حققة بيت بانـاجـه وماناله من شهـرة وذيـوع صيت، كانت العـائلة تسكن فى بيت صغير فى منطقـة سوق النـدى وحـول هذا البيت بيـوت صغـيرة اخرى متناثرة والى جانبها أرض خاليـة ترمى فيهـا النفـايـات. اشترى عبدالله باناجه باشا البيوت الصغيرة المحيطـة بدار اسـرته كما أشترى الأرض المهملة وهدم الجميع لينشيء مكانها بيت العـائلة الكبـير المـوجود حاليا بسوق الندىَ وليبني حوله المخازن الخاصة بالبضائع وليكـون سفله مكـاتب للعمـل التجـارى، وعلوه للسكن وكـان هناك بيت صغير متصـل بمسجـد الحنفي وهـو من أقـدم المسـاجد فى جدة، وملاصق لبيت باناجه فاشـتراه البـاشـا ليجعل منه مقصورة للصلاة متصلة بالمسجد ومحجوزة عنه بشباك كبير من الحديد، وشيد فى نفس الوقت صالة فخمة والحقها بهذه المقصورة وكان فى تصرفه هذا مثالا للذكاء وبعد النظر.

كان آل باناجه يستعلمون المقصورة فى صلاتهم اليومية فإذا أذن الظهر والعصر تركـوا مكـاتبهم واجتمعـوا فى هذه المقصـورة يصلون بصـلاة أمـام المسجـد وهم يشـاهـدون المصلين كما يشاهدهم المصلون كان هذا فى الايام العادية، اما فى يوم الجمعة فان الامر يختلف اختلافات تاما. لقد اصبحت هذه المقصورة ملتقى الولاة

والحكـام والاعيـان ، يفـد الـوالي الـتركي والقائمقام ومدير الشرطة وكبار الاعيان لصـلاة الجمعـة فى مقصـورة آل باناجه فإذا انقضت الصلاة انتقل المجتمعون الى الصـالـة الكبـيرة المؤثثة باجمل الاثاث للاستراحة وفيها تدار عليهم اكواب القهوة والشـاي وينطلق بخـور العـود، وتـدور الاحاديث التى تتعلق بأهم الاحداث كما تدور المجاملات وليس هذافحسب كانت، المقصورة مكانا امينا للشخصيات الهامة من الملوك والعظـماء الـذين يصلون الى جدة وتـدركهم الجمعـة بها، ولقد شهدت كثيرا من الملوك الذين عاصرتهم يصلون الجمعة فى مقصورة آل باناجه.

الملك الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز.

السلطـان وحيـد الـدين آخـر سلاطـين آل عثـمان الـذى زار الحجاز بدعوة من الشـريف الحسـين بعـد خلعـه من العرش. الملك الشريف علي بن الحسين الذى خلف اباه الشريف الحسين على عرش الحجاز.

الملك الامام عبدالعزيز بن سعود ملك الحجاز وسلطان نجد بعد فتح الحجاز.

الملك سعود بن عبدالعزيز. . . الملك فاروق ملك مصر حين زيارته الأولى للحجاز.

السلطان القعيطي سلطان حضرموت حينما حضر للحج. وغيرهم من الحكام وأولى السلطان.

وفى الجمعـات التى يصلى فيهـا أحـد الملوك يستعـد آل باناجه اعظم استعداد لاستقبـال الضيـف الكبـير فيجهز المجلس ويرش الحوش الذى يدخل منه الموكب ويصطف الجنـد حول المنـزل وفى سوق النـدى المحيـط بالدار، فإذا اقبل الضيف استقبله الـرسميـون ومعهم كبـير العـائلة وأهمّ افـرادها وانطلق امامه حملة المباخر ينطلق منها شذى العود. فإذا استقر المقام بالضيف الكبير قدمت له القهوة العربية واديـرت اكـوابهـا على الحـاضرين ورش الحاضرون بماء الورد ، ثم قدمت اكواب الشراب الحلو الذى يحتفظ به آل باناجه لهذه المناسبات وهو من أحسن الأشربة واجودها.

فإذا أذن للصلاة قام الجميع الى المقصورة لاداء الصلاة بعد الاستماع الى الخطبة فإذا انقضت الصلاة عاد المصلون الى المجلس مرة أخرى لتدار عليهم القهوة وأكواب الشاى بينما ينطلق الشذى العاطر من بخور العود وبعد الاستراحة يودع الضيف الكبير بكل مظاهر الاجلال والاكبار.

وعلى ذكر هذه المقصورة فان أول من بنى المقاصير للصلاة من الخلفاء هو الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان رضى الله تعالى عنه وذلك بعد ان تعرض لمحاولة قتله من قبل الخوارج فى ١٧ رمضان سنة اربعين للهجرة. ذلك ان ثلاثة من الخوارج اجتمعوا واتفقوا فيما بينهم على ان كل الفتن العظيمة التى يعانى منها المسلمون سببها هو الخلاف بين علي ومعاوية وعمرو بن العاص فتعاهد الثلاثة على ان يقوم كل منهم بقتل واحد من هؤلاء، وقتل الامام علي رضوان الله تعالى عليه بيد الشقي عبدالرحمن بن ملجم وهو خارج الى المسجد ينادى لصلاة الفجر - الصلاة الصلاة.

ونجا عمرو بن العاص رضي الله عنه لانه مرض ليلتها فلم يخرج الى الصلاة واناب عنه من يصلي الفجر بالناس فقتله عمرو بن بكر التميمي الخارجي وهو يظنه عمروا. اما معاوية رضى الله عنه فقد اصاب السيف موضع جلوسه وكان جسيما فجرح ولكنه نجا من القتل وكان الذى ضربه بالسيف هو البرك بن عبدالله التميمي الخارجي. بعد هذه الحادثة اقام معاوية رضوان الله تعالى عليه مقصورة يصلى فيها وكلف من يقوم على حراستها اثناء الصلاة.

ولقد رأيت الملك عبدالعزيز يرحمه الله يصلى فى مقصورة آل باناجه وعلى باب المقصورة يقف عبد اسود طوال شاهرا سيفه ومن خلف جلالته يقوم الحرس شاهرين سيوفهم.

ومما تحتفظ به الذاكرة ان الشريف الحسين حينما وصل مع السلطان وحيد الدين الى دار آل باناجه لصلاة الجمعة كانا يستقلان عربة تجرها الخيول وكان الملك علي بن الحسين يصل الى المسجد وهو يمتطى السيارة. أما الملك عبدالعزيز رحمه الله

فقد شاهدته فى أول جمعة صلاها فى مدينة جدة خرج ماشيا من بيت نصيف الشهير تتقدمه مجموعة ضخمة من الرجال ربما يصل عددهم المائة ومن خلفه مجموعة اخرى بنفس العدد وهم يحملون اسلحتهم ، وعاد بنفس الموكب وكان طريقه من بيت نصيف مرورا بشارع قابل ثم بالسوق الكبير الى سوق الندى حيث يقع بيت آل باناجة وكان الحرس يملؤون الساحة الكبيرة للبيت والتى زينت ببوابة ضخمة وواسعة جدا من الخشب المتين القوى المنقوش وكان الناس يملؤون الطرقات والشوارع التى بها الموكب فى الذهاب والاياب .

نعود بعد هذا الاستطراد الى عبدالله باشا باناجه فنقول انه كما أسس هذا البيت فى مدينة جدة بمقصورته التى دخلت التاريخ كما اسلفنا عنها من حديثه اشترى فى مكة بيتًا بل قصرا عظيما آخر كان يقع فى مواجهة الحرم الشريف امام باب علي ، فى منطقة الصفا وكان ملحقا بهذا البيت بيت صغير آخر يطل على شارع القشاشيه أمام بيوت علي باشا التى كان تشغلها مدارس الفلاح بمكة المكرمة فى ذلك الزمان .

وقد ازيل بيت باناجه الكبير والبيت الآخر مع كافة البيوت التى كانت موجودة فى منطقة المسعى والقشاشيه وادخلت فى التوسعة السعودية العظيمة التى تمت للمسجد الحرام ، وكان هذا البيت فى منطقة المسعى قرب الصفا وقبل العلامة الخضراء التى يمر فيها الساعون بين الصفا والمروة .

كان هذا البيت ملكا للحكومة المصرية كما علمنا حتى قيل ان فيه ـ مهلكا ـ يرمى فيه من يراد اهلاكه والعياذ بالله .

حدثنى الاستاذ عبده صالح باناجه قال : كان فى الدور العلوي الكشك الكبير (١) وكان فى جانب منه باب مقفول لايفتح أبدا ، قال وكانوا يخوفوننا منه قائلين هذا الباب المهلك .يفتح الباب ثم يدفع فيه من يراد به الهلاك فيهوى الى حيث لايرى

---

١ ـ الكشك اصطلاح تركي يطلق على المجلس العظيم الذى يشرف من أعلى البيت .

بعد ذلك والعياذ بالله .

وسواء أصحت الرواية التى ذكرت للاستاذ عبده . أم لم تصح فلقد كان بيت باناجة بيتا عظيما وقصرا منيفا هو الآخر دخل التاريخ فى زمنه ، فحينما حضر الخديوى عباس خديوى مصر للحج نزل فيه بمكة المكرمة وكان عبدالله باشا باناجه فى مصر فى ذلك الزمان عل ما سيأتى تفصيله بعد . وكذلك نزل فيه السلطان القعيطي حينما حضر للحج وكان نزوله فى جدة في بيت آل باناجه . ومما لاشك فيه ان الكثير ين من العظماء قد نزلوا فى بيتهم بمكة . وكان آل باناجه يتركونه مفتوحا طيلة العام ويوظفون من يقوم بالعناية به وخدمة النزلاء فيه وكانوا كما لست فى حاجة لان أقول ينزلون به اذا قدموا الى مكة كما ينزل به أصدقاؤ هم وضيوفهم .

وكان أهم من هذا وذاك ان الناس فى مكة يعتبر ونه مكانا صالحا للندوات الكبيرة والاجتماعات .

أقام فيه شباب مكة المكرمة وأدباؤ ها حفلة تكريمية للشاعر الأستاذ خير الدين الزركلي حينما حضر الى مكة فى اوائل العهد السعودي والقيت فيه القصائد والكلمات الترحيبية والقى فيها الأستاذ خير الدين قصيدة له مشهورة مطلعها .

حي الحجاز ونجدا ـ حيا بها مكرميه ، ونشرتها الصحف فى حينها .

كان هذا البيت مقرا لهذه الاجتماعات وامثالها مما لسنا بسبيل حصره ولكننا نكتفي بالاشارة اليه فى وقت لم يكن فى مكة كلها مكان مهيؤ لمثل ذلك فى مثل موقعه الفريد بجوار المسجد الحرام .

ان مالفت نظرى فى سيرة عبدالله باشا باناجه هى عصاميته العجيبة التى انتهت به من شاب مهاجر من بلده وهو مغاضب لاهله ليشق طريقه فى اعظم عواصم الدنيا فى زمانه حتى يصل الى المكانة المرموقة التى وصل اليها ثم يعود الى بلاده فينفق الكثير من ماله فى سبيل المجد الذى يرفع من مقامه ومن سمعة بلده .

لست أشك ان عبدالله باشا باناجه قد افاد من المجد والسمعة وربما جر عليه

هذا الكثير من المنافع باسباب صلته بالملوك والحكام وليس هذا بالامر الذى يخدش من قيمة العمل الذى اداه ما دام لم يستغل هذه الصلات فى الاضرار بالناس أو الاثراء على حسابهم بل ان هذه الصلاة مطلوبة وحسنة لانها مفيدة للناس فان امثال هؤلاء الرجال يكونون لسان من لايستطيع إيصال صوته الى الحكام والولاة وهم بهذا يستطيعون ان يرفعوا الظلم والحيف عن الناس او يجلبوا لهم الراحة والخير.

نعود مرة أخرى الى عبدالله باشا باناجه فنقول ـ حينما عاد عبدالله باناجه باشا الى جدة كان امير مكة هو الشريف عون باشا الرفيق وقد اتصلت صلة الباشا القادم من دار الخلافة بالشريف المعين من السلطان وظل عبدالله باشا باناجه على صلة حسنة بامراء مكة من الاشراف حتى ولي الملك الشريف الحسين بن علي فى عام **١٣٣٤** هـ فآثر الهجرة الى مصر، ولعله خشي على نفسه من الشريف لسابق صلته بالاتراك. ولكنه كان من الذكاء والالمعية بحيث دفع ابن اخيه احمد افندى باناجه ليعمل فى خدمة العهد الجديد وقد اختاره الشريف الحسين بن علي وزيرا لماليته وكان يطلق عليه الوزير الحضرمي وقد تحدث عنه المؤرخ الكبير أمين الريحاني فى مؤلفه القيم ـ ملوك العرب ـ حديثا شقيا.

هاجر عبدالله باشا الى مصر ولكنه كان رجلا ألمعيا يستطيع ان يهيء لنفسه مكانا فى أى بلد ينزل فيه أو هو كما قال الشيخ الافغاني ـ لايعدم الأسد أينما ذهب فريسته.

أقام عبدالله باشا بمصر فى بيت بشارع المدارس ثم اشترى منزلا فخماً بالعباسية وكانت المحل المختار لسكنى عظماء مصر وسراتها، فانتقل اليه، وكان هذا البيت مفتوحا لاستقبال اصدقاء آل باناجه القادمين من الحجاز للعلاج او للترويح عن النفس وكان فيه مكان مخصص للضيوف وفيه مأدبه عشاء كل ليلة ممدودة للحاضرين. وانتقلت الأسرة بكاملها الى مصر فى الفترة التى قامت فيها الحرب بين السلطان عبدالعزيز والهاشميين ثم عادت بعد ذلك الى الحجاز حينما

استقر الأمر فى الحجاز للملك عبدالعزيز رحمه الله .

كانت الحكومة المصرية قد صادرت بيت أحمد عرابي باشا الذى قام بالثورة على الانجليز والخديوى فى عهد الخديوى توفيق باشا ، وكان هذا البيت يقع فى ميدان الفلكى ، الذى يسمى كذلك ميدان الازهار واشترى الباشا بيت عرابي باشا من الحكومة المصرية وهدمه وشيد مكانه عمارة كبيرة شغل معظم ادوارها الاطباء ومعظم حوانيتها الصيادلة وغيرهم وكانت هذه العمارة تعتبر فى زمانها من احسن العقار فى موقعها ومردودها ، واشترى كذلك العمارات والعزب والفدادين على النيل وكانت من أجود الأراضي الزراعية .

كان الرجل محظوظا وكان المعيا صادق الفراسة والتقدير وطارت شهرته بين أرباب العقار وتجاره قالوا كان يخرج اصيل كل يوم بالعربة المطهمة التى تجرها الخيل للترويح والنزهه وشعر بالحاجة الى النزول فى مكان ما فترجل من العربة واخذ يمشى فى أرض فضاء ، ولم يشعر الا وبعض الناس قدموا اليه وعلى وجوههم آثار الارتباك . . كانو يريدون شراء عقار او ضياع فى المنطقة ، وحينما رأوا الباشا ادركوا انه حضر لنفس الغرض وانه سيضايقهم ويرفع عليهم الأسعار أو يحرمهم من الشراء ، فاشتروا انفسهم منه يطلبون منه التنازل مقابل الألوف من الجنيهات ، فتنازل وهكذا جاء الرزق اليه من حيث لم يحتسب .

كانت ممتلكات آل باناجة من العقار فى مصر عظيمة وكان ايرادها يبلغ أربعين ألف جنيه مصري سنويا ـ وكان الجنيه المصرى فى ذلك الزمان اغلى من الجنيه الذهب ـ وكان عقارهم فى جدة احسن العقار وانني انقل هنا ماكتبته فى كتابي ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز ـ عن عقار آل باناجه الذى آلت ملكيته الى الشيخ عبدالرحمن باناجة ـ شقيق عبدالله باشا باناجه .

وكانت أحسن الدور موقعا واجملها بناء تؤجر فى جدة على السفارات الاجنبية وكان للشيخ عبدالرحمن باناجه يرحمه الله نصيب الاسد فى هذه البيوت التى تستأجرها السفارات وكانت تسمى القنصليات فى ذلك الوقت لان درجة التمثيل

كانت على مستوى القنصلية ثم تحولت فيها بعد الى درجة الوزير المفوض، نقول كان آل باناجه يملكون معظم البيوت التى تقع فى باب جديد امام البحر - شارع الملك عبدالعزيز أمام فندق البحر الاحمر الى فندق قصر جدة حاليا - وكانت السفارة المصرية تسكن فى موضع عمارة النشار حاليا والى جانبها الدار التى لاتزال موجودة وقد اشتراها الشيخ عبدالرحمن الصيرفي وكان يسكنها السفير او الوزير الايطالي وقد بنيت هذه الدار خلال ستة شهور بعقد مع السفارة الايطالية والى جانبها كان هناك بيت آخر كان مقرا للقنصيلة الايطالية ثم حلت فيه السفارة السورية بعدما نالت سوريا استقلالها وهذا البيت هو الذي يقوم محله الآن فندق انترناشونال الذى بناه المرحوم الشيخ عبده باجبير بعد شرائه من آل باناجه - ثم جاء فيه مايأتى .

وكانت هناك بيوت صغيرة لآل باناجه كذلك كانت مقرا للمستر توتشل الذى سعى فى إحياء العمل فى منجم الذهب وأسس شركة التعدين الامريكية السعودية ثم اصبح مقرا للبنك الهولندى ثم للبنك العربى، . وقد اشتراه مع الدار المجاورة له ومايتبعها الشيخ أحمد عشماوي مؤسس شركة الأسواق السعودية كما ذكرنا قبل، هذه البيوت جميعها كانت ملكا لآل باناجة وكانت أجورها تتراوح بين مائتين وثلاثمائة جنيه ذهب سنوياً للبيت الواحد. وكان هذا يعتبر ايجارا عاليا يغبط عليه أصحابه، انتهى مانقلناه من كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

ولعل مما يحسن ذكره ان عبدالله باشا باناجه لم ينجب طيلة حياته فآلت ملكية ثروة آل باناجة الى شقيقه وشريكة المرحوم الشيخ عبدالرحمن باناجه بعد وفاته ولقد كان عبدالله باشا باناجة رجلا ثاقب النظر بعيد التفكير يسابق الزمن فيختار احسن المواقع لانشاء عقاراته فهذه البيوت التى ذكرناها والتى كانت تسكنها القنصليات الاجنبية كانت مطلة على البحر فى مدينة جدة من ناحيتى الغرب والشمال، أسرع رحمه الله الى شرائها وتعميرها بحاسته الذكية فى الوقت الذى لم يكن يفكر الناس فى شرائها لانهم كانوا يعتبرون حارة اليمن فى ذلك الوقت افضل الاماكن

للاستغلال حيث يقطن وكلاء الاندنوسين والهنود وحيث تؤجر البيوت لسكن هؤلاء الحجاج فيستفيد أصحاب البيوت من هذه الأجور الموسمية الى جانب سكناهم طيلة العام، ولقد كانت البيوت فى حارة اليمن والشوارع فيها تتحول الى سوق للحجاج حيث يسكن الحجاج فى بيوت الوكلاء وذلك قبل انشاء مدينة حجاج البحر وتحويل الحجاج اليها لهذا فان حارة الشام كانت مخصصة للسكن الخاص وكذلك حارة المظلوم، وقبل ان نختم الحديث عن عقار آل باناجه لابد ان نذكر ان عبدالله باشا كان قد شيد بيتا بل قصرا فى مدينة الطائف على الطراز التركي وهو على شكل باخرة وقد ادركت الناس فى الطائف يسمونه الباخرة وهو فى منطقة السلامة قريبا من الثكنة العسكرية وله فناء واسع لابد وانه كان حديقة فى الماضي وله بعض الملحقات وعلمت ان الوالي التركي كان ينزل فيه اذا ذهب الى الطائف للاصطياف وربما كان هذا الوالي هو أحمد راتب باشا، وقد بقي هذا البيت الى ماقبل سنوات حيث آلت ملكيته الى صديقنا الشيخ صدقه كعكى . .

والبيت رائع الهندسة جميل البناء مرتفع السقوف، كثير النوافذ وقد صنعت سقوفه جميعها من الخشب المصقول وقد تناولنا فيه طعام الغذاء ذات صيف بدعوة من الشيخ صدقه وحينما اخبرني انه سيزال فى التوسعة التى ستتم فى مدينة الطائف كان اسفى عليه عظيما لانه كان معلما من معالم الطائف، ولعله قد ازيل فيما ازيل من المباني والآثار.

وعلى ذكر الوالي راتب باشا نقول انه كان آخر الولاة العثمانين فى عهد الخلافة العثمانية وحينما اجبر السلطان عبدالحميد على التنازل عن العرش غادر الحجاز، قالوا وكان أحمد الهزاز ـ والد صديقنا الشيخ عمر أحمد الهزاز يحقد على راتب باشا فذهب اليه وصفعه على وجهه انتقاما منه وتحقيرا له بعد ان اصبح لاحول له ولاطول، وسبحان المعز المذل الذى يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

هذا وقد توفي عبدالله باشا باناجة بمدينة القاهرة فى عام ١٣٤٤ للهجرة وقد تجاوز الثمانين عاما بعد مرض طويل، وآلت ملكية آل باناجه من التجارة والعقار

الى الشيخ عبدالرحمن باناجه كما ذكرنا قبل، وقد ادركت الشيخ عبدالرحمن باناجه فى الأربيعينات والخمسينات وهو رجل اشيب نحيف البدن شديد الشبه باخيه عبدالله باشا ولعله كان فى الثمانينات وظل يقوم على ادارة هذه التجارة الواسعة ويشرف على كل كبيرة وصغيرة فى امور العمل وفى امور العائلة الكبيرة التى يرأسها فقد وهبه الله الكثير من الاولاد والبنات وشاهد الاحفاد وربما ابناء الاحفاد، وكان بيت باناجه فى عهده يحتفظ بمجده وثرائه وبكلما خلفه اخوه عبدالله باشا رحمه الله فلقد كان الرجل حصيفا، وكان آل باناجه يعدون اعظم بيوت جدة التجارية ثراء ولعله كان اعظم بيوت المملكة كلها ثراء فى عهده.

وتوفى عبدالرحمن باناجه رحمه الله فى عام ١٣٥٧ هجرية وقام بالأمر ابناؤه محمد صالح ومحمد سعيد ومالبث ان توفى ابنه أحمد ثم لحقه ابنه الثانى محمد صالح وبدأت التغيرات الكبيرة تظهر فى الشئون التجارية بعد الحرب العالمية الثانية وظهرت طبقة جديدة من التجار خرجت عن الطور التقليدي الذى كان معروفاً للتجار القدماء واتصلت بالعالم الواسع، وكان حتما على كل تاجر ان يساير التطور الجديد ويتواكب معه، والا جرفه التيار واصبح مثله كما يقول الشاعر:

تقدمتني أُناس كان خطوهم وراء خطوي لو امشي على مهلي

هاجر آخر كبار العائلة المرحوم محمد سعيد باناجة الى مصر مكتفيا بما يدره عقار اسرته الواسع هناك من دخل وبهجرته الى مصر انتهى امر البيت التجارى الكبير فى جدة، . واشتغل الجيل الجديد من آل باناجه باعمال مختلفة اتجه بعضهم الى أعمال خاصة صغيرة واتجه البعض الى الوظائف وتقسم العقار الكبير وبيع معظمه. وانطوت صفحة عظيمة من الثراء والجاه استمرت مايقرب من مائة عام. ولكني المح الآن بسرور عظيم بوادر الحياة والنشاط تدب بين ابناء الجيل الحاضر من **هذه الأسرة الكريمة فقد رأيت وسمعت عن مؤسسات متعددة تحمل هذا الاسم** الطيب فى اماكن مختلفة من مدينة جدة واني لارجوان يستعيد هذا الجيل من شباب الأسرة السمعة الطيبة والنجاح الذى حققه اجدادهم وآباؤهم من قبل.

وقبل ان اختم الحديث عن عبدالله باشا باناجه اذكر انه انشأ رباطا فى حارة الشام بمدينة جدة لايواء الارامل والسيدات اللاتي لاعائل لهن ولايزال هذا الرباط قائما يؤدى مهمته الانسانية منذ عشرات السنين. ولعل ماكتبناه عن المقصورة العائدة لآل باناجه والصالة التابعة لها مايدفع المختصين بشئون الأثار للاهتمام بها وتعميرها والمحافظة عليها باعتبارها من المعالم التاريخية لمدينة جدة.

رحم الله عبدالله باشا باناجه رحمة واسعة فلقد كان مثال الشاب العصامي الطموح، ولقد اسس لنفسه ولاسرته مجدا سلكه فى عداد اعلام الرجال.



السيد عبيد عبدالله مدني



السيد عبيد عبدالله مدني

طويـل القـامـة ممتلىء الجسم ابيض اللون تشـوبـه بياضة حمرة عرفته فى العهد السعودي يلبس العباءة العربية والعقال ، ويضع على عينيه نظارة طبية .

ولـد السيـد عبيـد مدني بالمـدينـة المنورة فى أواخر العهد العثماني للحجاز فى عام ١٣٢٤ للهجـرة وكـانـت اسرته تتميز بالثراء والوجاهة ، ووالده السيد عبدالله مدني هو الذى أسس فى العهد العثماني أول فندق بالمدينة المنورة فكان المنزل المختار لكبار زوار المدينة المنورة، كما كان يستقبل ضيوف الدولة باعتباره النزل الفريد من نوعه فى دار الهجرة على صاحبها أفضل الصلوات وأتم التسليم .

لمحة عن تاريخ الفنادق فى المدينة المنورة

وهذا الفندق الذى أسسه السيد عبدالله مدني هو الذى استأجره الشيخ عطا الياس مؤسس فنـادق التيسـير بمكـة وجـدة والمـدينـة خلال العهـد السعـودي فى أواخر الستينـات ، ويبـدو أن آل المـدني أوقفـوا استعـماله كفندق بعد نهاية الحكم العثماني وكـان يقـع فى باب المجيـدى، وقـد ازيـل هذا الفنـدق فى التـوسعة التى اجريت للمسجـد النـوي الشـريف فى العهـد السعـودي ولقد كان الناس ينزلون فى بيوت الأدلاء الذين يقومون بمصاحبتهم فى زيارة المسجد النبوى الشريف والآثار بالمدينة

المنورة ويتولى هؤلاء الادلاء إنزال القادمين من الزوار فى بيوتهم واطعامهم والعناية بهم بدءاً من وصولهم إلى المدينة إلى حين ارتحالهم عنها، وكان الناس فى الحجاز يسمون هؤلاء الأدلاء المزورين نسبة الى الزيارة، وكانت معظم الاسر فى مكة وجدة لهم أدلاء معينون تستمر الصلة بهم وتتوارث جيلا بعد جيل.

كان هذا فى العهد الماضي قبل ان يسهل الاتصال بين مدن الحجاز وبين بعضها ثم بدأ العهد الفندقي فى المدينة المنورة كما ذكرنا بافتتاح فندق التيسير فى نفس مبنى الفندق الذى اسسه السيد عبدالله مدنى ثم اقدم الناس على افتتاح الفنادق الكثيرة فى العقود التالية حتى اصبحت المنطقة المحيطة بالمسجد النبوى الشريف مكتظة بالفنادق على اختلاف انواعها ودرجاتها، ونعود بعد هذا الاستطراد الى صاحب الترجمة فنقول:

تلقى السيد عبيد مدني دراسته الابتدائية حينما يفع فى المدرسة الفيصلية الهاشمية وحصل على شهادتها ثم التحق بالمدرسة الراقية التى افتتحت فى العهد الهاشمي لينتقل اليها الطلاب الحاصلون على الشهادة الابتدائية كمرحلة ثانية فى الدارسة ولكن هذه المدرسة الراقية لم يطل بقاؤ ها اذا لم يطل عمرها اكثر من بضعة شهور، ولقد كان فى مكة المكرمة فى العهد الهاشمي كذلك مدرسة تحمل هذا الاسم ويبدو انها كانت احسن حظا واطول عمرا من شقيقتها الصغرى فى بالمدينة المنورة .

انتقل السيد عبيد بعد ذلك الى الدراسة فى المسجد النبوى الشريف فى حلقة الشيخ محمد الطيب بن اسحق الانصارى فى عام ١٣٣٧ للهجرة وهو فى الرابعة عشرة من العمر وكان الشيخ محمد الطيب الانصارى يلقى الدروس المعتادة فى المسجد النبوي الشريف فى العلوم الدينية بما تستلزمه هذه الدراسة من علوم النحو واللغة، وكان الرجل الى جانب تضلعه فى علوم الدين واسع الاطلاع على روائع الشعر والأدب ، فاذا لمس من بعض طلابه الميل القوي الى الأدب أو البحث اخذ بيده لتنمية هذه الملكة فيه، وقد حدثنى المرحوم الشيخ ضياء الدين رجب وكان من

تلاميـذ الشيـخ الانصاري ان الشيخ الطيب كان يطلع على ماينظمه تلميذه ضياء الدين من الشعر وانه كان دائم التوجيه له، يبصره بمواقع الخطأ كما يبصره بمواقع الاجـادة، ولقـد لفت نظـرى ان كثـيرا ممن عرفت اسـماؤ هم من اعلام الرجال فى المدينة المنورة كانوا من تلاميذ الشيخ الطيب اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الى جانب السيد عبيد مدني والشيخ ضياء الدين رجب رحمهما الله العلامة الصديق الاستـاذ عبـدالقـدوس الانصـارى صاحب ورئيس تحريـر مجلة المنهـل الغنيـة عن التعريف وفضيلة الشيخ محمد الحركان وزير العدل الاسبق وأمين عام رابطة العالم الاسلامي حاليا. والاستاذ عبدالحق نقشبندى وغيرهم، ولقد ترك الشيخ الطيب اثــره الطيب فى نفــوس طلابــه فكلهم تحدث عن هذا الاثـر فكـان منهم العلماء والقضـاة والادبـاء والشعـراء واخيرا فان الشيخ الطيب هووالد الدكتور عبدالرحمن الانصاري رئيس قسم الآثار بجامعة الملك سعود بالرياض.

ونعـود بهد هذا الاستطـراد عن الشيخ الطيب الانصارى الى السيد عبيد مدني رحمه الله، لنواصل الحديث عنه.

رائد الأدب الحديث بالمدينة المنورة

يصفـ الأستاذ عبدالقدوس الأنصارى السيد عبيد بأنه رائد الأدب الحديث فى المدينة المنورة (١) فى البحث الطويل الذى كتبه عنه فى مجلة المنهل والذى نوجزه فيما يلى:

كانت الحيـاة الادبيـة فى مدينـة الـرسـول صلوات الله وسلامه عليه حتى بداية الأربعينـات من القـرن الهجـرى الرابع عشر راكدة ركودا يشبه السبات، لقد الف النـاس ماتعـودوا عليـه من هذا الشعر الذى يحفل بالمحسنات البديعية، وذلك النثر الـذى تضيـع اغراضه فى متاهات السجع الرخيص وهكذا تضيع المعانى والمقاصد

---

(١) انظر الجزء ٢ من المجلد ١٩ من السنة الثانية والعشرين لمجلة المنهل الصادرة فى شهر ربيع الأول ١٣٧٨ هـ صفحة ١٧٣/١٨٢ وانظر ماكتبه الاستاذ عبد القدوس فى مجلة المنهل بعد وفاة السيد عبيد فى عام ١٣٩٦ هـ.

فى هذه المتاهات والمبالغات، وكانت محاولة الخروج على هذا النمط تعتبر مغامرة تعرض صاحبها للمتاعب وربما الصقت به التهم، فالانسان عدو مايجهل.

وكان السيد عبيد مدني رحمه الله قد تمكن من اللغة والنحو بما درسه من روائع الأدب القديم شعره ونثره سواء على يد شيخه الطيب الانصارى أو على يد صديق والده الشيخ محمد العمري وكان شاعرا مجيدا كما يصفه الاستاذ عبدالقدوس ويبدو انه كان على اطلاع واسع على هذه الروائع من الشعر القديم، وكان هناك رافدا آخر اسهم فى تكوين الحاسة الأدبية لدى السيد عبيد، وهذا الرافد يتمثل فى المكتبة الحافلة التى ورثها عن والده السيد عبدالله مدني والتى كانت تضم بين جوانبها الكثير من المؤلفات الحديثة فى ذلك العهد، مثل دائرة المعارف للاستاذ فريد وجدى، ومؤلفات الأديب المفتن مصطفى لطفي المنفلوطي صاحب النظرات والعبرات والفضيلة والبعث الى جانب دواوين شوقي وحافظ وسامي البارودي وجميل صدقى الزهاوى من شعراء ذلك العصر المبرزين.

نهل الشاب عبيد من هذه المناهل العذبة فتنسم ذهنه منها نسيم الحرية وانتعشت نفسه بهذا الأريج الطيب من عطور الثقافة والفن، شعرا رائعا، ونثرا رائقا، ومعاني جميلة واضحة لاتتعثر بين قوافي السجع ولاتتسربل بسرابيل الجناس والبديع، ولايطغى اللفظ على المعنى، واراد الشاب عبيد مدني ان يكتب كما يكتب هؤلاء الكتاب الذين قرأ ادبهم وان ينظم الشعر كما نظمه هؤلاء الشعراء، وبدأت محاولاته على استحياء وحذر، الاستحياء من ان يكون مايكتب وماينظم لايصل الى الجودة التى ينشدها، والحذر من ان تلصق بهتهمة الفرمسونية والخروج عن المألوف، والفرمسونية هذه كما وصفها الأستاذ عبدالقدوس وكما ادركنا آثارها فى مطلع الشباب هى الانحراف عن جادة الدين، فقد ربط الجامدون بين كل تغيير فى اسلوب الكتابة والشعر وبين البعد عن الدين وهو سلاح كان يشهره الجامدون على الراغبين فى التجديد واراد الشاب عبيد ان يشرك صديقه وزميله فى حلقة الشيخ الانصارى فيما يقرأ ليكون هذا سبيلا الى اشراكه معه فيما يكتب وينظم،

وأسرَّ الى زميله عبدالقدوس بما يريد ولكن عبدالقدوس لم يتقبل هذه الدعوة بادىء بدء لانـه لم يكن قادرا على تقبـل هذا الجـديـد الذى لم تتفتح نفسه له، ولانه كان لايزال يعيش فيـها الف واعتاد،ولكن هذا الاحجام مالبث ان تحول الى تقبل على حذرثم الى استمتـاع بما يقـرأ ويستمـع، ثم الى اقدام فكان هو المصلي كما يصف نفسه فى ريادة الأدب الحديث بالمدينة المنورة وكان المجلي هو صاحب هذه الترجمة السيد عبيد مدني رحمه الله.

لم يكن فى المـدينـة حتى ذلـك الـوقت صحيفة واحدة تنقل الى الناس ماينتجه الادبـاء والشعـراء وكانت هناك الوسيلة الوحيدة التى درج عليها الناس قبل ظهور المطبعـة وهى تداول مايكتب بين النـاس فان كان النـاس بعجبـون بما يقـرأون كثر تداول هذا الاثـر وانتشـاره وانتشـر ذكـر صاحب هذا الاثر بين الناس وان كان هذا الاثـر يتنـافـر مع ما الف النـاس كان هذا ادعى الى حرص النـاس على تداولـه والتشهـير بصـاحبـه، وربما انقسم الناس فى امره بين قادح ومادح وكل هذا مدعاة لانتشار هذا الجديد بين الناس.

ومـا تحتفظ به الـذاكـرة من ذلك العهد ان شاعرا مجهولا نظم قصيدة هجاء فى إحدى الشخصيات الشهيرة بمدينة جدة فانتشرت القصيدة وذاعت بعض ابياتها على كل لسـان مع انهـا كانت سقيمة اللفظ مختلة الاوزان، وهكذا كان ينتشر بين الناس كل جديد بالغا ما بلغ من السوء أو الاتقان.

وفى هذا الجـو الحـافـل بروائـع الفكـر والعلم بدأت بواكير الشاب السيد عبيد مدني الشعرية تتفتح كما بدأت افكاره وطموحاته تظهر فيما يكتب وبدأ أسمه يظهر فى المدينة المنورة كاديب جرىء وشاعر مجدد، ولقد استطاع السيد عبيد ان يتغلب على ماواجهـه من اعـتراض وانتقـادات بالصـبر والحكمـة وبما عرف عن اخلاقه الشخصية ولعل لمكانة اسرته الاجتماعية اعظم الاثر فى تجنبه المتاعب والمصاعب، ولسائل ان يسأل لماذا لم يظهر اثر السيد. عبيد مدني وغيره من ادباء المدينة المنورة ضمن الآثار التى ظهرت فى كتاب أدب الحجاز وكتاب المعرض الذى نشر فى عام

١٣٤٤ هـ ولقد اجاب الاستاذ عبد القدوس على هذا السؤال فقال ان ذلك العهد كان عهدا انعزاليا فقد كانت المدينة المنورة تعيش داخل اسوارها ولم يكن هناك

اتصال بين الأدباء فى كل من مكة المكرمة وجدة والطائف، وأن أول اتصال بين أدباء المدينة المنورة وأدباء مكة إنما تم فى عام ١٣٤٨هـ حينما قام بزيارة المدينة المنورة الشاعر والأديب المكي الأستاذ محمد عمر عرب رحمه الله ونستطيع أن نعلل هذا التأخر فى الاتصال فى العهد الهاشمي لأسباب أهمها صعوبة المواصلات بين المدينة المنورة ومكة وجدة فالمسافة بين البلدين مكة والمدينة تبلغ خمسمائة كيلومتر وكانت وسائل الانتقال بين البلدين هى الجمال والخيل والحمير، وكان أسرع هذه الوسائل يقطع الطريق بين البلدين فى أسبوع وكان الناس يخرجون فى مجموعات وكانت هذه المجموعات تسمى الركبان وأحدها ركب وكان الركب الواحد يضم المئات، وكان لمكة ركبها كما كان لجده ركبها وكان الركب يستعين ببعض الأدلاء من البادية على الأصح ببعض الحماة لضمان سلامته وعدم التعرض له بسوء وكان الركب الى ذلك يصطحب المنشدين من ذوى الأصوات الجميلة وكان هؤلاء المنشدون ينشدون القصائد، الخاصة بهذه المناسبات وأغلبها من المدائح النبوية المعروفة وما شابهها، كما كان الركب يقضى بعض الوقت فى أماكن معينة فى الطريق وخاصة فى بدر التى وقعت فيها أول معركة فاصلة فى الاسلام.

ولكني فى الواقع لا استطيع تعليل تأخر الاتصال بين ادباء المدينة المنورة وادباء مكة المكرمة وجدة فى العهد السعودي بعد ظهور السيارات واستعمالها للسفر بين البلدين وذلك ان الحركة الادبية الحديثة فى المدن الاخرى مكة وجدة والطائف ولدت قوية فى مطلع العهد السعودي وكان الفضل فى ظهورها للمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان الذى قام برعاية الحركة الادبية ونشرها على الناس(١) ومن

---

(١) انظر ترجمة الشيخ محمد سرور الصبان فى كتابنا أعلام الحجاز. وانظر الفصل الخاص بالآداب والفنون فى كتابنا ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز.

المؤكـد ان الحـركـة الادبيـة فى مكـة بدأت فى العهـد الهـاشمي واتيـح لها الظهور والانتشار بين الناس فى مطلع العهد السعودي .

السيد عبيد عضو مجلس الشورى

عين السيـد عبيـد عضـوا بالمجلس الاداري بالمـدينـة المنـورة ثم مديرا لاوقاف المدينة المنورة ثم عين عضوا بمجلس الشورى بمكة المكرمة عن المدينة المنورة ولقد ادركت السيـد عبيـد مدني حينـما انتقلت اقـامتـه الى مكـة المكرمة لتمثيل بلده فى مجلس الشـورى ، وكـان نظـام المجلس يقضي ان تمثل كل مدينة بعضو أو اكثر فى المجلس وكان يتم اختيار العضو بالانتخاب ولعل الشيخ سعود دشيشه هو أول من مثل المدينة المنورة فى مجلس الشورى واليه يعود الفضل فى رفع رسم الكوشان الذى كان تتقـاضاه الـدولة قبل ظهور الزيت للسفر بين مكة والمدينة حينما خاطب الملك عبـدالعـزيز رحمه الله قائلا : ياطويل العمر لقد وحدت المملكة جميعها فلماذا يدفع المسـافـر من المـدينـة أو اليها ضريبة على السفر داخل مدن المملكة ، فتم رفع هذه الضريبة عن السفر بين مدن المملكة وبعضها على السعوديين (١)

وهكـذا تم انتخـاب السيد عبيد مدني عضوا بمجلس الشورى لتمثيل بلده فى المجلس ، وكان يسكن فى دار بمحلة اجياد قريبا من المسجد الحرام ، وكانت داره تغص بالقادمين من المدينة ، كما كان مقصد ذوي الحاجات منهم ممن لهم مطالب او مصـالـح فى دوائـر حكـوميـة ، وكان الرجل عظيم الحياء وكان الشيخ محمد على ملطاني رحمه الله صديقا للسيد عبيد فكان ينوب عنه فى قضاء بعض هذه الحاجات **وكـان يوصل الى الشيـخ محمـد سرور رحمـه الله بعض هذه المطـالـب وخـاصة فيما يختص بطلبـات الاركـاب الى المدينة المنورة ، أو المساعدة من وزار المالية او تعقيب** بعض المعـامـلات ومـا اليهـا ، وكان الشيخ محمد سرور رحمه الله يعرف مايتمتع به

---

١ - انظر ماكتبناه عن هذا الموضوع فى ترجمة السيد صالح شطا فى كتابنا اعلام الحجاز.

السيد عبيد مدني من الاصالة والوجاهة ويقدر فيه خلق الحياء الذى يحول بينه وبين ان يطلب لنفسه او لغيره شيئا فكانت هذه الطلبات التى يتقدم بها المرحوم الشيخ محمد على ملطاني نيابة عنه تحظى بالاجابة والقبول.

وفد مجلس الشورى الى الملك عبدالعزيز

وفى العهد الذى كان فيه السيد عبيد عضوا بمجلس الشورى قام وفد من اعضاء المجلس بزيارة المغفور له الملك عبدالعزيز فى الرياض، وكان جلالته فى روضة التنهات ووصل الوفد وكان السيد عبيد قد اعدَّ قصيدة باسم وفد مجلس الشورى لالقائها امام جلالة الملك عبدالعزيز وقد القى السيد عبيد القصيدة وكان من ضمن ابياتها هذا البيت:

عبدالعزيز ومن اذا ذكر اسمه وقف الجميع له وقام النادى

وما ان وصل السيد عبيد فى القائه الى هذا البيت حتى قام المجلس كلّه تحية للملك عبدالعزيز رحمه الله وكان لهذه الالتفاتة من السيد عبيد رحمه الله وقعها الطيب فى نفس الملك عبدالعزيز وفى نفوس كل من حضر ذلك المجلس الحافل، وقد نشرت هذه القصيدة حينها فى جريدة ام القرى وتحدث الناس عنها كثيرا فى ذلك الزمان، ولقد كان السيد عبيد رحمه الله ممثلا للمدينة المنورة حقاً لم يترك مناسبة تمر الا وهو يذكر المدينة المنورة وتطلعاتها واذكر انه القى كذلك امام الملك عبدالعزيز قصيدة دعاه فيه الى زيارة المدينة المنور بعد ان طال غياب جلالته عنها فقال: ومن حق المدينة ان تزارا: ومما يؤسف له ان الكثير من شعر السيد عبيد لم يطبع للاستشهاد به، ولكنا سنعود للحديث عنه حينما نتحدث عن السيد عبيد الشاعر، وقد ذكرنا ماوعته الذاكرة من هذا الشعر حينما كان السيد عبيد عضوا بالمجلس.

وقد آثر السيد عبيد العودة الى المدينة بعد ان طال شوقه اليها فتقدم باستقالته من المجلس ليعود الى مسقط رأسه فى طيبة التى احبها الحب كله.

كان السيد عبيد مهتما بالكتب يحرص على اقتنائها وقراءتها وكان اكثر ماشغل اهتمامه هو تاريخ المدينة المنورة البلد الذى ولد فيه ونشأ وامتلاء قلبه بحبه وحب كلما يمثله هذا البلد الطيب من القداسات والامجاد، لهذا فان الكتب التاريخية كانت من أبرز مايهتم به السيد عبيد رحمه الله وقد تحدث اصدقاؤه المقربون عن الكتاب الذى الفه السيد عبيد والذى سماه معلمة تاريخ المدينة المنورة.

يقول الأستاذ عبدالقدوس الانصارى فى مقاله المنشور بمجلة المنهل فى تأبين السيد عبيد تحت عنوان وفيات الاعيان الصديق الكبير الذى فقدناه: يقول الاستاذ عبدالقدوس مانصه: كثيرا ماكنا نتحدث ـ يقصد مع السيد عبيد رحمه الله ـ عن ضرورة طبع كتابه الفذ «معلمة تاريخ المدينة المنورة» الذى قضى جل عمره فى كتابته وتحقيقة وتزويده بأكبر قدر ممكن من المعارف عن تاريخ المدينة الشامل.. وقد دون تلك المعارف الثمينة فى اجزاء ضخام حسنة الترتيب، جميلة البيان والتبويب، كل جزء منها فى كتاب مستقل، ومن اجداها نفعا وابعدها صيتا «تواريخ المدينة ومؤرخوها» وكان رحمه الله يدخل الى مكتبته الخاصة ويخرج لنا اجزاء هذا الكتاب النفيس الذى ملىء علما وحكمة، فنقرأه ونتدارسه ونراجعه فإذا هو كنز ثمين فألحّ عليه فى ضرورة القيام بنشره فيعد ويقول لي: لابد من مراجعة اخيرة لنصوصه وإكمال نواقصه ومن ثم نقدمه للطبع ان شاء الله».

انتهى مانقلناه عن الاستاذ عبدالقدوس وهو المؤرخ العالم الأديب الذى يتحدث عن خبرة بما اطلع عليه من اجزاء هذا الكتاب او هذه الموسوعة عن تاريخ المدينة المنورة.

ويقول الأخ الأستاذ السيد علي حافظ احد مؤسسي جريدة المدينة المنورة والأديب المعروف فى رثائه الذى نشر بالعدد ٣٨٣٣/٢٦/١١/١٣٩١ هـ بجريدة المدينة المنورة عن هذا الكتاب مايلى:

وعكف رحمه الله على تأليف تاريخ للمدينة عكف عليه يبحث ويدقق ويناقش

ويجمع المصادر من كل مكان مدة تزيد على عشر سنوات، وبلغ الكتاب حوالي اثنى عشر مجلدا رأيت بعضها وكان يعتزم طبعه هذا العام.

والسيد علي مد الله فى حياته صديق مقرب الى المرحوم السيد عبيد فهو كذلك يتحدث عن علم بما رأى.

ولا اكتم القارىء اني كنت اود ان اطلع على هذا الكتاب القيم ليكون ما اكتبه صادرا عن الانطباعات التى تحدثها القراءة فى نفسي وقد طلبت من الاخ الاستاذ السيد علي حافظ الذى تفضل بامدادى بكثير من المعلومات فى هذه الترجمة ان ييسر لي سبيل الاطلاع على مؤلفات السيد عبيد الشعرية والنثرية، واجلت الكتابة شهورا ولكن هذا المطلب لم يتحقق.

ان الكتاب كما يصفه الأستاذ عبدالقدوس الانصارى وكما كتب عنه الأستاذ السيد علي حافظ موسوعة ضخمة فى تاريخ دار الهجرة وقد مد الله فى عمر المؤلف فحشد فيها الكثير من التحقيقات حتى انه افرد فى هذه الموسوعة جزءا خاصا بالمؤرخين الذين كتبوا عن المدينة المنورة، والكتاب بهذا الوصف جدير بأن يأخذ مكانه بين أهم الكتب التى الفت عن دار الهجرة واني لارجو ان يتاح لهذا الاثر القيم ان يظهر الى النور بعد طول احتجاب فلعله يكون خير أثر يحفظ اسم صاحبه فى قادم الازمان.

السيد عبيد الشاعر

عرف السيد عبيد رحمه الله بالاجادة فى الشعر بعد ان دانت له مفردات اللغة وبعد ان استوعب ماقرأ من روائع الشعر قديمه وحديثه والقليل الذى نشر من شعره ينبيء عن أصالة جمعت بين جزالة اللفظ، وسمو المعنى، وقد ذكر الاستاذ عبدالقدوس ان السيد رحمه الله جمع شعره فى ديوان كبير اسمه المدنيات الكبرى، كما ان له مجموعة اخرى اسمها المدنيات الصغرى، وقد استشهد الاستاذ عبدالقدوس بكثير من الشواهد من المدنيات الصغرى فى البحث المستفيض الذى كتبه عن السيد عبيد رحمه الله والذى نشر فى المنهل فى الجزء الثانى من المجلد التاسع

عشر فى ربيع الأول عام ١٣٧٨ هـ بعنوان أعلام العلم والأدب فى جزيرة العرب.

واود قبل كل شىء ان اذكر أن ما استطعت الحصول عليه من شعر السيد عبيد رحمه لايعبر تعبيرا كاملا عن شاعريته ولكنه يعطى القارىء صورة عن هذه الشاعرية لاتطفىء الغلة ولاتبل الصدى ولكنها على اى حال خير من لاشىء.

ولقد اضطررت للبحث عن النماذج التى ساوردها للقارىء الى الغوص فى بطون اجزاء مجلة المنهل التى كان يخصها المرحوم السيد عبيد بنشر آثاره، كما نقلت بعض هذه النماذج من بحث الاستاذ عبدالقدوس الانصارى المنشور بمجلة المنهل والذى اشرت اليه آنفا.

واكرر القول ان هذا الذى اورده للقارىء لايعبر تعبيرا كاملا عن شاعرية الشاعر فأني اعلم ان له من القصائد الجياد الكثير الذى هو اجدر بالتقديم ولكن هذا هو مااستطعت الحصول اليه بعد البحث والجهد والذى رأيت ان اختم به هذه الترجمة التى طال امد بقائها لديّ دون اتمام وبعد فهذه هي النماذج ولا اقول المختارات التى استطعت الحصول عليها من شعر السيد عبيد مدني الشاعر.

نفثة مصدور

نظم الشاعر قصيدة خلال الحرب الهاشمية السعودية جاء فيها:

هبوا بني الوطن المقدس ابدلوا ... هذا الجمود بيقظة وثبات
وتضامنوا ان التضامن قوة ... ترقى الشعوب بها ذرى الغايات

ومنها:

هذه المدينة اصبحت العوبة ... صماء بين زعانف وغواة
يستاقها النفر الرعاع ذليلة ... لموارد الويلات والنكبات
الحكم فوضى والمطامع جمة ... والشعب بينهما فريسة عات
حال تذوب لها الضمائر لوعة ... والموت فيها اهون الحالات

وللشاعر قصيدة أخرى نظمها فى سنة ١٣٤٨ يتنبأ فيها بالنهضة العظيمة التى ستشهدها البلاد فى مستقبل الأيام وقد جاء فيها:

بشرى فانا فى بوادر نهضة ستحول الصعب الجموح ذليلا
ولسوف نشأوا الطير فى تحليقه ونقيم من أسرابنا الاسطولا
ونشق ملتطم الخضم بوارجا وبواخراً ونجرُّ فيه ذيولا
ويصدُّ وجه الشمس منا جحفل لجب تصمُّ به الفلاة صليلا
متدرب ان سأردكَّ مما لكا واذل تيجانا وفل رعيلا
ويجوب أرجاء الجزيرة كلها خط الحديد مهامها وتلولا
ويجلل الأرض اليفاع زراعة فتفيض فى عمالها التمويلا
ونعمم التعليم حتى لانرى فى كل انحاء البلاد جهولا
ونشيد دورا للصناعة جمة شتى الشكول ونخرج البترولا
ونقيم فينا للصحافة منبرا يضفي البيان على الشعوب سيولا
ونبث فى كبرى العواصم كلها وزراء لايألوننا تمثيلا
ونعيد للاسلام شرخ شبابه وننفك للشرق الأسير كبولا
ونسابق الأيام فى اقبالها ونكون للآتين أفضل جيلا
وينمق التاريخ ذكر نهوضنا غررا على صفحاته وحجولا

وكأني بالشاعر يرى بعين الغيب النهضة العظيمة التى تعيشها بلادنا العزيزة قبل اكثر من نصف قرن ولقد تحقق منها الكثير. ونسأله تعالى ان يرفع كابوس اليهود وان يطهر المسجد الأقصى وديار فلسطين ولبنان منهم حتى تتحقق امنية الشاعر كاملة.

فنعيد للاسلام شرخ شبابه ونفك للشرق الأسير كبولا

ولقد مد الله فى عمر الشاعر حتى رأى الكثير مما تنبأ به فى سنة ١٣٤٨ هـ وقد تحقق أو بدأت بوادر تحقيقه فى الظهور.

ولقد ابصر الشاعر مايدسه أعداء الاسلام للمسلمين فى بلادهم من دسائس تثير الآلام فى الصدور فقال فى سنة ١٣٥٥ هـ هذه الأبيات :

بين الماضى والحاضر

المسلمون غدوا وهم فى ارضهم ... غرباء بين زعانف وطغام
دسَّ العداة لهم فحال طموحهم ... وتنحَّت الآمال للآلام
ان الذى شرع الشرائع للهدى ... ضمن الخلود لشرعة الاسلام

وللشاعر مقطوعة عنوانها الفراق نظمها فى سنة ١٣٥٧ هـ يقول فيها :

ازف الرحيل فعجَّت الزفرات ... وتدفقت من وقعه العبرات
وتبودلت رسل القلوب واوضحت ... عنها وعن مكنونها الخلجات
وتجاويت كتب العيون وأعربت ... عما تريد بيانه النظرات
ساد السكوت فليس الا دمعة ... تجرى والا آهة مزجاة

وهذه المقطوعة تذكرنا بالأسلوب الذى كان يتبعه الشعراء قبل النهضة الأدبية الحديثة وقد أوردتها لانها المقطوعة العاطفية الوحيدة التى وجدتها للشاعر.

وهناك مقطوعة اخرى بعنوان (المناجاة) نظمها الشاعر فى عام ١٣٦٠ هـ وقد أُطلق الشاعر نفسه على سجيتها فجاءت هذه المناجاة صادرة من القلب :

دعوتك للجلى وقلبي خاشع ... ومالي الا أنت يارب سامع
فعندى أُمانٍ فى الحياة رحيبة ... ولي أمل فى ساحة المجد شاسع
وقد أُخفقت فيما أردت مطامحي ... وعثَّت على جهدى الحثيث الذرائع
على أنني لم آل جهدا ولم اقف ... ولم تثنني عما اعتزمت المدافع
وكم غمرة جاوزتها إثر غمرة ... أجالد فى اهوائها واصارع
أُعالجها بالعنف طورا وتارة ... أُحاولها مستدريا واخادع
ولكنها أعيت عليَّ فلم أُجد ... سواك وما لي غير جاهك نافع

ففضلك مرجو وعطفك وارف ولطفك ضافٍ واقتدارك واسع

ومما يدخل فى هذا المعنى هذه النفثة التى صدرت من الشاعر فى سنة ١٣٧٦هـ.

اذا التمس المكروب تفريج كربة من الناس لم اقصد سوى الله مرجعا
فحسبي به عونا وغوثا وعدة وملتجأ فى كل حين ومفزعا

كان الشاعر كما ذكرنا عضوا بمجلس الشورى بمكة المكرمة ممثلا لبلده المدينة المنورة وأدركه رمضان فى أحد الأعوام وهو وحيد فى غرفته بفندق التيسير ، ولرمضان كما يعرف الناس فرحة عظيمة يتبادل فيها الناس التهاني ويجتمع فيه شمل الأسرة مهنئين مع اطلاق المدافع مؤذنة بحلول الشهر الكريم وتذكر الشاعر فى هذه الساعة التى انطلقت فيها البشائر بدخول رمضان عام ١٣٧٢ هـ داره بالمدينة المنورة وأولاده وأهله وأحبابه تذكر المدينة بكل ما فيها وما له بين جوانبها من العواطف الجياشة بالحب والوفاء فأطلق هذه الزفرات :

رمضان جاء فكان مبعث بهجة شاعت مظاهرها على السعداء
وتجاوبت فيه المشاعر غبطة من كل منعطف وكل فناء
وتبادل الناس التهانى فرحة والبشريات عزيزة الآلاء
اما انا فلقد قبعت بغرفتي فى فندق التيسير بالبطحاء
اشكو نواي ووحدتي وسآمتي وعصي آمالي ومعضل دائي

وفيها يقول :

قد كنت أضجر بالحياة وكنت فى بعض النعيم فكيف بالبأساء
أيام كان يحف بي ويحيطني أهلي وكنافي حمى العذراء

وللشاعر مقطوعات تتكون من بيتين سماها المثنيات ونشرت فى مجلة المنهل نقتطف منها النماذج الآتية وقد أشرنا الى الأعداد التى نشرتها وتواريخها ، أما

النماذج التى لم يذكر تاريخها فهى منقولة عن البحث الذى كتبه الأستاذ عبدالقدوس الانصارى عن صاحب الترجمة والذى أشرنا اليه آنفا.

المثنيـــــــات

اذا ماشـيـد الانـسـان جاهـا ... على أنـقـاض عزتـه تداعـى
وان نهل الـسـعـادة بالـتـدني ... اصـرت قلبـه الـعقبى التيـاعـا

بشـــرى

أقيـل أو استقـال فتلك بشـرى ... ولـيس يهم أيهـما الـصـحـيـح
وحـسب النـاس أن اليأس ولّى ... واقبـل بعـده الامـل الـفسيـح
أي شعـب كان معضـول القـوى ... فهـو بالاحـداث موصـول الألم

ســـــقوط فرنسا

هوت بعـد الـتألـق والـصـعـود ... وأحـنـت رأس سؤددهـا الـعـتيـد
طواهـا هتـلر وأتـى عليـهـا ... فنـاءت تحت هيكـله الـشـديـد

انا لا أقبل الخداع

لاتـقـل لي اذا رأيـتـك اهـلا ... وتـدس الخـداع فى بردتـيـكـا
أنـا لا أقـبـل الخـداع وادري ... بخـبـي الـشـكـوك فى صفحتيكـا

إرض عنهــــا

اذا لم ترضـك الأيـام فيـما ... تشـاء من المطـالـب فارض عنهـا
فان رضـاك عنهـا سوف يفـضـي ... بنـيـلك كل ماتـبـغـيـه منهـا

سـائر الى دور الرعاية

كفى بك بؤ سـا أن ترى العجز راحة ... وحسبـك يأسا أن ترى السعى متعبا

فانت الى دور الرعاية سائر فتلقى بها أهلا ومأوى ومطلبا

المنهل المجلد (٤٠) ذو القعدة
وذو الحجة سنة ١٣٩٦ هـ

يصدق كل من يثني عليه مجاملة فيدخله الغرور
ويزعم ان ماقالوه نزر وماكتموا هو الشيء الكثير
من لايحركه المديح ولايضايقه الهجاء
فكأنه بل انه فى زحمة الدنيا هباء

المنهل المجلد (٣٨) ذو الحجة ١٣٩٦ هـ

وفــــــاء

كن كيف شئت تفننا ولجاجة واعمل كما تهوى أسىً وتنكرا
فانا انا من قد عرفت وداده لاانثني ابدا ولن اتغيرا

المجلد (٣٩) جمادى الثانية ورجب ١٣٩٨ هـ

ثق بالله

اذا صدر الدعاء من الحوايا يصاحبه الخشوع فقد أجيبا
فثق بالله معتمدا عليه لتكتسح النوائب والخطوبا

مفاجأة الحظوظ العاثرات

نعيش على طريق الذكريات ونأمل فى حدوث المعجزات
ونرقب كل آونة وأخرى مفاجأة الحظوظ العاثرات

المجلد (٣٤) المحرم وصفر ١٣٩٣ هـ

الإبن والأب

الإبن ينشىء للحياة ويبدع وأبوه يمشي للسياق ويسرع
شتان بينهما فهذا مقبل يتملق الدنيا وذاك مودع

ياندم الغفاة

أرى موت الــرفــاق على التــوالي نذيــرا للحــيــاة من المــمات
فمــن يفــهــم يزوده نهاه ومــن يجهــل فيــا ندم الــغــفــاة

المجلد (٣٣) شوال سنة ١٣٩٢ هـ

هذه هى النماذج التى استطعت الحصول عليها من شعر الشاعر السيد عبيد مدني رحمه الله وأرجو أن يكون فى نشر هذه الترجمة ما يحفز همة أبنائه الكرام الى نشر آثاره المطوية واهمها كتابه الضخم المدينة ومؤرخوها ومجموعة أشعاره المدنيات الكبرى والمدنيات الصغرى لتكون هى الأثر الباقى الذى يحفظ ذكره بين الشعراء والمؤرخين والتى تسهل مهمة الباحثين فيما تركه الأديب الراحل من الآثار والاشعار.

مرض السيد عبيد رحمه الله فى عام ١٣٩٦ هـ وسافر الى أمريكا للعلاج وابلّ من مرضه وعزم على العودة الى المدينة المنورة وكتب بهذا الى صديقه الحميم السيد علي حافظ يقول:

«انني لم يبق معى أي مشاكل ولايوجد مايقلقني وصحتى تسركم وسأتوجه الى المدينة ونلتقي ان شاء الله»

أخذ السيد عبيد رحمه الله يعد عدته للسفر ولكنه تعثر فى حقيبته وأصيب بكسر فنقل الى المستشفى لاجراء عملية عاجلة له. ولكن هذه الاصابة البسيطة كانت هى النهاية فقد أسلم الروح وكانت وفاته فى أمريكا يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة سنة ١٣٩٦ هـ وهو فى الثالثة والسبعين من العمر.

رحمه الله رحمة واسعة وأحسن جزاءه فى جنات النعيم.

❁ السيد علوي بن عباس المالكي ❁



السيد علوى بن عباس المالكي

مستدير الوجه ، أبيض اللون ، قصير القامة ، واسع العينين ، وسيم جسيم ، تزين وجهه لحية سوداء خفيف العارضين اقنى الانف ، يرتدى الجبة الحجازية ويعتم بعمامة بيضاء يغطى بها الرأس والاذنين ويلبس الملابس الواسعة وهو زيُّ العلماء المكيين ، وكان السيد علوى رحمه الله من اشهرهم واحبهم الى قلوب الناس واكثرهم ذيوع صيت .

ولد السيد علوى بمكة المكرمة في ١٣٢٨ هـ وتلقى تعليمه أولا على يد والده العلامة السيد عباس بن عبدالعزيز المالكي الذى كان مديرا للمعارف بمكة المكرمة الذى الحقه بكتاب عمه حسن المالكي بزقاق الحجر، وحفظ القرآن الكريم وجوَّده حتى انه أمَّ المصلين فى صلاة التراويح فى العاشرة من عمره ثم التحق بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ونال شهادتها العليا فى عام ١٣٤٦ هـ، وكانت امنية والده ان يرى ابنه يتوسط حلقة الدرس فى المسجد الحرام فكان ابنه السيد علوى من المواظبين على تلقى الدروس فى المسجد الحرام على يد خيرة علماء عصره وهم جميعا من اساتذته فى الفلاح ومنهم الشيخ عبدالله حمدوه والشيخ عمر حمدان والشيخ عيسى رواس والشيخ يحي امان كما انتظم فى حلقات الدرس لدى الشيخ جمال المالكي والشيخ محمد على بن حسين المالكي والشيخ امين السويدى وغيرهم

من اعـلام المـدرسـين بالمسجـد الحرام حتى حصل على اجازة التدريس بالمسجد الحرام فى عام ١٣٤٧ هـ بالاضافة الى عمله مدرسا بمدرسةالفلاح ،وكانت حلقته بالمسجـد الحـرام تغص بطـلاب العلم من كافـة الاقطار الاسلامية لما يتمتع به من العلم والفضل وكريم الاخلاق.

وقـد ادركتـه مدرسـا فى المسجـد الحـرام وفى مدرسـة الفـلاح بمكـة المكرمة فى النصف الثانى من الخمسينات وهو من اسرة تشتغل بالعلم ابا عن جد وولدا عن اب فابـوه هو السيـد عبـاس المـالكي كان من اعـلام البلد الحرام تقلب فى وظائف التعليم والقضاء فى العهدين الهاشمي والسعودى وانتدبه الشريف الحسين بن علي للسفـر الى الحبشة وبنـاء مسجـد للمسلمـين بها كما انتـدبـه الى بيت المقـدس للاشراف على اصلاحات فى المسجد الاقصى المبارك وفى قبة الصخرة، وكان الى جانب هذا وذاك من علماء مكة المكرمة وله حلقة درس بالمسجد الحرام وله مؤلفات دينية يتداولها الدارسون. وكان مديرا للمعارف فى العهد السعودى فى الاربعينات ثم ولي القضـاء فى مكـة المكـرمة، وعمه كما ذكرنا هو السيد حسن المالكي وكان له كتَّابٌ لتعليم القـرآن الكـريم بمكـة المكـرمـة وفى هذا الكتاب جوَّد للسيدعلوى القـرآن الكـريم وحفظـه حتى اصبـح امـاما للتراويح وهوفى العاشرة من عمره كما ذكـرنـا قبل. ونجله هو الاستاذ الشيخ السيد محمد علوى المالكي المدرس بالمسجد الحـرام والـذى خلف والـده الكـريم فى برنـامجه الاسبوعى فى اذاعة نداء الاسلام مساء كل جمعة مد الله فى عمره ونفع به وله المؤلفات الكثيرة فى العلوم الدينية وهو خير خلف لخير سلف، فهذه الاسرة الكريمة وهبت نفسها للعلم تتعلمه وتنشره بين الناس وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عرفت السيد علوي رحمه الله فى النصف الثانى من الخمسينات فى مكة المكرمة كما ذكـرت استـاذا بمـدرسة الفلاح ومدرسا له حلقة يلتف حولها طلابه فى المسجد الحرام مابين العشاءين. وعرفته كذلك مأذونا يعقد الانكحة وكان اشهر مأذون فى مكـة المكـرمـة فى زمانه وظل كذلك الى ان توفاه الله، وكان جميل الصوت، حسن

الاداء لمراسم الـزواج التى يبـاشـرهـا وكـل اهـل مكـة يحبـون الـرجل حبا جما بل ويستبشرون بعقده لزواج اولادهم ، وكان هو الى ماحباه الله به من العلم والفقه فى الـدين لينّ الجـانب لطيف المعشـر يملأ المجـالس التى يحضـرها انسا ويشيع فيها السـرور بما يرويـه من الطـرائف الكثـيرة التى صادفتـه فى عمله وبها يحفظه سماعا وقـراءة فلا يمـل جلسـاؤ ه الاستـماع اليه كل هذا فى ادب يحفظ مقامه ، فهو طالب علم قبل كل شيء وبعده ، ولكنه لايتزمت ولايتعالى وانما يدخل الى القلوب بلين الجـانب والحكمـة المشـوبـة بالطـريف من القـول ، فهـو يمـزح ولا يجرح ،ويتبسط ولايتبذل، وهو بهذا قد جمع لنفسه محبة الناس ومهابتهم فى وقت واحد .

ولقـــد حدثنى ببعض الطـرائف التى مرت عليـه فى عقده للزواجـات فى مكـة المكـرمـة وسـاروى منها طرفتين مازلت اذكرهما لما فيهما من الغرابة قال ـ دعيت الى عقـد زواج فى مكـة المكـرمـة ـ وكـان هذا فى الستينات ـ وكان الزواج كبيراً اجتمع المدعوون فى بيت العريس وساروا فى موكب عظيم يتقدمهم حملة الاتاريك والمباخر ويصـاحب العـريس والمأذون المنشـدون المشهورون فى مكة المكرمة وسار العريس ومعـــه المأذون السيـد علوى والمدعوون البـالـغ عددهم المئـات ووصلوا الى بيت العروس فى الشعب وخرج اهل العروس ومدعووهم يستقبلون الركب الكبير القادم وانشـد المنشـدون قصـائـدهم ثم تقدم العريس ومن رافقه من المدعوين الى صدر المكـان واديـرت عليهم القهوة بعد ان استقر بهم المجلس وبدأ السيد علوى رحمه الله فى قراءة خطبة الزواج المعتادة الى أن وصل الى الحدّ الذى يبرم فيه العقد ، وكان العريس وابوه يجلسان الى يمين السيد علوى رحمه الله ، ووالد العروس يجلس الى شماله ، وكان امامهم بعض المدعوين وهنا وقعت المفاجأة العظيمة التى اذهلت الجميع .

اخـذ السيـد علوي بيد العريس وقال له زوجتك وانكحتك مخطوبتك فلانة .
فتقدم الرجل الجالس امام السيد علوى وقال بصوت يسمعه الجميع تمهل يامولانا فالتفت اليه السيـد علوى سائـلا ماذا هنـاك قال الـرجل : ان فلانا هذا واشار الى

والـد العـروس حضـر فى تاريـخ كذا الى المسجد الحرام واتخذ مكانه بجانبي لاداء صلاة المغـرب وقـال لي لقـد رزقت هذا اليـوم بنتا فقلت له انني اخطبها لابني هذا وكان ابنه حديث ولادة كذلك فقبل تزويجها من ابني وقرأنا الفاتحة على ذلك.

التفت السيـد علوى الى والـد العـروس وسأله، اصحيح مايقوله هذا الرجل، قال نعم، وتقـدم الـرجـل فى الحـال بصرة من النقـود وقـال هذا هو الصـداق قد احضـرتـه معي ، فاعقـد لابني هذا على العروس التى وافق ابوها على تزويجها له يوم ولادتها.

يقـول السيـد علوى، وكـان هذا الـزواج صحيحا بإقرار الابوين فعقدت لولد الـرجـل على العروس وكانت هذه الفتاة من نصيب الخطيب الأول، اما العريس الذى اقيم الفرح ونصبت الزينات من اجل زواجه فلم يتم له زواج ، وكما يقول المثل تكون فى فمك وتقسم لغيرك.

والحادثة الثانية التى رواها لي السيد علوى رحمه الله لاتبلغ فى طرافتها وغرابتها الحادثة الأولى ولكنها تستحق التسجيل.

قال دعيت لاقـامـة زواج كبـير فى مكـة المكـرمـة ووصلنا الى بيت العروس فى موكب كبـير لايقـل ضخـامـة عما وصفنـا فى الحـادثـة السابقة وحان موعد العقد، فسألت والد العروس ان كان يقبل تزويج هذا العريس من ابنته فاجاب بالموافقة .
يقول السيد ولكن الله تعالى الهمني ان اسأله سؤ الا لم اتعود ان اسأله من قبل قلت للرجل اهذه العروس ابنتك؟ قال نعم انها ابنتي؟ قلت هل هي من صلبك فظهر الضيق على وجه الرجل وقال انني ربيتها صغيرة فهي ابنتي قلت ولكن اين ابوها، قال ان ابـاهـا طلق امهـا وهى طفلة ترضـع فتزوجت الأم واحتضنت البنت طفلة

وتكفلت بها حتى بلغت مبلغ الـزواج وجـاءنى الكفء الذى يخطبها فوافقت على تزويجها، وهى لاتعرف أن لها أباً غير ى وتناديني قائلة ياابي ، وانا اعدُّها بنتي وكأنها من صلبي ، قال السيـد ولكن ابـوها الحقيقي احي هو؟ قال نعم، قال السيد لابد من حضوره فهو ولي امرها ولابد أن اسمع موافقته على الزواج، والا فلا زواج.

وارتبك والد العروس كما ارتبك العريس وأهله يقول السيد واوقفت العقد الى ان يحضر الاب .

قال السيد رحمه الله ، وارسلوا الى الاب وهورجل فقير يعمل في قهوة في الششة خارج مكة المكرمة كان نائما فايقظوه ، وابى ان يحضر معهم فما زالوا به حتى حضر، وجـاء الـرجل فإذا هو رجل ضعيف تلمس آثار الفقر في مظهره وكلامه ، قال السيد علوي ، قلت للرجـــل هل فلانة بنتـك؟ قال نعم ، قلت فان فلانـا واشـرت الى العريس قد خطبها من زوج امها وقد وافقت امها على تزويجها فهل تقبل تزويجها لهذا الفتى ؟ قال الاب لا انني لن ازوجهـــا له ولا لغـــيره الآن . . ثم اردف لماذا لم يستشيرونني في هذا الزواج من قبل؟

ونظر الى السيد علوى وكأنه يستمد منه العون والفتيا في وقت واحد قال السيد علوى قلت له انك وليٌّ الامر وبدون موافقتك ورضاك لن يتم زواج وادرك الرجل الفقيران زمام الموقف قدأصبح في يده ،وأنه قادر على افشال هذا الزواج.وافساد كلما تم من استعداد فاصر على الرفض وادرك الاذكياء من الحاضرين ان موافقة الرجل مرهونة بارضائه ببعض المال ، فاخذوا الرجل الى داخل البيت وبدأت معه المساومة الصعبة التى انتهت بقبوله الفتى زوجا لابنته بعد ان قبض في يديه عشرين جنيها ذهبيا احصى تعدادها ونقدها ووضعها في صرة في حزامه الذى يعتمر به في وسطه . وعـاد الـرجـل متهللا الى مجلس العقـد ومعـه المفاوضون الذين تصبب العرق من جباههم خلال تلك المفاوضات .

وسأل السيد علوي الرجل : قل لي هل وافقت الآن على زواج ابنتك فلانه من عريسها هذا الحاضر بالمجلس قال الرجل نعم يامولانا فاخذ بيد العريس ووضعها في يد الاب وتم العقد وأصبحت الفتاة عروسا بعد ان كاد العرس ان يتوقف .

يقـول السيـد علوي رحمـه الله ، وفي اليوم التالى حضرت كالعادة وليمة الزواج فوجـدت الاب الحقيقي للعـروس وقد ارتدى ثوبا جديدا وظهرت عليه آثار النعمة فما ان رآني حتى اقبل علي مسلما وهو يردد ،ينصر دولتك ، ينصر دولتك .

يقـول السيـد علوى وقـد علمتنى هذه الحـادثـة ان اتأكـد قبل عقد الزواج من شخصية ولي الامر حتى لاتقع المحاذير والمفاجآت وحتى يكون العقد صحيحا من كافـة الوجوه، وقـد حضرت مرة عقد زواج كان السيد علوى يبرمه فى مكة المكرمة وكان والد العروس متوفيا وكان الخال هو الذى يقوم بمهمة تزويج العروس المتوفى ابوها، وقد طلب السيد علوي رحمه الله ان يسأل العروس نفسها عن قبولها للزواج ويتحـدث الى والـدتها ودخل الى داخل البيت ولكن مكوثه فى الداخل طال كثيرا وبعد لأيٍ حضر واتمَّ عقد الزواج، وكنت اجلس قريبا منه فنظر اليَّ رحمه الله وهو يبتسم وكـان يعـرف ان لي قرابـة قريبة بالعريس قال كاد الزواج ان يتوقف يارجل؟ قلت لماذا يامـولانـا. قال سألت الخـال اليس للعروس اخ اوعم قال اما عمها فقد توفى ولا اخ لها قلت وابنـــاء عمـهـــا قال انهم موجـــودون؟ قلت واين هم؟ قال لم يحضـروا قال السيـد فادركت ان خلافـا وقـع بين العـروس وامها وابناء عمها قلت ولكن ابن العم احق بالولاية من الخال، قال السيد وكان الخال ذكيا فقال ان والد العروس اوصاني قبل موته ان ازوج ابنته هذه على فلان الذى خطبها من الاب فى حيـاتـه، ولكن العقـد لم يتم فى ذلك الوقت قلت وهل لديك من يشهد على ذلك فاحضر لي شاهدين رضيتهما وهكذا ابرمت العقد والا كنت توقفت.

هذه الطـرائف وامثـالهـا التى كان يرويها السيد فى اسلوبه اللطيف كان تجتذب قلوب سامعيـه وابصـارهم فكـانوا ينهلون من علمه الغزير، كما يستمتعون بطرائفه وعذب حديثه رحمه الله.

مؤلفات السيد علوى المالكي

كان السيد علوى رحمه الله يمتاز فى دروسه واحاديثه بالتأثير فى نفوس السامعين وسـواء اكـان ذلـك فى حلقـات دروسـه التى يعقدها فى حلقته بالمسجد الحرام، أو يلقيهـا على تلامـذتـه وطـلابه اويتحدث بها الى الجمهور فى الاذاعة والتليفزيون ولقد اتيح لي ان استمع الى السيد علوى رحمه الله متحدثا فى الاذاعة والتليفزيون

كما اتيح لي ان اجلس بعض الوقت مستمعا فى حلقته بالمسجد الحرام ولقد سعدت فعلا بالاطلاع على كثير من هذه الاحاديث مجموعة فى مجلد كبير ومعنونا باسم نفحات الاسلام من البلد الحرام قام بجمعها وترتيبها نجله الدكتور محمد علوى المالكي وعني بنشرها وطبعها الشيخ عبدالله ابراهيم الانصاري على نفقة الشئون الدينية بدولة قطر ولقد كان الشيخ عبدالله الانصارى المسئول عن الشئون الدينية بدولة قطر تلميذا للمرحوم السيد علوى وطالبا من طلاب العلم فى حلقته بالمسجد الحرام ولنترك المجال قليلا لفضيلته ليتحدث عن ذلك، يقول الشيخ عبدالله الانصاري فى مقدمة هذا الكتاب:

من بين هؤلاء الابطال عالم جليل كان سيدا لي ومربيا لروحى ، ومؤدبا لنفسي ، ولست وحدى نال من الخير الوفير والعلم والسعادة والبركة بل هم جمع غفير ، كنا نحلق حوله فى مهبط الوحي ومنزل الرحمات تجاه بيت الله الحرام فكم ادركنا من علمه ثمارا يانعة ، ونلنا من فضل تربيته آدابا سامية اذا شرع فى شرح حديث تتخيل امواجا من العلم ينساب من صدره اليك.

وقّادُ ذهن اذا جالت قريحته يكاد يقضي عليه من تلهبه

ذلك هو استاذى السيد علوي بن عباس المالكي المكي مدرس المسجد الحرام تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه واسكنه فسيح جناته وجمعنا به فى مقر رحمته

وهذا الكتاب يمثل دروس السيد علوى رحمه الله واحاديثه الدينية ومعالجته لبعض القضايا التى تعرض عليه وهى مجموعة فى مجلد ضخم يبلغ خمسمائةوثلاثين صحيفة، وللسيد علوى رحمه الله مؤلفات اخرى منها كتاب فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب ، وكتاب الترغيب والترهيب هذا هو من الكتب التى كانت تدرس لنا فى مدارس الفلاح بجدة ونحن على مقاعد الدراسة والكتاب عبارة عن مجموعة من الاحاديث النبوية الشريفة جمعها مدرسو الفلاح ورتبوها فى كتاب بغرض تدريسه لتلاميذ الفلاح.

ولما كان السيد علوى رحمه الله قد درس السنة النبوية على أيدى اعلام العلماء

فى المسجد الحرام وعرف من اسرار هذا العلم ما ادرك معه وجوب الرجوع الى هذا الكتاب بالتعديل والتهذيب فقد اقدم على هذا العمل وباشره فى كتابه هذا فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب. ويقول السيد علوى فى مقدمة الكتاب:

وقد اشتغلت به مدة مديدة، فرأيت انه يحتاج الى إصلاح بحذف بعض فصوله، وابدالها بفصول اخرى صحيحة اوحسنة لما فى الأولى من النكارة والضعف، وحذف بعض الاحاديث المكررة فى موضوع واحد وكل احاديثه مروية بصيغة الجزم، كقال مع ان نظر العلماء فى الحديث الضعيف انه لايروى بصيغة الجزم بل بصيغة الضعف كروي وحكي.

لقد حمله اخلاصه للعلم وامانته، وللحديث النبوى الشريف ومكانته العظيمة من الدين على ان يقوم على تصحيح هذا الكتاب فشرع فى ذلك معتمدا فى النقل كما يقول على مؤلفات العلماء الموثوق بهم كالحافظ المنذرى، والامام النووى وابن حجر الهيثمي وجميعهم من اعلام العلماء فى هذا المجال وقد زين الكتاب بشرح واف لمعاني الالفاظ والاغراض مستشهدا فى ذلك بالآيات القرآنية فى وضوح لايستعصى على فهم القارىء العادى والتلميذ المبتدىء، وبهذا ادى السيد علوى رحمه الله امانة العلم التى تقلدها، وجنب القارىء للكتاب سواء اكان تلميذا فى المدرسة أو قارئا من عامة القراء وجنّبة مزالق الأخذ بالأحاديث المنكرة والضعيفة دون ان يثقل عليه بشرح الاصطلاحات التى يعرفها المتخصصون من العلماء.

ابانة الاحكام

هذا الكتاب هو شرح واف لكتاب الحافظ بن حجر بلوغ المرام وقد اشترك فى تأليف هذا الكتاب مع السيد علوى رحمه الله السيد حسن سليمان النورى كما هو مثبت فى الطبعة التى بين يدي من هذا الكتاب ويقول المؤلفان عن هذا الكتاب ان مؤلفه الحافظ بن حجر قد بذل جهده فيه فى جمع ادلة الاحكام الشرعية مع الاشارة

الى التوفيق بين الاحاديث المتعارضة وبيان رتبة الاحاديث وعزوها الى مخرجيها مما كان تبصرة للمبتدىء وتذكرة للمنتهي والكتاب مفصل تفصيلا وافيا والمجلد الأول خاص بالعبادات. وقد قسمت الى ابواب مفصلة تفصيلا دقيقا كاملا، يبتدىء فيه بذكر الحديث ثم شرح المعنى الاجمالى له ثم التحليل اللفظي لالفاظ الحديث

ويختتم البحث بفقه الحديث، والكتاب يشبع المواضيع التى يتعرض لها بحثا وتفصيلا وهو من اجل الكتب التى تفيد طلاب العلم والدارسين كما يرجع اليها طالب المعرفة، وقد اطلعت على مجلدين من الكتاب المذكور حتى الآن.

ان المطلع على مؤلفات السيد علوى رحمه الله يخرج منها بفوائد جمة، فهو أولا يشبع الموضوع الذى يتناوله بحثا فلا يترك جانبا من جوانبه الا وقد القى الاضواء عليه وبينه البيان الشافى الوافى وهو امر يدل على تمكن الرجل من الامور التى يعالجها والاحاطة التامة بالمباحث التى يتعرض لها فلا يترك صغيرة ولاكبيرة الا ويجليها.

الامر الثانى الذى يظهر للمتأمل فى هذه المؤلفات تمكّن الرجل من علوم الحديث الشريف وهو المكمل للكتاب الكريم، والشارح لما اجمله القرآن من الاحكام والمفصل لكيفياتها وجزئياتها.

ونكتفى بهذا القدر من الكلام عن مؤلفات السيد علوى رحمه الله فليس من غرض هذه الترجمة الاحاطة بكلما كتب وألف وإنما المراد هو اعطاء فكرة عن اعمال الرجل وانجازاته ليستطيع القارىء رسم صورة مصغرة له فى ذهنه ان كان من لم يسعدهم الحظ بمعرفته ولقائه.

هذا وقد توفى السيد علوى مالكي رحمه الله فى منتصف ليلة الأربعاء فى الخامس والعشرين من شهر صفر عام ١٣٩١ هـ عن ثلاثة وستين عاما، اثر نوبة قلبية، رحم الله السيد علوى مالكي فقد وهب حياته كلها للعلم طالبا ومعلما وواعظا وداعيا الى الله وقد دفن فى مقبرة المعلاة بمكة المكرمة فى اليوم التالى وكانت لوفاته

رنة حزن واسى فى جميع انحاء البلاد رحمه الله تعالى واحسن جزاءه لقاء ما اسدى الى العلم واهله انه سميع مجيب.



الشيخ محمّد رحمة الله العثماني
مؤسس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة

ولادته ونسبه

ولد العلامة الشيخ محمد رحمة الله بن خليل الرحمن العثمانى فى بلدة كيرانه التابعة لمدينة دلهى عاصمة الهند فى ذلك الزمان فى شهر جمادى الأولى عام **١٢٣٣** هجرية الموافق لعام ١٨١٨ للميلاد وهو سليل اسرة كريمة اشتهر افرادها فى تلك البلاد فكان منهم الامراء والحكام والرؤساء والعلماء والاطباء وينتهى نسبه الى ثالث الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، ولذلك اطلق على الاسرة لقب العثماني نسبة الى هذا النسب الكريم.

وكان أول من قدم من افراد هذه الاسرة الى الهند الشيخ عبدالرحمن الكاذروني الجد الاعلى للشيخ حيث كان قاضيا شرعيا للجيوش الاسلامية التى فتحت الهند على يد السلطان محمود الغزنوى.

تحصيله وتعليمه

تلقى الشيخ علومه الابتدائية فى بلدة كيرانه فتعلم القراءة والكتابة وبدأ فى حفظ الكتاب الكريم على يد كبار افراد أسرته المشهورين بالعلم والفضل، ثم انتقل الى مدينة دلهي عاصمة الهند ليتلقى المزيد من العلم فالتحق بإحدى

المدارس الدينية هناك ودرس بها الكثير من العلوم كما قرأ الكثير من الكتب، ولكن شغفه بالعلم والرغبة فى الاستزادة من مناهله دفعه الى الارتحال الى مدينة لكنو بالهند وهى مدينة الثقافة والحضارة فى ذلك الزمان فتلقى العلم على يد افاضل العلماء هناك وتخصص فى آداب اللغة الفارسية وعلوم الطب.

ثم عاد بعد ذلك الى مسقط رأسه فى مدينة كيرانه واشتغل بالتعليم فاسس بها مدرسة تولى مهمة التدريس فيها بنفسه والتف حوله من الطلاب من كتب الله لهم التوفيق فكانوا بعد ذلك من العلماء العاملين فى الهند ومنهم العلامة الشيخ عبدالوهاب مؤسس أول مدرسة إسلامية بمدينة مدراس بالهند وقد عرفت هذه المدرسة باسم الباقيات الصالحات وقد تحولت هذه المدرسة فى الوقت الحاضر الى كلية تعد اكبر كلية فى مدينة مدراس الكبيرة فى جنوب الهند.

الحالة فى الهند

فى هذا الوقت الذى ولد فيه الشيخ ونشأ وبلغ مبلغ الرجال كانت الهند تعانى من ويلات الاستعمار البريطانى، فالامبراطورية المغولية الاسلامية التى مضى عليها مايقرب من اربعمائة عام كانت تلفظ انفاسها الاخيرة ليحل محلها الاستعمار الانجليزى الصليبي الغاشم، وكان الحكام من الهنود حكاما بالاسم لان مقدرات البلاد كلها قد اصبحت فى يد الحكام الانجليز الذين وفدوا الى البلاد تحت ستار شركة الهند الشرقية، واخذوا ينهبون خيرات البلاد نهبا منظما، يشترون الخامات الهندية بابخس الاثمان ليعاد تصديرها اليهم بعد صنعها فى مصانع انجلترا باغلى الاسعار، وكان الانجليز يعملون على ان تبقى الهند مزرعة يستغلون خيراتها ويحرمون اهلها من هذا الخير، وكانوا يستخدمون الوسائل الكثيرة والعنيفة لتبقى البلاد تحت سيطرتهم سادرة فى غفوة الجهالة فنصبوا انفسهم للقضاء على الروح المعنوية بشتى الوسائل.

والهند كما هو معلوم مليئة بالديانات المختلفة كما هى مملوءة بالاجناس المتباينة

واللغـات الكثـيرة وكـان اصعب ما واجـه المستعمرين فى الهند هو الاسلام ممثلا فى علماء المسلمين ومفكريهم .

وفى الوقت الذى نشط فيه الانجليز فى التبشير بالدين المسيحي بين الهنود كان الاسـلام هو الشـوكـة التى تقف فى حلوقهم ، وكـان علماء المسلمـين هم العقبة الكأداء التى تتكسر عليها سهام كيدهم وشرورهم .

كان الاسـلام بتعـاليمـه النقيـة السـاميـة القـائمة على صفاء العقيدة يجتذب القلوب ويـدخـل الى نفوس الناس فى يسر، وكانت العدالة الاسلامية بين الناس تعطي المثـل الافضـل فى مجتمـع يقـوم فيه نظام الطبقات الذى كان سائدا فى الهند فيخلق الطبقة المقدسة ثم ينتهي بطبقة اخرى الى حضيض الرجس والمهانة .

ولم يجد الانجليز بدا من محاربة المسلمين فى عقيدتهم فجردوا سيوف البغي ممثلة فى ارسـاليـات التبشـير التى جنـدت لها الكنيسة اكبر شياطينها ، فلم يكتفوا بمحاولة اجتـذاب الـوثنيـين من السيخ الى المسيحيـة ولكنهم اخـذوا يهاجمـون الاسـلام ويشككـون فى صحـة القـرآن ، وفى نبـوة محمـد بن عبـدالله عليـه افضـل الصلاة والتسليم ، وكـانت هذه الحملة المسعـورة يقودها القسيسون فيعقدون الاجتماعات فى الامـاكن العـامـة حيث يبشـرون بالمسيحيـة بعـد ان يكونوا قد اوسعوا الاسلام تجريحا ونقدا وافتراء وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وكان الحاكمون من الانجليز يمهدون الطريق لهؤلاء المبشرين ويقفون بالمرصاد لكل من يتصدى لهم او يعترض عليهم .

وكـان المسلمـون ينظـرون الى هذا البغي الـذى تسـانـده الحراب الانجليزية والكثـير منهم يقف دون حراك الا من الحسـرة والعـذاب ، وكـان المـوقف يتطلب شجـاعـة منقطعـة النظـير تستهـدف الـوقوف فى وجه هذا البغي بروح من الجهاد والاستشهاد وكان الموقف كذلك يتطلب الاعداد قبل مواجهة الاحداث .

ورأى الشيخ رحمة الله صاحب هذه الترجمة ان الواجب الديني يدعوه للجهاد فى سبيـل الله دفـاعـا عن عقيـدة الاسـلام وذودا عن كرامـة خاتم المـرسلين محمد بن

عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين.

وقـرر ان يبـدأ أولا بدراسـة المسيحية والاطلاع على الانجيل اوعلى الاناجيل المختلفـة ليكـون على علم تام بما هوبسبيـل الاقـدام عليه. يقول فضيلة العلامة السيد ابو الحسن علي الحسني الندوى:

قام الشيـخ رحمـة الله وشمـر عن ساق الجـد والاجتهاد ونذر لله ان لايهدأ حتى يدرس مصادر النصرانية ومراجعها دراسة عميقة دقيقة ويغوص فيها وينقب، وقد شحذ عزمه على ذلك قدوم القس الطائر الصيت فندر من انكلترا وقد قام بنشاط كبـير وحمـاس زائـد فى مناظرة علماء الهند، وقد تحداهم تحديا سافرا وقام بجولة فى مديـريـات الهنـد يخطب فى المجامع ويـدعـوا الى النصرانية وكانت المشكلة مشكلة اللغـة، وكـان الشيخ لايعرف اللغة الانجليزية وقد تخطى بحكم سنه المرحلة التى يستطيـع فيهـا تعلم الانجليـزية، وكان فندر لايعرف الا اللغة الانجليزية، وكان مشاركا فى اللغة العربية والفارسية.

يقـول السيـد النـدوى فاين القنطـرة التى تصل بينهما واين الرجل الذى يساعد الشيـخ رحمـة الله فى الاطـلاع على المصـادر الاجنبيـة والوثائق المسيحية التاريخية؟ ويواصل السيد الندوى كلامه فيقول:

هنـالـك قيض الله مسلما غيـورا - ولله جنـود السمـوات والأرض - وهو الدكتور محمـد وزيـر خان الاكـبر آبـادى، الذى سافر الى لندن سنة ١٨٣٢ يدرس الطب الجـديـد وقـد نال فيه شهادة عالية واتقن اللغة الانجليزية ودرس اللغة اليونانية، وعني بدراسة المسيحية من مصادرها الاصلية واقتناء كتبها واستصحب هذه المكتبة الثمينـة الى الهنـد، فكـان هذا الرجل عضد الشيخ الايمن فى هذا الجهاد العلمي الكبير الذى كان جهاد الساعة وواجب الوقت.

اكمل الشيخ رحمة الله مهمته فى الدراسة واخذ عدته وعتاده لخوض المعركة وقد استفحل امر فندر الذى رأى الجو خاليا فازداد جرأة وتحديا، ورأى الشيخ ان السبيل الـوحيـد لايقـاف فندر هذا عند حده ان يتم الحوار معه فى لقاء عام يحضره الخاصة

من أهل الرأي واعيان البلاد وحكامها ليستمع الناس الى مايدور فى هذا الحوار من الحجج التى تقرع الرأي بالرأي ليكون الناس على بينة فى نهاية المطاف بالحقيقة التى ينجلى عنها صراع الرأى بين الرجلين.

وكان فندر قد الف كتابا سماه ميزان الحق وترجمه الى اللغة الفارسية وملأه بالاباطيل والضلالات التى تهاجم الاسلام ونبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه واخذ يدل به بعد ان رأى ان الجو قد خلا امامه من المعترضين المناقشين.

اعد الشيخ عتاده وارسل الى فندر يطلب منه الحضور للمحاورة فى موعد ومكان يتفق عليهما، وتحداه ان يظهر امام الجمهور من الناس بما فيهم علماء النصارى والمسلمون وكان شرط هذه المناظرة انه اذا انتصر فيها القس فندر دخل الشيخ رحمة الله فى دينه فاصبح مسيحيا، واذا انتصر الشيخ رحمة الله دخل القس فندر فى دينه فاصبح مسلما.

كان التحدى صارخا واستعان الشيخ على اتمام المناظرة بكل من توسم فيه القدرة على التأثير على فندر هذا لاتمامها، ولم ير فندر بعد ان وصلت الأمور الى هذا الحد من التحدى السافر بداً من قبول المناظرة فقبلها راضيا اوكارها فالله اعلم بدخيلته، واخيرا ابرم الامر وتحدد عقد المناظرة فى الحادى عشر من شهر رجب عام ١٢٧٠ هجرية الموافق للعاشر من ابريل سنة ١٨٥٤ للميلاد فى مدينة اكبر آباد اكره احدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية واحد مجالات النشاط التبشيرى فى الهند وفي حي من أحيائها يسمى حارة عبد المسيح.

بدأ الحفل فى الموعد المعين وتجمع الناس فحضر ولاة المديرية من حكام وقضاة وبعض كبار رجال الجيش من الانجليز كما حضر القس الشهير وليم كلين وعدد كبير من اعيان البلد ووجهائه كما حضر فريق كبير من ابناء البلاد من المسلمين والمسيحيين والسيخ.

وحضر الشيخ والى جانبه الدكتور محمد وزير خان يعاونه ويترجم له، وكان موضوع المناظرة والبحث قد تحدد فى خمس نقاط:

١ ـ التحريف فى الكتاب المقدس ـ العهد القديم والجديد ـ
٢ ـ وقوع النسخ
٣ ـ التثليث
٤ ـ نبوة محمد
٥ ـ صدق القرآن وصحته.

ان الـذى يتأمـل فى النقـاط التى سيـدور فيها البحث يرى ان الشيخ رحمت الله اختـار طريقـة الهجـوم بدلا من طريقـة الدفاع ، فهو أولا سيتحدث عن ما وقع فى الانجيل من تحريف ونسخ ، كما سيتحدث عن التثليث الذى يؤ من به المسيحيون الاب والابن والروح القدس وهو مايتنافى مع صفاء عقيدة التوحيد التى تؤ من بآله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ، وبعد هذا يجرى البحث فى النبوة الخاتمة لمحمد ﴿ﷺ﴾ وفى صحة القرآن.

كان الشيـخ رحمت الله قد استعـد اعظم استعـداد للمـواضيـع التى سيخوض بحورها ، يقول الدكتور الدسوقى :

وقـد تنـاول ـ الشيـخ ـ فى الكـلام على العهـدين العتيق والجديد كل باب من ابوابها واستشهد من كلام مؤ رخيهم وعلمائهم ـ النصارى ـ على تبيان المطعون فيه من الأبـواب والآيـات وبيَّن بالحجـج الـدامغـة ان لا يـوجد لدى علمائهم فى كلتا الديانتين سند متصل لاى كتاب من كتب العهدين ، ثم تناول بعد ذلك مافى كتب العهدين من الاختلاف والاغلاط.

وبيَّن ان ادعاءهم بان هذه الكتب الموجودة بين ايدينا الهامية ادعاء باطل وساق برهـانـا على هذا البطـلان سبعـة عشـر وجهـا لكثـرة مابهـا من اغـلاط وتحـريف واختـلافـات عجـز مفسـروهم عن التوفيق بينها ، ثم ان الكاثوليك والبر وتستانت يختلفـان فى الاعـتراف ببعض هذه الكتب فما يعـترف به الكـاثـوليـك ينكـره البر وتستانت والعكس بالعكس.

امـا بالنسبـة للتحـريف فى كتب العهـدين القديم والجديد فقد أثبت أن بعض

هذا التحـريف كان عن عمـد وكـان هذا التحـريف احيـانـا بالـزيـادة، واحيـانا بالنقصـان واحيـانـا بالتبديل اللفظي وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهدا، كما ساق على التبديل اللفظي خمسة وثلاثين شاهداً وصدق الله العظيم إذ يقـول «يحـرفـون الكلم عن مواضعه» أما التحريف بالنقص فقد أورد عليه الشيخ رحمت الله عشـرين شاهداً كما أورد عدة مغـالطـات للمبشرين المسيحيين وفنَّدها ببراهــين ساطعـة واستـدل على ذلـك بأقـوال المسيحيـين الثقـات من المفسـرين والمؤرخين ليزيد حججه نصاعة وقوة.

يقول الدكتور الدسوقي:

وبلغت هذه الاستدلالات من اقوالهم الثلاثين قولا، مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لاقامة الحجة عليهم من كتبهم.

أمـا بالنسبـة لاثبـات النسـخ فقـد اثبت الشيـخ بالادلـة القـاطعـة نسخ بعض الاحكـام فى الشـريعتـين المـوسوية والمسيحية، ثم برهن على أن الاحكام العملية للتـوراة نسختهـا شريعـة عيسى عليـه السـلام، وان لفظ النسخ موجود فى كلام، قدِّيسيهم كما حاول المؤلف ان يثبت ان النسـخ ليس وفقـا على الـدين الاسلامي ولكنه كان عند اليهود والنصارى كذلك.

نعـود بعـد هذا التفصيـل عن مبلغ استعـداد الشيـخ رحمت الله للمنـاظرة الى المناظرة نفسها التى تمت فى بهو فسيح عام وجرى الاتفاق على تخصيص الجلستين الأولى للبحث فى موضوع النسخ وتحريف الانجيل وانبرى الشيخ رحمت الله يدلي بما اعـده من الحجـج عن هذا التحـريف ولم يجد القسيس فنـدر بداً امـام الحجـج الـدامغـة التى اوردهـا الشيـخ من الاعـتراف هوومن معه من القسيسين بحصول التحـريف فى الانجيـل فى ثمانيـة مواضـع، وكـان هذا الاعتراف بمحضر من هذا الجمع الحاشد ونشرت الصحف وقائع الجلستين مما جعل القسيس فندر فى موقف المنـاظـر المغلوب على امـره فامتنع عن حضور الجلسة الثالثة، ولم يكتف بهذا فلقد ترك الهنـد كلهـا خفيـة بعـد هذه الهـزيمـة التى مني بها كما منيت بها دعـوته ودعوة

امثاله، وبهذا لم تحدث المناظرة الا فى المادة الأولى منها، ولقد بادر الشيخ الى طبع ما اعده من نصوص المناظرة فى كتاب «البحث الشريف فى أثبات النسخ والتحريف».

أما بقية ابواب المناظرة فقد اوردها الشيخ فى مؤلفاته الأخرى التى سنتحدث عنها بعد واهمها كتابه ـ اظهار الحق ـ الذى ترجم الى اللغة العربية كما ترجم الى اللغات الانجليزية والفارسية.

يقول الشيخ محمد مسعود سليم حفيد الشيخ ـ ومدير المدرسة الصوليتية بمكة المكرمة:

اشتد غضبهم ـ الانجليز ـ بعد هزيمتهم فى المناظرة فقد كانت مناظرة الشيخ رحمت الله مع المسيحيين بمثابة شرارة ايقظت في نفوس المسلمين روح المقاومة فتكونت فرق الجهاد فى عموم انحاء الهند وخاصة فى مدينة دلهي وتوابعها وانحائها، وكانت كلها مرتبطة عملا ومعنويا بالشيخ رحمت الله.

وبدأ الانجليز فى نصب المشانق للمسلمين وقتلهم بدون هوادة، واقاموا مذابح بشرية يندى لها جبين الانسانية، وقد اعلن الانجليز اعدام الشيخ رحمت الله، ومنح مكافأة قدرها الف روبية لكل من يدلهم عليه اويأتي به، وصادروا املاكه، واحاط الجيش الانجليزى ببيوت الشيخ مدة طويلة وكان الشيخ قد تنكر فى زيّ فلاح هندى فقير يعمل فى الأرض فلم يستطيعوا العثور عليه، ثم قرر الشيخ الهجرة الى مكة المكرمة فترك الهند مخلفا وراءه اهله واملاكه ومدرسته واقاربه واحبابه متنكرا وقضى فى طريقه الى مكة المكرمة مايقرب من عامين وهو يتنقل من بلد الى بلد يقطع البحار كما يقطع الصحارى والقفار حتى وصل الى مكة المكرمة عن طريق اليمن فى سنة ١٢٧٤ للهجرة.

فى مكة المكرمة

وصل الشيخ رحمت الله الى مكة المكرمة ولايعلم بشأنه احد من الناس وكان

شيخ علماء مكة المكرمة فى ذلك الزمان السيد أحمد زيني دحلان (١) . كما كان اماما وخطيبا للمسجد الحرام ، وكان للسيد الدحلان حلقة يلقي فيها دروسه على طلاب العلم فى المسجد الحرام ، والتحق الشيخ رحمت الله فى هذه الحلقة يستمع الى الدروس مع طلاب العلم بعد صلاة الفجر من كل يوم ،وحدث ان وجه الشيخ رحمت الله الى السيد الدحلان سؤالا فقهيا فى احدى حلقات الدرس وبعد ان اجاب السيد الدحلان على السؤال تطور الامر الى مناقشة فقهية ادرك معها السيد الدحلان ان السائل ليس طالب علم وانما هو عالم متمكن فامسك بيده وطلب منه ان يحدثه عن حقيقة امره وان يفصح عن هويته واحواله قصَّ الشيخ رحمت الله على شيخ علماء مكة فى ايجاز قصته وما وقع له فى الهند والتجاءه اخيرا الى البيت الحرام يطلب فيه الامن والامان .

تأثر السيد الدحلان بما سمع من امر الشيخ رحمت الله حتى فاضت عيناه بالدموع ودعاه الى بيته واكرمه وجمع له علماء مكة المكرمة على مائدة كبيرة اقامها فى داره حيث عرَّف السيد الدحلان الشيخ رحمت الله الى علماء مكة المكرمة وتحدث الشيخ رحمت الله الى الحاضرين بجلية امره وماوقع له مع القسيس فندر وما تلا ذلك من احداث حتى وصل الى حمى البيت العتيق .

رحب علماء مكة بالعالم المجاهد ونزل من قلوبهم المنزلة التى يستحقها من كان مثله مجاهدا فى اعلاء كلمة الاسلام وابطال الباطل واحقاق الحق ، ومنحه شيخ علماء مكة المكرمة اجازة التدريس وعين له مكانا بالمسجد الحرام تعقد فيه حلقته للتدريس واصبح اسمه مسجلا فى السجل الرسمي لعلماء ومدرسي المسجد الحرام .

رحلة القسطنطينية

استقر المقام بالشيخ فى مكة المكرمة مدرسا فى المسجد الحرام الى ان استدعاه

---

١ ـ السيد أحمد زيني دحلان مؤلف كتاب الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية فى مجلدين كبيرين . ومؤلف كتاب خلاصة الكلام في امراء البلد الحرام .

السيد أحمد زيني دحلان يوما، ليخبره بما جَدَّ من أمور، كان القديس فندر الذى انهزم فى المناظرة المشهورة على يد الشيخ فى الهند قد وصل الى القسطنطينية مبعوثا من الكنيسة المسيحية للتبشير بها هناك، ويأبى مركب النقص الذى وقع لديه بعد هزيمته فى الهند الا ان يظهر فقلب الحقائق، وتباهى بما فعل فى الهند فقلب الحقائق وأشاع ان علماء المسلمين فى الهند لم يستطيعوا الثبات أمام ما أورده من براهين وحجج على النسخ فى القرآن وانهم غلبوا على امرهم فتحول الكثير من المسلمين الى النصرانية وتحولت المساجد الى كنائس والعياذ بالله وانتصرت النصرانية على الاسلام.

ولقد بلغ الى مسامع السلطان عبدالعزيز خان مايروجه هذا القس الفاجر من الاكاذيب والاباطيل فارسل رسالة عاجلة الى والي مكة المكرمة الشريف عبدالله ابن عون يطلب منه الاستفسار من الحجاج القادمين من الهند عن احوال الهند والأحداث الخطيرة التى وقعت بها وخاصة ماتم فى المناظرة بين الشيخ رحمت الله والقسيس فندر، وما ان تلقى والى مكة هذه الرسالة حتى اطلع عليها شيخ علماء مكة المكرمة وكان جوابه حاضرا أن الشيخ رحمت الله موجود عندنا فى مكة المكرمة وله حلقة يلقي فيها الدروس على طلابه فى المسجد الحرام واستقبل الشريف عبد الله بن عون بن عبدالله الشيخ رحمت الله وسمع منه قصته مع القسيس فندر مروية بلسانه وكتب إلى السلطان عبد العزيز بحقيقة الأمر فورد الأمر من السلطان بإرسال الشيخ إلى تركيا سريعا ضيفا خاصا للخليفة وكان ذلك فى سنة ١٨٦٤ ميلادية، أكرم السلطان وفادة الشيخ رحمت الله كثيرا واستمع إلى قصته ودعى إلى اجتماع حافل حضره كبار رجال دولة الخلافة وعلماء الدين وكلف السلطان الشيخ رحمت الله بالحديث إلى الحاضرين عن أحوال الهند وعن المناظرة الدينية التى تمت بينهم وبين القسيس الكاذب فندر وما تلاها من ثورة المسلمين فى الهند والأحداث التى تلت ذلك حتى استقر المقام بالشيخ فى رحاب البيت العتيق.

فندر يهرب من القسطنطينية

علم القسيس فنــدر بوصــول الشيخ رحمت الله الى القسطنطينيـة بطلب من الخليفة فاختفى وهرب من تركيا الى غير رجعة خشية ان يواجه بها يدحض اكاذيبه وافتراءاتـه وامـر السلطان بعد ماسمع من الشيخ مافعله القسيسون والمبشرون فى الهند امر بالقبض على القسيسين المبشرين واعوانهم ومصادرة كتبهم واغلاق مراكزهم .

بقي الشيخ رحمت الله فى القسطنطينية ضيفا مكرماً على السلطان ، وكان يقابله كثيرا عقب صلاة العشـاء مع رئيس الـوزراء خير الـدين باشا التونسي ، والشيخ أحمد اسعد المدني شيخ الاسلام ، وكبار رجال الدولة والمناصب الدينية ، وتقديرا من الخليفة لجهاد الشيخ انعم عليهبالخلعةالسلطانية وبالوسام المجيدى ، وعين له مرتبا شهريا مقداره خمسمائة ريال مجيدى وعينه عضوا فى مجلس الوالي بمكة المكرمة .

كتاب اظهار الحق

طلب السلطان عبدالعزيز ورئيس وزرائه خير الدين باشا من الشيخ رحمت الله بعـد ان عرفـوا من امـره ماعـرفـوا تأليف كتـاب شامـل عن الاسـلام يحتوى على المبـاحث الجـوهـرية بين الديانتين الاسلامية والمسيحية مع ايراد نص المناظرة التى تمت بين الشيخ والقسيس فندر والنقاش الذى تم بينهما سواء فى الجلسات التى تمت بينهـما او المبـاحث التى اعـدها الشيخ ولم يجر النقاش فيها بعد غياب فندر ، وطلب السلطان من الشيخ ان يتفرغ لتأليف الكتاب المطلوب فى تركيا ، واستجاب الشيخ رحمت الله لطلب الخليفة فعكف على تأليف كتابه اظهار الحق وهوكتاب ضخم فى مجلدين عظيمــين استهــدف فيــه جلاء حقيقـة الاسـلام وابطـال مزاعم اليهـود والنصـارى ومفـترياتهم ودحضها بالحجة والبرهان واتم الشيخ كتابه فى ستة شهور وطبـع فى تركيـا تحت رعـايـة الخليفـة ووزع فى البلدان العربية والاسلامية كما تمت ترجمتـه الى اللغـات الانجليـزيـة والالمـانيـة والفـرنسية وقد اهتم السلطان بترجمة الكتاب الى اللغة التركية كذلك فظهرت الترجمة تحت عنوان ابراز الحق .

يقول الشيخ محمد مسعود مدير المدرسة الصوليتية بمكة:

ولقد علقت جريدة لندن تايمز فى ذلك الوقت على هذا الكتاب قائلة:

لو داوم النـاس على مطـالعـة هذا الكتـاب لتوقف انتشار الدين المسيحي كليا ولابى الناس قبوله ورجعوا الى الاسلام.

ويواصل الشيخ محمد مسعود قائلا:

ولقد تم طبع هذا السفر الجليل عشرات المرات فى تركيا ومصر وسوريا ولبنان، وقـام القسيسـون ورجال الهيئات التبشيرية بمصادرة نسخه واتلافها حتى لاتصل الى ايـدى النـاس فى البلاد العربية والطبعة المتداولة هى الاخيرة بتحقيق الدكتور عمر الدسوقي وهو مطبوع فى المغرب وفى لبنان.

وليس هذا الحـال مع كتـاب اظهـار الحق فقـط بل مع ترجمـاتـه الانجليـزيـة والفرنسية والالمانية والتركية ايضا والجدير بالذكر ان الهيئات المختصة بالهند فى عهد الحكـومـة البريطانية منعت طبع وتداول مؤلفات الشيخ رحمت الله وانزال العقوبة بكل من يقوم بطبع ونشر مؤلفاته، ولكن كتبه كما يقول الشيخ محمد مسعود ظلت محفوظة مصونة فى البيوت والمكتبات القديمة وفى صدرو العلماء ورجال الحق.

كما ان الـترجمـة الاورديـة للكتـاب والتى تحمـل اسم من الانجيـل الى القرآن طبعت ثلاث طبعـات فى البـاكستـان وقام بترجمتها فضيلة الشيخ اكبر علي العثماني وحققهـا وعلق عليهـا فضيلة الاستاذ محمد تقي العثماني وهما من العلماء المشهورين فى الباكستان.

وهكذا تتـوالى طبعـات الكتـاب باللغـات المختلفة وكلما نفذت طبعة طبعت اخرى فكأن الكتـاب بهذا الـوصف حسنة جارية يتلقى مؤلفه ثوابها ونورها بعد ان فارق هذه الحياة الدنيا الى رحاب الله الواحد الغفار.

تأسيس أول مدرسة بمكة المكرمة

عاد الشيـخ رحمت الله الى مكـة المكـرمـة بعد ان اتم تأليف كتابه اظهار الحق، واشتغـل بالتـدريس فى المسجـد الحـرام، وكـذلـك فى داره لتلاميذه من ابناء مكة

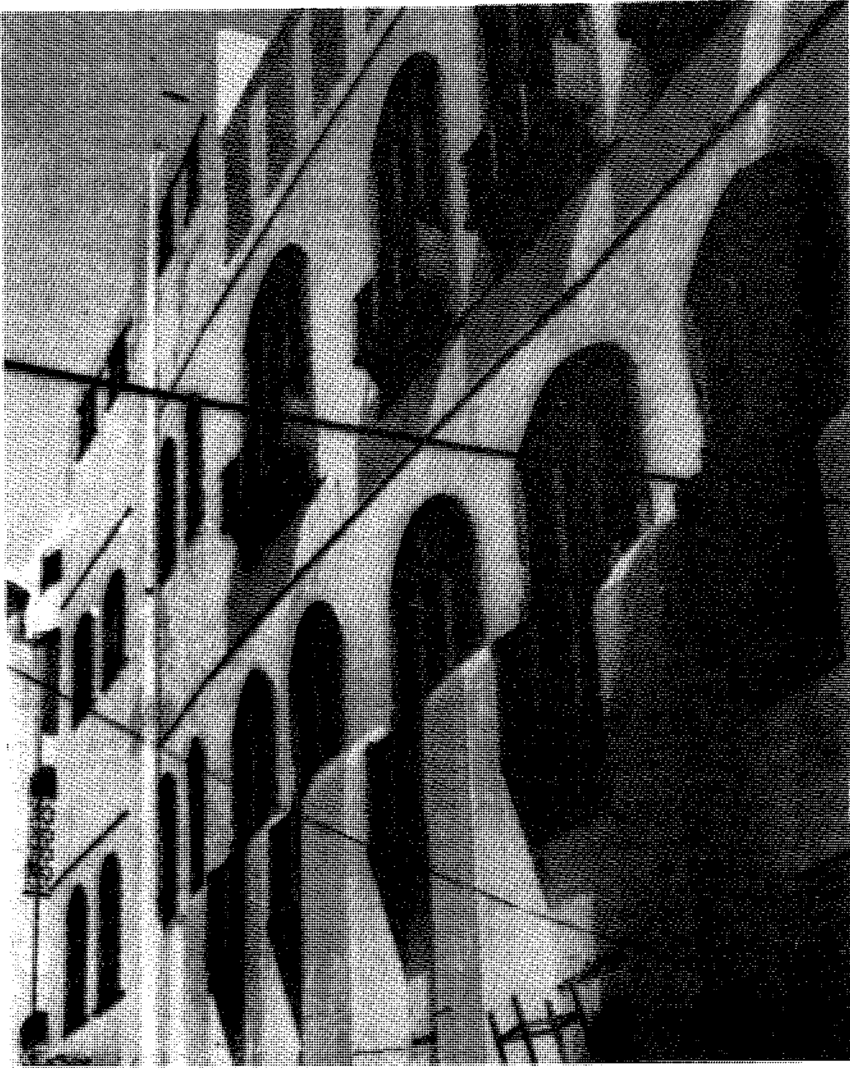
المكرمة والمهاجرين اليها لطلب العلم .

ولقـد رأى الشيـخ بثـاقب بصيرته ان التعليم الذى يتم فى حلقات الدروس فى المسجد الحرام يقتصر على التعليم الديني ومايتعلق به من علوم اللغة والبيان ، وان الحـاجـة تدعـو الى ادخـال مواد اخـرى لتعليمهـا لابناء المسلمين ، وكان يرى ان المدرسة التى يتم تأسيسها على أسس برامج ومناهج دراسية معينة يمكن ان يجني منها المتعلم فوائد أخرى الى جانب دراسته الدينية .

كانت الحكومة العثمانية تبذل بسخاء لمدرسي المسجد الحرام ولعلماء مكة المكرمة ولكن البـلاد كانت خاليـة من المـدارس التى تجمـع بين علوم الدنيا والدين ، فقام الشيخ رحمت الله بافتتاح اول مدرسة فى مكة المكرمة فى ربيع الأول من عام ١٢٨٥ للهجرة على نفقته الخاصة واتخذت المدرسة مقرا لها بدار احد امراء الهند المهاجرين المعروفة بدار السقيفة عند مطلع جبل هندى بالشامية . ولكن الدار كانت ضيقة ، فلم يتمكن الشيخ من تنظيم الدراسة فيها بالشكل الذى يتمنى ويريد .

المدرسة الصوليتيه

وفى عام ١٢٨٩ هـ قدمت لاداء فريضـة الحـج الامـيرة صولـة النسـاء احـدى امـيرات الهنـد ، وكـانت تنوي بعد اداء الحج انشاء رباط بمكة المكرمة يكون وقفا للفقراء فاستشارت الشيخ رحمت الله فى الامر وهو المعروف امره والمنتشر ذكره ، قال الشيخ رحمت الله لصولت النساء : ان مكة المكرمة تحتاج الى مدرسة يتعلم بها ابناء المسلمين،وحدثهاعن مدرسته التى اسسها والتى تحتاج الى بناية اعظم تبنى لتكون مدرسة نظامية،وافقت الاميرة صولت النساء على فكرة الشيخ وفوضت اليه امر بناء المدرسة على نفقتها . ويسر الله الامر فتم شراء الأرض فى حي الخندريسة بمحلة البـاب ووضع الشيخ رحمت الله حجر الأساس لأول مدرسة دينية نظامية فى رحاب البيت العتيق وتم فى صبـاح الأربعـاء ١٥ شعبـان ١٢٩٠ للهجـرة ابتداء الدراسة بالمـدسـة الصـوليتيـة التى جعـل الشيـخ اسمهـا مرتبطـا باسم اميرة الهند صولت النسـاء ، وجـرى الاحتفـال بذلـك الحـدث بحضـوره علماء مكـة المكرمة وأعيانها



منظر جانبى لعمارة المدرسة الصولتية الثانية التى بها الدراسة الآن والتى انتهت عمارتها فى عام ١٣٤٥هـ .

وطلاب العلم فيها .

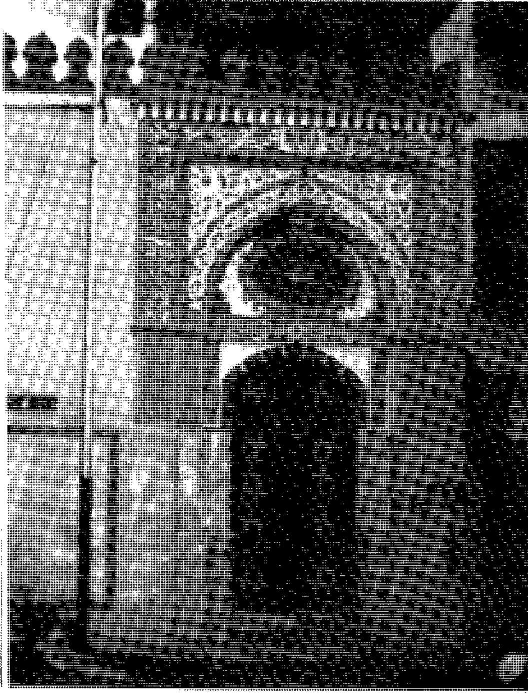
اصبحت المدرسة مركزا للطلاب من كل حدب ومنبعا للعلوم والمعارف ، وهى أول مدرسة نظامية على الاطلاق فى الجزيرة العربية تأسست على يد ذلك الرجل العظيم .

وتتكـون المـدرسـة من ثلاثـة مبـاني ـ المبنى الأول المدرسة التى بنيت على نفقة الامـيرة الهنـديـة صولت النساء . . والمبنى الثانى خصص لايواء خمسين طالبا وقد بنيت على نفقة محسن هندى مسلم اسمه مير واجد حسين من مدينة بتنه فى الهند وتم بناء هذا المبنى الذى سمي دار الاقامة فى عام **١٢٩٣** هجرية .

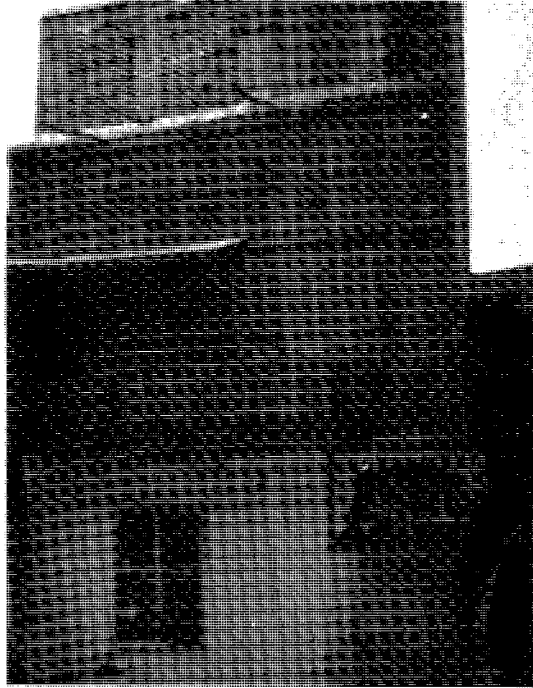
اما المبنى الثالث فهو المسجد وقد استعملت فيه الاحجار التى نتجت من هدم دار الكتب الملكيـة فى ساحـة الحـرم المكي الشـريف وتفصيل الامر، ان دار الكتب الملكية كانت مبنية فى ساحة الحرم المكي بالقرب من بئر زمزم وكان وجود هذا المبنى يضـايق المصلين وخـاصـة فى أيام الحج فرأى عثمان باشا نورى والي الحجاز ضرورة ازالته وكتب بذلك الى وزارة الاوقاف فى القسطنطينية واقامة مبنى آخر للمكتبة فى مكان آخر ولما عرض الامر على السلطان عبدالحميد خان وافق على ذلك وتم نقل المكتبـة الى مبنى مجاور كما تم هدم المبنى الـذى كان قائـما فى ساحـة الحرم . وتقدم الشيخ رحمت الله الى عثمان نورى باشا والي الحجاز بطلب شراء الاحجار المتخلفة عن هدم هذا المبنى لاستعمالها فى بناء مسجد للمدرسة الصوليتيه فوافق الوالي على هذا الطلب واشـتر ى الشيـخ رحمت الله هذه المخلفـات واستغلهـا فى بناء المسجد الـذى يسـر الله بناءه على اجمل وجه بحضور بعض المهندسين الهنود فظهر المسجد بقبابه العالية تحفة معمارية اسلامية وتم بناء المسجد فى سنة **١٣٠٤** للهجرة .

دسـائس وعقبـــات

كانت المـدرسـة الصـوليتيـه منذ تأسيسها تقوم على تبرعات اثرياء المسلمين فى الهنـد وكـان من ضمن اغـراضهـا احتضـان ابناء المهاجرين المسلمين وخاصة من مسلمي الهنود ليتلقوا بها علومهم الدينية والدنيوية بطريقة منظمة ليعودوا الى الهند فيعلموا ابناء المسلمين هناك ماتعلموه فى مكة المكرمة .



المدخل الجميل لمسجد المدرسة الصولتية المؤسس في عام ١٣٠٢هـ وعليها أبيات شعرية رائعة للشاعر الشيخ محمد نظيف التركي.



منظر لأول عمارة للمدرسة الصولتية أنشئت في عام ١٢٩٠هـ وفيها بدأت الدراسة يوم الأربعاء الموافق ١٥/٨/١٢٩٠هـ.

وكانت القنصلية الانجليزية فى جدة تعرف الكثير من ماضي الشيخ رحمت الله فى محاربة التبشير المسيحى واثره الكبير فى الثورة ضد الانجليز فى الهند تبث الدسائس ضد المدرسة ومؤسسها فتنشر الاراجيف عن الاغراض. من وجود هذه المؤسسة التى تقوم على نفقات الهنود من خارج الحجاز، ولقد تأثر والي الحجاز عثمان نورى باشا فى ذلك الزمن ببعض هذه الدسائس فكتب الى القسطنطينية محذرا من الشيخ رحمت الله ومدرسته وجاء الامر السلطاني على غير ماكان يتوقع الوالي فسافر الشيخ رحمت الله واستقبل فى الاستانة استقبالا عظيما وانعم عليه السلطان بلقب ركن الحرمين الشريفين وخلع عليه وقدمت له الهدايا والأموال السخية.

ولما قابل السلطان عبدالعزيز خان ابدى السلطان رغبته فى تقرير منحة مالية سنوية للمدرسة لمعاونتها على اداء رسالتها فاجابه الشيخ شاكرا لانعمه قائلا:

ان لجلالة السلطان فى أرض الحرم مشاريع عظيمة النفع ينفق عليها بسخاء ومشاريع لم تكتمل بعد وهذا كاف فى فضل السلطان.

وان مسلمي الهند يقومون بالانفاق على المدرسة راغبين الثواب من الله، وارجو جلالة السلطان ان لايحرمهم من هذا الثواب.

ويبدو ان ما كان يرد للمدرسة من تبرعات مسلمي الهند كان يسد متطلبات المدرسة، ودار الاقامة فلم يرغب الشيخ فى الحصول على المعونة السلطانية، ولعل لديه اسبابا اخرى للاعتذار(١)

تجديد الدراسة فى حلقة الشيخ رحمت الله

كانت حلقة الشيخ رحمت الله فى المسجد الحرام كما يصفها الأستاذ مسعود سليم رحمة الله مدير المدرسة الصوليتيه بمكة، لايقتصر التدريس فيها على العلوم الدينية كما هو الحال بالنسبة لحلقات الدروس بالمسجد الحرام فى ذلك الزمان.

---

(١) ٥٧/٦٠ أكبر مجاهد فى التاريخ للسيد محمد سليم بن محمد سعيد.

يقـول الاستـاذ محمـد مسعـود : فعزم على ادخال علوم وكتب جديدة وتعريف الطـلاب بما لم يعهـدوه فى محيـط العلم والتـدريس ، فشـرع فى تدريس المنطق والفلسفة الاسلامية وعلمي الكلام والمناظرة وعلم الهيئة واقليدس الهندسة ، وعلم الفلك ، وطلب لها الكتب من الهنـد ، وكـان يومـا مشهـودا فى تاريخ العلم بالحرم المكي الشـريف الـذى شرع فيـه العلامة الشيخ رحمت الله فى تدريس كتاب حجة الله البالغة ، ومقدمة ابن خلدون وما اشبه ذلك من الكتب فى العلوم آنفة الذكر.

فتهـافت عليـه جموع الطـلاب ، واصبحت حلقته منهلا عذبا اقبل عليه طلاب العلم والمعرفة وظل يقوم بالتدريس فترات طويلة ومتعددة فى الحرم الشريف وفى داره.

التلامذة والمتخرجون

لهذا فقـد تخرج على يديـه العـدد الكبـير من العلماء والقضاة وأهل الافتاء ممن يشار اليهم بالفضل والكمال فى تاريخ مكة.

وقـد اورد الشيـخ محمـد مسعـود اسـماء الطـلاب الذين تخرجوا على يد الشيخ رحمت الله فكـان على رأسهم المـرحـوم الشـريف الحسـين بن علي ملك الحجـاز ومؤسس الدولة الهاشمية فى سنة **١٣٣٤** للهجرة فى مكة المكرمة.

ولقـد ضمن القـائمة التى اوردها الأستاذ محمد سليم مسعود القضاة ورجال الفتيا والعلماء والمدرسين بالمسجد الحرام نذكر منهم على سبيل المثال:

فضيلة الشيخ عبدالله سراج

قاضى القضـاة مفتى الاحنـاف وشيخ العلماء بمكة المكرمة ثم رئيس وزراء الاردن فى عهد الملك عبدالله بن الحسين ملك الاردن.

الشيخ أحمد أبو الخير مرداد

شيخ الخطباء والعلماء بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام.

الشيخ عبدالرحمن الشيبي

سادن بيت الله الحرام والمدرس بالمسجد الحرام .

السيد عبدالله محمد الزواوى

مفتى الشافعية بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام ورئيس مجلس الشورى .

السيد عابد حسين المالكي

مفتى المالكية والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ عبدالله أحمد ابوالخير

مفتى الاحناف وقاضى المحكمة الشرعية والمدرس بالمسجد الحرام

الشيخ محمد علي سليمان مرداد

الامام والخطيب والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ أمين محمد علي مرداد

إمام وخطيب المسجد الحرام ونائب رئيس محكمة مكة .

الشيخ أسعد أحمد دهان

قاضي المحكمة الشرعية الكبرى بمكة وقاضى الطائف والمدرس بالمسجد الحرام

الشيخ أحمد أبو الخير عطار

صاحب التآليف الشهيرة فى الاسانيد

الشيخ عبدالرحمن حسن العجمي

قاضى محكمة الطائف والمدرس بالمسجد الحرام .

الشيخ عبدالله محمد الغازي

المدرس بالمسجد الحرام والمدرسة الصوليتيه ومؤرخ مكة المعروف

الشيخ عبدالستار الدهلوى الكتبى

المدرس بالمسجد الحرام وصاحب التآليف النافعة فى تاريخ علماء مكة المكرمة .

نكتفى بهذا القدر من الاسماء التى وردت فى هذه القائمة لقضاة مكة المكرمة وعلمائها ومدرسي المسجد الحرام بها لنورد بعض الاسماء للرجال الذين تخرجوا على يد الشيخ ثم قاموا بتأسيس المدارس فى الهند ونشر العلم بها .

الشيخ أحمد الدين جكوالي

مؤسس مدرسة مظهر العلوم بكراتشي

العلامة شرف الحق صديقي

المناظر المعروف وصاحب المؤلفات فى الرد على النصارى

الشيخ ضياء الدين عبدالوهاب المدراسى

مدير مدرسة الباقيات الصالحات فى ديلور بجنوب الهند.

الشيخ عبدالأول الجو تيورى

صاحب المؤلفات النافعة والشهير بمصلح بنغال

الشيخ عبدالرحمن الآله ابادى

شيخ القراء بالهند

الشيخ محمد هاشم اشعرى

مؤسس جمعية نهضة العلماء باندونيسيا

العلامة الشيخ محمد علي

مؤسسة مدرسة دار العلوم بالهند

الشيخ ابو الخير الفاروقي الهندى

المصلح والمربي الشهير ومن علماء الهند

ولقد كان كذلك بين تلاميذ الشيخ من قاموا بتأسيس المدارس فى مكة المكرمة ذاتها نذكر منهم الاسماء الآتية:

الشيخ عبدالخالق محمد حسين البنقالي

مؤسس مدرسة دار الفائزين بمكة المكرمة

الشيخ عبدالحق القارى

مؤسسة المدرسة الفخرية بمكة المكرمة

الشيخ محمد حسين الخياط

مؤسس المدرسة الخيرية بمكة المكرمة والمدرس بالمسجد الحرام

واود ان اذكر ان القائمة التى اوردها السيد محمد مسعود سليم تضم واحدا وخمسين أسما من العلماء والقضاة والمدرسين بالمسجد الحرام وممن تسلم بعضهم المراتب العالية وقد اكتفينا منهم بالاسماء التى اوردناها للدلالة على عظيم فضل الشيخ رحمت الله وماصنع الله من البركة على يديه ومن اراد الاستزادة فله ان يرجع الى المقدمة التى كتبها السيد محمد مسعود سليم رحمه الله والتى اورد فيها القائمة كاملة لكتاب اظهار الحق والذى استقينا من مقدماته جميع المعلومات الواردة فى هذه الترجمة وبالله التوفيق.

عودة الى المدرسة الصوليتية:

انتظمت الدراسة فى المدرسة الصوليتيه فى بداية المحرم من سنة ١٢٩١ هـ (١) ولاتزال المدرسة قائمة برسالتها منذ اكثر من مائة واثنتي عشرة عاما فى مكة المكرمة اخرجت المدرسة خلالها اجيالا من المتعلمين شغل الكثير منهم وظائف التدريس فى المدرسة نفسها وفى المسجد الحرام وفى مدارس مكة المكرمة، كما تولى بعضهم مناصب القضاة فى مكة وجدة والطائف وغيرها من مدن المملكة، وصدرت لبعضهم المؤلفات النافعة فى العلوم الشرعية خاصة، فكانت هذه المدرسة منارة من منارات العلم فى البلد الحرام شع نورها الى اقطار كثيرة.

ولقد سبقت المدرسة الصوليتيه جميع المدارس الاخرى فى الحجاز بعقود من السنين فمدارس الفلاح التى قامت النهضة التعليمية فى الحجاز على أكتافها تم تأسيسها فى عام ١٣٢٣ هـ بينما تم تأسيس المدرسة الصوليتية فى عام ١٢٩١ هـ واذا كانت مدارس الفلاح قد اخرجت الاجيال التى ساهمت فى نهضة البلاد من كافة جوانبها وشغل متخرجوها الاعمال الحكومية والتجارية والتعليمية بمختلف وجوهها فان المدرسة الصوليتية اخرجت الرجال المتخصصين فى العلوم الدينية ممن

---

١ ـ ٥٤ أكبر مجاهد في التاريخ تاليف محمد سليم بن محمد مسعود.

اقـامـوا حلقـات التدريس فى المسجد الحرام خاصة وتولوا وظائف القضاء الشرعي ولهذا فانا نستطيع القول بإن المدرسة الصوليتية كانت مدرسة متخصصة فى العلوم الدينية بينما كانت الفلاح مدارس عامة اخرجت المتعليمن فى كافة المجالات.

وقـد اورد السيـد محمـد سليم بن محمـد مسعـود اسـماء مائـة من المتخرجين فى المدرسة الصوليتية بينهم خمسة عشر قاضيا اذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر.

الشيخ أحمد بن عبدالله القارى

القـاضى بمكـة وجـدة وعضـو هيئـة رئاسة القضاء وعضو مجلس الشورى ومؤلف المجلة الشرعية الذى افردنا له ترجمة خاصة ضمن اعلام الحجاز.

الشيخ حسن سعيد اليماني

عضو هيئة رئاسة القضاة فى مكة المكرمة ثم قاضي القضاة فى مدينة سومطره ووالد معالى الشيخ أحمد زكي يماني.

الشيخ يحي امان

قاضى مكة المكرمة والمدرس فى المسجد الحرام.

الشيخ محمد نور كتبي

قاضى المدينة المنورة

الشيخ حامد القارى

قاضى الطائف

الشيخ سراج محمد نور ششه

قاضى تبوك

الشيخ بكر كمال

قاضى الطائف

الشيخ حسن محمد المشاط

عضو هيئة التمييز والمدرس في المدرسة الصوليتيه

كما أن من بينهم ثمانيـة متخـرجـين قامـوا بتأسيس المدارس الاسلامية في انحاء

مختلفة من انـدونوسيا وغيرها من البلاد الاسلامية ، والكثير منهم عمل في وظائف التدريس بالمسجد الحرام والمدرسة الصولتية نفسها وغيرها من المدارس في مكة المكرمة .

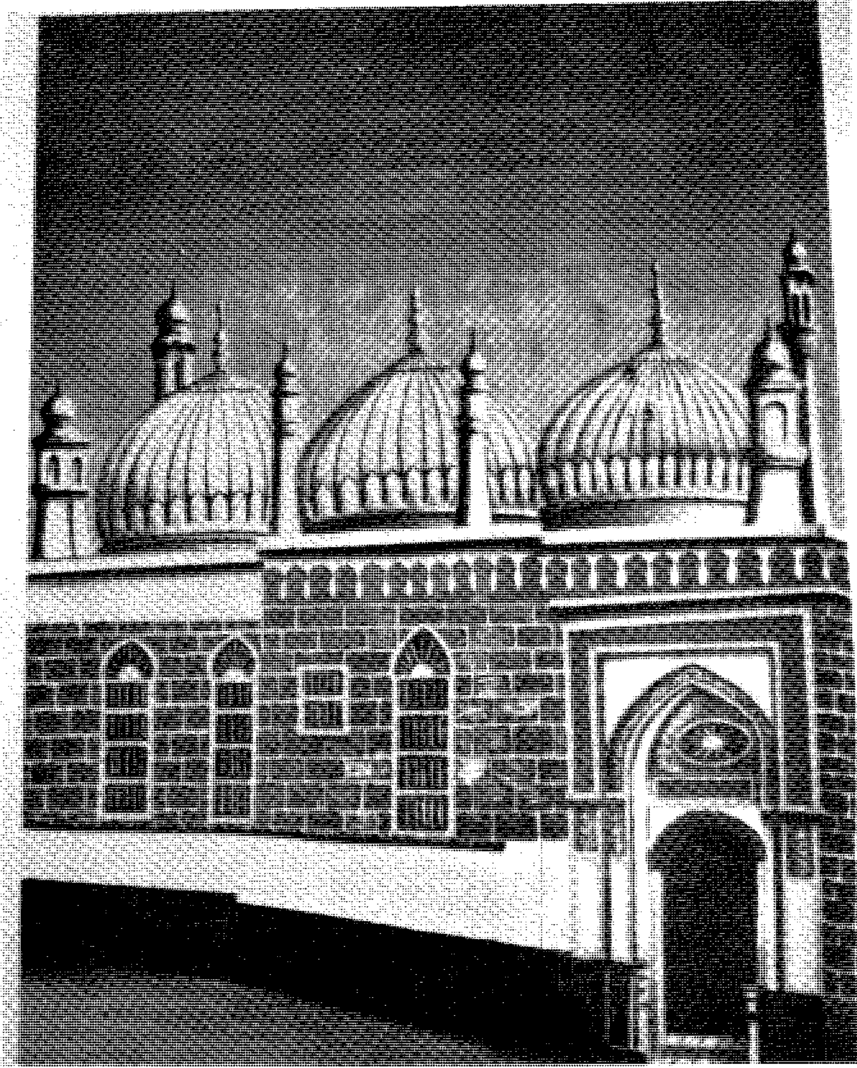
وهكـذا يظهـر لنـا بوضـوح المنحى التخصصى الـذي اتجهت اليـه المـدرسـة الصولتية فاخـرجت لمكة المكرمة وللبلاد الاسلامية هؤلاء الرجال الذين كانوا فى زمنهم مصابيح علم وهداية .

وهنـا مسألـة يجب التنبيـه إليهـا وهى أن المـدرسة وحتى الجامعة على عظم اهميتها ليست وحدها العامل الاساسي فى نبوغ وظهور المبرزين .

إن المـدرسـة تعطى الطـالب الاساس الذي يبنى عليه علمه وهذا البناء يعتمد على الجهـد الفـردى للطـالب وعلى طمـوحـاتـه وتطلعاته واجتهاداته ، ولو كانت المدارس تخرج العباقرة والنوابغ لامتلأت الدنيا بالعباقرة والنابغين ، ولظهر النقص فى الأيدى العامله والطبقات المعتادة ممن يقومون بمختلف الاعمال العادية فى دنيا الناس .

واود كذلـك أن أشـير الى أن الطـريقـة التى كانت تتم بها الـدراسة فى الماضى وقبـل افتتـاح المدارس النظامية والتى كانت تعتمد اساسا على حلقات الدرس فى المسجد الحرام أو في المسجد النبوى الشريف أو المساجد الاخرى لم يكن الطلاب يعتمـدون فيهـا على استـاذ واحد وانما يتنقلون بين حلقات المشايخ ليتلقوا عن كل واحـد منهم علما تخصص فيـه ، وقـد تشتـد علاقـة الطـالب باستـاذه فيتلقى عنـه بالملازمة الطويلة الكثير من العلم فتكون نسبته اليه هى الغالبة .

إن العصر الذى نتحدث عنه كانت تتفشى فيه الامية ، وكان المتعلمون فيه هم الصفـوة القليلة النـادرة ، لهذا فان نظـرتنـا الى هؤلاء الـرجال الذين حاولوا تبديد ظلمات الجهـالـة فى تلك الازمـان تتسم بالاكبار والتقدير ، لان علمهم كان جهادا حقيقيـا فى نشـر العلم ، ولمـا كانت نيـاتهم قد حسنت ونفـوسهم قد صفت فان الله



منظر القباب الجميلة لمسجد الصولتية على الطراز الاسلامى المغولى فى الهند بنيت على أيدى الصناع الهنود فى عام ١٣٠٢هـ ، وفى هذا المسجد ظل قسم تحفيظ القرآن الكريم زهاء ٧٥ سنة متوالية .

تعالى قد اتاح لهم التغلب على المصاعب التى وقفت فى طريقهم، وبارك لهم فى جهودهم حتى بعد وفاتهم فلا تزال هذه المدارس مفتوحه الابواب تؤدى رسالتها الطيبة فى نشر العلم بين الناس رغم اختلاف الاوقات وتطاول الزمن.

لقد رأينا أنه كان من أسباب تأسيس المدرسة الصوليتيه بمكه اخراج علماء من

ابنـاء المهـاجـرين وخاصة من ابناء مسلمي الهند ليتعلموا القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبويه الشريفة وعلومها ليعودوا الى بلادهم فينشروا هذا العلم بين الناس فى وسط طغت عليه فى ذلك الزمان سطوة المبشرين الذين يعملون جاهدين لصرف النـاس عن الاسـلام وادخـالهم في المسيحية، ولقد حققت المدرسة الصولتييه هذه الغـايـة أو بعضـا منهـا فرأينـا بين متخـرجيهـا من تلاميـذ مؤ سسها من قاموا بفتح المدارس الاسلامية في بعض بلاد الهند واندنوسيا.

ولكن العمل الطيب كالعطر يفوح ريحه اينما حل فلا ينشق شذاه حامله فحسب وانما ينشق الناس من حوله هذا الشذى العاطر، كما تمر ببستان الورد فيحمل اليك الهـواء من حولـه الطيب والشـذى، وهكذا كانت المدرسة الصوليتيه نفحة عطرة فى رحـاب البيت العتيق اخـرجت لنـا العلماء والقضـاة والمدرسين، وكانوا مصدر خير وبركة لكل من تلقى العلم عنهم أو اتصلت اسبابه باسبابهم.

وهكذا يؤ تى العمل الطيب أكله ثمرا جنيا طيبا بتوفيق الله وعونه.

مؤلفات الشيخ رحمت الله : -

أهم مؤ لفات الشيخ رحمت الله هو كتاب اظهار الحق الذى سلف الحديث عنه والذى الفه بتكليف من السلطان العثماني عبدالعزيز خان وباشارة من رئيس وزرائه خير الدين باشا التونسي، وكان قد سبقهما الى هذا الطلب شيخ علماء مكه السيد أحمد زيني دحـلان وقد تضمن هذا الكتاب الرد الوافي على مفتر يات النصارى ضد الاسلام ودحض مفتر ياتهم واثبات التحريف الذى وقع فى الانجيل، وابطال معتقداتهم فى التثليث وقـد ترجم الكتـاب الى لغـات كثـيرة واعيد طبعه مرات عديدة وآخر طبعة له هى الطبعة التى قامت بنشرها ادارة الشئون الدينية بدولة قطر واشرف على طبعة فضيلة الشيخ عبدالله الانصارى مدير الشئون الدينية هناك وقـام على تحقيقـه الـدكتور عمر الدسوقى وهي فى مجلدين كبير ين تزيد صفحاتهما عن الالف ومائتي صفحـه وقـد توج الكتاب بمقدمات اربع كتبها كل من الشيخ عبـدالله الانصـارى والعـلامة السيد ابوالحسن على الحسني الندوى والسيد محمد

مسعود سليم رحمه الله مدير المدرسة الصولتية بمكة المكرمة والدكتور عمر الدسوقي استاذ الادب بجامعة القاهرة ومن هذه المقدمات استقينا جميع المعلومات الخاصة بالشيخ رحمت الله والتى اوردناها فى هذه الترجمة وقد صدر الكتاب فى ١٦ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠هـ.

وقد اورد السيد محمد مسعود سليم قائمة بمؤلفات الشيخ رحمت الله باللغات المختلفة نوردها فيما يلى :-

١ - ازالة الشكوك مجلدان باللغة الاوردية.
٢ - اعجاز عيسوى باللغة الاوردية.
٣ - البروق اللامة باللغة العربية.
٤ - تقليب المطاعن باللغة العربية.
٥ - معدل اعوجاج الميزان باللغة الاوردية.
٦ - ازالة الاوهام باللغة الفارسية.
٧ - احسن الاحاديث فى ابطال التثليث باللغة العربية.
٨ - البحث الشريف فى اثبات النسخ والتحريف باللغة العربية.
٩ - معيار الحق.

وقد طبعت هذه المؤلفات جميعها فى الهند وهى فى الرد على الديانة المسيحية، وعاشر المؤلفات ومسك ختامها هو كتاب اظهار الحق الذى سبق الحديث عنه والذى يعتبر من أعظم المؤلفات فى بابه، وقد اثنى عليه كثير من علماء المسلمين منهم السيد رشيد رضا صاحب المنار والشيخ عبدالرحمن الجزيري عضو لجنة هيئة كبار العلماء فى مصر كما استشهد به واشاد بما فيه كثير من علماء المسلمين في الهند(١).

والمتأمل فى أعمال الشيخ رحمت الله وفى تاريخه يجد أن الرجل قد نذر نفسه اولا

---

١ - انظر صفحة ٩/٨ من كتاب اكبر مجاهد فى التاريخ.

لمحاربة دسائس المبشرين ودحض مفترياتهم على الاسلام، واثبات التحريف فى الكتب التى بين ايديهم، وابطال عقيدة التثليث التى يؤمنون بها والتى تتنافى مع صفاء عقيدة التوحيد، وبعد أن أستقر به المقام فى مكة تفرغ للتدريس فى المسجد الحرام ثم اختتم عمله الطيب احسن ختام بتأسيس المدرسة الصولتية فى رحاب البيت العتيق.

ان الدين كله لله، وإن الله تعالى ارسل رسله جميعا من عهد آدم برسالة واحدة فى مختلف الازمان تقوم على توحيده جلت ذاته وتقدست صفاته وعلى افراده بالالوهيه، وتنزهه عن الولادة والولدوتفرده بالعظمة الكاملة وامر عباده باخلاص العبادة له وحده وباتباع ماجاءت به رسله من شرائع تتعلق بعبادته جل جلاله، وبتنظيم الامور بين الناس ليعمر هذا الكون وليعيش الناس فى محبة وسلام، ولكن بعض من ضلت عقولهم وفسدت عقائدهم من أهل الديانات السابقة حرفوا فيما أوحى به الله الى انبيائه ورسله ولم يكتفوا بهذا التحريف فأخذوا ينشرون ضلالاتهم بين المسلمين، ونسوا انهم بهذا يحاربون الله تعالى فى الألوهية الواحدة وفى تعاليمه السامية.

ولاتزال هذه الضلالات تتخذ اشكالا شتى فى عالم اليوم مما تتفتق عنه أفكار شياطين الانس وتتستر تحت اسماء الشيوعية، والحرية الفكرية والدعوات العنصرية الى جانب الحقد الصليبي، والخبث اليهودى الذى بدأ يتحول الى سرطان فى عالمنا العربي.

ولن يستطيع المسلمون الوقوف فى وجه هذه التيارات الكافرة الضالة المضلة الا بالرجوع الى عقيدتهم الصافية يهتدون بهديها ويحتمون بها ويدافعون عنها فيظفروا بنصر الله الذى وعدهم به والذى انزله على نبيه واوليائه فى شتى العصور والازمان.

مرض الشيخ رحمت الله ووفاته

مرض الشيخ رحمت الله بعينيه وعلم السلطان عبدالحميد خان بمرض الشيخ

فطلب حضـوره الى القسطنطينيـة ليعـالـج تحت رعـاية السلطان وسافر الى هناك ونصحـه الاطبـاء المختصـون باجـراء عملية ازالة الماء من العين وكانت العملية فى ذلك الزمان من العمليات الخطيرة ولكن الشيخ رغب عن اجراء العملية وعاد الى مكة المكـرمـة ولكن المـرض اشتـد فى عينيـه فاجريت له العملية فى مكة ولم تكلل بالنجاح واصبح الشيخ بعد ذلك عاجزاً عن القراءة فكان يملي رسائله على حفيده الذى استقدمه من الهند ليكون تحت رعايته كما يقرأ له هذا الحفيد الرسائل الواردة ومـايـرغب الشيـخ فى الاطـلاع عليه، ولم ينجب الشيخ رحمت الله ذرية ولكنه ترك خلفه الكثير من الأبناء الروحيين الذين نهلوا من موارد علمه وفضله.

وفى الثانى والعشرين من شهر رمضان من عام ١٣٠٨ للهجرة الموافق الاول من شهر مايو عام ١٨٩١ للميلاد لبى الشيخ رحمت الله نداء ربه فدفن فى مكة المكرمة فى مقـبرة المعـلاة بعـد حيـاة حافلة بالجهـاد بالجنَان والبيـان فى سبيل الدفاع عن العقيدة الاسلامية ونشرها بين الناس رحمه الله واحسن جزاءه فى جنات الخلد.

هذا ولايـزال احفـاد الشيـخ رحمت الله يقومون على هذا الصرح العلمي الذى اسسـه جدهم الاكـبر فى مكة المكرمة يتبع الخلف منهم آثار السلف ويحفظون هذه الشعلة المضيئه فى بلد الله الحرام فجزاهم الله خير الجزاء.

الشيخ محمد طاهر الكردي



الشيخ محمد طاهر الكردي

قصير القامة معتدل الجسم، ناتئى الجبهة تشوب بياضه صفرة خفيفة، تزين وجهه لحية سوداء حليق شعر العارضين في عينيه حول خفيف تستره نظارة للقراءة، يرتدى الجبة الحجازية ويعتم بعمامة تستر الرأس والاذنين وهو بهذا يتخذ سيماء العلماء المكيين.

ولد بمكة المكرمة فى عام ١٣٢١ للهجرة وتلقى تعليمه بمدرسه الفلاح بمكة وتخرج منها فى عام ١٣٣٩هـ وفى عام ١٣٤٠هـ سافر بصحبة والده الشيخ عبدالقادر الكردي الى القاهرة حيث التحق بالازهر الشريف ويقول الشيخ طاهر فى ترجمته التى كتبها عن نفسه فاشتغل هناك بالعلوم الدينية والعربية كما اشتغل بتعلم الخطوط العربية بانواعها ومايتعلق بها من الرسم والزخرفة والتذهيب بعد أن التحق بمدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية، ولما عاد من القاهرة اشتغل بتعليم الخط العربى بالمدارس ولذلك يعرف بالخطاط انتهى ماكتبه الشيخ طاهر عن نفسه نقلا عن كتابه التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم.

عرفت الشيخ طاهر الكردي فى النصف الثانى من الخمسينات بمكة المكرمة، وكان صديقا حميما لعمى الشيخ عبدالله مغربى رحمه الله وكنت اعرف انه اشتهر بجمال الخط، وكان يحضر الى متجر عمي والى داره بصورة يومية تقريبا، كما كان

يصاحبه الى الحج كل عام، وكان مظهر الشيخ طاهر متزمتا متوقرا ولكنه اذا خلا باصحابه تحول الى شخص آخر كثير الدعابة والمرح.

وكان الشيخ طاهر قد عاد من القاهرة بعد أن أكمل دراسته فى الأزهر الشريف ولكنه لم يعمل فقد كانت الاعمال شحيحة والوظائف محدودة والركود يسود الحالة الاقتصادية.

مصحف مكة المكرمة

وفى أواخر الخمسينات أو أوائل الستينات حضر الشيخ محمد طاهر الكردى الى مكتب المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بالطائف وطلب مقابلة الشيخ محمد سرور ليتحدث اليه فى امر ما، فطلبت منه الانتظار قليلا حتى حضر الشيخ فقدمته اليه، وقلت فيما قلته انه بارع فى الخط براعة فائقة.

قال الشيخ طاهر للشيخ محمد سرور: انني عزمت علي كتابة القرآن الكريم بخط يدي، وأريد أن اقدم هذا المصحف اذا انتهيت منه الى جلالة الملك عبدالعزيز.

قال الشيخ محمد سرور: إنها فكرة حسنة ولكن لي رأيا فى الموضوع أقوله لك. انك لو قدمت هذا المصحف المخطوط بعد اتمامه الى جلالة الملك عبدالعزيز فسيكون له الوقع الحسن لدى جلالته وسيكافئك عليه مكافأة حسنة، ولكن الفكرة ان هذا المصحف سيبقى مخطوطا فى خزانة الملك عبدالعزيز امدا طويلا، ولديك هنا شركة تأسست حديثا لتقوم بشئون الطباعة والنشر واشار الشيخ محمد سرور الى كاتب هذه الترجمة، فلماذا لاتتفق مع هذه الشركة على شراء هذا المصحف الذى تنوى كتابته لتقوم هذه الشركة بطبعه ونشره بين الناس؟.

وأبديت موافقتى على الفكرة كما ابدى الشيخ طاهر رحمه الله ترحيبه بها وواعدته الاجتماع فى داري بعد الغروب.

وكنت انا والمرحوم الصديق عبدالله باحمدين قد اشترينا مطبعة الشركة العربية للطبع والنشر وموجودات الشركة من الورق وما اليه بعد أن تعرضت للخسارة

شهـورا عديـدة، وبحثت الموضوع مع المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين واتفق الرأى على أن كتـابـة المصحف ستكـون بدايـة لعمل عظيم فهو اول مصحف يكتب فى مكـة المكـرمـة، ويطبـع فيهـا وينشـر منهـا، حيث نزل القرآن أول مانزل فى مهبط الوحي في مكة المكرمة.

وحضـر الشيـخ طاهـر اليَّ بعـد الغـروب وتم الاتفـاق بيني وبينـه على كتـابـة المصحف الشـريف، وكـان الاختلاف الوحيد بيننا هو أنه حدد المدة اللازمة لاتمام كتابة المصحف فى حدود عامين، وكنت انا متعجلا ارغب اتمام هذا العمل خلال عام واحد، ولما رأى الشيخ طاهر رحمه الله الحاحي قال لي إن هذا عمل بالغ الدقة، وإنني لا استطيـع الاقـدام عليـه الا وانـا فى حالة نفسية متهيئة له التهيأ الكامل ثم اردف قد ابـدأ بالكتـابـه واستمـر فيهـا اياما أو أسابيع ولكن قد يطرأ مايمنعني عن الامسـاك بالقلم ايـامـا واسـابيـع اخـرى، فدعني اتصـرف بها يمليه عليَّ مزاجي ولاتنس ان الخـط عمـل فني، مثل الرسم، والشعر والكتابة، والفنان لايقدم على ممارسة فنه الا اذا تهيأت له الاسباب النفسية اولا، وكنت اعرف انها يقوله الاستاذ طاهر صحيح كل الصحه فوافقت عليه.

هذا وقد طلب الشيخ طاهر ورقا معينا واقلاما واحبارا معينة، وكان الزمن زمن حرب ولكن الله تعالى يسر الامر فوجدنا كلما طلبه في مكة المكرمة.

وبدأ العمل واتفقنا أن يكون المصحف موافقا للرسم العثماني، ومضت الشهور وكنت كلما رأيت الشيخ طاهر سألته ماذا فعل؟ فيجيب انه مستمر في عمله، وكان قد أحضـر لي بعض الصفحـات من أوائـل ما كتب واطلعني عليهـا، ثم عاد بعـد اسـابيـع واطلعني على نفس هذه الصفحـات وقـد كتبت مرة اخرى بخط أحسن وقال ان هذا هو الفارق بالنسبة لمزاج الخطاط حينما يكتب.

ولا أريد الاطالة على القارىء فقد انتهى الشيخ طاهر من كتابة القرآن الكريم بعـدمـا يقـرب من ثلاثـة أعـوام، وقبل الانتهاء كنا قد تقدمنا الى الحكومة نطلب تأليف لجنـة لتصحيـح المصحف الـذى قام بكتـابتـه الشيـخ طاهر رحمه الله فألفت

الحكـومـة لجنة كبيرة مكونه من الشيخ عبدالظاهر ابوالسمح امام المسجد الحرام فى ذلـك الـوقت والشيخ صالح حجازى شيخ القراء بمكة المكرمة، والمرحومين السيد محمد شطا والسيد ابراهيم النورى منّ وزارة المعارف، وقد باشرت اللجنهٓ عملها، وللتـاريـخ فان الشخص الوحيد من بين اعضاء هذه اللجنهٓ الذى تفرغ للمراجعة والتصحيـح واعطى هذا العمـل جهـده وكـامـل اهتمامه هو المرحوم السيد ابراهيم النورى من وزارة المعارف، وحينما عرضنا عليه مكافأة مقابل هذا الجهد اعتذر عن قبـولهـا فاعتـبرناه مساهما فى الشركة التى تألفت لهذا الغرض بنسبة معينة وقد الفنا شركـة خاصـة لطبـع القـرآن ونشـره فى مكة المكرمة اسميناها شركة مصحف مكة المكـرمـة واستـوردنا لها مطبعة خاصة من امريكا ولاتزال الشركة تحمل هذا الاسم حتى اليوم.

اوشـك العمـل فى كتابة المصحف على الانتهاء كما اوشك التصحيح ان ينتهى وذات يوم اتصل بى المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين تلفوينا وطلب مني الحضور الى مكـة المكـرمـة حيث يجرى عرض المصحف على صاحب السمـو الملكي الامـير فيصـل النـائب العـام لجلالة الملك المعظم لاول مرة، وذهبنا لمقابلة سموه فى قصره بالمعـابـدة فى ظاهـر مكـة وتقـدم السيـد ابـراهيم النـوري رحمه الله بتقديم نسخة المصحف الى سمـو الامـير فيصـل وكنـا المـرحوم عبدالله باحمدين وأنا نقف معه، وابـدى سمـوه اعجـابـه وقـال انـه عمـل عظيم، ثم اقـترح سموه ان يعرض هذا المصحف على جلالـة المغفـور له الملك عبدالعزيز وقال: انني ساتحدث الى رئيس الحرس الملكي واظن ان اسمه كان ابراهيم جودت ليدخلكم على جلالة الملك عبدالعزيز.

عدت الى جدة وبعد عدة ايام ابلغني المرحوم الشيخ عبدالله باحمدين انهم دعوا على عجـل للحضـور الى القصـر وانهم عرضـوا المصحف على جلالـة الملك عبدالعزيز فسر جلالته به كثيرا، واثنىٓ على القائمين بالامر، ونفح كلا منهم مبلغا من المال تعبيرا عن تقدير جلالته واعجابه.

كانت الحرب العالمية الثانية تقترب من نهايتها ، وكنت مضطرا لظروف صحية عائلية أن اسافر الى مصر وابقى بها بضعة شهور، وكنت حريصا أن أصطحب المصحف معي لعمل اكليشيهات له من النحاس والزنك توطئة لطبعه ، ولم يكن عمل الاكليشهات متوفرا فى البلاد فى ذلك الزمان ، وضعت المسودة المخطوطة للمصحف فى حقيبة خاصة حملتها معي الى مصر، وكان لابد من أخذ رخصة من الازهر الشريف بطبع المصحف ليكون معتمدا فى جميع البلاد الاسلامية فى ذلك الوقت .

اتصلت فى مصر بصديقنا الاستاذ صادق سعيد بازرعة واسرته من كبار التجار الحضارمة الذين اقاموا السنوات الطوال فى مصر واصبحوا مصريين بحكم الاقامة الطويلة لأبائهم وبحكم الميلاد لهم ولابنائهم وكانت الاسرة تعمل فى تجارة الصابون البنّ والبهارات التى يستوردونها من فلسطين وعدن وافريقيا والهند وكانت لهم وكالة كبيرة في الجمّالية كما كانوا يتمتعون بسمعة عالية فى الوسط التجارى في مصر. قال صديقنا الاستاذ صادق بازرعة هذه المسألة لايصلح لها الا السيد محمد عرفة شيخ المسجد الحسينى ، كان ذلك في رمضان وجامع سيدنا الحسين قريب من وكالة بازرعة فذهبنا وادينا صلاة العصر وشرحنا الموضوع للسيد محمد عرفة ، وكان يحضر للحج وكنت اراه في مكة المكرمة ، وهورجل يجمع بين وقار العلم وحدة الذكاء وكانت صلاته بطبقات المجتمع المختلفة قوية ومتينة ، فتجد فى غرفته الملحقة بالجامع الحسينى العِلْية من الناس من الباشوات والبكوات الى عامة الناس واوساطهم ، استدعى السيد محمد عرفه ابنه وكان موظفا بوزارة الاوقاف وقال له اريدك ان تحضر لي غدا الشيخ محمد علي الضباع شيخ المقارىء المصرية ليصلي العصر هنا ، والتفت الي قائلا وستصلي العصر معنا هنا ياحاج . . فشكرته واجتمعنا فى صلاة العصر فى اليوم الثاني ، الشيخ الضباع وأنا وصادق سعيد بازرعه ، واخبر السيد عرفة الشيخ الضباع بالغرض الذى دعاه من أجله ، واوصاه بنا خيرا ، واتفقنا مع الشيخ الضباع على الاجر الخاص بالتصحيح كما جرى

الاتفـاق مع المصنـع الـذى يعمـل الاكليشيهات حيث ترسل الصفحات التى يتم تصحيحهـا من الشيـخ الضبـاع الى المصنـع فاذا تم عمـل الزنكات طبعت عليها نماذج وارسلت للشيـخ مرة اخـرى ليعيـد تصحيحها ، وتستمر هذه العملية الى أن يتم عليهـا التصحيـح النهـائى للمصحف مع اتمـام صنـع الاكلشيهـات ، ثـم تصدر الرخصه من مشيخة المقارىء المصرية بالطبع . مكثت بضعة شهور فى مصر وأنـا اتـردد اسبـوعيـا وبعض الاحيان في كل ثلاثة ايام على الشيخ الضباع في بيته بالجيـزة وعلى المصنـع الذي يصنع الاكليشهات فى شارع عبدالعزيـز وكان صاحب المصنع ارمنيا شهيرا بصناعة الحفر وقد جعلنا الأكليشهات بحجمين احدهما المقاس المتوسط العادي والثانى المقاس الصغير وتم التصحيح النهائى أخيرا بعد أن كادت اطارات السيارة الصغيرة الهيلمان التي تقلني الى الجيزة وتعيدني منها كادت اطاراتها تذوب من كثرة الغدوُّ والرواح ، وكانت السيارات كما كانت الاطارات عزيزه في ايام الحرب العالمية الثانية وغالية الاثمان . انتهت الاكليشهات وبدأت أفكر في الطريقة التي يمكن بها تصديرها من القاهرة الى الحجاز وكانت القيود على التصدير بالغة الشدة وادركت انني لو اتبعت الطرق المعتادة لتعبت بالغ التعب دون نتائج مفيدة .

وفى ذلـك الـوقت بالـذات وصـل جلالـة المغفـور له الملك عبدالعزيز فى زيارته الـرسميـة الى مصـر وكـان بصحبتـه معـالى الشيـخ عبـدالله السليمان وزير المالية الاسبق ، وكـذلـك المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ورأيت أن الله تعالى قد هيأ الاسباب بهذه الزيارة الملكية لتصدير اكلشيهات المصحف دون عناء شرحت الامر لمعالي الشيخ محمد سرور رحمه الله فقال لي أكتب ماتريد من الكتب بالتوصية على هذا الامـر وهـاتهـا لتـوقيعها ، كان الشيخ محمد سرور الصبان تربطه صلة صداقة عظيمـة بالسيـاسى المصـرى المعروف ابراهيم عبدالهادى باشا وكان وزيرا من ابرز وزراء الوفد فى ذلك العهد ، وكتبت الكتاب المطلوب لابراهيم باشا بلسان الشيخ محمـد سرور اشـرح له الوضعية ، كما كتبت كتابا آخر بنفس المعنى الى مكرم عبيد باشا وزير المالية ، وكان هو الوزير المختص الذى تتبعه الجمارك والتراخيص الخاصة

بالتصدير، وذهبت اولا الى ابراهيم عبدالهادى باشا واخذ سكرتيره الرسالة ودخل بها الى الوزير.

وعـاد ليتصـل امـامي تلفـونيـا بسكـرتير وزير المالية وكان اسمه الاستاذ حسن الاعـور ويـوصيـه بلسان الباشا بالاهتمام بالامر، وقابلت الاستاذ حسن الاعور في وزارة الماليه وسلمته كتاب الشيخ محمد سرور، فعاد ليتصل امامي بصندوق النقد الـذي كان يقـع في ميدان الاوبرا ويبلغهم توصية مكرم باشا وزير الماليه بعمل كل التسهيلات لتصدير الاكلشيهات الخاصة بالقرآن الكريم.

حصلت على الترخيص المطلوب في مدى ثلاثة ايام ولولم يهيىء الله الاسباب بزيـارة المغفـور له جلالـة الملك عبدالعزيز وحضور معالى الشيخ محمد سرور لربما استغرق الحصول على الترخيص الشهور الطوال.

انـه القـرآن الكـريم، وانـه تيسـير الله تعالى للقائمين على نشره بين الناس، وحينـما كنت افكـر في اجـراءات التصـديـر خطر لي أن اختصر الوقت وضعت الاكلشيهـات في حقيبـة خاصـة وارسلت هذه الحقيبـة ضمن حقائب الشيخ محمد سرور الــذى كان من القـائمـين على ترتيب شئـون الرحلة الملكيـة الى مصـر، ووصلت الحقيبـة الى مكـة بسـلام واصبحت الاكلشيهـات جاهـزة للطبع، وكان المـرحـوم عبـدالله باحمدين قد سافر الى امريكا وتعاقد لشركة المصحف على شراء المطبعة الاولى التى سيطبع عليها القرآن الكريم في مكة المكرمة.

ووصلت المطبعة، وحدث ان السيد ابراهيم النورى رحمه الله احيل الى المعاش بنـاءا على طلبـه فوجـدنـا انه اصلح الناس للقيام على ادارة شركة مصحف مكة المكرمة وهو الذى بذل جهدا مشكورا في تصحيح النسخة الخطية التى كتبها الشيخ طاهر كردى.

وهكـذا سلمت مقـاليـد الشركة الى السيد ابراهيم النورى رحمه الله بعد أن تم تأسيس الشـركـة بصـورة قانـونية، وكانت باكورة اعمالها طبع القرآن الكريم ونشره لاول مره فى مكة المكرمة بعد أن تمت كتابته فيها، وهذه السابقة التاريخية العظيمة

هى التى اختص بها الله الشيخ محمد طاهر الكردى لانه كان الخطاط الذى كتب القرآن الكريم في مكة المكرمة وهيأ الله تعالى لهذه النسخة التى كتبها أن تطبع فى مكة المكرمة وتنشر منها لا في مكة وحدها ولا فى المملكة العربية السعودية فحسب، وانما في سائر بلاد الاسلام، فمصحف مكة المكرمة اصبح يطلب فى جميع البلاد الاسلامية من اندنوسيا وباكستان والشرق الأقصى كله، الى افريقيا كلها.

إن الشيخ طاهر كردى رجل محظوظ فالمصاحف التى كتبت فى مكة المكرمة كثيرة وبعضها محفوظ فى مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكثير منها اجمل خطا من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى ولكن الله تعالى اذا اراد أمرا هيأ له الاسباب.. وقد هيأ الله للمصحف الذى خطه الشيخ طاهر الكردى اسباب الذيوع والانتشار فتأسست له شركة خاصة قام اصحابها على اعداده للنشر واتخذوا الاسباب الكفيلة بهذا النشر حتى تم لهم الامر بعد الجهد والنصب.

ولقد مضى على تأسيس شركة مصحف مكة المكرمة مايقرب من اربعين عاما وهى توالى نشر الكتاب الكريم من مكة المكرمة وتستورد له المطابع الواحدة تلو الاخرى مسايرة تطور الطباعة في العصر الحديث، ولعلي لا اذيع سرا حينما اذكر ان شركة مصحف مكة المكرمة، لم تكتف بالمصحف الذى كتبه الشيخ طاهر الكردى وانما عمدت الى طبع مصاحف اخرى بخط اجمل كثيرا من خط الشيخ طاهر رحمه الله، كما استكتبت خطاطا شهيرا بجمال الخط واتقانه لكتابة مصحف لها، ولكن المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر لايزال يحتل مكانه فى قلوب الناس، ويكفي ان نذكر ان شركة مصحف مكة قد قامت بطبع كمية من المصحف الذى كتبه الشيخ طاهر في حجم كبير جدا وجلدته تجليدا فاخرا وكانت هذه الطبعة ولاتزال تقدم هدية لجميع الملوك والرؤساء وكبار الزوار المسلمين القادمين الى المملكة كما انه يقدم من ضمن الهدايا الممتازة لكبار المسئولين السعوديين في زيارتهم للبلاد الاسلامية.

طاهــر كــردى الخطــاط

ومادمنا بصدد الحديث عن حسن كتابة الشيخ طاهر الكردى وجودة خطه فلابد أن نتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته الكثيرة الجوانب فالرجل كان ممن تلقـوا تعليمهم فى الازهـر الشـريف، ثم التحق بمـدرسـة تحسين الخطوط العربية الملكيـة وتتلمـذ على كبار الخطاطين فيها، حتى اتقن الخط بانواعه المختلفة وحينما عاد الى المملكة كان مدرسا للخط بمدارسها، بل الاستاذ الاول للخط فيها، وله كراريس مطبـوعـة كما يظهـر ذلك من ثبت مؤلفاته التي كانت توزع على التلاميذ من ضمن الكتب المـدرسيـة لينسجوا على منوالها فى تعلمهم لفن الخط، ولقد بلغ من اتقان الشيـخ طاهـر لفنون الخـط انـه كان يكتب بعض قصار السـور مثل سورة الاخـلاص على حبـة من الارز وقـد اهداني بعض هذه الحبات من الارز المكتوب عليهـا بعض قصـار السـور، وقـد فقـدت ضمن مافقد من اوراقي ولكن صديقنا الشيخ محمد نور جمجوم رجل الاعمال المعروف لايزال يحتفظ بحبة من الارز بكتابة طاهـر الكـردى رحمـه الله وقـد اطلعني عليهـا في هذه الايـام ولعل عمرها يزيد عن الاربعين عاما.

وللشيخ طاهر رحمه الله لوحات فنية من كتاباته ولحسن الخط انه صورها في كتابه الكبـير التـاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، والذى سنتحدث عنه بعد واكتفى هنـا بذكـر مانشـر من مؤلفـاته فى فن الخط نقلا عن ثبت مؤلفاته المنشورة في كتابه ادبيات الشاى والقهوة والدخان :ـ

١ ـ تاريخ الخط العربي وآدابه.

٢ ـ الهندسة المدرسية ـ ويقول الشيخ طاهر أنه كان مقررا في مدارس المملكة.

٣ ـ رسالة في الدفاع عن الكتابة العربية في الحروف والحركات .

٤ ـ كراسة الحرمين في تعليم خط الرقعة ـ سبعة أجزاء .

٥ ـ حسن الدعابة فيما ورد في الخط وادوات الكتابة .

٦ ـ مجموعة الحرمين في تعليم خط النسخ ـ جزء واحد .

٧ ـ لوحة فنيه جميلة فيها صور الكعبة المشرفة لاشهر بناياتها .

٨ ـ لوحات فى الخطوط العربية .

٩ ـ نفحة الحرمين في تعليم خطي النسخ والثلث .

واذا تأملنا في اسماء هذه المؤلفات وجدنا أن الرجل عالم خط اذا صح هذا التعبير .

الخطاطون الذين ادركتهم

وعلى ذكر الخط اود أن اذكر أن الناس في الحجاز في النصف الاول من القرن الهجرى الرابع عشر وبعد خروج الاجيال الاولى من المتعلمين فى مدارس مكة المكرمة وجدة والمدينة كانوا يهتمون بالخط واتقانه وذلك قبل ظهور الآلآت الكاتبة العربية، وكان لهذا الخط اساتذته الذين يتقنون انواعه واذكر ان المرحوم الشيخ حمزة عجاج وهو من متخرجى الفلاح كان يحضر الى مدرسة الفلاح بجدة ويعلمنا الخط فى السنة الثانية الابتدائية فى اوائل الاربعينات ولم يكن موظفا بالمدرسة وانما كان يعمل فى احدى الدوائر الحكومية او البيوت التجارية ولعله كان يؤدى هذه الخدمة لمدرسة الفلاح دون مقابل نظرا لصلة الصهارة التى تربطه بآل جمجوم وكلاء مدارس الفلاح فى ذلك الزمان، وماذاك الا لما كان يمتاز به من حسن الخط واتقانه .

كما اذكر ان الاستاذ ابراهيم توفيق كاتب عدل جدة الأسبق يرحمه الله كان من أجمل تلاميذ مدرسة الفلاح خطا وقد احتاجت المدرسة اليه فلم يكمل دراسته وتحول من تلميذ بالمدرسة الى استاذ يعلم التلاميذ الخط، بعدما كان يقتعد مكانه بينهم تلميذا من التلاميذ .

أهل مكه يرسلون اولادهم الى الخطاط

وكـان معـروفـا أن أهـل مكة المكرمة يرسلون اولادهم الى الخطاط لتعلم الخط واتقانه وذلك جنبا الى جنب مع تعليمهم القرآن الكريم ومبادىء العلوم، وكانت مكـاتب الخطـاطـين في باب السلام قبل ادخاله فى توسعة المسجد الحرام فى العهد السعودى حيث كان باب السلام مركزا للكتبة وباعة الكتب وكان بعض الخطاطين يجلسون كذلك فى المسجد الحرام لهذه الغاية.

الشيخ سليمان الغزاوى وتاج الغزاوى

وكان الشيخ سليمان الغزاوى رحمه الله اشهر خطاط فى الحجاز كله وقد ادركته فى الاربعينـات حينـما انتقـل هو وأخـوه الشيـخ تاج الغـزاوى الى جدة خلال الحرب السعـوديـة الهاشمية باسرتيهما، وكان الشيخ سليمان رجلا اشيب رقيق البدن ولكنه كان فى هذه السن يحتفظ باجادته بل وبابداعه فى الخط، وكان باب البنط فى جده وبـاب مكـة قد حليـا بآيـات قرآنية مكتوبة بخط الشيخ سليمان الغزاوي يرحمه الله ولازلت اذكـر الآية الكريمة التى تقـابل القادم الى جدة من البحر والداخل من البـاب الـوحيـد الى المـدينـة وهو باب البنط «ادخلوها بسلام آمنين» وتحتها توقيعه بخـط واضـح، وهى من أجمـل مارأيت من الخطـوط، ولقد اشتغل الشيخ سليمان الغزاوى بتعليم الخط فى مدرسة الفلاح بمكة وحين انتقل الى جدة كما اسلفنا كان كذلـك يعلم تلاميـذ الفـلاح بها، ولقـد كان من نصيبى أن أكـون تلميذا لاخيه الشيـخ تاج غزاوي الـذى كان كذلـك معلما للخط فى مدارس الفلاح بمكة وحينما حضـر الى جدة باشـر تعليم الخـط فيهـا، ويبـدو ان الشيخ سليمان اختص بتعليم الصفوف العليا فى المدرسة واختص الشيخ تاج بالصفوف الاولى فيها. رحمهما الله جميعا.

الشيخ عبدالله متبولي

واذكر من الخطاطين الجيدين في مدينة جدة المرحوم الشيخ عبدالله متبولي إوالد الاستاذ عبدالمجيد متبولي من اوائل طلبة البعثات السعودية من مدينة جدة، وكان الشيخ عبدالله متبولي يعمل كاتبا لدى آل أجبير وكانوا من أكبر تجار مدينة جدة فى اوائل الأربعينات وكان جارا لدكاكين والدي وأعمامي في منطقة باب مكة حيث لايزال بيت المتبولي علما لفن البناء القديم في تلك المنطقة يزورها الاجانب ويصورونه، وكان الشيخ عبدالله متبولي بحكم هذا الجوار يعلمني وأخي الخط وكان شديدا يخافه تلاميذه، وكان التجار بصورة خاصة يحرصون على أن تكون دفاتر حساباتهم ورسائلهم التجارية مكتوبة بخط جميل للغاية فكان الناس يحرصون على اتقان الخط وتجويده.

الدوائر الحكومية

وكانت الدوائر الحكومية تهتم باسناد تحرير رسائلها الى كتاب اشتهروا بجودة الخط وجماله وكان فى كل دائرة قسم يدعى ـ قلم التحرير ـ واذكر ان قائممقامية جدة كان يدير قلم التحرير فيها المرحوم الشيخ على طه رضوان ـ الذى اصبح فيها بعد مساعدا لقائم مقام جدة ـ والشيخ محمود ابار الذى انتقل من قائم مقامية جدة الى ديوان النيابة العامة بمكة المكرمة، كما كان في قلم تحرير مالية جدة المرحوم الشيخ حسن ابوالعز وهو كذلك من اصحاب الخطوط الجميلة وهكذا فان الدوائر الحكومية كانت تعتبر الرّسائل التى تصدر عنها هى الوجه المعبر الذى يجب ان يتصف بالجودة والاتقان.

أدوات الكتابة

ولم تكن اقلام الحبر السائل والناشف قد وصلت الى البلاد فكان الناس

يعتمدون على اقلام البوص ويَبرُونَ هذه الاقلام بحيث تصبح للقلم سِنَّةٌ صغيرة مفشوخة وكلما كان القلم حسن البراية والحبر جيدا كلما ساعد هذا على اتقان الكتابة وحسنها، اما الاحبار فكانت ترد فى شكل مسحوق اسود ويُحلُّ هذا المسحوق بالماء ويوضع فيه خرقة من القماش الخفيف تسمى الزِّيَّة، حتى اذا غمس القلم في الدواة لم يخرج به من الحبر مايلوث الورق أو يد الكاتب.

الحبر نيشان الكاتب

وعلى أى حال فقد كان وجود الحبر فى ثياب الكاتب أو آثاره في يده لاتعتبر عيبا وكان هناك مثل متداول يقول ـ الحبر نيشان الكاتب.

التراب هو النشاف

ولما كان الحبر سائلا فانهم كانوا يستعملون فى تجفيفه التراب ويضعونه فى علبة صغيرة فيها خروق كثيرة بحيث يخرج منها هذا التراب الذى يجفف الحبر ولايفسد جمال الخط.

وكانوا يتفننون في اقتناء اصناف ادوات الكتابه وخاصه الدواة والاقلام، وبعض هذه الدوايات ـ مفرد دواة ـ كان من البلور الخالص الجميل. وبظهور الألات الكاتبة واقلام الحبر الناشفة والسائلة انتهى عهد اتقان الخطوط وتحسينها بل وانتهى عهد اتقان الأملاء لان مراقبة الخط كانت تتبع مراقبة الكتابة نفسها وسلامتها من الاخطاء الاملائية.

تاريخ الخط العربي وآدابه

وسنتحدث هنا قليلا عن كتابه تاريخ الخط العربي وآدابه وهو أهم مؤلفات الشيخ طاهر الكردى في فن الخط وقد طبع الطبعة الاولى في شهر محرم من سنة سبع وخمسين وثلاثمائة و .. ف، ثم اعادت الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون طبعه مرة أخرى فى هذا العام ١٤٠٢هـ وحسننا فعلت فان الكتاب يكاد ان يكون

موسوعة عن الخط العربي وكلما يتعلق به .

تحدث فيه المؤلف عن نشأة الخط وتطوره مدعما ذلك بالصور والمراجع التى استقى منها المعلومات التى توصل اليها ، ومن أطرف مااورده المؤلف فى هذا الشأن أن التعبير بالكتابة بدأ بطريقة التصوير قبل الكتابة بالحروف المعروفة وكانت الكتابة الصورية تقوم على الرمز ويقول المؤلف فى شرح ذلك ، ومثال الكتابة الصورية انك اذا اردت تدوين واقعة حرب مثلا فترسم ارضا ذات اغراس والى جانبها صور النقود وما اشبه ذلك وهذا ماجرى عليه اكثر الامم التى كانت قديما في مصر واشور وغيرها ، ولما اتسعت عمارتهم اصطلحوا على بعض الرسوم للدلالة على معان كلية ليس لها صورة فى الخارج .

وقد أثبت المؤلف صور هذه الرسومات التى اصطلح عليها (١) وقد تحدث المؤلف عن الخطوط فى اللغات الهندية وماتفرع عنها من الخط الآرامي والسنسكريتي والسرياني كما تحدث عن الخط الهير وغلوفي موضحا كلما يكتبه في هذا المجال بصور لهذه الخطوط وترجمة للحروف والكلمات الى اللغة العربية .

كما تحدث عن الخط الاشورى والكلداني وأول المكتشفين لهذه الخطوط وأثبت صورا للصخور التي تحمل هذه الخطوط من المسند الارامي وانواع الخطوط المختلفة .

كما وضع سلسلة تبين تطور الخط العربى من بدء ظهوره حتى وصوله الينا بشكله الحاضر وهو يبدأ كالاتى :ـ

الخط المصرى ـ الفينيقي ـ الارامي ـ المسند ـ الصفوى ـ الثمودي ـ اللحياني ـ الحميري ـ الكندي ـ النبطي ـ الحيرى ـ الانباري ـ الحجازى ـ (٢) .

ثم يتحدث المؤلف عن اللغات التى تكتب في الوقت الحاضر بالخط العربي

---

١ ـ انظر صفحة ٣٠ تاريخ الخط العربي وآدابه .

٢ ـ انظر صفحة ٤٨ تاريخ الخط العربي وآدابه .

وقد عدداثنتي عشرة لغة تندرج كلها تحت اسم اللغات التركية وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الهندية واربع لغات تندرج تحت اسم اللغات الفارسية، وسبع لغات تندرج تحت اسم اللغات الافريقية.

ولاشك أن بعض هذه اللغات التى أشار اليها المؤلف وخاصة في تركيا الحديثة قد غيروا كتابتهم الى الحروف اللاتينية منذ عهد مصطفى كمال بعد انتهاء دولة الخلافة العثمانية في اعقاب الحرب العالمية الأولى واعلان الجمهورية التركية الأولى ولكن يبقى بعد ذلك ان عدد من يكتبون بالحروف العربية في العالم كبيرا.

وقد قدر المؤلف في كتابه المطبوع قبل مايقرب من نصف قرن عدد من يكتبون من غير العرب بالحروف العربية باكثر من مائتين وخمسين مليونا من البشر فليت شعرى ماهو مقدار من يكتبون بها في الوقت الحاضر من العرب وغيرهم ،ان التعداد يصل فيما أظن الى خمسمائة مليون من البشر.

ثم تحدث المؤلف عن كتابة الرسائل فى عهد النبى صلوات الله وسلامه عليه واورد اسماء كتابه ونقش خاتمه الذى كانت تختم به رسائله كما تحدث بمثل ذلك عن الخلفاء الاربعة وغيرهم من خلفاء المسلمين، وتحدث كذلك عن المشهورين من الخطاطين في أيام الامويين والعباسيين ثم تحدث عن بدء ظهور التشكيل في الخط وتطوره، كما تحدث عن المواد التى كانت تستعمل في الكتابه من الجلد والقراطيس وانواع الاقلام واسمائها، وانواع الخطوط المعروفة من النسخ والرقعة والثلث الكوفي والديواني وما الى ذلك، واثبت نماذج جميلة لكل هذه الخطوط بعضها بقلم المؤلف والكثير منها بقلم الخطاطين المشهورين الذين ينسب اليهم هذا الفن.

ثم تحدث المؤلف عمن اشتهر بالكتابة على الحبوب والبيض ولقد ذكرت ان الشيخ طاهر الكردى كان ممن يتقن الكتابة على الحبوب فى صدر هذا البحث، ثم تحدث عن الآثار والكتابات التى عليها والنقود والعملات التى ظهرت في عهود الخلفاء الراشدين وماتلاهم واورد صورا فوتوغرافيه للنقود في عهد الخلفاء الراشدين وعهد صلاح الدين وعهد هارون الرشيد وفي عهد الدولة الفاطمية، كما

أورد جداول باسماء الخطاطين المشهورين مرتبة على الحروف الهجائية.

ومن امتع فصول الكتاب الفصل الخاص بتراجم السلاطين الخطاطين وقد ذكر من بينهم الخليفة المستظهر بالله والخليفة المسترشد بالله وهما من خلفاء الدولة العباسية ثم سلاطين آل عثمان ثم سلاطين المسلمين الآخرين في شتى بقاع العالم الاسلامي، وأردف ذلك بتراجم الوزراء والباشوات من الخطاطين ثم بتراجم العلماء الخطاطين.

ثم تحدث عن النساء اللواتي اشتهرن بجودة الخط واتقانه. وذكر فيما ذكره أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تعلمت الكتابة من الشفاء بنت عبدالله العدوية التى تعلمت الكتابة من معاوية ويزيد ابنا ابي سفيان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

كما اورد المؤلف تراجم للخطاطين القدماء والمحدثين وسجلا باسمائهم والكتاب مزين بكثير من لوحات الخطوط الجميلة للخطاطين المختلفين وهويقع في أكثر من خمسمائة وخمسين صفحة وتزيد تعداد اللوحات والصور المثبته فيه على مائة وخمسين لوحة وصورة.

انه ليس كتابا عن الخط العربي وآدابه ولكنه يكاد ان يكون موسوعة تختص بالخط والكتابة ومايتفرع عنهما وهو عمل عظيم جاء نتيجة لجهود متواصلة وابحاث تتصف بالدأب والمثابرة وهو مرجع من أهم المراجع فى هذا الفن العظيم.

طاهر كردى المؤلف

نعود بعد الاستطراد الطويل عن الخط الذى جرنا اليه الشيخ طاهر الكردى الخطاط لنتحدث عن جانب آخر من جوانب شخصيته المتعددة الجوانب فلقد كان الرجل مؤلفا مكثرا وقد اثبت في كتابه ادبيات الشاى والقهوة اسماء اثنين وعشرين كتابا مطبوعا عدا الكتب المخطوطة واهمها التفسير المكي وهو في اربع مجلدات وغيرها مما لم يذكر شيئا عنه، وقد اوردنا اسماء مؤلفاته الخاصة بالخط ونثبت هنا

أسماء المؤلفات الأخرى التى وردت فى هذا الثبت وهى المؤلفات المطبوعة :

١ ـ تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه .
٢ ـ ارشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة .
٣ ـ مقام ابراهيم عليه السلام .
٤ ـ منظومة فى صفة أشهر بنايات الكعبة المشرفة .
٥ ـ تحفة العباد في حقوق الزوجين والوالد والأولاد .
٦ ـ دعاء عرفه .
٧ ـ تعليق مختصر على تاريخ مكه للقطبي .
٨ ـ صورة حجر مقام ابراهيم عليه السلام .
٩ ـ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم .
١٠ ـ النسب الطاهر الشريف .
١١ ـ الأدعية المختارة .
١٢ ـ تبرك الصحابة بآثار رسول الله ﴿ﷺ﴾ .
١٣ ـ أدبيات الشاهي والقهوة والدخان .

ولقد ذكر الشيخ طاهر أن مؤلفاته تبلغ اثنين وأربعين مؤلفا طبع نصفها تقريبا ونستطيع أن نقسم هذه المؤلفات حسب أسمائها إلى الأقسام الآتيه :ـ

أ ـ كتب تاريخية وهى الصفة الغالبة على المؤلف .

ب ـ كتب دينية .

جـ ـ كتب فنيه وهى التى تتعلق بالخط وفنونه .

د ـ كتب ادبية طريفة .

ولقد تحدثنا عن الخط وما يتعلق به بما يكفي للتعريف بشخصية الشيخ طاهر رحمه الله فى هذه الناحية .

طاهر كردى المـؤرخ

ونتحـــدث الآن عن طاهـر كردى المؤرخ فان المستعـرض لاسـماء كتبـه يجد أن المؤلفات التاريخية هى الصفة الغالبة على الرجل، ولعل تعمقه فى هذه الناحية هو الـذى ساعـده على تأليف الكتب الـدينيـة وطالما أن أهم كتبه الدينية وهو التفسير المكى لم يظهـر الى النـور بعـد فان الحـديث عن هذه الناحية من شخصية المؤلف لايعتبر كاملا وحسبنا الاشارة اليها.

لقـد تفضـل الصـديق أحمـد مجاهد فبعث الي الأربعة اجزاء التى ظهرت على نفقته من أهم كتب الشيخ طاهر التاريخية وهو كتابه المسمى.

التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم

والكتـاب موسـوعـة ضخمة عن مكة المكرمة وهو فى اربعة اجزاء كل جزء يزيد عن الثلاثمائة صفحة من القطع الكبير الذى يساوى ضعفى حجم الكتب الكبيرة المعتادة، وهو يحتوى على صور كثيرة كما تتسم المعلومات التى اوردها المؤلف عن كل المواضيع التى عالجها بالشمول والاحاطة مستعينا فى ذلك بما ورد فى مؤلفات المؤرخين السابقين الذين ذكر اسماءهم وتراجمهم وتحدث عنهم ومدعما مايصل اليه من اراء بالكتب الكثيرة التى رجع اليها والتى ذكر اسماءها ومواضع الاستشهاد منها.

وأهم من هذا وذاك أن المؤلف أتيـح له مالم يتـح لغيره من المؤلفين فلقد عاصر الاصـلاح الـذى تم للكعبـة المعظمة فى عام ١٣٧٧هـ كما عاصر التوسعة العظيمة للمسجد الحرام فى العهد السعودى والتى بدأت فى عام ١٣٧٥هـ ولم يكن المؤلف معـاصـرا لهذه الأحـداث التاريخية فحسب فما أكثر من عاصرها وانما كان عضوا فى اللجـان الـرسميـة التى تألفت لهذه الاصـلاحـات وذلك لسابق اهتمامه بالمباحث التـاريخيـة المتعلقـة بالمسجـد الحـرام فلقد ألَّف قبل هذه الأحداث كتابا عن تاريخ

مقام ابراهيم عليه السلام وحصل على اذن بفتح مقام ابراهيم ليطلع بنفسه على المقام من الداخل والف رسالة وافية فى صفة المقام وذرعه واقوال المؤرخين عنه وموضعه وكلما يتعلق به.

هذه الاهتمامات للمؤلف كما ذكرنا هيأت الفرصه لاختياره عضوا فى الهيئات الرسمية الخاصة اولا باصلاح الخراب الذى حدث في الكعبة المشرفة كما ذكرنا ثم فى الهيئة التى الفت للتوسعة العظيمة للمسجد الحرام فيما بعد، وقد أتاح له هذا الاختيار ان يطلع على الكثير من المعلوماتّ الدقيقة التى لم تتح لغيره من المؤرخين، فهويقدم لنا وصفا دقيقا للآثار الدينية والمعمارية فى المسجد الحرام مزودة بالمقاسات الدقيقة والصور الشمسية وذلك بعد استعراض المراحل التاريخية التى مر بها الأثر المذكور اذا صح هذا التعبير، بل أننا نجده بالنسبة لمقام الخليل ابراهيم على سبيل المثال يقدم لنا وصفا يوميا دقيقا للكيفية التى سار عليها العمل فى نقل المقام من موضعه السابق الى الموضع الحالي بعد أن وضع فى الصندوق الزجاجي الحالي ويتحدث عن الموضوع بتفصيل يشمل جميع التطورات التى صاحبت الفكرة من بدء تنفيذها الى حين اتمامها.

إن كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم هوموسوعة تاريخية وهامة لمكة المكرمة وللمسجد الحرام بما حواه من الكعبة المعظمة ومقام ابراهيم وكلما يتعلق بالمسجد الحرام وأماكن المناسك وهو يضم كلما أورده المؤرخون السابقون ثم يضيف اليه الجديد فى عصر المؤلف وهو بهذه المثابة مرجع شامل عظيم القيمة لمن أراد التحقيق والبحث.

*****

النقص الهام فى الكتـاب

ولكن الكتـاب يخلو من الحـوادث السيـاسيـة خلوا تامـا ، يخلو من ذكـر الخلفاء الـذين حكمـوا البلد الأمـين والعهـود السياسية المختلفة التى مرت عليه والحروب التى نشبت فيـه وهـو بهذا يفقـد الصفـة التـاريخية التى يقوم عليها اسم الكتاب أو على الاقـل يفقـد جزءا هامـا من هذه الصفـة لخلوه من الحـوادث السيـاسية التى تتعلق بمكة المكرمة موضوع الكتاب .

عذر ساذج

ولقد ادرك المؤلف خلو كتابه من هذه الحوادث فاعتذر عن ذلك اعتذارا ساذجا اذا صح هذا التعبير فلقد جاء فى الجزء الاول من كتابه فى خطبة الكتاب بالحرف الواحد :ـ

(والسبب الـذى من أجله تركت ذكـر حوادث الحـروب بمكـة هو أن ذلـك يعرضنى الى ذكر مساوىء من سبقنى بالايمان من اموات المسلمين وهم قد قدموا الى ماعملوا ، وقد قال ﴿ﷺ﴾ اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم ، وايضا لابـد اذا ذكـرت ماوقـع بين فلان وفـلان اقـع فى غيبتهم والغيبـة حرام للاحيـاء والامـوات ، قال الله تعـالى ولايغتب بعضكم بعضـا ، ثم إن ذكـر الحـروب من اختصـاص المؤرخـين السياسيين وأنا لااعرف فى السياسة شيئا منذ الصغر فالحمد الذى عافانى منها لاشتغل بما هو انفع واصلح لمثلي ، ففي الصحيحين ، كل ميسر لما خلق له وللتـين قوم وللجميـز اقـوام فالسياسة مطلوبة بل واجبة لكن على طبقة خاصة هى طبقة الملوك والوزراء والامراء الذين بيدهم الحل والعقد انتهى ماكتبه المؤلف بنصه (١) .

---

١) راجع صفحة ١٢و١٣ الجزء الاول من التاريخ القويم .

وردنا على ذلك هو أن ذكر الحوادث والحروب التى وقعت بمكة المكرمة لاتقتضى من المؤلف أن ينال القائمين بها بالغيبة والتعريض، والمؤرخ امام الحوادث التى ينقلها ويسجلها ازاء طريقين ان يذكر الحوادث منسوبة إلى مصادرها ويكتفى بذلك، أو يذكر الحوادث ويعلق عليها أو ينقل تعليقات من سبقه من المؤرخين عليها فإذا كان في هذه الحوادث مايسبب الحرج للمؤلف كأن يكون اختلاف الرأى فيها وفى اسبابها كبيرا، ولم يفتح الله عليه بشيء يجعله يرجح الرأى الصائب أو الاكثر صوابا ففى وسعه الاكتفاء بذكر الحوادث والامساك عن التعليق عليها، تاركا للقارىء اتخاذ الحكم الذى تهديه اليه قراءته للحوادث واسبابها، وإن كان المؤلف ممن اوتي الشجاعة لابداء الراي الصائب فله ان يسجله ويتحمل تبعاته.

أما تجنب ذكر الحوادث تفاديا لهذا الحرج أو للسبب الذى ذكره مؤلف كتاب التاريخ القويم لمكه وبيت الله الكريم فهو كما ذكرت من الاسباب التى تخرج الكتاب عن الصفة التى اراد المؤلف أن تكون لكتابه.

إن الحوادث السياسية والحروب هي مادة التاريخ إذا صح هذا التعبير، فالحروب هي التي غيرت وتغير وجه العالم وكلما كانت الحروب كبيرة وواسعة كلما كان التغيير اشمل واعم.

ترى لو لم تخرج الجيوش الاسلامية من الجزيرة العربية فى صدر الاسلام فتديل من عرش الاكاسرة فى فارس والعراق، وتديل دولة الروم فى الشام وفى مصر ماذا كان حال هذه البلاد، وهل اصبحت العراق والشام ومصر والاردن وفلسطين ولبنان بلادا عربية اسلامية؟.

ولانريد الاكثار من سرد الامثلة ولكني اكتفى بان اقول ان الحرب العالمية الاولى جلبت الاستعمار للبلاد العربية كلها والحرب العالمية الثانية اخرجت الاستعمار من البلاد العربية كلها، ومن كثير من البلدان فى آسيا وافريقيا، فالحروب ليست شرا مطلقا وانما قد ينتج منها الخير الكثير.

والحروب اذا كانت دفاعا عن عقيدة أو وطن فهي حروب مقدسة مفروضة على الناس،والقتل اذا كان دفاعا عن عرض أو مال فهو قتال شريف كريم ولاغبار عليه، نستطيع أن نقول أن كتاب الشيخ طاهر الكردى يمكن ان يكون اسمه الصحيح بعد ان خلا من اهم عناصر التاريخ وهى الحوادث السياسية والحروب يمكن ان يكون اسمه، التاريخ القويم لآثار مكة والبيت الكريم، ولو أن المؤلف سماه كذلك لما كان هناك مجال للاعتراض عليه بحال من الاحوال.

وبعد فان الكتاب كما ذكرت يحتل مكانة قيمة بين الكتب التى تؤرخ للبلد الكريم وللبيت الحرام وهو مرجع هام لهذه الآثار المقدسة وتطوراتها التاريخية وهو يمتاز بالاحاطة والشمول والدقة المبينة على المشاهدة والبحث وهو جهد مشكور للمؤلف رحمه الله تعالى يسلكه فى عداد المؤرخين لآثار مكة المكرمة والبيت الحرام فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء.

مؤلفاته الأخرى

إن الشيخ طاهر كردى رجل متعدد الجوانب وقد تحدثنا عن اهم جوانبه فى هذه الصفحات ولقد اطلعت على كتاب مطبوع له اسمه ادبيات الشاى والقهوة والدخان وعجبت كيف يتفرغ الرجل للتأليف فى هذه الامور فالكتاب يذكر تاريخ الشاي والقهوة وماقيل فيهما من الشعر وكيف يصنع الشاي وادواته وماالى ذلك، ولاشك ان جمع هذه الطرائف فيه كثير من الجهد ولكن الشيخ طاهر الكردى هو الشيخ طاهر الكردى الذى استطاع ان يعبر عن جانب آخر من جوانب شخصيته الاجتماعية التى ذكرتها فى صدر هذه الصفحات.

وهناك ناحية اخرى فى الرجل هى الناحية الشعرية فكتابة التاريخ القويم يتضمن أرجوزة نظمها فى تاريخ بناء الكعبة المعظمة وأراجيز اخرى فى مواضيع تتعلق بكتابه هذا، واذا كان لابد من التعليق عليها فأقول ان هذه الأراجيز تشبه أراجيز المتون التى كنا نحفظها كأرجوزة ابن مالك فى النحو والخريدة فى التوحيد،

والتى كانت تفرض علينا فى المدارس وهى كلام منظوم لايمت الى الشعر بادنى صلة والشيخ طاهر رحمه الله إنما يعبر عن ناحية أخرى من نواحى شخصيته المتعددة الجوانب كما سبق أن ذكرنا، فلنأخذه كما أراد الله له أن يكون، هناك الكتب الدينية التى ألّفها الشيخ طاهر الكردى وأهمها كما ذكرت هو كتاب التفسير المكي فى أربعة أجزاء وهذا الكتاب لايزال مخطوطا ولم يتح لى الاطلاع عليه ولهذا لا استطيع الحديث عنه، وحبذا لو عنيت بالبحث عنه وعن مؤلفات الشيخ طاهر الاخرى احدى الجهات المعنية فى بلادنا بنشر الكتب كالنوادي الادبية وغيرها وعهدت الى المختصين بالموضوعات التى تعالجها هذه المؤلفات بدراستها ونشر مايستحق النشر منها افادة للناس واحياءا لذكرى الرجل الذى قضى حياته منكبا على التأليف.

بقية التاريخ القويم

لقد ذكرت انني اطلعت على اربعة اجزاء من كتابه القيم الجامع، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم والذى تحدثت عنه، بما فيه الكفاية فى الصفحات السابقة والكتاب كما يظهر لم يتم ولقد ذكر المؤلف أن الجزء الخامس يتحدث عن الحج وهذا الجزء لم يطبع بعد ولست ادرى إن كان لدى صديقنا الشيخ احمد مجاهد الذى طبع الاجزاء الاربعة على نفقته جزاه الله عن العلم واهله خير الجزاء، لست ادرى إن كان هذا الجزء الخامس وربما غيره مما يكمل به الكتاب موجود لدى صديقنا الشيخ احمد مجاهد وهو يعتزم اصدار هذه البقية اكمالا للمكرمة العظيمة التى قام بها أم إن هذه الكتب لاتزال ضمن مخطوطات الشيخ طاهر رحمه الله، وعلى أى حال فان نشر مابقي من كتاب التاريخ القويم فيه من الفائدة مايكمل العمل الطيب الذى بدأ به الرجل والذى يعتبر مع كتابته للمصحف الكريم من أجل الاعمال التى اداها والتى تسلكه فى عداد الاعلام من الرجال.

وقد توفى الشيخ طاهر الكردي فى ليلة الاثنين بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني من عام

١٤٠٠هـ بمستشفى بخش بجـدة، ونقـل فى اليـوم التالى الى مكة المكرمة، رحمه الله وأحسن جزاءه لقاء مابذل من الجهد فى كتابة كتابه الكريم والعناية بتاريخ البلد الامين وبيت الله الحرام انه لايضيع أجر من أحسن عمـلا .



مصادر الكتاب

مصادر الكتاب

موسوعة تاريخ مدينة جدة
للاستاذ عبدالقدوس الانصارى
مجلة الاحكام الشرعية
للشيخ احمد القاري، بتحقيق الدكتور عبدالوهاب ابوسليمان والدكتور محمد ابراهيم أحمد علي.
اعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة
للمؤلف.
نفثات من اقلام الشباب الحجازى.
للاساتذة هاشم الزواوى. وعبدالسلام الساسي، وعلي حسين فدعق.
فى ظلال الصراحة.
للاستاذ عبدالسلام الساسي
نظرات فى الادب المقارن
للاستاذ عبدالسلام الساسي
الشعراء الثلاثة.
للاستاذ عبدالسلام الساسي
شعراء الحجاز فى العصر الحديث
للاستاذ عبدالسلام الساسي
الموسوعة الادبية (ثلاثة اجزاء).
جمع عبدالسلام الساسي.

نفحات الاسلام من البلد الحرام
للسيد علوى عباسى المالكي .
فتح القريب المجيب على تهذيب
الترغيب والترهيب
للسيد علوى عباس المالكي .
ابانة الاحكام .
للسيد علوى المالكي والسيد حسن سليمان النورى
ملامح الحياة الاجتماعية فى الحجاز .
فى القرن الرابع عشر للهجرة
للمؤلف .
رسائل الى ابنتى شيرين .
لحمزة شحاته .
رفات عقل
للاستاذ حمزة شحاته، اعداد الاستاذ عبدالحميد مشخص .
المجموعة الشعرية المخطوطة .
للاستاذ حمزة شحاته .
تاريخ عمارة المسجد الحرام .
للشيخ حسن عبدالله باسلامه .
تاريخ الكعبة المعظمة .
للشيخ حسين عبدالله باسلامه .
المسجد الحرام (ثلاثة مجلدات) .
اصدرتها وزارة المالية والاقتصاد الوطني تحتوى على التقرير الشامل لمشروع
التوسعة السعودية للمسجد الحرام
الباب الجديد للكعبة المشرفة .
الكتيب المصور الذى اصدرته وزارة الحج والاوقاف للباب الذهبي الجديد

الذى وضع للكعبة المشرفة .
مجلة المنهل .
اعداد متفرقة من المجلة الشهرية التى يصدرها الاستاذ عبدالقدوس الانصارى .
اظهار الحق (مجلدين) للشيخ رحمه الله بن خليل العثماني الكيلانى .
أكبر مجاهد فى التاريخ .
للشيخ محمد سليم بن محمد سعيد .
تطور الصحافة فى المملكة العربية السعودية .
للاستاذ عثمان حافظ .
آثار المدينة المنورة .
لعبدالقدوس الانصارى
وفاء الوفاء
للسمهودى
المماليك للدكتور السيد الباز العريفي
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين .
للسيوطى
قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام
للدكتور أحمد مختار العبادى .
التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم
محمد طاهر الكردى
ادبيات الشاى والقهوى والدخان .
محمد طاهر الكردى
تاريخ الخط العربي وآدابه
محمد طاهر الكردى

كتب صدرت للمؤلف

البعـــث

روايـة طويلة صدرت الطبعـة الأولى منهـا فى عام ١٣٦٤ هـ وأعيـد طبعهـا مع قصص أخرى فى سنة ١٤٠٣ هـ.

حبات من عنقود

مجموعة من الاحاديث القصيرة صدرت عام ١٣٨٧ هـ.

لعنة هذا الزمن.

مجموعة مقالات تتعلق بالأحداث العربية والاسلامية صدرت سنة ١٣٨٧ هـ.

أعلام الحجاز فى القرن الرابع عشر للهجرة، تراجـم لثلاثين من أعلام الرجال فى الحجاز صدر عام ١٤٠١ هـ.

ملامـح الحيـاة الاجتـماعيـة فى الحجـاز فى القـرن الـرابع عشر الهجرى من مختلف جوانبها صدر فى سنة ١٤٠١ هـ.

تصوير للحياة الاجتماعية خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى.

أبوبكر الصديق خليفة رسول الله.

الكتاب الأول فى سلسلة أعلام الصحابة صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ.

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين.

الكتاب الثاني فى سلسلة أعلام الصحابة صدر فى سنة ١٤٠٣ هـ.

فهـــرس الموضوعات





تمت الطباعة بمطابع
دار العلم للطباعة والنشر
جدة - خلف شارع الصحافة
مجمع مؤسسة المدينة للصحافة
هاتف ٦٦١١٢١٠ - ص ب ٨٠٧٥ برقيا المنورة . تلكس ٤٠٤٤٤١ - ٤٣٥٠

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية

١٣٠١ - ١٤٠٠ هـ

١٨٨٣ - ١٩٨٠ م



الجزء الثالث

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين والنبيين ، الهادي إلى صراط مستقيم وبعد .. فهذا هو الجزء الثالث من أعلام الحجاز ، تحرّيت فيه إلى جانب الحديث عن بعض أعلام هذا العصر الذي نعيش فيه ، الحديث عن بعض أعلام العصور الماضية ، دراسةً لآثار أصحابها ، ولقد كانت هذه الآثار حفيلة بالكثير الذي لا نعرف عنه إلا القليل ، أكثرها مخطوط استخرجته من المخطوطات في مكتبات مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأوضحت عنه ما يجب إيضاحه .. فالقارئ لترجمة السيد جعفر البيتي شاعر الحجاز في القرن الثاني عشر الهجري يخرج من هذه الترجمة بتصوُّر وافٍ للحياة في المدينة المنورة ، وفي مدينة ينبع التي عاش فيها البيتي بضع سنين ، ولقد كان البيتي سجلًّا صادقاً لأحداث العصر الذي عاش فيه ، وقد وجدنا في شعره ما لم نجده في كتب مؤرخي هذا العصر من أحداث سياسية واجتماعية ، أبدع البيتي في تسجيل وقائعها في قصائد من الشعر هي أشبه بالملاحم ، ورأيت إكمالا للصورة التي سجلها البيتي لأحداث عصره في المدينة المنورة وينبع أن أسجل أحداث هذا العصر في مكة المكرمة وجدة ليخرج القارئ بتصوُّرٍ كامل عن الحياة السياسية في القرن الثاني عشر الذي ولد فيه البيتي وفيه مات .

وكما حفلت ترجمة البيتي بأحداث القرن الثاني عشر فإن ترجمة أحمد محمد الحضراوي وهو مؤرخ مكثر ولد في منتصف القرن الثالث عشر وتوفي في الثلث الأول من القرن الرابع عشر ، هذه الترجمة

استعرضت بعض مؤلفات الحضراوي وهي كثيرة ، ولكني أخذت منها ما يُمثِّل الحياة السياسية والاجتماعية في الفترة التي عاشها الحضراوي في مكة المكرمة فنقلت ما سجَّلَه عن الولاة العثمانيين في الحجاز خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وما كان لهم من آثار في حياة مكة السياسية والاجتماعية ، وأضفت إلى ذلك تلخيص كتابين للحضراوي أحدهما : عن مدينة جدة ، والثاني : عن مدينة الطائف ، وكلا الكتابين يتحدث عن نشأة هاتين المدينتين وما وقع فيهما من أحداث وخاصة في منتصف القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وبعض هذا الذي ذكره الحضراوي في كتابيه جديد على المثقفين فضلا عن جمهرة القراء ، ذلك أن هذه الكتب المخطوطة ودراستها هي من عمل المتخصصين في هذه الدراسات .

هذا ما رأيت أن أذكره عن المخطوطات ، ولا يفوتني أن أذكر ما استخلصته من كتاب الأستاذ أحمد السباعي عن تاريخ مكة ، من الأوليات التي حدثت في مكة المكرمة ، والأسماء القديمة لحارات مكة ، ومعالمها والحوادث الطريفة والغريبة التي وقعت فيها ، مما آمل أن يجد فيه القارئ بعض المتعة والفائدة ، أما الأحداث السياسية في كتاب السباعي فلم أذكرها لأن الكتاب مطبوع ومتداول ، وأود للقارئ أن يقرأه ليطَّلع على تاريخ مكة وأحداثها بقلم السباعي لا بقلمي .

ولقد كان من رأي بعض الأصدقاء أن أُفرغ جزءاً خاصًّا من أعلام الحجاز للحديث عن القرن الماضي أو بعض القرون الماضية ولكني وأقولها مخلصاً : إنني في تنقيبي عن تاريخ الحجاز وأعلامه كالباحث في الحفريات ، إذا ظفر بشيء من آثار القرون الماضية أظهرها للناس ، وتاريخ

الحجاز في القرون المتأخرة مفقود أو في حكم المفقود ، فإذا عثرنا على بعض هذا المفقود فمن الأولى أن نخرجه للناس ، وبعض العلم خير من الجهل ، ثم إنني بإظهار ما أتوصل إليه وطبعه في كتاب أكون قد عملت على حفظه وتسجيله ، ليكون نواة لمن يأتي بعدي يضم إليه ما يتوصل إليه ، أما بقاؤه في خزانتي رجاء استكماله فقد يكون في ذلك ما يعرضه للفقد والنسيان ، لهذا فقد أضفت إلى اسم هذا الجزء من أعلام الحجاز ما يدل على محتوياته فسميته : « أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري وبعض القرون الماضية » وأود أن أذكر أن هذه التسمية ليست حرفية ، وإنما هي من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، فأنا لم أتحدث عن كل أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر وإنما تحدثت عن بعضهم ، ولعلي تحدثت عن القليلين الذين عرفتهم ، أو تيسر لي الاطلاع على أخبارهم ، كما أني لم أتحدث إلا عن البيتي من أعلام القرن الثاني عشر ، وبعض الرجال المخضرمين الذين عاصروا النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، وتوفوا في القرن الرابع عشر مثل : الحضراوي ، والشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف بمكة المكرمة ، فالتسمية ليست حرفية كما ذكرت ، وأرجو أن يهبني الله تعالى من القوة ما يمكنني من مواصلة الحديث عن أعلام الحجاز في هذا القرن ، وفي القرون الماضية ، وأن يُسَدِّدَ خُطَاي وينير طريقي في استخراج هذا التاريخ كله أو بعضه ، وإظهاره للناس .

وقبل أن أختم حديثي في هذه المقدمة أودُّ أن أكرر ما ذكرته في الجزء الأول من أعلام الحجاز ، أن هؤلاء الأعلام الذين تحدثت وأتحدث

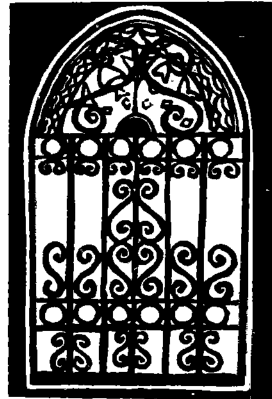
عنهم هم بشر من البشر ، لم يسلموا من الشوائب أو النقص ، وإنني تعمدت أن أذكر الحسنات ، وأغضي عن السيأت ، عملا بالحديث الشريف : « اذكروا محاسن موتاكم » ، والكمال صفة من صفات الله تعالى وليست من صفات البشر إلا لمن اصطفاه الله تعالى من رسله وأنبيائه ، والله أسأل أن يجعل أعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم مبرأة من الغرض والمرض والحمد لله رب العالمين ..

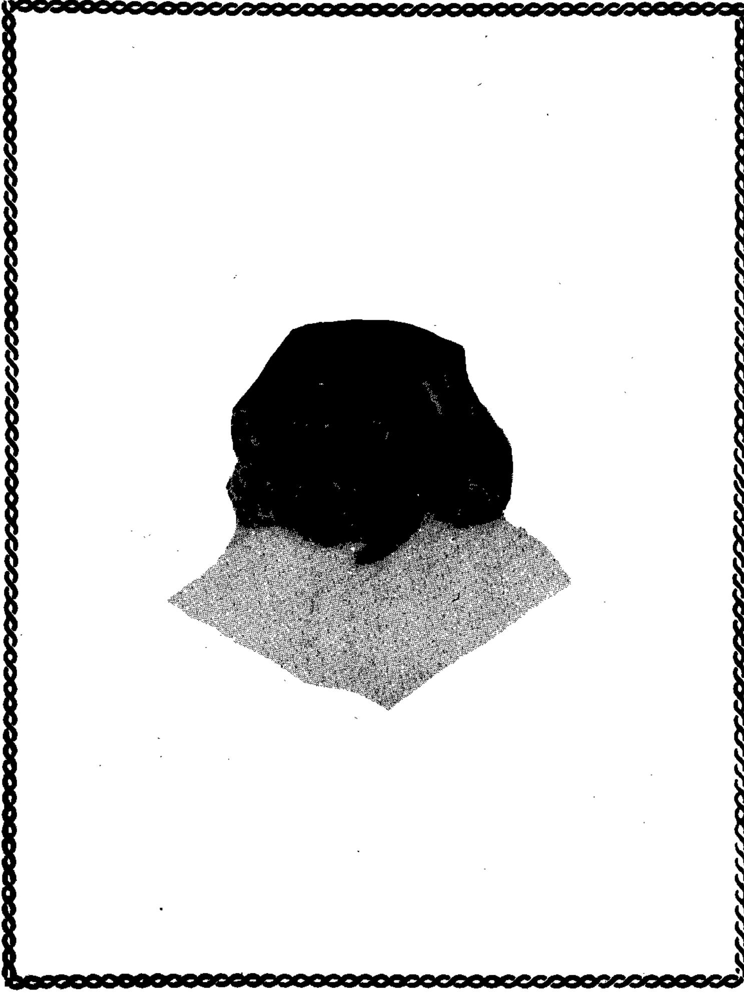
٢٩ من ذي القعدة ١٤٠٩ هـ — **محمد علي مغربي**

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية





الأستاذ أحمد السباعي

أحمد السباعي

وصفه :

طويل القامة ، أسمر اللون ، متوسط البنية ، عظيم الأنف والشفتين ، في وجهه آثار جدري أصابه صغيراً ، له لحية صغيرة خفيفة ، يرتدي العباءة العربية والعقال ، وكان في شبابه يرتدي الكوفية الحجازية والشال يلفه على الرأس .

تاريخ مولده ووفاته :

ولد في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢٣ هـ بمكة المكرمة ، وتوفي بها في ١٦ ذي الحجة سنة ١٤٠٤ هـ ودفن بمقبرة المعلاة عن عمر بلغ الإحدى وثمانين عاماً .

دراسته ووظائفه :

تلقى السباعي تعليمه في مكة المكرمة ، فدخل الكتّاب لبعض الوقت ثم انتقل إلى المدرسة ، وتخرج منها ليعمل بالتدريس في مدارس مكة المكرمة ، وحينما تأسست الشركة العربية للطبع والنشر في الخمسينات من القرن الماضي اختاره الشيخ محمد سرور الصبان مديراً للشركة المذكورة ، وكانت تقوم بطبع الكتب المدرسية ، وكان السباعي من المعنيين بهذا الأمر ، وكان من أول مؤلفاته سلم القراءة العربية وهي سلسلة صدرت في ستة أجزاء وكان إلى جانب هذه الحياة الفكرية يعمل في مهنة الطوافة للحجاج المصريين .

اتصاله بالصحافة :

حينما صدرت جريدة صوت الحجاز في مكة المكرمة في صفر سنة ١٣٥٠ هـ أسندت رئاسة تحريرها إلى نخبة من الشبان هم الأساتذة : عبد الوهاب آشي ، ومحمد حسن عواد - رحمهما الله - ، والأستاذ محمد حسن فقي - مد الله في حياته - .

وفي جريدة صوت الحجاز نشر السباعي مقالاته الأولى مثل أدباء جيله ، ولما كان مهتما بالتعليم فقد أسند إليه الأستاذ محمد سعيد العامودي الأديب الكبير كتابة الموضوعات الخاصة بالتعليم ، وكان معجباً بآرائه فالتحق محررا بصحيفة صوت الحجاز [١] ، وكان الأستاذ حمزة شحاتة الأديب الشهير معجباً بما يكتبه السباعي في جريدة صوت الحجاز ، وكانت كتابته تتسم بالبساطة والوضوح فقال عنه شحاتة : إنه كاتب المستقبل . وبعدما انتقلت ملكية جريدة صوت الحجاز إلى الشركة العربية للطبع والنشر التي أسسها معالي المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان اختار معاليه أحمد السباعي مديراً للشركة ، كما اختار الأستاذ أحمد قنديل - يرحمه الله - لرئاسة تحرير صوت الحجاز .

وفي الخمسينات من القرن الماضي نشر الأستاذ أحمد قنديل في صوت الحجاز قصيدة بتوقيع مستعار ، وفسَّرها البعض تفسيراً سيئاً ، فأقصي عن رئاسة تحرير الجريدة فتولى أحمد السباعي رئاستها بصورة مؤقتة

---

(١) انظر : كل ما يتعلق بصحيفة صوت الحجاز في أعلام الحجاز (ج ١) ص : ٢٥٩ - ٢٦٨ .

مع احتفاظه بعمله في إدارة الطبع والنشر ، ولكن السباعي لم يستمر في رئاسة التحرير لملاحظات لوحظت على سكرتير التحرير الأستاذ حسين خزندار ، فأُسندت رئاسة تحرير صوت الحجاز إلى الأستاذ فؤاد شاكر رئيس تحرير أم القرى فسمى نفسه عميد الصحافة .

معرفتي بالسباعي :

وفي منتصف الخمسينات من القرن الماضي انتقلت للعمل بمكة المكرمة سكرتيراً خاصًّا لمعالي المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان ، وكان من ضمن مهام عملي الإشراف على حسابات الشركة العربية للطبع والنشر التي أسسها معاليه ، والتي يتولى إدارتها الأستاذ السباعي .. وكنت أتردد على إدارة جريدة صوت الحجاز يوميا تقريبا لزيارة صديقي الأستاذ أحمد قنديل – يرحمه الله – ، وفي إدارة صوت الحجاز عرفت السباعي فرأيت فيه رجلا كثير الحيوية تغلب الفصحى على كلامه ، بينما تنم حركاته عن طبع مكي صميم يسلكه في عداد أبناء البلد الذين طبعتهم مهنة التدريس بطابعها فكان طرازاً خاصًّا من الناس يجمع بين خصائص طبع ابن البلد ، وعقلية المدرس المواكب للجديد في الحياة .

وبحكم إشرافي على حسابات الشركة التي كان يديرها السباعي – رحمه الله – وقع بيني وبينه ما يقع عادة بين الأحياء ، فكان ينقم على الآراء والملاحظات التي أُقدمها لرئيس الشركة عن الشركة وأعمالها .

ومضت الأيام وسار كل منا في طريق ، وانتقلت إلى جدة وأسست عملي التجاري بها وأصدر هو كتابه العظيم « تاريخ مكة » ، وكنت يوما في مجلس صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد الرحمن بالرياض

وجاء ذكر كتاب السباعي « تاريخ مكة » .. وكان في المجلس رجلان أحدهما : من أوائل الوزراء السعوديين ، والثاني : من كبار موظفي الدولة وكان يومها يشغل منصبا كبيراً في الرياض ، وتوجه سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن إلى الرجلين يسألهما عن كتاب « تاريخ مكة » ولكنَّ أحدا منهما لم يستطع الحديث في الأمر لأنهما لم يكونا قد عرفا أو سمعا بالسباعي ولا بكتابه العتيد .

والتفت سموه إليَّ وكنت في ناحية قصية في المجلس وقال مُستغرباً ، أليس هذا تاريخ بلادكم ألم تقرأوه ؟ قلت لسموه : إن « تاريخ مكة » كتاب عظيم لولا أنه مختصر ثم أضفت :

كنت أتمنى لو أن المؤلف أطال نَفَسَ القول ليكون كتابه أشفى للغلة ، قال سموه : ولكن ما هو هذا السباعي ؟ وكان يشير إلى تعليقاته على الأحداث والرجال التي وردت في الكتاب .

قلت : إن كُتَّابَ التاريخ ينقسمون إلى قسمين : قسم : يورد الحوادث ويترك للقارئ أن يستخلص منها ما يشاء ، والقسم الآخر : يورد الحوادث ثم يورد رأيه فيها ، والسباعي من هذا القسم الأخير .

وعدت إلى فندق اليمامة بالرياض فوجدت السباعي – رحمه الله – في غرفة المائدة ويبدو أن شخصاً ما نقل إليه ما دار في مجلس سمو الأمير عبد الله بن عبد الرحمن فأقبل عليّ محيِّياً فقلت له : إني وصفت « تاريخ مكة » بأنه مختصر فقال – رحمه الله – مختصر .. إنه فهرست .. وكانت هذه الحادثة سببا في إصلاح ما فسد بيني وبينه قبل ربع قرن كما كانت هذه آخر مرة ألقاه فيها – يرحمه الله – .

مؤلفات السباعي :

أصدر السباعي كتابه : « تاريخ مكة » في جزءين وهو أهم مؤلفاته وسنفرد عنه حديثاً خاصًّا بعد ، أما مؤلفاته الأخرى فهي :

خالتي كدرجان .

دعونا نمشي .

صحيفة السوابق .

فكرة .

المرشد إلى الحج والزيارة .

أبو زامل وهو قصة الجيل الماضي .

الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (وقد طبع عدة مرات) .

سلم القراءة العربية (في ستة أجزاء) .

أوراق مطوية .

قال وقلت .

سِبَاعيات (في جزءين) .

مطوّفون وحجاج .

أيامي .

فلسفة .

يوميات مجنون [٢] .

هذا عدا المقالات الكثيرة التي نشرت له بالصحف .

---

(٢) جريدة الندوة : العدد ٧٣٦٦ تاريخ (١٧ شعبان ١٤٠٣ هـ) ، والشرق الأوسط : العدد ٢٢١٦ تاريخ (١٨ ذي الحجة ١٤٠٤ هـ) .

إصدار الصحف :

وأصدر السباعي جريدة الندوة التي أُدمجت مع جريدة حراء بعد ذلك ، حيث صدر قرار بإدماج الصحف ، واحتفظت الندوة باسمها ، ثم تخلَّى السباعي عن حصته في الندوة للأستاذ صالح محمد جمال ، وأصدر بعد ذلك مجلة قريش ، واستمر في إصدارها إلى أن صدر نظام المؤسسات الصحفية فتوقفت عن الصدور .

كتاب « تاريخ مكة » :

أصدر السباعي كتابه « تاريخ مكة » ، أصدر الجزء الأول منه سنة ١٣٧٢ هـ ، وأصدر الجزء الثاني منه سنة ١٣٧٨ هـ ، وأُعيد طبعه مرات عديدة ، وكان ضمن الدفعة الأولى من الأدباء السعوديين الذين حصلوا على جائزة الدولة التقديرية للآداب ولست أشك أن كتاب « تاريخ مكة » هو الذي رشَّحه للجائزة فحصل عليها بجدارة واستحقاق . نستطيع أن نصف كتاب « تاريخ مكة » بأنه كتاب عظيم استعرض فيه المؤلف تاريخ مكة منذ نشأتها الأولى من عهد إسماعيل عليه السلام وحتى نهاية الدولة الهاشمية واستهلال الدولة السعودية الثانية عام ١٣٤٤ هـ ، وقد تقلب على مكة خلال هذه القرون دول ورجال ووقع فيها حروب وقتال ، ولم تكن مصادر المؤلف سهلة ميسورة بل كان الكثير منها مفرَّقاً في مخطوطات مطمورة في المكتبات ، وقد وصف السباعي ما عاناه في جمع ما تفرق من هذا التاريخ وضم أشتاته في المقدمة الأولى لكتابه حيث قال :

قد نجد في خزائن التراث الإسلامي مطولات لا علاقة لها بمكة ،

ولكن آفاقها الواسعة وفنونها المتنوعة تسوقها أحياناً إلى الاستطراد في شيء هام له علاقة بمكة ، فإذا استطاع المطلع أن يقتنص الاستطرادات من هذا النوع فإنه سيستنتج مادة لها قيمتها في الكتابة عن تاريخ مكة ، ولا يتيسر هذا إلا لمتفرغ يقضي سني حياته في القراءة واقتناص ما يصادفه فيها (٣) .

ومع ذلك فقد استطاع السباعي أن يجمع أشتات هذا التاريخ في كتاب يقرأه القارئ في أبواب يستعرض فيها الدول التي حكمت مكة وارتبطت مكة بها سياسيًّا ، ولقد استعان المؤلف بمن سبقه من المؤرخين ، وإن كان المطبوع من مؤلفات هؤلاء المؤرخين يصل إلى حدود وأزمان معينة ، فلجأ إلى المخطوطات وبعضها عظيم القيمة ، وأكثرها لا يستحق ما ينفق في قراءته من وقت ، أو يبذل في سبيله من عناء ، وقد قضى السنوات الطوال وهو يقرأ ويدوِّن كلما يصادفه في مذكراته فاجتمع له كما يقول مع السنين مدونات لا حصر لها من جميع الألوان غثها وسمينها (٤) ، ثم عكف بعد ذلك على اختيار المادة الصالحة من هذه المدونات وترتيبها حسب العصور وعلق عليها بما أملته عليه الحوادث والأيام ، فاستوى له في النهاية كتابه العظيم .

إنه جهد تنوء به العصبة أُولو القوة ولكن السباعي قام به وحيداً فرداً .. إنني أُقدر قيمة الكتاب الذي أقرأه بما يضيف إلى معلوماتي من الجديد والمفيد ، ولقد كان كتاب « تاريخ مكة » بالنسبة لي وأكاد أجزم

---

(٣) مقدمة تاريخ مكة : ص ٧ (الطبعة الرابعة) .

(٤) نفس المصدر : ص ٧ ، ٨ .

أنه بالنسبة لكل من يقرأه عظيم الفائدة ، زاخراً بالمعلومات .

ولعلي وأنا من المهتمين بتاريخ الحجاز عامة ومدنه خاصة ، ومكة أهم مدنه بل أهم مدن العالم لعلي وأنا بهذه الصفة أكثر تقديراً لما بذله السباعي من جهد ، وما أنفقه من عمر في جمع مادة هذا التاريخ وتبويبها ثم إخراجها إلى الناس .

وهذا الكتاب فيما أعلم هو أول كتاب يؤرخ لمكة منذ عهد إسماعيل عليه السلام وحتى هذا العهد الذي نعيش فيه ، وهو أول مؤرخ يكتب لنا هذا التاريخ بأسلوب العصر الذي نعيش فيه . أقول هذا وأنا أعرف مصادر الكتاب ومن أهمها كتاب « خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام » للسيد أحمد زيني دحلان وهو من الكتب المطبوعة والقريبة العهد نسبيًّا ، وكتاب « إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام » للشيخ عبد الله غازي وهو من الكتب الموسوعية المخطوطة وغيرهما .

إن التاريخ ينقل ، ولو لم ننقل عمن سبقنا من المؤرخين لما استطعنا أن نكتب إلا ما شهدنا ، ولكن التاريخ كما ينقل فإنه ينقد ويبحث ويغربل إذا صح هذا التعبير ، فما أكثر الأكاذيب التي تصادفنا في كتب التاريخ وما أكثر الأغراض التي تملي هذه الأكاذيب والتي يدركها الناقد الخبير ، وأستطيع أن أقول : إن كتاب السباعي من الكتب القليلة في تاريخ مكة التي حاول فيها المؤلف أن يلتزم جانب الحيدة ، وأن يقدّم لنا الحوادث مع تعليقه عليها في أسلوب يجمع بين الإيجاز والصدق .

وبعد هذا الإطراء الذي يستحقه الكاتب والكتاب ، لعل هناك من يسأل هل خلا كتاب « تاريخ مكة » من المؤاخذات ؟ ونرد على السؤال بسؤال آخر هل هناك كتاب يخلو من المؤاخذات ، إذا استثنينا

الكتب المقدسة ؟ أن السباعي نفسه يعتبر أن كتابه هذا ما هو إلا المقدمة الوجيزة لتاريخ مكة ، مهَّد بهذه المقدمة لمن سيأتي بعده فيوفِّي هذه المباحث حقها فيقول السباعى :

ولا شك أن ما يكتبه الكاتب بعدي سيمتاز بجودة الخطوة التالية وحسبي أني مهدت له السبيل ، وأيقظت فيه فكرة البحث (٥) .

وإني لأتمنى أن يحقق الله للسباعي أُمنيته هذه فتخرج لنا الأيام كتباً كثيرة لا في تاريخ مكة وإنما في تاريخ الحجاز كله .

كنت أتمنى لو أن السباعي خرج في تأليفه من التخصيص إلى التعميم فألَّف لنا تاريخ الحجاز وهو كتاب لم يولد بعد ، وقد كتب عن مكة ، وهي عاصمة الحجاز بل عاصمة الإسلام ، وارتبطت بها مدن الحجاز الأخرى : جدة ، والمدينة ، والطائف ، وينبع ، وغيرها من المدن ، ولكن مكية السباعي أبت عليه إلا أن يفرد مكة بكتابه فكان « تاريخ مكة » .

هذه أُمنيةٌ وليس في الأماني ما يضير .

والثانية : أن الكتاب مختصر ، وقد وصفه السباعي بأنه فهرست فليس هذا بجديد على المؤلف ولكني أستطيع أن أقول : إنه مختصر مفيد ، ها نحن نعود إلى الإطراء ونحن نتساءل عن المؤاخذات : إني أعترف بأن إعجابي بتاريخ مكة قد حوَّل المؤاخذات في عينيَّ إلى حسنات فلا يلومنَّ لائم إلا نفسه ، وهذا هو الميدان فليخرج لنا كتابا مثله ونحن نغدق عليه ما أغدقنا من المديح والثناء .

---

(٥) مقدمة تاريخ مكة : ص ٨ (الطبعة الرابعة) .

هناك مسألة أخيرة هي مراجع السباعي التي أخذ منها والتي اعتمد عليها ، والتاريخ بالذات كما ذكرنا ينقل وينقد ومن الواجب أن يشير المؤلف إلى المصدر الذي استقى منه الحادث إشارة واضحة تشمل الكتاب والجزء والصفحة واسم المؤلف وتاريخ الطبعة ، وهذا نقص ملموس في تاريخ مكة إذا رغب الناقد أن يخضعه للمقاييس الحديثة في التأليف ، وقد أدرك السباعي ذلك فقال : إنه اعتمد على المدوّنات التي دوّنها خلال السنين وإنه لو أراد الرجوع إليها لاقتضاه هذا عمراً جديداً ، ولهذا فقد اكتفى بسرد مصادره في نهاية الكتاب . وقال : إنه اقتدى في ذلك بالدكتور طه حسين ، وردّنا على السباعي : إن طه حسين ذكر في مقدمة ما ألّف في هذا الباب إنه لا يكتب تاريخاً موثّقاً ، وإنما هي آراء عنّت له بعد قراءته للكتب التي ذكرها ، وطه حسين حينما يقول هذا ينفي عن مؤلفاته هذه الصفة العلمية التي هو من أعرف الناس بها .

أراد طه حسين أن يعبّر عن آراء معيَّنة زيَّن له هواه أنها تمثل الجرأة وحرية الرأي ، ولكنه يعرف أنها إذا ما أُخضعت لموازين النقد التاريخي تذوب كما يذوب الزبد في أعقاب الموج ، فكتب ما كتب واكتفى بذكر مصادره دون تدقيق أو ترتيب .

ولم يذهب السباعي مذهب طه حسين ، ولا سلك سبيله فالفرق بينهما هو الفرق بين من يكتب وهو يريد الوصول إلى غاية حدَّدها ، وبين من يكتب وهو يريد أن يتحرَّى الحق والصدق فيبرزهما إلى الناس .

وبعد فإن هذا النقص في كتاب السباعي لا يُنقص في نظري من قيمته ، ولا يغضُّ من مكانته ، وإن تدارُك هذا الأمر ليس بالعسير

فالمصادر التي أشار إليها في طبعته الأخيرة من الكتاب تساعد على الوصول إلى الأصل الذي استقى منه ، وقد رجعت إلى كثير من هذه المراجع فوجدتها حيث أشار إليها .

وبعد فقد أطلنا الحديث عن تاريخ مكة وآن لنا أن نقلب صفحاته لنقرأ فيها أو لنوجز الموجز ونختصر الفهرست فهيا بنا نقرأ في هذا السفر النفيس :

البناء في مكة :

كان البناء في عهد جُرهم وقطورا عبارة عن مضارب من الشعر بعيداً عن البيت الحرام في سفوح الجبال وبين الأودية .

أول بيت في مكة :

وأول من بنى بيتاً بمكة سعيد بن عمرو السهمي وقد قيل في ذلك :

وأول من بنا بمكة بيته وسوَّر فيها مسكناً بأثافي (٦)

في عهد قريش :

وفي عهد حكومة قريش حلَّت البيوت المبنية بالحجر والطين محل بيوت الشعر ، وظلت بعيدة عن البيت الحرام في أعلى مكة أو شواطئ السيل في أسفلها (٧) ولم يكونوا يربعون البيوت بحيث تقوم على سقوف مربعة

---

(٦) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٧) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٩ .

كما هو الحاصل في بناء البيوت اليوم وأول من بنى بيتاً مربَّعا : حميد بن زهير ، فقال الناس :

ربَّـع حميـد بيتـا إما حياة وإما موتا [8]

أبواب البيوت :

وكانوا لا يصنعون الأبواب لبيوتهم ويتركونها شارعة مفتوحة ، ويجعلون أمامها العرصات لينزل فيها الحجاج والمعتمرون ، وأول من بوَّب بيته في مكة : حاطب بن أبي بلتعة .

وحينما أخذوا يصنعون الأبواب للبيوت لم تكن الغرفة جميعها مبوّبة ، وإنما يقتصرون على تبويب بعض الغرف ليضع فيها الحجاج أمتعتهم خشية عليها من السرقات [9] .

قصيّ أول من أباح البناء حول الكعبة :

لما ولي قصيّ بن كلاب أمْرَ مكة خط للكعبة ساحة توازي صحن المسجد – المطاف اليوم – وأباح للناس أن يبنوا بيوتهم حول مدار الكعبة من الجهات الأربع ، وكانوا قبل قصيّ لا يبيحون لأنفسهم السكنى أو المبيت بجوار الكعبة .. وأمر قصيّ أن يجعلوا بين بيوتهم مسالك يصلون منها إلى ساحة الكعبة ، وكان أهم الطرق التي حول الكعبة طريق شيبة وهو مكان باب بني شيبة .

« باب بني شيبة أُزيل لتوسعة المطاف في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام » .

---

(٨) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٩ .

(٩) نفس المصدر .

عمر بن عبد العزيز ينهى عن تأجير البيوت في مكة ومِنًى :

في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أمر واليه على مكة عبد العزيز بن عبد الله أن ينهى الناس عن كراء بيوت مكة ، كما أمر بتسوية بيوت مِنًى ، فجعل الناس يدسُّون إليهم الكراء سرًّا (١٠) .

الإضاءة في المسجد وبين الصفا والمروة :

أمر الخليفة عبد الملك بن مروان عامله على مكة خالد القسري بإضاءة ما بين الصفا والمروة ، كما أمره باتخاذ مصباح كبير مقابل الركن الأسود ، ثم أنشأ للمصباح عموداً ، وهو أول مصباح اتخذ في المسجد رسميًّا . فقد كان بعض جيران المسجد قبل ذلك يضع على بيته مصباحا لينتفع الناس بضوئه في المسجد .

ويذكر الأرزقي أن جده عقبة بن الأزرق كان يضع على طرف داره مصباحا يضيء لأهل الطواف ، حتى كان خالد بن عبد الله القسري الذي منعه أن يضع المصباح ، ووضع بدله مصباح زمزم فيما يقابل الركن الأسود (١١) .

بناء ظفائر للبيوت الملاصقة للمسجد الحرام :

في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٨٠ هـ دهم المسجد سيل عظيم ، اخترق جدار بعض الدور المحيطة بالمسجد ، فأرسل الخليفة مالاً عظيماً لواليه على مكة عبد الله بن سفيان ، وأمره أن يبني ظفائر للبيوت

---

(١٠) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٠٨ .

(١١) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

الملاصقة للمسجد تحول دون اختراق السيل لها [١٢] .

معاوية يرتب العبيد لخدمة المسجد الحرام :

كان معاوية أول من رتب العبيد للخدمة في المسجد الحرام ، ويذكر المؤرخون أن العبيد في هذا العهد كانوا يرتبون صفوف المسجد ويقومون بحراسته [١٣] .

البساتين حول مكة :

كانت مكة محاطة بالبساتين وكان من أشهرها – الليط – وهو أسفل مكة قريباً من بركة ماجل في المسفلة كما يرى السباعي ، بينما يقدر الأستاذ رشدي الصالح ملحس أنه خلف القشلة العسكرية ، وكان أهل مكة يتخذون من الليط منتزها لهم ، وكان في الليط – أُقحوانة [١٤] – يجلس أهل مكة حولها في العشيّ يلبسون الثياب المحمرة والمورَّدة والمطيَّبة ، وفي هذه الأُقحوانة يقول الشاعر :

من ذا يسائل أين منزلنا فالأُقحوانة منا منزل قمن
إذ نلبس العيش صفواً ما يكدِّره طعن الوشاة ولا ينبو بنا الزمن

وشعب خُمْ ، وهو يتصل بالمسفلة اليوم ، وكان مزروعا فيه عدة بساتين تتصل بالليط ثم تتصل بجرول .

---

(١٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٢٩ .
(١٣) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٣٠ .
(١٤) الأُقحوانة : هي شجرة عِبَّاد الشمس .

وكان أهل مكة يخرجون إلى حائط الحمام بجوار المعلاة ، فقد كان لهم هناك نخيل وزروع ، وكانت بساتين مكة تمتد إلى الخرمانية بقرب ما نسميه المعابدة ، ثم تمضي إلى المحصب في الطريق المؤدي إلى مِنًى .

وكان لهم في المحصب دكة يجتمع المتنزهون فيها أصيل كل يوم وكانت تشرف على نخيل باسق وبساتين تحتضنها شعاب الوادي الممتدة إلى مِنًى .. وكانت لهم بساتين في وادي فخ ونسميه الشهداء – اليوم – وأخرى بوادي طوى في امتداده من الحجون إلى ريع الكحل وبساتين غير هذه في ضواحي مكة العليا إلى مزدلفة . فعرفة [١٥] .

سور مكة :

بنى القرشيون في أواخر عهدهم ما يشبه السور في أعلى المدَّعى وبوَّبوه ، ولم يثبت أنهم بنوا مثله في ناحية أخرى منها [١٦] .

أقول : أرجح أن مكة سورت من الناحية الأخرى في موضع حارة الباب ، وكان للسور باب في ذلك الموضع سميت الحارة باسمه والله أعلم [١٧] .

---

(١٥) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٦ .

(١٦) نفس المصدر .

(١٧) لقد استدرك المؤلف فذكر أن قتادة بنى سوراً أعلى مكة وسهل العقبة التي كانت تفصل الشبيكة وحارة الباب سميت كذلك لأن الباب المسوَّر كان فيها . انظر (ج ١) : ص ٢٤٤ .

أوليات في مكة

أول أمير لمكة :

أول أمير وُلِّي على مكة عتَّاب بن أُسيد ولاه النبي صلوات الله وسلامه عليه مكة عام الفتح وأوصاه بأهل مكة فقال : « أتدري على مَن ولَّيتك يا عتَّاب ؟ على جيران بيت الله فاستوصي بهم خيرا » وفرض له كل يوم درهماً (١٨) .

أول أمير للحج في الإسلام :

ولَّى النبي ﷺ أبا بكر في السنة التاسعة إمارة الحج ، حيث تخلف صلوات الله وسلامه عليه في المدينة ، فسار أبو بكر من المدينة ومعه جموع المسلمين من المهاجرين والأنصار ليقود الحج في ذلك العام فكان أول أمير للحج في الإسلام (١٩) .

أول قاض بمكة :

اختار الرسول صلوات الله وسلامه عليه معاذ بن جبل عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة فولَّاه القضاء في مكة (٢٠) .

أول والٍ تركي في مكة :

تولى ولاية مكة في خلافة المعتصم سنة ٢٢٦ هـ أشناس التركي ،

---

(١٨) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٥٩ ، ٦٠ .
(١٩) نفس المصدر (ج ١) : ص ٦٠ .
(٢٠) نفس المصدر (ج ١) : ص ٦٥ .

وهو أول تركي تولى شأن مكة ، ويقول المؤلف : إن ولايته كانت فخرية ، وكان ينيب عنه من يقوم بأعبائها (٢١) .

وكان المعتصم أول خليفة عربي اعتمد على الأتراك واقتناهم وبذل الأموال في شرائهم من سمرقند وفرغانة وألبسهم الديباج ومناطق الذهب وأسند إليهم مناصب الدولة وولَّاهم بعض النواحي ، وآثرهم على الفرس والعرب وبلغ من حفاوة المعتصم بأشناس هذا أنه حينما أراد الحج فوَّض إليه ولاية كل بلد يدخلها حتى ينتهي إلى مكة ثم يعود منها ، وبهذا دخلت مكة في ولاية أشناس ذلك العام ، ودعي باسمه على منابرها ولكنه أقام على الحج محمداً بن داود بن عيسى نائباً عنه ، وكانت أم المعتصم تركية (٢٢) .

إدارة الصفوف حول الكعبة :

أول من أدار الصفوف حول الكعبة خالد بن عبد الله القسري والي مكة لعبد الملك بن مروان ، وقد كان الناس يصلُّون القيام في رمضان خلف مقام إبراهيم على خطوات بعيدة منه ، ويتركون المطاف ، وخلفهم المقام لمن أراد الطواف ، فلما تولى خالد بن عبد الله القسري ، أمر أن يصلي الإمام خلف المقام مباشرة ، وأن تدور صفوف المصلين حول الكعبة من جميع جوانبها ، فلما قيل له : إن ذلك يمنع الطائفين من طوافهم ، أمر أن لا يطوف الطائفون إلا بعد ترويحتين ، ولا يقوم المصلون

---

(٢١) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٤٥ .

(٢٢) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

حتى تنتهي أشواط طوافهم ، فظل الناس يتناوبون الصلاة مرة ، والطواف مرة إلى مطلع الفجر ، تحت إشراف عبيد الكعبة (٢٣) .

أمسكوا رحمكم الله :

وأمر خالد القسري بتخصيص رجل يتحرى طلوع الفجر فوق أبي قبيس فإذا بان الفجر نادى بأعلى صوته : أمسكوا رحمكم الله (٢٤) .

التفريق بين الرجال والنساء في الطواف :

وأمر خالد بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف وأجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط وذلك على أثر ما نقل إليه من قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موفد   وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا   عند استلام الحجر الأسود

أمر خالد بالتفريق في المطاف بين الرجال والنساء وقال ردًّا على هذا الشاعر : ألا إنهن لا يزاحمنك بعد هذا (٢٥) .

الثلج يُحمَل إلى الرشيد في مكة :

حج هارون الرشيد تسع حجج وفي عام ١٧٩ هـ سار من مكة إلى مِنًى فعرفات ماشياً وأكمل حجه ماشياً ، وذكروا أن الرشيد أول

---

(٢٣) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٣٠ .
(٢٤) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٣١ .
(٢٥) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٣١ .

خليفة حُمِل إليه الثلج إلى مكة ، وكان هذا الثلج الطبيعي يحمل من الأقاليم الباردة ، فيرسل إلى الخلفاء في بغداد ، ثم استطاعوا المحافظة عليه حتى أوصلوه إلى مكة للرشيد (٢٦) .

الرشيد يبني أول مظلة للمؤذنين في المسجد الحرام :

وفي عهد الرشيد أنشأ أمير مكة مظلة للمبلِّغين – المؤذنين – فوق سطح المسجد ، وكانوا قبل ذلك يؤذنون فوق السطح لا يظلهم شيء من الشمس أو المطر (٢٧) .

الحجز بين النساء والرجال في المسجد :

قام عامل الخليفة المعتز بإضاءة المطاف ، واتخذ للنساء مكاناً يُحجزن فيه خلف أعمدة ربط بينها بالحبال (٢٨) .

الملك المسعود يبني القبة الحديدية على مقام إبراهيم :

وكان الملك المسعود ابن الملك الكامل الأيوبي بنى القبة الحديدية الموجودة على مقام إبراهيم – ولا تزال باقية إلى اليوم – وكانت قبته قبل ذلك غير ثابتة ، فقد كانوا ينقلون حجر المقام إذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد (٢٩) .

أقول : لقد أُزيلت القبة الحديدية ، وكانت أشبه ما تكون بغرفة

---

(٢٦) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢٧) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٦٠ .
(٢٨) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٨٥ .
(٢٩) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٣٣ .

صغيرة من الحديد المشغول تعلوها قبة صغيرة وكان حجر المقام في داخلها ، فأزيلت القبة بكاملها توسعة للمطاف ، ووضع حجر المقام في مكانه الحالي في مواجهة الحِجْر – حِجْر إسماعيل – داخل إناء بلوري شفاف يعلوه هلال من الذهب الخالص وتم هذا في ١٨ رجب سنة ١٣٨٧ هـ (٣٠) .

شجرة الدر أول من حج بالمحمل :

قدمت شجرة الدر – ملكة مصر – للحج على رأس قافلة الحجاج المصريين ، وكان يقلها (محمل) على شكل هودج ، اتخذ فيما بعد شعاراً لقافلة المصريين ، ثم قلدهم فيه بعض الأمم من المسلمين (٣٠) .

أقول : لم يذكر المؤلف السنة التي حجت فيها شجرة الدر ، وقد تولت المُلك في مصر سنة ٦٤٨ هـ وقُتلت سنة ٦٥٦ هـ كما هو مفصل في المراجع التاريخية الكثيرة ، وهذه المراجع لا تذكر إطلاقا حج شجرة الدر ، فإذا كان هذا الحج قد وقع فعلا فيكون ذلك في منتصف القرن السابع الهجري بين سنة ٦٤٨ و ٦٥٦ للهجرة (٣١) .

وجاء في الدرر الفرائد المنظمة :

أن طريق الحج القديم الذي كان يسلكه الحجاج من عيذاب إلى جدة والذي استمر نحو مائتي عام من بضع وخمسين وأربعمائة إلى بضع

---

(٣٠) انظر تفصيل ذلك في « التاريخ القديم لمكة وبيت الله الكريم » (ج ٤) : ص ١٠ – ٦٧ .

(٣٠ مكرر) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٤٧ .

(٣١) انظر : كتاب المماليك : ص ٢٩ – ٣٤ للدكتور جمال الدين سرور .

وستين وستمائة انقطع في أيام الخليفة المنتصر بالله ، إلى أن كسا الظاهر ركن الدين بيبرس البيرقداري الكعبة وعمل لها مفتاحاً ثم أخرج قافلة الحج في البر سنة بضع وستين وستمائة ، أي بعد وفاة شجرة الدر ببضع سنين (٣٢) .

ويقول صاحب مرآة الحرمين : إن أول محمل خرج من مصر سنة ٧٠٠ هـ (٣٣) .

هذا ما رأينا إيضاحه عن أول محمل وصل إلى مكة المكرمة . وقد استمر المحمل المصري شعارا للحجاج المصريين إلى أن وقع القتال بسببه في مِنًى بين أمير الحج المصري والإخوان من حجاج نجد ، ثم أُبطلت هذه العادة ، وكان المصريون يبعثون كسوة الكعبة مع المحمل ، وبعض المال من الأوقاف الموقوفة على الحرمين الشريفين بصعيد مصر ، وقد فصلنا ما يتعلق بذلك في أعلام الحجاز (٣٤) .

نظام سير قافلة المحمل :

إذا وصل المحمل إلى عُجرة أو عُجر - بين القاهرة والسويس - يأمر أمير المحمل بكتابة أسماء أكابر الحجاج ويرتب سيرهم في مكان معين من القافلة ، ويضع على طليعة القافلة ، وعلى ساقتها العساكر ، وتوضع الأموال في وسطها خشية من اللصوص (٣٥) .

---

(٣٢) الدرر الفرائد المنظمة (ج ١) : ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٣٣) مرآة الحرمين (ج ٢) : ص ٣٨ .
(٣٤) أعلام الحجاز (ج ٢) : ص ٩١ ، ٩٢ .
(٣٥) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٣٥ .

مدة الرحلة من مصر إلى مكة :

تستغرق رحلة قوافل الحجاج من مصر إلى المدينة المنورة نحو شهر ونصف ، وما يقرب من أربعين يوما من الشام إلى المدينة المنورة (٣٦) .

الحج بالمراكب الشراعية من السويس إلى جدة :

كانت قوافل الحجاج تقطع الطريق البري بين مصر والحجاز فلما كان عام ١٣٠١ هـ اتخذ الحج المصري طريقه من السويس إلى جدة في المراكب الشراعية (٣٧) .

محمل اليمن :

أرسل اليمنيون محملاً إلى مكة مع حُجّاجهم ووصل هذا المحمل في إمارة الشريف أبي نمي الثاني من سنة ٩٤٨ - ٩٩٢ هـ ، وكان الذي أحدث هذا المحمل هو والي العثمانيين في اليمن مصطفى باشا النشار ، وكان اليمنيون يرسلون مع المحمل هداياهم إلى مكة وأميرها (٣٨) .

محمل الروم :

قلد العثمانيون أهل مصر والشام في إرسال المحامل فأرسلوا محملاً روميًّا خاصًّا بهم سنة ٩٢٣ هـ وهي السنة التي بسطو فيها نفوذهم على الحجاز (٣٩) .

---

(٣٦) تاريخ مكة : ص ٣٣٦ .
(٣٧) نفس المصدر : ص ٣٣٧ .
(٣٨) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٣٤٨ .
(٣٩) نفس المصدر : ص ٤٦٤ .

أول صرٍّ لفقراء الحرمين :

أهدى السلطان محمد الأول العثماني هدايا نفيسة لصاحب مكة ، ووَقَف باسم فقراء الحرمين أوقافا جعل يرسل غلتها سنويًّا في صرٍّ ، فكان أول صرٍّ منظم عُيِّنَ لفقراء الحرمين [٤٠] .

ولم يذكر المؤلف تاريخ هذا الصرّ ، وقد ساق الخبر ضمن حوادث سنة ٨٢٤ هـ .

أول مطبعة للنقود بمكة :

وُلِّي الشريف علي بن عنان إمارة مكة سنة ٨٢٧ هـ واصطحب معه من مصر مطبعة لضرب النقود ، فضربت النقود باسمه على أثر وصوله إلى مكة ، وقد بقي في إمارة مكة عاماً واحداً [٤١] .

نشأة الطوافة بمكة :

حج السلطان قايتباي في سنة ٨٨٤ هـ ، ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره ، فتقدم القاضي إبراهيم بن ظهيرة لتطويفه وتلقينه الأدعية .

يقول الأستاذ السباعي : ولم يذكر المؤلفون مطوّفا قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة فيما قرأته من تواريخ مكة ..

ويقول كذلك : ولعل صناعة التطويف ابتدعت في هذا العهد

---

(٤٠) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤١) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٠٠ .

لأن الشراكسة بحكم جهلهم اللغة العربية وميلهم إلى الأبهة والبذل كانوا يفضلون أن يعتمدوا على من يخدمهم ، ويدلهم على مشاعر الحج ويتلو أمامهم أدعيته [٤٢] .

أقول : هذا ما ذكره الأستاذ السباعي ، ولي رأي آخر في نشأة الطوافة بمكة ، رأيت أن أُوضّحه هنا :

من المعلوم أن كثيراً من القادمين إلى الحج يتخلّفون في مكة المكرمة لأسباب كثيرة ، منها الرغبة في مجاورة البيت الحرام لطلب العلم أو لقصد العبادة ، فقد كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ينادي في الناس بعد انقضاء الحج : يا أهل الشام شامكم ، ويا أهل اليمن يمنكم ، ولم يكن هناك من القوانين ما يمنع الراغب في الإقامة من تحقيق رغبته ، وفي تصوري أن هؤلاء المتخلفين في مكة والمجاورين بها ، كانوا يستقبلون الوافدين من أهل بلادهم فيستضيفونهم ويعينونهم على أداء المناسك ، وقد تطور الأمر فيما بعد حينما أخذ أمراء مكة يمنحون المطوفين صكوكاً بتحديد الأجناس ، والأماكن لقاء مبالغ معينة من المال ، وقد أخبرني الشيخ محمد جعفر لبني رئيس لجنة قضايا المطوفين وكان هذا في الخمسينات من القرن الهجري الرابع عشر أن أقْدم تقرير اطلع عليه في الطوافة تقرير بيت صحرة مطوفي العجم ، وقال : إن هذا التقرير يعود إلى ستمائة سنة مضت أي في منتصف القرن التاسع الهجري كما يدل على أن موضوع الطوافة كان قد وصل إلى الحد الذي يتدخل فيه أمراء مكة فيصدرون به الصكوك لأشخاص بعينهم .

---

(٤٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٣٧ .

وإذا كان السلطان قايتباي احتاج إلى من يلقّنه أدعية الطواف ، ألم يكن حجاج الهند مثلا في حاجة إلى مثل ذلك وهم لا يعرفون اللغة العربية ؟

أما ما ذكره الأستاذ السباعي من أنه لم يقرأ فيما قرأ من تواريخ مكة أن أحداً لقَّن الحجاج الأدعية في المطاف قبل السلطان قايتباي ، فلعلَّ السر في ذلك أن حج رجل مثل السلطان قايتباي لابد وأن يذكره مؤرخو مكة ويذكرون ما صاحبه من تقدم قاضي مكة الشيخ ابن ظهيرة لتطويف السلطان .

إنني أُرجح أن موضوع الطوافة أقدم كثيرا مما ذكره الأستاذ السباعي ، وقد بدأ كما تصورت باستضافة المجاورين بمكة للحجاج القادمين من بلادهم ، ثم تطور شيئاً فشيئاً مع كثرة القادمين إلى مصلحة تجارية أُجريت لها التنظيمات من قِبَل أمراء مكة بمنح بعض الأشخاص حق تطويف بعض الأجناس ، بل وبعض البلدان مما يعرفه السادة المطوفون قبل إنشاء مؤسسات الطوافة ، ولعل أحداً منهم يفيدنا في هذا الأمر بما يعرف .

وقد ذكر الأستاذ السباعي بعد ذلك أن أقْدم تقرير في الطوافة اطلع عليه هو تقرير آل جاد الله بتوقيع الشريف غالب في عام ١٢٠٥ هـ ، وقد ذكرت قبل أن تقرير بيت صحرة أقدم كثيراً من ذلك كما أخبرني الشيخ محمد جعفر لبني رئيس قضايا المطوفين في أوئل العهد السعودي .

يقول المؤلف : وتوسع الشريف عون الرفيق في توزيع البلاد

الإسلامية إلى أقسام تقرر لها مطوفون فكان كل مطوف مسئولا عن البلد التي خصصت له إلخ (٤٣) ..

أول جراية من الغلال ترسل إلى مكة :

كان السلطان سليم أول من رتب أول جراية من الغلال ترسل إلى مكة ، فقد رتب للصدقة في مكة مقداراً عظيما من القمح وظل يرسله سنويًّا إلى مكة بصورة منتظمة وقد زادت هذه الغلال فيما بعد حتى أصبحت تكفي أهل مكة من العام إلى العام (٤٤) .

وقد ذكر المؤلف أن أول جراية من القمح وصلت إلى الحجاز كانت مقدارها : سبعة آلاف أردب ، منها ألفان للمدينة ، وخمسة آلاف لمكة ، وقد دعا أمير المحمل الرومي مصلح الدين إلى اجتماع حضره قاضي مكة صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي وقضاة المذاهب الثلاثة بمكة ، ونائب جدة ، وبعض الأعيان ، وقرأ عليهم المرسوم السلطاني الخاص بتوزيع هذه الغلال ، واستشارتهم في كيفية إتمام ذلك . وبعد عرض الأمر على الشريف بركات الذي فوَّض المجتمعين في اتخاذ ما يرونه لهذه الغاية ، اتفقوا على عمل سجلات دونت فيها أسماء البيوت في كل محلة وتعداد ما في هذه البيوت من الرجال والنساء والأطفال والخدم واستثنى من ذلك التجار والسوقة والعسكر ، وقد بلغ تعداد السكان عدا من ذكر اثنا عشر ألف نسمة وقد خص كل فرد أربع كيلات فتسلموا حصصهم

---

(٤٣) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٧٩ .
(٤٤) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٤٥ .

مضافاً إلى ذلك دينار ذهب .. ثم تزايد هذا القمح حتى صار معاش أهل مكة منه [٤٥] .

وفي عهد السلطان سليم بك زيدت الغلة سبعة آلاف أردب أخرى تحمل من الأوقاف السلطانية في مصر على ظهور الجمال إلى السويس ثم تشحن في السفن السلطانية إلى جدة أو ينبع [٤٦] .

شرب الدخان في مكة :

في سنة ١١١٢ هـ عرفت مكة الدخان ثم التنباك ، وقد انتقلت هذه العادة من مصر إلى مكة ، والمعروف عن بعض المؤرخين أن شجرة الدخان ظهرت أول ما ظهرت في عام ٩٩٩ هـ [٤٧] .

وفي سنة ١١٤٩ هـ أصدر الشريف مسعود أمير مكة أمره بمنع شرب الدخان علانية ، وأمر بعقوبة كل من يجاهر بشربه في الأسواق أو المقاهي أو المحلات العامة ، وصار الموظفون يتعقبون الناس لتنفيذ الأمر الذي أيده علماء مكة .

يقول المؤلف : فكانوا يعقدون المجالس في بيوتهم يتعاطونه .

وقد قيل : إن الشريف مسعوداً كان يعتقد تحريمه ، كما قيل : إن الدوافع إلى ذلك هو تبذل الناس وتجاهرهم به في المجالس أمام كبار القوم وعلمائهم [٤٨] .

---

(٤٥) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(٤٦) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٦٢ .

(٤٧) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٩٩ .

(٤٨) نفس المصدر (ج ١) : ص ٤٢٩ .

أول قنصل في جدة :

وصل أول قنصل إنكليزي إلى جدة عام ١٢١٦ هـ لمباشرة أعمال القنصلية فيها ، فاتخذ داراً خاصة بذلك رفع فوقها العلم البريطاني ، ثم تبعه قنصل للفرنسيين ثم للروس [٤٩] .

وحدات العملة العثمانية :

وحدة العملة القرش وهو نوعان : قرش صاغ ، وقرش شُرُكْ ، والقرش الصاغ يساوي مائة وعشرين ديوانيًّا ، والقرش الشرك يساوي أربعين ديوانيًّا ، والريال المجيدي يساوي عشرين قرش صاغ و٦٠ شرك [٥٠] .

الحجاج يركبون البحر من السويس إلى جدة :

كان الحجاج يصلون إلى مكة بطريق البر من الشام أو مصر ، فكانوا يأتون بالطريق البري من العقبة والمويلح وضبا والوجه فينبع النخل ثم يتوجهون إلى المدينة ثم إلى مكة بالطريق البري ، وفي سنة ١٣٠١ هـ قامت المراكب المصرية بنقل الحجاج من السويس إلى جدة [٥١] .

وقد ذكر المؤلف بعد ذلك أن نقل الحجاج بالبواخر بدأ في سنة ١٢٩١ هـ ولم يذكر مصدره ، ومن المعلوم أن كلمة الباخرة تطلق

---

(٤٩) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٦٠ .

(٥٠) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٦٣ .

(٥١) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ . وانظر : تاريخ ينبع لعبد الكريم الخطيب ص ٧٩ ، وانظر : تفصيل ذلك في ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز : ص ١٤٥ – ١٤٧ للمؤلف .

على البواخر التي تسير بالبخار ، أما المراكب الشراعية فيطلق عليها سفن أو مراكب [٥٢] .

وكان حجاج الهند يصلون إلى مكة برًّا من إيران والعراق ثم ركبوا السفن الشراعية في أوائل هذا العهد أوائل القرن الرابع عشر الهجري من ميناء سورت بجوار بمبي [٥٣] .

أقول : في هذا العهد كانت المراكب الشراعية موجودة في الحجاز ، وكانت تبحر من ميناء جدة فتدخل المحيط الهندي مارة بعدن - المكلا - وتصل إلى بومباي لتحمل منها الحبوب وأنواع المأكولات إلى جدة ، وكانت تسافر وتعود في الأوقات التي لا تكون فيها فيضانات بحر الهند ولم تكن هذه المراكب معدة لنقل الحجاج ، وإنما خصصت للبضائع .

تأسيس التكية المصرية :

أسس محمد علي باشا والي مصر التكية المصرية بمكة أثناء حكم المصريين للحجاز عام ١٢٣٨ هـ [٥٤] .

أقول : وكان للمصريين تكية بالمدينة المنورة ولابد أنها أُسست في ذلك الوقت ، والتكية تقدم طعاماً يوميًّا للفقراء ، وكانت هذه التكايا منتشرة في البلاد الإسلامية في ذلك الزمان .

---

(٥٢) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٧٣ .
(٥٣) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ .
(٥٤) نفس المصدر (ج ٢) : ٥٢٦ .

أول دار بنيت بالزاهر – الشهداء – :

كان الوالي أحمد عزت باشا الذي تولى الولاية للأتراك في مكة في أواخر عام ١٢٦٩ هـ أول من بنى داراً في الزاهر بجوار الشهداء وجعلها منتزها له (٥٥) .

محجر مكة الصحي في الزاهر :

في عام ١٢٨٨ هـ ظهر وباء بالمدينة المنورة ، وكان الزوار من أهل مكة قد ذهبوا للزيارة الرجبية إلى المدينة المنورة فلما عادوا حجزتهم الحكومة في (كرنتينة) أعدتها بالزاهر (٥٦) .

التعليم العسكري في مكة :

أصدر أمير مكة الشريف عبد الله بن محمد بن عبد المعين أمراً على أهالي مكة بالحضور إلى المكان الذي أُعد للتدريب على الأعمال العسكرية في مكة ، وتلقِّي الدروس الحربية ، واشترك في هذا التدريب أولاد الشريف عبد الله وبنو عمومتهم برئاسة عون باشا – أمير مكة فيما بعد – كما اشترك فيه الناس من جميع الطبقات (وقد شوهد العلماء وطلبة العلم والأعيان ، وأصحاب الحِرَف وأهل الحارات ينزلون إلى ساحة التعليم صفوفاً متراصة يتلقون تعاليم الجندية على أساتذتهم من ضباط الأتراك وكان ذلك في عام ١٢٩٤ هـ ، وقد جعل لذلك لباس خاص

---

(٥٥) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٣٢ .

(٥٦) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٥٣٨ . و« الكرنتينة » كلمة أفرنجية وترجمتها « المحجر الصحى » .

يتكون من قميص وبنطلون من قماش يسمونه - مُلَّا - وجعلوا العقال فوق العمامة وغطاءاً للرأس .

ويذكر المؤلف أن السبب الذي حدَا بالعثمانيين إلى فرض التعليم العسكري في مكة هو اشتباكهم في حرب مع الروس ، ولكن هذا التعليم لم يطل أمده إلا نحو أربعة أشهر (٥٧) .

أقول : كان الأتراك ينظرون إلى الحجاز على أنه بلد المقدسات الإسلامية العظيمة ، ويعاملون سكانه معاملة خاصة تعفيهم من الجندية ، كما تحرمهم من التعليم ، ويغدقون عليهم بالغلال التي تكفي معيشتهم ، وهذه السياسة أساءت إلى البلاد أكثر مما أفادت .

أول جريدة في الحجاز :

أول جريدة صدرت في الحجاز - جريدة الحجاز - أصدرها الاتحاديون في العهد العثماني في مكة بعد إعلان الدستور العثماني ، وكانت تحرر باللغتين العربية والتركية ، ثم أصدر أحد موظفي الأتراك جريدة أخرى طبعت في نفس المطبعة سماها : شمس الحقيقة ، وكانت تحرر كذلك باللغتين العربية والتركية ، وتتناول بالنقد بعض المسئولين في مكة ، وظلت كذلك إلى إمارة الحسين بن علي الذي أغضبه أُسلوبها فهدد صاحبها بالقتل واضطره إلى الهرب من البلاد .

أما جريدة الحجاز وهي الجريدة الرسمية فقد ظلت تصدر في مكة

---

(٥٧) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٣٩ . وانظر ما كتبناه عن هذا الموضوع فى ترجمة الشيخ عبد الرحمن سراج فى هذا الكتاب .

إلى أن ثار الحسين على العثمانيين فانتقل صدورها إلى المدينة وظلت تصدر بها وكان يحررها السيد حمزة غوث الذي كان مستشارا للملك عبد العزيز ثم سفيرا للمملكة العربية السعودية في إيران ، وقد أوقفت هذه الجريدة بعد خروج العثمانيين من المدينة (٥٨) .

جريدة القبلة :

لما قام الحسين بن علي بالثورة على الأتراك وأسس الدولة الهاشمية في مكة أصدر بها جريدة القبلة وكان يتولى تحريرها السيد محب الدين الخطيب ثم الشيخ الطيب الساسي ، وكان يعمل فيها الأستاذ حسين الصبان ، وكان الحسين يشرف بنفسه على سياستها ، وقيل : إنه كان يحرر بيده بعض مقالاتها .

جريدة الفلاح :

كما أذن الحسين لعمر شاكر من سوريا بإصدار جريدة في مكة اسمها : الفلاح ، وكانت تسير على سياسة جريدة القبلة .

المجلة الزراعية :

وأمر الحسين بإصدار مجلة زراعية صغيرة (٥٩) .

أقول : السيد محب الدين الخطيب من أوائل الدعاة الإسلاميين في القرن الرابع عشر الهجري ، وأصدر أول مجلة إسلامية في القاهرة

---

(٥٨) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٦٦ .
(٥٩) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٦٢٣ .

هي مجلة الفتح ، وكانت تصدر أسبوعية كما أصدر مجلة أدبية راقية هي الزهراء ، وأسس كذلك في مصر المطبعة السلفية بمشاركة عبد الفتاح قتلان وكانت تطبع الكتب القيمة من التراث .

أول مجلس للبلدية :

تأسس أول مجلس للبلدية في مكة سنة ١٣٢٦ هـ ، وكان المحتسب هو الذي يقوم بوظيفة البلدية ، فيحكم السوق ويشرف على تنظيم العمران (٦٠) .

إضاءة الحرم المكي بالكهرباء :

استورد الحسين بن علي أول ماكينة كهربائية أضاءت المطاف ، وكان قد أدخل قبل ذلك الإضاءة بالنور الأبيض بالمصابيح الغازية التي كانت تسمى في الحجاز – الأتاريك – وذلك في سنة ١٣٣٥ هـ ، ثم أتبع إضاءة المطاف بشراء ماكينة كهربائية أكبر قوة فشملت الإضاءة المطاف وبعض جوانب المسجد (٦١) .

سبك النقود في مكة :

أنشأ الحسين بن علي بعد توليه عرش الحجاز داراً لسبك النقود الهاشمية سنة ١٣٣٤ هـ ، وضرب الدينار الهاشمي من الذهب والريال

---

(٦٠) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٦٧ .

(٦١) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٦٢٤ . وانظر : إضاءة المسجد الحرام فى الجزء الثاني من أعلام الحجاز : ص ٣٩ ، ٤٠ .

الهاشمي وأجزاءه من الفضة ، والقرش ، وأجزاءه من النحاس الأحمر [٦٢] .

طبع الطوابع في مكة :

وأنشأ الحسين بن علي داراً لطبع الطوابع البريدية بعد اعتلائه عرش الحجاز [٦٣] .

لعل الأصح أن نقول : إن الحسين أصدر الطوابع الهاشمية بعد اعتلائه عرش الحجاز وطبعها في مكة في المطبعة التي أنشأها الوالي التركي عثمان باشا نوري والتي كانت في أجياد خلف مبنى الحميدية ، وقد أُزيل مبناها في توسعة الحرم المكي الشريف [٦٤] .

إصلاحات في مكة :

أنشأ الحسين بن علي مظلة بين الصفا والمروة ، ووسع في بعض الطرق العامة ، واجتث عقبة الحجون وأنشأ الشارع اليوسفي في مكة بجوار الشارع الفيصلي [٦٥] .

أقول : كذلك أنشأ الشريف الحسين بن علي الشارع الذي سمي فيما بعد شارع قابل بجدة ، وكان حين إنشائه أحدث الشوارع في مدينة

---

(٦٢) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٦٢٣ . وانظر : كل ما يتعلق بالعملات المسكوكة في ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز : ص ١٦١ ، ١٦٢ . وانظر : صور العملات الهاشمية : ص ٢٥٢ — ٢٥٥ .

(٦٣) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٦٢٣ .

(٦٤) انظر : ترجمة الشيخ الحضراوي في هذا الكتاب .

(٦٥) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٦٢٣ .

جدة ، وقد اشتراه آل قابل من نجله الملك علي بن الحسين خلال الحرب السعودية الهاشمية . كما أمر الحسين بردم البحر في الجهة الغربية الملاصقة للسجن في جدة وأنشأ فيها داراً سميت المنتزه ، وقد اشتراه آل الفضل ، ثم اشتراها صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل ، وشيد مكانها عمارات الفيصلية بجوار فندق البحر الأحمر في جدة (٦٦) .

سكة حديد الحجاز :

رغب السلطان عبد الحميد العثماني في ربط أجزاء البلاد العثمانية بسكة حديدية فقرر مد الخط الحديدي من دمشق الشام إلى المدينة المنورة ، على أن يتصل مدّه بعد ذلك إلى جدة ومكة ، وقد وجه السلطان نداءاً إلى العالم الإسلامي للتبرع لهذا المشروع العظيم ، وقد كانت الاستجابة لنداء الخليفة عظيمة لا في البلاد التي تنضوي تحت الحكم العثماني ، وإنما في البلاد الإسلامية عامة ، فتأسست الجمعيات من كل قطر ، وقد ألّف الهنود وحدهم نحواً من ١٦٦ جمعية لجمع التبرعات واشتد الحماس للمشروع في مصر والشام والعراق والصين وبلاد البلقان وفي أكثر بلاد أفريقيا ، واجتمع من حصيلة التبرعات سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية ، كدفعة أولى وبوشر في مدّ الخطوط وإقامة الجسور ، واستمر العمل نحو ثماني سنوات حيث وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في الثالث من شعبان عام ١٣٢٦ هـ الموافق ٢٨ أغسطس عام ١٩٠٨ م ، وتبلغ المسافة بين المدينة ودمشق

---

(٦٦) انظر عن شارع قابل في : أعلام الحجاز (ج ١) : ص ٤٤ . وانظر عن تسقيف المسعى : ص ١٠٩ ، ١١١ .

١٣٢٠ كيلو متراً عدا المساحة بين درعا وضبعا ، وأخذ الحجاج يصلون إلى المدينة مستعملين سكة حديد الحجاز ، وتحققت لهذا الخط نقلة تاريخية في سفر الحجاج إلى الحجاز .

استمر خط حديد الحجاز في العمل إلى أن أعلن الاتحاديون الدستور ، وخلعوا السلطان عبد الحميد فتوقف النشاط في هذا المضمار ، وحاول الاتحاديون استئناف العمل بإيصال الخط إلى جدة فمكة ، ولكن التبرعات التي كانت تتدفق للمشروع ذهبت بها أعاصير السياسة كما يقول المؤلف .

أقول : جاءت الحرب العالمية الأولى وعمد الإنجليز إلى تخريب خطوط سكة حديد الحجاز بين المدينة والشام ليعطلوا على الأتراك الوسيلة الجيدة القوية لنقل معداتهم وجيوشهم ، وكانت هناك فرقة في جيش الأمير فيصل بن الحسين يقودها الكولونيل لورنس تقوم بمهمة نسف خطوط سكة حديد الحجاز وتعطلها [٦٧] .

يقول المؤلف : وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى كان الخط قد تخرب كثير من أجزائه ، وكان في استطاعة المسلمين أن يعيدوا إصلاحه ، إلا أن البلاد التي كان يمر الخط في أرضها قد تقسمت إلى مناطق هيمن على بعضها الفرنسيون كما هيمن على بعضها الإنجليز ، وبقي القسم الحجازي تحت سيطرة حكومة الشريف الحسين بن علي وأبت الدول الأجنبية أن تعترف بوقفية خط إسلامي يمر في أراضيها ،

---

(٦٧) انظر ما كتبه لورنس في كتابه : أعمدة الحكمة السبعة .

كما شعرت أنه ليس من مصلحتها أن تجتمع أطراف المسلمين في جزء كبير من بلاد العرب على هذا الخط ، لهذا ذهبت كل محاولة لإعادة إصلاح الخط أدراج الرياح .

أقول : وبعد الحرب العالمية الثانية استردت سوريا استقلالها ، كما استرد الأردن استقلاله ، ونشطت الدول المعنية في سوريا والأردن والمملكة العربية السعودية إلى دراسة إعادة إصلاح سكة حديد الحجاز ، وعقدت لذلك الاجتماعات الكثيرة في عواصم الدول المعنية إلا أن هذه الاجتماعات لم تسفر عن شيء يعيد لسكة حديد الحجاز نشاطها القديم .

الحسين بن علي يحاول إصلاح الخط :

حاول الحسين بن علي إصلاح الأجزاء الموجودة في الحجاز ، فعمر أجزاءه المتصلة بالمدينة ، واستطاع أن يسيّر القاطرات عليه فوصلت أول قاطرة إلى المدينة في عام ١٩١٩ م ، ثم عجزت عن استئناف السير لأن أعمال الإصلاح الفنية لم تكن مستوفاة ، وليس لدى الحسين ما يكفي للقيام بأعبائه فعاد الجزء الحجازي إلى الخراب ووضعت حكومات فلسطين وسوريا والأردن أيديها على ما لديها من أجزاء أخرى ومعدات تابعة .

وقد ذكر المؤلف بعد ذلك ما يلي : بعد محاولات طويلة دامت نصف قرن اتفقت الحكومات العربية على إصلاحه ، وَرَسَتْ مناقصته على إحدى الشركات في عام ١٣٨٣ هـ وينتظر أن يبدأ العمل (٦٨) .

---

(٦٨) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٥٧٧ - ٥٧٩ .

أقول : لقد مضى على هذا الذي ذكره المؤلف أكثر من ربع قرن ولم يتم شيء في هذا الأمر . وفي تصوري أن وجود إسرائيل في قلب البلاد العربية وامتداد خط حديد الحجاز داخل أراضي فلسطين التي تغتصبها إسرائيل من أكبر الأسباب التي دعت الحكومات العربية إلى إيقاف البحث في إصلاح الخط حتى الآن .

أسماء بعض حارات مكة وتعليلها :

القشاشية : منسوبة إلى الشيخ القشاشي ، وقد كان يسكن مكة حوالي القرن الحادي عشر (٦٩) .

شعب علي : كان يسمى شعب ابن يوسف ، وكانت فيه دور بني هاشم (٧٠) .

المعابدة : وكانت تسمى شعب الصفي ، صفي السباب أكمة في المعابدة تشرف على الخرمانية (٧١) .

القرارة : وكانت تسمى قرارة المَدْحى . يقول السباعي : ولعل أطفال قريش كانوا يلعبون فيها المدحى وهو ما يشبه البرجو عندنا .

الفلق : كان يسمى فلق ابن الزبير . يقول السباعي : فلقه الزبير ابن العوام ليصل الطريق بين بساتينه بجوار المعلاة اليوم وبيوته التي اشتراها بسويقه .

أقول : الصحيح أن الذي فلق الجبل هو عبد الله بن الزبير بعدما بويع بالخلافة في مكة ودان له الحجاز والعراق . وليس هو الزبير بن العوام .

بئر بليلة والسد : كانوا يسمونه أجياد الكبير ، أما السد فكانوا يسمونه أجياد الصغير .

---

(٦٩) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٠ .
(٧٠) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣١ .
(٧١) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣١ .

أقول : لا تزال منطقة أجياد تحتفظ باسمها القديم فأهل مكة يطلقون عليها كلمة جياد بحذف الألف ، ويتفرع من أجياد بئر بليلة والسد كما هو معلوم ، وسمي جياد أجياداً لخروج الرجال منها والجياد حينما اختلفت جُرهم وقطورا وتقاتلوا (٧٢) .

الشبيكة : كانت بئرا بين مكة والزاهر ، ولم ينتشر العمران في الشبيكة وحارة الباب وجرول إلا في القرون الأخيرة (٧٣) .

الحفائر : كانوا يسمونها الحَزَنَةُ وهي ضد السهلة ، والذي حفر الحفائر وسهلها للمشاة هو خالد البرمكي في عهد بني العباس ليجعلها تختصر الطريق إلى بستان له بناه فيما بعد في جرول الخلفية أو جرول الخضراء .

جرول : كانت تسمى جرول الخلفية وجرول الخضراء لوجود البساتين فيها (٧٤) .

جبل عمر : كان يسمى أعاصير ، وكان هذا اسمه قبل أن ينسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – (٧٥) .

شعب عامر : كان يسمى المطابخ ويقال له شعب ابن عامر .

أقول : وقد اختصر أهل مكة التسمية فسموه شعب عامر (٧٦) .

---

(٧٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٠ ، ٢١ .
(٧٣) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٤ .
(٧٤) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٧٥) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٥ .
(٧٦) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢١ .

الروضة : وكانت تسمى الأُقحوانة ، وقد ذكرنا عن الأُقحوانة في بساتين مكة [٧٧] .

الشهداء : وكانت تسمى فخ [٧٨] .

المدعى : كان يسمى – ردم بني جمح – وقد ردمت الأرض في المدعى لمنع السيل من دخول المسجد الحرام ، وذلك على أثر دخول السيل المعروف بسيل أم نهشل في السنة السابعة عشرة للهجرة ، واقتلاعه لمقام إبراهيم حيث وجدوه في أسفل مكة ، فأمر عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بردم الأرض فردمت بالتراب والصخر والعظام [٧٩] .

الجودرية : نسبة إلى الجَدر – بفتح الجيم وكسرها – وهو نبات رملي ، لعله كان ينبت في ذلك المكان لقلة العمران فيه فسميت الجودرية بالتصغير ، ويقول الأستاذ عاتق البلادي : إن الجودرية منسوبة إلى الجودري ، وهو لحاف من قطن ملبس بالقماش وكان شارع الجودرية محلا لبيع هذه الألحفة الجوادر [٨٠] .

الهجلة : كانت تسمى سوق الحطب [٨١] .

بركة ماجد : كانت تسمى ماجل أبي صلابة ، والماجل في اللغة

---

(٧٧) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٦ .
(٧٨) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٦ .
(٧٩) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٨٤ . وانظر : تفصيل حادثة سيل أم نهشل في عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : ص ٣٣٣ للمؤلف .
(٨٠) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٨١) نفس المصدر (ج ١) : ص ١٥٦ .

كل ماء في أصل جبل أو وادٍ ، وبركة المسفلة كانت ماجلا لأبي صلابة ، ثم سميت بركة الماجل ، وحرَّفها الناس فقالوا بركة ماجن أو ماجد [٨٢] .

قوز النكاسة : صحة الاسم قوز المكاسة ، يقول عنه الأستاذ عاتق البلادي : رمل بجوار كدي بمسفلة مكة ، واسمه مشتق من المكس ، ولعل المكوس تؤخذ عنده من حجاج اليمن ، والعامة تخطيءُ في اسمه فتقول : قوز النكاسة [٨٣] .

الشبيكة : سميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع اشتباك وقتال عدة مرات في الهجوم على مكة والدفاع عنها ، ويقول الأستاذ حمد الجاسر : إن الشبيكة نسبة إلى رجل اسمه شبيكة الحسنى [٨٤] .

الزاهر : اسمه قديماً وادي فخ ، وقد كان ضاحية من ضواحي مكة [٨٥] .

الطندباري : يرجح أن صحة الاسم التُّنْضُباوي [٨٦] .

السليمانية : نسبة إلى أحد علماء مكة الشيخ محمد بن سليمان المغربي [٨٧] .

الشيخ محمود : نسبة إلى الشيخ محمود بن آدم الذي كان مدفونا

---

(٨٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٥٦ .
(٨٣) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٤١ .
(٨٤) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٥٨ .
(٨٥) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٧٦ .
(٨٦) نفس المصدر (ج ١) : هامش ص ٣٣٥ .
(٨٧) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٣٨٢ .

بجرول أمام البازان ، وقد سمى كثير من المؤرخين منطقة جرول باسم الشيخ محمود [٨٨] .

ريع الرسان : صحة التسمية – ريع الرسام – ولعله سمي بذلك لأن البضائع التي كانت تصل من جدة يؤخذ عليها الرسوم الحكومية في ذلك المكان وهو أحد الأكدية بمكة ، وكان اسمه كدى بالفتح والقصر [٨٩] .

---

(٨٨) تاريخ مكة (ج ٢) : هامش ص ٤٢٢ .

(٨٩) نفس المصدر (ج ٢) : هامش ص ٤٣٦ .

بعض الحوادث الغريبة في مكة

بين الوالي والسادن :

أرسل خالد بن عبد الله القسري والي مكة إلى سادن الكعبة عبد الله بن شيبة وسأله أن يفتح له الكعبة في وقت لم ير عبد الله أن يفتحها فيه ، فلما امتنع أمر الوالي بالسادن فضُرِب مائة سوط ، وذهب السادن إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك بالشام فشكى الوالي ، فكتب سليمان إلى خاله محمد بن هشام أن يضرب خالداً مائة سوط ففعل (٩٠) .

يومان في عرفة :

في حج سنة ٦٨٨ هـ وقف الناس بعرفات يومي الجمعة والسبت ، لاختلاف ثبوت الرؤيا لدى أمير الركب الشامي عنها ، لدى الشيخ محمد الطبري شيخ الفقه في الحجاز ، وليست هذه أول حادثة من نوعها ، فقد تكرَّر مثلها عدة مرات في تاريخ مكة ، ذلك أن كل ركب كان يعتمد فتوى خاصة به ، ولو كان مصدر الفتوى بين المسلمين موحداً لما وُجِد مثل هذا الاختلاف (٩١) .

أقول : تتريث الحكومة السعودية في إثبات رؤية هلال ذي الحجة لعدة أيام على اعتبار أن القادمين برًّا إلى مكة قد يكونوا شاهدوا الهلال ، ومن ثم يجري إثبات ذلك بالطريقة الشرعية ، ثم يعلن موعد ثبوت الهلال والوقوف بعرفات .

---

(٩٠) تاريخ مكة (ج ١) : ص ١٣٢ .

(٩١) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٦١ .

الوقوف بعرفة يومين :

وفي سنة ٨١١ هـ وقف أمير الحج الشركسي – المصري – بعرفة ، وبعد أن أفاض منها ، بعد غروب الشمس ثم عاد إليها ليستأنف الوقوف في اليوم الثاني لأنه لم يثبت عنده صحة الوقوف في اليوم الأول [٩٢] .

مائة حجة جمعة :

في سنة ٧٢٠ هـ وقف الناس بعرفات يوم الجمعة ، كانت هذه الحجة تتمة مائة حجة حصل الوقوف فيها بعرفات يوم جمعة من عام الهجرة إلى هذا العام [٩٣] .

الضرائب الجمركية في مكة :

أورد الفاسي في شفاء الغرام بيان المكوس التي كانت تفرض على البضائع الجمركية في مكة ، في القرن الثامن الهجري في عهد أميرها عجلان بن رميثة وكان بعضها يؤخذ عيناً ، والبعض يؤخذ نقداً ، والنقد هنا على أساس النقد المسعودي في اليمن . يؤخذ على حمل الجمل من الحنطة مُدَّانِ بكيل مكة [٩٤] ، كما يؤخذ على حمل البصل ثلاثة دنانير مسعودية ، وهذا يدل على غلاء البصل من جهة ، وربما أنه لم يكن يزرع بالحجاز ، لأنَّ الرسوم على البصل فادحة جدًّا .

---

(٩٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٦٧ .
(٩٣) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٦٧ .
(٩٤) الحمل : بكسر الحاء وهو وسق بعير ، ويقدر في الحنطة وأمثالها بأردب أي : ستين كيلة من كيل مكة اليوم .

أما السمن والعسل والخضروات فيؤخذ عليها ما يساوي الخُمس ، أي عشرين بالمائة من أثمانها ، ويؤخذ على سلة التمر دينار مسعودي واحد .

وقد علق الفاسي على فداحة هذه الرسوم فقال : إن الناس كانوا يعانون شدة من ذلك ، وقد بلغه أن بعضهم استورد شاة فلم تساو المقدار المقرر لها [٩٥] .

أقول : إن أمراء مكة في حاجة إلى مورد لتغطية نفقات الدولة ، وصرف مرتبات جنودها وموظفيها ، وكان بعض الأمراء يتغالون في فرض هذه الضرائب ، وقد وضعت المكوس على الحجاج في بعض الأوقات ، وتدخل بعض ملوك المسلمين لدى أمراء مكة لرفع هذه المكوس لقاء أن يدفع لهم مبالغ معينة من النقود سنويًّا ، ومن الحبوب ، ولكن الأمور لم تكن منتظمة ولا مضمونة ، لهذا كانت هذه الضرائب ترفع ثم تعود ، وتقل أو تعتدل ثم تكثر .

موت الناس داخل الكعبة :

ذكر صاحب خلاصة الكلام أنه مات في جوف الكعبة أربعة وثلاثين رجلا في سنة ١٢٨١ هـ بسبب شدة الزحام [٩٦] .

محمل من حلب :

في حج عام ٧٩٧ هـ وصل حجاج الشام ومعهم محمل من حلب [٩٧] .

---

(٩٥) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٩٦) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٨٥ .
(٩٧) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٩٠ .

نصب الخيام في المسجد الحرام :

في أوائل القرن التاسع الهجري ٨٠٩ هـ أهدى بعض الملوك المسلمين إلى المسجد الحرام بعض الخيام وطلب إقامتها في صحن المسجد ليستظل بها المصلون من الشمس يوم الجمعة ، وقد أمر أمير مكة حسن ابن عجلان بإقامة هذه الخيام فنصبت ، ثم عدل عنها بعد ما رُئي أن بعض المصلين يتعثرون في حبالها (٩٨) .

الجدب وغلاء الأسعار :

وقع جدب شديد في الحجاز في سنة ٨١٥ هـ فغلت الأسعار ، وبيعت غرارة الحنطة بعشرين ديناراً ذهباً كما بيعت البطيخة بدينار (٩٩) .

تصدير الفلفل إلى مصر :

وفي هذا العام ٨١٥ هـ قلّ وجود الفلفل في مكة كما قلّ وجوده في مصر ، فأرسل صاحب مصر يطلب شراءه من مكة فوجد أن سعر وسق البعير يبلغ قيمته ٢٢٠ مثقالا من الذهب بينما كانت قيمته لا تزيد عن ٦٠ مثقالا ، ومع هذا فقد أمر صاحب مصر أن يحمل إليه ما قيمته خمسة آلاف دينار (١٠٠) .

الخيول في المسجد الحرام :

غضب أمير الحج المصري على أحد غلمانه في مكة سنة ٨١٧ هـ فسجنه ، وثار زملاؤه من الغلمان والقواد ، فهاجموا المسجد

---

(٩٨) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٩١ .
(٩٩) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .
(١٠٠) نفس المصدر (ج ١) : ص ٢٩٤ .

الحرام وانطلقوا راكبين خيولهم من باب إبراهيم والناس في صلاة الجمعة حتى وصلوا إلى مقام الحنفية ، فثار الحجاج والأتراك بهم وقاتلوهم قتالاً شديداً حتى أجلوهم عن المسجد ، واستغل النهّابون الفرصة فأوقعوا في الناس سلباً ونهباً ، وأمر أمير الحج المصري بإغلاق أبواب المسجد وتسميرها عدا الأبواب التي تحاذي منزله ليدخل منها هو وأتباعه ، ثم أدخلت خيله المسجد الحرام وجعلت بالرواق الشرقي ، فباتت الخيل في المسجد تلوثه بروثها وبولها ، ورأى أمير مكة الشريف حسن بن عجلان أن الحرم قد انتهك ، وأُهينت كرامته ، فاجتمع كبار أهالي مكة وأعيان الحجاج ، وعرض عليهم الأمر ، واتفق الرأي على انتداب شخص يبلغ أمير الحج المصري استياء الأمير والناس مما حدث ، وإجلاء الخيول عن المسجد ، وقد أصلح أمير الحج المصري من أمره وأمر غلمانه ، وطهّر المسجد من خيولهم وقذاراتها (١٠١) .

أقول : إن أمير الحج المصري أكثر رعونة وحمقاً من غلمانه ، الذين ثاروا وتظاهروا ضد ما أنزله بواحد منهم فلم يجدوا مجالاً لإظهار غضبهم واحتجاجهم إلا في ساحة المسجد الحرام فدخلوا إليها بخيولهم حتى وصلوا إلى مقام الحنفي قريبا من الكعبة المشرفة ، والناس في صلاة الجمعة ، وبدلاً من أن يعالج أمير الحج المصري الأمر بما يجب من الحكمة والتعقل ، أمر بتسمير أبواب المسجد الحرام ولم يترك إلا الأبواب التي يدخل منها وأتباعه ، ثم لم يكتف بذلك فترك خيله تبيت في رواق المسجد وتلوثه بقذاراتها .

---

(١٠١) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٩٥ .

لو كان أمير الحج المصري هذا وغلمانه على شيء من الوعي بقداسة المكان لحفظوا للمسجد الحرام حرمته وعرفوا له مكانته ، فتجنبوا أن يجعلوه ساحة قتال ، ثم مربط فرسان ، وليت شعري ألم يحضر هو وهم لأداء فريضة الحج ؟ فهل عرفوا ما هو الحج وآدابه وشعائره ؟ ومن الطريف أن الغلام الذي أدبه أميره ، والذي وقعت بسببه هذه المآسي اسمه جراداً ، وفي ذلك يقول شاعر مكي من شعراء هذا العصر :

وقـــع الغـــلاء بمكـــة والناس أضحوا في جهاد [١٠٢]
والخير قلَّ فهـــا هموا يتقاتلـــون على جراد

وهي تورية لطيفة من الشاعر استغل فيها اسم الغلام في بيتيه الظريفين .

بوابو المسجد الحرام من الفقهاء والقضاة :

كان الفقهاء والقضاة تسند إليهم الوظائف في أبواب المسجد الحرام ، وفي عهد الشريف حسن بن بركات من ٨٠٩ - ٨٢٩ هـ صدر مرسوم بقفل أبواب المسجد الحرام بعد الموسم باستثناء أربعة أبواب ، فضاق الناس بذلك واشتكوا ، فصدر الأمر بعزل بوابي المسجد القدامى وكانوا من الفقهاء والقضاة ، وأن يعين بدلاً منهم من عامة الناس ، وألزموا بملازمة الأبواب والنوم بجوارها [١٠٣] .

---

(١٠٢) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٢٩٦ .
(١٠٣) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٠٢ .

الضرب عقوبة إلقاء القمائم :

في أوائل القرن العاشر الهجري - ٩١٣ - ٩١٥ هـ - كان المكلف بأمر التنظيفات في مكة يمر بشوارعها وأزقتها فإذا وجد تحت بيت أحدهم شيئاً من القمامة ، دعا صاحب البيت وأمر بضربه على رجليه ، وقد فعل ذلك بعدة أشخاص . أورد ابن فهد صاحب كتاب بلوغ القرى أسماءهم ، فكفَّ الناس عن إلقاء القمائم في الطرق العامة (١٠٤) .

موكب السلطان الناصر بن قلاوون :

حج سلطان المماليك الناصر بن قلاوون فكان في موكبه أحواض من خشب زرعت فيها الخضروات والبقول والشمومات ، وحملت على الجمال ، كما كانت في موكبه أفران لإصلاح الخبز والسميد والكماج ، وقد أُحصيت حمول الشعير في الموكب فبلغت مائة وثلاثين ألف أردب (١٠٥) .

أقول : لم يذكر المؤلف السنة التي حج فيها الملك الناصر ويفهم من مجرى الحوادث أن ذلك كان في أوائل القرن التاسع الهجري من ٨٢٠ - ٨٢٤ هـ ، وقد أوردنا الخبر لطرافته فحسب .

الثيران تجرف تراب المسجد :

في أوائل القرن التاسع الهجري تراكمت طبقات من التراب في المسجد فاستعان المسئولون بالثيران لجرف هذا التراب ، ثم نقلوه

---

(١٠٤) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣١٥ .

(١٠٥) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٣٠ .

إلى المسفلة ، ووضعوا مكانه بطحاء نظيفة مغربلة نقلوها من ذي طوى ووادي الطندباوي (١٠٦) .

كل واشكر :

لما حج السلطان قايتباي سنة ٨٨٤ هـ انتدب أمير مكة الشريف بركات من يستقبل السلطان في الحوراء وهي قريبة من ميناء - أملج - ومُدَّ للسلطان سماط عربي حوى المآكل الكثيرة وكان من بينها صنف من الحلوى أعجب به السلطان فسأل عن اسمه فقيل له : كل واشكر (١٠٧) .

جفل الفرس فسقطت عمامة السلطان :

لما حج السلطان قايتباي عام ٨٨٤ هـ وصل موكبه إلى باب السلام الخارجي ، فتخطى السلطان عتبة الباب بفرسه ، فجفل الفرس فسقطت عمامة السلطان عن رأسه ، ويقول ابن فهد مؤرخ مكة : إن هذا كان تأديباً من الله لأنه يتعين على السلطان أن يترجَّل ويدخل محرما مكشوف الرأس (١٠٨) .

بين الشريف والسادن :

استأذن سادن البيت الشيخ عبد الرزاق الشيبي أمير مكة الشريف الحسن بن أبي نمي ، للسفر إلى الهند فأنشده الشريف بيت

---

(١٠٦) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٣٥ .
(١٠٧) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٣٧ .
(١٠٨) نفس المصدر (ج ١) : ص ٣٣٨ .

الطغرائي في قصيدته المشهورة :

فيم اقتحامك لُجَّ البحر تركبه وأنت تغنيك عنه مَصَّةُ الوَشَلِ

فأجاب السادن من القصيدة نفسها على الفور :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق لِلْعُلَا قِبَلِي

فاستحسن الشريف بديهة السادن وأمر له بألف دينار (١٠٩) .

الفرس للأمير وحده :

في سنة ١٠٤٣ هـ وقع بمكة وباء للخيل ، ففنيت الخيل بمكة حتى لم يبق فيها إلا فرس واحد جعلوه لركوب الأمير زيد بن محسن ، أما بقية الأشراف فكانوا يمتطون الحمير (١١٠) .

مهدي من فارس :

كان خطيب المسجد الحرام يخطب الجمعة في مكة في ١٦ رمضان عام ١٠٨١ هـ ، فهاجمه رجل فارسي مستلا سيفه يريد قتله ، وهو يصيح بالفارسية : إنه المهدي ، فحال المصلون دونه ، وتكاثروا عليه ، وأوسعوه ضرباً حتى وقع مغشيًّا عليه ، ثم سحبوه حتى انتهوا به إلى المعلاة فأوقدوا النار فيه وأحرقوه (١١١) .

جمل فوق المنبر :

يقول المؤلف : (وفي ٢٢ ذي الحجة عام ١٠٨١ هـ) سال

---

(١٠٩) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(١١٠) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٣٧٠ .
(١١١) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٣٧٧ .

وادي إبراهيم بمكة على أثر مطر عظيم ، واقتحم السيل المسجد حتى انتهى إلى ما يوازي نصف الكعبة ، وأزاح بعض الأعمدة عن أمكنتها ، ومن غريب الاتفاق أن السيل حمل أحد الجمال حتى استقر به فوق المنبر ، فلما انكشف الماء في الصباح ، وجدوا الجمل في مكانه من أعلى المنبر ، وراح ضحية هذا السيل عدد كبير من الحجاج وخربت بسببه بيوت كثيرة [١١٢] .

شيخ الحرم يأمر بجلد الإمام :

كان الشيخ تاج الدين القلعي يؤم المصلين بالمسجد الحرام ، وحدث أن تأخر في فجر يوم الخامس عشر من ربيع الثاني عام ١٠٩٧ هـ عن الحضور ، وانتظر المصلون طويلا ، فتقدم أحد المجاورين للصلاة بالناس ، وكان والي جدة شيخ الحرم لذلك العهد أحمد باشا مع المصلين ، فلما علم بإبطاء الشيخ القلعي غضب لذلك واستدعاه إلى مدرسة الداودية وأمر بضربه على رجله .

وثار أئمة المسجد لكرامتهم فشكوا الأمر إلى الشريف أحمد بن زيد أمير مكة ، وطلبوا إعفاءهم ، أو تردُّ كرامتهم بتأديب شيخ الحرم ، وأُحيل الأمر إلى مفتي البلاد الشيخ عبد الله عتاقي (فأفتى بتعزير من أهان أهل العلم) وتدارك الباشا الأمر فاسترضى الشيخ القلعي وطيَّب خاطره وصحبه إلى داره فتنازل عن دعواه .

شيخ الحرم ينتقم من المفتي :

وأسرَّ شيخ الحرم للمفتي فتواه بتعزيره فأُقيمت شكوى إلى الباشا

---

(١١٢) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

بأن المفتي أحدث لبيته - مجرى - قصبة في جدار المسجد ، وبالكشف على الجدار لم تثبت صحة الدعوى ، ولكن شيخ الحرم استحضر المفتي وسبَّه ، وضربه حتى أدماه ، وداسه برجله .. وذهب المفتي إلى الشريف يشكو ما فعل به شيخ الحرم ، ولجأ شيخ الحرم بعد أن فعل بالمفتي ما فعل ، لجأ إلى بيت القاضي - وهو من الأتراك عادة - فأرسل الشريف إلى القاضي بطلب حجز الباشا حتى يقضي الشرع فيه ، وضج الأهالي في مكة ، وتألبوا جماعات جماعات حول بيت القاضي ، وأخذ بعضهم يحصب النوافذ بحصباء الحرم .

عزل شيخ الحرم :

وأخيرا لجأ شيخ الحرم إلى الشريف أحمد أمير مكة فاسترضى المفتي وكتب إلى الخليفة بما فعله الباشا الأحمق مع إمام المسجد ، ومفتي مكة فصدر الأمر بعزله عن ولاية جدة ومشيخة الحرم (١١٣) .

بين أشراف مكة ووالي جدة :

وردت بعض الغلال للأشراف في مكة سنة ١٠٩٤ هـ فاستولى على بعضها والي جدة التركي واغتنم الأشراف فرصة حضوره إلى مكة للحج ، فمنعوا خروجه من مكة حتى يعيد إليهم ما أخذه منها ، فتفاقم الشرُّ ، وأصرَّ الأشراف حتى نزل الوالي على أمرهم وسلم إليهم ما يستحقونه ، وتعهد بعدم العودة إلى ما كان (١١٤) .

---

(١١٣) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
(١١٤) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٣٨٧ .

إجلاء النصارى عن جدة :

وفي عهد الشريف أحمد أصدر شيخ الحرم ، والي جدة أمره بأن لا يبقى في جدة غير مسلم ، وشدَّد في تعقبهم ، فغادر جدة غير المسلمين عن آخرهم ، ولم يبق منهم إلا من أعلن إسلامه (١١٥) .

أقول : هذا الوالي اسمه أحمد باشا وقد تكررت منه التصرفات الحمقاء مع إمام المسجد الحرام ، ثم مع مفتي مكة مما أسلفنا إيضاحه ، فليس بمستغرب منه أن يأمر بإجلاء النصارى عن مدينة جدة ، وقد انتهى أمره إلى العزل كما سبق إيراده .

صدقة أغنياء الهند :

في أواخر عهد الشريف عبد الكريم بن محمد بن يَعْلىٰ - من سنة ١١١٦ - ١١٢٣ هـ أرسل أغنياء الهند مبلغ خمسة لكوك - خمسمائة ألف روبية - وزعت بمكة صدقة لأهلها ، فوزعت بينهم ، فنال مكة من ذلك خير كثير (١١٦) .

أقول : سبحان من بيده خزائن كل شيء ، لقد أدركت الروبية وكل سبع روبيات تساوي جنيهاً ذهباً ، هذا في أواسط القرن الرابع عشر الهجري ، وقد أرسل أغنياء الهند هذه الصدقة العظيمة إلى مكة قبل حوالي ثلاثة قرون ولابد أنها كانت تساوي أكثر كثيرا مما عَرَفْتُ عن أثمانها ، وقد دار الزمن دورته ، فالمعونات ترسل من هذه البلاد للبلاد

---

(١١٥) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٣٩١ .

(١١٦) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤١٣ .

الإسلامية بالملايين الكثيرة ، ولقد أغنى الله تعالى البلاد وأهلها عن تلقي الصدقات ، وأصبح الإنفاق على مشاريع الحج وخدمة الحجاج من أكبر بنود النفقات .فالحمد لله أولا وآخرا .

حرمة بيوت كبار الأشراف :

هاجم أمير مكة الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد - ١١٤٤ هـ - بيت الشريف عبد العزيز من آل بركات لأن أحد الأشراف التجأ إلى بيته ، وكان قد أمر هذا الشريف بمغادرة مكة فلم يمتثل ، وطلب صاحب المنزل إمهال الشريف اللاجئ إلى الليل فأبى وأحاط البيت بخيله ورجاله وأطلق الرصاص على نوافذ البيت ، فأصاب الرصاص بعض الأشراف المجتمعين في الدار فتواثبوا للفتنة ، وتدارك الأمر بعض الأشراف فعاد الشريف محمد إلى داره واجتمع الأشراف في دار الشريف عبد المحسن العبدلي - جد الأشراف العبادلة - ورأى عبد المحسن أن يعرض على أمير مكة استرضاء أصحاب البيت المهاجم على قواعدهم المعروفة فندبوا من عرض عليه تقديم خمسة وعشرين من جياد الخيل ، ومثلها من العبيد ، وستين من الإبل ، وأن يأتي في أعقاب ذلك إلى البيت المهاجم معترفاً بخطئه معتذراً عما حدث .

وقد امتثل أمير مكة لهذا الحكم وقدّم الترضية المطلوبة (١١٧) .

إبعاد الأجانب :

في سنة ١١٤٩ هـ أمر أمير مكة الشريف مسعود بن سعيد بأن يغادر المهاجرون مكة بعد أن اتخذها المهاجرون - داراً للسكنى -

---

(١١٧) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ .

وضيقوا على أهلها في عيشتهم ، واستولوا على كثير من مرافقها التجارية ، فأصدر أمره بالنداء العام في أسواق مكة بمغادرة المهاجرين ، وأغلظ في عقوبة من يتخلف منهم فرحلوا (١١٨) .

أقول : وهكذا يعيد التاريخ نفسه فنرى أن الأنظمة الحاضرة تفرض على القادمين للحج والعمرة المغادرة بعد أداء مناسكهم ، ولقد تنبه لهذا الأمر عبقري هذه الأمة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه – فأمر بالمناداة في مكة بعد الحج : (يا أهل الشام شامكم ، ويا أهل اليمن يمنكم) (١١٩) .

لعن الرافضة :

في سنة ١١٥٧ هـ أمر أمير مكة الشريف مسعود بن سعيد بلعن الرافضة فوق المنابر ، وذلك أن ملك العجم – نادر شاه – أرسل إلى الأمير مسعود عالماً من أئمة علماء الشيعة بكتاب يقول فيه : « إننا اتفقنا مع الخليفة العثماني على الدعاء لنا على منبر مكة ، وأن يظهر مذهبنا الجعفري فيها ، وأن يصلي إمامنا في المسجد بجوار المذاهب الأربعة » وتوعَّد الشريف مسعود في كتابه . إن لم يتم ما طلب ، وكان – نادر شاه – كاذباً في ادعائه الاتفاق مع الخليفة العثماني على ذلك ، لأنه كان قد خرج على العثمانيين واستولى على بعض ممالكهم في العراق .

اشتد الأمر على الأمير مسعود ، وعم الاستياء مكة ، واضطربت

---

(١١٨) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٢٩ .

(١١٩) عمر بن الخطاب ، للمؤلف .

الآراء في شأن ذلك ، وأرسل الوزير التركي في جدة يطلب الرسول ليقتله ، وامتنع الشريف مسعود عن تسليمه ، وقال : إني سأحافظ عليه إلى أن أكتب إلى دار الخلافة وأتلقى جوابها ، ولم يرض الوزير التركي ، وشعر الشريف مسعود أنهم يتهمونه بالميل إلى المذهب الجعفري فأمر بلعن الرافضة ليبرئ ساحته ، وقد صدر أمر الخليفة بعد ذلك بتسليم رسول ملك العجم إلى أمير الحج الشامي ليوصله إلى دار الخلافة في تركيا فسلمه الشريف مسعود إليه (١٢٠) .

محنة الشيعة :

وصلت قافلة حجاج الشيعة سنة ١١٤٣ هـ متأخرة فلم تدرك الحج ، وأقام الحجاج الشيعة في مكة ليحجوا في السنة التالية ١١٤٤ هـ ، فزعم بعض العامة أنهم وضعوا النجاسة في الكعبة المعظمة ، وثاروا لذلك ، وثار بثورتهم العسكر ، وقصد الثائرون القاضي ، فهرب من فتنتهم ، ثم قصدوا بيت المفتي فأخرجوه من بيته ، كما أخرجوا غيره من العلماء ذوي الهيئات ، واجتمعوا عند وزير أمير مكة الشريف محمد بن عبد الله بن سعيد ، وطلبوا من الوزير إقامة الدعوى ، دون أن يعينوا خصماً معيناً ، ثم استطاعوا أن ينتزعوا أمراً من الوزير بإبعاد الشيعة من مكة وخرجوا إلى السوق ينادون بطردهم ، ونهب بيوتهم ، وذهبوا في اليوم التالي إلى بيت القاضي وطلبوا منه التوسط لدى الأمير بتأييد الأمر الصادر من الوزير بإبعاد الشيعة ، فامتنع الأمير ثم اضطر إلى مجاراتهم خوف الفتنة العامة .

---

(١٢٠) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

أقول : يبدو أن اتهام الشيعة بنجاسة الكعبة المعظمة ، وصل إلى مسامع الناس فهاجت نفوسهم ، وشاركهم العسكر في هذه الثورة النفسية ، فخرجت الأمور من أيدي العقلاء وأولي الأمر ، إلى أيدي العامة الذين تصرفوا مدفوعين بغيرتهم على الكعبة المعظمة ، ولم يجد الأمير بدًّا من مجاراتهم مما يدل على أن الثورة على الشيعة شملت فريقاً كبيراً ومؤثراً من الناس في مكة .

وقد انتهى الأمر برحيل الشيعة إلى جدة والطائف انتظاراً لهدوء الفتنة ، واستطاع أمير مكة أن يقبض على دعاة الفتنة ، وأرسل إلى الهاربين فعادوا إلى مكة ، ويقول مؤرخ مكة السيد زيني دحلان نقلاً عن تاريخ الرضي : (أن ما حدث كان نتيجة لتعصب بعض أراذل الناس والأتراك ، وأن أهل مكة الحقيقيين لم يكونوا راضين عن ذلك) [١٢١] .

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد ظهرت في نجد وشاع أمرها بين القبائل ، وكثر المنضمون إليها وقد بعث النجديون إلى مسعود – أمير مكة الشريف مسعود بن سعيد – يستأذنونه في الحج ببعض جموعهم فلم يوافق على دخولهم ، وندبوا بعض علمائهم فناظروا علماء مكة ولم ينتهوا معهم إلى وفاق [١٢٢] .

أقول :امتد حكم الشريف مسعود بن سعيد لمكة في إمارته الثانية عشرين عاما من سنة ١١٤٥ – ١١٦٩ هـ ، وقد ظل منع أمراء مكة

---

(١٢١) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(١٢٢) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٣٠ .

للحج النجدي قائماً . فقد ذكر المؤلف أن النجديين أرسلوا يستأذنون للحج في عهد خلفه الشريف مساعد بن مسعود ١١٦٥ - ١١٨٤ هـ فلم يؤذن لهم [١٢٣] ، كما أنهم طلبوا من الشريف غالب الإذن بالحج سنة ١٢٠٥ هـ ، فمنعهم وهددهم بالقتال ثم أتبع القول بالفعل كما هو موضح في كتب التاريخ [١٢٤] .

مهدي من البنغال يقتل خطيب المسجد الحرام :

كان خطيب المسجد الحرام الشيخ عبد السلام الحرشي يلقي خطبة الجمعة فوق المنبر ، فصعد إليه حاج بنغالي وطعنه بسكين فَرَتْ أمعاءه وقضت عليه واضطرب المسجد ، وشاع في الناس أن المهدي ظهر بين المقام والركن ، ثم تقدم أحد العلماء فأتم الخطبة وصلى بالناس ، وقبض على الجاني حيث أودع السجن ثم أعدم شنقا ، ويعلل المؤلف الحادثة بأن الرجل ربما كان مجنونا [١٢٥] .

بيع الماء في عرفات :

كانت مكة تستقي مياهها من عين حنين التي أجرتها السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد ، وأم الخليفة الأمين ، وكانت هناك عين أخرى هي عين نعمان تجري إلى عرفة ، وقد خربت هذه العيون وانقطع الماء عن مكة في أوائل عهد العثمانيين ، ونقل المؤلف عن القطبي ما يلي :

---

(١٢٣) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٣٣ .

(١٢٤) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٥٠ .

(١٢٥) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٤٤٩ .

وكان التجار يتاجرون بالمياه في يوم عرفات في عام ٩٢٢ هـ فيبيعونه بأغلى الأثمان ، وحججت في بعض السنين في خدمة والدي ففرغ الماء الذي كنا نحمله فاشتريت قربة صغيرة يحملها الرجل بإصبعه بدينار ذهب ، يقول القطبي : فأمر سليمان باشا بإصلاح حنين حتى جرى الماء ودخل مكة ، وانتهى إلى بركة ماجل في المسفلة ، كما أصلح عين نعمان إلى عرفة سنة ٩٣١ هـ ، وقد أُنشئت في عرفة بساتين ظلت تسقى بذلك الماء حتى صارت أرضها مرجة خضراء [١٢٦] .

إيصال مجاري الماء إلى مكة :

نضبت المياه في عين زبيدة فأمر السلطان سليم عام ٩٧٠ هـ بإصلاح المجاري وتنظيفها ، وبذل في ذلك الأموال الطائلة ، ولما انتهى الإصلاح إلى بئر زبيدة دون مكة ، وجدوا أن الأرض الصخرية تحول دون الاستمرار في بناء المجاري ، فحفروا حفرة هائلة في العمق حول الأرض الصخرية وأوقدوا فيها الحطب .

قبيلة حرب وأمير الحج المصري :

حدث أن تعرضت بعض قبائل حرب على أمير الحج المصري سنة ١٢٠٠ هـ ، فأسر نفراً منهم ، وأصرَّ على كيهم بمحاوير محماة في خدودهم ليبقي ذلك وسما لهم يعرفون به ، فتشفَّع فيهم بعض مشايخ حرب فأبى ، وأجرى عملية الوسم ، فصاح صائحهم (يا لقبائل حرب) فاجتمعوا من كل واد وأعملوا السيف في الحملة المصرية ،

---

(١٢٦) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٧٤ .

ومن يتبعها من الحجاج حتى لم ينج منها إلا من استطاع الهرب وكان أمير الحج أحد الهاربين (١٢٧) .

أقول : يقول السيد أحمد زيني دحلان : إن قبائل حرب أدركوا أمير الحج المصري في موضع يقال له قوزة ، وأرسلوا له يقولون : إن أردت السلامة فاجعل مقررات لمن جعلت في خدودهم العلامة ، فامتنع ، هناك صاح الأعراب وتجمعوا فحملوا على الحجاج حملة واحدة ، فظهر على أمير الحج الذل والانكسار ، ففر ومعه تجريدة من الخيل .

هذا ما رأيت تقديمه للقارئ من كتاب « تاريخ مكة » ، وقد تجنبت التعرض للأحداث السياسية في مكة عبر القرون وهي تمثل القسم الأعظم من الكتاب ، وأود للقارئ أن يقرأ تاريخ مكة بقلم مؤلفه فالكتاب ميسور ومتداول وهو مكتوب بلغة العصر وقراءته تجمع بين المتعة والفائدة ..

* * *

---

(١٢٧) تاريخ مكة (ج ٢) : ص ٤٤٦ .

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة
وبعض القرون الماضية



أحمد بن محمد الحضراوي

أحمد بن محمد الحضراوي

اسمه وكنيته :

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبده بن أحمد بن أحمد بن حسن بن سعد بن مسعود الحضراوي الشافعي وحضراوي نسبةً إلى محل ببلدة منصورة من أعمال مصر ، بها قبة جده الكبير سعد الحضراوي [١٢٨] .

مولده وهجرته وتعليمه :

ولد بثغر الإسكندرية في جمادى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (هجرية) ، ولما بلغ من العمر سبع سنين قدم به والده إلى مكة المكرمة وتوطناها ونشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم وأخذ العلم عن جملة من الأعيان ، وكان جده أحمد بن عبده مفتي الأحناف ببلدة منصورة من أعمال مصر ، كما أخبر هو بذلك .

وفي نشأته بمكة المكرمة تلقى العلم على أفاضل علماء مكة ، منهم شيخ العلماء ، ومفتي السادة الأحناف الشيخ جمال ، والشيخ محمد سعيد بشارة ، وتسلك في الطريقة الشاذلية على الشيخ الفاسي ثم المكي [١٢٩] .

صفاته :

وصف الشيخ محمد المعصومي أستاذه أحمد الحضراوي في ذكرياته

---

(١٢٨) المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » (ج ١) : ص ٨٤ ، ٨٥ .

(١٢٩) نفس المصدر .

عن علماء مكة التي نشرت بمجلة الحج فقال : كان رحمه الله تعالى من العلماء الزاهدين ، فمن ورعه أنه كان يكتب للناس بالأجرة ويتقوت منها – من أجرة الكتابة – ولا يطمع في المناصب والوظائف وكان يقول : المجتهد قد يخطئ ، وقد يصيب فضلا عن أمثالنا فكل الناس كما قال الإمام مالك يؤخذ عنه ، ولا يؤخذ عليه .

مؤلفات الحضراوي :

وُصِفَ الحضراوي في – المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » – بأنه كان عالما فاضلا ، صالحا ، متواضعا ، كاتبا ، كتب بخطه الكثير من الكتب ، واشتغل بتأليف التواريخ وله من التآليف :

(١) العقد الثمين في فضائل البلد الأمين .

(٢) رسالة في فضائل زمزم .

(٣) تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير – ثلاثة أجزاء – والموجود لديّ هما الجزء الأول والجزء الثاني .

(٤) تراجم أفاضل القرن الثاني عشر والثالث عشر – جزءين – والموجود بعض أوراق من الجزءين .

(٥) تاريخ الأعيان – وأُرجّح – أنه نفس كتاب تراجم أفاضل القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري .

(٦) ألفية في السيرة النبوية .

(٧) اللطائف في تاريخ الطائف .

(٨) الجواهر المعدة في فضائل جدة .

(٩) مبادئ العلوم .

(١٠) رسالة أدبية في الحماسة على لسان أهل الطائف وجدة والمفاضلة بينهما .

(١١) نفحات الرضا والقبول في فضائل المدينة وزيارة الرسول .

(١٢) حسن الصفا فيمن تولى إمارة الحج (١٣٠) .

(١٣) بشرى الموحدين في أمور الدين بخصائص سيد الأولين والآخرين ٣٢٢ صفحة .

(١٤) جواهر الانتخاب وفرائد الاكتساب في مختصر كتاب الاستيعاب لابن عبد البر .

(١٥) تخريج رواية أحاديث كشف الغمة (١٣١) .

وقد علمت أن هناك مؤلفات أخرى للحضراوي لم ترد في كتاب المختصر من نشر النور والزهر ، ولم ترد كذلك في الأعلام للزركلي وهي :

(١٦) الاختبارات البديعة في معرفة بعض سراة حفاظ الشريعة ، وهو مختصر من كتاب تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي كما جاء في مقدمة الكتاب .

(١٧) هداية المؤمنين في حمل العصا باليمين .

---

(١٣٠) ذكر المرحوم الشيخ عبد الوهاب الدهلوي أن كتاب « حسن الصفا » من تأليف الشيخ أحمد الرشيدي اختصره الحضراوي وذيله وسماه « مختصر حسن الصفا » .. انظر : مجلة المنهل (عدد شعبان ١٣٦٦ هـ) .

(١٣١) أورد الزركلي اسمه سراج الأمة في تخريج أحاديث كشف الغمة مخطوط في ثلاث مجلدات كبار – الأعلام (ج ١) : ص ٢٤٩ .

ولعل من المناسب أن نذكر أن جميع مؤلفات الحضراوي مخطوطة باستثناء كتاب العقد الثمين في فضائل البلد الأمين ، الذي ذكر الزركلي في الأعلام أنه مطبوع ، ولم أطلع على هذا الكتاب بعد .

هذا ما اجتمع لدينا من مؤلفات الحضراوي ، الذي يتميز بالإكثار من التأليف ، الأمر الذي يدل على أن الرجل كان منقطعا للكتابة والتأليف كما جاء في الوصف الذي وصفه به تلميذه الشيخ محمد المعصومي ، والذي أوردناه آنفا .

وقد عرفت الحضراوي أو على الأصح عرفت شيئا عنه ، من كتاب الجواهر المعدة في فضائل جدة ، الذي قام بنشره وتحقيقه والتعليق عليه صديقنا الشيخ حمد الجاسر في مجلته العظيمة العرب (١٣٢) فتاقت نفسي إلى معرفة المزيد من مؤلفات الرجل وآثاره ، وقد تفضل الأخ الكريم الصديق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان بتحقيق هذه الرغبة فأمدني بنسخة من مخطوطة اللطائف في تاريخ الطائف ، كما أمدني ببعض أجزاء من مخطوطة : تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير .

وقد رأيت بعد الاطلاع على ما وصل إليّ من مؤلفات الحضراوي أن ألخص من مؤلفاته ما يلي :

(١) الباب الثالث من كتاب « تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير »

---

(١٣٢) مجلة العرب (الأعداد من الجزء الخامس إلى الجزء الثاني عشر من القعدة سنة ٩٨ إلى جمادى الثانية سنة ٩٩ السنة الثالثة عشر والجزء الأول والثاني رجب وشعبان سنة ١٣٩٩ من السنة الرابعة عشر) .

وهو الخاص بولاة مكة المشرفة وجدة من (الباشوات) من طرف الدولة العلية العثمانية بعد خروج الدولة المصرية ، وهذا القسم يبدأ من سنة ١٢٥٥ هـ وينتهي في سنة ١٣٠٢ هـ ، وهذه الفترة عاصرها الحضراوي وعاش في مكة معظمها فهو يكتب عن علم ومعاصرة ، والكتاب مخطوط في ثلاثمائة وأربع وسبعين صفحة وعدد الأسطر واحد وثلاثين سطرا في كل صفحة. والقسم الذي اخترت الكتابة عنه يبدأ من صفحة (٢١) وعدد صفحاته ست وعشرين صفحة وخطه مقروء وحروفه كبيرة واضحة وأصله بمكتبة مكة المكرمة ١٢٢/ تاريخ .

(٢) « الجواهر المعدة في فضائل جدة » التي نشرها الأخ الصديق الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب والتي وصفها بقوله : ولعل هذه الرسالة تحوي جُلَّ ما يتعلق بتاريخ جدة ، فهي أوفى ما اطلعت عليه في الموضوع [١٣٣] .

(٣) « اللطائف في تاريخ الطائف » وهو مخطوط في اثنتين وتسعين صفحة في كل صفحة ثلاثة وعشرون سطرا بخط واضح حسن ، وأصل الرسالة موجود بمكتبة مكة المكرمة تحت رقم (١٩) تاريخ .

أهمية الفترة التي كتب عنها الحضراوي :

ولد الحضراوي كما ذكرنا في مقدمة ترجمته سنة ١٢٥٢ هـ ،

---

(١٣٣) مجلة العرب (العدد الخامس) : ص ٤٠٥ .

وهاجر به والده إلى مكة المكرمة وتوطناها وهو في السابعة من العمر سنة ١٢٥٨ هـ ، وتوفى بمكة سنة ١٣٢٧ هـ وخلال هذه الفترة ألف كتبه التي ذكرناها آنفاً . وقد يكون هناك غيرها لا نعلم عنه شيئا حتى كتابة هذه السطور ، ونستطيع أن نستخلص من أسماء الكتب التي ألفها الحضراوي أنها تنقسم إلى قسمين :

. **القسم الأول** : وهو يمثل الجزء الأكبر من مؤلفات الرجل خاص بالتاريخ وتراجم الرجال وهو ما يهمنا في هذه الترجمة .

القسم الثاني : وهو القليل يمكن أن يسلك في عداد الكتب الدينية وما يتعلق بها .

ولكن التاريخ كما ذكرنا يمثل الجزء الأعظم من مؤلفات الحضراوي ، وقد اطلعت على بعض أجزاء كتابه المسمى « تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير » ، من ابتداء الدنيا إلى آخر القرن الثالث عشر فوجدت الرجل يورد الحوادث البارزة في التاريخ الإسلامي مغفلا كل ما يتعلق بهذه الحوادث من تفاصيل لا يكون التاريخ تاريخا كاملا إلا بإيرادها ، وهي مذكورة بتفاصيلها في الموسوعات التاريخية المتداولة والمطبوعة ، لهذا فإن اختياري وقع على ما كتبه الحضراوي عن الحوادث التاريخية التي عاصرها ، أو التي كانت قريبة من العصر الذي عاش فيه فسمع أخبارها من معاصريها ، واخترت بالذات ما يتعلق بتاريخ الحجاز في هذه الفترة وهي فترة يعتبرها المؤرخون مجهولة المعالم لقلة ما كتب عنها ونشر .

يقول الأستاذ أحمد السباعي في مقدمة كتابه « تاريخ مكة » :

نحن لا نستطيع أن نكتب عن تاريخ مكة ، كتابة ترضي جيلنا لأن ما نملكه من مصادر لا يصح اعتماده إلا في الأبواب التي كان يعني بها أسلافنا . ويقول : وعندما أرخ لمكة أهلوها لم تكن نظرتهم اجتماعية بقدر ما كانت دينية ، لهذا ظفرت المشاعر وأسماء الجبال المفضلة بما لم تظفر به ناحية أخرى من نواحي التاريخ .

ويقول : قد نجد في خزائن التراث الإسلامي مطولات لا علاقة لها بمكة ، ولكن آفاقها الواسعة وفنونها المتنوعة تسوقها أحيانا إلى الاستطراد في شيء هام له علاقة بمكة ، فإذا استطاع المطلع أن يقتنص الاستطرادات من هذا النوع فإنه سيستنتج مادة لها قيمتها في الكتابة عن تاريخ مكة ، ولا يتيسر هذا إلا لمتفرغ يقضي سني حياته في القراءة واقتناص ما يصادفه منها – انتهى – (١٣٤) .

وهذا الذي ذكره المرحوم الأستاذ أحمد السباعي عن تاريخ مكة ينطبق على تاريخ الحجاز عامة ، لهذا فقد كان سروري بالعثور على مؤلفات معاصر للأحداث في الحجاز ، في مؤلفات خاصة بالمدن أو الولاة فيه ، كان سروري بذلك عظيما ، واحتفالي به أعظم ، ورأيت أننا بإيراد أهم ما جاء في هذه المؤلفات نجلو ملامح فترة هامة في تاريخ مدن الحجاز ، وأحداثه السياسية وحياته الاجتماعية ، وهو مدخل يدخل به إلى سراديب هذا العصر الذي لا يبعد عنا كثيرا ، ولكن تبعد عنا أخباره وآثاره ، وأعني به النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري .

---

(١٣٤) تاريخ مكة (ج ١) : ص ٦ ، ٧ .

وبعد هذا الإيضاح نأخذ خطانا لنبدأ القراءة والتدوين مستعينين بالله تعالى في هذا الطريق الطويل ونختتم الكلام بذكر ما عثرنا عليه من تاريخ تأليف هذه الكتب .

يقول الحضراوي في نهاية كتابه « الجواهر المعدة في فضائل جدة » :
وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين المبارك الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٨ هـ تجاه البيت الحرام (١٣٥) .

أما ما اخترناه من كتاب « تاج تواريخ البشر » عن الولاة العثمانيين في الحجاز فيبدأ من سنة ١٢٥٥ هـ وينتهي في سنة ١٣٠٢ هـ ، وهي نفس الفترة التي ألف فيها كتابه عن تاريخ جدة .

---

(١٣٥) انظر : مجلة العرب (ج ١ ، ٢ رجب وشعبان ١٣٩٩ هـ) : ص ٦٦ .

من كتاب « تاج تواريخ البشر »

ولاة الحجاز في عهد الدولة العثمانية

أول من سمي بوالي جدة الحاج عثمان باشا – القرملي – وكان أصله من القرم ، ابتدأ ولايته سنة ١٢٥٧ هـ وتوفى سنة ١٢٦١ هـ بجدة ودفن بها .

آثاره المعمارية :

أمر بعمارة مسجد سيدنا الحبر عبد الله بن عباس بالطائف وجدَّد قبته وأمر بترخيم المسجد الحرام ، وبنى قبر أمنا حواء وأقام عليها القبة ، وعمَّر قلعة الطائف وقلعة رابغ ، وبنى سور المعلاة المحيط بالمقبرة وعمَّر سور جدة .

محاربته لمشايخ حرب :

يقول الحضراوي : وكان في مدته قد عصى عليه أحد مشايخ حرب بجهة خليص يقال له ابن الرومي ، فأرسل إليه الكردي عثمان بجماعته ، وكان كبير الخيالة ، فحين توجه الكردي عثمان إلى ذلك المكان صنع للعربان المذكورين طعاماً وأَسَرَّ إلى خدمه وبعض عساكره : « إذا وضعتم الأرز واللحم واشتغلوا بالأكل اضربوهم بالسيوف ، واهجموا عليهم هجمة الحتوف » ففعلوا ثم ركب الكردي وجماعته من حينه ، وقد تركوا الخيام خوفاً من طارق الأنام ، وكانوا أقل من العشرة حتى جاءوا برءوسهم مشتهرة ، فنصبت بأعلى السور ، ولله عاقبة الأمور ، فأتوا بالباقين طائعين .

الوالي محمد شريف باشا :

أُسندت إليه الولاية سنة ١٢٦١ هـ ، وكان سابقا شيخ الحرم النبوي بالمدينة المنورة فجاءته الولاية فتوجه من المدينة إلى مكة ، ويصف الحضراوي الوالي المذكور فيقول : كان رجلا جيدا صالحا خيِّراً يحب الفقراء والعلماء ويواسيهم ويتألف الناس .

لم يبق معي غير الجبة :

يقول الحضراوي : وكانت أحواله أحوال الصالحين كلما دخل إلى المسجد الحرام ، أو ركب إلى عرفات يبذر للناس ما في جيبه من المعاملة – النقود – فيجتمع عليه جملة من الفقراء ، فإذا رآهم اجتمعوا ولم يبق معه دراهم يقلع جبته ويشير إليها ، إنه ما بقي معي غير الجبة أتأخذونها ؟

عودته لمشيخة الحرم :

عزل الوالي محمد شريف باشا عن ولاية الحجاز وأُعيد إلى مشيخة الحرم النبوي بالمدينة سنة ١٢٦٤ هـ ، وفي طريق عودته إليها توفى بينبع ودفن بها وكان قد بلغ من العمر ثمانين عاما .

الوالي محمد حسيب باشا :

أسندت الولاية سنة ١٢٦٤ هـ إلى الوالي محمد حسيب باشا .

عمارة دار أبي سفيان :

عمّر حسيب باشا المحل المعروف الآن بالقبان ، وجدد بناءه ، وجعله خلاوي لفقراء الحرم ، ورتب لهم عيش وشوربه .

يقول الحضراوي : وفي زماننا اتخذت خستخانة لمرضى فقراء

الأهالي والمنقطعين وهي دار أبي سفيان التي قال فيها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

أقول : دار أبي سفيان احتفظت بالاسم الذي ذكره الحضراوي وهو – القَبَّانْ – وكانت تستعمل مستودعا للأدوية لمديرية الصحة العامة في العهد السعودي ، وكان موقعها في الجودرية بعد المروة ، وقد أُزيلت هذه الدار في التوسعة السعودية للمسجد الحرام التي شملت المسعى .

آثاره المعمارية :

قام حسيب باشا ببناء تكية بجوار دار أم المؤمنين السيدة خديجة – رضوان الله تعالى عليها – وعمّر الميضا المقابلة لعين البزابيز ، وجعل فيها بيوت أخلية ، وهي في أوائل المسعى من أعلاها ، وبلَّط رحبة باب السلام وفرشها بالحجر الرخام الأبيض ، وكانت قبل ذلك محلا لغسيل الأرجل ، وربما كانت الكلاب تجلس فيها فمنعت وصارت من جملة رحبة المسجد الحرام زيادة له ينتفع به المصلون وغيرهم .

أقول : كانت رحبة باب السلام مفروشة بالرخام الأبيض الجميل وكانت بها حوانيت الكتبية وكان الناس يصلون بها إلى أن أُدخلت مباني باب السلام جميعها مع مباني المسعى في توسعة المسجد الحرام والمسعى .

وبلّط رحبة باب الوداع أيضاً من الخارج ، وهو المحل المعروف بحزورة ، عند بيت أم هانئ .

عزمه على توسعة المسعى :

يقول الحضراوي : وأراد أن يوسع المسعى ويهدمها ليتسع على الحجاج حال المسعى ، ويأخذ من الدور الداخلة في مشعر المسعى

ويجعل طريقا في الذاهب للسعي ، وآخر للآيب ، ونصب حبلاً – وكان مراده أن يجعل عوضه دَرَابِزاً حاجزاً – من الحديد وغيره .

يقول الحضراوي : ثم لما صمم على توسيع المسعى ، وهدم بعض الدور الداخلة بالمشعر كما مر ، كتب فيه بعض أهالي مكة المشرفة ، ونقموا عليه ، وتوجه بالكتب إلى الدولة العلية ، أحد الفضلاء ، وهو المرحوم السيد عبد الله بن عقيل . توجه خفية على ناقة إلى التنعيم ثم أخذ برًّا عن طريق الحربية ، وتوجه إلى الآستانة العلية وشكاه ، فأمرت الدولة العلية بعزله ، وكان إذ ذاك على غفلة ، وعزل عن مكة المشرفة سنة ١٢٦٦ هـ ، فتوجه إلى الآستانة مكرّماً فتولى بها جملة ولايات من – جملة – بينها – نظارة الأوقاف إلى أن توفى بها سنة ١٢٨٧ هـ .

أعماله الأخرى :

يقول الحضراوي : وأخرج مكاتب الصبيان من الحرم الشريف ، وفرَّقهُم في الزوايا ، ورتب لكل فقيه مائة قرش بالخزينة العامرة .

ويقول الحضراوي : وربما كان يَعُسُّ بنفسه ليلا ، ويدور مكة بزي أحد العساكر ، ويختفي بالقهاوي ، ويتفقد المحتاجين من ذوي البيوت .

تأسيس مراكز الشرطة :

يقول الحضراوي عن هذا الوالي : وأزال جملة من المنكرات ، ورتب كركولات بباطن مكة من العساكر النظامية فجعل في المسعى كركولا ، وبالمدعى كركولا ، وبسوق المعلى مثله ، وبالشبيكة عند المحجوب مثله ، والهجلة مثله ، وعند بيت الباشا مثله .

أقول : الكركول هو الاسم التركي لمركز الشرطة ، وكان الناس ينطقونه في الحجاز بالنون لا باللام .

الوالي محمد كامل باشا :

أُسندت إليه الولاية سنة ١٢٧١ هـ ، وكان على خلاف مع الشريف عبد المطلب أمير مكة المكرمة .

يقول الحضراوي : وفي مدته وقع الخوف في سائر الحرم وأطرافه ، وثارت فتنة بمكة ثم جهز عرضيًّا من جدة لمقاتلة الشريف عبد المطلب ونادى الناس واشتد الكرب وحصل الوسواس وتحت – كلمة ناقصة – على عزل أمير مكة المذكور لتكاثر الفتن والشرور ثم عزل عن مكة بسبب منافسة بينه وبين أمير مكة الشريف عبد المطلب بن غالب وأوضح ذلك في هامش الكتاب فقال : ثم لم يتفق الحال بين الوالي المذكور وبين الإمارة لأسباب من جملتها إبطال بيع الرقيق علناً فقامت البلد وثارت العامة يوم الخميس تاسع عشر رجب سنة ١٢٧٢ هـ وصار رمي البندق بالمسجد الحرام ، وأصاب البيت الشريف ، وقتل نحو تسعة وعشرين إنسانا من الأهالي .

مقتل القنصلين الإنجليزي والفرنسي بجدة :

في سنة ١٢٧٤ هـ أُسندت ولاية الحجاز إلى الوالي محمود باشا ، وفي عهد ولايته وقعت الفتنة بين أهالي جدة والمقيمين بها من النصارى .

أقول : « وقد كنت ذكرت شيئا عن هذه الفتنة في الجزء الثاني من أعلام الحجاز نقلا عن موسوعة مدينة جدة للأستاذ عبد القدوس

الأنصارى » (١٣٦) وقد أورد الحضراوي أخبار هذه الفتنة بتفصيل أوضح مما ورد في موسوعة جدة وها نحن ننقل هنا ما أورده الحضراوي :

يقول الحضراوي : وفي مدته – محمود باشا – كانت مقاتلة أهل جدة مع من فيها من النصارى فقاموا عليهم وقتلوهم ، وأسباب هذه الفتنة أن أولاد صالح جوهر تخاصموا مع بعضهم ، فرفع على سفينته علم الدولة العثمانية ، وكان أولاد صالح جوهر رعية للإنجليز ، فجاء القنصل الإنجليزي إلى السفينة وأنزل الراية العثمانية ومزقها وكسرها ، وداس عليها بكنترته – حذائه – ورفع راية الإنجليز على السفينة ، فلما علم قائمقام جدة بما ذكر استشاط غضباً ، واستدعى محتسب جدة – رئيس البلدية – عبد الله أغافران ، وقال له : « اجمع مائة من الحضارم بسلاحهم ، ودعهم يمرون » أمام بيت القنصل لعله يرتهب ، فلما اجتمعوا وتبعهم الرعاع والغوغاء ، قامت البلد على ساق وانتشرت الفتنة بالاتفاق ، وكان قد قدم إلى جدة مركب حربي فرنساوي ورسى في المرسى فأرسل نامق باشا لأهل المركب أنهم يرسلون – كَمْ قُلَّهْ – عدداً من القنابل على البلد من فوقها لإرهاب المفسدين ، ولقلة العساكر بجدة ، فحين وقعت القنابل وإن كانت لم تصب أحدا ، ولم تحدث حدثا ، فرَّ الناس إلى مكة هاربين فنزل الباشا المذكور من مكة إلى جدة ، وصحبته جملة من العلماء كشيخ الإسلام مولانا الشيخ جمال شيخ عمر ، والشيخ صديق كمال ، والشيخ محمد جاد الله ، والسيد علي نائب الحرم ، وغيرهم – رحم الله الجميع – ، وتدارك الأمر بعد التلاشي ، ودبر إطفاء تلك الواقعة ، وكان أهل جدة

---

(١٣٦) أعلام الحجاز : ص ٢١٨ ، ٢٤٣ .

أوقعوا قتلاً ونهباً وأسراً في سائر النصارى القاطنين بها وغيرهم ، فجمعوا جملة من أموالهم من الناس ، وقتلوا نحو اثنى عشر رجلا ، ممن وجب عليهم القتل ، لأنهم قتلوا بإقرارهم ، ونفوا نحو أربعين ، وأفقدوا محتسبها المذكور عبد الله أغا محتسب ، وأما قائمقام فأنكر كونه قال للمحتسب اجمع مائة من الخصام .. إلخ .

وقتلوا أيضا الشيخ سعيد العمودي كبير الحضارم ، وكان رجلاً صالحاً ديّناً .

وأستطيع أن أعلق على ما أورده الحضراوي في شأن هذه الواقعة ، بأن القائمقام الذي أوعز لرئيس البلدية – المحتسب – لتجميع الحضارم وإرسالهم بسلاحهم كقوة استعراضية أمام منزل القنصل الإنجليزي ، هو الذي هيأ للعامة والغوغاء أن ينضموا إلى هذه القوة ، وقد عرف الناس أن القنصل الإنجليزي أهان علم الدولة العثمانية ، – وهو رمز الإسلام عند المسلمين في ذلك الزمان – فأنزله من السفينة ومزقه ودهس عليه بحذائه ، فثارت الغيرة الدينية في نفوسهم ، فانطلقوا فقتلوا القنصل الإنجليزي والفرنسي ومن استطاعوا الوصول إليهم من النصارى المقيمين بجدة ونهبوا أموالهم ، والفتنة كالنار إذا شبت أخذت ما في طريقها ، وكان الأولى بالقائمقام أن يتصرف بالحكمه ، ويغلّب جانب العقل ، ولا يدخل العامة في معالجة هذه الأمور ، وأغرب ما في القصة التي أوردها الحضراوي أن نامق باشا أوعز للبارجة الفرنسية بإلقاء بعض القنابل على المدينة للإرهاب بحيث لا يصيب الأهالي أو المباني . ونستطيع أن نستخلص من هذه الحادثة عدة أمور :

(١) أن الدولة لم يكن لديها من جنود الأمن ما يكفي لتسكين الفتن إن ثارت ، والمحافظة على أمن المدينة .

(٢) أن الحضارم كانوا موجودين في مدينة جدة ولديهم السلاح وكانوا متكتلين تحت قيادة كبارهم ، وقد قتل من كبار الحضارم في جدة الشيخ سعيد العمودي كبيرهم ، ونفي إلى قبرص الشيخ يوسف بإناجة وغيره من كبار الحضارم .

(٣) أن القنصل الإنجليزي كان أرعن لإقدامه على إهانة علم الدولة العثمانية ، وكان الأولى به أن يتصرف مع ولد صالح جوهر الذي غيَّر العلم الإنجليزي ، ليعيده إلى السفينة بدلاً من أن يتصرف هو ذلك التصرف الأرعن الذي كان سبباً في هلاكه .

(٤) أن القائمقام كان أكثر رعونة من القنصل لأنه أراد معالجة الأمر بالتخويف ، فانطلقت الفتنة من عقالها وقام بكبرها الغوغاء الذين استثيرت حميتهم الدينية فاندفعوا يقتلون وينهبون .

علي باشا الكتهيلي :

وفي سنة ١٢٧٦ هـ قدم مكة المشرفة الوالي علي باشا الكتهيلي ، وفي أيامه عصوا عليه الأرانطة الباش بوزك وهجموا على مدرسته لأجل ماهياتهم لأنه كان يحب التوفير في الخزينة العامة ، ثم عزل في سنة ١٢٧٨ هـ .

الوالي الموسوس :

وفي سنة ١٢٧٨ هـ تولى المشير عزت باشا وكانوا يلقبونه الموسوس ، لأنه كان ربما يتوضأ بخمسة أباريق ودوارق ويظن أنه لم يحسن

وضوءه . وفي مدته غلت الأسعار وحصل الموت العام ، ولم يحدث من الخيرات شيء إلا نزراً يسيراً ، وكان له جانب عبادة ثم عزل في سنة ١٢٨١ هـ .

ونستطيع أن نستخلص من هذا أن الطاعون وقع بالحجاز في السنوات التي تولى فيها هذا الوالي الموسوس ، وقد عبر عنه الحضراوي بالموت العام .

الوالي المتواضع :

في سنة ١٢٨١ هـ أُسندت الولاية إلى محمد وجيهي باشا شيخ الوزراء ، وكان ساكن الحركات صاحب لطافة مسن ، موافق لسائر الناس ، حمدت سيرته في الناس ، كثير الطواف ، وكان ربما انفرد عن العساكر والأغاوات ، ويمشي بخادم واحد من المدرسة لدار الحريم ، وكانت أيامه كلها ساكنة إلى أن توفى بالطائف سنة ١٢٨٣ هـ وعمره قد ناهز الثمانين .

آثاره المعمارية :

وكان ديدنه التحصين ، عمّر قلعة مكة وجددها ورخّمها ، وعمّر قلعة الطائف وسورها وأتقن الأبراج وأصلح المآثر .

الوالي الساذج :

في سنة ١٢٨٣ هـ أُسندت الولاية إلى محمد معمر باشا ، ووصل إلى مكة سنة ١٢٨٤ هـ لأنه مكث بمصر مدة نصف عام ، ثم وصل إلى جدة وبدأ بزيارة المسجد النبوي الشريف .

يقول الحضراوي : ودخل إلى البيت الحرام متواضعا صاحب عبادة تامة ، وتواضع وانكسار ، إذا أراد أن يطوف أو يدخل الحرم الشريف لا ينزل إلا لوحده - منفرداً - كأحد العامة ، وربما إذا أراد استلام الحجر الأسود لا يعرفه الحجاج ، فهذا يدفعه ، وهذا يوكزه حتى يقبّل الحجر بتواضع كأحد الناس ، ويقبل عرضحالات [١٣٧] الفقراء بنفسه ويقبل على الناس ، وإذا ذهب إلى بيت الحريم هو وخادم - يمشي خلفه من بعيد - كثير العبادة ، يحب العلماء ، غير أنه لم يكن له معرفة بالسياسة الدنيوية ، باطل الحركة عن مدارات الرعية ، لا يدري الأمور الداخلية والخارجية كأنه ساذج لا يعرف أحوال الدولة .

ثم إنه لما رأى نفسه عاجزاً عن تدبير الرعية توجه من مكة في أوائل سنة ١٢٧٨ هـ إلى الآستانة العلية وطلب الاستعفاء عن الولاية ، فوجهته الدولة إلى أنقرة والياً عليها .

وقد أوضح الحضراوي بعد ذلك سبب طلبه الإعفاء من الولاية فقال :

وأسباب طلبه الاستعفاء وتوجهه أنه جاءت بعض أوامر تتضمن إجراءً هامًّا بالحجاز فطلبوا الاستسقاء والاستغاثة بالطائف ، وكان جملة أعيان مكة بالطائف وقد شعروا بذلك ، فبعد أن استغاثوا ، اجتمع الناس من أهالي مكة والطائف حوالي الباشا يلاطفونه بأن مكة والحجاز مستثنى لا يقبل مثل هذا الاعتناء من الدولة العلية به وبأهله ، وكون أهله جيران

---

(١٣٧) عرضحالات : جمع ، مفردها : عرضحال ، وهو الاصطلاح على ما يُقدَّم للحكام من رسائل في العهد العثماني من الناس في شئون حياتهم .

الحرم ، وحين اجتمعوا حواليه بالمصلّى ، وانضم الناس إليهم ارتاع الباشا المذكور ، وقال لهم : والله لا أحدث شيئا ، ولا لكم إلا ما يسركم لكونكم من أهل الله وجيران بيته ، ثم لما قدم مكة المشرفة توجه إلى الآستانة مستعفياً من الولاية كما تقدم .. انتهى ما ذكره الحضراوي .

ونستطيع أن نستخلص من هذه الحادثة أن الدولة العثمانية كتبت إلى والي الحجاز بإجراء بعض الأمور التي اعترض عليها الناس لما علموا بخبرها فطلبوا من الوالي إقامة صلاة الاستسقاء ، فلما اجتمعوا للاستغاثة وأقاموا الصلاة ، التفوا حول الوالي وكان الزمان صيفا وجُلّ أعيان مكة يصيفون بالطائف ، أقول التفوا حول الوالي وقالوا له : إن الحجاز باعتباره بلد الله يجب أن يكون معفًى من الإجراءات التي تطبقها الدولة في البلدان الأخرى مثل مصر والشام وغيرها ، فلم يكن من الوالي بعد أن رأى التفاف الناس حوله وفيهم الأعيان والعوام إلا أن وعدهم بأن لا يجري شيئاً مما أُمر به ثم توجّه إلى الآستانة فاستعفى من ولاية الحجاز .

والواقع أن نظرة الدولة العثمانية إلى الحجاز ، ونظرة أهل الحجاز إلى أنفسهم في ذلك الزمان كانت تتلخص في أن الحجاز بلد فقير ، فيه بيت الله الحرام ، ومسجد نبيه الكريم ، وأنه يعيش على ما ترسله الدولة من المعونات لأهله وما يرد من الحجاج الوافدين إليه ، وأن أهله بصفتهم من جيران البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف يجب أن يكونوا معفيين من الأنظمة والإجراءات التي تطبق في الولايات الأخرى ، وقد شمل هذا الاستثناء نظم التعليم والجندية وغيرهما . ففي الوقت الذي كانت فيه الولايات الأخرى في مصر والشام والعراق تتمتع بنظام تعليمي متقدم وكذلك بنظام تعليمي عسكري فإن الحجاز كان مُعْفى من هذه الأنظمة

الأمر الذي أصبح فيه متأخراً عن الولايات الأخرى ، وكان رجال الدولة العثمانية ينظرون إلى أهل الحجاز هذه النظرة الخاصة فيعفونهم من الانخراط في سلك الجندية ويتركون أمور التعليم قاصرة على حلقات العلم الديني في المسجدين ويرسلون – الجرايات – إلى الحجاز ، ويظنون أنهم بهذا يميزونه لجوار أهله للحرمين الشريفين ، كان أهل الحجاز قانعين بحياتهم ، ولهذا فإنهم التفوا حوله الوالي وقالوا له : « إن الحجاز مستثنى ولا يقبل مثل هذا الاعتناء من الدولة العلية » كما ذكر الحضراوي من قبل .

وكنت أود لو أن الحضراوي ذكر لنا ما هي الإجراءات التي طلبت الدولة العلية من الوالي تنفيذها في الحجاز ؟ والتي وصفها أهالي مكة باعتناء الدولة بهم ، ويبدو لي من فحوى كلمة الاعتناء أن الأمر لم يكن يتعلق بضرائب تفرض على الحجاز ، وإنما كان نوعا من العمل المفروض للنهوض بالبلاد في مرافق الجندية أو التعليم ، ولكني لا أستطيع الجزم بذلك ، وإن كنت أرجحه – والله أعلم – .

الوالي خورشيد باشا :

أُسندت الولاية إلى خورشيد باشا ودخل مكة في الرابع من شوال سنة ١٢٨٧ هـ .

يقول الحضراوي : وكان قد قدم قبله إلى مكة مدير الحرم عزت أفندي متوليًا على المديرية العامة ، فأمر بتبطيل الأذكار في المسجد الحرام ، ومنع الذين يقرأون دلائل الخيرات بالْجُمَعْ لعدم التشويش على المصلين ، وجعل عساكراً من النظامية في المسجد الحرام ، يمنعون من يعفِّش بالمسجد أو يكثر الحركات الصبيانية .

ووصف الحضراوي خورشيد باشا فقال : كان عالماً فاضلاً يحب العلم وأهله ، حتى بلغني أنه ينظم الشعر ويرويه .

بناء قلعة الطائف :

وخورشيد باشا هو الذي بنى قلعة الطائف .

يقول الحضراوي : ثم إنه عمّر قلعة الطائف ، وجعل فيها مسجدا ، وجعل فيها سائر دوائر الحكومة وما يتعلق بها ، والخزينة ، فكانت لطيفة منه ، وكان ذلك سنة ١٢٨٨ هـ ..

أقول : ولا تزال قلعة الطائف باقية على هذه العمارة بيد أنها تستعمل للأغراض العسكرية .

بين الوالي والمفتي :

في ولاية خورشيد باشا ثارت في مكة فتنة فقام بعض الضباط يريدون تهييج العساكر على أهل مكة فجمعهم - الوالي - وقال : لا أحد يحدث حدثا ، ولايرمي رصاصة بغير أمري ، واستدعى مفتي البلد ، والشيخ الشيبي ، وكان الرعاع قد هيجوا الجري في الطرقات . قال المفتي الشيخ عبد الرحمن سراج مقتبساً : يا أفندينا ﴿ لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ﴾ . فأجابه الباشا قائلا : يا مولانا كأنك تشير لي بمعنى : ﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ فوالله لا أحب الفتنة .

أمير مكة يسكن الفتنة :

يقول الحضراوي : فما كان بأسرع من أن ركب حضرة أمير مكة سيدنا الشريف عبد الله باشا - أدام الله بقاءه - وسكّن الفتنة ، وأمّن

البلد ، ودارها - سار فيها - هو وقرابته النجبا بالقواسة (١٣٨) أمامه ، وصار يخاطب كل أحد بقوله : يا فلان اجلس وابسط دكانك .

خورشيد باشا يلجأ إلى بيت الشريف :

يقول الحضراوي : ثم تولى بعده أفندينا قاسم باشا القيصرلي متصرفا على جدة ومكة والطائف ، وكان متصرفا قبل هذه النوبة على المدينة المنورة ، ثم صرف عنها بولاية جدة فقط ، ثم أُضيفت له ولاية مكة المشرفة ، فدخلها على حين غفلة يوم الثلاثاء الثالث عشر من شوال سنة ١٢٨٨ هـ بموكب جميل وهو محرم متواضع ، ابتدأ عند الدخول بالطواف والسعي بعمرة بعد صلاة العصر ، وأما خورشيد باشا المتقدم فحين بلغه مجيء قاسم باشا خرج عن مدرسة الحكومة مهرولاً بخادم وراءه شايل بقشة له إلى بيت الخاسكية المقابل لها ، وعليه آثار الحزن المخيف ، فالتجأ إلى حمى الدار المذكورة ، وهي لمولانا الشريف ، فناداه لسان حال المتولي القادم : « إنما أنا قاسم » فضربت له المدافع تشريفاً ، وكانت سبعة عشر مدفعا لقدر رتبته البهية ، واستمر خورشيد باشا إلى أن أتى فرمان المتولي الجديد السلطاني بالتأييد الشاهاني ، والعز الخاقاني .

أقول : بيت الخاسكية كان يقع على الصفا ، أمام باب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، وقد أُزيل والبيوت التي حوله جميعها حينما تمت التوسعة السعودية للمسجد الحرام وتنظيم المسعى .

---

(١٣٨) القواسة النسبة فيها إلى حامل الأقواس : وهو اصطلاح يطلق على الجنود المرافقين لأمير مكة من الحرس .

الوالي يعاقب محتسب السوق :

يقول الحضراوي : عن الوالي قاسم باشا : فأول خير فعله عزله لمحتسب السوق وحبسه له بالحديد في أسفل جياد ، ولم يسبق لمثله فعله ، ولا تقدم ، والأمر عليه محاسبة كل من أخذ منه شيئاً من الرشوة ، فتقدمت فيه جملة عروض من أهل الأسواق ، وحاسب كل من له شيء عنده من النقود ، وكان زاد وفاق غيره عن الحدود ، ثم ولى مكانه أحد العلماء الأفاضل والخطباء الأماثل الشيخ عبد الرحمن العجيمي من بيت فضل وصلاح وعلم ونجاح وهو اللائق بمنصب الاحتسابة ، أن لا يكون في الظاهر مصلح ، وفي الباطن مجرح ، والله يعلم المفسد من المصلح .

رخص الأسعار :

يقول الحضراوي : عن المحتسب الجديد عبد الرحمن العجيمي : فرخصت في مدته الأسعار ، وصار رطل اللحم بستين ديواني بعد أن كان بثلاثة قروش ، وكيلة الحب المصري بثلاثة قروش بعد أن كانت بخمسة وستة قروش ، ورطل السمن بستة بعد أن كان بثمانية وتسعة ، وكانت الأسعار قد تمادت في الغلو مدة المحتسب الأول مدة ثلاث سنوات على ما تقدم سعره .

تنظيم الدكاكين في المسعى :

يقول الحضراوي : عن المحتسب العجيمي : ونقل بياعين السمن ، والعيش من المسعى بعد أن كانوا يزاحمون من يريد السعي فصار ميداناً للمشعر ، فَدَخَّلُوا الباعة في الدكاكين ، وزالت بعض الأمور المخلة من ضيق ذلك المشعر عن يقين .

عزل المحتسب العجيمي :

يقول الحضراوي : وفي اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة ١٢٨٩ هـ عزل المحتسب المذكور ، وولى مكانه زابط – ضابط – من طرف الديوان اسمه خليل ، أصله قواس ثم حباس ، ثم صار كبير بعض القواسة بديوان الحكومة إلى أن صار زابط للسوق .

حدة طبع الوالي :

يقول الحضراوي : عن قاسم باشا : وكانت تصرفات هذا الباشا كلها حميدة ، إلا أنه يغلب عليه سماعه للدفتردار سليمان أفندي ، فضيق على أهل المعاشات ، وأمره بالنزول إلى جدة مع الخزينة وحصر الكتبة ، وإسَاءَتْ بعض العامة ، وكل من وقع له من الرعايا يقوم بنفسه ويضربه بيده ، ويتكلم ببعض الكلمات القبيحة ، فكان يغلب عليه الحمق ، وإلا فهو نبيه فطن حافظ لصداقة الوظيفة ، ثم بعد ذلك صرف عن مكة المشرفة ، هو والدفتردار سليمان أفندي ، وكان عزل قاسم باشا في أواخر شعبان سنة ١٢٨٩ هـ..

حدود ولاية الحجاز :

يقول الحضراوي : ثم تولى محمد رشيد باشا المشير واليا على الحجاز كالعادة الأولى الجارية في الولاة وكان وصوله إلى مكة المشرفة يوم الخميس المبارك ليلة العشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة ١٢٨٩ هـ ، وقرئ فرمانه بالمسجد الحرام يوم السبت ثاني وعشرين من الشهر المذكور ، بأنه والي ولاية الحجاز ، ويحد ولايته من الشرق جبل شمَّرْ بمدينة الرسول ﷺ ، ومكة وجدة والطائف ، إلى حدود رنية من أرض الحجاز .

أقول : جبل شـَّمرْ بحائل وليس بمدينة الرسول ﷺ .

المحتسب بكري باشا :

يقول الحضراوي عن المشير محمد رشيد باشا : وولى محتسبا من الأهالي يقال له بكري باشا من أصناف المطوفين ، فغلا سعر اللحم وارتفع بيقين .

فرض الضريبة على الأغنام :

ووضع على كل رأس مما يذبح من الأغنام عشرين ديواني للميري .

والي الحجاز الصدر الأعظم السابق :

أُسندت ولاية الحجاز في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٩١ هـ إلى أحد النبغاء الكرام ، والرؤساء الفخام ، الوزير الأعظم السيد محمد رشيد باشا الصدر الأعظم سابقا الشهير بالشرواني .

يقول الحضراوي : كان حين رفع عن الصدارة العظمى توجه إلى مدينة حلب واليا عليها ، ثم وجهته الدولة العلية منها إلى الأقطار الحجازية .

لا موكب بعد الصدارة العظمى :

فقدم مكة ليلة الخميس غاية شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ هـ ، محرماً لله ناسكاً طائعاً ، ملتزماً بأعتاب بيت الله معترفاً ماسكاً (١٣٩) .

---

(١٣٩) لعل صحة الكلمة : ناسكاً .

ثم يقول الحضراوي عن هذا الوالي : شاوَرُوه في الرجوع ليلا إلى خارج البلد ليدخلها صباحا بانتظام الموكب مثل عادة الولاة فقال : لا موكب بعد الصدارة العظمى ، ولا ينبغي في محل مهبط الوحي ونزول القرآن غير التواضع ، وترك العجب .

هايتلو دولتلو :

يقول الحضراوي : ثم في ثاني الأيام قرئ الفرمان الهمايوني فزيد فيه في ألقابه : « هايتلو دولتلو » وهو عالم فاضل داغستاني الأصل ، أصله من الخواجات (١٤٠) العلماء الأفاضل ، محدث كامل ، وفقيه نبيه ، يحب العلماء ، ومجالس الخير ، فكم له من صدقات فاخرة ، وخيرات يخص بها الأفاضل ، ويضرب به في الكرم المثل ، عربي اللفظ عليه سكينة ووقار مع جلال واحتشام .

الدراويش :

يقول الحضراوي عن الصدر الأعظم : صحب معه إلى مكة جملة من الدراويش ، وزار المآثر جميعها وتصدق على فقراء الحرم .

أقول : الدراويش جماعة من الناس يقولون عن أنفسهم : إنهم تفرغوا للعبادة والذكر ، والسذج من الناس يتوسمون فيهم البركة ، فيقومون بإطعامهم ، وإسكانهم وهذا ليس من الدين الصحيح في شيء ، فالذكر لا يمنع العمل ، والمسلم الأبي يعمل بيديه ليقوم بشئون نفسه وأهله ولا يقبل الصدقات ، فاليد العليا خير من اليد السفلى .

---

(١٤٠) الخواجات : جمع خوجة وهو الأستاذ المعلم .

وفاة الصدر الأعظم بالطائف :

لم يمكث الصدر الأعظم في الولاية إلا شهرا وبضعة أيام .

يقول الحضراوي : وفي رابع شعبان توجه إلى الطائف ونزل ببستان أمير مكة سيدنا الشريف عبد الله باشا في قصره الشامخ بشبرة مقابل العقيق فمكث بالطائف مدة أسبوع ، فتغير عليه الهواء وصادفه الأجل المحتوم ، فاشتكى يوم الجمعة بعد أن صلى بمسجد حبر الأمة ومكث إلى ليلة الربوع – الأربعاء – الحادي عشر من شعبان المعظم في نصف الليل صار إلى رحمة الله ورضوانه .

إصلاحات الصدر الأعظم :

بالرغم من قصر المدة التي قضاها الصدر الأعظم السابق السيد محمد رشيد باشا إلا أنها كانت حافلة بالأعمال الإصلاحية في مكة والطائف .

يقول الحضراوي : وكانت عين زبيدة حصل فيها خراب وضعف ماؤها جدًّا ، فأرسل حالا من الطائف مشرفين للقياس على مصرفها ، وأمر من حينه بنحو تسعين ألف غرش لعمارتها ، وأمر بفتح باب جنوبي في مسجد حبر الأمة – مسجد ابن العباس بالطائف – وتبليطه لتوسيع المسجد ، والخروج على طريق السلامة ، فحالا جرى ذلك وقضى حوائج السائلين وأوصى بجملة جنيهات من ماله تفرق على أهل مكة المشرفة ففرقت .

مدرسة الكتبخانة :

وأمر بشراء مدرسة كتبخانة – مكتبة – عند باب التكية المصرية

في مكة المشرفة بجوار المسجد الحرام فحالا صارت ، ووضعت فيها الكتب النفيسة المعتبرة ، وعينوا لها مباشرين .

ويعلق الحضراوي على أعمال الصدر الأعظم فيقول : غير أنه لم يتهنَّ بالمجاورة ، وكانت نيته لأهل مكة والبلد خيراً ، لأنه قمع الدفتردار الذي كان يغم الأهالي ، وينقص معاشاتهم ، وأمعن النظر في الهمة حالاً بعين زبيدة لكن لم يتهن به الناس .

أقول : كانت التكية المصرية أمام باب أجياد مواجهة للمسجد الحرام ، ولابد أن المدرسة التي اشتراها الصدر الأعظم وجعل منها مكتبة كانت مواجهة للتكية مما يلي الحرم ، وقد أدخلت المدارس التي كانت شارعة على الحرم كما أدخلت التكية المصرية وغيرها من المباني في التوسعة السعودية للمسجد الحرام .

الوالي محمد تقي الدين باشا :

في أواخر شهر شوال سنة ١٢٩١ هـ تولى ولاية الحجاز محمد تقي الدين باشا الحلبي وقدم إلى مكة في العشر الأواخر من شوال سنة ١٢٩١ هـ وكان قبل الباشوية في سلك العلماء . تولى الفتوى بجهة حلب نحو عشر سنوات .

التلاعب من القائمين على عين زبيدة :

يقول الحضراوي عنه : فلم يحدث شيئا ، إلا أنه أمر بالبحث على مشايخ سقاية العين ، وعزل سقاباشِي – رئيس السقاة إسماعيل تفاحة – وولى السيد خالد شبيكة ، وسَعَّرَ القربة – قربة الماء – بعشرين ديواني ومن زاد بسعره يشق قربته ، فاستراح الناس وكثر الماء وراج ، وفاض الماء بكثرة في زحمة الحجاج .

يقول الحضراوي : وصلح ميضة باب السلام ، وأجرى لمطاهرها الماء من العين ، وكان من مدة سنين منقطع عنها وقنعت الناس واستراحت .

ويقول الحضراوي : وكان من باهر حسناته التوسع على أهل مكة في الانتباه لماء العين ، وكونه قرَّطَ – شَدَّدَ – على السقايين ، والقسامين ، وقمع أحمد بك المهندس ، وقال – له – لا تتعرض للعين ، وليس فيها خراب ، إنما الخراب أصله من القسامين لأجل غلاء الماء ، ففاض .

ترتيبات المعاشات لبعض أهل مكة :

يقول الحضراوي : وكان هذا الباشا صاحب همة علية ، رتب لجملة الناس من أهل مكة ممن يلوذ به معاشات ، فجاءت براءتها من الآستانة .

الباشا يطلب إعانات لمعسكر المجاهدين :

بعد أن أثنى الحضراوي على همة الباشا في ضبط أمور عين زبيدة ومنع التلاعب بها ، وجّه نقده إلى الباشا فقال : وفي أيامه كانت مكة في ضيق من الحال – أول هام – من جهة الإعانة الذي – التي – كان يطلبها منهم للعساكر المجاهدين ، كل واحد بقدر حاله ، ولو ربع مجيدي أو روبية (١٤١) يقبلون ، والحال أن جميع أهل البلد ناس فقراء لا حيلة لهم عائشون في أمن الله ، مستورون بستر الله ، فتكرر هذا منه ، فشوش أذهانهم .

---

(١٤١) الروبية : وحدة العملة الهندية ، وقد أدركتها في الخمسينات من القرن الماضي ، وكل سبعة روبيات بجنيه ذهب . وأول هام يعني بها أولاً .

يقول الحضراوي معلقا : وليت شعري إن هذه الدراهم تصل العساكر والدولة ، لأنه جمع شيء كثير بسبب إعانة بعض الأكابر من جدة على نحو خمسمائة ريال وألف ، إلى مائة ريال وفي مكة من تجار الميمن (١٤٢) وغيرهم فسئمته الناس ، وتمنوا رفعه لذلك .

عزل الوالي :

يقول الحضراوي : فعزل بعد موت سيدنا الشريف عبد الله باشا ابن عون ، لأنه ما انفرد لهذا الطلب من الأهالي إلا بعد موت سيد الجميع (١٤٣) .

الوالي يمتنع عن مقابلة الشريف :

يقول الحضراوي : فلما وصل إلى مكة الشريف الحسين باشا بن المرحوم الشريف محمد بن عون صِنْوُ أمير مكة المتقدم ، تكبر الباشا المذكور ، ولم ينزل لمقابلة حضرة الأمير لأنه حينئذ بالطائف ، ولا حضر لقراءة الفرمان فبناء عليه جاء عزله .

محاسبة الوالي على الإعانة :

وقدم مفتش من طرف الدولة العلية يعدد عليه سيئاته ، ويحاسبه عما أخذه برسم الإعانة ، ثم توجه إلى الآستانة العلية .

---

(١٤٢) الميمن : طائفة من الهنود اشتهروا بالغنى وكانت لهم محلات تجارية بمكة المكرمة .

(١٤٣) يقصد الحضراوي : أن الوالي أقدم على طلب المساعدات للعسكر بعد وفاة الشريف عبد الله باشا .

المشير محمد حالت باشا :

قدم هذا الوالي في أواخر شهر ذي القعدة سنة ١٢٩٤ هـ ، وقد أطنب الحضراوي في مناقب هذا الباشا لسابق معرفته به في الآستانة ، وحينما علم بقدومه توجه إلى جدة لمقابلته ، وهنأه بقصيدة من شعره ، وكان قد نظم له قصيدة أخرى جعل أواخرها باللغة التركية .

قائمقام جدة يخشى تحرك وكلاء الإنجليز والفرنسيين :

يقول الحضراوي عن حالت باشا : وطلع الطائف في أوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ بأهله فما استقر خمسة عشر يوما بالطائف إلا وقد أتاه كتاب من علي بك قائمقام جدة يخبره بتحرك وكلاء دولة الإنجليز وفرنسا ، وأسبابه أن رجلا نصرانيًّا خرج مع جماعة يصيد فرمى بندقا فجاءت في رجل عربي من الصيادين البدو وقتلته ، وهو خائف من فتنة ، أو قيام حركة من أهل البلد أو غيرهم .

عشرة رجال ينقلون الباشا من كرا :

فنزل الباشا المحتشم من طريق الكرا ، ولما وصل إلى المرسن أحضر عشرة رجال من شبان العرب من الهدا وأعطاهم أربعين ريالا مجيدية ، وشالوه في الفالكي – وهو كرسي من خشب – كان قد اصطنعه مثل التخت ، إلا أنه قَدْرُ نصف التخت الكبير ، يَشَدُّ على بغلين ، فشالوه العشرة أنفار إلى أن نزلوا من جبل كرا ، وبقي في الكر ، وفي ثاني يوم ليلا قدم مكة المكرمة ، ثم بات ليلته بمكة .

أقول : لقد سبق الباشا بتصرفه هذا الهنود الذين يحملون الناس في شوارع الهند بالركشا ، ولله في خلقه شئون .

وفاة الباشا بجدة :

وفي ثاني الأيام كان قد نزل جدة فمكث بها ثلاثة أيام ، وفي الليلة الرابعة توفى إلى رحمة الملك العلام ودفن بمقبرة حواء في الخامس عشر من جمادى الأولى سنة ١٢٩٦ هـ .

موت الخيل بالحجاز :

وفي هذه السنة كثر موت الخيل بمكة والحجاز .

أقول : لابد وأن يكون قد أصاب الخيل مرض وبائي قضى عليها .

اضطراب الأمن بسبب إبطال العملة النحاسية :

يقول الحضراوي : وبعد وفاة هذا الباشا ، كان الشريف حسين باشا بن محمد بن عون ، بالغزو ناحية عسير ، والبلد افتتنت من جهة العملة النحاس ، فإنهم نادوا بإبطالها ، وعَزَّلَتْ الأسواق ، ودار النهب بالأسواق والبلد معزولة ، حتى قال الأديب الشيخ حسن وفا في ذلك :

كسد النحاس ولاح طالع نحسه ... للقوم بعد السعد في الدبران
وتعطلت بين الأنام قروشهم ... وغدت تباع بأبخس الأثمان
فغدت بأيدي القوم مع أنْصَافِها ... بالبخس في الأثمان كالأثمان
فكأنما عصوا الإله فعوقبا ... بعد الوفا بالضرب والنقصان
فعسا مليك العصر يرضى عنهما ... ويقيمها من ورطة الخسران

أقول : يبدو أن بعض المغامرين من الناس اغتنم فرصة غياب أمير مكة في بلاد عسير ووفاة الوالي الفجائية فأشاع خبر إبطال العملة النحاسية ، لتهبط أثمانها ، فتباع بأبخس الأثمان ، فيشتريها الطامعون الذين

أطلقوا هذه الإشاعة الكاذبة بالثمن البخس ، لأن الدولة لا ترضى عن هذه الأمور فتعلن للناس أن العملة باقية على حالها ، وهكذا يستفيد المشترون لها بأبخس الأثمان ، فقد ذكر الشاعر حسن وفا أن النصف من العملة النحاسية غدا ثمنه كالثمن ، بمعنى أنه بيع بربع قيمته الأصلية .

الولاة يختلفون مع أمراء مكة :

يقول الحضراوي : وتولى بعده الوزير الجليل محمد ناشد باشا فأقام سنة وشيئاً ، ولم تطل مدته أيضا ، ثم عزل في شهر ذي الحجة الحرام بعد قدوم سيدنا أمير مكة الشريف عبد المطلب بن غالب ، فلم يوافقه حاله ولم يتفقا فاستعفى ، ثم تولى بعده أفندينا محمد صفوت باشا في شهر ذي الحجة الحرام فمكث سنة أيضا وحج سنة ١٢٩٨ هـ ، وعزل بسبب عدم انتظام الحال بينه وبين الإمارة ، وما رآه من عدم استقامة الحال ، وعزل وكان شهما حازما إلا أنه لم تساعفه المقادير .

الولاية الثانية لأحمد عزت باشا :

لما رأت الدولة العثمانية اختلاف الولاة مع أمراء مكة أسندت ولاية الحجاز إلى أحمد عزت باشا أزرقنلي ، وقد سبق أن تولى هذه الولاية سنة ١٢٧٨ هـ ، لتضمن حسن سير الأمور مع أمير مكة . قدم عزت باشا في أواخر شهر ذي الحجة سنة ١٢٩٨ هـ .

العمارة والإضاءة :

يقول الحضراوي : فعمر في الحرم الشريف وطلى مقام سيدنا إبراهيم بالذهب ، وجدد فوانيس الغاز القزاز من الصفا إلى المروة ،

وفي مولد النبي ﷺ وضع فانوسين ، ومن الخارج حوالي المسجد الحرام على رأس الشوارع ، ورتب لها من الخزينة ما يقوم بحالها .

عمل الميلين بالصفا :

يقول الحضراوي : وعمل بالصفا ميلين للقناديل .

أقول : المعروف أن الميلين الأخضرين بالصفا وضعا علامة للركض بينهما كما هو معلوم في نسك السعي ، فهل كان عزت باشا هو أول من وضعهما ، أم أنه وضع القناديل على الميلين المذكورين ؟

عثمان نوري باشا قومندان العساكر الشاهانية :

يقول الحضراوي : لما كثر في هذه المدة اليسيرة عدم الراحة والاختلال ، وكثر القيل والقال ، بأسباب الإمارة الحالية قدم إلى مكة المكرمة صاحب المقام العالي والمجال الغالي الحاج عثمان باشا نوري برسم قومندان العساكر الشاهانية ، ومرخصا عموميا بإرادة شاهانية ، وكان الوالي على مكة وجده إذ ذاك أحمد عزت باشا المتقدم ذكره .. يقول المؤلف عن عثمان نوري باشا هذا : فبذل هذا الشهم مساعيه الخيرية ، وهمته العثمانية ما شهد له البوادي والحواضر .

أقول : ويبدو أن الشكوى كثرت من أمير مكة الشريف عبد المطلب فرأت الدولة إرسال قائد عسكري يكون سندا للوالي ليتولى تسوية الأمور مع الأمير ، وقد اصطحب عثمان نوري باشا معه جملة من « أركان الحرب الأسود ، وهم تحت تدبيره وأمره عليهم يسود » كما وصفه الحضراوي .



صورة عثمان باشا نوري الوالى التركي للحجاز الذي أسندت إليه الولاية سنة ١٢٩٩ هجرية وأستمر فى ولاية الحجاز إلى سنة ١٣٠٣ هجرية الموافقه لعام ١٨٨٢ إلى عام ١٨٨٦ ميلادية

سوء الأحوال بمكة :

يقول الحضراوي : فوجد مكة في غاية الاضطراب مما ابتليت به من سوء تدبير عمالها ، والخراب ولم – ولا – أحدا يتجاسر إلى الوصول لأميرها من كثرة الحجاب ، وتغلب أعوانه على الرعية بعد الأمن بالخفية ، ولم يخشوا يوما تبيض فيه وتسود فيه الصحيفة ، فشمر هذا الهمام عن ساعد عزمه بالكلية ، وأزال حضرة الباشا تلك الحركات القوية وبدا باهتمام في المدافعة عن جيرة الحرم ، وسكان المشاعر والملتزم .

أقول : يبدو أن أعوان أمير مكة تغالوا في عسفهم .

ويقول الحضراوي في ذلك : حتى أنهم كانوا في بعض الليالي ، يطلبون بعض الأهالي ، فيحميهم – الباشا – بعزمه وحزمه ، ويسكن روعهم بملاطفته لهم ولزمه .

الوالي يخشى الأمير :

يقول الحضراوي : ويرسل الوالي أحمد عزت في ليله ، ويدفع بكل قواه وعزمه ، فربما يقول له الوالي أنا لا أقوى على مراجعة الأمير ، وليس لي جرأة على ركوب هذا الهول الخطير ، فيرسل من عنده المذكرات إليه ، ويرعد ويبرق بكل ما يقدر عليه .

عثمان نوري يهدد شريف مكة :

يقول الحضراوي : وربما قال في مخاطبته له – بالإسعاف – إن لم يرجع عن البطش بهؤلاء الضعاف وإلا أجريت عساكري ومدافعي محاماة عن رعية مولانا السلطان ، وأدافع عن هؤلاء الجيران .

استعفاء أحمد عزت باشا :

يقول الحضراوي : فلما كثر ذلك على الوالي وتحير أمره بين الأمير والوالي ، أرسل يطلب الاستعفاء فأعفوه .

عثمان نوري باشا والي الحجاز :

ووجهت تلك الوزارات الجليلة إلى حضرة الوزير الأفخم ، والدستور المعظم أفندينا عثمان نوري باشا وكان إذ ذاك بالطائف المأنوس في جمادى الآخرة أو رجب جاءه تلغراف رسمي سنة ١٢٩٩ هـ ، ففي الحال أدار أحكام الولاية لديه ، ونشرت ألوية التشريف المنيف عليه ، فولى في الحال وعزل ، ونشر على الرعية بنود الأمن ووصل .

الوالي يجهز حملة عسكرية ضد الشريف :

في ليلة الثامن والعشرين من شوال سنة ١٢٩٨ هـ جهز الوالي على المثناة صناديد الرجال بحملة من العسكر الشاهانية مع المدافع وبعض الضباط يقدمهم – يتقدمهم – عمر باشا فأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وقبضوا على الأمير ليلا على تلك الحالة ، واعتقل بقلعته بالطائف ، وولى في محله الشريف عبد الله باشا (١٤٤) نجل المرحوم أمير مكة سيدنا الشريف محمد بن عون ، فنودي باسمه في الطائف ومكة ، وعزل الأمير الأول سيدنا الشريف عبد المطلب ، فسكنت البلاد وقرَّت الناس ، وهابت هذا الوزير سائر الرعايا من أشراف وعوام . فأرسل إلى الآستانة وعرف بما صنع ، فحمد سعيه .

---

(١٤٤) عبد الإله وينطقها الناس في الحجاز عبد اللاه .

تولية الشريف عون إمارة مكة :

وولي الشريف عون باشا الرفيق أميرا على مكة .. ووصل إلى جدة تاسع ذي الحجة سنة ١٢٩٩ هـ ، وفي صبح يوم عيد الأضحى قدم إلى مكة المكرمة وطاف وسعى وصعد إلى منى بالموكب والرجال فتقابل مع الوزير عثمان باشا وكان يوما مشهودا .

وقد نظم الشعراء في هذه الحادثة قصائد الشعر فقال أديب الحجاز الشيخ حسن وفا :

روض السرور بطيب الأنس قد نفحا ... وصادح اليمن في حي الصفا صدحا
وافتر ثغر التهاني من ترنمنا ... وطاب صدر كرام الحي وانشرحا
فكل شهم بحانات السرور غدى ... بالصفو مغتبقا منه ومصطبحا
سرَّ القلوب بما أبداه من فرح ... بمدح أعظم من في الكون قد مدحا (١٤٥)
سلطاننا الآمر الناهي الجليل ومن ... في ملكه بملوك الأرض قد رجحا
برٌّ رءوف عادل وَرِعٌ ... من آل بيت جليل فضله وضحا
من آل بيت تسامى في العلا شرفا ... به الزمان لإصلاح الورى سمحا
عبد الحميد الذي من حسن سيرته ... تبسم الملك من أوصافه فرحا
أفعاله غرر تزهو بدولته ... وجوده درر في جيد من نصحا
عمت مكارمه أهل الصلاح ومن ... ساس الأمور وفي أجزائها نجحا
والسيد الشهم عثمان المشير بدى ... به الصلاح ببيت الله واتضحا
شهم مع الحزم أبدى في سياسته ... حكما أزال به الأضرار واطرحا
قرت به عين جيران الإله ومن ... دنى من السادة الأمجاد أو نزحا

---

(١٤٥) إنها مبالغة عظيمة تجاوزت الحد .



صورة الشريف عون الرفيق الذي تولي أمارة مكة في التاسع من ذي الحجة
سنة ١٢٩٩ هجرية الموافق لعام ١٨٨٢ ميلادية

ووصف عدالة المشير عثمان باشا فقال :

أجرى الحكومة في وادي الحجاز بما قِدْماً تحلى به الفاروق واتشحا
وقام بالقسط بين القوم مجتهدا وعن طريق الهدى والحق ما جنحا
فأصبح العدل منشورا بهمته وأصبح الظلم مخذولا ومطرحا

كما وصف ناظر التكية السلطانية أحمد حمدي أفندي موقعة المثناة ونتائجها فقال :

أفادنا التلغراف بشرى يا حبذا ذلك البشير
أتى لعبد الإله جهرا بملك قطر العلا يسير

ومنها في وصف وقعة المثناة :

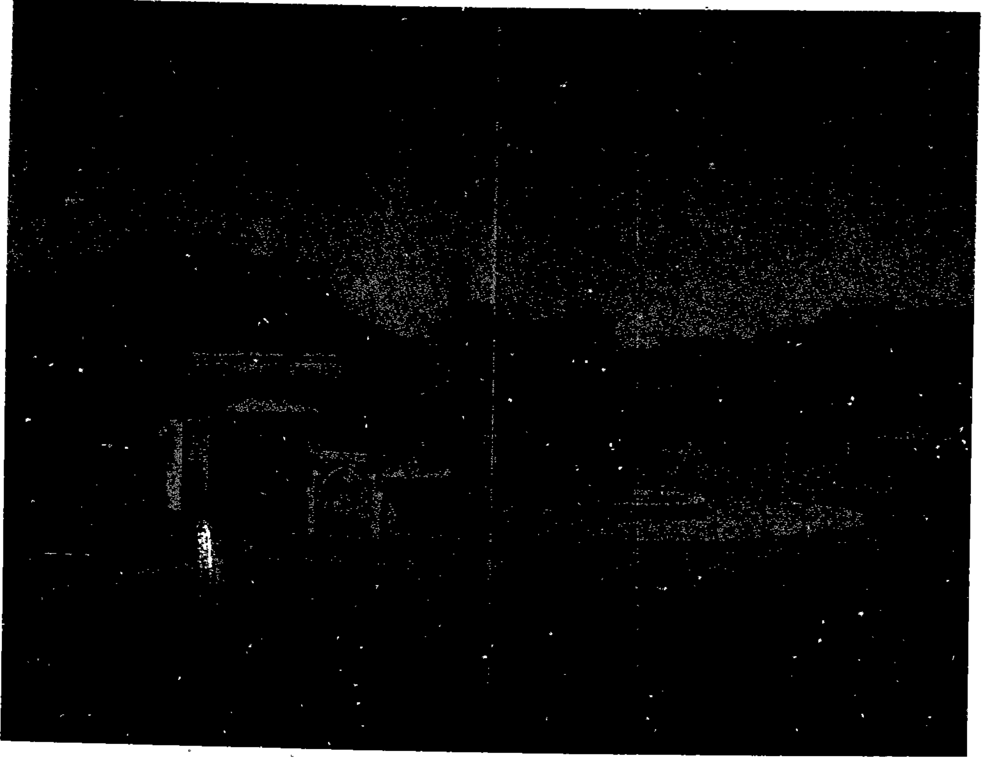
مدافع ركبت بليل من حولهم للورى تثير
وجند بأس أَلَمَّ فورا أسرى به الباسل الوقور
عثمان قطر الحجاز حقا ومن هو الآمر المشير

ومنها :

تمنطقوا بالسيوف بيضا لها ضراب بها شهير
وأنشبوا للحرب جهرا بنادقا حشوها السعير
تحكين هوج الرياح بطشا لله ما تصنع الدبور
فأيقنوا بالهلاك قسرا وما لهم في الورى مجير
وأسلموا أنفسا تغالت في الأمر ما راعها نذير

ومنها في تهنئة الشريف عون الرفيق :

بشراك عون الرفيق بشرى بالفخر قيدت لك الأمور
فدم مليكا أخا نوال برغم ضد به غرور



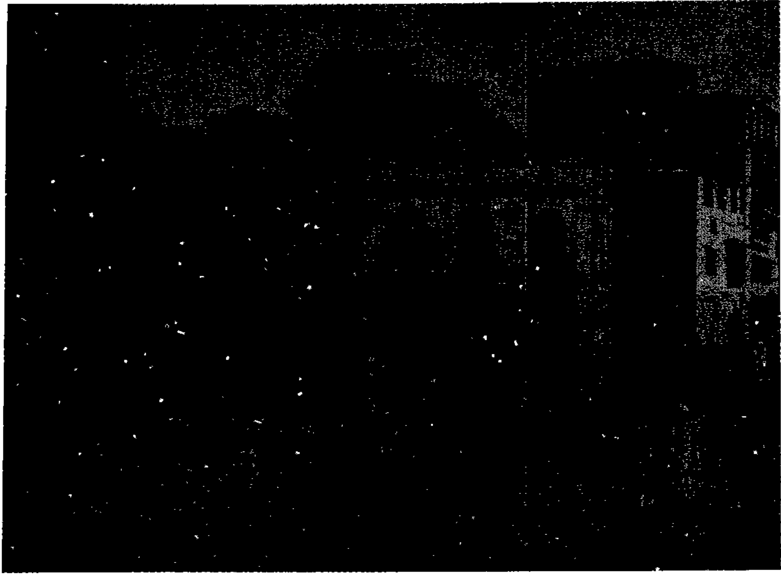
المسجد الحرام ويظهر في الصورة باب بني شيبه والحجر ، والبناء المقام على بئر زمزم ، ومقام الخليل إبراهيم عليه السلام ، والمقامات الأربعة للأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، كما يظهر المنبر في الصورة ، وفي أعلى الصورة تظهر قلعة أجياد ..

إصلاحات عثمان نوري باشا في المسجد الحرام :

يقول الحضراوي : وفي سنة ١٣٠٠ هـ أول جمعة من شهر صفر ، أمر بإزالة قبة السقاية ، وقبة الفراشين المعروفة الآن بقبة الساعات ، فهدمها في هذا اليوم ، وكانتا قبالة بئر زمزم ، هدمهما إلى الساس - الأساس - وشاهدت البركة التي كانت معدة للسقاية ، وهي في قبة الكتب (وتعريفها في الجزء الأول من هذا التاريخ في مآثر الحرم) ثم أخذ حجارتهما لطرف قمسيون عين زبيدة ، ونقب جدار المسجد الحرام الملاصق لباب المدرسة عند باب المنارة الكائنة عند باب علي ، وبنى بجانب المنارة داخل المسجد الحرام مدرسة لطيفة صغيرة ، تعرف بمُوقِّتْ خانة ووضعت فيها الساعات الموقوفة لمواقيت المسجد الحرام بمعرفة مهندس الحرم الشريف أحد أركان الحرب المعتبرين حضرة صادق بك ، وهي في أول الناحية الجنوبية ، وكان أيضا بنى باش كركول بهمة الوالي المذكور ، فتوسعت رحاب الحرم الشريف ، وصار لا مانع لرؤية البيت لمن يكون بالرواق الشرقي من ناحية باب العباس وباب علي ، فحمدت مساعيه وأيضا كان مقام الحنبلي منحرفا ملاصقاً لزمزم بالقرب منها فأزاله كليًّا ، وبناه محله اليوم ، وأصلح محراب مقام الحنفي فإنه كان خارجا يمنع من اتصال الصف ..

كركول الصفا :

وقد أوضح الشاعر حسن وفا أن ما ذكره الحضراوي باسم باش كركول هو كركول الصفا ، فقد أرَّخَ هذه المناسبة في شعره على عادة الشعراء في ذلك الزمان فقال :



كراكول الصفا

وقد أزيل هذا المبنى في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام



مبنى الحميدية
كانت الحميدية مقراً للدوائر الحكومية ، وكان المبنى من أجمل الأبنية
وقد أزيل فى التوسعة الأولى للمسجد الحرام



دار الطباعة

المطبعة وقد أزيل هذا المبنى في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام

أشاد الوزير الشهم عثمان في الصفا　　قراغول بالحسن البديع تَفَرُّدا
فأضحى به التاريخ زاه وباسما　　فيا حسن ما أنشا الوزير وشيَّدا

وكلمة كركول أو قراغول كلمة تركية ومعناها قسم البوليس ، وقد كان كركون الصفا كما أدركت الناس يسمونه باق في العهد السعودي وأزيل في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام .

مبنى الحميدية :

وفي سنة ١٣٠٢ هـ أتم – الوالي – بناء السراية المعروفة بالحميدية ، وهي سراية مربعة الشكل بجانب التكية المصرية من الناحية الغربية مقابلة لمنارة الحزورة .

المطبعة والتلغراف :

يقول الحضراوي : وبنى – مقابلها من ناحية الجنوب – بنى داراً للطبع ، وهو أول من شغل الطبع بمكة وأجرى التلغراف من جدة إلى مكة إلى الطائف ، وعمل داراً للتلغراف بباب الوداع ملاصقة للمسجد .

قلعة أجياد :

وعمر قلعة أجياد ، وبنى بيتا للطبجية في رحبة أجياد .

مستشفى مِنًى وبازان الخيف :

يقول الحضراوي : وعمل خستخانة (١٤٦) بمِنًى ، وبازانا عند مسجد الخيف .

---

(١٤٦) الخستخانة : كلمة تركية معناها المستشفى .

أقول : لقد أدركت مبنى الحميدية ، وكان مجمعا للدوائر الحكومية في الدور العلوي منه مجلس الشورى ، وفي الدور الأرضي منه إدارة الأمن العام ، والمحكمة المستعجلة ، وكتابة العدل ، وغيرهما من دوائر الحكومة ، وكان هذا المبنى كما وصفه الحضراوي بجوار التكية المصرية مقابل المسجد الحرام ، وكان من أجمل المباني منظرا ، وأحسنها عمارة ، وقد أُزيل وأُدخل مكانه في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام .

أما دار الطبع فقد كانت خلف الحميدية ، وكانت بها إدارة ومطابع جريدة أم القرى ، وقد أُدخلت كذلك في التوسعة السعودية للمسجد الحرام .

ومما ذكره الحضراوي : يبدو أن المشير عثمان نوري باشا كان رجلاً حازماً مصلحاً ، واسع الذهن ، فقد أزال حكم الشريف عبد المطلب الذي كان يشكو من جوره أهل مكة بحركة عسكرية ، ولم يكتف بهذا فقام بإنشاء الخدمة البرقية بين مكة وجدة والطائف ، كما أدخل الطباعة في مكة المكرمة ، وجمع الدوائر الحكومية في مكان واحد ، وكل هذه الأمور تدل على سعة أفق الرجل وتطلعه إلى النهوض بالبلاد ، وإدخال الجديد النافع إليها .

كتاب « الجواهر المعدة في تاريخ جدة »

عثمان بن عفان أول من جعل جدة ساحلا :

نقل الحضراوي عن كتاب « الدرر المنظمة في أخبار مكة المعظمة » ما يلي :

وأول من جعل جدة ساحلا سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – في سنة ست وعشرين من الهجرة وكانت الشعيبة ساحل مكة .

وعلق الأستاذ الشيخ حمد الجاسر على ذلك بقوله : ولعله المحل المعروف الآن بأبحر ثم قال في الهامش : الشعيبة تقع جنوب جدة ، وهذا يقع شمالها قريباً منها ، وكان أبحر مرفأً لجدة كما يفهم من رحلة ابن جبير .

أقول : والشعيبة الآن متصلة بمكة بطريق معبد الأسفلت ، وقد أُقيمت فيها محطات تحلية ماء البحر حيث ينقل إلى مكة والطائف في قنوات خاصة كما هو معلوم . وتم افتتاحها وضخ الماء منها إلى المشاعر في عام ١٤٠٨ هـ .

أما أبحر فهي ضاحية جدة وتقع شمال مدينة جدة ، وقد بنيت فيها الدارات الأنيقة وأُنشئت بها الفنادق والشاليهات التي يستعملها عشاق البحر والسباحة .

أما الميناء بالنسبة لمكة بل لمنطقة الحجاز كلها فهو ميناء جدة الإسلامي بعد أن أُدخل عليه من التحسينات وبنيت فيه الأرصفة الكثيرة ، وزود بالمعدات الخاصة بالتفريغ .

عثمان بن عفان يغتسل في بحر جدة :

يقول الحضراوي : ثم إن سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – استصوبها ونزل بها ، واغتسل في بحرها وقال : إنه مبارك – كما في الدرر المنظمة – بعد أن استشار الناس وجعلها خالصة لمكة .

بحر الأربعين بجدة :

يقول الحضراوي : ثم اعلم أن البحر الذي اغتسل فيه سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – هو المعروف الآن فيها ببحر الأربعين ، وهو بناحية من ساحلها ، ولم يزل أهل جدة إلى الآن يغسلون مرضاهم فيه تبركا كما هو المعهود وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أقول : بحر الأربعين معروف موقعه لدى المسنين من أهل جدة وموقعه في الوقت الحاضر خلف فندق البحر الأحمر وعمارات الفيصلية التي أقامها صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل امام مبنى البنك الأهلي التجاري الرئيسي .. وما ذكره الحضراوي عن أن أهل جدة يغسلون مرضاهم في هذا البحر تبرّكا لم أدركه ، ولم أسمع به ولعله كان قبل ذلك ، والله أعلم .

سبب تسمية جزيرة العرب :

يقول الحضراوي عن جدة : وهي أول حدود الحجاز ، وأول جزيرة العرب ، وسميت جزيرة لأنه أحاط بها أربعة أبحر ، دجلة والفرات ، وبحر الحبشة ، وبحر فارس ، والحجاز يقابل أرض الحبشة غربيها وبينهما عرض البحر فقط ، وأوله من مدينة (إيلة) المعروفة بالعقبة من منازل الحج

المصري ومنتهاه من شامه مدينة سدم [١٤٧] وهي من قرى قوم لوط ، ومن غربيه جبل السراة ، ومسيرة نحو شهر ، وهو قطعة من جزيرة العرب ، التي هي طولا من أقصى عدن إلى ريف العراق .

أقول : أطلق الحضراوي على البحر الأحمر بحر الحبشة ، وكان المؤرخون قديما يسمونه بحر القلزم .

ويقول الدكتور جواد علي : إن مؤلفاً يونانيًّا وضع كتاباً قديماً سماه التطواف حول بحر الأرتيريا وصف فيه تطوافه في البحر الأحمر [١٤٨] .

أما العبرانيون فقد أطلقوا على البحر الأحمر اسم هايم (اليم) وقد فسر البيضاوي لفظة اليم في القرآن الكريم بهذا البحر الأحمر [١٤٩] .

حدود جزيرة العرب :

ونقل الحضراوي عن القليوبي حدود جزيرة العرب فقال :

وأول جزيرة العرب عرضا من جدة إلى ساحل البحر إلى أطراف الشام ، وطولا من أقصى عدن إلى ريف العراق ، ومن المدن التي بين الحجاز واليمن وتهامة وهجر ، وهو من مدنه الطائفة به ، والينبع وبدر .

أقول : ما ذكره القليوبي عن عرض جزيرة العرب من جدة

---

(١٤٧) سدوم .
(١٤٨) تاريخ العرب قبل الإسلام (ج ١) : ص ٥٩ .
(١٤٩) نفس المصدر : ص ١٤١ ، ١٤٢ . وانظر : تفسير البيضاوي (ج ٧) : ص ١٣٢ ، ٣٤١ .

إلى ساحل البحر إلى أطراف الشام يقصد منه امتداد البحر الأحمر من جدة إلى تبوك التي عناها في أطراف الشام ، ولقد كانت حدود الحجاز في العهد الهاشمي تمتد إلى مدينة معان – التي هي في الوقت الحاضر من مدن المملكة الأردنية الهاشمية – ولما أُنشئت إمارة شرقي الأردن ، وأُسندت إمارتها إلى الشريف عبد الله بن الحسين (جد جلالة الملك حسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية) لم يكن لشرقي الأردن ميناء على البحر فأعطى الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز لإمارة شرقي الأردن ميناء العقبة ، ومدينة معان ، وحينما استولى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود على الحجاز لم يعترف بضم المدينتين إلى شرقي الأردن في البداية ، ثم وافق على هذا الضم فيما بعد .

إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب :

وثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « لئن عشت أو بقيت لأخرجنَّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب ، حتى لا يبقى فيها إلا مسلم » .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : « لا يساكنكم اليهود والنصارى في أمصاركم » .

وفي الخبر عنه ﷺ : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » .

وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « لا يترك بأرض العرب دينان دين مع دين الإسلام » .

أقول : وقد أخرج عمر – رضي الله عنه – اليهود من الحجاز

وأجلاهم من جزيرة العرب وأسكنهم الشام وكذلك أخرج نصارى نجران ، أرسل إليهم يَعْلىٰ بن أمية وقال له : ائتهم ، ولا تفتنهم عن دينهم ، وأقرر المسلم ، وأسمح كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان ، وأعلمهم أننا نجليهم بأمر الله ورسوله ﷺ أن لا يترك بجزيرة العرب دينان ، فليخرجوا من أقام منهم على دينه ، ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاءاً بذمتهم فيما أمر الله من ذلك ، بدلا بينهم ، وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف (١٥٠) .

حدود بحر القلزم وطوله :

نقل الحضراوي عن الخريدة لابن الوردي قال : خليج القلزم ومبدأه من باب المندب حيث ينتهي البحر الهندي - المحيط الهندي - يمر في جهة الشمال مغرباً قليلاً ، فيتصل بغربي اليمن ، ويمر بتهامة واليمن إلى مدين وإيلة وخراسان ، وينتهي إلى مدينة القلزم فيمر بشرقي بلاد الصعيد إلى عيذاب إلى جزيرة سواكن إلى زيلع من بلاد البجة إلى بلاد الحبشة ، ويتصل بالبحر الهندي وطول هذا البحر ألف وأربعمائة ميل .

أقول : سواحل تهامة واليمن التي وردت في وصف ابن الوردي هي سواحل جيزان والقنفدة والحديدة وعدن ، وأما السواحل التي في بلاد الحبشة كما جاءت في هذا الوصف فهي مصوع وكانت ميناءاً لأرتيريا - والله أعلم - .

---

(١٥٠) انظر : تفصيل إجلاء اليهود والنصارى في كتاب « عمر بن الخطاب أمير المؤمنين » : ص ٣١٨ - ٣٢٠ للمؤلف .

البحر الأحمر وحدوده :

يقول الحضراوي : وأما من ساحل جدة إلى ساحل السويس ، وهذا البحر يسمى البحر الأحمر .

أقول : تحديد البحر الأحمر من جدة إلى السويس ليس معمولا به في الوقت الحاضر ، والوصف الذي أورده الحضراوي لبحر القلزم ينطبق على صفة البحر الأحمر في الوقت الحاضر .

أرض القلزم :

أما أرض القلزم المسمى باسمها هذا وهي بين مصر والشام وهو بحر في ذاته ، وفيه جبال فوق الماء وفيه قروش – أي سمك كبير – وحيوانات مضرة ظاهرة ومختفية ، كانت القلزم مدينتين عظيمتين فتهدمتا من تسلط العرب على أهلها ، وشربهما من عين سرير ، وهي وسط الرمل ، وماؤه زعاق (١٥١) .

تيه بني إسرائيل :

وبين القلزم وهو منتهى بحر فارس الآخذ من المحيط الشرقي من الصين ، وبين البحر الشامي مسافة أربع مراحل تسمى بحصن التيه ، وهو تيه بني إسرائيل ، وهي أرض واسعة ليس بها وهدة ولا رابية ولا قلعة ووسعها خمسة أيام في خمسة ، ومن مدنه المشهورة عقبة إيلة وهي قرية صغيرة على جبل عال صعب المرتقى يكون ارتفاعه والانحدار منه يوماً

---

(١٥١) زعاق : مالح لا يصلح للشرب .

كاملاً ، وهي طرق لا يمكن أن يجوز فيها إلا واحداً واحداً ، على جانبها أودية بعيدة المهوى .

أقول : بحر فارس هو الخليج العربي وكان يسمى قديماً بالخليج الفارسي ، أما البحر الشامي فهو البحر الأبيض المتوسط .

الحارث بن نفيل أول عامل على جدة :

نقل الحضراوي عن التقي الفاسي : أن سيدنا أبا بكر الصديق – رضي الله عنه – استعمل على جدة الحارث بن نفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أسلم عند إسلام أبيه نفيل ، كانت تحته درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب وهو أول أمير استعمل على جدة . فلهذا لم يشهد حنينا .

أقول : هذا الخبر فيه بعض الاضطراب فوقعة حنين كانت بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة [١٥٢] في حياة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فكيف يولي أبو بكر الحارث بن نفيل ورسول الله ﷺ على قيد الحياة ؟

وقد جاء في كتب الحضراوي بعد ذلك ما يلي : أن الحارث استعمله النبي ﷺ على بعض صدقات مكة وبعض أعمالها ، ثم استعمله أبو بكر – رضي الله عنه – على جدة ، وتوفي في آخر خلافة عثمان . وإذا صح ما ورد في هذا الخبر فهو يدل على أن جدة كانت مدينة مأهولة بحيث تستحق أن يولى لها عامل من قبل الخليفة الراشد أبي بكر الصديق – رضي الله تعالى عنه – .

---

(١٥٢) سيرة ابن هشام (ج ٤) : ص ٦٥ .

قبر حواء أم البشر :

وبها – بجدة – من المآثر القديمة قبر السيدة الكريمة حواء أم البشر ، وهو بالجانب الشرقي على يمين الداخل إلى جدة من باب مكة كما اعتمده غير واحد من المحققين ، ويؤيده ما ذكره صاحب السيرة الحلبية وغيره من أن نزول السيدة حواء كان بجدة فلا خلاف في ذلك بين أهل التواريخ ، وأما قبرها فقد اختلف فيه ، والصحيح أنه القبر الشهير بجدة ، كما أعلم بذلك بعض أهل الكشف ، وعلى سرتها قبة جليلة وفي الحديث من زار والديه وفي رواية أبويه في كل جمعة كتب بارًّا .

أقول : أدركت قبر السيدة حواء أم البشر بمدينة جدة في أوائل الأربعينات من القرن الهجري الماضي تتوسطه قبة عظيمة ومن أمام القبة وخلفها ممر طويل ، ويدخل الناس والحجاج خاصة لزيارة أمنا حواء في الحجرة التي تعلوها هذه القبة وقد زينت هذه الحجرة بالستائر ، وأطلق فيها البخور ، ويتولى أحد المشايخ وكان في ذلك العهد من بيت القاضي بجدة إدخال الحجاج ، وتلقينهم الدعاء للزيارة ، ويتقاضى الشيخ المذكور من الزائرين النقود التي يدفعونها مكافأة له ، وحينما استولت الحكومة السعودية على الحجاز ودخل الملك عبد العزيز مدينة جدة سنة ١٣٤٤ هـ كان من أوائل الأعمال التي قامت بها الدولة السعودية هدم قبة حواء وقفل الزوايا المنسوبة إلى الطرق الصوفية ، وإبطال البدع التي كانت سائدة في ذلك الزمان ، والتي كان يتقرب بها الناس كما يظنون إلى الله تعالى ، ولقد سبق للدولة السعودية الأولى أن أزالت قبة حواء ثم أُعيد بناؤها في العهد العثماني في ولاية الحاج عثمان باشا القرملي الذي أُسندت إليه ولاية الحجاز سنة ١٢٥٧ هـ وبقي في الولاية إلى سنة ١٢٦١ هـ

وتوفى بجدة ودفن بها ، وقد ذكرنا ذلك في الحديث عن ولايته عند الحديث عن ولاة الحجاز في العهد العثماني .

ذرع قبر حواء :

وصف الحضراوي قبر حواء فقال : وقد ذرعه بعض أصحابنا فكان قريباً من ثلاثمائة ذراع .

أقول : هذا الوصف لمساحة القبر ليس مبالغا فيه فقد كان الداخل إلى مقبرة حواء يمشي في ممر طويل حتى يصل إلى القبة ، ويزعمون أن هذه القبة شيدت فوق سرة أُمنا حواء ، أي وسط الجسم وهذا الممر الطويل من أمام القبة ومن خلفها يمثل طول جسمها وهي مبالغة واضحة لا يقبلها العقل بحال من الأحوال .

العيَّاشي يصف حمير الحجاز :

نقل الحضراوي عن العلامة العياشي صاحب الرحلة الشهيرة إلى الحجاز وصفه لحمير الحجاز . يقول العياشي : ولم أر أسرع مشياً من حمير الحجاز ، ولا أوطأ مركباً ، ولا أقل تعباً مع السرعة المفرطة في المشي ، فلقد كنت أنظرّ وأنا راكبها إلى أطرافي هل تحرك منها شيء مع الإسراع في المشي ، فلا تكاد تبين لي حركة شيء منها ، مع أن مركوبي ليس من أجاودها ، فلقد أُخبرت أنه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة فيركب عليه ويصلي الصبح بمكة ، وهي مسافة القصر تحقيقا .

وقد علق الشيخ حمد الجاسر على ما نقله الحضراوي بما يؤيد ذلك فقال : وهذا هو الغالب في وقتنا هذا على أنه يركبون نحو العشرين راكباً

بعد صلاة المغرب فيصلون الصبح بجدة ، وقد ركبت مرة في الساعة الثالثة من الليل سنة ١٣٨٢ هـ من مكة ودخلت جدة عند شروق الشمس صبيحة تلك الليلة .. انتهى .

أقول : إن ما ذكره العلامة الصديق الشيخ حمد الجاسر صحيح تماماً ، وقد أدركت الناس في أواخر العهد الهاشمي وأوائل العهد السعودي قبل أن يشيع استعمال السيارات يغادرون جدة قبيل الغروب ويصلون إلى مكة قبل شروق الشمس ، وكانت في جدة قريباً من باب مكة قهوة تسمى « قهوة الحمّارة » وكان شيخ الحمّارة حسين ملوخية وكان يقوم بنقل البريد بين جدة ومكة وتوزيع البريد الوارد من مكة في مدينة جدة ، وكان الناس في الأعراس يستوردون قلائد التفاح من مكة لتزين صدور العرائس ، وكان هذا التفاح صغير الحجم من زراعة الطائف ، ويحفظ في مكة في الزمزميات وهي الأماكن التي يبرد فيها الزمزم قبل ظهور الثلج ، لئلا يلحقه العطب ، فإذا كانت ليلة العرس سلمت قلادة التفاح إلى الحمّار الذي يقوم تلك الليلة بنقل البريد إلى جدة ويوصي بالإسراع في السير حتى يصل في الوقت المناسب قبل طلوع الفجر ، فإذا وصل كان أول ما يقصد هو بيت العرس فيسلم القلادة التي ينتظرها أهل العرس بفارغ الصبر ، وينقدونه الإكرامية لقاء إسراعه في السير وحضوره بها قبل الفجر .

أسعار الحمير :

يقول الحضراوي : وهم يتغالون في ثمن ما هذا صفته فيبلغ الحمار مائة دينار ذهباً ، ولقد رأيت حمارا عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجبيلي

رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تحتقره العين فأُخبِرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن .

وقد علق الشيخ حمد الجاسر على ما أورده الحضراوي فقال :

وفي وقتنا تباع هذه الحمير بمكة تجيء من الشرق من ناحية (الحسا) تسمى الشروق (والحساوية) وكلها بيض غالبها من مائة ريال فرانسة (١٥٣) وثمانين ريالاً إلى ستين إلى خمسين إلى أربعين لكنها غشيمة في المشي فتتخرج في مكة وتدرج وتسير أحسن سير ، حتى أن عند خروج أهل الركوب من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة لزيارة رسول الله ﷺ على الهجن يخرج أهل هذه الحمير بحميرهم نحو الستين والمائة حمار من مكة إلى المدينة يسبقون الهجن لا يتأخر عنهم أحد .

خروج الركب من جدة إلى المدينة :

أقول : لقد أدركت الناس في الحجاز قبل استعمال السيارات يتغالون في اقتناء الحمير والقلة القليلة كانت تقتني الخيل ، أما غالبية الناس فيقّتنون الحمير ، ويدربونها ويحسنون العناية بها ، وكان الحمار الجيد يباع بمائة جنيه ذهب ، وكانت هذه الحمير تنسب إلى أصحابها لتمييزها فيقال حمار فلان مثلا .

وكان موعد سفر الناس إلى المدينة في شهر ربيع الأول ، ورجب من كل عام ، وكانوا يخرجون جماعات جماعات ، وتسمى الجماعة منهم

---

(١٥٣) الريال الفرانسة : هو الريال النمسوي الذي فوقه صورة (ماري تريزا) .

(ركباً) وهو تعبير فصيح صحيح ، ويصطحبون معهم المنشدين من ذوي الأصوات الجميلة ، ينشدون لهم في الطريق المدائح النبوية ، والقصائد التي فيها ذكر الله تعالى وتسبيحه وتحميده ، وكانوا يتوقفون في بدر ، ويقطعون الطريق بين جدة والمدينة في سبعة أيام ، وكان معروفاً أن هذه الحمير تسبق الهجن لأن الجمال تقطع الطريق في مدة أطول ، وعلى سبيل المثال فإن الجمل كان يقطع الطريق بين جدة ومكة في ليلتين يصل راكب الجمل في صباح الليلة الأولى إلى بحرة ويقيل بها ، ويقطع الليلة الثانية في طريقه إلى مكة حيث يصل إليها صباح اليوم الثاني ، بينما أن راكب الحمار أو البغل أو الفرس يقطع الطريق في ليلة واحدة ، وكان الناس يستعملون الجمال إذا كانوا يحجون بنسائهم وأطفالهم ، أما إذا كان المسافر من الرجال فهو يؤثر الحمار لأنه أسرع كثيراً من الجمل .
وقد أصبح هذا كله من آثار الماضي البعيد ، فمنذ أن وردت السيارات إلى الحجاز في أوائل العهد السعودي سنة ١٣٤٤ هـ انصرف الناس عن استعمال الحيوانات في أسفارهم وأخذوا بمبدأ التطور فاستعملوا السيارات ولم تكن الطرق معبّدة ، ولا مهيأة ومع ذلك فقد كان السفر من جدة إلى مكة يستغرق الساعتين والسفر بين المدينة وجدة أو مكة يستغرق ليلتين إلى أن تم تعبيد الطرق فأصبح السفر بين جدة ومكة في أقل من ساعة واحدة وبين جدة والمدينة في ثلاث ساعات أو أربع حسب السرعة في السير ، فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين .

بحرة :

وصف العياشي بحرة بأنها مزرعة كبيرة يجلب منها بطيخ كثير إلى مكة مشهور عندهم بالجودة .

أقول : تقع بحرة في منتصف الطريق بين مكة وجدة ، وكان القادمون على الجمال يقيلون بها إلى ما بعد العصر ثم يسافرون منها إلى جدة أو مكة ، وبحرة في وهدة من الأرض تجتمع فيها مياه السيول ولعل هذا هو الذي أوجد بها الزراعة في ذلك الزمان .

السفن المصنوعة من الشريط :

وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار ، وغالبها معمول بالشريط ، صنعة عجيبة ليس فيها مسمار ، وهي مع ذلك كبيرة المقدار ، متباينة الأقطار ، واسعة الأنحاء ، تحمل أضعاف ما تحمل غيرها من السفن .

أقول : هذا الوصف للسفن المصنوعة من الشريط ربما كان معروفاً زمان رحلة العياشي – وقد حج في عام ١٠٥٩ هـ وسنة ١٠٦٤ هـ وسنة ١٠٧٢ هـ وجميع هذه الحجات في القرن الحادي عشر الهجري كما جاء ذلك في ترجمة العلامة الشيخ حمد الجاسر – انظر مقتطفات من رحلة العياشي ص ٨ .

أما السفن التي أدركتها فهي مصنوعة من الأخشاب القوية ، وكان الناس يعتمدون عليها قبل ظهور البواخر التي تسير بالآلات ، وكان الكثير من تجار جدة يملكون هذه السفن ، ومن أشهر ملاك السفن وصناعها في جدة فرج يسر [١٥٤] الذي كان يصنع السفن والذي قيل إنه احتفل بزواج ولده بإضاءة مائة سفينة بالقناديل في ميناء جدة كما علمنا من أحداث جدة أن أولاد جوهر كانوا يملكون السفن التي اقتسموها بعد وفاة والدهم ، ولقد سمعت أن بعض التجار كانوا يشتركون في امتلاك سفينة

---

(١٥٤) اقرأ ترجمته في هذا الجزء من « أعلام الحجاز » .

أو أكثر ، وكانت هذه السفن تسافر من جدة فتعبر المحيط الهندي محملة بكل ما تحتاجه البلاد من الأقوات والبضائع ، وكانت جدة تمون القطر المصري بالبضائع المستوردة من الهند قبل فتح قناة السويس [١٥٥] .

أسواق جدة :

أسواق البلدة ممتدة مع جانب البحر ، وأغلبها أخصاص واسعة مفتحة إلى البحر ، وإلى ناحية البلد فيها قهاوي ومجالس حسنة ، يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها ، ورشها بالماء ، وفيها جلوس غالب أهل البلد ، وقد اتخذوا أسرّة كثيرة منسوجة بشريط الدوم ، بصنعة محكمة .

النوم على شاطئ البحر :

وكان نزولنا بوكالة هناك قريبة من المسجد ، فإذا كان الليل خرجنا إلى جانب البحر واكترينا لكل واحد سريراً يرقد عليه بدرهم إلى الصباح .

أقول : لقد تحولت جدة إلى مدينة عظيمة من أجمل مدن الدنيا ، حافلة بالعمران ، وأصبحت أسواقها زينة للناظرين بما حوته من ثمين البضائع وجمال العرض ، مع ما ترتاح إليه النفس من المناظر الجميلة ، من نافورات تتدفق بالمياه ، ومجالس للاستراحة ، وملاعب للأطفال ، وأماكن لوقوف السيارات ، أما شاطئ جدة الذي ازدان بالكورنيش فهو من أجمل الشواطئ لا في البلاد العربية وإنما في العالم كله .

والكراسي التي كان ينام الناس عليها أمام البحر اختفت لتحل محلها الفنادق الكثيرة من مختلف الدرجات فسبحان مغير الأحوال ، نسأله تعالى أن يديم علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وأن يرزقنا الشكر عليها إنه سميع مجيب .

---

(١٥٥) انظر : ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز : ص ١٧١ ، ١٧٥ .

مسجد الشافعي :

ومسجدها الكبير من أحفل المساجد ، وهو المعروف بالشافعي فيه أعمدة من الساج ، مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط ، طيب عودها ، يحسبها من لم يتأملها رخاما أحمر يقول المؤلف :

أخبرنا شيخنا أبو مهدي أنه يقال : إن أعمدة ذلك المسجد جلبت في صدر الإسلام من كنيسة في أرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون .

أقول : أعمدة الساج في مسجد الشافعي لا تزال باقية في هذا المسجد أو بعضاً منها على الأقل ، وقد ولدت ونشأت في بيت مجاور لهذا المسجد ، وكنت أحسب أن هذه الأعمدة من الرخام كما جاء في هذا الوصف ، أو على الأقل أنها مبنية من الحجر ثم عدلت بصنعة جيدة حتى صارت تشبه الرخام ، ولم يدر بخلدي أنها من الساج ، لأنها شبيهة بالرخام ، أما ما ورد عن أن هذه الأعمدة أنها جلبت في صدر الإسلام من كنيسة في أرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون فليس هناك ما يؤيد هذا الرأي ، وقد ذكر الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أن مسجد الشافعي عمّر في سنة ٦٤٩ هـ وهو تاريخ بعيد عن صدر الإسلام كما هو معروف .

الأمن في عهد الأميرين محسن وزيد :

وقد شاهدنا في هذه الخطرة – يعني السفر من جدة إلى مكة – من العافية التي بسطها الله في الطرق والقرى والأمان التام ما قضينا منه العجب ، فمن ذلك أنا لقينا عيراً في ليل مظلم ، تحمل أحمالا من البز

الهندي [١٥٦] والقماش الرفيع نحو من عشرين حملا ، وطلبنا من أصحابها من نسأله عن خبر البلد فلم نجد أحداً وذهبنا نحواً من ميل ، فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين ، وأخبرونا أنها أي الجمال بأحمالها في أمان حتى لو ذهبت إلى مكة لم يعترضها أحد ، وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام الأمير زيد ، ووالده محسن ، فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلا جاء إلى السلطان محسن فقال له : إني وجدت بالفلاة الفلانية حملاً من البز ، فقال له : من أخبرك أنه من البز فقال مسسته برِجلي ، فأمر بقطع رجله ، وقال له : لِمَ مسسته برِجلك ؟ إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكايات ولا نعلم صحيحها من سقيمها .

أقول : كانت الحالة الشائعة في ذلك الزمان هي فقدان الأمن في الطريق بين مكة وجدة ومكة والمدينة ، فإذا حدث أن اطمأنت الأحوال ، في عهد من العهود فأمن الناس في أسفارهم ، ولم يتعرض لهم متعرض من الأعراب أو اللصوص ، كان ذلك ظاهرة عجيبة تستحق التسجيل .

الحراشي يزيد المكوس ويبني فرضة جدة :

وفي سنة ٨٠٦ هـ تولى أمر جدة جابر بن عبد الله المعروف بالحراشي ، أصله من التجار فولاه الشريف حسن بن عجلان صاحب مكة أمر جدة ، فقام بمصالحه أحسن قيام ، وكان يحسن السياسية في استيفاء المكوس ولكنه زاد فيها كثيراً عما كانت عليه قبل ولايته .. وبنى

(١٥٦) البز : هو القماش من الحرير .

الفرضة التي بجدة ليحاكي بها فرضة عدن ، وكانت فرضة جدة على غير هذه الصفة .

نهاية الحراشي :

ثم تغير عليه صاحب مكة لخبث لسانه ، فقبض عليه في أوائل رمضان سنة ٨٠٩ هـ ثم رده إلى عمالته بجدة ثم تغير عليه صاحب مكة لما نسب إليه للسيد رميثة بن محمد بن عجلان على دوام عصيانه لعمه ، فإن رميثة هجم على مكة في رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٨١٦ هـ ، وهجم المذكور على جدة في رمضان من السنة المذكورة ونهب جدة فسعى جابر أمير جدة بينهما بالصلح ، ووقع مع ذلك من جابر المذكور مخالفة لمخدومه أمير مكة في بعض أوامره ، فقبض عليه بمِنًى ، في النفر الأول ، ثم قرر على أمواله وأشعر بقتله ، فصلى ركعتين وخرج من أجياد مع الموكلين بقتله إلى باب المعلا ، فشنق به ، ولم يظهر منه جزع في حال شنقه ، ولا في ذهابه إلى الشنق ، ولا تكلم بكلمة واحدة ، ودفن بالعلاة وكانت أدعية الحجاج عليه كثيرة في موسم هذه السنة بسبب زيادته عليهم في أمر المكس فأصيب مع المقدور بدعائهم فإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب كما في الحديث الشريف .

الأحداث في جدة

الأحباش يهاجمون جدة :

نقل الحضراوي عن العلامة الفاسي وعن – الدرر المنظمة – ما يلي :

في سنة ثلاث وثمانين ومائة من الهجرة جاءت الحبشة إلى جدة جنوداً ، وجروداً في عدد وعدة فوقعوا بأهل جدة ، فخرج الناس من مكة

إلى جدة غزاة في البحر ، وأميرهم عبد الله بن إبراهيم المخزومي عامل الرشيد العباسي فقاتلوهم وصرفهم الله ، وذلك لما روي عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « حجة لمن لم يحج ، وغزوة لمن قد حج ، خير من عشر حجج ، وغزوة في البحر خير من عشر في البر ، ومن جاز البحر فكأنما جاز الأودية كلها ، والمائد فيه كالمتشحط في دمه » أخرجه أبو ذر في منسكه (١٥٧) .

إسماعيل بن يوسف يهاجم جدة :

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين نهبت جدة وأهلها ، وقتل بها قتلًا ذريعاً ، والفاعل ذلك كله إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله بن الحسن بن المثنى السبط ، بعد أن فعل أفعالا قبيحة بمكة ، فهرب عامل مكة وجدة ، وهو جعفر بن الفضل بن عيسى العباسي ، فنهب الكعبة وأخذ الذهب الذي فيها وكسوة الكعبة ، وأخذ من الناس مائتي ألف دينار ، ثم رحل بعد مقامه في مكة سبعة وخمسين يوماً إلى جدة فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ أموال التجار ، وأصحاب المراكب بعد أن وافت المراكب من القلزم ، ثم رجع إلى مكة وطلع إلى عرفة يوم الموقف ، وقتل من الحجاج وغيرهم نحو ألف ومائة ، وهرب الناس ولم يقفوا بالموقف لا ليلاً ولا نهاراً ، ثم رجع إلى جدة فأفنى أموالها ..

---

(١٥٧) المائد : هو الذي يدور رأسه من ريح واضطراب السفينة بالأمواج ، وتشحط المقتول بدمه ، أي : اضطرب فيه .

يقول الحضراوي : وذكر العلامة ابن خلدون أنه كان يتردد إلى الحجاز في سنة ٢٢٢ هـ ، وأنه خرج في أعراب الحجاز ، ويسمى بالسفاك ، حتى هلكه الله بالجدري في آخر سنة ٢٥٢ هـ لأنه ضيق على أهل مكة وأهل جدة تضييقاً زائداً ، ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

رميثة بن عجلان ينهب جدة :

وفي سنة ٨١٦ هـ هجم رميثة بن عجلان على مكة في رابع عشر جمادى الآخرة ، وهجم على جدة في رمضان من السنة المذكورة ونهب جدة ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

قبيلة زبيدة تختطف أحد أعيان تجار جدة :

أورد الحضراوي في سبب بناء سور جدة ما يلي :

وأما سبب بناء سورها الموجود الآن فلأنها كانت غير مسورة ، وكانت العربان في أيام الفتنة تهجم على جدة وتنهبها مراراً . قال العلامة القطبي في تاريخه :

كانت العربان كثيرا ما تنهب جدة ، حتى أن عربان زبيد – بضم الزاي – قبيلة مشهورة قرب جدة أسرت في أيام الفتن الخواجا محمد بن يوسف القاري ، وكان من أعيان التجار من أهل الاعتبار ، فهجموا على بيته بجدة ونزلوه من السطح ، وأركبوه معهم على ظهر فرس وارتدفه واحد من زبيد ، وأخذوه إلى أماكنهم ، وهو قريب عقبة السويق من درب المدينة المنورة ، ومكث عندهم إلى أن اشترى نفسه بثلاثين ألف درهم ، فردوه إلى مكة بعد أن استوفوا هذا القدر منه .

أقول : وهكذا نرى أن الاختطاف والمطالبة بالفدية قد سبقت إليه الأعراب منذ مئات السنين ، فلا جديد تحت الشمس ، أما سبب بناء سور جدة فكان لتحصينها ضد غزو البرتغاليين لها . وأود أن أشير إلى أن كلمة الخواجا التي وردت عن الخواجا محمد بن يوسف القاري كانت كلمة الخواجا تطلق على الأعيان من الناس ، وقد تحورت بعد ذلك فأدركنا الناس يقدمون بها أسماء الإفرنج من غير المسلمين ، وقد كان في مدينة جدة بقال يوناني اسمه أكيلي أو – أخيل – كان الناس ينادونه الخواجا أكيلي ، والكلمة ليست عربية وربما كانت تركية أو فارسية . والله أعلم .

تكرار النهب في جدة :

ونهبت جدة مراراً في الفتن التي وقعت في أرض الحجاز بعد وفاة الشريف محمد بن بركات ، وجرت أحوال يطول شرحها ومذكور بعضها في تاريخنا – نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر – في الجزأين الثاني والثالث منه (١٥٨) .

حسين الكردي يبني سور جدة ويشتط بالعسف بأهلها :

وفي سنة ٩١٩ هـ وقيل سنة ٩١٧ هـ (١٥٩) أرسل السلطان

---

(١٥٨) التاريخ الذي وجدت بعض مخطوطاته هو تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير .. ولم يذكر الأخ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان اسم هذا الكتاب – نزهة الفكر – ضمن ما ذكره من المخطوطات التي وجدت بمكتبة مكة المكرمة للحضراوي .

(١٥٩) الصحيح أن بناء سور جدة كان في سنة ٩١٥ هـ ، انظر : موسوعة مدينة جدة : ص ٨٨ – ٩٢ للأنصاري .

الغوري الأمير حسين الكردي ، وجهز معه عسكرا من الترك والمغاربة ، لدفع ضرر الفرنج في بحر الهند ، وكان مبدأ ظهورهم ، وأمره بدفع الفتن الواقعة إذ ذاك بجدة وجعلها له إقطاعا ، فلما وصل الأمير المذكور إلى جدة بناه في هذه السنة وهو الموجود الآن ، وكان ظلوماً غشوماً يسفك الدماء ، ولا يرحم من في الأرض ليرحمه من في السماء ، وكان ينصب أعواداً للصلب والشنق والشنكلة ، وأقام جلادين للقتل ، والتشويط والضرب والبهدلة ، فأي مسكين وقع في يده قتله بأدنى سبب ، وكان أكولا يستوفي الخروف وحده ، مع أرغفة عديدة ، ونفائس له معدة ، وكان أصله كرديًّا دخيلاً في وظائف الجراكسة ، فأراد الغوري إبعاده وكان معتنيا به فأعطاه جدة ، فلما أتى جدة سوَّرها وبنى أبراجها وأحكمها ، وهدم كثيراً من بيوت الناس مما يقارب موضع السور لوضع الأساس ، واستخدم عامة الناس في حمل الحجر والطين ، حتى التجار المعتبرين ، وسائر المتسببين وضيّق على البنائين ، بحيث يُحكى أن أحدهم تأخر قليلا عن المجيء ، فلما جاء أمر أن يُبنى عليه حيا فبني عليه ، واستمر قبره إلى يوم الجزاء ، إلى غير ذلك من الظلم الشديد ، والجور العنيد ، وبنى السور جميعه في دون عام من شدته وغشمه وإقدامه وظلمه .

طول سور جدة وأسماء الأبواب :

يقول الحضراوي : وكان طول أساس السور المذكور في الأرض اثنى عشر ذراعاً ، وطول المحيط بالبلد من جهة القبلة واليمن والشام ثلاثة آلاف ذراع غير الأبراج ، وهي ستة أبراج ، دور كل برج منها ستة عشر ذراعاً بجدران وعرض جدار السور أربعة أذرع ، وأما الأبراج فطول الشامي واليماني على وجه الأرض خمسة عشر ذراعاً ، والبرجان القبليان الملاصقان

لباب البلد المسمى أحدهما : باب الفتوح وهو الأيمن ، والآخر : باب النصر وهو الأيسر ، وطولهما على وجه الأرض أيضا كذلك . وأما البحريان فقد نزل بهم الغواصون في البحر اثنى عشر ذراعا ، وجميع ما ذكر من الأذرعة فبذراع العمل وهو ذراع ونصف بذراع النجارى .

أقول : أثبتنا ما ذكره الحضراوي عن طول السور المحيط بجدة ليتبين حجم مدينة جدة التي أحاطها السور ، وقد ذكر الحضراوي أنه ثلاثة آلاف ذراع بذراع العمل ومقاس الذراع هذا ذراعاً ونصف بذراع النجاري أو البخاري ، ولا نعرف شيئاً عن ذراع النجاري ، وأيا كان هذا الذراع فإن محيط المدينة كله لا يتجاوز الكيلو مترين إلى ثلاثة كيلو مترات .

وقد أدركت جدة وهي محاطة بالسور ، وكنا نقطع المدينة من الشام إلى اليمن مشاة ، وكان الناس يتنقلون في أنحائها دون مشقة أو تعب سيراً على الأقدام ، وقد أزيل هذا السور في سنة ١٣٦٤ هـ بعد وصول الماء إلى جدة (١٦٠) .

أما باب الفتوح وباب النصر اللذين ذكرهما المؤلف فقد أدركنا هذا الباب القبلي واسمه باب مكة وكانت عليه علامة الدولة الهاشمية وهي العمامة الحجازية والعلم الهاشمي ، ويبدو أن الكردي أطلق على هذا الباب وهو فعلا باب كبير بجانبه بابان صغيران ، أطلق عليهما اسم – الأبواب الشهيرة بمصر – باب الفتوح ، وباب النصر ولا يزال اسم باب مكة يطلق على المنطقة التي كان فيها الباب بعد إزالته وإلى أيامنا هذه ..

---

(١٦٠) انظر تفصيل كل ما يتعلق بسور جدة في ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز : ص ٥٩ – ٦٢ للمؤلف .

أما الباب الشمالي فكان يطلق عليه اسم باب جديد ، والباب البحري باب البنط ، والباب اليماني باب شريف ، ويبدو أن هذه الأسماء أُطلقت على الأبواب في العهد العثماني لأنها تحمل الصبغة التركية . والله أعلم .

السلطان يأمر بإغراق الكردي في البحر :

ثم لا زال الأمير حسين الكردي يقتل ويشنق في جدة بغير حق ، حتى توجه إلى الهند ، ثم سفك الدماء بأرض اليمن ، وافتتح في طريقه مملكة بني طاهر ظلما وعدوانا ، بعد حروب يطول شرحها ، وأقام بها نواباً له ، وكانوا ملوكا من أهل السنة والجماعة ، ثم رجع إلى مكة المشرفة ، وكانت إذ ذاك دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر .

وتوجه الشريف أبو نمي بن بركات وعمره اثنا عشر سنة إلى مصر ورجع مزوَّداً بما طلب من السلطان سليم وأمره بقتل حسين الكردي ، فنصره الله عليه ، وأخذ الأمير حسين الكردي مقيدا من مكة إلى جدة ، وربط في رجله حجرا كبيرا ، وغرق في بحر جدة في موضع يقال له (أم السمك) فأكلته الأسماك بعد أن كان من الأملاك ، وتفرق في البلاد جنوده وأعوانه بددا ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ وذكر الحضراوي أنه نقل ذلك عن كتاب « الأعلام بتاريخ البلد الحرام » لقطب الدين النهرواني المكي . ويقول الشيخ حمد بن الجاسر : إنه مطبوع .

أقول : بالنسبة لبناء سور جدة فقد كان السبب في بنائه هو أن السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر – وكان الحجاز في هذه الفترة قد دخل تحت سلطان الدولة المملوكية في مصر – نمي إلى السلطان قانصوة

أن البرتغاليين ينوون مهاجمة جدة بعد أن استولوا على بعض المدن في الهند فأسرع السلطان بتحصين المدينة وأرسل لذلك حسين الكردي فأمده بالجنود والسلاح فبنى السور في مدة عام واحد وسخَّر في بنائه أهالي البلدة دون تفريق حتى لاتفاجأ المدينة بغزو البرتغاليين لها وهي غير محصنة ، وقد استعمل حسين الكردي هذه الشدة في إنجاز المهمة الموكولة إليه فتم بناء السور في سنة ٩١٥ هـ ، ولكن البرتغاليين لم يغزو مدينة جدة إلا في سنة ٩٤٨ هـ الموافقة لسنة ١٠٥٩ م ، وكان أمير مكة الشريف أبو نمي قد ترك الحج وسارع إلى جدة ومعه الجنود والمتطوعون ، فلما وصل البرتغاليون واجهوا مقاومة شديدة ، وأصلوا بنار حامية ، وفروا هاربين [(١٦١)] .

أما ما ذكره القطب المكي عن إقطاع مدينة جدة للكردي من قبل السلطان الغوري فإني أشك في الأمر حيث أن خشية السلطان الغوري على مدينة جدة من تعرضها للغزو ، وهي – باب مكة المكرمة – ودهليز الحرمين يتعارض مع إقطاعه المدينة للكردي ليتخلص منه ، ولكني أتوقع أن السلطان في حرصه الشديد على إتمام التحصين للمدينة فوض الكردي ومنحه صلاحيات واسعة في حكم مدينة جدة ، حتى ينجز المهمة الموكولة إليه ، فأساء المذكور استعمال هذه الصلاحيات بما لجأ إليه من ألوان البطش والتنكيل التي أنزلها بالناس ، أما إقطاع المدينة فهو مستبعد فيما أظن .

---

(١٦١) انظر تفصيل مهاجمة البرتغاليين لمدينة جدة في « أعلام الحجاز » (ج ٢) : ص ٢١٥ ، ٢١٦ للمؤلف .

الدولة السعودية الأولى في الحجاز :

ذكر الحضراوي : أن الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة سافر إلى جدة في السادس من شهر محرم سنة ١٢١٨ هـ ، بعد أن استولت الدولة السعودية الأولى على الطائف ومكة ، كما ذكر محاولة استيلاء الأمير سعود على مدينة جدة فقال ما خلاصته أنه أرسل إلى جدة علي بن عبد الرحمن شقيق المضايفي عثمان ، بكتاب لأهل جدة يطلب منهم الدخول في طاعته ، فلم يقبل أهل جدة ذلك ، وأن السعوديين هاجموا مدينة جدة في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١٨ هـ ، وبقوا محاصرين المدينة أربعة عشر يوما ، فلم يتمكنوا منها فعاودا الكرة في محرم سنة ١٢١٩ هـ .

الشريف غالب يصالح السعوديين :

وقد انتهت هذه المحاولات باستسلام الشريف غالب أمير مكة للدولة السعودية وعقد الصلح بينه وبين الأمير سعود .

بناء الخندق بجدة :

أمر الشريف غالب بعمارة الخندق بجدة .

يقول الحضراوي : ورأى أن عمله بالمساحي صعباً ، « كذا » على الفعلة يحتاج إلى مدة مطولة ، فاختار بنيانه بالبقر أسهل وأيسر ، واشترى ثمانين ثورا وجمع المعلمين أهل الهندسة والصناعة ، وجعل أربعين يشتغلون من جهة الشام ، وأربعين من جهة اليمن ، فشرعوا في تعميره من أول شهر صفر ، وما زالوا عليه مجتهدين شمالاً ويميناً إلى شهر جمادى الثاني ، ثم لم يبق للشغل بالبقر محل لغشيان الماء باطن الخندق ، ووجدوا حجراً جهة الشام

قدر مائة ذراع يقال له المنقبة لصلابة أحجارها متصعبة ، فأمر الحجارين أن يفقشوها بمعاول الحديد ، ويحرقوها بالنار ، وما زالوا مجتهدين الاجتهاد التام إلى آخر العام ، فجاء كما تراه خندقاً يروق الخاطر ويشوق الناظر .

أقول : لابد أن هذا الخندق بني في الركن الغربي الجنوبي لمدينة جدة مما يلي البحر لتحصين المدينة أن تهاجم من هذه الجهة لأن الأبراج التي كانت مشيدة في شرق المدينة (باب مكة) وشمالها (باب جديد) كانت قوية بما وضع فيها من المدافع والسلاح ، أما الناحية الجنوبية والغربية فلم تكن بها أبراج وإنما هي أبواب كما أدركناها (باب شريف) وباب البنط (١٦٢) .

يقول الحضراوي عن هذا الخندق : إنه انسد وانهار عليه التراب ، ولم يبق له إلا آثار .

برج باب البغاز :

وفي يوم الأحد ثاني جمادى الثاني سنة ١٢٢١ هـ أمر ببناء برج على نفس باب – البغاز – المسمى بالعلم يمنع الداخل إلى المرسى إن قصده عنوة ، فبنوا الأساس حتى اعتلى عن وجوه الماء ثم تركوه إلى ما ...

أقول : الذي يظهر من الجملة الناقصة فيما كتبه الحضراوي أن هذا البرج أقيم أساسه ولم يبن ، ولابد أن هذا البرج كان سيبني على باب – البوغاز – المسمى بالعلم في البحر لأن الميناء كان مليئاً بالشعاب

---

(١٦٢) انظر : كتاب « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ٥٩ – ٦٢ للمؤلف .

المرجانية ، ولا يستطيع ربانية السفن من الدخول إليه إلا بواسطة مرشدين من أهل البلاد من أهل الخبرة تخصصوا في ذلك ، وهم يعرفون الطرق البحرية في الميناء معرفة جيدة ويعلمون أولادهم ويمرنونهم على اجتيازها حتى يتوارثوا هذه الصنعة أبا عن جد وولدا عن أب ، ومع ذلك فقد كان مرسى البواخر يبعد عن مدينة جدة نحو نصف ساعة بالزورق البخاري وأكثر من ذلك بالمركب الشراعي [١٦٣] ، وكانت هناك علامات في البحر بالأحجار لهداية الزوارق والمراكب حتى لا تصطدم بالشعاب والصخور .

ويبدو أن النية اتجهت إلى بناء بوابة كبيرة في مدخل المرسى الذي تدخل منه السفن لمنع السفن المعادية من الدخول ، ولكن هذا المشروع لم يتم لأن إتمامه فيما أتصور كان يقتضي توافر القدرة المالية والهندسية لإقامة مثل هذه البوابة ، وهو أمر لم يكن بالإمكان إيجاده بالإمكانات المحلية في ذلك الزمان .

أعمال الدولة السعودية في جدة :

ذكر الحضراوي ما قامت به الدولة السعودية الأولى في جدة ونوجزه فيما يلي :

في ثمانية عشر صفر ، كان وصول حمد بن ناصر ومعه أهل الدرعية ، فلما وصلوا إلى مكة بكتاب الأمير سعود ، وكان الشريف بجدة فنزلوا إليها لملاقاته فانعقد الصلح بينهما .. ونزل حمد بن ناصر

---

(١٦٣) انظر كل ما يتعلق بميناء جدة في كتاب « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » للمؤلف : ص ١٧٣ - ١٧٦ (الطبعة الأولى) .

إلى مسجد عكاشة وقرأ الرسالة التي ورد بها ، والتي اجتمع لسماعها تجار البلد وسكانها وساداتها وأعيانها .

وفي يوم خمسة وعشرين من صفر ، هدمت القباب التي كانت مقامة على القبور ، كما أمر أهل جدة بالإمساك عن شرب التنباك ، وأمر الشريف بإبطال نوبته ، ونوبة والي جدة .

أقول : النوبة هي الفرقة الموسيقية التي كانت تعزف أمام قصر الشريف أو الوالي كل ليلة في موعد معين بعد صلاة العشاء ، ولابد أن الذي أمر بإبطالها مندوب الدولة السعودية ، بحيث أنه أوعز للشريف بذلك فأبطلها ، وكان أهل الحجاز يقولون – دقت النوبة – أي عزفت الفرقة الموسيقية للشريف أو الوالي .

أول قنصل إنجليزي بجدة :

وفي سنة ١٢٥٢ هـ كان وصول أول قنصل إنجليزي بجدة وتوطنه بها ، ونصب له بنديرة وهي أول بنديرة نصبت بجدة ، ولم يعهد توطنهم بها قبل ذلك .

أقول : البنديرة : هي العلم ، وترفع الدول أعلامها فوق مباني سفاراتها وقنصلياتها كما هو معلوم .

مقتل القنصل الإنجليزي والفرنسي والنصارى بجدة :

وفي سنة ١٢٧٤ هـ وقعت الفتنة التي قتل فيها الأهالي القنصلين الإنجليزي والفرنسي والإفرنج الموجودين بجدة ، بسبب إهانة القنصل الإنجليزي لعلم الدولة العثمانية وإنزاله من على سارية مركب أولاد جوهر ،

ومزقه ودعسه بحذائه ، وقد تحدثنا عن هذه الفتنة في بحثنا عن ولاة العثمانيين في الحجاز فنكتفي بالإشارة إليها رغبة عن عدم التكرار .

أول محمل مصري يصل بطريق البحر :

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين وألف – هجرية – كان أول سنة مجيء محمل أهل مصر من طريق البحر على جدة ثم يطلع من البحر بموكبه من جدة إلى مكة .

يقول الحضراوي : وهذا لم يعهد سابقا أبدا مطلقا ، وذلك بأمر والي مصر محمد سعيد باشا ، حتى أهلكه الله بعد ثلاث سنوات ، سنة تسع وسبعين ، رجع المحمل من البر على عادته من مصر إلى مكة .

أقول : المحمل : هو عبارة عن هودج يوضع على بعير ويكسى بكسوة حريرية زاهية يصطحبه الحجاج حين خروجهم من بلادهم وتصحبه قوة عسكرية يقودها قائد عسكري برتبة كبيرة ، ويخرج معه الحجاج ليكونوا في حماية هذه القوة العسكرية وكانت طرق الحج كما هو معلوم غير آمنة ، وكان الأعراب يعتدون على الحجاج وينهبونهم ، ويأخذون منهم الإتاوات ، وكان الحجاج المصريون يخرجون مع المحمل المصري ، والحجاج الشاميون يخرجون مع المحمل الشامي ، وهذه المحامل تسلك طريق البر ، وكان المصريون يحملون معهم كسوة الكعبة المشرفة التي كانت تصنع في مصر من ريع الأوقاف التي رصدت لذلك من السلاطين الأيوبيين والعثمانيين .

وقد اختلف المصريون مع الملك الشريف الحسين بن علي فمنعوا تسليم الكسوة في سنة ١٣٤١ هـ ، فصنع الشريف الحسين كسوة للكعبة صنعت في العراق سنة ١٣٤٢ هـ ، ثم حدثت حادثة المحمل

المصري في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ووقعت معركة حربية بين الجنود المصريين وجموع الإخوان من أهل نجد الأمر الذي أدى إلى إيقاف إرسال المحمل ، وإيقاف المصريين لإرسال كسوة الكعبة وما كان يرسل معها من النقود ، فقامت الحكومة السعودية بصنع الكسوة للكعبة في مكة المكرمة ، وأسست لها دارا لصناعتها [١٦٤] .

أحمد المشاط وكيل الكبانية في جدة :

يقول الحضراوي : وفي تلك المدة كثرت مراكب - بوابير - البحر في بحر القلزم من جدة إلى السويس حتى بلغت إلى ثلاثة عشر بابورا وهي للحجاج من أعظم المنن ، لأن الغالب لمن ركب فيها السلامة ، فجعل والي مصر وكيل (الكبانية) ببندر جدة المحمية ، رئيس التجار ، معدن الفخار ، الذي رفعه الله بأعلى بساط ، الأمير عليها - الشيخ أحمد المشاط - حفظه الله ، فكان يسوس أوامرها ، وخصوصاً يرأف ببضائع التجار مع شدة أمره على المتوكلين ، وبالحجاج المسافرين .

سوء معاملة حجاج البحر :

يقول الحضراوي : بخلاف غيره من الأمراء فإنهم لما أمروا أكلوا البراطيل والرشا [١٦٥] ، وزادوا على حجاج بيت الله بحيث لهم جواسيس على الحجاج (إن كان تبغا تنزل قبل غيرك وتسلم ، هات النقود دينارا زائدا على الكرا فتجارتهم خاسرة ، وبيعتهم بائرة) .

---

(١٦٤) انظر كل ما يتعلق بكسوة الكعبة في « أعلام الحجاز » (ج ٢) : ص ٨٧ - ٩٦ للمؤلف .

(١٦٥) الرشا : جمع رشوة ، والبراطيل هي الرشا جمع برطلة .

ولقد مدحت الشعراء هذا الأمير - أحمد المشاط - بقصائد أرسلت إليه من مكة وجدة ، ليس يحويها هذا السفر ، فأجاز الوفاء ، وأنجز السداد ألهمنا الله وإياه الرشاد .

أقول : البوابير التي ذكرها الحضراوي هي المراكب التي تسير بالبخار ، وكان أغلب استعمال الحجاج للمراكب الشراعية التي تسير بالريح ، ويذكر الحضراوي كثرة توارد البواخر التي تنقل الحجاج في سنة ١٢٧٥ هـ حتى بلغت ثلاثة عشر مركبا ، وقد عين والي مصر رئيس تجار جدة وكيلا للبواخر المصرية ، فأحسن إدارة العمل ، بخلاف غيره من وكلاء البواخر الأخرى الذين كانوا يتقاضون الإتاوات من الحجاج لتيسير نزولهم قبل غيرهم من البواخر .

تجديد عمارة مسجد عكاش ومسجد عمر :

وفي سنة ١٢٨٠ هـ جددت عمارة المسجد الذي على البحر المعروف بمسجد عكاش لأنه من المساجد القديمة وأتقن وأحكم وكذا الميضاة التي هي بجانبه . وكذلك جددت ما اندرس من المسجد الذي بالقلعة الذي يعرف بمسجد عمر .

أقول : مسجد عكاش من المساجد الشهيرة والقديمة في جدة وموقعه الحالي في السوق الكبير ، وله باب على شارع قابل ، ويعتبر في الوقت الحاضر في قلب مدينة جدة ، وكان في الوقت الذي كتب الحضراوي تاريخه على البحر ، وقد أُنشئ شارع الملك عبد العزيز غربي وشمالي السوق الكبير ، وشارع قابل فأصبح مسجد عكاش بعيداً عن البحر وسبحان مغير الأحوال ، وممدن المدن وبانيها .

العساكر المصرية في جدة :

وفي سنة ١٢٨١ هـ في شهر صفر ورد إلى جدة عساكر مصرية عزيزية ، وأقاموا في محل القشلة الخارجة فقل الماء على أهل جدة وضاق بهم ذرعا كما قيل :

من غص داري بشرب الماء غصة   فكيف يعمل من قد غص بالماء

واحتاج أهل جدة والقاطنين بها ذلك فأبعدوهم عنها في محل بينهم وبين جدة ساعة ونصف عند آبار عذبة .

أقول : العسكر المصرية العزيزية نسبة إلى عزيز مصر وهو حاكمها وسلطانها ، أما مشكلة الماء في جدة فهي قديمة ، وقد انتهت بإيصال الماء إلى جدة من وادي فاطمة في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود – رحمه الله – (١٦٦) .

قائمقام جدة نوري أفندي :

وفي سنة ١٢٨٣ هـ كان قائمقام جدة – نوري أفندي – رجل أصله من الأرانطة ، كان كاتباً على – العرضي – وقيل على القراية الأرانطة ، ثم صار على شونة مكة كاتبا ، وكان في ضيق من العيش فساعدته الأقدار فتولى قائمقام الوالي بجدة ، ثم جمعت له نظارة شونتها مع القائمقام ، فمكث بها مدة سنوات ، فظهرت صولته وهابه الناس .

---

(١٦٦) انظر تفصيل ذلك في « أعلام الحجاز » (ج ٢) : ص ٢٣٠ ، ٢٣١ للمؤلف .

إصلاحات القائمقام بجدة :

ثم إنه انقطع لتمدن البلد فقطعها من الأرض طول ذراع من سائر البلاد ، وشغل فيها أهلها ، والذي لم يشتغل يؤجر بدلاً عنه ، وسدَّ شيئاً من ساحل البحر من ناحية – الكمرك – حتى إنه دخل في البحر نحو خمسة عشر ذراعا من كل ناحية من الطول ، وأما العرض فجعله نظير (مينة اسكندرية) – ميناء الإسكندرية – وأتقن بناءها وكانت أولا الشبابيك تلصق في الزلة ، والبضائع تصير متراكمة ، وربما يتلف بعضها ، وفي وقت الحج يضيق على الحجاج العبور ، ثم من الجهة الشامية هدم السور وأدخله إلى جهة البحر ، وشد من تلك الناحية ، وساوى بين الأرض ، ثم إنه سقف جميع أسواقها ، حتى صار الإنسان لا يمشي إلا في ظل ، وأمر بهدم العشش من الدكاكين والقهاوي وجعله كله صندقة ، فصارت من قبيل (غورية مصر والسكرية) وجعلها ميزاناً واحداً ، وكان قبل ذلك ، دكان خارج ، والآخر داخل ، فوسع في الصنادق كل ذلك بالقوة القهرية ، وبالمداراة السياسية ، وأمرهم بنقش الأخشاب ، وكف أهلها عن المقاتلة مع بعضهم ، وطار صيته ، ودخلت هيبته قلوب الرعية ، حتى صاروا يخوّفون به الأطفال ، وأمر بقطع كداوي (١٦٧) من القمائم على بعضها كأمثال الجبال ، فسد بها البحر من ناحية الفرضة سورالنورية ، ثم من ناحية المعمار عمل سوقا وبنى فيه

---

(١٦٧) الكداوي : جمع كدوة وهو المكان الذي ترمي فيه القمائم ، وقد أدركنا بجدة مكاناً بقرب مدرسة الفلاح كان اسمه الكدوة ، وهو جبل صغير ويبدو أنه كان يتخذ مرمى للقمائم .

دكاكين صغيرة وسقفه بالأخشاب ورونقه ويعرف بالنورية وجعله للخضرية والجزارة وجعل فيه قهوة لطيفة .

يقول الحضراوي : وكان طلب مني تاريخاً لهذا السوق فقلت :

عرج على أرجاء جدة يا فتى   وانظر إلى السوق الجديد المثبتا
طالع سعود اليمن فوق بساطه   يا حسنه لمّاً رنا متلفتا

وقد أثبت الحضراوي في قصيدته اسم الخليفة العثماني ، واسم أمير مكة ووالي الحجاز وشيخ الحرم فقال :

في مدة السلطان عز نصره   (عبد العزيز) البر كن لي منصتا
وأمير مكة والحجاز بأسره   مولانا عبد الله سيدنا الفتى
ووجيه باشا والياً شيخ الحرم   من نال بالتحقيق قولا مثبتا

أقول : وهذا الشعر أو على الأصح هذا النظم لا يهمنا منه إلا اسم الخليفة السلطان عبد العزيز الذي أُنشئ سوق النورية في زمن خلافته ، وكان أمير مكة في ذلك الوقت الشريف عبد الله باشا ، ووالي الحجاز وشيخ الحرم وجيه باشا ، وقد احتفظت النورية باسمها وكانت تطل على شارع قابل قريباً من مسجد المعمار ، وهي خاصة بالخضرية والجزارة وقد تم إنشاء هذا السوق سنة ١٢٨٤ هـ كما يفهم من قصيدة أخرى للحضراوي في الموضوع .

سوق خارج باب مكة :

ثم جعل سوقاً خارج باب مكة من الصندقة الأخشاب بقهاوي ، وغير القشاع .

يقول الحضراوي : وفي الحقيقة كانت جدة قبل هذه العمارة لا يطيق الإنسان في مدة الصيف أن يخرج من بيته من رائحة الندا الكريهة ، والزناخة والشمس المحرقة ، والقشاش ، والقشاع ، وغير ذلك فصارت كآحاد المدن الفائقة .

إصلاح العين القديمة :

ثم إنه شغل الناس في عين أدخلها لها ، وكانت قديماً ثم بطلت ، ثم انهدم مجراها ، فأمر على الناس وأهل الحواير في الشغل فيها حتى أدخلها إلى البلد ، وجعل لها بازاناً للسقاية في ناحية العلوي ، ثم أجراها إلى الفرضة حتى تصب في البحر ، ثم ضعفت وقل ماؤها لكنه يجري قليلا ، فانتفعت به البلدة وأهلها ، وإن كان ماؤها غير عذب ، لكنه يعين على المهنة والغسيل وغير ذلك .

أقول : هذا الوصف للعين ينطبق على عين الوزيرية التي كانت تصل إلى جدة من الرغامة وكان ماؤها لا يصلح للشرب ولكنه صالح للغسيل ، وأول من أجراها إلى جدة السلطان قانصوه الغوري في القرن العاشر الهجري ، ثم انقطعت نتيجة تعرضها للخراب فقام بإصلاحها وإيصال مائها التاجر فرج يسر في القرن الحادي عشر الهجري ، وقد تكرر الخراب فيها فكانت تنقطع ثم يعاد إصلاحها ، وآخر مرة تم إصلاحها في الخمسينات من القرن الماضي في العهد السعودي ، وبعد إيصال جلالة الملك عبد العزيز للماء من وادي فاطمة ، أهمل أمر هذه العين تماماً ، وانتهت الحاجة إليها (١٦٨) .

---

(١٦٨) انظر كل ما يتعلق بالماء في جدة في « أعلام الحجاز » (ج ٢) : ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

بناء صهريج الدولة العلية :

ثم في سنة ست وثمانين وألف عمل صهريجا كبيراً للدولة العلية باسمها أكبر ما يكون في صهاريج جدة وكل محبوس يشتغل فيه ، وأتمه .. أقول : كانت جدة قديماً تعتمد على الصهاريج لحفظ الماء في أيام الأمطار ، وتخزينه إلى وقت الحاجة ، وكان التجار يتخذون من الماء تجارة فيبنون الصهاريج خارج مدينة جدة في مجرى السيول المنحدرة من الأودية والجبال ، وعلاوة على ذلك كان في كثير من بيوت جدة صهاريج تبنى في أسفل البيوت وتوضع المزاريب في سطوح المنازل حيث ينحدر الماء في مواصير من القماش متصلة بالصهريج فيأخذ أهل المنزل منه حاجتهم وقت شح الماء ، والبعض كان يملأ الصهريج في أوقات الأمطار بشراء الماء وتخزينه ، وكان من أشهر الصهاريج في جدة صهريج المشاط ، وصهريج نصيف وصهريج باناجة وغيرهم [١٦٩] .

رأي الحضراوي في القائمقام :

يقول الحضراوي : والحاصل أن الرجل لما اجتهد في عمارة البلد ذلَّ له أهلها ، وهابه رعاعها لسطوته وتجبره وتكبره ، ترادفت عليه الرتب ، وساعفته الأقدار ، حتى صار في رتبة (ميرميران باشا) فكان يقال له نوري باشا ونودي باسمه وخوطب بذلك ، وصار له معارف من رجال الدولة ومكانة ، وذلك بسبب أن القادم إلى الحج وغيره يجري عليه

---

(١٦٩) انظر كل ما يتعلق بتجارة الماء والصهاريج في « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ١٧٨ - ١٨٠ للمؤلف .

الضيافات ووضع يده مع التجار على سائر المرابحات ، حتى نمى ماله ، وترقى في حاله ، وجلبت إليه الهدايا ، والخيل المسوّمة والعربة وغير ذلك إلى أوائل سنة ١٢٨٨ هـ عزل عنها ، وبعد عزله توجه إلى الآستانة في سنة ١٢٨٨ هـ ، فمكث بها خمسة أيام ثم توفي إلى رحمة الله . وتولى محله قاسم باشا ، ومع ذلك كان لا يوقر كبيرا ، ولا يرحم صغيرا ، فبهذا ترقى في أسرع مدة ، ولكنه صنع بعض خيرات بجدة ، وكف العامة عن التعرض لبعضهم ولغيرهم ، وسوى بين غنيها وفقيرها ، في المقام حتى تم العام .

أقول : لقد صوّر لنا الحضراوي القائمقام نوري أفندي رجلاً حازماً أخذ على عاتقه إصلاح مدينة جدة وتطويرها فقد قام بردم البحر من ناحية الميناء بمقدار خمسة عشر ذراعاً ، وأحدث رصيفا تقف عليه السنابيك الناقلة للبضائع ، والركاب من البواخر التي تقف خارج الميناء المليء بالشعاب المرجانية ، فأفسح مكاناً للبضائع ، ووسع على الحجاج في زمن الحج ، وهو عمل عظيم في ذلك الزمان .

كما قام بتسقيف جميع أسواق مدينة جدة بالخشب ، فحمى بضائع التجار من حرارة الشمس في الصيف وأتاح لمرتادي الأسواق والسائرين فيها المشي في ظل ظليل ، ولقد أدركت أسواق جدة خلال القرن الرابع عشر الهجري وهي مسقفة بهذه السقوف الخشبية التي سماها الحضراوي صنادق ، باستثناء شارع قابل الذي استورد له آل قابل سقوفا حديدية من ألمانيا في ذلك الزمان .

وقام بتنظيم الأسواق فجعلها على مستوى واحد لا يبرز منها دكان عن آخر ، وقام كذلك بإلغاء الدكاكين التي بنيت من الخسف أو السعف والتي سترت بالقماش الغليظ من الخيش .

ولم يكتف بهذا كله فأمر أصحاب الدكاكين بنقش الأخشاب ليسبغ عليها صورة فنية جميلة . وأهم من هذا أو ذاك أنه كف الناس عن مقاتلة بعضهم البعض ، وكانت العصبية للحارة والمحلة ربما أحدثت قتالا بين الناس يصاب فيه المصابون ، وربما استشرت الفتنة فوصل الأمر إلى حد القتل .

وقام بعد هذا بإنشاء سوق خاص بالجزارين وباعة الخضار فجمعهم في ذلك السوق الذي أطلق عليه اسم – النورية – نسبة إلى نوري أفندي ، ثم نوري باشا ، وكنت أعرف النورية في جدة وأرتادها ، ولكني لم أكن أعرف تعليلا لاسمها إلى أن قرأت كتاب الحضراوي الذي نتحدث عنه هنا .

ثم أنشأ بعد ذلك سوقاً خارج باب مكة وقد أدركت هذا السوق وأغلب مرتاديه من الأعراب الذي يردون مع قوافل الجمال التي تحمل البضائع من جدة إلى مكة والمدينة وسائر مدن الحجاز .

ورأى حاجة الناس إلى الماء ، وشحه بالمدينة فقام بإصلاح العين التي أجراها السلطان الغوري فأنعش نفوس أهل البلدة ، وأغاثهم ، ولم يكتف بهذا فبنى صهريجاً كبيراً باسم الدولة شغل في بنائه المساجين فكان أكبر صهريج لحفظ الماء كما وصفه الحضراوي ، وهذه الصهاريج كانت بالنسبة لمدينة جدة ضرورة من أكبر الضرورات .

ورأى القائمقام جبال القمامة التي كانت تسمى الكداوي – واحدتها كدوة – تحيط بالمدينة من أطرافها فأزال هذه الكداوي ونظف البلدة من القاذورات والقمائم ، وكان بعضها أمثال الجبال كما يقول

الحضراوي ، كل هذه الإصلاحات تعد في ميزان الحسنات لهذا القائمقام العصامي الذي بدأ كاتباً في العرضي وانتهى إلى أن يكون قائمقام والي جدة ومدير المستودعات الحكومية بها ، وقد بلغت به العصامية إلى أعلى المراتب فحصل على رتبة الباشوية التي كانت تسمى في العهد التركي – الميرميران – ..

يقول الحضراوي : في وصف هذا القائمقام أنه لما اجتهد في عمارة البلد ذل له أهلها ، وهابه رعاعها لسطوته وتجبره وتكبره .

أقول : إن الرجل كان مصلحاً عظيماً شديد الحزم والعزم ، ولو لم يكن الحزم من صفاته لما أمكنه إصلاح ما أصلح ، وتنظيم ما نظم ، فالناس بطبيعتهم يكرهون الجديد ، ويتوجسون من نتائج ما لا يعرفون ، وإذا كان الحزم في سبيل الإصلاح العام فهو مقبول لحميد نتائجه ، وإذا كان الرجل قد أمر أهل جدة بالعمل في دفن البحر فكان يعمل فيه الجميع ، إما بأيديهم أو بأيدي من يستأجرون لينوب في العلم عنهم ، فإن هذا العمل على ما فيه من ظاهر التسلط إلا أن الرجل لم يأمر به لمصلحة ذاتية ، وإنما لمصلحة البلد وأهلها

لقد استحق القائمقام نوري باشا رتبة الباشوية بعمله الباهر في تمدين مدينة جدة وإدخال الإصلاحات العظيمة عليها ، التي بقيت بعده أكثر من مائة عام ، فاستحق الرتبة الرفيعة بجدارة بما قدم من عمل وما بذل من جهد عظيم ...

قشلة جدة :

يقول الحضراوي : وبجدة من خارجها قشلة متسعة قريبة

من ضريح السيدة حواء للعساكر الشاهانية وكان بناها محمد علي باشا والي الديار المصرية ، وهي مكينة في البناء ، وطواحين الهواء ثلاث ، كان بناها المذكور أيضا .

أقول : القشلة هي الثكنة العسكرية وكلمة قشلة أو قشلاق كلمة تركية ، ولا تزال الثكنة العسكرية التي بناها محمد علي باشا قائمة في مكانها بجوار مقبرة حواء ، وكانت قديماً خارج مدينة جدة ، أما في الوقت الحاضر ، وبعد اتساع المدينة وامتدادها فتعتبر في قلب المدينة القديمة .

وصف ميناء جدة :

يقول الحضراوي : وأسكلتها يمر عليها من بضائع الهند واليمن ومصر وسواكن ومصوع وبلاد السين والصين والجاوى ، قيل : إنها أكبر أسكلة في بلاد الإسلام بعد أسكلة اسكندرية ، وللبغاز باب لا يمكن دخول مراكب بغير ربان من أهلها ، محكم بابها بين شعبتين عليهما علمان لمعرفة الدخول ، بصناعة يعرفها أهلها ، فهي للتجار دار مقام ، وللمفاليس سجن لا يرام كما قيل :

وجدة لذوي الأموال كيسة ... وللمفاليس دار الْهَمِّ والضيق
أقمت فيها مضاعاً بين ساكنها ... كأنني مصحف في بيت زنديق

والحقيقة فهي أعظم ثغر من ثغور الإسلام ، فكم من ولي وعالم وفاضل يريد الحج وقضاء المناسك يمر عليها ويدخل من أسكلتها كما هو الغالب لأن الحجاج كلهم أضياف الله تعالى وفي كنفه وأمنه ، فهي ممر للأبرار ومقر للتجار ، ضاعف الله فيها البركات وأظهر فيها الخيرات .

أقول : الأسكلة هي الميناء ولعل كلمة أسكلة كلمة تركية ، وقد كان ميناء جدة قبل حفر قناة السويس يمون القطر المصري بالبضائع التي يستوردها تجار جدة من الهند بالمراكب الشراعية ويبقونها خارج الميناء ، وبعد فتح قناة السويس استغنت مصر عن الاستيراد من الحجاز ، ولكن ميناء جدة بقي محتفظاً بمركزه كأكبر ميناء في الجزيرة العربية لمدن الحجاز والجزيرة كلها ، ويستقبل وفود الحجاج كل عام ، ولقد كان ميناء جدة محاطاً بالشعاب المرجانية وكانت البواخر لا تدخل الميناء إلا بواسطة مرشدين من أهل جدة تخصصوا في معرفة أماكن هذه الشعاب ، وكانت البواخر ترسو بعيداً عن البلدة بمقدار نصف ساعة للزوارق البخارية ، ثم قامت الحكومة السعودية بإنشاء إدارة خاصة للموانئ فقامت بردم البحر ، وإنشاء الأرصفة الكثيرة وزودت الميناء بالآلات الحديثة للتفريغ والتحميل وأصبح ميناء جدة واحداً من أعظم الموانئ في الشرق الأوسط (١٧٠) .

قلة المطر بجدة :

يقول الحضراوي : في وصف قلة المطر بجدة :

ومنها : أن الله تعالى جعل سقيا أهلها من ماء السماء وبركاتها ، وليس بها بئر ولا نهر عذب غير المطر ولهذا تراهم غالبا في ضيق من الماء ، حتى أن بعض الفضلاء هجا أهلها نظراً لبعض الميل وبعض المنكرات

---

(١٧٠) انظر كل ما يتعلق بميناء جدة والبواخر الشراعية في كتاب « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ١٦٨ - ١٧٧

للاتعاظ والاستيقاظ فقال :

يمر السحاب على جدة   بماء معين من المعصرات
يريد الهبوط فلا يستطيع   لما حل فيها من المنكرات

ونقول للحضراوي : لِمَ بلاد الكفر في الغرب مخضرة كالجنان ؟ من كثرة ما تغدق عليها السماء ، ويغاديها السحاب ، فالمسألة ليست كما تصور الشاعر ، وإنما هي طبيعة البلاد وموقعها ، وفوق ذلك كله مشيئة الله سبحانه وتعالى وحكمته التي لا تدركها عقول البشر .

أسواق جدة

سوق الندا :

وصف الحضراوي أسواق جدة فقال ما نوجزه فيما يلي :

وأما أسواقها فأولها وأعلاها سوق الندا ، وهو سوق مستطيل في غاية اللطافة ، وبه بعض أحوشة التجار وغيرهم وأنواع الأقمشة والأطعمة .

سوق الجامع :

وسوق الجامع ، وسمي بالجامع المعروف بمسجد الشافعي وهو من المساجد القديمة ، وهذا السوق تقابله وأنت داخل من باب مكة على جهة اليمين يسيرا ، مستطيل أيضا .

سوق البنط :

وسوق البنط وهو سوق ظريف مجمع الصيارف ، وفيه يباع

السمك الطري ، والتمر الصفري المليف ، وأنواع سبح اليسر ، والنقل وغير ذلك ، وبحذائه خان صغير بسقيفة يوصل لسوق الحراج .

يقول الحضراوي : والحاصل أن هذا السوق في أيام الموسم يكون في ازدحام للغاية مع كثرة الحجاج .

سوق برة :

وسوق برة - أي خارج البلد - وهو خارج باب مكة ، وهو سوق طريف محتو على أبنية ودكاكين وسمي بذلك لكونه خارج البلد .

أقول : وقد أدركت سوق برة هذا وهو يسمى سوق باب مكة وكان خارج سور مدينة جدة مما يلي باب مكة المكرمة .

سوق الخاسكية :

وسوق الخاسكية ، وهي شقايق نفيسة وأحوال زكية منيسة .

أقول : وهذا الكلام الإنشائي المسجوع لم يصف الخاسكية أو يعرفها للناس ، والخاسكية في جنوب شارع قابل ، وكانت مقرا للصيارفة ، وباعة السمك المجفف ، والسبح المصنوعة من اليسر والكهرمان ، وقد أزيل بعض أجزاء الخاسكية وأدخل في شارع الملك عبد العزيز ، أما بقية الأسواق التي ذكرها الحضراوي فلا تزال تحتفظ بأسمائها التي ذكرها المؤلف ، وهناك أسواق هامة في جدة لم يذكرها الحضراوي وهي السوق الكبير وهو يمتد من سوق الندا إلى شارع قابل ، وفيه حوانيت القماشين ولعل هذا السوق أنشئ بعد إتمام الحضراوي تأليف كتابه ، وكذلك سوق البدو ، وهو يمتد من باب مكة إلى سوق الجامع ، وسوق العلوي وهو يمتد من انتهاء شارع قابل إلى باب مكة ،

ولعل هذه الأسواق جميعها أنشئت بعد ذلك .

الأحواش في جدة :

يقول الحضراوي : وأما أحوشتها المحتوية على قصور عوالي ، ومرافق ومراجع ومجالس ، وغير ذلك ، فهي لا تحصر فمن أكبرها وأعظمها الحوش المعروف بحوش الشريف وهو قريب من البنط بناه مولانا الشريف عبد الله بن المرحوم مولانا الشريف محمد بن عون أمير مكة والحجاز ، وهو معد للحجاج والتجار ، مشتمل على محلات نفيسة ، وقصور عوالي رئيسة .

ومنها حوش مثقال ، وهو لأحد خواص الشريف غالب أمير الحجاز سابقا ، ومنها حوش الدولة ، ومنها حوش أبو اليسر ، وحوش الصالحة ، وحوش عكاش ، وحوش النخلة .. وجملة أحواشها تنوف على مائة حوش مشتملة على قصور وبيوت مرونقة وأكشاك على البحر من أنفسها كشك الشرابي فهي نفيسة وأنيسة .

أقول : كانت جدة إلى ما قبل عشرين عاما غاصة بهذه الأحواش التي وصف الحضراوي بعضا منها ، وهذه الأحواش (مفردها حوش) كانت مستودعات لبضائع التجار ، يخزنون بها البضائع التي يستوردونها من الهند وغيرها وخاصة الحبوب والمأكولات مثل : الشعير والأرز والدقيق والدخان ، والأقمشة مثل : البفتة والدوت وغيرها ، وبعض التجار كانت لهم أحوشة خاصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم ، وهؤلاء هم كبار التجار في ذلك الزمان . أمثال باناجة وزينل وغيرهم ، وإلى جانب ذلك كانت هناك أحواش مشتركة يديرها شخص معين يدعى (المقدم)

وهو يستأجر أحد الأحواش الكبيرة ، ويودع التجار فيها بضائعهم ، ويحيلون المشتري إلى مقدم الحوش الذي يسلمه البضاعة مقابل جُعْلٍ قروش قليلة على كل طرد أو كل شوال ويسمى هذا الجعل بالفسح ، وكان المقدم يستفيد من الحركة الدائمة في الحوش لأن البضائع تصدر من جدة إلى مكة والمدينة والطائف وإلى أنحاء الجزيرة العربية بكميات كثيرة وبصورة تكاد تكون يومية (١٧١) .

وكان في علو هذه الأحواش مبان سكنية يفهم من كلام الحضراوي أنها كانت تؤجر للحجاج في أيام الحج كما يسكنها بعض الناس ، ولكني أدركت الحجاج في الأربعينات من القرن الماضي ينزلون في بيوت الوكلاء أو في البيوت التي يستأجرها الوكلاء لإنزالهم ، وكانت هذه المساكن في الأحواش تستعمل لغرض السكن أو يستعملها بعض التجار كمكاتب ، وقد أزيل كثير من هذه الأحواش التي كانت تقع في السوق الكبير ، وشيدت في مكانها الفنادق والعمارات السكنية الشاهقة لوقوعها في قلب مدينة جدة قريبا من البحر ، وتحولت بضائع التجار إلى منطقة المستودعات خارج مدينة جدة كما هو الحادث في هذا الزمان .

مساجد جدة :

أشهرها مسجد الشافعي .

يقول الحضراوي : ذكر ابن جبير في رحلته أنه رأى بجدة

---

(١٧١) انظر تفصيل ذلك في « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ٢٠٢ - ٢٠٤ للمؤلف .

مسجدين ينسبان إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أحدهما يقال له مسجد الأبنوسي ، وهو معروف ، والآخر غير معروف .

أقول : ولعله الذي يقال له الآن مسجد الشافعي .

أقول : مسجد الأبنوسي موجود في سوق الندا ، وقد أدركته والناس يسمونه مسجد الأبنوس ، ومسجد عمر بن الخطاب وهو مسجد صغير لم تكن تقام فيه الجمعة ، أما مسجد الشافعي فقد عمره الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الثاني ، وهو أحد ملوك اليمن الأيوبيين ، وقد توفي سنة ٦٤٩ هـ ، وفي سنة ٩٩٠ هـ جاء تاجر من الهند اسمه الخواجا محمد علي ، وأتى معه بمؤونة وخشب وأعمدة منحوتة حاضرة من اليمن فهدمه وبناه أحسن بناء ، وأن ذلك التاجر الذي زوده وزراء الهند بالمال الكثير عمل للمسجد منبرا لطيفا ، وبنى دكاكينا وبيوتا ومات قبل انتهائها ، وظهرت له بنت وادعت أنه بنى هذه الدكاكين من ماله لنفسه ، وطلبت إرثها منه ، ولم تظهر حجة شرعية تمنعها ، فأخذت الدكاكين والبيوت ، ولم يبق شيء للصرف على مقبرة المسجد .

يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري : الذي نقل ما ذكرناه عن كتاب « السلاح والعدة في فضل ثغر جدة » وإلى وقت المؤلف – القرن الحادي عشر – لم يكن للمسجد شيء من الأوقاف ، ويذكر الأستاذ الأنصاري : أنه قرأ في محراب المسجد ما يدل على أنه بني من قبل سلاطين بني عثمان ، ومئذنته رشيقة مستديرة وهي من حجر منحوت ، وعلى بابه حجران منقوشان أحدهما : ينطق بعمارة الخواجا محمد علي له سنة ٩٤٠ هـ ، والثاني : حجر مسن قديم أقدم من البناء الجديد

للجامع ، وقرأ لي بعضهم شيئا مما فيه بعد جهد ، فكان مما فيه اسم حسن بن عجلان ، والشريف حسن بن عجلان من أمراء مكة فيما بين سنتي ٧٩٨ - ٨٢٩ هـ ، وللمسجد أربعة أبواب ، وبجانبه ملاصقا له ، منزل يعود إليه ، ويذكر عبد القادر ، صاحب كتاب « السلاح والعدة » أن الذي بناه هو المعلم أبو العيد من تجار جدة ، ومن قول صاحب كتيب « السلاح والعدة » ، أنه لم يبق شيء للصرف على مقبرة المسجد ، فهمنا بوضوح أنه كان به مقبرة تنسب إليه - انتهى - (١٧٢) .

أقول : مسجد الشافعي من أقدم مساجد جدة ، ولعله أقدم المساجد الجامعة الكبيرة بها ، ونستطيع أن نستخلص مما نقله الأستاذ الأنصاري عن كتاب السلاح والعدة أن المسجد بناه أولا الملك المظفر سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الثاني ، وهو أحد ملوك اليمن الأيوبيين الذي توفى في منتصف القرن السابع الهجري سنة ٦٤٩ هـ ، وأن المسجد تعرض للخراب فأحدثت به بعض الإصلاحات في عهد الشريف حسن بن عجلان أمير مكة فيما بين عامي ٧٩٨ - ٨٢٩ هـ أي بعد أكثر من قرن ونصف من بنائه الأول ، ولا نستطيع الجزم بأن الشريف حسن بن عجلان هو الذي أمر بتجديد المسجد وتعميره ، لأن الكتابة التي قرئت للأستاذ عبد القدوس الأنصاري لم تكن واضحة ، وقد تعود الناس كما هو الحال في زماننا هذا أن يذكروا أسماء الملوك والأمراء في المشاريع التي تحدث في عهودهم ، فقد يكون الشريف حسن بن عجلان هو الذي أمر بالعمارة الثانية في المسجد ، وقد يكون المعمر غيره ،

---

(١٧٢) موسوعة تاريخ مدينة جدة : ص ٤٢٧ - ٤٢٩ .

وذكر اسمه لأن العمارة حدثت في عهد إمارته .

والعمارة الثالثة التي أحدثت في مسجد الشافعي وهي التي تم فيها هدم المسجد القديم وبناؤه أحسن بناء هي التي قام بها التاجر الهندي الخواجا محمد علي ، وقد تمت هذه العمارة في منتصف القرن العاشر الهجري تقريبا سنة ٩٤٠ هـ .

أما ما ورد عن الدكاكين والبيوت التي بناها التاجر المذكور بمعونة أثرياء الهند ، فقد تكون هي الدكاكين التي يضمها سوق الجامع وهو سوق ملاصق للمسجد من الجهة الجنوبية ، وأرجح أن نسبة الجامع في هذه التسمية تعود إلى هذا السوق ، وقد تكون البنت التي ادعت بملكية هذه الدكاكين استولت عليها ، ثم آلت الدكاكين بعد ذلك إلى المسجد .

وقد اشترى الشيخ أحمد الزهرة بيتا من أكبر بيوت مدينة جدة يقع في شرقي المسجد قريبا منه ، كان يسمى بيت الصبان ، وكانوا من أكبر تجار جدة ، وأوقفه على المسجد وقد ذكرت ذلك في ترجمته في أعلام الحجاز (١٧٣) .

هذا ولا يزال سوق الجامع في موضعه ملاصقا للمسجد ، وللمسجد باب جنوبي يفتح على هذا السوق ، وهو سوق عامر بالدكاكين ، تقوم عليه وعلى المسجد وزارة الأوقاف – والله أعلم – .

مسجد عكاش :

ومسجد عكاش وهو من مساجد جدة القديمة الشهيرة .

---

(١٧٣) انظر : أعلام الحجاز (ج ١) : ص ١١ – ١٧ الطبعة الأولي .

أقول : مسجد عكاش يقع في قلب مدينة جدة له باب على السوق الكبير وباب آخر على شارع قابل وهو غني عن التعريف ، وقد ذكر عبد القادر آل فرج صاحب كتاب « السلاح والعدة في ثغر جدة » الذي ألف كتابه في القرن الحادي عشر الهجري أنه كان يوجد بجدة على ساحل البحر مسجد يعرف بمسجد الدامغاني وكان هذا المسجد ملاصقاً لبيت الشريف حسن أبي نمي ، وسمي هذا المسجد باسم الدامغاني . ذلك أن الدامغاني وهو تاجر من تجار جدة قام بتعمير هذا المسجد بعد ذلك ، وقد جدد بناء هذا المسجد عكاشة أباظة ، فنسب إليه ، ويرجح الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أن مسجد الدامغاني هو نفس مسجد عكاش الحالي [١٧٤] .

أقول : إذا كان هذا المسجد على ساحل البحر في القرن الحادي عشر الهجري فإن ما توقعه الأستاذ الأنصاري صحيح لأن البحر في ذلك العهد كان ممتدًّا إلى داخل المدينة اليوم ، ونستطيع أن نستخلص من هذا أن المسجد كان في القرن الحادي عشر الهجري موجود على ساحل البحر ، وأن الدامغاني كان قد قام بتعميره ، فنسب إليه في ذلك الزمان ، ثم جاء عكاشة أباظة بعد ذلك فجدد بناءه .

ومسجد عكاش في الوقت الحاضر يتولى شئونه آل الهزاز في جدة وكبيرهم في الوقت الحاضر الأخ الشيخ عمر أحمد الهزاز ، وللمسجد أوقاف موقوفة عليه يصرف منها على عمارة المسجد وإصلاح شئونه وصرف المرتبات للقائمين عليه من الأئمة والمؤذنين والمنظفين .

---

(١٧٤) موسوعة تاريخ مدينة جدة : ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

مسجد الحنفي :

ومسجد الحنفي وهو قريب من قصبة الهنود ، وهو مسجد عظيم الفضل من المساجد القديمة أيضاً تقام فيه الجمعة والجماعة .

أقول : مسجد الحنفي يقع في سوق الندا وله باب كان شارعا على قصبة الهنود سابقاً وهو الآن شارع على شارع الذهب بعد أن أزيلت قصبة الهنود في أول توسعة لمدينة جدة وأحدث فيها شارع رئيسي يسمى شارع الذهب .

مسجد عثمان بن عفان :

ومسجد سيدنا عثمان بن عفان جهة القلعة .

يقول الحضراوي : ولعله المذكور في قول ابن جبير مسجد الأبنوسي .

أقول : مسجد سيدنا عثمان بن عفان في حارة المظلوم قرب مسجد المعمار ، شمال مسجد المعمار ، وهو معروف لدى أهل جدة ، أما مسجد الأبنوس الذي يقال : إنه مسجد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فيقع في سوق الندا وهو بعيد عن مسجد سيدنا عثمان بن عفان .

بقية مساجد جدة :

يقول الحضراوي : وكذا مسجد الباشا ، ومسجد المغربي جهة باب مكة ، ومسجد المعمار ، وهو مسجد لطيف تقام فيه الجمعة أيضاً ، ومسجد الحضارم ، وهو جهة سوق الندا وغير ذلك .

أقول : مسجد الباشا في حارة الشام أمام عمارة الفيصلية التي شيدها صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله الفيصل ، وقد قامت وزارة الحج والأوقاف بهدم المسجد القديم ، وإعادة بنائه على طراز حديث جميل .. ومسجد المغربي في منطقة باب مكة قريبا من العيدروس ، وقد أنشأه جد أبي الشيخ محمد بن إبراهيم المغربي فتيح الحباب ، وقد وجدنا لوحة خشبية على باب المسجد تدل على أنه بني سنة ١٢٦٣ هـ ، وقد تعرض هذا المسجد للخراب ، فهدم وأعيد بناؤه بفضل الله تعالى على طراز إسلامي جميل .

ومسجد المعمار يقع في شارع قابل وله باب شمالي يواجه بيت الجمجوم ، وباب جنوبي أمام بيت عاشور في شارع قابل ، وهو من المساجد الكبيرة المعروفة في جدة .

ومسجد الحضارم هو في جهة سوق الندا غرب سوق الندا ، وهناك مساجد صغيرة كان يطلق عليها زوايا . والزاوية هي المسجد الذي لا تقام فيه الجمعة ، وتصلى فيه الصلوات الخمس ، والمسجد هو الذي تقام فيه الجمعة مع الصلوات الأخرى ، هكذا كان إصطلاح الناس في تسمية الزوايا والمساجد . ولقد امتدت مدينة جدة في جميع الاتجاهات بعد إزالة السور وأصبحت مدينة كبيرة عظيمة ترتفع فيها مئات المآذن ، التي تعلو المساجد المشيدة على أحدث طراز وأجمله والحمد لله .

الزوايا :

ذكر الحضراوي أن جدة كان بها ما ينوف على مائة زاوية ذكر منها ، زاوية السادة الشاذلية بحارة اليمن ، وزاوية السنوسي وكانت بمنطقة

العيدروس ، وزاوية الأسنوي بحارة اليمن ، وزاوية السيد الميرغني ، وزاوية البدوي قرب سوق الجامع ، وزاوية ابن علوان .

أقول : كانت هذه الزوايا قائمة في مدينة جدة وكانت كل زاوية منها مخصصة لفرقة من الفرق الصوفية ، وكان أصحاب هذه الفرق يمارسون ما يسمونه بـ « الذكر » بأسلوب لا يتفق وصفاء العقيدة الصحيحة ، ولقد أدركت بعض المنتسبين إلى هذه الطرق الصوفية في أواخر العهد الهاشمي يؤدون ما يصفونه بالذكر ويخرجون جماعات إلى الطرقات يسبقهم الطبل والزمر وهم يغنون ويرقصون ويأتون بحركات لا تتفق ووقار الذكر وخشوعه ، ويقيمون الولائم في أعياد خاصة بهم ، ويحيون الليالي في احتفالات صاخبة ، وحينما دانت البلاد لجلالة الملك عبد العزيز آل سعود – يرحمه الله – ، أبطلت هذه الطرق الصوفية وانتهت تلك البدع السائدة ، وإني لأذكر وأنا صغير السن دون العاشرة أنني نظرت مرة إلى مسبحة كبيرة حباتها أكبر من حجم البيضة الكبيرة وهي تملأ جدار الزاوية فأدركت بعقلي الصغير في ذلك الزمان أن هذه المسبحة العظيمة بحجمها الكبير والتي تنسب إلى السيد البدري ، أدركت أنها أكذوبة كبيرة يتسلط بها القائمون على الزاوية على عقول السذج والبلهاء ، ونحمد الله أن أزيلت هذه البدع وانتهت هذه الترهات . وعادت العقيدة إلى صفائها ونقائها والحمد لله رب العالمين .

الخانات :

يقول الحضراوي : وأما الخانات فلا تحصى ، فمنها : الخان الكبير الشهير بقصبة الهنود ، وهو محل تجار الأقمشة ، ومنها : خان الدلالين

قريب من سوق البنط ، وخان العطارين وهو قريب من العارف بالله تعالى الشيخ أبي سرير قدام الحدادين وغير ذلك .

أقول : قصبة الهنود كانت فعلا أشبه ما تكون بالخان ، وكل أصحاب الدكاكين فيها من تجار الهنود ، ولهم مسجد صغير يسمى مسجد الهنود ، وكانوا يبيعون الأقمشة الحريرية المستوردة من الهند ، كما يبيعون الفضة المذهبة والمصنوعة على شكل ورود ، وأزهار ، والتي كانت تسمى الترتر والكنتيل والتليّ ، مما يستعمل في ثياب العرس للنساء ، ولحفلات الزواج ، وقد أزيلت قصبة الهنود كما ذكرنا قبل حينما تم شق شارع الذهب ، وتقع زاوية الهنود الآن في قلب هذا الشارع الموازي لشارع الملك عبد العزيز ، والمجاور للسوق الكبير ، أما خان الدلالين الذي ذكره الحضراوي ، فقد أدركته في الأربعينات واسمه سوق الحراج ، وبه مقر الدلالين ، وقد أزيل هذا السوق وأدخل في توسعة شارع الذهب كذلك .

أما خان العطارين الذي ذكره الحضراوي فلعله كان في جهة سوق الندا ، وقد أدركت حوانيت العطارين في الأربعينات من القرن الماضي حول مسجد عكاش ، وأشهر عطار في جدة كان اسمه الشلبي ويقع في أول سوق العلوي قريبا من قصر نصيف .

عدد الحوانيت في جدة :

يقول الحضراوي : وأما الحوانيت ونحوها فتنوف عن أربعة آلاف دكان .

أقول : جدة مدينة تجارية منذ نشأتها فهي ميناء الحجاز ، بل ميناء الجزيرة العربية كلها ، ترد إليها البضائع من شتى أقطار الأرض ،

وتجارها يموّنون تجار مكة والمدينة والطائف وغيرها ، من مدن الحجاز ، كما تصدر البضائع منها إلى أنحاء الجزيرة العربية فلا غرو أن تنمو تجارتها ، فتكثر حوانيتها وأسواقها ، وهذا العدد الذي ذكره الحضراوي قبل مائة وعشرين عاما يدل على أن المدينة كانت مدينة تجارية كبيرة منذ ذلك الزمن السحيق ، أما في الوقت الحاضر فإن أسواقها الكثيرة تعج بآلاف الدكاكين في كل مكان .

عدد القهاوي بجدة :

يقول الحضراوي : وأما القهاوي فهي نحو المائة ، ولعمري إن جدة مصر كبير ، وحالها خطير ... ثم يقول : كيف ولا هي دهليز للبلد الأمين ، ومن ثغرها رباط المسلمين .

قبور الأولياء :

ذكر الحضراوي ما دعاه قبور الأولياء المشهورين بجدة فذكر منهم قبر الشيخ العلوية ، وهو قريب من باب مكة وعليه قبة عظيمة واسمه أبو بكر بن أحمد الشهير بالعلوي .

وقبر الشيخ أبو سرير وضريحه بزاوية معروفة في آخر سوق الندا من جهة الشام .. وقبر الشيخ أبو حنة ، ومقام الشيخ أبو عنبة ، وقبر الإمام الشهير المعروف بالمظلوم .

أقول : كان السذج من الناس يزورون هذه القبور التي ذكرها الحضراوي والتي كانت منتشرة بمدن الحجاز كلها ، وينذرون لها النذور ، وهذه كلها من البدع الضالة المضلة التي دخلت على المسلمين ، واستغل

القائمون على هذه القبور سذاجة الناس وغفلتهم وجهلهم بالدين الصحيح فأقاموا القباب على هذه القبور ، واستولوا على ما يرد لها من أموال النذور ، وكل هذا ليس من الدين الصحيح في شيء بل هو مدعاة للإنحدار إلى هاوية الشرك والعياذ بالله تعالى ، فالله تعالى هو الضار وهو النافع ، والدعاء يجب أن يكون له وحده تعالى دون وسيط أو شريك ، وقد أُزيلت هذه القبور وما عليها من القباب ، وانتهت تلك البدع الضالة المضلة حينما قامت الحكومة السعودية بعد انضمام الحجاز إليها بإزالة تلك القبور والقباب فسلمت للناس عقائدهم من الشوائب والانحرافات .

كتاب « اللطائف في تاريخ الطائف »

الطائف وأوديته وأسباب تسميته :

جاء في القاموس – الطائف بلاد ثقيف أول قراها (..) [١٧٥] لعله القيم وآخرها الوهط سميت به لأنها طافت على الماء في الطوفان .. أو لأن جبريل عليه السلام طاف بها حول البيت ، أو لأنها كانت بالشام ونقلها الله إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه السلام ، أو لأن رجلاً من الصدف أصاب دماً ، قال الفاكهي – رحمه الله – في تاريخ مكة والطائف من مخاليف مكة ، وكان في القديم للعمالقة ، ثم نزلها ثمود ، ثم سكنها ثقيف وهي الآن دار لهم ، وذكر التسميات الثلاث الأولى التي أوردناها ثم قال أو لأن رجلا من الصدف أصاب دما بحضرموت ففر إلى وج وحالف مسعود بن معتب بن عمرو بن سعيد بن عوف بن ثقيف وكان له مال عظيم فقال الرجل هل لكم أن أبني طوفا عليكم يكون ردًّا من العرب فقالوا نعم ، وهو الحائط المطيف به [١٧٦] .

وذكر بعض أهل النسب أن الدعون ابن الصدف واسم الصدف مالك بن مرتع بن كندة بن حضرموت [١٧٧] .

وجاء في لسان العرب الطائف مدينة بالغور يقال إنما سميت طائف للحائط الذي كانوا بنوا حولها في الجاهلية المحدق بها الذي

---

(١٧٥) خالٍ من الأصل .
(١٧٦) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٢ .
(١٧٧) نفس المصدر : ص ٣ .

حصنوه به [١٧٨] .

الوهط والوهاط :

الوهط والوهاط المواضع المطمئنة واحدتها وهط بالسكون ، وبه سمي الوهط ، كان لعمرو بن العاص وقيل : لعبد الله بن عمرو بن العاص بالطائف ، وقيل : الوهط موضع وهو قرية بالطائف [١٧٩] .

الوهط بفتح الواو وسكون الهاء بستان أو مال لعمرو بن العاص – رضي الله تعالى عنه – على ثلاثة أميال من وج . قيل : كان يعرش على ألف ألف خشبة مشترى كل خشبة درهم وبهذه القرية مزارع وعين ماء كبيرة إلا أنها الآن ضعيفة وبستانها المذكور لم يبق على معشار ما كانت [١٨٠] .

بين عمرو بن العاص ومعاوية :

ذكر الميداني : أن معاوية قال يوما لعمرو بن العاص : هب لي الوهط وكان كرْما يعرش على ألف ألف خشبة ، شراء كل خشبة درهم كما قال في العباب ما ملكت العرب مثلها ، فلما وهب عمرو لمعاوية الوهط ، وقدر سعادته بهذه الهبة قال له عمرو : قد وجب أن تسعفني بحاجة أسألكها ، قال معاوية : أنت بكل ما سألت مسعف . قال عمرو : ترد إليّ الوهط ، فوهبه له معاوية مرة أخرى [١٨١] .

---

(١٧٨) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٣ .
(١٧٩) نفس المصدر .
(١٨٠) نفس المصدر : ص ٥١ .
(١٨١) نفس المصدر .

أقول : وما ورد عن مقدار عرائش الكرم في ضيعة الوهط التي قدرت بألف ألف خشبة – مليون خشبة – يبدو لي أن فيه كثيرا من المبالغة في التقدير ، والله أعلم .

سبب تسمية وج :

وج : وادٍ بصحراء الطائف .. ونقل ابن فهد عن السهيلي – رحمه الله – أن وجًّا كان رجلا من العمالقة فحوط له مواليه هذه القرية التي سميت باسمها فضبطوا واديها ما بين بناء الصخور ، وشيدوا له بها القصور ، وغرسوها أشجاراً ، وفجروها أنهاراً ، وكان رجلاً نجدي الأصل غير أنه إذا رجعت الإبل تحت الصيف تطلب المياه ، جاء هو بأمواله ، فأنزلها مصافي نجد بقرى وج ، قال واسم أبي وج هذا عبد الحق وقيل عبد الحي (١٨٢) .

الطائف في القرآن :

جاء في تفسير : ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ .

قال المفسرون هما مكة والطائف ، واختلف في الرجلين فقيل : إنه الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف (١٨٣) .

نقل اليورقي عن أبي العالية والضحاك قالا : نظر المسلمون إلى وج وهو وادٍ مخصب بالطائف فأعجبهم سدره ، قالوا : يا ليت لنا مثل

---

(١٨٢) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٤ .
(١٨٣) نفس المصدر : ص ٦ .

هذا ، ثم قالوا : يا رسول الله أفي الجنة سدر كسدر وج فأنزل الله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود .. ﴾ إلى آخر الآية .

والمخضود الذي لا شوك فيه (١٨٤) .

عكاظ :

عكاظ : سوق بين نخلة والطائف ، كانت تقام في مستهل ذي القعدة وتستمر عشرين يوماً ، تجتمع فيه قبائل العرب ، فيتعاكظون ، أي يتفاخرون ، ويتناشدون ، وكان فرسان العرب إذا حضروا عكاظاً أمن بعضهم بعضاً لكون عكاظ في شهر حرام ، وكانوا يتقنعون حتى لا يعرف بعضهم بعضاً (١٨٥) .

أول أمير في الإسلام على الطائف :

وأما عثمان بن العاص الثقفي – رضي الله تعالى عنه – وهو أحد الوفد الذين قدموا كما تقدم – ابن بشر الثقفي يكنى بأبي عبد الله استعمله النبي ﷺ على الطائف فكان أول أمير عليه في الإسلام ، فلم يزل عليها مدة حياته ﷺ وخلافة أبي بكر – رضي الله تعالى عنه – وفي خلافة عمر – رضي الله تعالى عنه – سنتين ثم عزله وولاه عمان والبحرين ، وكان عثمان من الوافدين على النبي ﷺ في وفد ثقيف ، وكان أصغرهم سنًّا له سبع وعشرون سنة ، ولما توفى رسول الله ﷺ ، عزمت

---

(١٨٤) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٧ .

(١٨٥) نفس المصدر : ص ١٧ .

ثقيف على الردة فقال لهم : يا ثقيف كنتم آخر الناس إسلاماً ، فلا تكونوا أولهم ردة ، فامتنعوا عن الردة ، مات بالبصرة سنة إحدى وخمسين (١٨٦) .

النبي ﷺ يعلم أمير الطائف آداب الإمامة :

وكان قال للنبي ﷺ : يا رسول الله اجعلني إمام قومي ، قال : أنت إمامهم واقتد بأضعفهم ، أي اجعل أضعفهم لمرض أو زمانة أو نحوهما قدوة لك تصلي بصلاته تخفيفاً ، واتخذ مؤذِّناً لا يأخذ على أذانه أجراً ، رضي الله تعالى عنه ولعثمان بن العاص أحاديث في السنن (١٨٧) .

رسول الله ﷺ يمدح تهامة :

مدح رسول الله ﷺ تهامة كما ورد في قوله ﷺ : « تهامة كبديع العسل حلواً أوله حلواً آخره » (١٨٨) .

قال في لسان العرب شبهها رسول الله ﷺ بزق العسل ، لا يتغير هواؤها فأوله طيب وآخره طيب ، وكذلك العسل لا يتغير ، وليس كذلك اللبن فإنه يتغير ، وبتهامة فصول السنة كلها طيبة غداة ، وليلها أطيب الليالي ، لا يؤذى بحر مفرط ولا قر مؤذ (١٨٩) .

---

(١٨٦) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٢٢ .
(١٨٧) نفس المصدر .
(١٨٨) البديع : الزق الجديد .
(١٨٩) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٢٢ ، ٢٣ .

امرأة عربية تصف تهامة :

وصفت امرأة من العرب زوجها فقالت : زوجي كليل تهامة ، لا حر ولا قر ولا وخامة ولا سآمة (١٩٠) .

أحياء الطائف وقراه وما وقع فيها من الحوادث

قرية لقيم تثور على الشريف زيد بن محسن :

لقيم على وزن زبيد ، قرية كبيرة مشتملة على بساتين ومزارع وآبار ، وهي أول قرى الطائف من الجهة الشمالية ، وهي مسكن جماعة من ثقيف يقال لهم (الحمدة) وقد قتل صناديدهم مولانا الشريف زيد ابن محسن صاحب مكة – رحمه الله – في حدود الأربعين بعد الألف لخروجهم عن طاعته ، بحيث أنهم حاصروه في حصنهم ، ومن الاتفاق أنهم جمعوا البارود في موضع واحد ، فصار كل منهم يأخذ كفايته ، فبينما هم كذلك ، إذ ثارت عليه شرارة فاحترق الحصن وجماعة فيه ، وهرب الباقون فمنهم من قتل ، ومنهم من انقاد للطاعة فصار ذليلا (١٩١) .

قصر شبرة :

وهناك – يعني بأرض ثقيف – قصر جميل في باطن بستان عظيم يقال له شبرة العاطر الفاخر وبها البناية الفاخرة الغريبة التي لم يكن في أرض الحجاز لها نظير ، وهو – أي القصر – للشريف عبد الله باشا أمير مكة ابن الشريف محمد بن عبد المعين بن عون .

---

(١٩٠) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٢٣ .
(١٩١) نفس المصدر : ص ٤٦ .

يقول الحضراوي : وهذا القصر ببستانه المعروف بشبرة وهو تحفة من تحف الدهر ، وقد تكلمت الشعراء بمدحه حتى تغزلوا بقول بعضهم :

ماست تميـل وتنثنـــي ما بين شبرة والعقيق
حوراء يمنعهـــا الحيـــا وتقول من أين الطريق (١٩٢)

قرية السلامة :

كان ينزل بها أعيان الناس من أعيان مكة وفضلائها ، بأغالب أهلها ثم خربت في حدود الثمانين وتحول أهلها عنها فلم يبق منهم إلا القليل وانهدمت بيوتها في مدة يسيرة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أقول : ولعل المقصود أن قرية السلامة خربت بعد سنة ألف ومائتين وثمانين ، والله أعلم (١٩٣) .

قروة وتاريخ عمارتها :

قرية الآبار وهي المعروفة اليوم بقروة وبها بئر عجلان ، بئر عذب شديد العذوبة ، خفيفة في الباطن وهي خلف قرية السلامة من الجهة الشمالية ، وسميت بذلك لكثرة حفر الآبار بها من زمن القائدة ذرة جارية الشريف حسن بن أبي نمي .

قال : وبلغني أن ابتداء عمارتها في حدود الألف وأن أول بيت بني

---

(١٩٢) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٤٧ .
(١٩٣) نفس المصدر : ص ٤٨ ، ٤٩ .

بها البيت الذي، كان يسكنه السيد عمرو بن عبد الرحيم البصري .

الطائف كان يسمى قديماً الهضبة :

قرية الهضبة قال الشيخ حسن العجيمي – رحمه الله – وهي الآن كثيرة البيوت جدًّا وابتداء عمارتها بعد الألف إلا أن ازدياد كثرة البيوت بها منذ خرجت السلامة في حدود الأربعين .

يقول الحضراوي : قلت وهي الطائف اليوم بسورها الذي هو دائر عليها وله خندق ، دائر محفور محفوف به ، وأظن جدد بناءه محمد علي باشا بخندقه ، وهو حائز الآن (لقبة حبر الأمة ولمسجده) مسجد ابن العباس ولمسجد الهادي اليمني كما تقدم وله ثلاثة أبواب باب الحزم ، ثم باب الريع ، ثم باب ابن العباس .

قرن المنازل :

ومنها قرية اسمها حباحب ، قرية من قرى قَرَنْ وجاء في القاموس قرن الثعالب قرن المنازل – بسكون الراء – ميقات أهل نجد .

قال بعضهم : إن الطائف كبشٌ أوله قَرْنٌ وآخره لية ، ليس على وجه التحديد بل التقريب لتصبح لطيفة التشبيه كما قيل في هذا المعنى :

قلت للطائف فضل ... وادي فيه مزية
أول الطائف قرن ... مثل كبش فيه لية (١٩٥)

---

(١٩٥) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٥١ .

أقول : وقرية الحباحب أو قرن المنازل تعرف في الوقت الحاضر بوادي مِحْرِمْ ، نسبة إلى إحرام الحجاج بها حيث هي ميقات أهل نجد .

الباطنة والشريعة والزهرة :

الباطنة والشريعة والزهرة بساتين المثناة الشهيرة بناها الشريف عبد المطلب بن الشريف غالب الذي تولى إمارة مكة سنة ١٢٦٨ هـ وجدد جملة حوائط البساتين وبنى مسجداً تقام فيه الجمعة .. والزهرة سراية كبيرة على طراز بيوت الآستانة بأكشاكها الشاهقة وأوصافها المتناسقة (١٩٦) .

مسجد ابن العباس :

أول من بنى هذا المسجد (النبوي) عمرو بن أبي أمية بن وهب ابن متعب بن مالك لما أسلمت ثقيف ذكره أهل السير .

ثم عمرته زبيدة بنت أبي جعفر العباسية كما يدل عليه ما ذكره الفاسي في شفاء الغرام ، قال : وجدت بخارج الجدار القبلي من المسجد العباسي حجراً مكتوب فيه : أمرت السيدة أم جعفر – زبيدة بنت أبي جعفر أم ولاة عهد المسلمين – بعمارة مسجد رسول الله ﷺ بالطائف وذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة .

يقول الحضراوي : في ذكر المآثر والمشاهد الواقعة في الطائف وما حوله ، فمن ذلك مسجد ينسب إلى النبي ﷺ ، وهو الآن تحويطة

---

(١٩٦) اللطائف في تاريخ الطائف : ص ٨٢ ، ٨٣ .

صغيرة طولها من الأرض فوق ذراع ملاصقة للجدار القبلي من القبة الأخيرة الكائنة في آخر المسجد العباسي ، على يمين الداخل من بابه الشرقي .

وأما المسجد العباسي فقال ابن فهد وغيره : إنه لم يثبت فيه شيء (١٩٧) .

يقول الحضراوي : ومنها القبتان المبنيتان في موضع خيمتي زينب وأم سلمة – رضي الله تعالى عنهما – ، وقد ذكرهما المؤرخون كالمرجاني وغيره ، وكان بعد السبعمائة إلا أنهم لم يتعرضوا لذكر اسم بانيهما ، وظاهر كلام المحب ابن فهد أنهما بنيا في حدود التسعمائة ، فقال : إنه رأى المسجد العباسي خراباً ، بل سقط بعض أروقته وجدرانه وعمّر بعضها عمارة خفيفة ، وكذلك بناء الآثار النبوية التي وسطه ، وقد هدمت القبة الكائنة في وسط المسجد ، وبنيت على غير هيئتها الأولى عند عمارة الرواقين الحادثين بالمسجد العباسي في سنة أربع وثمانين بعد الألف .

توسعة مسجد ابن العباس :

وسع مسجد ابن العباس الوزير العالم محمد باشا شرواني ابن عباس في حدود سنة ألف ومائتين ونيف وثمانين ، وهذا الوزير صاحب كتبجانة مكة المقابلة للتكية المصرية ، وهو الذي من خيراته ثم توسيع

---

(١٩٧) قال ابن فهد : أما المسجد الكائن بالقبة القبلية فلم يثبت فيه شيء . اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٢٦ ، ٢٧ .

المسجد العباسي وزاد فيه ناحية الجنوب دكة طويلة كالرحبة للمسجد المذكور بباب واحد يخرج منه الخارج من المسجد إلى ناحية الجنوب (١٩٨) .

رواية أخرى في بناء المسجد العباسي :

قال الشيخ العجمي – رحمه الله تعالى – :

أول ما بنى هذا المسجد في أيام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد ابن المستضيئ العباسي كذا في تاريخ المرجاني والتقيّ الفاسي ، ثم جدد بعض أروقته وجدرانه بعد التسعمائة ، ولكنها عمارة ضعيفة كما في تحفة المحب ، ثم جدد عمارته وعمارة بعضه والقبة وعمارة المنارة الملك المظفر ابن رسول صاحب اليمن كما يدل عليه الكتابة الموجودة على باب القبة ، أمر بتجديد ما تعب من هذا المسجد من المنارة وغيرها الملك المظفر سنة ٦٧٥ هـ (١٩٩) .

قال المحب أيضا (ابن فهد) :

رأيت المسجد الكبير الذي فيه قبر سيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما – خراباً بل سقطت بعض أروقته وجدرانه ، وعمّر بعدها عمارة ضيفة ، وكذلك بناء الآثار النبوية التي في وسطه ، ووجدت بخط صاحبنا الشيخ عبد المحسن بن سالم القلعي – رحمه الله تعالى – قال : وجدت بخط الشيخ محمد الخادم المشهور بعمامة ، إنه في

---

(١٩٨) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٣٦ .
(١٩٩) نفس المصدر : ص ٣٧ ، ٣٨ .

عام سبعة وأربعين بعد الألف ، أمر أمير الحج المصري رضوان بك بتبييض قبة سيدنا عبد الله بن عباس وبناء المنارة الموجودة الآن على باب المسجد ، وبذل في ذلك مالاً ، والقائم على ذلك شركس بن عبد الملك الشاووش الطايفي حاكم الطائف ، والنائب عنه أحمد بن عيسى أبو خيش الخادم والمعلم أحمد بن سوكني ، وواحد من أهل مكة – غفر الله لهم – وكان الفراغ من عمارتها في شهر ذي القعدة سنة ١٠٤٧ هـ (٢٠٠) .

قال وأخبرني بعض الثقات أن هذه المنارة التي أحدثت إنما عمِّرت بحجارة المنارة القديمة التي ذكرها المرجاني ، وقد رأيت رسومها وشاهدت التعمير بحجارتها (٢٠١) .

عمارة الشريف زيد بن محسن بن حسن أبي نمي :

ثم جددت عمارة المسجد وجدرانه والأروقة الأربعة عمارة متقنة على الرسم الأصيل في سنة إحدى وسبعين بعد الألف ، وكان الآمر بها والمنفق عليها مولانا الشريف زيد بن محسن بن حسن أبي نمي سلطان مكة – رحمهم الله تعالى – والقائم على العمارة القائد أحمد بن ريحان حاكم الطائف (٢٠٢) .

الشريف زيد يمنع الدفن في صحن المسجد :

وقد وجدت في وسطه (المسجد) عمارة رواقين بإشارة قاضي مكة ،

---

(٢٠٠) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٣٨ .

(٢٠١) نفس المصدر .

(٢٠٢) نفس المصدر .

وفصل بينهما وبين القبور التي في مؤخر المسجد بجدار .. ويقول عن هذه القبور :

وأحدث به الشريف صاحب مكة محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني قبور جماعة منهم أم ولده هزاع وقاصده إلى الديار المصرية الشريف عنقا دويبر كذا في تحفة ابن فهد ، ثم زادت القبور وكثرت حتى امتلأ صف صحن المسجد بها ، ولولا نهي الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه لاستأصل وصار جميعه مقبرة (٢٠٣) .

حسن الكردي يأمر بإقامة الجمعة والجماعة في المسجد :

قال ابن فهد : وليس بهذا المسجد جمعة ولا جماعة .

يقول المؤلف : والظاهر أنهما كانا فيه قديماً لوجود المنبر به كما تقدم ، وكذلك جميع القرى المتصلة بالطائف ، قال فإني لما زرت في المرة الأولى وكان في سنة خمسة عشر وتسعمائة لم أر بها جمعة .

ثم أن الجناب العالي القاضي بدر الدين بن علي بن خالص المغربي المالكي النائب بجدة لما توجه الأمير حسن الكردي الأشرفي إلى جهة الهند لقتال الإفرنج ، وهو الذي كان بنى سور جدة في أسرع مدة ، أمر أهل الطائف بإقامة الجمعة والصلاة بالمسجد العباسي ، وبصلاة الجمعة أيضاً في القرى المتصلة به وذلك بإشارة شيخنا العلامة المفيد رئيس الحكماء نور الدين أحمد بن خضر القرشي الكازروني الشافعي – رحمه الله تعالى –

---

(٢٠٣) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٣٨ ، ٣٩ .

فجمعوا بها في سنة خمس عشر وتسعمائة (هجرية) ، واستمرت إلى أن زرت الزيارة الثانية في السنة التي بعدها سنة سبعة عشر وتسعمائة (هجرية) وهي موجودة بعد ذلك في غير المسجد الكبير الذي فيه ضريح حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما – فإنه منفرد عن القرى وسط التربة ، ويصعب على أهل البلد التوجه إليه لبعده عن بعضهم ، وكونهم لا يسمعون النداء منه ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

يقول المؤلف : وكأنه أراد بالمسجد الذي أقيمت فيه أخيراً مسجد الجمعة الكائن بالسلامة ، وقد استمرت إقامة الجمعة ، وخطباؤه جماعة من بيت الفتيحي ، واستمر انقطاع الجمعة بالمسجد العباسي إلى أثناء سنة أربع وخمسين وألف (هجرية) ثم أقيمت به ، وكان السبب في ذلك أن المرحوم الشريف زيد بن محسن صاحب مكة وصل إلى الطائف في ذلك العام في جمع من أهل مكة وأعيانها كقاضي مكة حسن أفندي بياضي ، وشيخ الحرم محمد أغا ومفتيها الشيخ حنيف الدين المرشدي ، وكثر الواردون إلى الطائف من أهل مكة بحيث ضاق عليهم مسجد الجمعة الكائن بالسلامة فأمر بإقامتها فى مسجد سيدنا عبد الله بن عباس – رضي الله تعالى عنهما – صاحب مكة الشريف زيد بن محسن فباشر به خطيب مسجد الجمعة وهو أحمد الفتيحي في ثالث جمادى الأولى سنة ١٠٥٤ هـ (٢٠٤) .

---

(٢٠٤) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٣٩ ، ٤٠ .

الخلاف بين أسرة الفتيحي وخدام الضريح :

ثم وقع الشنآن بين الفتيحي وخدام ضريح الحبر سيدنا عبد الله بن عباس - رضي الله تعالى عنهما - فرفعوا إلى الشريف ما بأيديهم من خطوط أشراف مكة بأنه لا يدخل عليهم أجنبي ، فأبقاهم على ذلك ، فخطب في العاشر من الشهر المذكور - جمادى الأولى ١٠٥٤ هـ - شخص منهم - من خدام الضريح - اسمه أبا بكر بن أحمد ، ثم وقع الشنآن بينهم فأمر الشريف بمباشرتها مناوبة فصار الفتيحي يباشر الخطبة وصلاة الجمعة مرة ، والخادم - خادم الضريح - أخرى ، واستمر ذلك في الخدام والفتيحيين إلى أن باشر الخطبة رجل من الفتيحيين يسمى راشد فسلط الله عليه من يخرجه لعدم الصلاحية لذلك ، فعوض عنه برجل من الخدام يسمى أحمد التقي فصار يباشر جمعة وولد بواب القبة يباشر أخرى ، واستمروا على ذلك مع إقامة الجمعة أيضا بمسجد السلامة حتى خربت في سنة وارتحل غالب الناس عنها فانفرد المسجد العباسي بإقامتها (٢٠٥) .

خطبة العيد :

وفي سنة أربع وستين أو خمس وستين - بعد الألف (هجرية) - أمر الشريف زيد بن محسن صاحب مكة الشيخ حنيف الدين المرشدي مفتي مكة مباشرة خطبة عيد الفطر فباشرها على أسلوب خطباء العيد في مكة . وأمر بذلك أيضا في سنة ست وستين القاضي عبد الجواد المنوفي الحنفي فباشرها كذلك (٢٠٦) .

---

(٢٠٥) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٤٠ ، ولم يوضح التاريخ بالأصل .

(٢٠٦) نفس المصدر .

وظيفة الخطابة والإمامة :

يقول الحضراوي : وأخبرني صاحبنا الشيخ عبد الله بن محمد بن أحمد بن علي بن أحمد الخطيب بن عيسى بن موسى بن أبي القاسم بن شداد بن عمر باعمر الشيباني الحميري الملقب بالطيفاني : أن الخطبة بالطائف كانت وظيفة أجداده ، ثم بعد جده أحمد بن عيسى صارت لبيت الفتيحي . وأما خدام القبة – الشريفة – فهم من ذرية الشيخ أحمد الحرازي اليمني (٢٠٧) .

يقول الحضراوي : أما في زماننا هذا فأروقة المسجد في قبلته خمسة منها ثلاثة أروقة مقابلة للضريح عمّره أحمد باشا الحجازي سنة ١٢٣٧ هـ وهناك بابان للمسجد متصلان ، وعندهما المنارة التي عمّرها المذكور ، وبجانب المنارة قبة فيها ساعات فلكية موقوفة على المسجد من بعض سلاطين آل عثمان (٢٠٨) .

وفي الرواق الأوسط باب للمسجد أيضاً فتحه الوالي على الحجاز حينئذ المرحوم أحمد رشيد باشا الشرواني .

يقول الحضراوي : وكان صدراً من الصدور وعالماً فاضلاً سنة ١٢٩١ هـ (٢٠٩) .

أما الرواقان المقدمان في مقدم القبلة فقد عمرهما بعض تجار الهنود

---

(٢٠٧) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٤٠ .
(٢٠٨) نفس المصدر : ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٢٠٩) نفس المصدر : ص ٥٤ .

حين قدم زائراً لحبر الأمة سنة ١٢٩٥ هـ (٢١٠) .

العباسيون من نسل ابن عباس :

أما الحبر ابن عباس فكان له من الأولاد خمسة : العباس ، ومحمد ، والفضل ، وعبد الرحمن ، ولا عقب لواحد من هؤلاء ، وعلي وهو أصغرهم ، وفيه الجمهرة والعود والنسب والخلافة ، ولا عقب لعبد الله بن عباس إلا من علي هذا ، وعقَّب علي هذا عَالَمٌ حتى يقال ضبطت الذرية العباسية في زمن المأمون فبلغت ثلاثة وثلاثين ألفا ما بين ذكر وأنثى (٢١١) .

شعر ابن عباس بعد أن كف بصره :

فقد ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – بصره في آخر عمره فكان ينشد :

أن يأخذ الله من عينيّ نورهما ففي لساني وقلبي منهما نور
عقلي صحيح ورأيي غير ذي زلل وفي فمي صارم كالسيف مشهور (٢١٢)

تاريخ بناء مسجد الهادي :

مسجد الهادي اليمني الكائن بقرية الهضبة وكان منشؤه في حدود الخمسين بعد الألف .

---

(٢١٠) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٥٤ .
(٢١١) نفس المصدر : ص ٣٢ .
(٢١٢) نفس المصدر : ص ٢٩ .

يقول الحضراوي : وهو الآن على الروقة .. ثم يقول : وله منبر تقام فيه الجمعة في وقتنا أيام الموسم [٢١٣] .

ونكتفي بما استخلصناه من مؤلفات الحضراوي عن جدة والطائف والولاة العثمانيين في الحجاز للفترة التي عاصرها الحضراوي ، وأرجو أن يكون فيما أوردته عنه باعثاً للبحث الدقيق في مؤلفاته الكثيرة ودراستها فلعل فيها الكثير من التاريخ المخبوء الذي غيبته عنا الأيام ...

* * *

(٢١٣) اللطائف فى تاريخ الطائف : ص ٤٣ .



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية

السيد جعفر بن محمد البيتي

السيد جعفر بن محمد البيتي

شاعر الحجاز

في القرن الثاني عشر للهجرة

مولده ونشأته :

ولد السيد جعفر بن السيد محمد البيتي [٢١٤] باعلوي السقاف بمكة المكرمة سنة ١١١٠ هـ ، ونشأ بها وتلقى العلم على والده السيد محمد البيتي وعلى الشيخ عبد الله بن سالم البصري [٢١٥] وهو من العلماء الذين اشتغلوا بدراسة الحديث قراءة وجمعاً وتدريساً واجتمع بالسيد عبد الرحمن العيدروس [٢١٦] ، وكل منهما أخذ عن صاحبه [٢١٧] .

اشتغاله بالشعر والكتابة :

اشتهر السيد جعفر البيتي بالشعر حتى أصبح علماً من أعلامه ، فقال عنه المرادي في سلك الدرر : وبرع في نظم الشعر حتى كاد

---

(٢١٤) البيتى نسبة إلى بيت مسكن قرية تريم فى حضرموت . انظر : خلاصة الأثر ٢٦٢ – الجزء الأول .

(٢١٥) انظر ترجمته وافية فى المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ٢٤٦ – ٢٤٩ للشيخ عبد الله مرداد أبو الخير .

(٢١٦) انظر ترجمته فى « خلاصة الأثر » للمحبي (ج ٢) : ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .

(٢١٧) ص ١١٦ ، ٢١٨ مختصرا من كتاب « نشر النور والزهر » لعبد الله مرداد أبو الخير .

أن يكون كالمتنبي وله ديوان شعر مشهور مشحون باللطائف [٢١٨] .

ووصفه الجبرتي في عجائب الآثار ، فقال عنه : وحيد دهره في المفاخر ، وفريد عصره في المآثر أديب جزيرة الحجاز ثم قال عنه : وصار إماماً في الأدب يشار إليه بالبنان . وكلامه العذب يتناقله الركبان ، وله ديوان شعر جمعه لنفسه ، وله مدائح وقصائد وغزليات كلها غرر محشوة بالبلاغة تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه [٢١٩] .

وذكر الزركلي في الأعلام أن البيتي ألّف كتاباً سماه : « مواسم الأدب وآثار العجم والعرب » جزآن مطبوعان [٢٢٠] .

وظائفه وأعماله :

يقول الجبرتي عن البيتي : إنه ولي كتابة الينبع [٢٢١] ، ثم وزارة المدينة [٢٢٢] ، وقال المرادي عنه : تولى كتابة الشريف ووزارته ، وسافر للديار الرومية واليمنية ودخل مدينة صنعاء مرات وكان يتردد بين مكة والمدينة [٢٢٣] .

---

(٢١٨) المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » لعبد الله مرداد أبو الخير : ص ١١٦ .

(٢١٩) عجائب الآثار للجبرتي (ج ١) : ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .

(٢٢٠) الأعلام للزركلي (ج ٢) : ص ١٢٩ .

(٢٢١) يقصد مدينة ينبع ، وينبع من مدائن الحجاز .

(٢٢٢) عجائب الآثار للجبرتي (ج ١) : ص ٣٧٣ .

(٢٢٣) المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ١١٦ .

هذا ما استخلصناه من كتب التراجم عن السيد جعفر البيتي الشاعر الناثر ، وآن لنا أن نقلب صفحات ديوانه لنستخلص منها صورة للشعر في عصره – القرن الثاني عشر للهجرة – ولنستخلص من هذا الشعر ملامح للحياة الاجتماعية والسياسية في مدن الحجاز خلال هذا القرن الذي لا تتوفر المصادر التاريخية الكافية لجلاء ملامحه وأحواله .

ديوان البيتي :

توجد نسخة مخطوطة بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة لديوان السيد جعفر البيتي (تحت رقم ٣٠٩١ الرقم العام ورقم التصنيف ٨١٠/٦٣) وهو مكتوب بخط واضح ويحتوي على مائة وتسع وثلاثين صفحة من القطع العريض مقاس الصفحة (٣٠ × ٢٠ سنتيمتراً) وكل صفحة مقسومة إلى قسمين ومتوسط القسم الواحد في الصفحة الواحدة تسعة عشر سطراً ولابد أن يكون للديوان نسخ أخرى لأنه كتب عليها « هذه النسخة نسخها الكاتب ولابد من مقابلتها » ثم كتب تحت ذلك وبخط مختلف « تقابلت بحمد الله » ويوجد في بعض الصفحات تصحيح لبعض السطور أو إضافة لبعض الأبيات .

وقد كتب في الصفحات الأولى للمخطوط ما يدلُّ على ملكية هذه النسخة للسيد جعفر ابن السيد محمد البيتي المؤلف ، كما يوجد عليها ختم وقفية هذه النسخة من قبل أحمد عارف حكمة الدين محمد الحسيني في مدينة الرسول الكريم عليه وعلى آله الصلاة والتسليم بشرط أن لا يخرج عن خزانته وتاريخ الختم عام ١٢٦٦ هـ ، وبعد هذا الوصف لمخطوطة الديوان نتحدث عن محتويات الديوان .

وصف عام لشعر البيتي :

نظم البيتي في فنون الشعر عامة فله قصائد في الغزل والرثاء والإخوانيات والمديح والهجاء ، ويضم الديوان قصائد تصف الأحوال الاجتماعية والسياسية في البلاد وهي في نظري تكتسب أهمية كبرى لأنها تلقي الضوء على جوانب من حياة الحجاز الاجتماعية والسياسية في فترة افتقدت فيها المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه الفترة من الزمن – القرن الثاني عشر للهجرة – ولهذا فسيكون تركيزنا على هذا الجانب من شعر البيتي أظهر وأعم .

البيتي يمزج الشعر بالنثر :

ومما لاحظته في الديوان أن البيتي لم يكن يكتفي في بعض الأحيان بنظم القصيدة وإنما يقدم لها برسالة طويلة مسجوعة في نفس الموضوع ، كما هو الحال في رسالته من ينبع إلى الخطيب محمد أبي الخير مغلباي المدني في سنة ١١٤٠ هـ والتي سنتحدث عنها بعد ، أو يبدأها بأبيات من الشعر ثم يتبعها بالنثر ليعود مرة أخرى إلى الشعر .. ونثر البيتي كله مسجوع ، فلم أجد في الديوان على كثرة ما ورد فيه من النثر سطراً واحداً خالياً من السجع . وهذا السجع يتميز بالعذوبة كما ينبئ عن إحاطة كاتبه بكثير من المعارف وهو يدل على اطلاع واسع كما يشير إلى تمكن كاتبه من المفردات اللغوية فلا تشعر فيه بالتكلف الذي يظهر في سجع كثير من الكاتبين .

البيتي في ينبع :

ذكرنا ضمن وظائف البيتي أنه تولى الكتابة في ينبع ولم توضح

التراجم التي بين أيدينا كنه الوظيفة التي تقلدها في ينبع ، هل هي الكتابة لأمير ينبع ؟ أو أنه انتدب من إمارة المدينة المنورة التي كانت ينبع تابعة لها للعمل هناك ؟ ولكنا نستطيع أن نستخلص من مجمل ما نظمه البيتي من الشعر عن ينبع ، وما كتبه من النثر أن عمله كان يتعلق بالبادية ، وببعض الأمور المالية فيها فهو يقول :

لولا تغافل أهل الفضل عن خبري ما عدت في ينبع من كاتبي العُشَرِ
صناعة لست من أكفائها فَرَشَتْ فوق الأسنة لي ضيماً على الأبر [٢٢٤]

ولقد أطال البيتي الحديث عن معاناته في ينبع شعراً ونثراً ، وكان يكتب بهذه المعاناة إلى أصدقائه في المدينة المنورة ، كما كانت تفيض نفسه بالشكوى فيرسل الشعر تسجيلا لهذه المعاناة .

ولقد مرت القرون على هذه المعاناة [٢٢٥] ولكنه خلَّدها وصفاً حيًّا لحالة ينبع الاجتماعية والسياسية نقرأها بعد مائتين وست وستين عاماً ، فتبدو حوادثها ماثلة للعيان تحدثنا بما كانت عليه الحال في الماضي من اضطراب في الأمن ، وسوء في الأحوال ، وتسلط من البادية على مقادير الناس وممتلكاتهم وأرواحهم ، فنحمد الله أن بدَّل الخوف أمناً ، والسوء حسناً ، وأن قيَّض للأمة من يقوم على شئونها خير قيام .

والآن لنترك البيتي يتحدث في رسالته التي كتبها إلى الخطيب

---

(٢٢٤) صفحة (٣) من الديوان ضمن القصيدة الأولى التى مطلعها :
حيي بكأسك لي مع نسمة السحر وسلسلي الراح من نحري إلى سحري
(٢٢٥) قصائد البيتي ورسائله في ينبع كانت في عام ١١٤٠ للهجرة .

الفاضل محمد أبي الخير مغلباي المدني سنة ١١٤٠ هـ والتي يبدأها بهذين البيتين وهما من شعر البيتي :

مقدمة الرسالة :

وأزكى ما يخص به الأَخِلَّا ويحمله الوداد مع النسيم
سلام نَشْرُهُ مسكٌ ذكيٌّ يروق كحسن أخلاق الكريم

يطلع عليه نسيم الصبا ، ويطّلع إليه عهد الصِّبا ، وتنقل عنه الأزاهير ، ما يعبر به العبير ، فهو كأيام الربيع حسناً ، وتَبَسُّم الزمن حِسًّا ومعنى ، آنس من الخليل ، ودخول البرء على العليل ، تتنافس فيه النفوس وهو لا عطر بعد عروس ، أرق من الغمام ، وشكوى المستهام ، كأنه لطيف النور في الديجور ، أو إنعاش الراح للأرواح .

سرى بنافحه نيلوفر عبق وسنان نَبَّه منه الصبح احداقا

متمسكا بتقبيل الأعتاب العلية ، وهو ومثله من التحية ، من مقام رفيع الجناب ، القاصر عنه لسان الإطناب ، نسيج وحده ، وواحد فخره ومجده ، القائم بذاته في الفخار الغني عن الوصف والتكرار ، فضيل من تعقد عليه الخناصر ، وتهتز له أعطاف المنابر ، وهو لانفراده بالمفاخر كالمثل السائر ، في الأوائل والأواخر ، ليس به عيب سوى أنه لا تقع العين على شبهه ، أجلّ من ينسب إلى العزة ويُعْزَا ، والجزء الذي لا يتجزى ، ذو الفضل المأثور ، والذكر المنشور أبو الخير المشهور ، أطال الله عمره في السعادة وطول العز والسيادة ، وبعد تعطير الطرس بغوالى ذكره ، وتشريف الكلم بجوامع علاه وفخره ، صدرا من مصدور الشوق ، الذي شب عمره عن الطوق ، من كثير السؤال ، كثير الاشتغال بتفقد الأحوال :

وكثير من السؤال اشتياق وكثير من رده تعليل (٢٢٦)

والله سبحانه هو المحمود والمأمول بها (٢٢٧) الكرم والجود ، أحمده إليك علانية وسرًّا ، وأتبتل إليه ثناءاً وشكراً ، وقد وردت عقيلة الكرم ، والنثر الذي هو نثارها ، وتوطية القسم ، فخلا بها القلب الوجل ، والذهن الخجل وتلقاها البال بالإقبال ، وأحلها الخاطر ، في بيت الود عامر (٢٢٨) حتى كانت درياق الاشتياق ، وعلاج الانزعاج وبهجة المحاضر ، وأنس المقيم والمسافر ، كيف لا وهي عذب الشمائل ، وشمول الفضائل ، تيمة المعاني (٢٢٩) وقوية المباني ، قد صرحت بجلَّذان ، عن فضلك المصان

بكر فكر تزف أنجب من أم البنين التي من الأصلاب
من لدى المعي جوهر عقل وهي منه عنوان ذاك الكتاب

فأكرم بخريدة خدرها ، ودمية قصرها ، في أبناء عصرها ، عرضت للاستماع ، وتهذيب الطباع ، فهي بين الأنام ، تطلب مَهْرَ قطام (٢٣٠) لعلو المقام ، فتكبر أن تسرح إلا في محاسنها النواظر ، وتمتع إلا من معناها البصائر فما برحت في ذلك المجال ، تخطر في قدر الشعر وتختال ، وينشدها لسان الحال .

---

(٢٢٦) هذا البيت للمتنبي .
(٢٢٧) لعل الأصح أن يكون « به » .
(٢٢٨) لعل الأصح أن يكون « العامر » .
(٢٢٩) لعل الأصح أن يكون « يتيمة » .
(٢٣٠) قطام هى المرأة الخارجية التى اشترطت على عبد الرحمن بن ملجم قتل علي بن أبي طالب – رضى الله تعالى عنه – مهراً لها – وكانت فائقة الجمال – انظر : كتاب « علي بن أبى طالب » لكاتب هذه السطور .

والرسالة طويلة يصف فيها البيتي معاناتاه في ينبع من الحشرات ، كما يصف الشحاتين في ينبع والأعراب ورؤساء القبائل ، مما سنقرأه في شعره ، ثم يتحدث البيتي عن نفسه فيقول :

البيتي يعتذر لنفسه :

وكأني بملام الخطيب يصدر عن قريب ، غب هذا العجيب ، وهو يلوم في المطامع ، وينبه على فضل القانع ، ويقول : إن في العفاف لما يصون قدر الأشراف ، ولقد أسرف كل الإسراف ، حين تعرض للاستهداف ثم يسند صاحبه إلى الجنون ، ويغرب في الجون ، فيقول : لو عاد بمال قارون ، لكان في الصفقة مغبون ، بل ولو استقل بفارس وخراسان ، وهيمن على الشحر وعمان ، وتقلد ملك آل عثمان ، وجاء برأس خاقان ، لما كان بعد الشدة والامتحان ، ومقامه على الهوان ، إلا أخسر من أبي غبشان ، وأخيب من حنين ، ولو جاء بملإ الخافقين وكان مع عدم المشاركة ، في أحسن من زمن البرامكة ، قد تربع في دست الشرافة ، وسلم عليه بالخلافة ، فماله قد أساء في الطلب ، وذهب بوضاءة النسب والأدب ، بسوء هذا المكتسب فما كان في العير ، ولا أحسبه في النفير :

تعالى الله يا سلم بن عمرو　　　أذل الحرص أعناق الرجال

فما أجد من الأعذار ، إلا تصرف الأقدار ، وحمل الاضطرار ، على عدم الاختيار ، على ذلك صبرت ، ولو خيرت لاخترت :

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له　　　إياك إياك أن تبتل بالماء

ومن العذر ما لا أبديه ، وقد ذهب أمس بما فيه ، والسعيد

من كفي المؤونة ، وأعطى الملعونة ، ونعمت له البارحة والليلة ، وقيل له مَسِّي سخيلة فقلما تحسن الحال ، إذا كثرت العيال ، وتتصور الراحة ، إذا صفرت الراحة وما فاز في العالمين ، غير المخففين ، وأخوك قد أساء الزمن إليه ، وعرض خصلتي الضبع عليه ، أو أني أعاف الإكرام ، لوجدتْ الإكرام ، أو أمل المقام ، ولكن لو ترك القطا لنام :

لُمِ الليالي التي أخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم

حظ الأديب :

ثم أعود وأقول ما أكسد الأدب ، الذي ذكرت ، وأطنبت فيه بما قدرت ، وليست سلسلة النسب ، من حبائل النشب ، ولا نسخ الأدب من فخوخ الذهب ، وماذا حصل للخليل بالبسيط والطويل ، وهل أفطر على العصيد من بحر المديد ، وأشرف على المطالب ، من فعول المتقارب ، فليس من المفروض علم العروض ، ولا من المسنون الاشتغال بهذه الفنون :

لا تطلبن بآلة لك رفقة قلم البليغ بغير حَظٍّ مِغْزَلُ

فما أضعف قواعد الإعراب ، عن إملاء الجراب ، وأضيع دلائل الإعجاز ، في حانوت البزاز ، وأقذر زهر الآداب ، وآداب الكتاب ، إذا عرضا على القصاب ، ولم أسمع بأنساب قريش ، إنها نفقت في ترميق العيش ، ولا أن كتاب الكامل عمل في تحريك العوامل ، وإذا طلبت البرهان ، وشئت أن ترى العيان ، فخذ أخبار الزمان ، وقلائد العقيان والسير والغزوات ، وجميع كتب الطبقات ، وشروح المعلقات ، وهلم بالفلك المشحون ، في القبائل والبطون ، ومعها أجزاء الأغاني ، وديوان

ابن هانئ ، وما انتظم من هذه المعاني ، ثم تفسح في المجالس ، واجْلُ من تلك العرائس وأنت كسحبان وائل ، وبيان عمروٍ وواصل ، فإن توصلت إلى طفيف ، من ثوب أو رغيف ، فاصنع ما شيت ، واهجرني ما حييت ، فلست بالمميز ، على ابن المعتز ، حين أدركته حرفة الأدب ، فوقع في العطب ، ولا كشيخ ربيعة الفرس وقد رمى بالهوس ، فأهون في الزمان بعلّامة همذان ، ومثله من الأعيان ، وأي فضل في شعر ، لا يوقد تحت القدر ولا يقاوم ثمن الحبر ، ولو كان من الحكمة والسحر .

لاخير في أدب فرداً بلا ذهب ... وليس ينفق في شيء من الزيت
فقل عن الكيس لا الأكياس كيف تشا ... واسأل عن الحظ لا تسأل عن البيت

فطالما قمت في الأسحار ، وصدَّرْتُ الدعاء بالاستغفار ، وأنا أسأل الكفاف ، لأحوز العفاف ، فلا أعرض حَرَّ الأديم ، إلى لئيم ، ولا أعمل حيل الالتماس ، لما في أيدي الناس ، وإلى الآن ما أنجح الرجاء ، ولا أستجيب الدعاء حتى كأنه دعاء أبي جعفر ، حين سئم من أزهر ، وقد سلمت القياد للأمر ، وانتظرت الفرج بالصبر :

علماً بأن اصطباري معقب فرجاً ... وأضيق الأمر إن فكرت أوسعه

فأما الآن فقد امتد مضمار الرهان ، ووجب صرف العنان ، إلى تذييل هذه الخرافات ، بمثلها من الأبيات فإليكها نفثة مصدور ، في طي هذا المنشور ، معتذرة عن التقصير ، مقرة بالقصور ، فاستر على عوراتها ، وضاعف لها حسناتها ، وتجاوز عن سيئاتها ، وأكرم مثواها ، حيثما تلقاها ، وأين ترى عوارها ، فقلِّمْ أظفارها ، ولا تقبل اعتذارها ، وقد جعلت صداقها ، عندك نَفَاقها ، فإن رأيت وفاقها ، وإلا فاكتم طلاقها ، وسرحها

إلى أهلها ، فلا يعودوا إلى مثلها ، وها هي قد عرضت عليك ، والأمر إليك ، ولا زلت على الدوام ، يغشاك مزيد السلام ، وتؤمك التحيات ، هي وهذه الأبيات (٢٣١) :

مقدمة القصيدة :

هذه القصيدة من بحر الرمل المجزوء ، وهي ثمرة قولي في صدر الرسالة ويرمل ولو عُدَّ في الأرامل ، والقصيدة التي جاءت من الخطيب التي كانت سبب هذه الرسالة بحرها من الكامل ، فتأمل الفقرات في صدر الرسالة :

يعلم الله ويشهد أنـنـ ... ـي فيك مُسَهَّدُ
لي دمع ليس يرقى ... وفـــؤاد يتوقَّـــد
وأنين يتوالى ، وزفـ ... ـير يتصعَّـــد
وهوى نام ووجـد ... كل يوم يتجَـدَّد
وكساني الحزن سقما ... فوق ما قد كنت أعهد
وهيامي واشتياقي زا ... د بالفرقـة واشتـد
وإذا ناح حمام ... في غصون وتغـرد
إنما يبكـي لحالي ... كلمـا ناح وردد
حالة يقطر القلب بهـ ... ـا لو كان جلمد
كلما قلت تناهى ... ألمي أصبـح أزيـد
كم يكون الصبرُ ، واللهِ ... تقضّى وتبـــدد

---

(٢٣١) ديوان البيتي : ص ١٥ - ٢٥ .

وإلى كم ذا التجافي ... وإلَامَ البين والصد
يا ظبيَّ المنحنى عطفا ... على مشتاق مكمد
فلقد أفرطت في البين ... إلى أن طال وامتد
وعذولي فيك أغراك على ... هذا وفنَّد
وسعى عندك حتى أخـ ... ـرب الود وأفسد
فلئن أبعدت عني ... فاصطباري عنك أبعد
وإذا أرضاك ما بي ... وترى في البحر مقصد
فتعطف بي واسأل ... كيف حالي وتفقد
وتعهدني بطيف ... منك في النوم المُشَرَّد
فلقد ذبت اشتياقا ... وغرامي جاوز الحد
آه واضيعة عُمْرٍ ... مرَّ بالعيش المُنكَّد
ورعى الله ليالي المنحنى ... من كل معهد
وربوعاً هي فيها ... لأبي الخير ابن أحمد
الخطيب الفاضل البحر ... الذي لا يتحدد
عين أعيان ذوي العلياء ... والقدر الممجد
من له همة عزم ... لم تزل في الفضل تصعد
ومرامٌ كمرامي النجم ... في المجد وأبعد
ومكان وفق ظن العقل ... في الفخر مشيَّد
يعجز المنطق عنه ... وهو سرًّا يتردد
كل فضل قيل فيه ... فإلى الصحة يسند
وله منه دليل ... وعليه الرأي يعقد
فهو في أفق سما ... الشرف الباذخ فرقد

ذو فؤاد كاد من فرط ذكاء يتوقد
ولسان ذرب في القـ ـول كالسيف المهند
وأخـو وُدٍّ به ما زال فضلا يتعهد
قد أَتَتْني منه أبيات كما الدر المنضد
صرَّحت بالفضل عنه أو هي الصرح الممرَّد
أفرغت معنى لطيفا في قوارير زبرجد
فهي لو جسمتها لم تك إلا ذوب عسجد
يضعف الإحساس عنها لو مشت في جفن أرمد
سبكت من جوهر وانطبعت في خد أمرد
من محيا يخجل الأقمار ساجي الطرف أملد
فَأتت تُجْلى كزهر الرو ض والخد المورد
سحر شعر قد أقام العقل إعجابا وأقعد
يحسد المعنى عليه بعضـ ـه والفضل يُحْسد
كل بيت منه في الصنعة والإحكام مفرد
قد حكى في الحسن والجودة حَسَّانَ وأجود
ونسيب فاق في فن الأغاني صوت مَعْبَدْ
رَقَّ حاشاه من الركة والمعـ ـنى المَوَلَّد
وقريض بارد رقيـ ـة محموم وأبرد
فهو سلطان القوافي وبذاك العقل يشهد
كلما رمت أجاريه تأخرت إلى غد
ومجال الفكر ضَنْكٌ عنه والنطق مقيد
وكذا العتب على الأشغال والوقت المبدد

وعلى حكم زمان غار ... في الجور وأنجد
ما ثنى فيه وساداً ... لكريم لا ولا مد
يُرْفَضُ الحُرُّ ويُجْفا ... ويكاد النذل يعبد
يا أبا الخير ولا زلت ... لكل الخير مقصد
صدرت هذي مع التقصـ ... ـير بالعذر المسدد

وصف ينبع :

نحن بالساحل من ينبـ ... ـبع في المحنة والكد
قد ولينا مقعد الكذب ... ولكن أي مقعد ؟
خدمة لو كان فيها ... الملك كنا فيه نزهد
في بلاد ما ترى فيها ... سوى الراحة تفقد
وبها الجرذان والذُّبَّان ... كالجند المجند
والندى والطَّلُّ والأوساخ ... والطين الملبد
والبعوض الجم والبرغوث ... ما لا يتحدد
كل يوم بظباها ... يُحْجم الجسم ويُفْصد
ما تَهنَّى من أذاها ... أحد قط بمرقد
مزقت نسخة عهد الصبر ... لكن تتجلد
كل يوم ينقضي فيها ... هو السجن المؤبد
إن من يخلص منها ... فارق الحزن وعَيَّد
كيف لا يسجن فيها ... كل من ينفي ويطرد
والذي فيها من الرجز ... كثيرٌ أنْ يعدد

الأعراب :

وبها كل ملعون من ... الأعراب مرتد

خارج عن لائقـــة الإسلام والخير مجرد
مدَّعٍ بالديـن لكـن قبل أن يولد ألحد
ذرع بَغْـــي لَيْتَـــهُ لو كان بالأسياف يحصد
أبدا كالذيب ما تلقـ ـاه إلا يتعبـــــد
لاَ سُقِي وجها كوجه القرد في القبح وأقرد
يشبه الصورة بالشيطان في ثوبٍ مزنـــد
تختشى منه على الإسـ ـلام ما لم يتصفد
بارد الـرأي ثقيـــل لو يَمَسُّ الماء يجمد
لعنـــة الله عليـــه لعنة تستغرق الجد
فهـو للشر وللفتنـة قصدا يتعمـــــد
وبكل الغشم والطغيان والغـــي تفـــرد
وبكاسات التراخي شـ ـرب البغـي وعربـد
يطلب الحاجة بالعنـ ـف وأيضا يتهدد
فإذا لم تقضها بالفـ ـور ولَّـــى وتوعَّـــد
وإذا أرضيته من بعد ذاك المنـــع والـــرَّد
بشَّ واهتـزَّ ارتياحـا بعد أن كان تمرَّد
وأتى يطلـبك العـذر ووجـه العـذر أسود
هؤلاء القـــوم حشو النـار والويـل المخلـد
أفسدوا في الأرض دهـ ـرا وحسام الملك مغمد
ولهم سوء التحامِـي وطَّـد الأمـر ومَهَّـــد
ربما عمَّـــا قليـــل يملكون الناس عن يد
ولقد كان تَلَقِّيهم بحدِّ السيـــــف أرشد
فيخرُّون إلى الأذقـان من ذلك سُجَّـــد

وعسيرٌ منعك الإنسان عمـــا قد تعـــود
كل هذا الأمر في ذمة من فيـــه تَقلَّــــد
جُل ما نسأله منك الدعا في كل مشهد
بتـجلى كل كرب لجميل الصبر أنفد
فعسى ينحل باللطف عسير قد تعقـــد
وقريب فرج الله تعالى وكـــــــــأن قد
وإلى علياك سارت هذه تُتْلــــى وتسرد
وهي بالتكرار في العـ ـود إليكـم سَتُرِّدَّدْ
والأعـــادات حميـــد فعلها والعـود أحمد
فافترعهن عذارى من بنات الفكـر خُرَّدْ
رافلات في مروط الحسـ ـن تيهاً تتـــــأود
لم تزل توليك مدحا كلما تروى وتــــــــنشد
وسلامـــا يتـــغشَّاك مدى الأيام سرمـد
من ختام المسك مختـ ـوم به نسعى ونحفد
ما تغنى سحرا في الأيـ ـك شحرور وردَّد (٢٣٢)

معارضة ابن النحاس نظمها في عام ١١٤٣ هـ .

وللبيتي قصيدة في ينبع يعارض بها قصيدة ابن النحاس الشهيرة والتي مطلعها : رأى اللوم من كل الجهات فراعه . يقول البيتي :

رأى البق من كل الجهات فراعه فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
ولا تسألوني كيف بت فإني لقيت عذاباً لا أطيق دفاعه

---

(٢٣٢) ديوان البيتي : ٢١/٢٦ .

نزلنا بمرسى ينبع البحر مرة   على غير رأي ما علمنا طباعه
نقارع من جند البعوض كتائباً   وفرسان ناموس عدمنا قراعه

والقصيدة طويلة ، وهي لا تخرج عما ورد في قصيدته السابقة وفي رسالته الطويلة المسجوعة للخطيب أبي الخير ، وبعد أن أطال في وصف المعاناة التي كان يعانيها في ينبع مع البق والناموس والفئران والبرغوث ، ذكر الأعراب والبدو فقال فيهم :

وأصبحت في دار المشقة والعنا   أخالط أوغاد الورى ورعاعه
وكلباً من الأعراب يعوي كأنه   يريد إذا لاقى الأمين ابتلاعه
فلو صاح فوق الصخر خَرَّ لوقته   وأبصرت من ذاك الصياح انصداعه
براه إله الخلق للناس نقمة   وقَدّ من الصخر الأصم طباعه
فلا رحم الرحمن أرضاً يحلها   وباعد عنَّا بالسنين انتجاعه

ثم يقول :

ومن كل جبار عنيد يرى الورى   عبيدا لديه والبقاع بقاعه
شقي عصى الرحمن في كل أمره   ومال إلى شيطانه وأطاعه

ويخاطب الحكام فيقول :

فقل لرعاة الوقت إن نعاجكم   أتاح لها ريب الزمان سباعه
فهل لكمو في لَمِّ شمل الذي بقى   برأي بديع يحسنون ابتداعه
وإلا فإن الأمر لله كله   ولا رأي في خرق يريد اتساعه

ثم يقول محدثا عن نفسه :

سلونا عن الدنيا فكل نعيمها   متاع غرور لا تديم متاعه
وما اعتضت من كوني أديباً وفاضلاً   لدى الناس إلا قوله وسماعه

ومن كان يرجو في الأمانة مغنماً ... فخلُّوا له أوضاعه وخراعه
وقولوا له هذاك ينبع حاضرا ... لمن رام يبلوا ضُرَّه وانتفاعه
فكم كاتب أفنى اليراع كتابة ... وَمَلَّ وألقى في التراب يراعه

ثم يقول :

وكم بدويٌّ داسه فوق بطنه ... ومزَّق ما بين الأنام رقاعه
ومن جاءكم منا مع الليل شاردا ... فذاك لهولٍ واقع قد أراعه
ومن يمتنع عن خدمة مثل هذه ... فلا تنكروا إعراضه وامتناعه
فما يكسب الكيال إلا غباره ... ولاالكاتبالمسكينإلاصداعه(٢٣٣)

هذه القصيدة كما ذكرنا نظمها البيتي في عام ١١٤٣ هـ ومشروح في الديوان أمامها ما يلي :

طالما هرب الأمين من ظلم الجمَّالة واختفى ورجع هارباً إلى المدينة ، وطالما حبس شيخ العرب عليه الحبوب من الكيل وسجنه عنده ، ولم يجد من ينصره إلا الدراهم وكل ذلك من ضعف حكام المدينة وعدم التعريف بمثل ذلك .

ونفهم من هذه النبذة أن البيتي كان يقوم بعمل - الأمين في ينبع - كما ينص على ذلك الأبيات المثبتة آنفا والتي يقول فيها :

ومن كان يرجو في الأمانة مغنماً ... فَخَلُّوا له أوضاعه وخراعه
وقولوا له هذاك ينبع حاضرا ... لمن رام يبلو ضرَّه وامتناعه

---

(٢٣٣) ديوان البيتي : ص ٢٣ ، ٢٧ ، ٢٨ .

ونفهم كذلك أن الأمين كان مغلوباً على أمره مع الأعراب ، ومع شيخهم الذي كان لا يتورع عن حبس الأمين وحبس الحبوب ، فلا يستطيع الأمين إطلاق نفسه إلا ببذل المال لهذا الشيخ .

ونفهم كذلك أن البيتي طالما ضاقت نفسه بما يلقى في وظيفة الأمانة هذه فترك ينبع هارباً إلى المدينة ونفهم كذلك أن البيتي بقي في ينبع بضع سنين فهو قد أرسل رسالته إلى الخطيب أبي الخير في عام ١١٤٠ هـ ، ونظم هذه القصيدة في عام ١١٤٣ هـ .

وللبيتي قصيدة ثالثة في ينبع بعث بها إلى الشيخ أبي طاهر بن الشيخ إبراهيم القوراني تلميذ الشيخ أحمد القشاشي ، يقول البيتي :

فأرسل إليّ الشيخ يعاتبني في استصحابي كتب الوقف المحبوسة على المدينة خاصة في عتب خلطه بالهزل ، وتنسمت منه عين الرضا فكتبت إليه بهذه القصيدة وهي :

أشجى صدوحك في الرياض فرجعي   واروي لنا خبر اللوى والأجرع
وترنمي بحديث من سكن الغضا   وحديث أشجاني به وابكي معي
فعسى البكا يطفي لهيب جوانح   طويت على حالَيْ ضنا وتوجع
وإذا خلا ما في ضميرك من هوى   فخذي حديث صبابتي وتسمعي

ثم يقول :

لله بدر في الغلالة طالع   أبدا إليه يا حمام تطلعي
فتان ، ليليَّ الذوائب ، قرطه   كالنجم يخفق فوق جيد أتلع
كم قد شرحت له الصبابة والجوى   بلسان سقمي في رسائل أدمعي

ويتخلص البيتي من الغزل فيصل إلى مدح الشيخ أبي طاهر

فيسبغ عليه من الأوصاف ما تميز به هذا العصر من مبالغات في الثناء فيصفه بأنه :

علم الهدى ، إنسان عين زمانه   الكامل الحبر التقي المتورع
محيي علوم الدين حافظ سره   المكنون ، جابر شُعبه المتصدع
جمع الحديث مع القديم دراية   في قلب يقظان ذكي لوذعي

ثم يصل إلى الاعتذار عن اصطحابه لكتب الوقف إلى ينبع فيقول :

ونما إليَّ اليوم أنك واجد   عتبا عليَّ لأجل أخذ المجمع
فأردت أوضح وجه عذري والذي   ألجا إلى ذاك الفظيع الأشنع
وأجل عذرٍ لي هنالك أنني   أصحبته ثقة بفضلك لي معي
خِلاًّ أنيساً للغريب لعله   ينجو به من هول وحشة ينبع
في بلدة كابدت أنواع العنا   والبؤس فيها في شهور أربع

ثم يقول في وصف حشرات ينبع :

لحم على وضم البعوض مشرع   أُمسي وأصبح فوق ذلك مضجعي
وعذاب برغوث وقمل واقع   مع ذاك يفتك بي كفتك المبضع

ويستمر البيتي في وصف ينبع وحشراتها كما عهدنا من قبل ثم يصف حالة الأمن مع الأعراب فيقول :

وهناك أعراب أشد نكاية   للقلب منها في عنا متنوع
يردون قلعة ينبع ورد القطا   بين القواضب والرماح الشُّرَّعِ
فهناك كم من صيحة همو بها   تدع الشوامخ كالطلول الخُشَّع
ولكم سيوف مصلتات جهرة   فيها وكم قلب بهنَّ مصدع

ومواقف ثبت الأمين لبأسها بسلاح ذلّ مَعْهُمُ وتخضّع
بين الرجا واليأس لم يك بينه والموت إلا قدر عرض الإصبع

ثم يقول :

كيف السبيل إلى الخلاص فقد وهى جَلَدي وما أجدى علي تشجعي
لابد من فرج قريب ها أنا أدعو له المولي القريب إذا دعى
فإليكما أخبار بدو من فتى طاف البداوة فوق ظهر الأصمعي
ما غادرت بيتا تنظم دره إلا بمعنى من مديحك مترع (٢٣٤)

بعد هذا الوصف المسهب لما ورد في ديوان البيتي عن ينبع يحْسن بنا أن نتعرف على أحوال ينبع في كتب المؤرخين ، لنرى إن كان في هذه الأحوال ما يوجب هذا الهجاء المقذع ، ويستدعي هذه الأوصاف المنكرة التي أوردها البيتي في شعره ونثره ، ولا أكتم القارئ أن ما ورد في ديوان البيتي عن ينبع قد دفعني دفعا إلى تتبع أخبار بلاد ينبع بقسميها ينبع النخل ، وينبع البحر ، حتى تجمَّع لديّ كتيب صغير في تاريخ بلاد ينبع لو أنني أدرجته في هذه الترجمة لطال بها مجال القول ، ولهذا فإني أجتزئ بذكر ما يتعلق بأحداث ينبع في عصر البيتي وهو القرن الثاني عشر الهجري ، هذه الأحداث التي وصفها لنا البيتي شعرا ونثرا ونمهد لذلك بموجز تاريخي عن بلاد ينبع .

يقول الأستاذ حمد الجاسر في كتابه القيم « بلاد ينبع » :

ينبع هذه التي يدل اسمها بصفة المضارع على وجود ينابيع للماء

---

(٢٣٤) ديوان البيتي : ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ .

بها هي في الواقع ينبعان ، ينبع النخل وهذه هي التي تفيض فيها الينابيع وعيون الماء ، وينبع البحر وهي الميناء على شاطئ البحر الأحمر .

أما ينبع النخل فهي واحة مياهها كثيرة وهي مقرُّ عرب جهينة يتبعها نحو عشرين قرية آهلة بالسكان [٢٣٥] ، ذكروا أن فيها تسعة وتسعين عينا ، وتقول بعض الروايات : أن بها مائة وسبعين عينا [٢٣٦] . وقد عُرِفَتْ ينبع النخل منذ صدر الإسلام فقد غزا النبي صلوات الله وسلامه عليه العشيرة ، وهو موضع بينبع ولم يَلْقَ كيداً ، ولرسول الله صلوات الله وسلامه عليه مسجد بالعشيرة كان معروفاً إلى عهد قريب ، وقد أقطع الرسول الكريم عليًّا – رضي الله عنه – بذي العشيرة وكان موضع هذا الإقطاع قرب عين البركة ، بل كانت عين البركة من بقية عيون هذا الإقطاع ، واشتهرت العشيرة بجودة التمر بحيث يفضل تمرها على سائر تمور الحجاز إلا الصيحاني بخيبر ، والعجوة بالمدينة [٢٣٧] . ولينبع شهرة كبيرة في كتب التاريخ في حوادث صدر الإسلام لوقوعه على طريق القوافل التجارية بين الحجاز واليمن ، وكانت ينبع وما حولها ميدانا لمناوشات كثيرة بين الرسول ﷺ وأصحابه ، وبين قريش وبعض القبائل التي كانت تسكن تلك النواحي ، ومن تلك الغزوات ، غزوة العشيرة ، وغزوة بواط ، وسرية العيص [٢٣٨] .

---

(٢٣٥) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ١١٦ .
(٢٣٦) نفس المصدر : ص ٢٤ .
(٢٣٧) نفس المصدر : ص ١٠ .
(٢٣٨) نفس المصدر : ص ١٧ ، ١٨ .

وقد اشترى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عيونا أخرى في ينبع النخل فامتلك عين بولا [٢٣٩] ، واشترى ضياعاً أخرى في ينبع ، اشتهر منها ضيعتان ، البغيغة ، وعين أبي نيزر ، واحتفر فيها عيوناً أخرى ، كما أقطع عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عليًّا قطائع أخرى في ينبع [٢٤٠] . ثم أوقف علي – رضي الله تعالى عنه – ضيعتيه المعروفتين أبي نيزر والبغيغة على فقراء المدينة وابن السبيل ، وجاء في نص الوصية لا تباعا ، ولا تورثا حتى يرثهما الله وهو خير الوراثين ، إلا أن يحتاج إليهما الحسن والحسين فهما طلق لهما ليس لأحد غيرهما [٢٤١] . وكان إيقاف هاتين الضيعتين وما تركه علي – رضي الله تعالى عنه – في ينبع سببا في استقرار ذريته بينبع ، فاستقر بها أحفاده ، واشتهرت في التاريخ باسم سويقة ينبع .. وقد تعرضت سويقة هذه للتخريب وقطع النخيل وهدم البيوت مرَّات منها :

ما حدث لها بعد القضاء على ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي ثار في المدينة واستولى عليها أيام المنصور العباسي في سنة ١٤٥ هـ ثم قتل في شهر رمضان من تلك السنة وخربت سويقة وعرقب نخلها وصودرت أموال محمد وآله من الطالبيين ثم أعادها المنصور إليهم ، ثم انتزعها المأمون من يد آل جعفر وردَّها إلى أولاد فاطمة – رضي الله عنها – وعوَّضهم عنها [٢٤٢] .

---

(٢٣٩) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ١٧ ، ١٨ .
(٢٤٠) نفس المصدر : ص ٢٧ .
(٢٤١) نفس المصدر : ص ٢٢ – ٢٧ .
(٢٤٢) نفس المصدر : ص ٢٤ .

وجرى لسويقة في عهد المتوكل سنة ٢٤٤ هـ مثلما جرى في عهد المنصور حينما ثار محمد بن صالح على العباسيين فسجنه المتوكل ثلاث سنين ثم أطلقه ومات في أيام المقتدر ..

والحديث عن ينبع النخل وأخبار الطالبيين بها كثيرة ليس هذا محل ذكرها ، وقد خرج من ينبع الشريف قتادة الذي أسس دولة الأشراف في مكة في القرن السادس الهجري ، وقد عظم أمر قتادة حتى خشيه العباسيون وطمح ببصره إلى المدينة فأراد الاستيلاء عليها وطمح ببصره إلى الخلافة وانتهى أمره باغتياله من قبل ابنه حسن الذي استولى على مُلك أبيه سنة ٦١٧ هـ (٢٤٣) .

إن استقرار الطالبيين بينبع النخل وتوليهم الأمور فيها جعلهم يستعينون بسكان تلك الجهات من البوادي حتى قويت شوكتهم وحالفهم وانضم إليهم أفخاذٌ كثيرة من قبيلة جهينة وصاروا يعرفون ببني إبراهيم ، وقد صار لبني إبراهيم صولة في القرن العاشر الهجري وما بعده (٢٤٤) .

كان الأمن مختلا في الحجاز بسبب تسلط الأعراب على طرق الحج ، ووضْع الأمراء الضرائب على الحجاج وكذلك بسبب اختلاف الأمراء فيما بينهم ومحاولة انتزاع الإمارة من بعضهم البعض مما يطول

---

(٢٤٣) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي ، نقلا عن كتب تاريخية كثيرة : ص ٢٢٤ - ٢٣٠ .

(٢٤٤) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٢٨ ، ٢٩ .

شرحه ، ونوجز هنا حالة الأمن في القرن الثاني عشر الهجري الذي ولد فيه البيتي وعاش في ينبع فوصفها الوصف الذي أوردناه آنفاً .

حالة الأمن في القرن الثاني عشر الهجري :

وصف الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته إلى الحجاز ينبع وكان قد وصل إلى ينبع البحر في شعبان عام ألف ومائة وخمس (هجرية) فقال :

وصلنا بعد الظهر إلى ينبع البحر ، ونزلنا هناك في القلعة على شاطئ البحر ، ولا ماء هناك إلا الماء الذي يجلب في وقت الصباح ويباع ، وكأنه سمي الينبع تفاؤلاً بنبع الماء فيه ، أو لنبع الأرزاق المجلوبة إليه من البحر مع ملوحة فيه [٢٤٥] .

ثم يصف النابلسي حالة الأمن في ينبع فقال :

ثم إننا سألنا عن السير إلى المدينة المنورة فأخبرونا أن الطريق مخوف ، وأن العرب عرب – حرب – واقفون في وادي الصفراء ، يمنعون كل من سار إلى المدينة ، وقد ظهرت منهم للزائرين خصلة قبيحة كمينة ، وأن لا محيص إلا بالسفر إلى جوار سعد بن زيد الهاشمي أمير الحجاز ، فإنه يقدر على إنفاذنا إلى تلك الجهة الجوزاء ، وأما على غير هذا الوجه المذكور فإنه لا يمكن أصلا كما قال الشاعر المشهور :

أيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

---

(٢٤٥) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٧٩ .

ويقول النابلسي :

إنه عزم ومن معه السفر إلى ينبع النخل فقال : ركبنا وسرنا فلمّا خرجنا إلى البرية ، وإذا برجل بدوي مقبل يرقص على ناقة له ، حتى دخل ينبع البحر ، ثم خرج من ينبع البحر فارس يركض بفرسه فوصل إلينا وقال لنا :

جاء من حضرة سعد بن زيد كتاب إلى حاكم ينبع ، لا تتركوا الشيخ وجماعته يخرجوا إلينا وحدهم فإن الطريق مخوف بيننا وبينكم ، أرسلوا مع الشيخ وجماعته عبد الله بن عمرو الهاشمي أحد أشراف الحجاز يأتي به إلى جهتنا .

ويقول النابلسي : إنه رجع ومن معه تلك الليلة إلى ينبع البحر ، ثم خرج في اليوم التالي ومعه الشريف عبد الله بن عمرو الهاشمي يصاحبه رجلان على ناقتين فوصلوا في صحبتهم إلى ينبع النخل (٢٤٦) .

الشريف سعد بن زيد يحرق سويقة :

ويقدم لنا الشيخ النابلسي وصفا حيًّا لغزو شريف مكة سعد بن زيد لقرية سويقة في ينبع النخل وإحراقها وعقر نخيلها فيقول :

في يوم الأحد ٢٢ شعبان سنة ١١٠٥ هـ ركبنا مع الشريف إلى أن وصلنا قرية من قرى ينبع النخل تسمى سويقة من منازل بني إبراهيم أخي النفس الزكية ، وقد وجدناها خالية ليس بها أحد ، وقد رحل

---

(٢٤٦) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٨٢ - ٨٦ .

أهلها ، وخرجوا على الشريف سعد بن زيد ، لأنهم حالفوا قبائل حرب فذهبوا معهم يساعدونهم على قتاله ، يقول الشيخ النابلسي :

وهذه القرية فيها ماء جارٍ ونخل كثير ، وكان له حِمْلٌ كثير في هذه السنة ، والعراجين بعد ، ما نضج بُسْرُها فجلسنا على حافة ذلك الماء الجاري ، وشربنا القهوة مع الشريف وولده ، وقد أمر – حفظه الله – بحرق بيوت القرية وإننا لنرى النار تتأجج في جدرانها التي من أخشاب النخل اليابس ، والهواء يزيدها تأجُّجاً والتهاباً ، وقد أمر بقطع النخل ، فيصعد العبد الأسود إلى أعلى النخلة فيقطع جمارها وعراجينها ، فتبسقط العراجين إلى الأرض كل عرجون فيه البُسْر الأخضر الذي لم ينضج ، مقدار العشرة الأرطال الشامية ، أو أكثر أو أقل (٢٤٧) .

هذا الوصف الحي الذي أورده الرحالة الشيخ النابلسي لحالة الأمن في ينبع يقدم لنا صورة لتسلط الأعراب على طرق الحج ، فلا يستطيع الحجاج اجتياز الطرق إلا في حماية جهة قوية تحميهم من تعرض الأعراب لهم بالنهب والفتك ، ويبدو أن أمير مكة في ذلك الزمان الشريف سعد بن زيد ، كان قد علم بوصول الشيخ النابلسي وجماعته من الشام إلى الحج ، فأمر بخروجهم في حماية بعض الأشراف كما أورد النابلسي تفصيله ، وهكذا كان . أما وصف النابلسي لحريق قرية سويقة وعقر نخيلها فهي تقدم لنا صورة أخرى ، لما كانت عليه الحال من اختلاف بين الأشراف والأمراء ، وانضمام بعض القبائل إلى بعضهم ،

---

(٢٤٧) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٨٢ – ٨٦ .

ومحاربة بعضهم البعض ، وكل هذا يصور لنا اضطراب حالة الأمن وما ينشأ عنه من المصاعب والويلات .

ويقدم لنا الأستاذ عبد الكريم الخطيب صورة لهذا الاختلاف في كتابه « تاريخ ينبع » فيقول :

أمير ينبع ينهب غلال الصدقة ويوزعها على مناصريه :

كان أمير الينبعيين في عام ١١١٦ هـ سعيد بن سعد بن زيد في العهد العثماني وهو الأمير الذي ثار على أمير مكة الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى البركاتي ، حينما اتصل بقبائل حرب في ديارهم ، وطلب منهم مناصرته فلم يستجيبوا له واتصل بقبيلة جهينة من منطقة الينبعيين فناصروه ، واحتل بهم ينبع الميناء ، ونهب ما فيها من غلال الصدقة الخاصة بأهل مكة المكرمة ، ووزعها على مناصريه ، فوجه إليهم أمير مكة جيشاً إلى ينبع فكانت معركة كبيرة هزم فيها ومن معه وكان ذلك في ١٤ جمادى الأولى سنة ١١١٦ هـ [٢٤٨] .

أقول : لعل الصحيح أن الغلال التي نهبت هي غلال الصدقة الخاصة بأهل المدينة لأن غلال مكة ترسل إلى جدة ، وغلال المدينة ترسل إلى ينبع لتخزن بها ثم ترسل إلى المدينة .

وجاء في كتاب « بلاد ينبع » للأستاذ حمد الجاسر ما يلي :

اختلال الأمن في عهد الدولة التركية :

وفي عهد الدولة التركية ضعف شأن الحج بسبب عجز الدولة

---

(٢٤٨) « تاريخ ينبع » لعبد الكريم الخطيب : ص ٧٥ ، ٧٦ .

التركية عن حماية طريق الحجاج المار بينبع يضاف إلى هذا اختلال أمر الدولة التركية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين حتى آل الأمر إلى انقطاع مجيء الموكب الرسمي للحجاج بطريق البر ، وضعفت تلك البلاد التي كانت حياتها كثيراً ما تقوم على قدوم الحجاج إليها (٢٤٩) .

مستودعات الحبوب في ينبع :

أما بالنسبة لمستودعات الحبوب التي أوردنا خبر إغارة الأمير سعيد ابن سعد بن زيد عليها ونهبها وتوزيعها بين أنصاره فيقول عنها الأستاذ حمد الجاسر :

لقد اتخذت الدولة الجركسية ، وكذلك الدولة التركية ميناء ينبع طريقاً لوصول الحجاج ، وكذلك لوصول الجرايات المقررة من الأرزاق للمدينة ، فبنت هناك المستودعات لحفظ هذه الحبوب ، يقول الأستاذ حمد الجاسر وكأنه يعتذر عما أورده البيتي من وصف بعوض ينبع وحشراتها .

ولذلك كثرت الحشرات بسبب هذه المستودعات للحبوب التي تُخزَّن هناك ، بعد وصولها من مصر حتى يتسنى إرسالها للمدينة فتتولد تلك الحشرات في المستودعات ، ومن أثر رطوبة الأرض تتكاثر ، يضاف إلى ذلك عدم عناية من يتولون أمر تلك الحبوب بنظافة أماكنها (٢٥٠) .

---

(٢٤٩) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٢٠٧ .

(٢٥٠) نفس المصدر : ص ٩٧ .

سور ينبع :

كانت ينبع محاطة بسور كما هو شأن المدن في تلك القرون وقد ورد في كتاب « ينبع » للشيخ حمد الجاسر أن ينبع كانت محاطة بسور أمر بهدمه الشريف سعد بن زيد صاحب مكة في سنة ١٠٧٩ هـ . وقد جُدِّد بناء السور في سنة ١١٢٦ هـ جدده عثمان أغا بأمر دار السعادة ، وقد وصف إبراهيم رفعت باشا سور ينبع في القرن الرابع عشر فقال : ويحيط بها سور به باب محفور في الجهة الشمالية وهذا السور بناه دولة المشير عثمان باشا الحاكم العادل الذي منع الأعراب من الدخول في هذه البلدة مسلحين ، بل يضعون سلاحهم في المخفر ، ثم يدخلون ويأخذونه بعد الخروج ، وهذا السور بني في سنة ١٣٠٣ هـ [٢٥١] .

أقول : وهذا يدل على أن ينبع كانت تتعرض لعدوان الأعراب ، مما اضطر الدولة العثمانية أن تأمر بإعادة بناء السور ، ومنع الأعراب من الدخول إلى البلدة بأسلحتهم .

هذا الذي نقلناه مما كتبه المؤرخون والرحالون عن ينبع في القرن الثاني عشر يقدم لنا صورة مرعبة محزنة عن حالة الأمن في طرق الحجاج ، وتسلط الأعراب واختلاف الأمراء وهو العصر الذي عاش فيه الشاعر جعفر البيتي فوصف أحواله شعراً ونثراً ، ونستطيع الآن أن نقدم صورة جميلة تلطف من شعور القارئ إزاء الصور السابقة الكريهة ، فقد وصف الشيخ النابلسي كرم امرأة عربية من عرب جهينة في بادية ينبع . فقال :

---

(٢٥١) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ١٠٧ .

مثال من كرم المرأة العربية في رحلة النابلسي :

فلما أصبحنا في يوم الاثنين الخامس عشر ومائتين وهو اليوم التاسع من شعبان ، وركبنا وسرنا على بركة الله تعالى ، وقد نفذ زادنا ، ولم يبق معنا ما يمضغ أو يساغ ، وما على الرسول إلا البلاغ ، ولكن قرب المزار ، فاتخذنا من التوكل شعاراً ، ومن التسليم إزاراً ، إلى أن صار ضحوة النهار ، فأشرفنا من بعيد على بيوت من الشَّعر لعرب هناك نازلين في مكان يسمى – النباه – بفتح النون المشدَّدَة ، وفتح الباء الموحدة بعدها ألف وهاء – فقلنا نباه من النباهة ، وبيوت من البيتوتة ، وعرب من الأعراب ، الذي هو الكشف والبيان ، وشعر من الأشعار ، ونحن في حكم بني هاشم حتى دنونا من الخيام ، ونزلنا على العرب منهم مؤذنين بسلام ، فإذا هناك امرأة من جهينة وبنوها صبية صغار في ذلك الحي متفرقين ، فقلنا هنا يحصل المرام ، وعند جهينة الخبر اليقين ، فلما استقر بنا المكان قامت امرأة إلى نار أضرمتها ، وتلك الصبية جمعتها ، وجاءت إلينا ، ورحبت بنا ، ودعتنا إلى بيوتها ، واعتذرت بغيبة رجالها ، ونفي ثبوتها ، وأجلستنا في بيوت الشعر ، ثم عملت لنا القهوة وصنعت لنا الخبز على طريقة أهل البرّ والبدو ، وجاءت لنا بشاة وقالت : اذبحوها ، وطبختها لنا وقدمتها بين يدينا مع الخبز من البُرِّ المرسل إلينا ، وقدمت إلينا بطيخا أحمر ، فحملنا معنا ما بقي من اللحم المطبخ ، وظهر لنا الزاد الذي كان في الغيب مضمر ، وبقينا هناك إلى أن صلينا صلاة العصر بالجماعة ، ثم ركبنا وسرنا .. إلخ (٢٥٢) .

---

(٢٥٢) « بلاد ينبع » لحمد الجاسر : ص ٧٦ ، ٧٧ .

الحالة السياسية في الحجاز في القرن الثاني عشر للهجرة :

أوردنا نتفاً مما ورد في كتب المؤرخين عن الحالة في بلاد ينبع ، ونقدم للقارئ صورة من الأحوال السياسية العامة في الحجاز في هذا القرن .

كان الحجاز تحت حكم الدولة العثمانية ، وكان مرتبطاً إداريًّا بمصر التي كانت تتبع الدولة العثمانية كذلك ، وكان الحكم مزدوجا فهناك الوالي التركي الذي تعينه السلطنة أو يعينه والي مصر وإقامته غالباً كانت في جدة ، وإلى جانب الوالي التركي شريف مكة الذي يتولى أمور الحكم الداخلي وشئون البادية وما إليها ، وكانت الشئون المالية تحت إمرة الوالي التركي ، وكان لشريف مكة نصيب من واردات الجمارك ، وكان لشريف مكة وزير في جدة لاستلام هذا النصيب وإرساله إلى شريف مكة ، وكان التنافس بين الوالي التركي وشريف مكة على السلطة ينعكس على أمور البلاد وأحوالها .. وكان هناك تنافس أشد بين الأشراف على إمارة مكة ، وكان لهذا التنافس مظاهر شتى ، يستعين فيها المتنافسون بولاة الأمر في مصر أو حتى في استانبول ، ويبذلون الأموال والهدايا والألطاف لتحقيق مآربهم ، والانتصار على منافسيهم ، وكان هذا التنافس يتخذ في كثير من الأحيان مظاهر حربية عنيفة يُجرَّد فيها السلاح ويحارب البعض البعض الآخر ، وكان هذا كله ينعكس على حالة البلاد ومرافقها فيصيب الناس والحجاج من هذه الأحداث الكثير من المعاناة ، وننقل هنا من كتاب « أمراء البلد الحرام » صورة مصغرة لحادثة واحدة تصور لنا الحالة السياسية أصدق تصوير .

ولاية الشريف أحمد بن غالب سنة ١٠٩٩ هـ :

وفي سنة إحدى ومائة وألف في أوائل المحرم تنافس الشريف أحمد ابن غالب مع جماعة من الأشراف ذوى زيد فخرجوا من مكة مغاضبين له ، ولم يبق بمكة منهم إلا السيد عبد المحسن بن الشريف أحمد بن زيد ، ووصلوا إلى ينبع ، واستمالوا العرب ، واتفقوا على تولية الشريف محسن بن الحسين بن زيد ، ونادوا له بشرافة مكة في ينبع وأخذوا ستمائة أردب حَبّ كانت هناك للشريف أحمد بن غالب وكتبوا إلى صاحب مصر يعرفونه بإخراج الشريف أحمد لهم من مكة ، وخرج جماعة من الأشراف من ذوي عبد الله ، وأخذوا القنفدة ومنعوا الزَّالة ، وانقطع طريق اليمن وكثر المقطاع في طريق جدة ، وكثرت السرقة بمكة ووقع القتل ليلاً ونهاراً ، وكثرت أقاويلٌ بين العامة في ذلك .

وتنافر السيد أحمد سعيد بن مبارك بن شنبر مع الشريف أحمد بن غالب ، وقبل ذلك نافره أيضا ذوو الحارث فتتابع الأشراف المنافرون في الخروج من مكة واجتمعوا على السيد أحمد بن سعيد بن مبارك بن شنبر ، ونزلوا الحسينية ، وأراد الشريف أحمد بن غالب الركوب عليهم فلم يتيسر ذلك .

ثم جاءه الخبر أن نودي في جدة للشريف محسن بن الحسين بن زيد ، فاضطرب حال الشريف ، وفرّق العسكر في المدارس والطرقات وشعاب مكة ، واضطرب الناس لذلك ، ثم اجتمع العلماء وكتبوا محضراً لصاحب جدة يسألونه عن هذا الأمر ، ونزل به مولانا السيد عبد الله بن حسين بن عبد الله بن حسن بن أبي نمي ، ومعه السيد عبد المحسن بن هاشم بن محمد بن عبد المطلب بن حسن بن أبي نمي ، ومعهم جماعة

من القاضي ومن أصحاب البلوكات – الفرق النظامية في الجيش – فرجعوا وأخبروا بعدم الوفاق ، ولم يزل الأمر يتفاقم .

وسبب انقلاب صاحب جدة على الشريف أحمد بن غالب توليته وزارة جدة لابن حميد القرشي ، فإنه ورد جدة وجعل يناقض الباشا في كل أمر إلى أن تكدَّر خاطره بعد صفائه ، فرجع لغدره بعد وفائه .

ثم جاء الخبر من الطائف بأن السيد حسن بن أحمد الحارث نادى في الطائف للشريف محمد بن الحسن بن زيد ، وتنادت الأشراف الذين مع السيد أحمد بن سعيد إلى البلد ، وأخذوا إبلاً للشريف أحمد ابن غالب نحو خمسمائة ناقة من السعدية ، ولم يزل مولانا الشريف في التحرز وأمر عسكر اليمن بملازمته في الأروقة التي خارج المسجد ليلاً ونهاراً .

وفي عشرين من جمادى الثانية خرج من مكة السيد محمد بن حمود مغاضباً أيضاً ونزل العابدية ، وكتب أهل مكة عرضاً إلى صاحب مصر ، وإلى أبواب السلطنة ، ينهون فيه ما وقع من صاحب جدة ، وأكثروا من التشنيع عليه .

وفي سادس رجب عقدوا مجلسا في الحطيم حضره جماعة من الأشراف والعلماء والقاضي ، فجعل مولانا الشريف يشكو ما وقع من صاحب جدة في حقه ، وإنه كان سبب تفرق الكلمة وتفحّل الأشراف عليه ، وقد انقطعت السبل ، وقد نادى في جدة للشريف محسن بن حسين بن زيد من غير أمر السلطنة ، وأن مطلوب أن تكتبوا لي حجة في تجويز مقاتلته ، لئلا تنقم عليّ السلطنة ، فقال له كبير أغا سردار العسكر :

يا شريف نحن محافظون لمكة نذود عنها العدو ، ونقاتل حتى نقتل ، وأما الأشراف فهم بنو عمك لا ندخل بينكم ، وأما الباشا فنسأله عما فعل ، فإنه لا يفعل شيئاً من ذاته في بلد السلطان ، فاتفق الأمر على أن يرسلوا إلى صاحب جدة رسولا من القاضي ، وانقضى المجلس عن شناعة ظاهرة ، فأرسل القاضي رسولا إلى صاحب جدة فعاد بلا مراد ، وفي هذا اليوم أخرج الشريف بعض المدافع إلى جهة الشبيكة ، وبعضها إلى جهة المعلاة ، وبعضها إلى بركة ماجن من جهة اليمن في كل جهة مدفعان .

وفي ثامن عشر رجب جاء الخبر أن الشريف محسن بن حسين بن زيد ومن معه نزلوا الزاهر ، وأن السيد أحمد بن سعيد بن مبارك بن شنبر في أول القوم ، وأطلق الصنجق – رئيس اللواء أو رئيس حاملي الأسلحة – سبع مدافع لما نزل الزاهر .

فركب من بقي مع الشريف أحمد من الأشراف وغيرهم ، وخرجوا إلى جرول ومعهم بيرق عسكر اليمن ، وأخرج إلى جهة المعلى جماعة من العسكر ، وجماعة إلى جهة البركة والشريف أحمد بن غالب في بيته .

وفي يوم السبت تاسع عشر رجب أرسل الشريف محسن بن حسين بن زيد جماعة من الأشراف فدخلوا مكة وقصدوا قاضي الشرع ، واستدعوا رءوس البلوكات ، وأظهروا صورة بيوردي باشدي ، وطلبوا من القاضي تسجيله فامتنع ، ومضمونه تولية الشريف محسن وطلب القاضي نفس البيوردي الباشدي .

وثارت الإنكشارية لعدم تنفيذ البيوردي الوارد صورته من الباشا ،

وهجموا على القاضي ، وإعانتهم العامة لما لحقهم من التعب ، فهرب القاضي من سطح المدرسة فلم يجدوه ، فنهبوا ما وجدوه ، وأطلقوا البنادق على المدرسة ، وجاءت طائفة من جماعة مولانا الشريف ودخلوا المسجد ، ورموا في وسط الحرم ، وتطاردوا ساعة ، ودخل العسكر مدرسة المفتي عبد الله أفندي عتاقي زاده ، على أهله وعياله ، وأرادوا قتله ، ففرَّ منهم ، واستتر عنهم ، ثم أخرجوهم من الحرم بعد قتل بعض العبيد ، وقتل رجل في المسجد من الهنود ، وعزِّل السوق .

ثم جاء من جهة الشريف محسن بن حسين السيد عبد الله بن سعيد ، واجتمع بالشريف أحمد بن غالب ، ثم خرج من عنده ، وأرسل الشريف أحمد لجماعة الشريف محسن بن حسين يطلب منهم أن يعينوا له رجلا يودعه طرائفه ، فعينوا له السيد أحمد بن سعيد ، وطلب مهلة عشرين يوماً يتجهز فيها .

ولما كان ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من رجب خرج الشريف أحمد بن غالب إلى الحسينية قاصداً جهة اليمن ومدة دولته سنة كاملة ، وتسعة أشهر وعشرون يوماً (٢٥٣) .

هذا ما ورد بشأن إمارة الشريف أحمد بن غالب في كتاب « أمراء البلد الحرام » ، والواقع أن التنافس بين الأشراف كان يجعل الإمارة تنتقل من أمير إلى أمير ثم تعود إلى الأمير الأول ، وقد أحصيت إمارة بعض الأمراء فوجدتها تتكرر المرة بعد المرة وإليك مثالاً لهذا التعدد :

---

(٢٥٣) « أمراء البلد الحرام » للسيد أحمد بن زيني دحلان : ص ١٥٠ - ١٥٣ .

تولى الشريف سعيد بن سعد بن زيد إمارة مكة خمس مرات في التواريخ التالية :

العام	
١٠٩٩ هـ	الولاية الأولى [٢٥٤] .
١١٠٣ هـ	الولاية الثانية [٢٥٥] .
١١١٣ هـ	الولاية الثالثة [٢٥٦] .
١١١٦ هـ	الولاية الرابعة [٢٥٧] .
١١٢٣ هـ	الولاية الخامسة [٢٥٨] .

وتولى أبوه الشريف سعد بن زيد إمارة مكة أربع مرات بدأت أولاها في عام ١٠٧٧ هـ وكانت أُخراها في عام ١١١٦ هـ [٢٥٩] ولا نريد أن نطيل الاستشهاد والاقتباس لئلا نخرج بالبحث عن غرضه .

ونعود إلى السيد جعفر البيتي لنقرأ معا شعره في بعض هذه الأحداث :

يقول السيد جعفر البيتي : وقلت على لسان أهل المدينة المنورة

---

(٢٥٤) « أمراء البلد الحرام » للسيد أحمد زيني دحلان : ص ١٤٧ .
(٢٥٥) نفس المصدر : ص ١٥٧ .
(٢٥٦) نفس المصدر : ص ١٦٧ .
(٢٥٧) نفس المصدر : ص ١٧٠ .
(٢٥٨) نفس المصدر : ص ٢١٢ .
(٢٥٩) نفس المصدر : ص ١٩٢ .

شكاية إلى الشريف مسعود بن سعيد ملك مكة المشرفة ، وإنهاءاً لضررهم الواقع عليهم من الفتنة الكائنة سنة ١١٤٨ هـ :

قفوا تنظروا آثار ما صنع الظلم ... وجوسوا خلال الدار تنبيكم الأكْمُ
قفوا بالرسوم الدارسات فربما ... تحققتم منها وما نطق الرسم
قفوا نشتكي ما قد أصاب فإنه ... عظيمٌ وأن الأمر حادِثه ضخم
على كل دعوى في الظلامة حجة ... يصدقها التحريق والهدم والردم
إلى عدلكم يا آل زيد توجهت ... وجوه شكايانا وعندكم الحُكم
إليكم يساق الأمر والنهي في الورى ... وأنتم ملوك الأرض والسادة الشُّمُّ
إليكم وإلا فالسلام على الحمى ... إذا حامت الأعدا عليه ولم تَحْمُوا
سلوا فلسان الحال من كل مسلم ... أصيب ببلوى عنده خبر جَمُّ
سلوا كل دار بالمدينة ما الذي ... لقينا فعند الدار من أهلها عِلْمُ
سلوها عن الهتْكِ الذي قد أصابها ... قريباً فمن لقياه في وجهها وسم
سلوها عن الأعراب كيف تسنمت ... ذراها وكيف النهب والهَتْك والغنم
وكيف ارتقوا فوق المنائر وانتهوا ... إلى غابة ينحط من دونها النجم
وكيف أُعيدت وقعة الحرة التي ... إلى هذه الأخرى تضاف وتنضم
يزيدية رُدَّتْ وحقك إنها ... لفاقرةٌ أسبابها الجَوْرُ والغشم
ولولا رجال يخربون بيوتهم ... بأيديهم ما أخربوها ولا هَمُّوا
وما عزموا في ذاك إلا برأيهم ... ولو هَمُّوا ما كان عندهمو عزم
هموا جمعوا المال الحرام وأنفقوا ... على البغي ذاك المال فاجتمع الإثم
ولله كل الحمد إذْ كان حسرة ... عليهم من الإنفاق أعقبها الغرْم
ولم تر قدما من يعين بماله ... على عرضه إلا الدنيُّ أو الخدم
أعانوا على السلطان أعداء ملكه ... وشقوا عصا الإسلام جهراً وما لَمُّوا
وقد زعموا أن الحميّة منهم ... له وهي لا تخفى على عاقل وَهْمُ

فقل لهمُوا هل كانت السِّتة التي ... نفيتم لها من مبتدا أمركم علم
وهل حضروا لما غدرتم عشية ... وقطّعتموا في السوق من لا له جرم
وصُلْتم جميعا بالبنادق بعدها ... وحاربتموا من عنده حَرْبُكُمْ حتم
وهل طلبوكم للشريعة خيفةً ... على الفتنة العمياء من أنها تنمو ؟
وهل كان داعي الصلح يدعوا فتسمعوا ... وتعصون إلا الحرب أم أنتم صُمُّ
وما ذاك إلا عن هوى وتغرض ... يراه عياناً فيكموا من له فهم
إلى الله نشكوا ما أصاب وإنها ... أمور لها في الدين مذ صدرت ثلم
عسى في خبايا الدهر نصر معجل ... يُرَمُّ به شعث الأنام ويلتمُّ
عسى حق مقتول أُصيب ويُتِّمَتْ ... أرامله حتى أضرَّ بها اليُتْم
على رغم من يهوى الفساد ويبتغي العنـ ... ـاد ولم يَبْرَحْ إلى بدعة يسمو
عسى دعوة المظلوم حين دعا بها ... أُجيبت عسى أجدت عسى نفذ السهم ؟
لعل العذارى المحصنات يراهمو ... غيور على العورات ذو نخوة شهم
عسى رافع هتك المحارم دافعُ الظلائم ... عدلٌ بالرعيـــة يهتم
عسى نافذ الأحكام والأمر فيصل ... له نظر أعلا وآراؤه حزم
ومَنْ غَيْرَ مسعود يساعد بالمنى ... ويُرْجى ، وذاك الماجد البطل القَرْمُ
قريع العلا ملك الأباطح سيد الجحا ... جح من تعنوا لعزته البهم
وقد جاء فأل الخير منه مساعد ... شبيه اسمه يا حبذا الفال والاسم
ويا حبذا يعسوب ملك مقدم ... له الصدر قدما مثلما قدمت بَسْمُ
لك الخير والبشرى لديك فإنني ... أشم رياح النصر إن صدق الشمّ
فيا غوث ملهوف الفؤاد ومنتهى المر ... اد وجالي الهم إن عظم الهمُّ
وأمْن مخوفات البلاد وملتجا ... العباد ومن في عدله لهم قسم
أعد نظراً في الحال والحادث الذي ... جرى وانبرى من عُظْمه اللحم والعظم
وفي كل مسكين فقير ووالد ... حزين ومولود أصيبت به الأمُّ

وأرملة جاعت ثلاثين ليلة ... وعشرا بها الخوف المبرح والعُدْم
وقد بلغ السيل الزبا وتصرمت ... جحيم وغى قد ذاب من حَرِّها الجسم
خُذ الأمر بالمعروف واحكم بما ترى ... وشمِّر لحسم الداء ينفعنا الحسم
رضينا بما ترضى من الأمر كله ... لنا وعلينا لا إباءٌ ولا رَغْمُ
لك العفو والحلم الذي أنت أهله ... ولكنَّ في العاصين لا يحمد الحلم
فما صنعوه غير خافٍ وظلمهم ... شهيد عليه عندك العرب والعجم
فلا تلتفت للعذر منهم فإنه ... بقايا خداع جرحه ليس يندمُّ
ولو صدقوا لم يستبدوا برأيهم ... لأمرٍ فظيع عنده العار والذَّمُّ
ولكنهم في زعمهم أن حكمهم ... إليهم ولا أمرٌ عليهم ولا حُكْمُ
وقالوا كثيراً مثل هذا وإنه ... قبيح وأولى من إعادته الكتم
لقد رضعوا دَرَّ الحرام وإنه ... عسير عليهم بعد طول المدا الفطم
وأعظم بلوى نالت الناس إنها ... تضام ، ولا عند الملوك بها علم
يخافون فرمانا على غير موجب ... إذا ما شكوا ظلماً فكلهم بُكْم
إذا حاولوا الإنصاف لم يسعفوا به ... وكيف يُرجَّى العدل والحكم الخصم ؟
بقيتم لنا يا أسرة الهدْي إنكم ... مصابيح في الظلماء يمحى بها الظلم
جزى الله كل الخير حسن صنيعكم ... وما فعل التدبير والحزم والجزم
إذا دام فينا حكمكم والتفاتكم ... فكلٌّ لياليـنـا وأيامنـا سلـم
لكم غرر الأفعال من كل صالح ... على الناس يروي ذلك النثر والنظم
على جَدِّكم أزكي الصلاة وبعده ... عليكم وفيكم يحسن البدء والختم (٢٦٠)

هذه القصيدة الطويلة التي تجاوزت أبياتها الستين بيتا توضحها رسالة مخطوطة عنوانها « الأخبار الغريبة » في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة ،

---

(٢٦٠) ديوان البيتي : ص ٣٩ – ٤٣ .

من تأليف السيد جعفر بن حسن بن يحيى المدني نشرها العلامة الباحث المؤرخ الأستاذ الشيخ حمد الجاسر في مجلته القيمة « العرب » يقول فيها : وفي سنة ١١٤٨ هـ في زمن شيخ الحرم بشير بك أغا ، أورد صاحب الرسالة خبر فتنة بسبب هذا الأغا ، ملخصها قوله : وفي زمن شيخ الحرم بشير بك أغا ، وقعت فتنة عظيمة بين أهل المدينة وأغاوات الحرم ، فأدخل شيخ الحرم الأعراب من قبيلة حرب المسجد النبوي ، وأغلق أبوابه ، وأطلعهم على المنابر ، فصاروا يرمون الناس بالرصاص ، فيصيب من حول المسجد ، واستمر ذلك خمسة وأربعين يوما ، ثم أورد قصيدة للسيد جعفر البيتي مطلعها :

قفوا تنظروا آثار ما صنع الظلم وجوسوا خلال الدار تُنْبِكُمُ الأكم [٢٦١]

وهي القصيدة التي أوردناها كاملة ، وهي تصور جانباً من أحوال الناس في المدينة المنورة ، حيث كان الأغوات يتولون مشيخة الحرم المدني بأمر من السلطان العثماني ، وكانت تقع الاضطرابات في المدينة بسبب تسلطهم على مقدرات الناس ، واستعانتهم بالأعراب ، وقد عمت الشكوى من تصرفات هؤلاء الأغوات ولم تكن هذه الفتنة الأولى ولا الأخيرة التي حدثت منهم في طيبة الطيبة [٢٦٢] .

وللشاعر البيتي قصيدة أخرى في فتنة أخرى وقعت بالمدينة بعد الفتنة الأولى بسبع سنوات وهي تفيض لوعةً وأسى يقول الشاعر :

---

(٢٦١) انظر تفصيلا أوفى عن ذلك فى مجلة العرب محرم وصفر ١٤٠٦ هـ : ص ٤٣٩ - ٤٤٤ .

(٢٦٢) ديوان البيتي : ص ٣٧ - ٤٣ .

وقلت في فتنة أهل المدينة الواقعة عليهم من جماعة أغوات الحرم ومن في طرفهم من أهل المدينة وشيخ الحرم عبد الرحمن أغا سنة ١١٥٥ هـ :

بكى على الدار لما غاب حاميها ... وَجَرَّ حكَّامُها فيها أعاديها
بكى لطيبة إذ ضاعت رعيتها ... وراعها بكلاب البّر راعيها
بكى لمن هاجروا بالكره واحتملوا ... عنها ، وكانوا قديماً هاجروا فيها
واهاً لكربتها ، واهاً لغُرْبتها ... واهاً لجائعها ، واهاً لعاريها (٢٦٣)
واهاً لحالي لما قمت أُنشدها ... الدار أطبق إخراسٌ على فيها (٢٦٤)
يا دمنة سُلبت منها بشاشتها ... وأُلْبست من ثياب المَحْل باقيها
وقفت فيها أُعزّيها لكربتها ... أعجب على جَلَدي أني أُعزّيها
فمن معيني بأحزان يضاعفها ... عليَّ مَنْ لعيوني ، مَنْ يواسيها ؟
يا صاح ناد البواكي وابْكِ أنت معي ... ولا تصبّرْ نفسي ، ولا تُسَلّيها
ما مثلُ طيبة ما مثلُ الذي لقيت ... من الألى فبمن ترجو تأسّيها
حاشا لمختلف الأملاك من غِيَرِ ... الدنيا وما صنعت فيها لياليها
بأبي الفداءُ لها من كل حادثة ... لو كان ينفعها أني أُفدّيها
وغاية الجهد أن أبكي لها أسفاً ... حتى تجفَّ دموعي في مآقيها
كان التغزّل في جيران ذي سلم ... واليوم قد كثرت فيها مراثيها
هي المدينة أمست بعد عزتها ... كسيرةٌ غاب عنها اليوم حاميها
ملهوفة كبدها حرًّا مقطعة ... محروقة فاسقها إن كنت تُسقيها

---

(٢٦٣) يقول ناسخ الديوان : هذا الشطر لأبي نواس .
(٢٦٤) يقول ناسخ الديوان : هذا الشطر لأبي نواس .

ما قمت في نصرها حقَّ القيام فلا أقلَّ من أدمعي فيها تروِّيها
ما في الحياة ولا في العيش من أرَبٍ مَنْ مُنْعِمٌ بوفاةٍ منه يسديها ؟
عشنا إلى أن رأينا ما يصدُّعها عشنا إلى أن رأينا ما ينكّيها
مصيبةٌ عرضت للمسلمين غدت عن كربلاء ويوم الدار تلهيها
فيا شقاوة من أمسى يروّعها ويا سعادة من أمسى يراعيها
يا رحمتا من قلوب المؤمنين لها في كشف عورتها ممن يغطيها
أشدّ دارٍ خراباً لا عمار له دارٌ أتى هدمها من كفّ بانيها
قصّوا العجائب عني وانقلوا خبري على الحقيقة أمليكم وأرويها
وذاك في مائة والألف يتبعها خمس وخمسون أحصاهنَّ محصيها
كان الأغاءُ اصطفى في السرِّ طائفةً تبغي على الأمة الجُلَّا وتنويها
لَمُّوا عليه لأحقادٍ مقدمة تلوح في جُلِّهم والعجز يخفيها
وأصله في الأغا مالُ الغلال أتى عثمان بك به للناس يوفيها
فضمُّه منه سرًّا ثم أنكره على الرعية يقصيها ويلويها
ثم استقر به من بعدما سغبوا وليتهم تركوا الدعوى وداعيها
لكن دعاهم إلى ما كان ضرهم ناهيك بالضرِّ والبأسا وناهيها
فدبَّ منه عليهم مع عصابته عقارب الكيد غاديها وساريها
وجاءهم كُلّ مَنْ في قلبه مرضٌ يسعى بعلّته مَعْهم يداويها
ورتَّبوا صحفاً تُقْرا بقلعتهم ليلاً وجاء العدو في زيّ قاريها (٢٦٥)
وحملوا فئة أخرى بنادقهم وسط التيازير تُخفيها وتطويها (٢٦٦)

---

(٢٦٥) ديوان البيتي : ص ٧٦ .
(٢٦٦) ديوان البيتي : ص ٧٢ .

وأصبحوا غلَّقوا الأبواب ثم رموا   بنادق البغي تهوي من مراميها
فقيل ما الأمر قالوا نشتكي ضررا   من ستَّة ووليُّ الأمر يبغيها
إمّا القتال ، وإما تخرجونهمُ   وذلك القدر يكفيكم وتكفيها
ثم البقية أيضاً بعد من ذكروا   نعاهد الله - أنَّا ليس نؤذيها
فكان ذلك عام الحزن إذ خرجوا   ظلماً على الناس تبكيهم بواكيها
وكتَّبوا حجة تحوي فسادهم   تضمَّنت كلّ زور في معانيها
وأكَّدوها بأمهارٍ من الفقها   شهود حوأب لا درَّت مساعيها
قالوا ولا انتطحت شاتان قد صدقوا   لكنها الشهب خرَّت مع ذراريها
وعرَّفوا الدولة العليا بما صنعوا   كي يسعدوها بفرمان يقويها
ومرَّت السنة الشهبا وحاكمنا   يجني على الناس طرداً أو يجنِّيها
أيدي سبا مزقتهم في البلاد يدي   دنياه وهْي من إحدى دواهيها
قصيدة في البلا كانوا العَرُوض لها   وجادت الناس إرسالا قوافيها
وكل ذاك ومسعود ملكيهم   يَذْرَ التَّلافَ ويسعى في تلافيها
وأقبل الحج والإسلام كلهم   أرواحهم بلغت منها تراقيها
وجاء فرمانهم طبقا لموجب ما   أنْهُوا وأنفسهم تمت أمانيها
والذنب والله حقًّا ذنب من شهدت   شهادة الزور تُخفيها وتُبديها
أهل الطيالس إياكم خذوا حذراً   منها جميعاً فإني لا أسمِّيها
إياكموا هذه الأفخاخ إنِّي لا   آلوكُمْ النصح جهداً في توقيها
عصابة خلقت للغش والتزمت   باب الولاة بظلم الناس تُفتيها
واستقبلوا السنة الأخرى بحالتهم   لكنهم فسدوا في بعضهم تيها
حتى طمى الجور من نحو الأغاو بدت   حوادثٌ بينهم تنموا نواميها
ولم يزل يتداعى الأمر وافترقت   مردان قلعة عنهم مع مواليها
وأصبحوا قتلوا كابوس إذ شهدوا   بكفره في أمور كان يأتيها

وأرسلوا طلبوا الناس التي خرجت وعاد مُبعدها في الحال يدنيها
واستقبلوهم فردّ الباب دونهم كُبَيْبَـةٌ وجماعـات مغـــبِّيها
وأخرجوهم فثار الشرُّ بينهم لفتنة قد أراد الله يقضيها
وأرسلوا للأغا للصلح فاضطربت أشياعـه وأَبَتْ إلا تماديها
وأرسلوا طلبوا هزاع ينصرهم على المدينة كي ينفي أهاليها
فجاءهم بجنود كالحصى عدداً البغيْ قادِمُها والظلم تاليها
وشمَّر الحاكم المذكور يسبح في سفينة الجور يجريها ويرسيها
جرَّ البوادي لها من كل ناحية فاندكَّ أسفلها منها وعاليها
وحسَّنت علماء السوء عثرته بحكم طاغوتها فانجرَّ طاغيها
ومنهموا من تولَّى كِبْرَه وله عقبى عذاب أليم في توليها
قالوا لنا نسبة الأنصار قلت لعلَّ أفعالكم صدَّقَتْها في دعاويها
ستين يوماً أقاموا في محاصرها قتلاً ونهباً وهدماً في صياصيها
أيام بؤس حكت أضعاف ماصنعت أيام مسرِفِ المُرِّي باغيها (٢٦٧)
كأنها دار كفر قام مجتهدا في فتحها يبتغي رضوان باريها
ونزَّلوها على حكم العدوِّ ولا رثوا لذلِّتها في كفِّ مُذْليها
وأسفر الحال معه في ثمانية وعشرة بقضاء الجوْر يَجْليها
وكتَّبوا كتباً في الصلح واحتكموا على الرعية حكما ليس يرضيها

---

(٢٦٧) مسرف المرِّي : هو مسلم بن عقبة الذي قاد الجيش الذي استباح المدينة في خلافة يزيد بن معاوية فى موقعة الحرة وسمى مسرفاً لإسرافه في القتل والبطش . انظر : تاريخ الدولة الأموية للمؤلف (ج ١) : ص ٢٧٦ — ٢٨٩ .

لكنَّها هدنة جاءت على دَخَن — وهدنة الجبر شرط لا يواتيها
وسار هزاع والأحوال فاسدة — والناس مضمرة أشيا تعمِّيها
وكان في قلعة السلطان طائفة — تحققت غشَّ من قد كان يغويها
فأطلعوهم إليهم في الحبال كما — تسعى الأفاعي وترقى في مراقيها
فيا لها لله بسطامية وقعت — أعادت الحرب بكراً في مجاريها
مات الإغاء ومن في حزبه كمداً — بها وعاد لتلك الحرب ينشيها
فأدخل الحرمَ الأعرابَ فانتهكت — هناك حرمة هاديها ومهديها
وأصعدوها ولا خافوا ولا اعتذروا — فوق المنائر ترمي من أعاليها
وصاحبُ الأمر باقٍ في تعصّبه — معها على الناس يسليها ويغريها
يصرِّف المال ، مال المسلمين على — تلك العصابة يسقيها ويغذيها
وأصبح الحرم العالي وروضته — كالجبّخانة بالبارود يحشيها
لا جمعةٌ لا صلاة لا أذان بها — إلا البنادق ترمي من نواحيها
فصاحت الناس شرع الله وابتدروا — إلى الخصومة قاصيها ودانيها
وبادروا مجلس القاضي لينظر في — فصل القضا ولنار الحرب يطفيها
فصدَّر الحاكم الشرعيّ نحوهم — رسالة تقتضي الدعوى وتحتويها
فلم يردُّوا خطابا عن رسالته — إلا الرصاص جواباً في حواشيها
وتَرسَّوا مسجد الهادي وثار به — بين الفريقين حرب لست أحكيها
فيا لها زلَّة منهم وفاقرة — جاءت على رغم مفتيها وقاضيها
وقامت الحرب فيهم ترتمي شرراً — ستين أخرى يد الأعراب تذكيها
وصاحب القبر محزون بما صنعوا — غيظاً لأمته ممن يعاديها
وامتدت الحال بالبلوى إلى رجب — ومنتهى صفر قد كان باديها
فسار من عند مولانا الشريف لنا — عساكر لتلافينا يواليها

فسار هزّاع من نحو الإغاء لها ... يردُّها دوننا قهراً ويُرْديها
فصدَّها وأتى منصور يسبقه ... إلى المدينة في شعبان يحميها
وجاء هزاع يوم النصف واستعرت ... مراجل الحرب والملعون يغليها
وقسَّم البدو نصفاً عنده قعدوا ... والنصف عند الإغا مع عبْد يبقيها
وأضحت الدار قفراً لا أنيس بها ... الجن تندبها والأنس ترثيها
أباحها البدوَ نهباً ثم أحرقها ... وراح يشقي بها حقًّا ويشقيها
أباحها وهو يرجو من حماقته ... ثواب أصحاب بدر في مغازيها
لكنه صان خيرُ الخلق حوزتها ... وأصبح الستر غاطيها وضافيها (٢٦٨)
وحقق الله خذلان الذين بغوا ... جميعهم وأراد الله يعليها
وسيروا هدنة للحج وانتظروا ... فيها الجواب وساعيهم وساعيها
وارتدّ هزاع مفشولا وعصبته ... بدواً وحَضْراً تغطيها مساويها
وأصبح الحاكم المغرور يقرع في ... سنّ الندامة مما كان يوليها
والأمر لله مكتوب على يده ... أنَّ الأغا سوف يجليهم ويجليها
يا للكبائر من أدعو فيسمعني ... حتى أصرِّح عنها أو أكنّيها
من للمدينة إن غصت بريقتها ... ومن يجيب نِدَاها من يلبِّيها
ما أفقر الصيدُ إلا بعد مسلمة ... أعطت محاسنها الدنيا لماضيها
عادت لنا سيرة التيمور في حلب ... أيام صبيانها شابت نواصيها (٢٦٩)
ويومه وهو في بغداد يهتكها ... ويوم جنكيز بالتتار يرميها

---

(٢٦٨) كان الأصح أن يقول : رب الخلق فهو وحده القادر المتصرف .

(٢٦٩) الإشارة فى هذا البيت وما يليه إلى تيمور التتري وما جرى على يديه من الفظائع .

وبُخْتَصَر من قبْلِ الذي ذكروا	في مصر والقدس تقريباً وتشبيهاً (٢٧٠)

ويوم تهماز ما أدراك ما صنعت	في شاجهان الموالي مع مواليها

شأن عظيم مضى في الجور أعظمه	شأن المدينة من أيدي شوانيها

حوادث ما رآها دانيالُ ولا	قصَّت ملاحمُه شيئاً يساويها

يا شدَّة ليس إلا الله يكشفها	وغُمَّة ليس إلا الله يجليها

أين الحجاز وأين الروم تسمع لي	صوتي إذا قمت من كربي أناديها ؟

يا آل عثمان عين في ممالككم	مطروفَة لَطَمتها كَفُّ واليها

عين لدولتكم عين لدينكمو	قد كاد لولا دفاع الله يعميها

أمَّنتموها فضاعت عنده سفها	ويل الأمانة ممن لا يؤديها

نمتم ولا نوم عبُّود الذي ذكروا	عن المدينة حتى قام ناعيها

هُنَّا عليكم وهانت بعد عزتها	وأصبح الكل جافينا وجافيها

أحوالنا علمتها الصين واعجباً	من كان يمنعها عنكم ويثنيها

خمسون عاماً لنا والظلم يلحقنا	نقارع البدو فيها أو نداريها

ورام سعد بن زيد قطع دابرهم	لكن عَدَتْه من البلوى عواديها

سلوا عن العهد عما كان سبَّبه	فليس ذا أول الشكوى وثانيها

غضضتموا الطرف عن أشياء أبدعها	بشير بك فجا هذا يسوِّيها (٢٧١)

سوسوا البلاد بعين من نفوسكم	دعوا الأجانب أعطوا القوس باريها

لو أن مسعود قلَّدتم له عملا	أجزا وثار لأعداكم يجازيها (٢٧٢)

---

(٢٧٠) بختصر هو الذي أخرج اليهود من القدس .

(٢٧١) الإشارة هنا إلى فتنة بشير أغا حاكم المدينة سنة ١١٤٨ هـ التي ذكرناها قبل .

(٢٧٢) مسعود : هو أمير مكة في ذلك الزمان .

لكنه راح مربوطاً على يده تحت الإشارة لا يبغي تعديها
ينهي إليكم وبعد الحوْل ينظر في جوابكم عن أمور كان ينهيها
ما أبعد الوِرْدَ إن بات العطاش على وادي الغضا وبوادي الرمل ساقيها
تالله لو كان هذا الدين مبدؤه على التساهل والإغفال تمويها
ما صدَّق الرسل في الدنيا مصدِّقها ولا جَبا ساحة الإفرنج جابيها
سلوا ففي كي قباذ الفرس معتبر يغني الملوك إذا شاءته تنبيها
سلوا ففي علج عمورية نبأ أين الرشيد ومن نادته تنويها
وأين تلك مع الدار التي شرفت على الممالك إعظاما وتنزيها
ما أحوج الأرض للفتح الجديد فقد عَمَّ البلا وطغى طوفان عاصيها
من باب مصر إلى بصري إلى عدن إلى العراق يمانيها وشاميها
ومن سواكم وعين الناس ترقبكم قد وجَّهوا لكم الآمال توجيها
بخدمة المصطفى أسلافكم شرفت على الملوك وهنَّاها مُهَنِّيها
تميمة علقت في جيد دولتكم تذبُّ عنها أعاديها وتحميها
عُضُّوا عليها وصونوها فإن سقطت تَفَزَّعَتْ وغدت لاشيء يشفيها
وإن تروا حادثاً في الدهر أو قلقاً من العدا فهو من عقبى تناسيها
ما كان أحوجنا أن تبعثوا ثقة ينهي إليكم قضايانا ويسليها
سلوا الطريق عن الحُجَّاج تخبركم بالقتل والنهب فيها من بواديها
سلوا عن الحجرة الزهراء إن خفيت أسرارها ربما التسأُل يفشيها
سلوا عن المال فيها والذخائر مَنْ بالبخس قد باعها من كان يشريها ؟
وأجزوا العساكر إحساناً فقد ستروا عوراتها وسبوا من جاء يسبيها
وكم أيادٍ لقاضي الشرع قدمها لله والله في الأخرى يكافيها
فإنه صان عرض المسلمين رمى بسهمه وعَنَاهُ ما يعنِّيها

والنفس لا تستوي من جاء يقتلها وآخرٌ قام يحميها ويحييها
مشاهدٌ صالحوا الأروام تشهدها لنا وإن سئلت عنها تؤديها
فهمُ وحكام مولانا الشريف لَهُمْ أعمال بِرٍّ عسى المولى يزكّيها
وكلهم بذلوا في حال غيبتكم أرواحهم دونها واستقتلوا فيها
هم المحامون دون الدار لا فئة نماك حرام وتكفيها مخازيها (٢٧٣)
جرى القضا عرفت أصحابها سَقَرٌ وجنة الخلد قد باءت بأهليها
نام الخلي عنك والمحزون خاطره بكى على الدار لما غاب حاميها (٢٧٤)

هذه القصيدة الملحمة التي بلغت عدة أبياتها مائة وأربعا وستين بيتا تقدم لنا بعد أكثر من مائتين وخمسين عاماً صورة وصفية كاملة ومفصلة للأحداث التي روعت المدينة المنورة وسكانها في سنة ١١٥٥ هـ .

ولم أجد ذكراً لهذه الفتنة في تواريخ مكة المكرمة بالرغم من أن القصيدة تذكر أن أمير مكة الشريف مسعود أرسل جيشا لإنقاذ المدينة يقول البيتي :

فسار من عند مولانا الشريف لنا عساكـر لتلافينـا يواليها
فسار هزاع من نحو الإغاء لها يردها دوننا قهـراً ويـرديها
فصدَّها وأتى منصور يسبقه إلى المدينة في شعبان يحميها
وجاء هزاع يوم النصف واستعرت مراجل الحرب والملعون يغليها

---

(٢٧٣) هذا البيت غير مستقيم ولعله من الناسخ ولعل الأصح جنت حراما .

(٢٧٤) ديوان البيتي : ص ٧١ - ٧٥ .

هذه الأبيات تدلُّ على أنه لما طالت معاناة أهل المدينة أرسل إليهم الشريف مسعود أمير مكة المكرمة جيشاً لإنقاذهم ولكن الحاكم التركي عبد الرحمن أغا استنصر بهزاع شيخ قبيلة حرب ، فصد هزاع جيش أمير مكة فأبقى نصف جيشه عند الأغا ، واحتفظ بالنصف الباقي من جيش البدو ، ثم انتهى الأمر بانتصار الأغا بمعونة شيخ قبيلة حرب وأتباعه من البدو ، حتى انتهى الأمر بإباحة المدينة للبدو :

أباحها البدو نهباً ثم أحرقها ... وراح يشقي بها حقًّا ويشقيها

والقصيدة تصور الأحداث في تسلسلها من البداية يقول البيتي :

وأصله في الأغا مال الغلال أتى ... عثمان بك به للناس يوفيها
فضمه منه سرًّا ثم أنكره ... على الرعية يقصيها ويلويها

ويفهم من هذا أن عثمان بك أحضر إلى المدينة الغلال التي توزع على أهلها فاستأثر بها الأغا لنفسه وأنكر عليهم حقهم فيها ، ولم يكتف بهذا بل كاد لأهل المدينة هو وعصابته التي اجتمعت في القلعة :

ورتبوا صحفاً تُقرا بقلعتهم ... ليلاً وجاء العدو في زيٍّ قاريها

ثم يقول :

وحملوا فئة أخرى بنادقهم ... وسط التيازير تخفيها وتطويها
وأصبحوا غلَّقوا الأبواب ثم رموا ... بنادق البغي تهوي من مراميها
فقيل ما الأمر قالوا نشتكي ضرراً ... من ستَّةٍ وولّيُّ الأمر يبغيها
إما القتال وإما تخرجونهموا ... وذلك القدر يكفيكم ويكفيها
ثم البقية أيضا بعد من ذكروا ... نعاهد الله أنّا ليس نؤذيها

فاجأ الأغا المدينة بالرمي بالبنادق فلما سئل ما الأمر ؟ طالب بإخراج ستة أشخاص يطلبهم ولي الأمر ، وأنذر الناس بالقتال إن لم يخرجونهم إليه ، وتعهد أن لا يؤذي أحدا إذا ما سلم إليه هؤلاء الرجال يقول البيتي :

فكان ذلك عام الحزن إذ خرجوا ظلماً على الناس تبكيهم بواكيها

ولم يكتف الأغا وجماعته بهذا :

فكتبوا حجة تحوي فسادهمو تضمنت كل زور في معانيها
وأكدوها بأمهار من الفقها شهود حوأب لا درَّت مساعيها
وعرَّفوا الدولة العليا بما صنعوا كي يسعدوها بفرمان يقويها

كتب الأغا وجماعته عريضة مزورة ضد هؤلاء الرجال الستة الذين ناصبوا الأغا العداء ، وختم عليها الفقهاء بأمهارهم شهادة زور ، وأرسلوها إلى الآستانة لاستصدار فرمان بمعاقبة خصوم الأغا :

ومرَّت السنة الشهبا وحاكمنا يجني على الناس طَرْداً أو يجنِّيها
أيدي سبا مزقتهم في البلاد يدي دنياه وهْي من إحدى دواهيها

وخشي الناس صولة الأغا فهاجروا من المدينة وتركوها وتفرقوا في البلاد :

وجاء فرمانهم طبقاً لموجب ما أنهوا وأنفسهم تمت أمانيها
والذنب والله حقًّا ذنب من شهدت شهادة الزور تخفيها وتبديها

وجاء الفرمان المطلوب من الآستانة حسبما رسم الأغا فقد أثرت الشهادات المزورة من الفقهاء تأثيرها وهؤلاء الفقهاء هم :

عصابة خلقت للغش والتزمت باب الولاة بظلم الناس تفتيها

واستبد الأغا بعد أن أيدته الدولة العلية بفرمانها ، فانقلب على أنصاره وقتل أحد كبار هؤلاء الأنصار المسمى كابوس الذي شهدوا عليه بالكفر :

وأصبحوا قتلوا كابوس إذ شهدوا   بكفره في أمور كان يأتيها

وأراد الأغا استرجاع من انفضَّ من حوله من أنصاره فدعاهم إلى القلعة ولكن شخصاً اسمه كبيسة مع جماعته ، أرسلوا للأغا يطلبون الصلح فأصرَّ أشياع الأغا على التمادي في الخصام ، وأرسل هؤلاء الأشياع إلى هزاع شيخ قبيلة حرب فجاءهم بجنود كثيرة من البدو :

وأرسلوا طلبوا هزاع ينصرهم   على المدينة كي ينفي أهاليها
فجاءهم بجنود كالحصى عدداً   البغي قادمها والظلم تاليها
جرَّ البوادي لها من كل ناحية   فاندكَّ أسفلها منها وعاليها

وحاصروا المدينة ستين يوما :

ستين يوماً أقاموا في محاصرها   قتلاً ونهباً وهدماً في صياصيها

وأعاد البدو في المدينة ما فعله مسرف المرِّي الذي أباح المدينة أيام موقعة الحرة في خلافة يزيد بن معاوية :

كأنها دار كفر قام مجتهدا   في فتحها يبتغي رضوان باريها

ولم تلبث المدينة أن استسلمت تحت وطأة هذه الظروف القاسية فنزلت على حكم الأغا وجماعته :

وأنزلوها على حكم العدوِّ ولا   رَثُوا لذلَّتها في كف موليها
وأسفر الحال في ثمانية   وعشرة بقضاء الجور يجليها
وكتَّبوا كتباً في الصلح واحتكموا   على الرعية حكماً ليس يرضيها

وسار هزاع من المدينة بعد أن فك الحصار عنها ، ولكن الناس كانت تضمر أشياء كثيرة من الظلم الذي وقع عليهم ويبدو أن ضمائر بعض من كان في القلعة مع الأغا استيقظت فانقلبوا على الأغا بعد ما رأوا من غشه وسوء تصرفه فمدُّوا الحبال إلى بعض من اتفقوا معهم على نصرتهم وأصعدوهم إلى القلعة ، يقول البيتي :

وكان في قلعة السلطان طائفة ... تحققت بَغْيَ مَنْ قد كان يغويها
فأطلعوها إليهم في الحبال كما ... تسعى الأفاعي وترقى في مراقيها
فيا لها لله بسطامية وقعت ... أعادت الحرب بكراً في مجاريها
مات الأغاء وَمَنْ في حزبه كمدا ... بها وعاد لتلك الحرب ينشيها

ولكن الأغا الذي فوجئ بهذا الانقلاب لم يتورع عن إدخال الأعراب إلى المسجد النبوي الشريف وأصعدوهم على المنائر يرمون القذائف منها ، وانقطعت الصلاة في المسجد النبوي الشريف بعد أن تحول إلى ثكنة عسكرية ، وحلت أصوات البنادق محل الأذان ، يقول البيتي :

فأدخلَ الحرمَ الأعرابَ فانتهكت ... هناك حرمة هاديها ومهديها
وأصعدوها ولا خافوا ولا اعتذروا ... فوق المنائر ترمي من أعاليها

ويقول :

وأصبح الحرم العالي وروضته ... كالجبُّخانة بالبارود يحشيها (٢٧٥)
لا جمعة لا صلاةَ لا أذانَ بها ... إلا البنادق ترمي من أعاليها

---

(٢٧٥) الجبخانة – باللغة التركية – هي المكان الذي توضع فيه أسلحة الجيش وذخائره .

وشكى الناس إلى قاضي الشرع فأرسل إليهم يخطرهم بالحضور لسماع الدعوى المقامة عليهم ، ولكن إجابتهم على رسالة القاضي كانت الإمعان في الرمي بالرصاص والإصرار على الحرب ، وثارت الحرب بين الفريقين مرة أخرى واستمرت ستين يوما :

وقامت الحرب فيهم ترتمي شرراً ستين أخرى يد الأعراب تذكيها
وامتدت الحال بالبلوى إلى رجب ومنتهى صفر قد كان باديها

وأراد شريف مكة الأمير مسعود إنقاذ المدينة فسيَّر إليها الجنود لتلافي الفتنة ولكن الأغا استنصر بهزاع شيخ قبيلة حرب فجاء هزاع بجنوده من البدو فردَّ جيش الشريف ، وقد أوردنا الشواهد من القصيدة عن ذلك سابقاً وتمخضت الأمور بانتهاب المدينة وإباحتها للبدو وإحراقها :

أباحها البدو نهباً ثم أحرقها وراح يشقى بها حقًّا ويُشقيها
أباحها وهو يرجو من حماقته ثواب أصحاب بدر في مغازيها

ثم اتفقوا على هدنة للحجِّ فارتدَّ هزاع عن المدينة إلى البادية ، ثم يتطرق الشاعر إلى الحال البائسة الحزينة التي صارت إليها مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه فيقول :

مَنْ للمدينة إن غُصَّت بريقتها ومن يجيب نداها من يلبيها ؟

ويشبِّه ما وقع في المدينة من الكوارث بما وقع لبغداد وحلب على أيدي التتار ، وما وقع في القدس على يد بُخْتَنَصَّر :

عادت لنا سيرة التيمور في حَلَبٍ أيام صبيانها شابت نواصيها
ويومُه وهو في بغداد يهتكها ويوم جنكيزَ بالتتار يرميها
وبُخْتَصَّر من قبل الذي ذكروا في مصر والقدس تقريباً وتشبيها

ثم يتساءل الشاعر :

أين الحجاز وأين الروم تسمع لي   صوتي إذا قمت من كربي أُناديها

ثم يخاطب الحكام العثمانيين فيقول :

يا آل عثمان عين في ممالككم   مطروفة لطمتها كَفُّ واليها
عين لدولتكم عين لدينكمو   قد كاد لولا دفاع الله يعميها

ومنها :

أَمَّنتُموها فضاعت عنده سفهاً   ويل الأمانة ممن لا يؤديها
نمتم ولا نوم عبود الذي ذكروا   عن المدينة حتى قام ناعيها
هُنًّا عليكم وهانت بعد عزتها   وأصبح الكلُّ جافينا وجافيها
أحوالنا علمتها الصين واعجباً   من كان يمنعها عنكم ويثنيها

ويقول الشاعر : إن المدينة ظلت تعاني من هذا الحال خمسين عاماً والدولة لا تولي الأمر ما يستحقه من الاهتمام بل تغضُّ الطرف عن سوء التصرف من الحكام الأغوات الذين تبعثهم الآستانة ، ثم يدعوهم إلى إقصاء الأجانب عن الحكم في المدينة وإعطاء القوس باريها :

خمسون عاما لنا والظلم يلحقنا   نقارع البدو فيها أو نداريها

ومنها :

غضضتموا الطرف عن أشياء أبدعها   بشير بك فجا هذا يسويها
سوسوا البلاد بعين من نفوسكم   دعوا الأجانب وأعطوا القوس باريها

ثم يصف حال أمير مكة ووقوفه مكتوف اليدين لأن صلاحيته في التدخل محدودة ، ولقد كان يكتب إلى الدولة العلية وينتظر الحول ليصل

إليه الرد :

لو أن مسعود قلدتم له عملا أجزا ، وثار لأعداكم يجازيها
لكنه راح مربوطاً على يده تحت الإشارة لا يبغي تعديها
ينهي إليكم وبَعْد الحول ينظر في جوابكم عن أمور كان ينهيها

وينهي البيتي ملحمته العظيمة بإيراد أمثلة من النجدة والحزم مشهودة في التاريخ فيقول :

ما أبعد الوِرْدِ إن بات العطاش على وادي الغضا وبوادي الرمل ساقيها
تالله لو كان هذا الدين مبدؤه على التساهل والإغفال تمويها
ما صدَّق الرسل في الدنيا مصدِّقُها ولا جبَا ساحة الإفرنج جابيها
سلوا ففي كي قباذ الفرس معتبر يغني الملوك إذا شادته تنبيها
سلوا ففي علج عمورية نبأ وابْن الرشيد ومن نادته تنويها

والإشارة في البيت الأخير إلى المرأة المسلمة التي استنجدت بالمعتصم فكان فتح عمورية ويقول الشاعر :

وأين تلك مع الدار التي شرفت على الممالك إعظاما وتنزيها

ثم يقول :

ما أحوج الأرض للفتح الجديد فقد عمَّ البلا وطغى طوفان عاصيها
من باب مصر إلى بصرى إلى عدن إلى العراق يمانيها وشاميها

ثم يذكر العثمانيين بماضي أسلافهم الطيب في خدمة الإسلام :

بخدمة المصطفى أسلافكم شرفت على الملوك وهنَّاها مهنيها
والمدينة تميمة علقت في جيد دولتكم تذبُّ عنها أعاديها وتحميها

ثم يتساءل :

ما كان أحوجنا أن تبعثوا ثقة ينهي إليكم قضايانا ويمليها

ثم يقول :

سلوا الطريق عن الحُجَّاج تخبركم بالقتل والنهب فيها من بواديها
سلوا عن الحجرة الزهراء إن خفيت أسرارها ، ربما التسآل يغنيها
سلوا عن المال فيها والذخائر مَنْ بالبخس قد باعها ، من كان يشريها

ثم يدعوهم إلى سؤال الصالحين من الأروام والأتراك المقيمين بالمدينة :

مشاهدٌ صالح الأروام تشهدها لنا وإن سئلت عنها تؤديها

ويختم القصيدة بهذين البيتين :

جرى القضا ، عرفت أصحابها سقر وجَنَّةُ الخلد قد باءت بأهليها
نام الخلي عنك والمحزون خاطره بكى على الدار لما غاب حاميها

هذه القصيدة أو الملحمة التاريخية أوردها الشاعر مفصلة كما رأينا ولم تورد كتب المؤرخين شيئاً عنها رغم ضخامة المأساة وطول الوقت الذي استغرقته ، وقد نشر الأستاذ العلامة المحقق حمد الجاسر رسالة مخطوطة للسيد جعفر بن حسين بن يحيى الحسيني المدني عنوانها : « الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة » وقد استشهد المؤلف بقصائد الشاعر جعفر البيتي في هذه الحوادث . يقول الأستاذ حمد الجاسر عن المؤلف ورسالته ما يلي :

وبين يديَّ الآن رسالة عنوانها : « الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع

بطيبة الحبيبة » لخصها السيد جعفر بن حسين بن يحيى الحسيني المدني ، ويظهر أنه من أهل القرن الماضي - لعل الأستاذ الجاسر يقصد القرن الثالث عشر الهجري - لأنه ينقل عن مؤلفات لبعض علمائه ومنهم أحمد زيني دحلان ، المتوفي سنة ١٣٠٤ هـ ويقول : إنه لخص ما في الرسالة من مسودة تاريخ العالم الخطيب عبد الرحمن بن حسين الأنصاري ، الذي وجده بخطه مخروما ، وفيه من الوقائع التي وقعت في المدينة ما لا يوجد في غيره من المؤلفات يقول الأستاذ الجاسر :

وقد سرد في هذه الرسالة حوادث وقعت في المدينة يدور أغلبها على سوء تصرف مشايخ الحرم من (الأغاوات) ، ثم عدد الأستاذ حمد الحوادث أو بعض الحوادث التي وردت في الرسالة ومن ضمنها الفتنة التي وقعت في سنة ١١٥٥ هـ واستشهد المؤلف بقصيدة السيد جعفر البيتي التي هي موضوع بحثنا هذا .. تقول الرسالة :

في سنة ١١٥٥ هـ قال صاحب الرسالة في الكلام على فتنة عبد الرحمن أغا الكبير ، وهو الذي صارت في زمنه الفتنة العظيمة المشهورة بفتنة (كابوس) وقال عن سببها :

إن عثمان بك أتى بمال الغلال فأخذه ، ومنع كل ذي حق حقه ، بعد أن اتفق مع رؤساء عسكر القلعة ، فحصل احتكاك بين أناس تزعمهم رجل عسكري يدعي حسن كابوس وبين مَنْ في القلعة ، ثم انتهى الأمر صلحاً إلا أن شيخ الحرم ومن معه أثاروا الفتنة التي شارك فيها بعض أهل المدينة وقتل منهم من قتل ، كما قتل حسن كابوس الذي عرفت الفتنة به ، فأرسل شيخ الحرم إلى أمير مكة الشريف مسعود يستنجد به ، ولكن مسعوداً أرسل إلى أمير المدينة سرًّا يحرضه على شيخ

الحرم إن لم يخرج أهل القلعة ، فعرف شيخ الحرم ذلك ، فأرسل إلى هزاع شيخُ قبيلة حرب ، واستماله بالمال ، ليرد عنه المدد الذي أرسله الشريف مسعود لأمير المدينة ، فجمع هزاع من قدر عليه ، وهجم على الذين أرسلهم أمير مكة في رابغ ، فقتل منهم من قتل ، وهرب الباقون ، واستدعى شيخ الحرم وهو عبد الرحمن أغا مشايخ حرب ، ومنهم هزاع وعيد ، ومكّنهم من المدينة فأخربوها ونهبوها ، وجلا أكثر الناس إلى المناخة ، واستمر الحال على ذلك إلى شهر رجب سنة ١١٥٦ هـ ، فأرسل الشريف مسعود وسعى في الصلح بينهم ظاهراً ، وكان مباطناً لأهل القلعة ، فتمت بينهم الهدنة إلى أن وصل الحاج الشامي إلى المدينة ومعه فرمان بعزل عبد الرحمن أغا شيخ الحرم ، ونصّب عبد الرحمن أغا الصغير .

ثم تورد الرسالة قصيدة البيتي المذكورة آنفا (٢٧٦) .

والمتأمل في النص الذي أوردته الرسالة يراه اختصاراً لما فصّله البيتي في قصيدته الطويلة العصماء ، وإذا كان من تعليق على ما ورد في الرسالة فهو أن مؤلف الرسالة ذكر في نهاية النص أن الشريف مسعود كان مباطناً لأهل القلعة ، ويمكن تفسير ذلك بأن الشريف مسعود ربما مال لأهل القلعة بعد انقلابهم على شيخ الحرم كما أوردته قصيدة البيتي ، والله أعلم .

---

(٢٧٦) مجلة العرب (ج ٧ ، ٨) محرم وصفر ١٤٠٦ هـ : ص ٤٤١ – ٤٤٣ .

وجاء في هذه الرسالة أن فتنة وقعت في سنة ١١٣٤ هـ بالمدينة وكان شيخ الحرم أيوب أغا (من الأغوات) عرفت هذه الفتنة عند أهل المدينة باسم « قصة العهد » ، وأورد قصيدة للسيد جعفر البيتي جاء فيها :

فَجَرَت هنا لك صيحة يرقى إلى   أفق السماء حجاجها بل يعتلي
وطغت عليهم بعد ذلك عصبة الـ   أغوات مع أتباعهم والجُهَّل

أقول : والفتنة التي وقعت في سنة ١١٣٤ هـ كان من نتائجها الحكم على السيد عبد الكريم البرزنجي بالقتل وقتل في جدة وألقيت جثته في محلة المكلام وسميت المحلة المظلوم نتيجة لهذه الحادثة .

ولم أجد هذه القصيدة بالديوان المخطوط ، مما يدل على أن هذه النسخة الموجودة بمكتبة عارف حكمت لا تضم جميع قصائد الديوان ، يؤيد هذا الرأي ما ذكره الأستاذ عبد القدوس الأنصاري – رحمه الله – أن هناك نسخة أخرى لديوان السيد جعفر البيتي بجاوة ، وأن هذه النسخة أضخم بكثير من هذه النسخة الثانية ، ذكر هذا الأستاذ عبد القدوس رواية عن أحد أقطاب الحركة الأدبية من الشباب الحضرميين (٢٧٧) .

وفي الديوان قصيدة تصف حالة الأمن في طريق المدينة وقد نظمها الشاعر على لسان بعض الزائرين فقال :

وكتبت على لسان بعض السادة العلويين ، القاطنين بجدة ، وهو يومئذ بالمدينة المنورة زائراً أيام المعراج وقد أدرك في طريقه إليها متاعب وعوائق من الأعراب المحاصرين للمدينة المنورة في هذا التاريخ وهو سنة ١١٥١ هـ إلى باش بازجي إبراهيم عبد الوهاب يخبره بما قاساه في طريقه

---

(٢٧٧) انظر : البحث المنشور عن جعفر البيتي فى « مجلة المنهل » .

إلى الزيارة إلى أن وصل إلى المدينة ، وقد خلطها بالجدِّ والهزل المراد به الجد كما قيل وشرُّ الشدائد ما يضحك وهذه هي القصيدة :

خليليَّ عن حالي سلا وتفقَّدا ... وميلا إلى نحو الوسادة واقعدا
أبثكما مما لقيت عجائباً ... بليت بها فاستخبرا وتنشَّدا
فلي قصة يا صاحبيَّ جعلتها ... حديثاً عن البلوى، عن الضيق مسندا
عن العُسْرِ ، عن كربٍ عن الغمِّ عن ... عنَى عن الحزن ، عن غمٍّ غلا وتصعدا
خرجنا نهار السبت من أرض جدة ... وقد كان نحساً ذلك اليوم أنكدا

والقصيدة طويلة ولكنا نختار منها ما يصف حالة الأمن في الطريق من الأعراب فيقول :

ورحنا وأصبحنا على بئر رابغ ... فمستورة فالخبت قِلْنا به غدا
على قوم عادٍ أو ثمودَ تَجَبُّراً ... وظلماً وبغياً في البرية واعتدا
ومن بعده اليوم العصيب غداة ما ... بدونا على الصفراء في حِزْب من بدا
أقمنا بها حينا على شرٍّ حالة ... نكابد بالضراءِ عيشاً مُنكَّدا
وقد حاصروا إذ ذاك بلدة أحمد ... ونحن بها نبغي زيارة أحمدا
وصدُّوا جميع الزائرين وأذَّنوا ... ونادوا ولا خافوا الذي يُعقب النِّدا
ورحنا حيارىَ كلما مرَّ فاجرٌ ... علينا تعدَّى أو طغى أو تهدَّدا
فقلنا لهم يا قوم نخشى عقوبة ... عليكم من السلطان سيفاً مهنَّدا
ومن خلفكم تدبير صاحب مكة ... فلا تحسبوا هذا يروح لكم سُدا
فأضْرب كلُّ مُنهموا عن مقالنا ... وأعرض عنا هازئاً وتوعَّدا
وقالوا لنا خمسون عاما كما ترى ... ولو كان سلطانٌ هناك لأنْجَدا
وقد بُحَّ صوت المستغيثين عنده ... فكيف ترى يهنا على الضيم مرقدا
وإن كان لا يدري فتلك مصيبة ... وإن كان يدري فاسألوا ما الذي عدا

لعلكم يا حُمْقُ ترجون أنه يجبنا على البُلْقِ العتاق مجرِّدا
فيا ليته لو كان يحفظ حَجَّه ولم يعط عند الخيف مالاً معدَّدا

يشير الشاعر في هذا البيت إلى المال الذي كان يدفع من الدولة للأعراب وقد أوضحه الشاعر في النسخة الخطية للديوان إذ جاء فيها ما يلي :

(دفع المال المذكور حدث بعد وقعة نصوح باشا عام ١١٢٣ هـ لأنه فتح خُرْقاً ، وقُتل قبل سدِّه وكانت الحجاج قبله يضعون أسلحتهم بالمدينة ، ويتوجهون إلى الحج مجردين ثم لم تزل تزيد العربان إلى يومنا هذا) .

ويوالي هذا الشاعر السخرية بالحكام العثمانيين ، وكذلك بأمراء الحج الذين يصلون مع الحجاج ويتألفون البدو بدفع الأموال لهم فيقول :

فكم قد قتلنا جوخدار ومجدجي وأيضا مصرلي فوق ذاك وكَتْخَدا
ولم تحترك للثأر قَطُّ نفوسهم ولا جزعوا مما أقام وأقعدا
وقد عودونا بالمداراة والرُّشا لكلِّ امرئ من دهره ما تعودا (٢٧٨)
وهذا دليل العجز لا شك فيهم فلاتقصدواالشيءالذي‌ليس‌مقصدا
فقلنا لعل الله يأتي بنصره ويبعث للفتح المبين ممهدا
وأقبل هزاع يجرُّ ذيولـــه على الأرض تيها راكبا فوق أجردا (٢٧٩)
فقال عسى باصُرَّةٌ في رحالكم فقلت نعم أهلا وسهلا بمن بدا

(٢٧٨) الشطر الثاني من البيت للمتنبي .
(٢٧٩) هزاع : هو شيخ قبيلة حرب في ذلك الزمان .

فقدم لي طرفاً عتيقاً مسوّماً وآلى علينا بالرحيل وأكّدا
فسرنا وأصبحنا السدارة غدوة نُراعي لهزاع الصنيعة واليدا [٢٨٠]

ولكن الفرحة لم تتم فقد جاءهم من يخبرهم أن المدينة محاصرة ويردُّهم من حيث أتوا :

ولم ندر إلا وابن فايز قد أتى وآلى علينا بالرجوع وأكّدا
وقال ارجعوا إن المدينة حوصرت وليست تحوم الطير فيها ولا الحُدا

ولكنهم لم يستمعوا لفايز هذا فتركهم وما يشاءون فساروا :

ورحنا وأصبحنا الفريش وبعده الحسا أقمنا ثَمَّ نرقب مرصدا [٢٨١]
وأقبلت الأعراب من كل جانب ومعهم بخيت شيخهم شاهري المُدا [٢٨٢]
لهم من جريد النخل رمح مُشَطَّبٌ تكسَّر لكن بالسيور تجلَّدا
وشيخهمُ المذكور لابس بردة مشى فوقها الدهر الطويل مقيّدا
على ناقة ترغي وتزبد تحته تقول إذا اقلولى عليها وأقردا
وقبع تموت النار قبل احتراقه من الوضر الباني عليه تُلَبَّدا
وفردة نعل ضمَّها في يمينه وقد لبس الأخرى وثوبا مزَنَّدا
عجاجيل كالأنعام خلْقا وخلقة أضلَّهم الرحمن طُرًّا وما هدى
فقالوا سلام يا رجال وقوِّكُمْ فقلنا سلام للذي اتبع الهدى
وقال بخيت لا تخافوا وأبشروا وقرَّبنا مما نريد وأبعدا

---

(٢٨٠) اسم منزل من منازل الطريق .
(٢٨١) الفريش : قرب المدينة ، والحسا : هي آبار علي قرب العنبرية .
(٢٨٢) المُدَا : السكاكين .

أروح بكم نحو العوالي وتنزلوا ببيتي قريب النخل بيتاً موصَّدا
ونكرمكم باللحم والرز عندنا وجرَّ العبا من صاحبي وتمَدَّدا
ونادى على أصحابه قال أقبلوا وقال عيسى يا سيِّدي عندكم غدا ؟
فقام سويدان إلى القدر مسرعا وحطَّ على الماء الدقيق وصعَّدا
ومال على طست الحمار وأفرغ العصـ ـيدة فيه ثم سَوَّى وأثردا
وقدَّمها فورا وقال تسمَّمُوا عساها عليكم علَّة تحتوي وَدَا
فقالوا أجل لا أخلف الله عنكم وشتَّت هذا الزاد عنكم وبدَّدا
وشمَّر كل منهمُ عن ذراعه وأوْغل في بلع العصيد وأجهدا
وما زال يحشي كل ملعونَ كرشه من الأكل حتى صار طَبْلاً مُشدَّدا
وعاد إلينا الطست وهو مخرَّقٌ بما نال من أظفارهم وتكدَّدا
وقام بخيت يمسح الدُّهْن في العبا ومال إلى ظلِّ البِنا وتبرُّدا
وقال عسى غليون تنباك عندكم عسى قهوة هاتوا وصاح وردَّدا

ولم يكتف بالأكل والكيف فبدأت المساومة :

وراغ على تلك الحمول وجَسّها وأطرق يبغي غفلةً وتلدَّدا
وقال ترى يا مير سَلْمان إنني أخاف عليكم في الطريق من الرَّدَا
ولكن عساني بالدراهم أقتفي رحالا لكم من حرب عونا ومعضدا
فصاح المهيري واشتكى وبكى له وأقسم إيماناً وضجَّ وعربدا
وقال سويدان إليكمو فارهنوا إزاري والعمامـــة والـــرِّدا
وقلت أنا هاكم حذاي وجزمتي ....

ولكنهم أصروا على النقود :

ولم يمشي إلا ما أرادوا وأخرجوا لجينا من الصندوق نضًّا وعسجدا

وحين رأوا عين الدراهم وهْوَهُوا　　وحنَّ حِوار القوم واستحكم الجدا
وشدُّوا على تلك الحمول ووجهوا　　وجوه المطايا وهي تمشي تأوُّدا
وسار بها من لا يسير مشمِّرا　　وغنَّى بها من لا يغنِّي مغرِّدا
ولما بدا وجه الحدائق أشرفوا　　وأبرق من فيها علينا وأرعدا

والأبيات التالية تصور ما كان يحصل بين الأعراب في الطريق أجمل تصوير :

وجاء ابن سمري وابن سلمان مشعل　　وسلمان شبَّ النار فينا وأوقدا
فقمنا جميعا نحو شاربه عسى　　يعلِّقنا فيه فكشَّ وصدَّدا
وجاء بخيت بعد وابن حُوَيْضِرٍ　　ومَبْرَكُ مُنضمِّين في ضمن من عدا
وصالوا علينا بالبنادق كلهم　　وصبيانهم شالوا عِصِيًّا وأعمدا
وجاءَ المهتدي حذْقُه فوق جفنه　　تكدر منها ثم أصبح أرْمَدا
وشُجَّ بمشعاب على أمِّ رأسه　　فكمدها بالنار فورا وضمَّدا
فصاح بخيت عند ذاك عليهم　　وقال لهم وجهي وأرغي وأزبدا
وراح بنا للبيت ثم أضافنا　　بفضلة لحم كان في الحجِّ قدَّدا
وذرَّ على الماء الهبيد ولتَّه　　وودَّك من مُخِّ الجمال وسرهدا
ودشَّ لنا سمحاً وقال تسمَّحوا　　ومن كان يختار الهبيد تهبَّدا
وأولغ في الماعون مَعنا ولتَّه　　وثم تجشَّا في الأنا وتحمَّدا
ومال بباقي العظم في شق بيته　　ومشمش يوماً كاملاً ثم ألبدا
وقمنا على ذاك المقام ثمانيا　　نكابد أهوالا وهمًّا مسهدا
وقد حلَّقوا حول البلاد وطنَّبوا　　ولم تر إلا مُحرقا أو مُهدِّدا
وآخر مقتولا وإلا مهشَّما　　على الطرق مطروحا ونخلا مُجدَّدا
ولكنَّما الخذلان بادٍ عليهمو　　ونرجوه أن يبقي دواما مؤبَّدا

والأبيات التالية تصور اقتتال الأعراب مع بعضهم البعض :

وصال بنوا ردَّاد يوما على بني عليٍّ فأدمى البعض بعضا وجوَّدا
وصرَّع ما بين الفريقين تسعة وغُلِّبَ ردَّادُ اللعين وشرَّدا
وأجزر يوم السيح أصحاب طيبة ثمانية منهم فكانوا لهم فدا

فتشاءم الأعراب من وجود هؤلاء الزوار بينهم :

وراحوا بنا مستشئمين وأجمعوا على أمرهم أن يخرجونا ونطردا
فساروا بنا صبحا إلى نحو طيبة نؤم بها خير الأنام محمدا
وقدامنا منهم كلاب وخلفنا تحوم وتبغي نهبة وتصيـدا
ولما وصلنا بعد طول مشقة تشوه منا حالنـا وتحرمـدا (٢٨٣)

ونكتفي بهذا القدر فقد طال الاقتباس من هذه القصيدة العجيبة التي تصور حالة الأمن في طريق الحج والزيارة أصدق تصوير ، وتصفه أبدع وصف في أسلوب هو السهل الممتع ، وفي تفصيل دقيق ينقل إلى القارئ صور الأحداث والأشخاص وكأنها من تصاوير الأفلام السينمائية .

وهكذا نرى السيد جعفر البيتي يطالعنا بهذه الصور بعد مائتين وخمسين عاما ، فينقل إلينا أحداث التاريخ مصورة أجمل تصوير .

ونكتفي بهذا القدر من الشعر السياسي – إذا صح هذا الوصف – لننتقل إلى فنون أخرى من شعر البيتي .

كتب شخص يدعى يحيى البدين كتابا إلى السيد جعفر البيتي يطالبه فيه بسداد دين له على أبيه فأجابه البيتي بالقصيدة التالية :

---

(٢٨٣) ديوان البيتي : ص ٥١ ، ٥٢ .

يا زمان الهوى وعهد التصابي إنما أنت من شجون الشباب
ووقوع المشيب في الرأس واشٍ في خلال الحُباب والأحباب
فسقى الجزع والكثيب وبانَ المنحنى والعقيق ساري السحاب
ورعى الله معهدا راجعتنا فيها أيامَ زينب والربَّاب
ودواعي الوصال وافرة الأسباب إذ ذاك بالحسان الكعاب
من لِطاف الخُصور فُلج الثنايا أعْيُنُ العين فتنة الألباب
غانيات الجمال كاملة الأوصاف في الحسن واضعات النقاب
حبذا هُنَّ من مهاً وغصون تتثنّى في عبقري الثياب
بين بانِ النقاوما ضَمِن البان بسفح النقا ونُزْل العباب
لا خلا سِرْبُها وحيَّاه منا صيِّبُ الريح دائمُ التسكاب
تتوالى عهاده ويغاديه نسيم الصبا بتلك الرحاب
ما بعثنا السلام يهدي إلى حضرة يحيى البدين عالي الجناب
الأعز الأجل عندي قديم العهد وُدًّا خلاصة الأصحاب
من أتانا منه على وفق ظن الصدق وُدٌّ ينصُّه في كتاب
زاعماً بالولاء منه ولا بأس من ولاء أمرٍ مشاب
ياله من ولاء صدقٍ منوطٍ بادِّعاءٍ في غاية الاضطراب
يقتضي الوفاء في دين مال برئت منه ذمتي في الطلاب
وهو في ذمة الذي قد توفى وقديماً قدْ آذنت بخراب
فبأي الوجوه يا أيها الشيخ تقاضيني بغير الصواب
أبمال رأيته فاضَ عندي من تُراثِ أدركتُ أم باكتساب
كون أن الشريف يصبح بالمال غنيا أمر عجيب العجاب
فدعاء الكفاف يأبى عليه سعة الارتزاق من كل باب

فلتكن عاذرا إذا أنا أعرضت ولم ألتفت لذاك الخطاب

لم أجد للذي سألت جوابا فرأيت الجواب ترك الجواب

ثم لما كرَّرت في ذاك قولا في كتاب يحوي جزيل العتاب

وتراءى لك الغنى فيَّ حتى قد تلقَّيْتُ ذاك من ميزاب

غير أني رأيته منك بشرى تُرتجى من خزائن الوهَّاب

فأل خير لعله نظر الشيخ إليه هناك في اسطرلاب

وعلى جملة المقال فأرجو ذاك من غير هذه الأسباب (٢٨٤)

والأبيات الأولى في صدر القصيدة تذكرنا بشعر الشريف الرضي في الحجازيات التي كان يبدأها بالوصف الجميل ، الأمر الذي يدل على أن البيتي كان واسع الاطلاع على شعر الشعراء المجيدين قبله ، وكان هذا الاطلاع الواسع من أسباب تمكنه من مقاليد الشعر ، وإجادته في فنونه المختلفة ، ومن أبرز ما يلاحظ في شعر البيتي هذه السهولة التي تبدو في وصفه للحوادث ، وتصويره للمشاعر ، سهولة تدخل إلى الأفهام في يسر وهي في نفس الوقت من السهل الممتع الذي لا يقدر عليه إلا الموهوبون .

ضيق حال البيتي :

أما الجزء الثاني من القصيدة فهو إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن البيتي كان يعاني من ضيق مادي لم يتمكن معه من الوفاء بدين أبيه فلجأ إلى الاعتذار كما رأينا بهذا الأسلوب الشعري الجميل وقد وصف البيتي في كتابه الذي نقلناه آنفا حالته هذه فقال :

---

(٢٨٤) ديوان البيتي : ص ١٥ ، ١٩ .

فقلما تحسن الحال إذا كثر العيال ، أو تتصور الراحة ، إذا صفرت الراحة ، وأخوك قد أساء الزمن إليه وعرض خصلتي الضبع عليه إلى أن يقول :

ما أكسد الأدب الذي ذكرت وأطنبت فيه بما قدرت ، وليست سلسلة النسب من حبائل النشب ، ولا تنسخ الأدب من فخوخ الذهب ويتساءل :

ماذا حصل للخليل ، بالبسيط والطويل ، وهل أفطر على الصعيد من بحر المديد ؟ إلى آخر خطابه الطويل الشعري المسجوع الذي نقلناه آنفا (٢٨٥) .

سعيه لخدمة الملوك ثم زهده في ذلك :

ولقد سعى البيتي بما حباه الله من مواهب الشعر والنثر ليلتحق بخدمة الملوك ثم زهد في ذلك ، جاء في صفحة ٦٢ من الديوان :

أعجب ما في أمري أني كنت أحاول في المدة الماضية التعلق بخدمة الملوك لترميم المعاش ، وستر العالة ، فلما حصَّلتُ ، وإلى البعض وصلْتُ ، زهدت في ذلك ، وبقيت أتطلع لكفاف يوجب العفاف ، مع حسن الجوار في ظل سيد الأبرار ، وما ذلك على الله بعزيز .

ولعل من نتائج هذا المسعى ذهابه إلى ينبع وتولية وظيفة الأمين بها ، والتي وصف أحواله وأحوالها بما نقلناه آنفا .

---

(٢٨٥) ديوان البيتي : ص ٢٠ ، ٢٤ .

شعر الغزل :

للبيتي قصائد قليلة في الغزل مثبتة في ديوانه ، ولكن هذه القصائد أشبه بالمقطوعات إذا قيست بنفَسه الطويل في القصائد الأخرى وخاصة القصائد السياسية التي تصف أحوال البلاد والعباد ، وبقدر ما أجاد البيتي وأطال في الأخرى ، نجد شعره في الغزل لا يرقى إلى مستوى شعره في الفنون الأخرى ، فهو في رأيي شعر تقليدي يخلو من حرارة العاطفة ووهج المشاعر ، بل إننا نجد مطالع وافتتاحيات قصائده الأخرى أجزل ألفاظا وأجمل أسلوبا ، ونحن نثبت هنا بعضا من هذا الشعر :

عالجت قلبي على سلوانكم فأبى ... وطار شوقا إلى لقياكم وصبا
ونص لي عاذلي كل الملاح فما ... مال الفؤاد لهم كلا ولا طربا
يزداد داء جنوني يوم أذكركم ... شوقا وتزداد ناري في الهوى لهبا
مسحورٌ والله فيكم مستهامُ بكم ... سقيمُ مبْتَلى عليَّ الوجد قد غلبا
كونوا كما شئتموا إني وحقكم ... قضيت ديْن التصابي كل ما وجبا
يا رحمتاه لمن تبكي عواذله ... له وعند الأَحِبَّا الجافلين غبا
سقى لنا بالمصلى عهد مجتمع ... ويا رعى الله عصرا معْكُموا ذهبا
أيام أنس ولذَّات ووقت هوى ... وطيب وصل قضيناه وحُسْنُ صِبا
ردُّوا فؤادي الذي قَطَّعْتُموا قطعا ... عليَّ أو فاجعلوا للملتقى سببا
ثلاثة أيام غبتم عن منازلنا ... وإن تزيدوا عليها تسمعون نبا (٢٨٦)

ولعل أجمل مقطوعة غزلية في ديوان البيتي هي :

لا نال جسمك من ضناي ... ولا عناي ولا ولوعي
يا تاركـــي بفراقـــه ... لهفان أكْرع من دموعي

---

(٢٨٦) ديوان البيتي : ص ٨٨ ، ٩٣ والبيت الأخير غير مستقيم الوزن .

سهران مبلى قد يئست   من الكرى ومن الهجوع
يَقْوى عليك السقم من   جسمي بما كنَّت ضلوعي
يا رحمتاه لواله الأكباد   والقـــــلب المروع
متخلِّفـا بعـد الظعائـن   باكيـا بين الربـــوع
يُجرى مديد الدمع في   بحر البسيط وفي السريع (٢٨٧)
وأنا الذي هجت الحمام   على البكا وعلى السُّجوع
متصدع الأكبـــــاد   لولا الثوب أبصرتم صدوعي
وإذا دعا اللاحي فما   أنا بالبصير ولا السميع
أهون بعذل العاذلين إذا   دعـــوا غير المطيـــع
يا ناهبين القلب هلَّا   كان عندكـوا جميعـــي
هذا النـــزاع اليكمـــو   والله من طول النزوع
كانت دروع الصبر تعصمني   فمـــزَّقتم دروعـــــي (٢٨٨)

ونكتفي بهذا القدر من هذه المقطوعة ونختتم هذه النماذج بالأبيات التالية من مقطوعة أخرى :

يا ساكنين البان رقوا   للشجى المضني المشوق
إن الليالي بعـدكم جا   ءت تغصصني بريقـي
متلفتا نحو الحمى لا بالأسـ   ـير ولا الطليـــــق
أهوى الشقيق لأجلكم وأحـ   ـنُّ للـروض الأنيـــق
يا راشقي بِرناه يا طعَّـ   ـان بالقدِّ الرشيـــق

---

(٢٨٧) المديد والبسيط والسريع هي من أوزان الشعر .
(٢٨٨) ديوان البيتي : ص ٨٩ ، ٩٣ .

وفِّرْ على رمقي وحنَّ على معنَّاك الرميـــق
غرقان في بحر الهوى بالله خذ بيد الغريـــق
بارت بضائع لوعتـي فيكم متى تَحْتَظُّ سُوقــي (٢٨٩)

وإذا كان لنا من تعليق على شعر البيتي الغزلي فإنه شعر تقليدي عادي لا يرقى إلى مستوى شعره السياسي الذي يتألق فيه ويتجلَّى فلا تملك نفسك معه من الإعجاب والتأثير .

وصف ديك :

للبيتي قصيدة طريفة في وصف ديك تصلح أن تكون أُنموذجا لشعره الوصفي ، كما أنه تعمد فيها تنويع القافية مع الالتزام في كل مقطوعة بالقافية في شطري البيت نثبتها فيما يلي مع المقدمة التي وردت في الديوان عنها يقول البيتي :

كان لنا صاحب من مشايخ عسكر الشريف المرتَّبين ببندر الينبع ، وكان حسين بن ناصر ريِّس بعض المراكب أخذ منه ديكاً عزيزاً عنده ووعده بعوضٍ عنه ، ثم سافر ولم يعوِّضْه ، فتأثَّر من ذلك وغضب وحزن حيث مكر به ، وبلغني الخبر وأنا إذ ذاك بالمدينة ، فكتبت إليه على سبيل المباسطة واسمه الشيخ مسعود بن صبح :

نهدي السلام وجزيل الأدعية مع التحيات وفرض الأثنية
ووافرات من صنوف التسلية للشيخ مسعود رثا وتعزية
مما جرى لديكه العشاري

---

(٢٨٩) ديوان البيتي : ص ٩٤ .

أبيض يا قوتي العيون أفْرَق   مثل الحمام صادِحٌ مُطَوَّق
يعرف عرف الفجر قبل يطرق   يَشُمْ بأنفـه ويـنشق
ويعرف الأوقات في النهار

له اطلاع بدقيقات الفلك   وسير كل كوكب أنَّى سلك
ما قطُّ خَلَّى واجباً ولا ترك   يصطاد أوقات الزمان في شرك
حرصاً على خدمة أهل الدار

أبلق من أبناء ديك العرش   يسعى على هام بنات نعش
تحسده الغز إذا ما يمشي   وألف غرش فوق ألف غرش
قليلة في الريش والمنقار

أكرم به من أبلج المحيا   ظامي التوالي والصدور ريَّا
كأنما في رِجْلِـه الثُّريـا   كأنما في عينـه الحُمَيَّـا
فإنه بالتيه في خُمَّار

له انتهى التحرير والحساب   ودانت الحُسَّاب والكُتَّـاب
كأنه في ضبطه الميكاب   كأنه في وزنه اسطـرلاب
كأنه جهينة الأخبار

كأنـه في صوتـه مزمـار   كأنما في لحنـه أوتـار
كأنَّ ذاك العُرْف جُلَّنارُ   أو وردة أو أنَّـه بَهَـارُ (٢٩٠)
أو الشقيق راق للأبصار

إذا تغنَّى بالجناح يضرب   يمدُّه طوراً وطوراً يَجْذُب
فيصدع القلب هوى ويُطْرِبُ   فهو فقيه شاعر ومُعْـرِب
وصدره سفينة الأشعار

---

(٢٩٠) البهار في اللغة الأردية هو الورد .

ويلٌ لأمٍّ ابن عطا ما فعل   غدوة راح الديك عنه ورَحَلْ
قد كان أقراه الأذان والعمل   وصَنعة الألحان سيكا ورمل [٢٩١]
وقبله قد كان كالجدار

ويل لمن في ينبع يؤذِّن   من بعده من ذا تراه يُحْسِن ؟
ويلٌ على الجيران إن لم يحزنوا   يحقُّ أن تبكي عليه الأعين
وتصبح الأكباد في انفطار

بكى له القلب ولوعاً وانتحب   واستعرت نار الهموم والكُرَبْ
واحرباً لو كان أغناني الحرب   فلا سقيت الغيث يا ريِّسْ حَطَبْ
ودمت طول الدهر في بوار

أخذت ديكاً ما تساوي نعله   ولا توازي ظفره ورجله
ولا رأيت في الطيور مثله   بل أنت أعمى بعده وقبله
تخوض في بحر الضلال الجاري

يا قدم الشوم ويا شوم القدم   ويا محالٌ في الوجود يا عدم
يا نهبة البُوم ويا صَيْد الرَّخَم   يا مسكن القِرْدانِ يا بيت الحَلَم
يا مربض الدب وغار الفار

يا خرجة السكان من مدخله   يا خرقة المركب من أسفله
....   يا قصفة تحوي على دَقَّلِه
يا ورطة الغريق في التيار

كم من صنوف حيل أحكمتها   ومن حبال خدعة برمتها
كم من دجاج بعده أيْمتهَا   وكم من فراخ عندنا يَتَّمْتَهَا
طارت من الحزن عن الأوكار

---

(٢٩١) السيكا والرمل : نوعان من الألحان .

يا ابن صبيح لا عداك الأجر اصبر فيما يصبر إلا الحُرُّ
قد شقَّ والله عليَّ الأَمْرُ في وسط قلبي لا عج وجمر
ولا البكا أراه يطفي ناري
فسايِرَ الدهر وكن قلاوي وأحرص على وظيفة الحِدَّاوى
فإنها من أحسن التداوى واحذر ولا يخدعك كل حاوى
أتقن فن الدَّك والأسحار
كيف وأنت قدوة العساكر وشيخهم في الجمع والمحاضر
يميل بك كيد حُسَيْنَ ناصر ويخطف الديك ولم تبادر
له بماضي سيفك التبار
حكاية ما مثلها حكاية ولا سمعنا قبلها رواية
قرا عليك رقية وآية وأطلق البخور في القراية
واستخرج الديك من الوجار
أين العصا كانت وأين البندقةْ أين غدا الشنكال اين الدرقة
وأين جات العدة المعلقة ....
يسير بالديك ولست داري
والله ما في الديك قط من عَوَرْ كمثل ما قالوا عليه واشتهر
ولم يكن أدرك نوحا في الكبر لكن حسين قد تعاطى فعقر
تبًّا له من ماكر غدَّار
لو أنه قبلك كان ديكي ما كنت أهديه إلى الملوك
فضلا عن الفقير والصعلوك ولا رضيت فيه باللكوك (٢٩٢)
ولا سمعت سومة التجار

(٢٩٢) اللكوك : كلمة هندية معناها الألوف واحدها لك .

ولو غدا يؤخذ مني غصباً لكنت شَبَّتُ عليه حربا
أهُزَّ رمحاً وأسُلَّ عُضْبـاً في كل يوم غارة ونهبا
وأركب البُلْقَ لأخذ الثار
أجرُّ روماً وأجـرُّ تُرْكا وأحبك الجيش عليهم حبكا
خيلاً مع البر وبحراً فُلْكا حتى ترى الأرض عليهم ضنكا
وتشرق السماء بالغبار
يا ليتك استفزعت بالمدينة كيما تجيك السُّرْبَةُ المتينة
ويدحضون الزربة اللعينة ويجعلون الكلب في القطينة
في الحبس في القِّلَّةِ في الصَّغَار
ففي البلاد عندنا عساكر وفي البلاد عندنا قنابر(٢٩٣)
وكل شيء في البلاد حاضر اشيا واشيا ما لهنَّ آخر
من فضل ربي الواحد القهار
ليتك لو شاورتني قبل العمل لكنه قد سبق السيف العذل
فقل له حقك هذا يا بطل علَّقَنَا في شنكل من الحيَلْ
الحكم لله العزيز الباري
وقد أردت أن أجيك منجداً مجرداً بكل مهر أجردا
نقيم يوماً في العداة أسودا ونفتدي الديك بمهما يفتدى
بالسيف والدرهم والدينار
لكن كفانا الله من قتاله وجاءت البدو إلى نزاله
وقطَّعو المركب مع حباله وأحدث الرِّيس في سرواله
ومزقوا الكرَّان بالشِّفار

---

(٢٩٣) القنابر : هي القنابل .

وكل هذا من عقوبات الدعا لما نال سفح الضلوع جزعا
حاق عليه مكره ووقعا وليس يُجْزَى المرء إلا ما سعى
هذا وفي الأخرى عذاب النار

وكل شيء قد تقضّى ومضى ولا نسيت الديك حيَّاه الرضى
من بعده ما قط جفني غمضا وكلما مَوْهِنُ برقٍ ومضا
بكيته في وهنة الأسحار

أسأل عنه آيباً وذاهباً وأنشد الشمال والجنايبا
وأسأل الركبان والركائبا أقول من يعرف منكم غائبا
طارت به أجنحة الأسفار

ديك أخٍ كان له يسلي يدفع عنه همه ويجلي
يقرن بالواجب ندب النفل مؤذّنٌ مرجِّعٌ مُصَلِّي
مصدَّرٌ في صحف الأبرار

روى لنا عنه مزايا جمّة وقال ديكي ذاك كان أُمَّهْ
قد أوعيت إليه كل حكمة فاق على النحل عطا وقسمه
ويحفظ الصحيح والبخارى

فهل رأيتم في الزمان قبلي فتى أصيب في الديوك مثلي
راح مُجَلِّي الحَلْبَةِ المُصَلِّي وهكذا يدرج أهل الفضل
ويذهب الزمان بالأخيار

من بعده صار العشا في المغرب والشمس قد عادت كمثل الكوكب
وشوشت أوضاع كل الرتب أعجب ويا لِلَّهِ كل العجب
تحيرت في سيرها الدراري

وما قطعنا الياس منه مرَّة لأننا نرجو الزمان كَرَّهْ

تكون منه للعيون قرة وتبدل الأحزان بالمسرة
وتنجلي سحابة الأكدار (٢٩٤)

والقصيدة كما يراها القارئ طويلة ، ولكن البيتي تفنن فيها وأبدع أيما إبداع ، وهي بنفسها الطويل وتعدد القافية فيها وبالموسيقية التي يختتم بها كل مقطع من مقاطعها تعبر أحسن تعبير عن تمكن الشاعر من ناصبة اللغة ، وتذليلها لما يريد في أسلوب سهل جميل ، وهي إلى جانب دقة الوصف وجماله يمكن تصنيفها في شعر الفكاهة التي تدخل إلى القلوب في يُسْرٍ فتشيع البهجة في نفس القارئ والسامع بما حوته من الفكاهة والسحر في قالب فني بديع .

شعر الرثاء :

نظم البيتي قصائد كثيرة في الرثاء نختار منها هذه القصيدة التي رثى بها الشريف حمود بن عبد الله بن عمرو الذي توفى بالمدينة وكتب بها إلى أخيه أبي طالب بن عبد الله بن عمرو وهي :

نعم إن سرح الصبر جافٍ وحافلُ وهيهات إن الدمع كاف وكافل
هو الحزن حُزْنا منه حظًّا وأنه على قدر ما تدعو المصيبة نازل
صروفاً من الأيام ، ذَوداً من الأسا تساق إلينا والقلوب مناهل
قضى ما قضى من طبعه الدهر إنه على جمعه الضدين عادٍ وعادل
وإنا لأغراضٌ نُصِبْنَ على الشَّفا ودهرك والأقدار سهم ونابل
فكيف سها عن سيبويه بأننا أسامٍ وأن الحادثات عوامل

---

(٢٩٤) ديوان البيتي : ص ١٠٢ ، ١٠٩ .

خذوا من لسان الدمع شاهد لوعتي فكل بليغ بعد دمعي باقل
ولم يبكني إلا السوابغ والظُّبا وسُمْرُ القنا فيما أرى والجحافل
لَقًى في جفير السِّلْم صوناً من القذا ويا طالما التفَّتْ عليها القساطل
وللعود والجرد العتاق سوائما تلوك شكيم الغيظ وهي هوامل
ومن كرم الأخلاق كيف سَنامُها يبات هزيلاً والرياح ذوابل
وفرقد مجد في سماء رياسة بدا وهو مع بُرْجِ الشرافة آفل
وإن عقود المكرمات تساقطت وأضحت وجيد الدهر منهن عاطل
على هالِك شَقَّت عليه جفونها عيون المعالي فهي أيِّم ثاكل
فيا لمصاب في لؤي بن غالب بنوا عمرو فيهمْ واحدٌ وهو شامل
فليت المنايا كالرجال إذا التقت يذب الفتى عن نفسه ويناضل
إذن لم يمت صبراً ولا حتف أنفه ولم تتكشَّفْ من حمود المقاتل
وأسْرف في أثر الجريرة مسرف وأذَّن للثارات حق وباطل
فدى لك مني يا حمود من الردى رقاب القنا والصافنات الصواهل
فدى لك لو أجْدَى الفِدا لتحملت عليه شعوبٌ جَمَةٌ وقبائل
وكل نفيس بعد ذاك دخرته ونفسي إن أجدت فإني باذل
وكم لك من طُلَّاب وِتْرِ مهلهل لو الخصم جَسَّاسٌ وإنك وائل
ولكنَّ ما في الجهد غير الذي ترى نصيري دمعي والتَّصَبُّر خاذل
سلام على أرض البقيع التي انطوت عليك وشقتها الغيوث الهواطل
من المرسلات الرائحات عَشِيَّةٌ منائح ضرع المزن فيهنّ حافل
وليًّا على الوسميِّ أنْوا تتابعت إذا شحَّ منها وابل سَحَّ وابل
رحلت ومن حرصي على العود أنني أؤمل في نفسي بأنك قافل
تقدمت في الركب المغذِّين للبِلا ولكن باقي السفر بعدك راحل

فقابلك الرحمن منه برحمة … وعفو وغفران ونعم المقابل
أبا طالب لا فاتك الصبر إنه … جميل به تنسى الأسى بل تجامل
وكيف سلوٌّ من حزين إذا بدا … له ذاك يوماً ذكَّرته المنازل
وما جزعٌ عند الحليم بنافع … ولا تحت حمل الهم والحزن طائل
لعمرك إنَّا في المصاب لواحد … جميعاً وإن الحزن للكل حاصل
وإن كان صبري ناقصاً وتجلُّدي … فدمعي بإيضاح التلهف كامل
وما حال عهد الود عما عهدته … بَلَى وأَبي لكنَّ جسمي حائل
فلا تبْغ من سجع البلابل في الدُّجى … معيناً فعندي في الفؤاد بلابل
وطائر شجوي بالمراثي مترجم … تطارحه وُرْق الرُّبا وتساجل
على القرب أمليك الجوى وإذا نأت … بك الدار يوما فالدموع رسائل
تَعَزَّ ويكفيك العزاء بمن خلا … وراك ويشفيك القرون الأوائل
ومهما تشا فاطلب من الأرض شاهدا … فصيحا فكم فيها مجيب وقائل
إلى الله شأنٌ في الضمير سترته … أروح وأغدوا وهو جاء وجائل
فهمنا عن الأيام سرَّ فعالها … وشتان دارٍ بالأمور وجاهل
تصرِّف من تهوى وتَصْرِف من تشا … وما بين ما تعطي وتأخذ فاصل
خذ الحُكْم من حظ اللئيم فإنه … يفيدك إن الدهر هازٍ وهازل
وإلا فللدنيا مُعَلًّى وناقصٌ … قسيمٌ وللأخرى سفيح وفاضل
صرفنا عنان الاعتراض لأننا … علمنا بأن الله للكل فاعل
فدونك من خدن القريض ظعائنا … يروقك معنى حسنها والشمائل
ملاهي ينسين المصاب وإنها … وأعجب ما فيها إليه وسائل
ودمنا لا عدمنا في سلامتك البقا … تُسَرُّ بك الدنيا وتُزْهَى المحافل
مدى الدهر ما أنشا وأنشد قائل … نعم إن سرح الصبر جاف وجافل

يقول البيتي عن هذه القصيدة :

وقد أنشدت هذه المرثية زين العابدين بن الشيخ سعيد المنوفي فاستحسنها ، ثم قال : ليتني كنت الميت وإني رثيت بها ثم مات بعد أيام في سنة ١١٥١ هـ (٢٩٥) يقول البيتي فرثيته والقصيدة من عيون شعر البيتي وقد استوقفني فيها هذه الأبيات :

فليت المنايا كالرجال إذا التقت | يذب الفتى عن نفسه ويناضل
إذاً لم يمت صبرا ولا حتف أنفه | ولم تتكشف من حمود المقاتل
وأسرف في أثر الجريرة مسرف | وأذَّن للثارات حق وباطل

يتمنى الشاعر أن تكون المنايا كالرجال ، يقابلها المرء وجها لوجه ، فيدافع عن نفسه ، ويذب عن روحه ، لو كان الأمر كذلك لما مات حمود في فراشه حتف أنفه دون أن يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولما تكشفت مقاتله للموت يسدد إليها سهامه فيصيبه الإصابة القاتلة ، ومن هذا المعنى نستخلص أن حموداً هذا كان من الشجعان الذين تتجلى شجاعتهم في ميادين القتال ، وهم يقاتلون الأبطال ، ويصاولون الرجال ، والمعنى طريف وجديد ، ولا أدري إن كان البيتي قد سُبق إليه من فحول الشعراء قبله ، أم لم يسبق ، ولكنه معنى طريف أجاد البيتي صياغته في هذا الأسلوب البديع .

أما القصيدة التى رثى بها البيتي الشيخ زين العابدين الذي أوردنا خبر استحسانه لمرثية البيتي للشريف حمود فهي لا تقل شأواً عن رثائه

---

(٢٩٥) ديوان البيتي : ص ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ .

للشريف حمود ومطلعها :

دعي عنك هذا الدمع يهمي ويهمل ... ولا تذكري السلوى ولا الصبر أجمل [(٢٩٦)]
ولا تندبيني للتأسي ولا العزا ... فمن ذوب عزمي في التصبر أغزل

ومنها :

متى أتَرَقَّى بالنباهة في الورى ... وحظي غبيٌّ والزمان مُعقِّل
أرى زهر الآداب صوَّح نبتُه ... وكان على عهدي به وهو مخضل
أرى مورد اللذات من كل جانب ... تكدَّر حتى ليس في الأرض منهل
سلام على الدنيا تحية زاهد ... لما ناله منها وما يتحصَّل

ومنها وهو معنى جميل يصف صديقه المرثي فيقول :

على من ثوى بطن المعالي صيانةً ... عن الترب قبراً أو يواريه جندل
على هادم ركنَ المكارم فقدُه ... وكان قديماً وهو للمجد معقل

ويصف بلاغة الميت وفصاحته فيقول :

على خاطب قُسٌّ إليه بناته ... من الفكر ولهانا بها يتغزل
على من على سحبان يسحب ذيله ... بأحسن ما بنشي وما يترسَّل [(٢٩٧)]

ويصف سداد رأيه وحكمته التي تخرج عليها ملوك الأولين والآخرين :

---

(٢٩٦) في الديوان : السلوان ، وهو خطأ صحته السلوى وإلا لما استقام وزن البيت .

(٢٩٧) هو قيس بن ساعدة الأيادي ، خطيب العرب المشهور ، وسحبان بن وائل من بلغاء العرب .

على مبدع رأياً سديداً وحكمة تخرج سابورٌ عليها وهِرقل [(٢٩٨)]
قعيدة أبناء الملوك موفق أقر له المهديُّ والمتوكل [(٢٩٩)]

ومن الغريب أن هؤلاء الملوك جميعا قد تقدم بهم الزمان عن زمان زين العابدين الذي يرثيه البيتي ، ولكن أعذب الشعر أكذبه كما يقولون .
ثم يفخر بشعره فيقول مخاطب أهل المتوفي :

عليَّ لكم في حلبة الشعر سابق أخب به يوم الرهان وأرمل
عليَّ لكم أن تَسْتَمِلُّوا قوافيا يساجلني فيها حبيب وجرول [(٣٠٠)]
عليَّ لكم روض من النظم زاهر زهير على أبياته يتطفل [(٣٠١)]

والقصيدة كذلك من عيون شعر البيتي وإن اشتملت على المبالغات الكثيرة التي أوردنا طرفاً منها ، ونكتفي بما أوردناه عن شعر الرثاء للبيتي ، لنقرأ معاً نماذج من شعره في فن آخر .

سخرية البيتي :

يتميز البيتي بسخرية لاذعة في شعره ونثره المسجوع ، وقد كتب إلى عبد الرحمن بن مصطفى السيوري الجداوي الذي مرَّ بمدينة ينبع ،

---

(٢٩٨) سابور ذو الأكتاف من قواد الفرس وحكمائهم ، وهِرَقْل هو قيصر الروم .

(٢٩٩) المهدي والمتوكل من الخلفاء العباسيين .

(٣٠٠) حبيب بن أوس الطائي : هو الشاعر أبو تمام ، وجرول : هو الحطيئة الشاعر .

(٣٠١) زهير بن أبي سلمى من شعراء المعلقات . ديوان البيتي : ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ .

وكان قد أرسله الشريف مسعود بن سعيد ملك مكة المشرفة ، فوعد البيتي بإرسال هدية إليه ثم مطل ، وأخذ يجدد الوعد مع كل آت إلى ينبع ، فكتب إليه البيتي كتاباً طويلاً خلط فيه الشعر بالنثر كعادته في رسائله ، نقتطف منه ما يلي :

أهدي مزيد سلامٍ ألذُّ من الوصال ، في طيف الخيال ، وأحلى من الإقبال بالآمال ، وأحبُّ من الإتحاف بالإسعاف ، وأعذب من الورود ، على حياض الوعود ، وأعشقُ إلى الطالب من حصول المطالب ، وأكرم من الغمام بإهداء السلام ، أريجاً يَكُمُّه الزهر في أكمامه ، ويلمُّه الجيد في نظامه ، ويجعله الرحيق من ختامه ، ويسهب البيتي كعادته في وصف السيوري هذا فيسبغ عليه من الأوصاف الكثيرة ما تعودناه في رسائله وشعره إلى أن يقول :

وبعد فالشوق إنْ تسألْ فإنَّ له ... شواهداً وسؤالي عنك أصدقها
وإنَّ في البعد ما ينسى الأخُوَّة ... والتسآل عنك بلا شك يحققها
فكيف أنت وكيف الحال ، دمت على ... ما كنت أعهد من نعماً وتُرْزَقُها
سوى المودة فيما بيننا فلقد ... رأيت منك يدُ السلوى تمزِّقُها
وذاك مع طول عهد بالإخاء مضى ... عمر الصداقة حتى شاب مفرقها

ثم يقول البيتي وهنا تبدأ السخرية العجيبة :

جاءني بشير المواعيد ، على بريد ، فملت إلى النفس أبشرها ، وعلى الفرش أنشرها ، وإلى الزلاع أنظفها ، وعلى القفاع أصفِّفها ، واشتغلت باللحية أسرِّحُها ، وأهل الحارة أفرِّحها ، ثم ذكرت وصول الحبوب في الغبش ، فعبيت الخِيَشْ ، وقلت ربما يصل التمر في العصر ، فأخليت

القصر ، ويا ترى تلك البضاعة ، تسعها القاعة ، أم لابد من توسعة الضيق ، لتلك الصناديق ، وكيف نُعيِّن الزبون ، لافتراض العربون ، وتسليم الجمَّال ، إذا وصلت تلك الرسالة ، ثم أنشدت وأنا أدور ، بين الدور :

ألا بشرى لجيراني مع الأصحاب والأهْل
فقد جاد لنا المولى محل الجود والفضل
فلابُدَّ لأصحابي من الإنعام والبذل
لهم مني مدى الأيام فضـ ـل الزاد والأكل
وكلٌّ يكتسي مني على الهيئة والشكل
من الفروة للجوخة للعِمَّة للنَّعْل
وأيضا خِلْعَةٌ أعطي من الرأس إلى الرِّجْل
إلى السَّرْج إلى الرَّحْل إلى القتب إلى الخَلِّ
فسجل يا غلام الخير خيراتي على الكل
ونادى الأهل والجيران وابعث نحوهم رُسْلِي
وخاطبهم إذا اجتمعوا بدقِّ الزير والطبل
وقل هذي مضايفنا وهذي قِدرنا. يغلي
من اللحم إلى الرُّزِّ إلى السمن إلى البَقْل
وأنواع من الغليِّ والمَشْوِيِّ والمقلي
وأجناس من الزير بـ ـاج بالمشمش والخلِّ
ولا تخرج أضيافي إلى الشمس من الظل
وأما النقد فالحاضر عامود وفندقلي
ومن يطلب زنجرناه إن شاء بزنجرلي

فدعني ألبس التاج بهذا المجلس الحفل
وإن كنت تنحنحت إنًا يا عبـ ـد نَعٍّـم لي
تراني مقصد الحاجات ما بعـدي ولا قبلي
تراني أقتل الأقران يوم الحرب مَنْ مثلي ؟
وإن كنت تريد الحرب هذا الخيـل يا خلي
فقل ما شئت في قولـ ـي وقل ما شئت من فعلي
وإن كنت توضَّأت علـ ـى قصد الثنا صلـيٍّ
وصف جودي وصف عودي وصف سيفي وصف نصلي
فهـذا الجيش ملآن من الأعـداء كالنمل
وهـذا الخير مطـروح على الطرقات والسُّبُّـل
بصيتـي سارت الـرَّكْبُ من الوعر إلى السهـل
هنِّـي اليـوم بالأمـوال قد أصبـحت درهملي

ثم أخذت الإبريق ، وملت على الطريق ، واستكت واغتسلت ، وتوضأت واكتحلت ، وتنحنحت وسعلت ، وخرجت ودخلت ثم ملت إلى الصندوق ، ولَفِّيتُ القاووق ، ولبست الزربفت ، من فوق التَّفت ، وجلست على تخت التيمور .

ويستمر البيتي في هذا الخيال الساحر فيقول :

ثم خلعت على العتالين ، وقدَّمت أجرة المخزِّنين ، سبع سنين ، ثم كررت إلى المحبرة ، وطالعت الورقة بالنظرة فإذا السكر المكرر قد تسطَّر ، وإذا البز المخزوم ، ولطايف الملبوس والمشموم ، وتأملت في هامش الكتاب فإذا جراب وفيه الوعد بكل نفيس ، وفي ضمن الجميع

كيس ، وفيه المنّة بمفاتيح قارون ، ومقاليد القُلَل والحصون ، والوعد بطلسم الأهرام ، وكتاب العهد على اليمن والشام ، ولم أجد العهد على الصين ، ولا فارس وقزوين ، وأرض الدروب وفلسطين فحصل لي العجب العجاب ، وقمت إلى الجراب ، بعد إغلاق الباب ، وقد أذكيت المصباح وفتَّشْتُ إلى الصباح وإذا كتابان ، وقد كتبا بالزعفران ، وضُمِّخا بالعبير ، ولُفَّا في حرير ، وفي الأول ملك خراسان ، وتقليد الشحر وعُمان إلى إقليم السودان ، وما وراء النهر وعبادان ، وإليه جزيرة العرب ، وغوطة دمشق وحلب ، ولم يزل يُنْعم ويَهَب ، ويجيءُ بالعجب ، وفي ذيل المنشور ، وتمام السطور ، تفضَّل بالأقاليم ، وأنعم بتاج العز والتكريم :

ثم رتبت دفترا للعطايا ... وقسمت البلدان بين الأخِلا
قلت ذاك الصديق أعطيه صَنْعا ... في بني حمير الكرام الأجِلا
وعلى فارس صديقٌ وأرض الروم ... ثانٍ والهند أُوليه خِلّا
حاصل الأمر أن كل محبٍّ ... لي على قدر حظه يتولَّى
وأنا في السحاب بيتي وتحتي ... كل يوم إلى السما يتعلَّى
واقترضنا في الحال ألفين دينارا ... نقضي بها هنالك شغلا
واشترينا خمسين عبداً خصينا ... منهموا نصف ذاك إلا أَقَلَّا
واستعرنا لهم ثلاثين قاووقا ... على رأسهم وللرِّجْلِ نعلا
ثم ناديتهم وقلت هلموا ... فادخلوا هذه الطوالة قبلا
كل شخص منكم حمار يُنَقِّى ... ثم شيخ العبيد يركب بغلا
وخذوا ذا السلاح سيفاً ورمحاً ... ودروعا تسمو وقوساً ونبلا
واعرضوا نَفْسَكُم عليَّ فإني ... أشتهي العبد في السلاح المحلّا
واقعدوا عند بابنا ثم قولوا ... يوم تأتي الحمول أهلا وسهلا

ثم إني أفكرت إنْ أصبح الخير علينـا ماذا نقـدم فعـلا
قلت حط القماش والبز في المجلـ ـس واجعل باقي التفاريق سفلا
هذه صُفَّةٌ نحطّ عليها المسك أم هذه بذلك أولى
هذه للزبـار تحمـل قرنـ ـا هذه يا فلان تأكل رطلا [٣٠٢]

ثم يتساءل البيتي بعد كل هذا :

يا ترى تحمل المخازن عشرا من هدايا فضل السيوريِّ أم لا ؟

ثم يضرب المندل الذي يستحضر به الجان ليخبروه عن هذه الهدايا التي يحملها السيوري إليه ، ولا يكتفي بذلك فيضرب ما يراه في الرمل ، وما ينبئه به المندل مستنبئاً [٣٠٣] .

وبعد أن يصف ما يراه في الرمل ، وما ينبئه به المندل يخاطب السيوري قائلاً :

يا ذا الذي وعد المعروف ثم مضى لذاك عمر الأماني والزمان فني
ومَنْ على مذهب الحسبان ملَّكَنا كنوز قارون من مصر إلى عدن
إن كان عندك محض الجود تحسبه أصلاً من الجود أو فرعاً من المنن
فعد بحنطة بولاق واتبعها مع ساحل البنِّ غابات من التُّتُن
وافرض بأنك قد قلّدتني عملا بالهند أجبي صنوف الخَزِّ والقُطُن
وولِّني ساحل البحرين أجلبه بسوق سعدك بازاراً بلا ثمن

---

(٣٠٢) الزَّبار : عطر يمني قديم .
(٣٠٣) المندل والرمل هما من الأعمال السحرية التي يلجأ إليها المنجمون والمشعوذون ، وهي ليست من الدين بل ينهى عنها الإسلام .

وخذ بإيوان كسرى والخورنق　　والقصر المشيد وملك الشام واليمن
واعقد لي التاج زعماً منك واجعلني　　على طوائف ذي القرنين في المدن
وقل وهبتك ما في الأرض نِعَمٍ　　باللحم والجلد والأصواف واللبن
ولا تكن خشية الإنفاق مقتصراً　　ما دام كنزك من وعدٍ وبتٌّ غني

ثم يقول :

لله وعدك مذ عامين أنشدني　　أنا المعيدي فاسمع بي ولا ترني
خذ من علومي ولا تركن إلى عملي　　ولا يغرُّكُ مني خُضْرَةُ الدَّمَن
فقلت أُجْرِيَ عند الله أطلبه　　حولين يا وَعْدُ تسقيني وتطعمني
من العجائب أبديت الشجاعة في　　وعدي وعدت أكلت الخبز بالجُبُن
مبالغات من الأقوال نسمعها　　لو كُنَّ في البحر ريحاً طرن بالسفن
يا ذا الذي جاد في الأحلام لي كرماً　　يهنيك إني قد استغنيت من أذني
فلا تكن تقطع التسويف عني في　　كتاب ودّك لي في لفظك الحسن
حتى أفوز بملك الأرض منك ولا　　أرضى بأني في غمدانَ ذو يزن
وخذ ثوابك وعدًا مثل وعدك لي　　هذا بذاك ولا عتب على الزمن (٣٠٤)

والمتأمل في سخرية البيتي يرى أنها تقدم معرضاً من الصور ترسمها ريشة فنان بارع ، وتوشيها خيالات شاعر مبدع يبدأ بتهيئة نفسه لاستقبال الهدية التي بُشِّر بها فقام يهيئ نفسه لذلك بإعداد الأماكن التي ستنزل بها حمول الهدايا ، وتنظيف المواعين التي ستوضع فيها ثم قام يبشر جيرانه بما سينالهم من هذا الخير القادم عليهم ، فتخلع عليهم الكساوى الكاملة من الفروة للجوخة للعِمَّة للنَّعْلِ .

---

(٣٠٤) ديوان البيتي : ص ٣٩ - ٤٧ .

وكما يبشر الجيران والأهل بالكساوي والخلع فهو يبشرهم بالضيافة التي تتكون من :

اللحـــم إلى الـــرز إلى السمن إلى البقل

ولا يكتفى بذلك فهناك العطايا من النقود :

وأما النقـد فالحاضر عامـــودي وفنـــدقلي
ومن يطـلب زنجرنـاه إن شاء بزنجرلي

ولعل خبيرا في النقود والمسكوكات يلقي الضوء على النقد العامودي ، والفندقلي ، والزنجرلي الذي جاء في البيتين ، وبعد العطايا والهبات يستعد البيتي للجلوس في هذا المجلس الحافل الذي تتغنى الركبان بجود صاحبه وشجاعته ، ثم يلبس البيتي أجمل ما لديه من لباس استعداداً لاستقبال الهدايا القادمة ، وينظر بعين الخيال فإذا السكر المكرر قد تسطر ، وإذا البز المخزوم ، ولطايف الملبوس والمشموم .

ويمعن البيتي في خيالاته بل وفي سخريته اللاذعة فيتصور أنه تلقى كتاباً بالولاية على اليمن والشام (ولم أجد العهد على الصين ولا فارس وقزوين وأرض الدروب وفلسطين) فعجب أن تسلخ هذه البلاد من ولايته فيبحث في الجراب فيجد ماذا ؟

« وإذا كتابان ، قد كتبا بالزعفران ، وضُمِّخا بالعبير ولفَّاتِ الحرير ، وفي الأول ملك خراسان ، وتقليد الشِّحر وعُمان » (إلى إقليم السودان ، وما وراء النهر وعبادان ، وإليه جزيرة العرب ، وغوطة دمشق وحلب) .

وبعد أن يطمئن الشاعر إلى أن حكم هذه الدنيا العريضة قد أصبح إليه ، أخذ يقسّم الولايات بين أصدقائه وذويه :

قلت ذاك الصديق أعطيه صنعاً   في بني حميْرٍ الكرام الأجِلّا
وعلى فارس صديقٌ وَأَرْضُ الروم ثانِ   والهنـــد أُولِيــــه خلا
حاصل الأمر أن كل محب   لي على حظــه يتــولى

وبما أن هذه الولاية العظيمة تقتضي ما يصلح لها من الخدم والأعوان فقد اقترض البيتي ألفي دينار :

واشترينا خمسين عبداً خصينا   منهمو نصف ذاك إلا أقلا
واستعرنا لهم ثلاثين قاووقا   على رأسهم وللرجل نعلا

ثم اشترى لهم الدواب :

كل شخص منكم حمار ينقي   ثم شيخ العبيد يركب بغلا
وخذوا ذا السلاح سيفاً ورمحاً   ودروعا تسمو وقوساً ونبلا

ثم قال للعبيد :

واعرضوا نفسكم عليَّ فإني   أشتهي العبد في السلاح المُحَلَّا
واقعدوا عند بابنا ثم قولوا   يوم تأتي الحمول أهلا وسهلا

وبعد أن يمهد الشاعر لاستقبال الهدايا بكل هذه الصور الرائعة ، ثم تبطئ في وصولها يلجأ إلى ضرب الرمل والمندل وصنوف الشعوذة ، يتنبأ بها عن الهدايا التي أبطأ وصولها ، ثم يتبيَّن في نهاية الأمر أنه كان يعيش منذ عامين في أحلام الوعود الكاذبة فيشبه حال السيوري بحال المعيدي :

لله وعدك مذ عامين أنشدني أنا المغيديُّ فاسمع بي ولا ترني
خذ من علومي ولا تركن إلى عملي ولا يغرَّك مني خضرة الدِّمن

والواقع أن هذه المهزلة التي ضمنها البيتي سخريته اللاذعة من السيوري تصلح بما حوته من مناظر مختلفة ، وصور رائعة أن تصاغ في رواية هزلية تمثل على مسرح من المسارح ، فقد جمعت كلما يحتاج إليه فن التمثيل من صور وخيالات وحوار ، وهي قبل كل شيء ، وبعده شاهد عظيم على إبداع البيتي وما يتصف به شعره وأدبه من فنون الإبداع في أداء بارع وخيال جميل .

فنون أخرى :

عالج البيتي فنون الشعر بأنواعها المختلفة فنظم في الحكمة ، ووصف مجالس اللهو والمجون ، ونظم في الطب ووصفات الدواء ، ومدح وهجا ، وكان شاعر المدينة وكاتبها في عصره ونحن نورد هنا نماذج من هذه الفنون نختارها بصورة عفوية لتكتمل للقارئ صورة البيتي في هذه الفنون :

شعر الحكمة :

لا تستخفَّ بشيء في الورى أبدا فالمرء يقتُله ما يستخف به
ولا تفرِّط ولا تُفْرِطْ وخذ وسطاً تنجو بنور الهدى من ظلمة الشُّبَه

وقال :

تحرك لحفظ الشيء عندك مرة فإن أنت لم تفعل تحركت أربعا
ومن تلك قد جرَّبْته فحمَدْتَه فعضَّ عليه بالنواجذ أجمعا

ولا تتحول عن أخ قد عرفته   لآخر ما جرَّبْته تندما معا
وما الناس إلا كالدواء فبعضه   كَفَا وشَفَا والبعض آذى وأَوْجعا
ودار عدواً والصديق كنفعه   فمن لم يدارِ المشط ضَنَّ وقطعا

وقال :

تحفَّظ على أهل الحجى من ذوي التُّقَى   فإن التقى للمتقين ذمام
فمن لم تكن فيه مع الله ذمة   فليس له في العالمين ذمام (٣٠٥)

شعر الهجاء :

للبيتي هجاء مقذع لم يتورَّع فيه عن إلصاق التهم القبيحة بمن يوجه إليهم الهجاء ، وننقل هنا من الديوان بعض الأبيات من قصيدة يهجو بها رجلا أطلق لسانه بالذمِّ في البيتي ومنها :

سمعت عنك حديثاً   لذمِّنا متضمِّن
والكلب ينبح جهراً   وأنت تنبح مكمن

ومنها :

من لي بقطع لسانك   وقلع ضرسك والسِّنْ
وحلق دقنك نَتْفاً   حتى تقرَّ وتَذْعن
والصفع لابُدَّ منه   أعلم بهذا وأيقن

ومنها :

يا رافضي مُتَخَفِّي   وناصبي مُتَبَيِّنْ
تظن أنك تخفي   وأنت جهلك بَيِّنْ

---

(٣٠٥) ديوان البيتي : ص ٥ .

ومنها :

إن قلت دَنَّسْتَ عرضي فليس عرضك صَيِّنْ [٣٠٦]

والقصيدة طويلة ، وقد اخترنا أخف ما فيها :

ويقول من قصيدة أخرى :

يا ذا الذي قد أقام درساً لمثلـــه ليس بالحقيـــق
ويل لوجه عليك صَلْدٍ أشد من جُرَّةِ الطريق
يا قبة الكبر ما رأينا أوقح من وجهك الصفيق
قعدت تروي العلوم جهلا في زي طَبْلٍ وصوتِ بُوقِ

ومنها :

زَلَّ حمار العلـــوم لما جلست يا وحل في الطريق
فاستر على الجهل لا تدلِّسْ وتخلـط الفحـم بالدقيـق [٣٠٧]

ونكتفي بهذين النموذجين من شعر الهجاء عند البيتي .

البيتي يصف شعراء عصره :

ونورد هنا وصفاً للبيتي أثبته في ديوانه لشعراء وأدباء عصره وهو مما يدخل في باب الهجاء ، ونثبته هنا لطرافته ، ولأهميته من الناحية التاريخية :

---

(٣٠٦) ديوان البيتي : ص ٩٤ ، ٩٨ .

(٣٠٧) نفس المصدر : ص ٩٩ .

أدباء هذا الوقت بُلْهٌ في جلود الأذكياء
يتعاظمون نفوسهم وهمُ أدَقُّ من الهباء
لو صُوِّرت أشعارهم ما جئن إلا كالنساء
فعقولهم فصل الخريف وشعرهم فصل الشتاء
جمع الركاكة والبرودة في نسيب كالعزاء
مرضُ المسامع والفؤاد كأنه زمن الوباء
تخشى على الممدوح يقضي فيه من برد الثناء
يا غربة الآداب ضاعت بـ ـين أظهر هؤلاء (٣٠٨)

وتشبيه النسيب بالعزاء في وصف برودة الشعر تشبيه دقيق رغم قسوته ، أما تشبيه هذا الشعر الركيك البارد بالوباء فهو تشبيه جيد ، نستطيع أن نستعيره من البيتي لنطلقه على هذا الهراء الذي تفيض به الصحف والمجلات الأدبية مما يسمونه شعر الحداثة ، وقد خلا من موسيقية الشعر ، كما خلا من جمال المعنى وحسن الأداء فما أشبه الليلة البارحة .

البيتي شاعر المدينة في عصره :

اشتهر البيتي في عصره بإبداعه في الشعر وتبريزه في النثر ، فكان شاعر زمانه في المدينة المنورة يلجأ إليه الكبراء وغيرهم في كتابة الرسائل إلى الملوك والعظماء ، والإخوان والأصدقاء ، وقد أثبت البيتي في ديوانه صوراً لهذه الرسائل التي تجمع غالباً بين الشعر والنثر المسجوع ، وهو أمر يدل على اعتراف أهل المدينة في عصره بإمامته في الشعر والنثر فكان

---

(٣٠٨) ديوان البيتي : ص ١٠٤ .

لسان عصره في المدينة ، وربما في الحجاز ، فقد نعته المترجمون بأنه متنبي الحجاز ، أو كاد أن يكون كالمتنبي (٣٠٩) ، فقد أثبتنا بعض مطولاته التي أرسلت للشريف مسعود ملك مكة المكرمة على لسان أهل المدينة في شأن الفتنة التي وقعت عام ١١٤٨ هـ (٣١٠) . كما أثبتنا القصيدة التي كتب بها على لسان بعض السادة العلويين يصف ما وقع عليهم من الأعراب وهم في طريقهم لزيارة المدينة المنورة (٣١١) والديوان حافل بهذه الرسائل التي يعتبر بعضها إلى جانب البراعة الشعرية وحسن البيان تسجيلا تاريخيًّا لأحوال المدينة السياسية والاجتماعية في عصره ، وقد أسلفنا الحديث عن هذا الأمر ، ولم تقتصر رسائل البيتي على الأحداث السياسية في عصره وإنما كان مقصوداً من الناس لكتابة الرسائل إلى الكبراء في قضاء حاجاتهم ، فهناك قصيدة أثبتها البيتي في ديوانه وقدم لها بما يلي :

وسأل مني أحمد ريحان الجداوي أن أكتب له مكتوباً إلى حضرة المرحوم السيد عبد الله أسعد زاده مفتي المدينة المنورة سابقاً ومضمون ذلك التماس شيء من فواضله (٣١٢) وأمثال هذه الرسائل يحفل بها الديوان كما أسلفنا وقد أبدع البيتي فيها كعادته أيما إبداع .

خلاصة الرأي في أدب البيتي :

نستطيع أن نوجز الرأي في أدب البيتي أنه كان تعبيراً صادقاً

---

(٣٠٩) انظر : المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ١٥٤ .
(٣١٠) ديوان البيتي : ص ٣٧ .
(٣١١) نفس المصدر : ص ٥١ ؛
(٣١٢) نفس المصدر : ص ٨٢ .

وجميلاً عن الحياة في عصره من شتى جوانبها السياسية والاجتماعية ، وأن قارئ الديوان والمتأمل فيه يخرج منه بتصور إن لم يكن كاملاً فهو شبه كامل لأحداث هذا العصر سياسية واجتماعية ، ونستطيع أن نلخص هذه الأحداث السياسية أنها كانت مضطربة أشد اضطراب . فقد وصف البيتي هذه الأحداث حينما عمل بينبع أميناً لمخازن الغلال فقدم لنا صورة عن حالة الأمن المضطرب وتسلط الأعراب من البدو على مدينة ينبع ومحاصرتهم لها في بعض الأحيان ، كما صور أحوال النهب والسلب السائدة في ذلك الزمان ، وإهمال العثمانيين معالجة هذه الأمور بما يجب لها من الحزم والعزم ، كما صور الحياة الاجتماعية في ينبع فوصف الأحوال الصحية وتسلط الحشرات في أسلوب يجمع بين الجد والهزل ولكنه يعطي صورة لما كانت عليه أحوال ينبع الصحية والاجتماعية في ذلك الزمان . أما بالنسبة للمدينة فديوان البيتي يصور لنا المدينة المنورة وهي موزعة ممزقة بين تسلط الأغوات – الخصيان – الذين كانوا يتولون مشيخة الحرام في المدينة المنورة ، والذين كانوا يَسْتَعْدُونَ الأعراب على أهل المدينة . ويتحالفون مع مشايخ قبيلة حرب الذين يهرعون بأتْباعهم من البدو إلى محاصرة المدينة والذين لم يتورعوا عن تحويل المسجد النبوي الشريف إلى ما يشبه الثكنة العسكرية تتكدس فيها الذخائر والأسلحة وتستعمل المنائر لإطلاق النار منها على خصومهم من أهل المدينة ، كما تسجل قصائد البيتي ما بلغه هؤلاء الأعراب من القوة والبأس حينما انتصروا على القوة التي أرسلها الشريف مسعود أمير مكة المكرمة فدحروها في رابغ ، كما تصور لنا قصائد البيتي ورسائله الإهمال الفظيع الذي كانت تلقاه المدينة من الحكام العثمانيين ، والذين تركوا مشايخ الحرم من – الأغوات – الخصيان

يعيثون فساداً فيها ، فلم يقدموا على إصلاح الأوضاع التي عمت الشكوى منها بل كان هؤلاء الأغوات لسابق خدمتهم في بيوت السلاطين يجدون دائماً العون والنصير لباطلهم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى قتل السيد عبد الكريم البرزنجي وإلقاء جثمانه بجوار مسجد الشافعي بجدة حيث سمي المكان الذي ألقي فيه جثمانه – المظلوم – إشارة إلى الظلم العظيم الذي وقع على هذا العالم الجليل .

وفي ديوان البيتي يستشف القارئ ملامح الحياة الاجتماعية في المدينة المنورة ، يرى هذه الملامح في فنون كثيرة من شعر البيتي يحفل بها ديوانه يصف بها مجالس اللهو ، إن لم تكن صادقة كل الصدق لأن فيها من مبالغات الشعراء ، فإن الناقد البصير يستطيع أن يستخرج منها الصورة الأقرب إلى الصدق دون عناء ، وقد عالج البيتي في ديوانه فنوناً كثيرة لا تمت إلى الشعر بصلة مثل وصف الأدوية للأمراض البسيطة التي كانت في مجتمع المدينة ، كما وصف صناعة المربيات وغيرها مما لا يدخل في باب الشعر ، ولكن قدرة البيتي على النظم طوعت له اللغة ليصف كل هذه الأمور ، ومنها يستطيع القارئ المتأمل تصور جوانب طريفة من الحياة الاجتماعية لأهل المدينة في ذلك الزمان .

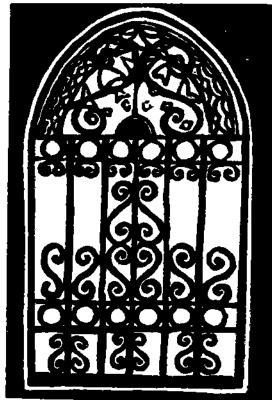
رحم الله السيد جعفر محمد البيتي ، فلقد كان شاعراً عظيماً في زمانه وبعد زمانه فأفدنا من ديوانه بعد مرور أكثر من مائتين وخمسين عاماً هذه الفائدة العظمى التي عرفنا بها أحوال المدن الحجازية في ذلك الزمان السحيق .

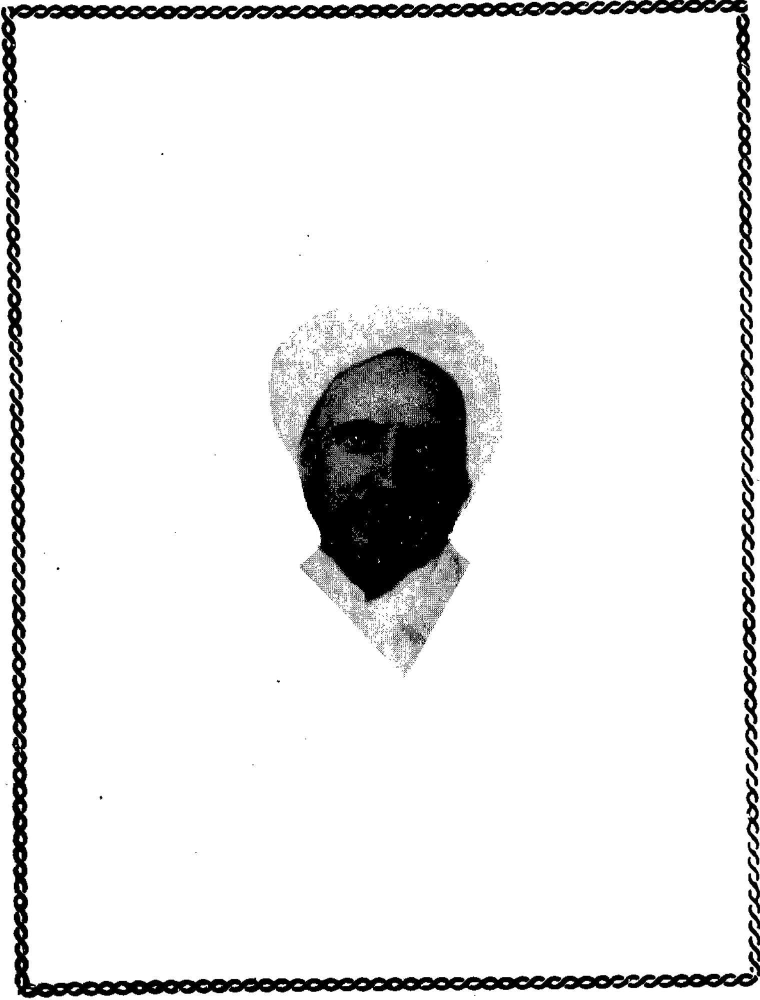
* * *

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية





الشيخ حسن محمد المشاط

الشيخ حسن محمد المشاط

وصفه :

طويل القامة في غير إسراف ، معتدل الجسم ، شديد الاسمرار ، واسع العينين ، أقنى الأنف ، مسبل اللحية والعارضين ، يرتدي الملابس الحجازية البيضاء ، ويشمل هذا البياض الثوب والجبة الواسعة ، ويلفُّ على رأسه عمامة بيضاء لا يحتفل بإتقان لفاتها ، وإنما يكوُّرها في بساطة محببة ، تلمح في وجهه علائم الذكاء والنبل ، وفي سيمائه وحركاته إشارات البساطة والزهد .

مولده ونشأته :

ولد بمكة المكرمة في ٣ شوال سنة ١٣١٧ هـ ، وفي السابعة من عمره التحق بالكتَّاب لقراءة القرآن وتجويده وتعلم مبادئ الكتابة والإملاء والحساب ، فقرأ القرآن الكريم وجوَّده على الشيخ محمد السنَّاري والشيخ عبد الله حمدوه السنَّاري وتعلم الخط وحسَّنه والإملاء والحساب على السيد علي حسن الليثي - رحمهم الله تعالى - [٣١٣] ، والتحق بالمدرسة الصولتية بمكة في عام ١٣٢٩ هـ التي أسسها الشيخ العثماني - رحمه الله - بمكة في سنة ١٢٩٢ هـ [٣١٤] وحصل على شهادة منها

---

(٣١٣) إمتاع أولى النظر ببعض أعيان القرن الرابع عشر الهجري للشيخ محمد ياسين الفاداني المكي : ص ٥٨ .

(٣١٤) انظر : ما كتبناه عن الشيخ رحمة الله العثماني والمدرسة الصولتية في الجزء الثاني من أعلام الحجاز .

في غرة محرم سنة ١٣٣٦ هـ ، وطلبت إليه إدارة المدرسة الانضمام إلى هيئة التدريس بها فأصبح من مدرسيها [٣١٥] ، ولم يكتف الشاب حسن المشاط بما تعلَّمه في المدرسة الصولتية ، ولكنه كان يترقب العلماء الوافدين إلى مكة المكرمة فيأخذ عنهم ، طيلة إقامتهم في البلد الحرام . يقول عن نفسه :

قدم العلامة الشيخ حمدان بن سيدي حمد الجزائري الونيسي القسنطيني مكة المشرفة حاجا عام ١٣٣٧ هـ ، وتشرفت بالاجتماع به وقرأت عليه من أول مختصر خليل بمكة وبمنى أيام الحج وبعد النزول ، ومكث بها إلى نهاية ذي الحجة ومحرم الحرام ، وانتفعت منه الشيء الكثير [٣١٦] .

وهذا الحرص من طالب العلم إن دلَّ على شيء فإنما يدل على الرغبة الشديدة في الطلب ، فهو يواصل الطلب حتى في أيام التشريق بمنى ، لا يصرفه عن ذلك ما يصرف غيره من انشغال بأداء المناسك ، وإنما هو يضع هَمَّه كله في تحقيق الغاية التي يسعى إليها فيذلل الصعاب ، ويتحمل المشاق ليبلغ ما يريد .

ويروي قصة تلقيه العلم من عالم آخر هو الشيخ محمد عبد الله زيدان الذي توطن المدينة ثم غادرها خلال الحرب العالمية الأولى

---

(٣١٥) كتاب « الجواهر الثمينة » للشيخ حسن المشاط ، ترجمة المؤلف بقلم الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان محقق الكتاب : ص ١٩ .

(٣١٦) « الجواهر الثمينة » نقلا عن مذكرات الشيخ حسن المشاط : ص ٢١ .

عام ١٣٣٣ هـ فسافر إلى الشام والأردن ثم رجع إلى مكة عام ١٣٣٤ هـ فيقول :

اجتمعت به ، وتشرفت ولازمته أكثر من غيري ، لأنه كان يبتعد عن الناس ، ويركن إلى الخلوة ، وكنت فارغا ليس لي شغل إلا العلم ، فكنت آتيه داره في الصباح إلى قرب الزوال ، وكنت أستعمل معه شيئا من السياسة فأغيب اليوم واليومين لئلا يشعر أني اتخذت هذا عادة ، بل كان في بعض الأوقات لا يأذن لي بالدخول فأرجع ، ثم أعود وأزعجه في كثرة التردد ، فإني إذا لم أظفر صباحا لا أتركه مساءاً ، حتى قال لي يوما وهو على فراشه طريحا ، أو قلت له كيف حالك يا سيدي ؟ قال لي : لا روح فيَّ ، يقول الشيخ حسن المشاط :

وكنت شابًّا لا أفهم معنى ذلك – غفر الله لي – إنما همتي وغايتي العلم ، فآخذ بيده وأقيمه ليجلس ، وأسلم عليه وأباسطه – والله يغفر لي – (٣١٧) .

وهذه القصة وأمثالها تذكرنا بما كان يتحمله طلبة العلم من مشايخهم ، فقد كان طلبة العلم يقفون على باب الإمام مالك بن أنس وهو في العقيق خارج المدينة فيأذن لهم أو يمنعهم ، وهكذا كان حسن المشاط طالب العلم يتحمل الصدَّ من شيخه عبد الله زيدان ، فإن منعه الدخول في الصباح عاد إليه في المساء ، وإن كان مريضاً طريحاً أقعده

---

(٣١٧) كتاب « الجواهر الثمينة » نقلا عن مذكرات الشيخ حسن المشاط ، بتحقيق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : ص ٢١ .

وأقامه وباسطه وروَّح عنه حتى يتلقى عنه ، وهذا الإلحاح في الطلب ، والجدُّ فيه يدل على أن نفس الشاب حسن المشاط وقد أشربت حب العلم ، فاندفع بكليته يسلك السبيل الذي يوصله لتحقيق الغاية التي يسعى إليها ، والتي وضعها نصب عينيه .

وقد تلقى العلم على الشيخ عبد الرحمن دهان والشيخ عيسى رواس من علماء مكة المكرمة ، وكما اتصلت أسبابه بأسباب الشيخين حمدان الونيسى ومحمد عبد الله زيدان فقد اتصلت أسبابه كذلك بالسيد محمد عبد الحي الكتابي ، وهو من أكبر علماء الحديث في زمانه ، وكذلك بالشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي والشيخ عمر حمدان المحروسي والشيخ محمد الخضر بن مايابي الجكني وتلقَّى عليهم وأخذ إجازاتهم ، حتى استوى مدرِّسا له حلقة بالمسجد الحرام (٣١٨) وكان يحرص على التدريس في هذه الحلقة أكثر من حرصه على أي شيء آخر ، لا تشغله عن ذلك المشاغل الخاصة أو العامة ، وكان لا ينقطع عن التدريس في المسجد الحرام في أيام المواسم التي يشتد فيها الزحام ولم يكن ينقاضى على التدريس في المسجد الحرام أيَّ راتب أو مكافأة مصرًّا على أن يكون عمله هذا حسبة لوجه الله تعالى .

وهذا الذي نقلناه عن مذكرات الشيخ حسن المشاط مما كتبه صديقنا العالم المحقق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان يذكرني بقصة أخبرني بها الشيخ محمد المشاط والد الشيخ حسن المشاط قال لي :

---

(٣١٨) كتاب « الجواهر الثمينة » وانظر : الترجمة الوافية لمحقق الكتاب الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : ص ٢٦ ، ٢٧ .

حينما كان ابني حسن وهو بكر أولادي جنينا في بطن أمه نذرته للحرم ، كان الشيخ محمد المشاط يدعو الله تعالى أن يكون الجنين ولدا ذكرا يربيه ويعلمه حتى ينشأ عالما يقف حياته على خدمة الحرم ، ولقد استجاب الله دعوة هذا الرجل الطيب فاستقبل ميلاد ابنه البكر وهو ملئ القلب بالشكر لله تعالى أن حقق الله رجاءه وأجاب دعاءه فنشأ ابنه حسنا على حب العلم فكانت حياته كلها ما بين متعلم ومعلِّم ، وكانت صلته بالمسجد الحرام عميقة وشديدة ، ففي رحاب المسجد الحرام تلقي العلم ، وفي هذه الرحاب المطهرة المقدسة عقدت له حلقة التدريس فتخرج على يديه الكثير من الرجال الذين أصبحت لهم حلقات للتدريس في المسجد الحرام ، والذين قام بعضهم بتأسيس المدارس لا في مكة المكرمة وحدها وإنما في أندونيسيا وماليزيا ، وقد أورد الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان تراجم مختصرة لتلاميذ الشيخ حسن مشاط منها ما يعطي صورة مصغرة عن هذا العمل الطيب الذي باركه الله تعالى فكان كالنبتة الطيبة تغرس في الأرض فتؤتي أكلها بإذن الله تعالى ثماراً جنيَّة شهية يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان :

من الصعب جدا حصر الطلاب الذين تلقوا العلم على يد فضيلة الشيخ المشاط فقد تخرج بفضيلته أعداد كبيرة تسنَّموا مناصب علمية كبيرة في الجزيرة العربية والأقطار الإسلامية فمن هؤلاء بالحرمين الشريفين :

العلامة الفقيه السيد محسن بن السيد علي المساوى المدرس بالمدرسة الصوليتية ، ومؤسس دار العلوم الدينية بمكة المكرمة عام ١٣٥٣ هـ .

الشيخ محمد عبد الكريم السنَّاري مدير المعهد العلمي للمعلمين بالمدينة المنورة ، ووكيل مدير التعليم بالمدينة المنورة سابقا والمتوفي بها عام ١٤٠٥ هـ .

ومنهم الشيخ زكريا بن عبد الله بيلا المدرس بالمسجد الحرام وعضو إدارة الحرم المكي وصاحب التآليف الدينية ، وكذلك الشيخ علي بكر سليمان الكنوي المدرس بالحرم المكي وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى والمتوفي عام ١٣٩٩ هـ .

والشيخ ياسين بن عيسى الفاداني المكي المدرس بالمسجد الحرام ومدير مدرسة دار العلوم الدينية والشيخ عبد الله أحمد دردوم من كبار علماء الحرمين الشريفين ، والشيخ الشريف طاهر بن محمد المغربي الإدريسي .

والشيخ عثمان بن محمد سعيد تنكل المدرس بالمدرسة الصولتية .. ومقرئ مكة الشهير الشيخ زين عبد الله باويان . وقد أورد الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان تراجم مختصرة لكل هؤلاء السادة الأفاضل عدَّد فيها مؤلفاتهم ، ومآثرهم فليرجع إليها من شاء الاستزادة [٣١٩] .

وقد كان للشيخ حسن مشاط تلاميذه من آل المبارك في الأحساء ، وقد عَدَّد الدكتور إبراهيم أبو سليمان أسماءهم كما ذكر أسماء آخر المتخرجين على يدي فضيلته ، منهم : الدكتور السيد محمد علوي مالكي ، والدكتور عبد الوهاب أبو سليمان نفسه وكثيرون لا يتسع المقام

---

(٣١٩) « الجواهر الثمينة » للشيخ حسن المشاط ، بتحقيق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : ص ٣٦ - ٤٠ .

لذكرهم جميعا ، فليس المراد في هذه الترجمة الاستقصاء وإنما المراد هو التمثيل للتدليل .

ولكنَّ أعظم ما استوقف نظري وأثار اهتمامي ما ذكره الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان جزاه الله خيراً عن تلاميذ الشيخ في أندونسيا وماليزيا ونجتزئ منه ما يلي :

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان :

يأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الفاضل المجاهد الذي وهب نفسه وحياته لنشر الدعوة الإسلامية الشيخ محمد زين الدين الأنمفتاني مؤسس نهضة الوطن وفروعها وصاحب المؤلفات البديعة يقول الشيخ زين الدين عن تأسيس هذه المدارس :

بعد أن منَّ الله تعالى لإتمام الدروس والدراسة بالمدرسة الصوليتية ذات الاحترام عام ١٣٥٢ هـ رجعنا إلى أرض الوطن أندونسيا سنة ١٣٥٤ هـ بإذْنٍ من الشيخ الإمام حسن محمد المشاط ، وكان دائما كعادته الحسنة يبسط يد الإرشاد والتوجيه بالمثابرة على نشر العلم ، وبثِّ محاسن الأخلاق والدين بين الأخوة الإيمانية والإنسانية فبحسن توجيهاته أسَّسْنا أول وأقدم مدرسة دينية بجزيرتنا : أنفتان لومبوك : نوساتنغار الغربية ، من جزائر أندونسيا سميناها بمدرسة نهضة الوطن الدينية الإسلامية سنة ١٣٥٦ هـ الموافقة لسنة ١٩٣٧ هـ ، وفي عام ١٣٦٢ هـ تأسست مدرسة نهضة البنات الدينية الإسلامية ، ومن المدرستين تفرعت مدارس جمعية نهضة الوطن ، فهما كآدم وحواء بجزيرتنا وما حولها ، والآن فروعها أربعمائة مدرسة ما بين دينية وابتدائية ، وثانوية وعالية ومعلمين ومعلمات ، وكليات ومعاهد دار القرآن والحديث .

يقول الشيخ محمد زين : ونحن على يقين من أن هذا الإنتشار الهائل السريع كله – بفضل الله تعالى – ثم ببركة ترادف دعوات شيخنا وإمامنا وحسن إرشاداته وجميل توجيهاته .

وأريد أن أقف مع القارئ قليلا لنتأمل نتائج هذا العمل الطيب الذي وضعت بذرته الأولى في رحاب البيت الحرام ، ثم انتقلت إلى غرب أندونسيا بعيدا عن مكة المكرمة آلاف الأميال لتُغْرس في أرضها الطيبة أربعمائة مدرسة تعكف على تعليم أبناء وبنات المسلمين في تلك الديار فتحتضنهم من الابتدائية إلى الكليات والمعاهد العالية المتخصصة ، وهذا العمل الطيب ليس الأول من نوعه ، فإن صلة البلاد الإسلامية وخاصة بلاد الشرق الإسلامي بمكة المكرمة ، وعلمائها قديمة ، ولقد أنشئت المدرسة الصوليتية بمكة لتعليم أبناء مسلمي الهند فيها فإذا أتموا تعليمهم عادوا إلى بلادهم لينشروا فيها العلم ، ويقاوموا فيها التبشير المسيحي الذي يهدد أبناء المسلمين وبناتهم (٣٢٠) أما بالنسبة لبلاد أندونسيا وماليزيا فإن الأندونسيين يرسلون أبناءهم لتلقي العلم فيها على يد علماء مكة المكرمة ، كما كنا نرسل أبناءنا إلى مصر ولبنان في الماضي ، وكما نرسلهم إلى أمريكا وأوربا في الوقت الحاضر لتلقي العلم هناك ، كان الأندونسيون يرسلون أبناءهم لتلقي العلم على يد العلماء في المسجد الحرام ، وكان هؤلاء العلماء يرعون هؤلاء التلاميذ الرعاية الأبوية الكاملة ، ولا تزال بعض الأسر المكية تقوم بهذا العمل الطيب لرعاية الطلبة الأندونسيين

---

(٣٢٠) انظر : ترجمة الشيخ محمد رحمة الله العثماني مؤسس المدرسة الصوليتية بمكة من أعلام الحجاز (ج ٢) : ص ٢٨٦ – ٣١٣ .

وتعليمهم ، وتَفَقُّد شئونهم حتى يُتمُّوا تعليمهم ، مثل أسرة اليماني ، والمالكي وغيرهم من علماء مكة المكرمة ، وبعضهم يخصص لهم الأماكن في منازلهم للمعيشة فيها ويتولون السهر على شئونهم جزاهم الله خير الجزاء ، ولقد قام الشيخ أحمد حسن المشاط نجل الشيخ حسن المشاط بما كان يقوم به والده الكريم من رعاية لهؤلاء التلاميذ واهتمام بشئونهم جزاه الله خير الجزاء .

ومما أذكره في هذا الصدد أن سائقاً أندونسيا كان يعمل عندي في منزلي بجدة وكان هذا قبل أكثر من ثلث قرن ، وكنت مسرورا من عمله فقد كان يجمع بين الأمانة والنشاط وهؤلاء الأندونسيون مشهورون بالأمانة والنظافة ، انقطع هذا السائق عن العمل فجأة دون إنذار ، وكنت في عجب من أمر انقطاعه فلم يحدث مِنَّا ولا منه ما يوجب هذا الانقطاع ، وطال انقطاعه أياما ثم علمت أن أباه حضر من أندونسيا حينما علم أنه انقطع عن الدراسة في مكة وانتقل للعمل في مدينة جدة ، كان هذا الأب قد أرسل ابنه إلى مكة لتلقي العلم في المسجد الحرام والعودة إلى أندونسيا للاشتغال بالعلم والتعليم ولكن هذا الابن لسبب أو لآخر آثر العمل على العلم ، وما أن علم الأب بذلك حتى حضر إلى الحجاز ليعيد ابنه إلى جادة الصواب ، وكان هذا الابن خائفا من بطش والده به أشدَّ الخوف كما علمت .

وقد أورد الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان أسماء أعلام الرجال الذين تلقوا العلم على يد الشيخ حسن المشاط كما وردت في الرسالة الخاصة التي تلقاها من الشيخ محمد زين الدين عبد الحميد الانفتاني والتي يقول فيها :

أما الآخذون منه والمنتسبون إليه فكثير جدًّا لا نحصيهم كثرةً منهم :

الشيخ عبد الحليم مدير المدارس المصطفوية بتفانولي – سومطرا – وفضيلة الشيخ زين العابدين زعيم جمعية نهضة العلماء ، وعميد الجامعة الحكومية سابقاً بفلمبان سومطرا ، وفضيلة الشيخ عثمان مقام الآشي بالشئون الدينية ، وفضيلة المرحوم الشيخ عدنان لوبيس أحد أركان الجمعية الوصلية بميدان ، وفضيلة الشيخ عبد الرحمن زعيم نهضة العلماء بميدان ، وفضيلة الشيخ محمود مؤسس جمعية الاتحاد بميدان .. ونكتفي بما ذكرنا للتدليل على انتشار تلاميذ الشيخ المشاط في أندونسيا وتأسيسهم المدارس وتبوئهم المراكز الدينية العالية ، ومن أراد الاستقصاء فليرجع إلى الترجمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان للشيخ المشاط [٣٢١] فليس الغرض هنا الاستقصاء وإنما التدليل والتمثيل كما أسلفنا والله الموفق .

وظائفه :

عمل الشيخ حسن المشاط بالتعليم في المدرسة الصولتية بعد تخرجه منها كما أسلفنا ، واحتفظ بعمله مدرسا فيها لمدة ثلاثين عاما ، ولم يمنعه عمله بالمحاكم الشرعية من مواصلة عمله في التدريس فيه وفي المسجد الحرام ، ولم يكن الشيخ حسن المشاط راغباً في الوظائف الحكومية وإنما كانت همته متجهة إلى نشر العلم ولكنه فوجئ بصدور

---

(٣٢١) « الجواهر الثمينة » للشيخ حسن المشاط : ص ٣٦ – ٤٤ .

الأمر الملكي بتعيينه عضوا في هيئة التمييز التي تشكلت عام ١٣٦١ هـ برئاسة الشيخ محمد بن مانع وصدر الأمر بحل هيئة التمييز بعد ثلاث سنوات من تشكيلها ، وشرعت الحكومة في تعيين أعضاء هذه الهيئة في الوظائف الحكومية الأخرى ، ورأى الشيخ حسن المشاط أن الفرصة قد حانت للتخلص من الوظائف الحكومية فحزم أمره وسافر إلى السودان ومصر وسوريا ولبنان وطرابلس ثم عاد إلى مصر مرة أخرى ليعود منها إلى مكة المكرمة .

ولكن الوظائف الحكومية التي كان يهرب منها ، لم تكن لتهرب منه فعين في عام ١٣٦٥ هـ وكيلا لرئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة والتي كان يرأسها السيد زكي البرزنجي ، وبقي في هذا العمل عامين ، ثم عين عضوا رسميا في المحكمة الشرعية بمكة ، وكل هذه الوظائف لم تمنعه من مواصلة التدريس في المدرسة الصولتية ، يقول الشيخ حسن المشاط :

ولم يمنعني ذلك من مواصلة التدريس بالصولتية صباحا أيام الصيف ، وبعد الظهر إذا خرجت من الوظيفة أيام الشتاء .

وفي عام ١٣٧٢ هـ صدر أمر جلالة الملك سعود بتعيينه عضوا في مجلس الشورى ، فكان سروره عظيما إذ ظن في ذلك الخلاص من وظائف القضاء ، ولكن الفرحة لم تتم فقد طالب الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيس القضاة بعودته إلى القضاء لأن المجال القضائي في حاجة إلى خبراته ، كتب سماحة الشيخ رئيس القضاة بذلك إلى ولي الأمر فصدر الأمر بإعادته إلى القضاء فعيِّن على غير رغبة منه معاونا لرئيس المحكمة الشرعية الكبرى .

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان :

كان الشيخ حسن المشاط - رحمه الله - يحلم بالتخلص من القضاء ، وتحت الحاحه الشديدة جاءت الموافقة على طلب استقالته منه في العاشر من شهر شوال عام ١٣٧٥ هـ فسعد بها ، وانقطع للعلم وطلابه ، وقد عبَّر عن مشاعره في التخلص من القضاء بقوله : وكان يوم قبول استقالتي من العمل الحكومي الذي حمدت الله عليه أسعد يوم طلعت عليه الشمس [٣٢٢] .

أقول : إن كره الشيخ حسن المشاط لوظائف القضاء ليس غريبا على من كان في مثل طباعه ، فقد وهب نفسه للعلم والتعليم ، ولقد سبق الشيخ المشاط إلى العزوف عن المناصب وعن وظائف القضاء خاصة الكثير من أئمة الفقهاء فقد عرض الخليفة هارون الرشيد على الإمام الشافعي القضاء في أيِّ مكان يريد ، أو الولاية لأيِّ قطر يختار ، ولكن الشافعي استأذن الرشيد في أن يتفرغ للعلم ، وأن يعود إلى مكة ليعيش بين أهله من قريش ولنشر ما تعلَّمه بين الناس فأذن له الرشيد [٣٢٣] .

وعرض الخليفة المنصور على فقيه مصر الإمام الليث بن سعد ولاية مصر فاعتذر قائلا :

يا أمير المؤمنين إني اضْعَف من ذلك ، إني رجل من الموالي ، وأدرك المنصور زهده في المناصب فقال ما بك من ضعف معي ،

---

(٣٢٢) « الجواهر الثمينة » للشيخ حسن المشاط : ص ٤٧ .
(٣٢٣) « أئمة الفقه التسعة » لعبد الرحمن الشرقاوي : ص ١٤٥ .

ولكن ضعفت نيّتك في العمل عن ذلك لي ، ثم أردف لقد أعجبتني ، أكثر الله في الرعية من أمثالك [٣٢٤] .

أما الإمام أبو حنيفة فقد لقى العذاب لإصراره على رفض منصب القضاء ، عرض عليه الأمويون منصب القاضي فرفضه فسجنوه ، وعذَّبوه في السجن ، وعرض عليه العباسيون منصب قاضي القضاة ، فأبى وتمسَّك بالتفرغ للعلم ، قالوا له : إنه قد حصل من العلم ما يجعله في غنى فردَّ عليهم قائلا : من ظن أنه يستغني عن العلم فليبك على نفسه [٣٢٥] .

وسأل أحد الخلفاء العباسيين أبا حنيفة عن أسباب رفضه لولاية القضاء أو أن يكون مفتيا للدولة ، يرجع إليه القضاء فيما يصعب عليهم القضاء فيه فقال أبو حنيفة يجيب الخليفة : والله ما أنا بمأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ، ولو اتجه الحكم عليك ثم هدَّدتني أن تغرقني في الفرات أو الحكم عليك لاخترت أن أغرق ، ثم قال أبو حنيفة ثم إن تلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك .

وأمر الخليفة بحبسه وبضربه بالسياط حتى يقبل منصب قاضي قضاة بغداد ولكنه أصرَّ على الرفض فسجن وعُذِّب وضرب بالسياط ولكنه أصر على رفض المنصب وأخرج من السجن وهو يعاني سكرات الموت ، فلم يستطع الجلوس بعدها للناس [٣٢٦] .

---

(٣٢٤) « أئمة الفقه التسعة » لعبد الرحمن الشرقاوي : ص ١٠٨ .
(٣٢٥) نفس المصدر : ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٣٢٦) نفس المصدر : ص ٧٠ ، ٧١ .

والحديث في هذا الباب طويل ، والذي أريد أن أخلص إليه أن الشيخ حسن المشاط حينما يرغب عن مناصب القضاء ، إنما كان يقتدي بأئمة الفقهاء من قبله .

حكم قضائي عجيب :

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : كان له – الشيخ حسن المشاط – في القضاء مواقف واجتهادات ولعل أبرزها حكمه في القضية رقم ٣٢٨ عام ١٣٦٨ هـ بالمحكمة الشرعية الكبرى بمكة وخلاصة هذه القضية كما أوردها الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان كما يلي :

طلَّق رجل زوجته وهي حامل منه باعترافه ، وكان يؤدي لها نفقة الحمل حتى أتَّمت سنةً من حملها ولم تلد فارتاب الزوج في انغشاش الحمل وقطع عنها النفقة ، وكانت المرأة متأكّدة من أن جنينها في بطنها فردَّت كل من تقدم للزواج منها ، وبعد خمس سنين وتسعة أشهر وضعت الزوجة ولداً ، فأنكره الزوج ، وأقام الدعوى ضد زوجته السابقة ، وكان القاضي الذي ينظر في هذه القضية هو الشيخ حسن المشاط ، فأصدر حكمه بإثبات نسب الولد إلى الزوج ، ولكن الزوج لم يقتنع بالحكم فاعترض عليه ورفع شكواه إلى جلالة الملك عبد العزيز – رحمه الله – فأمر جلالته بتأليف لجنة من العلماء برئاسة الشيخ محمد بن مانع للنظر في هذه القضية ، وكان غالب أعضاء هذه اللجنة يخالفونه الرأي وكان هو مقتنعاً بصحة حكمه ومصرًّا عليه ، ورفع الأمر إلى جلالة الملك عبد العزيز فأحال القضية إلى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية في ذلك الزمان لدراستها وإبداء الرأي الفصل فيها .

وقد أيَّد مفتي الديار السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم رأي القاضي الشيخ حسن المشاط في ثبوت نسب الولد إلى أبيه ، وقد أثبت الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان حيثيات الحكم التي وردت من مفتي الديار السعودية ونوجزها هنا فيما يلي :

إن مسألة مدة الحمل هي موضوع اختلاف بين العلماء ولم يحصل إجماع على تحديد مدة معينة لأدنى الحمْل وأقصاه ، وقد ثبت أن مدة الحمل لدى بعض النساء سنتان وبعضها أربع سنوات ، كما ثبت وجود حالات حمل استمرت ثلاث سنين وخمس سنين وسبع سنين ، وقد احتج كثيرٌ من العلماء في تلك القضايا بالحالات التي ثبتت لدى العلماء في زمانها وعلى هذا فلا يجوز تحديد مدة الحمل بأجل معين ، والأصح هو عدم التحديد لأن المرأة التي تتجاوز مدة الحمل الطبيعي وهو تسع شهور إلى عامين مثلا أو إلى ثلاث يجوز أن يركد الجنين في بطنها إلى أكثر من ذلك ، ويقول سماحة مفتي الديار السعودية في ختام حكمه :

ولم نجد في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله ﷺ لتحديد أكثر مدة الحمل بأربع سنين حجة بل الكتاب والسنة يشهدان بنقيض ذلك ، فإنهما قد أُطْلِقا ولم يحدِّدا أكثر مدة الحمل فمن حدَّد أكثر مدته فقد قصد إلى تقييد ما أطلقه الله تعالى ورسوله ﷺ بغير حجة شرعية تصلح لتقييد ذلك المطلق .

ونكتفي بما اجتزأناه من حيثيات الحكم في هذه القضية العجيبة ، خشية الإطالة والإملال ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إليها مفصلة

في كتاب « الجواهر الثمينة » [٣٢٧] بتحقيق الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان .

وهكذا نرى الشيخ حسن المشاط يصرُّ على رأي تبيَّن له صوابه فيصدر حكمه فيه مستنداً إلى الأدلة الشرعية فيعيد للمرأة المطلقة الصابرة كرامتها ، ويثبت نسب الولد إلى أبيه المنكر لبنوته .

مؤلفات الشيخ حسن المشاط :

أورد الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان ثبتاً بأسماء مؤلفات الشيخ حسن المشاط وعرَّف كل كتاب من مؤلفاته تعريفاً وافياً ونحن نثبت أسماء هذه المؤلفات مع تعريف موجز عنها :

(١) كتاب « الجواهر الثمينة في أدلة عالم المدينة في علم أصول الفقه » وهو أول كتب الشيخ حسن المشاط – رحمه الله – تأليفاً وآخرها طبعاً ، فقد تم تأليف الكتاب عام ١٣٤١ هـ وطبع طبعته الأولى على نفقة ابنه الشيخ أحمد المشاط في عام ١٤٠٦ هـ بتحقيق العلامة الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان ، ومن هذا الكتاب استقينا المعلومات الخاصة بترجمته من المقدمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب لهذا الكتاب أما موضوع الكتاب فهو بَحْثٌ وعرض أدلة الاجتهاد والاستنباط عند إمام دار الهجرة مالك بن أنس – رضي الله تعالى عنه – ومما يجدر ذكره أن الشيخ حسن المشاط قد درس مذهب الإمام مالك وكان من المتمكنين فيه .

---

(٣٢٧) « الجواهر الثمينة » للشيخ حسن المشاط : ص ٤٨ – ٥١ .

(٢) « إنارة الدجى في مغازي خير الورى ﷺ » ، تم تأليف الكتاب عام ١٣٦٠ هـ وطبع طبعته الثالثة بجدة في مطبعة الأصفهاني عام ١٣٩٦ هـ وهو يتعلق بغزوات الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أثبت فيه الشيخ حسن المشاط أشهر ما أُلِّف في المغازي .

(٣) « رفع الأستار » ، عن محيا مخدرات طلعة الأنوار في علم آثار النبي المختار ، تم تأليف الكتاب عام ١٣٤٩ هـ وطبع هذا الكتاب طبعته السادسة عام ١٣٩٨ هـ ، وموضوع الكتاب علم مصطلح الحديث .

(٤) « التقريرات السنية في شرح المنظومة البيقونية » ، تم تأليف هذا الكتاب عام ١٣٥٠ هـ وطبع طبعته الحادية عشرة في مطبعة البنوي بجدة عام ١٣٩٢ هـ وهو كذلك في مصطلح علم الحديث .

(٥) « التحفة السنية في أحوال الورثة الأربعينية في علم الفرائض » ، تم تأليف الكتاب في عام ١٣٤٦ هـ وهو رسالة مختصرة تقع في وريقات لا تتجاوز أصابع اليد والغرض منها تقريب علم الميراث للمبتدئين ، وافتراض الحالات المختلفة للوارثِين وحصصهم ، وقد طبعت عشرات الطبعات لينتفع بها الناس .

(٦) « إسعاف أهل الإيمان بوظائف شهر رمضان » ، تم تأليف الكتاب عام ١٣٥٥ هـ ، وطبع طبعته الرابعة بمطابع البنوي بجدة عام ١٣٩٢ هـ ، وقد جمع فيها مجموعة من الأحاديث الصحيحة في موضوع الصيام وشرحها شرحاً وافياً .

(٧) « إسعاف أهل الإسلام بوظائف الحج إلى بيت الله الحرام » ،

تم تأليف الكتاب عام ١٣٧٩ هـ وطبع طبعته الثالثة بمطابع البنوي بجدة عام ١٣٩٧ هـ ، وهو يتعلق بشعيرة الحج وقد أثبت المؤلف أحكامها على المذاهب الأربعة لينتفع بها كافة المسلمين .

(٨) « أربعون حديثاً في الترغيب والترهيب ، مع تعليقات مفيدة عليها » ، وقد اختار المؤلف الأحاديث الصحيحة مع شرح ما يستفاد من هذه الأحاديث الشريفة .

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : هذا الكتاب هو آخر ما اشتغل به المؤلف – رحمه الله – وقد طبع بمطابع البنوي بجدة عام ١٣٩٨ هـ .

(٩) « نصائح دينية ووصايا هامة » ، تم تأليف هذه الرسالة وهي تقع في أربع وستين صفحة من القطع الصغير عام ١٣٩٨ هـ وخلال عام واحد طبعت طبعات كثيرة وكانت طبعتها التاسعة عام ١٣٩٩ هـ بمطابع شركة الطبع والنشر ، وهذه الرسالة تحتوي على مجموعة من النصائح الهامة والأذكار النبوية التي تقال بعد الصلوات المكتوبة ، وفي الصباح والمساء .

(١٠) « بغية المسترشدين بترجمة الأئمة المجتهدين » ، تم تأليف الكتاب عام ١٣٨٣ هـ وقد قام المؤلف بتأليف هذا الكتاب بناءاً على طلب ورده من أندونسيا من تلميذه الشيخ محمد زين الدين الأمفتاني مؤسس مدارس النهضة الوطنية بأندونسيا ، والتي انتشرت في أنحاء أندونسيا كما ذكرنا آنفاً وهي تحتوي على التراجم الوافية لأئمة المذاهب الأربعة الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل – رحمهم الله – وقد قامت جمعية نهضة الوطن بطبع الكتاب في أندونسيا ونشره بها .

(١١) « حكم الشريعة المحمدية في تعليم المسلمين أولادهم بالمدارس الأجنبية » ، تم تأليف هذا الكتاب في عام ١٣٧٣ هـ وطبع طبعته الأولى بمطابع المدني بمصر عام ١٣٨٥ هـ ، والكتاب عبارة عن رسالة صغيرة تقع في أربعين صفحة أراد المؤلف أن يبين فيها مخاطر تعليم أبناء المسلمين في المدارس الأجنبية وخاصة تلك المدارس التي تنتسب إلى الإرساليات الدينية ، والتي تتبع المذهب العلماني فتبعد الدروس الدينية عن مناهجها .

وأود أن أذكر بمناسبة هذه الرسالة تجربة مررت بها بالنسبة لتعليم أولادي ، وكانت فكرة إلحاق الأولاد بالمدارس الأجنبية قد انتشرت في البلاد وكان هذا قبل أكثر من ثلث قرن ، وكنت في مصر فنصح لي بعضهم بإلحاق ابني بمدرسة أجنبية في مصر الجديدة وقابلت مدير المدرسة ، وبعد أن عرفت منه شروط الالتحاق ومتطلباته ، قلت له : إن ابني صغير السن ، وأنا حريص على أن يتعلم لغته ودينه فقال لي : إنني أحترم الرجل الذي يحترم لغته ودينه ، ولكن نظام مدرستنا لا يسمح بذلك .. فانصرفت عن المدرسة ، ثم نصح لي الناصحون بإلحاق أبنائي بمدارس فكتوريا بالمعادي ، وأثنوا عليها ثناءاً عاطراً ، وألحقت ابني وبنتي بها لعام واحد ، في القسم الداخلي وتركت والدتهم في مصر زمنا للإشراف عليهم والاطمئنان إلى شئونهم ، ولكني لم أكن مطمئن القلب إلى صحة تصرفي وجاء الحاج محمد علي زينل رضا – رحمه الله – إلى جدة وتفضل بزيارتي في مكتبي ، وكنت أضع صورة ابني وبنتي في المكتب ، وكان يعرفهما ، وبما فطر عليه من التواضع والمودة سألني عنهما ، وحينما علم أنهما في كلية فكتوريا نظر إليَّ باستنكار وقال معاتباً : أنت تفعل هذا ونحن نعلق

عليك أكبر الآمال ! .. ثم أردف : أعدهما ودع ابنك يتعلم حيث تعلمت . ولم أتردد فحينما انتهى العام الدراسي عادا إلى جدة ، وذهبت إلى مدرسة الفلاح وقابلت المرحوم الشيخ عبد الوهاب النشار وهو من أساتذتي فيها وقلت له : إنني أخطأت في حق ابني وأريد أن أصلح هذا الخطأ ، فأرجو أن تختار لي أستاذاً من أساتذة الفلاح ليكمل له ما ينقصه وليدرك ما فاته ، وقد اختار – رحمه الله – الأستاذ عبد الله معتوق ، فكان يحضر يوميًّا إلى المنزل وكان مجاوراً لمدرسة الفلاح التي ألحقته بها ، وأثمرت العناية ثمرها ، فقد أدركت ما وقعت فيه من خطأ ، أما ابنتي فقد تولى تعليمها المرحوم السيد عبد العزيز الدباغ وكان يتولى تعليم البنات الصغيرات قبل أن توجد مدرسة منظمة لتعليم البنات ، وأراد الله تعالى أن يكون بدء تعليمها على يديه ، ثم التحقت بأول مدرسة للبنات في جدة ، أنشأتها السيدة نعيمة بركات ، وهكذا كان ..

أما أعجب ما مرَّ بي في موضوع المدارس الأجنبية فحادثة حدثني بها صديق عزيز قال : بعثت ابني إلى مدرسة إنجليزية في قُطْر عربي شقيق ، وانتهى العام الدراسي وعاد إليَّ فذهبت بالأسرة لزيارة المدينة المنورة واصطحبت ابني للصلاة في المسجد ورأى الابن أغوات الحرم المدني الشريف فسألني قائلا : هل هؤلاء يا أبي هم الأنبياء ؟ يقول الوالد : وصعقت وأنا أبصر جهل ابني بأبسط أمور دينه ، وأدركت مقدار جنايتي عليه ، وفي تلك اللحظة قررت أن يكون تعليمه في وطنه . وقلت له : كَلَّا يا بنيّ هؤلاء هم خدم المسجد الشريف ، وخدم الحجرة النبوية الشريفة ، أما الأنبياء فإن آخرهم هو رسول الله محمد ﷺ ، وقد توفي منذ أربعة عشر قرناً ، ولا نبي بعده ، صلوات الله وسلامه عليه .

يقول الصديق : وأدخلت ابني في مدرسة الفلاح التي تعلمت بها ، واعتنيت بأمره عناية شديدة لإصلاح ما أفسدت من أمره ، ومرَّ العام وذهبنا إلى المدينة المنورة واصطحبته لزيارة مآثرها ، وذهبنا عصر يوم إلى جبل أُحد وقرأنا الفاتحة لشهدائها وفي مقدمتهم أسد الله وأسد رسوله سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، وكان يرافقنا في هذه الزيارة بعض الأصدقاء من شباب المدينة ومثقفيها ، يقول الصديق : وسألني ابني عن مكان موقعة أُحد وأي جبل هو الجبل الذي وقف عليه الرماة ؟ واستعنت بأصدقائي من أهل المدينة ليشرحوا الموقعة ومكانها ، وكان ابني يستمع في شوق ويناقش مناقشة العارف بأحداث الموقعة وتفاصيلها .

يقول الصديق : فحمدت الله كثيرا أنني استطعت خلال عام واحد أن أصل به إلى هذه المرحلة التي يهتم فيها بمعرفة التاريخ الإسلامي وأحداثه كل هذا الاهتمام .

أوردت هذه الذكريات ليتبين للقارئ أهمية هذه الرسالة الصغيرة التي ألَّفها المرحوم الشيخ حسن المشاط لينوِّر بها بصائر الآباء الذين اندفعوا إلى إرسال أولادهم وإلحاقهم بالمدارس الأجنبية في مصر ولبنان وهي إما مدارس تبشيرية مسيحية وإما مدارس علمانية ، تتعمد إبعاد الأولاد عن معرفة عقيدتهم .

ونحمد الله كثيرا أن تغير الحال ، فانتشر التعليم وبثت المدارس والكليات والمعاهد بل والجامعات في أنحاء المملكة تستقبل الأولاد والبنات من سن الحضانة إلى الجامعات .

(١٢) الحدود البهية في القواعد المنطقية ، هذه الرسالة مخطوطة ولم تطبع

وهي تشتمل على أهم موضوعات علم المنطق التي يحتاج إليها المبتدئ وقد كتبت على طريقة الأسئلة ثم الإجابة ، يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان عنها : يتداولها طلاب العقيدة والأصول بالجامعات والمدارس الدينية .

(١٣) تعليقات شريفة على لب الأصول في أصول الفقه ، وهي خلاصة دراسته ومطالعاته عن الموضوعات الأصولية التي كان يدرسها في كتاب لبّ الأصول لشيخ الإسلام أبي زكريا يحيى الأنصاري .

(١٤) الإرشاد بذكر بعض ما لي من الإجازة والإسناد ، جمع فيه على عادة المحدثين مشائخه الذين تلقى العلم منهم وأجازوه بمروياتهم ، وعرض الكتب التي درسها عليهم فأجازوه بها .

يقول الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان : ولفضيلة الشيخ حسن محمد المشاط – رحمه الله – من البحوث والدراسات والتعليقات والفتاوي في كثير من الأحداث العصرية الشيء الكثير الذي لو قدر الله التفرغ لجمعه وتنظيمه وتبويبه لأتى في مجلد ضخم .

والمتأمل في مؤلفات الشيخ حسن المشاط – رحمه الله – يرى أنها كتب تعليمية يواصل بها عمله في تعليم أبناء المسلمين أمور دينهم يبدأ هذا التعليم في المدرسة الصولتية ، وفي المسجد الحرام وينتهي إلى تسجيل هذا العلم في مؤلفات ورسائل يكمل بها ما بدأه في المدرسة والمسجد فجزاه الله خير الجزاء .

ذكرياتي عن آل المشاط :

عرفت الشيخ حسن المشاط كما عرفت والده الفاضل الشيخ

محمد المشاط وأبناءه منذ عشرات السنين ، وأذكر أني رأيت الشيخ حسن المشاط ووالده الكريم لأول مرة في أوائل الأربعينات من القرن الرابع عشر الهجري ، حينما حضرت أسرة المشاط إلى جدة خلال الحرب السعودية الهاشمية ، وكنت إذ ذاك في العاشرة من العمر واستقر بهم المقام في منزل بحارة اليمن في مدينة جدة ، ولكن صلة آل المشاط بأسرتنا كانت صلة رحم قديمة فقد أصهر الشيخ حسين المشاط - رحمه الله - إلى أسرتنا وتزوج بعمتي السيدة أسماء عبد الوهاب مغربي ، وأنجبت منه ولداً هو المرحوم محمد حسين المشاط ، وبنتاً هي السيدة ملكة حسين المشاط ، ثم افترق الزوجان وانتقلت عمتي إلى بيت أبيها الشيخ عبد الوهاب مغربي في مكة ومعها ابنها وبنتها ، وشاء الله لهما أن يعيشا مع والدتهما الكريمة في بيت أبيها ، وكانت من أرجح النساء عقلا ، كما كانت تحظى بالرعاية والتكريم من كافة أفراد الأسرة وأحسنت هذه السيدة الكريمة تربية أولادها وحينما كبرت بنتها تقدم الشيخ محمد المشاط فخطبها لابنه الشاب حسن المشاط ابن عمها ، وزُفَّتْ إليه في الرابعة عشر من بيت جدِّها وجدِّنا جميعاً الشيخ عبد الوهاب مغربي - رحمه الله - ، وكانت خير زوجة وكان لها خير بَعْل ، أما أخوها الشيخ محمد مشاط فقد بقي بجوار والدته الكريمة في بيت المغربي بحارة الباب بمكة ، وفيه تزوج وأنجب إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره ، واستمرت الصلة بين الأسرتين فقد تزوج الشيخ أحمد المشاط ابنة خاله الشيخ محمد المشاط ، واحتضن ابنه عبد الهادي المشاط بعد وفاة والده - رحمه الله - .

أقول : رأيت الشيخ حسن المشاط ووالده في هجرتهم إلى جدة عام ١٣٤٣ هـ كما رأيت لأول مرة بقية أفراد الأسرة ، وكان تردُّدهم

على دار الأسرة أسرة المغربي في جدة كثيرا ، للزيارة ثم اجتمعت مع الشيخ محمد المشاط – رحمه الله – وأولاده في المدينة في عام ١٣٥٣ هـ أو بعدها بعام ، وكان الشيخ محمد المشاط رغم الفارق الكبير بيني وبينه في العمر فلقد كنت بالنسبة له كالحفيد أو الابن الأصغر ، إلا أنّ الرجل فطر على التودد للناس ، وإلانة جانبه لهم فكان يلقاني دائماً بوجهه الطلق ، ويغمرني بسماحة طبعه ، وجميل تودُّده ، وحينما انتقلت إلى مكة للعمل بها عام ١٣٥٥ هـ كان طريقي من سوق سويقة وكانت دكاكين آل المشاط بها ، فإذا مررت بالدكان ، وكان الشيخ محمد المشاط فيه يستجلسني ، ويغمرني في هذه الجلسة القصيرة بما طبعت عليه نفسه الكريمة من التودد والمحبة ، هذا بالنسبة للشيخ محمد المشاط ، أما بالنسبة للشيخ حسن المشاط فلقد كنت أحمل له من المحبة والتقدير في نفسي الشيء الكثير ، وكنت أرى فيه صورة من أجمل الصور للعلماء الذين وهبوا أنفسهم للعلم ابتغاء مرضاة الله ، وكانت تصل إليَّ أخبار عزوفه عن المناصب ، ومجاهدته للبعد عن مناصب القضاء ، وكنت أعجب من رجل تسعى إليه الدنيا بالجاه والمال ، فيبتعد عنها في إزْوِرَارْ ، وكانت هذه الأحوال تذكِّرني بما قرأته عن علماء آثروا ما عند الله فانصرفوا للعلم ، وابتعدوا عن زخارف الحياة .

وكنت كثير التردد على المدينة لزيارة المسجد النبوي الشريف ولكني ما ذهبت إليها مرة إلا ووجدت الشيخ حسن المشاط أمامي في المسجد بملابسه البيضاء ، وطلعته المشرقة بنور العلم والتقوى ، قلت له مرة : لقد أصبحنا نجتمع دائما في المدينة ، فما حضرت إليها مرة وإلا ووجدتك فيها :

قال – رحمه الله – : إن شاء الله نجتمع في الجنة .

قلت : أرجو الله تعالى أن يحقق ذلك .

ومما أذكره عن لقاءاتي بالشيخ حسن المشاط في المدينة ، أننا كنا جلوسا ننتظر صلاة الفجر في الروضة المشرفة في آخر أيام رمضان ، فسمعنا صوت طلقة مدفع فرفع إليَّ الشيخ حسن – رحمه الله – رأسه متسائلا ؟ قلت : قد ثبت دخول العيد كل عام وأنتم بخير ، وكان هذا على ما أذكر في عهد جلالة الملك سعود – رحمه الله – قال : لا ، أظنه مدفع الإمساك . قلت : لقد مضى وقت الإمساك ونحن في انتظار صلاة الفجر ، وانطلق المدفع الثاني وتوالت الطلقات فأيقن أنه العيد ، ورأيته – رحمه الله – يتهيأ للخروج من المسجد فقلت له : إن تركت مكانك فلن تستطع الصلاة داخل المسجد . قال : لابد لي أن أخرج ، إن مفتاح المنزل معي ولنا رفيق سيعود ليتهيأ لصلاة العيد ولا يجوز أن نعوقه عن ذلك ، ثم أضاف قائلا : حاول أن تحتفظ لنا بالمكان وكان قد وضع فيه سجادة ، قلت سأحاول ولكني متأكد ، إنها محاولة فاشلة . فمن ذا الذي يستطيع الاحتفاظ بمكان في الروضة الشريفة فجر يوم من أيام العيد إن لم يكن جالساً فيه ؟

وخرج الشيخ حسن المشاط ورفيقه ولم يستطع العودة إلى المكان ، ولعله اضطر إلى الصلاة خارج المسجد ، ولكن خلقه المفطور على الوفاء أبى عليه أن يترك رفيقه في المنزل محروماً من أداء صلاة العيد – رحمه الله – .

والمتأمل في أمر أسرة المشاط يرى أن الشيخ حسن المشاط

وقد نذره والده للحرم قد حقق الله نذره فكان الشيخ حسن المشاط خادماً للعلم في المسجد الحرام طيلة حياته ، وأراد الله به الهداية للطلبة الكثيرين خاصة من الأندونسيين الذين أتموا تعليمهم على يديه في مكة المكرمة ، ثم عادوا إلى بلادهم فأسَّسوا فيها المدارس الإسلامية والكليات ونشروا العلم في ربوعها ، ولقد كان طيلة حياته حفيًّا بهؤلاء الطلبة الذين يرسلهم آباؤهم إلى مكة المكرمة لتلقي العلم على يد علمائها ، فيبدأون مع الشيخ حسن المشاط دراستهم الابتدائية حتى يصل معظمهم إلى الحد الذي يستطيع به الدخول في مجال طلب الرزق ، فينخرطون في أعمالهم ليبدأ مع طائفة أخرى نفس البداية ، ويبقى معه الراغبون في إكمال دراستهم يستزيدوا من العلم ما يمكنّهم من العودة إلى بلادهم ليعلّموا الناس ، هكذا أراد الله تعالى للشيخ حسن المشاط أن يكون مصدر علم وهداية ، ولاشك أن إخلاص الرجل في هذا السلك قد آتى بفضل الله تعالى أُكُلَه وأثْمَرَ ثَمَرَه فبارك الله فيه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإذا كان الشيخ حسن المشاط لم يَنَلْ من أعراض هذه الدنيا ما ناله غيره فقد أراد الله تعالى لابنه الشيخ أحمد المشاط أن يكون من رجال الأعمال الناجحين ، وهكذا يختار الله تعالى لعباده ما يصلح لهم ، وهو أعلم بهم ، وكلٌّ مسخر لما خلق له في هذه الحياة .

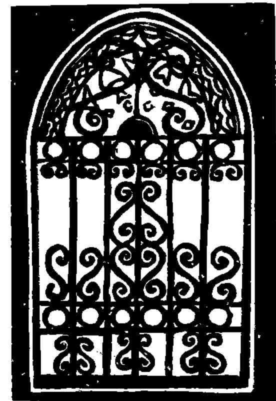
وفاة الشيخ حسن المشاط :

في الثالث والعشرين من شهر رمضان عام تسع وتسعين بعد الثلاثمائة والألف وبعد إتمام صلاة التراويح في المسجد الذي أنشأه الشيخ حسن المشاط بجوار منزله في محلة أم الدرج خارج مكة المكرمة ، وكان قد أتم ختم القرآن في تلك الليلة مع مجموعة الحفظة من تلاميذه ، أصيب

بمرض مفاجئ نقل على أثره إلى مستشفى الدكتور أحمد زاهر ، وقد اتضح أن مرضه كان بسبب جلطة في الدماغ ، وكان في الفترات التي يخف فيها ما يعانيه من آلام يتحدث كعادته في العلوم والعبادة ، وإسداء النصائح لزوَّاره ، كما كان دائما في حال صحته ، وبَلَغ الكتاب أَجَلَهُ ففاضت روحه إلى بارئها في السابع من شهر شوال عام ١٣٩٩ هـ ودفن في مقابر المعلاة ، وفقدت مكة بموته عالماً من علمائها الصالحين قرن العلم بالعمل فشيعت جنازته في موكب حافل اشترك فيه العلماء والوجهاء والأعيان وكافة الطبقات ، فلقد كان الرجل محبوباً من الناس بصورة عامة – رحمه الله – .

وحينما بلغ خبر وفاته إلى أندونسيا كان لذلك أعظم وقع في نفوس الناس هناك وأقيمت عليه صلاة الغائب في المساجد الكثيرة في تلك البلاد . رحم الله الشيخ حسن المشاط وجزاه خير الجزاء .

* * *



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة
وبعض القرون الماضية

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله سراج

الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله سراج

ولد الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله سراج بمكة المكرمة في سنة ألف ومائتين وتسعة وأربعين ، وحفظ القرآن المجيد ، وكثيرا من الفنون ، وتتلمذ على والده شيخ علماء مكة مفتي الأحناف الشيخ عبد الله سراج ، كما تلقى العلم على يد مفتي مكة الشيخ جمال عبد الله ، شيخ علماء مكة الذي تولى مشيختها بعد وفاة الشيخ عبد الله سراج والد الشيخ عبد الرحمن سراج (٣٢٨) ، كما درس على السيد أحمد زيني دحلان مفتي الشافعية ، شيخ علماء مكة المكرمة وصاحب التآليف الشهيرة ، وعلى الشيخ رحمة الله الهندي - رحمه الله - مؤسس المدرسة الصولتية (٣٢٩) وكان مجتهدا في الطلب مجدا فيه ، متميزا بين الأقران ، فحصل على إجازات أقطاب العلماء في زمانه ، وأصبحت له حلقة في المسجد الحرام وتتلمذ عليه طلاب العلم وتخرج جماعة منهم على يديه .

وتوجه شيخه وأستاذه جمال عبد الله مفتي الأحناف لزيارة مسجد رسول الله ﷺ فأنابه عنه في منصب الفتوى ، فقام به أحسن قيام إلى أن عاد شيخه إلى البلد الحرام .

مفتي الأحناف بمكة :

ولما توفى الشيخ جمال عبد الله مفتي الأحناف ولي الشيخ

---

(٣٢٨) انظر : ترجمة الشيخ جمال عبد الله في مختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ١٦١ .

(٣٢٩) انظر : ترجمة الشيخ محمد رحمة العثماني : ص ٣٨٦ - ٣١٣ من أعلام الحجاز (ج ٢) للمؤلف .

عبد الرحمن سراج هذا المنصب ، أسنده إليه الشريف عبد الله بن عون أمير مكة المكرمة [٣٣٠] فسلك فيه جادة الاستقامة كما يقول صاحب كتاب « نشر النور والزهر » [٣٣١] ، ولم يعرف عنه أنه أخذ جعلا من أحد مدة توليته الإفتاء ، كان الشيخ عبد الرحمن سراج شديد النزاهة كثير التحرُّج والورع ، فقد كان يرفض الهدايا التي تقدم إليه وهو في منصب الفتيا ، كما عرف بتصلبه في أمر الدين ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

اقتناء الكتب :

وكان محبًّا للكتب وخاصة الكتب النفيسة النادرة يطلبها من مظانها ، ويسعى في طلبها من الأقطار البعيدة وينسخ منها بخطه ما يرغب في الاحتفاظ به لمكتبته العامرة الزاخرة [٣٣٢] .

وعلى ذكر اقتناء الكتب أثبت هنا ما أتحفني به الصديق الأديب الأستاذ عبد العزيز الرفاعي عن اشتراك الشيخ عبد الرحمن سراج وجماعة من علماء مكة وأعيانها في طبع كتاب « خزانة الأدب » للبغدادي نقلا عن الأستاذ عبد السلام هارون الذي قام بتحقيق هذا الكتاب ونظم فهارسه ، وقدم له بمقدمة ضافية تحدث فيها عن تاريخ طبعات هذا الكتاب .

---

(٣٣٠) انظر : أخبار الشريف عبد الله بن عون في « أمراء البلد الحرام » للسيد أحمد زيني دحلان : ص ٣٦٦ - ٣٧٦ .

(٣٣١) انظر : ترجمة الشيخ عبد الرحمن سراج في المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

(٣٣٢) نفس المصدر .

يقول الأستاذ عبد السلام هارون : ومما هو جدير بالذكر ولا يعرفه الكثيرون أن نشر الطبعة الأولى – لخزانة الأدب – تطلَّب بذل مجهود كبير ، واقتضى إسهاماً مصريًّا وعالميًّا كذلك ، ففي ثبت خاتمة هذه الطبعة البولاقية تنويه بمن كان لهم الفضل في ذلك وهم سبعة رهط من العلماء هم الشيوخ : عبد الرحمن سراج مفتي مكة في ذلك العهد – مفتي الأحناف – ، وعبد الرحمن الميمني ، وأحمد المشاط (٣٣٣) ، وعبد الرحمن الشيبي (٣٣٤) ، وحسين بن عبد الله الميمني ، وأبو طالب الميمني ، وعبد الله بن الشيخ محمد الباز الكتبي (٣٣٥) ، نهضوا جميعا بتمويل هذه الطبعة بنسب تبتدئ بقيراط ونصف ، وتعلو إلى ستة قراريط من ٢٤ قيراطا .

---

(٣٣٣) أحمد المشاط كان كبيراً لتجار جدة واشتهر بالأمانة وحسن الإدارة والكرم ، أوكلت إليه الحكومة المصرية وكالة البواخر التي تحمل الحجاج إلى جدة فأحسن الإدارة وأراح الحجاج من الإتاوات التي كانت تؤخذ منهم ، وأمَّن التجار على بضائعهم من التكدس فمدحه الشعراء ، انظر : ما كتبه عنه الحضراوي في كتاب « الجواهر المعدة في فضائل جدة » . وقد وردت الإشارة إلى ذلك ضمن ترجمة الحضراوي في هذا الكتاب .

(٣٣٤) الشيخ عبد الرحمن الشيبي كان سادناً للبيت الحرام في عهد الشريف عون الرفيق ، فغضب عليه الشريف عون ونفاه إلى الطائف فظل بالهدى إلى أن توفي هناك وسيرد ذكر ذلك بعد .

(٣٣٥) لا يزال بيت الباز يشتغلون بتجارة الكتب في مكة المكرمة كما ذكر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، الأمر الذي يدل على أن أسرة الباز توارثت هذه التجارة عن الأجداد .

ويعلق الأستاذ عبد العزيز الرفاعي على ما أخبره به الأستاذ عبد السلام هارون فيقول : وقد دلني تأمل أسماء هؤلاء الشيوخ السبعة ولا أقول الرهط على أنها أسماء مكية وهي من عائلات معروفة في الأوساط المكية .

ثم يقول : وقد أكبرت وجود هذا الوعي والحرص على نشر كتاب الخزانة وأن يكون متوفراً في العصر العثماني الذي كان يغلب على القوم فيه أدب الصنعة والترصيع .. ثم يقول : ولكن ها نحن نجدهم يدفعون بدراهمهم القليلة في سبيل نشر كتاب كبير ، بالغ التكلفة ويتوزعون نفقته بينهم قراريط .

وأستطيع أن أستخلص مما ذكره الأستاذ عبد السلام هارون أن الطبعة الأولى من كتاب « خزانة الأدب » التي طبعت بمطبعة بولاق ، تمت بمبادرة مكية في ذلك العهد السحيق لأن تمويل الكتاب شارك فيه سبعة رجال من مكة فيهم العلماء والتجار الذين وردت أسماؤهم في الطبعة البولاقية ، وقد كان في مقدمتهم الشيخ عبد الرحمن سراج صاحب هذه الترجمة .

ولعل ما عرف به الشيخ عبد الرحمن سراج من تعلق بالكتب وطلب النفيس النادر منها واقتنائه لها ومشاركته في الأدب إلى جانب مكانته العلمية والدينية لعل لهذا كله أثره في مشاركته بالمال في اخراج « خزانة الأدب » للبغدادي مطبوعة بعد أن كانت مخطوطة .

مشاركته في الأدب :

ويذكر صاحب كتاب « نشر النور والزهر » : أن الشيخ

عبد الرحمن سراج جمع إلى جانب غزارة علمه بالفقه والأحكام مشاركته في الأدب ، وأخبار أعيان الرجال من الأدباء والعلماء تعينه على ذلك ذاكرة قوية ، وذكاء وقّاد .

التدريب العسكري :

جاء في كتاب « خلاصة الكلام في تاريخ أمراء البلد الحرام » ما يلي :

في أول سنة ١٢٩٤ هـ استحسن الشريف عبد الله بن عون أن يتعلم أهل مكة الحركات العسكرية النظامية وكيفية الرمي بالبنادق فصدر الأمر بذلك لأجل إرهاب الروس وإظهار الاستعداد لهم ، فامتثل الناس لذلك ، وأحضرت الحكومة لهم البنادق ، وعينوا لهم المُعلمين من العساكر النظامية الموجودة بمكة ، فتعلم كثير من الناس في أقرب زمن ، وكان ذلك في أول سنة ١٢٩٤ هـ واستمر التعليم نحو أربعة أشهر ثم تركوا ذلك [٣٣٦] .

وجاء في « تاريخ مكة » للسباعي عن هذا الأمر ما يلي :

وشوهدت العلماء وطلبة العلم والأعيان ، وأصحاب الحرف وأهل الحارات ينزلون إلى ساحة التعليم صفوفاً متراصة تتلقى تعاليم الجندية على أساتذتهم من الضباط الأتراك وذلك في سنة ١٢٩٢ هـ .

ثم يقول : واشترك في التدريب العسكري أولاد الشريف عبد الله وبنو عمومتهم برياسة عون باشا – الذي ولي إمارة مكة فيما بعد – واتخذ

---

(٣٣٦) « تاريخ أمراء البلد الحرام » لزيني دحلان : ص ٣٧٥ .

المدربون لباساً خاصًّا قوامه قميص وبنطلون من قماش كانوا يسمونه (مُلًّا) وجعلوا العقال فوق العمامة البيضاء غطاءاً لرؤوسهم (٣٣٧) .

هذا ما أورده مؤرخو مكة المكرمة عن موضوع التدريب العسكري الذي جرى في مكة المكرمة ، ولقد اهتم المؤرخون بإيراد هذه الحادثة وتدوينها لأن الدولة العثمانية تعودت أو عودت أهل الحجاز أن تعاملهم معاملة خاصة تعفيهم فيها عما تلزم به الأقاليم الأخرى التابعة للدولة العثمانية ، ذلك أن نظرة حكام الأتراك إلى أهل الحجاز تتسم بكثير من العطف والرعاية ، فكانت ترسل لهم الجرايات من الأرزاق والنقود ، كما سمحت بإقامة التكايا والأربطة في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وهذه التكايا خاصة كانت توفر حياة الكسل لساكنيها فهم يجدون فيها المأوى والمأكل دون مشقة أو عناء ، فينصرفون إلى العبادة في زعمهم والدعاء للسلطان ، والكثير منهم إنما استمرأ هذه الحياة الهينة اللينة الخالية من التكاليف ، لهذا رأى المؤرخون في أمر التدريب العسكري في مكة في هذه الفترة أمرا يستحق التسجيل ، والمتتبع لتاريخ الدولة العثمانية يعرف الأسباب الكامنة وراء هذا الأمر .

فقد اشتبكت الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني في حرب طاحنة مع الروس ، بدأت هذه الحرب بعصيان الهرسك الذين كانوا تابعين للدولة العثمانية في بلاد الروم إيلي ، وهم نصارى ، فجهزت الدولة العثمانية جيشا لمحاربتهم ، وكانت الدولة قادرة على إخماد هذه

---

(٣٣٧) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٣٩ نقلا عن تذييل شفاء الغرام للشيخ عبد الستار الصديقي : ص ٣١٣ .

الفتنة ، ولكن الدول الأوربية تدخلت لمساعدة الهرسك ، وكان تدخل الروس بصورة خاصة كبيراً وواضحاً ، حتى تحولت هذه المساعدة إلى حرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، وانضمت الدول المسيحية في أوربا إلى جانب الروس ، مما اضطر الدولة العثمانية إلى حشد الجيوش الكثيرة وإنفاق الأموال الطائلة لمواجهة هذه الحرب التي تحولت إلى ما يشبه الحروب الصليبية .

يقول صاحب كتاب « الفتوحات الإسلامية » :

فقدَّر الله بانهزام جيوش الإسلام ، وأسر كثير منهم في بلونة ، وذلك بسبب محاصرة العساكر الروسية لهم في ذلك البلد ، وعدم إمكان وصول الميرة إليهم ، لشدة البرد ، وكثرة الثلج ، وممن أُسر من كبار عساكر الإسلام الوزير عثمان باشا الغازي ، وقوماندان الجيش في بلونة ، ثم أطلق مع كثير ممن أُسروا ، وكان إطلاقهم بعد انعقاد الصلح ، وتَمَلَّك الروس كثيراً من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى قرب أدرنة (٣٣٨) .

أقول : البوسنة والهرسك من الولايات العثمانية في شبه جزيرة البلقان ، وهي ما يطلق عليه في الوقت الحاضر يوغسلافيا ، وكانت هذه الولايات تابعة للدولة العثماني ، وهي تضم جاليات إسلامية إلى جانب السكان المسيحيين (٣٣٩) .

---

(٣٣٨) « الفتوحات الإسلامية » لأحمد زيني دحلان (ج ٢) : ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٣٣٩) كتاب « لعنة هذا الزمن » لكاتب هذه السطور : ص ١١٣ .

ويتضح مما كتبه صاحب كتاب « الفتوحات الإسلامية » عن هذه الحرب ، أن الدولة العثمانية حينما شعرت بخطورة التحالف المسيحي في أوربا ضد الأقاليم التابعة لها ، عمدت إلى استنفار الجيوش الإسلامية من شتى أنحاء الخلافة ، ويشمل هذا الاستنفار لأول مرة الحجاز ، ومكة المكرمة بالذات ، فكان التدريب على الجندية الذي ذكرنا ما أورده مؤرخوا مكة بشأنه .

دور العلماء في التدريب :

ولقد كان لكبار العلماء في مكة دور هام في هذا التدريب ، فلقد كان صاحب الترجمة الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف وشيخ علماء مكة يخطب في المسجد الحرام ، كما كان يفعل غيره من أصحاب الفتوى للمذاهب الأخرى ، وكانوا يحضون الناس على الجهاد ، ولم يكتف العلماء الأجلاء بهذا وإنما انخرطوا بأنفسهم في سلك التدريب . أخبرني الأستاذ حسين سراج أنه سمع من أبيه الشيخ عبد الله سراج : أن الشيخ عبد الرحمن سراج كان يخطب الناس في المسجد الحرام يحضُّهم على الجهاد ، ويدعوهم إلى الخروج إلى ميدان التدريب وكان يعطي بنفسه القدوة العملية فيرتدي الزي الخاص بالتدريب العسكري والذي أوردنا وصفه آنفا ، ثم يتدرب على الرمي ، ويقف في صفوف المتدربين ، كما يفعل غيره من أعيان الناس وأوساطهم ، وهذا الذي فعله الشيخ عبد الرحمن سراج ، وهو يتبوأ أكبر منصب ديني في مكة فقد كان مفتي الأحناف ، والدولة العثمانية تسير في أحكامها على المذهب الحنفي ، كان دافعا للناس جميعا إلى الاندفاع في الجهاد ، والاستعداد له بالتدريب والتعليم .

وللأسف فقد كانت نهاية هذه الحرب خسارة الدولة العثمانية فيها كما يقول السيد أحمد زيني دحلان وتملُّكُ روسيا كثيرا من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى أقرب أدرنة ، وختام الأمر أن بقية الدول توسطت في الصلح سنة خمس وتسعين ، على أن يبقى تحت يد روسيا ما تملكوه من البلاد ، وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب ، وكان شيئا كثيرا ، ويبقى للدولة أدرنة ، وما يليها إلى دار السلطنة العلية [٣٤٠] .

الشريف عون الرفيق ينفي أصحاب الفتيا في مكة :

تولى الشريف عون الرفيق إمارة مكة المكرمة في التاسع من ذي الحجة عام ١٢٩٩ للهجرة [٣٤١] ، وكان الشريف عون غريب الأطوار ، وقد ضاق أهل مكة ذرعاً به وبتصرفاته الغريبة ، مما اضطر أصحاب الفتيا في مكة إلى تنظيم مضبطة إلى السلطان عبد الحميد يشكون فيها الشريف عون ، ويعدِّدون المآخذ التي يأخذونها عليه وقد وقعوا عليها بتوقيعاتهم وهم :

الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف – وصاحب هذه الترجمة – ، والشيخ محمد عابد بن حسين مفتي المالكية [٣٤٢] ، والسيد إبراهيم نائب الحرم مفتي الحنابلة ، والسيد عبد الله بن محمد الزواوي

---

(٣٤٠) الفتوحات الإسلامية (ج ٢) : ص ٣١٢ .
(٣٤١) « أمراء البلد الحرام » للسيد زيني دحلان : ص ٣٠١ .
(٣٤٢) انظر ترجمته في : « سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة » لعمر عبد الجبار : ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

مفتي الشافعية (٣٤٣) ، والسيد علوي السقاف شيخ السادة (٣٤٤) بمكة ، فأمر الشريف عون بنفيهم من مكة ، وأمر السلطان عبد الحميد بتأليف لجنة للتحقيق في أمر هذه المضبطة ، وكانت هذه اللجنة برآسة المشير أحمد راتب باشا والي الحجاز .

يقول الأستاذ حسين سراج رواية عن والده الشيخ عبد الله سراج الذي رافق والده الشيخ عبد الرحمن سراج إلى جدة :

نزلنا في جدة في بيت شيخ السمَّاكة – لعله شيخ دلالي السمك – وكنا نسكن في غرفة حقيرة ، وليس لدينا من المال ما يصلح أحوالنا ، وزارنا في هذا المنزل الحقير الأفندي عمر نصيف كبير جدة ، وأخبر والدي أن من الخير له أن يغادر الحجاز لأن الشريف عون قد أثَّر على اللجنة التي حضرت لتولي التحقيق في أمر المضبطة ، ووعد الأفندي نصيف بتدبير أمر سفرنا سرًّا من جدة .

المعتمد البريطاني يعرض منصب قاضي القضاة في الهند :

ويواصل الشيخ عبد الله سراج الحديث قائلا :

بينما كنت ووالدي ننتظر في هذا المنزل الحقير تدبير أمر هروبنا من جدة خشيةً من بطش الشريف عون بالوالد ، زارنا في هذا المنزل مندوب

---

(٣٤٣) انظر ترجمته في : « سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة » لعمر عبد الجبار : ص ١٤٠ – ١٤٢ .

(٣٤٤) انظر ترجمته في : المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ٣٤٣ – ٣٤٥ .

من المعتمد البريطاني في جدة . قال هذا المندوب للوالد : إن المعتمد البريطاني في جدة يعرض عليك باسم الحكومة البريطانية إصدار فتوى بجواز أن يكون للمسلمين خليفتان ، فإذا أفتيت بهذا فإن بارجة حربية بريطانية تصل إلى جدة وتنقلك إلى الهند لتتولى منصب قاضي القضاة هناك .

عبد الرحمن سراج يلطم ابنه على وجهه :

التفت الشيخ عبد الرحمن سراج إلى ابنه الشاب عبد الله قبل أن يجيب رسول المعتمد البريطاني . يقول عبد الله سراج : قلت للوالد : إنه لا بأس بهذه الفتوى ، فقد جاءنا الفرج للخلاص من هذا الكرب الذي نحن فيه .

نظر الشيخ عبد الرحمن سراج إلى ابنه نظرة صاعقة ثم أهوى بيده على وجه ابنه فلطمه على خده لطمة أليمة .

لن أبيع ديني بدنياي :

والتفت إلى مندوب المعتمد البريطاني قائلا : قل لسيدك : إني لن أبيع ديني بدنياي .

وعاد الرسول إلى المعتمد البريطاني يجرّ أذيال الخيبة ليبلغ سيده ما قاله عبد الرحمن سراج .

أقول : كانت بريطانيا في ذلك الزمان تحكم دولاً كثيرة وبعض هذه الدول غالبية أهلها من المسلمين كمصر وفلسطين وماليزيا والبعض فيها مسلمون كثيرون كالهند ، وكان المسلمون في الهند وفي مصر يدينون

بالولاء للخليفة العثماني ، ولابد أن بريطانيا أرادت بإغرائها الشيخ عبد الرحمن سراج وهو في محنته أن يفتي لها بجواز تنصيب خليفة ثان ، لتختار خليفة يكون طوع إرادتها تنافس به الخليفة العثماني وتستصدر منه من الأحكام ما يوافق هواها ، وكان الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف في مكة وهو منصب له أهميته العظمى خاصة وأن الدولة العثمانية تتبع المذهب الحنفي في الحكم ، ولكن خاب ظنها فقد كان الشيخ عبد الرحمن سراج صخرة تتكسر على صلابتها رؤوس الطغاة .

عمر نصيف يدبر للشيخ عبد الرحمن سراج أمر السفر :

ويستطرد الشيخ عبد الله سراج فيقول : ووجد لنا الأفندي نصيف سفينة شراعية رحلنا بها من جدة هاربين إلى مصر .

أخبار الشريف عون في تاريخ مكة :

ولعل من الخير أن نورد هنا ما أورده مؤرخو مكة عن الشريف عون الرفيق وأحواله :

جاء في « تاريخ مكة » لأحمد السباعي نقلا عن كتاب « إفادة الأنام » للشيخ عبد الله « غازي ما يلي :

في عام ١٣٠٤ هـ قبض الشريف عون على موسى البغدادي ، وأمين ماصة لي ، ومحمد السعدي فنفاهم إلى خارج البلاد [٣٤٥] .

أقول : كان موسى البغدادي أو الأفندي موسى كما كان يطلق

---

(٣٤٥) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥١ .

عليه في جدة ثاني اثنين هما أكبر رجالات جدة في ذلك الزمان ، أما الرجل الأول فهو الأفندي عمر نصيف جَدُّ أسرة نصيف الشهيرة ، وموسى البغدادي هو الذي تنسب إليه محلة البغدادية في جدة ، وكان واسع الثراء ، عظيم النفوذ ، وقد بنى البغدادي بيتا على البحر كان من أعظم بيوت جدة وأكبرها (٣٤٦) ، وكان الرجلان البغدادي ونصيف يتقاسمان النفوذ ويتنافسان تنافسا عظيما فيكيدان لبعضهما البعض ، والتنافس بين الأقران قديمٌ قدم الزمان .

ومن الروايات التي كان يتناقلها الناس في جدة والتي سمعتها من المعمِّرين فيها أن موسى أفندي البغدادي استطاع أن يكيد للأفندي عمر نصيف فيدخله السجن ، وأن الأفندي نصيف رَدَّ هذا الكيد بمثله أو أنكى منه فاستطاع أن ينفي موسى أفندي البغدادي من جدة في سفينة شراعية إلى اليمن ، وكنت أظن أن هذه الرواية مبالغ فيها ، إلى أن وجدت ما يشير إلى صحتها ، أو صحة بعض ما ورد فيها من نفي الشريف عون لموسى البغدادي ومن معه ، ولم تورد الرواية التي أوردها السباعي أسباب هذا النفي ، وقد نقلها من كتاب « إفادة الأنام » ، وهو كتاب مخطوط للشيخ عبد الله الغازي .

ولكن ما أعرفه شخصيًّا أن الأفندي عمر نصيف كان رجلاً واسع الدهاء ، وكان أريباً ، استطاع الجمع بين وكالة شريف مكة ، وصداقة الوالي التركي ، فكان وكيلاً دائماً لأشراف مكة وأمرائها يرعى مصالحهم

---

(٣٤٦) انظر : صورة هذا المنزل في « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ٢٣٤ الطبعة الثانية لكاتب هذه السطور .

وينفذ أوامرهم ، وكان في نفس الوقت على صلة حسنة بولاة الأتراك المقيمين في جدة ، والذين كانوا عادة على خلاف وتنافر مع أمراء مكة من الأشراف لتضارب المصالح ، والتنافس على الحكم ، ولقد كان الوالي التركي في الحجاز المشير أحمد راتب باشا يقضي الصيف في مدينة جدة ، وينزل في قصر الأفندي عمر نصيف ، وكان هذا القصر من الفخامة بحيث يستطيع راتب باشا أن يصعد إلى أعلى القصر وهو يمتطي صهوة الحصان ، فلقد كانت سلالم القصر مبنية بالشكل الذي يسمح بذلك (٣٤٧) ، وانظر ما كتبناه عن قصر نصيف في كتاب « أعلام الحجاز » (٣٤٨) .

وإني لأتساءل الآن هل كان نفي الشريف عون لموسى أفندي بغدادي ومن معه بناءاً على شكوى من الأفندي عمر نصيف ؟ وبتعبير آخر هل كان للأفندي عمر نصيف يد في هذا النفي ؟ سيظل هذا السؤال قائما إلى أن يوجد لدينا أو لدى غيرنا ما يثبته أو ينفيه .

ونعود بعد هذا التعليق إلى « تاريخ مكة » لأحمد السباعي فنورد الحوادث التي ذكرها صاحبه عن الشريف عون الرفيق يقول السباعي :

قبض الشريف عون على إبراهيم العجيمي ، وعبد الله كردي إمام

---

(٣٤٧) انظر : صورة لقصر نصيف في كتابنا « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » : ص ٢٣٣ الطبعة الثانية .

(٣٤٨) أعلام الحجاز (ج ١) الطبعة الثانية : ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

الشافعية ، والشيخ أحمد بن الشيخ عبد الله ، فقيه أحد [٣٤٩] الأئمة ، والشيخ على زين العابدين هندية ونفاهم كذلك .

يقول الأستاذ السباعي : وقد ذكر أنهم كانوا يتصلون بالوالي التركي عثمان باشا فنهاهم عن ذلك حتى انتهوا ، ثم ما لبثوا أن عاودوا الاتصال بالوالي الجديد على أثر وصوله ، فعاقبهم بالنفي .

وقد رفعت قضايا النفي إلى دار الخلافة فلم توافق عليها ، وأباحت للمنفيين العودة إلى مكة فغادروا [٣٥٠] ، وقد عزل الشريف عون الشيخ عبد الرحمن الشيبي من وظيفة السدانة ، ونفاه إلى الهند ، فظل فيها إلى أن مات وعين للسدانة غيره من آل الشيبي [٣٥١] .

ويستطرد الأستاذ السباعي بعد ذلك : فيذكر حادثة الشيخ عبد الرحمن سراج وأصحاب الفتيا التي ذكرناها آنفا فيقول :

وفي سنة ١٣١٤ هـ صدر أمر الشريف عون بإبعاد الشيخ عبد الرحمن سراج مفتي الأحناف والشيخ محمد عابد بن حسين مفتي المالكية ، والسيد إبراهيم نائب الحرم ، والسيد علوي سقاف شيخ السادة بمكة ، والسيد عبد الله بن محمد الزواوي .

---

(٣٤٩) توجد ترجمة للسيد أحمد بن عبد الله بافقيه في المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ٧٥ وأرجح أن صحة الاسم هو أحمد بن عبد الله بافقيه والله أعلم .

(٣٥٠) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥١ .

(٣٥١) نفس المصدر .

ثم ذكر الأستاذ السباعي قصة المضابط التي وقعها هؤلاء العلماء الأجلاء بتوقيعاتهم وبعثوا بها إلى السلطان عبد الحميد فأعادها إلى الشريف عون ليطلع عليها ، فانتقم لنفسه من أصحابها وعاقب بعضهم بالسجن والبعض الآخر بالنفي .

يقول السباعي : ويذكر بعضهم أن المضابط أعيدت إلى مكة تصحبها لجنة على رأسها أحمد راتب باشا للتحقيق في موضوعها ، وأن عونا استطاع أن يكسب وُدّ أحمد راتب باشا ويظفر بنتيجة التحقيق ، وقد ظل راتب باشا في مكة على أثر ذلك يقوم بوظيفة الوالي بعد أن عزل جميل باشا .

أقول : والرواية الثانية تؤيد ما نقلناه آنفا على لسان الشيخ عبد الله سراج [٣٥٢] .

ولقد انتهت النتيجة بهروب الشيخ عبد الرحمن سراج إلى مصر ، وهروب الشيخ محمد عابد بن حسين مفتي المالكية إلى اليمن ، أو نفيه إليها ثم رحل من اليمن إلى الخليج العربي متنقلا من إمارة إلى أخرى حتى استقر بمدينة دبي مدة طويلة ثم غلبه الحنين إلى مكة فعاد إليها متنكرا مع الحجاج ، وبقي بها مختفيا إلى أن مات الشريف عون في عام ١٣١٣ هـ [٣٥٣] ، أما السيد عبد الله الزواوي فقد هرب إلى جاوة واستقر بها .

---

(٣٥٢) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥١ ، ٥٥٢ .

(٣٥٣) انظر : ترجمة المذكور في « سير وتراجم » لعمر عبد الجبار : ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

وهكذا نرى كيف كان الشريف عون يعامل العلماء الكبار وأصحاب الفتيا ، وأعيان الرجال فيأمر بنفيهم وإبعادهم .

يقول الأستاذ السباعي :

ويذكر هؤلاء أن عونا غدا أشد وطأة على الأهالي بعد قضية المضابط وأنه بعد أن انتقم من أصحابها اشتط في معاملاته مع غيرهم مما كان له أسوأ الأثر [٣٥٤] .

ويعلق الأستاذ السباعي على غرابة أطوار الشريف عون فيقول :

ويبدو أن الشريف عونا كان بغض النظر عن موضوع المضبطة غريب الأطوار ، متناقض الأعمال ، يقدس بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحبته للخير العام ، وتبسطه في مجالسة الخاصة ، وتودده للمسالمين ، وينعون عليه في الوقت نفسه تبذله بين ندمائه وقسوته في معاملة الحجاج ، وإمعانه في عقوبة مخالفيه ، واصطناعه « الخزناوية » الذين كانوا يضطهدون عامة الشعب [٣٥٥] .

ويوضح الأستاذ السباعي الخزناوية فيقول :

الخزناوية :

فرقة اتخذها الشريف عون كحرس خاص لخدمته ، والاستعانة بهم على تنفيذ أوامره ، فكانوا يتسلطون على الأهالي ويستغلون نفوذهم

---

(٣٥٤) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٢ .

(٣٥٥) نفس المصدر .

في اضطهاد من يضطهدونه ، أو يطعمون في أمواله فكان لا يجرأ أحد على الشكوى منهم .

ويعلق بعض المنتقدين بمرارة على أعمال الخزناوية ويقول : إنه كان يختارهم من طبقات العامة ، ويجيز لهم من النفوذ ما يستطيعون به إذلال الخاصة نكاية بهم (٣٥٦) .

أقول : ويبدو أن هؤلاء الخزناوية قد استبدوا في معاملة الناس استبدادا شديدا بدليل ما رواه السباعي عنهم بعد وفاة الشريف عون فقال :

ولما تولى الأمر علي باشا أمر باعتقال الخزناوية ، وصادر أموالهم وممتلكاتهم لقاء تسديد ما اغتصبوا من أموال الناس (٣٥٧) .

المجذوب علي بوّ :

عمد الشريف عون إلى رجل من المجاذيب اسمه علي بوّ كان يذرع الشوارع بجسمه العاري فجعله من جلسائه بعد أن أمر بتنظيفه وإلباسه الأثواب الفخمة التي تؤهله لصدور المجالس ، واتخذ هذا المجذوب أنيساً ، وأمر علية القوم وعظماءهم بتقبيل يده ، وأحلَّه مكان الصدارة منهم ، وكان إذا خرج في موكبه أجلس هذا المجذوب عن يمينه في عربته الخاصة ، وأمر الناس بالوقوف لأداء التحية له على نحو ما يفعلون لدى مرور الموكب الأميري (٣٥٨) .

---

(٣٥٦) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٢ – ٥٥٣ .
(٣٥٧) نفس المصدر : ص ٥٥٧ .
(٣٥٨) نفس المصدر : ص ٥٥٣ .

قصر علي بوّ :

هذا وقد شيد الشريف عون لهذا المجذوب قصرا منيفا في محلة القشاشية قرب المسجد الحرام بعد أن أجبر أصحاب الدور في المنطقة على إخلاء بيوتهم التي تم هدمها ثم بنى القصر مكانها [٣٥٩] .

أقول : لقد أدركت هذا القصر في مكة في الخمسينات وكان مقرا لإدارة البرق والبريد العامة ، وكان علي بو صاحب القصر يعيش في مكة ويمشي بين الناس ، ولكنه فيما يبدو أنه كان به مَسٌّ من لوثة عقلية هادئة ، وكانت عائلة البَوّ هي التي تؤجِّر القصر الجميل . وقد أزيل هذا القصر وأدخلت أرضه في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام .

يقول الأستاذ السباعي :

وعمد الشريف عون إلى قطعة أرض أمام القصر مكتظة بالبيوت فحكم على أصحابها بإخلائها ونقدهم ثمنها ، ثم أمر بهدمها ليجعل منها حديقة يمتع المجذوب بصره فيها ، ويبالغ بعضهم فيقول : إن عونا أراد أن يتوسع في الهدم حتى ينتهي إلى الغزة ليجعل المسافة بين قصر الإمارة وقصر المجذوب خالية لا يعترضها عند النظرة شيء بين القصرين وهي مسافة لا تقل عن ثلاثمائة متر [٣٦٠] .

وقد ظلت هذه القطعة من الأرض خالية طوال أيام الشريف عون ثم أجَّرها ورثته بعده لمن أقاموا عليها دكاكين وبيوتا من الصفيح ، وظلت

---

(٣٥٩) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٣ .

(٣٦٠) نفس المصدر : ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

كذلك إلى عهد الحكومة السعودية حيث ألزمت الورثة من آل عون بتخطيطها وبناء دكاكين وشوارع فيها ، وقد دخل اليوم بعضها في مشروع توسعة المسجد الحرام (٣٦١) .

أقول : وقد اشترى المرحوم الشيخ عبد العزيز كعكي الأرض التي أمام قصر البو في القشاشية ، وأنشأ فيها عمارة حديثة تقوم على دكاكين . وتعلوها مكاتب ، وقد اتخذ منها الدكتور محمد الخاشقجي – رحمه الله – مقرا لماكينة الكهرباء الضخمة التي استوردها إلى مكة والتي أنار بها شارع القشاشية ، كما اتخذ منها مقرا للتصوير الشعاعي وهي أول ماكينة تصوير شعاعي ترد إلى مكة (٣٦٢) .

أورد الأستاذ السباعي رواية تقول : إن هدم البيوت التي أمام قصر علي بَوّ إنما كان بأمر من السلطان عبد الحميد لإنشاء نزل للحجاج بمكة ، وإن النقود أرسلت من السلطان لهذا الغرض (٣٦٣) .

أقول : لو كان هذا الأمر صحيحا لما سمحت الحكومة العثمانية لورثة الشريف باستغلال الأرض وتأجيرها على الآخرين ، ولهذا فالأرجح أن الشريف عون إنما قام بنزع ملكية هذه البيوت لإنشاء الحديقة عليها لهذا المجذوب الذي كان يعتقد فيه الولاية والصلاح فقد تنبأ مرة بنبوءة

---

(٣٦١) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

(٣٦٢) انظر تفصيل ذلك في : ترجمة الدكتور محمد الخاشقجي في كتابنا « أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري » (ج ١) : ص ٢٢١ – ٢٣٠ الطبعة الثانية .

(٣٦٣) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٤ .

عند عون وصحت هذه النبوءة فاعتقد فيه الولاية [٣٦٤] ولله في خلقه شئون .

ويعلق الأستاذ السباعي على تصرفات الشريف عون بأنها نوع من الشذوذ الذي يصيب بعض العظماء بينما يرى البعض الآخر أن دهاء الشريف عون حمله على اصطناع هذا المجذوب الذي أخضعَ له العظماء وسادةَ الناس . وهناك رأي يقول : إن عونا إنما لجأ إلى هذه التصرفات ليوهم السلطان عبد الحميد أنه رجل ساذج فيبقيه في إمارة مكة ، كما أن البعض الآخر يرى في هذه التصرفات دليلا على السذاجة والغفلة [٣٦٥] .

أقول : أيًّا كان الرأي في تصرفات الشريف عون فإن الأمر الهام بالنسبة للناس أنه كان حاكماً عليهم ، يأمر فيطاع ، وقد عانى الناس من هذه التصرفات ما عانوا مما اضطر أولي الحل والعقد في مكة المكرمة إلى كتابة مضبطة للسلطان يذكرون فيها معاناة الناس ، ولست أشك أن هذه المضبطة كانت تهدف إلى تخليص الناس من حكم الشريف عون بدليل أن السلطان اهتم بما جاء فيها وأرسل لجنة للتحقيق في محتوياتها .

فيل الشريف عون :

ذكر الأستاذ أحمد السباعي في « تاريخ مكة » نقلا عن إفادة الأنام للشيخ عبد الله غازي ما يلي :

وأهدى أحد عظماء الهند للشريف عون فيلا فكان الفيل ينطلق

---

(٣٦٤) « تارخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٤ .

(٣٦٥) نفس المصدر : ص ٥٥٤ ، ٥٥٥ .

في شوارع مكة يصحبه مروِّضه ، وكان يصيِّف في الطائف إذا صيَّف الشريف عون [٣٦٦] .

وهذا الذي أوجزه السباعي في شأن الفيل حقيقته : أن هذا الفيل كان ينطلق في شوارع مكة ويتوقف أمام حوانيت الأغذية كالبر والشعير والدخن والأرز وما إلى ذلك فيلتهم ما شاء الله له أن يلتهم ولا يستطيع أصحاب هذه الحوانيت له دفعاً أو منعاً ، ومن ذا الذي يستطيع أن يمنع فيل الشريف من أن يأكل ما يشاء .

وكان من ضمن المؤاخذات التي أخذها علماء مكة على الشريف عون حكاية هذا الفيل الذي نال الناس من أذاه ما نالهم كما أخبرني بذلك الأستاذ حسين سراج بلسان والده الشيخ عبد الله سراج المعاصر للشريف عون .. والواقع أني أدركت الناس في مكة يتحدثون عن هذا الفيل كما يتحدثون عن بقرة الشريف عون ، التي كانت تطوف بحوانيت تجار الأغذية فتلتهم محتويات الزنابيل ولا يستطيع أصحاب هذه الحوانيت لها دفعاً أو منعاً ، وقد أعجبتني القصة التي كان يتناقلها الناس في مكة عن هذه البقرة واعتبرتها من القصص الشعبي الذي يستحق التسجيل ، وكتبت عنها أقصوصة صغيرة نشرتها ضمن الأقاصيص الصغيرة التي نشرت في الطبعة الثانية من كتاب « البعث » [٣٦٧] .

وتتلخص هذه الأقصوصة في أن تجار الأغذية في مكة ضاقوا

---

(٣٦٦) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٥ .

(٣٦٧) البعث : مجموعة قصصية لمحمد علي مغربي : ص ٢٩ – ٣١ الطبعة الثانية .

ذرعاً بأمر هذه البقرة فاجتمعوا وقرروا أن يذهبوا إلى الشريف عون يشكون أمرهم حتى يصدر أمره بمنع هذه البقرة من الطواف في الشوارع فيكفَّ أذاها عنهم .

وتجمع خمسون من أصحاب الحوانيت لدى شيخ السوق وانطلق بهم الشيخ إلى قصر الشريف عون ، ولكنهم أخذوا يتفلتون وهم في الطريق إلى القصر ، فانصرف ما يقرب من نصف التجار في الطريق وحينما وصل شيخ السوق إلى قصر الشريف كان الباقون مع الشيخ عشرة أشخاص ، وحينما صعد السلالم انصرف بعضهم ، ولم يبق مع الرجل سوى رجلين آخرين ، ولما وصل إلى مجلس الشريف ورأى شيخ السوق الشريف في صدر المجلس تسلل الرجلان الآخران فوجد شيخ السوق نفسه وحيداً أمام الشريف ، وحار الرجل في أمره ، إن شكا باسم التجار فأين هم الشاكون ؟ ومن نصبه زعيماً عليهم ، ومتحدثاً باسمهم ؟ وهو يعرف ما سيواجهه به الشريف .

وكان الرجل ذكيًّا واسع الحيلة فأكبَّ على يد الشريف يقبلها ويطلب منه باسم أهل السوق بقرة أخرى أو أكثر لأن هذه البقرة مباركة ، فهي لا تقف أمام حانوت من الحوانيت إلا ويفتح الله على صاحبه فيبيع في ذلك اليوم أضعاف ما يبيعه عادة ، ولقد عرف تجار السوق لهذه البقرة هذه المزية فأخذوا يتنافسون عليها ، كل يريدها لحانوته أولا لتناله بركاتها ..

والقصة كما كنت أتصورها قصة رمزية ، تنعي على الناس اندفاعهم وحماستهم فيما يرون أنه حق لهم ثم تقاعسهم بعد أن تفتر

موجة الحماس الأولى ، وانصرافهم وإيثارهم للعافية ، وتواكلهم بحيث يتركون زعيمهم وحيداً في مواجهة الأحداث .

كما ترمز من جهة أخرى إلى ذكاء شيخ السوق الذي انتقم منهم بطلب المزيد من البقر حتى ينالوا جزاء تقاعسهم وخذلانهم .

وعلى أي حال فقد ظهر لي الآن أن هذه القصة الرمزية لها أصل تاريخي فيما أثبته مؤرخ مكة الشيخ عبد الله غازي ونقله عنه الأستاذ أحمد السباعي ، ولا أستبعد حماس الناس في بقية القصة واندفاعهم للشكوى ثم تراجعهم خشية من عواقب إقدامهم على الشكوى من هذه البقرة أو هذا الفيل .

الشريف عون يبيع حقوق الطوافية :

وفي عام ١٣١٨ هـ قسّم الشريف عون طوافة بلاد مصر وجاوة والهند والمغرب ، وبلاد الأناضول وغيرها أقساما تسابق المطوفون إلى شرائها وبذلك ألغى سؤال الحاج عن مطوفه وألزمه بتبعية المطوف الذي اشترى حقوق الطوافة للبلاد التي يتبعها ذلك الحاج (٣٦٨) .

يقول إبراهيم رفعت باشا صاحب كتاب « مرآة الحرمين » تعليقا على هذا التقسيم : تسابق المطوفون إلى شراء هذه الأقسام بأثمان باهظة ظنُّوها متناسبة مع أهمية المركز وثروة حجاجه ، ولكن كثيرا منهم خسر في ذلك خسارة فادحة ، إذ دفعوا في الأقسام أثمانا باهظة بلغت الخمسين جنيها وزادت ، ولما حان الموسم لم يحصِّلوا مقدار ما دفعوا ، ولكن قليلا

---

(٣٦٨) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٦ – ٥٥٧ نقلا عن مرآة الحرمين .

منهم سعد جَدُّه فربح أرباحا عظيمة ، وقد نشأت خسارة من خسر من علو ثمن الأقسام ، ومن أنه كان سافر إلى بعض الجهات ، وأنفق في رحلته تلك ، وفي تلك الهدايا التي كان يأخذها لمريدي الحج النفقات الطائلة ، ثم ظهر بعد ذلك أن كثيرا منهم لم يأت في القسم الذي اشتراه .

ولما رأى بعض المطوفين أن حجاج قسمه فقراء وما يدفعونه بخس ، اشتد عليهم وأغلظ لهم القول ، وحصل من جراء ذلك تشاحن وتسابٌّ بين الفريقين .. وكانت العادة المتبعة قبل هذا التقسيم أنه يجبى من كل مطوف للشريف ريال عن كل حاج ينزل عنده ، وبالضرورة يأخذ المطوف من الحاج أمثال هذه الضريبة ، ولو كان في فقر مدقع ، وإن كانت لديه شفقة تجاوز عنه ، وحصَّل أضعافه من الموسرين ، والشريف لا يقيل أيّ مطوف من الضريبة مهما قدَّم من الأعذار ، فإما أن يدفع ، وإما أن يزج به في غيابة السجن ، وكذلك نولِّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون (٣٦٩) .

ونقل الأستاذ السباعي في تاريخ مكة عن مرآة الحرمين أن جميل باشا جاء إلى مكة فأبطل تقسيم بلاد الجاوة ، ثم عادت التقسيمات في عهد راتب باشا ، ويقول : إن بعض الصحف الجاوية نشرت تنتقد أعمال عون وتتهم بعض موظفي قصره وتقول : (إن هذا البعض يعطي للأمير من الشاة أذنها وقد بنوا الدور والقصور) (٣٧٠) .

---

(٣٦٩) « مرآة الحرمين » لإبراهيم رفعت باشا (ج ١) : ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣٧٠) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٧ .

هذا ما كتبه اللواء إبراهيم رفعت باشا عن تقسيم البلاد الإسلامية إلى أقسام ، وبيع حقوق الطوافة فيها لمن يشتري هذه الأقسام ، ويسمي هذا البيع تقارير ، وهذه التقارير تحدد جغرافية الأماكن التي يرد منها الحجاج ويكون الحجاج الواردون من هذه الأماكن حقًّا مقرراً لصاحب التقرير لا يشاركه فيه مشارك ، حتى ولو ذكر الحاج أو رغب في النزول عند مطوف آخر ، وكانت العادة المتبعة قبلاً أن يسأل الحجاج عند وصولهم إلى جدة عن أسماء المطوفين الذين يرغبون النزول لديهم ، ويتسلم وكلاء المطوفين هؤلاء الحجاج ليقوموا بترحيلهم إلى مكة أو المدينة حسب رغبات الحجاج ، فلما جاءت هذه التقارير أصبح حجاجها لا يُسألون وإنما يُحوَّلون إلى أصحاب التقارير ، وإنما يكون السؤال للأماكن والبلاد التي لا تشملها هذه التقارير .

نشأة الطوافة :

ولقد مرت مهنة الطوافة بأطوار كثير ولا نجد بين أيدينا في كتب التاريخ ما يدل عليها .

ويقول الأستاذ السباعي في « تاريخ مكة » : إن السلطان قايتباي حج في عام ٨٨٤ هـ ولم يحج من ملوك الشراكسة غيره ، وإن القاضي إبراهيم بن ظهيرة تقدم لتطويفه ، وتلقينه الأدعية ، ولم يذكر المؤرخون مطوفاً قبل القاضي كان يلقن الحجاج في مكة فيما قرأته من تواريخ مكة ، كما يقول الأستاذ السباعي (٣٧١) .

---

(٣٧١) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي نقلا عن الأعلام للقطبي : ص ٣٣٧ .

أقول : إن الطوافة ليست هي تلقين الحاج الأدعية التي يتلوها في طوافه بالبيت فقط ، فهذا مظهر من مظاهرها ، ولكن مهنة الطوافة أوسع من ذلك كثيراً ، ولي في هذا الموضوع رأي قديم توصلت إليه بعد تفكير ولا بأس من إثباته هنا :

لقد كانت مكة المكرمة منذ ظهر الإسلام ، ومنذ أن فرض الله فريضة الحج مكاناً تهوى إليه أفئدة المسلمين فيفدون إليه حاجين ، ولما خَصَّ الله به البيت الحرام كان للإقامة بمكة فضلها العظيم وثوابها الجزيل ، فكان الحجاج يفدون إليها والبعض منهم يتخلف للإقامة بها ، كما كان البعض يستطيب الإقامة فيها لطلب العلم ، فلقد كانت مكة دائماً منهلاً من مناهل العلم يفد إليها الناس من شتى أنحاء الأرض ، ويحدثنا التاريخ عن حلقة عبد الله بن العباس – رضي الله عنه – في المسجد الحرام حيث يضرب إليه الناس آباط الإبل يسألونه ويتفقهون على يديه ، وجاءت بعد حلقة ابن العباس حلقات أخرى للعلماء في مكة والمدينة أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وابن المسيب وابن عطاء ، وربيعة الرأي وغيرهم ، ثم توالت الحلقات لأئمة الفقه والحديث عبر العصور ، ولقد أدركت مكة في منتصف القرن الهجري الرابع عشر وهي تستقبل طلبة العلم من جاوا وأفريقيا ، ومن الهند ، كان المسلمون يبعثون أبناءهم إلى مكة لتلقي العلم على يد علماء المسجد الحرام فيقضون الأعوام العديدة في طلب العلم ، ثم يعودون إلى بلادهم لينشروا هذا العلم في أوطانهم ، ولقد كانت المدرسة الصولتية في مكة تقوم بتعليم طلبة المسلمين الهنود في مكة ليعودوا إلى الهند فينشروا

العلم في تلك الديار [٣٧٢] . كانت مكة منذ القدم مكاناً يفد إليه الناس ويقيمون فيه كما ذكرنا ، وكان القادم للحج إذا كان له قريب أو إنسان تربطه به معرفة أو سبب يسأل عن هذا القريب حين وصوله إلى مكة فينزل عنده إن كانت الصلات التي تربطه به تستوجب هذا النزول أو على الأقل يستعين به وهوالقادم من ديار بعيدة لقضاء حجه ، وتسهيل أمره ، فإذا كان المقيم في مكة على سبيل المثال مصريًّا فإن القادمين من بلده في مصر يسألون عنه حين وصولهم ، وتتصل أسبابهم بأسبابه ، يستعينون به في تجهيزهم للسفر إلى عرفات وأداء المناسك مثلا ثم في زيارتهم للمدينة المنورة ، والمقيم يعرف من شئون البلد الذي يقيم فيه ما لا يعرفه الزائر ، ولا غرابة أن يجتمع لهؤلاء المقيمين العدد الكبير من الوافدين من ديارهم في كل عام ، فيكون هؤلاء المقيمون هم المرشدون لهؤلاء الوافدين والمعينون لهم على أداء مناسكهم .

وهكذا بدأت مهنة الطوافة من الصداقة والمعرفة ثم تطورت إلى عمل تجاري تنافس فيه الناس فكان لابد من أن يتدخل الحكام لتنظيمه فكان التنظيم أولاً هو بسؤال الحاج عن المطوف الذي يرغب الالتحاق به ، ثم طرأت مسألة التقارير التي يمنحها الحكام للمطوفين أو يبيعها بعضهم كما فعل الشريف عون .

وأذكر أنني كنت بمكة في الخمسينات من القرن الرابع عشر الهجري وكنت أبحث في بداية تاريخ الطوافة ونشأتها واتصلت أسبابي

---

(٣٧٢) انظر : ما كتبناه عن المدرسة الصوليتية في « أعلام الحجاز » (ج ٢) لكاتب هذه السطور : ص ٢٨٦ - ٣١٣ .

بأسباب الصديق المرحوم الشيخ محمد جعفر لبني [٣٧٣] وكان يشغل منصب رئيس قضايا المطوفين فسألته عن هذا التاريخ فقال لي : إن أقدم تقرير في الطوافة في مكة هو تقرير بيت صحرة ، وهم من مطوفي إيران وإن هذا التقرير يعود إلى ستمائة عام ، وقد حاولت الاطلاع على هذا التقرير فلم أتمكن فإذا صحَّ ما ذكره لي المرحوم الشيخ محمد لبني وهو خبير في هذا الشأن فإن هذا التقرير يكون قد سبق التاريخ الذي ذكره الأستاذ السباعي بمائة وثلاثين عاما – والله أعلم – .

على أي حال لقد مرت أعوام كان الناس في مكة والكثيرون منهم يعتمدون في حياتهم على الحجاج وكان المطوفون في مكة ، ووكلاؤهم في جدة يشكلون الطبقة الثرية في البلاد التي تقتني القصور ، وتعيش حياة البذخ والترف ، وكانوا يكتفون بعملهم في الطوافة فلا يعملون إلى جانبها عملا آخر لما تدرُّه عليهم من الأموال الكثيرة ، كانوا يستقبلون الحجاج من جمادى الأولى ، وكانت أول باخرة تفد بالحجاج من جاوة تنقل الفوج الأخير من حجاج السنة الفائتة فكان الحجاج يقضون في البلاد الشهور الطويلة ، وكان الحجاج أثرياء ، كانت الروبية الجاوية غالية الثمن فكان الجنيه الإنجليزي الذهب بخمس روبيات جاوية وسبع روبيات هندية ، وكان الحجاج يحضرون معهم الماس والذهب وكانوا ينفقون الأموال الكثيرة في الحجاز .

ثم دارت الأيام الأيام دورتها فتبدل الحال غير الحال ، فحلَّت

---

(٣٧٣) انظر ترجمته في : أعلام الحجاز (ج ١) الطبعة الثانية : ص ١٦٥ – ١٦٨ .

الطائرات محل السفن ، وأصبحت إقامة الحجاج في الحجاز محدودة ، وكثر التوالد في البلاد الإسلامية فعانت من الكثافة السكانية ، ومن التضخم المالي ومن المشاكل الاقتصادية الكثيرة فلم تعد مهنة الطوافة تكفي أصحابها ، ولهذا فإنهم قد اتخذوها مهنة مساعدة واتجه الكثيرون منهم وخاصة الجيل الجديد إلى الأخذ بأسباب الحياة الكثيرة فكان منهم الأطباء والمهندسون والعلماء ورجال الأعمال وأصحاب المراكز في الدولة وحسنا فعلوا فالتطور سنة الحياة .

ولقد تطورت الطوافة من السؤال والتقارير فأصبحت الآن مؤسسات تضم الأجناس المختلفة ولها هيئات خاصة بها يقوم بها المطوفون أنفسهم ، وتشرف وزارة الحج والأوقاف على هذه المؤسسات ويستمر التطور لمصلحة الحجاج ولمصلحة المطوفين إلى الأفضل بإذن الله .

إبراهيم رفعت باشا يصف حكم الشريف عون :

وصف إبراهيم رفعت باشا حكم الشريف عون في مكة في كتاب « مرآة الحرمين » في حجته عام ١٣١٨ هـ فقال :

يلقب شريف مكة بسيد الجميع تمييزاً له عن بقية الأشراف ، وهو الحاكم الذي لا ينازع في أمر ، ولا يرد له قول ، ينفي من شاء ، ويحبس من شاء ، ويعاقب من شاء ، بيده عقد الأمور وحلها ، وكل الحكام بمكة طوع إشارته من كبيرهم أحمد راتب باشا المشير إلى صغيرهم ، فإن عارضه واحد منهم عزل في الحال ، لأن الشريف له يد قوية في الدولة ، فأيّ الأمور طلب أجيب إليه ، بل غالب الشكايات منه ترد إليه ليفصل فيها بما شاء من شرع أو هوى لا معقب لحكمه فالويل كل الويل لمن شكا .

ويعلق الباشا على ما كتب فيقول :

نعم هذه اليد المستبدة تناسب حال الأعراب الأشرار الذين لا ترغمهم إلا القوة ، ولا يقوّمهم إلا البطش بهم ، ولكن لو ضمت إلى القوة العدالة لكبح الأشرار عن سيئاتهم ، والتفَّ الناس حوله بأجسامهم وقلوبهم لأن للعدل من السلطان على النفوس ما ليس للقوة الغاشمة [٣٧٤] وهذا الوصف الذي ذكره صاحب « مرآة الحرمين » يلخص تاريخ الشريف عون الذي استمر يحكم مكة من ٩ ذي الحجة ١٢٩٩ هـ إلى جمادى الأولى ١٣٢٣ هـ دون معارض .

ضرائب الشريف على الحجاج :

ذكر إبراهيم رفعت باشا أن عدد الحجاج في عام ١٣١٨ هـ بلغ مائة وخمسين ألف حاج وعدَّد أنواع الضرائب فقال : إنه كان يؤخذ للشريف على كل رأس من الذبائح التي تباع على الحجاج خمسة قروش تؤخذ من البائع [٣٧٥] ويؤخذ على كل شقدف يباع في جدة ستة قروش ونصف مصرية – روبية – ويؤخذ من أجرة الجمل الذي يقل الحاج من جدة إلى مكة ريالان للشريف ، وخمسة قروش عثمانية للحكومة ، وريال آخر لوكيل المطوف بجدة ولمتعهد المطوف ضرائب ما أنزل الله بها من سلطان ، كما كان يؤخذ للشريف على كل جمل يباع خمسون قرشا ويؤخذ للشريف على الجمل الواحد إلى عرفات ريال واحد ، أما أجرة الجمل من مكة إلى المدينة فينبع فإن للشريف فيها اثنا عشر ريالا [٣٧٦] وقد أفاض

---

(٣٧٤) مرآة الحرمين (ج ١) : ص ٦٥ .
(٣٧٥) نفس المصدر : ص ٥٣ .
(٣٧٦) نفس المصدر : ص ٦٥ ، ٦٦ .

صاحب كتاب « مرآة الحرمين » في هذا الأمر إفاضة كبيرة فليرجع إليها من رغب .

كما ذكر الارتفاع المستمر في أجور الجمال للحجاج فقد كانت ٨٥٠ قرشا أجرة الجمل الواحد في سنة ١٣١٤ هـ فما زالت تزيد حتى وصلت إلى ٢٠٩٦ قرشا في سنة ١٣١٨ هـ (٣٧٧) .

إعانة السكة الحديدية الحجازية :

وفي عام ١٣١٨ هـ أمر الشريف عون بجمع إعانة للسكة الحديدية وقدَّر على كل حاج ريالاً ، فأخذ المطوفون يجمعونها ويوردِّونها للشريف ، وقد حبس الحجاج بمكة سبعة أيام حتى يتم استحصال هذه الإعانة الجبرية منهم ، ولقد حاول بعض الحجاج التظلم من حبسهم عن السفر فذهب بعض حجاج المغاربة يشكون إلى الوالي فأرسل معهم مندوبا من قبله إلى الشريف ليسمح لهم بالخروج ، فلما وصلوا إليه انقض عليهم – البارودية – (٣٧٨) ضرباً بالعصي فتشتتوا مذعورين ، وحينما سمح للحجاج بالسفر من مكة أوقفوا في مكان ضيق مخصوص في الطريق لاستحصال ريال واحد للحكومة ، واستعملوا كل غلظة وقساوة مع الحجاج ، فدخلت الشقادق في بعضها وكاد الناس يكونون طبقات بعضها فوق بعض ، وهناك تحطَّم كثير من الشقادف وسقط بعض الراكبين من عليها فتهشمت منهم العظام وبلغت فيهم الجراح (٣٧٩) .

---

(٣٧٧) مرآة الحرمين (ج ١) : ص ٦٧ .

(٣٧٨) البارودية : نسبة إلى حاملي البارودة ، وهي البندقية وهم حرس القصر للشريف .

(٣٧٩) مرآة الحرمين (ج ١) : ص ٧١ ، ٧٢ .

ونكتفي بهذا القدر الذي أورده المؤرخون عن سيرة الشريف عون في مكة المكرمة والتي امتدت ما يقرب من ربع قرن ، وقد أفضنا فيها لننقل للقارئ صورة من الحياة في مكة قبل ما يقرب من مائة عام ، ليعرفوا شيئاً من تاريخ البلد الحرام في ذلك العصر السحيق ، وليأخذوا العبرة ، وليحمدوا الله تعالى على ما أفاء عليهم من النعم الكثيرة ، أمناً شاملاً ، ورخاءاً عظيماً ، وتطوراً فاق ما يتصوره الخيال .

رئيس النظار يطلب إرسال عبد الرحمن سراج إلى مصر :

ونعود بعد هذا الاستطراد الطويل إلى الشيخ عبد الرحمن سراج الذي تركناه يستقل سفينة شراعية ومعه ابنه الشاب عبد الله سراج إلى مصر هارباً من بطش الشريف عون ، فيصل إلى الشواطئ المصرية وهو مريض مدنف ، وقابل الشيخ عبد الرحمن سراج حكمدار السويس وطلب منه أن يخبر رئيس النظار مصطفى فهمي باشا بوصوله إلى مصر ، وطلب رئيس النظار إرسال الشيخ عبد الرحمن سراج إلى القاهرة فوصلها ضيفاً على رئيس النظار الذي كانت له معرفة سابقة به .

أقول : مصطفى فهمي باشا رئيس وزراء مصر كان والد السيدة صفية زغلول أم المصريين وزوجة زعيم مصر العظيم الراحل سعد باشا زغلول .

وفاة الشيخ عبد الرحمن سراج :

ولكن حياة الشيخ عبد الرحمن سراج آذنت بانتهاء فقد اشتد عليه المرض ، فقضي غريباً عن وطنه ، بعيداً عن أهله وأحبابه ، وكانت وفاته

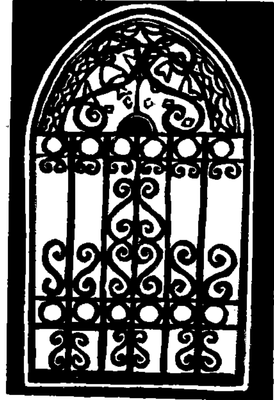
في سنة ١٣١٤ للهجرة في السادسة والستين من العمر بعد حياة حافلة كان فيها مثال العالم العامل الذي يجهر بالحق والذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، والذي يأنف الظلم على العباد والذي يرفض المناصب العظيمة في إباء واعتزاز ، ويؤثر ما عند الله على ما عند الناس .

* * *

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية





الشيخ عبد الله عبد الرحمن سراج

عبد الله عبد الرحمن سراج

متوسط القامة أقرب إلى الطول منه إلى القصر ، مليء الجسم في غير إسراف ، قمحي اللون ، واسع العينين ثاقب النظرة ، عظيم الأنف ، وخط الشيب لحيته وعارضيه ، تلمح في وجهه ملامح الذكاء والإباء ، يرتدي الجبة والعمامة الحجازية ، وتتميز لفة العمامة بالميسم الذي تتميز به عمائم العلماء فلا ترى لها عَذَبَة ظاهرة كما هو شأن التجار والوجهاء ، ولكنها متكورة اللفات شأن العلماء في سمتهم .

ولد الشيخ عبد الله سراج في سنة ١٢٩٦ هـ بمكة وتلقى تعليمه فيها ، فالتحق بالمدرسة الصولتية التي ابتدأت الدراسة فيها في سنة ١٢٩٠ هـ وتخرج منها (٣٨٠) كما تتلمذ على أعلام علماء مكة . فقد أدرك الشاب عبد الله سراج أباه وصاحَبَهُ حينما نفاه الشريف عون الرفيق من مكة ، صاحبه إلى جدة أولا ثم سافر معه إلى مصر وبقي بجانب أبيه إلى حين وفاته في مصر سنة ١٣١٤ هـ ، وكان عبد الله سراج في ذلك الحين فتى يقترب من العشرين من العمر ، وكان والده كما وصفه صاحب كتاب « نشر النور والزهر » :

أوحد علماء هذا العصر وفقهائه وأدبائه وشعرائه ، تفنن في علومه ،

---

(٣٨٠) انظر : كل ما يتعلق بالمدرسة الصولتية ومؤسسها في « أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري » (ج ٢) لكاتب هذه السطور : ص ٢٨٦ – ٣١٣ .

وأجاد في منثوره ومنظومه ، وتميز بالفضل على أقرانه ، وزاحم بمنكبه صدور أهل زمانه إلخ ..

نعم لقد تلقى عبد الله سراج من والده الكثير من العلم والمعرفة كما تلقي عنه دروساً أخرى لا تقل أهمية عنها .

الشيخ عبد الرحمن سراج يؤدب ابنه :

كان الشريف عون الرفيق قد نفى كبار علماء مكة المكرمة وأصحاب الفتيا فيها ، وكان أحد المنفيين هو الشيخ عبد الرحمن سراج الذي سافر معه ابنه عبد الله سراج فوصلوا إلى جدة ونزلوا في بيت شيخ دلالي الأسماك فيها وكان عبد الرحمن سراج مريضاً ، ولم يكن معه من المال ما يصلح أحواله وأحوال ابنه ، وفي المسكن البسيط الذي لجأ إليه في جدة زار الشيخ عبد الرحمن سراج رسول المعتمد البريطاني في جدة وعرض على الشيخ عبد الرحمن سراج رغبة الحكومة البريطانية إصدار فتوى بجواز أن يكون للمسلمين خليفتان في وقت واحد ، فإذا أصدر الشيخ عبد الرحمن هذه الفتوى ، فإن الحكومة البريطانية تنقله في بارجة حربية إنجليزية إلى الهند ليتولى منصب قاضي القضاة هناك .

ونظر عبد الرحمن سراج إلى ابنه ، كأنه يستطلع رأيه ، ورأى الشاب عبد الله سراج أن الفرج قد جاء إلى أبيه في هذا العرض الذي يستردُّ به ما فقد من منصب وجاه ، فقال لأبيه ، إنه لا يرى بأساً بإصدار هذه الفتوى ؟

ولكن عبد الرحمن سراج نظر إلى ابنه نظرة صاعقة ، وأهوى بيده على وجهه فلطمه على خده لطمة أليمة ، والتفت إلى رسول المعتمد

البريطاني يقول :

ارجع لسيدك فأخبره أني لا أبيع ديني بدنياي (٣٨١) .

هذه اللطمة التي أهوى بها عبد الرحمن سراج على وجه ابنه الشاب كانت له درساً من أعظم الدروس ، ظل يهتدي به طول حياته ، حتى أنه حدَّث ابنه البكر حسين سراج عنه بعد عشرات السنين .

عبد الله سراج في مصر :

سافر عبد الله مع أبيه الشيخ عبد الرحمن إلى مصر هاربيْن من بطش الشريف عون في سفينة شراعية دبر سفرهما فيها كبير جدة الأفندي عمر نصيف ، ووصلا إلى مصر ، وعلم بمقدم الشيخ عبد الرحمن سراج رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت مصطفى فهمي باشا فنزل الشيخ عبد الرحمن وابنه في ضيافة رئيس الوزراء .. وكان عبد الرحمن سراج مريضاً فلم تطلْ أيامه في مصر فتوفِّي هناك في سنة ١٣١٤ هـ ، ووجد الشاب عبد الله سراج نفسه وحيداً في مصر بعد وفاة أبيه فالتحق بالجامع الأزهر ، يتلقى العلم على شيوخه الأجلاء ، وحصل على شهادة العالمية من الأزهر .

السفر إلى الهند :

ولم تكن أحوال الشاب عبد الله سراج في مصر حسنة ، فقد كان يشعر بالضيق بعد وفاة والده وبعد وفاة مضيفهم مصطفى فهمي باشا ،

---

(٣٨١) فصلنا في ترجمة الشيخ عبد الرحمن سراج قصته وقصة علماء مكة مع الشريف عون .

ونفاذ ما لديه من المال القليل ، حدَّث عن نفسه فقال :

كنت أجلس يوما في أحد المقاهي القريبة من الجامع الأزهر ، ومرَّ بي رجل هندي تنم عنه ملابسه وهيئته وأخذ يطيل النظر إليّ ، ويتعمَّد المرور أمامي جيئة وذهوباً ، فدعوته إلى الجلوس معي بعد أن أدركت أن لديه ما سيفضي به إليّ ، جلس الرجل وسألني من أي البلاد أنت ؟ فلما أخبرته خبري قال : إنه يعرف والدي ، وإنه تتلمذ عليه في مكة المكرمة ، ودعاني إلى السفر معه إلى الهند وزيَّن لي الأمر .

يقول عبد الله سراج :

ولما كنت غريبا في مصر ، مبتعداً عن وطني في الحجاز قبلت الأمر ، وسافرت مع الرجل إلى الهند ، وكنت أطوف بمدن الهند بترتيب من هذا الرجل ، وجاء رمضان وصليت بالمسلمين هناك صلاة التراويح في شهر رمضان في مدينة حيدر آباد ، وفي آخر ليلة من ليالي هذا الشهر الكريم تدفقت الهدايا للإمام فبلغت قيمتها أربعين ألف روبية ، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمان ثروة طائلة .

وعلم السيد عبد الله الزواوي مفتي الشافعية الذي نفاه الشريف عون مع أبيَ علم بمكاني في الهند ، وكان هو قد هاجر إلي جاوة - أندونسيا - فأرسل إليّ يدعوني للقدوم إلى هناك وسافرت إلى جاوة ثم عدت منها مرة أخرى إلى الهند .

أقول : كان المسلمون وما زالوا ينظرون إلى الأماكن المقدسة نظرة تقديس ، وكانوا ينظرون إلى أهلها نظرة إكبار وإجلال ، خاصة إذا كانوا من العلماء ، فإذا حل المكي والمدني أرضاً أحلَّه أهلها بينهم محل التكريم

والإعزاز ، يلتمسون فيهم القدوة الحسنة ويغدقون عليهم الهدايا العظيمة ، وخاصة إذا كان القادم رجل علم وفضل ، وكان حميد السيرة في أعماله وسلوكه ، ولقد تعوَّد الناس في الحجاز كلما ضاقت بهم الحال ، أو نبا بهم المقام أن يرحلوا إلى الديار الإسلامية ، يلتمسون فضل الله تعالى عليهم في هذه الرحلات ، فيجنون منها أطيب الثمر ، وأحسن الأثر .

ولقد كان من عادة المطوفين خاصة إذا ما انتهى الحج وانقضت أيامه أن يرحلوا إلى البلاد التي يرد منها حجاجهم ، توثيقاً لعلائقهم بالحجاج وبالراغبين في القدوم إلى الحج ، وكانوا يصطحبون معهم الهدايا التي يحبها الحجاج لتقديمها إلى كبار الرجال ، ويتلقون بدورهم الهدايا والألطاف ، بل إن بعض المطوفين كان يصهر إلى أهل الديار فيتزوجون من نسائها ، وكان الناس هناك يقبلون على تزويجهم راضين لأنهم من أهل البلاد المقدسة .

ولكن النظرة إلى القادم من الحجاز ترتبط دائما بتصرفاته وحسن سلوكه ، فإذا أخطأ كان خطؤه عظيماً وكان حسابه على هذا الخطأ أعظم ، ولهذا فإن الذين كانوا يرحلون إلى البلاد الإسلامية ينظر إليهم كممثلين لبلادهم المقدسة والويل كل الويل لهم لو انحرفوا أو زلُّوا فإن السخط عليهم وعلى تصرفاتهم يكون عظيماً ، هكذا كان الحال في الماضي ، حينما كانت البلاد الإسلامية بلاد الخير والبركة ، وحينما كان الحجاز يعتمد في حياته على الحج والحجاج ، وقد دار الفلك دورته ، وأصبح الحجاز بل أصبحت المملكة العربية السعودية مركز الثقل الاقتصادي في العالم الإسلامي ، وأصبحت الدولة تنفق على الحج ومرافقه آلاف الملايين من الريالات ، فلم يَعُدْ أهل هذه البلاد بحاجة إلى السفر

لاستقدام الحجاج ، ولكنهم يسافرون للسياحة ، والتجارة ، والاستشفاء ، وأصبح الحجاج يتسوقون من مدن الحجاز ما ينقص بلادهم من الأجهزة المختلفة والهدايا النفيسة ، والأدوية المبذولة فسبحان مغير الأحوال ، وحمداً له تعالى على كل حال .

عبد الله سراج في الآستانة :

يقول عبد الله سراج ، ولكني آثرت بعد ذلك السفر إلى استانبول عاصمة الخلافة العثمانية في ذلك الزمان رغبة مني في الالتحاق بإحدى المدارس هناك .. وسافر عبد الله سراج إلى استانبول واستقر بها وزار الشريف الحسين بن علي – ملك الحجاز فيما بعد – وكان يقيم بها في البشكطاش ، فدعاني إلى الإقامة في ضيافته الكريمة . يقول عبد الله سراج فانتقلت إلى دار الشريف الحسين بن علي وبقيت معه في الآستانة ثمانية عشر عاما ، وكانت غرفتي في داره مجاورة لغرفة الأمير الشريف عبد الله بن الحسين – جلالة ملك المملكة الأردنية الهاشمية فيما بعد – وتوثقت صلة عبد الله سراج بالشريف الحسين بن علي كما توثقت صلته بابنه الأمير عبد الله بن الحسين ، كما كان يتولى الإمامة في منزل الشريف الحسين الذي تعمَّد إبقاءه في داره .

وفي أثناء إقامته بالآستانة توثقت صلته برجال الدولة في عهد السلطان عبد الحميد فنال ثقتهم وأنعم عليه السلطان عبد الحميد بالوسام الحميدي .

إعلان الدستور في تركيا :

تطورت الأحداث في تركيا فقام الاتحاديون بإعلان الدستور

في ٢٧ جمادى الثانية ١٣٢٦ هـ مع بقاء السلطان عبد الحميد على العرش (٣٨٢) ثم خُلع في نفس العام ورحل مع أسرته إلى سلانيك ثم أعيد إلى الآستانة فظل فيها أسيرا .

إعلان الدستور بين الشريف والوالي :

لما قام الاتحاديون بإعلان الدستور وعزل السلطان عبد الحميد أصدروا أوامرهم إلى الوالي التركي في الحجاز أحمد راتب باشا بإعلان الدستور في البلاد ، ولكن راتب باشا تباطأ في الأمر وصرح لكبار الضباط بعدم التسرع في نشر الدستور ، وأن يتم ذلك تدريجيًّا خشية من الفتن في الحجاز .

ولكن أنصار الدستور من الضباط والجنود وبعض الأهالي لم يقتنعوا برأيه ، ورأوا ضرورة التعجيل بإعلان الدستور وكان الأمير في الحجاز هو الشريف علي باشا بن عبد الله في مصيفه بالطائف ، كتب أحمد راتب باشا إلى الشريف علي باشا يطلب منه الحضور إلى جدة لمساعدته في إخماد الفتنة التي يتوقعها حين إعلان الدستور .

وكتب علي باشا إلى الوالي يوافق على رأيه في إرجاء إعلان الدستور ، ولكنه لم يحضر إلى جدة لمساعدته على إخماد الفتنة .. واستطاع أنصار الدستور في جدة القبض على راتب باشا وإرساله إلى مكة أسيراً في القلعة .

ثم أعلنوا الدستور ، ونادوا به في شوارع مكة وجدة والطائف .

---

(٣٨٢) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

عزل راتب باشا :

وعلم الاتحاديون في الآستانة بتباطيء راتب باشا في إعلان الدستور فصدر الأمر بعزله ، وتولية كاظم باشا الذي وصل إلى مكة في رمضان من العام المذكور ١٣٢٦ هـ [٣٨٣] .

ثورة القبوري :

لم تكن ثورة الاتحاديين على السلطان عبد الحميد وعزله عن الخلافة لتمرَّ دون أن تترك آثارها في نفوس الناس ، خاصة لما عرف عن الاتحاديين أو على الأصح عن بعضهم من عدم الالتزام الكامل بأمور الدين ، فكان الناس في شكٍّ من أمرهم ، وقد قام بعض أنصار الاتحاديين في مكة بفرض ضريبة على دفن الموتى مقدارها خمسة ريالات ، قالوا : إن هذه الضريبة ستصرف في إصلاح القبور .

واستدعي لهذا الغرض شيخ القبوريين لإبلاغه باستيفاء هذه الضريبة من أهل الموتى ، ولكن شيخ القبوريين استنكر الأمر وخرج من دار الحكومة صائحاً فاجتمع إليه الناس ، فأعلن الأمر إليهم في صورة استثارت مشاعرهم وكانوا - كما يقول الأستاذ السباعي - لم يتوطنوا بعد على مبادئ الدستوريين ، ولم يقتنعوا بثورتهم على الخليفة وصاح صائحهم بالجهاد في سبيل الله . واستجاب الشباب من جميع الحارات ، وخرجوا بأسلحتهم ينادون بالثورة على الأتراك ، فاشتبكوا مع الجند في عدة مواقع من الأسواق ، وقتل وجرح من الفريقين عدد غير كبير .

---

(٣٨٣) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٥٨ ، ٥٥٩ .

ثم استطاع الأتراك بمساعدة بعض الأشراف إخماد الفتنة بعد ساعات من نشوبها .

عزل علي باشا أمير مكة وتولية عبد الله بن محمد عون :

وقد اتهم الأتراك الشريف علي باشا أمير مكة بتدبير هذه الفتنة ومساعدتها ، وكانوا قد استاءوا من تباطئه في إعلان الدستور فأصدروا أمرهم بعزله في ٢٨ رمضان ١٣٢٦ هـ وتولية الشريف عبد الله بن محمد ابن عون .

وفاة عبد الله بن محمد بن عون وتولية الحسين بن علي :

ولكن المنية عاجلت الشريف عبد الله قبل أن يصل إلى مكة فتوفي في ٣ شوال من عام ١٣٢٦ هـ بعد خمسة أيام من تعيينه وكان سقيماً أنهكته الأمراض كما كان يقيم في الآستانة ، فوجهت الولاية إلى الشريف الحسين بن علي – ملك الحجاز فيما بعد – ووافق الخليفة محمد رشاد الخامس على ذلك فتوجه الحسين وكان مقيماً في الآستانة فوصل إلى مكة في ذي القعدة من عام ١٣٢٦ هـ [٣٨٤] .

عبد الله سراج يعود مع الحسين إلى مكة :

وبعودة الشريف الحسين بن علي إلى مكة عاد إليها في معيته الشيخ عبد الله سراج ، وقد عرفنا أنه كان مقيماً بدار الشريف الحسين في الآستانة .

---

(٣٨٤) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٦٠ ، ٥٦١ .

وظائف عبد الله سراج في مكة :

أسند الشريف الحسين إلى الشيخ عبد الله سراج وظيفة الإفتاء التي كان يتولاها أبوه الشيخ عبد الرحمن سراج ، وجَدُّهُ الشيخ عبد الله سراج الذي كان رئيساً لعلماء مكة [٣٨٥] ، فالرجل سليل أسرة علم وفتيا جيلا بعد جيل فلا غرابة أن يسند إليه الشريف الحسين بن علي هذا المنصب الجليل ، وهو من أقرب الناس إليه كما أسلفنا .

انتخاب عبد الله سراج عضوا في مجالس المبعوثان :

جاء في « تاريخ مكة » للسباعي نقلا عن كتاب « إفادة الأنام » ما يلي :

على أثر إعلان الدستور في الحجاز صدرت أوامر الاتحاديين بانتخاب مبعوث عن كل خمسين ألف شخص لتمثيل بلادهم في مجلس المبعوثان – مجلس الدستور – فانتخبت مكة المفتي الشيخ عبد الله سراج بصورة أقرب إلى التعيين منها إلى معنى الانتخاب .

والشيخ عبد الله سراج يستقيل :

وسافر المنتخب إلى السويس ثم ما لبث أن استعفى وبذلك عقد مجلس المبعوثان في ذلك العام ، ولم يحضر مبعوث مكة [٣٨٦] .

---

(٣٨٥) انظر ترجمة الشيخ عبد الله سراج الجد في المختصر من كتاب « نشر النور والزهر » : ص ٢٩٧ – ٣٠٠ .

(٣٨٦) « تاريخ مكة » نقلا عن كتاب « إفادة الأنام » مخطوط للشيخ عبد الله غازي : ص ٥٦٠ .

وللقارئ أن يتساءل معي عن الأسباب التي دفعت الشيخ عبد الله سراج للاستعفاء من هذا المنصب العظيم ونستطيع تعليل هذا الاستعفاء بأنه كان بوحْي من الشريف الحسين بن علي الذي لم يكن راضياً عن الاتحاديين والتي كشفت له إقامته الطويلة في تركيا دخائل أمورهم وما كانت تموج به عاصمة الخلافة من العناصر المختلفة وخاصة ما كان العرب يهيئون أنفسهم له من استقلال عن تركيا بعد أن ظهرت بوادر العنصرية لدى الأتراك ضد العرب .

ويبدو أن الحسين آثر إظهار المسايرة للاتحاديين فأمر بانتخاب عضوين في العام التالي لمجلس المبعوثان هما ابنه الشريف عبد الله بن الحسين ، والشيخ حسن عبد القادر الشيبي (٣٨٧) .

الشريف الحسين يعلن الثورة على الأتراك :

استمر الشريف الحسين أميراً على مكة من القعدة ١٣٢٦ هـ إلى ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ ، وكان طيلة مدة إمارته يهيئ نفسه للانقضاض على الاتحاديين ، وكان لا يترك للوالي التركي فرصة للعمل فقد كانت مجالسه تفيض بالنشاط ، وكان دائم الاتصال بطبقات الشعب والأهالي ، كما كان يستقبل وفود البلاد العربية القادمين إلى الحج ، ويطيل في حديثه عما يتوجسه من الاتحاديين .

وقد ذكر الأستاذ السباعي في « تاريخ مكة » أن السنوات السبع

(٣٨٧) انظر ما كتبه السباعي عن ذلك في « تاريخ مكة » : ص ٥٦١ – ٥٦٢ .

من إمارته في مكة تعاقب فيها ستة ولاة من الأتراك هم : كاظم ، وحازم ، وفؤاد ، وأحمد نديم ، ووهيب ، وغالب – مع حفظ الألقاب – [٣٨٨] .

وقد اغتنم الحسين فرصة اندلاع الحرب العالمية الأولى وانضمام الأتراك إلى الألمان في محاربة الإنجليز والفرنسيين ، فاتفق الحسين كما هو معلوم مع الإنجليز وقام بإعلان الثورة عليهم في مكة في ١٩ شعبان ١٣٣٤ هـ .

الشيخ عبد الله سراج يخطب معلناً الثورة في المسجد الحرام :

يقول الأستاذ حسين سراج :

وبأمرٍ من الشريف الحسين قام الشيخ عبد الله سراج مفتي الأحناف في مكة بالخطابة في المسجد الحرام معلنا الثورة على الأتراك في الوقت الذي أطلق فيه الشريف الحسين الرصاصة الأولى من منزله معلناً بدء الثورة .

عبد الله سراج يشترك في احتلال قلعة أجياد :

ويقول الأستاذ حسين سراج :

بدأت ثورة الشريف الحسين باحتلال قلعة أجياد التي كانت بها مجموعة من الضباط والجنود والأتراك ، وكان الشيخ عبد الله سراج يشترك في مهاجمة القلعة تشجيعاً للمهاجمين وهو بهذا يذكّرنا بما فعله والده الشيخ عبد الرحمن سراج الذي اشترك في التدريب العسكري

---

(٣٨٨) « تاريخ مكة » لأحمد السباعي : ص ٥٦٢ .

الذي فرضته الدولة وحث الناس عليه [389] .

الشريف عبد الله بن حسين يهاجم الأتراك في الطائف :

يقول الأستاذ حسين سراج نقلاً عن والده الشيخ عبد الله سراج :

كان الجيش التركي في الطائف قوامه ثلاثة آلاف جندي وكان الشريف الحسين يخشى أن يزحف الأتراك بجيشهم هذا على مكة فآثر أن يبادئهم بالهجوم ، وأرسل ابنه الشريف عبد الله بن الحسين لمهاجمة الطائف .

يقول الأستاذ حسين سراج نقلا عن والده : وكان الإنجليز قد ألحُّوا على الشريف الحسين بمهاجمة الطائف وأبوا إمداده بالسلاح حتى يهاجم الطائف .. وكان الشريف عبد الله بن الحسين يخشى نتائج الهجوم على الطائف فأرسل الشريف الحسين الشيخ عبد الله سراج في أثره لصلاته الكبيرة بقبائل الطائف ، ومن المعلوم أن أسرة الشيخ عبد الله سراج من أُسَر الطائف المعروفة ، وكانت ولا تزال لهم بساتين شهار وأراضيها الشهيرة هناك .

يقول الشيخ عبد الله سراج :

إن الشريف عبد الله بن الحسين وجيشه منوا بهزيمة منكرة في الجولة الأولى من هجومهم على الطائف وإن عدد القتلى منهم بلغ خمسمائة قتيل .

---

(٣٨٩) انظر : ترجمة الشيخ عبد الرحمن سراج .

ولكن الشريف عبد الله بن الحسين أعاد الكرَّة بعد أن جمع قبائل الطائف وأمدَّهم الشريف الحسين بالمدفعية التي يقودها القيسوني باشا فسلمت مدينة الطائف .

يقول الأستاذ أمين سعيد في كتاب الثورة العربية :

استسلمت الطائف عند منتصف ليل ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٦ م (٢٤ ذي القعدة ١٣٣٤ هـ) فقد جاء الوالي غالب باشا بنفسه مع ضباطه إلى المعسكر العربي خارج السور ، وسلموا أنفسهم كما سلمت القوات التركية سلاحها للجيش العربي [٣٩٠] .

عبد الله سراج أول المبايعين :

بالرغم من قيام الحسين بن علي بالثورة على الأتراك في ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ إلا أن مبايعته بالملك لم تتم إلا في ٦ من محرم ١٣٣٥ هـ الموافق ٣ ديسمبر ١٩١٦ م ، يقول الأستاذ أمين سعيد :

ولم يشأ الشريف أن يعجل بالعمل مع أنه قبض فعلا على زمام الحجاز ، ما خلا المدينة المنورة ، بل ظل يوقع رسائله ومنشوراته باسم شريف مكة وأميرها ، ويخاطب الدول بهذه الصفة حتى ختام أول موسم للحج في العهد الجديد ، وزوال كل خطر عن الثورة ، فجرت البيعة بالملك يوم الخميس ٦ محرم ١٣٣٥ هـ الموافق ٣ ديسمبر ١٩١٦ م ، فجاء الحسين من القصر الملكي إلى مدرسته الخاصة الملاصقة للكعبة فدخلها يَحُفُّ به آله وذووه والعلماء والكبراء ، ولما استقر بهم المقام سلم

---

(٣٩٠) « الثورة العربية » لأمين سعيد (ج ١) : ص ٢٠١ .

الشيخ عبد الله سراج مفتي الحنفية في مكة الشيخ عبد الله الخطيب كتاب البيعة فتلاه على الجماهير المحتشدة في الحرم ، ثم قام الشيخ ابن سراج فبايع الحسين بالمُلك ولقّبه بملك البلاد العربية وتبعه الناس بالبيعة (٣٩١) .

قاضي القضاة ووكيل رئيس الوكلاء :

وفي اليوم التالي أصدر الحسين أول مرسوم بتأليف أول وزارة وجّهه إلى حضرة العالم الكامل الشيخ ابن سراج ووجه إليه منصب قاضي القضاة وعينه وكيلاً عن رئيس الوكلاء العظام ، وكان رئيس الوكلاء هو الأمير علي بن الحسين - ملك الحجاز فيما بعد - وكان مشغولاً بالحرب :

وهكذا نرى الشيخ عبد الله سراج يتبوّأ أعلى المناصب في أول حكومة تؤلف في العهد الهاشمي ، ويوجه إليه أول مرسوم بتأليف الوزارة (٣٩٢) .

في عهد الملك علي :

وحينما تنازل الملك الحسين بن علي عن العرش وبويع لابنه الملك علي بن الحسين كان الشيخ عبد الله سراج يشغل نفس المناصب التي يشغلها في عهد الحسين ، فكان رئيساً للوكلاء وقاضياً للقضاة ومفتي الأحناف .

---

(٣٩١) « الثورة العربية » لأمين سعيد (ج ٣) : ص ١٣ .

(٣٩٢) انظر التفاصيل في « الثورة العربية » لأمين سعيد : ص ١٣١ - ١٣٤ .

الملك فؤاد يرنو إلى الخلافة :

بعد إلغاء الأتراك للخلافة وعزل آخر الخلفاء العثمانيين السلطان محمد رشاد الخامس طمح الكثيرون بأبصارهم إلى الخلافة ، فعمل الأمير عبد الله بن الحسين على البيعة لوالده الملك الحسين بن علي ملك الحجاز بالخلافة وتمت البيعة له في عمان يوم ١٢ مارس ١٩٢٤ هـ [٣٩٣] ، وعاد إلى الحجاز وهو يحمل لقب الخلافة إلى جانب الملك .

ولكن أيام الحسين في الملك وكذلك في الخلافة لم تطل فقد تنازل عن الملك يوم ٥ ربيع الأول ١٣٤٢ هـ حيث بويع لابنه الملك علي بن الحسين ، وغادر هو جدة إلى العقبة ، وقد رأى الملك فؤاد ملك مصر أن الفرصة قد سنحت له ليحظى هو بلقب الخليفة فدعى إلى عقد مؤتمر إسلامي في القاهرة ، وقد دُعي الشيخ عبد الله سراج قاضي القضاة ومفتي الأحناف في الحجاز لحضور هذا المؤتمر ضمن من دعي إليه من أعلام الرجال في البلاد الإسلامية .

وأثناء إقامة عبد الله سراج في مصر تم الصلح بين الملك علي والسلطان عبد العزيز آل سعود – كان لقبه الرسمي في ذلك الوقت سلطان نجد وملحقاتها – تم الصلح بينهما على تسليم البلاد للسلطان عبد العزيز الذي أصبح لقبه الرسمي ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .. فعرض الملك فؤاد على عبد الله سراج منصب قاضي القضاة في السودان كما أنعم عليه بوشاح النيل من الدرجة الأولى فاعتذر عن قبول المنصب .

---

(٣٩٣) « الثورة العربية » لأمين سعيد (ج ٣) : ص ١٧٦ .

عبد الله سراج في الأردن :

أرسل الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرقي الأردن إلى عبد الله سراج يدعوه للحضور إلى الأردن ففعل .

عبد الله سراج رئيساً لوزراء الأردن :

كان عبد الله سراج محل رعاية الأمير عبد الله بن الحسين وثقته فأسند إليه رئاسة الوزارة الأردنية عام ١٣٤٨ هـ وخلال رئاسته للوزارة جرى العمل على تأسيس المجلس التشريعي ، وكان أهم إنجازات عبد الله سراج في رئاسة الوزارة الأردنية استصدار قانون منع بيع وتأجير الأراضي للأجانب ، فقد كان اليهود يطمحون إلى شراء أو استئجار الأراضي في الأردن لاستيطان العائلات اليهودية بها ، امتداداً لمخططاتهم الرامية إلى الاستيلاء على الأراضي العربية رغبة في أن يشملها وعد بلفور المشئوم . فكان هذا القانون طعنة نافذة قضت على هذه المخططات .

عبد الله سراج يطرد مدير مشروع روتنبرج :

حدثني الأستاذ حسين سراج قال :

أثناء رئاسة والدي الشيخ عبد الله سراج للوزارة الأردنية حضر اليهودي المسمى كوهين مدير مشروع روتنبرج ، وكنت أتولى الترجمة بينه وبين الوالد ، وبينما كان كوهين هذا ينتظر الإذن بالدخول على والدي أخبرني أنه جاء بعرض مُغْرٍ للوالد فيه ثروة طائلة .

يقول الأستاذ حسين سراج : حذَّرت كوهين هذا من غضب الوالد فقال لي إنك لا تزال صغيراً .. فقلت له : إنك لا تزال قليل الأدب .

وأذن الوالد لمدير مشروع روتنبرج بمقابلته ، وما أتم هذا اليهودي كلامه حتى كان الوالد قد ضغط على الجرس ، فحضر الحاجب فأمره الوالد أن يضع الأصفاد في يد مدير مشروع روتنبرج ، ويسير به مخفوراً إلى أن يصل به إلى جسر اللنبي فيطرده خارج الأردن .

إقالة عبد الله سراج :

استمر عبد الله سراج في رئاسة الوزارة سنتان وأربع شهور ، ثم أُقيلت وزارته .

الملك عبد العزيز وعبد الله سراج :

يقول الأستاذ حسين سراج : استدعى جلالة الملك عبد العزيز - رحمه الله - عمي الشيخ محمد علي سراج وكان تولى القضاء في الطائف والظفير ، كما كان عضواً برئاسة القضاة ، وكان قبل ذلك تولى الإمامة والخطابة في المسجد الحرام في العهد العثماني [٣٩٤] استدعاه جلالة الملك عبد العزيز وأمره أن يكتب للوالد بأن جلالته يرحب به إن كان راغباً في العودة إلى الحجاز ، وإنه سيلقي من جلالته الإكرام والتقدير .

يقول الأستاذ حسين سراج : تلقى والدي هذه الدعوة الكريمة بالشكر والعرفان ، وكتب إلى جلالة الملك عبد العزيز معبِّراً عن تأثره البالغ بعطف جلالته وكرمه ، ولكنه آثر البقاء في الأردن ، فلم يتمكن من تلبية هذه الدعوة الكريمة .

---

(٣٩٤) انظر ترجمة الشيخ محمد علي سراج في « سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة » : ص ٢٧٤ .

مرض عبد الله سراج ووفاته :

أصيب الشيخ عبد الله سراج بالشلل ، وبقي سبعة عشر عاما وهو يعاني من هذا الداء العضال ، إلى أن توفاه الله تعالى في شهر رجب من عام ١٣٦٨ هـ الموافق لعام ١٩٤٨ م .

عاش فقيراً ومات فقيراً :

ورثاه الملك عبد الله بن الحسين في جريدة الأردن فقال عنه فيما قال :

عاش فقيراً ، ومات فقيراً دأب من شايع بني هاشم ، وأمر بدفنه في المقابر الملكية بعمان .

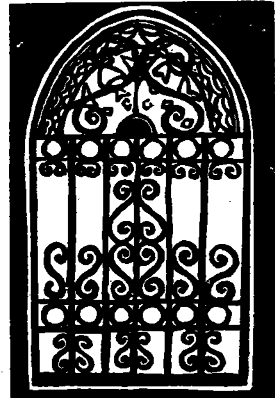
رحم الله الشيخ عبد الله سراج فلقد كانت حياته مثالاً للعصامية والكفاح ، خرج من بلاده شابًّا وعاد إليها بعد أن صار رجلاً ، وقد تزود من العلم في أسفاره واغترابه ، وتبوأ أعلى المناصب في الحجاز والأردن ، وتقلب به الزمان فكان ملتزما بأخلاقه ومبادئه ، وعاش فقيراً ومات فقيراً كما وصفه الملك عبد الله بن الحسين ، فلم تكن هذه المناصب العظيمة لتغير من أخلاقه أو تجلب له الثراء الحرام .

* * *

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية





السيد علي عبد القادر حافظ

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية





السيد عثمان عبد القادر حافظ

عليّ وعثمان أبناء عبد القادر حافظ

الشقيقان الأديبان ، مؤسسا جريدة المدينة المنورة ، ومؤسسا مدرسة الصحراء الخيرية بالمسيجيد ، ارتبط اسماهما ارتباطا وثيقا فكانا يذكران معا ، ويعملان معا ، واختلطت الروح بالروح فكان إخاؤهما فريدا ، قلَّ أن يجود به الزمان ، قال لي الأستاذ محمد علي حافظ ، وهو ابن السيد علي حافظ :

كان مكتبهما في غرفة واحدة ، كان مكتبا واحدا للأخوين ، وكان بالغرفة خزنة حديدية يحفظان بها نقودهما ، كلاهما يودع في هذه الخزنة ما يصل إليه ، ويأخذ ما يحتاج إليه دون حساب مفرد ، وإذا اشتريا أرضا أو عقارا كان الشراء باسمهما معا ، وسكنا في بيت واحد حتى ضاق البيت بما أكرمهما الله به من الولد ، فتحول أحدهما إلى سكن آخر ، ولكنهما كانا معا دائما في كل مكان .

وكان صديقهما الشيخ محمود شويل – رحمه الله – يطلق عليهما : « الحافظان » .

هذه المقدمة أكتبها بين يدي هذه الترجمة لأنها أول ترجمة أكتبها لشخصين معا ، وقد لا أكررها ..

حينما توفي صديقنا السيد علي حافظ وأردت أن أترجم له في أعلام الحجاز كان تأسيس مدرسة الصحراء الخيرية بالمسيجيد من أبرز الأعمال التي جعلتني أسلكه في عداد الأعلام ، ولم يكن بوسعي

أن أتحدث عن مدرسة الصحراء الخيرية وتأسيسها دون أن أذكر عثمان حافظ شقيق علي الذي شاركه كل خطوة خطاها في تأسيس مدرسة الصحراء منذ كانت حلما لمع في ذهن الشقيقين إلى أن أصبحت منارة علم يتخرج منها أبناء الصحراء ، وكان إصدار جريدة المدينة المنورة بالمدينة وما صاحبه من الجهد الدءوب من أعمال الأخوين معا ، وربما كان لعثمان حافظ نصيب أكبر من الجهد في تأسيس مطبعة المدينة المنورة وإدارتها ، فكان لابد أن يوفي حقه ، ويذكر سعيه وجهده وإلا كانت الترجمة ناقصة مبتورة .. لهذا كله قررت أن أترجم للأخوين معا فأقول :

أما أولهما علي حافظ فقد صار إلى رحمة الله تعالى ، وأما الثاني فهو مريض مدنف نسأل الله له الشفاء والعافية .

علي حافظ

ولد علي حافظ بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٧ هـ - ١٩٠٧ م ، وتعلم في مدارسها وانتظم في حلقات الدروس في المسجد النبوي الشريف يتلقى العلم على أيدي العلماء الأجلاء ، مثل أبناء جيله ، وكانت حلقات الدروس في المسجدين تمثل الدراسة العليا في علوم الدين واللغة والآداب في ذلك الزمان ، وحصل على شهادة التدريس . عمل علي حافظ كاتبا بقسم المحاسبة في مديرية المالية بالمدينة المنورة ، ثم كاتبا في المحكمة الشرعية ، ثم رئيسا لكُتَّاب المحكمة الشرعية في المدينة المنورة .. ثم تولى مديرية فرع وزارة الزراعة بالمدينة المنورة ، ثم اختير رئيسا لبلدية المدينة المنورة وظل بها حتى استقال في عام ١٣٨٣ هـ رغبة في التفرغ

لأعماله الخاصة ، والكتابة والتأليف [٣٩٥] .

أما أهم أعمال علي حافظ فهو تأسيسه مع أخيه عثمان مدرسة الصحراء الخيرية بالمسيجيد ، وإصدارهما قبل ذلك جريدة المدينة المنورة مما سنفصّل فيه الحديث بعد ..

مؤلفاته :

صدرت للسيد علي حافظ المؤلفات الآتية :

فصول من تاريخ المدينة المنورة ، وقد طبع للمرة الثانية وترجم إلى اللغة الإنجليزية كما أخبرني بذلك الأستاذ فاروق لقمان الكاتب والأديب المعروف .

حقوق الإنسان في الإسلام ، وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية وقُدِّم إلى مؤتمر الصحافة العالمي في طوكيو .

نفحات من طيبة ، وهي مجموعة شعرية .

أضواء من تاريخ المدينة ، تحت الطبع ، وهي مجموعة أحاديث قدمها للإذاعة السعودية .

شارك بقلمه في كتابة المقالات والأبحاث في جريدة المدينة المنورة وفي غيرها من صحف المملكة العربية السعودية طيلة ما يقرب من خمسين عاما ويعمل أبناؤه على جمع هذه المقالات وتنسيقها وإخراجها

---

(٣٩٥) انظر ترجمة علي حافظ في غلاف ديوانه « نفحات من طيبة » وفي كتبه الأخرى .

مطبوعة في الوقت الحاضر [٣٩٦] .

عثمان حافظ

وثانيهما عثمان حافظ ، ولد بالمدينة المنورة عام ١٣٢٨ هـ ، وتلقى دراسته الأولى في الكُتّاب وفي المدارس الأولية ، ثم تلقى العلم على أيدي العلماء الأجلاء في حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف ، ونال شهادة التدريس من أستاذه الشيخ عبد القادر توفيق الشلبي الذي لازمه عدة سنوات [٣٩٧] .

عمل عثمان حافظ كاتبا في مديرية المعارف بالمدينة المنورة عام ١٣٤٥ هـ ، ثم عين عضوا وسكرتيرا لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمدينة المنورة وفي عام ١٣٥٠ هـ اشتغل بالتدريس ، فعمل مدرسا بالمدرسة الابتدائية بالمدينة المنورة ، وكانت أكبر مدرسة حكومية بالمدينة .

وفي عام ١٣٦٢ هـ عين معتمدا للمعارف بالمدينة المنورة ، ثم انتقلت خدماته إلى وزارة المالية فعين مفتشا للشمال وفي عام ١٣٦٥ هـ عين مديرا لإدارة الحج بالمدينة المنورة وبقي في هذا العمل

---

(٣٩٦) انظر ترجمة علي حافظ في غلاف ديوانه « نفحات من طيبة » وفي كتبه الأخرى .

(٣٩٧) انظر ترجمة عثمان حافظ في غلاف كتابه « صور وأفكار » وفي كتبه الأخرى .

عشرين عاما . وفي عام ١٣٨٦ هـ تولى رئاسة تحرير جريدة المدينة المنورة ومكث في رئاسة تحريرها أحد عشر عاما .

مؤلفاته :

ألف السيد عثمان حافظ كتاب : « تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية » في جزءين كبيرين ، خصص الجزء الأول للحديث عن الصحافة تحدث فيه عن أول صحيفة صدرت في العالم ، وأول صحيفة صدرت في أوربا ، وفي إنجلترا وفرنسا ، ثم تحدث عن أول جريدة صدرت في البلاد العربية .

ثم تحدث عن الصحافة في الحجاز في العهد العثماني ، ثم في العهد الهاشمي ، ثم في العهد السعودي ويعتبر هذا الكتاب من أهم ما ألف عن الصحافة والصحف في الحجاز ، فاعتبره المختصون مرجعا تاريخيا ، واحتفلت جامعة الملك عبد العزيز بالكتاب والمؤلف فدعته إلى إلقاء المحاضرات على الطلبة ، كما أوصوا الطلاب بقراءة الكتاب والاستفادة بما حواه من معلومات ، وهو يستحق ذلك بكل تأكيد .

أما الجزء الثاني من كتاب « تطور الصحافة » فقد خصصه المؤلف لقصة جريدة المدينة المنورة منذ كانت حلما يلمع في ذهنه وذهن أخيه علي إلى أن أصبحت حقيقة ماثلة للعيان ، وهو قصة الجهد الدءوب والعصامية التي تستهين بالصعاب ، وهو من اجمل الكتب في عفويته الآسرة ، وفي صراحته وبساطة أسلوبه . وسأعود للحديث عن هذا الجزء من الكتاب حين أتحدث عن جريدة المدينة المنورة بعد ..

وللسيد عثمان حافظ كتب أربع تضم ما كتبه من مقالات خلال

سنوات طويلة في جريدة المدينة المنورة وهذه الكتب هي على التوالي :

صور وذكريات عن المدينة المنورة ، أصدره النادي الأدبي بالمدينة سنة ١٤٠٣ هـ .

صور وأفكار ، إصدار شركة تهامة في سنة ١٤٠٤ هـ .

صور وذكريات ، طبع دار العلم للطباعة والنشر سنة ١٤٠٤ هـ .

صور وذكريات ، طبع دار العلم للطباعة والنشر سنة ١٤٠٥ هـ .

ونعود الآن لنتحدث عن الأخوين علي وعثمان حافظ في أبرز أعمالهما ، وهما : تأسيس مدرسة الصحراء الخيرية بالمسيجيد ، وتأسيس جريدة المدينة المنورة وإصدارها .

مدرسة الصحراء الخيرية بالمسيجيد :

سألت الأستاذ محمد علي حافظ : ما الذي جعل السيدان علي وعثمان حافظ يفكران في إنشاء مدرسة الصحراء الخيرية ؟ قال : كانا في رحلة بين المدينة المنورة وجدة ، توقفا في المسيجيد كما يتوقف المسافرون في ذلك الزمان للاستراحة والتزود بالوقود ، فقد كان الطريق صحراويًّا لم يعبَّدْ ، ووَعْراً لم يُذَلَّل ، وحينما كانا يستريحان في المسيجيد رأيا أبناء البدو يشحذون .. يشحذون من الحجاج والمسافرين .. وفي تلك اللحظة قررا أن يعملا على تحويل هؤلاء الغلمان إلى تلاميذ ومتعلمين .

هذه الإجابة التي أجاب بها الأستاذ محمد علي حافظ على سؤالي ذكرتني بأول رحلة قمت بها إلى المدينة المنورة قبل أكثر من خمسين عاما .. وصلنا إلى رابغ وجلسنا نستريح بها ونتناول طعام الغداء ، كان

الجو قائظا شديد الحرارة ، وجلست في المقهى أنتظر الطعام الذي أوصينا عليه ورأيت أمامي منظراً لا أنساه .. كان هناك صَفٌّ طويل من الأطفال والغلمان والنساء يجلسون على التراب تحت الشمس الحارة ويشكِّلون صَفًّا طويلا دون حراك ، وسألت لماذا يجلس هؤلاء الغلمان في الشمس هناك ؟

وقال صاحب المقهى : في تفريق ... وأشار إلى رجل هندي يلبس ملابس هندية يجلس أمامي في المقهى ومعه بعض الحجاج الهنود .. وفهمت أن هذا الرجل أو هؤلاء المجموعة من الرجال الهنود سيفرِّقون بعض النقود على هؤلاء الغلمان ، فأمروا أن ينظموا أنفسهم في صف طويل لينال كل منهم ما تيسر من قروش وهللات ..

وثارت نفسي للمنظر الأليم .. وشعرت بالذلة لا لهؤلاء الغلمان ولكن لنا جميعا لأننا رضينا بهذا الواقع المزري ، ولم نفعل شيئا لتغييره .

ألم يكن في وسع هذا المُحسن أن يجمع هؤلاء الغلمان في مكان ظليل بدلا من صهرهم تحت الشمس الحارة وفوق هذا التراب الحار ؟ وقلت لنفسي : إن من حق هؤلاء الغلمان أن يذهبوا للمدرسة ، وأن يجتمعوا بها بدلا من اجتماعهم لالتماس الصدقات .. واكتفيت بالألم وغادرت رابغ ولم أفعل شيئا .

ولكن الأخوين عليا وعثمان عملا شيئا ، وشيئا رائعا يذكر لهما بالفخر والثناء .

المقهى يتحول إلى مدرسة :

بدأت المدرسة بغرفة في مقهى المسيجيد ، وبثلاثة عشر طالباً

من أبناء البادية ، وتقع المسيجيد في قلب الصحراء وتبعد عن المدينة ثلاثة وثمانين كيلو مترا ، واستطاع المؤسِّسَانِ أن يجتذبوا للمدرسة أستاذاً من أكفأ أساتذة المدينة المنورة هو الشيخ سالم داغستاني الذي ضحى بمركزه المرموق في المدينة المنورة ليعمل في مدرسة في الصحراء تبدأ بغرفة في مقهى وبثلاثة عشر طالباً ، كما ضحت أسرته معه بالانتقال من بيوت المدينة المنورة وما تحفل به من حياة مطمئنة متحضِّرة إلى بيت في البادية بين أحضان الجبال في وسط الصحراء .

وأصرَّ المؤسِّسَانِ أن تبدأ المدرسة بداية طيبة فقرروا أن تكون مدرسة ابتدائية تتبع نهج مدارس وزارة المعارف السعودية .. كانت العقبات عظيمة والمصاعب كبيرة .. كان السفر من المدينة إلى المسيجيد ومنها إلى المدينة فيه من المصاعب ما تنوء به الأجساد .. كان الطريق وعراً ، كثير الرمال والحُفَر ، وكان في مواضع أخرى مليئاً بالحصى والأحجار ، ولم تكن طرق المواصلات قد عرفت التعبيد بعد ، وكان السفر على سيارات اللوري المكشوفة ، فلم يكن علي ولا عثمان من أصحاب السيارات ، ولا من أصحاب الثراء ، كانا موظفين من أوساط الناس ، وكانا يقومان برحلات متتابعة للمدرسة قبل التأسيس وبعده بهذه السيارات المكشوفة الصناديق ، وكان يشاركهما مدير المدرسة الأستاذ سالم داغستاني متاعب الرحلات إلى أن استقرَّ به المقام فسكن بجوار المدرسة في المسيجيد ، وقامت المدرسة على التبرعات القليلة من المؤسسين ومن أصدقائهما .

الدولة تمنح المدرسة مبنى :

وفي عام واحد ازداد عدد الطلاب فوصل إلى ثلاثة وأربعين طالباً ،

وكان للحكومة في المسيجيد استراحة لكبار الزوار ، فأمر وزير المالية الأسبق الشيخ عبد الله السليمان الحمدان بتخصيص هذا المبنى للمدرسة فانتقلت إليه .

صبي المقهى :

ويقصُّ الأستاذ علي حافظ ذكرياته عن الأيام الأولى بمدرسة الصحراء فيقول :

كنت وأخي السيد عثمان حافظ في قهوة حمدان بالمسيجيد أثناء تفقدنا لمدرسة الصحراء ، وأقبل علينا طفل في الثامنة أو التاسعة يقدم لنا صينية الشاي ، ولمحنا في حديثه الذكاء والفطنة ، فسألته : هل دخلت المدرسة ؟

قال : لا .

قلت : لِمَ لا تدخل المدرسة ؟

قال : إذا دخلت المدرسة (مين يُأَكِّلْ أمي) كان حمدان يعمل بالمقهى لينفق على والدته وعلى نفسه .

قال السيد علي : فقلنا له : كم يعطيك حمدان كل يوم ؟

قال : نصف ريال .

قلت له : إذا أعطيناك نصف ريال تدخل المدرسة ؟

قال : أشاور أمي .

وجاء الصبي في اليوم التالي ومعه أمه ، ووجهت سؤالها إلى السيدين علي وعثمان حافظ : (ليش تبغوا تأخذوا الولد ؟)

قالا لها : لا نريد أن نأخذه ، نريد أن ندخله المدرسة في الصباح

يتعلم القرآن والكتابة ونعطيه كل يوم نصف ريال ويعود إليك بعد الظهر .

قالت الأم : خذوه ما يخالف .

يقول السيد علي حافظ : واتفقنا مع حمدان صاحب المقهى أن يدخل الصبي المدرسة صباحا ونعطيه ربع ريال ، ويعمل في المقهى بعد الظهر ويعطيه ربع ريال فوافق ودخل الصبي المدرسة .

مخصص يومي للطلاب :

ويواصل السيد علي حافظ حديثه فيقول : ومن تلك اللحظة قررنا أن نعطي لكل طالب يعول والدته أو أحد أقربائه ربع ريال يوميًّا ، وكل طالب يعول أهله ثلاثة قروش .

ويقول السيد علي : وبعد دخول هذا الطالب للمدرسة وإعلاننا أننا سندفع ربع ريال للطالب الذي يعول أهله ، وثلاثة قروش للطالب الذي يعول أحد أقربائه ، بدأ الطلبة يدخلون المدرسة ، وأصبح عددهم يتزايد يوما بعد يوم ، وضاق صندوق المدرسة عن دفع مخصصات الطلاب ، ولم نستطع أن نتراجع عن قرارنا ، وبلغ ما كنا نصرفه على الطلبة فقط من ٤٥٠ – ٥٠٠ ريال شهريًّا ، والزيادة مستمرة كل شهر ، ولم يكن للمدرسة وارد يتحمل هذه النفقات ، وأصبح ما يصرف لمخصصات الطلبة يماثل ما يصرف على هيئة التدريس . يقول الأستاذ علي : ومن أين ؟ التبرعات كانت بالريالات ، وبعشرات الريالات إذا كثرت .

جلالة الملك عبد العزيز يعين المدرسة :

لجأ المؤسسان إلى جلالة الملك عبد العزيز – رحمه الله – فكتبا

إليه عن المدرسة وما صار إليه أمرها وقالا : إن انتساب الطلاب للمدرسة يتوقف على مساعدتهم في معيشتهم وطلبا منه تخصيص نصف ريال لكل طالب . وكانت استجابة الملك عبد العزيز لطلب المؤسسين سريعة فأصدر أمره على وزارة المالية بصرف نصف ريال لكل طالب من طلاب مدرسة الصحراء بالمسيجيد يوميًّا .

يقول السيد علي حافظ : وهي أول مدرسة في المملكة يتقاضى طلابها معونات من الحكومة ، وأول مدرسة تؤسس لتعليم أبناء البادية في الصحراء ، ولم يسبق أن فتحت مدرسة في البادية على هذا المستوى (٣٩٨) .

مدرسة للبادية في ينبع :

هذا ما ذكره الأستاذ علي حافظ .. ونذكر للتاريخ ما يلي :

ذكر الأستاذ حمد الجاسر في كتابه « بلاد ينبع » : أنه كان في ينبع سنة ١٣٥٤ هـ مدرسة مخصصة لأبناء البادية تقوم الحكومة بالإنفاق على طلبتها وإيوائهم وتعليمهم ، وقد خُصِّص لهم مكان يسكنون ويتعلمون فيه ، وكان طلاب هذه المدرسة يؤتى بهم من أبناء البادية وكثيرا ما كانوا يهربون من المدرسة لعدم إِلْف أبناء البادية للاستقرار في المدن ، ولكن الأمير حمود بن إبراهيم كان يولي هذه المدرسة الكثير من عنايته ، وكان يستعمل الصرامة في قسر بعضهم على البقاء في هذه المدرسة وإرجاعه إليها إذا هرب منها .

---

(٣٩٨) « فصول من تاريخ المدينة » للسيد علي حافظ : ص ٢٤٧ — ٢٥٤ .

ويقول الأستاذ حمد الجاسر : ولقد أفادت هذه القسوة فكان من هذه المدرسة النواة الطيبة التي رغَّبَتْ أبناء البادية هناك في التعليم ، وأوجدت منهم شبابا تقدم إلى التعلم في عهد مبكر وأصبح الآن يتولى أعمالا حكومية نافعة ، منهم عيد بن سليمان ، تولى إدارة مدرسة ينبع ، وأخوه عودة بن سليمان ، أول من تولى إدارة مدرسة المجمعة في نجد ، وعائش بن حسين ، أصبح مفتشا في وزارة المالية ، وغيرهم من شباب جهينة النجباء .

ويواصل الأستاذ حمد الجاسر حديثه عن هذه المدرسة فيقول :

ومما يؤسف له أن المدرسة بعد نقل الأمير حمود من إمارة ينبع بدأ أمرها يضعف حتى زالت ، هكذا كل عمل نافع يفقد مَنْ لَه أثَرٌ في إيجاده ، لا يلبث أن يتلاشى مهما كان نافعاً [٣٩٩] .

ولقد أخبرت الأستاذ علي حافظ - رحمه الله - عن هذه المدرسة ، وكان لم يطلع على كتاب « بلاد ينبع » للشيخ حمد الجاسر فقدمته إليه ، وفي رأيي أن وجود مدرسة في البادية قبل مدرسة الصحراء لا ينقص من قيمة العمل العظيم الذي قام به مؤسساها ، وقد أراد الله لمدرستهما الدوام فاستمرت وتوسعت حتى تم تسليمها لوزارة المعارف بعد حوالي ستة عشر عاماً من تأسيسها كما سيأتي تفصيله فيما بعد ..

مدرسة الصحراء تكبر :

أصبحت مدرسة الصحراء منارة علم في قلب الصحراء يقول الأستاذ علي حافظ :

---

(٣٩٩) بلاد ينبع : ص ١٢٩ - ١٣١ .

وأقبل البدو يُلحقون أبناءهم ، ووصلت سمعتها إلى القرى المجاورة ، فأقبل عليها الطلاب من رءوس الجبال وبطون الأودية ، ومن بين الآكام والتلال ، وجاءوا إليها من أماكن بعيدة من الفريش وبئر الروحاء ، ومن رحقان ومن جبل الأحامدة ، ومن الخيوف بوادي الصفراء ، وصار الطلاب يؤلفون رفاقاً وجماعات ، يقضون الأسبوع في الدراسة ويشتركون في تأمين حاجياتهم من دكاكين القرية ، ويعودون في نهاية الأسبوع إلى أهليهم .

أما أهل المسيجيد فإنهم يرتادون المدرسة نهاراً ، ويأوون إلى أهليهم بعد الدراسة وكثيرا ما كنا نراهم في مسجد المسيجيد ليلاً وهم كخلية النحل تجمعاً ودَوِيًّا ، يذاكرون دروسهم على مصابيح الغاز البدائية التي يتصاعد دخانها المُسْوَدّ .

وكبرت المدرسة ، وزادت فصولها ، وضاق عنها المبنى الذي منحه وزير المالية الأسبق الشيخ عبد الله السليمان لها فأضاف إليها المؤسسان دوراً ثانياً ، وقد اجتذبت المدرسة اهتمام الناس في الداخل والخارج وتبرعوا لها وبلغ الإقبال عليها إلى الحد الذي جعل مدير المدرسة يعتذر عن قبول الطلاب الجدد لضيق المكان . يقول الأستاذ علي حافظ :

ومع الزمن تكاثر عدد الطلاب في المدرسة حتى ضاقت بطلابها ، وبعد أن كانت المدرسة تجري وراء الطلاب تدعوهم إليها ، أصبحت ترفض قبول الطلبات للالتحاق بها وكثيراً ما كنا نتلقى بالمدينة خطابات من أولياء الطلبة يطلبون منا التوسط لدى الأستاذ سالم داغستاني مدير المدرسة لدخول أبنائهم ، وكنا نعمل المستحيل ونهيئ

الفرص لكل طالب يرغب في الالتحاق بالمدرسة ، وكلما زاد فصل من الفصول عن العدد القانوني للفصل قُسِّم إلى فصلين أو ثلاثة أو أربعة فيكون فصل : أ ، ب ، ج وهكذا ..

إلحاق الطلبة بالكليات العسكرية والسكة الحديد :

كان الشيخ عبد الله السليمان الحمدان وزير المالية الأسبق ممن أولوا مدرسة الصحراء اهتمامهم ، وكان يوالي المدرسة بالتشجيع المادي والأدبي ، ولم يكن يمر بالمسيجيد إلا ويتوقف فيها لزيارة المدرسة وتتبع خطواتها ، وقد ذكرنا قبل أنه منح المدرسة المبنى الذي كان لوزارة المالية في المسيجيد ، وكان - رحمه الله - يرى في أبناء المدرسة البذرة الطيبة للطلائع العربية الأصيلة ، إذا أُحسن غرسها وتنميتها ، وحينما تم تخريج الدفعة الأولى من الطلبة أمر - رحمه الله - بابتعاث خمسة عشر طالباً للمدرسة العسكرية . يقول الأستاذ علي حافظ : التحق بعضهم بالكلية الحربية والبعض الآخر بموسيقى الجيش ، ثم طلب - رحمه الله - سبعة عشر طالباً ابتعثهم إلى المنطقة الشرقية للعمل بمحطة السكة الحديدية ، ونجحت البعثة التي أُرسلت إلى المنطقة الشرقية فطلبوا مجموعة أخرى فبعثت المدرسة إليهم ستة عشر طالباً ، ورأت إدارة السكة الحديد بالمنطقة الشرقية نجابة الطلاب فاختارت عدداً منهم ابتعثتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتدريب على مختلف أعمال السكة الحديدية ، وإدارة المحطات ، وقيادة القطارات ، والأعمال الحسابية ، وعاد أفراد البعثة من أمريكا فتسلموا مراكز كبيرة في محطة السكة الحديدية .

جني الثمار :

كان الأستاذ عثمان حافظ ضمن الوفد الصحفي الذي رافق معالي

الشيخ عبد الله السليمان للاحتفال بوصول أول قطار من قطارات السكة الحديدية من الظهران إلى الرياض في شهر محرم عام ١٣٧١ هـ . يقول الأستاذ عثمان حافظ : - كنت أجلس في هذا الحفل بجوار ممثل وزارة المالية بالمنطقة الشرقية الشيخ عبد الله بن عدوان - أحد وزراء المالية فيما بعد - وكنا جميعاً ننتظر وصول القاطرة الأولى من الظهران وقال لي الشيخ عبد الله مبشِّراً : إن مدير محطة الرياض من مدرستكم ، ومدير محطة الدمام من مدرستكم ، ومدير محطة حرض من مدرستكم ، وعدداً من مديري محطات السكة الحديدية من مدرستكم .. مدرسة الصحراء إلخ ..

وبعد .. فهذه الثمار يانعة جنية ، تحوَّل الأطفال الذين كانوا يشحذون إلى رجال عاملين مسئولين وتحول صبي القهوة الذي ذكرنا قصته قبل إلى رجل مسئول . يقول عنه الأستاذ عثمان حافظ : ونبغ هذا الطالب كما كنا نتوقع له ، وكان ممن اخترناه لبعثة السكة الحديد بالمنطقة الشرقية ، وممن ابتعثته الشركة إلى أمريكا للتدريب على أعمال السكك الحديدية وعاد بعد سنوات شابًّا مثقفاً يمتلئ حيوية ونشاطاً ، وقد رأيناه مرافقاً للشيخ عبد الله السليمان في رحلة للمدينة المنورة ، وكان يقوم بالترجمة بينه وبين بعض الأجانب .

وقدمه لنا الوزير على أنه من طلاب مدرسة الصحراء وأثنى على أخلاقه وأخلاق زملائه . يقول الأستاذ عثمان : وعَرَفنا وذكَّرنا بما كان منا ومنه ومن والدته في قهوة حمدان ، وكان اسمه فهد الحربي .

إن أعظم مكافأة يتلقاها الإنسان في حياته أن يرى أحلام حياته

وقد تحققت وأن البذرة التي بذرها وسقاها ورعاها قد أثمرت فتحولت إلى شجرة حافلة بالعطاء ، ولقد أكرم الله الأخوين علي وعثمان حافظ فأبصرا البذرة التي بذراها في رمال الصحراء تتحول إلى شجرة كبيرة يانعة ، وأبصرا الأطفال الذين كانوا يتجمعون للتَّسَوُّل ، وقد أصبحوا رجالاً عاملين مسئولين ، هذه هي المكافأة الدنيوية وفيها من رضا النفس وطمأنينة القلب ، ما يملأ النفوس سعادة ونشوة ، أما المكافأة الأُخروية فإن الله سبحانه وتعالى قد تكفَّل بها للعاملين المخلصين ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ .

مدرسة الصحراء تُسلم إلى وزارة المعارف :

استمر علي وعثمان حافظ يرعيان مدرسة الصحراء منذ أن كانت غرفة في مقهى المسيجيد إلى أن أصبحت صرحاً شامخاً في الصحراء ومنارة علم وضَّاءة ، والمدرسة كما يعلم القارئ كالمزرعة تبدأ فصلاً واحداً ثم تنمو فتكبر . فالتعليم الابتدائي يعقبه التعليم المتوسط ثم الثانوي ثم الأكاديمي ، وقد استمر المؤسسان ستة عشر عاماً يرعيان مدرسة الصحراء ويشرفان على الشئون الكبيرة والصغيرة فيها حتى استوت قائمة على أصولها فسلماها إلى وزارة المعارف لتكون حلقة في سلسلة كبيرة من الحلقات من مدارس الصحراء ، تشمل قرى وصحاري المملكة العربية السعودية الواسعة الأرجاء .

ونختتم الحديث عن مدرسة الصحراء بالبيانات التالية :

تأسست مدرسة الصحراء في شوال ١٣٦٥ هـ ، وسُلِّمت إلى وزارة المعارف في أول ربيع الثاني ١٣٨١ هـ .

نال الشهادة الابتدائية منها منذ تأسيسها وحتى تسليمها للوزارة مائتان وثلاثون طالبا وانتسبوا جميعاً للمدارس الثانوية والمعاهد العلمية .. ونال الشهادة المتوسطة خلال هذه الفترة عشرة طلاب .. ونال شهادة التوجيهية خلال هذه الفترة خمسة طلاب .. ونال شهادة المعاهد العلمية خلال هذه الفترة مائتا طالب .

عمل في وظائف الدولة نحو ثلاثمائة طالب من متخرجي مدرسة الصحراء في كثير من وظائف الدولة في المواصلات والمطارات ، والمحاكم الشرعية وكتابة العدل ودوائر بيت المال .

وبعد فهنيئاً للأخوين علي وعثمان حافظ بهذا العمل الطيب الذي وفقهما الله إليه وبارك لهما فيه ، وجزاهما عنه خير الجزاء (٤٠٠) .

جريدة المدينة المنورة وتأسيسها :

كان إصدار جريدة بالمدينة المنورة حلماً يراود أذهان المثقفين وذوي الرأي في مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وتركّز هذا الحلم في ذهن الشاب عثمان حافظ الذي كان يعمل بالطباعة .

كانت هناك مطبعة يدوية صغيرة تطبع أسماء من يرغبون طبع أسماءهم على أوراق المخاطبات وغلافاتها ، كما تطبع بطاقات الدعوة للأفراح

---

(٤٠٠) جميع المعلومات الورادة في هذه الترجمة عن مدرسة الصحراء الخيرية أوردها الأستاذ علي حافظ في كتابه « فصول من تاريخ المدينة المنورة » : ص ٢٤٧ – ٢٥٤ ، وكتاب « صور وذكريات » للأستاذ عثمان حافظ : ص ١٨٥ – ١٩٠ .

وما إليها ، وكان عثمان حافظ أحد شخصين يملكان هذه المطبعة الصغيرة ، والتي تحتل مكاناً لا يتجاوز ثلاثة أمتار في مثلها ، وصدرت صحيفة صوت الحجاز بمكة ، واشتد شوق المدينة وأهلها إلى إصدار صحيفة مماثلة تحمل اسم المدينة المنورة ، وعقدت الاجتماعات والندوات لتحقيق هذا الحلم وإخراجه من حيِّز الخيال إلى عالم الحقيقة والواقع ، وكان قطب الدائرة في هذه الاجتماعات والقاسم المشترك الأعظم فيها هو عثمان حافظ صاحب مطبعة باب الرحمة ، وكان توفير المال اللازم لشراء المطبعة ومستلزماتها هو الصخرة التي تحطَّمت عليها الأحلام ، وقرَّر عثمان حافظ أن يقوم بإنجاز المشروع بالتعاون مع أخيه علي حافظ ، واستبعد الأخوان إشراك أي أحد معهما في هذا المشروع ، فقد حذَّرهما والدهما من أحرف كلمة (الشوك) وقال لهمْا احذرا الشراكة والكفالة والوكالة

كان السيد علي حافظ يملك بقالة حديثة في المدينة المنورة فباعها وضم إلى قيمتها ما كان يملكه من مال وسلمه إلى أخيه عثمان حافظ الذي جمع كل ما لديه من نقود كذلك ، وعلم صديق الشابين الشيخ محمود شويل بما عزم عليه الأخوان فقدم إلى عثمان حافظ صرة من النقود تضم خمسا وخمسين جنيهاً ذهباً وقال له استعن بها في المشروع وأصرَّ عليه أن يأخذها ولم يتسلم إيصالاً بها ، وقد دفع عثمان بعد ذلك للشيخ محمود شويل هذا المبلغ مُقسَّطاً ، كلما احتاج إلى جنيه أو جنيهين دفعها له حتى تم تسديد هذا القرض الحسن .

سافر عثمان إلى مصر مزوداً بالتوصيات إلى الجهات التي يؤمل في مساعدتها له ، واستقبله صديقه الطالب فهمي الحشاني الذي كان يدرس طب الأسنان في مصر ، وكانت حصيلة النقود التي تجمعت لدى

عثمان حافظ قد وضعت في حزام من الجلد يحتزم به نهاراً ، ويضعه ليلاً تحت وسادته .

وقد أصبح هذا الحزام حملاً ثقيلاً بعد أن نزع عثمان ملابسه العربية الفضفاضة وارتدى بدلة أفرنجية فلم يكن لهذا الحزام مكان في وسطه ، وترك عثمان الحزام بما فيه من النقود في الغرفة التي ينزل بها مع صديقه الحشاني وغادرا المنزل ، وحينما عاد عثمان بحث عن الحزام فلم يقع له على أثر ، ومادت الأرض أمامه ولكن لطف الله تعالى أدركه سريعاً .

كانت المرأة صاحبة البنسيون الذي ينزل الشابان فيه أمينة ، وقد أبصرت الحزام وهي تقوم بتنظيف الغرفة فاحتفظت به خشية أن يتعرض للضياع ، وحينما سمعت أصواتهما وهما يناقشان الأمر أحضرت الحزام ولم يُمسّ بسوء ، وأسرع عثمان حافظ بحزام النقود إلى قنصل المملكة العربية السعودية بمصر الشيخ فوزان السابق فسلَّمه الحزام أمانة في خزنة الشيخ يعود إليها كلما احتاج إلى شيء من مال .

وبدأ البحث عن المطبعة العتيدة ، وزار عثمان حافظ مطابع شركة مصر وكان يحمل خطاب توصية من المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان إلى طلعت باشا زعيم مصر الاقتصادي ومؤسس بنك مصر وشركاته ، ولكن المطبعة التي أشار بها عليه مدير مطابع شركة مصر كانت قيمتها أكثر كثيراً مما يحمل من مال .

وفي مصر وجد الشاب عثمان حافظ الأستاذ سيد إبراهيم الخطاط المصري والأديب المعروف وتوشَّجت الصلات بين الرجلين فذهبا إلى أمين عبد الرحمن صاحب مجلة الإسلام ومطبعتها ، والرجل صاحب خبرة

في المطابع وشئونها .. وقضى عثمان حافظ شهراً بصحبة أمين عبد الرحمن يزوران المطابع وباعتها ووكلاءها ، وأسفرت النتيجة عن أن شراء مطبعة جديدة يكلِّف الرجل عبئاً مالياً لا يقدر عليه ، وبدأ يفكر في شراء مطبعة مستعملة .

ولكن إرادة الله أبت إلا أن تكون المطبعة جديدة .. رنَّ جرس الهاتف في مكتب أمين عبد الرحمن وسأله تاجر المطابع المسيحي ، إن كان صديقه العربي قد اشترى مطبعة ؟ وأردف لقد وصلت إلينا مجموعة من المطابع في الجمرك ، وأنا في حاجة إلى النقود لإخراجها ، فإن كان صاحبك يدفع القيمة نقداً نخفِّض له في القيمة ، وذهب الرجلان واشتريا المطبعة وكل ما يلزمها ، واستعان عثمان حافظ بأخيه فأعانه بما يلزم من مال .. وإلى هنا فإن الأمر رغم ما اكتنفه من صعاب كثيرة فهو في حدود المعقول ، ولكن الغير معقول هو ما فعله عثمان حافظ بعد شراء المطبعة . كان الأسطى محمد المصري مهندس المطابع بمحلات لوسكفتش يرغب في السفر إلى المدينة ليزور ويعتمر ، وكان المعقول والطبيعي أن يسهل له عثمان حافظ هذه المهمة لتركيب المطبعة حين وصولها إلى المدينة المنورة ، ولكن قلة ذات اليد كما يقول الأستاذ عثمان حالت بينه وبين تحقيق هذا المطلب المعقول .

وقرر عثمان حافظ أن يتعلم كيفية تركيب المطبعة وإدارتها ، وهو لا يفقه شيئاً في الهندسة ولا في الميكانيكا ، واتخذ نوتة وضع فيها رقما لكل قطعة في المطبعة ، ووصف كيفية تركيبها ، وأخذ يدرس هذه الأمور نهاراً في المطبعة وليلاً في النوتة ، وكأنه تلميذ يقبل على امتحان ..

واتَّسَخَتْ ملابس الأفندي عثمان بالزيت وهو يلازم عمال المطبعة فأحضر له أمين عبد الرحمن بدلة خضراء مثل بقية العمال ، وارتدى البدلة الخضراء ودخل مطابع أمين عبد الرحمن يعمل بيديه ، ويتعلم كيفية إدارة الماكينة ورصّ الصفحات ، والتحبير والتلوين وما إلى ذلك .. وظن عثمان أنه بالأيام التي أنفقها في مطبعة أمين عبد الرحمن ، وبالنوتة العتيدة قد أمسك بزمام المطبعة فأسلست قيادها له تركيباً وإدارة وإنتاجاً . وعُبِّئت المطبعة في صناديق وطُرود بلغت ثمانية عشر بين كبير وصغير ، وأنفق كل ما بقي معه من نقود في شحن المطبعة إلى ينبع وسافر هو إلى جدة .. وكان قد تحصَّل على أمر من الشيخ حمد السليمان وكيل وزارة المالية الأسبق إلى الشيخ محمد سرور الصبان مدير المالية ليدبِّر له سيارة لوري تحمل المطبعة من ينبع إلى المدينة على أن يدفع هو قيمة البنزين .

وحضر إلى مكة واستدان قيمة البنزين وملأ السيارة بالبراميل واتجه بها إلى ينبع . كان الزمان صيفاً وكانت الصحراء تلتهب بالحرارة ، ولم يكن الطريق معبَّداً ، وعانى عثمان في رحلته هذه كثيراً فلما أقبل على ينبع وجد عثمان جماعة من الغلمان يستقبلون السيارة ويقولون سيارة المطبعة .. وعلم أن المطبعة قد وصلت وأن خبر وصولها قد عَمَّ ينبع وأهلها فسأل الصبية : هل وصلت المطبعة ؟

قالوا : نعم ولكنها سقطت في البحر ؟

وكاد السيد عثمان يسقط إعياءاً ولكنه تماسك وأسرع إلى ميناء ينبع .. كان الصندوق الكبير الذي يحمل الطمبور والأدوات الهامة للمطبعة ثقيلا لم يتحمله السنبوك الذي نقل عليه من الباخرة إلى الساحل ، وحينما وصل هذا السنبوك كان هذا الصندوق من الثقل بحيث ناء به السنبوك فسقط في البحر .

ووصل عثمان إلى الميناء فوجد ينبع كلها تشترك في إخراج صندوق المطبعة الذي كان قد هوى إلى البحر، ووجد على رأس الناس أمير ينبع الذي استعان به السيد محمد عمر سُبِيهْ ووكل إليه استلام المطبعة من الباخرة ، واندفع الناس بحماس شخصي ، وبدافع من المروءة والنجدة لإخراج الصندوق العتيد من البحر ، واشتركت ينبع كلها تحت إشراف أميرها في إخراج الصندوق الغريق حتى تم إنقاذه ، وكان أهل ينبع من الكرم بحيث رفض الحُمَّال ورجال البحر الذين اشتركوا في إخراج الصندوق قبول أي أجر على العمل الذي أدُّوه بحماس وإخلاص منقطعي النظير .

وتم تحميل المطبعة وبعض صناديقها في اللوري لتصل إلى مأمنها في المدينة المنورة ، كان الطريق ما بين ينبع والمدينة شاقًّا كثير الرمال في بعض المواضع بحيث تغوص فيه عجلات السيارة فيضطر أصحابها إلى انتشالها ، وكثير الحصى والحفر في مواضع أخرى ، وقبيل وصول السيارة إلى وادي الصفراء رأى السيد عثمان حافظ عدداً من أبناء البادية في تلك الرمضاء وأصرَّ على سائق السيارة أن يتوقف ليركبهم معه في السيارة المحملة بالمطبعة وبعض صناديقها ، ورفض السائق الوقوف فالحمل ثقيل والطريق وعر ، ولكن العاطفة تغلبت وتوقفت السيارة لتضيف إلى حملها الثقيل حملاً آخر من البشر ، وحدث ما توقعه السائق .. غاصت السيارة في الرمال مرة بعد مرة ، وكان الجميع يشتركون في عملية انتشالها وأخيراً ناءت السيارة بحملها من الحديد والبشر فانكسرت الكرونة والبنيون .

وترك الركاب السيارة وساروا في تلك الرمضاء على أقدامهم ثماني ساعات يستظلون فيها بأول شجرة حتى ولو كانت شجرة شوك إلى أن وصلوا إلى وادي الصفراء وانطرحوا تحت ظل شجرة من الأشجار

يلتمسون شيئاً من الماء يبلون به ظمأً كادت منه أن تزهق الأرواح .. وأقبل شيخ الوادي ابن نصار فغمرهم بكرمه وأنزلهم في داره وهيأ لهم الطعام والماء والفاكهة والفراش ، وبعد أن أقام لهم وليمة العشاء أحضر لهم الدواب - الحُمُر - لتنقلهم إلى المسيجيد ، التي وصلوا إليها بعد شروق شمس اليوم التالي .

وأخيراً آن للسيارة - سيارة المطبعة أن تصلّح - وآن للسيد عثمان حافظ أن يعود إلى المدينة بعد غيبة شهور ثلاث ، وآن له أن يستقبل المطبعة وقد وصلت إلى مأمنها في طيبة الطيبة بعد جهود وجهود [٤٠١] .

ونصل الآن إلى نقطة الصفر ، إلى الوقت الذي وجب فيه أن يتحول هذا الكم الهائل من الحديد إلى آلة تطبع الكتب ، ليقرأها الناس .

لم يكن السيد عثمان حافظ مهندساً ولا ميكانيكيًّا ، ولم تكن موارده وموارد أخيه علي المالية لتسمح لهما باستقدام مهندس لتركيب المطبعة في المدينة وتشغيلها فماذا يفعل ؟

اتفق مع المهندس المصري الذي يعمل لدى البائع أن يقوم بتفكيك أجزاء المطبعة وتركيبها بحضوره ، ثم يقوم السيد عثمان حافظ وحده تحت إشراف المهندس المصري بالتركيب مرة أخرى ، واستغرقت العملية أربعة أيام ، استعان فيها السيد عثمان حافظ بنوتة سجل فيها

---

(٤٠١) انظر تفصيل هذه الأحداث في « تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية » (ج ٢) : ص ١٣ - ٩٠ .

وصف كل قطعة ووضع لها رقماً ، وظن أنه بهذا قد وصل إلى ما يريد .. كان في المدينة مهندس يشرف على كهرباء الحرم اسمه شريف أفندي ، واستعان به عثمان في تركيب المطبعة بعد وصولها إلى المدينة وقبل الرجل بعد تهيب وتردد وشاركه السيد عثمان بالنوتة العتيدة ، وتعثرت عملية التركيب ولكنها تمت بعد جهد شديد .. وحينما وصل الأمر للتطبيق ظهرت المصاعب التي لم تكن في البال .

رَصَّ السيد عثمان حافظ قوالب الصفحات التي يريد طباعتها كعمل تجريبي للمطبعة ووضع الورق ، ودارت المطبعة وكان المفروض أن يتحرك الورق تلقائيًّا كلما طبع صفحة منه لتطبع الصفحة الثانية والثالثة ، ولكن الورق التصق بالطنبور وحينما سُحِبَ باليد تمزَّق ، وقضى عثمان حافظ وشريف أفندي قضيا أياماً ثلاثة يحاولون فيها حَلَّ اللغز دون جدوى .

وسافر عثمان حافظ إلى مكة ليرى كيف تدور المطابع ويدور معها الورق ويتحرك ، سافر إلى مكة في سيارة صغيرة مخروقة الإطار ووصلت إلى جدة بعون من الله ، وسافر من جدة إلى مكة بسيارة البريد ، وفي الصباح كان أمام مطبعة أم القرى وهي تدور ورأى الورق يتحرك ، كان هناك خيط من الدوبارة الرفيعة يأخذ الصفحة المطبوعة لتحلَّ محلها صفحة لم تطبع وهكذا .. وانكشف السر الذي لم يكن قد سجله في النوتة .. وعاد إلى المدينة بسيارة البريد ، ووضع خيط الدوبارة وتحرك الورق بسلام (٤٠٢) .

---

(٤٠٢) تطور الصحافة (ج ٢) : ص ٩٠ – ١٠٢ .

هل انتهت التحديات ؟ ليس بعد !

كان الأستاذ عبد القدوس الأنصاري – يرحمه الله – قد تحصَّل على رخصة بإصدار مجلة المنهل في المدينة المنورة وصاحَبَ صدور هذه الرخصة وصول المطبعة إلى المدينة فاتفق مع الأخوين حافظ مُمَثَّلَيْن في شخص أحدهما عثمان على طبع مجلة المنهل بهذه المطبعة الحديثة .. كان السيد عثمان حتى هذا الوقت هو مدير المطبعة ، وهو عامل الطبع والتحبير والقص والتغليف ، كان هو كل شيء في المطبعة ، ولا شيء سواه ...

بدأ عثمان بطبع العدد الأول من مجلة المنهل ، وأنقل هنا ما كتبه عن هذه التجربة :

بدأت العمل بأن جمعت ثمان صحائف من مواد مجلة المنهل ووضَّبْتُها على الطوق على ما هو بالمفكرة – النوتة – فكانت الصفحة الأولى توضع تحتها الصفحة الثامنة ، وعن يمينها الصفحة السادسة عشرة ، ومن تحتها الصفحة التاسعة .

يقول السيد عثمان : (وهذا شيء يمخول العقل ، عقل المغامر الذي يعمل جزافا) .

وخرجت بروفة الملزمة الأولى للتصحيح فظهرت أغلاط كثيرة في التوضيب ، كان يجب أن يكون رأس الصفحة الأولى فى أعلى الطوق ، والصفحة الثامنة التي تحتها يكون رأسها معكوساً إلى أسفل ، ولم يُرَاع هذا الترتيب أثناء التوضيب ، وهكذا كانت معظم الصفحات مقلوبة ومشقلبة ، وأصبحت أنْقُضُ بالليل ما صنعته في النهار ، وبعد جهد وتعب وسهر وضياع وقت تَرَتَّبت الصفحات ، وبدأنا في الطبع ، وكنت

لا أشتكي من هذه المتاعب أو السهر ، بل أقدم عليها بنشاط وشوق ، وكنت أتظاهر بالشغل أمام الزوار ، وأنا غارق في شبر من الماء ، واستطاع عثمان حافظ أن يضبط ترتيب الصفحات ، ولكنه وقع في مشكلة الحبر فله موازين دقيقة ، لم يسجلها في النوتة .

ودار الطبع فنزل الحبر بكميات زائدة جدًّا حتى طمس معظم الحروف ، وصار الورق يلتصق بعضه ببعض ، وخَفَّفَ الحبر حتى كادت الحروف لا ترى .

وظهر العدد الأول من المنهل بعد أن أعدم منه السيد عثمان مائتي نسخة كانت سيئة الطبع ، وتقبل عبد القدوس – يرحمه الله – الأمر على مضض تشجيعاً لصديقه عثمان وتقديراً لظروفه ، ولكنَّ العدد الثاني من المجلة لم يكن أحسن حظًّا من العدد الأول ، فقرر عثمان مع أخيه علي أن يستقدما عاملاً متخصصاً من مكة ، واتفقا مع عباس هلال سنبل على أن يكون معهما في دارهما بالمدينة ، ويتولى شئون المطبعة بمرتب ثلاثين ريالاً شهريًّا .

وأعطيت القوس باريها فتمَّ إخراج العدد الثالث من مجلة المنهل بصورة مشرفة رضي عنها الأستاذ عبد القدوس واستغرق العمل في توضيب العدد الثالث وطبعه خمسة أيام ، وكان عثمان يقضي الشهر كله في التوضيب والطبع (٤٠٣) .

وأود أن أقف قليلاً بعد أن قصصت على القارئ قصة مطبعة

---

(٤٠٣) تطور الصحافة (ج ٢) : ص ١٠٢ – ١٠٨ .

المدينة المنورة منذ أن كانت حلماً يراود خيال الأخوين علي وعثمان حافظ إلى أن أصبحت حقيقة لأقول : إنها قصة الكفاح والعصامية ، قصة التصميم على بلوغ الغاية مهما كانت المصاعب والعقبات ، قصة الحماس الذي يتحدّى المشكلات التي تبدو مستحيلة ، ثم يذللها الإيمان والعمل ، يقول السيد عثمان في وصف تأسيس مطبعة المدينة :

إن مثل هذه المواضيع تحتاج إلى اختصاص وعلم ، ولكن قلة ذات اليد والاندفاع جعلنا نتحمل المتاعب والمسئوليات ، ونخوض المعارك بلا سلاح ، ولو أردنا أن نمد أرجلنا على لحافنا كما يقول المثل العامي لما تقدمنا خطوة في المشروع ، ولأن إمكاناتنا المادية محدودة جدًّا جدًّا ونحن لا نملك إلا العزيمة والعقيدة ، والتوكل على القادر المتعال (٤٠٤) .

هذه قصة المطبعة ، مطبعة المدينة المنورة في إيجاز شديد ، أما قصة الجريدة – جريدة المدينة المنورة – التي من أجلها جلبت المطبعة فهي قصة أخرى لو أردنا سردها أو حتى إيجازها لخرجنا بهذه الترجمة عن الحيز المقدر لها ، وقد كفانا الأستاذ عثمان حافظ هذه المئونة بكتابه القيم الممتع الذي خصص الجزء الثاني منه لقصة المطبعة والجريدة معا فليعد إليه القارئ فهو من الكتب التي أود لشبابنا أن يستمتع بقراءتها ليرى كيف تذلِّل العزائم الصعاب ، بل وتَلِيِّن الحديد .. هذا الكتاب هو كتاب « تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية » الذي كثيرا ما أشرنا إليه قبل ، وقبل أن أختم هذا الحديث فإني أود أن يعرف

---

(٤٠٤) تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية (ج ٢) : ص ١١١ ، ١١٢ .

القارئ أن قصة صدور جريدة المدينة المنورة التي صدر العدد الأول منها في ٢٦ محرم ١٣٥٦ هـ والتطورات التي مرت بها إلى أن سلمت للمؤسسة الصحفية التي تحمل اسمها في ١ / ١١ / ١٣٨٣ هـ هي قصة الكفاح والعصامية ، والإصرار على بلوغ الغاية المرسومة رغم المتاعب والصعاب . وقد فصَّل الأستاذ عثمان حافظ هذه القصة بصراحة تامة وتفصيل دقيق ، فلقد كان إصدار جريدة المدينة المنورة حلماً في أذهان المثقفين وذوي الرأي في طيبة الطيبة ، وكان تحقيق هذا الحلم منوطاً بالأخوين علي وعثمان حافظ وقد استطاعا تحقيقه ولكن التضحيات كانت كبيرة وجسيمة ، كانا يضطران إلى بيع بعض ما يملكان في أواخر الشهور لتسديد رواتب العمال والموظفين .. وكان ثمن طوابع البريد يرهقهما إرهاقاً شديداً ، ولم يكن للجريدة وارد من الإعلانات أو الاشتراكات يكفي لتغطية النفقات ، وجاء وقت فكَّر فيه الأخوان في إيقاف الجريدة عن الصدور بعد أن سُدَّدت في وجهيهما الأبواب ، وذهبا إلى الشيخ محمد سرور الصبان مدير المالية العام في ذلك الزمان بمكة يستشيرانه في الأمر وأعانهما بخمسين جنيهاً ذهباً واستصدر لهما أمراً من جلالة الملك عبد العزيز بمعونة شهرية قدرها خمسون ريالاً ثم زادت إلى مائة ، ثم استمرت في الزيادة حتى وصلت إلى ألف ريال ، ولكن أمور الجريدة لم تستقم إلا بعد أن قضى المؤسسان ما يقرب من أربعين عاماً في هذا الجهاد المرير .

ومرة أخرى فإن جريدة المدينة المنورة هي قصة العصامية والكفاح فليقرأها الناس بقلم أحد أصحابها ففيها من المتعة ما يجعل هذه القراءة

محببة لمن يقرأ ، وفيها من الدرس ما يحتاج إليه الشباب ليشقوا طريقهم في الحياة .

وأخيرا فلقد ذكر الأستاذ عثمان حافظ أن ميلاد أول عدد من جريدة المدينة المنورة اقترن بميلاد الأستاذ محمد علي حافظ نجل أحد المؤسسين ، وكأنَّما كان هذا الاقتران بشيراً بما كان يخبئه الغيب في ستوره ، فقد تولى محمد علي حافظ أمر جريدة المدينة المنورة وانتقل بها من المدينة المنورة إلى جدة ، وأدخل من التطوير والتحسين عليها ما جعلها في مصاف الصحف اليومية الكبيرة في المملكة .

وبعد أن سلمت جريدة المدينة المنورة إلى المؤسسة التي تحمل اسمها قام الأخوان هشام ومحمد علي حافظ بإصدار جريدة عرب نيوز في جدة ، ثم بإصدار جريدة الشرق الأوسط من لندن ، وتوالى إصدار الصحف والمجلات : المسلمون ، سيدتي ، المجلة ، الرياضية ، وأهم من هذا وذاك أن الأخوان هشام وعلي حافظ أقدما على طبع صحفهما في أماكن كثيرة باستخدام جهاز الفاكسميلي الحديث فكانت هذه الخطوة الجريئة حَدَثاً هامًّا شمل قارات أوربا وآسيا وأمريكا وأفريقيا ، وهكذا استطاع الأبناء إتمام مسيرة الآباء ، وأصبح لأسرة حافظ هذا الصرح الصحفي الشامخ عبر القارات وأصبح قراء هذه الصحف يجدونها في كل مكان .

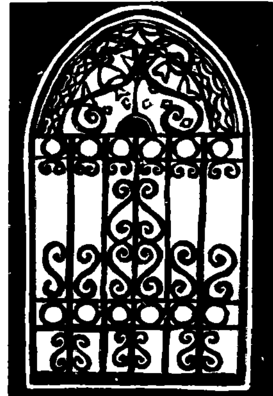
وليس أسعد لقلوب الآباء من أن يروا الأبناء وقد ساروا في نفس الطريق فحققوا من النجاح ما لم يحققه الآباء . هنيئاً للأخوين علي وعثمان حافظ ما عملا ، وما أنجزا ، وهنيئاً لهما ما حقق أبناؤهما من أمجاد .

* * *

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

وبعض القرون الماضية



فرج يسر

فرج يسر

لم أعرف الرجل حتى أستطيع التعريف به ، ولم أدرك زمانه ، وإن كنت أدركت بعض آثاره ، فدفعني هذا إلى تلمُّس أخباره ، ولقد كان ما عرفت من أخباره لا يروي ظمأ الباحث المتشوق إلى تتبع آثاره الشخصية التي يرغب في تقديمها إلى الناس ، ولكنَّ ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه ، ولهذا فإنني أروي هذا القليل الذي استطعت جمعه من أخباره ، على أمل أن أُضيف إليه ما قد يصل إليَّ من القراء الكرام ، أو أجده في ثنايا الكتب التاريخية في مستقبل الأيام .

قالوا : كان فرج يُسر من رجالات مدينة جدة في القرن الثالث عشر ، وربما يكون قد أدرك السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الهجري ، وكان يملك أسطولاً من السفن الشراعية ، تقطع البحر الأحمر ثم تخوض لجج المحيط الهندي لتعود محمّلة بما تحتاج إليه البلاد من مختلف البضائع التي تشمل المأكول والملبوس وما بين هذا وذاك من أصناف ، وكان أسطول فرج يُسر من السفن عظيماً ، قالوا : إنه احتفل بزواج ابنه فأوقد المصابيح في مائة سفينة حشدها في ميناء جدة ، فكانت مظاهرة بحرية لم تشهدها المدينة في تاريخها الطويل .

وسواء بلغ تعداد أسطول فرج يُسر هذا العدد أو لم يبلغ فإنه كان علماً في مدينة جدة في زمانه ، وكان عالي الهمة حسن التفكير .

كانت السفن الشراعية تمخر عباب البحر في أوقات معيَّنة من العام ، تسافر من ميناء جدة تحمل صُرَر الذهب إلى بيوت التصدير في الهند ، ثم تعود محمَّلة بما يحتاجه الحجاز كله بل وغير الحجاز من أنواع

البضائع . فلقد كانت الهند في ذلك الزمان هي مخزن العالم وسلة طعامه ، وكانت الصلات التجارية بين الحجاز والهند عظيمة ، حتى أن كثيراً من البيوت التجارية في الحجاز ، فتحت فروعاً لها في الهند ، لتصدير البضائع وخاصة الأرزاق مثل : الأرز ، والسكر ، والشاي ، والحبوب ، والأقمشة مثل : البفتة ، والدُّوت الذي يسمونه في الحجاز السليطي أو الخام الذي تستعمله البادية في الثياب ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

بيت الحاج زينل وعبد الله علي رضا ، وقد انتقل البيت إلى الباكستان بعد تقسيم الهند .

بيت الحاج سليم خنجي - بيت الشيخ إبراهيم الفضل .

وكان لآل الجمجوم فرع في الهند في بعض الأوقات يديره المرحوم الشيخ عبد العزيز جمجوم ، كما كان هناك مركز الحاج محمد علي زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح - رحمه الله - الذي كان مختصًّا في تجارة اللؤلؤ ثم شمل عمله المجوهرات ، ولعل الشيخ إبراهيم الفضل كان يعمل كذلك في تجارة اللؤلؤ ، وذلك قبل ظهور اللؤلؤ الصناعي .

خلاصة القول : أنه كان للتجار العرب وجود ظاهر في الهند في ذلك الزمان . كما كانت هناك بيوت تجارية هندية يتعامل معها التجار في الحجاز أمثال : التاجر الهندي الشهير عبد الله بهاي وغيرهم .

ولم تكن البواخر البخارية في ذلك الزمان السحيق تدخل ميناء جدة ، وكان اعتماد التجار هو على السفن الشراعية التي يمتلكها الحجازيون ، وكان فرج يسر واحدا من أكبر ملاك السفن الشراعية في ذلك الزمان .

كانت السفن الشراعية تغادر ميناء جدة محملة بصرر النقود الذهبية والفضية وتعود محملة بالبضائع كما ذكرنا ، وكانت رحلات هذه السفن في الأوقات التي يكون فيها المحيط الهندي هادئاً ، إذ كان ربابنة هذه السفن يتجنبون السفر في أوقات الفيضان ، ولهذا فإن السفن بقادتها وعمالها يبقون في مدينة جدة في فصل الشتاء الذي يتعطل فيه سير السفن الشراعية في البحر الهندي المحيط .

وكان بين هؤلاء العمال الذين يسافرون في هذه السفن النجَّارون والدهَّانون ، لأن كل سفينة تحتاج إلى نجار لإصلاح ما قد يطرأ عليها من خلل في هذه الرحلات الطويلة في البحر ، وإلى دهَّان أو أكثر لدهن هذه السفن المصنوعة من الأخشاب صيانة لها من التآكل ، وكان فرج يسر يشغِّل هؤلاء العمال في بيوت جدة فيقوم النجارون بعمل النوافذ والأبواب ، والسقوف ، وكان البناء في ذلك الزمان يعتمد على الخشب كمادة أساسية ، وكانت البيوت تتميز بالرواشين الكبيرة والنوافذ العالية التي تصنع من الأخشاب ، وكان الدهَّانون يعملون كذلك في دهن هذه الشبابيك والسقوف والأبواب بالبوية .

ولقد قيل لي : إن هؤلاء العمال كانوا من الصينيين المهرة ، فاستطاع العمال المحليون نقل الصنعة عنهم وإلى هنا فإن فرج يُسر لا يعدو أن يكون رجل أعمال ناجح ، أتاح لبلده وجود أسطول شراعي كبير يساهم في جلب حاجات البلاد من الأرزاق والملابس وغيرها وهو عمل طيب يستحق التقدير ، ولكن الرجل لم يقتصر على هذا .

عين فرج يُسر

كانت مدينة جدة تعاني من نقص الماء ، وكان هذا شأن المدينة منذ مئات السنين ، ولمدينة جدة مع الماء تاريخ طويل ، فلقد كانت سقيا المدينة تعتمد على مياه الأمطار التي تخزَّن في الصهاريج ، وكانت للماء تجارة معروفة ، فكان الناس يجمعون الماء في صهاريج كبيرة بعضها خارج مدينة جدة في طريق السُّيُولْ ، وبعضها في داخل المدينة ، فإذا انتهى موسم الأمطار قام أهل الصهاريج ببيع الماء (٤٠٥) ، ولقد ظلت مدينة جدة تعتمد في سقياها على الآبار والصهاريج إلى أن قام السلطان الغوري آخر سلاطين المماليك البرجمية في القرن العاشر الهجري بجلب الماء إلى مدينة جدة من وادي قوص الواقع شمال الرغامة .

وعلى ذكر السلطان الغوري فقد كانت لهذا السلطان إصلاحات في مدينة جدة وينبع ، فلقد أمر ببناء سور حصين لمدينة جدة في سنة ٩١٥ هـ حينما أحسَّ أن البرتغاليين ينوون مهاجمتها والاستيلاء عليها توطئة للاستيلاء على الحجاز وقام بتحصين المدينة وبناء القلاع على السور ولكن البرتغاليين لم يقدموا إلى جدة إلا في سنة ٩٤٨ هـ ، وكانت المدينة مستعدة للقائهم ، وقد قاد حملة الدفاع عن مدينة جدة أمير مكة الشريف أبو نمي فترك الحج وحضر إلى جدة مع جنوده وتطوَّع الناس للجهاد فلما حضر البرتغاليون كانت المدينة محصنة خلف السور وقد أصلى المدافعون عنها المهاجمين البرتغاليين ناراً حامية فلاذوا إلى سفنهم

---

(٤٠٥) انظر تفصيلا أكثر عن تجارة الماء في « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز » الطبعة الثانية للمؤلف : ص ١٥٢ – ١٥٤ .

فارّين بعد أن خلّفوا الذخائر والسلاح [٤٠٦] .

وكذلك أمر السلطان الغوري بتشييد أول سور لمدينة ينبع البحر وتم ذلك في نفس العام الذي شيّد فيه سور مدينة جدة عام ٩١٥ هـ ، ويبدو أن السلطان خشي مهاجمة البرتغاليين لميناء ينبع كما خشي مهاجمتهم لمدينة جدة ، ولكن البرتغاليين لم يصلوا إلى ينبع بعد أن طُردوا من جدة كما أسلفنا [٤٠٧] .

وقد بقيت مدينة جدة تعتمد على هذا الماء الذي أجراه السلطان الغوري من القرن العاشر الهجري إلى القرن الحادي عشر ثم انقطع وصول الماء إلى جدة ربما بسبب الخراب الذي تعرضت له العين ومجاريها ، ولعل لحالة الأمن خارج مدينة جدة علاقة بسبب توقف العين أو أن عدم الصيانة وفقدان الأمن كانا معاً من أسباب انقطاع الماء فقد تكرر انقطاع وصول الماء ، وفي القرن الثالث عشر الهجري توقف وصول الماء إلى جدة ..

وهنا يأتي دور فرج يُسر الذي أخذ على عاتقه إعادة جريان الماء مرة أخرى إلى المدينة الظامئة . يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في كتابه تاريخ موسوعة مدينة جدة :

وفي سنة ١٢٧٠ هـ قام تاجر من جدة اسمه فرج يُسر ، قام بإعادة إجراء العين بأن جمع لذلك إعانات من تجار جدة وموسريها ،

---

(٤٠٦) أعلام الحجاز (ج ٢) : ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٤٠٧) « بلاد ينبع » للأستاذ حمد الجاسر : ص ١٠٧ .

وقد استمر جريانها بعد ذلك مع ضعف كامن فيها إلى سنة ١٣٠٤ هـ ، إذ عُنِيَتْ حكومة السلطان عبد الحميد الثاني بإيصال العين الوزيرية [٤٠٨] .

ولم يوضح لنا الأستاذ الأنصاري مقدار التبرعات التي جمعت من تجار جدة ، ومقدار ما ساهم به فرج يُسر القائم بكبر المشروع والذي سُمِّيَت العين باسمه ، وإنما اكتفى بذكر مساهمة أهل جدة في ذلك ، نقلا عن الشيخ محمد نصيف وسواءٌ كانت هذه الإعانات التي ساهم بها التجار قليلة أو كثيرة فإن قيام فرج يُسر بالتصدي لهذا الأمر هو إنجاز كبير يدلُّ على همة عالية وينبع من نفس عظيمة تحسُّ بحاجات الأمة فتنبري لحمل العظائم في سبيل تحقيق ما تحتاجه البلاد ، وهو أمر لا يتصدَّى له إلا الزعماء والعظماء .

وكان فرج يُسر يحتاج إلى الماء لتزويد أسطوله الكبير وهو يسافر من مدينة جدة إلى أن يصل إلى أقرب ميناء يتوفر فيه الماء ، لقد بذل الرجل جهده في البحث عن الماء وإصلاح العين التي جلبها السلطان الغوري حتى استطاع استخراج الماء من عين في شرق مدينة جدة سميت في زمانه « عين فرج يُسر » ولم يكتف بهذا فأوصل الماء إلى المدينة الظامئة وبنى المناهل – البازانات – في أنحاء المدينة ليأخذ أهل جدة حاجتهم من هذا الماء ، وبنى منهلاً خاصًّا قريباً من الميناء الذي ترسو فيه السفن لتأخذ سفنه وسفن غيره حاجتهم من هذا الماء كذلك .

ولمعلومية القارئ فإن موضع عين فرج يُسر هو الأرض التي تقوم عليها مباني جامعة الملك عبد العزيز في جدة ، إذ آلت ملكية عين

---

(٤٠٨) موسوعة تاريخ جدة : ص ١٤٥ – ١٤٧ .

فرج يُسر إلى معالي الشيخ عبد الله السليمان الحمدان وزير المالية السعودي الأسبق وقد أقام عليها أربعة قصور وفيلا ، ثم تبرع بها وبالأرض الكبيرة المحيطة بها لجامعة الملك عبد العزيز بعد تأسيسها (٤٠٩) فكانت هذه القصور المقر الأول لكليات الجامعة حين افتتاحها ، ثم امتدت مباني الجامعة في الأرض الكبيرة المحيطة بها .

ونعود بعد هذا الاستطراد إلى فرج يُسر فنقول : إنَّ من آثاره في مدينة جدة مسجداً يحمل اسمه حتى اليوم ويقع هذا المسجد في شارع الذهب وهو الشارع الموازي لشارع الملك عبد العزيز وهو مفتوح تقام فيه الصلوات الخمس حتى هذا اليوم ، وذكر الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أن له مسجداً آخر خارج مدينة جدة كذلك (٤١٠) .

وبعد فإنَّ اسم فرج يُسر يدل على أنه مولًى ، فلقد كان الناس في الحجاز يطلقون الأسماء الجميلة على عبيدهم وجواريهم ، فيسمون الرجال بأسماء : فرج ، وجوهر ، وألماس ، وياقوت ، وسعيد ، ومسرور ، ويسمُّون النساء بأسماء : بشرى ، وسعيدة ، ومبروكة ، ودام الهناء ، ودام السرور ، وبخيتة وما إلى ذلك ، وهم يطلقون هذه الأسماء الجميلة على الرقيق تيمُّناً بهم ، ولقد انتهى عهد الرقيق ولله الحمد إلى غير رجعة .

أقول : إن اسم فرج يُسر يدل على أنه كان مولى ابن مولى ،

---

(٤٠٩) انظر ترجمة عبد الله السليمان في « أعلام الحجاز » (ج ١) : ص ١١٢ – ١٢٦ .

(٤١٠) موسوعة تاريخ مدينة جدة : ص ٤٣٠ .

وهذا لا يحطُّ من مقامه في نظري ولا في نظر العقلاء والمنصفين ، فلئن كان فرج يُسر مولى فلقد كانت أعماله أعمال السادة بل الكبراء من السادة والمصلحين .

قالوا : ولقد توفي فرج يُسر فقيراً مريضاً لا يملك ما يعينه على حياة الفاقة والمرض ، ولا نعرف سبباً لما أصاب الرجل من الفقر بعد الغنى ، فالأخبار عنه كما ذكرت قليلة ومتناثرة ، ولكني أُرجِّح أن ظهور السفن التي تسير بالبخار وتَردُّدها بين موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي قد سبب الكساد لأسطول فرج يُسر من السفن الشراعية ، فكانت معاناته من الفقر في ختام حياته ، وقد يكون هناك أسباب أخرى لم تصل إلى علمنا .

رحم الله فرج يُسر وجزاه خير الجزاء على ما قدَّم من عمل صالح إنه سميع مجيب .

* * *



أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة
وبعض القرون الماضية



محمد بن عبد القادر مغيربي

محمد بن عبد القادر مغيربي فتيح

وصفه :

أبيض اللون ، متوسط القامة والبنية ، حسن الملامح ، تزين وجهه لحية صغيرة ، متوقد الذكاء ، في وجهه إباء وشمم ، تلمح في أحاديثه ما وهبه الله من ثقافة ومعرفة ، يرتدي العباءة العربية والعقال .

ولادته وتعليمه :

ولد الشيخ محمد بن عبد القادر مغيربي بالمدينة المنورة وكان والده قد هاجر إليها قبل .. ولد في الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة ١٣١٨ هـ ، وتلقى تعليمه الابتدائي بالمدينة المنورة فحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ إبراهيم طرودي وجوَّده علي يد الشيخ إبراهيم فقيه ، ودرس الفقه والتوحيد ، ومبادئ الصرف والنحو على يد المشايخ محمود عبد الجواد والشيخ المعصوم والشيخ محمد سعيد مدرِّس ، كما درس الخط ومبادئ اللغة التركية على الأستاذ محمد أمين عيسى روحي وكان يتلقى دروسه في المسجد النبوي الشريف ، وفي المنزل .

والتحق بالمدرسة الإعدادية العثمانية بالمدينة المنورة ، وكانت تسمى إذ ذاك المدرسة الرشدية ، بعد نجاحه في امتحان الشهادة الابتدائية ، وقد أتم دراسته في المدرسة الإعدادية هذه بعد أن تدرَّج في المرحلة الإعدادية المتوسطة والعلمية النهائية ، كما درس السنة التجهيزية التي تعادل في الوقت الحاضر الشهادة الثانوية .

اجتاز الشاب محمد المغيربي الاختبار النهائي للمدرسة الإعدادية العثمانية بالمدينة المنورة بتفوق ملحوظ فكان من أوائل المبتعثين في ذلك العهد لتلقي تعليمه العالي في كلية صلاح الدين الأيوبي بالقدس ، وكانت هذه الكلية قد افتتحت بالقدس استعاضة عن الكلية الإسلامية التي تقرر إنشاؤها في المدينة المنورة في العهد العثماني ، ويبدو أن ظروف ذلك الزمان حالت دون إنشاء هذه الكلية في المدينة فاستعيض عنها بكلية صلاح الدين الأيوبي في القدس .

كانت مطامح الشاب محمد المغيربي كبيرة ، وكان حلمه الأكبر أن يتعلم الطب ، ولما لم يكن في كلية صلاح الدين الأيوبي بالقدس ما يحقق هذه الآمال فقد انتقل إلى الجامعة الأمريكية في بيروت ، وكانت الحرب العالمية الأولى قد ألقت بظلالها على العالم ، وكانت التوقعات بدخول أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، وضد ألمانيا التي وقفت الدولة العثمانية في صفِّها ، كانت هذه التوقعات ذات أثر كبير في تغيير مجرى دراسة المغيربي فتحول من الجامعة الأمريكية في بيروت إلى الجامعة الأمريكية في روملي حصار اسطنبول ، وتحوَّل كذلك من دراسة الطب إلى دراسة الاقتصاد والعلوم السياسية ، وحصل على البكالوريوس في العلوم السياسية والاقتصاد قبل دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى بأيام قلائل .

كانت الحرب العالمية الأولى قد اشتد أوارها ، وثار الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز على الأتراك وزحفت جيوشه بقيادة أبنائه تفتح مدن الحجاز الواحدة بعد الأخرى ، وكان القائد التركي في المدينة فخري باشا مصرًّا على القتال ، وكانت سكة حديد الحجاز قد خصصتها الدولة التركية لنقل المؤن والذخائر والجند فلا مكان فيها

للركاب ، في هذا الوقت كان المغيربي قد أتم دراسته وحصل على البكالوريوس من الجامعة الأمريكية في استانبول وتهيأ للعودة إلى أهله بالمدينة المنورة ، وأدرك والده الشيخ عبد القادر المغيربي المصاعب التي تحول بين ابنه وبين الوصول إلى المدينة المنورة فكتب إلى صديقه السيد أحمد الصافي عضو مجلس المبعوثان - البرلمان العثماني - عن المدينة المنورة ، كتب إليه يرجوه أن يصحب ابنه محمداً في مجيئه إلى المدينة من دار الخلافة .

بين التجارة والسياسة :

واصطحب السيد أحمد الصافي الشاب محمداً معه في العربة الخاصة التي خصصت له في القطار للعودة إلى المدينة المنورة ، وفي طريق العودة توقّف القطار في - مدائن صالح - وهي إحدى محطات السفر بين المدينة والشام ، وعلم السيد أحمد الصافي أن الأمير سعود بن عبد العزيز بن رشيد يعسكر بجيوشه في مدينة - الحِجْرْ - قريباً من مدائن صالح ، فذهب للسلام عليه ، وبعد بعض الوقت جاء رجال الأمير سعود يستدعون الشاب محمد المغيربي للقاء الأمير سعود .

وكانت المفاجأة العظمى لمحمد المغيربي أن يرى الأمير سعوداً رفيق طفولته في المدينة المنورة ، وقد تسنَّم عرش الإمارة في بلاده - حائل - كانت الحرب بين آل الرشيد إثر وفاة الأمير عبد العزيز المتعب الرشيد ، وأقدم آل عبيد الرشيد في حائل على اغتيال أبناء الأمير عبد العزيز ، ولكن الأمير سعوداً نجا من الموت بفضل الله تعالى ثم بلجوء خاله حمود السبهان إلى المدينة المنورة ، حيث اصطحب الأمير الصغير معه ، فبقي فيها بعيدا عن الخطر ، وفي الفترة التي قضاها سعود بن عبد العزيز الرشيد

في المدينة المنورة ، كان يسكن بجورا آل المغيربي ، وتوثقت العلاقة البريئة بين الصغيرين ، صداقة خالصة تضمخها أطيب الذكريات .

وتكرّ الأيام ، ويعود الأمير سعود ليتسلَّم عرش آبائه في حائل بعد أن تغلَّب أخواله على منافسيهم ، ثم تجمع الأيام بين الرجلين وهما في مطلع الرجولة والشباب .

طلب الأمير سعود من محمد المغيربي أن يعمل معه في حائل ، فقد كان في حاجة إلى شاب في مثل كفاءته وأمانته وعلمه .. اعتذر المغيربي بأنه عائد إلى أبيه في المدينة بعد غيبة طويلة ، وأنه لابد من موافقة الوالد علي ما يعرضه الأمير .. ولكن الشاب لم يعد إلى المدينة فارغ اليدين ، فقد وجد في طريق عودته من الحِجْرْ إلى مدائن صالح بعض تجار الكويت يعرضون أنواعا من البضائع فيها السكر والقماش والبن .

وكانت المدينة تحتاج إلى هذه الأصناف أشد الحاجة وهي محاصرة بجيوش الهاشميين ، وعقد الشاب محمد المغيربي أولى الصفقات مع هؤلاء التجار الذين كانوا يجلبون هذه البضائع من البلاد القريبة التي لم تصلها كوارث الحرب ، وعاد إلى المدينة بها ، وشجّعه أبوه على الاستمرار في شراء هذه البضائع وجلبها إلى المدينة المنورة ، فقد كانت الحاجة إليها شديدة والربح فيها مجزياً .

وعاد المغيربي مرة أخرى في رحلة تجارية مع إحدى القوافل التجارية التي سارت إلى الجوف ثم إلى حائل استغرقت أربعين يوماً ، وكانت الكويت ترسل بضائعها إلى حائل ، فعقد صفقته الثانية فيها .

وحين أعدَّ المغيربي عدته للعودة إلى المدينة كان الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد قد عاد إلى حائل ، وجدد عرضه لصديق طفولته محمد المغيربي للعمل معه مستشاراً خاصًّا في معظم الشئون ، ووكيلا عامًّا في الشئون السياسية والاقتصادية ، قضى محمد المغيربي بضع سنوات إلى جانب الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد متمتعا بثقته الكاملة ، وبصداقته الشخصية ، وباذلاً كل ما يقدر عليه من علم وكفاءة في خدمة صديقه الأمير .

المغيربي يفاوض الشريف الحسين بن علي :

خلال هذه السنوات حضر المغيربي إلى مكة مندوباً من الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد لمفاوضة الملك الشريف الحسين بن علي مؤسس الأسرة الهاشمية ، ونزل مع رفقائه من جنود حائل في الأبطح خارج مكة المكرمة ، وزار منزل الأسرة في مكة ، وقد حدثني - رحمه الله - فيما بعد عن هذه الزيارة أنها كانت بطلب من الملك الشريف الحسين بن علي إلى أمير حائل ليرسل مندوباً عنه للتفاوض في بعض الشئون الخاصة بالبلدين .

مقتل الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد :

اغتيل الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد بيد ابن عمه عبد الله الطلال ، وبارح المغيربي حائل متوجهاً إلى الكويت ، فأحسن وفادته أميرها الشيخ سالم المبارك الصباح الذي كانت تربطه بالأمير سعود الرشيد صداقة وثيقة ، ونزل المغيربي في ضيافة أمير الكويت في قصر القزاز حيث تلقى العلاج هناك على يد الدكتور بيرد رئيس المستشفى الأمريكي آنذاك .

العودة للدراسة :

حينما أتم المغيربي علاجه في الكويت استأذن أميرها في السفر إلى أوربا لاستكمال دراسته العليا التي كان يرغب في إتمامها ، ويبدو أن صاحبنا وقد رأى الفاجعة التي حلّت باغتيال الأمير سعود الرشيد ، آثر البعد عن ميدان السياسة ، فاعتذر عن قبول ما عرض عليه من البقاء في الكويت ، وأكرم أمير الكويت ضيفه فأمر بترحيله في اليخت الخاص بعد أن زوّده بتوصية وتذكرة مرور من الحكومة البريطانية للدخول إلى العراق ، وذلك في أوائل عهد البريطانيين في العراق .

وصل المغيربي من الكويت إلى البصرة ، ورحل منها إلى بغداد ، وحصل على تصريح خاص من القنصلية الفرنسية بالدخول إلى سوريا ، وبكتاب توصية من القنصل الفرنسي بها ، وتوجه المغيربي عن طريق الفالوجة مارًّا بالرمادة ، وأبو كمال ، ودير الزور ، إلى حلب ومنها إلى بيروت ، وقابل المندوب السامي الفرنسي هناك الذي زوّده بتوصية إلى السلطات العلمية العليا في فرنسا للدراسة في جامعة السربون .

وفي بيروت تزوّد المغيربي ببعض المال الذي زوده به أبوه ثم سافر بحراً إلى باريس ، وفي باريس قرر الالتحاق بجامعة لوزان في سويسرا ، لأنه رأى أن باستطاعته توفير سنة واحدة في مدة الدراسة بها ، كما كانت الدراسة فيها بأربع لغات هي : الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، فاختار الدراسة باللغة الإنجليزية ثم ثنّاها بالفرنسية وجعل يواصل دراسته في سباق مع الزمن صيفاً وشتاءاً حتى حصل على شهادة الزمالة في الحقوق والسياسة الدولية بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف .

هذا التحصيل العلمي الكبير في ذلك الزمن البعيد ، نستطيع أن نقول : إنه كان أعجوبة من أعاجيب العصر إذا عرفنا أن الأمية كانت منتشرة في البلاد ، وأن عدد القارئين فيها قليل ومحدود ، لهذا كان المغيربي في زمانه رائداً عظيماً .

يقول الأستاذ محمد حسين زيدان في رثائه له في جريدة المدينة المنورة الغراء : إن الآباء في المدينة كانوا يضربون به المثل لأبنائهم ، انظروا إلى المغيربي الذي يتكلم باللاوندي ، واللاوندي هنا هو اللغات الأجنبية التي كان يعرفها ، فقد كان يتكلم الإنجليزية والفرنسية والتركية ، وقد درس بهذه اللغات كما أسلفنا .

وأذكر أنني رأيت المغيربي أول ما رأيته وهو ابن عم والدي ، حينما حضر إلى جدة في الأربعينات ونزل في دار المغربي الكبير الذي كان يضم كافة الأسرة .

رأيته وكان رجلا كامل الرجولة وكنت في ميعة الصبا غلاماً صغيراً وسألني هل تعلمت الإنجليزية ؟

قلت : إنني أحاول تعلمها على يد أستاذ خاص ، فسألني بالإنجليزية عن أستاذي ، وعن مبلغ ما وصلت إليه حصيلتي ، وهكذا رأيت لأول مرة بين أفراد الأسرة من يهتم بمحاولاتي الأولى في التعليم .

العودة إلى الحجاز :

قرر محمد المغيربي العودة إلى وطنه بعد أن بلغ من العلم أعلى الدرجات فسافر من سويسرا إلى مصر وقابل السيد عبد الملك الخطيب

معتمد حكومة الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز في ذلك الزمان ١٣٣٤ / ١٣٤٢ هـ فأعطاه تذكرة مرور موصى عليها من قبله ، ومن القاهرة توجه المغيربي إلى جدة في باخرة إنجليزية .

وحينما وضع المغيربي أقدامه في ميناء جدة كان العقيد البشناق مدير شرطة جدة في استقباله ، فأخبره أن الشريف علم من معتمده بالقاهرة بسفر المغيربي إلى جدة ، وسار به إلى قصر الشريف الملك الحسين بن علي .

الحسين يأمر المغيربي بالعودة من حيث أتى :

وفي قصر الملك حسين بن علي ، وعلى مرأى ومسمع من أعيان جدة ومكة وكبار موظفي الدولة قال الحسين لمحمد المغيربي بالحرف الواحد :

لا مقام لك في بلدنا وأنت متهم بالوهابية – ومشايعة ... يقصد الإمام عبد العزيز بن سعود – ولولا خدماتك لشخصٍ ما زلنا نُعِزُّه – يقصد سعود بن الرشيد – لكان لك معنا شأن آخر ، ولكن لك مهلة يوم واحد تقضيه في جدة ، وتعود في نفس الباخرة التي جئت فيها .

ويعلل المغيربي هذا التصرف من الملك الحسين معه بأن الحسين كان ينقم عليه من أمور معينة أيام توليه المهام السياسية لابن رشيد .

لعل من المهم أن نذكر أن الجزيرة العربية كلها كانت تضطرب بالفتن في العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري ، فقد نشط الإمام عبد العزيز بن سعود الشاب لاسترداد ملك آبائه وأجداده ، واستولى على الرياض بعد أن قتل عجلان الذي كان يحكمها باسم آل الرشيد

في حائل ، وقام الحسين بن علي بالثورة على الترك في الحجاز وإخراجهم منها والاستيلاء على مدنها حتى وصل جيشه بقيادة ابنه الأمير فيصل بن الحسين إلى دمشق وبويع بالمُلك في الشام لفترة قصيرة ثم تركها إلى باريس بعد أن دخلها الفرنسيون بموجب معاهدتهم مع الإنجليز معاهدة سايكس بيكو ، وبدأ نجم الإمام عبد العزيز بن سعود يسطع في سماء الجزيرة العربية ، فاستولى على نجد كلها كما استولى على القصيم ، والأحساء ، وانتصر في جميع المعارك التي خاضها لتوحيد شتات الجزيرة العربية تحت لوائه ، إلا أن الأمور بقيت بينه وبين الحسين بن علي قائمة على الاختلاف ، وعدم الثقة ، وكان الحسين يعمل على أن يضع ابن رشيد قوته في صف الحسين بن علي لمهاجمة نجد ، ولكن سعود بن عبد العزيز الرشيد الذي عمل المغيربي مستشاراً سياسيًّا له ، كان قد اعترف لابن السعود بأن نجداً وجميع المناطق الداخلية من الكيف إلى وادي الدواسر ، ومخيمات مطير وعتيبة وحرب وبني عبد الله والعجمان ، وآل مرة ، والمناصير ، وبني هاجر وصبيا والسهول ، وقحطوف ، والدواسر وكل شخص تضمه هذه المخيمات هم رعايا لابن سعود ، وأن ابن الرشيد لا علاقة له بهم ألبتة (٤١١) ، ولكن الحسين مع هذا لم ييأس من استمالة آل الرشيد إليه بعد هزيمة جيشه في معركة تربة أمام جيوش ابن سعود (٤١٢) فأرسل الرسل إلى حائل وأمد أميرها بكميات

---

(٤١١) انظر : « تاريخ الدولة السعودية » لأمين سعيد (ج ٢) : ص ٩٩ مطبوعات دار الملك عبد العزيز بالرياض .

(٤١٢) نفس المصدر (ج ٢) : ص ٨١ - ٩٣ .

من الأسلحة ، وفي هذه الفترة بالذات قُتل الأمير سعود بن عبد العزيز الرشيد بيد ابن عمه عبد الله بن طلال الذي بادره حرس الأمير سعود بن عبد العزيز بالقتل فانتقلت إمارة حائل إلى عبد الله بن متعب وكان في الثالثة عشر من العمر ، ورأى الإمام عبد العزيز بن سعود أن الفرصة سانحة للاستيلاء على حائل وضمها إلى سلطاته ، ليضع حدًّا للحروب الطويلة بين آل السعود وآل الرشيد ، فزحف بجيوشه إليها وحاصر مدينة حائل يوم ١٢ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ وانتهى الأمر باستسلام حائل يوم ٢٩ صفر ١٣٤٠ هـ ، على أن يكون الكتاب والسنة حَكماً ، وعامل ابن سعود حائل معاملة كريمة فصانها من أن تمتد أيدي جنوده إلى سلب أهلها ، وتزوج الإمام عبد العزيز بعد الفتح أرملة سعود بن الرشيد ، وتبنَّى أولادها منه ، كما تزوج ابنه الأمير سعود زوجة من آل الرشيد توثيقاً لأواصر القربى بين البيتين الكبيرين (٤١٣) .

هذا ما رأيت إيضاحه فيما يتعلق بالشئون السياسية التي كانت تضطرب بها الجزيرة العربية في ذلك الزمان ، ونعود الآن إلى المغيربي الذي أمره الحسين بالعودة من حيث أتى .

اتصل المغيربي بوالده في المدينة برقيًّا وحصل على ما يحتاج إليه من المال ليعود إلى مصر ، وليضرب في الأرض بعيدا عن وطنه وأهله .

ومن مصر سافر إلى اليمن ، وكانت تربطه معرفة قديمة بالوالي محمود نديم توثقت أواصرها في تركيا حيث كانا عضوين في جمعية اتحاد إسلام

(٤١٣) تاريخ الدولة السعودية (ج ٢) : ص ٩٩ - ١٠٢ .

التركية ، ونزل المغيربي في ضيافة الإمام يحيى حميد الدين الذي استقبله في قصره في صنعاء ، ويقول المغيربي : إن مقابلته للإمام كانت سببا في امتناع الإمام عن إرسال جنود يمنيين إلى الحجاز كان الشريف الحسين قد طلبهم وأرسل إلى اليمن وفداً برئاسة الشريف ناصر لهذه الغاية ، وكان ابن السعود قد أرسل جيوشه للحرب في الحجاز .

ولم تطل إقامة المغيربي في صنعاء فغادرها إلى تركيا واتخذ طريقه من المراوعة إلى مخا ، فمصوع حيث استقل باخرة إيطالية كانت متوجهة إلى كاتانيا في جزيرة صقلية ، ثم أخذ طريقه إلى مسينا ، فبرونديزي ، حيث استقل باخرة يونانية إلى ميناء بيريه في اليونان فاستانبول .

وصل المغيربي إلى استانبول في وقت كانت تحتلها جيوش الحلفاء ، وكانت الحكومة المركزية بما فيها الخلافة ، تحت إشراف الاحتلال بموجب اتفاقية الهدنة .. وكانت الثورة في الأناضول قد بلغت ذروتها بقيادة مصطفى كمال ، وكان المغيربي قد حمل من اليمن بعض الرسائل من أمراء وضباط الترك حينما علموا بعزمه السفر إلى استانبول ، واستطاع المغيربي أن يقابل وزير خارجية تركيا آنذاك أحمد عزت باشا الذي سهل للمغيربي مهمة السفر إلى الأناضول لمقابلة القادة وتسليمهم الرسائل التي حملها من اليمن .

وصل المغيربي إلى أنقرة واستقبله رئيس الأركان فوزي باشا جاقمق وتسلم الرسائل التي يحملها وبقي في ضيافة رئيس الأركان .

اتهام المغيربي والقبض عليه :

فوجئ المغيربي بعد أيام بالقبض عليه ومنعه من السفر وحجزه في التوقيفخانة محجز الضباط والأمراء ، وذلك أن إشارة وردت من المخابرات

المركزية التركية عن جاسوس فرنسي يدعى « بول سيكار » يحمل جواز سفر بتأشيرة خروج من جيبوتي لدخول اليمن متوجهاً إلى الأناضول عن طريق سوريا فأطَنَة ، وظن بعض المسئولين أن المغيربي هو هذا الجاسوس الفرنسي القادم من اليمن ، والذي وصل إلى تركيا والذي ينتظر مقابلة مصطفى كمال فقبض عليه ، ولكن عناية الله تعالى أدركته في الوقت المناسب ، إذ تم القبض على الجاسوس الفرنسي على حدود أطَنَة قادماً من الحدود السورية ، وهكذا انقشعت الغمة ، وأفرج عن المغيربي ، وعادت نظرة الحكام إليه مشوبة بالتقدير والاحترام .

الحصول على الجنسية التركية :

مُنِح المغيربي الجنسية التركية ترضية له عن التهمة التي تعرض لها وما جرَّت عليه من جرائر ، وعُيِّن عضواً بإحدى لجان وزارة المبادلة والإسكان ، التي تقرر إحداثها بعد هزيمة الجيوش اليونانية في الأناضول ، وقرار تهجير اليونانيين إلى بلادهم ، مقابل إعادة الأتراك الذين كانوا في اليونان إلى تركيا ، بموجب شروط هدنة مودانيا .. وأعدَّ المغيربي نفسه للترشيح في انتخابات المجلس الوطني الكبير عن دائرة أطَنَة التي كان يقطن بها كثير من العرب ، ولكن مقالاً نشر في صحيفة – تصوير أفكار – التركية كان سبباً في تغيير الطريق الذي رسمه لنفسه في بلاد الأتراك .

حقيقة الدعوة الوهابية :

اطلع المغيربي على مقال نشر في صحيفة تصوير أفكار التركية بعنوان – اسكى وهابيلك – أي الوهابية القديمة ، وذلك بمناسبة دخول

طلائع جيوش الإخوان الوهابيين إلى الحجاز ، فرأى أن من واجبه إظهار الحقائق التي يعرفها عن الدعوة السلفية وسرِّ قوتها ، فسافر من فوره إلى استانبول وشرع في تأليف كتاب باللغة التركية أولا بعنوان : « فرقة الإخوان بنجد » وترجمه إلى اللغة العربية بعنوان : « وهابية اليوم » .

يقول المغيربي عن مؤلفه هذا : ضمنته حقائق تاريخية ، ومشاهدات عيانية عن سرِّ تلك القوة الهائلة التي أوجدها - عبد العزيز ابن سعود - من العدم - على طريقة السلف الصالح ، وعقيدة التوحيد الحقة ، كما ضمنته أيضا حقائق تاريخية من منشأ الإمارتين المعروفتين في نجد إمارة آل السعود ، وإمارة آل الرشيد ، وعن الحسين وثورته الغاشمة في الحجاز ضد الأتراك ، ثم ما ينبغي أن يكون عليه الحال بعد زوال حكم الحسين من إنشاء حكومة عربية مستقلة حيادية يرأسها الإمام عبد العزيز ابن سعود .

نشر هذا الكتاب باللغة التركية وجرى توزيعه في كافة أنحاء تركيا وقدمت نسخ منه إلى القادة وإلى أعضاء المجلس الوطني الكبير ، وأتبع المغيربي كتابه هذا بكتاب آخر باللغة العربية تحدث فيه بصورة أوسع وأشمل ، عن الوقائع المعاصرة ، وكان للكتاب أثره البالغ في تنوير الرأي العام في تركيا .

السلطان عبد العزيز بن سعود يدعو المغيربي للعودة إلى الحجاز :

لم يمض طويل وقت على نشر كتاب المغيربي الذي أسلفنا ذكره حتى تلقى كتاباً من السلطان عبد العزيز بن سعود يدعوه إلى العودة إلى وطنه في الحجاز .

غادر استانبول إلى بيروت ثم إلى سوريا فالجوف فدوما وسكاكا حتى وصل إلى حائل ، فنزل في ضيافة الأمير عبد الرحمن بن مساعد أمير حائل وقائد المنطقة الشمالية ، وبعث برسالة مستعجلة إلى السلطان عبد العزيز فوافاه الرد باستحسان بقائه في حائل مع توصية للأمير عبد الرحمن بن مساعد .. بقي المغيربي بحائل بضعة شهور ثم استدعاه السلطان عبد العزيز للقدوم إلى الحجاز ، فعاد إلى المدينة المنورة وقرت عينه بلقاء والده وأسرته بغد طول غياب ، ثم واصل سفره إلى مكة المكرمة للسلام على السلطان عبد العزيز .

المؤتمر الإسلامي في مكة :

كان السلطان عبد العزيز قد أعلن عن رغبته في عقد مؤتمر إسلامي في مكة المكرمة بعد أن تم ضم الحجاز وكانت أولى المهام التي أسندت إلى المغيربي هي الاشتراك مع الفريق سليمان باشا الكمالي الذي كان والياً لأبها ، في تنظيم كل ما يتعلق بهذا المؤتمر الذي تم عقده في مكة المكرمة والذي استمر انعقاده من أواخر شهر ذي القعدة إلى نهاية الحجة من عام ١٣٤٤ هـ ، ويصف المغيربي هذا المؤتمر فيقول :

حضره مندوبون عن معظم الشعوب الإسلامية كالهند ، وأفغانستان ، وإيران ، وأندونوسيا ، وتركيا ، ومصر وغيرها ، كما حضره مندوبون عن الجمعيات الإسلامية ، كجمعية الخلافة وجماعة علماء الحديث في الهند ، وحضره كذلك زعماء مسلمون بارزون ، واشترك في المؤتمر مندوبون عن مدن الحجاز ، أربعة من مكة ، واثنان من المدينة واثنان من جدة ، وواحد من ينبع ، وواحد من الطائف ، وأربعة من قبائل عرب عتيبة وحرب ومن إليهم ، وثلاثة يمثلون جلالة السلطان عبد العزيز في المؤتمر وكان اختيار المندوبين عن مدن الحجاز يتم بالانتخاب .

المغيربي في عضوية المؤتمر :

كان السلطان عبد العزيز قد وضع اسم محمد المغيربي ضمن أسماء الرجال الثلاثة الذين يمثلونه في المؤتمر ثم جاءت المفاجأة الأولى باختياره مندوبا عن المدينة المنورة مع الشيخ سعود دشيشة ، وجاءت المفاجأة الثانية باختياره مندوباً عن جدة مع الشيخ محمد نصيف ، وحينما عرضت هذه النتائج على جلالة السلطان عبد العزيز قال كلمته المشهورة : « نحمد الله الذي جعل شوفتي وشوفة قومي واحدة » .

يقصد أن اختيار المغيربي ممثلا للمدينة المنورة وجدة في الوقت الذي اختاره جلالته ضمن مندوبيه يدل على اتفاق النظرة إلى الرجل من جلالة السلطان ومن المواطنين .

أقول : عقد هذا المؤتمر في المبنى الذي كانت تشغله وزارة المالية في أجياد ، وقد أطلق على هذا المبنى اسم المؤتمر ، وكان قد تم بناؤه في العهد العثماني . ويصف المغيربي نتائج المؤتمر فيقول :

ورغم ما دبر وكيد وحيك في الخفاء لإحباط المؤتمر ، فقد أتم الله فضله بإحسانه ، وكان النجاح باهراً لحسن نية الإمام وما ينطوي عليه قلبه الطيب من إيمان وعقيدة .

ونستطيع أن نذكر أن فكرة المؤتمر طرحت من جانب الإمام عبد العزيز – يرحمه الله – للوفد المصري الذي أرسله الملك فؤاد للتوسط في الصلح بين السلطان عبد العزيز ، والملك علي ملك الحجاز ، ذلك أن السلطان عبد العزيز كان يرى أن نهاية الحكومة الهاشمية باتت وشيكة ، وقد اعتذر عن قبول وساطة الإنجليز للصلح ، كما اعتذر لغيرهم فاقترح

فكرة المؤتمر على الوفد المصري للنظر في أمر الحجاز بعد انتهاء الحرب .

وحينما عقد المؤتمر كان الحجازيون قد بايعوا الملك عبد العزيز ملكاً على الحجاز ، وقد كتب الأستاذ حافظ وهبة كتابة ضافية عن هذا المؤتمر (٤١٤) .

تأسيس مجلس الشورى :

بعد انتهاء المؤتمر وعودة الوفود إلى بلادهم ، قام السلطان عبد العزيز بزيارته الأولى للمدينة المنورة وكان المغيربي في جملة من اصطحبهم جلالته في زيارته الأولى لطيبة الطيبة ، وقضى المغيربي بعض الوقت إلى جانب والده في المدينة المنورة حيث كان يشكو من وعكة ألمَّت به إلى أن تم شفاء الوالد من مرضه .

عاد الإمام عبد العزيز إلى مكة في موسم الحج وكان قد عقد عزمه على تأسيس مجلس الشورى ، واستدعى جلالته المغيربي من المدينة إلى مكة المكرمة ، وعيَّنه ضمن الرجال الذين عهد إليهم بوضع الترتيبات لتأسيس المجلس الأول للشورى في مكة المكرمة ، وكان نظام مجلس الشورى يقوم على الانتخاب التمثيلي لكل مدينة يقول المغيربي :

انتخب في أول عقد للمجلس أربعة من مكة ، وعضوان من المدينة ، ومن جدة عضوان ، ومن ينبع عضو واحد ، ومن الطائف عضو واحد ، وثلاثة عن جلالة السلطان هم : عبد العزيز بن زيد ، وعبد الله الجفالي ، ومحمد المغيربي .

---

(٤١٤) جزيرة العرب في القرن العشرين : ص ٢٥٦ – ٢٦٣ الطبعة الثانية .

وكان المغيربي ينتخب عن المدينة المنورة في كل دورة من دورات المجلس ، وكان زملاؤه على الترتيب في تمثيل المدينة المنورة السادة : حمزة غوث ، والشيخ سعود دشيشة ، وذياب ناصر ، والسيد عبيد مدني .

أقول : تأسس مجلس الشورى في مكة المكرمة في بداية العهد السعودي في الحجاز ، وكان التمثيل فيه بالانتخاب كما أوضحنا آنفاً ، وكان المجلس يقوم بدور عظيم في سن الأنظمة والقوانين التي تتطلبها أعمال الدولة ، ولم يكن هناك من الوزارات إلا وزارة المالية التي يرأسها الشيخ عبد الله السليمان الحمدان . لهذا فإن المجلس كان يقوم بالكثير من الأعمال ، وكانت تحال إليه القضايا التي تقتضي البحث وإيجاد الحلول ، وكان رئيس المجلس هو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبد العزيز نائب الملك في الحجاز ، وينوب عنه في رئاسة المجلس عضو يختاره سموه وقد أدركت السيد صالح شطا ، ثم الشريف شرف رضا ، ثم الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي – رحمهم الله – وكانوا على التوالي نواباً لرئيس المجلس ، وحينما يكون الملك عبد العزيز في الحجاز يحضر في كل سنة دورة افتتاح المجلس وكذلك يفعل سمو الأمير فيصل في غياب والده .

وبعد تأسيس الوزارات في أوائل عهد الملك سعود – يرحمه الله – وانتقال عاصمة الدولة إلى الرياض ، أحيلت الأعمال الكثيرة التي كانت تنظر بمجلس الشورى إلى الوزارات المختصة ، ولكنَّ مجلس الشورى لا يزال محتفظا بكيانه وله أعضاؤه ورئيسه حتى الآن .

استمر المغيربي عضواً في مجلس الشورى بمكة المكرمة طيلة حياة الملك عبد العزيز – يرحمه الله – ، وكان نشاطه في المجلس واضح الأثر ،

وخاصة فيما يتعلق بالأنظمة والقوانين ، وأذكر أنه حينما قام الشيخ محمد سرور الصبان – يرحمه الله – بتأسيس الشركات العربية في مكة في الخمسينات من القرن الهجري الماضي ، كانت أنظمة هذه الشركات تعرض على المجلس لتعديلها أو إقرارها ، وكنت أحضر إلى المجلس مندوباً عن هذه الشركات ، وكان الشيخ محمد المغيربي من أبرز الأعضاء الذين يتولون مناقشة هذه الأنظمة ، التي كنا نستعين في وضعها بأنظمة الشركات المصرية التي سبقتنا إلى هذه الأعمال ، ولاشك أن ثقافة المغيربي القانونية كانت سنداً له في هذا المجال ، وقد اختير في عهد الملك عبد العزيز – يرحمه الله – لرئاسة هيئة إصدار الأنظمة ، وذلك بالنظر لما يتمتع به من الخبرة والمعرفة .

وظائف ومهام :

أُسندت إلى المغيربي وظائف هامة في حياة الملك عبد العزيز إلى جانب عضويته في مجلس الشورى ، فقام برئاسة هيئات إصلاح وتفتيش في داخل المملكة ، وفي بعض السفارات خارج المملكة .

وحينما أسس الملك عبد العزيز – رحمه الله – المبرة الملكية في أيام الحرب العالمية الثانية أُسندت إليه رئاسة هيئة هذه المبرة ، وكانت هذه المبرة تقوم بتقديم الخبز للفقراء في الحجاز ، وأذكر أنه قيل لجلالة الملك عبد العزيز ، إن بعض من يتقدمون بطلب هذا الخبز ليسوا فقراء ، فكان جواب جلالته لهم : (كل من مدَّ يده فهو فقير) .

وعمل المغيربي في مجلس المعارف عضواً ، كما تولى رئاسة هذا المجلس بعض الوقت ، وكذلك عمل في رئاسة قلم المطبوعات ، وأسندت

إليه رئاسة الهيئة الملكية للنظر في قضايا المشاغبين ، وحينما اختلفت الحكومة السعودية مع الحكومة المصرية ومنع المحمل المصري من الوصول إلى الحجاز ، قامت الحكومة المصرية بإيقاف إرسال كسوة الكعبة المعظمة التي كانت تصنع بمصر من القرى الموقوفة على الحرمين الشريفين (٤١٥) حينما وقع ذلك أسست الحكومة السعودية هيئة المطالبة بأوقاف الحرمين الشريفين ، وأُسندت إلى المغيربي عضوية هذه الهيئة ورئاستها ، وفي أوائل عهد الملك سعود - رحمه الله - عين المغيربي رئيساً للجنة الاستيراد كما عمل عضواً منتدباً من مجلس الوزراء في هيئة مراقبة النقد .

وهكذا أسهم المغيربي بنشاط ملحوظ في الأعمال الكثيرة التي أسندت إليه ، وكانت عفة يده إلى جانب الخبرة والمعرفة ميسما بارزا في جميع أدوار حياته ، وآخر المهام التي مارسها المغيربي هو اختياره لرئاسة بعثة الشرف الملكية التي رافقت السيد كميل شمعون رئيس جمهورية لبنان للمملكة في أواخر عهد الملك عبد العزيز حيث كان الملك سعود يتولى معظم المهام الحكومية أثناء مرض الملك عبد العزيز - يرحمه الله - .

وقد منح جلالة الملك عبد العزيز المغيربي رتبْة وزير مفوض ، كما حصل على وسام الكوماندز اللبناني بمناسبة هذه الزيارة .

المغيربي يتقاعد :

توفى جلالة الملك عبد العزيز - يرحمه الله - ، وتعرَّض المغيربي

---

(٤١٥) انظر تفصيل ذلك في « أعلام الحجاز » (ج ٢) : ص ٨٧ - ٩٦ .

بعدها لمرض شديد اضطر على أثره للسفر إلى خارج المملكة للاستشفاء ، ومنحته الدولة إجازة مفتوحة قضى معظمها في أوربا ، وعاد إلى المملكة ، فخيِّر بين الاستمرار في العمل الحكومي ، أو الإحالة إلى التقاعد بالراتب الكامل فاختار الثانية لأنه كان يشعر بالحاجة إلى مزيد من الراحة والابتعاد عن المسئوليات .

العمل في المجال الأهلي :

اختير المغيربي رئيساً لمجلس إدارة الشركة العربية للسيارات ، وكانت يومها الشركة الوحيدة التي تقوم بنقل الحجاج ، كما تقوم بنقل البريد ، وتؤمِّن طلبات الدولة من السيارات في جميع أنحاء المملكة .

وحينما أسس آل الجفالي أول شركة للكهرباء بمكة المكرمة اختير المغيربي عضواً مؤسسا لشركة الكهرباء بمكة والطائف .. وأعيد انتخابه للعمل في هذه الشركات لعدة دورات .

المهمة العظمى :

تخلى المغيربي بعد سنوات من تقاعده عن الأعمال التي ارتبط بها في الشركات الأهلية ، ورحل إلى مصر ليتفرغ لتعليم أبنائه وبناته .

كان حلم الرجل كما ذكرنا في مطلع الحديث عنه أن يتعلم الطب ليخدم بلاده في مجال هو أكبر مجالات الخدمة فيها في ذلك الزمان ، إذ كان الأطباء السعوديون لا يصلون إلى تعداد أصابع اليد الواحدة [٤١٦]

---

(٤١٦) أعلام الحجاز (ج ١) : ص ٢٢١ – ٢٢٥ .

وقد حالت الظروف بينه وبين هذه الأمنية فلما أنجب الأولاد والبنات كان هدفه الأعظم هو تعليمهم الطب ليتخرجوا أطباء وطبيبات ، وكانت أغلى أمانيه أن يبني لهم مستشفى يعملون فيه .

رتب الرجل أموره ، وانتقل إلى القاهرة فألحق أبناءه بمدرسة منيل الروضة الخاصة التي أسسها السيدان ولي الدين أسعد ، وعلي أسعد ، ثم نقلهم إلى مدرسة فكتوريا بالمعادي ، وأخيرا اشترى منزلاً بالاسكندرية ونقل أبناءه إلى كلية فكتوريا هناك ، وكانت كلية فكتوريا من أرقى المدارس الإنجليزية الخاصة في مصر ، يلتحق بها الأبناء بعد الآباء لما حازته من سمعة طيبة ، ولما تهيئه شهادتها من الالتحاق بالجامعات الكبيرة في الخارج .

أقام المغيربي في الاسكندرية متفرغاً لتعليم أولاده وتربيتهم ، فكان بثقافته الدينية خير مرشد لهم ومقوِّم ، وكان بثقافته الواسعة خير رائد ومعلم ، كان يصر على محادثتهم باللغة الإنجليزية ليضمن لهم إتقانها ، وكان يراقب سيرهم في الدراسة لا عاماً بعد عام ولكن يوماً بعد يوم ، وقد جنى الأولاد ثمار هذه العناية يانعة شهية كما قرَّت عين أبيهم بهم وقد تبوأوا المراكز العليا أطباء بارزين ، فقد حصل الدكتور نزار أكبر أبناء المغيربي على الزمالة الأمريكية لأخصَّائي القلب بعد حصوله على الدكتوراه في الطب وقد عمل فترة طويلة مديراً لمستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض . وهو يعمل في الوقت الحاضر رئيس مجلس إدارة الاتحاد السعودي للطب الرياضي ومستشاراً في أمراض القلب .

وحصل ابنه الثاني الدكتور وائل على الزمالة الأمريكية في الجراحة

العامة وجراحة القلب ، وهو يعمل الآن مديراً لقسم القلب بمستشفى الملك فهد بجدة . ويقوم بعمليات القلب المفتوح للأطفال .

وحصل الدكتور زاهر على الزمالة الأمريكية في الأمراض الباطنية والقلب ، وهو يعمل مدير عام الخدمات الطبية بالخطوط السعودية بجدة ومنتدباً كمدير عام طبي في مستشفى الملك خالد للحرس الوطني بجدة .

أما بنات المغيربي فقد حصلت ابنته الكبرى الدكتورة جليلة على شهادة البكالوريوس في الجراحة ، وهي تعمل في مستشفى الملك فهد للقوات المسلحة بجدة في قسم التحاليل الطبية .

كما حصلت ابنته الثانية الدكتورة رباب على شهادة الدكتوراه في تقويم الأسنان من جامعة هارفرد بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي تعمل الآن كأستاذة مساعدة في كلية الطب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة .

وحصلت صغرى بناته بتول على بكالوريوس في العلوم من الولايات المتحدة ، وهي تعمل الآن في قسم الخدمات الاجتماعية في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض .

لقد تحقق للرجل حلمه العظيم كأجمل وأحسن ما تتحقق الأحلام ، أولاد من كبار الأطباء يتسنمون مراكز طبية مرموقة ، وبنات طبيبات يعملن في أشرف مجال هو صحة الإنسان ، وإذا كانت الظروف قد حالت بين المغيربي وطموحه في بناء مستشفى لهم فإني أرى أنهم يعملون في المجال الأوسع في مستشفيات الدولة ، وفي مختلف المرافق الطبية بين الرياض وجدة ، وهكذا قرَّ المغيربي عيناً بما آتته تربيته العظيمة لأبنائه البررة من أطيب الثمرات .

بين المغربي والمغيربي :

بعض الناس يسألون وقد عرفوا صلة النسب بيني وبين المغيربي – رحمه الله – عن التفرقة في اللقب بين المغربي والمغيربي ، والمغيربي هو ابن عم أبي ، فوالدي هو : عبد الواحد بن عبد الوهاب بن محمد مغربي فتيح الحبَّاب ووالد المغيربي هو : عبد القادر بن محمد مغربي فتيح الحبَّاب فهما يجتمعان في الجد الأول ، وكانت أسرتنا أبي وأعمامي وأجدادنا يعملون بتجارة الحبوب مع البادية الذين يملكون قوافل الجمال ، ويتمونون بما يلزمهم ويلزم عشيرتهم بالحبوب من محلات الأسرة في مكة وجدة والمدينة ، وكنت أسمع الأعراب ينادون أبي وعمي بالمغيربي بالتصغير ، وكنت أعتبره تصغير تحبيب ، وكان هذا أسلوب البدو في مخاطبتهم ، وقد انتقل والد المغيربي الشيخ عبد القادر إلى المدينة المنورة وكان يعمل بنفس التجارة مع الأعراب فكانوا ينادونه بالمغيربي ، فثبت اللقب ولم يجد ما يدعو إلى تغييره أو تصحيحه .

هذا ما كنت أعرفه ولكن المغيربي يذكر في ترجمته الذاتية تفسيراً آخر ، هو أن أهل المدينة المنورة لقبوا والده الشيخ عبد القادر بالمغيربي بدلاً من المغربي تمييزاً له عن مهاجري المغاربة في المدينة ، وأضاف أن جلالة الملك عبد العزيز – يرحمه الله – كان ينادي المغيربي بلقبه دون أن يسبقه بالاسم فبقي هذا اللقب علماً عليه .

فتيح لقب الأسرة :

ذكرت قبل أن الاسم الكامل لوالد المغيربي هو الشيخ عبد القادر محمد مغربي فتيح الحباب ، والحباب هو اسم المهنة التي كانت تمتهنها

أسرتنا في جدة ومكة والمدينة ، والصكوك القديمة التي وجدناها ناطقة بهذا الاسم ، وقد احتفظ الجيل الأول بهذا الاسم كاملاً ، ثم جاء بَعْدهم فاكتفى بعضهم بلقب المغربي ، وأهمل اللقب الثاني فتيح ، وأصبحت الشهرة للأسرة هي أسرة المغربي ، ولكن ابن المغيربي الأكبر الدكتور نزار احتفظ باسم فتيح فقط فسمى نفسه الدكتور نزار فتيح ، ومن الطرائف التي حدثت في هذا الباب ، أن الدكتور نزار كان مديرا للمستشفى التخصصي في الرياض ، ومن الأطباء الذين يشرفون على صحة المرحوم الملك خالد وقد توثقت صلته به بعدما تعرض لوعكة شديدة – كان الدكتور نزار يرأس الفريق الطبي الذي يشرف على علاجه منها وكان الملك خالد – يرحمه الله – يعرف والده محمد المغيربي ، وحضر المغيربي إلى الرياض وذهب للسلام على الملك خالد – يرحمه الله – فسأل جلالته الدكتور نزار كيف أنت فتيح وأبوك المغيربي ؟

آثار المغيربي الأدبية :

ألف المغيربي كتاب الوهابية الجديدة الذى أسلفنا الحديث عنه ، كما ألف كتاباً آخر اسمه – الحقيقة ينت البحث – ولم يتيسر لى الاطلاع على هذين الكتابين ، ولهذا فإني أكتفي الإشارة إليهما فللرجل مشاركات أدبية وفكرية هي نتاج حياته الحافلة بالتجربة بعد الدراسة الطويلة .

وفاة المغيربي :

توفى المغيربي فجر يوم الأحد غرة جمادى الثانية عام ١٤٠٩ هـ ودفن بالمدينة المنورة في بقيع الغرقد بعد صلاة العشاء عن عمر يناهز التسعين عاماً ونصف العام ، بعد حياة حافلة ، تسلق فيها ذروة المجد صغيراً ، وعصفت به أعاصير السياسة في شبابه وصدراً من رجولته ،

فتغرَّب عن وطنه طالب علم ، ورجل سياسة ، ثم عاد إليه عاملاً في مجال الخدمة العامة بكل ما أُوتي من قوة ، وما وهبه الله من علم ومعرفة ، ثم فرَّغ نفسه لتربية أبنائه وبناته ، فكانوا أعلاما في مجالاتهم ، بتوفيق من الله تعالى لهم ، وبما بث فيهم والدهم من حسن الرعاية لهم والقوامة عليهم .

رحم الله الشيخ محمد عبد القادر المغيربي وجزاه خير الجزاء ..

* * *

مراجع الكتاب

أولا : الكتب

١ – السيرة النبوية / ابن هشام ، الطبعة الثانية ، دار الكنوز الأدبية .

٢ – البعث / محمد علي مغربي ، مجموعة قصصية ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

٣ – الثورة العربية الكبرى / أمين سعيد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

٤ – الجواهر الثمينة في بيان أدلة عالم المدينة / الشيخ حسن محمد المشاط ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

٥ – الجواهر المعدة في فضائل مدينة جدة / أحمد محمد الحضراوي ، مخطوط .

٦ – الأعلام قاموس تراجم / خير الدين الزركلي ، طبع دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة مايو ١٩٨٠ م .

٧ – أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة / محمد علي مغربي ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مطابع دار العلم سنة ١٤٠٥ هـ .

٨ – أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة / محمد علي مغربي ، الجزء الثاني ، الطبعة الأولى ، مطابع دار العلم سنة ١٤٠٤ هـ .

٩ – إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام / الشيخ عبد الله غازي المكي ، مخطوط .

١٠ – الفتوحات الإسلامية / السيد أحمد زيني دحلان ، مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر .

١١ – اللطائف في تاريخ الطائف / أحمد محمد الحضراوي ، مخطوط .

١٢ – المماليك / الدكتور السيد الباز العريني ، طبعة دار النهضة العربية سنة ١٩٧٩ م .

١٣ – المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر / الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير ، الطبعة الثانية ، طبعة دار المعرفة ١٤٠٦ هـ .

١٤ – أئمة الفقه والسنة / عبد الرحمن الشرقاوي ، إصدار دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة سنة ١٤٠٦ هـ .

١٥ – بلاد ينبع / حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض .

١٦ – تاريخ مكة / أحمد السباعي ، الطبعة الرابعة ، إصدار نادي مكة الثقافي ١٣٩٩ هـ .

١٧ – تاج تواريخ البشر وتتمة جميع السير / أحمد محمد الحضراوي ، مخطوط .

١٨ – تاريخ الدولة الأموية / محمد علي مغربي ، الطبعة الأولى ، مطابع دار المدني بالقاهرة سنة ١٤٠٩ هـ .

١٩ – تاريخ ينبع / عبد الكريم الخطيب .

٢٠ – تاريخ الدولة السعودية / أمين سعيد ، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز بالرياض .

٢١ – تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية / عثمان حافظ ، شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة ، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ .

٢٢ – جزيرة العرب في القرن العشرين / حافظ وهبة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥ هـ الطبعة الثانية .

٢٣ – خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر / محمد المحبي ، دار صادر بيروت .

٢٤ – خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ / السيد أحمد زيني دحلان ، إصدار الدار المتحدة للنشر ، بيروت .

٢٥ – ديوان البيتي / السيد جعفر بن محمد البيتي ، مخطوط .

٢٦ – سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة / عمر عبد الجبار ، إصدار تهامة ، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ .

٢٧ – صور وأفكار مطبوعات تهامة / عثمان حافظ ، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤ هـ .

٢٨ – صور وذكريات / عثمان حافظ ، الكتاب الثاني ، الطبعة الأولى مطابع دار العلم ١٤٠٤ هـ .

٢٩ – عمر بن الخطاب أمير المؤمنين / محمد علي مغربي ، الطبعة الأولى ، مطابع دار العلم سنة ١٤٠٣ هـ .

٣٠ – عجائب الآثار في التراجم والأخبار / عبد الرحمن الجبرتي ، إصدار دار الجيل ، بيروت .

٣١ – فصول من تاريخ المدينة المنورة ، علي حافظ ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

٣٢ – لعنة هذا الزمن / محمد علي مغربي ، الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـ .

٣٣ – مرآة الحرمين / اللواء إبراهيم عفت باشا ، إصدار دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الأولى .

٣٤ – ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة / محمد علي مغربي ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ .

٣٥ – موسوعة تاريخ مدينة جدة / عبد القدوس الأنصاري ، الطبعة الثانية ، مطابع الروضة بجدة ١٤٠١ هـ – ١٩٨٠ م .

٣٦ – مكة المكرمة منذ مائة عام / مجموعات ك بنوك هير جرونج الرائدة .

٣٧ – نفحات من طيبة / علي حافظ ، مطبوعات تهامة ، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ .

ثانيا : الصحف والمجلات

٣٨ - مجلة العرب .

٣٩ - مجلة المنهل .

٤٠ - جريدة الندوة .

٤١ - جريدة الشرق الأوسط .

* * *

كتب صدرت للمؤلف

البعث : رواية طويلة صدرت الطبعة الأولى منها في عام ١٣٦٤ هـ وأُعيد طبعها مع قصص أخرى في سنة ١٤٠٣ هـ .

حبات من عنقود : مجموعة من الأحاديث القصيرة صدرت عام ١٣٨٧ هـ ، وأُعيد طبعها في سنة ١٤٠٥ هـ .

لعنة هذا الزمن : مجموعة مقالات تتعلق بالأحداث العربية والإسلامية صدرت سنة ١٣٨٧ هـ .

أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة : تراجم لثلاثين من أعلام الرجال في الحجاز صدرت طبعته الأولى عام ١٤٠١ هـ ، وصدرت الطبعة الثانية في سنة ١٤٠٥ هـ .

ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة : تصوير للحياة الاجتماعية في الحجاز خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر للهجرة صدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٢ هـ وصدرت الطبعة الثانية في سنة ١٤٠٥ هـ وصدرت الطبعة الثالثة في سنة ١٤٠٥ هـ وهي خاصة بالمكتبات المدرسية لوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية .

أبو بكر الصديق خليفة رسول الله : الكتاب الأول في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٣ هـ .

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : الكتاب الثاني في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٣ هـ .

الجزء الثاني من أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة : تراجم لعشرة من أعلام العلماء والمؤرخين والشعراء والأدباء مع دراسة لآثارهم المطبوعة والمخطوطة دراسة وافية ، صدر في سنة ١٤٠٤ هـ .

الإسلام في شعر شوقي : بحث قدم إلى المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي عقد بمكة المكرمة من غرة ربيع الأول سنة ١٣٩٤ هـ إلى السابع منه ، وهو دراسة لشعر شوقي الإسلامي وخاصة في أماديحه النبوية صدر في عام ١٤٠٤ هـ .

عثمان بن عفان ذو النورين : الكتاب الثالث في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٤ هـ .

علي بن أبي طالب والحسن بن علي : الكتاب الرابع في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٧ هـ .

تاريخ الدولة الأموية : تاريخ مفصل للأحداث السياسية في الدولة الأُموية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن محمد الحمّار آخر الخلفاء الأُمويين مع تراجم للخلفاء الأمويين جميعا صدر سنة ١٤٠٩ هـ .

* * *

الفهارس

الصفحة

* * *

فهرس الصور

الصورة	الصفحة

* * *

فهرس الأعلام

* * *

فهرس الكتب والمجلات والصحف

* * *

فهرس الموضوعات والأماكن

* * *

فهرس الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

★ ★ ★

تهامة
TIHAMA
الكتاب العربي السعودي ٣٠

محمد علي مغربي

أعلام الحجاز

في القرن الرابع عشر للهجرة

١٣٠١ - ١٤٠٠ هـ
١٨٨٣ - ١٩٨٠ م

أعلام الحجاز

في القرن

الرابع عشر والخامس عشر الهجري

تأليف

محمد علي مغربي

ح محمد على مغربى

مغربى ، محمد على .
اعلام الحجاز فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .
... ص ؛ .. سم
ردمك ٢ - ٣٤٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠
١ - الحجاز - تراجم ٢ - السعودية - تاريخ
أ . العنوان .
ديوي ٥٣١٢ , ٩٢٠ ١٤/٢١١٥

رقم الإيداع : ١٤/٢١١٥
ردمك ٢ - ٣٤٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظه للمؤلف

الطبعة الأولى ١٤١٤هـ

أعلام الحجاز

في القرن

الرابع عشر والخامس عشر الهجري

تصميم الغلاف : عباده الزهيرى



مطابع دار البلاد ـ جدة ـ ت : ٦٧٠٠٣٣٣


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله ، والشكر له شكراً يليق بنعمائه وآلائه ، وصلاة وسلاماً على خير خلقه وخاتم رسله وأنبيائه وبعد .

فهذا هو الجزء الرابع من أعلام الحجاز تحدثت فيه عن عشرة من أعلام الرجال كانوا ملء السمع والبصر ، وقد فارقوا هذه الحياة الدنيا فانتهت حياتهم ، وبقيت لنا آثارهم وذكرياتهم .

ولعل أطول هذه التراجم وأحفلها بالمادة التاريخية هي ترجمة الشيخ عبدالله غازي مؤلف الكتاب الموسوعة في تاريخ مكة والذي سمّاه « افادة الأنام في أخبار البلد الحرام » هذا الكتاب المخطوط في ست مجلدات كبيرة ضخمة ، وقد استخلصت منه ما أعتبره اكمالاً لما سبق أن ورد في الأجزاء الماضية من أعلام الحجاز عن آثار مكة المكرمة والكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، وقد فصلّت ذلك كله في مكانه ليكون القارىء ملماً بهذا التاريخ الضخم عبر القرون ، وبتلخيص كتاب افادة الأنام للشيخ الغازي يكون هذا الجزء من أعلام الحجاز قد احتوى على حقائق تاريخية كثيرة عن الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، ومكة المكرمة وجبالها وعيونها ومعالمها ، وبعض هذه الحقائق يرجع تاريخه الى قرون سالفة كثيرة ، ولا أريد الاطالة في الحديث عن كتاب الغازي في هذه المقدمة فقد تحدثت في الترجمة نفسها عن ذلك باسهاب .

والأعلام الذين تحدثت عنهم في هذا الجزء فيهم العالم والمؤرخ والشاعر والتاجر والمصلح والأديب والناشر ، وكل منهم كان علماً في مجاله ، وقد اجتهدت ما وسعني أن أقول فيهم كلمة حق مشيداً بالحسنات مبتعداً عن الشوائب والهنات التي لا تخلو منها حياة الناس ، والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينتفع القارىء بما في سيرة هؤلاء الرجال من القدوة الطيبة والعمل الصالح إنه وحده سميع مجيب .

محمد علي مغربي

السيد أحمد الفيض آبادي

مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة

السَّيد أحمد الفيض آبادي

أسمر اللون ، متوسط القامة ، ينمُّ بريق عينيه عن ذكاءٍ وقَّادْ ، قويَّ العزم ، اشتعل رأسه شيْباً قبل أن يبلغ المشيب ، خفيف اللحية التي يختلط فيها البياض بالسواد ، بسيط المظهر ، يرتدي ثوباً من القماش الأبيض ، ويعتمر قلنسوة حجازية ملتصقة بالرأس(١) ، تفيض نفسه بالرغبة في الاصلاح والمحبة للناس ، مشغول الفكر بالعمل العظيم الذي نذر نفسه لتحقيقه رغم المصاعب والعقبات .

الاسم والنسب :

ولد السيد أحمد الفيض آبادي بقرية « بانكرمو » التابعة لفيض آباد بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٢٩٣هـ ، ويرجع نسبه الى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، حيث هاجر جَدُّه الأعلى السيد نور الحق الى الهند في عهد السلاطين الغزنويين واستقر بقرية « الله داربور » من أعمال فيض آباد التي استوطنتها أسرته جيلاً بعد جيل ، حتى نزح منها حفيده حبيب الله الى الحجاز ، وحبيب الله هو والد السيد أحمد الفيض آبادي .

تعليمه :

التحق أحمد الفيض آبادي بمدرسة حكومية في قرية تانده ، حيث كان والده مدرساً بها ، ونجح الطالب أحمد وكوفىء باعانة مالية شهرية من قبل القائمين بأمر المدرسة تشجيعاً له .

ثم التحق بمدرسة ديوبند الجامعة في سنة ١٣١٥هـ حين بلوغه الثانية والعشرين من العمر ، وبعد تخرجه بعام واحد هاجر والده من الهند الى المدينة المنورة بأسرته وجاء الشاب أحمد الفيض آبادي الى المدينة المنورة مع أسرته ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى الهند حيث بقي بها

(١) ٢ ـ ١٧ ـ ١٨ السيد أحمد الفيض آبادي لعبدالقدوس الأنصاري .

أربعة أعوام ، وفي عودته الى الهند اتصلت أسبابه بالسيد أحمد الكنكوهي طيلة عامي ٢١ ، ٢٢ ، ولازمه ملازمة الظل وأفاد من هذه الصحبة رياضة النفس على الأخلاق الفاضلة .

كان السيد أحمد على علم باللغات فقد كان يتكلم اللغتين الفارسية والأردية الى جانب اتقانه للغة العربية مع إلمام بمبادىء اللغتين التركية والانجليزية .

وكان يتقن الخط والكتابة ، وكتابته بقلم النسخ آية في الجمال ، وأجمل منها كتابته بقلم التعليق الفارسي[١].

أســـرته :

وينتمي السيد أحمد الى أسرة اشتغلت بالعلم والتعليم فوالده عمل رئيساً للمدرِّسين في مدرسة صفي بور بالهند ، ثم تنقَّل في البلاد والأعمال حتى ألقى عصا التسيار ببلده ـ بانكرمو ـ فعين مدرساً باحدى مدارسها واقترن بابنة عمه وهو مقيم بها ، وبها ولد ابناؤه صديق ، وأحمد الفيض آبادي ، وشقيقه حسين ، ومن هذه البلدة هاجر الى المدينة المنورة[٢] .

وشقيقه السيد حسين أحمد ، الذي وصل الى المدينة برفقة والده كان مشتغلاً في بدء حياته بالعلم والتعليم .

كانت له حلقة بالمسجد النبوي الشريف وتتلمذ على يديه الكثيرون من علماء المدينة المنورة وشعرائها منهم . على سبيل المثال ،الشيخ / عبدالحفيظ كردي عضو المحكمة الكبرى بالمدينة المنورة وأحد شعرائها ، وأحمد البساطي نائب القاضي ، ثم أحد مدرسي القسم العالي بمدرسة العلوم الشرعية ، ومنهم بشير الابراهيمي الزعيم الجزائري الذي وصل الى المدينة مهاجراً من بلده ، بعد أن احتلَّته فرنسا وأصرَّتْ على اعتبار الجزائر اقليماً فرنسياً .

وحسين أحمد هو الذي نصح الابراهيمي الزعيم الجزائري وزميله عبدالحميد باديس بالعودة الى بلدهما قائلا لهما ما معناه .

ان بقاءكما بالمدينة لن يفيد الجزائر بشيء ، ولكن عودوا الى بلادكم وابدأوا بتعليم القرآن الكريم في كل مكان يتيسر لكما ذلك ، ان الفرنسيين لن يستطيعوا الأمر بمنع تعليم أطفال الجزائر القرآن الكريم .

وهذا القرآن هو الذي يفتح الباب للعمل لاستقلال الجزائر ، وعاد الابراهيمي وعاد معه عبدالحميد باديس ، وبدأ العمل لاستقلال الجزائر من كتاتيب تعليم الأطفال سور القرآن الكريم ، وقد كتب الله لحسين أحمد العودة الى الهند ليشارك في العمل على اخراج الانجليز من الهند فكان واحداً من أبرز الرجال الذين عملوا لاستقلال الهند ، ونعود بعد هذا الاستطراد لنتحدث عن حسين أحمد بالمدينة .

---

(١) ١ ـ ٥٩ ـ ٦٢ أحمد الفيض أبادي .

(٢) ١ ـ ٢٧ السيد أحمد الفيض أبادي لعبدالقدوس الانصاري .

ظل حسين أحمد مقيماً بالمدينة يلقي الدروس على تلاميذه بالمسجد النبوي الشريف الى أن نشبت الحرب العالمية الأولى ، فسافر الى مكة المكرمة والطائف ، وبعد أن قامت الثورة على الحكومة العثمانية طُلب منه أن يفتي بوجوب الخروج على الدولة ، ولم يكن يرى ذلك فامتنع فنُفي الى جزيرة مالطة ومكث بها الى أن انتهت الحرب العالمية وأطلق سراحه فعاد الى الهند ، وعمل بالنصيحة التي نصح بها الابراهيمي وباديس ، فعاد الى الهند ليبدأ جهاده فيها ، رائداً ينشر العلم ، ومصلحاً يوقظ الهمم الخامدة ، داعياً الى الاصلاح الديني والاجتماعي ، فهما السبيل الى رفعة الأمة لتخلع عن عاتقها نير الاستعباد وكان الرجل يتقن اللغتين العربية والأردية كما رزق موهبة الخطابة والفصاحة ، فكان لذلك تأثيره القوي في السامعين .

وبعد كتابة ما تقدم قرأت للاستاذ/ محمد حسين زيدان في سبب نفي حسين أحمد الى مالطة مايلي :

والصحيح أنه جمع أموالاً تبلغ أكثر من مليون روبية فذهب بها الى الطائف عوناً للباشا التركي ضد موقف الحسين بن علي ، فحكومة الشريف هي التي سلمته للانجليز فنفوه الى مالطه[1] .

أقول : انني شخصياً استبعد صحة هذه الرواية التي ذكرها الزيدان ولم يذكر مصادره فيها ، فالزمن الذي قام فيه الحسين بن علي بالثورة على الأتراك زمن الحرب العالمية الأولى ، فكيف تمكن حسين أحمد وهو بالمدينة أن يجمع المليون روبية ويذهب بها الى الطائف ليسلمها للقائد التركي هناك وأهل المدينة ليس لديهم ما يكفيهم وحجاج الهند بينهم وبين الوصول الى المدينة الحرب العالمية . ؟

أخشى أن يكون الخبر مكذوباً أو مبالغاً فيه .

اشتغل حسين أحمد مدرساً بالجامعة التي تخرج منها فشغل منصب مشيخة علم الحديث النبوي ، كما عمل نائباً لرئيس جمعية العلماء في دهلي .

وقدم الى المدينة زائراً سنة ١٣٥٨هـ وألقى محاضرة قيِّمة في مدرسة العلوم الشرعية التي أسسها أخوه السيد أحمد ، فكانت محاضرة جامعة تحدَّث فيها عن المجتمع الاسلامي ، ارتجلها باللغة العربية الفصحى ، فكانت آيةً في الاستيعاب والدقة ، والملاحظات الشاملة ، وقد نشرت هذه المحاضرة في مجلة المنهل في أعداد متسلسلة[2] .

وأخوه الثاني جميل أحمد ، التحق بالمكتب الاعدادي التركي بالمدينة المنورة ، ومن هذا المكتب أوفد الى الاستانة للالتحاق بالمدارس العليا بها ، ولكن المنيَّة وافته وهو في ذروة شبابه فتوفي بالمدينة قبل اكمال دراسته العليا .

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٤٣ .

(٢) ١٨ ٢٠ السيد أحمد الفيض آبادي .

وأخوه الرابع محمود أحمد ، التحق بالمكتب الاعدادي في المدينة المنورة ، وتخرج منه عام ١٢٣٥هـ والتحق كاتباً بالمحكمة الشرعية بالمدينة ، وتدرج في وظائفها حتى أصبح رئيساً لكتاب المحكمة في العهد الهاشمي ، وفي العهد السعودي استمر في عمله بالمحكمة ثم انتدب قاضياً لمدينة جدة ، ومارس فيها وظيفة القضاء عامين ، ثم عاد الى المدينة بعد أن اعتذر عن البقاء في جدة ، واشتغل بالأعمال التجارية الى جانب الأعمال الحكومية التي أسندت اليه ، ومنها كتابة عدل المدينة المنورة ، وعضوية المجلس الاداري ، ورئاسة مجلس الأوقاف ورئاسة المجلس البلدي(١) .

تفكيره في تأسيس المدرسة :

في هذه البيئة العلمية نشأ أحمد الفيض آبادي ودرج ، فلما عاد من الهند واستقر بالمدينة المنورة ، رأى أن هذه البلدة الطيبة في حاجة الى مدرسة تنشر العلم بطريقة منظمة ، كانت الدروس الدينية وحلقات العلم موجودة بالمسجد النبوي الشريف ، ولكن المدرسة التي فكَّر فيها أحمد الفيض آبادي نمطاً آخر يجمع بين ما يُلقى في حلقات المسجد النبوي الشريف من علوم الدين ، وما يحتاج اليه الناس في حياتهم من أسباب المعاش ، يقول أحمد الفيض آبادي عن ذلك :

منذ وصلت الى المدينة المنورة مهاجراً اليها مع الوالد عام ١٣١٦ هجرية تعلَّق بذهني مشروع انشاء مدرسة لتعليم أبناء هذه البلدة المطهرة ما يعيد اليهم مجد أسلافهم في ناحيتي العلم والعمل ، وظلَّت هذه الأمنية الغالية عالقة بذهني الى أن قدم أحد معارفنا من أثرياء الهند الى المدينة المنورة سنة ١٣٣٤هـ ، فعرضت عليه تفاصيل مشروعي فأبدى استعداده للتبرع بمبلغ سبعة عشر ألف روبية للمشروع اذا شرعت فيه .

لذلك تقدَّم أحمد الفيض آبادي الى الحكومة التركية بطلب الأذن بتأسيس المدرسة وذكر الوعد الذي تلقاه من الثريِّ الهندي بالمبلغ الكبير الذي رصده لهذا المشروع .

كانت الحكومة التركية قد قرَّرت انشاء جامعة اسلامية بالمدينة المنورة تحمل اسم صلاح الدين الأيوبي يلتحق بها المتخرجون من المدرسة الاعدادية الوحيدة بالمدينة والتي تأسست عام ١٣١٨هـ ، ويرغبون في مواصلة دراستهم العالية ، وكانت الدولة العثمانية تبعث طلاب الدراسات العليا الى القدس والأستانة .

شرعت الدولة العثمانية في بناء الكلية عام ١٣٣٢ ، وتم تشييد الطابق السفلي منها بالحجارة السود المنحوتة التي تبنى بها المباني العظيمة في المدينة المنورة .

---

(١) ٢١/٢٠ السيد أحمد الفيض أبادي .

وحينما تقدَّم أحمد الفيض آبادي بطلبه الترخيص ببناء المدرسة قوبل بالرفض وطلب منه تقديم تبرع الثريِّ الهندي الى مشروع الجامعة الاسلامية التي تبنيها الدولة .

وكان هذا الرفض ضربة لآمال أحمد الفيض آبادي تلقّاها على مضض وهو يترقب ما تأتي به الأيام .

أما مشروع الدولة العثمانية فكان وقوع الحرب العالمية الأولى من الأسباب التي قضت عليه ويقول الدكتور محمد العيد الخطروي ان الطابق السفلي من مدرسة طيبة الثانوية في الوقت الحاضر كان هو النواة لبناء الجامعة المذكورة التي بدىء في تأسيسها[1] .

جاءت الحرب العالمية الأولى وهاجر الناس من المدينة وهاجر أحمد الفيض آبادي مع من هاجر من أهلها الى أدرنة في تركيا ، ثم عاد اليها مع من عاد من أهلها سنة ١٣٣٧ ومازالت فكرة المدرسة تلح على خيال الرجل وتستولي على أفكاره .

وفي سنة ١٣٣٩ قدم للحج أحد أغنياء الهند وكانت له معرفة سابقة بأحمد الفيض آبادي ، وأتيحت له الفرصة ليتحدث الى هذا الثريِّ عن آماله في انشاء المدرسة بالمدينة المنورة ووعده الرجل خيراً ، وبعد عودته الى الهند بعث الى أحمد الفيض آبادي أربعين جنيهاً ذهباً كانت هي النواة الأولى للعمل في مشروع المدرسة العتيد .

البدء بالمشروع :

لم يكن أحمد الفيض آبادي من ذوي اليسار ، ولكنه كان عالي الهمة حسن التدبير وهداه تفكيره أن يبدأ بمشروع المدرسة صغيراً ليكبر مع الأيام .

اشترى أرضاً بجوار المسجد النبوي وابتدأ البناء فيها مستعيناً بالمبلغ الذي تلقاه من الثري الهندي ، وبما يصل اليه من تبرعات بعد ذلك ، وقرر التوسع في البناء كلما توفرت له الموارد وهي في البداية انما تأتي من تبرعات أثرياء الهند الذين يفدون للحج والزيارة في كل عام ، وكانت البداية سنة ١٣٤٠ للهجرة .

ولم يكن المبلغ الذي تبرع به الثريُّ الهندي كافٍ للقيام بالمشروع فاقترض ثمن الأرض التي اختارها بجوار المسجد النبوي الشريف ، اقترض قيمة هذه الأرض من الشيخ عبدالجبار الدهلوي من كبار تجار مكة المكرمة ، ومن أخيه السيد محمود أحمد الذي تحدثنا عنه آنفاً[2] .

وفي سنة ١٣٤١ كمل البناء الابتدائي للمدرسة ، وقام أحمد الفيض آبادي باختيار المدرسين الذين يقومون بالتعليم فيها ، واختار للعمل معه الشيخ محمد الطيب الأنصاري ، وكان له تلاميذ كثيرون يتلقون العلم على يديه في المسجد النبوي الشريف ليل نهار .

---

(١) ٨/ ٩ مدرسة العلوم الشرعية للخطراوي

(٢) مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة .

فكان هؤلاء التلاميذ مع من لحق بهم هم النواة الأولى لطلاب المدرسة ، وقد بقي الكثيرون منهم حتى تخرجوا من المدرسة وعملوا فيها[١] .

بدأت الدراسة باثني عشر مدرساً يرأسهم الشيخ محمد الطيب الأنصاري ، وكان البرنامج الذي وضعه مؤسس المدرسة يجمع بين العلم والعمل ، فالى جانب العلوم الدينية التي تلقى على التلاميذ ، كانت هناك الفنون الحديثة التي تفتح عقول الطلاب وتستهوي أفكارهم .

ولما كانت موارد المدرسة تقوم على التبرعات وخاصة من أثرياء الهند ، فقد أحدث المؤسس قسماً للتعليم الصناعي ليكون وارد هذا القسم رافداً من روافد المدرسة لمواجهة مصروفاتها .

القسم الصناعي :

هذا القسم الصناعي كان يقوم على تعليم الطلاب بعض الحرف المهنية مثل مزاولة الخياطة الآلية ، وزخرفة الأخشاب ونجارتها ، ونسيج السجاجيد المحلاة بالزخارف والصور ، وعمل لوحات جميلة مكتوبة من الخشب المزخرف وصناعة الأدوات المنزلية ذات النقوش المتموجة ، وتطور القسم الصناعي مع الأيام فصار يقوم بصنع الكراسي والمناضد والمكاتب ، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية ، وانقطع استيراد الآلات من الخارج تطور هذا القسم فأصبح يسدُّ حاجة المدينة وغيرها من قطع المكائن التي تحتاجها الزراعة في المدينة ، فالمدينة بلد زراعي ، وقد تعرفت على المكننة في ري المزارع بها ، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية انقطع ماكان يرد اليها مما تحتاجه من قطع الغيار لهذه المكائن فكانت مخارط مدرسة العلوم الشرعية تقوم بصنع القطع المطلوبة لمن يحتاجها ، فكان ينتج البساتم والبنوز وطلمبات رفع الماء .

وفاضت شهرة القسم الصناعي بما يخرجه من آلات متقنة فكانت الادارات الحكومية تطلب منه ما تحتاج اليه ، كما كان يقدِّم هذه القطع للمكائن الزراعية التي يملكها الأمراء والمواطنون في الرياض وعنيزة وحائل وغيرها من مدن المملكة علاوة على سدِّ حاجة المدينة المنورة منها .

ومن هذا القسم الصناعي تخرج المهندسون الذين عملوا في تسيير الآلات اللاسلكية للدولة ، فكان منهم المهندسون والمساعدون[٢] .

هذا القسم الصناعي كما قلنا كان رافداً من روافد الصرف على المدرسة وقد أدرك أحمد الفيض آبادي بما وهبه الله من الحكمة وبعد النظر أن أمور الحياة لا تستقيم إلا على الموازنة بين

---

(١) ٣٨/٣٥ أحمد الفيض أبادي .

(٢) ٥٠/٤٨ أحمد الفيض أبادي .

الأمور فالمدرسة التي قامت على تبرع المحسنين تفتقر الى مورد ثابت ، وهي تكبر مع الأيام ، لهذا فقد قام باحداث هذا القسم الصناعي ليسدَّ به حاجة المدرسة لما تحتاج اليه من نقص في ايرادها ، ولتخرج في نفس الوقت صناعاً يتقنون بعض المهن التي تحتاج اليها البلاد ، وهذا في حد ذاته كسب للطلاب وللبلد الذي ينتمون اليه .

ويقوم فريق من المتخرجين من القسم الصناعي بادارة مطبعة المدرسة وتسيير مطحنتها اللتان تساعدان على تنمية واردات المدرسة لمواجهة النفقات المستمرة في الاتساع[1] .

نستطيع أن نقول بحق أن أحمد الفيض آبادي كان بما أحدثه في مدرسة العلوم الشرعية من الجمع بين علوم الدنيا والدين رائداً من الرواد ، كان رائداً في ادخال التعليم المهني ضمن برامج مدرسته الرائدة ، وقد أثبتت الأيام أن هذا القسم الصناعي أحدث أثره الطيب حينما نشبت الحرب العالمية الثانية ، واحتاجت البلاد الى انتاجه لتسيير الآلات التي كادت أن تتعطل عن العمل والدوران .

المكائد تثور :

يتعرض المصلحون في كل زمان ومكان لمكائد الكائدين وحسد الحاسدين ، وبقدر اخلاصهم وثباتهم يهيىء الله تعالى لهم أسباب النجاح والظفر .

قامت المدرسة في رحاب المدينة المنورة ، وانتظم فيها الطلاب وافتتح فيها القسم الصناعي وبدأت تؤتي أكلها الطيب ، وأخذ الناس يشعرون بما تقدمه هذه المؤسسة بقسميها العلمي والصناعي من فائدة لسكان طيبة الطيبة ، فأثار هذا النجاح حقد بعض الحاقدين الذين لا يخلو منهم مجتمع أو مكان .

رأوا أن تبرعات الأثرياء الهنود تأتي الى مؤسس المدرسة فصوَّرت لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أن ينسبوا اليه أنه اتخذ هذه المدرسة أداة لجمع المال ، مع أن التبرعات لم تكن تكفي لمواجهة مصاريف المدرسة التي تتصاعد عاماً بعد عام .

ان المدرسة تبدأ صغيرة بفصل واحد ثم تزيد فصولها عاماً بعد عام .

ورأوا أن القسم الصناعي يُدر على المدرسة بعض المال لتغطية مصروفاتها فزاد ذلك من غيظهم ومكائدهم .

كان العهد هو عهد الحكومة الهاشمية ، وكان الخلاف بين هذا العهد وبين المذهب الوهابي الذي تمثله دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب والذي يراه آل سعود معروفاً للكافة .

ومن هذه الثغرة دخل المغرضون فاتهموا المدرسة أنها تعلم طلبتها المذهب الوهابي يقول الدكتور محمد العيد الخطراوي :

---

(١) ٤٩/ ٥٠ أحمد الفيض أبادي .

استغل الحاقدون هذا الوضع ، وأشاعوا أن مؤسس المدرسة السيد أحمد رحمه الله وهابي وأن المدرسة انما أسست لخدمة المذهب الوهابي ، متخذين من قيام المدرسة بتدريس كتب الحديث وشروحاتها البعيدة عن الخرافة ، وتدريس الفقه وأصوله أصبعاً تشير الى وهابيته ، علماً بأن الوهابية لقب أطلقه أعداء الدعوة السلفية على أتباع الدعوة للنيل منها ، واظهارها بمظهر الابتداع والمروق ، وانما كان الشيخ محمد بن عبدالوهاب رجلاً حنبليٍّ المذهب ، دعا الناس الى تصحيح عقائدهم ، وتطهيرها مما علق بها من خرافات وأضاليل ، ولكن الموازين عند هؤلاء وأمثالهم تنقلب ، لتصبح الاستقامة على منهج السلف جرماً يعاقب عليه ، وتهمة توجه لتقويض الناس والمؤسسات .

اغلاق المدرسة :

فعلت الوشايات والمكائد فعلها فقام المسؤولون الحكوميون عن التعليم بالمدينة المنورة بالتفتيش على المدرسة والتأكد مما نسب اليها والى صاحبها ، وبعد محاورات مريرة مع السيد أحمد والمدرسين أمروا باغلاق المدرسة وتسريح طلابها وموظفيها .

أغلقت المدرسة أبوابها ، ولكن المؤسس والمدرسين انتقلوا بطلابهم الى رحاب المسجد النبوي الشريف فباشروا تدريس الطلاب في حلقات في رحاب المسجد الشريف ، واتخذوا العلنية شعاراً لهم ليرى الناس ويسمعوا ما يلقى في هذه الحلقات من دروس واستمروا يمارسون عملهم هذا بضعة أسابيع كانت كافية لتفنيد التهم الكاذبة والوشايات المغرضة المدسوسة فعادت المدرسة الى مقرها في منتصف عام ١٣٤٣هـ .

وتلقى مؤسس المدرسة الموافقة من امارة المدينة بالترخيص للمدرسة بالعمل فعادت الى مقرها في شهر شوال من عام ١٣٤٣[(١)] .

وهكذا انتصر الخير على الشر ، وأبطل الله كيد الكائدين ومكر الماكرين ، وعادت المدرسة لمزاولة عملها الطيب دون حذر أو مخاوف .

معاونة الطلاب :

من المشاكل التي واجهت مدرسة العلوم الشرعية ، أو على الأصح التي واجهت مؤسسها السيد أحمد الفيض آبادي نشوب الحرب العالمية الأولى ، واشتغال الناس بتدبير أمور معاشهم ، وانصراف الآباء عن تعليم أولادهم ، ولترغيب الآباء في تعليم أولادهم ، عمد السيد أحمد الى تخصيص مكافآت شهرية للمتفوقين من الطلاب ، وخصَّ الفقراء منهم بمكافآت أسبوعية أو يومية مراعياً حالة الآباء المادية ، واحتياجهم الى تشغيل ابنائهم والافادة منهم .

---

(١) ٢١/١٩ مدرسة العلوم الشرعية و ٤٢/٣٨ أحمد الفيض أبادي .

هذا الاسلوب نفسه عمد اليه الحاج محمد علي زينل بالنسبة لطلاب القسم العلمي ، كانت الدراسة في مدرسة الفلاح ست سنوات ، ثم أنشأت المدرسة القسم العلمي ومدته ثلاث سنوات ، يتخرج منها الطالب بعد تقوية معلوماته في العلوم الدينية والعربية ، ورأى كثير من آباء الطلاب أن السنوات الست الأولى كافية ، فحينها يتخرج منها الطالب يستطيع أن يعمل كاتباً في البيوت التجارية ، أو موظفاً في دوائر الحكومة ، وهذه الوظيفة حكومية أو أهلية تتيح للأسرة الاستفادة من عمل أبنائها ، ورغب مؤسس الفلاح أن يستبقي المتفوقين من الطلاب للدراسة في القسم العلمي ، فعمد الى ترتيب مرتب شهري لآباء الطلبة المتفوقين حتى يسمحوا لأولادهم بالاستمرار في هذه الدراسة العلمية المتخصصة ، وقد أشرت الى ذلك في ترجمتي للحاج محمد علي زنيل مؤسس الفلاح في الجزء الأول من أعلام الحجاز[1].

هذه السياسة التي انتهجها السيد أحمد الفيض آبادي في مدرسة العلوم الشرعية حققت الاقبال من قبل الطلاب وآبائهم على المدرسة ، فأقبلوا على الدراسة فيها زرافات ووحدانا[2].

وهذا التشجيع على طلب العلم من مؤسس مدرسة العلوم الشرعية مع قلة الموارد في المدرسة واعتمادها على التبرعات وعلى واردات القسم الصناعي بها يدل على أن فكرة المدرسة احتلت من قلبه وفكره مكاناً عظيماً .

وهذا البذل مع الاقلال ، لا يجود به إلا العظماء من الرجال .

المتخرجون :

ثم افتتاح المدرسة في سنة ١٣٤٠ للهجرة كما ذكرنا ، وانتظمت الدراسة وبدأت المدرسة تؤتي ثمارها يانعة طيبة ، ونورد فيما يلي أعداد المتخرجين منها في الأقسام المختلفة من بدء افتتاح المدرسة الى نهاية العام الدراسي ١٣٥٨ ـ ١٣٥٩هـ .

عدد المتخرجين

١٨٧ من شعبة القرآن الكريم .

٦٧ الحاصلون على الشهادة الابتدائية .

٣٠ الحاصلون على شهادة العلوم العربية العالية[3].

(١) أعلام الحجاز جـ ١ ص ٣٢٢/٣٢٣ .
(٢) أحمد الفيض آبادي ٨٣/٨٤ .
(٣) انظر أسماء المتخرجين من الشعب المختلفة في مدرسة العلوم الشرعية صفحة ٤٩/ ٦٤ .

هذه هي أعداد المتخرجين في السنوات الثماني عشر التي ذكرناها ، فاذا قرأنا أسماء هؤلاء المتخرجين وجدنا بينهم رجالاً برزوا في مختلف مجالات الحياة العامة ، وتسلم بعضهم أعلى المراكز نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

- الشيخ محمد علي الحركان : الذي تولى القضاء بالمدينة المنورة ثم تولى رئاسة المحكمة الشرعية الكبرى بجدة ، وكان أول وزير للعدل في المملكة ، ثم اختير أميناً لرابطة العالم الاسلامي الى جانب عضويته في هيئة كبار العلماء في المملكة[1] .
- الاستاذ عبدالقدوس الأنصاري : المؤرخ والمؤلف والأديب الغني عن التعريف مؤسس مجلة المنهل وصاحب التآليف الكثيرة المشهورة ، والذي عمل مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية ثم عمل في ديوان امارة المدينة المنورة ثم انتقل الى مكة المكرمة رئيساً لتحرير جريدة أم القرى ، ثم نقل الى ديوان سمو نائب الملك بالحجاز ، ثم تقلد وظائف كثيرة في مجلس الوكلاء بعد تأسيسه[2] .
- الاستاذ محمد عمر توفيق الوزير والكاتب الشهير وصاحب المؤلفات المعروفة ، والمقالات المستفيضة في مختلف الصحف ، تقلب في وظائف عديدة وأسند اليه جلالة المرحوم الملك فيصل وزارة المواصلات ، ثم ضم اليها وزارة الحج والأوقاف[3] .
- الاستاذ محمد الحافظ من أبرز قضاة المحكمة الشرعية الكبرى بالمدينة المنورة ، عمل مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية وتتلمذ على يديه الكثيرون من أدبائها وعلمائها كما عمل مدرساً بالمسجد النبوي الشريف ، وشارك في النشاط الأدبي والعلمي بالمدينة المنورة[4] .
- الاستاذ عبدالعزيز الربيع : الذي قضى حياته في التربية والتعليم مديراً لبعض المدارس في المدنية الى أن تولى مديرية التعليم بها وله مؤلفات ومساهمات أدبية كثيرة معروفة[5] .
- الاستاذ محمد هاشم رشيد : شاعر المدينة المنورة ورئيس ناديها الأدبي وصاحب الدواوين الشعرية الكثيرة ، والنشاطات الأدبية العديدة[6] .

ونكتفي بهذا القدر من أعيان المتخرجين ، ومن رغب الاستزادة فليرجع الى كتاب الدكتور محمد العيد الخطراوي الذي أورد أسماء المتخرجين في مدرسة العلوم الشرعية من أقسامها المختلفة وحسب سنوات تخرجهم .

---

(١) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٥٨٨/ ٥٩٠ .
(٢) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٥٩١/٥٩٣ .
(٣) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٥٩٠ .
(٤) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٥٩٤/٥٩٦ .
(٥) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٥٩٧/٥٩٩ .
(٦) انظر ترجمته في مدرسة العلوم الشرعية ص ٦٠٠/٦٠١ .

ان متعلماً واحداً في أسرة هو كسب عظيم لها ، وكم رأينا آباءً حرموا من نعمة العلم ، هبط الجهل بهم ، ثم ظهر من أبناء هذا الرجل عالم واحد ارتفع بأبويه فبرزت أسماؤهم ، وتحسنت أحوالهم فاغتنوا بعد فقر ، واذا كان هذا شأن العلم والمتعلمين في الأسرة الواحدة فان شأنه بالأمة أعظم .

لهذا كان هؤلاء المتخرجون من مدرسة العلوم الشرعية ، وأمثالها من المدارس كسباً عظيماً لأهليهم ولبلادهم .

واذا علمنا أن مؤسس مدرسة العلوم الشرعية انما أسسها في العهد العثماني الذي كان التعليم المنظم فيه قليلاً ، والجهل فيه فاشياً أدركنا مدى أهمية هذا العمل ، وبُعد همة المؤسس يرحمه الله ، ثلاثة رجال عظماء ظهروا في هذه البلاد المباركة في ثلاث مدن مختلفة من مدن الحجاز ، أدركوا فداحة ما تعانيه الأمة من الجهالة والفقر ، فانشأوا المدارس ،كل في البلد الذي ظهر فيه ، بدأوا صغاراً ، كما تبدأ المزرعة بغراس صغيرة ، حتى كبرت مع الأيام فآتت أكلها أشجاراً عالية تحفل بالثمر الجني وتمتد ظلالها الوارفة ، فيفيء اليها الناس آمنين مطمئنين .

أولهم الشيخ / رحمه الله العثماني مؤسس المدرسة الصولتية بمكة الذي أسس مدرسته بمكة سنة ١٢٨٥ للهجرة[1] .

وثانيهم الحاج محمد علي زينل رضا مؤسس مدارس الفلاح بدأها بافتتاح مدرسة الفلاح بجدة سنة ١٣٢٣ ، ثم بافتتاح مدرسة الفلاح بمكة المكرمة سنة ١٣٣٠ ، واتبعهما بمدرستي الفلاح في دبي والبحرين سنة ١٣٤٧ ، ومدرسة الفلاح في بومباي سنة ١٣٥٠[2] .

وثالثهم هو السيد أحمد الفيض آبادي الذي خصصنا له هذه الترجمة مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٠ للهجرة .

كان الدافع للرجال الثلاثة واحداً ، هو الرغبة الجامحة في محو الجهالة ، ونشر العلم والمعرفة .

بدأوا صغاراً ثم كبروا مع الأيام .

بعث الله الأميرة الهندية صولت النساء لأداء فريضة الحج ، واتصلت أسباب الشيخ رحمة الله العثماني بها حينما قدمت الى مكة ، وقد أحضرت معها مبلغاً من المال لتشيد به رباطاً باسمها فأقنعها أن مكة تحتاج الى مدرسة أكثر من حاجتها الى رباط ، فتحول مشروع الرباط الى مدرسة سماها الشيخ رحمه الله المدرسة الصولتية نسبة الى هذه الأميرة الخيِّرة الكريمة .

---

(١) انظر ترجمته في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ص ٢٨٦/٣١٣ .
(٢) انظر ترجمته في الجزء الأول من أعلام الحجاز ص ٣١٧/٣٣٠ .

وبدأ محمد علي زينل مدرسته في مقعد بأحد المنازل بمدينة جدة ، ثم تبرعت زوجته بمجوهراتها وحليها ليشتري المبنى الذي حوله الى مدرسة الفلاح بجدة ، وهاجر الى الهند ليعمل بالتجارة حيث يتوفر له المال للصرف على المدرسة ففتح الله له أبواب الرزق ، وعمل في تجارة اللؤلؤ حتى أصبح ملك اللؤلؤ في العالم ، ثم ظهر اللؤلؤ الصناعي وانهارت أسعار اللؤلؤ الأصلي ، ولكن مدارس الفلاح بقيت، فقد حلّت الأمة كلها محل الرجل الذي أنفق على مدارس الفلاح طيلة أربعين عاماً .

واقترض أحمد الفيض آبادي من أخيه ومن أحد تجار مكة قيمة الأرض التي بنى بها مدرسته بجوار المسجد النبوي الشريف وبدأت المدرسة صغيرة حتى أصبحت صرحاً شامخاً بمبناها الاسلامي الطراز .

وهكذا بارك الله في أعمال الرجال الثلاثة الذين وهبوا حياتهم للعلم فتخرج من مدارسهم الأجيال الذين أمسكوا زمام الأمور في البلاد ، فكان منهم العلماء والوزراء ، والقضاة والمدرسون والكُتّاب ، والذين عملوا في مختلف مجالات الحياة فأفادوا واستفادوا رحمهم الله تعالى وجزاهم أفضل ما يجزي به عباده العاملين والمصلحين .

وفاة السيد أحمد الفيض آبادي :

توفي السيد أحمد الفيض آبادي عصر يوم العاشر من شوال سنة ١٣٥٨ للهجرة عن عمر يناهز الخمسة والستين سنة ، وكان قد أصيب بالمرض منذ وقت مضى ولكنه لم يلزم سريره إلا بعد اشتداد المرض عليه ، وكان يشكو من ضغط الدم[١]

توفي بعد أن قرت عينه بنجاح المشروع العظيم الذي كرّس حياته له فمدرسة العلوم الشرعية التي بدأت صغيرة صارت صرحاً شامخاً يبلغ تعداد طلابها الستمائة والمتخرجون منها يشاركون في الحياة العامة عاملين في مختلف المجالات ، والمبنى الصغير تحول الى عمارة ضخمة على الطراز الأندلسي بجوار المسجد النبوي الشريف ، تستوقف الأنظار بجمالها ومتانتها .

والقسم الصناعي فيها تطور وكبر وعظمت منافعه في البلد الطيب المقدس .

حبيب أحمد يخلف عمه :

أحسّ السيد أحمد الفيض آبادي قبل أن يدركه المرض بضرورة وجود من يخلفه على رعاية المدرسة بعد وفاته ، والموت حق على العباد وكان الشاب حبيب أحمد بن أخيه السيد محمود أحمد طالباً من طلاب مدرسة العلوم الشرعية ، ظهرت بوادر نجابته منذ أن كان ناشئاً ، فحفظ

---

(١) ٥٩/٦٢ أحمد الفيض آبادي .

القرآن الكريم في سنة واحدة[1] وواصل دراسته حتى تخرج من القسم العالي سنة ١٣٥٨ ، وهو ابن عشرين سنة .

ورأى عمه السيد أحمد أن ابن أخيه حبيب هو خير من يخلفه في ادارة المدرسة ورعايتها فأنابه عنه في ادارة المدرسة وأكّد هذه الانابة بصك شرعي منحه فيه التصرف المطلق في أمورها بما يراه مناسباً لادارتها واستمرارها فتولى ادارة المدرسة بعد وفاة مؤسسها ، فأتم العمارة التي بدأها المؤسس ، وعمل على تطوير الأقسام الصناعية بها بتزويدها بالآلات الحديثة ، وحينما أزيل مبنى المدرسة وأدخل في توسعة الحرم النبوي الشريف ، أقدم على شراء أرض قريبة من المسجد وشيد فيها المبنى الجديد للمدرسة وهو من أجمل المباني في المدينة المنورة ، التي أصبحت تسير في برامجها حسب منهج وزارة المعارف ، ولا تزال المدرسة تمارس مهمتها العظيمة في البلدة المقدسة وقد بلغ تعداد طلابها سنة ١٤١٠هـ ألفاً وثلاثمائة طالب[2] .

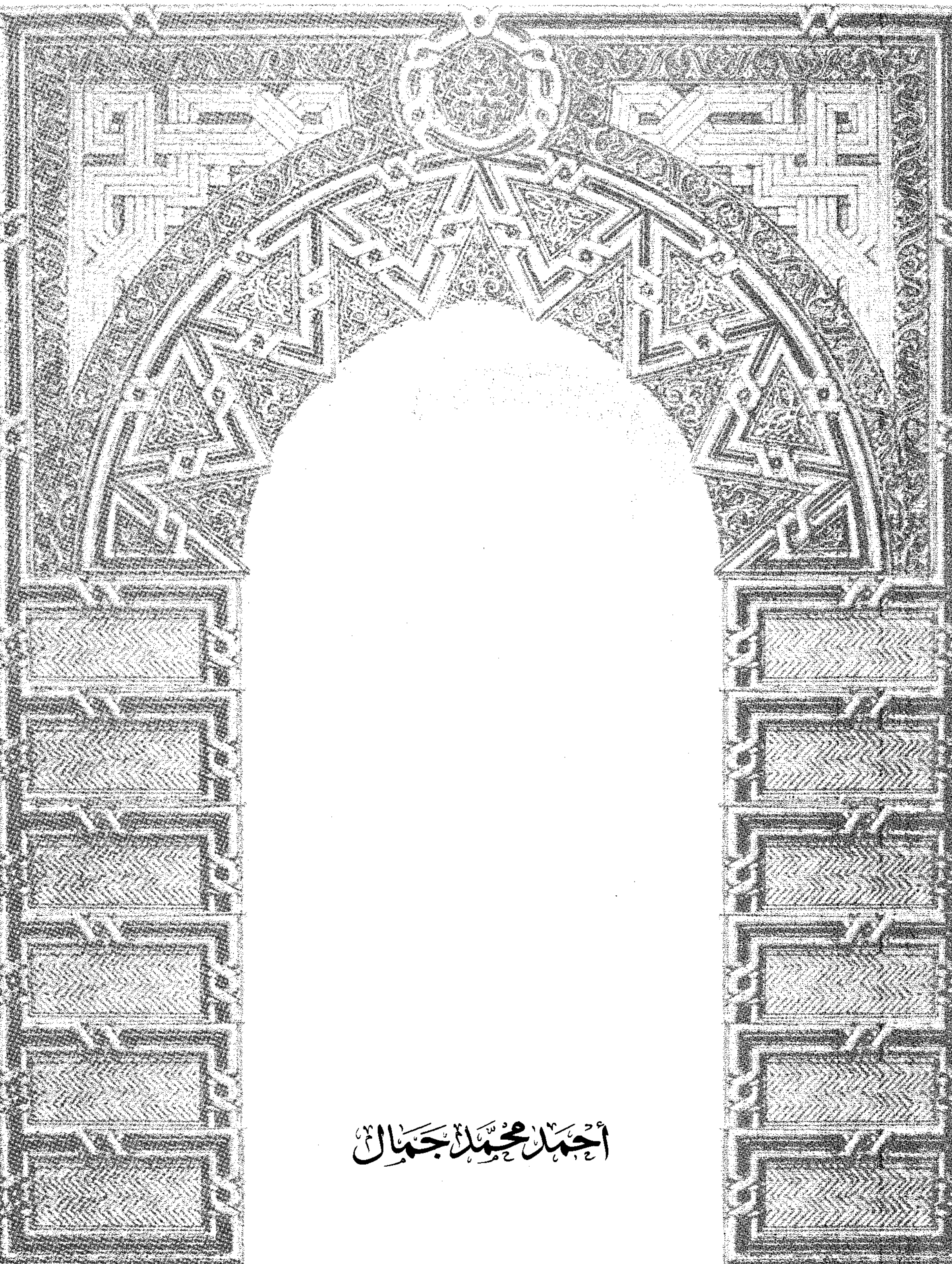
رحم الله السيد أحمد الفيض آبادي وجزاه خير الجزاء بما بذل من جهد في نشر العلم في مدينة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، ووفق الله السيد حبيب لاكمال العمل العظيم الذي بدأه المؤسس والذي يقوم عليه من بعده خير قيام .



---

(١) ٣٩١/٣٩٠ مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة .

(٢) ٤٠١/٣٩٠ مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة .


أحمد محمد جمال



أحمد محمد جمال

أحمد محمد جمال

جميل الصورة . أبيض البشرة ، اقنى الأنف ، خفيف اللحية والشارب ، حليق العارضين ، معتدل القامة والبنية ، مشرق الوجه ، تلوح في وجهه علامات الذكاء والهيبة .

ولد أحمد محمد جمال بمكة المكرمة سنة ١٣٤٣ للهجرة ، وتلقى دراسته الابتدائية بالمدرسة العزيزية بحي الشامية ، وتخرج منها سنة ١٣٥٨هـ ، والتحق بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة .

ولكنه ترك الدراسة بالمعهد بعد عام واحد من التحاقه به ، حيث عمل موظفاً بالمحكمة الشرعية بمكة ، ويبدو أن ظروف عائلته اضطرته الى العمل ، وكانت أول وظيفة أسندت اليه بدائرة رئاسة القضاء التي كان يتولاها الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ في سنة ١٣٥٩هـ ، وبعد بضع سنين انتقل الى دائرة كاتب العدل بمكة المكرمة التي كان يرأسها الشيخ عرابي سجيني .

ولكن أحمد جمال لم ينقطع عن العلم والتعليم ، فقد واظب على الدراسة في حلقات السيد/ علوي مالكي بالمسجد الحرام ، وغيره من علماء مكة المكرمة الذين تنتظم الدراسة في حلقاتهم في أوقات معينة بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة العصر ، وبين المغرب والعشاء .

وحُبب اليه القرآن الكريم فاجتهد في حفظه حتى أتمَّه ، واكب على معرفة أسراره فتتلمذ على السيد علوي مالكي في دراسة التفسير ، ومازال هذا القرآن الكريم نوراً يضيء العقول ، ويهدي النفوس للسامعين والدارسين وسيكون لنا حديث عن أثره العظيم في نفس أحمد جمال حينما نتحدث عن كتبه العظيمه في تفسير القرآن الكريم ، ونعود الآن الى رحلة أحمد جمال في مطلع شبابه ، ومن المحكمة الشرعية انتقل الى العمل في جريدة البلاد السعودية سنة ١٣٦٥هـ عمل فيها أولاً بوظيفة محاسب ولكنه تحول من العمل المالي الى التحرير فأصبح

سكرتيراً للتحرير ، وفي جريدة البلاد السعودية بدأ أحمد جمال نشاطه الأدبي ، فظهرت كتاباته الاولى في صحيفة البلاد .

ثم انتقل للعمل في وزارة الداخلية مساعداً لمدير قسم الثقافة والتعليم ، قبل انشاء وزارة المعارف ، وشغل في وزارة الداخلية وظائف ادارية حتى أصبح مدير ادارة الجوازات والجنسية .

وحينها أصدر شقيقه الاستاذ/ صالح محمد جمال جريدة حراء كان أحمد جمال يشارك أخاه أعباء اصدارها وتحريرها والكتابة فيها ، وبعد دمج الصحف صدرت الندوة بعد حراء فكان أحمد جمال يشارك أخاه في شؤونها[1] .

وفي الصحف التي عمل فيها أحمد جمال وجد المجال للكتابة والنشر ، ووجد الطريق ممهداً ليظهر آراءه وآماله للناس ، وكان الشاب أحمد جمال جريئاً في ابداء الرأي لا يخشى في الحق لومة لائم ، وقد وُهِب القدرة على التعبير ، فكان لكلماته وقعها في نفوس القارئين .

مارس أحمال جمال هوايته الأدبية في مجالات شتى في الشعر والنثر ، وأصدر العديد من المؤلفات وسنتحدث عن مؤلفاته بعد استكمال مسيرة حياته العملية والتي نوجزها فيما يلي :

عين في عام ١٣٧٥ عضواً في مجلس الشورى .

وفي عام ١٣٨١ أختير عضواً في لجنة وضع النظام الأساسي للحكم .

وحينما تأسست جامعة الملك عبدالعزيز اختير أحمد جمال استاذاً للثقافة الاسلامية في عام ١٣٨٧هـ .

واختير استاذاً لمادة تفسير القرآن الكريم بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، واستمر يدرس هذه المادة الى أن توفاه الله .

وأشرف على اصدار مجلة التضامن الاسلامي التي تصدرها وزارة الحج والأوقاف .

كما ظل مشرفاً على اصدار كتاب دعوة الحق ، وهي مجلة شهرية تصدرها رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة ، ويمثل كل عدد منها كتاباً من الكتب التي تعني بشؤون الدعوة وبلغ ما أشرف على اصداره من هذه الكتب مائة وخمسة وثلاثين كتاباً .

وكان الى جانب هذه الأنشطة جميعها يحتل عضوية مجالس ولجان كثيرة .

كان عضواً في اللجنة الثقافية برابطة العالم الاسلامي .

وعضواً بمجمع الفقه الاسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الاسلامي منذ عام ١٤٠٦هـ

كما كان عضواً بالمجلس البلدي بمكة المكرمة ، وعضواً بمجلس الأوقاف .

---

(١) أنظر تفصيل ذلك في ترجمة صالح جمال في نفس هذا الكتاب .

والى جانب هذا وذاك كان يشارك في المؤتمرات الاسلامية في خارج المملكة ، ويشرف على المعسكرات الاسلامية والثقافية التي تقيمها الدولة في داخل المملكة .

ويلقي المحاضرات والبحوث في هذه المؤتمرات في كثير من دول العالم .

واختير بعد وفاة شقيقه الأكبر/ صالح جمال لرئاسة جمعية البر بمكة المكرمة التي كان عضواً فيها .

بعد هذا الاستعراض لمسيرة أحمد جمال العظيمة آن لنا أن نتحدث عن مؤلفاته .

مؤلفات أحمد جمال :

أصدر الاستاذ/ أحمد جمال اثنين وثلاثين كتاباً ، نثبت أسماءها وتاريخ اصدارها فيما يلي :

١ ـ ماذا في الحجاز ، وهو أول مؤلفاته صدر سنة ١٣٦٤ هجرية الموافقة لعام ١٩٤٥ الميلادي .

٢ ـ سعد قال لي ـ وهو كتاب قصصي صدر سنة ١٣٦٦ الموافقة لسنة ١٩٤٦ للميلاد .

٣ ـ الطلائع ـ ديوانه الشعري الوحيد صدرت طبعته الأولى سنة ١٣٦٦ الموافقة لسنة ١٩٤٦ وصدرت طبعته الثانية بعنوان « وداعاً أيها الشعر » عام ١٣٩٧ هجرية الموافقة لعام ١٩٧٧ للميلاد .

٤ ـ على مائدة القرآن ـ ما وراء الآيات صدر سنة ١٣٧١ الموافقة لسنة ١٩٥٢ للميلاد .

٥ ـ على مائدة القرآن ـ دين ودولة صدر سنة ١٣٧٢ الموافقة ١٩٥٣ للميلاد .

٦ ـ على مائد القرآن ـ مع المفسرين صدر سنة ١٣٧٣ الموافقة لسنة ١٩٥٤ للميلاد .

٧ ـ استعمار وكفاح ـ صدر سنة ١٣٧٤ الموافقة لسنة ١٩٥٥ للميلاد .

٨ ـ على مائدة القرآن ـ مبادىء ومثل صدر سنة ١٣٨١ الموافقة لسنة ١٩٦١ للميلاد .

٩ ـ نحو سياسة عربية صريحة ـ صدر سنة ١٣٨١ الموافقة لسنة ١٩٦٢ للميلاد وهو الجزء الثاني لكتابه السابق استعمار وكفاح .

١٠ ـ الاسلام أولاً ـ صدر سنة ١٣٨٤ الموافقة لسنة ١٩٦٤ للميلاد .

١١ ـ مجتمعنا العربي كما ينبغي أن يكون صدر سنة ١٣٨٤ الموافقة لسنة ١٩٦٤ للميلاد .

١٢ ـ مكانك تحمدي صدر سنة ١٣٨٤ الموافقة لسنة ١٩٦٤ للميلاد .

١٣ ـ رفقاً بالقوارير صدر سنة ١٣٨٥ الموافقة لسنة ١٩٦٥ للميلاد .

١٤ ـ من كشمير الى فلسطين وخطر الصهيونية والصليبية على الاسلام صدر سنة ١٣٨٥هـ الموافقة لسنة ١٩٦٥ للميلاد .

١٥ ـ مسؤولية العلماء في الاسلام صدر سنة ١٣٨٦ الموافقة لعام ١٩٦٦ للميلاد .

١٦ ـ تاريخنا لم يقرأ بعد ـ صدر سنة ١٣٨٧ الموافقة لسنة ١٩٦٧ للميلاد .

١٧ ـ محاضرات في الثقافة الاسلامية صدر سنة ١٣٩١ الموافقة لسنة ١٩٧١ للميلاد .

١٨ ـ مفتريات على الاسلام صدر سنة ١٣٩٢ الموافقة لسنة ١٩٧٢ للميلاد .
١٩ ـ من أجل الشباب ـ صدر سنة ١٣٩٥ الموافقة لسنة ١٩٧٥ للميلاد .
٢٠ ـ كرائم النساء ـ صدر سنة ١٣٩٧ الموافقة لسنة ١٩٧٧ للميلاد .
٢١ ـ الشباب ـ دراسات ولقاءات صدر سنة ١٣٩٩ الموافقة لسنة ١٩٧٩ للميلاد .
٢٢ ـ نساؤنا ونساؤهم تكريم الاسلام للمرأة المسلمة صدر سنة ١٣٩٩ الموافقة لسنة ١٩٧٩ للميلاد .
٢٣ ـ عقود التأمين بين الاعتراض والتأييد صدر سنة ١٤٠٠ الموافقة لسنة ١٩٨٠ للميلاد .
٢٤ ـ نحو تربية اسلامية صدر سنة ١٤٠٠ الموافقة لسنة ١٩٨٠ للميلاد .
٢٥ ـ الأمة الواحدة ـ صدر سنة ١٤٠١ الموافقة لسنة ١٩٨١ للميلاد .
٢٦ ـ يسألونك ـ صدر سنة ١٤٠٣ الموافقة لسنة ١٩٨٣ للميلاد .
٢٧ ـ نساء وقضايا ـ صدر سنة ١٤٠٤ الموافقة لسنة ١٩٨٤ للميلاد .
٢٨ ـ مأدبة الله في الأرض ـ صدر سنة ١٤٠٤ الموافقة لسنة ١٩٨٤ للميلاد .
٢٩ ـ قضايا معاصرة في محكمة الفكر الاسلامي صدر سنة ١٤٠٦ الموافقة لسنة ١٩٨٦ للميلاد .
٣٠ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته صدر سنة ١٤٠٦ الموافقة لسنة ١٩٨٦ للميلاد .
٣١ ـ تعليم البنات بين ظواهر الحاضر ومخاطر المستقبل صدر سنة ١٤٠٩ الموافقة لسنة ١٩٨٩ للميلاد .
٣٢ ـ الصحافة في نصف عمود ـ صدر سنة ١٤١٢ الموافقة لسنة ١٩٩٢ للميلاد .

وهناك كتاب شارك أحمد جمال في اصداره وتحقيقه والتعليق عليه هو كتاب أعلام العلماء ببناء المسجد الحرام ، اشترك مع الاستاذ/ عبدالعزيز الرفاعي في تحقيقه والتعليق عليه وقد صدر هذا الكتاب عام ١٣٦٩ الموافقة لسنة ١٩٥٠ ميلادية(١) .

والمتأمل في هذه المكتبة العظيمة من مؤلفات أحمد جمال يرى أن الرجل قد أوقف حياته كلها في الدعوة الى الله فالقرآن الكريم ، والاسلام العظيم ، وقضايا المسلمين هي محور هذه المؤلفات ، هي القاسم المشترك الأعظم الذي جنَّد أحمد جمال قلمه وفكره لايضاحها للناس وشرحها للطلاب ، والدفاع عنها في كل زمان ومكان .

كتب المقالات في الصحف ، ودرَّس الطلاب في الجامعات وألَّف الكتب ونشرها منذ مطلع شبابه الى أن لقي الله تعالى وهو في السبعين من العمر ، وطاف بالدنيا شرقها وغربها ، مشاركاً في المؤتمرات الاسلامية ، في آسيا وافريقيا وأوربا وفي استراليا يلقي المحاضرات ،

---

(١) استقينا هذه المعلومات من العدد الخاص لمجلة الاربعاء عن أحمد محمد جمال الصادر بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٤١٣ .

ويناقش الآراء ، ويعلّق على ما يستمع اليه من آراء ويجيب على أسئلة شباب المسلمين في بلادهم ، وفي ديار الغرب ، الشباب الذين يستمعون الى اعتراضات العلمانيين وتشويهات المضللين من الكتابيين مسيحيين ويهود ، فيجيب بما وهبه الله من قوة الحجة ، وسعة الأفق ، والاحاطة بمشاكل العصر ، وأقوال الفقهاء والمفكرين .

فيشفي الغلة ، ويزيل الغمة ، ويهدي بقدرة الله تعالى الى الحق والى طريق مستقيم .

وكان للمرأة المسلمة وهي نصف المجتمع النصيب الكامل من اهتمامات الاستاذ/ أحمد جمال يرحمه الله ، فدافع عنها ، وأظهر ما خصها به الاسلام من حقوق تحفظ كرامتها وتصون وجهها وعرضها .

وقد أدركته المنية وهو يكتب عن المناهج الدراسية لتعليم البنات ، ويشرح آراء المعلمات ويدلي برأيه فيما يتعرض له البعض منهن من متاعب أو مشكلات .

وكان أحمد جمال يرحمه الله يعيش مشاكل الأمة العربية والاسلامية ، فيجهر بالرأي الجريء وإن خالف به الكثيرين .

ولقد كان من أوائل الكتاب الذين طالبوا باتباع سياسة الأمر الممكن في فلسطين بدلاً من التمسك بالحق الكامل الميؤوس منه .

كان يدعو الى هذا الرأي منذ ربع قرن بعد أن استمع الى الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة وهو يتحدث عن تجربته في انتزاع استقلال تونس من الفرنسيين ، نأخذ الممكن ، ونطالب بالباقي طالما أننا لا نستطيع أن نأخذ حقنا كاملاً ، وحينما زار السادات القدس وعقد اتفاقية كامب ديفيد التي استرد بها الأرض المصرية من الاسرائيليين كان أحمد جمال من المؤيدين لهذه السياسة ، مع أن الاجماع العربي في ذلك الزمان كان يخالف السادات ، ولكن أحمد جمال بشجاعته في الحق كان يقول للفلسطينيين افعلوا كما فعل السادات ، واسترجعوا مااستطعتم من أرضكم ، ثم طالبوا بالباقي ، بدلاً من الوقوف دون حراك .

كان يتساءل ماذا فعلنا خلال أربعين عاماً .

رفضنا التقسيم فأخذ اليهود أكثر منه .

وحاربنا اسرائيل فخسرنا فلسطين كلها بما فيها القدس ، وخسرنا الى جانبها الجولان وسيناء .

وعاش أحمد جمال يرحمه الله الى أن رأى العرب يتفاوضون مع الاسرائيليين بعد طول امتناع واعتراض .

وكان الى جانب الاهتمام بشؤون المسلمين العرب يهتم بشؤون الناس في بلاده ، فيكتب في الصحف ما يتراءى له من أمور تستحق الاصلاح والالتفات ، أو ما يصله من رسائل

الناس ، ومحادثاتهم الهاتفية ، داعياً الى الاصلاح والتقويم بالكلمة الهادفة والرأي الصائب البعيد عن الاسفاف .

نستطيع أن نقسم مؤلفات أحمد جمال رحمه الله الى أقسام عدة نوجزها فيما يلي :

١ ـ القرآن الكريم وله فيه ستة مؤلفات .
٢ ـ الاسلام وله فيه عشر مؤلفات .
٣ ـ المرأة وله فيها ست مؤلفات .
٤ ـ الشئوون السياسية للعرب والمسلمين وله فيها أربع مؤلفات .
٥ ـ الشباب المسلم وله فيه كتابان .
٦ ـ الشئوون الاجتماعية المحلية وله فيها كتابان .
٧ ـ الشعر وله فيه ديوان واحد .
٨ ـ القصة وله فيها كتاب واحد .

هذا ما تيسر لي الإلمام به من مؤلفات الاستاذ/ أحمد جمال ، وربما كانت له مؤلفات أخرى لم تصل الى علمي كما أنني أرجح أن تكون هناك مؤلفات مخطوطة لم تقدم الى المطبعة بعد ، فقد كان الرجل دائم النشاط كتابة وتدريساً ، وكان يجمع ما يكتب ويقدمه الى المطابع ليقرأه الناس ، والمتتبع لتواريخ طبع مؤلفاته يرى أنها تتواصل عاماً بعد عام ، واذا حدث أن تأخر النشر في بعض الأعوام ، فإن أعواماً أخرى تشهد ظهور أكثر من كتاب واحد ، كما يظهر ذلك من بيان مؤلفاته الذي اثبتناه قبل .

كان الكتاب الأول الذي ظهر لأحمد جمال وهو في الحادية والعشرين من العمر كتاب ماذا في الحجاز ، وهو كتاب يهدف الى التعريف بالحجاز وما يأخذ به من أسباب النهضة ومواكبة العصر ، وهذا الكتاب لم يتح لي الاطلاع عليه ، وقد وصفه الاستاذ/ عبدالعزيز الرفاعي بأنه كتاب اعلامي ، ولا غرابة في أن يكتب أحمد جمال معرِّفاً ببلده ، فقد كان الناس في البلاد العربية الأخرى لا يعرفون عن بلادنا إلا النذر اليسير لم تكن صحفنا مقروءة في خارج بلادنا ، ولم يكن لدينا من الصحف إلا أقل من أصابع اليد الواحدة ، وكأن الشاب أحمد جمال الممتلىء حباً لبلاده أراد أن يقدم للناس صورة مشرفة عنها ، فكتب كتابه ماذا في الحجاز .

ومارس أحمد جمال نظم الشعر في بداية حياته ونشر ديوانه الطلائع ، وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، وكانت هذه البداية تبشر بميلاد شاعر متمكن يجمع بين حرارة العاطفة والعلم باللغة ، وتصريف الكلمات ، ولكن أحمد جمال انصرف عن الشعر الى المهمة العظمى التي هيأ لها نفسه ، والتي سخره الله تعالى لها والتي عمل فيها الى أن توفاه الله تعالى .

وحينما أعاد طبع ديوانه الأول والوحيد بعد أكثر من ثلاثين عاماً من اصداره اختار له عنواناً جديداً هو ـ وداعاً أيها الشعر .

كما مارس أحمد جمال نظم الشعر في بداية حياته ، مارس كتابة القصة فصدر له وهو كذلك في الثالثة والعشرين من العمر كتابه القصصي سعد قال لي :

انصرف أحمد جمال عن الشعر وعن القصة ، وغيرهما من فنون الأدب ليتفرغ للكتابة عن القرآن الكريم بعد أن حفظه ، وتلقّى تفسيره في المسجد الحرام ، ثم عكف على دراسة كتب المفسرين ، فألمَّ بآرائهم ، وأضاف اليها اجتهاداته الخاصة فظهرت مؤلفاته الاولى ، « على مائدة القرآن » وهو دون الثلاثين من العمر ، ثم انتهى به الأمر أن يُختار مدرساً لمادة تفسير القرآن الكريم في جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

وكان قد سبق اختياره مدرساً للثقافة الاسلامية في جامعة الملك عبدالعزيز حين تأسيسها عام ١٣٨٧ ، وهو في الرابعة والأربعين من العمر .

وأود أن أقف قليلاً مع القارىء لنرى كيف اختير أحمد جمال مدرساً في جامعتين من أكبر جامعات المملكة ومؤهله الدراسي الشهادة الابتدائية ، ودراسة عام واحد في المعهد العلمي السعودي ، وبتعبيراً آخر وهو متخرج من السنة الاولى الاعدادية ، كما هو الاصطلاح في الوقت الحاضر . . . ؟

وأجيب على هذا السؤال بتساؤل آخر : كيف كان علماء المسلمين الذي نبغوا في شتى فنون العلم والأدب وألفوا فيها المؤلفات العظيمة التي لازالت تتدارسها الأجيال جيلاً بعد جيل . . . ؟

هل كانت هناك جامعات يدرسون فيها ويقدمون فيها الرسائل التي تمنح الماجستير والدكتوراة . . . ؟

لم يكن شيء من هذا ولا ذاك كما هو معلوم ، ولكن كان هناك أساتذة يتلقون العلم على أيديهم ، وكانوا الى جانب هؤلاء الأساتيذ يقرأون ويبحثون ، يهبون أنفسهم للعلم ، ويفرغون أنفسهم لتحصيله ، فاذا بلغ الواحد منهم الحدَّ الذي يرى فيه مشايخه أنه تأهَّل لتعليم الناس أجازوه ، فجلس يعلِّم كما تعلَّم .

ولكن أحمد جمال اذا استثنينا دراسته على السيد علوي المالكي يرحمه الله في المسجد الحرام ، فانه لم يتلق العلم عن المشايخ وانما تلقاه عن ائمة المفسرين والفقهاء فقرأ كتبهم وأطال النظر فيها ، وأضاف اليها ما هداه الله اليه من آراء كشف عنها العلم ، أو ظهر لها معانٍ جديدة مع تغير الزمان ، ان القرآن الكريم كتاب معجز بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، وفي آياته الكريمات من المعجزات ما يظهر مع توالي العصور ، واني أقص هنا ما حدث لي شخصياً مع آية من آيات الكتاب العظيم ،كنت كلما تلوت قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1] .

كنت كلما تلوت هاتين الآيتين الكريمتين أو سمعتهما وددت أن أعرف كيف يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ورجعت الى كتب المفسرين قديمهم وحديثهم فوجدت أنهم يفسرون خروج الحي من الميت بالحبة من القمح تغرس في الأرض فتنبت الشجرة ، والنخلة من النواة ، والبيضة من الدجاجة ، والمؤمن من الكافر[2] .

وكنت أقول في نفسي ان المعنى أعمق وأكبر من ذلك مع اكباري لسادتنا العلماء الأجلاء .

وظل المعنى يدور في ذهني زمناً ، وأخيراً تذكرت وأنا أفكر في الأمر أن التفسير قائم بين أيدينا في كل يوم . . . ؟

ألا يؤخذ القلب من الميت فيزرع في جسم الحي ، فيمشي به بين الناس . . . ؟ ألا تؤخذ الأعضاء الأخرى من الموتى فتزرع في أجسام الأحياء ، أليست عمليات زراعة القلوب والأعين ، والكلى ، والكبد ، عمليات يومية تجري في مستشفيات الدنيا كلها كل يوم بل كل ساعة أليس هذا هو التفسير لاخراج الحي من الميت ، واخراج الميت من الحي . . . ؟

تبارك الله وتعالى ما أعظم كتابه ، وما أعجب آياته ، وما أجلَّ معجزاته . . . ؟

ان القرآن الكريم كما ذكرت كتاب معجز تتجدد آياته مع كرِّ الزمان ، فيظهر له في كل زمان معنى لم يكن معروفاً للناس في زمان سابق ، بل ان كرَّ الأيام يزيد هذه المعاني جلاءاً ، ولقد توصل الطب بقدرة الله تعالى الى استبدال الأعضاء التالفة في جسم الانسان الحي باعضاء من أجسام الموتى ، فكان هذا التفسير أكثر جلاءاً ووضوحاً ، ولم يك هذا التفسير ميسوراً في الزمن السابق لتوصل الطب الى هذه الانجازات ، ففسره المفسرون بما ذكرنا من خروج الزرع من الحبة والبيضة من الدجاجة ، مما أشرنا اليه قبل ، ولقد أشرت الى هذا المعنى في بعض شعري حيث قلت :

يمضي الزمان ويبقى سر معجزه سَحَرَ العقول تقرَّاهُ الالبَّاءُ
في كل يوم له معنى يجدِّدُه كرُّ الزمان وتبقى منه أشياءُ

ولا أريد أن أطيل في هذا المعنى ولكني أرجو أن يوفقني الله تعالى الى التأمل في بعض آيات القرآن الكريم ، وأن يهديني الى معانيها وأسرارها ، ويوفقني الى كتابة ما يهديني الله اليه واذاعته للقارئين .

---

(١) سورة آل عمران الآيات ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) انظر موجز تفسير المفسرين في صفوة التفاسير ص ١٩٤/ ١٩٥ الجزء الأول .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى ترجمة الاستاذ/ أحمد محمد جمال فنثبت هنا بعض ما كتبه في تفسير بعض آيات القرآن الكريم نقلاً عن كتابه « مأدبة الله في الأرض » .

(مأدبة الله في الأرض)

يقول الاستاذ/ أحمد جمال في تفسيره للآية الكريمة : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغيرِ حِسَابْ ﴾ مايلي :

وهناك حقيقة آلهية أخرى في قوله عز وجل « وترزق من تشاء بغير حساب » يقول بل هو مظهر آخر للقدرة الآلهية والمشيئة الآلهية أيضاً . وهو مثار جدل وشكوى بين الناس في كل زمان ومكان بل ربما كان محل اعتراض واستنكار من بعضهم ، لأنهم يرون غنياً فاسقاً وفقيراً صالحاً ، ويتساءلون : لماذا لا يفتقر الفاسق . . . ؟ أو لماذا لا يستغني الصالح . ؟ ويكرر القرآن هذا المعنى أو هذه الحقيقة الآلهية لأن الناس يتكرر اعتراضهم عليها ويتكرر عجبهم منها في قوله تبارك وتعالى في آيات متعددة منها .

﴿ وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(١) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيرا ﴾(٢) .

﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِه وَيَقْدِرُ لَه إِنَّ اللهَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٣) .

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤) .

يقول الاستاذ/ أحمد جمال :

ونجد هذا المعنى في سورة الروم والرعد والقصص والشورى والزمر ونلاحظ أن الله عز وجل في سورة الشورى يبين حكمته في قسمته للأرزاق بين عباده قبضاً وبسطاً حيث يقول :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بصيرٌ ﴾ .

ويؤكد نفس الحكمة في آية الاسراء السابقة :

﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصيراً ﴾ .

وفي آية العنكبوت :

﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

---

(١) البقرة آية ٢٤٥ .
(٢) الاسراء آية ٣٠ .
(٣) العنكبوت آية ٦٢ .
(٤) سورة سبأ آية ٣٦ .

وفي آية سبأ :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ويأتي الحديث القدسي فيزيد القضية بياناً :

« ياعبادي ان منكم من أغنيته ،ولو أفقرته لفسد حاله ، وان منكم من أفقرته ولو أغنيته لفسد حاله »[١] .

أقول : وهكذا نرى أن بسط الرزق أو تقتيره على الناس هو لحكمة ارتضاها الخالق جل وعلا فهو أعلم بعباده ، وأعلم بما يصلحهم وما يفسدهم .

ويقول في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ آياتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّودَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢] .

يقول بعد استعراض أقوال المفسرين ومناقشتها مايلي :

ونحن نلمس هذا السكن مع آثاره من المودة والرحمة بين الزوجين ، فيما نراه من ايثار الرجل للمرأة على أهله من أبوين وأخوة ، وايثار المرأة للرجل على أهلها كذلك .

ان كلا منهما يحن الى زوجه أكثر مما يحن الى أبويه واخوته . .

ويعارض هذا « الواقع » الزوجي بين المرأة والرجل ما جاء في القرآن الكريم وحديث النبي صلى الله عليه وسلم من مطالبة الأبناء ببر الآباء ربما يؤكده بطريق غير مباشر لأنه يعني التحذير من طغيان العاطفة الزوجية على حق الآباء في برِّ الأبناء .

كذلك ما أسرع كلا من الزوجين اذا ظلم رفيقه أو أخطأ في حقه الى الندم ثم المصالحة والرضا بكلمة أو همسة ، ونسيان ما حدث من خطأ أو ظلم في لمح البصر .

ولا يكون ذلك على هذه الصورة السريعة بين الآباء والأمهات ، ولا بين الاخوة ، ولا بين البنات والأمهات[٣] .

أقول : وكأنَّ الله تعالى قد أودع في نفوس الزوجين ما أودع من المحبة والايثار ، أراد أن ينبه الأولاد الى حقوق الآباء والأمهات حتى لا تطغى العاطفة الزوجية على عاطفة البنوة ، فشدَّد الحرص على البر بالآباء والأمهات .

وقال في تفسير قوله تعالى من سورة الرحمن : ﴿ يَسْئَلُهُ مَنْ فِي ٱلسَّمواتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ ءَلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

---

(١) مادبة الله في الأرض ٦٩/ ٧١ .

(٢) سورة الروم آية ٢١ .

(٣) مادبة الله في الأرض ٨٤/ ٨٥ .

كل المخلوقات تتوجه إليه عز وجل في كل لحظة بلسان مقالها ، أو لسان حالها على اختلاف لغاتها وكلماتها ، تسأله الغنى من فقر أو الشفاء من علّة ، أو الاستقواء من ضعف ، أو الاقتدار من عجز ، ويسأله العقيم ولداً ، والأرملة عائلاً ، والعانس زوجاً ، ويسأله المظلوم ناصراً ، والحائر هدى .

فكل يوم هو في أمر جديد من أمور خلقه ، وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ .

فقالوا : وما ذاك الشأن يارسول الله . . ؟

قال : « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً . ويضع آخرين »[1] .

ويقول في وصف الموت وسكراته :

الموت بداية اليقظة . بداية معرفة الحقيقة التي نسيها أو جهلها الانسان ، وبداية الحساب على ما قدَّم من خير أو شر ، فاذا نفخ في الصور ، واستيقظ اليقظة الكبرى ، كان الحساب الأكبر والجزاء الأوفر ، فريق في الجنة وفريق في السعير[2] ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِين ﴾ .

فهو صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين في الدنيا بما حمل الى الناس من نور وهدى فأنقذهم من الضلال والكفر ، ورحمة للعالمين في الآخرة بما يشفع لأهل المعاصي فيخرجون من النار ويدخلون الجنة[3] .

ونكتفي بهذه الأمثلة التي نقلناها من كتاب مأدبة الله في الأرض ، وأود أن يقرأ القارىء كتب الاستاذ/ أحمد جمال ، ويتأمل ما جاء فيها في تفسير بعض الآيات الكريمات فإن ذلك أبلغ وأنفع .

مذكرات أحمد جمال :

للاستاذ/ أحمد جمال يرحمه الله مذكرات بعضها منشور وبعضها مخطوط ، وقد تفضل نجله الكريم الاستاذ/ رجاء باطلاعي عليها ، وفي هذه المذكرات يتحدث عن مسيرته الأدبية ، كما يتحدث عن مسيرته كأستاذ للثقافة الاسلامية في جامعتي الملك عبدالعزيز وجامعة أم القرى ، وعن أمور أخرى كثيرة كأدب المرأة وتوظيفها والأعمال التي تمارسها والتي لا يرى أنها صالحة لها ، والاسئلة التي كانت توجه اليه من بعض الصحفيين أو من بعض الصحف واجابته عليها .

---

(١) مادبة الله في الارض ٨٩/ ٩٠ .

(٢) مادبة الله في الارض ١٠٣ .

(٣) مادبة الله في الارض ١٢٥/ ١٢٦ .

وتحدَّث كذلك عن رحلاته الى أقطار الدنيا المختلفة ، داعياً الى الله تعالى مع الدعاة في المؤتمرات الاسلامية التي حضرها ، وكيف رأى أن من الضروري للداعية اتقان مخاطبة الناس ارتجالا ، وانه بدأ تدريب نفسه على ذلك سنة ١٣٧٧هـ ، في أول رحلة له الى باكستان تلبية لدعوة تلقاها من جامعة البنجاب للمشاركة في الندوة العالمية للاسلاميات(١) .

ثم تحدث عن الموضوعات التي أثيرت في مؤتمرات أخرى كثيرة وأبدى رأيه فيما تم التطرق اليه من بحوث ورَدُّهُ على من يخالفونه الرأي وهي موضوعات هامة ويجدر بالقارىء أن يقرأها بنفسه لأن تلخيصها لا يقدم الصورة الكاملة عنها .

وفي المذكرات مراسلات دارت بينه وبين بعض كبار المسؤولين على جانب كبير من الأهمية لما تضمنته من آراء ومناقشات يستقطب بعضها اهتمام الناس ويدور تساؤلهم حولها .

وقد استوقف نظري في مذكراته الأدبية التي نشرت مسلسلة في مجلة المنهل بعض الحوادث والطرائف أنقلها .

فمن الحوادث التي تعرض لها وزملاؤه في المعهد السعودي انهم أصدروا مجلة خطية سمَّوها الأمل اشترك في اصدارها الطلاب إذ ذاك في المعهد العلمي السعودي ،عبدالعزيز الرفاعي ، وسراج مفتي ، وعبدالقادر جان ، وعبدالعزيز الربيع ، وسراج خراز وعلي غسَّال ، وغيرهم .

وكان الطلبة ينشرون في هذه المجلة الخطية الكلمات والقصائد من انتاجهم ، يقول أحمد جمال في مذكراته : فاذا بنا نفاجأ بطلب من الشرطة لكل واحد منا في بيوتنا مما أفزع آباءنا وأمهاتنا ، وذهبنا الى مقر الأمن العام فيما كان يسمى ـ الحميدية ـ على عهد مهدي بك ، وكان رجلا مهيباً يرحمه الله ، واقتادونا الى غرفة القسم العدلي ، وكان يرأسه طلعت وفا يرحمه الله ، وهناك أخذ منا تعهداً بعدم اصدار المجلة ، وألَّا كان جزاؤنا شديداً فقلنا سمعنا وأطعنا(١).

واذا كانت هذه الحادثة قد انتهت نهاية سليمة فإن الحادثة التالية لم تكن كذلك فقد نشر بعض القصص القصيرة في مجلة الرابطة الاسلامية التي كانت تصدر بالقاهرة سنة ١٣٦٨هـ ، وكانت هذه القصص بعنوان « صور من المستشفى » وكانت هذه القصص تصور حالات من اهمال الأطباء ومعاناة المرضى ، وبسبب هذه القصص سجن سبعة أيام في السجن الاحتياطي بأجياد .

ويقول أحمد جمال ، وقد حظيت في السجن بزيارة كبار القوم من العلماء والوجهاء . أمثال السيد محمد أمين كتبي ، والشيخ سليمان الصنيع وكلاهما من العلماء ، والشيخ بكر حمدي من

---

(١) مجلة المنهل العدد ٤٤٩ الربيعان ١٤٠٧هـ .
(٢) مجلة المنهل الحلقة السادسة من المذكرات .

كبار موظفي رئاسة القضاة وهو زوج أخت أحمد جمال ، كما أنه أطلق من السجن بعد توسط الشيخ عمر بن حسن رئيس عام هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدى الملك عبدالعزيز ، وكان عمر بن حسن يعطف عليه كثيرا ، وكان يحثه دائماً على الاستمرار في طريقه الذي يسير فيه نحو العمل الاسلامي[1] .

الرقابة على الصحف :

ومن الطرائف التي تضمنها المذكرات الحديث عن الرقابة على الصحف وقد جاء فيها ما يلي :

وذكر الاستاذ/ الأنصاري في مقدمتهم ـ مراقبي الصحف ـ الشيخ حسين عبدالغني يرحمه الله ، وقال انه كان يضيف عبارات من عنده بين سطور المقالات والقصائد المراد نشرها في جريدة أم القرى التي يتولى الاستاذ/ الأنصاري رئاسة تحريرها مابين سنة ١٣٥٩هـ وسنة ١٣٦٩هـ ، وأنه كان متشدداً جداً .

ومما عاناه الأنصاري من شدته أنه كان يشطب من المقالات جملة السعادة الاجتماعية ويعلل تصرفه بقوله في هامش المقال أنه ليس هناك سعادة في الدنيا وأن السعادة في الآخرة .

كما أضاف ذات مرة في قصيدة للشيخ / أحمد ابراهيم الغزاوي كان قد ألقاها في احتفال لجلالة الملك عبدالعزيز يرحمه الله أضاف جملة (بإذن الله) بعد كل عبارة بها ـ سنعمل ، سنضع ، سنقوم .

ونشر الاستاذ/ الأنصاري القصيدة بهذه الاضافات الشاذة التي اضطرب لها وزن القصيدة متعمداً اثارة الشيخ الغزاوي ، وفعلاً كان له ما أراد وأسرع اليه مستنكراً[2].

الكاتب الاسلامي :

ومما جاء في هذه المذكرات أن أحمد جمال كان يدعو الله تعالى بعد طوافه بالبيت الحرام أن يجعله أديباً اسلامياً مثل مصطفى صادق الرافعي[3].

آدم وحواء :

ومن الملاحظات الدقيقة التي وردت في المذكرات انتقاده لبعض الصحف المصرية ، بل لبعض كتابها البارزين استعمال اسمي آدم وحواء رمزاً للخطيئة بين الرجل والمرأة ، أو للمناكفة بين الزوج والزوجة ، يقول أحمد جمال بعد أن أورد نماذج مما نشره بعض كبار الكتاب المصريين مبدياً رأيه يقول :

---

(١) مجلة المنهل الحلقة الثالثة من المذكرات .
(٢) الذكريات ـ مجلة المنهل الحلقة الخامسة .
(٣) مجلة المنهل ـ الحلقة الثالثة عن الذكريات .

تفعل ذلك بعض الصحف والمجلات المصرية ازاء آدم عليه السلام ، بينما هو رمز التجلة والتكريم بما أسجد الله له ملائكته ، ورمز الرفعة والمعرفة بما علَّمه الله من أسماء خلقه ، ورمز الأفضلية والأولية بما جعل الله له من استاذية في السماء وخلافة في الأرض ، والذين يكتبون التفاحة المحرمة ، وخروج آدم وحواء من الجنة بسببها أجهل الجهلاء وأسفه السفهاء ، وان حملوا أرقى الشهادات وتزيوا بزي العلماء والعقلاء(١).

وأكتفي بهذا القدر من التعليق على الذكريات الأدبية التي تضمنتها مذكرات الاستاذ/ أحمد جمال ، وأرجو أن يوفق ابناءه الكرام الى جمع هذه المذكرات على اختلاف مواضيعها ، ونشرها في كتاب ليتاح لقرائه الكثيرين الاستمتاع بها ومعرفة بعض الامور الهامة أو الطريفة في حياة الكاتب وعمله ، وفقهم الله لذلك وأعانهم عليه .

وفاة أحمد جمال :

توجه أحمد جمال الى القاهرة بصحبة شقيقه محمود في أوائل شهر ذي الحجة ، وكان قد انقطع عن زيارة القاهرة ست سنوات ، وفي ليلة التاسع من ذي الحجة أخبر مرافقيه انه سيصبح صائماً وضبط جرس الساعة في غرفته ليستيقظ قبل الفجر ، ليصلي لله تعالى في جوف الليل كما هي عادته دائماً .

واستيقظ أخوه على صوت الجرس الذي قرع طويلاً ، فأسرع الى غرفة أخيه ودعاه فلم يجب وحركه فلم يتحرك . واستدعى الطبيب ، فقال : لقد توفاه الله .

هكذا انتهى أحمد جمال وهو على نية الصلاة في الليل وصيام يوم عرفة ،فيا لها من خاتمة سعيدة لجهاد طويل في الدعوة الى الله .

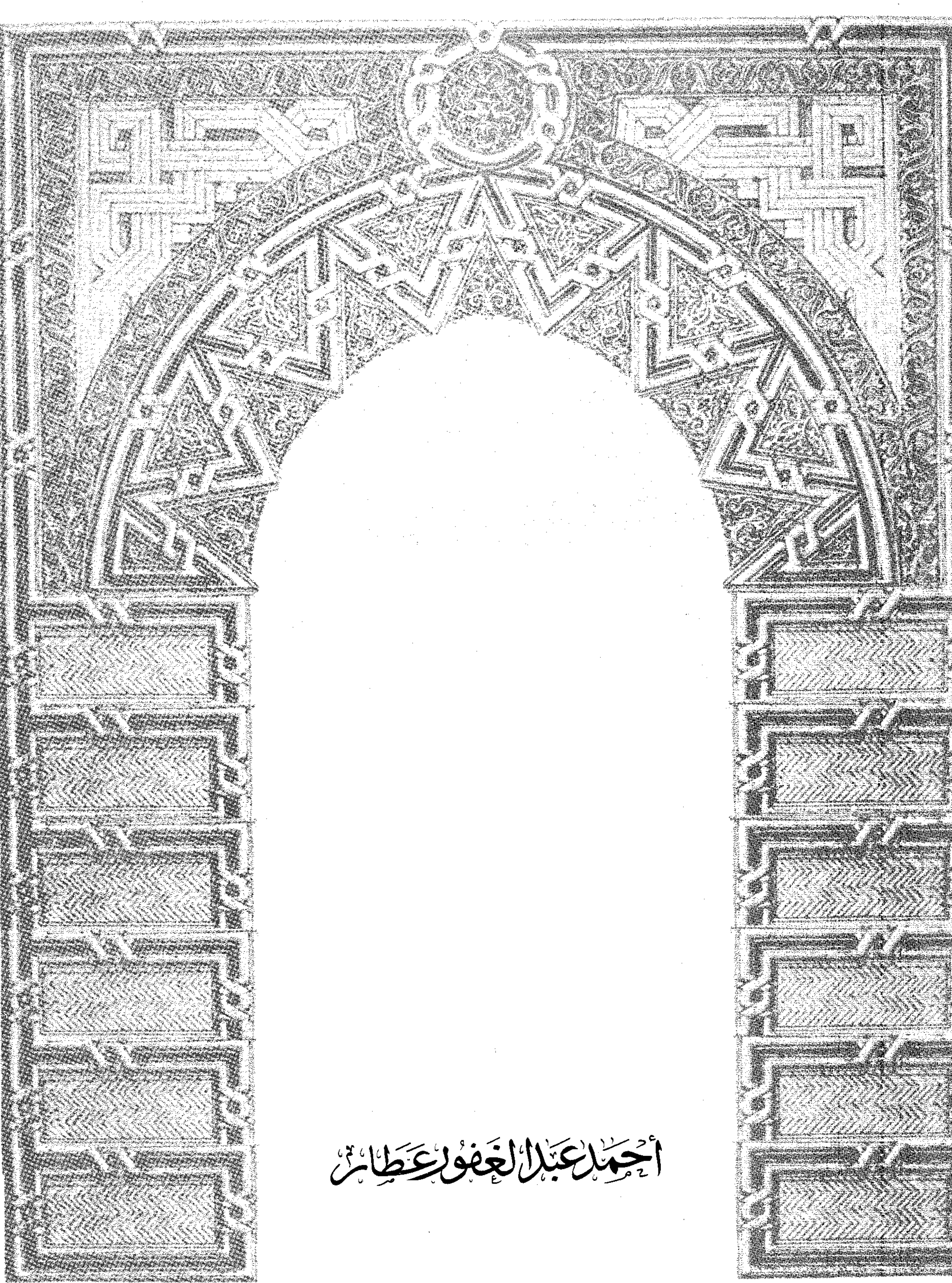
وكان لوفاته المفاجئة صدى أليم في نفوس الكثيرين من الناس الذين ذهلوا للنبأ وسارع البعض الى التأكد وكأنهم يرجون أن لا يكون صادقاً ، ولكنها ارادة الله وقضاؤه ولا راد لما قضاه الله .

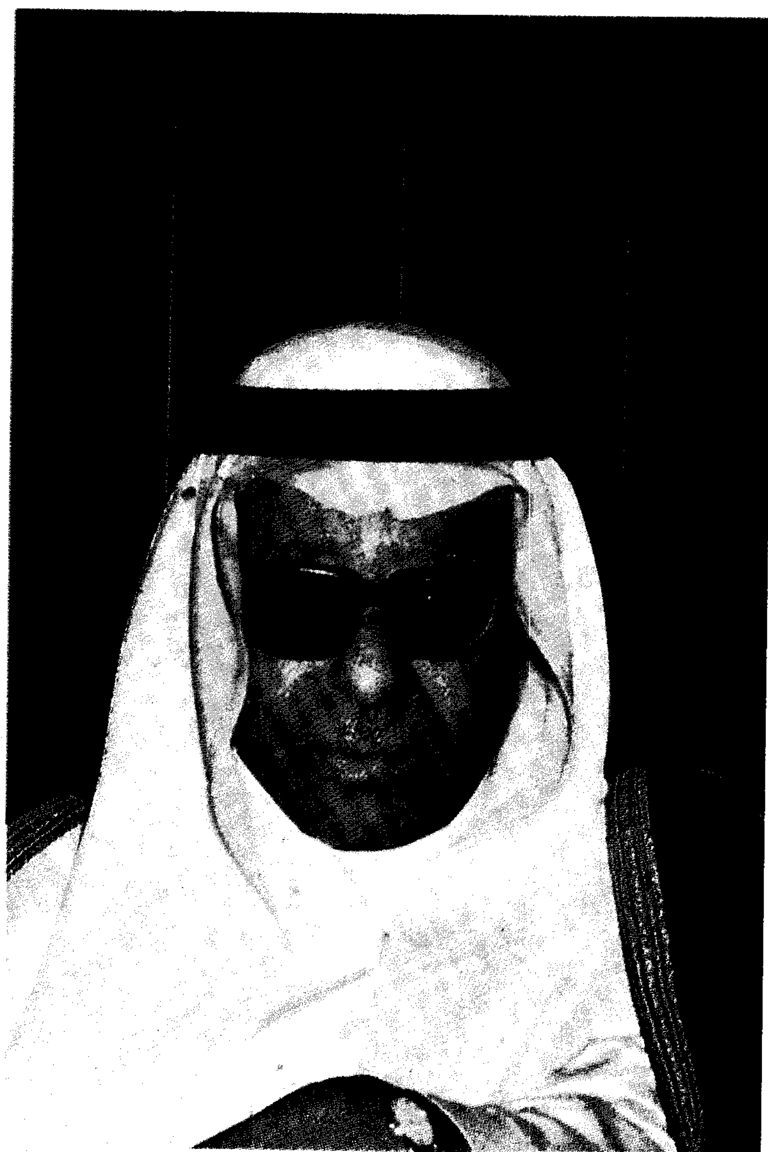
نُقل جثمان أحمد جمال في طائرة خاصة بأمر من خادم الحرمين الشريفين ، ووصل الى مكة مساء يوم التاسع من ذي الحجة ١٤١٣ ، وصُلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة الفجر ، ودفن في مقبرة المعلاة .

فإلى رحمة الله وعفوه . والى رحاب جناته ، انه سميع مجيب .



(١) مجلة المنهل ـ الحلقة التاسعة والعشرون من الذكريات .


أحمد عبد الغفور عطار



أحمد عبدالغفور عطار

أحمد عبد الغفور عطار

أسمر اللون ، شديد السمرة ، نحيل البدن ، متوسط القامة ، واسع العينين يضع على عينيه نظارة سوداء بعد أن كبرت سنه وقصر نظره يرتدي ملابس بيضاء ويضع على رأسه غترة وعقالاً .

ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٧هـ ، وتلقى دراسته بها ، وتخرج من المعهد العلمي السعودي بمكة ، وابتعث الى مصر للدراسة ، ولكنه لم يتمَّ دراسته في مصر وأعيد الى مكة المكرمة ، على أثر وشاية وشيت عنه وسجن في مكة ، ثم نفي الى الرياض وسجن في سجن المصمك لعدة شهور ، وقد ألف العطار كتاباً عن هذه الواقعة سماه « بين السجن والمنفى » سأتحدث عنه فيما بعد .

استقر به المقام في مكة المكرمة وعمل موظفاً في الوظائف الحكومية لعدة سنوات ، أذكر منها وظيفته في ادارة الأمن العام .

ولكن العطار الذي عشق البحث والكتابة ، والذي حكمت عليه الأيام بالابتعاد عن الدراسة الأكاديمية المنتظمة لم يثنه ذلك عن مواصلة البحث والدرس ، والكتابة والتأليف فاستقال من الوظائف الحكومية وفرَّغ نفسه للبحث والتأليف فألَّف ما يقرب من مائة كتاب .

أول مؤلفات العطار :

ألَّف العطار كتابه الأول وهو مجموعة مقالات سماه « كتابي » وتم طبع هذا الكتاب بمطبعة أم القرى في مكة المكرمة على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن عبدالعزيز ـ الملك فيصل فيما بعد ـ وكان الأمير فيصل يعطف على العطار ويشجعه منذ أن كان تلميذاً بالمعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة[١] .

(١) بين السجن والمنفى ص ١٥

ومما أذكره عن هذا الكتاب أن العطار يرحمه الله أوكل أمر توزيعه الى الشركة العربية للطبع والنشر بمكة المكرمة التي كان الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله قد أسسها ، وكنت أشرف على أعمالها بحكم عملي لديه .

وجاء العطار من مصر ، وحضر الى مكتب الشيخ محمد سرور الصبان يرحمهما الله جميعاً ، ورأيته لأول مرة في عام ١٣٥٦هـ شاباً صغير السن وسأل عن كتابه « كتابي » وكان غاضباً لأن شركة الطبع والنشر لم تحسن تسويقه كما قال لي إذ ذاك .

وكان الكتاب يفتقر الى الكثير من مقومات النجاح ، فهو أول كتاب ألَّفه العطار وماذا ينتظر من مقالات يكتبها شاب حديث السن في الخامسة عشرة من العمر . . ؟ هل سيقبل الناس على شرائه ، وقراءته ، ولم يظهر اسم الكاتب بعد ، ولم يعرف عنه الاجادة . . . ؟

قلت له انك قد حضرت فلْتتولَّ أنت أمر التسويق والنشر .

وأود أن أذكر هنا أن العطار الذي ألَّف الكتب الكثيرة في اللغة بعد ذاك والذي أخرج معجم الصحاح كان كتابه الأول يحتاج الى تصحيح بعض ما جاء فيه من اللغة والاعراب ، وليس ذلك ليعيب العطار ، فقد كانت بدايته متحمسة متعجلة ولكنه لم يلبث أن استدرك ما فاته ، واستكمل عدته ، فكان منه الأديب الضليع لغة وفكراً وأسلوباً وعلماً ، وبعد هذه المقدمة نذكر ثبت مؤلفاته كما أوردتها جريدة المدينة المنورة بعد وفاته .

أعمال ومؤلفات العطار :

أ ـ كتب نفدت :

١ ـ كتابي ـ مجموعة مقالات ، طبع بمطبعة أم القرى بمكة المكرمة حرسها الله سنة ١٣٥٤هـ الموافقة ١٩٣٤م .

٢ ـ محمد بن عبدالوهاب : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٢هـ (١٩٤٣م) ، الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ، الطبعة الثالثة ـ بيروت ، سنة ١٣٨٧هـ (١٩٦٧م) .

٣ ـ محمد بن عبدالوهاب : (كتاب جديد غير السابق) الطبعة الاولى بيروت ٣٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ (٨ يناير ١٩٧٢م) ، الطبعة الثانية بيروت ٢٠ ذي الحجة ١٣٩١هـ (٤ فبراير ١٩٧٢م) ، الطبعة الثالثة بيروت ١٠ محرم ١٣٩٢هـ (٢٤ فبراير ١٩٧٢م) ، الطبعة الرابعة بيروت ٥ رجب ١٣٩٢هـ (٤ أغسطس ١٩٧٢م) ، الطبعة الخامسة بيروت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .

٤ ـ محمد بن عبدالوهاب : (باللغة الأردية ترجمة العلامة الشيخ محمد صادق خليل) الطبعة الاولى لاهور (باكستان) ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) .

٥ ـ الهوى والشباب : (ديوان شعر) الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٧م) .
٦ ـ الخراج والشرائع : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) .
٧ ـ أريد أن أرى الله (مجموعة قصص) الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .
٨ ـ المقالات : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) .
٩ ـ الهجرة : (مسرحية) الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٧م) الطبعة الثانية (ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان الهجرة) بيروت ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .
١٠ ـ صقر الجزيرة : (٣ أجزاء) الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٦٦هـ (١٩٤٦م) ، الطبعة الثانية جدة سنة ١٣٨٥هـ (١٩٥٦م) ، الطبعة الثالثة (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد) جدة سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) .
١١ ـ البيان (نقد أدبي) : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٦٩هـ (١٩٤٩م) .
١٢ ـ الزنابق الحمر (مسرحية لطاغور ، مترجمة عن البنغالية) : الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧١هـ (١٩٥١م) .
١٣ ـ المقدمة (دراسة لمعجم صحاح الامام الجوهري) : الطبعة الاولى (كتبت مقدمة لمعجم « تهذيب الصحاح » للزنجاني) ، القاهرة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) ، الطبعة الثانية ـ القاهرة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) .
١٤ ـ قطرة من يراع : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٥م) .
١٥ ـ الصحاح ومدارس المعجمات العربية : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٥هـ (١٩٥٦م) ، الطبعة الثانية (صدرت مع معجم الصحاح للجوهري تحت عنوان « مقدمة الصحاح ») في جزء مستقل ـ القاهرة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) ، الطبعة الثالثة ـ بيروت سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) ، الطبعة الرابعة مع معجم الصحاح للجوهري ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .
١٦ ـ مقصورة ابن دريد (بحث تاريخي أدبي) : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) .
١٧ ـ الاسلام والشيوعية : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٦م) ، الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة) بيروت سنة ١٣٩١هـ (١٩٧٢م) .
١٨ ـ حرب الأكاذيب : الطبعة الاولى ـ القاهرة سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) ، الطبعة الثانية نشرت بجريدة « عكاظ » الطائف سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) الطبعة الثانية ، نشرت في الطبعة الثانية من كتاب الاسلام والشيوعية ، بيروت سنة ١٣٩١هـ (١٩٧٢م) .
١٩ ـ الفصحى والعامية : الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) .

٢٠ ـ عشرون يوما في الصين الوطنية : الطبعة الاولى ـ تايبيه (الصين الوطنية) سنة ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م) .
٢١ ـ الشرعية لا القانون : الطبعة الاولى جدة سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) .
٢٢ ـ الاسلام طريقنا الى الحياة : الطبعة الاولى جدة سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) .
٢٣ ـ آراء في اللغة : الطبعة الاولى جدة سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) .
٢٤ ـ كلام في الأدب : الطبعة الاولى جدة سنة ١٣٨٤هـ (١٩٦٤م) .
٢٥ ـ المفتش : (مسرحية لنقولا جوجول) الطبعة الاولى دمشق ١٣٨٥هـ (١٩٦٥م) ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .
٢٦ ـ الزحف على لغة القرآن : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٨٥هـ (١٩٦٦م) .
٢٧ ـ الاسلام خاتم الأديان : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) .
٢٨ ـ انسانية الاسلام : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) .
٢٩ ـ اليهودية والصهيونية : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩١هـ (١٩٧٢م) .
٣٠ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء : (وهو غير الكتاب السابق) الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٢هـ (١٩٧٤م) .
٣١ ـ ابن سعود وقضية فلسطين : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .
٣٢ ـ الشيوعية وليدة الصهيونية : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .
٣٣ ـ الماسونية : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .
٣٤ ـ عروبة فلسطين والقدس أصيلة منذ عشرات الآلاف من السنين ـ والهيكل لم يكن مقدساً عند سليمان واليهود : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) .
٣٥ ـ حِجَّة النبي صلى الله عليه وسلم : الطبعة الاولى دمشق سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .
٣٦ ـ مؤامرة الصهيونية على العالم : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) الطبعة الثانية (خاصة بوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية) بيروت ١٣٩١هـ (١٩٧٢م) ، الطبعة الثالثة بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .
٣٧ ـ بروتوكولات صهيون (مترجم) : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

ب ـ كتب محققة نفذت :

٣٨ ـ تهذيب الصحاح : (معجم لغوي) تأليف الامام الزنجاني ٣ أجزاء بالاشتراك مع الاستاذ/ عبدالسلام هارون ـ الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧٢هـ (١٩٥٢م) .
٣٩ ـ مقدمة تهذيب اللغة : للامام الأزهري ـ الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) .

٤٠ ـ ليس في كلام العرب : للامام ابن خالوية ـ الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٨٦هـ (١٩٥٦م) .

٤١ ـ آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الاسلامية لابن خلدون وغيره ـ الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧٦هـ (١٩٥٦م) ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م) .

٤٢ ـ الصحاح : للامام الجوهري ٧ أجزاء (منها المقدمة) الطبعة الاولى القاهرة سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) الطبعة الثانية بيروت ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

ج ـ كتب مترجمة للمؤلف ، طبعت حديثاً :

٤٣ ـ محمد بن عبدالوهاب : باللغة الانكليزية ، ترجمة الدكتور راشد البراوي ، الطبعة الاولى مكة المكرمة سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٤٤ ـ محمد بن عبدالوهاب باللغة الأردية : ترجمة الشيخ / محمد خليل صادق الطبعة الثانية مكة المكرمة سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٤٥ ـ انسانية الاسلام : باللغة الانكليزية ـ الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

د ـ كتب صدرت حديثاً : ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) :

٤٦ ـ الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) .

٤٧ ـ أحكام الحج والعمرة من حجة النبي وعمراته : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) .

٤٨ ـ الحجاب والسفور : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٤٩ ـ وفاء الفقه الاسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٠ ـ وفاء اللغة العربية بحاجات هذا العصر وكل عصر : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥١ ـ دفاع عن الفصحى : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٢ ـ الهجرة : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٣ ـ الهجرة (مسرحية) : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٤ ـ جحا يستقبل نفسه : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٥ ـ ويْلَك آمِنْ (نقد لبعض آراء الشيخ ناصر الدين الألباني) : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) .

٥٦ ـ شرح مقصورة ابن دريد ، لابن هشام اللخمي (تحقيق) : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٥٧ ـ الشيوعية والاسلام : الطبعة الثانية بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٥٨ ـ اليهودية والصهيونية : الطبعة الثانية بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٥٩ ـ الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات : الطبعة الاولى بيروت ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٠ ـ الاسلام دين خاص أم عام : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦١ ـ انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والاسلام : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٢ ـ الجوهري : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٣ ـ أصلح الأديان للبشرية عقيدة وشريعة : الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٤ ـ عروبة فلسطين والقدس : الطبعة الثانية مزيدة ومحققة بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٥ ـ انسانية الاسلام : طبعة ثانية بيروت ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٦ ـ ليس في كلام العرب : الطبعة الثانية مزيدة ومحققة ومفهرسة بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .
٦٧ ـ الديانات والعقائد في مختلف العصور : أربعة أجزاء في أربعة مجلدات ـ الطبعة الاولى بيروت سنة ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) .

هـ ـ كتب أعيد طبعها :

١ ـ حجة النبي ـ صلى الله عليه وسلم : الطبعة الثانية دمشق سنة ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م) .
٢ ـ صقر الجزيرة ٧ أجزاء : الطبعة الثانية بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) .
٣ ـ محمد بن عبدالوهاب : الطبعة الخامسة بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) ، الطبعة السادسة بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) ، الطبعة السابعة بيروت سنة ١٣٩٧هـ (١٩٧٧م) .

و ـ كتب معدة للطبع :

١ ـ المكتبات .
٢ ـ فيصل .
٣ ـ مئة كلمة .

٤ ـ لا أؤمن بالاشتراكية لأني أؤمن بالاسلام .
٥ ـ مع الكتب والمؤلفين .
٦ ـ الأسرة .
٧ ـ نقد كتاب « كشف الظنون » .
٨ ـ مذكرات لارا .
٩ ـ قال بيديا .
١٠ ـ خمس دقائق قبل الفطور .
١١ ـ وراء القضبان .
١٢ ـ ورود من كلام .
١٣ ـ العقاد .
١٤ ـ مسلمة في سيبيريا .
١٥ ـ مع الملوك والرؤساء .
١٦ ـ الأدب الضاحك .
١٧ ـ الرحلات .
١٨ ـ عائشة أم المؤمنين .
١٩ ـ في اللغة .

ز ـ كتب محققة للطبع :
٢٠ ـ الأزمنة ، لقطرب .
٢١ ـ ما أتفق لفظه واختلف معناه ، لابن العميثل .
٢٢ ـ كشف الظنون ، لحاجي خليفة .
٢٣ ـ مجموعة المعاني (مختارات شعرية) طبعة الجوائب .

وقد استلفت نظري أن العطار أعاد تأليف بعض كتبه بمعنى أنه لم يكتف بتأليف الكتاب لأول مرة ، وانما أعاد تأليفه مرة أخرى وينطبق هذا على كتابه محمد بن عبدالوهاب الذي صدرت طبعته الاولى بالقاهرة سنة ١٣٦٢هـ الموافقة لسنة ١٩٤٣م .

فقد أعاد كتابته أو تأليفه مرة أخرى في سنة ١٣٩١هـ الموافقة لسنة ١٩٧٢م أي بعد ثلاثين سنة من تأليف الكتاب لأول مرة .

وكذلك الأمر بالنسبة لكتابه صقر الجزيرة الذي صدرت طبعته الاولى في القاهرة سنة ١٣٦٦هـ الموافقة لسنة ١٩٤٦م فقد أعاد تأليفه مرة أخرى وصدرت طبعته الاولى سنة

١٣٩٢ هـ الموافقة لسنة ١٩٧٢م أي بعد أكثر من ربع قرن من تأليفه لأول مرة ويقول العطار في مقدمة الطبعة الاولى لكتابه الجديد مايلي :

هذه الطبعة تختلف عن الطبعات السابقة ، فهي تمتاز عليهن بالتنقيح والزيادة والصور التاريخية ، ومن بينها صور لم يسبق نشرها في أي مؤلف عن صقر الجزيرة[1] والاضافات والتنقيح للمؤلفات حين اعادة طبعها أمر معروف للمؤلفين والقراء خاصة اذا مضى على تأليف الكتاب عشرات السنين . واطلع المؤلف على جديد تحسن اضافته الى ما كتبه أول مرة ، فسجَّله ليضاف في الطبعة الجديدة .

على أي حال فان اعادة التأليف أو اعادة النظر على الأصح في الكتاب بعد تأليفه واضافة ما يستحق الاضافة اليه يدل على أن المؤلف كان دائم البحث في المواضيع التي يتوفر على كتابتها وبحثها .

هذه ملاحظات عابرة رأيت أن أذكرها ونحن أمام هذه المكتبة التي خلفها العطار من المؤلفات والتي يمكن تقسيمها الى :

١ ـ كتب اسلامية تدافع عن الاسلام ضد أضاليل العصر وأكبر هذه الضلالات الشيوعية التي أكرم الله تعالى العالم كله بمشاهدة انهيارها وفضح أكاذيبها بعد أن احتلت العالم إلا القليل حوالي السبعين عاماً ، وللعطار في هذا المجال عشرون كتاباً .

٢ ـ كتب في اللغة تشتمل على تحقيق المعاجم ، وتبويبها وكتابة المقدمات لها ، والدفاع عن اللغة العربية وصلاحيتها لكل عصر ، وللعطار في هذا المجال ستة عشر كتاباً .

٣ ـ كتب أدبية تشمل المقالات والشعر والقصة والنقد والمسرحيات وللعطار في هذا المجال سبعة عشر كتاباً .

٤ ـ الصهيونية واليهود ومؤامراتهم وبروتوكولاتهم ، وهي مشكلة الأمة العربية في هـذا القرن ، وللعطار في هذا المجال أربع مؤلفات .

٥ ـ التراجم وللعطار فيها خمس كتب .

وهكذا نرى العطار لم يترك مجالاً من المجالات إلا وشارك فيه بقلمه وبحثه وعلمه فخلَّف للناس مكتبة شاملة تضم الكثير من فنون العلم والأدب والتاريخ والدين .

ولإكمال ثبت مؤلفات العطار أذكرها هنا كتابين أهداهما إليَّ يرحمه الله قبل وفاته ولم أجدهما ضمن ما نشرته المدينة وهما بين السجن والمنفى وقد صدر في مكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ الموافقة لسنة ١٩٨١م ، ومحمد رسول الله تحاربه قوى الشر والتخريب ، وقد صدر في عمان سنة ١٤٠٨هـ الموافقة لسنة ١٩٨٨م وأشرفت على طباعته وتصحيحه واخراجه زوجته مزين

(١) صقر الجزيرة مقدمة الكتاب ص ٧ .

خالد حقي بعد أن تأثر نظر العطار بعد اصابته بالجلطة وفقد نظره الى أن أكرمه الله بالشفاء جزئياً من هذه الاصابة ، وكانت زوجته تعني به وتقرأ له الصحف والكتب ، ويملي عليها ما يريد كتابته(١) .

هذا هو العطار الكاتب المؤلف اللغوي المؤرخ ، الذي تفرَّغ للبحث والدرس والكتابة والتأليف والنشر فترك وراءه مكتبة حافلة في شتى العلوم والفنون والأدب .

جائزة الدولة التقديرية :

وقد منح العطار جائزة الدولة التقديرية في سنة ١٤٠٤ هـ(٢) وهو يستحقها بكل جدارة وقد تبرع العطار يرحمه الله بقيمة الجائزة في السنة التي منحها فيها للمجاهدين الأفغان وكانت حرب تحرير أفغانستان قائمة على أشدها إذ ذاك .

العطار الصحفي :

أسس العطار جريدة عكاظ سنة ١٣٧٩ ، وحينما تحولت الصحف الى مؤسسات انشئت مؤسسة عكاظ للصحافة وهي من أنشط الصحف اليومية ، تُصْدرُ جريدة عكاظ باللغة العربية وسعودي جازيت باللغة الانجليزية ، وتعتبر جريدة عكاظ من أكثر الصحف اليومية توزيعاً ، ولها قراء كثيرون .

والى جانب جريدة عكاظ أسس العطار مجلة كلمة الحق الاسلامية التي أصدرها سنة ١٣٨٦ هـ (٣) .

ويبدو أن هذه المجلة لم تستمر طويلا ، ولا أعرف شيئا عن أسباب توقفها والمدة التي استمر صدورها .

العطار الشاعر :

وللعطار ديوان شعر وحيد سماه الهوى والشباب ظهرت طبعته الاولى سنة ١٣٦٢ هـ وقدمه الدكتور طه حسين بمقدمة أثنى فيها على الديوان قال فيها :

وجدت في شعرك من رصانة اللفظ وعمق المعنى ، وعذوبة الموسيقى ، وحسن الانسجام وحرارة العاطفة وصدق الشعور ما أذكرني عهوداً لم أنسها ، ولن أنسها بل لم أفارقها ولن أفارقها لأنها قوام الحياة الأدبية لكل أدب عربي ، وهي عهود الشعر الحجازي حين كان غض الشباب خصباً من جميع نواحيه(٤) .

---

(١) المدينة المنورة العدد ٨٦٧٢ ، ٢٧ رجب ١٤١١هـ .
(٢) جريدة المدينة المنورة العدد ٨٦٧٢ ، ٢٣ رجب ١٤١١هـ .
(٣) جريدة الشرق الأوسط العدد ٤٤٥٧ ، ١٩٩١/٢/١٠م .
(٤) الهوى والشباب ص ١١/١٠

وأعاد العطار طبع ديوانه هذا سنة ١٤٠٠هـ الموافقة لسنة ١٩٨٠م ، ولكن العطار انقطع عن الشعر مشتغلاً بالتآليف الكثيرة والمباحث المتنوعة التي ملأت أيامه ولياليه .

صلة العطار بأدباء عصره :

كان للعطار يرحمه الله نشاط عظيم في الاتصال بالأدباء الكبار في مصر ، ومن أبرز هذه الاتصالات صلته بالعقاد التي سنتحدث عنها بعد ، وقد أثمرت صلاته هذه أعمالاً أدبية فاشترك مع الاستاذ/ محمد عبدالسلام محمد هارون في اخراج تهذيب الصحاح للزنجاني وكتب له العطار مقدمة ضافية ، وقام بطبعه ونشره معالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله ، واذا كانت صلة العطار بأدباء عصره أنتجت عملاً أدبياً ولغوياً نافعاً ، فان بعض هذه الصلات أوصله الى السجن .

فقد كان على صلة بالكاتب المصري المسيحي سلامة موسى ، واتهم العطار بسبب هذه الصلة وما يشبهها بأنه ينشر دعايات ضارة ضد المملكة وحكومتها ، وسجن بسبب ذلك وأبعد عن البعثة السعودية في مصر وحرم من التعليم الجامعي ، وكتب العطار في آخر سني حياته كتاباً عن هذه الواقعة سماه بين السجن والمنفى ، وهو من أمتع الكتب بما يحويه من عفوية وبساطة وسلاسة في الاسلوب .

صلة العطار بالعقاد :

كانت صلة الاستاذ أحمد عبدالغفور عطار ـ يرحمه الله ـ بالكاتب والأديب العبقري الكبير الاستاذ/ عباس محمود العقاد صلة حميمة بلغت حدَّ انهما اشتركا في تأليف كتاب اسمه « الشيوعية والاسلام » صدرت طبعته الاولى سنة ١٣٧٦هـ الموافقة لسنة ١٩٥٦م وطبع مرة ثانية سنة ١٣٩٢هـ الموافقة لسنة ١٩٧٢م .

ولا أريد أن أتعرض لحقيقة الأمر في هذا الكتاب وهل شارك الاستاذ/ الكبير عباس محمود العقاد في تأليفه مع الاستاذ/ العطار ، أم أنه وضع اسمه على غلاف الكتاب من قبيل المجاملة التي تقتضيها الصداقة الحميمة بينه وبين العطار ولكن قبول العقاد بوضع اسمه على الكتاب مع العطار هو أعظم دليل على صلة الطرفين وعلى ما يكنّه كلٌّ منهما للآخر من مودة وتقدير .

وقد حدثني العطار ـ يرحمه الله ـ كيف بدأت صلته بالعقاد قال :

بعد وفاة زعيم مصر الكبير سعد زغلول ـ يرحمه الله ـ أصدر العقاد كتابه المعروف عن سعد زغلول في سنة ١٩٣٦ الموافقة لسنة ١٣٥٥هـ .

كان العقاد من الكتاب المقربين الى الزعيم الراحل ، وكان يحظى منه بالتأييد وكان

اعجاب سعد بالعقاد كبيراً حتى لقبه بالكاتب الجبار ، وقد أشار العقاد الى هذه التسمية في رثائه لسعد حيث يقول في قصيدة طويلة مطلعها :

أمضت بعد الرئيس الأربعون ... كيف بالله اذاً تمضي السنون

ويخاطب العقاد سعداً فيقول :

أنا جَبَّارُكَ لا تعهدني ... ذلك الجبار في الدمع السخين

أصدر العقاد كتابه في الوقت الذي ثار الخلاف بين زعيم مصر مصطفى النحاس باشا ، وبعض أعضاء الوفد بزعامة الدكتور أحمد ماهر والنقراشي باشا ، وانضم العقاد الى المنشقين على النحاس والذين ألفوا فيما بعد حزباً جديداً سموه الحزب السعدي نسبة الى اسم الزعيم سعد زغلول .

وفي الوقت الذي كان يأمل فيه العقاد أن يتخاطف الناس كتابه عن سعد زغلول ، كان العداء بينه وبين النحاس باشا وأعضاء الوفد قد استشرى فأثَّر هذا العداء على الكتاب ، وربما امتنع الكثيرون من أعضاء الوفد وأشياعهم عن شراء الكتاب خشية إغضاب النحاس باشا .

في هذا الوقت بالذات وصل العطار الى مصر وزار العقاد في بيته وعرف الموقف بالنسبة للكتاب ، والحالة النفسية التي يتعرض لها العقاد بسبب الخصومة مع النحاس باشا .

يقول العطار :

خرجت من منزل العقاد وذهبت لزيارة الشيخ عبدالله السليمان الحمدان وزير المالية السعودية الأسبق الذي كان يزور مصر وذكرت لمعاليه أن الاستاذ/ عباس محمود العقاد قد أصدر كتابا قيِّماً عن زعيم مصر الراحل سعد باشا زغلول ، ولم يخرج العطار من مجلس الشيخ عبدالله السليمان إلا وفي يده مبلغاً لعله مائتي جنيه مصري وكان الجنيه في ذلك الزمان جنيهاً ورجع الى العقاد ليسلمه المبلغ ويخبره أن الشيخ عبدالله السليمان الوزير السعودي يقدمها لشراء كمية رمزية من كتاب سعد زغلول وسُرَّ العقاد كثيراً بهذه البادرة التي قام بها العطار ، فأثَّرتْ في نفسه أعظم تأثير ، وكانت هي البداية للصداقة الحميمة بين الرجلين .

العطار ينتصر للعقاد :

ولقد كان إعجاب العطار بالعقاد عظيماً الى حدٍّ أنه كاد أن يحرج الشيخ محمد سرور الصبان مع الدكتور طه حسين بسبب انتصاره للعقاد ضد طه حسين ، وتفصيل الموضوع ان معالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله أقام في منزله بمكة المكرمة حفلاً لتكريم الدكتور طه حسين الذي حضر للزيارة أو للحج في ذلك العام ، ودعى لهذا الحفل علماء المملكة وأدباءها وكثيراً من الحجاج الزائرين للبلاد المقدسة .

وخطب الخطباء في الحفل معبرين عن شعورهم بلقاء الأديب الكبير أو عميد الأدب العربي كما كان يسمى يرحمه الله ، وقام العطار لا ليذكر محاسن المحتفى به ، وإنما ليدلي برأيه في الخصام الذي كان مستعراً في ذلك الوقت بين العقاد وطه حسين وكانت مجلة الرسالة تنشر للأديبين الكبيرين مقالاتهما النارية ضد بعضهما البعض وكان عنوان هذه المقالات « لاتينيون وسكسونيون » واللاتينيون هم الذين درسوا في فرنسا وطلبوا العلم في جامعاتها ، فاتسمت ثقافتهم بهذا الطابع الفرنسي الذي عبر عنه باللاتينية والذي كان يمثله الدكتور طه حسين يرحمه الله ، أما العقاد فقد كان يتقن اللغة الانجليزية وقد قرأ الكثير من مؤلفات الشعراء والعلماء والأدباء والمؤرخين بهذه اللغة « السكسونية » فنسب اليها في هذا الخصام بينه وبين طه حسين باعتباره يمثل الطرف السكسوني أو الانجليزي بحكم ثقافته في هذه اللغة .

كنت أنا والاستاذ/ محمد حسين زيدان نجلس الى مائدة واحدة في حديقة منزل الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله حينما قام العطار وألقى خطابه المكتوب ينتصر للعقاد ضد طه حسين ، وشعرنا أنا والزيدان بالحرج مما فعله العطار ، ولعل الشيخ محمد سرور الصبان شعر بحرج أكثر ، ولكن طه حسين يرحمه الله لم يلبث أن نهض للرد على كلمات الخطباء وخصص الجزء الأكبر من خطابه للرد على كلمة العطار ، وكان الرد بليغاً ، وقد كتب محمد حسين زيدان يرحمه الله في اليوم التالي في جريدة البلاد السعودية يصف الموقف ويلوم العطار على فعلته ، لأن المقام لم يكن ليسمح له بفعل ما فعل .

أردت من سرد هذه الحادثة أن أذكر أن العطار كان في اعجابه بالعقاد قد ذهب بعيداً حتى سمح لنفسه بالاقدام على نقد طه حسين في حفل أقيم لتكريمه في مكة المكرمة بعيداً عن مصر وعن العقاد وفي موقف هو موقف التكريم والاشادة .

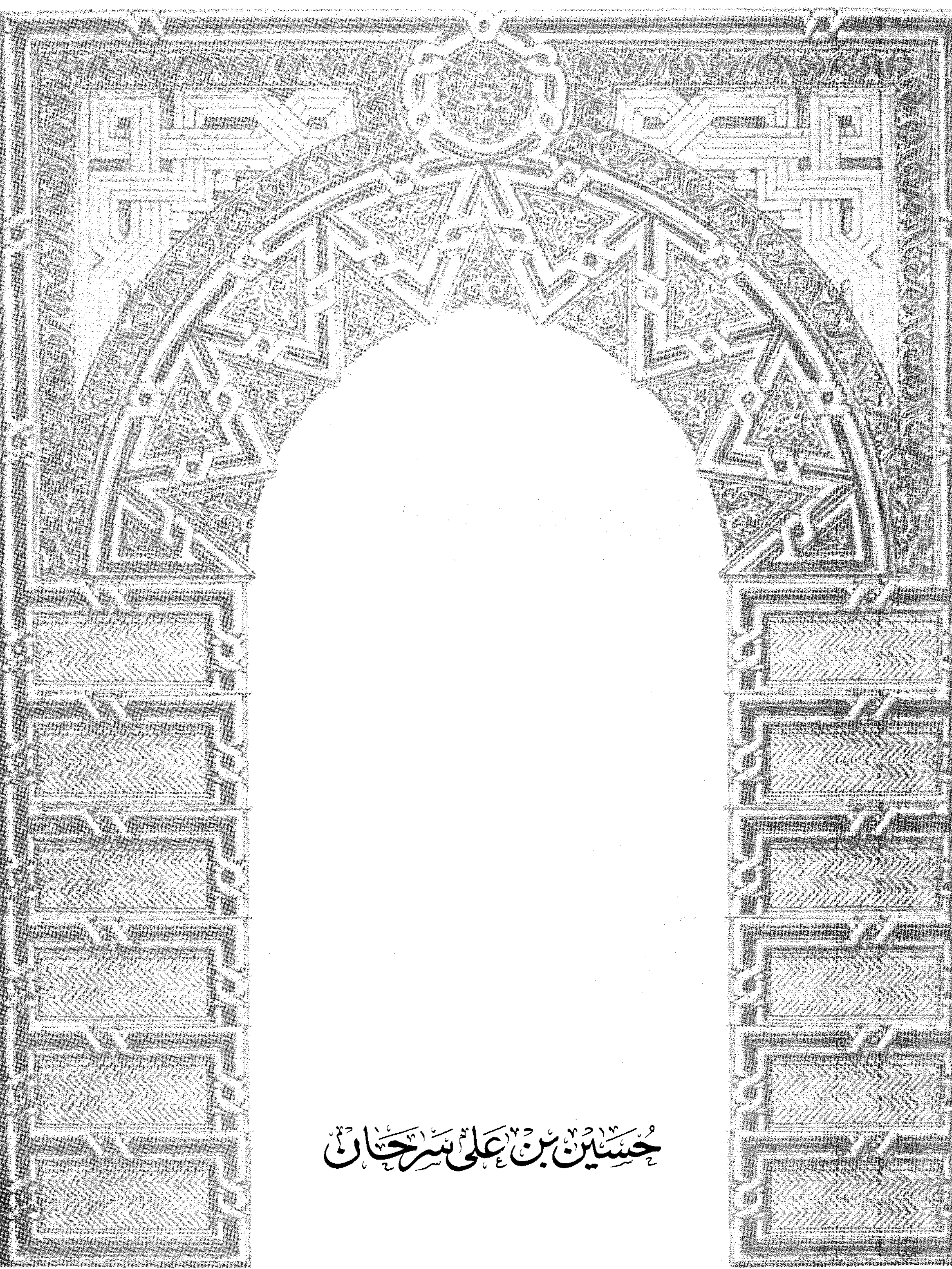
الأيام الأخيرة في حياة العطار :

مرض العطار وانتقل الى جدة وعصر يوم من الأيام اتصل بي يرحمه الله وسألني عن تسمية الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه بذي النورين ، فأحلته الى كتابي « عثمان بن عفان ذو النورين » ، وكنت أهديته اليه حين صدوره كما أفعل بجميع مؤلفاتي ، ويفعل هو يرحمه الله باهدائي مؤلفاته حين صدورها ، ورأيت أن أرسل اليه الكتاب مع بعض كتبي الأخرى ، وسألته عن محل اقامته لأرسل اليه الكتب ولأقوم بزيارته ، وتفضلت زوجته الفاضلة باخباري عن العنوان ، وأرسلت اليه كتاب عثمان بن عفان ومجموعة من كتبي الأخرى ، وبعث اليَّ مع الرسول بعض آخر مؤلفاته مسجلا اهداءه عليها بخطه الجميل ، وكان يتقن الخط كما يتقن فنون كثيرة أخرى مضمناً الاهداء مشاعره الكريمة وجميل تقديره .

وكنت على عزم الذهاب لزيارته في جدة حينها اتصلت بي صحيفة البلاد ونعته اليَّ يرحمه الله ، فقد توفي الى رحمة الله تعالى يوم الجمعة ١٧ رجب ١٤١١هـ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين عاما تغمده الله برحمته الواسعة ، وأسكنه فسيح جناته .

وأرجو أن يوفق الله تعالى أبناء الفقيد الى طبع ما ترك من الكتب المخطوطة وفاءاً بحقه وتكريماً لذكراه ، والله ولي التوفيق .




حسين بن علي سرحان



حسين بن علي سرحان

حسين بن علي سرحان

بدوي الطلعة ، أصفر الوجه ، نحيف البدن ، كبير الرأس ، أقرب الى القصر منه الى الطول ، حليق اللحية والشارب والعارضين ، تبدو في وجهه سيماء الشموخ ، وليس هو بالمتعالي ولكنه لا يحفل بما تعارف عليه الناس من احتفاء بالمظاهر ، وإكبار للمناصب فهو يعيش في دنيا خاصة من أفكاره .

ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٤هـ أو سنة ١٣٣٢هـ على اختلاف بين الروايتين .

وتلقَّى تعليمه الابتدائي في الكتاتيب في المعابدة ، ثم انتقل للدراسة في المسجد الحرام على يد الشيخ محمد العلي التركي ، فمكث عدة أشهر يتلقى عنه دروسه في الفقه والتفسير والفرائض ، وبعض علوم اللغة العربية ، ثم أشار عليه الشيخ التركي بالانتظام في مدرسة الفلاح ، فالتحق بها ، وبقي بها لمدة عام ونصف العام من عام ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩هـ ، وترك المدرسة وهو في الصف السابع الابتدائي دون أن يحصل على الشهادة الابتدائية(١) .

قرأ حسين سرحان الكثير من أمهات الكتب العربية شعراً ونثراً ، وقد استقبلني في بيته بمكة في محلة المعابدة في مجلس تكتظ رفوفه بالكتب ، فأدركت لأول وهلة أن حسين سرحان أديب يستمد ثقافته من منابع الأدب العربي الأصيل ، وكان هذا اللقاء في أواخر الخمسينات وهو في الرابعة والعشرين من العمر ، وكان الى جانب هذا وذاك يطالع الصحف ويقرأ أحدث ما تخرجه المطابع من مؤلفات أدباء العصر ، فكان يجمع في ثقافته بين قديم الأدب وحديثه(٢) . وكان للبيئة التى يعيش فيها تأثيرها فى تكوين شخصيته فهو كما جاء فى التعريف به في آخر مؤلفاته ينتسب إلى قبيلة الروسان من المراوحة من طفيح من برقا من عتيبة من هوازن(٣) .

(١) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ١٥/ ١٩ .

(٢) حديث عبدالله بلخير بجريدة عكاظ بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٤١٣هـ .

(٣) الصوت والصدى التعريف بالشاعر في الغلاف الأخير .

وكان أبوه علي بن سرحان من حاشية سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز النائب العام لوالده الملك عبدالعزيز في الحجاز « ملك المملكة العربية السعودية « فيما بعد ، وكان يسكن في محلة المعابدة ، وهي محلة بظاهر مكة المكرمة تتميز بالسمات البدوية لسكانها الذين يأخذون بأسباب الحضارة ومظاهرها ، ويحتفظون في نفس الوقت بإباء البادية وخشونتها .

نشأ حسين سرحان في كنف جده لأمه عبيدالله بن سرحان لأن والده كان يعيش في نجد ، وكان جده عمدة لمحلة المعابدة ، وكان في نفس الوقت يَتَّجِرَ في الماشية وله أغنام يشرف على رعيها وبيعها ، ونشأ الشاعر في هذه البيئة البدوية فمارس في صباه ما كان يمارس جده وتمارسه القبيلة من رعي الأغنام والاتجار فيها بيعاً وشراءاً ، وكان جده ينتجع الرصيفة وهي في الجنوب الغربي لمكة ، فيقضي مع أسرته ومن يلوذ بهم شهوراً عديدة يصِّيفون بها ، وقد استمر يحيا هذه الحياة البدوية الى ما قبل البلوغ بقليل[١] .

وقد وصف حسين سرحان نفسه أصدق وصف في هذا البيت :

بدوي طبعٍ عنجهيٌّ سليقةٍ وكأنني منْ قد نماه مُكدَّمُ[٢]

عاش حسين سرحان في بحبوحة من العيش في ظل جده ، فلم يبحث عن وظيفة يعيش منها أو يعين أهله بما تدره عليه ، كما كان الحال بالنسبة لكثير من أترابه وزملائه في ذلك الزمان .

ووجد الوقت أمامه فسيحاً للقراءة والاطلاع ، والتفرغ للشعر والأدب .

كان أبوه من حاشية النائب العام الأمير فيصل بن عبدالعزيز الذين يطلق عليهم مسمى ـ الخويا ـ وحينما شب ابنه حسين التحق بالحاشية وأصبح من الخويا ، واستمر على هذه الصفة فيما بعد ، وكان من مقتضيات الخويا اجادة الرماية ، وحمل السلاح خاصة في الأوقات التي يرافقون فيها الأمير في رحلاته ، ورافق حسين سرحان سمو الأمير فيصل في رحلات متعددة الى ليَّة ثم الى الخرجة ، والى العتمة[٣] .

وفي عام ١٣٦٢ وحسين سرحان في الثلاثين من العمر التحق بأول عمل رسمي له فقد دعاه الشيخ عبدالله السعد ليعمل في فرع مصلحة اللوازم العامة بالطائف ، ولم يكن راغباً في الوظيفة ، ولكنه وقد رأى نفسه يبلغ الثلاثين من العمر دون ارتباط بعمل يدر عليه دخلا ،قبل العمل الذي عرض عليه ، وقد وصف شعوره بعد ارتباطه بالوظيفة في قصيدة عنوانها « الموظف الجديد » سنتحدث عنها حينما نتحدث عن أبواب الشعر في دواوين حسين

(١) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ١٧ .
(٢) أجنحة بلا ريش ١٦٦ .
(٣) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ٢٢ .

سرحان ، ومن هذه القصيدة نعرف أنه انتظم في سلك الوظائف مكرهاً ولم تكن الوظيفة صالحة له ، ولم يكن هو بحكم طباعه ، وما درج عليه في حياته صالحاً لها ، ولكنه اضطر اليها .

ومن اللوازم العامة انتقل الى الادارة العامة بوزارة المالية بوظيفة سكرتير في سنة ١٣٧٠هـ ، وربما كان لصفته الأدبية دخل في اختياره هذا العمل ، وبعد العمل في وزارة المالية انتقل الى ادارة شؤون الحج ، ولعلّ لصداقته بالاستاذ الشاعر أحمد قنديل يرحمه الله أثر في هذا الانتقال ، فقد كان القنديل مديراً لادارة شؤون الحج ، وحينما انتقل من ادارة الحج الى عمل آخر وجه لصديقه القنديل قصيدة فيها دعابة .

ثم انتقل الى مشروع توسعة الحرم المكي الشريف ثم عمل بعد ذلك في مطبعة الحكومة ، ثم استقال أخيراً وآوى الى الراحة(١) .

لم يحقق حسين سرحان في عمله الوظيفي ماكان خليقاً بمثله أن يحققه ، من علو مركز أو نباهة ذكر وخفض عيش ، فلم يكن مهيئاً للعمل الوظيفي ، ولم تكن طموحاته في مجاله ، فبقي في الوظائف الكتابية التي لم يبلغ مرتبها الشهري الألفي ريال حتى أحيل الى التقاعد ، وكان راتبه التقاعدي أقل من هذا .

يقول صديقه العلامة الشيخ / حمد الجاسر :

ولولا نظرة كريمة من أولي الأمر نحو حالته لعاش عيشة فقر وبؤس فقد أكرموه أكرمهم الله بزيادة راتبه التقاعدي وبقضاء دينٍ لحقه حين بنى بيتاً(٢) .

الى جانب العمل الحكومي كانَ لحسين سرحان حضور واضح في الصحافة : كان ينشر قصائده الشعرية في جريدة أم القرى منذ عام ١٣٤٩هـ .

وحينما ظهرت صحيفة صوت الحجاز سنة ١٣٥١هـ كان ينشر فيها القصائد والمقالات واستمرَّ في نشر انتاجه الأدبي بها بعد أن أصبح اسمها البلاد السعودية ، وقد اشترك في تحرير هذه الصحيفة حينما كان يرأس تحريرها الاستاذ/ عبدالله عريف يرحمه الله ، كما أشرف على الصفحة الأدبية في نفس الجريدة بعد أن صار اسمها البلاد ، وكان ينشر انتاجه الأدبي في الصحف الأخرى عكاظ ، والمدينة ، والندوة ، والمنهل ، وقريش(٣) .

وفي الآونة الأخيرة كان ينشر مقالات قصيرة في جريدة الرياض(٤) .

ولابد أن يكون هذا النشر بإلحاح من أصدقائه ، لانه آثر الانزواء التام والبعد عن المجتمع في السنوات الأخيرة ، كما يفهم ذلك من أحاديث أصدقائه المقربين .

---

(١) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ٢٢ .

(٢) ذكريات حمد الجاسر المنشورة في جريدة الشرق الأوسط العدد ٥٢٦٧ بتاريخ ١٩٩٣/٤/٣٠ الموافقة ٩ ذو القعدة ١٤١٣هـ .

(٣) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ٢٣ .

(٤) جريدة الرياض العدد ٩٠٧٥ بتاريخ ٨ ذو القعدة ١٤١٣هـ .

هذه هي سيرة حسين سرحان العملية في الحياة ، وقد آن لنا أن ننظر في شعره لنقرأ فيه ما أراد هو أن يقوله عن نفسه ، فهو أعرف بها من الناس ، ولا ينبئك مثل خبير .

مؤلفات حسين سرحان :

أصدر حسين سرحان ثلاث دواوين شعرية .

- أجنحة بلا ريش طبع الطبعة الاولى سنة ١٣٨٩ ، والطبعة الثانية سنة ١٣٩٧ هجرية .
- الطائر الجريح .
- الصوت والصدى ، طبع سنة ١٤٠٩ هجرية .
- أوزان في الميزان مخطوط .
- مجموعة مقالات أصدرها النادي الأدبي بالرياض .
- الأدب والحرب مجموعة مقالات أصدرها النادي الأدبي بالطائف .

وهناك مجموعة أخرى من المقالات والقصائد يجري اعدادها للطبع .

أول ما يطالعك من ديوانه الأول أجنحة بلا ريش قصيدة عنوانها لا أبتغي إلا التفاتاً .

هذه القصيدة شهدت ميلادها اذا صح هذا التعبير ، ولعها من بواكير شعره فان تاريخها يعود الى عهد الشباب الى النصف الثاني من الخمسينات في القرن الرابع عشر الهجري .

كنا جماعة من الشباب نجتمع أصيل كل يوم في محلة قروة بالطائف في الفضاء الفسيح أمام القشلة ـ الثكنة العسكرية في الطائف ـ وكان حسين سرحان عضواً في هذه الجماعة ، وكانوا جميعاً من أدباء الشباب ، وكانت أحلام الشباب وآماله تتدفق في مشاعرهم ، وتجري على ألسنتهم .

وذات مساء دعوت حسين سرحان يرحمه الله الى منزلي ، وتحدَّثنا ، وقرأ عليَّ القصيدة وهي موجهة الى صاحب السمو الأمير فيصل النائب العام لجلالة والده الملك عبدالعزيز في الحجاز يرحمهم الله جميعاً ، وأعجبت بالقصيدة ، بموسيقيتها المتمثلة في القافية النونية المتبوعة بالهاء ، وكأنها رنين الوتر ، وبمعانيها الجميلة الأنيقة والتي تبدأ بهذه الأبيات :

يـــامن أود لـــو أنني ســـوط تحـــركـــه يمينـــه
وأود لـــو أني عقيـــدتـــه المكينـــة أو يقينـــه
وأود لـــو أني هُـــداه اذ ارســـا فيـــه مكينـــه
وأود أني ظله أحمي خـــــطاه ولا أدينـــــه
وأود أني سيفـــه أردي عـــداه ولا أخـــونـــه

ومنها : وأود لـــو أني المنـــام لـــه اذا أرقتْ جفـــونـــه

ومنها : وأود لـو أني كتـاجٍ زانـه فيـها يـزينـه[1]

وقلت : لحسين هل قدمت القصيدة لسمو الأمير فيصل . . . ؟

قال : لا

قلت : أسرع بتقديمها اليه فانها قصيدة رائعة وستحلُّ من نفسه محلاً حسنا .

وذهب حسين سرحان وقدَّم القصيدة لسمو الأمير فيصل يرحمه الله وأبدى اعجابه بها وجاء حسين وقصَّ عليَّ القصة ، واتفقنا أن نغتم هذه القصة لنتقدم بطلب الإذن لنا بإصدار مجلة أدبية .

وقلت : لحسن تقدم أنت بطلب الإذن فلعل صلتك بسمو الأمير فيصل تجعل له قبولاً .

وتقدم حسين سرحان بالطلب ولكن الإذن لم يصدر .

أذكر هذه القصة بعد أن مضى عليها أكثر من خمسة وخمسين عاماً ، وأعود الآن الى القصيدة نفسها التي نظمها حسين سرحان وهو في منتصف العشرينات ، فأجد أن هذه القصيدة لا تصدر إلا عن شاعر أسلست له أعنة الشعر قيادها ، فتدفقت فيها الصور الشعرية ، رائعة وضاءة لتستولي على القارىء بموسيقيتها العذبة الرنين .

واذا كانت هذه القصيدة التي نظمها في عنفوان شبابه بهذا المستوى من الابداع والاجادة ، فقد كانت مؤشراً لما سيكون عليه حسين سرحان في دنيا الشعر في قابل الأيام .

ولقد لاحظت أن المبدعين في جميع الفنون تظهر آثار ابداعهم في سن مبكرة فكأن الموهبة تولد مع الانسان ثم تصقلها الأيام .

وحسين سرحان شاعر يذكرك شعره بالصور الشعرية التي تحفل بها دواوين فحول الشعراء في العصرين الأموي والعباسي .

فقد أكبَّ على قراءة هذه الدواوين ، فانطبعت صورها الشعرية الرائعة في ذهنه ، وأثرت موسيقيتها في نفسه ، ومكَّن لهذا الأمر حياته الشخصية التي تتصل بالصحراء وحياة البادية .

يقول في قصيدة النأي :

قضى الـدهـر مـا بيني وبينـك بـالـذي
قضـاه فـانـآك افـتراقُ وانـآني

تُيَمِّمُ بي سيـارةٌ نحـو مكـة
وسِـرْتَ عـلى الخـوص النـواجي لنجـران

فـاشْمَلْتَ إذ أَجْنَبْتُ يـا بُعْـدَ فـرقـد
تحـدَّاك طـولاً بيننـا وتحـدَّاني

---

(١) اجنحة بلا ريش ص ١٥/١٦ .

فيـــا بعـــد مجـــرى العـــين عن بئـــر عسكـــر
وأين كـــــداءٌ عن سبـــــاسب ظهـــــران
اذا أعنقت فيهـــا المـــطايـــا تـــطالعت
وحَنَّتْ بـــــارزامٍ مُلحٍّ وَارْنـــــانِ

هذه الصورة للمطابا وهي تَحِنُّ بارزام وأرنان هي صورة لاعرابي فارق حبيبته فسارت شمالاً وسار هو جنوباً ، وهذا البيت الذي يقول فيه :

فـاشملت إذ أجنبت يـابعـد فـرقـد   تحـداك طـولا بيننـا وتحـداني

هذا البيت يذكرني بصورة مشابهة وردت في شعر عمر بن أبي ربيعة يقول فيها :

أيهـا المنكـح الـثريـا سهيـلا   عمـرك الله كيف يلتقيـان
هي شـاميـة اذا مـا استهلت   وسهيـل اذا استهـل يمـاني

وابن أبي ربيعة يكني بنجوم السماء لأن الحبيبة اسمها الثريا .

ومن الصور البدوية التي يحفل بها شعر حسين سرحان قوله في ذكريات هوى :

وثبت وثبـة كـدري عـلى قُلَلٍ   من الجبـال طـوال فـوق اثبـاج[1]

انه هنا ينجو بنفسه هارباً فيثب كما يثب طائر القطا على قمم الجبال .

ويقول في وصف النيل :

والنيـل بـاركـه الآلـه   اشمَّ مَـطَّرِدُ القـوام
ان مـرَّ سبْقـا كـالجـوا   دوان تـلألأ كـالحسـام[2]

ووصف النيل بالجواد الأشم في جريانه ، وبالحسام في تلألئه ولمعانه من أجمل ما توصف به الأنهار والبحار ، ولكنها صور بدوية تبدعها مخيلة فارس بدوي شاعر .

وأمثال هذه الصور كثيرة ، ولسنا هنا في مجال الاستقصاء ، وإنما نقدم المثل لايضاح الصورة .

حسين سرحان الموظف :

وصف حسين سرحان نفسه ، وسخر منها بعدما مارس عمله موظفاً في ـ قلم اللوازمات ـ التابع لوزارة المالية في الطائف فقال في قصيدته الموْظف الجديد .

أصبحت في قلم اللوازم   كـالغـلام مُسَخَّـرا
قـد بعت أربـح بيعـة   وشريت اغبن مشـترى
يسعى الـزمـان الى الامـا   م وانت تسعى القهقـرى

(١) أجنحة بلا ريش ص ٤٨ .
(٢) أجنحة بلا ريش ص ٥٤ .

ومنها :

كنت الـــطليق تجـــرُّ ذيلك ... فـــوق مـــرتفـــع الـــذرى
كـــالـــبرعم النشـــوان يـــأرج ... في الصبـــــاح منـــــورا
كـــالبلبـــــل الصداح ... يـــوقظ بـــالغنـــاء ذوي الكـــرى

ثم يقول :

مـــابـــال نفســـك مُرَّةً ... واديم قلبـــك مقفـــرا
تهتـــاج مثـــل الثـــور يـــو ... م يـــرى الـــرداء الأحمـــرا
اتـــراك حـــين وقعت في ... الشرك المَعـــدِّ مخـــيرا
أم كنت تسخـــر بـــالـــزمـــان ... وبـــالمكـــان وبـــالـــورى

ويصف السرحان وصول الرئيس الى الادارة :

واذا جـــــرى الجلواز يوْ ... مـــاً قلت ويحـــك مـــا جـــرى .؟
قـــال الـــرئيس أتى ... فقمت مهلِّلاً ومكـــبرا
ونفخت زقـــا فـــارغـــا ... ورفعت صـــوتـــا منكـــرا
وضحكت واستنجـــدت ... نـــابـــا أســـودا أو أصفـــرا
هـــذا عقـــابـــك يـــا حســـين ... صـــبرت أم لم تصـــبرا[1]

لقد ذكرت أن حسين سرحان لم يلتحق بالوظيفة إلا بعد أن بلغ الثلاثين من العمر ، كان يحيا حياة طليقة من أغلال الوظيفة ومراسمها ، يفعل بأيامه ما يشاء دون حسيب أو رقيب ، ولابد أنه كان مكفيَّ المؤونة بما يوفره له والده الذي كان من حاشية الأمير فيصل بن عبدالعزيز ، وكذلك كان هو من الحاشية أو « الخوايا » كما اصطلح على تسميتهم ، ولهذا عاش حياة حرة لا تعرف قيود الوظيفة ، ولا ما يجب لها من التزام ، فلما اضطر اليها أدرك بطبيعته الساخرة ، وبما غرس في طبعه الشامس من اعتزاز أنها لا تصلح له ولا يصلح لها ، فصوَّر حاله ومشاعره في الوظيفة الجديدة .

وفي تصوري أن حسين سرحان كان مضطراً الى دخل ثابت يقيم به شؤون نفسه وأسرته فهو يصف حاله وحال أسرته وهم ينتقلون من دار الى دار في مقطوعة صغيرة بعنوان ايجار الدار .

دائن جـــــاء يبتغي ايجـــــاره ... بعـــد أن أسبـــل الـــدجى أستـــاره
ومضى العـــام شرَّ عـــامٍ وقـــد ذقنـــا الـــرزايـــا في حـــارةٍ بعـــد حـــاره
كـــل عـــام يـــزيـــد عـــما مضى في اجـــرة الـــدار كـــالـــريـــاح المثـــاره

(١) اجنحة بلا ريش ص ١٥٧/١٥٨ .

رب كـــوخ أركـــانــه مـــائــلات وهـــو في سعـــره كـــدار سفـــاره
المئـــات المئـــات مـــاذا ؟ أنـــرمي الأهـــل من رأس شـــاهق أو منـــاره
أم تـــرانـــا نعـــود كـــالعـــرب الـــرحـــل والنـــاس هـــرولـــوا للحضـــاره
بـــين رسم عفى ونؤي تبـــدَّى وبعـــير شمـــردل وحمـــاره[1]

وقد وصف حسين سرحان حاله بعد أن قضى عامه الأول في الوظيفة في قصيدة عنوانها « تورطت » يقول فيها :

تـــورطت فيهـــا بعـــد طـــول تمنُّـــع وكنت مثـــال الحـــازم المـــترفـــع
منـــاصب يـــرقـــاهـــا وضيـــع فيعتـــلي بهـــا ويلقـــاهـــا جهـــول فيـــدَّعي
ويحسب انَّ النـــاس من طـــوع أمـــره بغلوة سهم أو بمقعـــــد أصبـــــع
وتصقله حتى يكـــــون كيلمـــــع وتنفخـــــه حتى يـــــظل كلعلع
وتـــبرز فيـــه من خفـــايـــا غـــروره أفـــانـــين من بعـــد الـطوى والتسكـــوع

وبعد هذه الأبيات الذي يصف فيها ما تفعله الوظائف ببعض أربابها يقول عن نفسه :

ومـــا أنـــا من طـــلابهـــا أو هـــواتهـــا فـــان تَلْحَيني فـــالْحَ القضـــاء اذن معي
دفعت اليهـــــــا لم تكن لي حيلة ولا رأيَ فـــاعـــذرني والا فقـــرِّع
عبـــوديـــة شنعـــاء يمقتهـــا الفتى ويفني بقلب عن هـــواهـــا مشيـــع

ثم يصف ما كان حاله قبل الوظيفة فيقول :

وقـــد كنت عنهـــا غـــانيـــاً بـــين مـــونق من الكتب اصفيـــه الـــوداد ممتـــع
أحـــادث فيهـــا الجـــاحظ الفـــذ تـــارة وآونـــــة اصغي الى ابن المقفـــــع
فكيف قبلتُ القيـــــد ارسف تحتـــــه بخيـــلا بـــاحســـاسي سخيـــاً بـــادمعي
وكيف أرى حـــــريتي بعـــــد محبس مقيت الجنى أبصر بـــه ثم أسمـــع[2]

وقد شبه حسين سرحان حاله في الوظيفة بالعيش بين الجن ، بل أنه اعتبر أن العيش بين الجن على سوئه وفظاعته أحسن موقعاً من حاله أو عيشه في الوظيفة يقول :

قـــل للذي جعـــل الـــوظيفـــة همـــه وسعى اليهـــــا سعى ضيغم غـــــاب
العيش بـــــين الجن آنس مـــــوقعـــــا من زحمـــــة الكُتَّـــاب والحُسَّـــاب
هـــذا يجيئـــك بـــاحثـــاً عن نمـــرةٍ ويحـــوم ذاك عـــلى رتـــاج البـــاب
ويســـومـــك الفـــرَّاش شرح رســـالـــة ويـــرومـــك الســـاقي لعـــرض كتـــاب
وتـــظل تحفـــر بـــالـــيراع جـــداولا ولـــوائحـــا ســـودا بغـــير حســـاب
متـــبرمـــاً ممـــا يشق عـــلى النهى متلويـــا من شـــدة الأكبـــاب

(١) اجنحلا بلا ريش ص ١٣١ .
(٢) اجنحة بلا ريش ص ١٥٩ / ١٦٠ .

وترى الرئيس مناوحاً لك قائلا   اشرح وحرر واحتفل بجواب
بيمينه التوقيع يحسب أنه   توقيع قيصر في وغىً وغلاب
واذا أتى الزوار ظلوا برهة   يتلفتون تَلَفُّتَ الهيَّاب

وللقصيدة بقية أبيات وضع الناشر مكانها أصفاراً مما يدل على أن هذه الأبيات مما لا يحسن نشره . (١)

واذا كان لنا أن نقول كلمة في شأن الوظيفة والشاعر فإن سواد الناس ومنهم الأدباء والعلماء يعملون في الوظائف وهي سبيل معاشهم ، ولا ينظرون اليها هذه النظرة الهازئة المتعالية ، ومنهم من يأخذ على مجتمع الوظائف ما قد يكون فيه من غرور بعض الرؤساء ، وانتهازية بعض الزملاء ، وسخف بعض المترددين ، ولكن الحياة تحفل دائماً بهذه الأشكال من الناس ، وباختلاف الطبائع والغايات ، والرجل الحصيف هو الذي يكيِّفُ نفسه مع واقع الحياة دون أن يفقد أصالة الخلق ، ويعامل الناس المعاملة الكريمة اللائقة به وبهم .

لقد كان حسين سرحان يؤثر أن يعيش حياته بين الكتب ، فلا يشارك الناس حياتهم اليومية بما فيها من مضحكات أو مبكيات ، ولكنَّ الحياة ليست بين صحائف الكتب ، وانما هي في زحام المجتمعات .

والغزل عند حسين سرحان غزل حسي اذا صح هذا التعبير ، يصف جمال المحبوبة وصفاً حسياً يذكرك بالمشهورين من شعراء الغزل كعمر بن أبي ربيعة وبشارٍ بن برد ، ولكنك لا تجد فيه وجدانيات الشعراء العذريين المعروفين كعباس بن الأحنف وكثيِّرعزة وجميل بثينه ، يقول حسين سرحان في قصيدة رشأ :

يا بعيني ومهجتي   رشأ طاب محتده
في بني هاشمٍ يقوم   على العزِّ مولده
ناعس الطرف حُلْوُه   ناعم العود املده
اصطفاني بحبه   وصفا لي تــودُّدُهْ
وسقاني بثغره   عَلَلاً لذَّ مورده
قبلا تبعث المنى   بين لحن يردده
نغما رجَّعَتْهُ   منه لهاة تعسجده
لكأني اذا فتحت   له السمع أشهده
رب لحن تراه بالعين رؤيا تجدده
مستعاداً كما استعيد مثال تحدده

(١) اجنحة بلا ريش ص ١٦٣ .

يـــــاحبيبي عشقت حبـــــك لـــــولا مسهـــــده
وعشقت البكـــــاء فيـــــك اذ كنت تسعـــــده
وعشقت الصبـــا الجميـــل يـــرى منـــك امـــرده
وعشقت الجفـــون حبلى بسحـــر تـــولده
وعشقت الـــوصـــال يـــدنو اذا شئت مبعده
وغـــداً ارتجيـــه لـــولاك لم يـــرتغب غده
وزمانـــا تضمنـــا منـــه اذ نلتقي يده
وسهـــادا عـــلى انتـــظارك يحلو تعدده
رب غصن اذا طلعت جفاه تأوده
وخلا من ليانـــه ونآه مُغَرِّده

هذه القصيدة من شعر الغزل تعطينا صورة للشعر الغزلي عند الشاعر ، الغزل الحسي الصريح فالحبيب .

نـــاعس الـــطرف حلوه نـــاعـــم العود املده

وهو قد اصطفى الشاعر بحبه وصفى له الود معه :

وسقـــاني بثغـــره عَـلَلاً لـذَّ مورده
قبلا تبعث المنى بـــين لحن يردده

والشاعر يعشق هذا الحب لولا ما يجره هذا العشق من السهاد ، ويعشق البكاء في الحب اذا كان الحبيب يسعده :

وعشقت الصبـــا الجميـــل يـــرى منـــك امرده
وعشقت الجفون جبلى بسحـــر تـــولده
وعشقت الـــوصـــال يدنـــو اذا شئت مبعده

كل هذه عواطف حسية نفتقد معها المعاني الروحية السامية التي تبعثها عاطفة الحب ، وهي من أقوى العواطف الانسانية وأعظمها تأثيراً في النفوس ، ولكن الشاعر هنا يعبر عن مشاعره ، وهو صادق في هذا التعبير وفي هذا التعبير صور جميلة تلفت النظر فيقول في وصف غناء الحبيبة :

رب لحن تراه بـــالعين رؤيا تجدده

هذا الغناء الذي يحس به السامع يصوره الشاعر رؤيا تراها العين وهو معنى جديد ، وفي بيت آخر يصف الجفون المثقلة بالسحر فيقول :

وعشقت الجفون حبـــلى بسحـــر تولده

والمعنى جديد كذلك إلا أني لا أستسيغ الجفون الحبلى ، حتى وان كانت مثقلة بالسحر

والدلال .

ولحسين سرحان قصيدة أخرى ، ربما كانت من شعر الصبا والشباب يقول فيها :

خـذ من وصـال الغـواني مـا سمحن بـه
وكن خفيفـاً كـدأب العـابث الـراجي
اني اذا مـاقـرعت البـاب بعـد مـدى
فتحتـه وان استعصى بـارتـاج
اذا أدمت الهـوى أمست منـاهله
مشـوبـة من أخـاليـط وامشـاج
. . . .
حتى أعيش بقلب جـد مهتـاج[1]

وقد أمسكت عن اثبات الأبيات التالية ، ولكن القارىء لهذه القصيدة يخرج منها بانطباع من أن قائل هذا الشعر لا يعرف إلا لوناً واحد من ألوان الحب هو هذا اللون العابث النهاز للفرص حيثما أتيح له انتهازها ، واستثناءاً من هذا الرأي أثبت له بيتين يقول فيهما :

مـاهـو الحسن يـاتـرى شفـة رفت وطـرف سبى وعـطف مـالا
انمـا الحسن حـين تعشق نقصـا ثم يمسى من فـرط حب كـمالا[1]

وهذا الذي ذكره حسين سرحان هو الذي كنت أبحث عنه في شعره الغزلي ، الحب الذي يرى النقص في المحبوب فيستحيل من فرط الحب كمالا في عين المحب ، هذا المعنى الانساني السامي . . . ولكنهما بيتان يتيمان اذا صح هذا التعبير ، أثبتهما من باب الأمانة ، ولعل هذين البيتين هما الاستثناء الذي تثبت به القاعدة .

حسين سرحان في بيته :

لحسين سرحان قصيدة نشرت في جريدة صوت الحجاز سنة ١٣٥٤هـ بعنوان «ياابنتي » وهي أول بنت رزقها وهو في مطلع شبابه ، مطلعها :

يـا ابنتي مـا شربت خمـرا من الـراووق أحلى من خَمْرِ فِيكِ واسكـر
لا ولا قـد جنت يـداي من البستـان وردا من ورد خـديـك انضـر

ومنهـا :

يـا ابنتي ان رأيتني اتمنـى عمراً خـالـداً ومـالاً وفـيرا
فهـو من أجـل ان اراك عـلى حـال جميـل فـاغتدى مسـرورا

(١) اجنحة بلا ريش ص ٤٨/ ٥٠ .
(٢) اجنحة بلا ريش ص ١٨٩ .

فــــأماني ابيــــك انت تـدرين بمـــــا في فـؤاده من أمـاني
أنت لا تعـرفــين شيئـــا سوى الثــدي فمصيـــه في رضى وأمـــان

ثم يقول :

يـــا ابنتي أيمــا أحب اليـــك قبلة الأم أم عناق أبيك
لست أدري لكني اتمنى قبلة استمـــــدهــــا من فيك
اتسامى بهــــا الى الفلك العالي فـــاحيا بهـــا وتنعش روحي
هي رمـــــــز الحياة لكنها في كـــبر العمـر رقصة المــذبـوح[1]

والقصيدة تعبر عن مشاعر الأبوة التي تعتلج في صدر الشاعر وهو يستقبل هذه الطفلة التي كانت أول ما رزق من الولد .

وقد رزىء حسين سرحان بفقد ولده الوحيد في حادث سيارة ولكني لم أجد له شعراً في هذا المصاب ، ولعله من شعره الذي لم ينشر ، فليس أقسى من فقد الولد على الوالد وخاصة اذا كان هو الولد بين أخواته البنات ، ويقول أصدقاء حسين سرحان ان الحادث أثَّر في نفسه كثيراً ، ولكني كما ذكرت لم أجد فيما قرأت من شعره المنشور ـ والغير مطبوع شيئاً في هذا المصاب الأليم .

ولحسين سرحان مقطوعة صغيرة في رثاء أبيه يقول فيها :

أنــــا لم أهنـــأ بلقيــــاك أبي لا بــــأهْــلٍ قلت لي أو مـــرحب
كنت مثـــل الشلو ممـــدودا عـــلى ثبج من غمرات الكرب
رد منـــك الـــطرف نحوي فـــاذا فيـــه ايمـــاض كـومض السحب
وجـــــرى منـــه دموع سكبت في فـؤادي أي دمــــــع سكب
أنـــا أخفيـــه ولكـن كذبت مهجة مــا وصمت بـــالكذب[2]

وفي هذه المقطوعة يصف الشاعر حياته مع أبيه الذي كان مبتعداً عنه يقول في مطلعها :

أنــــا لم أهنـــأ بلقيــــاك أبي لا بــــأهْــلٍ قلت لي أو مـــرحب

لقد جاء الأب وقد أثقله المرض فلما وقعت عينه على الابن أومضت ايماضة فاضت منها الدموع دموع الولد والوالد ، ثم كان الفراق الأخير .

(متى أعيش)

ولحسين سرحان قصيدة نشرت في النصف الثاني من الخمسينات مطلعها :

يـــاليت اني بـــلا عم ولا خـــال ولا أحـاط بحساد وعذال

---

(١) شعر حسين سرحان دراسة نقدية ص ٣٨٢ .
(٢) اجنحة بلا ريش ص ٤٤ .

وقد جاءت في ديوان الصوت والصدى وقد تحول المطلع الى :

متى أعيش بـــــلا عم ولا خال ولا أحاط بحساد وعزال

ثم يقول :

قـوم اذا عاش أقـوام بصمتهم عاشوا على رغد بالقيل والقال
والهبوا بالرياح الهوج السنة كـأنهنّ صلالٌ بين ادغال
تبيت تحفر للاعراض هاوية كبرى وتشعل فيها أي اشعال
موكلون بها مستلئمون لها اذا استدارت رحاها ألف سربال
ما النار تشتد في رطب وفي يبس منهم باقسى ولا انكي على حال
بل ليت أنني نبت برابية شجراء يلتف فيها السبع بالضال
يجري السحاب عليها كل محتفل وتسحب الريح فيها أي اذيال

والقارىء لهذه القصيدة يستشف منها ضيق حسين سرحان بمجالس الغيبة التي كان يرتع أصحابها في لحوم الناس ، والذي كانت تضمهم المجالس التي وصفها والتي أنكرها عليهم أشد انكار .

والقارىء لشعر حسين سرحان يرى فيه مسحة من التشاؤم والحزن ، لعلها تعبير صادق عن حالته النفسية في السنين الأخيرة من عمره ، ولكن الدارس والمتأمل لشعره يجد هذه المسحة تطل برأسها في الشعر الذي نظمه في شبابه ورجولته .

يقول في قصيدة موجز حياة :

أغدو مع الناس لا اني أعايشهم ولست اسخر لكن يسخر القدر
في هيكل عن هباء الجسم مصدره فقد تعذر فيه الورد والصدر
محنطاً آويا في كل مرزئة الى خراب عليه العقل ينـدحر
وربَّ نائبة في أثْرِ نائبة تلقى الكلاكل عندي ثم تنتظر
وضحكة بدرت في غير ساعتها على فؤاد من اللأواء ينفطر
حتى الكواكب في لألآء طلعتها اطفأتها ودموع القلب تعتصر[1]

واذا كان هذا وصفه لنفسه بعدما تقدم به السن فقد وصف نفسه بقوله :

ولدت شيخاً أو أرى أنني خلقت من قبل الثرى والجبال
كابرت دهري ثم خلَّفْتُه يدُبّ من خلفي دبيب النمال

(١) الصوت والصدى ص ٢٥/٢٦ .

ويقول :

اليــــوم عنـــــدي سنـــــة مُـرَّةٌ والعـــام لا يـــوصف عنـــدي بحـــال
كم قـــد طـــواني حـــين لم اطـــوه عمـــر شـــديـد الـــوطء جم النكـــال
لـــــو مت طفـلا خلت اني بـــــه معـــذب المهجـــة فيـــها اخـــال[1]

ثم وصف نفسه وهو في الثلاثين من العمر قائلا :

ثــلاثــون عــامــاً يــالــطــول بقائنا ويــالمقــامي فــارغ النفس ثــاويــا
تعــاظمتهــا لا استـزيـد بهــا الهوى واهـــدرتهـــا ايـــامهـــا والليـــاليا
وأوسـعتهـــا جـــدا ولهـــوا وحكمـة وجهـــلا وتـــذكـارا لهــا وتنــاسيـا
فـــان أكُ حَيَّـــا في حســـاب زمـانها فقـــد كنت في معنى الحقيقـة فـانيا[2]

وقال وهو في الخمسين من العمر :

أخمســـــون عــــاما قـــــد طـــويت كـــأنها
منــــــام تـــــو شِيـــــهِ الــــرؤى وكـــــذابها
وقـــــد بـــــرمت نفسي عــــلائـــــل عيشهــــا
فكيف وقـــــد وَلَّتْ واقبــــل صــــابهــــا[3]

وقال وهو في السابعة والخمسين :

اني الى المـــوت محجـــور فـــما رئتي حتى ولا كبـــدي فيـــما اكَبِّــدهُ
تلك التي بـــين عيني حـــين ابـــذرهـــا زهـــرا فتـأتي المنـايـا وهي تحصـده
وسبعـــة بعـــد خمسين مصادرهـــا مـــاء عـــلى رنق مـــا طـــاب مـورده[4]

وهكذا نرى أن بذرة التشاؤم كانت قد بذرت في نفس الشاعر من عهد الشباب ، ثم أخذت تنمو مع الأيام والسنين حتى أصبحت شجرة باسقة تخيم بظلالها على حياته حتى انتهى به الأمر الى اعتزال الناس إلا من بعض أصدقائه الخُلَّص وخاصة أهله الذين كانوا يتردَّدُون عليه بغية اخراجه من هذه العزلة التي فرضها على نفسه . حينما صدر ديوان الشاعر حمزة شحاته يرحمه الله الذي كنت مشاركا في جمعه وترتيبه بتكليف من صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله الفيصل مدَّ الله في عمره وحينما صدر هذا الديوان تأخر نشره في الأسواق ، فكان بعض من يعلمون باشتراكي في جمعه وترتيبه يطلبونه مني ، وكنت أجيب هذه الطلبات .

---

(١) الصوت والصورة ص ٣٢/٣٤ .
(٢) اجنحة بلا ريش ص ١١١ .
(٣) اجنحة بلا ريش ١٣٥/١٣٦ .
(٤) الصوت والصدى ٦١/٦٢ .

وفي ضحى أحد الأيام حضر اليَّ من مكة الاستاذ الشاعر / عبدالله جبر وهو يحمل في يده قطعة ورق صغيرة من حسين سرحان يرحمه الله يطلب فيها نسخة من الديوان ، وكان الاستاذ/ جبر يشعر بشيء من الحرج ، وهو يقدم لي هذه القصاصة من الورق ، فقدمها وهو يعتذر عن حسين سرحان ، ويشير الى ما وصلت اليه حاله . . . . . قلت لا عليك . . . . . انه من أحق الناس بأن يهدي اليه ديوان حمزة شحاته حتى دون أن يطلبه .

وقدمت اليه النسخة ولكني أدركت في نفس الوقت مقدار ما يعانيه يرحمه الله .

لقد طال بنا الحديث عن شعر حسين سرحان ولكني قبل أن يختم هذا الحديث أود أن اثبت له أبياتاً من قصيدة عنوانها « ايمان وتسبيح » يقول في مطلعها :

يــــاذا الجــــلال وذا الجــــال وذا الكــــال
رب العجائب والغرائب والمــــــواهب
أبــــرمت أمــــرك أي علم غــــير علمــــك ..؟
فــــاذا الحقيقــــة والحقيقة طــــوع حكمك
الكــــــون يمخر في العماء أو الهواء
والشهب تبدو في الفضاء أو السماء
والــــواقف الــــراسي يــــزيد تمددا
والدائــــــر الجاري يهرول سرمــــــدا
وطبيعة مرسومــــــة لا تنكشف
بــــــارادة علوية لا تختلف

ومنها :

سُبُّوحُ يا قُدُّوسُ يارب الجنود
لمَّا مضوا في التيــــــه وانتهكــــــوا العهود
هــــل كــــان مــــوسى غــــير عبــــد من عبيدك
تــــــركوه واتبعوا الهوى في يــــــوم عيدك
أو كــــان عيسى يــــوم أرسل من لــــدنكــــا
الا نبي جاء بــــــالانقاذ منكــــــا
أو كــــــان أحمــــــد في الصراط المستقيم
الا صبــــــاحُ لاح في ليل بهيم
نشأت جوارحه على تمجيدكــــــا
ودعت أوامره الى توحيدكــــــا

فـــــاذا البـريـــــــة فـوق مفـترق الـــــطـرق
واذا العقــول عـــــــلى جلالـــــــك تفتـرق

ومنهـا :

أَحَـدٌ تـوحـدت الصفـات عـــــــــلى ظـلالـه
وتبجَـسـتْ سـحـب الـــــــــرغـائب من نـوالـه
وبــــــــديـع كـون من ثـراه الى سـمائـه
رمـز عليـه في دجـاه أو ضـيـــــــائـه

ونختم هذه القصيدة بهذه الأبيات :

جـد بــــــــالهـدايـة لا حيـاة بـلا هـدايـــــــه
وانف الغـوايــــــة لا كمـال مــــع الغـوايـــــه
يـاذا الجـلال وذا الجمـال وذا الكمـال
رب العجـائـب والغــرائـب والمـواهـب

والقصيدة مناجاة للخالق وتسبيح بحمده وإجلال لقدرته المختلفة في عجائب الكون ، وهي من أجمل ما نظم حسين سرحان ، يرحمه الله .

وفاة حسين سرحان :

توفي حسين سرحان يوم الثلاثاء السادس من ذي القعدة سنة ١٤١٣هـ عن عمر يناهز الثمانين عاماً بعد عزلة طويلة عن الناس ، وبعد أن نحف جسمه من الضنى ، وخيَّمت على نفسه مشاعر اليأس والكآبة .

وقد فقدت البلاد بوفاته شاعراً كبيراً تميَّز من بين شعراء المملكة باسلوبه الذي يذكر القارىء بشعراء العربية الكبار في العصور الزاهية للشعر العربي فكان نمطاً فريداً بين شعراء عصره .

غفر الله لحسين سرحان ، وتغمده برحمات منه ورضوان .



صالح محمد جمال



صالح محمد جمال

صالح محمّد جمال

متوسط القامة ممتلىء الجسم في غير اسراف ، أبيض البشرة ، واسع العينين ، اقنى الأنف يطالعك بوجه دائم الابتسام ، تزيِّنه لحية لطيفة مخضوبة ، بعد أن سرى اليها الشيب .

ولد الشيخ صالح محمد جمال كما قرأت في مذكراته الشخصية عام ١٣٣٨ هـ في مكة المكرمة وأدخله أبوه مدرسة الفائزين ولكنَّ الطفل الصغير ترك المدرسة مرتاعاً بعد أن رأى القسوة التي يعامل بها بعض المدرسين تلاميذهم وكان الضرب في تلك الأيام عادة تكاد تَعُمُّ جميع المدارس ، الضرب بالعصا أو بالمسطرة على كفِّ اليد ، أو وضع الرجلين في الفلكة لمن يعتبرهم المدرسون مستحقين لعقوبة أكبر .

ولم ير أبوه بُداً من إغرائه وتحبيب المدرسة اليه فوعده بقرش كامل يأخذه يومياً إن هو ذهب الى المدرسة التحضيرية القريبة من منزلهم وانتظم فيها ، وفعل الاغراء فعله في نفس الطفل الصغير ، ولعل اختلاف وجوه المدرسين وربما طريقة تعاملهم مع التلاميذ ، وقرب المدرسة من المنزل كانت من الأسباب التي سكَّنَتْ روع التلميذ الصغير وحبَّبت اليه المدرسة والمدرِّسين .

قضى صالح محمد جمال ثلاث سنوات في المدرسة التحضيرية ، انتقل بعدها الى المدرسة الابتدائية فقضى بها عامين حيث شجعه بعض أساتذته فيها الى الانتقال الى المعهد العلمي السعودي الذي أنشىء كمدرسة ثانوية في مكة المكرمة ، وبقي في المعهد العلمي سنتين ، واضطر أن يقطع دراسته بالمعهد ، ليخرج الى المجال العملي بعد أن اضطرته ظروفه العائلية الى ذلك .

كان والد صالح جمال تاجراً ميسور الحال يتجر في بعض المواد الغذائية مع شريك له وفسد الأمر بين الشريكين ، وتعثَّرت البقالة فأثَّرت على الوالد ، واضطر صالح جمال أن يقطع دراسته المتقطعة ابتداءاً ، ليلحق بوظيفة في بيت المال في مكة المكرمة كاتباً للوفيات بمرتب

مقداره واحد وعشرون ريالاً في الشهر ، وهكذا ترك المدرسة وهو في السادسة عشر من العمر ليدخل في سلك الوظائف والموظفين .

كانت الحياة رخيصة وتكاليفها هينة ، وكان المرتب الصغير مفيداً للاسرة وعوناً لها على تكاليف الحياة ، وخلال ستة أعوام تدرج كاتب الوفيات في المحكمة الشرعية الكبرى الى كاتب ضبط أول ، ثم الى كاتب ضبط ثان ، ثم أصبح مساعداً لرئيس كتاب المحكمة الكبرى ، وتدرَّج الراتب حتى وصل الى ستين ريالاً في الشهر .

وكان الكاتب الشاب موضع ثقة رؤسائه من القضاة فقربوه اليهم ، وأولوه اهتمامهم وكان بحكم عمله في كتابة ما يدور في الجلسات بين المتخاصمين ، وما يوجهه القضاة من أسئلة ، وما يعلقون عليه من اجابات يحيط بسير القضايا في المحكمة .

يقول صالح جمال عن القضاة الذين عمل معهم :

وقد اختصني منهم بالتعليم السيد/ محضار عقيل الذي كان اذا استوت القضية وآن أوان الحكم يمتحنني سائلاً : ماهو الحكم الآن . . . ؟

وكان الشيخ محمد زكي البرزنجي هو الآخر يطلعني على النص في كتاب الكشَّاف أو المنتهى وهما الكتابان المعتمدان للحكم على مذهب الامام أحمد ين حنبل في المحاكم .

يقول صالح جمال : وهذا ما أهَّلني بعد ذلك أن أشير الى مستند الحكم من النصوص حينما كنت أُعد صحيفة الحكم .

يقول صالح جمال : وهو مالم يسبقني اليه أحد من كُتَّاب المحكمة في ذلك الزمان ، ولا تزال تلك الصكوك مسجلة بسجلات المحكمة الكبرى في أوائل الستينات وموقعة بختمي الذي أحتفظ به الى الآن[1] .

هذه الوظيفة التي قام باعبائها صالح جمال أكسبته ثقافة لم يكن ليحصل عليها لو لم يتقلد هذه الوظيفة ، ولو لم يكن هو شخصياً مستعداً استعداداً نفسياً للتعلم والتدريب ، وقد بقي يعمل في المحكمة الكبرى عشر سنوات انتقل بعدها في سنة ١٣٦٥ هـ للعمل في الأمن العام مديراً للمستودعات ، فأتيحت له الفرصة لأن يضيف الى عمله الوظيفي عملاً آخر سيكون له أثر كبير في تكوين شخصيته في قابل الأيام .

مكتبة الثقافة :

كان العمل في الأمن العام ينتهي بانتهاء صلاة الظهر ، ووجد الشاب صالح جمال نفسه خالياً بعد ذلك فعمل أولاً وكيلا للاستاذ/ محمد حسين الأصفهاني موزع الصحف المصرية في جدة ، عمل صالح جمال وكيلا له في توزيع هذه الصحف في مكة المكرمة ، ثم تطورت

---

(١) مذكرات صالح جمال ص ٧/٨ مخطوط .

الفكرة الى شركة بينهما انضم اليها بعض أصدقائهما فتم تأسيس مكتبة الثقافة ، وحصلت الشركة على حق توزيع مجلات دار الهلال ، ودار أخبار اليوم ، وروز اليوسف ، ومجلتي الثقافة والرسالة ، واتسع العمل ونجح ، ولكن بعض أعضاء الشركة استقال للتفرغ لعمله الخاص ، وبقي البعض الآخر .

وبعدها أقدم الشاب صالح جمال على التفرغ للعمل ، واعطائه كل وقته .

استقال من عمله بالأمن العام وتفرغ للعمل في توزيع الصحف ، وأضاف اليها العمل في تجارة الكتب ، وهكذا بدأت مكتبة الثقافة صغيرة متواضعة ، ثم مالبث أن نمت وتطورت فاهتمت بنشر الكتب وتوزيعها .

قامت مكتبة الثقافة بنشر مؤلفات المؤلفين السعوديين الذين لا يستطيعون الانفاق على طبع مؤلفاتهم ، فنشرت ديوان الشاعر المرحوم/ طاهر زمخشري ، وكتاب تاريخ مكة لأحمد السباعي ـ يرحمهما الله ، وقد نجح الكتاب الثاني وتكرَّر طبعه أكثر من مرة ، ولكن الكتاب الأول تعثر توزيعه ، وقد تعلم الناشر صالح جمال من هذه التجربة ما يتطلبه سوق الكتاب ، وما يقبل عليه القراء من الكتب ، وما عنه ينصرفون .

يقول عن ذلك :

ألفت كتاباً اسمه « دليل الحاج المصور » جمعت فيه مناسك الحج والأدعية المأثورة ، وموجزاً لتاريخ مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والكعبة المشرفة ، والمسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، وبعض الآثار في المدينتين المقدستين ، وقامت مكتبة الثقافة بطبعه ونشره وتوزيعه ، وقد طبع حتى الآن أكثر من عشر طبعات ، ولا يزال يطبع .

كما قمت بتحقيق كتاب « الدرة الثمينة في أخبار المدينة » لابن النجار من مخطوط وجدته في مكتبة نسيبي السيد بكر حمدي ـ رحمه الله ـ وقامت المكتبة بطبعه ونشره وقد طبع طبعتان .

واستأذنت ورثة الشيخ / رشدي ملحس ـ يرحمه الله ـ في اعادة طبع كتاب أخبار مكة للامام الأرزقي وأذنوا لي ، وقامت المكتبة ـ مكتبة الثقافة ـ بطبعه ونشره ، وقد جرى طبعه عدة مرات ، ولا يزال يطبع كلما نفذت طبعته .

وقامت المكتبة ـ مكتبة الثقافة ـ أيضا بطبع كتاب « الجامع الصغير لابن ظهيرة القرشي » وهو من مؤرخي مكة المكرمة ، ويتم توزيع هذا الكتاب في مواسم الحج ، ومثله كتاب الحكمة البالغة وهو مجموعة خطب منبرية[١] .

وقد ذكر الاستاذ/ صالح جمال الكتاب الذي جمع فيه مقالاته والذي سماه من أجل بلدي ، وسأتحدث عنه حينما نتحدث عن صالح جمال الكاتب الصحفي .

---

(١) مذكرات صالح جمال ص ١٢ مخطوط .

صالح جمال الصحفي والكاتب :

هيأت مكتبة الثقافة والعمل فيها لصالح جمال أسباب الثقافة ، واستكمال ما فاته من أسباب التعليم حينما اضطر الى قطع دراسته ، واشتغل بالعمل الوظيفي ، ثم بالعمل الحر في مكتبة الثقافة ، وكان قبل ذلك شاباً طموحاً يتمنى لبلاده أن تبلغ ما تستحقه من أسباب المجد والرفعة ، وليس مثل القراءة والاطلاع ما يحفز الشباب ويسلك بهم طريق الاصلاح .

عمل الاستاذ/ صالح جمال في جريدة البلاد السعودية أميناً للصندوق ، ثم مديراً للادارة ثم مشرفاً على الادارة والتحرير ، وبدأ ينشر مقالاته فيها ، ويكتب في غيرها من الصحف في ذلك الزمان ، وبدأ صالح جمال الكتابة في جريدة البلاد السعودية بتوقيع مستعار ، اختار حرف ـ الصاد ـ الحرف الأول من اسمه ليوقّع به على الكلمات القصيرة التي تنشرها له الجريدة ، ويقول في تعليل اخفاء اسمه أنه لم يكن على ثقة من جودة ما يكتب ، وقد اختار صالح جمال الكتابة عما يتحدث عنه الناس من المشاكل اليومية التي يعانونها وكان من عناوين الكلمات القصيرة التي ينشرها : أحاديث الناس ، وحديث الجمعة ، وحديث الخميس وكل صباح ، ووجدت هذه الكلمات القصيرة صداها لدى القراء فشجّعه هذا على الاستمرار في الكتابة واظهار اسمه الصريح فيما بعد .

أما الموضوعات التي كان يتحدث عنها صالح جمال فيقول عنها :

كنت أتناول فيها أحاديث الناس الناقدة طبعا لأي موقف أو عمل جماهيري حكومي أو أهلي كالبلدية أو شركة الكهرباء أو الأوقاف أو المياه ، وأحياناً أكتب مقالات في المناسبة الدينية كالهجرة أو رمضان أو الحج ، وكان يكتب كذلك عن بعض الشخصيات من أعلام المسلمين كالرازي وابن سينا والخوارزمي وغيرهم تحت عنوان عباقرة العرب [1].

أحاديث الناس هذه التي تتحدث عن المشكلات اليومية التي يتعرض لها الناس ، والموجودة في كل مجتمع كانت علامة بارزة من اهتمامات صالح جمال صاحبته من مطلع شبابه منذ أن شرع قلمه للكتابة في الصحف ، واستمرت معه الى أن بلغ الشيخوخة ، ولم يقتصر التعبير عن هذه الاهتمامات على الكتابة في الصحف ، وانما تحولت الى أعمال ومشاريع اجتماعية تستأثر باهتمام الشيخ صالح جمال في المراكز العديدة التي شغلها فيما بعد ، والتي سنتحدث عنها بعد .

وقد استمر الاستاذ/ صالح جمال يكتب في هذه الموضوعات الاجتماعية التي تصادف الناس في حياتهم اليومية ، وبأسلوب يتسم بالشجاعة والصراحة ، وكنت أقرأ كلما يقع عليه نظري من هذه الأحاديث في الصحف اليومية ، وكنت أعجب دائماً بشجاعته وجهره بما يعتقد أنه حق وصواب .

---

(١) مذكرات صالح جمال ص ١٦ مخطوط .

ولقد جَرَّتْ هذه الشجاعة عليه بعض المشكلات فان الحق لم يكن ليرضى كل الناس ، ولكنه تحمل هذه الجرائر بايمان من يعتقد أن عليه أمانة واجبة الأداء ، وان أغضب البعض أو جرَّت عليه شجاعته المصاعب والمشكلات .

جريدة حراء :

أصدر الاستاذ/ صالح جمال جريدة حراء بعد أن انتهى عمله في جريدة البلاد السعودية التي انتقلت اداراتها الى جدة ولم ينتقل معها ، وكانت حراء تصدر أسبوعية كل يوم سبت ، وكانت تطبع في جدة في مطابع الأصفهاني .

يقول الاستاذ/ صالح جمال عن اصدار حراء مايلي :

اخترت لصدور حراء يوم السبت حيث لا توجد جريدة ، وصدر العدد الأول منها يوم السبت ٦ جمادي الاولى عام ١٣٧٦هـ ، وكان أخي أحمد « الكاتب الكبير والعلامة الاستاذ أحمد محمد جمال » مساعدي الايمن ، واستعد زميلي بالبلاد السعودية الاستاذ/ عبدالله الداري في التصحيح ، واستعد الاستاذ/ حسن قزاز أن يشارك بحكم اقامته في جدة بالاشراف على الطبع ، وكنت انا وأخي أحمد والاستاذ/ الداري ننزل كل ثلاثاء بعد الظهر الى مطابع الأصفهاني لنشرف على توضيب الصفحتين الداخلتين ٢ ، ٣ وكانت الجريدة من أربع صفحات فقط . ونأذن بالطبع ثم ننزل يوم الخميس لتوضيب الصفحتين ١ ، ٤ الحاملة لآخر الأنباء الخارجية ، وآخر الأحداث الداخلية والافتتاحية واجازتها ، ثم انتظار إتمام الطبع واصطحابها معنا الى مكة تمهيداً لاصدارها يوم السبت .

ويقول صالح جمال عن ظروفه المالية يوم اقدامه على اصدار صحيفة حراء :

واذا كان الكاتب الكبير الاستاذ/ مصطفى أمين يقول في مذكراته أنه أصدر صحفاً عدة كان آخرها أخبار اليوم بقروش كان يوفرها من مصروفه الخاص ، فانني قد أصدرت جريدة حراء بدون رأس مال ، فقد كانت مطابع الأصفهاني تطبعها على الحساب ، وكانت ادارة حراء في بيتي ، وكان التوزيع يتم في مكتبة الثقافة(١) .

واذا كان اظهار حراء في تلك الظروف المالية الصعبة التي ذكرها الاستاذ/ صالح جمال تدل على عصامية الرجل ، واقدامه ، واصراره على النجاح فلابد أن يذكر بالشكر الأصدقاء الذين ساعدوه في رحلته هذه الشاقة وهم :

أولاً : شقيقه الاستاذ/ أحمد وأصدقاؤه الاستاذ/ محمد حسين أصفهاني الذي سهَّل له الطبع في مطابعه والاستاذ الداري ، والاستاذ حسن قزاز الذين ساهما في التصحيح والاشراف بدون أي مقابل ، قوبلت حراء بالترحيب من القراء لأنها كانت تعبر عن أحاسيس الناس ومشاعرهم ازاء المشكلات اليومية التي يعانونها وأمدَّها الأدباء والكتاب بكتاباتهم فتسنَّمت مكانها المرموق في نفوس الناس الأمر الذي دفع مؤسسها الى التفكير في اصدارها

(١) مذكرات صالح جمال ص ١٧ مخطوط .

يومية فقام باستيراد مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة . ولم يمض سوى عام ونصف العام حتى صدرت حراء من مكة المكرمة بعد ان كانت تصدر اسبوعية ، وصدر العدد الأول يوم ١٢/١١/١٣٧٧ .

يقول صالح جمال عن أوليات حراء مايلي :

ولأول مرة تنشيء صحيفة سعودية قسماً خاصاً بها يلتقط بواسطته الأخبار العالمية الطازجة من مصادرها ، ومن مختلف الاذاعات قبل أن تعرف الصحافة السعودية الاشتراك في وكالات الأنباء[١].

ويقول كذلك :

صدرت حراء متطورة بالنسبة لصحافة المملكة ، فاستحدثت التحقيقات الصحفية المصورة عن وزارة الداخلية والزراعة بالمملكة ، ومدينة الرياض ، ومستشفيات جدة وغير ذلك من الموضوعات الحيوية التي كان يجريها الاستاذ أنور زعلوك المحرر بحراء[٢].

كما استحدثت الزوايا والصفحات الخاصة مثل زاوية طبيبك ، وركن البوليس وركن المزارع ، واضحك مع فنان قديم ، ورَّوحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، ومجتمع الطلبة وصفحة حراء الطبية ، وصفحة الرياضة ، والصفحة النسائية ، ومن أجل صحتك ، وكانت حراء كما يقول صالح جمال :

أول من كتب عن مشكلة لحوم الأضاحي والهَدْي واهدارها ووجوب الافادة منها وهي ـ حراء ـ أول من طالب بانشاء مدرسة لتعليم قيادة السيارات كما عالجت موضوع تطويف الحجاج في سلسلة مقالات بأقلام عدد من الكتاب تحت عنوان نحو مستوى أفضل للمطوفين والحجاج . . .[٣].

دمج الصحف :

لم يمض على صدور حراء يومياً إلا بضعة شهور حتى أصدرت وزارة الاعلام أمراً بدمج الصحف فادمجت حراء والندوة في صحيفة واحدة تصدر باسم الندوة ، وعرفات والبلاد السعودية في صحيفة واحدة ، واشترى الاستاذ/ صالح جمال من الاستاذ/ أحمد السباعي صاحب جريدة الندوة حصته بعد ادماج الصحيفتين فتفرَّد بملكيتها واستقل برئاسة تحريرها ، ولم يلبث السباعي أن أصدر منفرداً مجلة قريش ، واستمرت حراء في خطتها القائمة على معالجة المشاكل اليومية للناس منذ باكورة صدورها .

---

(١) مذكرات صالح جمال ص ١٧/١٨ مخطوط .
(٢) أنور زغلوك هو الآن رئيس تحرير جريدة رأي الشعب التي تصدر بالقاهرة .
(٣) مذكرات صالح جمال ص ١٨ .

تحويل الصحف الى مؤسسات :

صدر أمر وزارة الاعلام بتحويل الصحف التي يملكها الأفراد الى مؤسسات صحفية يشارك في كل مؤسسة مجموعة من الناس بدلاً من أن تكون ملكاً لفرد أو أسرة ، واختارت وزارة الاعلام قائمة باسماء الأعضاء المؤسسين لجريدة الندوة كان من ضمنها اسم صالح جمال وأخيه الاستاذ/ أحمد جمال ولكن الأخوين اختارا الاعتذار بعد أن قدَّم صالح جمال من قبله قائمة لم تحظ بموافقة وزارة الاعلام ، وانتهى بذلك دور صالح جمال كصاحب صحيفة ، ولكن دوره ككاتب في جميع الصحف التي تصدر في المنطقة الغربية لم ينته فقد استمر يكتب بصورة أسبوعية في الصحف الثلاث الندوة ، والبلاد ، وعكاظ ، وكان في كل ما يكتبه انما يعبرعن المشاكل اليومية التي يعاني الناس منها في حياتهم اليومية وكان جريئاً كعادته من يوم أن بدأ الى أن توفاه الله .

من أجل بلدي :

وقبل أن أنهي الحديث عن صالح جمال الصحفي والكاتب يجب أن أشير الى كتاب متوسط الحجم ، جمع فيه مختارات مما كان ينشره في جريدة الندوة وأثبت تاريخ النشر ، ورقم العدد في كثير من الأحيان ، والكتاب من منشورات المكتب التجاري في بيروت وتم طبعه عام ١٣٨٤هـ الموافقة ١٩٦٤ للميلاد ، وهو متوسط الحجم في مائتين وأربعين صفحة من القطع المتوسط .

هذا الكتاب بموضوعاته المختلفة وتواريخ النشر المتقاربة أو المتباعدة تصور اهتمامات صالح جمال الكاتب بالهموم اليومية اذا صح هذا التعبير للمجتمع الذي يعيش فيه .

وبعض هذه الموضوعات حينما يقرأ القارىء يظن أنه يعالج مشاكل يومية مازالت قائمة يتحدث الناس عنها وتستأثر باهتماماتهم ، وهو في كلما يعالجه شجاع صريح ، يجهر برأيه في غير وجل ولا هيبة ، ينشد الحق ، والاصلاح ويبتعد عن الطعن والتجريح وقد جرَّ عليه أسلوبه هذا الكثير من المتاعب مع الكثير من الناس ، وتحدث هو عن بعض هذه المتاعب في مذكراته الشخصية ، كما أنه تلقى المكافأة عن بعض ما عالجه من الأمور باقتناع المسؤولين بآرائه ، . وأثبت ذلك كله في كتابه هذا من أجل بلدي .

والكتاب في مجمله شهادة حق لمؤلفه ، بشجاعة الرأي والجهر بالحق والسعي في الاصلاح والتعبير عن مشاعر المواطنين في غير تزييف ولا مغالاة ، وفي غير ادلال ولا افتخار ، ولمن رغب الاستزاده في هذا الباب أن يقرأ كتاب صالح جمال ، فهو خير من يعبر عن آرائه وعمله .

ونكتفي بهذا القدر عن صالح جمال الصحفي والكاتب لنتحدث عن صالح جمال في مجال آخر من مجال العمل الاجتماعي الذي لازمه كما قلنا من النشأة حتى الممات .

جمعية البر بمكة المكرمة :

كان الاستاذ/ صالح جمال هو أول من دعا الى انشاء جمعية للبر بمكة المكرمة في مقال نشره في

جريدة البلاد السعودية سنة ١٣٧١هـ ، وقد لاقت هذه الدعوة استحساناً عظيماً وقبولاً من الناس ، وافتتح التبرع لها معالي الشيخ/ محمد سرور الصبان ، وتولى الاستاذ/ عبدالله عريف ، التعريف بأغراض هذه الجمعية التي سميت هيئة صندوق البر في جريدة البلاد السعودية التي كان يتولى رئاسة تحريرها .

كانت أغراض الجمعية اجتماعية ، هي مساعدة الفقراء والمعدمين وخاصة من الأرامل والأطفال على ايجاد السكن المناسب وتقديم العون المادي للأسر المحتاجة ، وكانت دعوتها تقوم على حث الناس على التبرع لهذه الغاية بما يستطيعون ، وحث الموظفين بصورة خاصة على تخصيص مبالغ شهرية من مرتباتهم لهذه الغاية ، وتشكلت الهيئة من الاستاذ/ عبدالله عريف رئيساً .

والاستاذ/ صالح جمال أميناً عاما .

والاستاذ/ حامد مطاوع أميناً للصندوق .

والأساتذة/ أحمد محمد جمال ، وعمر عبدالجبار ، وعبدالعزيز ساب رحمهمُ الله ، وعبدالرازق بليلة وعبدالعزيز الرفاعي أعضاء .

واتخذت جمعية البر من جريدة البلاد مقراً لها في محلة الشامية ، وأقبل الناس عليها يمدونها بتبرعاتهم ، وساهم الموظفون خاصة بمبالغ تقتطع من مرتباتهم الشهرية وأقامت النوادي الرياضية مباريات خصصت ريعها لصالح الجمعية وحينها انشأت الدولة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية ووضعت الأنظمة للجمعيات الخيرية حصلت جمعية البر على تصريح لها بالعمل باسم جمعية البر بمكة المكرمة .

وأعطى الاستاذ/ صالح جمال الكثير من وقته وجهده للجمعية بعد أن أختير رئيساً لها ، واني أنقل هنا من آخر تقرير للجمعية نبذة عن أعمالها .

لقد بدأت الجمعية عملها في سنة ١٣٧٢ مقتصرة على تقديم مساعدات مالية للأسر الفقيرة ، ثم تطورت أعمالها عندما نمت مواردها بأن أنشأت في فترة أزمة طاحنة في المساكن ، أول مجمع خيري سكني في حي الزهراء يحتوي على ٤٥ وحدة سكنية ، وأسمتها عمارة التوفيق ، ثم أنشأت مجمَّعاً آخر بحي المعابدة بجوار مسجد الاجابة يضم خمساً وأربعين وحدة سكنية أيضاً ، وأطلقت عليه اسم عمارة السلامة .

وأخذت تتوالى انشاء المجمعات السكنية على ضوء شدة الطلب ، وتزاحم المحتاجين اليها ، فأنشأت المجمع الثالث بالمسفلة عمارة الفوز ، والمجمع الرابع بجرول « عمارة الأمل » والمجمع الخامس بالتيسير « عمارة التيسير » والمجمع السادس « عمارة السعد » بالنزهة والمجمع السابع « عمارة الصلاح » بالهنداوية ، والمجمع الثامن بالمسفلة وبه ثلاث وعشرون وحدة سكنية .

وتبرع لها المرحوم الشيخ/ يوسف زمزمي بعمارة الزاهر بالزهراء ، والشيخ محمد سعيد

المداح بعمارة الرصيفة بالرصيفة ، وهاتان العمارتان خاصتان بالنساء ، والاستاذ/ عابد عجيمي بعمارة العوالي بالعوالي ، وعمارة جبل دفان .

فأصبح للجمعية بذلك عشر مجمعات سكنية تتكون من ثلاث عشرة عمارة مبنية على أحدث طراز معماري تشغلها ٢٧٨ عائلة ، وتتولى الجمعية ادارتها ونظافتها وحراستها وصيانتها .

وقامت الجمعية بمساعدة الشباب الراغبين في الزواج والذين عجزوا عن ايجاد السكن المناسب لظروفهم المالية ، قامت الجمعية بتقديم فرش شقة كاملة لكل عريس يثبت حاجته للمساعدة بعد بحث حالته ، والاطلاع على عقد النكاح ، وعقد استئجار الشقة وقد تقدم لها حتى الآن « كما يقول تقرير الجمعية السنوي » عدد من الشباب ، وجرى بحث حالاتهم كما تم فرش المساكن لهم .

وقد زاد عدد المتقدمين للزواج عن الثمانين .

الى جانب هذه الأعمال العظيمة ، وفي مقدمتها المساعدات العينية من الأرزاق والمساعدات النقدية الى آلاف الأسر الفقيرة بمكة ، وفي آخر احصاء لهذه الأسر بلغ تعدادها ثمانية آلاف وخمسمائة عائلة(١) .

هذه الأعمال العظيمة التي قامت وتقوم بها جمعية البر بمكة المكرمة ، والمؤلفة من رجال أفاضل من أهل البلد الأمين الذين ساهموا بأموالهم ومجهوداتهم في أعمالها ، واستقبلوا التبرعات لها من المحسنين ، وواصلوا العمل عاماً بعد عام حتى أصبحت الجمعية مثالاً يحتذى في العمل الطيب وتنميته والاستمرار فيه .

كان المرحوم الشيخ / صالح جمال هو أول من أطلق الدعوة لها وواكب أعمالها أربعين سنة منذ بدء وجودها في سنة ١٣٧٢ الى أن توفاه الله وهو يتولى رئاستها عام ١٤١١هـ .

بدأت الجمعية نبتة صغيرة في باطن الأرض ، ثم نمت حتى صارت شجرة عظيمة يانعة الثمر قوية الجذور ، وامتدت حتى أصبحت حديقة عظيمة تمتد ظلالها في أحياء مكة ، ويصل خيرها الى بيوت آلاف الأسر في البلد الحرام .

ولم يقتصر عمل صالح جمال على جمعية البر وحدها ، فقد شارك في مجالات كثيرة من مجالات العمل الاجتماعي في مكة المكرمة ، كان رئيساً للغرفة التجارية الصناعية في مكة المكرمة وكان رئيساً لمؤسسة مطوفي العرب ، وكان رئيساً للمجلس البلدي وكان عضواً في هيئات كثيرة لا مجال لتعدادها ، والى جانب هذا كله كان يدير أعماله الخاصة في مطابع ومكتبات الثقافة وكان يشارك في المناسبات الاجتماعية الكثيرة ، يشارك الناس أفراحهم وأحزانهم ، ولست أدري كيف كان يوزع أوقاته بين كل هذه الأعمال والواجبات التي أكسبته محبة الناس ، وثقتهم ، وقد تجلَّت منزلته في قلوب الناس يوم وفاته ، وما تلاها من أيام .

---

(١) التقرير السنوي لجمعية البر بمكة المكرمة لعام ١٤١٢ ، ١٤١٣هـ ص ٨/٧ .

وفاة صالح جمال :

كنت مدعواً مع أصحاب شركات نقل الحج الى اجتماع مع معالي وزير الحج والأوقاف الشيخ عبدالوهاب عبدالواسع ضحى يوم السبت ٢٥ ذي القعدة ١٤١١هـ ، وفي قاعة الجلوس بالوزارة ، وجدت المرحوم الاستاذ/ صالح محمد جمال حاضراً لمقابلة الوزير في عمل يتعلق بحجاج المغرب وكانت المفاجأة سارة لكلينا ، فكلانا مشتاق للقاء الآخر ، وجلسنا جنباً الى جنب نتحدث ثم دعي الى مقابلة الوزير ، وحينما انتهت المقابلة دعيت مع أصحاب شركات نقل الحجاج للدخول الى قاعة الاجتماعات .

وغادرنا صالح جمال مودعاً الى مكة ، وقبيل المغرب هتف لي أحد الأصدقاء معزياً في وفاة صالح جمال ، أثر حادث مروري في طريق مكة ، لقد شاء الله أن يقود سيارته ، وكان قد تخلى عن قيادة السيارة منذ أعوام وأعوام .

ووقع القضاء الذي لا مفر منه ، وفاضت روحه الطاهرة الى بارئها وهو في الثالثة والسبعين من العمر يرحمه الله تعالى رحمة الأبرار .

توجهت الى داره في مكة معزياً ، وفوجئت بالشوارع المحيطة بمنزله في حي الزاهر مكتظة بالسيارات ، وبحركة المرور وقد توقفت ، فترجلت من السيارة وسرت الى المنزل الذي كانت الجماهير تتدفق عليه ، وشققت طريقي الى حيث يجلس أهله وفي مقدمتهم شقيقه ورفيق دربه الصديق العلامة الأديب الاستاذ/ أحمد محمد جمال ، وأبناؤه الدكاترة طارق وحسن وياسر صالح جمال ، والاستاذ/ فائز ، وماهر ، وبقية أهله وأصهاره .

كان الناس وقوفاً في صفوف طويلة متراصة الأمر الذي حدا بآل جمال الى الجلوس من كثرة ما أصابهم من الارهاق ، وكان سيل المعزين لا ينقطع .

لقد حضرت مكة كلها تعزّي في صالح جمال وشارك محبوه وأصدقاءه في المدن الأخرى في الحضور من جدة والطائف وغيرها .

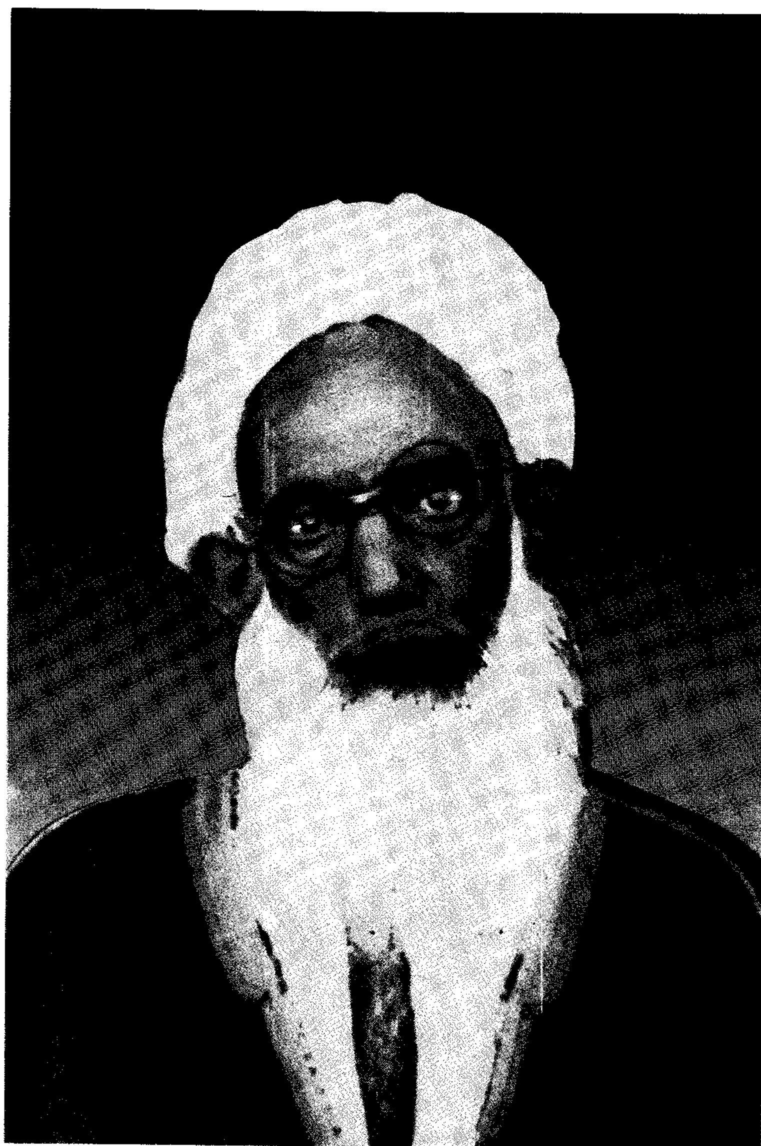
كان هذا الحشد الكبير هو أعظم تعبير عن فداحة المصاب في الرجل الفقيد وكان كل هؤلاء المعزون بهذا الحضور الكبير يعبرون عن المكانة التي كان يحتلها صالح جمال في نفوسهم من المحبة والتقدير .

لقد أحب صالح جمال الناس منذ نعومة أظفاره ، وعبر عن هذا الحب بقلمه ولسانه وبعمله وانجازاته فأحبه الناس وأوسعوا له مكاناً في قلوبهم ، وأثنوا عليه الثناء كله .

رحم الله صالح جمال ، فقد كان مثالاً للخلق والصدق .

جهر بالحق في شجاعة ورجولة ، وعمل للوطن في دأب واخلاص ، وقضى حياته في اعانة المحتاجين ، وتيسير أمور الناس ما استطاع ، رحمه الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءه انه سميع مجيب .

الشيخ عبد الله غازي المكي



الشيخ عبدالله غازي المكي

الشيخ عبد الله غازي المكي

ولد الشيخ الغازي سنة ١٢٩٠ للهجرة كما ذكر ذلك الاستاذ/ عمر عبدالجبار في ترجمته له ، وذكر الشيخ / طاهر الكردي تاريخ ولادته سنة ١٢٩١ للهجرة(١) وذكر الشيخ محمد نصيف أن الغازي وصل الى الحجاز وهو ابن سبع سنين وتلقى العلم بمكة وبها نشأ(٢) .

وأياً كان الأمر فان الشيخ / الغازي بحكم نشأته بمكة وتعلمه بها ، وقضاء حياته فيها يعتبر عالماً من علماء البلد الحرام .

تلقى الغازي العلم في المدرسة الصولتية بمكة على أيدي الأساتذة الأفاضل من مدرِّسيها ، وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، وأمَّ الناس في صلاة التراويح وهو ابن اثنتي عشرة سنة .

واجتمع بكثير من علماء عصره وأخذ الاجازة منهم على ما جرى به العرف في ذلك الزمان(٣) .

عمل الغازي بعد تخرجه أميناً لمكتبة المدرسة الصولتية بمكة فحُبِّبت اليه القراءة فعكف عليها واشتغل بها ، وكان الرجل يعيش عيش الزاهدين يسكن في رباط بمكة يدعى رباط محمد باشا ، أورباط الحنابلة قرب باب الزيادة ، جعل جزءاً صغيراً منه مكاناً لبيع الكحل ، واتخذه كذلك مكاناً مختاراً للقراءة والتأليف .

فرَّغ الغازي نفسه بعد أن قرأ الكثير من كتب التاريخ مطبوعة ومخطوطة لكتابة تاريخ مكة المكرمة ، فكان دائب الاشتغال بكتابة هذا التاريخ وجمعه وتنسيقه فاستوى له مالم يستو لغيره حينما ألَّف كتابه الموسوعي عن تاريخ مكة الذي سماه « إفادة الأنام بأخبار البلد الحرام » استعرض في هذا الكتاب الضخم كلما كتبه المؤرخون عن مكة وقسَّمه الى أبواب كثيرة تحدث

---

(١) كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ج ١ ص ٢٢/ ٢٣ .
(٢) انظر نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهور ص ٢١٥ مخطوط .
(٣) انظر سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر ص ٢٠٢/ ٢٠٣ .

فيها عن عمارة الكعبة المعظمة عبر التاريخ ، وكذلك عن المسجد الحرام ، وعماراته وما مرَّ فيه من الحوادث والأحداث ، وشملت أبواب الكتاب تفاصيل دقيقة عن كلما يتعلق بالبيت المعظم والمسجد الحرام ، عن الحجر الأسود ، والميزان ، وسقف البيت ، والملتزم ، والحِجْر وكسوة البيت ، وعن المسجد الحرام ودار الندوة وزمزم ، وأبواب المسجد الحرام ومنائره والمدارس والأربطة حوله ، وسيول مكة وجبالها ، وأسواقها ، وآبارها والعيون التي جرت اليها ، وعن كلما يخطر ببال القارىء من تاريخ مكة عبر القرون ، ولو أردت استعراض الأبواب التي يضمها الكتاب لطال بنا الحديث .

لذلك فاني أكتفي بوصف مجمل للكتاب .

كتاب إفادة الأنام مخطوط في سبع مجلدات :

المجلد الأول : يقع في سبعمائة وثمان وأربعون صحيفة في كل صحيفة ستة عشر سطراً ، وفي نهايته هوامش تتكون من خمس وثلاثين صفحة بعضها خالٍ من الكتابة ، وهذا المجلد يحتوي على مباحث تتعلق بالكعبة المعظمة والبيت الحرام وما وقع فيه من أحداث عبر التاريخ وعن حارات مكة وأسمائها مما لا يتسع المقام لتفصيله .

المجلد الثاني : ويقع في ستمائة وواحد وثمانين صحيفة في كل صحيفة اثنى عشر سطراً ، وفي نهايته هوامش تتكون من ثلاثين صحيفة بعضها خالٍ من الكتابة .

وهذا المجلد يحتوي على مباحث تتعلق بأماكن المناسك كعرفة ، ومزدلفة ومنى ، كما يتحدث عن شعاب مكة ، وضواحيها ، وعن مقابر مكة والمدفونين بها من الصحابة والتابعين والعلماء وأعلام الرجال ومواضع دفنهم .

كما يتحدث عن العيون والبرك والمساقي والمطاهر ، والأربطة والمدارس الموقوفة بمكة المكرمة ، وأسماء مؤسسيها والموقوف عليها والأحداث التي وقعت في هذه الأوقاف عبر القرون ، كما يتحدث عن سيول مكة ، والأمطار التي نزلت عليها وتأثيرها على الناس في أوقاتها والعواصف والرعود ، وما الى ذلك عبر القرون .

كما يتحدث هذا المجلد عن الغلاء وأسعار الطعام والأوقات التي شحَّ فيها وما الى ذلك ، ويتحدث كذلك عن الأوبئة والطواعين التي حصلت في الحجاز ، ثم يتحدث عن قطع الطريق من قبل الأعراب وما يتعرض له الحجاج من النهب والفتك والقتال الذي وقع بسبب ذلك ، وفي النهاية يتحدث المؤلف عن المكوس والضرائب التي فرضت على البضائع الواردة الى جدة ومقدار جبايتها ، وما كان يأخذه الملوك منها ، وما يخصُّ شريف مكة فيها .

المجلد الثالث : ويقع في أربعمائة وواحد وخمسين صحيفة يتكون بعضها من ثلاث عشر سطراً ، والبعض الآخر من اثنتي عشر سطراً ، ويتبع هذه الصفحات ملحقات وهوامش تتكون من مائة وسبعين صحيفة ، وبخطٍّ يختلف عن الخط الذي كتب به الكتاب الأصلي ،

وفي هذه الملحقات تطرق المؤلف الى مباحث أخرى تتعلق بتاريخ اليمن ونجد ، والبحرين ، وقبائل العرب وغيره مما يخرج عن تاريخ مكة والحجاز الى تواريخ البلاد العربية المجاورة .

ويتحدث المجلد الثالث عن المحامل التي كانت تصل الى مكة مع حجاج مصر والعراق والشام واليمن ، والصدقات التي رتبها السلاطين والملوك لفقراء الحرمين ، وعن حوادث أخرى متفرقة في مكة ، ثم يتحدث المؤلف في هذا الجزء عن حج الملوك والسلاطين ، وينتهي هذا المجلد بحج خديوي مصر عباس حلمي سنة ١٣٢٧ هجرية وقدوم السلطان وحيد الدين آخر خلفاء سلاطين العثمانيين سنة ١٣٤١ للهجرة .

الجزء الرابع : ويقع في ثلاثمائة وثلاث وخمسين صحيفة كل صحيفة ثمانية عشر سطراً ويحتوي هذا الجزء على ولاية الشريف الحسين بن علي مكة من قبل الدولة العثمانية ، ثم قيامه بالثورة عليها ، وأحداث هذه الثورة ، ويشتمل هذا الجزء على تاريخ الدولة الهاشمية في الحجاز الى سنة ١٣٤٢ ، وقد أتبع المؤلف هذا الجزء بخمس صفحات سجل فيها قصيدة شاعري الشام خير الدين الزركلي ، وشفيق جبري ، وكلتا القصيدتين موجهتان الى الشريف الحسين بن علي بعد خروجه من الحجاز ، وتولي السلطان عبدالعزيز بن سعود العرش ، ومطلع قصيدة الزركلي :

صبر العظيم على العظيم   جبار زمزم والحطيم

وهي قصيدة مشهورة ، ومنشورة في ديوانه .

ومطلع قصيدة شفيق جبري :

ماذا جنيت فأنت اليوم مسلوبُ   تاج الملوك وأنت اليوم مغلوب

الجزء الخامس : يقع في ثلاثمائة وخمس وستين صحيفة كل صحيفة حوالي عشرين سطراً ، ويضم بقية تاريخ الدولة الهاشمية في الحجاز وما أصدرته من نظم ، كما يضم الخلاف بين الشريف الحسين والسلطان عبدالعزيز ، والحرب التي وقعت بينهما وتنازل الشريف الحسين عن العرش لابنه علي ، ومغادرته جدة ، وكذلك عن أحداث الحرب بين الشريف علي والسلطان عبدالعزيز واتفاق الطرفين على تسليم البلاد للسلطان عبدالعزيز ، وما قامت به الحكومة السعودية من أعمال .

وينتهي الجزء الخامس بأحداث سنة ١٣٤٩ للهجرة .

الجزء السادس : يقع في ٧٣٥ صحيفة كل صحيفة فيها ستة عشر سطراً ، ويتحدث هذا الجزء عن ولاة مكة من بعد فتح النبي صلوات الله وسلامه عليه لها ، وولاتها في عهود الخلفاء الراشدين من بعده ، وفي الخلافة الأموية والعباسية ، كما يتحدث عن ولاة مكة من الأشراف ، والحوادث التي وقعت بينهم ، وكذلك عن الحوادث التي وقعت بمكة بين الأشراف ، وجيوش الدول التي كانت تحكم الحجاز أو تتطلع لولايته كالمصريين

والعثمانيين ، وكذلك عن استيلاء الدولة السعودية الأولى على الحجاز ، والحرب بينهم وبين محمد علي باشا والي مصر ، والأحداث التي وقعت بعد ذلك في مكة في العهد العثماني .

وتنتهي بأخبار الانقلاب العثماني سنة ١٣٢٦ للهجرة .

المجلد السابع : ويقع في سبعمائة وست وخمسين صحيفة تتكون كل صحيفة من ثمانية عشر سطراً ، ويتحدث المؤلف في هذا الجزء عن حدود بلاد العرب وتقسيمها وقبائلها كما يتحدث عن بلاد اليمن وأوديتها وزراعتها ، وحكامها من أول ائمة الزيدية ، وأحداث اليمن السياسية مع الدولة العثمانية الى أن يصل الى الامام يحيى حميد الدين ، كما يتحدث عن السلطنات اليمنية واحتلال الانجليز للمحميات التسع ، ثم يتحدث عن أبها وبلاد عسير ، وعلاقة آل عايض بالدولة السعودية ، ودخول الجيش السعودي أبها في سنة ١٣٤٠ ، ويتحدث المؤلف عن الأدارسة ، وابتداء دولتهم والحرب التي وقعت بينهم وبين الدولة العثمانية ، ثم انضمام الأدارسة الى الدولة السعودية وتسليم البلاد لها ، ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن بلاد حضرموت وقبائلها وسكانها وأحوالهم ، ثم يتحدث عن البحرين ومدنها واستخراج اللؤلؤ منها وحكامها والأحداث التي وقعت فيها ، ثم يتحدث المؤلف عن الكويت وأحوالها وولاية آل الصباح لها ، وما وقع بين أمراء آل الصباح ، وطلب الشيخ مبارك الصباح الحماية الانجليزية ، والأحداث السياسية التي وقعت بها ، ثم يتحدث المؤلف عن بلاد نجد وحائل وعن أمراء آل الرشيد والأحداث التي وقعت بينهم الى حين استيلاء السلطان عبدالعزيز بن سعود على حائل ، ثم يتحدث المؤلف عن القصيم وعن مدن نجد وقراها وعن الاحساء والقطيف والعقير ، ويتحدث المؤلف كذلك في هذا الجزء عن أمراء آل سعود والأحداث التي وقعت بينهم ، واستيلاء آل الرشيد على الرياض وخروج الامام عبدالرحمن بن فيصل من نجد ، ثم عودة النجديين الى الرياض بقيادة الأمير الشاب عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، وانتصاره على آل الرشيد ، وعن علاقة ابن سعود بالأتراك والانجليز .

ثم يعود المؤلف بعد ذلك فيتحدث عن العرب البائدة والعرب العاربة والمستعربة وعن عادات العرب في الجاهلية ، وعن علوم العرب القديمة كالقيافة والفراسة وقصِّ الأثر وما الى ذلك .

ثم يتحدث المؤلف عن أسواق العرب ، والأودية والجبال ، ويعود المؤلف بعد ذلك للحديث عن طريق قوافل الحج من مصر ، ومن دمشق ومن القدس الشريف ، ومن صنعاء ، ومن العراق ، والرياض والكويت ، ثم يتحدث عن طرق المدينة الى مكة وطريق ينبع الى مكة ، والقبائل التي تسكن في هذه الطرق .

ثم يتحدث المؤلف عن سكان مكة بعد انتشار الاسلام من الأشراف والسادة والعائلات المشهورة .

ويتحدث كذلك عن أخبار مدينة جدة والأحداث التي وقعت بها ، ثم يتحدث عن الطائف وقراه وحصونه ومساجده .

ويختم الكتاب بذكر من دفن بالطائف من الصحابة والفضلاء والأمراء ، ويعتبر هذا المجلد السابع هو خاتمة موسوعة الشيخ عبدالله الغازي الكبيرة .

أسلوب التأليف :

أتبع المؤلف في كتابه هذا أسلوباً قد يكون جديداً بالنسبة لعصره ، وطريقة المؤلفين من قبله ، فهو يقسم الكتاب الى أبواب كثيرة ، يتحدث في كل باب منها عن قسم معين لا يتعدَّاه الى غيره ، ويجمع في هذا القسم ما وصل اليه من كتابات المؤرخين قبله ويذكر أسماء الكتب التي نقل عنها ، وأسماء مؤلفيها .

فاذا تحدث مثلا عن الحجر الأسود ، ذكر ابتداء وضعه في مكانه بيد الخليل ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه وما ذكره المؤلفون قبله عن هذا الحجر ، ونزول جبرائيل عليه السلام به من الجنة ، ثم يذكر تاريخ الحجر الأسود ، وكيف اختلف القرشيون بسببه ثم وضع النبي صلوات الله وسلامه عليه في موضعه بعد أن جعل القبائل المختلفة تشترك في حمله ، وما فعله ابن الزبير بعد هدم الكعبة ، فأطال الصلاة حتى يتمكن من كلَّفَهُم بوضعه في مكانه ليجنب الناس أمر الاختلاف فيه ، ثم يستعرض الحوادث التي مرَّت بالحجر الأسود واستيلاء القرامطة عليه ، وأخذه معهم الى هَجَرْ ، واعادته بعد اثنتين وعشرين سنة ، ويذكر كذلك تَفَتُّت الحجر وما جرى من محاولات لاصلاحه عبر التاريخ ، وهكذا لا يترك المؤلف شاردة ولا واردة في الموضوع إلا وينقل ما كتبه المؤرخون عنها .

وهكذا يصنع المؤلف في كل موضوع يتحدث عنه ، فالكتاب بهذا الاسلوب يكاد أن يكون موسوعياً في المواضيع التي يتحدث عنها ، وأجمل ما فيه انه يخصص الحديث عن كل موضع في القسم الخاص به من الكتاب ، ولا يتجاوزه الى غيره ، بحيث يسهل مهمة الباحث ، فلا يضطره الى البحث عن هذا الموضوع في أقسام أخرى من الكتاب إلا في الحالات التي تقتضي الربط بين موضوع وآخر ، وهي قليلة جدا ، ولها ما يبررها .

والمؤلف يذكر مصادره غالباً باسم الكتاب الذي ينقل عنه ، وتارة باسم مؤلف الكتاب ، ولو أنه عمد الى توثيق ما ينقله بأرقام الصفحات وجعل لكل ذلك هامشاً لكان عمله أكمل ، ولكنَّ المؤلف كان يكتب في زمن لم يعرف الكثير من مؤلفيه وكُتَّابه هذا الاسلوب الوثائقي في التأليف ، وأنا شخصيا أعتبر الغازي مجددا في أسلوبه في التأليف بالنسبة لعصره لاتباعه أسلوب التقسيم الذي تحدثت عنه للمواضيع والأبواب ، ولذكره أسماء المصادر التي نقل عنها ، ولتعمّده نقل ما كتبه المؤلفون قبله بأسلوبهم دون تحريف ، وهي امانة لها قيمتها في النقل ، وأود أن أذكر أن هذا الاسلوب يسهِّل على الباحث الرجوع الى المصادر التي ذكرها

المؤلف ، وقد جرَّبت هذا شخصياً في مراجعة بعض الأبحاث التي ذكرها ، فوجدت الأصل الذي نقل عنه مطابقاً للنقل .

والروايات التي ينقلها الغازي عن المؤرخين قد تحمل بعض الاختلاف فينقلها بنصِّها ولا يتدخل فيها بتصحيح أو تعليق ، ولا يدلي برأيه الخاص في الاختلاف إن وجد ، فهو ينقل ما كتبه المؤرخون وبنسبه اليهم ، وهو بهذا يشبه شيخ المؤرخين الامام الطبري في طريقته في رواية الروايات وبعض هذه الروايات التي ينقلها الغازي مكذوبة ، وبعضها ملفَّق لا يقبله عقل ولكنَّ الغازي ينقلها بنصها ولا يبدي رأيه فيها ، ولا يعترض على ماهو منكر وظاهر البطلان .

وأسوق على ذلك رواية ذكرها في حديثه عن الماء في مكة وعن عيون مكة وآبارها .

فقد نقل الغازي عن كتاب « آكام المرجان في أحكام الجان » رواية منسوبة الى الشيخ نجم الدين خليفة بن محمود الكيلاني امام الحنابلة بمكة ، والذي كان يشرف على اجراء ماء العين الى مكة يقول فيها :

أنَّ رجلاً كان يعمل في الحفر فخرج مصروعاً يتكلم ويقول : نحن سكان هذه الأرض ولا والله مافيها مسلم غيري ، ولا يحلّ لكم أن تظلمونا ، وقد أرسلوني اليكم يقولون : لا ندعكم تمرُّون بهذا الماء في أرضنا حتى تقدموا لنا حقنا ، قلت وما حقكم . . . ؟ قال : تأخذون ثَوْراً فتزينونه بأعظم زينه ، وتلبسونه ، وتزفونه من داخل مكة حتى تنتهوا به الى هنا ، فاذبحوه ، ثم اطرحوا لنا دمه وأطرافه ورأسه في بئر عبدالصمد وشأنكم بباقيه ، وإلا فلا ندع الماء يجري الى هذه الأرض ، والرواية طويلة ظاهرة التلفيق وينتهي من منامه بأن الشيخ نجم الدين امام الحنابلة عرض الأمر على كبراء أهل مكة فاشتروا ثوراً وزَّينوه وألبسوه ، وخرجوا يزفونه الى الموضع الذي حدَّده رسول الجان لهم ، وقاموا بذبح الثور ، وألقوا رأسه وأطرافه ودمه في البئر التي سمَّاها ، فما أن طرحوا رأس الثور وأطرافه ودمه حتى جاء رجل الى الشيخ نجم الدين وأشار اليه بالحفر في موضع عيَّنه له ، فلما تمَّ ذلك كان الماء يموج في ذلك الموضع ، واذا طريق منقور في الجبل يمرُّ تحته الفارس فلما أصلح هذا الطريق ونُظِّف جرى الماء اليه يسمع هديره ، ولم يكن إلا أربعة أيام ، فاذا الماء بمكة وصار حول البئر مورداً . انتهى .

هذه الرواية منسوبة الى الشيخ شمس الدين الحنبلي ، ويعرِّفُه ناقل الرواية بأنه ابن القيم الجوزية ، ويصف من روى له الرواية بأنه من أصدق الناس وأعظمهم ديانة وأمانة ، وأهل البلد كله يشهدون له بالديانة والصدق وشاهدوا هذه الواقعة بعيونهم .

ويقول الشيخ الفاسي : بئر عبدالصمد المذكورة في هذه الحكاية لا تعرف الآن ، والعين المشار اليها عين بازان ويغلب على ظني أن ذلك جرى فيها لما عمَّرها أصحاب جوبان ، والله أعلم .

هذه الحكاية أوردها كذلك تقي الدين الفاسي في شفاء الغرام منقولة عن كتاب « آكام المرجان فى أحكام الجان » والرواية هذه وقعت فى سنة ست وعشرين وسبعمائة التي أجرى الامير جوبان نائب السلطنة بالعراقين الماء الى مكة(١) .

ولقد عجبت من ذكر الغازي هذه القصة وهي ظاهرة الخرافة والتلفيق ، وعجبت أكثر من رواية الفاسي لها فهذا العمل إن صحَّ فهو يدل على أن الخرافة في مكة في ذلك الزمان حلَّتْ محل العقل ، وأن الشعوذة استولت على عقول الناس فتوارت العقيدة الصحيحة لتفسح المجال لأوهام الدجالين والمشعوذين ، وإلا فكيف تقبل عقول الناس حكاية كهذه الحكاية التي يَزُفُّ فيها المكيون ثوراً يزيِّنونه ويلبسونه أحسن الحلل ، ويخرجون به من مكة في موكب بالطبل والزمر ، حتى يوصلونه الى منى فيذبحونه ، ويلقون رأسه وأطرافه ودمه في بئر استجابة لطلب الجن الذين يتحكمون فى الماء فيجرونه أو يمنعونه ، ونجد هذه الرواية منسوبة الى نجم الدين خليفة بن محمود الكيلاني أمام الحنابلة المعروف بصدقه وأمانته ويتحسر في نهايتها شمس الدين الحنبلي الذي هو ابن القيم الجوزية على أيام الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب الذي يفرق منه الشيطان ، فيجري ماء النيل دون أن يذبح له عصفور .

ترى هل نسي الشيخ شمس الدين ، والشيخ نجم الدين إمام الحنابلة ، هل نسوا الآية القرآنية الكريمة في حرمة الذبح لغير الله تعالى .

حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أُهِلَّ لغير الله به . . الى آخر الآية الكريمة ؟ وأين علماء مكة من هذا الحدث البالغ الخطورة ؟

هذه الحادثة لم يقبلها عقلي ، ولم أوردها لأنها كانت ظاهرة التلفيق والكذب وقد أيَّد ذلك عندي حادثة أخرى رواها الشيخ الغازي منقولة عن كتاب بلوغ القرى للعلامة عمر بن فهد ، في سنة ٨٩٠ ، وهي تشبه الحادثة الأولى بنصها ورد فيها اسم المحتسب سنقر الجمالي ووظيفته شاد العماير السلطانية ، وقد خرج الموكب من بيت المحتسب بالثور المزين بالملابس والحلل ، والطبل والزمر الى بركة ماجن في أسفل مكة ، وسار الموكب بعد ذلك الى أعلى مكة بسوق الليل والى بئر المظلمة التي يبدو أنها كانت في أعلى مكة بسوق الليل ، وقد زُفَّ هذا الموكب الخرافي لان مجرى عين عرفة ودبولها عميت على القائمين عليها فأرادوا بتقديم هذا الثور أن يستعينوا على معرفتها ، ولكنَّ ابن فهد الذي روى هذه الحادثة لم يذكر ما أسفرت عنه من نتائج كما وقع بالنسبة للثور السابق(٢) .

إن تكرار هذه الحادثة يدلُّ على أنها من الروايات المكذوبة التي يتداولها الناس في العهود التي تشيع فيها الخرافات والجهل ، ويستولى فيها المشعوذون على عقول العامة وأشباههم ، ولكن الغريب في الأمر ان هذه الخرفات يسجلها مؤرخون أمثال تقي الدين الفاسي ، وعمر بن فهد ، وهما من علماء مكة ومؤرخيها .

(١) انظر ذلك في شفاء الغرام ج ١ ص ٣٤٧/ ٣٥٠ .
(٢) انظر إفادة الانام مجلد ٢ ص ٣٠٥/ ٣٠٦ .

لقد امتنعت عن إيراد هذه الرواية فيما نقلته عن الغازي ، لأني موقن بعدم صحة وقوعها ، ولست أدري إن كان نقل الغازي لها إنما تم على طريقته في النقل على مسئولية المنقول عنهم ، أو أنه كان موقناً بصحة ما ينقل ، والطريقة التي أراها صحيحة هي أنه اذا كان لابد من أداء الامانة في النقل فإن الواجب هو التأكد من صحة ما ينقل عن المؤرخين ، أو إبداء الرأي في ذلك وهو أضعف الإيمان .

أما نقل الاخبار المشوهة والخرافية دون تعليق فهو يقدم للقاريء صورة مشوهة عن زمن الرواية وأهله .

ونعود بعد هذا الاستطراد الى إكمال الحديث عن الغازي وكتابه إفادة الانام .

لقد ذكرنا موجزاً عن المواضيع التي تطرق اليها الغازي في المجلدات السبعة التي تضمها موسوعته الفذة ، والتي بلغت صفحاتها أربعة آلاف وثلاثمائة وأربع وعشرين صفحة ، والتي أوقف حياته على تدوينها ، فقد ذكر معاصروه أن الرجل كان مشغولاً بالكتابة والتأليف في حانوته الصغير وكان لا يمرُّ به أحد إلا ويراه عاكفاً على الكتابة ، والأوراق بين يديه ، والكتب أمامه ، ولم يكن إفادة الانام هو الكتاب الوحيد الذي ألفه الغازي ، ولكنه أهم كتبه وأجمعها .

وقد اخترت أن يكون ما أكتبه عنه مستمداً من هذا الكتاب الهام ، وأسارع فأقول إن هذه الصفحات الكثيرة التي سيقرأها القاريء مختارة من المجلدين الأول والثاني ونصف المجلد الثالث ، والسبب في ذلك هو أنني اقتصرت في اختياري على أخبار مكة والكعبة المعظمة والمسجد الحرام وما يتعلق بهما ، وحارات مكة ، ومساجدها ، وجبالها ، وآبارها ، وعيونها ، وبالمشاعر المقدسة وما يتعلق بها عبر القرون ، وأود أن أذكر كذلك انني لم أنقل عن الغازي كل ما أورده في هذا الصدد وإنما نقلت عنه الاخبار أو الاحداث التي لم ترد فيما كتبته سابقاً في هذا الصدد ، فقد سبق لي أن لَخَّصْتُ كتابَيْ الشيخ حسينٍ باسلامة عن المسجد الحرام والكعبة المعظمة في الجزء الثاني من أعلام الحجاز(١) كما لَخَّصْتُ كتاب أحمد السباعي تاريخ مكة(٢) ، وجزءاً من كتاب تاج تواريخ البشر لأحمد محمد الحضراوي(٣) في الجزء الثالث من أعلام الحجاز .

ولقد كان كتاب إفادة الانام للغازي مصدراً من أهم مصادر السباعي في كتابه تاريخ مكة كما أن الشيخ حسين باسلامة قد استعرض نفس المصادر التي استقى منها الغازي فحرصت أن يكون ما أنقله عن إفادة الانام ، مما لم يسبق لي الحديث عنه في الترجمات التي ذكرتها آنفاً حرصاً على عدم التكرار ، وقد أشرت الى ذلك فيما نقلته .

---

(١) أعلام الحجاز ج ٢ ص١٨/ ١٢٤ .

(٢) أعلام الحجاز ج ٣ ص١٢/ ٧٤ .

(٣) أعلام الحجاز ج ٣ ص٨٣/ ١٣٠ .

كما انني لم أتعرض للحوادث السياسية التي خصَّص الغازي لها أبواباً كثيرة لان الحديث عنها ليس مكانه هذه الترجمة ، ولكنها ستكون مصدراً هاماً لمن يرغب الكتابة عن تاريخ الحجاز السياسي عبر القرون .

فقد جمع الغازي في إفادة الانام الكثير من أخبار الحوادث السياسية ، ولا شك عندي أنه كان أحد المصادر الهامة للأستاذ أحمد السباعي في كتابه تاريخ مكة .

هناك مسألة أخيرة لابد من ذكرها . .

كان الغازي حريصاً على أن يسجل كل ما يصل اليه علمه من تاريخ مكة وغيرها من البلاد العربية ، وكان في نفس الوقت شديد الحرص على أن يظلّ كتابه هذا مخطوطاً لا يُطبع ولا يُتداول بين الناس .

رأيت هذا مسجلاً في النسخة التي تفضل بإهدائها اليَّ صديقنا العلامة الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان ، وهي مصورة عن النسخة المخطوطة التي اشتراها كبير جدة الشيخ / محمد نصيف من الغازي ، والتي ذكر في جميع أجزائها حرص المؤلف الشديد على عدم سماحه بطبعها ، وكأن الشيخ محمد نصيف يرحمه الله يؤكد تعهده للمؤلف بذلك .

وعلى أي حال فإن رغبة المؤلف قد احترمت حتى الآن .

ولا شك عندي ان الدافع للشيخ الغازي على إبقاء كتابه مخطوطا ، وعدم تداوله ان الرجل تحدث عن أحداث كثيرة في أزمان مختلفة فهو من مواليد عام ١٢٩١ ، وقد عاصر الاحداث الكثيرة التي وقعت في مكة خاصة ، وفي الحجاز والعالم من حوله عامة ، عاصر العثمانيين ، وأمراء الأشراف في العهود العثمانية ، كما عاصر الدولة الهاشمية في عهد الملك حسين بن علي وابنه الملك علي بن الحسين ، وعاصر كذلك الدولة السعودية من بداية عهدها في الحجاز الى أن توفاه الله سنة ١٣٦٥ للهجرة[١] وقد ظلَّ الرجل يواصل الكتابة طيلة حياته ، حتى استوى له هذا الكتاب الموسوعي العجيب ، ولا شك عندي ان الرجل خشي أن يكون في بعض ما كتبه ودوَّنه ما لا يرضى عنه البعض من الناس ، فآثر السلامة ، وأصرَّ على أن يبقي ما كتبه مخطوطاً لا تصل اليه الأيدي والابصار ، ولا شك عندي انه لو لم يثق ثقة تامة بالشيخ محمد نصيف لما قدَّم اليه كتابه أو باعه له ، فقد قال الشيخ / محمد نصيف ان الكتاب مملوك له ، كتب ذلك في مقدمة المجلد الاول بخطه الذي أعرفه جيدا ، وفي الاجزاء الاخرى .

وفي رأيي ان الكتاب يحتوي على كل ما يتعلق بتاريخ مكة عبر القرون ، وهو جدير بأن ينشر في اجزاء متسلسلة يحمل كل جزء منها موضوعاً خاصاً ، وحبذا لو تكلفت إحدى الجامعات بتحقيقه والتعليق عليه من قبل رجال متخصصين ، وطبعه ونشره .

فإن الكتاب يعتبر مصدراً هاماً من مصادر تاريخ مكة المكرمة عبر القرون .

---

(١) التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم مجلد ١ ص ٢٢/٢٣ .

مؤلفات الغازي :

ألَّف الغازي كتبا ذكرها مترجموه وهي :

- إفادة الانام في سبع مجلدات مخطوط وهو الذى نقلنا منه مختارات في هذه الترجمة .
- مجموع الأذكار من أحاديث النبي المختار .
- رسالة في ذم اللعب واللهو سمَّاها « كشف ما يجب من اللهو واللعب » .
- رسالة في الفرائض سماها « بيان الفرائض شرح بدائع الفرائض » .
- فتح القوي في ذكر أسانيد السيد حسين الحبشي العلوي .
- تنشيط الفؤاد من تذكار الاسناد ، أو إرشاد العباد الى طريق الاسناد ، في مجلدين .
- نظم الدور في اختصار نشر النور والزهر ، وهذا الكتاب اختصار لكتاب الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير الذي يضم تراجم لعلماء مكة من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر ، ولايزال اختصار الغازي لهذا الكتاب مخطوطاً ، ولكن ظهر اختصار آخر لهذا الكتاب ، وترتيبه وتحقيقه للأستاذ محمد سعيد العامودي ، يرحمه الله ، والأستاذ أحمد علي ، أمدَّ الله في عمره .
- نثر الغرور في تذييل نظم الدرر في تراجم علماء مكة المكرمة ، وفي هذا الكتاب المخطوط أورد الغازي تراجم لعلماء مكة الذين لم يرد ذكرهم في كتاب عبدالله أبو الخير مرداد حيث توفي عام ١٣٤٣ للهجرة ، وهو في نظري مرجع لتراجم علماء مكة في عصر الغازي نفسه لانه يترجم للعلماء الذين عاصرهم في القرن الثالث عشر والرابع عشر للهجرة(١) .

وبعد فقد أطلنا الحديث عن الغازي وكتابه إفادة الانام ، وآن لنا الآن أن نفتح صفحات هذه الموسوعة لنقدم للقاريء مختارات منها .



(١) انظر ثبت مؤلفات الغازي في سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة ص ٢٠٢/٢٠٣ .

بناء الكعبة في عهد قريش

ذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز بناء قريش للكعبة قبل الاسلام ، وقد جاء فيه أن السفينة التي انكسرت قرب ساحل جدة والتي اشترت قريش أخشابها كانت لرجل رومي يتجر الى بندرٍ وراء ساحل عدن .

ونقل الشيخ الغازي في إفادة الانام رواية أخرى نوردها بنصها إكمالاً للموضوع قال الاموي : كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم الى الكنيسة التي أحرقها الفرس بالحبشة ، فلما بلغت قرب مرسى جدة ، بعث الله عليها ريحا فحطمتها .

نجار قبطي بمكة يصنع سقفاً للكعبة :

ونقل الغازي عن ابن اسحق أنه كان بمكة قبطي يُعْرَفُ بنجر الخشب وتسويته فوافق قريشاً أن يعمل لهم سقفاً للكعبة ويساعده باقوم(١) .

دعائم الكعبة من العود القافلي :

ذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز أن عبدالله بن الزبير جعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب وجاء في إفادة الانام رواية أخرى نوردها فيما يلي :

جاء في ذكر بناء ابن الزبير للكعبة أنه جعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وكانت قريش قد جعلت فيها ست دعائم في صفين .

يقول لبيب البتنوني في الرحلة الحجازية عن هذه الدعائم الثلاث أنها من العود القافلي عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزان من جهة ، وحائط الحجر الاسود من جهة أخرى ، وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتيمتراً ، وهي من زمن عبدالله بن الزبير ، وقيمتها أكبر من أن يقدر لها ثمن ويقال أن عليها كتابة محفورة ولكني لم أرها(٢) .

---

١ - إفادة الانام مجلد ١ ص ٢١٥/٢١٦ .

٢ - إفادة الانام مجلد ١ ص ٢٦٥/٢٦٦ وانظر الرحلة الحجازية ص ١٠٦ .

أراد السلطان أن يجعل حجارة الكعبة من الذهب والفضة :

نقل الغازي عن السيد أحمد دحلان في السالنامة الحجازية أن السلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد سليم الثاني بن سليمان الأول فاتح مصر أنه أراد أن يجعل حجارة الكعبة المعظمة ملبَّسة حجراً بالذهب وحجراً بالفضة ، فمنعه شيخ الاسلام المولى محمد بن سعد الدين وقال له : هذا يزيل حرمة البيت ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت فكفَّ السلطان عن ذلك[1] .

لون الحجر الأسود من الداخل :

ذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ما أورده المؤرخون عن الحجر الأسود والحوادث التي تعرض لها ونضيف إلى ذلك ما ذكره الشيخ الغازي إكمالاً للفائدة .

جاء في ذكر عمارة الكعبة الشريفة في العهد العثماني ما يلي :

وفي سابع رجب حضر مولانا الشريف وبعض أبناء عمه وجملة من الأعيان ، وأرباب العمارة ، وأرادوا خلع الحجر الأسود لتمكينه في محله على وجه الكمال ، فما أمكن لهم ذلك ، وغاية ما قدروا عليه رفع الحجر الذي فوقه .

يقول المؤلف : وأخبرني مولانا الشيخ عبدالعزيز الزمزمي ، وكان حضر هذا المجلس معهم أنه رأى باطن الحجر ، وأن لونه أشهب ، وأنه مربع كتربيع المفتاح[2] .

أقول : كانت عمارة السلطان سليم العثماين للمسجد الحرام بدأت في سنة ٩٨١ للهجرة واستمرت حتى سنة ٩٨٤هـ ، وقد كانت عمارة عظيمة أبدلت فيها السقوف الخشبية بالقباب الموجودة حاليا ، وتوفي السلطان سليم قبل إتمامها فأكملها السلطان مراد الثاني[3] ونقل الغازي عن الشيخ محمدبن علان الصديقي وهو يتحدث عن شظايا الحجر الأسود حينما تفتت بعضها وأخرجت في عمارة الكعبة الشريفة التي حدثت في عام ١٠٣٩هـ .

يقول محمد بن علان وأخبرني الجمّال الوقاد أن لون ما انكشف من الأحجار التي تفتت أخضر زيتي ، وقال غيره فيه شوب صفرة كالمحبب بالزعفران[4] .

أقول : العمارة التي حدثت في سنة ١٠٣٩هـ كانت بسبب سقوط الجدار الشامي للكعبة ، كما سقط بعض جداريها الشرقي والغربي ، وقد فصّلنا ذلك في الجزء الثاني من أعلام الحجاز[5] .

---

(١) إفادة الانام مجلد ١ ص ٢٨٠ .
(٢) إفادة الانام مجلد ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(٣) انظر اعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٤ ـ ٢٧
(٤) إفادة الانام مجلد ١ ص ٣٤٥ .
(٥) انظر اعلام الحجاز ج ٢ ص ٧٢ وما بعدها .

ذرع الحجر الأسود :

وجاء في الرسالة التي ألفها الشيخ / محمدبن علان الصديقي الشافعلي والتي سماها «العمل المفرد في فضل وتاريخ الحجر الأسود» مايلي :

ولون ما يستتر من الحجر الأسود بالعمارة في قدر الكعبة أبيض بياض حجر المقام ، وذرع طوله نصف ذراع بذراع العمل ، وعرضه ثلث ذراع ، ونقص منه قيراط في بعضه لتآكل ذلك المحل منه ، وسمكه أربعة قراريط[1] .

أقول : قد يرى القارىء في وصف لون الحجر الأسود اختلافا بين الرواة ، ولعل مرد ذلك إلى وصف كل منهم للألوان حسب تقديره لها ، وحسب الأوقات التي تمت فيها الرؤية وتعرض الحجر للضوء ، ولكن الأوصاف كلها متقاربة في حقيقتها .

إحضار خشب الساج من بيوت جدة لعمارة الكعبة :

ويقول الشيخ / محمد بن علان في حديثه عن عمارة الكعبة الشريفة في العهد العثماني : وفي يوم السبت بوم عيد المعراج ، أصبح ابن شمس الدين من جدة ، وقد عينً لسقف الكعبة من خشب الساج من بيوت جدة ، وينتقد ابن علان شمس الدين هذا فيقول :

وارتكب في جمعه ما يجازيه الله تعالى عليه في عرصات القيامة ، فكم أخرب بيتا وهدم وقفا ، والبيت في غنى عن ذلك ، وقد كان بغير سقف في بناية ابراهيم عليه السلام .

وقد ألهم الله قريشا في الجاهلية أن لا يدخلوا في البيت شيئا غصباً وأن إخراج أذرع منه إلى الحجر أهون من إدخالهم ذلك فيه فانتبه[2] .

أقول : لم يقدم الشيخ / بن علان تفصيل ما اغتصب من بيوت جدة تأييدا لما أورده عن ذلك ، أما عن المعراج فإن يوم المعراج هو يوم السابع والعشرين من شهر رجب كما تعارف الناس في تلك الأيام .

عربة يجرها إثنى عشر جملا لنقل عمود من الخشب للكعبة :

ويقدم لنا الشيخ بن علان صورة لنقل أحد الأعمدة الثقيلة المراد استعمالها في عمارة الكعبة يقول :

وصل كاتب جدة المحروسة الشهاب أحمد القباني ومعه بعض أخشاب السقف الباقي ووصل «بالبستل» قطعة من دَقَلِ مَرْكَبٍ من نحو ثلاثة ، حمل من جدة على عجلتين مقدمين ومثلهما مؤخرين ، وجُرَّتْ بإثنى عشر جملا ، وأدخلت القطعة من باب الصفا حملها إثنىْ عشر رجلا ، ووضعوها أمام المقام المالكي .

---

(١) إفادة الأنام مجلد ١ ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٢) إفادة الأنام مجلد ١ ص ٣٥٩ .

أما العمودان الباقيان لسقف الكعبة فقد حمل أحدها على خمسة عشر رجلا وألقيتا عند باب إبراهيم(١) .

أقول : الدَّقَل بتشديد الدال وفتحها وفتح القاف ، هو العمود القوي الذي يستعمل في المراكب الشراعية ، والذي يربط إليه الشراع ، ويكون عادة من أقوى أنواع الخشب وأثقلها ليتحمل ضغط الرياح التي تتعرض لها المراكب الشراعية في البحر ، وقد تمَّ نقل هذه العمدان من جدة إلى مكة كما ذكر لنا الشيخ بن علان بعمل مركبة ذات عجلتين في مقدمتها وعجلتين في مؤخرتها ووضعت الأعمدة على هذه العجلة ، وقام بجرها إثنى عشر جملاً حتى أمكن إيصالها إلى المسجد الحرام في مكة .

السلم الذي يصعد به إلى الكعبة :

عقد الشيخ عبدالله الغازي فصلا عن السلم الذي يصعد به إلى الكعبة ، نلخص ما جاء فيه بما يلي :

كان السلم الذي يصعد به إلى الكعبة في زمن مؤرخ مكة أبو الواليد الأرزقي وهو من رجال القرن الثالث (٢) من خشب الساج وفيه ثلاث عشر درجة .

وذكر الشيخ محمد بن علي الطبري في الاتحاف : أن المؤيد الجركسي أرسل في سنة ثمانمائة وثمانية عشر ، منبرا حسنا إلى المسجد الحرام ، كما أرسل درجة يصعد عليها إلى الكعبة ، ووصل المنبر والدرجة إلى مكة في موسم العام المذكور .

وقال السنجاري في المنائح :

وفي سنة ألف وتسعين جدد شيخ الحرم درجة الكعبة وجعل لها حاجزاً من خشب وكان أول الدخول عليها يوم الجمعة سادس عشر رمضان من العام المذكور .

والى جدة يمنع وصول درجة مهداة إلى الكعبة :

وجاء في اتحاف فضلاء الزمن : أن رجلا من أثرياء الهند يدعى حسين حميدان ، أرسل في سنة سبع وعشرين ومائة وألف ، درجة للكعبة ، فامتنع والي جدة سليمان باشا عن قبولها وقال : لا أركبها ، فبقيت الدرجة المذكورة في جدة إلى أن انتهت ولاية سليمان باشا فأرسلها الوالي الجديد محمد المعمار إلى مكة فوصلت إليها وركبت في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة وألف ، ولكنَّ شريف مكة أمر برفعها ولم يمض على بقائها إلا ثمانية أيام ، وأمر كذلك بإعادة الدرجة القديمة لعدم استئذانه ، واستئذان السلطنة في أمرها ، فحفظت في بيت السادن الشيخ / عبدالقادر الشيبي وأسلوا إلى الأستانة يستأذنون السلطة في الأمر ، ولم يصل الأمر باستعمالها من الأستانة إلا في مفتتح سنة ألف ومائة واثنين وثلاثين بعد أن ظلت حبيسة في بيت السادن خمس سنوات .

---

(١) إفادة الأنام مجلد ١ ص٣٦٣ .

(٢) أنظر أخبار مكة للأزرقي صفحة ١٣/ ١٥ الجزء الاول .

وجاء في وصف هذه الدرجة أو هذا السلم أنه قام بخدمة دهنها وزخرفتها الحاج خضر الشامي بأمر ابراهيم باشا والى جدة حتى صارت نزهة من النزهات وفرحة من الفرحات .

سلم الكعبة :

ويواصل الشيخ / عبدالله الغازي حديثه عن سلم الكعبة فيقول :

وفي سنة ألف ومائتين وعشرين أرسل نواب مدراس محمد منور خان درجة للكعبة من خشب الساج فيها إحدى عشر درجة .

وفي سنة ألف وثلاثمائة أرسل إلى مكة نواب رانقون ـ علي خان ـ درجة من الخشب ملبسة بالفضة من جميع جوانبها وأحضر هذه الدرجة أو هذا السلم على الأصح مندوب عن نواب رانقون اسمه حسين بخش خان ، ولكنَّ الحكومة في مكة امتنعت عن استعمال هذا السلم الفضي إلى أن يستأذن السلطنة في أمره ، فلما وصل الإذن بذلك جعلت لاستعمال النساء في يوم نوبتهم .

يقول الشيخ / الغازي : ثم ترك استعمالها مرة واحدة ، وبلغت مصاريفها التي صرفت مع ما عليها من الفضة خمسة وثمانين ألفا وثلاثمائة وأربع وستين ريالا ، ذكر ذلك الشيخ / نجم في أخبار الصناديد[1] .

أقول أدركت السلم الذي يصعد به إلى داخل الكعبة ، وهو ملبس بالفضة من جميع جوانبه في منتصف القرن الرابع عشر الهجري ، ووصفه مطابق لوصف السلم الذي أهداه نواب رانقون ، ولكنني لا أستطيع الجزم بأنه هو ، وربما كان لدى إدارة الحرم المكي الشريف علم عن حقيقة الموضوع .

عمر بن الخطاب يقسِّم كسوة الكعبة على الحجاج :

نقل الشيخ / عبدالله الغازي رواية عن الأرزقي مؤرخ مكة قال :

حدثني جدي عن مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن أبيه أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان ينزع كسوة البيت فيقسمها على الحجاج[2] .

معاوية يقسم الكعبة بين أهل مكة :

وكساها معاوية بن أبي سفيان الديباج مع القباطي وأمر شيبة بن عثمان أن يجرد الكعبة عن الكساوي ويخلِّقها بالطيب ، ويلبسها ما جهزوا لها، فجرَّدها وطيَّبها ، وطيَّب جدرانها بالخلوق وكساها تلك الكسوة التي بعث بها معاوية ، وقسَّم الثياب التي كانت عليها بين أهل مكة وكان عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حاضراً في المسجد الحرام فما أنكر ذلك ولا كرهه[3] .

---

(١) إفادة الانام مجلد ١ ص ٤٠١ ـ ٤٠٧ .

(٢) إفادة الانام مجلد ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

(٣) إفادة الانام مجلد ١ ص ٤٤٥ .

عائشة تستفتى في ثياب الكعبة القديمة :

أخرج الأرزقي عن شيبة بن عثمان أنه دخل على عائشة رضي الله عنها فقال : يا أم المؤمنين : إن الكعبة تجتمع عليها الثياب الكثر فنعمد إلى بئر فنحفرها وندفن فيها ثياب الكعبة ، فلا يلمسها الجنب والحائض ، فقالت عائشة : ما أصبت ، وبئس ما صنعت ، إن ثياب الكعبة إذا نزعت عنها لا يضرها من لمسها من حائض أو جنب ، ولكن بعها ، واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى ، وابن السبيل ، وتصدَّقْ بثمنها .

ونقل جواز البيع عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد بحث هذا الموضوع علماء الشافعية وأجاز بعضهم البيع ، وفوض بعضهم الأمر فيها إلى الإمام ، وقد استعرض الغازي أقوال الفقهاء في أمر كسوة الكعبة القديمة ثم أورد رأيه فقال :

والذي يظهر لي أن كسوة الكعبة الشريفة إن كانت من قبل السلطان ، من بيت مال المسلمين فأمرها راجع له ، يعطيها لمن يشاء من الشيبيين وغيرهم ، وإن كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها لمن عيَّنها ـ وإن جُهل الشرط عمل فيها بما جرت به العوائد السابقة كما هو الحكم في سائر الأوقاف .

كسوة الكعبة بين أمراء مكة والسادن :

نقل الفاسي أن أمراء مكة كانوا يأخذون من السدنة ستارة باب الكعبة في كل سنة مع جانب كبير من كسوتها ، أو ستة آلاف درهم كاملة عوضا عن ذلك إلى أن رفع ذلك عنهم السيد عنان بن مغامس لمَّا ولي أمر مكة في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، وتبعه أمراء مكة في الغالب .

ثم أن السيد حسن عجلان بعد سنين من ولايته صار يأخذ منهم الستارة وكسوة المقام ، ويهديها لمن يريد من الملوك وغيرهم ، وقد استمر الأمر كذلك من أمراء مكة بعد السيد حسن عجلان مع الحجبة إلى يومنا هذا . . . . انتهى .

أقول : إن كاتب هذا هو السيد تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة المكرمة ، ومنه يفهم ما جرت عليه العادة في أمر الكسوة في زمنه .

كيفية قسم الكسوة بين السدنة :

ونقل الغازي عن الشيخ / حسن الشيبي في الاتمام : أن العادة التي تداولت في كسوة الكعبة المعظمة هو أن حجبة الكعبة المعظمة من بني شيبة يأخذون الكسوة العتيقة لأنفسهم ويقسمونها بينهم بالسوية ذكورا وإناثاً وأطفالاً ، وأن المولود منهم في يومه يستحق كما يستحق الشيخ منهم ويجعلون لرأسهم أي شيخهم سهمين كما هي عادتهم في تقسيم الهدايا من الزوار بينهم (١) .

---

(١) إفادة الأنام مجلد ١ ص ٤٤٥ ـ ٤٤٨ .

أقول : كانت الكساوي التي تهدى إلى الكعبة حتى من قبل الإسلام تترك عليها ولا تنزع وقد أوردت في الجزء الثاني من أعلام الحجاز : ما ذكره مؤرخو مكة المكرمة عن هذا الأمر[١] وأوردنا هنا ما ذكره الشيخ / الغازي في إفادة الآنام إكمالا للبحث ومنه علمنا الرأي الحصيف الذي أفتت به أم المؤمنين في أمر كسوة الكعبة بعد أن تنزع عنها ، ومافعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في تقسيمها للحجاج ، وما فعله معاوية من تقسيمها بين أهل مكة ، وما ذكره الفقهاء في أمر الكسوة ، وقد أصبحت الكسوة منذ عام ١٣٤٥ تصنع في مكة المكرمة وتصرف عليها الدولة كما هو معلوم .

الوليد بن عبدالملك يحلِّي باب الكعبة وأساطينها بالذهب :

ذكر الأرزقي أن الوليد بن عبدالملك أرسل بستة وثلاثين ألف دينار ، يضرب منها على باب الكعبة صفائح الذهب ، وعلى أساطينها ، وعلى الميزاب ، وعلى أركانها من الداخل[٢] أقول : الوليد بن عبدالملك سادس الخلفاء الأمويين ، وقد اشتهر بحبه لعمارة المساجد ، وصرفه عليها بسخاء وهو الذي بنى جامع بني أمية في دمشق ، كما أدخل بيوت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد النبوي الشريف وزاد فيه زيادة عظيمة[٣] .

الخليفة المتوكل يصفح زوايا الكعبة بالذهب :

وذكر الأرزقي أن حجبة الكعبة أرسلوا إلى الخليفة المتوكل العباسي يذكرون أن زاويتين من زوايا الكعبة من داخلها مصفح بالذهب ، وزوايا أخرى مصفحة بالفضة ، وسألوه أن يجعل الزوايا كلها مصفحة بالذهب ، فأرسل المتوكل إلى اسحاق بن ـ الاسم غيرواضح ـ الصايغ ذهبا ، وأمره بعمل ذلك ، فكسر اسحاق تلك الزوايا وأعادها من الذهب ، وعمل منطقة من فضة ركبها فوق باب الكعبة من داخلها عرضها ثلث ذراع ، وجعل لها طوقا من الذهب متصلا بهذه المنطقة .

قال الأرزقي : وكان أسفل الباب عتبة من خشب الساج ففسدت ، وتآكلت فأبدلها بخشب آخر وألبسه صفائح من فضة .

قال اسحاق الصايغ : وكان مجموع الزوايا والطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ومنطقة الفضة وما على الباب وما حلِّي به المقام من فضة سبعين الف درهم[٤] .

---

(١) أنظر الجزء الثاني من أعلام الحجاز ص ٨٧ ـ ٩٧ .
(٢) إفادة الأنام مجلد ١ ص ٤٤٩ .
(٣) اعلام الحجاز ج ٢ ص ١٩٦ ـ ٢٠٠
(٤) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٤٩ / ٤٥٠

بعض ولاة مكة يقطع الذهب من عضادتى باب الكعبة :
ذكر التقى الفاسى ان بعض ولاة مكة قطع ايام الفتنة عضادتي باب الكعبة وغيرها وسبكها دنانير ، وصرفها على الفتنة .

الخليفة المعتضد يعيدها ذهبا :
فكتب حجة البيت إلى الخليفة المعتضد بذلك فأمر باعادة ذلك جميعه فاعيدت كما اشار به[1] اقول : ولي الخليفة العباسى المعتضد في سنة تسع وسبعين ومائتين وكان خليفة حازما اعاد للخلافة هيبتها بعد ان ضعف امر الخلفاء ، وفي أيامه ظهر القرامطة ووقعت بينه وبينهم وقائع كثيرة مبسوطة في كتب التاريخ[2] .
اما الفتنة التى ذكر ان بعض ولاة مكة اخذ فيها عضادتي باب الكعبة الذهبيتين وسبكها دنانير وصرفها على الفتنة فلم أعثر على نص صريح عنها ، ولكن وقعت في مكة قبل خلافة المعتضد فتنة في سنة مائتين واثنين وسبعين بين أمير مكة ويوسف بن الساج وبدر غلام احمد الطائى أمير المدينة المنورة ووقع القتال على ابواب المسجد واسر ابن الساج بدرا ، فغضب له بعض اهل الحج ، وثاروا على ابن الساج حتى اسروه وساقوه إلى بغداد فربما كانت هذه الفتنة هي التى وقع فيها ما اشار اليه الحجبة[3] .

أم الخليفة المقتدر تلبس اسطوانات البيت الشريف ذهبا :
وذكر الفاسى أن أم الخليفة المقتدر العباسى امرت غلامها لؤلؤ ان يتوجه إلى مكة وان يلبس جميع اسطوانات البيت ذهبا ففعل ذلك في سنة عشر وثلاثمائة[4] .

الوزير الجواد يحلى اركان الكعبة بصفائح الذهب والفضة من الداخل :
وذكر الفاسى ان الوزير جمال الدين بن محمد بن على بن منصور المعروف بالجواد الذى تولّى الوزارة في مصر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، أرسل صاحبه إلى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل صفائح الذهب والفضة في أركان البيت من الداخل[5] .
أقول : ذكرنا قبلا ان الخليفة المتوكل العباسى أمر بعمل زوايا الكعبة من الذهب ، ولابد ان هذه الزوايا الذهبية قد ذهبت بتو إلى القرون او ذهب بعضها فاراد الوزير الجواد ان يعمل شيئا فيها .

---

(١) افادة الانمام مجلد ١ ص ٤٥٠
(٢) البداية والنهاية ج ١١ ص ٨٦
(٣) تاريخ مكة ١٦٧
(٤) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٥٠/٤٥١
(٥) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٥١

هدايا الكعبة :

كنت ذكرت في الجزء الثانى من اعلام الحجاز تلخيصا لكتاب الشيخ حسين عبدالله باسلامه عما ورد من الهدايا للكعبة المعظمة عبر العصور ، وقد وجدت ذلك كله مسجلا في كتاب افادة الانام للشيخ / عبدالله الغازى مع هدايا اخرى لم يرد ذكرها في كتاب الشيخ / باسلامه فرأيت اكمالا لهذا البحث ان اذكرها هنا ، واود ان اذكر ايضا انه ربما كانت هناك هدايا اخرى كثيرة لم نتطرق إلى ذكرها لان ما بايدينا من كتب المؤرخين لم يتطرق اليها .

الظاهر بيبرس يهدى قفلا للكعبة :

اهدى الظاهر بيبرس صاحب مصر قفلا ومفتاحا للكعبة المشرفة وركب عليها القفل المذكور اقول : الظاهر بيبرس من سلاطين المماليك ، تولى السلطنة في مصر بعد مقتل السلطان قطز في شهر ذي القعدة سنة ٦٥٨ وبالرغم من اشتراكه في مقتل السلطان قطز الا انه كان من المشاركين في حرب التتار وانتصار المسلمين عليهم(١) .

الكوكب الدري إلى المدينة المنورة :

جاء في تحصيل المرام : ارسل السلطان احمد بن محمد بن مراد الكوكب الدري وقال : لا قيمة له ، ولم يسبق لاحد من ملوك الهند والعجم مثله وعلق على القبر الشريف(٢) اقول : لا قيمة له تعنى ان قيمته لا تقدر بمال .

حجر من الماس من آثار الدولة العثمانية :

وفي سنة الف ومائة وثمانية واربعين قدم شعبان افندى المدينة المنورة ومعه حجر من الماس محفوف باحجار مختلفة مكتوب بصفائح الذهب والفضة ، وهذا الحجر من آثار الدولة العثمانية فوضع الحجر المذكور تحت الحجر الذى وضعه السلطان احمد خان(٣) .

حجران من الماس ثمنهما ثمانون الف دينار :

وقال السيد / احمد دحلان في السالنامة ، ومن مفاخر السلطان احمد انه في سنة اربع وعشرين والف بعث للحجرة النبوية الشريفة فصين من الالماس قيمتهما ثمانون الف دينار ، فوضعها فوق الكوكب الدرى ، وهذا الكوكب تجاه الوجه الشريف ، وهو مسمار من الفضة مموه بالذهب . في رخامة « الكلمة غير واضحة تماما » حمراء ، من استقبله كان مستقبل الوجه

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٥٧

(٢) انظر كتاب دولة الظاهر بيبرس في مصر للدكتور / محمد جمال الدين سرور

(٣) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٥٩ .

الشريف[1] اقول : ذكرنا في الجزء الثاني من اعلام الحجاز نقلا عن كتاب مرآة الحرمين لابراهيم رفعت باشا ان الحجرين من الالماس المذكورين نقلهما فخري باشا إلى الاستانة خلال الحرب العالمية الاولى ، ولم يعادا إلى الآن[2] و فخري باشا هو القائد التركى ووالي المدينة قبيل الحرب العالمية الاولى وحينما قام الشريف الحسين بن على بالثورة ضد الدولة العثمانية قاوم الثورة مقاومة شديدة وحينما ترك المدينة اخذ معه ذخائر الحجرة النبوية الشريفة وهداياها ومن ضمنها الكوكب الدري ، وأحجار الماس التى مرَّ ذكرها ، وقال لى بعض الاخوان انها موجودة بمتحف توب كابى في مدينة استنبول ، اما الوصف الذى نقل عن السالنامة للكوكب الدري فيبدو لى أنه غير دقيق ، لان المعروف ان الكوكب الدري هو حجر كبير من الالماس الثمين لا تقدر قيمته بمال كما ورد في وصفه قبل ، وليس مسمارا من الفضة مموها بالذهب .

البتنونى يصف الذخائر الموجودة في الكعبة :

نقل الغازى عن الرحلة الحجازية للبتنونى مايلى :

ومعلق في سقف البيت ـ الكعبة ـ كثير مما بقى من الذخائر التى اهديت إلى الكعبة ، ومن ذلك مصباحان ذهبيان مرصعان بالجوهر ، اهداهما للكعبة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٨٤[3] .

اقول : حج الخديوى عباس حلمى الثانى خديوى مصر في سنة ١٣٢٧ هجرية ، وكان محمد لبيب البتنونى في ركاب الخديوى والف كتابا سماه الرحلة الحجازية يصف فيه حج الخديوى وزياراته للاماكن المقدسة ، وافرد فيه فصولا تاريخية هامة عن الحجاز وقبائله واحواله وحكامه يعتبر مرجعا هاما من كتب الرحلات الى الحجاز .

الشريف غالب أمير مكة يربِّى السادن في داره :

توفي في عام الف ومائتين وعشرة ـ او اثنتى عشرة ـ سادن بيت الله الحرام الشيخ عبدالقادر الشيبى ولم يؤخر من الذكور احدا عدا ابن عمه محمد زين العابدين وهو يومئذٍ حديث السن ولم يوجود في زمانه احد غيره من السدنة الفاتحين للكعبة المعظمة وكان أمير مكة يومها الشريف غالب بن مساعد فاحتضنه وربَّاه في بيته إلى ان كبر ، وعيَّن على املاكه عالما من علماء مكة يقال له الشامى ، وولد للسادن الصغير بعد ان شب وتزوج ستة من الولد هم « عبدالقادر ، وجعفر ، وسليمان ، ومحمد ، وعبدالله ، وعلى .

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٥٩

(٢) اعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٠٣

(٣) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٦٠ / ٤٦١

يقول الشيخ / الغازى : فأما عبدالقادر وسليمان فانهما عقيمين ، واما الباقون فذريتهم موجودون[1] .

الشريف عون يعزل السادن وينفيه عن مكة :

ذكرنا في الجزء الثالث من اعلام الحجاز خبر الشكوى التى بعثها مشايخ علماء مكة إلى السلطان عبدالحميد ضد الشريف عون أمير مكة المكرمة ، وما صدر به أمره من عزلهم عن الفتيا ونفيهم عن مكة المكرمة ، وقد ذكر الشيخ / الغازى ان سادن بيت الله الحرام الشيخ / عبدالرحمن بن عبدالله بن محمد بن زين العابدين كان من ضمن من وقَّعوا على الشكوى التى بعثت إلى السلطان عبدالحميد وذكر ان ذلك كان في عام الف وثلاثمائة واحدى عشر ، وان سبب الشكوى هو خلاف حصل بين الشريف عون والوالي التركى عثمان نورى باشا ، وان الامر صدر من الخلافة بعزل المفتيين من وظائفهم ونفيهم عن مكة المكرمة عدا الشيخ عبدالرحمن الشيبى فانه لم ينف من مكة ولكنه خرج منها إلى الهدا وهى قرية قريبة من الطائف ، وبقى فيها حتى توفاه الله ، واسند الشريف عون سدانة البيت إلى الشيخ محمد صالح بن احمد بن زين العابدين[2] .

اقول : لهذه الحادثة تفصيل اوفى ذكرناه في الجزء الثالث من اعلام الحجاز، فليرجع اليه من شاء الاستزاده[3] .

السلطان عبدالحميد يبنى بيتا لمفتاح الكعبة :

سافر الشيخ / على بن محمد بن زين العابدين وكان شقيقا لسادن بيت الله الحرام الشيخ / احمد بن محمد بن زين العابدين سافر إلى دار السعادة ـ استنبول ـ في زمن السلطان عبدالحميد خان ، فقابله السلطان واكرمه وامر باعطائه مالا لتعمير بيت لمفتاح الكعبة المشرفة ، وعاد الشيخ على من الاستانة واتفق السدنة ان يبنى المنزل وان يسكنه من يتولى السدانة منهم وتمت عمارة البيت ولكن السادن لم يتمكن من سكناه حيث ادركته الوفاة فنقل اليه وغسل وكفن فيه ، ثم خرجت جنازته منه[4] .

ماذا فعل القرامطة بالحجر الاسود :

كنت اوردت في الجزء الثانى من اعلام الحجاز قصة دخول القرامطة إلى مكة في شهر ذي الحجة من سنة ثلاثمائة وسبع وعشرين للهجرة ، وما قاموا به من الفظائع من قتل الناس في

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٧٢/ ٤٧٣
(٢) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٧٢/ ٤٧٣
(٣) اعلام الحجاز ٣ ص ٣٤٧/ ٣٤٨
(٤) افادة الانان مجلد ١ ص ٤٧٣

المسجد الحرام ونهب بيوت مكة ، واقدامهم على اقتلاع الحجر الاسود واخذه معهم إلى هجر ، وقد ذكر الشيخ / الغازى في افادة الانام ان القرمطى ذهب بالحجر الاسود وعلّقه على الاسطوانة السابعة من جامع الكوفة ، وانه استمر عنده إلى ان اشتراه المطيع لله او المقتدر العباسى بثلاثين الف دينار ، واعيد إلى مكانه سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة[1] .

اقول القرمطي كان يسكن هجر وان الخبر الذى اورده الشيخ الغازى يذكر ان القرمطي علّق الحجر على الاسطوانة السابعة من جامع الكوفة ، وان الحجر استمر عند القرامطة اثنين وعشرين عاما حتى أعيد إلى مكة بعد ان اشتراه الخليفة المقتدر العباسى بثلاثين الف دينار ، ولو ان الحجر علّقَ في جامع الكوفة لما احتاج الخليفة العباسى إلى شرائه ، فالكوفة كانت في حكم الخلفاء العباسيين في ذلك الزمان ، ولَمَا استمر الحجر مغيباً عن مكة وعن مكانه من البيت المعظم طيلة اثنين وعشرين سنة والأقرب إلى المعقول ان يكون الحجر قد بقي لدى القرامطة في هجر في السنوات التى غيب فيها عن مكة إلى ان اعيد إليها وقد ذكر الغازى بعد ذلك ان ابوطاهر القرمطى بنى دارا في هجر سماها دار الهجرة ، اراد ان ينقل الحج اليها ، وهذا الخبر يدل على بقاء الحجر في هجر ، وقد فصلنا البحث في هذا الموضوع في الجزء الثانى من أعلام الحجاز كما سبقت الاشارة ، فليرجع اليه من شاء الاستزاده .

تطويق الحجر الاسود :

كنت ذكرت في الجزء الثانى من اعلام الحجاز أن عبدالله بن الزبير رضى الله عنه لما قام ببناء الكعبة وجد ان الحجر الاسود انقسم إلى ثلاثة شظايا من تأثير الحريق الذى وقع في الكعبة فشدَّ ابن الزبير الشظيتين اللتين وجدهما من الحجر بالفضة ، أما الشظية الثالثة فقد بقيت عند بعض آل شيبة دهرا[2] .

وقد ذكر الشيخ / عبدالله الغازى ماجدَّ بعد ذلك من اعمال الخلفاء والسلاطين في الحجر الاسود فرأيت ايراده اكمالا للموضوع .

هارون الرشيد يطوق الحجر بالفضة :

ثم كانت الفضة التى صنعها ابن الزبير للحجر قد رثت وتزعزعت حول الحجر الاسود ، حتى خافوا على الركن ان ينقض ، فلما اعتمر أمير المؤمنين هارون الرشيد في سنة تسعة وثمانين ومائة امر بالحجارة التى بينها الحجر الاسود فنقبت بالالماس من فوقها ، ومن تحتها ، ثم افرغ فيها الفضة وبقى الحجر كذلك إلى ان قلعه القرامطة ، ولما اعيد الحجر في خلافة المطيع - الصحة في خلافة المتقدر العباسى - جعل له طوق ثم جدد مرارا .

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص ٤٩٥ وانظر الجزء الثانى من اعلام الحجاز ص ٨٠/٨٤

(٢) انظر تفصيل ذلك في اعلام الحجاز ٢ ص ٦٥/٦٦

السلطان عبدالمجيد يطوق الحجر بالذهب :

ثم في سنة الف ومائتين وثمانية وستين بعث السلطان عبدالمجيد العثماني طوقا من ذهب صحبة الشريف عبدالمطلب في ذي القعدة من ذلك العام ، يقول الغازي وذلك الطوق بحسب التخمين نحو الف دينار ، ثم رُكِّبَ بعد ان ازيلت الفضة ومكتوب فوقه « بسم الله الرحمن الرحيم » ويقول الغازي نقلا عن الحضراوي في كتاب نزهة الفكر :

ولم يعلم ان الحجر الاسود قد طوق بالذهب قبل ذلك ، ويصف الحضراوى طوق الفضة الذى كان مطوقا به الحجر بقوله : كان في غاية الاتقان من التنقيش ومكتوب حوله آية الكرسى ، وبعض آيات قرآنية ، ويقول كذلك ان طوق الفضة هذا ارسل إلى الاستانة بعد ان حل محله طوق الذهب الذى ارسله السلطان عبدالمجيد .

ونقل عن الحضراوي ان وزن هذا الطوق الذهبى عشر اقات ، ولعل الصحة ان وزنه عشر اوقيات او ان ذلك خطأ من الناسخ لكتاب الحضراوى ويقول الحضراوى كذلك : واصل ذهب هذا الطوق من كنز وجد بمكة في شعب اجياد[١] .

اقول : كان الشيخ / احمد الحضراوى من معاصرى هذه الفترة التى ارسل فيها السلطان عبدالمجيد الطوق الذهبى للحجر الاسود فقد ولد الحضراوى سنة ١٢٥٢ هـ بالاسكندرية وهاجر مع والده إلى مكة وهو ابن سبع سنين ، فروايته عن الطوق الذهبى الذى ارسله السلطان عبدالمجيد هى رواية المشاهد المعاصر للحدث ، ولكن ما لفت نظرى في رواية الحضراوى قوله : ان هذا الذهب اصله من كنز وجد في شعب اجياد بمكة المكرمة فهل ارسل هذا الكنز الذهبى إلى الاستانة وامر السلطان عبدالمجيد بصنع الطوق الذهبى منه ؟ ويقول الحضراوى : ان السلطان عبدالمجيد ارسل بميزاب للكعبة مصفحا بالذهب الخالص وهو بقية ذلك الذهب الذى وجد في شعب اجياد .

ومن المهم ان نذكر ان الشيخ / الغازى يذكر الروايتين ولا يرجح بينهما ولا يعلق عليهما وذلك اسلوبه في ايراد الرويات التى يذكرها .

تغيير الفضة المحاطة بالحجر الاسود فى زمنِ السلطان رشاد :

وفي سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة وألف غُيرت الفضة المحاطة بالحجر الأسود ، وذلك في خلافة السلطان محمد رشاد خان ابن السلطان عبدالمجيد خان[٢] .

أقول : نقلنا ما ذكره مؤرخو مكة عن ارسال طوق ذهبي من السلطان عبدالمجيد للحجر الاسود فى سنة ألف ومائتين وثمانية وستين ، والخبر الذى ذكرناه آنفا يذكر أن السلطان محمد رشاد بن السلطان عبدالمجيد غيرَّ الفضة المحاطة بالحجر الاسود ، فأين ذهب الطوق الذهبي الذي أرسله والده في عام الف ومائتين وثمانية وستين ؟

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص ٥٠٤/٥٠٥

(٢) افادة الانام مجلد ١ ص ٥٠٦

تحلية مقام الخليل ابراهيم عليه السلام :

جاء في افادة الأنام في الفصل الخاص بمقام ابراهيم عليه السلام ، أن موضع غوص القدمين ملبس بالفضة ، وعمقه من فوق الفضة سبع قراريط ونصف قيراط .

وروى الأرزقي عن عبدالله بن شعيب بن شبَّه عن جبير بن شبَّه قال :

ذهب ربع المقام في خلافة المهدى ، قال : وهو من حجر رخو يشبه السنان فخشينا أن يتفتت فكتبنا في ذلك الى المهدى فبعث الينا بألف دينار فصنعنا بها المقام ، أعلاه وأسفله ولم يزل ذلك الذهب عليه ، حتى ولي أمير المؤمنين المتوكل على الله فجعل عليه ذهبا فوق ذلك الذهب وفي سنة ست وخمسين ومائتين ذكر الحجبة لعلي بن حسن العباسي أمير مكة في ذلك الزمان أن المقام قد وهى ويخاف عليه ، وسألوه أن يجدد عمله ، فأمر بقلع ما على المقام من الذهب والفضة ، وضم اليه ذهباً آخر وحُلِّيَ المقام بذلك كله .

وكان ابتداء العمل في المحرم سنة ست وخمسين ومائتين ، وكان الفراغ منه في ربيع الأول من تلك السنة .

يقول الفاكهي : وكان تحلية مافي الطوقين الذي عمل في المقام بالنجوم ، الفي مثقال ذهب إلا ثمانية مثاقيل .

ذهب المقام يضرب دنانير :

يقول الشيخ / الغازي :

ثم ان الذهب الذي حلي به المقام في خلافة المتوكل لم يزل عليه إلى أن أخذه جعفر بن الفضل ومحمد ابن حاتم في سنة احدى وخمسين ومائتين ، وضرباه دنانير وأنفقاه على حرب اسماعيل العلوى (١) .

أقول : كانت ولاية الخليفة المهدي العباسي الذي بعث بألف دينار بين سنتى «١٥٨ـ١٦٨»(٢) للهجرة ، وكانت خلافة المتوكل ما بين عامي ٢٣٢ و٢٤٧ للهجرة(٣) .

فتنة العلوى بمكة :

أما حرب اسماعيل العلوى الذي ظهر بمكة فقد ذكرها الحافظ بن كثير في البداية والنهاية ونوجزها فيمايلى :

في سنة مائتين وواحد وخمسين ظهر اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة المكرمة فهرب منه نائبها جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى ، فانتهب منزله ومنازل أصحابه ، وقتل جماعة من الجنود وغيرهم من أهل مكة ، وأخذ مافي الكعبة من الذهب والفضة والطيب وكسوة الكعبة ، وأخذ من الناس

(١) افادة الانام مجلد ١ ص٥١٧ ـ ٥١٨

(٢) امراء البلد الحرام ص١٤

(٣) امراء البلد الحرام ص١٨

نحوا من مائتي ألف دينار ، ثم خرج إلى المدينة المنورة ، فهرب منه نائبها علي بن الحسين بن علي بن اسماعيل ، ثم رجع اسماعيل بن يوسف إلى مكة في رجب ، فحصر أهلها حتى هلكوا جوعا وعطشا ، فبيع الخبز ثلاث أواق بدرهم ، واللحم الرطل بأربعة ، ومشربة الماء بثلاثة دراهم ولقي منه أهل مكة كل بلاء ، فترحَّل عنهم إلى جدة ، بعد مقامه عليهم سبعة وخمسين يوما فانتهب أموال التجار هنالك ، وأخذ المراكب ، وقطع المسيرة عن أهل مكة ، ثم عاد إلى مكة لا جزاه الله خيراً عن المسلمين ، فلما كان يوم عرفة ، لم يمكّن الناس من الوقوف نهارا ولا ليلا ، وقتل من الحجيج ألفا ومائة ، وسلبهم أموالهم ، ولم يقف بعرفة عامئذ سواه ، ومن معه من الحرامية ، لا تقبَّل الله منهم صرفا ولا عدلا(١) .

ويقول السيد أحمد زيني دحلان في خلاصة الكلام عن اسماعيل هذا مايلي :

تغلب اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم على مكة فمانعه صاحب مكة جعفر بن الفضل وأخذ جعفر ما على المقام من الذهب ، وكان وضعه المتوكل فضرب به دنانير ، وصرفه في قتاله ، تغلب اسماعيل على مكة فهرب جعفر ، واستولى اسماعيل على مكة ثم سار إلى المدينة فملكها ثم مات بالجدري سنة مائتين واثنين وخمسين(٢) .

ويتضح من رواية السيد الدحلان أن أمير مكة جعفر بن الفضل حارب اسماعيل بن يوسف حينما هاجم مكة وخلع ما على مقام ابراهيم من الذهب ، وسكَّه دنانير ليصرفها في حربه لاسماعيل إلا أن اسماعيل تغلب عليه فاضطر إلى ترك مكة له .

سرقة ذهب المقام :

وذكر الشيخ / سعد الدين الاسفرائيني في كتابة «زبدة الأعمال» انه في سنة تسع وخمسين وسبعمائة في زمان القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد بن محمد الدين الطبري سرق الذهب الذي كان عليه ـ على المقام ـ فعمل عليه الفضة (٣)|.

موضع المقام :

ذكرت في الجزء الثاني من أعلام الحجاز أن الملك المسعود بنى قبة حديدية على مقام ابراهيم ، وكانوا قبل بناء هذه القبة ينقلون حجر المقام اذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد وذكرنا كذلك أن هذه القبة أزيلت بكاملها توسعة للمطاف ، ووضع حجر المقام في مكانه الحالي في مواجهة حجر اسماعيل داخل اناء بلّوري شفاف يعلوه هلال من الذهب الخالص ، وتم هذا في ١٨ رجب ١٣٨٧ للهجرة(٤) .

(١) البداية والنهاية مجلد ١ ص٥١٨

(٢) خلاصة الكلام ص١٩

(٣) افادة الانام مجلد ١ ص٥١٨

(٤) أعلام الحجاز ج ٢ ص٢٩ ـ ٣٠

ونذكر هنا المراحل التاريخية التي تمت في هذا الموضوع نقلا عن افادة الانام ونوجز ذلك فيمايلي :

ذكر ابن جبير في أخبار رحلته إلى مكة أن حجر المقام لم يكن ثابتا في مكانه ، وانه كان يوضع في موضعه المواجه لحجر اسماعيل ، ويرفع إذا اشتد الزحام فيجعل حينا في الكعبة المشرفة في البيت الذي فيه الدرجة التي يصعد منها إلى السطح ـ سطح الكعبة ـ وإذا وضع في موضعه وضع في قبة من خشب فإذا كان الموسم قلعت قبة الخشب ، وجعلت عليه قبة من حديد ، ذكر ابن جبير ذلك في شهر رجب من سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو يصف اعتمار مكثر بن عيسى بن فليتة أمير مكة حيث قال :

فلما فرغ من الطواف صلَّى عند الملتزم ، ثم جاء إلى المقام وصلى خلفه ، وقد أخرج له من الكعبة ووضع في قبته الخشب التي يصلي خلفها ، فلما فرغ من صلاته ، رفعت له القبة عن المقام فاستلمه وتمسح ، ثم أعيدت القبة عليه .

أما القبة الحديدية التي صنعها الملك المسعود للمقام فأغلب الظن ان ذلك تم في أوائل القرن السابع الهجري ما بين عامي ٦١٩-٦٢٦ للهجرة ، حيث كان للملك المسعود هذا أحداث في مكة سنذكرها بعد .

وقد وصف الفاسي في شفاء الغرام القبة التي وضع فيها المقام فقال :

أما صفة الموضع المشار إليه فانه الآن قبة عالية من خشب ثابتة قائمة على أربعة أعمدة دقاق حجارة منحوتة بينها أربعة شبابيك من حديد من الجهات الأربعة ، ويدخل إلى المقام من الجهة الشرقية ، والقبة مما يلي المقام مزخرفة بالذهب ، ومما يلي السماء مبيضة بالنورة ، وأما موضع المصلَّى الآن فانه ساباط مزخرف على أربعة أعمدة منها عمودان عليهما القبة ، وهو متصل بها ، وهو مما يلي الأرض منقوش مزخرف بالذهب ومبيض ، ومما يلي السماء مبيض منور ، وأحدث وقت صنع فيه ذلك في شهر رجب سنة ستة عشر وثمانمائة ، واسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية والشامية مكتوب فيه بسبب هذه العمارة ، واسم الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي صاحب مصر مكتوب في الشباك الشرقي في هذا الموضع بسبب عمارة له في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة ، والمقام بين الشبابيك الأربعة الحديدية في قبة من حديد ثابت في الأرض ، والقبة التي عليها ثابتة أيضا في الأرض بجصاص مصبوب ، بحيث لا يستطاع قلع القبة الحديد التي فوقه إلا بالمعاول وشبهها ، ولعل هذه القبة الحديدية التي في جوفها المقام الآن ، هى القبة الحديد التي كانت توضع عليه عند قدوم الحاج إلى مكة لكونها أحمل للازدحام والاستلام على ما ذكره ابن جبير .

يقول الغازى : وما عرفت من جعل المقام ثابتا على صفته التي هو عليها الآن[1] .

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص٥١٨ ـ ٥٢٠

أقول : ونستطيع مما ذكرناه آنفا أن نستخلص الأدوار التاريخية عن موضع المقام وما عمل بشأنه ، ونوجز ذلك فيما يلي :

كان المقام كما ذكر ابن جبير في قبة من خشب فإذا كانت المواسم والازدحام وضعت عليه قبة من حديد ، وكان ينقل من مكانه إلى داخل الكعبة ، ويوضع في مكانه أمام حجر اسماعيل وذلك كان في أواخر القرن السادس الهجري حينما حجَّ ابن جبير عام تسع وسبعين وخمسمائة .

ثم بنى الملك المسعود في أوائل القرن السابع بين عامي ٦١٩-٦٢٦ القبة الحديدية وقد وضع المقام بعد ذلك في موضعه أمام الحجر ووضع له شباك من حديد لم يذكر لنا الفاسي مؤرخ مكة من الذى صنعه ، ولكنه يذكر ان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي صاحب مصر قام بعمارة له وكتب اسمه في الشباك الشرقي الذي وصفه الفاسي كما ذكرنا قبل ، كما كتب اسم الملك الناصر فرج صاحب الديار المصرية والشامية الذي صنع أو على الأصح شارك في صنع هذا الشباك الحديد في سنة ست عشرة وثمانمائة .

أقول : وقد أدركنا المقام وهو في داخل الشباك الحديدي الذي وصفه تقي الدين الفاسي وعليه القبة الحديدية التي وصفها إلى أن تمت ازالة البناء كله وتم وضع المقام داخل كرة بلورية لها هلال من الذهب في ١٨ رجب ١٣٨٧ كما قدمنا .

الملك المسعود في مكة :

ذكرنا ان الملك المسعود هو الذي بنى القبة الحديدية على مقام ابراهيم عليه السلام ونذكر هنا ان الملك المسعود هو ابن الملك الكامل الأيوبي الذي كان يحكم مصر ، وقد استمد الملك المسعود من قوة أبيه فحكم اليمن باسم أبيه الملك الأيوبي ، وكان يحكم مكة في ذلك الزمن الحسن بن قتادة الذي قتل أباه خنقا ، واستولى على امارة مكة سنة ٦١٧ للهجرة ، واستطاع أن يستصدر مرسوما من الخليفة الناصر لدين الله بتوليته امارة مكة ، وكان الذي حضر بالمرسوم إلى مكة مملوك من مماليك الخليفة الناصر اسمه اقباش .

وقد علم الحسن بن قتادة أن أخاه الشريف راجح بن قتادة اتصل باقباش وأغراه بنقل امارة مكة اليه بدلا من أخيه الحسن ، وبذل له وللخليفة الناصر أموالا ، فغضب الشريف حسن ، وأغلق أبواب مكة ، ومنع الحاج العراقي من دخولها ، فقاتل أقباش عند باب مكة ، ثم مالبث أقباش أن انفرد عن جنده مصعدا في جبل الحبشي بجوار سور مكة ، ادلالا بمركزه ، وثقة في نفسه .

ويعلل الاستاذ/ السباعي صاحب كتاب تاريخ مكة ذلك بأنه ربما صعد الجبل بمفرده طلبا للتفاهم مع الشريف الحسن .

أحاط جنود الحسن بأقباش واحتزوا رأسه ، وحملوه على رمح ، فنصبه الحسن عند دار العباس بالمسعى ، وانهزم عسكر العراق ، وأحاط بهم جنود الحسن لينهبوهم فمنعهم الحسن من ذلك .

ولكن راجحا أخو الحسن لم يهدأ له بال ، وأراد الثأر من أخيه الحسن الذي قتل أباه وعمه في سبيل الاستئثار بامارة مكة ، فاتجه إلى اليمن ، وأتفق مع الملك المسعود الذي كان يتولى اليمن باسم أبيه الملك الأيوبي ، وزيَّن راجح للمسعود الاستيلاء على مكة وضمها إلى نفوذ الايوبيين ، وصل الملك المسعود ومعه راجح بن قتادة في ربيع الأول من سنة ٦١٩ أو ٦٢٠ هجربة وهاجم مكة هجوما مفاجئا ، فاشتبك معه المدافعون عنها في المسعى ، وقاوم الحسن وجنوده بعض المقاومة ولكنه رأى أن لا طاقة له بقتال الملك المسعود وجنده ، فخرج من مكة وتركها للملك المسعود .

يقول الاستاذ/ أحمد السباعى :

ونهب عسكر المسعود بيوت مكة ، وجردوا المدنيين من ثيابهم وأموالهم ، ونبشوا قبر قتادة وأحرقوا تابوته ، فلم يجدوا الجثة في القبر ، فعلم الناس أن الحسن دفن أباه خفية في مكان سري .

يقول السباعي :

ورؤي الملك المسعود يصعد فوق قبة زمزم ويرمي حمام البيت بالبندق (١) كما رؤي غلمانه في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ، ويقولون : خففوا من سعيكم فإن السلطان نائم سكران ، وكان الدم يجري من سيقان الناس في الطريق بجوار دائرة السلطنة بالمسعى (٢) .

أقول أنني أشم رائحة المبالغة في حديث المقريزي عن غلمان المسعود الذين يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ليخففوا من سعيهم لأن السلطان نائم وسكران ، وهل يقول الغلمان عن سيدهم أنه سكران ليشوهوا اسمه وسمعته ويعطو الدليل على فسقه في الحرم . . ؟

يقول السباعي :

وأهلَّ موسم الحج في ذلك العام ٦١٩ أو ٦٢٠ فسار المسعود بجيشه إلى عرفات ، ومنع أن تنصب راية العباسيين على الجبل ، ونصب بدلا منها راية أبيه الملك الكامل ، وكاد أن يشتبك معه أمير الحج العراقي لكنه شعر بقلة جنده ، وقيل أنه أباح رفع الراية العباسية قبل غروب يوم عرفة بعد أن خوَّفه بعضهم من سطوة العباسيين .

ثم غادر المسعود مكة بعد فراغه من الحج ، وعاد إلى اليمن بعد أن أبقى بها نائبه عمر بن علي بن رسول ، وثلاثمائة من الجند لحراسته ، وولي راجح بن قتادة بعض الأعمال المتصلة بالبادية ، وقد حاول الحسن بن قتادة استرجاع مكة من الملك المسعود بعد عودة المسعود إلى اليمن فاستنفر القبائل في ينبع ، وسار بهم فلقيه نائب المسعود ابن رسول في الحديبية وهزمه ففرّ إلى بغداد حيث مات بها .

---

(١) البندق كرات تضع من العلين والحجارة أو الرصاص أو غيرها كما ورد في التمدن الإسلامي ج ٥ ص ١٥٩ .

(٢) الذهب المسبوك للمقرزي ص ٧٨ .

كما حاول أمير المدينة قاسم الحسيني في سنة ٦٢٢ استخلاص مكة من نائب المسعود فسار اليها بجيش كثيف وحاصرها شهرا دون أن يظفر بطائل .

وتوفي الملك المسعود بمكة في سنة ٦٢٦ حيث قدم لزيارتها فما لبث أن أصيب بمرض الشلل فتعطلت يداه ورجلاه وقاسى ما لا يطاق من الآلام المبرحة ، وكأنما شعر بعظيم جنايته وعرف أن أمواله التي جمعها من الحرام لا تصلح لتجهيزه ، فتصدق عليه أحد المغاربة بمائتي درهم لتكفينه ودفنه .

وقد استمر حكم مكة يتجاذبه ملوك مصر واليمن نحوا من ثمانية وعشرين عاما إلى أن استطاع الحسن بن علي بن قتادة الاستيلاء عليها في التاسع من ذي القعدة سنة ٦٤٧ للهجرة وتفاصيل هذه الأحداث في تاريخ مكة للسباعي [١] .

ونعود الآن بعد هذه الفذلكة التاريخية عن الملك المسعود إلى تكملة البحث عن مقام ابراهيم عليه السلام .

تجديد قبة المقام :

ونقل الغازي عن مرآة الحرمين ما يلي :

وقد جددت قبة المقام في سنة تسعمائة للهجرة ، وكذلك في سنة ألف وتسع وأربعين ونقشها بالذهب في سنة ألف واثنين وسبعين سليمان بك والي جدة من قبل سلطان مصر ـ الاسم غير اضح ـ ويقول صاحب مرآة الحرمين :

وقد رأيت مكتوبا بأعلى القبة من الجهة الجنوبية ، أمر بتجديد هذا المقام الشريف مولانا العبد الفقير إلى الله تعالى سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشرفين السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره في ١٥ رجب الفرد سنة ٩٠٠ .

ومكتوب عليها في الجهة الغربية المقابلة لباب الكعبة :

أمر بتجديد هذا المقام المعظم سيدنا ومولانا السلطان المظفر سليم خان بن السلطان با يزيد خان ، وعلى الجهة الشمالية بقية أجداده سنة ١٠٤٩ [٢] .

الشيخ طاهر الكردي يصف حجر المقام :

وصف الشيخ طاهر الكردي مؤلف كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم ـ وهو من

(١) تاريخ مكة صفحة ٢٣٠ ـ ٢٣٧ .
(٢) افادة الأمان مجلد ١ ص ٥٢١ / ٥٢٢ .

الكتب الموسوعية عن الكعبة المعظمة والمسجد الحرام ـ باستثناء الحوادث السياسية التى حدثت في مكة فقد تعمد عدم الحديث عنها[٢] .

أقول : وصف الشيخ طاهر حجر المقام بعد أن استأذن من الأمير سعود بن عبدالعزيز ولي عهد المملكة العربية السعودية وملك المملكة العربية السعودية فيما بعد في فتح المقام لمعاينة حجر المقام والكتابة عنه كتابة مشاهد رأى بعينه ، وتمت هذه المعاينة في السابع من شهر شعبان عام ألف وثلاثمائة وسبع وستين ، وقد كتب عنها الشيخ طاهر كتابة وافية في الجزء الرابع من كتابه التاريخ القويم ، ونورد هنا وصف حجر المقام كما شاهده الشيخ طاهر الكردي يقول : وجدنا حجر مقام ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مثبتا فوق قاعدة صغيرة من الرخام المرمر بقدر قياس نفس المقام الشريف طولا وعرضا ، وأما ارتفاعها فثلاثة عشر سنتمتر وقد استمسك المقام بهذه القاعدة بواسطة الفضة التى تحيط بنفس المقام مع جزء من هذه القاعدة حتى صار المقام ثابتا فيها ثبوتا قويا بحيث لا يمكن تحريكه قط .

ثم أن هذه القاعدة الصغيرة مثبتة ثبوتا محكما في وسط قاعدة كبيرة من الرخام المرمر ايضا تشبه البركة طول ضلعها من جميع الجهات مترا واحدا ، وارتفاعها من الأرض ستة وثلاثون سنتمترا ولون الرخامين أبيض .

ويحيط بهذه القاعدة الكبيرة صندوق من الخشب كهيئة الهرم الرباعى ، ارتفاعه نحو القامة وليس به منافذ مطلقا سوى الباب الذي يرى منه المقام الكريم ، وهو في الجهة الشرقية .

وهذا الصندوق ملبَّس كله من الظاهر بصفائح الفضة مكتوب عليه من الجهة الشرقية فقط ما يأتي :

«بسم الله الرحمن الرحيم وبه الهداية ، أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .

كتبه الحافظ اسماعيل الزهدي وادرنوي خوجة ، كتبه عام ألف ومائتين وثمان وعشرين .

وباب الصندوق مصفح من الظاهر بالفضة ايضا ، وقد كتبت عليه هذه العبارة صاحب الخيرات والحسنات ، سلطان البرين ، وفاتح الحرمين الغازي السلطان محمود خان ابن عبدالحميد خان ، دام ملكه سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين .

ويقول الشيخ طاهر الكردي : والذي يظهر لنا من هذه العبارة أن الذي أمر بتلبيس هذا الصندوق بصفائح الفضة هو السلطان محمود خان المذكور ، وأما الصندوق من الداخل فهو خشب عادي بلونه الطبيعي لا أثر فيه لكتابة أو نقش ، وهذا الصندوق مغطى كله من قمته إلى الأرض بكسوة من الحرير مكتوب فيها بعض آيات قرآنية كتبها مؤلف هذا الكتاب ـ طاهر الكردي ـ سنة ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين ، وصنعت بدار الكسوة بمكة المشرفة في السنة

---

(١) أنظر ما كتبناه عن هذا الموضوع في ترجمة الشيخ طاهر الكردي في الجزء الثاني من اعلام الحجاز ص ٣١٦/ ٣٣٩ .

المذكورة ومن هذه السنة إلى الآن لم تغير الكسوة ، ثم يحيط بهذا الصندوق الشباك الحديدي المضروب باللون الأخضر من الجهات الأربع .

أما مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام : فهو حجر ليس بصوّان لونه ما بين الصفرة والحمرة ، وإلى البياض أقرب ، ويمكن أن يحمله أضعف الرجال .

ثم يقول :

وفي هذا الحجر الشريف غاصت قدما خليل الله تعالى سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام مقدارا كبيرا إلى نصف ارتفاع الحجر ، فعمق احدى القدمين عشرة سنتمترات وعمق الثانية تسعة سنتمترات ، ولم نشاهد أثرا لأصابه القدمين مطلقا .

فقد انمحى من طول الزمن ومسح الناس بأيديهم ، وأما موضع العقبين فلا يتضح إلا لمن دقق النظر وتأمل ، وحافة القدمين الملبستين بالفضة ، أوسع من بطنهما من كثرة مسح الناس بأيديهم .

ويقول الشيخ طاهر عن قامة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام ما يلي :

ولقد كان طول سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه كطول الرجل العادي في زماننا لا بالطويل ولا بالقصير الخ . .[1] .

أقول : ويفهم مما ذكره الشيخ طاهر الكردي أن السلطان محمود خان بن السلطان عبدالحميد خان أمر بتلبيس صندوق المقام بالفضة عام ألف ومائتين وثمان وعشرين .

والواقع أن أمراء المسلمين وسلاطينهم وملوكهم كانوا يولون العناية بالمقام وغيره من الآثار الشريفة المقدسة بدافع من ايمانهم وشعورهم بوجوب المحافظة عليها على مدى العصور والأزمان .

مفتاح المقام يحفظ عند السادن :

ورد في الاتمام على اعلام الأنام ما يلي :

مفتاح مقام ابراهيم عليه السلام عند السدنة بني شيبة الفاتحين للكعبة المعظمة ويضعون مفتاحه مع مفتاح الكعبة المعظمة في كيس واحد ومحل واحد[2] .

السلطان سليمان يكسو حجر المقام :

يقول الغازي : أنه منذ ما رتب السلطان سليمان خان كسوة الكعبة المعظمة ، رتّب ايضا

---

١ ـ التاريخ القويم لمكة بيت الله الكريم الجزء الرابع ص ١٠ ـ ٢٦ .

٢ ـ افادة الأنام مجلد ١ ص٥٢٢ .

«للمقام» في كل سنة كسوة ، وستارة معمولة مثل الحزام ، وستارة في باب الكعبة المعظمة بالاسلاك الفضية المموهة بالذهب[1].

وفي الرحلة الحجازية للبتنوني ما يلي :

ولمقام ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالقصب تأتي اليه سنويا من مصر مع كسوة الكعبة[2].

المهدي يقطع خيفا لعبدالله بن عثمان المحيي :

جاء في تاريخ الأزرقي : حدثني غير واحد من مشيخة أهل مكة قال :

حج المهدي أمير المؤمنين سنة مائة وستين فنزل دار الندوة ، فجاء عبدالله بن عثمان المحيي بالمقام ـ مقام ابراهيم ـ في ساعة خالية نصف النهار ـ مشتمل عليه ـ فقال للحاجب :

ائذن لي على أمير المؤمنين ، فإن معي شيئا لم يدخل على أحد قبله ، وهو يسر أمير المؤمنين فأدخله الحاجب على المهدي ، فكشف عن المقام ، فسر به المهدي وتمسح به وسكب فيه ماءاً ثم شربه ، وقال له اخرج وارسل المهدي إلى بعض أهله فشربوا منه وتمسحوا به ، ثم ادخل عبدالله بن عثمان على المهدي فأحتمل المقام ورده مكانه .

وأمر المهدي بجوائز عظيمه لعبدالله بن عثمان وأقطعه خيفا «بنخلة» يقال له القويعة فباع عبدالله بن عثمان الخيف من منيرة مولاة المهدي بعد ذلك بسبعة الآف دينار[3].

اقول : الخليفة محمد المهدي ثالث الخلفاء العباسيين ولي الخلافة في سنة ١٥٨ للهجرة بعد وفاة ابيه الخليفة المنصور ، وتوفي المهدي سنة مائة وثمان وستين[4] ويفهم مما ذكره الارزقي أن حجر المقام في ذلك الزمن لم يكن في مكان ثابت ، وانما كان ينقل من مكانه كما سبق ايراده

رومي يحاول سرقة حجر المقام :

جاء في الجامع اللطيف : ان رجلا يهوديا كان بمكة يقال له جريج فأسلم ، فقصد المقام ذات ليلة ، فوجد عنده ، فأراد أن يخرجه إلى ملك الروم فأخذ منه وقتل[5]

أقول : أوردنا ما ذكره المؤرخون عن مقام ابراهيم عليه الصلاة والسلام للاحاطة بالأدوار التاريخية التى مرت على حجر المقام الذى قام عليه الخليل صلوات الله وسلامه عليه حين بنائه للكعبة المعظمة وقد أدركنا المقام وهو موضوع في مكانه في مواجهة حجر اسماعيل داخل غرفة ذات شبابيك من الحديد المدهون باللون الاخضر تعلوه القبة التى وصفها مؤرخومكة ، ثم ما

---

(١) افادة الانام مجلد ١ ص٥٢٢ .

(٢) افادة أنام مجلد ١ ص٥٢٣ .

(٣) افادة الانام مجلد ١ ص٥٢٣ .

(٤) خلاصة الكلام في امراء البلد الحرام ص١٤ .

(٥) افادة الانام مجلد ١ ص٥٢٤ .

انتهى إليه امره في الوقت الحاضر بعد وضعه داخل اناء بلوري يعلوه ، هلال ذهبي في الثامن عشر من شهر رجب عام ثلاثمائة وسبع وثمانين وألف للهجرة ، كما ذكرنا ذلك سابقا ، وسيرى القاريء صورة للحجرة التى كان يوضع بها المقام قبل وضعه داخل هذا الاناء البلوري ، اكمالا للصورة التى كان عليها قبل

عمارة المطاف :

ذكرنا في الجزء الثاني من اعلام الحجاز أن عبدالله بن الزبير فرش الأحجار في المطاف بمقدار عشرة اذرع حين عمارته للكعبة المعظمة سنة خمس وستين للهجرة (١) .

وقد أورد الشيخ / عبدالله الغازي شيئا عن العمارات التى وقعت في المطاف بعد ذلك فرأيت ايرادها اكمالا للبحث :

ذكر الفاسي في شفاء الغرام مايلي :

عمارة الرخام الذي في المطاف تم ذلك على دفعات حتى صار على ما هو عليه اليوم ، وكان مصيره هكذا في سنة سبعمائة وستة وستين ، وممن عمره المستنصر العباسي سنة ستمائة واحدى وثلاثين .

وممن عمره الملك شعبان صاحب مصر .

ومن مبرات السلطان سليمان تغيير بلاط المطاف القديم وتجديده ببلاط جديد أي رخام على يد أحمد حليبي في سنة تسع وخمسين وتسعمائة ذكره في درر الفوائد ، وفي تاريخ القطبي ، وأما عمارة المطاف الشريف فوقع في سنة احدى وستين وتسعمائة وهذه هي عمارة السلطان سليمان خان .

وقال ابن فهد في حوادث سنة ست وأربعين وثمانمائة وفيها في سادس عشر شوال أذيب الرصاص ، وجعل بالحفر التي بأرض المطاف(٢) .

أقول : ان عمارة ملوك المسلمين وأمرائهم للمسجد الحرام بجميع أجزائه استمر عبر العصور ، وقد أوردنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ملخصاً لكتاب الشيخ / حسين باسلامة عن المسجد الحرام ، وكتابه عن الكعبة المعظمة فليرجع اليه من شاء الاستزادة(٣) .

باب زمزم ومفتاحه وأسرة الزمزمي :

عقد الشيخ / عبدالله الغازي فصلاً بعنوان : باب زمزم جاء فيه موجزه :

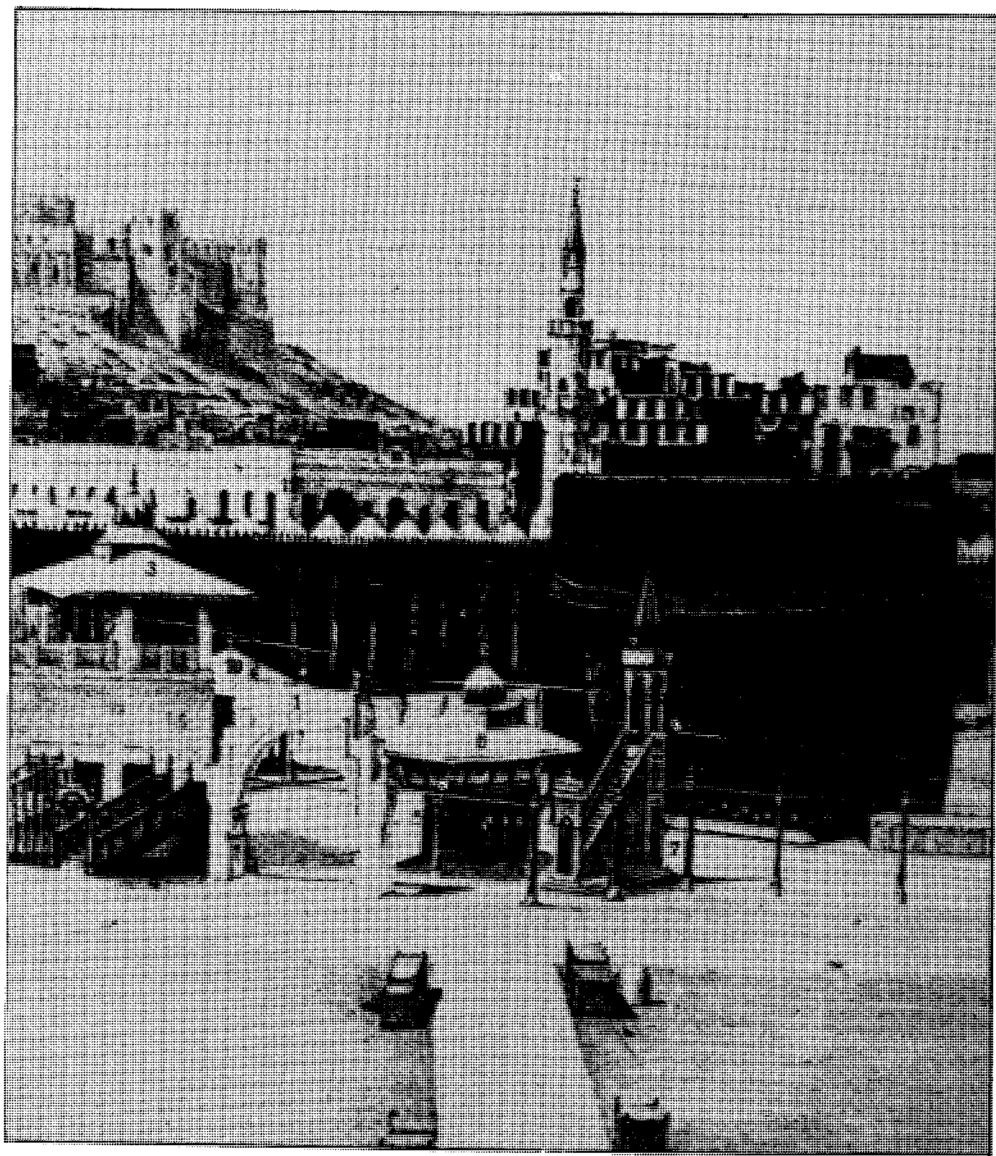
ان مفتاح باب زمزم بيد ذرية الشيخ عبدالسلام بن أبي بكر المعروفين الآن ببيت الريس

---

(١) اعلام الحجاز ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٥٤١/٥٤٣ .

(٣) أعلام الحجاز ج ٢ ص ١١٩/١٢٤ .



● صورة قديمة للكعبة المشرفة ويظهر بها المنبر ومقام ابراهيم ، وباب بني شيبة ، وبئر زمزم ويعود تاريخ هذه الصورة الى سنة ١٨٨٠ ميلادية الموافقة لسنة ١٢٩٨ هجرية نقلا عن البومات ليدز التاريخية .

من سنة ستمائة وثلاثين الى وقتنا هذا ، وعندهم مرسوم من أحد خلفاء العباسية ونائبه عليها من قبل سلاطين آل عثمان .

قال الشيخ خليفة بن فرج بن محمد الزمزمي البيضاوي في كتابه « نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس » ما يلي :

كانت زمزم ليس لها باب ولا غلق وإنما هي مفتوحة لمن دخل وورد اليها ، ولذلك كان[1] أمر السقاية للجد بطريق النيابة عن الخلفاء العباسيين ، فلما أن صار أمر البئر الى الشيخ / عبدالسلام بن أبي بكر الزمزمي أنهى بمحضر الى خليفة ذلك الزمن العباسي ، بأن زمزم في أوقات الصلاة يكثر فيها الناس والازدحام ، فيشوشون على الامام والمصلين ، وطالما دخلت الكلاب والبِسَسْ في الليل فيضجون فيها ، وطلب أن يقام عليها باب يمنع ما ذكر ، فأجابه الى سؤاله وجعل عليها بابا ، ثم أنه لما صار أمر زمزم والسقاية الى ذرية الشيخ / عبدالعزيز بن عبدالسلام المذكور طلبوا من خليفة زمنهم المتوكل العباسي أن يجعلوا ضبة على باب زمزم يقفلونها في أوقات الصلوات وفي الليل وأن يكون المفتاح عند الأكبر منهم ثم من ذريتهم فأجابهم خليفة ذلك الزمان الى ما طلبوا .

وقد أورد الشيخ الغازي نص المرسوم الصادر من الخليفة العباسي المتوكل على الله وفيه موافقة الخليفة على عمل باب لزمزم يقفل عليها منعاً لما فيه ضرر على المسلمين ، وقد أصدر الخليفة مرسوماً آخر الى أمير مكة المشرفة ـ الجناب العالي الأميري مغلباي ـ الأمير بمكة المشرفة ، وناظر الحسبة الشريفة بما أجازه له الخليفة العباسي للشيخ / سراج الدين عمر بن الشيخ عبدالعزيز الزمزمي مفتي مكة المشرفة ، والقائم عنا بخدمة زمزم الشريفة وسقاية جدنا العباس ، وأجاز الخليفة في هذا المرسوم أن يعمل بيد الشيخ عمر مفتاح ، ويقيموا من شاءوا من جهتهم من يتولى اغلاق الباب وفتحه وتاريخ هذا المرسوم العشرين من شوال سنة عشرين وثمانمائة . . . الخ[2] .

أقول : انتهت الخلافة العباسية ببغداد سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة بمقتل الخليفة المستعصم بالله ، وهو أبو أحمد عبدالله بن المستنصر العباسي ، حينما دخل التتار بغداد وقتلوا خليفتها وأكثر أهلها بقيادة القائد التتري هولاكو[3] .

ثم انتقلت الخلافة الى مصر بعد ان وصل اليها الخليفة العباسي أحمد بن الخليفة الظاهر الملقب بالمستنصر بالله سنة تسع وخمسين وستمائة . وبايعه بالخلافة الملك الظاهر بيبرس البندقداري من سلاطين المماليك سنة ثمان وخمسين وستمائة بعد انتصاره على التتار في عين

---

(١) الكلام غير واضح وقد تكون الجملة أمر السقاية للجد .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٥٦٢/٥٦٣ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠٠/٢٠٥ .

جالوت ، وقتله السلطان قطز[1] وقد بقي الخلفاء العباسيون في مصر ، ولكن السلطة الحقيقية كانت بيد سلاطين مصر من المماليك ، ثم من الجراكسة الأتراك وكان الخلفاء العباسيون لا حول لهم ولا طول ، وربما تعرضوا للمهانة والاذلال على أيدي السلاطين وهذا الخليفة المتوكل على الله الذي أصدر المرسوم بالسقاية لأسرة الزمزمي ولي الخلافة في مصر وعزل منها عدة مرات[2] ولو لم تكن السقاية أصلا لجده الأعلى العباس بن عبدالمطلب رضي الله تعالى عنه لما استطاع اصدار مرسوم عنها ، واذا نظرنا الى هذا المرسوم وجدناه خاصا بعمل ضبة لباب زمزم ومفتاح يحفظ عند الساقي وأسرته .

وهكذا تدور الدنيا ، ويهون الزمان فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير .

جد الزمازمة قدم من العراق :

وينقل الشيخ / الغازي من كتاب نشر الآس السابق ذكره الكيفية التي وصلت بها أسرة الزمزمي الى السقاية فيقول :

نقلا عن الشيخ / خليفة بن فرج الزمزمي البيضاوي في كتابه مايلي : ان جدنا الأكبر علي بن محمد البيضاوي قدم مكة عام ثلاثين وستمائة من العراق ، وباشر عن الشيخ / سالم بن ياقوت المؤذن خدمة زمزم ، فلما ظهر له خيره نزل عنها ، وزوَّجه ابنته فولدت منه أولاداً فصار لهم أمر البئر وسقاية العباس[3].

البعض ينازع ورثة الزمزمي في السقاية :

وذكر الشيخ / الغازي أن رجلا يدعى عبدالعزيز بن عبدالله الزمزمي ، نازع ورثة الزمزمي في السقاية في سنة ثمانمائة وسبعة وسبعين ، وذكر أن كل من جَبَذَ دَلْواً من زمزم نسب اليها . ادعى ذلك الرجل الشراكة مع أولاد الشيخ / اسماعيل الذين أخذوها من جدهم عن الشيخ سالم بن ياقوت وهم وكلاء الخلفاء العباسيين في ذلك الزمان ، ودلَّسَ ذلك الرجل على خليفة زمانهم فأشركه معهم ، فأنهى أولاد الشيخ / اسماعيل الى الخليفة فأرسل اليهم - الأجواد بك - بضم أوله وفتح الموحدة فبحث عن هذه الخدمة ، وعقد مجلساً حضره القضاة وكثير من أعيان مكة ووقف على ما بيد أولاد الشيخ / اسماعيل البيضاوي من المستندات ، وظهر أن هذه الخدمة لأولاد الشيخ ، واخرج المعتدي عليهم .

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٢٣١ / ٢٣٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٩٨/ ٣٩٩ .
(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص ٥٦٣ .

ويعلق الشيخ / الغازي على ذلك فيقول :

ومثل هذه الحادثة وقعت في زماننا ، وهي أن رجلاً يقال له عبدالله حميد ، كان وكيلاً عن الشيخ / الريس شيخ زمزم ، واستمر مدة من الزمان ، ثم بعد ذلك ادعى أن خدمة زمزم له شراكة معهم ، وأن بيده تقارير من أشراف مكة ، تبين مكانها فأرسل آل الريس رجلا من طرفهم الى الآستانة العلية ، وبيده من الخلفاء العباسيين ومن سلاطين آل عثمان ما يثبت أن هذه الوظيفة لهم ، وعاد الرجل من الآستانة وبيده فرمان سلطاني يمنع كل من يتعرض لهم ، وأن تبقى هذه الخدمة بأيديهم كما كان عليه أسلافهم .

وقد أورد الشيخ الغازي صورة الشكوى التي رفعها الشيخ / عثمان بن أحمد الريس الى والي ولاية الحجاز عثمان باشا وجوابه الذي صدر منه الى مدير الحرم في سنة ١٢٥٨ للهجرة[١] .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٥٦٢/٥٦٤ .

أبواب المسجد الحرام وأسماؤها

باب ابراهيم نسبة الى خياط اسمه ابراهيم :

كنا ذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز أن الخليفة العباسي المقتدر بالله أدخل زيادة في المسجد الحرام في سنة ست وثلاثمائة سميت بباب ابراهيم ، وأنه كانت هناك ساحة بين بابين من أبواب المسجد الحرام كان أحدهما يسمى باب الحزورة أو باب الخياطين ، والثاني باب بني جمح ، وكانت هذه الساحة امام دارين لزبيدة أم الأمين فادخلت هذه الساحة في المسجد الحرام[1] وقد ذكر الشيخ / الغازي نقلا عن كتاب الاعلام : أن من جملة محاسن المقتدر بالله العباسي زيادة باب ابراهيم ، وليس المراد به الخليل عليه السلام ، فقد كان ابراهيم هذا خياطاً يجلس عند هذا الباب فعرف به ، ثم ذكر الغازي نقلا عن مؤرخي مكة الزيادة المذكورة والبيوت التي كانت في موضعها وتواريخ ادخالها الى المسجد الحرام مما لا يخرج عما ذكرناه ، ونعرض عن ايراده تجنباً للتكرار[2] وقد رأيت هنا ايراد سبب تسمية باب ابراهيم لأن الكثير من الناس يظن أن هذا الباب ينسب الى الخليل ابراهيم عليه السلام .

باب بازان :

سمي هذا الباب لقربه من عين مكة المعروفة ببازان .

باب العباس :

سمي هذا الباب بباب العباس لأنه كان قريباً من دار العباس .

باب الصفا :

أما باب الصفا فكان اسمه سابقا باب بني مخزوم[3] .

---

(١) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٥ / ٢٦ .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٢٥ / ٦٢٦ .

(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٥٢ .

تسمية الأبواب تختلف باختلاف الزمان :

كان امام التكية المصرية بأجياد قبل ادخالها في المسجد الحرام في التوسعة السعودية باب للمسجد الحرام أورد له الشيخ الغازي عدة أسماء منها :

باب مدرسة الشريف عجلان بن رميثة لاتصالها به ، وقد جدد هذا الباب وعدد شرافاته عشرون ، ويقال له باب بني تميم ، وسماه صاحب النهاية بباب العلافين ، وفي زماننا هذا يعرف بباب التكية المصرية(١).

أقول أسس محمد علي باشا التكية المصرية عام ١٢٣٨هـ أثناء حكم المصريين للحجاز(٢).

باب أم هانيء :

يقول الغازي عنه : وقد جدد هذا الباب ببناء حسن لطيف وعدد شرافاته ثلاثة عشر شرافة قال في تحصيل المرام ، وهذا الباب مما يلي دور بني عبد شمس وبني مخزوم ، ويقال لهذا الباب « باب الفرج » على ما وجد بخط الاقشيري ، وذكر له صاحب تحصيل المرام اسماً آخر لم نتبين حقيقته لعدم وضوح الخط ، وسماه صاحب النهاية باب أبي جهل يقول الشيخ الغازي : قلت وفي زماننا هذا يعرف بباب الشريف ، لأنه كان يخرج منه الشريف سرور الى بيته الذي بأجياد(٣).

باب الوداع :

يقول الغازي : وعامة أهل مكة يسمونه باب العزوزة بالعين المهملة وانما هو بالحاء المهملة الحزورة ، وهذا الباب يلي المنارة التي تلي أجياد الكبير ، ويقال له باب حكيم بن حزام وباب الزبير بن العوام ذكره القرشي .

يقول الشيخ الغازي : وفي زماننا هذا يعرف بباب الوداع لأن الحاج حين توجههم بعد الحج لبلادهم يخرجون من هذا الباب .

باب العمرة :

سمي بباب العمرة لأن المعتمرين من التنعيم يدخلون ويخرجون منه في الغالب وكان يسمى قديماً باب بني سهم(٤).

وفي الجانب الشمالي من المسجد الحرام خمسة أبواب .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص٦٥٢ .
(٢) أعلام الحجاز ج ٣ ص ٣٩ .
(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص٦٥٣ .
(٤) افادة الأنام مجلد ١ ص٦٥٣ .

باب ابن عتيق :

الأول ويعرف بباب السدة ، وكان يقال له باب عمرو بن العاص ، قال في الارج المكي : باب السدة يعرف في زمننا بباب ابن عتيق لكونه قريباً من داره .

أقول : وقد أدركت هذا الباب وهو يسمى باب العتيق في الخمسينات من القرن الماضي .

باب الباسطية :

الثاني باب العجلة ، ويدعى كذلك باب الباسطية لاتصاله بمدرسة الخواجة عبدالباسط وهو على يمين الخارج ، أوقفها على الفقراء ، وهي في غاية الاحكام ، والاتقان ، ولها شبابيك تكشف على الحرم ، وجعل سبيلا بجانب المدرسة من خارج .

توفي عبدالباسط سنة ثمانمائة واحدى وثمانين .

وقد علل ابن ظهيرة تسمية باب العجلة بأن هذا الباب كان عند دار تسمى قديماً دار العجلة وسبب التسمية أن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البُخْتِ والبقر ذكر ذلك الأرزقي .

أقول : وقد احتفظ باب الباسطية باسمه الى حين أجراء التوسعة السعودية الاولى للمسجد الحرام التي بدأت سنة ١٣٧٥ للهجرة وانتهت سنة ١٣٩٦ للهجرة[١] وسنتحدث عن المدرسة الباسطية في الفصل الخاص بالمدارس التي بنيت حول المسجد الحرام بعد .

باب القطبي :

الثالث : باب القطبي ، ولا يعرف له اسم غير هذا .

أقول : ذكر الشيخ حسين باسلامة أن هذا الباب بجوار مدرسة قطب الدين الحنفي ، وكان يسمى قديماً باب زيادة دار الندوة ، وهو واقع غرب تلك الزيادة ولم يجدد في العمارة التي وقعت سنة ٩٨٤ وله منفذ واحد ، ويعلو عن رواق الزيادة بثلاثة عشر درجة ولم يكتب عليه شيء وهو لا يزال على عمارته التي انشئت في خلافة المعتضد بالله العباسي سنة ٢٨١هـ ، وهو الباب الأثري الباقي على بنائه القديم نحو ألف ومائة سنة ، وهو لا يزال في العصر الحاضر قوي البناء لا فرق بينه وبين سائر أبواب المسجد الحرام في متانته انتهى[٢] .

أقول : وقد احتفظ باب القطبي باسمه هذا الى أن تمت العمارة السعودية الاولى مابين عامي ١٣٧٥/ ١٣٩٦ للهجرة ، وكنت أسمع من اخواننا المكيين أن هذا الباب ينسب الى أحد العلماء المسمى بالقطبي .

---

(١) أعلام الحجاز ج ٢ ص٤٣/٥٢ .

(٢) تاريخ عمدة المسجد الحرام للشيخ حسين باسلامة ص ١٣١ .

باب الزيادة :

الباب الرابع : باب الزيادة ، قال الأرزقي :

وهو باب دار بني شيبة بن عثمان يسار منه الى السويقة ، ذكره القرشي .

الخامس :

باب الدريبة بالقرب من منارة باب السلام . انتهى ما ذكره الغازي عن الأبواب الشمالية للمسجد الحرام ، ونواصل الحديث عن الأبواب الأخرى .

باب الداودية :

وكان فتحه داود باشا لما بنى مدرسته ورباطه بين باب السدة وباب الواسطية وهو باب لطيف طاق واحد ، فتح أيام بناء المدرسة .

أقول : سنتحدث عن المدرسة الداودية وعن المدارس الأخرى في فصل خاص بعد .

وقد كنا نزور الأديب الشيخ / حسين نظيف رحمه الله في رباط الداودية في النصف الثاني من القرن الهجري الماضي ١٣٥٥هـ ، حينما كان يسكن في ذلك المكان ، ثم أزيل الرباط في التوسعة الاولى للعمارة السعودية للمسجد الحرام .

الأبواب الأخرى :

وللمدارس السلطانية بابين لطيفين نافذين على الحرم حديثاً عند بناء المدارس المذكورة كل واحد طاق واحد يسمى الأول باب القاضي لسكناه بتلك المدرسة ويسمى الثاني باب السليمانية .

وبين باب السلام وباب النبي باب لطيف « طاق واحد » يعرف بباب السلطان قايتباي لأنه فتح حين بنى مدرسته[1] .

أقول : وسنتحدث عن مدرسة السلطان قايتباي في القسم الخاص بالمدارس حول المسجد الحرام .

أما عن أبواب المسجد الحرام وأسمائها فيتضح مما أوردناه آنفاً أن هذه الأبواب كانت تختلف اسماؤها باختلاف الزمان ، وباختلاف المجاورين لها في السكن ، أو البانين حولها ، وقد أزالت التوسعة السعودية الاولى كثيراً من أسماء الأبواب القديمة التي صار ذكرها تاريخاً يذكر الناس بما كان في قديم الزمان .

وتكملة لهذا البحث فقد تفضل صديقنا العلامة الدكتور عبدالوهاب أبو سليمان الاستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وعضو هيئة كبار العلماء ، بكتابة بحث مفصل عن أبواب المسجد الحرام وأسمائها ، كما هي في الوقت الحاضر ، وأنه ليسرني أن أثبت هذا البحث كما تفضل به الصديق الكبير .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٥٣/٦٥٦ .

أسماء أبواب المسجد الحرام وتعدادها في التوسعة السعودية الأولى

بطلب من سعادة الأديب الكبير والمؤرخ القدير الشيخ / محمد علي مغربي لمعرفة عدد أبواب المسجد الحرام وتعدادها في الوقت الحالي ، قمت أنا عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان شخصياً باحصائها وتدوين أسمائها فدونت التالي .

شملت التوسعة السعودية الاولى الجهات الأربع للحرم المكي الشريف ، وقد شمل التغيير ضمن ما شمل تغيير أسماء الأبواب التي كانت معروفة عبر التاريخ ، وبعضها لازال قائماً فاستعمل في تسمية بعض الأبواب في التوسعة الجديدة ، وأقرب ما يكون موازياً للباب القديم في التوسعة الجديدة ، وفيما يلي تفصيل هذه الأسماء وبيان مواقعها :

الأبواب بالجانب الشرقي (المسعى) مواجهاً باب الكعبة الشريفة ابتداء من الصفا في اتجاه الشمال نحو (المروة) من الجهة اليمنى :

أولاً : باب دار الأرقم ، ولعله محاذٍ لهذا الموضع الأثري المعروف .

ثانياً : باب بني هاشم ، ولعل تسميته بهذا الاسم لأنه في الجانب من شعب بني هاشم (شعب علي) حيث أزيل هذا الحي كاملاً معه بسبب اتجاه الأنفاق وأغراض أخرى .

ثالثاً : باب علي ، ولعله محاذٍ في الحرم القديم لباب علي سابقاً وهو معروف لدى أهل مكة قديماً .

رابعاً : باب العباس ، وهو من الأسماء القديمة المحتفظ بها في التوسعة الجديدة وموقعه الى جانب الميلين الأخضرين .

خامساً : باب النبي ، وهو من الأسماء القديمة التي احتفظ بها في التوسعة الجديدة في نفس الجهة .

سادساً : باب السلام ، وهو أحد الأبواب الرئيسة في الحرم القديم واحتفظ باسمه في الجديد ، ولكنه لم يأخذ مكانته مساحة وشكلا ليتلاءم مع مكانته الدينية والتاريخية ، فلم يأخذ المساحة والشكل المطلوبين في باب الفتح والعمرة وعبدالعزيز .

سابعاً : باب بني شيبة ، وهذا الاسم معروف قديماً للعقد الكبير على حدود المطاف مقابل باب الكعبة .

ثامناً : باب الحجون ، وتسميته بهذا الاسم لأنه في نفس الاتجاه لهذا المكان التاريخي المعروف بأعلا مكة المكرمة .

تاسعاً : باب المعلاه ، لأنه في اتجاه (سوق المعلاه) المعروف قديماً وحديثاً ، وهو أحد أسواق مكة الكبيرة .

عاشراً : باب المدعى ، والمدعى هي المنطقة التي تلي الحرم في الاتجاه الى المعلاه وهي سوق كبيرة مشهورة من أسواق مكة المزدحمة بالبشر والبضائع .

حادي عشر : باب مراد ، ولعله أحد أسماء الأبواب القديمة سمي بأحد أسماء سلاطين آل عثمان المشهورين .

وفي الجهة اليسرى من المسعى الشريف توجد أبواب لها أسماؤها ، وتطل على رحبة واسعة حيث يصب فيها الخارجون من المسجد الحرام من المسعى إذ يوجد بها سوق للذهب والملابس ، والأبواب التالية في الجهة اليمنى للنازل من المروة في اتجاه الصفا .

ثاني عشر : باب المروة ، يقابل باب مراد .

ثالث عشر : باب المحصب ، يقابل باب المدعى .

رابع عشر : باب عرفة ، يقابل باب المعلاة .

خامس عشر : باب منى ، يقابل باب الحجون .

سادس عشر : باب قريش ، يقابل باب بني شيبة ،

هذا مجموع أبواب الحرم المكي الشريف في مشعر المسعى من كلا جناحيه الشرقي والغربي .

أما أبوابه من الجهة الشمالية تجاه الشامية والقرارة فهي كالآتي من الشرق الى الغرب :

سابع عشر : باب القرارة ، ويقع في الركن الشرقي مزوياً يقود الداخل الى المسجد الحرام في اتجاه باب السلام نزولاً الى أروقة الحرم ، وصعوداً الى الدور الثاني منه .

ثامن عشر : باب الفتح ، وهو مطل على ساحة كبيرة بها ميضأة للرجال وأخرى للنساء وبها سوق للذهب والملابس ، وفيها يلتقي الخارجون من أبواب المسعى القريبة (باب المروة ، والمحصب ، وعرفة ، ومنى ، وقريش) وهو أحد أبواب الحرم الكبيرة الرئيسة إذ يحتل مساحة ثلاثة بوائك واسعة مرتفعة يقود الداخل الى الحرم الى صالة واسعة خالية من الأعمدة يشاهد الداخل الكعبة المشرفة مباشرة .

تاسع عشر : باب عمر الفاروق .

العشـــرون : باب الندوة ، وهو محاذ لما هو معروف بدار الندوة داخل الحرم الشريف .

الحادي والعشرون : باب الشامية .

الثاني والعشرون : باب القدس .
الثالث والعشرون : باب المدينة المنورة .
الرابع والعشرون : باب الحديبية ، وعند هذا الباب تنتهي الأبواب في الجهة الشمالية من المسجد الحرام . أما الأبواب في الجهة الجنوبية من ناحية أجياد بدءاً من الصفا فهي كالتالي :
الخامس والعشرون : باب الصفا .
السادس والعشرون : باب اسماعيل .
السابع والعشرون : باب حنين .
الثامن والعشرون : باب بلال .
التاسع والعشرون : باب أجياد .
الثلاثـــون : باب الملك عبدالعزيز ، وهو أحد الأبواب الرئيسة بالمسجد الحرام ذات المساحة الواسعة والشكل المتميز ، ومنه ترى الكعبة المشرفة مباشرة ، والباب بمساحته الواسعة ذات البوائك الثلاث يقود الى صالات واسعة متتالية داخل المسجد الحرام خالية من الأعمدة ، ومستوى المدخل متباين عن مستوى الصالات الداخلية ، ينزل الداخل اليها بواسطة درج رخامية .

أما الأبواب بالجهة الغربية من المسجد الحرام فقد أصبحت أروقة تنفذ الى التوسعة السعودية الثانية لتوصل بين أروقة الحرم القديم ، والتوسعة الحديثة ، وأسماء الأبواب في هذه الجهة قبل التوسعة الحديثة تجاه ماكان معروفاً بـ (السوق الصغير) كالتالي من الشمال الى الجنوب :

الحادي والثلاثون : باب العمرة ، وهو باب رئيسي في هذه الجهة ذو مساحة واسعة وشكل متميز كسابقيه باب الفتح ، وباب الملك عبدالعزيز ، وهو من الأسماء القديمة لأبواب الحرم الشريف ، ظل الاحتفاظ به وفي محاذاة موقعه القديم من المسجد الحرام ، ولعل سبب التسمية أنه في اتجاه (التنعيم) مكان اعتمار الحجاج وأقرب الحل لمكة المكرمة .
الثاني والثلاثون : باب الشبيكة لأنه في اتجاه حي الشبيكة المكان التاريخي المعروف حيث يشمل في نفس الاتجاه المعروف (السوق الصغير) موضع التوسعة الحالية للحرم الشريف .
الثالث والثلاثون : باب ابراهيم ، وهذا حسب التسمية القديمة المعروفة لهذا البا ب .
الرابع والثلاثون : باب أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعله سمي به حيث يوجد بالمسفلة مسجد أبي بكر الصديق اشارة اليه .
الخامس والثلاثون : باب الهجرة ، ولعل التسمية مستوحاة من توجه الرسول صلى الله عليه وسلم الى أسفل مكة للهجرة الى المدينة المنورة مع صاحبه الصديق رضي الله عنه .
السادس والثلاثون : باب أم هانىء ، ولعله ابقاء لتسمية الباب في الحرم القديم ومحاذ له .

هذه مجموع أبواب الحرم المكي الشريف أحصيتها وقوفاً بها وتطوافاً بجميع جهات الحرم ليلة الجمعة ١٤١٣/٧/١٥هـ ، نقلا من الأسماء المدونة على الأبواب على حجر الرخام .

وتوجد مداخل عليا للدور الأعلى من المسجد الحرام من الجهة الشمالية من جهة القرارة والشامية حيث ان مستوى الأرض في هذين الحيين ترتفع نسبته عن أرضية الحرم الشريف بعد التوسعة السعودية ، وتتلاءم نسبياً مع أرضية الدور الأعلى ، يتوصل الى هذا الدور من هذه الجهة بواسطة كباري ممتدة من الشارع الرئيسي الذي يطل عليه المسجد الحرام عن طريق الأبواب والمداخل من جهة الشرق الى الغرب كالتالي :

١ ـ باب عثمان بن عفان ، وهو الذي يرتفع على جبل المروة مواجهاً لعمارة رئاسة الحرمين الشريفين العائد ملكيتها للأمير بندر بن عبدالعزيز .

٢ ـ باب ابن الزبير (جسر باب ابن الزبير) .

٣ ـ باب الندوة (جسر باب الندوة) يتوسط في الجهة العليا بين بابي الندوة ، وعمر الفاروق .

٤ ـ باب المدينة (جسر باب المدينة المنورة) يتوسط في الجهة العليا بين بابي الحديبية وباب المدينة المنورة .

٥ ـ باب العمرة (جسر باب العمرة) الى الجهة اليسرى للداخل الى باب العمرة .

ومما تجدر الاشارة أنه كان يوجد باب في أعلا الصفا بالدور الثاني يطل على جبل أبي قبيس ، ويمثل منفذاً من الدور الأعلى للمسعى يخرج منه المصلون الى الجسر الذي يوصل المتجهين من السوق الصغير وأجياد الى الغزة ، ويسمى

٦ ـ باب أبي قبيس .

وقد تم لي اكمال عدد أبواب المسجد الحرام التي وافت جميعها اثنين وأربعين بابا ، ليلة الجمعة ٢١/٢٢/٠٧/١٤١٣هـ والله ولي التوفيق .

كاتبه

عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان

وقد تم ترقيم أبواب المسجد الحرام ووضع أسماء عليها فبلغ تعدادها واحداً وسبعين بابا ، وبدأ الترقيم بباب الملك عبدالعزيز رقم ١ وانتهى بالرقم الواحد والسبعين من جهة سوق الصغير ، ويقول الدكتور عبدالوهاب أبوسليمان الذي تفضل باكمال هذه المعلومة أن التوسعة التي تمت من جهة سوق الصغير وضعت لها الأرقام ولكن لم توضع لها الأسماء بعد ، أثبتنا ذلك إكمالاً للبحث .

منائر المسجد الحرام :

نقل الغازي عن صاحب الاعلام ما يلي :

هي الآن سبع منائر يؤذنون عليها في الأوقات الخمس أولاها :

منارة باب العمرة :

عمَّرها أبوجعفر المنصور ثالث ملوك بني العباس ، وعمَّرها بعده وزير صاحب الموصل الجواد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني في سنة احدى وخمسين وخمسمائة .

وكان رئيس المؤذنين يؤذن عليها في زمن الفاكهي يتبعه سائر المؤذنين ، ثم صار في زمن الفاسي رئيس المؤذنين يؤذن في منارة باب السلام ، ويتبعه سائر المؤذنين ، وهو الآن - في زمن صاحب الاعلام - يؤذن في الأوقات الخمس على قبة زمزم ، ويتبعه المؤذنون ، إلا ليالي رمضان في التسحير واحداً بعد واحد ، وكذلك في(١) والتوديع والتذكير ونحو ذلك .

قال في التحصيل ، قلت وهو كذلك في زماننا ، يؤذن الريس على قبة زمزم ثم يتبعونه .

أقول : كانت عمارة أبوجعفر المنصور للمسجد الحرام في سنة مائة وثلاثين للهجرة ، وتمت هذه العمارة سنة مائة وأربعين(٢) ، ولابد أن تكون عمارة منارة باب العمرة قد تمت من ضمن عمارة المنصور في هذه الأعوام .

أما الفاكهي فهو محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهي أبوعبدالله المكي من أقدم مؤرخي مكة المكرمة ، وقد ولد ما بين عامي ٢١٥ - ٢٢٠ للهجرة ، وتوفي مابين عامي ٢٧٢ - ٢٧٩ على اختلاف بين المؤرخين في عامي ولادته ووفاته(٣) .

أما الفاسي فهو الامام أبوالطيب التقي الفاسي محمد بن أحمد الحسيني المكي مؤرخ مكة المكرمة ، ولد سنة ٧٧٥ وتوفي سنة ٨٣٢ ، فهو ممن عاصروا الربع الأخير من القرن الثامن والثلث الأول من القرن التاسع الهجري - وهو مؤلف العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام .

أما صاحب الاعلام الذي نقل عنه الغازي فهو الامام قطب الدين الحنفي صاحب كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام وهو من رجال القرن العاشر .

وصاحب تحصيل المرام هو الشيخ محمد بن أحمد الصباغ المكي وهو ممن عاصروا القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين .

ويقول الشيخ الغازي : بقيت هذه المنارة - منارة باب العمرة - منذ أن عمرها أبوجعفر المنصور في سنة مائة وأربعين للهجرة الى أن جَدَّد عمارتها الجواد الأصفهاني وزير صاحب الموصل عام ٥٥١ للهجرة ، ثم هدمت وأعيد بناؤها بأمر السلطان العثماني سليمان خان سنة ٩٣١ ، وبنيت على الطراز المعماري الرومي ، وكانت قبل ذلك مبنية على طراز العمارة المصرية حيث كان على رأسها ثلاثة قناديل في ثلاثة أعواد مغروزة في قبة صغيرة على رأس المأذنة ثم

---

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل .
(٢) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٥ .
(٣) انظر ترجمته في أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ج ١ ص ٩ - ٣٢ للاستاذ/ عبدالملك بن عبدالله دهيش .

جدد عمارتها الشريف سرور ، وجعل لها دورين وذلك سنة ١٢٠١ هـ كما هو مكتوب على باب خلوتها ، وبقيت هذه المنارة على ذلك الى أن تمت التوسعة السعودية الاولى للمسجد الحرام حيث يذكر الشيخ / حسين باسلامة العمارة الأخيرة فيقول :

ولا تزال منارة باب العمرة على ذلك البناء ذات دورين الى العصر الحاضر الذي ألف كتابه فيه عام ١٣٥٤ للهجرة(١) .

أقول : كان الأذان يتم في المسجد الحرام بارتقاء المؤذنين للمنائر العالية وكانوا يختارون من أصحاب الأصوات الجميلة والقوية ، ليتم ايذان الناس بأوقات الصلوات في بيوتهم ومتاجرهم ، وكان رئيس المؤذنين في زمن الفاكهي في القرن الثالث الهجري يبدأ الأذان من هذه المنارة فيردد بعده المؤذنون الأذان في المنائر الأخرى التي كانت في المسجد الحرام ، والتي سنتحدث عنها بعد .

ثم تحول رئيس المؤذنين في زمن الفاسي في القرن الثامن الهجري الى منارة باب السلام ويتبعه سائر المؤذنين من المنائر الأخرى ، وفي القرن العاشر في زمن صاحب الاعلام صار رئيس المؤذنين يشرع الأذان من قبة زمزم ويتبعه سائر المؤذنين من المنائر الأخرى ، وقد تم تجهيز المسجد الحرام بمكبرات الصوت ـ الميكروفون ـ بعد الحرب العالمية الثانية في عهد الشيخ / عبدالرؤوف الصبان يرحمه الله ، وركبت الأجهزة في المنائر وصار المؤذنون يؤذنون في موضعهم في البناء المخصص لهم الذي كان فوق قبة زمزم ، والذي هو في الوقت الحاضر فوق موضع الامام في مواجهة الركن اليماني من الكعبة المشرفة .

وينتقل صوت المؤذنين عبر مكبرات الصوت فيصل الى رحاب مكة شرفها الله(٢) .

وقد جاء ذكر التسحير والتوديع والتذكير في رواية الفاكهي عن المؤذنين فقد كان المؤذنون في الحجاز يعتلون المآذن وتنطلق أصواتهم بأدعية يصحو عليها النائمون في رمضان لتناول السحور ، ويتم ذلك قبل ساعتين من الفجر ، أما التذكير فكان يتم في الربع الأخير من الليل قبل الفجر ليوقظوا الناس للذكر ، وأما التوديع فلعله كان توديعاً لشهر رمضان في الأيام الأخيرة منه ، وقد أدركت التذكير والتسحير وأنا طفل صغير ، ومما ذكره الفاكهي يظهر لنا أن هذه العادة كانت قديمة في الحجاز تعود الى القرن الثالث الهجري .

وقد ذكر ابن اياس في بدائع الزهور أن الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر هو أول من اتخذ التذكير يوم الجمعة على المآذن لتستعد الناس للصلاة وذلك في سنة سبعمائة للهجرة(٣) .

أقول : ذكر ابن اياس ذلك في تاريخه لحكم السلطان في مصر ، ولا أعرف اذا كانت هذه العادة ـ عادة التذكير يوم الجمعة ـ قد انتقلت الى الحجاز ، ولكن الذي هو حادث الآن في

(١) تاريخ عمارة المسجد الحرام ٢٤٢/٢٤٣ .
(٢) انظر قصة ادخال الميكروفونات الى المسجد الحرام مفصلة في أعلام الحجاز الجزء الأول ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .
(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨٣ .

الحرمين الشريفين وفي كافة مساجد المملكة أن يؤذن للجمعة أذانان ، الأذان الأول قبل نصف ساعة من موعد الصلاة ، والأذان الثاني حين يعتلي الامام المنبر لخطبة الجمعة ، كما أنه يؤذن أذانان لصلاة الفجر في الحرمين الشريفين وبعض المساجد الأخرى ، الأول قبل ساعة من دخول وقت الفجر ، والثاني حين حلول وقته .

وقد أبطلت هذه العادات جميعها في العهد السعودي لأنها لم تكن موجودة في العهد الاسلامي الأول عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه والخلفاء الراشدين من بعده .

نعود الآن الى اكمال الحديث عن المنائر السبع التي ذكرها الشيخ الغازي .

منارة باب السلام :

عمر هذه العمارة المهدي والمنصور العباسي الذي أمر بتوسعة المسجد الحرام في سنة اربع وستين ومائة ، وهي بدورين ، وقد تهدمت وتمت عمارتها في زمن الناصر فرج بن برقوق في سنة ست عشر وثمانمائة وهي باقية الى الآن .

أقول : لتوضيح ما ذكره الشيخ / الغازي عن عمارة المهدي والمنصور ، أن الخليفة المنصور العباسي بدأ بعمارة عظيمة في المسجد الحرام عام ١٦٤هـ ، وتوفي قبل اكمالها ، فأكملها ابنه الخليفة المهدي ، وجعل المسجد مربعاً بحيث تظهر الكعبة المعظمة في وسطه تماما[١] .

ويقول الشيخ / حسين باسلامة عن منارة باب السلام ان السلطان مراد خان جِدَّد عمارتها سنة ٩٨٣ نُقل ذلك عن كتاب مرآة الحرمين ، وقد بقيت هذه المنارة بعد عمارتها الثالثة الى أن تمت العمارة السعودية الاولى للمسجد الحرام[٢] .

منارة باب علي :

أول من عمرها المهدي العباسي وقد بنيت مع عمارة باب السلام السابق ذكرها ، وآلت الى الخراب فأمر بعمارتها السلطان العثماني سليمان خان فهدمت وأعيد بناؤها بالحجر الأصفر الشميسي وجعل لها دورين أعلا وأسفل ، وكانت بدور واحد وجعل رأس المنارة المذكورة على طراز منائر الحرم الشريف .

ويقول الشيخ / حسين باسلامة ، ان عمارة السلطان كانت في حدود سنة ٩٧٠ للهجرة وأن هذه المنارة بقيت بعدها الى أن تمت العمارة السعودية الاولى للمسجد الحرام[٣] .

منارة باب الوداع :

سماها الشيخ الغازي : منارة باب الحزورة ، وسماها الشيخ / باسلامة منارة باب

---

(١) انظر ذلك في أعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٤ - ٢٧ .
(٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٢٤٢ .
(٣) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

الوداع ، وقد اخترت ما سماه الشيخ / باسلامة لأنه أقرب الى مفهوم القارىء في الوقت الحاضر .

بناها المهدي العباسي ثم عمرت في زمن الأشرف شعبان بن حسين صاحب الموصل وكانت قد سقطت عام احدى وسبعين وسبعمائة ، وَسلِم الناس من سقوطها ، فوصل المعمرون لعمارتها وفرغوا منها في مفتتح محرم الحرام سنة اثنين وسبعين وسبعمائة ، وهي باقية الى الآن .

ويروي الشيخ / باسلامة نقلاً عن ابن فهد القرشي في اتحاف الورى كيفية سقوطها فيقول :

وفي ليلة الاثنين ثاني جماد الاولى سقطت مأذنة (باب الحزورة) في ليلة مطيرة ، وكفى الله شرها فلم تَضرُّ أحداً من مجاوريها ، ولا من البيوت التي الى جانبها بعد أن خلت تلك الدور من ساكنيها خوفاً على أنفسهم ، فلما بلغ الأشرف شعبان بن حسين صاحب مصر ذلك أمر أمير الحاج المصري علاء الدين بن علي بن كلبك التركماني ، شاد الدواوين بمصر أن يتأخر بمكة المكرمة بعد الحج لعمارة مأذنة باب الحزورة ، فشرع في عمارتها عقب سفر الحاج وفرغ من العمارة في المحرم من السنة التي بعدها[1] .

منارة باب الزيادة :

وهي قديمة بناها المعتضد العباسي لما بنى زيادة دار الندوة ثم سقطت ، وأنشأها الملك الأشرف « برسباي » في عام ثلاث وثمانين وثمانمائة كما هو مثبت في حجر باب المأذنة قال في تحصيل المرام : وعمرت سنة ألف ومائة وثلاثة عشر حيث وقع دورها فأمر ببنائها .

أقول : كانت عمارة المعتضد العباسي في سنة ٢٨١ حيث خربت دار الندوة وكانت مسجداً مستقلاً عن المسجد فأمر المعتضد بادخالها في المسجد الحرام وهذه العمارة التى ضمت فيها دار الندوة إلى المسجد الحرام وأحدث لها باب سمي باب الزيادة[2] .

منارة السلطان قايتباي :

بناها السلطان قايتباي حينما بنى مدرسته كما هو مكتوب على عقد باب مدرسته الى جهة المسعى (في غاية الصناعة) ثلاثة أدوار .

وبنى نظيرها منارة أخرى على عقد باب مسجد الخيف بمنى وفرغ من بنائها سنة خمسمائة وخمسين .

أقول : التاريخ الذي أورده الغازي عن منارة السلطان قايتباي غير صحيح ، لأن السلطان قايتباي من رجال القرن التاسع وليس من رجال القرن السادس الهجري ، وقد أدى

(١) عمارة المسجد الحرام ص ٢٤٣ .
(٢) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٥ .

فريضة الحج عام ٨٨٤هـ[١]، وتولى السلطنة بمصر سنة ٨٧٣ للهجرة ، وهو من ملوك الجراكسة المماليك[٢] . أما المدرسة التي بناها بمكة فسيأتي الحديث عنها في قسم المدارس حول المسجد الحرام بعد ، وقد تم بناؤها في سنة ٨٨٤هـ ، والذي يظهر لي أن السلطان حج في هذا العام بعد أن أكمل بناء المدارس التي أمر بتشييدها في مكة المكرمة وأوقف عليها الأوقاف الكثيرة [٣]كما سيأتي تفصيله بعد .

منارة السلطان سليمان خان :

وهذه المنارة أمر السلطان خان ببنائها في احدى مدارسه الأربع فيما بين باب السلام وباب الزيادة ، وهي منارة في غاية العلو والارتفاع مبنية بالحجر الشميسي الأصفر لها دورين ، وكان بناؤها سنة ثلاثة وسبعين وتسعمائة .

ويقول الشيخ / باسلامة عن منارتي السلطان قايتباي والسلطان سليمان خان انهما باقيتان الى الآن على عمارتها الاولى حسبما انشئتا عليه ، ولم يحصل فيها تغيير ولا تبديل ، إلا بعض مرمات كغيرها من المنائر الأخرى[٤] .

ويفهم من هذا الذي ذكره الشيخ / باسلامه أن المنارتين المذكورتين بقيتا الى أن تمت العمارة السعودية الاولى للمسجد الحرام التي بدأت عام ١٣٧٥ للهجرة ، وانتهت عام ١٣٩٦ للهجرة .

المآذن في العمارة السعودية :

المآذن الموجودة في الوقت الحاضر والتي تمت في العمارة السعودية هي سبعة مآذن مئذنتان عند كل باب من الأبواب الرئيسية والمأذنة السابعة عند باب الصفا ، وهي مبنية بالخرسانة المسلحة ، ومكسوة بالرخام والحجر الصناعي ويبلغ ارتفاع المأذنة الواحدة ستة وتسعين متراً عن سطح الأرض[٥]، وقد سبق لي الحديث عنها في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ، وقد اقتضت التوسعة السعودية العظيمة ازالة المنائر السبعة الاولى التي تحدث عنها مؤرخو مكة المكرمة ، والتي فصلنا القول فيها نقلاً عنهم وتعليقاً على ما كتبوا بشأنها وليست هذه المرة الاولى التي تهدم فيها المآذن في الحرم الشريف .

---

(١) أعلام الحجاز ج ٣ ص ٦١ .
(٢) انظر بدائع الزهور ج ٣ ص وما بعدها .
(٣) انظر الحديث مفصلا عن هذه المدارس في افادة الأنام مجلد ١ ص ٤٤٣/ ٤٤٩ .
(٤) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٢٢٤ .
(٥) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٤٩ .

المآذن التي كانت على المسجد الحرام وهدمت :

فقد ذكر الشيخ / الغازي منائر أخرى ثلاث ذكرها مؤرخو مكة وأزيلت منها منارة تشبه الصومعة كانت على باب ابراهيم هدمها بعض أمراء مكة لاشرافها على داره ، ذكر ذلك التقي الفاسي مؤرخ مكة في القرن التاسع الهجري .

ومنارة أخرى ذكرها ابن جبير كانت على باب الصفا ، وهي أصغر المنائر ، كما أنها كانت عَلَماً لباب الصفا ، وكانت ضيقة لا يستطاع الصعود اليها .

ومنارة ثالثة كانت على الميل الذي يهرول عنده الساعون بين الصفا والمروة ، ذكر ذلك الفاكهي مؤرخ مكة في القرن الثالث الهجري .

يقول الشيخ / الغازي ونقلاً عن الشيخ / باسلامة : وهذه المنائر الثلاث كانت على المسجد الحرام ولا يعلم من بناها ولا متى هدمت(١) .

ونختم الحديث عن المنائر ببعض ما كان يعمل فيها من وسائل لاعلام الناس بأمور تهمهم في أمور دينهم .

قنديل يعلق على منارة لاعلان الناس بالافطار والامساك في رمضان :

يقول الغازي : وبعلو مكة شرفها الله تعالى منارة على مسجد يقال له مسجد الراية على يسار النازل من المعلاة ، بقرب بئر جبيرين مطعم بن عدي بن نوفل ، ويقال أن النبي صلى الله عليه وسلم ركن رايته يوم فتح مكة فيه ، وهي منارة عتيقة ذهب رأسها ، وكان لها دوران ، ولا أعلم من بناها يؤذن فيها بعض أهل الخير في مغرب شهر رمضان ، ويعلق فيها قنديلا لأعلام أهل ذلك المكان بدخول المغرب للافطار في رمضان ، ويُسَحَّر عليها في الليل ويطفىء قنديلها بعد السحور ، إعلاماً بدخول أول الفجر ليمتنع الصائمون عن الأكل والشرب وهو باقٍ الى الآن(٢) .

أقول لم يذكر لنا الشيخ / الغازي مصدره في خبر هذا القنديل الذي يعلو لاعلان الناس بحلول غروب أيام رمضان ، ودخول أذان الفجر ، واستبعد أن يكون هذا القنديل كان في زمن الشيخ / الغازي نفسه لأنه توفي عام ١٣٥٦ للهجرة أي في منتصف القرن الرابع عشر للهجرة وربما كان هذا الخبر منقولاً من رواية أحد مؤرخي مكة السابقين .

هارون الرشيد يقيم المآذن في شعاب مكة وفجاجها :

وينقل الغازي عن التقي الفاسي مؤرخ مكة في القرن التاسع عشر ، أن المنائر بمكة كانت كثيرة في الشعاب والمحلات ، وكان المؤذنون يؤذنون عليها للصلوات ، وكانت لهم أرزاق تُجْرى عليهم ، وأول من جَدَّد تلك المنائر على رؤوس الجبال ، وفي فجاج مكة وشعابها هارون الرشيد ، وأجرى على المؤذنين الأرزاق .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٥٦/ ٦٥٩ .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٥٩ ـ ٦٦٠ .

ذكر الفاسي : انها كانت خمسين منارة في شعاب مكة ، وقال : وقد ترك الأذان على هذه المنائر ولم يبق منها شيء(١).

ويوضح الشيخ / باسلامة الأمر فيقول نقلاً عن الفاكهي مؤرخ مكة في القرن الثالث : كان أهل مكة فيما مضى من الزمان لا يؤذنون على رؤوس الجبال ، وانما كان الأذان في المسجد الحرام وحده ، فكان الناس تفوتهم الصلاة ممن كان منهم في فجاج مكة ونائياً عن المسجد حتى كان في زمن أمير المؤمنين هارون الرشيد ، فقدم عبدالله بن مالك أو غيره من نظرائه مكة ففاتته الصلاة ولم يسمع الأذان ، فأمر أن يتخذ على رؤوس الجبال منارات لتشرف على فجاج مكة وشعابها يؤذن فيها للصلاة ، وأجرى على المؤذنين في ذلك أرزاقاً ، ولعبدالله بن مالك الخزاعي منائر . ذكر الشيخ / باسلامة مواضعها ، وعبدالله بن مالك هذا ممن خدم هارون الرشيد ، وكذلك كانت هناك منائر تنسب الى « بغا » الذي يكنى بأبي موسى مولى هارون الرشيد .

وذكر الشيخ باسلامة مواضعها ، وذكر الفاكهي أنه كانت تجري الأرزاق على المؤذنين فيها وبتطاول الزمان بطل العمل والأذان عليها(٢).

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٦٠ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في عمارة المسجد الحرام ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

بعض جبال مكة وأسباب تسميتها

جبل عمر بالشبيكة :

ومن أسمائه ثبير الزنج ، وهو جبل النوبي المعروف بأسفل مكة في جهة الشبيكة الذي كان به مولد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ما قيل .

وانما سمي بذلك لأن سودان مكة كانوا يلعبون عنده ، وهم النوبة والسودان الزنوج فطابقت التسمية على كلا الوجهين[1] .

أقول : يقول الأرزقي مؤلف أخبار مكة : أن زنوج مكة كانوا يحتطبون منه ويلعبون فيه[2] .

جبل أبو قبيس :

نقل الغازي عن السيد/ أحمد زيني دحلان في سالنامة الحجاز نقلاً عن القزويني في عجائب المخلوقات ما يلي :

ان من خواص جبل أبي قيس أن من أكل فيه الرأس المشوي ، يأمن من وجع الرأس ، فصار كثير من الغرباء يحرصون على ذلك ، لا سيما حجاج الجاوا ، وقال العلامة المُلّا علي القاري في شرح اللباب ، أن ذلك باطل لا أصل له[3] .

أقول : لا شك أن ما ذكره القزويني يدخل في باب الخرافات التي لا أصل لها ، والتي قد يأخذ بها بعض السذج من الناس ، وجبل أبو قبيس هو أحد أخشبي مكة وهو الجبل المشرف على الصفا الى السويدا الى الخندقة ، وكان يسمى في الجاهلية الأمين ، ويقال إنما سمي الأمين لأن الركن الأسود كان مستودعاً فيه عام الطوفان .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٠ .

(٢) أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص ٦٩٥ .

يقول الأرزقي نقلاً عن بعض أهل مكة أنه انما سمي أبا قبيس لأن أول من نهض بالبناء فيه كان رجلاً يدعى أبا قبيس ، وكان هذا الرجل من اياد ، وثاني الأخشبين جبل قيعقان ، والأخشب من الجبل الخشن الغليظ ، وقيل إن الأخشب الثاني هو الجبل الأحمر ، ولكن القطبي صوَّب التسمية الاولى ، وقعيقعان هو جبل الهندي المعروف بهذا الاسم في الوقت الحاضر(١) .

جبل تفاحـة :

يقول الغازي ، ومن جبال مكة جبل يقال له تفاحة ، وهي مولاة لمعاوية كانت أول من بنى في ذلك الجبل فسمي باسمها(٢) .

أقول : سماه الأزرقي جبل تفاجة ، بالجيم وليس بالحاء كما ذكره الغازي(٣) .

جبل النار :

يقول الغازي : هو الجبل الذي يلي جبل زرزر ، وسمي بجبل النار لأنه أصاب أهله حريق متوال(٤) .

جبل زرزر :

هو الجبل المشرف على دار منصور الحميري خال المهدي بالسويقة على حق آل نبيه بن الحجاج السهميين ، وكان يسمى في الجاهلية القايم ، وزرزر حايك كان بمكة ، كان أول من بنى فيه فسمي به(٥) .

أقول : ويفهم من هذا أن الجبل كان يشرف على السويقة وكان سوق سويقة خلف المسعى من الجهة الغربية للمسجد الحرام ، وقد أدخلت سويقة كلها بما تحتويه من مبان ودكاكين في العمارة السعودية الاولى للمسجد الحرام عام ١٣٩٦هـ .

جبل أبي زيد :

هو الجبل الذي يصل زرزر مشرفاً على حق آل عمر بن عثمان ، الذي يلي زقاق مهر ، ومهر كان رجلا يعلم الكتابة هناك ، وأبوزيد هومن أهل سواد الكوفة ، كان أميراً على الحاكة بمكة ، كان أول من بنى فيه(٦) .

---

(١) أخبار مكة ج ٢ ص ٢٦٦ / ٢٦٧ .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٥ .

(٣) أخبار مكة ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٤) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٦ .

(٥) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٦ .

(٦) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٦ .

أقول : سمى الأزرقي هذا الجبل جبل أبي يزيد وليس جبل أبوزيد ، وكان أبويزيد هذا يتولى آل هشام بن المغيرة ، والحاكة هم الخياطون وكان أبوزيد أميراً لهم أي شيخاً عليهم (١).

جبل الأعرج :

وهو مشرف على شعب أبي زيد ـ يزيد ـ وشعب ابن عامر ، والأعرج مولى لأبي بكر الصديق ، كان فيه فسمي به ونسب اليه (٢).

أقول : هذا ما كتبه الغازي عن بعض جبال مكة وقد أفرد الأزرقي فصلاً خاصاً بجبال مكة وشعابها ، فصل فيه أسماء الجبال وأسباب تسميتها ومواقعها تفصيلاً وافياً في الجزء الثاني من كتابه الكبير أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، فليرجع اليه من أراد الاستزادة في هذا الباب .

وتعليقاً على ما ذكره الغازي في تسمية الجبال ، وما ذكره الأزرقي هو أن أسماء الجبال تتغير بأسماء ما يقع فيها من أحداث وما يبنى فيها أو حولها كما هو الحال في غيرها من الأماكن في كثير من الأنحاء .

* * * *

---

(١) أخبار مكة ج ٢ ص ٢٩٦ .
(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٦ .

بعض المساجد في مكة وحولها

ذكر الغازي بعض المساجد التي بمكة وحولها وأسباب تسميتها ومواضعها ونوردها فيما يلي :

مسجد الاجابة :

جاء في تحصيل المرام عن مسجد الاجابة : وهذا المسجد بالابطح ، ويسمى بالبطحاء وبخيف بني كنانة ، وهو المسمى الآن بالمعابدة ، وحَدَّه الى جبل ثقبة ، والموضع الذي نزل فيه النبي صلى الله عليه وسلم هو الموضع المسمى بمسجد الاجابة[1] أقول : وفي المدينة المنورة مسجد صغير في داخل المدينة لا يبعد كثيراً عن المسجد النبوي الشريف يسمى كذلك مسجد الاجابة .

مسجد الجن :

قال الأزرقي وهو الذي يسميه أهل مكة مسجد الحرس ، وإنما سمي بهذا الاسم ، لأن العسس يجتمعون عنده ليلاً قال : وهو فيما يقال الموضع الذي خطه الرسول صلى الله عليه وسلم لابن مسعود ليلة استمع اليه الجن ، وأن الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، ذكره في الاعلام ، وفي أتحاف فضلاء الزمن .

تعمير مسجد الجن بالمعلاة :

وفي سنة اثنتي عشرة ومائة وألف عمَّر ابراهيم بك مسجد الجن بالمعلاة ، لأنه درس ودُفِنَ تحت الأرض مع كثرة السيول وتطاول الأزمان حتى أنهم غرسوا في ذلك المحل بعض أشجار وبستان ـ كنبق ـ وبعض الريحان ، وكانوا يسمونه الجنينا ، فأحضروا المهندسين والعلماء ، وحفروا عن ذلك الموضع ، وظهر محراب المسجد الذي أسلم الجن فيه (تحت الأرض) ،

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٧ .

وبادروا بقطع تلك الأشجار ، وتنظيف تلك البقعة ، ثم بُني فيه مسجد صغير على حَدِّهِ الأصليِ ، ووضعوا المحراب على ما كان عليه ، وجعلوا على أعلا المسجد قبة ، ثم بنوا مسجداً آخر على سطح المسجد المأثور ، مسجد كبير بقبة عظيمة ، وجعلوا في جانب القبة[1] ومحراباً وسدوا القبة وفتحوا من أطراف القبة لأجل الماء ، وجعلوا بجانبه حنفية لطيفة بابها من داخل المسجد المذكور الذي خط عليها النبي صلى الله عليه وسلم ونهاه أن يخرج عن هذا الخط والدايرة وعمروا هذا المحل أحسن مسجد بأحسن البناء ، انتهى . . . الخ[2] .

تسمية مسجد الخيف :

في حديث الغازي عن مسجد الخيف قال :

الخيف ما ارتفع من الأرض ، وانحدر من الجبل ، ومسجد منى المشهور يسمى مسجد الخيف لأنه في سفح جبلها ، ذكر ذلك في تحصيل المرام[3] .

تاريخ بناء مسجد عرفة :

ويسمى مسجد ابراهيم نسبة الى الخليل ابراهيم عليه السلام ، وفي هذه النسبة اختلاف بين العلماء .

يقول الغازي : ولم يذكر الأزرقي تاريخ بنائه ، وذكر ابن عبدالبر أن هذا المسجد بني بعد مصير الأمر لبني هاشم بعشر سنين ـ هكذا نقله ـ عن ابن عبدالبر الشيخ / خليل في توضيحه على مختصر ابن الحاجب ، وعلى هذا بني المسجد في أوائل عشر الخمسين .

وفي العقد الثمين : المسجد الذي يصلي فيه الامام بالناس يوم عرفة ليس من عرفة على مقتضى ما ذكره ابن الصلاح والنووي ، وكلام المحب الطبري يقتضي أنه منها ، وقيل أن مقدمه من عرنة بالنون ومؤخره من عرفة بالفاء[4] .

تسمية المزدلفة :

سميت بالمزدلفة لازدلاف الناس اليها أي اقترابهم واجتماع الناس اليها ، وقيل لمجيئهم اليها في زلف من الليل ـ أي ساعات الليل .

ويقال للمزدلفة جمع ، قيل لاجتماع آدم وحواء فيها ، وقيل لجمع الصلاتين فيها[4] .

---

(١) الكلمة هنا غير واضحة .

(٢) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧١٨/٧١٩ .

(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص ٧٢٩ .

(٤) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤ ، ٥ .

(٥) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١٥ .

تعليل اسم منى :

سميت بذلك لما يُمْنى بها من الدماء - أي يراق - وهو المشهور ، والذي ذكره جمهور اللغويين وغيرهم ، وقيل لأن جبريل قال لآدم حينما أراد فراقه تَمَنَّ ، فقال آدم : أتمنى الجنة ، فسميت بذلك لأمنية آدم ، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما ، أو لاجتماع الناس بها لأن العرب تسمي كل مجتمع للناس منى ، وقيل لأن الله تعالى منَّ على الخليل عليه السلام بفداء ابنه اسماعيل عليه السلام بها ، أو لمنَّ الله تعالى على عباده بالمغفرة الى غير ذلك[1] .

سبب تسمية التنعيم :

سميت بذلك لأن جبلا عن يمينها يقال له نعيم ، وآخر من شمالها يقال له ناعم والوادي نعمان[2] .

سبب تسمية الجعرانة :

سميت الجعرانة باسم امرأة من قريش يقال لها رايطة ، براء وطاء ومهملتين ، بينهما مثناة تحتية بنت كعب ، ولقبها جعرانة ، وهي امرأة أسد بن عبدالعزيز ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها هي التي نزل فيها قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا** ﴾ .

وعلى ذكر الجعرانة يقول الغازي .

الفضة في الجعرانة :

جاء في السالنامة الحجازية : وادي الجعرانة وادٍ مبارك كثير الأنوار ، وبه أحجار تستخرج منها الفضة ، وقد سمع بذلك بعض الصواغين بمكة ، وهو أبوبكر المُلَّا ، فخرج الى الجعرانة ووجد شيئا من الأحجار فاختبرها ، واستخرج منها فضة ، فكان الخارج بقدر المنصرف ، فترك ذلك ، ولو فعل ذلك ذو قوة بآلات وعدد لربما يستخرج منها ما يحصل له ربح ، انتهى . . .[3] .

أقول : السالنامة الحجازية كما علمت هي الجريدة الرسمية أو نشرة رسمية في أواخر العهد العثماني ، كانت تصدرها الحكومة العثمانية بمكة ، وما جاء في هذه النشرة عن الفضة في الجعرانة اذا كان صحيحاً فربما كان ارتفاع أثمان الفضة في الوقت الحاضر يجعل استخراجها إن وجدت بكميات تجارية ذات جدوى اقتصادية ، وعلى أي حال فان وزارة البترول والثروة

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢١/٢٠ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٥٥ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٥٧/٥٦ .

المعدنية هي الجهة ذات الاختصاص في هذا الشأن ، وربما كان لديها من الدراسات ما يدلُّ على وجود الفضة في الجعرانة أو ينفيه ، وقد ذكرنا الأمر لدلالته على أفكار الناس قبل ما يزيد على قرن من الزمان .

الخرمانية :

سميت بذلك لأن بها حائط ـ بستان ـ يسمى خرمان وهو بثنية أذاخرْ[1].

جبل الهندي :

نسبة الى الشيخ تاج الدين ابن زكريا بن سلطان الهندي النقشبندي ، وكان له رباط بسفح جبل قيقعان ، ولما تُوفي دفن فيه ، وجبل قيقعان يسمى في الوقت الحاضر جبل الهندي[2] .

حوض البقر :

كان حوضاً لسقيا الدواب وهو من الأحواض المتصلة بقنوات عين زبيده ، لايصال الماء من نعمان إلى عرفه ومنى[3] .

أقول : حوض البقر في الوقت الحاضر أصبح ضاحية من ضواحي مكة المكرمة التي تموج بالعمران ويسمى حاليا « العزيزية » وهو من أجمل الأحياء بشوارعه الفسيحة التي يمتد على جوانبها العمران ، وتقوم عليها العمارات الشاهقة ، والحوانيت الكثيرة ، وتضيئه الكهرباء فسبحان مغير الأحوال .

لقد أدركت حوض البقر وهو خلاء يهرع بعض الناس اليه في الليالي الشديدة القيظ فينامون فيه التماساً لنسمة هواء باردة ، ثم بدأ العمران يدبُّ اليه قليلاً قليلاً فاكتفوا بتسميته ـ الحوض ـ وأبطلوا كلمة البقر ، وما لبث أن عمَّه العمران واتصلت مكة به أو اتصل بها فسمى العزيزية كما أسلفت .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢٦٠ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢٧٠ / ٢٧١
(٣) افادة الأنام مجلد ١ ص ٢٩٤ .

أسوار مكة

ذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز شيئاً عن أسوار مكة ، وقد ذكر الشيخ / عبدالله الغازي في افادة الأنام أسوار مكة بتفصيل أوفى نورده فيما يلي :

سور المعلاة :

كانت مكة في قديم الزمان مسوَّرة ، فجهة المعلاة كان بها جدار عريض من طرف جبل عبدالله بن عمر الى الجبل المقابل له ، وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد ، أهداه ملك الهند الى صاحب مكة ، يقول صاحب الاعلام الذي نقل عنه الغازي .

وقد أدركنا منها ـ من الجدار ـ قطعة جدار كان فيه ثقوب للسيل ، قصير دون القامة وكان صنع باب السور « بكتباية » من بلاد الهند في سنة ست وثمانين وسبعمائة ، وأهدى للسيد/ أحمد بن عجلان ـ أمير مكة في ذلك الزمان ـ وركّبه على باب المعلاة عنان بن مغامس بن رميثة في سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، لما ولى أمرة مكة بعد مقتل محمد بن أحمد بن عجلان .

ثم أحرق ذلك الباب بالنار حتى سقط على الأرض ، وهدم كذلك عدة مواضع من سور باب المعلاة من جانبه ، وسبب ذلك أن جند السيد/ رميثة بن محمد بن عجلان منعوا جند عمه السيد حسن من دخول مكة ، لما ولى أمر مكة عَوَّضَ رميثة في ثامن عشر من رمضان في هذه السنة ، فقام بعض جنود السيد حسن بهدم عدة مواضع من السور كما قاموا باحراق باب السور حتى سقط الى الأرض .

ثم أمر السيد حسن ببناء ما تهدم من السور ، وعوَّض عن الباب المحترق بباب جديد انتزعه من بعض دوره بمكة ، وكان الباب الجديد يقل عن الباب المحترق في الحجم فزيد فيه حتى تم اكماله ، ووضع في مكانه من السور في ثاني عشر ذي القعدة من العام المذكور .

سور الشبيكة :

وكان في جهة الشبيكة سور ما بين جبلين متقاربين بينهما الطريق السالك الى خارج مكة

وكان في السور بابان بعقدين ، أدركنا أحد العقدين يدخل منهما الجمال والأحمال ثم تهدم شيئاً فشيئا الى أن لم يبق منه شيء الآن ، ولم يبق منه إلا فج بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج ، وهذا التعليق لصاحب الاعلام الذي نقل عنه الغازي .

سور المسفلة :

وكان بمكة سور في جهة المسفلة في درب اليمن ، يقول صاحب الاعلام ، لم ندركه ولم ندرك آثاره .

سور آخر بأعلى مكة :

وذكر التقي الفاسي نقلاً عن من تقدم،أنه كان لمكة سور من أعلاها دون السور الذي تقدم ذكره ، قريباً من المسجد المعروف بمسجد الراية ، وكان من الجبل الذي الى جهة القرارة ، ويسمى لعلع ، الى الجبل المقابل الذي الى جهة سوق الليل ، قال : وفي الجبل آثار تدل على اتصال السور به . انتهى .

يقول التقي الفاسي : ولم يبق من آثار هذا السور شيء مطلقاً .

ويقول التقي الفاسي عن تاريخ انشاء هذه الأسوار : فما عرفت متى أنشئت هذه الأسوار بمكة ولا من أنشأها ، ولا من عمّرها ، غير أنه بلغني أن الشريف أبا عزيز قتادة بن ادريس الحسيني ، جَدُّ ساداتنا أشراف مكة أدام الله عزهم وسعادتهم هو الذي عمَّرها .

قال الفاسي : وأظن أنه كان في دولته عمرً السور الذي أعلا مكة ، وفي دولته سهلت العقبة التي بنى عليها سور باب الشبيكة ، وذلك من جهة المظفر صاحب أربل سنة ستمائة وستة ، ولعله الذي بأعلا مكة ، والله أعلم[١] .

أقول : التقي الفاسي مؤرخ مكة كان من مواليد سنة سبعمائة وخمس وسبعين ، وتوفي سنة ثمانمائة واثنين وثلاثين ، وهو مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، وكتاب شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام وهو ممن عاصروا القرنين الثامن والتاسع الهجريين[٢] أما الشريف قتادة بن ادريس فقد وصل الى مكة بقومه من ينبع وهاجم أميرها الشريف مكثر واستخلصها لنفسه في سنة خمسمائة وسبعة وتسعين للهجرة[٣] .

وتعليقاً على ما ذكره التقي الفاسي في تعمير الشريف قتادة لأسوار مكة إن ذلك غير مستبعد لأن الشريف قتادة كان أميراً طارئاً على مكة قدم اليها من ينبع وأراد تحصينها بالأسوار بعد أن استولى عليها من امرائها أشراف مكة .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ١٨٤ ـ ١٨٧ .

(٢) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين .

(٣) تاريخ مكة للسباعي ص ٢٢٤ / ٢٢٥ .

تسقيف المسعى :

ذكر الشيخ / الغازي في افادة الأنام مايلي :

في سنة ألف وثلاثمائة واحدى وأربعين أمر الشريف الحسين الملك الهاشمي بعمل سقيفة للمسعى ، وكانت المسعى مكشوفة ، وكان الساعون بين الصفا والمروة يتعرضون لحرِّ الشمس ولفح السموم حين سعيهم ، وقد أورد الشيخ الغازي الأبيات الشعرية الجميلة التي سجلت هذا الحدث للشاعر الأديب الشيخ / فؤاد الخطيب والتي سجلت على باب سقيفة المسعى من جهة الصفا ، كما أورد الأبيات الشعرية التي نظمها الشاب الأديب صالح قزاز ، والتي سجلت على باب سقيفة المسعى من جهة المدعي .

وهذه أبيات فؤاد الخطيب :

نضَّر الله تعالى ورعى ... ملك العرب الحسين الأروعا
مرَّت الأجيال لم يرفع لهم ... غيره الظلَّ الذي قد رفعا
وحمى الاسلام في خير حِمَا ... فهو ظل الدين والدنيا معا
ضجَّ بالشكر وبالحمد له ... كل من طاف ولبَّى ودعا
وجزى القزاز من همته ... خير ما يجزي به من نفعا
صدق الذي قال لنا ... ليس للانسان إلا ما سعى[1]

أقول الشيخ / فؤاد الخطيب كان وزيراً لخارجية الملك الشريف الحسين بن علي ، وهو شاعر عربي كبير ، وأصله من لبنان ، وكان على اتصال بالملك حسين وأولاده ، وفي عهد جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود ، جاء الى الحجاز فعيَّنه الملك عبدالعزيز يرحمه الله سفيراً للمملكة في أفغانستان ، وابنه الآن من سفراء المملكة في الخارج ، أما القزاز الذي أشار اليه الخطيب قائلاً :

وجزى القزاز من همته ... خير ما يجزي به من نفعا

فهو الشيخ / عبدالوهاب قزاز من أعيان مكة المكرمة ، وكان وزيراً للنافعة في زمن الملك حسين ، ووزارة النافعة في الاصطلاح الهاشمي إذ ذاك تعني وزارة الأشغال في زماننا هذا .

أما الشاب الأديب صالح قزاز الذي سجلت الأبيات التي نظمها في سقف المسعى من جهة المدعي ، فهو الشيخ / صالح قزاز أمين رابطة العالم الاسلامي يرحمه الله فيما بعد وهو من رجالات مكة المعروفين[2] .

أقول : ولقد أدركت السقيفة التي أمر بانشائها الملك حسين والتي أشاد بها الشعراء في حينه ، وقد أزيلت هذه السقيفة في العهد السعودي ، وأبدلت بسقف جميل المنظر تحمله

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٥٠/٥١ .
(٢) انظر ترجمته في هذا الكتاب .

أعمدة حديدية متقنة الصنعة ، وذلك في عهد تولي الشيخ / عبدالرؤوف الصبان أمانة العاصمة في مكة المكرمة ، وذكرت ذلك في أعلام الحجاز وأنقل هنا بعض ما كتبته في ذلك .

كانت المسعى في بعض أجزائها مكشوفة تخترقها الشمس ، فكان الناس يتحاشون السعي في أوقات الحرارة ، ويؤدون نسكهم بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر أو في الليل في أوقات الصيف ، وكان القسم الآخر مسقوفاً بسقف من الخشب كئيب المنظر ، ان حمى من حرِّ الشمس فهو لا يحمي من المطر في الشتاء . . . الخ .

ثم قلت : تقدم الشيخ / عبدالرؤوف الصبان الى المسؤولين باكمال تجميل المسعى ، وذلك بإزالة السقف القديم المتآكل الكئيب المنظر بسقف جميل حديث مرتفع قائم على أعمدة حديدية ، وكان هذا السقف مع رصف أرض المسعى وتبليطه أول تحسين ادخل على شارع المسعى في التاريخ ان صح هذا التعبير الى أن تم العمل العظيم الكامل بادخال المسعى نفسه كاملاً في الحرم الشريف في التوسعة السعودية كما هو بوضعه الحاضر(١) .

وعلى ذكر المسعى فقد أورد الشيخ / الغازي رواية عن حادثة وقعت في مكة المكرمة في زمن الملك قايتباي سلطان مصر ، وكان له تابع من التجار مقرَّب من قايتباي أرسله السلطان الى مكة ليدير أمور تجارته فيها . وليقوم له بتعمير مدرسة باسمه ، كما أمره باجراء بعض العمارة في المسجد النبوي الشريف ، وبناء مدرسة له بها ، واجراء العين الزرقاء الى المدينة المنورة .

ذكر الغازي أن هذا التاجر واسمه الخواجة شمس الدين بن الزمن استأجر ميضأة كانت بين الميلين الأخضرين عمَّرها السلطان شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون ، فقام شمس الدين هذا بعد استئجارها بهدمها وأراد انشاء رباط له في مكانها ، وأدخل مقدار ثلاثة أذرع في أرض المسعى وباشر بحفر الأساس لبناء الرباط المذكور ، ولكنَّ قاضي القضاة بمكة برهان الدين بن علي بن ظهيرة الشافعي منعه من ذلك فلم يمتنع ، فجمع القاضي ائمة علماء مكة وذهب بنفسه الى المسعى ، وذهب معه العلماء وقاموا باتخاذ محضر أثبتوا فيه الاعتداء على أرض المسعى ، وأوقفوا العمل في البناء ، ولكن التاجر شمس الدين لم يستسلم لذلك ، واستصدر أمراً من السلطان قايتباي بإتمام البناء وعزل القاضي ابن ظهيرة ، وأمر أمير الحاج المصري في ذلك العام ، يَشْبَك الجمَّال باستئناف البناء ، ووقف بنفسه ليلاً على المكان وأمروا البنائين بالعمل الى أن صعد البناء على وجه الأرض ، وجعل ابن الزمن بناءه هذا رباطاً وسبيلاً وبنى في جانبه داراً ، وصَغَّر الميضأة وجعل لها بابا من سوق الليل وكان ذلك في سنة ثمانمائة وخمس وسبعين ، ويعلق مؤرخ مكة الذي نقل عنه الغازي هذه القصة فيقول :

ويا لله العجب من ابن الزمن وما ذكرناه عن فضله وخيرته ، وكيف ارتكب هذا الجرم

---

(١) انظر تفصيل ذلك في أعلام الحجاز ج ١ ص ١٠٩/١١١ .

باجماع المسلمين طالباً به الثواب ، وكيف تعصَّب له سلطان عصره ، الملك الأشرف قايتباي مع أنه أحسن ملوك الجراكسة عقلاً وديناً وخيرية ، وهو يأمر بفعل هذا الأمر المجمع على حرمته في مشعر من مشاعر الله تعالى ، وكيف يعزل قاضي الشرع الشريف لكونه نهى عن منكر ظاهر الانكار فرحم الله الجميع وسامحهم وغفر لهم انتهى [1] .

أقول : أخذت ابن الزمن العزَّة بالإثم فلم يطق أن يُصَدَّ عن أمر أراد انفاذه وهو يعلم مكانه من السلطان وكان حَرِياً به أن لا يخلط بين السيئة والحسنة ، ولكن النفوس اذا تسلط عليها الهوى ، أعمى بصيرة أصحابها ، وقد رأى ابن الزمن من سبقه الى البناء على أرض المسعى وجوانبها فلم ير ما يحول بينه وبين ذلك ، وبإدخال المسعى في المسجد الحرام انقطع الطريق على كل من تسول له نفسه بشيء ، فجزى الله القائمين على هذا العمل العظيم خير الجزاء .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤ / ٥٠ .

أوليات في مكة

هاشم بن عبدمناف أول من سن الرحلتين :

كان القرشيون تجاراً يمارسون التجارة ويتكبَّدون لها الأسفار ، وكانوا يقومون برحلتين في العام رحلة في الصيف الى الشام ، ورحلة في الشتاء الى اليمن ، وكانوا ينقلون في الرحلتين من عروض التجارة الى كل بلد ما يطلبه البلد الآخر ، وكانت ترد الى مكة منتجات البلدان المختلفة مع الحجاج القادمين اليها ، والتي كانت تباع في الأسواق المقامة في الحجاز في عكاظ ومِجَنَّة ، وذي المجاز ، وقد ذكر القرآن الكريم رحلتي الشتاء والصيف في سورة قريش .

وجاء في افادة الأنام أن هاشم بن عبدمناف الجدُّ الثاني للرسول صلوات الله وسلامه عليه هو أول من سَنَّ الرحلتين لقريش ، وهو كذلك أول من أطعم الثريد ، واسمه عمرو ، وإنما سُمِّي هاشماً لهشمه الخبز وثَردِهِ لقومه كما قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف
سُنَّتْ اليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ، ورحلة الأصياف[1] .

الخليفة الراضي يبني أنصاب الحرم بالتنعيم :

كان الخليفة الراضي العباسي ، هو الذي أمر ببناء المعلمين الكبيرين لانصاب الحرم بالتنعيم وذلك في سنة ثلاثمائة وخمس وعشرين للهجرة ، واسمه مكتوب عليها .

وصاحب اربل يبني أنصاب عرفة :

كما أمر المظفر صاحب اربل بعمارة العلمين الذين هما حدُّ الحرم من جهة عرفة ، في سنة ستمائة وست وعشرين للهجرة ، وقال ابن فهد أن بناء المظفر كان في سنة ستمائة وخمس في شعبان .

---

(١) افادة الأنام مجلد ١ ص ١٦٦ .

وهي أعلام ثلاثة بين منتهى أرض عرفة ، ووادي عرفة ، والمظفر هو كوكبري ابن علي بن بكتكين صاحب اربل .

اصلاحات العيون وايصالها الى مكة والمشاعر :

عقد الشيخ الغازي بحثاً طويلاً عن اصلاحات العيون وايصالها الى مكة والمشاعر ، وقد رأيت أن أنقل بعض ما جاء فيه ، وخاصة الاصلاحات التي لم يصل خبرها الينا ، فمن المعلوم أن السيدة/ زبيدة ، زوجة الرشيد الخليفة العباسي ووالدة الخليفة الأمين أجرت الماء الى مكة في العهد الأول للخلافة العباسية ، وأخبار هذه العين وما بذلته فيها من أموال كتب عنها المؤرخون ، واشتهر أمره ، فسميت العين باسم زبيدة ، واستمر هذا الاسم متداولا في مكة في جميع العهود والأزمان ، وقد كانت في مكة ادارة لهذه العين تسمى عين زبيدة حتى عهد قريب .

ولَمَّا تضخم العمران في مكة المكرمة وما حولها ، وفي مدن المملكة عامة ، عمدت الدولة الى تحلية مياه البحر ، وقامت مصانع التحلية في شواطىء البحار لاستخراج الماء العذب ومُدَّتْ له الأنابيب لتخترق الأودية السحيقة ، والجبال الشاهقة ، والصحاري المترامية ، فتمد مدن المملكة بالماء العذب ، وأضيفت اليه مياه العيون السابقة لتقابل النمو العظيم المتزايد في تعداد السكان ، وانتشار العمران ، فكان هذا العمل العظيم من أعظم الانجازات التي تشهدها بلادنا الحبيبة في هذا العهد الذي نعيش فيه .

بعد هذه المقدمة ، لعل من واجب المؤرخين أن لا ينسوا ما قام به الأسلاف من مجهودات عظيمة أصبحت في ذمة التاريخ ونحن اذ نسجلها الآن فانما نذكر بالخير من قاموا بانجازها وبذلوا الأموال ، والجهود العظيمة في هذا السبيل ، ثم نحمد الله تعالى على ما ننعم به في الوقت الحاضر مقارنة بما كان يلقاه أسلافنا من مشقات ، ومتاعب .

ولما كان تاريخ الماء في مكة والمشاعر حولها تاريخ طويل لا يتسع له هذا البحث فقد رأيت الاقتصار على بعض الحوادث الهامة التي حدثت في العهد العثماني ، أما الحوادث السابقة لذلك ، فقد أعرضت عن ذكرها تجنباً للاطالة والملالة وبوسع القارىء الاطلاع عليها في كتاب الغازي إن رغب في ذلك[1] .

ونبدأ الحديث عن كلمة يتداولها الناس في الحجاز هي كلمة « بازان » :

بازان :

يطلق الناس في الحجاز وفي مكة خاصة اسم « بازان » على موارد الماء التي يستقون منها الماء حينما كانت العيون تُجَرُّ الى المدن ، وتصنع لها موارد يستقي منها الناس ، ولعل هذه النسبة

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢٧٧ / ٣٢٧ .

تعود الى رجل اسمه عمر بازان ، أرسله الى مكة نائب السلطنة بالعراقين الأمير جوبان بن تلك بن تداون ، وكان نائباً عن السلطان أبي سعيد خدابنده ملك التتر وكان الماء قد شَحَّ في مكة وعرفة ، وكان الناس في جهد عظيم من قلة الماء ، فقد كانت الراوية(١) من الماء تبلغ قيمتها في الموسم عشرة دراهم ، وفي غير الموسم سبعة .

ورغب الأمير جوبان المذكور ، انشاء عمل خيري بمكة ، فدلَّه بعض الناس على عين كانت تجري قديماً وتعطلت ، فندب بعض ثقاته وأرسل معه خمسين ألف دينار ، وجهزه في الموسم سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فلما قضى حجه تأخَّر بمكة ، واشتهر أمره ، فاعلم بعين عرفة فنادى بمكة : من أراد العمل بالعين فله ثلاثة دراهم في كل يوم ، فهرع اليه العمال ، وخرج بهم الى العمل فلم يشق على أحد منهم ، ولا استحثه ، وانما كانوا يعملون باختيارهم ، فأتاه جمع كثير من العرب وعمل حتى العشاء الى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة في ثامن عشر جمادي الاولى من هذه السنة ، فكانت مدة العمل أربعة أشهر ، وكثر النفع بهذه العين وعظم ، وصرفه الى مكة والى مزارع الخضروات .

وكان جملة ما صرف عليها في هذه العمارة مائة وخمسين ألف درهم(٢) .

أقول : هذا ما ذكره الشيخ / الغازي ، وقد وجدت في كتاب بدائع الزهور ، في أخبار سنة خمس وعشرين وسبعمائة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون هو الذي أجرى هذه العين ، قال ابن اياس :

وفيها ـ في السنة المذكورة ـ أرسل السلطان جماعة من البنائين الى مكة وأجرى بها عين ماء ، وهي العين المعروفة بعين بازان ، فحصل لأهل مكة بها غاية النفع وهي الآن جارية ويعم نفعها أهل مكة(٣) .

قربة الماء الصغيرة بدينار ذهب :

أورد الغازي عن كتاب بلوغ القرى في حديثه عن الماء ما يلي :

قال العلامة قطب الدين رحمه الله : ثم انقطعت ـ العين ـ في أوائل الدولة العثمانية بهذه الأقطار الحجازية ، وبطلت العيون لقلة الأمطار ـ وتهدمت قنواتها ـ وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة ، وصار أهل مكة يستقون من الآبار حول مكة ، من ابيار يقال لها « العسيلات » في علو مكة قريبا من المنحنى ، ومن آبار في أسفل مكة يقال لها « الزاهر » وتسمى الآن بالجوخي في طريق التنعيم ، وكان الماء غالياً قليل الوجود ، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها ، وكان الحجاج يحملون الماء الى عرفات من الأمكنة البعيدة ، وصار فقراء

(١) الراوية هي القربة من الماء .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢٩٦ / ٢٩٨ .
(٣) بدائع الزهور مجلد ١ ص ٤٥٧ .

الحجاج في يوم عرفة لا يطلبون شيئاً غير الماء لعزته ، ولا يطلبون الزاد ، وربما جلب بعض الأقوياء ـ الماء ـ من أماكن بعيدة للبيع فيحصلون أموالاً من ذلك لغلو ثمنه .

قربة الماء الصغيرة بدينار من الذهب :

يقول القطبي : وأني أذكر انه في سنة تسعمائة وثلاثين قلّ الماء في الآبار البعيدة أيضاً فارتفع سعر الماء جداً في يوم عرفة ، وكنت يومئذ مراهقاً في خدمة والدي رحمه الله ، وفرغ الماء الذي حملناه من مكة ، وعطش أهلنا ، فطلبت قليلاً من الماء للشرب ، فاشتريت قربة ماء صغيرة جداً يحملها الانسان بأصبعه بدينار من الذهب ، والفقراء يصيحون من العطش ، يطلبون من الماء ما يبلّ حلوقهم في ذلك اليوم ، فشرب أهلنا بعض تلك القربة ، وتصدّقوا بباقيه على بعض من كان مضطراً من الفقراء ، وجاء وقت الوقوف الشريف والناس عطاش يلهثون .

والغيث يأتي من السماء :

فأمطرت السماء ، وسالت السيول من فضل الله تعالى ورحمته ، والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ، ويسقون دوابّهم ، وحصل البكاء الشديد ، والضجيج الكثير من الحجاج في وقت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه واحسانه اليهم وتكرمه عليهم .

يقول القطبي : ولا أزال أتذكر تلك الساعة وما حصل فيها من اللطف العظيم من كرم الله العميم[١] .

الماء في سنة ألف ومائة وأربعين :

ونقل الغازي : من حوادث سنة أربعين ومائة وألف عن الوقوف بعرفة قال :

كانت الوقفة بالسبت ، ولم يحصل من المخالفات شيء ، وكانت الوقفة في غاية الأمن وانما شاقَّ ـ شق ـ على الناس قلة وجود الماء ، فقد بيعت القربة بثلاثين دواني[٢] .

أقول : الدواني أو الديواني وحدة من العملة العثمانية ، فصلّناها في أعلام الحجاز نقلا عن السباعي[٣] ، ونستطيع أن نستخلص من هذا أن سعر الماء في سنة ألف ومائة وأربعين كان رخيصاً جداً بالنسبة لما ذكره القطبي عن سعر الماء في سنة تسعمائة وثلاثين أما جلب الماء من الآبار فقد كان الحجاز كله يعاني من شح الماء وقلته .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٣٢٧/٣٢٩ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٣٧٢ .

(٣) انظر أعلام الحجاز ج ٣ ص ٣٨ .

وفي كتابي ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز تحدثت عن الماء في جدة وعن أنواعه وما يجلب منه من العيون أو الآبار أو يؤخذ من البحر فليرجع اليه من شاء الاستزادة[1].

ابنة السلطان سليمان تنفق على اجراء الماء الى مكة وعرفات :

كان الماء شحيحاً في مكة وعرفة ومنى ، وتاريخ العيون واجراؤها في هذه الأماكن ثم توالي توقفها تاريخ طويل ليس هنا محل بسطه ، ولكننا استوقف نظري فيما أورده الشيخ الغازي من هذا التاريخ ما قامت به الأميرة خانم سلطان ابنة السلطان سليمان القانوني التي تقدمت الى والدها السلطان سليمان في أوائل سنة تسعمائة وتسع وستين ، أن يأذن لها في الانفاق على ايصال الماء الى عرفات ، وكانت عين عرفات قد انقطعت ، وأصبح الحجاج يعانون كثيراً من فقدان الماء وغلاء ثمنه ، وكان السلاطين العثمانيون منذ أن صار لهم حكم الحجاز يوالون اصلاح العيون في مكة وعرفة ، وكان قاضي مكة عبدالباقي بن علي المغربي ، والأمير خير الدين سنجقدار جدة ، قد رفعوا الى السلطان سليمان تقريراً عن عين عرفات التي انقطعت من سنوات طويلة ، وكان في تقديرهم أن اصلاح هذه العين وايصالها الى مكة يقضي على مشكلة الماء في هذه الأماكن المقدسة ، وقدروا المال اللازم للمشروع بثلاثين ألف دينار فلما علمت الأميرة خانم سلطان بفحوى هذا التقرير التمست من والدها السلطان سليمان أن يأذن لها بالانفاق على هذا المشروع تشبُّهاً بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي أجرت العين المسماة باسمها الى مكة ، وكانت هذه العين قد انقطعت عن البلد الأمين بتعاقب القرون .

أذن السلطان لابنته الأميرة بالقيام بهذا العمل الجليل ، واختار اسناد هذه المهمة الجليلة الى الأمير الكبير ابراهيم باشا ، دفتردار مصر ، ودفعت له الأميرة خمسين ألف دينار ذهباً بزيادة عشرين ألف دينار مما قدره قاضي مكة لاصلاحها .

سافر ابراهيم باشا بحراً من مصر ، ووصل الى مكة لثمانٍ بقين من ذي القعدة سنة تسع وستين وستمائة ، وبعد مقابلة أمير مكة الشريف حسن بن أبي نمي ، وشيخ الاسلام بمكة القاضي حسين الحسني ، والاستماع الى آرائهما ، باشر العمل فبدأ أولاً بتنظيف بعض الآبار التي يستقي منها الناس ، ثم توجَّه الى عرفات ، وقام بفحص مجاري العين ومشاربها وتتبع الدبول والقنوات التي يجري فيها الماء ، وأقام بوادي نعمان ، وكان قد أحضر معه للقيام بأعمال الحفر والتنظيف أربعمائة مملوك ، واستخدم البنائين ، والحجارين ، والقطاعين والنجارين والعمال الذين بلغ تعدادهم ألف رجل للعمل في المشروع ، وكان قد أحضر معه من مصر كلَّما ظنَّ انه لازم للعمل من مكاتل ومساحي ، ومجاريف ، وحديد ، وفولاذ ، ونحاس ، ورصاص ، وقسَّم العمال الى فرق متعددة أوكل لكل فرقة مساحة من الأرض

---

(١) ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز ص ١٥٢/١٥٤ .

يعملون فيها ، وكان يقدِّر أن العمل سينتهي خلال عام واحد ، وكان التقرير المقدم الى السلطان يقدر أنه اذا تم تنظيف القنوات التي كان يجري فيها ماء عين زبيدة ، واصلاح ما تهدم منها ، وتعميرها يمكن الوصول الى عين عرفات ، ومن ثمَّ العمل الى اعادة جريانها كما كانت في عهد زبيدة ، ولكن المفاجأة التي حدثت أنه حينما اتصل عمل ابراهيم باشا بعمل زبيدة لم يجد العمال دبلاً ولا آثار عمل وتبين لابراهيم باشا أن زبيدة اصطدمت بصلابة الحجر ، وعدم امكان قطعه في تلك المنطقة فلجأت الى عين حنين وأنه اذا أراد ابراهيم باشا ايصال عين حنين الى هذا المكان ، فانه يحتاج الى شق قناة ـ دبل ـ منقور تحت الأرض في الحجر الصوان بطول ألفي ذراع بذراع البنائين ، وكان مما يصل الى الاستحالة نقب ذلك الحجر تحت الأرض ، لأنه يحتاج الى أن يتعمق في الحفر الى خمسين ذراعاً .

وقام ابراهيم باشا بمحاولة أخرى ، هي الحفر في وجه الأرض حتى يصل الى الحجر الصوان ، ثم أخذ يوقد عليه النار ، ويقول المؤلف ان ابراهيم باشا أوقد حمولة مائة حمل من الحطب الجزل في ليلة كاملة ، وكان العمل في مساحة مقدارها سبعة أذرع في خمسة أذرع من وجه الأرض ، وكانت النار لا تعمل إلا في العلو ، فاذا نزلت عن وجه الأرض قل تأثيرها فيلين بالحجر من جانب السفل بمقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً ، فيكسر بالحديد الى أن يصل الى الحجر الصلب الشديد ، فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة أخرى وهلمَّ جرًا الى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعاً في العمق في عرض خمسة أذرع الى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذه الصورة .

ويعلق المؤلف فيقول : وذلك يحتاج الى عُمر نوح ، ومال قارون ، وصبر أيوب ، ولم ير ابراهيم باشا بداً في الاستمرار في العمل بهذه الطريقة التي وصفناها ، حتى فرغ الحطب من جبال مكة ، فصار يُجلب من المسافات البعيدة ، وغلا سعره ، وضاق الناس بذلك ، وتعب الأمير ابراهيم وذهبت أمواله ومماليكه ، وهو يتجلد عن ذلك الى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع ، وصار كلما فرغ المال الذي لديه طلب من مصر مالاً ، حتى بلغ ما صرف على المشروع خمسمائة ألف دينار ذهباً من الخزائن العامرة ، وتوفي ابراهيم باشا ناظر العمارة في سنة تسعمائة وأربع وسبعين ، بعد استمراره في العمل خمس سنوات ، فأسند الأمر من قبل أمير مكة الى سنجق جدة الأمير قاسم بك ، ورفع الأمر الى السلطان في الأستانة للموافقة ، وتوفي السلطان سليمان ، وتولى بعده السلطان سليم ابنه ، فاختار لإكمال مشروع العين ، دفتردار مصر في ذلك الزمان محمد بك المككجي وحضر الدفتردار المذكور الى مكة ، وشرع في العمل ولكنه توفي في سنة تسعمائة وست وسبعين ، ولم يتم انجاز المشروع فأعيد الأمير قاسم سنجق جدة لمباشرة العمل ، وأقره السلطان سليم على ذلك ليكون أميناً على مصارف العمل وأسند النظارة الى قاضي القضاة بمكة حسين الحسيني ولكن الأمير قاسم توفي في منتصف سنة تسعمائة وتسع وسبعين ، ومازال للعمل بقية ، فأمر السلطان سليم أن يتولى قاضي القضاة حسين

الحسيني القيام به ، وأراد الله إتمام المشروع بعد خمسة شهور من إسناد العمل الى قاضي قضاة مكة كما ذكرنا ، ووصل الى مكة لعشرين بقين من ذي القعدة سنة تسع وسبعين وتسعمائة وقد استمر العمل في مشروع ايصال الماء الى مكة نحو عشر سنوات ، وكان المقدر له عاماً واحداً ، وبلغ ما صرف على هذا المشروع خلال هذه العشر سنوات خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ، وكان المقدر له ثلاثين ألف دينار ، وقد رغبت ابنة السلطان سليمان العثماني أن يكون لها شرف هذه الصدقة الجارية تشبهاً بزبيدة زوجة الرشيد فدفعت من مالها خمسين ألف دينار ولكن المشروع تضاعفت تكاليفه مائة ضعف فأنفقت عليه الدولة العثمانية من خزائنها طيلة عشرة أعوام ، واذا كانت الأميرة العثمانية لم تحقق ما أرادت ، فإن لها ثواب النية الطيبة والأعمال بالنيات .

أقول : خمسة لكوك بمعنى خمسة ملايين والكلمة هندية وهي تعني المليون ومفردها لُكٌّ .

الاحتفال بايصال الماء الى مكة :

احتفل الناس في مكة بوصول الماء احتفالاً عظيماً وصفه صاحب الاعلام بقوله :

وكان ذلك اليوم عيداً أكبر عند الناس ، وزال بوصول ذلك الماء الى البلد كل هم وباس ، وأقام قاضي مكة الذي أكرمه الله تعالى بإتمام المشروع على يديه « اسمطة » موائد عظيمة في الأبطح ، في بستان له هناك ، دعا اليها الأكابر والأعيان ، ونصب لهم السرادقات والصيوان ، وذبح أكثر من مائة من الغنم ، ونحر عدة من الأبل والنعم ، وقدم للناس على صفاتهم الموائد والنِّعم ، وخلع على أكثر من عشرة من المعلمين والبنائين والمهندسين حللا فاخرة وأحسن الى باقيهم بالانعامات الوافرة ، وتصدَّق على الفقراء والمساكين شكراً لله تعالى على هذه النعمة الجزيلة ، وزُفَّتْ البشائر بها الى السلطان سليم خان ، والى صاحبة الخيرات بلقيس الزمان ، حضرة خانم السلطان ، فانعمت بالأنعامات الجزيلة على سائر المبارين والمتعاطين لهذه الخدمة الشريفة الجزيلة ، وحصل لمولانا شيخ الاسلام المشار اليه ترقيات عظيمة ، وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام الى آخر ما ذكره صاحب الاعلام(١) .

مقدار ما أنفقته زبيدة على ايصال الماء الى مكة :

أورد الشيخ الغازي مقدار ما أنفقته السيدة زبيدة على ايصال الماء الى مكة فقال :

« انه ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب » قالوا : وأحضر القائمون بالعمل دفاترهم لتطلع عليها ، وكانت في قصر عالٍ مشرفٍ على نهر دجلة ، فأخذت الدفاتر وألقتها في النهر وقالت : تركنا الحساب ليوم الحساب ، فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ،

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٣٣١/٣٤٦ .

ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه ، وألبستهم الخلع والتشاريف ، فخرجوا من عندها حامدين شاكرين(١) .

أقول : لقد أجرت السيدة زبيدة العين المسماة باسمها والتي كانت من الأعمال العظيمة في التاريخ قبل سبعمائة سنة من تاريخ اجراء العين الجديدة التي أرادت بها ابنة السلطان سليم التشبه بزبيدة يرحمها الله ، وبذلت من مالها الخاص ما قدّرت أنه يكفي لاتمام المشروع العظيم ، واذا كانت لم تتمكن من إتمامه من مالها الخاص ، فقد كان لها فضل السبق والبداية ، والنية الحسنة ، فجزاها الله خير الجزاء .

لجنة من أثرياء الهند تجمع المال لاصلاح العين :

قصة الماء في مكة كما قلنا لها تاريخ طويل ، فلا يكاد يتم وصول الماء الى مكة ويفرح الناس به إلا وينقطع بعد سنوات تقصر أو تطول ، وضمن ما أورده الشيخ / الغازي من أخبار العيون والآبار المتعلقة بمكة انه في عام ١٢٩١ ، اجتمع جماعة من علماء مكة المشرفة بالشريف عبدالله باشا أمير مكة ، وهم السادة / الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي مكة ، والشيخ / عبدالله الشيبي فاتح بيت الله الحرام ، والشيخ /عبدالرحمن جمال ، والشيخ / عبدالقادر خوقير وغيرهم ، وعوّلوا كما يقول الشيخ / الغازي على جمع المال من أهل البر والاحسان لاصلاح عين عرفات ، واصلاح عين حنين واجرائها لاعانة عين عرفات ، فوفق الله تعالى أصحاب الهمم العالية ، الراجين ثواب الله سبحانه ، منهم المرحوم الشيخ / أحمد أفندي المشاط ، فانه دفع مائة جنيه ، وجمع من تجار الهند بجدة مبلغاً ، وصادف وجود أشخاص كرام مثل الحاج / عبدالواحد الشهير بوخدانة الميمني ، والحاج / عبدالله عرب الميمني ، فساعدوا على هذا العمل الخيري أحسن مساعدة ، وعمّروا ما تيسر لهم تعميره الى أن جرى الماء بمكة واستراح الناس قليلاً ولكنهم عملوا وتحققوا أن الأمر مهم ، ويحتاج الى نفقات هائلة .

وفي سنة خمس وتسعين ومائتين وألف رغب الحاج / عبدالواحد وخدانه والحاج / عبدالله عرب وبعض جماعة معهما في القيام بهذا العمل الخيري ، وذلك بالتفرغ له وجمع الاعانات من كل الجهات الاسلامية .

وصل الرجلان الى مكة ومعهم من يترجم حديثهم الى اللغة العربية ، وقابلوا أمير مكة في ذلك الوقت وهو الشريف الحسين الشهير فيما بعد بالشهيد ، وشرحوا للأمير ما ينوون القيام به ، فشكرهم ، وأثنى على همتهم وقال لهم ، حيث ان الحكومة تدفع سنوياً مبلغ ألف جنيه عثماني لعين زبيدة ، فلابد من استئذانها في الأمر ، وذكر لهم أنه سيبحث الموضوع مع الوالي التركي ، وكان الوالي في ذلك الزمن ناشد باشا .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٢٨٧ / ٢٨٨ .

قابل الرجلان ناشد باشا ، وعرضوا عليه ما اعتزما عليه ، واتفق الشريف والوالي على أن يكتبا سوية الى الاستانة للحصول على الموافقة المطلوبة من الدولة ، وكتبا ، وجاء الاذن بالموافقة على الشروع في العمل .

شكّل الأمير والوالي لجنة تضم جماعة من الأشراف والأهالي وأفاضل المجاورين مثل فضيلة الشيخ / رحمة الله الهندي ، واجتمعت اللجنة وشرعوا في جمع التبرعات التي افتتحها أمير مكة بمبلغ سبعمائة وخمسين ريالاً مجيدياً وتلاه الوالي بمائتين وخمسين ريالاً ، وتوالت التبرعات من التجار والأهالي كلٌ على قدر استطاعته ، وتعينت لادارة المشروع لجنة رئيسها الفخري الشيخ / عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف والحاج / عبدالواحد خوندا أميناً للصندوق ، ومفوضاً بالنظر والتصرف وكتبت اللجنة الى جميع الجهات الاسلامية وأعلنوا عن مشروعهم في الصحف بلغات عديدة ، وكان المدير التنفيذي باصطلاح عصرنا هذا هو الحاج عبدالواحد الميمني ، وكانت الخطوات التنفيذية تتم بعد اطلاع اللجنة عليها والمداولة فيها وتقرير ما يجب تنفيذه ، ولا يتم الاقدام على عمل إلا بقرار من اللجنة المذكورة .

تجمَّع في صندوق اللجنة مقدار عظيم من المال يقول المؤلف :

وساعدتهم الحكومة المحلية على هذا العمل الخيري أتم مساعدة ، ولم تجعل منها عليهم يداً أصلاً ، إلا بالمساعدة عندما يحتاجون اليها .

وباشرت اللجنة عملها فاستقدمت من الهند المهندسين والصناع ، وخرجوا بهم الى عرفة وحققوا المسافة بين مكة وبين عين زبيدة من وادي نعمان ، فوجدوا أنها تنوف على سبعة عشر ألف متر ، ورأوا أن البدء بالعمل من عين زبيدة من عرفات أنفع فشرعوا في العمل باجتهاد تام ، وقاموا بالحفر من بعد حدود عرفة الى وادي نعمان ، فبحثوا وحفروا في أسفل الدبل نحو ستمائة ذراع ، بنوا فيها عدة خرزات دفنوا بعضها ، وأبقوا البعض الآخر لسقيا العربان .

كما شرعوا من مكة في تنظيف الدبول وتعمير ما تخرَّب منها حتى وصلوا الى المفجر وأوصلوا الماء الى منى « بالآلة النارية » من المفجر ، ونحتوا لأجل ذلك بعض الجبال ، وواصلوا العمل حتى وصلوا الى عرفة ، وبنوا في عملهم هذا عدة خرزات في طريق مكة ، كما بنوا بازانات بمكة منها ، بازان الشعب ، وبازان سوق الليل ، وبازان القشاشيه ، وبازان اجياد ، وبازانين بحارة المسفلة ، وبازان بحارة الباب ، وبازان الشبيكة ، وبازان الشامية ، وبازان سوق المعلاة الذي يسمى بازان التّمارة .

وعمروا ما كان خراباً ، وزادوا عليه موارد الماء بالبلدة ، وقطعوا الجبل الطويل الكائن بأول مكة ، وهو الريع المعترض وسط الطريق المشهور بريع الرسام وبنوا به دبلا طويلا يجري فيه الماء الى حارة جرول ، وبنوا في حارة جرول بازانا عظيما يستقي منه الناس ، وكذلك أجروا عملاً آخر من جهة العين الأصلية بمكة وهي عين الزعفرانة « والشحاخيد » المعينة لعين حنين ومكثت اللجنة التي كان رئيسها الحاج عبدالواحد الميمني تعمل بعزم وهمة نحو

ثلاث سنين ، ثم حصل الضعف في عملهم شيئاً فشيئا ، وكان الماء جارٍ بمكة أحسن جريان .

كان صندوق عين زبيدة في ذلك الزمان عامراً بالنقود المتواردة عليه من التبرعات بصورة دائمة من الهند وغيرها ، واستمر كذلك الى أن حدثت المخالفات من أمين الصندوق .

ثم تدخلت الحكومة المحلية في أمر النقود الموجودة في صندوق عين زبيدة ، بتناول شيء منها احتاجوه وصرفوه في بعض تعميرات لازمة للحكومة ، فلما بلغ أهل الهند ذلك توقفوا عن ارسال الاعانات ، وكان ذلك سبباً في استياء هيئة اللجنة ، حتى أوقفوا الأعمال ، ثم استعفى الرئيس وأكثر أعضاء اللجنة ، وسافر الحاج وخدانه بعد ذلك بنحو عامين الى الهند ، وتشكلت لجنة جديدة محلية .

ويقول المؤلف : ان المبلغ الذي كان في صندوق عين زبيدة ، عند الأخذ منه نحو سبعة وخمسين ألف جنيه[١] .

أقول : ان العمل العظيم الذي قام به أثرياء الهند المسلمين باصلاح العيون التي تمد مكة وعرفات بالماء هو عمل مشكور ، وقد قام هذا العمل بأموال المسلمين الذين رغبوا التقرب الى الله تعالى بالصدقة الجارية بتوفير الماء في بلد الله الحرام ، والمشاعر المقدسة ، وقد سار العمل سيره الحسن ، واستمر عدة سنوات الى أن طمع الطامعون في أموال العين فمدوا أيديهم اليها لتصرف في غير ما جمعت له ، فانصرف القائمون على العمل وأمسك المنفقون أموالهم ، وعادت أمور الماء في مكة الى ما كانت عليه قبل ذلك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولقد ورد ضمن أسماء أعضاء اللجنة التي شكلت لهذا الغرض اسم الشيخ رحمت الله العثماني مؤسس المدرسة الصولتية بمكة ، وقد ترجمنا له في الجزء الثاني من أعلام الحجاز[٢]، والشيخ عبدالرحمن سراج مفتي الأحناف بمكة المكرمة ، وقد ترجمنا له في الجزء الثالث من أعلام الحجاز[٣] فليرجع اليها من شاء الاستزادة .

وما دمنا بصدد الماء في عرفة ومكة نذكر هنا ما أورده الغازي مما يتصل بالموضوع .

أول من اتخذ الحياض بعرفة :

نقل الغازي عن كتاب أسد الغابة : ان عبدالله بن عامر بن كريز هو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى عليها الماء ، وقد جدَّد السلطان سليمان العثماني هذه الحياض وجددت بعده مراراً .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٣٨٦/٣٧٧ .
(٢) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٣١٣/٢٨٦ .
(٣) أعلام الحجاز ج ٣ ص ٣٧٢/٣٣٩ .

يقول صاحب تحصيل المرام : وهي الآن عمارة مملوءة من عين عرفة[1].

أقول : عبدالله بن عامر بن كريز صحابي جليل ، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأُتِيَ به النبيَّ وهو صغير فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا يشبهنا ، وجعل يتفل عليه ويَعُوِّذه ، فجعل عبدالله يبتلع ريق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال صلى الله عليه وسلم : انه لَمَسْقِيٌّ ، فكان لا يعالج أرضا إلا ظهر له الماء .

وهو ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان من ولاة عثمان رضي الله تعالى عنه وافتتح خرسان كلها ، وأطراف فارس وسجستان ، وكرمان ، وزابلستان ، وبعث الجيوش ففتح هذه الفتوح كلها ، وفي ولايته قتل كسرى يزدجرد فأحرم ابن عامر من نيسابور بعمرة وحجة شكراً لله تعالى ، وكان من الأجواد الممدوحين ، وفي ولايته للبصرة اشترى دوراً فهدمها وأنشأ بها سوقاً بالبصرة ، وتوفي ابن عامر سنة سبع وقيل سنة ثمان وخمسين وأوصى الى عبدالله بن الزبير[2].

مكان للشنق يتحول الى سبيل :

ومن الطرائف التي أوردها الغازي في حديثه عن السقايات ذكر الحادثة التالية نقلا عن ابن فهد قال :

وفي سنة سبع عشرة وثمانمائة أنشأ عطية المطيري سبيلا بالمروة ، وكان موضع هذا السبيل قبل ذلك معداً للشنق ، فقال شعبان الأثاري في ذلك :

بمكة دار كـــــان للشنق ركنها   وأضحت سبيـلا بعـد كـل بليـة
وأضحى لسان الحال منها يقول قـد   رضيت من المـولى بخـير عـطيـة

وقال شاعر آخر :

بمسعى رســول الله دار معــدة   لشنق فصارت لـلأنام سبيـلا

* * * *

(1) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٢٠ .
(2) انظر ترجمته مفصلة في أسد الغابة ج ٣ ص ٢٨٨ / ٢٨٩ وانظر كتاب عثمان بن عفان ذو النورين ص ٦٢/٦٥ .

المدارس حول المسجد الحرام

أدركت مكة في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، وكثير من البيوت الملاصقة للحرم الشريف تدعى بالمدارس ، فيقال مثلا مدرسة الباسطية ، ومدرسة الداودية ، وما الى ذلك ، ولم تكن هذه البيوت التي تسمى بالمدارس إلا منازل للسكن يسكنها بعض أهل مكة ويعيشون فيها كما يعيش الناس في بيوتهم ، والميزة الوحيدة التي كانت تميزها عن غيرها من المنازل أن لها نوافذ مشرعة على المسجد الحرام وفي أسفل كل منها غرفة مطلة على المسجد يصلي بها الناس مؤتمين بامام الحرم الشريف ، وخاصة في الأوقاف التي يزدحم فيها المسجد بالمصلين كأيام الجمع والأعياد ، وأوقات الحج والعمرة ونحو ذلك .

وكنت أعجب لتسمية هذه الأماكن بالمدارس ، وليست مخصصة للدرس والتدريس ، وقد أزيلت هذه المدارس جميعها مع ما أزيل من بيوت مكة في التوسعة الاولى للمسجد الحرام في العهد السعودي مابين عامي ١٣٨٥ - ١٣٩٦ للهجرة[1] ، وقد اختفت هذه التسمية نهائياً بإزالة هذه البيوت .

وقد وجدت في كتاب الشيخ / عبدالله الغازي - إفادة الأنام - أسباب تسمية هذه الأماكن بالمدارس لأنها كانت مدارس حقيقية في الأصل بنيت لغرض التدريس ، وأوقفت على نشر العلم وعين لها المدرسون ، ويؤخذ من الفصل الذي خصصه الغازي لهذا الموضوع ان المدارس التي كانت موقوفة بمكة المكرمة ، أحد عشر مدرسة نوجز هنا ما ذكره عنها لأهميته التاريخية .

يقول الغازي : أما المدارس الموقوفة بمكة فهي أحد عشر مدرسة فيما علمت ، منها بالجانب الشرقي من المسجد الحرام مدرسة الملك الأفضل عباس بن الملك المجاهد صاحب اليمن ، أوقفها على فقهاء الشافعية ، وتعرف الآن ، بابن عبَّاد الله ، وهي على يمين الخارج من باب النبي .

(١) انظر المعلومات التفصيلية عن العمارة السعودية للمسجد الحرام في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ص ٤٣ - ٥٢ .

مدرسة الباسطية :

ومنها بالجانب الشمالي منه مدرسة بدار العجلة على يمين الخارج من باب المسجد المعروف بباب العجلة ، وتعرف الآن بمدرسة عبدالباسط أوقفها على أئمة مقام الحنفي . . . انتهى .

وذكر ابن فهد في حوادث سنة أربع وثلاثين وثمانمائة أن القاضي عبدالباسط اشترى الدار المذكورة وأمر ـ استاداره ـ ركن الدين عمر الشامي بأن يقيم بمكة المشرفة ويعمرها مدرسة ، وكانت هذه الدار مدرسة للأمين ارغون الناصري ، نائب السلطنة بمصر عن ابن مولاه الناصر محمد بن قلاوون ، فاستولى عليها بعض الأشراف (أولاد راجح ابن أبي نمي) وباعوها في هذه السنة ، وفي سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ابتدىء في عمارتها ، ولم تنقض هذه السنة إلا فرغ من عمارة أسفلها ، وغالب علوها ، فَدَرَّس بها في العشر الأول من ذي الحجة قاضي القضاة : جمال الدين أبو السعادات بن ظهيرة .

وفي سنة ست وثلاثين أكملت العمارة . . . انتهى[1] .

أقول : يفهم من تاريخ هذه المدرسة أنها بنيت أولاً للأمين ارغون نائب السلطنة بمصر عن ابن مولاه الناصر محمد بن قلاوون ، ثم باعها بعض أشراف مكة على القاضي عبدالباسط ، فعمرها ما بين عامي ٨٣٤ ، ٨٣٦ هجرية ، وقد تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون السلطنة في مصر ثلاث مرات كانت الاولى سنة ٦٩٣ ، والثانية سنة ٦٩٨ ، والثالثة سنة ٧٠٩ الموافقة للسنوات الميلادية ١٢٩٣ ، ١٢٩٨ ، ١٣٠٩ ، ويبدو أن شراء هذه المدرسة لابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان في أواخر القرن السابع الهجري ، أو أوائل القرن الثامن الهجري ، كما يتضح من تاريخ ولايته الثلاث ، ولم يوضح المؤلف كيف تسنى للأشراف الذين سماهم ، بيع هذه المدرسة للقاضي عبدالباسط الذي أعاد بناءها بعد مائة وثلاثين سنة من تشييدها وايقافها فقد اكتفى المؤلف بقوله استولى عليها أولاد الشريف راجح بن أبي نمي ، ولعل انتهاء حكم سلاطين المماليك البحرية ، وقد كان السلطان قلاوون وأولاده منهم في سنة ٧٨٣ للهجرة الموافقة لسنة ١٣٨١ للميلاد ، واستيلاء سلاطين المماليك الجراكسة على الحكم في مصر .

أقول لعل ذلك من الأسباب التي أدَّت الى الاستيلاء على المدرسة وبيعها مرة أخرى[2] .

تهدم المدرسة الباسطية :

وقد ذكر الغازي عن هدم وقع بالمدرسة الباسطية وما آلت اليها فقال :

وفي احدى عشر جمادي الثانية من سنة ست وثلاثين ومائة وألف تطبقت المدرسة الباسطية ـ تطبقت أي تهدمت ـ سقوفها على بعضها لتفجر بارود كان بها .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤١/٤٤٢ .

(٢) انظر ما يتعلق بتولي السلطان الناصر بن قلاوون السلطنة في مصر وانتهاء حكم المماليك البحرية ـ كتاب المماليك للدكتور السيد الباز العريني ص ٢٦٧/٢٦٩ .

وينقل الغازي ما آلت اليه فيقول :

وهي الآن في حوزة الشريفة سعدية بنت سعد بن زيد تأخذ كراها ، وكانت موقوفة على التدريس . . . الخ[1] .

مدرسة دار السلسلة :

يقول الغازي : وفي الجانب الغربي من الحرم الشريف ثلاث مدارس ، مدرسة الأمير فخر الدين نائب عدن على باب العمرة ، وتعرف بدار السلسلة ، أوقفها على علماء الحنفية سنة خمسمائة وتسع وسبعين .

وقد أورد الغازي تفصيلاً عن دار السلسلة نذكره فيما يلي :

وفي سنة ٥٧٩ وصل الى مكة صاحب عدن الأمير عثمان بن علي الزنجبيلي ، خرج منها فاراً أمام سيف الاسلام المتوجه الى اليمن ، وبالرغم من أنه تعرَّض لأخذ كثير من الأموال والأثقال التي كانت معه من قبل سيف الاسلام ، إلا أنه وصل الى مكة ، وكان قد ابتنى بها داراً ، بعد أن قدَّم نفيس ذخائره ، وناجي ماله ، وجملة رقيقه وخدمه ، وكان حاله لا يوصف كثرةً واتساعا ، وكان موصوفاً بسوء السيرة مع التجار ، وكانت المنافع التجارية كلها راجعة اليه ، والذخائر الهندية المجلوبة كلها واصلة اليه .

وأوقف مدرسته التي عند باب العمرة للحنفية ، وتعرف الآن بدار السلسلة وأوقف الرباط المقابل لها ، ويعرف برباط الهنود .

يقول الغازي : والمدرسة هي الآن بأيدي بعض الأشراف من أولاد أمراء مكة[2] .

أقول ؛ ذكر الغازي في الخبر الأول عن مدرسة السلسلة أن الذي بناها هو الأمير فخر الدين نائب عدن ، وذكر في الخبر الثاني أنه الأمير عثمان بن علي الزنجبيلي ، وتاريخ بناء المدرسة في الخبرين واحد وهو عام ٥٧٩ هجرية ، فربما كان فخر الدين لقباً لعثمان المذكور ؟ .

مدرسة طاب الزمان :

ومدرسة طاب الزمان عتيقة المستنصر العباسي - وهو الموضع المعروف بدار زبيدة - أوقفتها طاب الزمان في شعبان سنة خمسمائة وثمانين على عشرة من الفقهاء الشافعية .

مدرسة الداودية :

ومدرسة الملك المنصور عمر بن علي صاحب اليمن بين هاتين المدرستين - بين دار السلسلة وطاب الزمان - وكانت عمارتها في سنة ستمائة واحدى وأربعين ، وتعرف الآن بالداودية أوقفها الملك المنصور على الفقهاء الشافعية والمحدثين .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١٦٧/ ١٦٩ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٣١٤/٣١٥ .

أقول : أدركت الداودية عام ١٣٥٢ للهجرة وما بعدها ، وهي تدعى بهذا الاسم ، وكان الشيخ / حسين نظيف أحد أدباء مكة يسكن بها .

مدرسة العينية :

يقول الغازي : ومنها بالجانب الجنوبي مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن أوقفها على الفقهاء الشافعية ، وتعرف الآن بالعينية ، يسكنها قضاة مكة ، وتاريخ وقفيتها في شهر ذي القعدة سنة سبعمائة وتسع وثلاثين .

مدرسة الملك غياث الدين صاحب بنقالة :

ويواصل الغازي حديثه عن المدارس فيقول :

ومنها بالجانب اليماني مدرسة الملك المنصور غياث الدين صاحب بنقالة وهي موقوفة على الفقهاء من المذاهب الأربعة ، وجعل الواقف المنازل بعلوها ، وهي احدى عشرة خلوة محلاً لسكنى جماعة من الفقراء أوقفت سنة ثمانمائة وأربع عشرة ، انتهت عبارة تحصيل المرام .

ونقل الغازي عن الفاسي في شفاء الغرام تفصيلا أكثر عن مدرسة الملك غياث الدين فقال : بالجانب اليماني مدرسة الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه ، ابن السلطان السيد الشهيد اسكندر شاه ، ابن السلطان شمس الدين صاحب بنجالة ، وهي للفقهاء من أصحاب المذاهب الأربعة ، وكان المتولي لشراء عرصتها وعمارتها ووقفها من يديه لذلك وغيرها من مصالحها التي تذكر ، وفوض اليه النظر خادمه المكين ، وثقته الأمين ياقوت السلطان الغياثي ، وكان الشراء لعرصتها ، والنخيل وسقيه الموقوفتان عليها الآتي ذكرهما اثنى عشر ألف مثقال ، في أول شهر رمضان من سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

ثم أعيد عقد البيع على ذلك في شهر شوال من السنة المذكورة لموجب اقتضاه الحال .

وفي شهر رمضان المذكور ابتدىء في هدم ما كان في موضعها من الأبنية ، وفيه أيضاً ابتدىء في بنائها ، وفرغ من ذلك في آخر صفر سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وقرروا فقهاء فيها أربعة من المدرسين ، وهم قضاة مكة الأربعة يومئذ ، وستون نفراً من المتفقهين ، عشرين من الشافعية وعشرين من الحنفية وعشرة من المالكية وعشرة من الحنابلة .

وجعل الواقف المنازل التي بعلوها ، وهي احدى عشرة خلوة محلاً لسكنى جماعة من الفقراء خلاف واحد منها ، فانه جعلها خاصة للمدرسة المذكورة .

وكان ابتداء التدريس بها في ضحوة يوم السبت سابع جمادي الآخرة سنة أربع عشرة وثمانمائة ، على الحالة التي قدرت عين الوقف ، في تعيين أوقات التدريس بها في أيام الأسبوع ، فكان تدريس الشافعي ضحوة يوم السبت .

وكان تدريس الحنفي في ضحوة يوم الأحد ، وضحوة يوم الأربعاء ، وضحوة يوم الخميس .

وكان تدريس المالكي فيما بين الظهر والعصر أيام السبت والأحد والاثنين ، وباشرت ذلك من حين ابتدائه .

وكان تدريس الحنبلي فيما بين الظهر والعصر من يومي الأربعاء والخميس .

وأوقف الواقف على المدرسين والفقهاء ، والسكان بالمدرسة المذكورة ، وعلى مصالحها ما اشتراه ، وذلك حديقتان وسقية ماء ، فأما الحديقتان فتعرف أحدهما بسلمة ، والأخرى بالحل ، وهما بالضيعة المعروفة بالركابي بوادي مُرٍّ من أعمال مكة المشرفة ، وأما سقية الماء فهي أربع وجبات من قرار عين الضيعة المذكورة ، وجبتان منها تعرفان بحسين بن منصور ليله ونهارُه ، والوجبتان الأخيرتان تعرفان بحسين بن يحيى ليلُه ونهارُه ، وجعل الواقف المذكور الريع المتحصل من ذلك في كل سنة يقسم خمسة أقسام ، قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم ، وثلاثة أقسام للطلبة بالسوية بينهم ، وقسم منه يقسم ثلاثة أقسام ، قسم منه يصرف في مصالح المدرسة المذكورة من الزيت والماء ، وغير ذلك ، والقسمان الآخران من هذا القسم يصرفان للسكن بالمدرسة المذكورة بالسوية بينهم .

وفي النصف الآخر من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وقف الواقف المذكور على المدرسة المذكورة داراً تقابلها تعرف بدار أم هانىء اشتراه الواقف بخمسمائة مثقال ، وعمَّرها في السنة المذكورة ، وأوقفها على مصالح المدرسة المذكورة .

وسافر الواقف من مكة بعد حجِّه في هذه السنة لاعلام مخدومه السلطان غياث الدين بذلك ، فلم يُقدَّر اجتماعهما ، لأن ياقوت مات في شهر ربيع الأول من سنة خمس عشرة وثمانمائة بجزيرة هرموت ، ومات السلطان غياث الدين في أوائل سنة خمسة عشرة تغمده الله برحمته .

نهاية مدرسة غياث الدين :

ويواصل الغازي كلامه عن المدرسة المذكورة نقلاً عن كتاب بلوغ القرى فيقول :

وفي يوم الأربعاء عاشر شهر المحرم سنة أربع وتسعين وثمانمائة شرع في هدم المدرسة البنجالية السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات ، وكأنه استأجرها أو صرفت له بمرسوم شرعي ، والله أعلم .

ويقول صاحب كتاب بلوغ القرى :

وعمرت قاعة بِصُفَّةٍ ، وتحت ذلك حاصل ببابٍ له من المسجد ، وبابٌ بباب المسجد المعروف بام هانىء ، وفوق القاعة مقعد يخرجه على بابٍ الحرم . . . انتهى[1] .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤٣/٤٤٩ .

أقول : لا شك أن السلطان غياث الدين الذي أنفق الأموال الطائلة على شراء البيوت وتشييد مدرسته العظيمة بملحقاتها ، وبما أنفقه من الأموال كذلك في شراء النخيل ووجبات الماء لتصرف غلتها على المدرسة ومدرسيها وطلابها ، لا شك ان الرجل بعمله العظيم هذا يبتغي وجه الله تعالى ، وهو مجازيه على عمله الطيب ، فانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ولكن السؤال الذي يستوقف القارىء هو ، كيف يضيع هذا العمل الطيب هباءاً بعد زمن طويل أو قصير . . ؟ فقد تم انشاء المدرسة وأوقف عليها ما أوقف ، ورتّب لها المدرسين من قضاة مكة المكرمة على المذاهب الأربعة في سنة ثمانمائة وأربعة عشر ، وبعد ذلك بثمانين عاماً تهدم المدرسة ويعمر بدلها قاعة ومقعد ودكان بعد أن تصير ملكيتها الى الشريف جمال الدين محمد بن بركات ؟. الذي يقول عنه صاحب كتاب أم القرى انه استأجرها أو صرفت له بمرسوم .

ولم يتحدث صاحب الكتاب عن الوقف الذي أوقفه السلطان وهو الحديقتان وسقيا الماء فلابد أن تكون قد امتدت لها الأيدي كما امتدت الى المدرسة ذاتها وملحقاتها ، ونستطيع أن نتصور أن وفاة السلطان غياث الدين ووفاة خادمه الذي قام بالعمل كله ، وبُعْدُ سلطنة بنقالة عن مكة المكرمة ، وعدم تفقد العمل الجليل الذي خلّفه السلطان غياث الدين ، قد انتهى به الى ما ذكرنا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مدارس أخرى :

وذكر الغازي مدارس أخرى فقال :

ومنها مدرسة أبي علي بن أبي زكريا قرب المدرسة المجاهدية ، وتاريخ وقفها سنة خمس وثلاثين وستمائة .

ومنها مدرسة الأرسوقي بقرب باب العمرة ، وهو العفيف عبدالله بن محمد الأرسوقي .

ومنها مدرسة ابن الحداد الهدوي بقرب هذه المدرسة ، وتعرف الآن بمدرسة الأشراف الأدارسة لاستيلائهم عليها ، وتاريخ وقفها شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة وهي على المالكية .

ومنها مدرسة النهاوندي بقرب الموضع الذي يقال له الدريبة ، ولها نحو مائتي سنة فيما أحسب والله أعلم ، ذكره الفاسي في شفاء الغرام[1] .

مدرسة قايتباي :

كلّف السلطان قايتباي وكيله وتاجره الخواجة شمس الدين محمد بن عمر الشهير بالزمن وشاد العمائر سنقر الجمالي أن يحصل له موضعاً يشرف على الحرم يبني به مدرسة يدرس فيه علماء المذاهب الأربعة ، ورباطاً يسكنه الفقراء ، ويعمر له ربوعاً ومسقفات يحصل منها

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤٩ .

ريع يقسم منه على المدرسين والفقراء ، وأن تقرأ له رَبْعَةٌ في كل يوم يحضرها القضاة الأربعة والمتصوفون ويقرر لهم وظائف ، ويعمل مكتب للأيتام وغير ذلك من جهات الخير .

فاستبدل له رباط السدرة ، ورباط المراغي ، وكانا متصلين ، وكان الى جانب رباط المراغي داراً للشريفة شمسية من شرايف بني حسنٍ ، اشتراها منها وهدم ذلك جميعه ، وجعل فيه اثنتين وسبعين خلوة ومجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام ، وعلى المسعى الشريف ، ومكتباً ومأذنة ، وسير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون والسقف المذهب وقرر فيها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة ، وأربعين طالباً ، وأرسل خزانة كتب أوقفها على طلبة العلم ، وجعل مقرها المدرسة المذكورة ، وجعل لها خازناً عيّن له مبلغاً[1] .

وفي سنة ٨٨٤ للهجرة كان الفراغ من بناء هذه المدرسة والرباط والبيتين ، أحدهما من ناحية باب السلام ، والثاني من ناحية باب الحريريين على يد الأمير سنقر الجمالي يرحمه الله .

نهاية وقف قايتباي :

وقد ذكر الشيخ الغازي : النهاية التي آلت اليها أوقاف السلطان قايتباي وننقلها هنا بنصها يقول الغازي :

وقد استولت عليه ـ على الوقف ـ أيدي النظار والمستفيدين ، وقد ضاع غالباً إلا القليل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وجعل الواقف في ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضوراً بعد العصر مع جماعة من الفقهاء يقرأون ثلاثين جزءاً من القرآن العظيم .

أما في زماننا هذا فالتدريس المشار اليه قد بطل والربعة لا يحضرها سوى (الجاوا) نواباً عن المسحقين ، وهذه المعينات أغلبها أكِلَ بل جميعه ، فإنّا لله وإنا اليه راجعون ، وجعل فقيهاً يعلم أربعين صبياً من الأيتام ، وجعل لأهل الخلاوي ما يكفيهم من القمح ، وجعل مثل ذلك للمدرسين ، وهذا أيضاً شيء دَرَسْ ، وجعل للمدرسين والمؤذنين وقرّاء الحديث والأجزاء مبلغاً من الذهب يصرف لهم كل سنة ، وهذا أيضاً درس ، وان قصدوا أصحاب هذه الوظائف بشيء في بعض السنين فعلى حدِّ قول المتمثل من الشاة اذنها ، والحكم لله تعالى العلي القدير .

ومن عدة ربوع ودور تَغُلّ كل عام نحو ألف ذهب ، ووقف عليهم بمصر قرى وضياع كثيرة وحبوباً كثيرة تحمل الى مكة كل عام .

وصارت المدرسة سكناً لأمير الحج أيام الموسم ، وسكناً لغيرهم من الأمراء في وسط السنة ، وعمل من الخيرات العظيمة مالم يعمل ذلك سلطان قبله وهو باقٍ الى الآن ، إلا أن الأكَلَة من الدول استولت على هذه الأوقاف تستغلها النظار كل عام وتأخذها الدولة ، وهذه الأوقاف قد آلت الى الخراب مالم تتدارك ، والدوام لله تعالى .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٥٦/٤٥٨ .

وذكر صاحب الرحلة الحجازية ـ محمد لبيب البتنوني ـ الذي حج الى مكة سنة ١٣٢٧هـ مع الخديوي عباس باشا حلمي مصير مدرسة قايتباي فقال :

مدرسة قايتباي التي على يسار الداخل من باب السلام فانها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ، ولها أوقاف بمصر تصرف غلتها عليها ، ضعفت أوقافها شيئاً فشيئا فنقلوها الى دار ضيافة كان ينزل بها أمراء الحج المصري ، ثم صار يسكنها بعض أشراف ذوي غالب وهي في أيديهم الى الآن(١) .

❊ ❊ ❊ ❊

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٥٨/ ٤٦١ .

مدارس السلطان سليمان العثماني

ذكر القطبي أن السلطان سليمان استبدل الأماكن التي بجانب الحرم من الجهة الشمالية وبنى بها أربع مدارس أوقفها على من ولي الافتاء من الأحناف والشافعية والمالكية والحنابلة وتاريخ وقفها سنة تسعمائة وسبعين .

وقد فصَّل الشيخ عبدالله الغازي أمر بناء هذه المدارس وكيفية شراء السلطان سليمان لها فالأماكن المملوكة اشتريت ، والأماكن الموقوفة استبدلت بغيرها مما فيه فائدة للوقف الأصلي وتم بناء المدارس الأربعة ، وعينت المرتبات للمدرسين والطلاب ، فعين لكل مدرس خمسين عثمانياً لكل يوم ، وعين للمعيد أربعة عثمانية في كل يوم ، يجهزها في كل عام ناظر الأوقاف السليمانية بالشام مع الركب الشامي الى مكة المشرفة فيوزع على المدرسين والطلبة وظائفهم .

وقد تم إكمال عمارة المدارس الأربعة في عهد السلطان سليم ابن السلطان سليمان ، وبوشر التدريس فيها من قبل العلماء الأجلاء .

ويقدم صاحب كتاب الاعلام وصفاً شائقاً للدراسة لهذه المدارس يقول فيه :

فأنعم السلطان بالمدرسة المالكية السليمانية وهي رأس المدارس الأربعة على سيدنا ومولانا شيخ مشايخ الاسلام قاضي القضاة وناظر المسجد الحرام مولانا السيد القاضي حسين الحسيني بخمسين عثمانياً ، ثم رقَّاه الى أن صارت مدرسته بمائة عثمانياً ، وأنعم بالمدرسة الحنفية السليمانية على مؤلف هذا الكتاب ـ صاحب كتاب الاعلام محمد بن أحمد القطبي ـ بخمسين عثمانياً في أواسط جمادي الاولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة ، يقول القطبي :

فأقرأت فيه قطعة من الكشاف والهداية ، وقطعة من تفسير مولانا أبوالسعود العماري وأقرأت فيها درساً في الطب ، ودرساً في الحديث وأصوله ، وأنني أدرس الآن فيها تكميل شرح الهداية الذي كمله الآن العلامة الفهامة فريد دهره ووحيد عصره صاحب التصانيف الفائقة التي سارت بها الركبان ، وتداولتها العلماء فالطلبة ، في سائر البلاد ، مولانا شمس الملة والدين أحمد المعروف بقاضي زاده أفندي .

ويكمل صاحب الاعلام حديثه عن هذه المدارس فيقول :

وأنعمت السلطنة الشريفة بالمدرسة السلطانية السليمانية الشافعية لاقراء مذهب الشافعي بمكة المشرفة على بعض علماء الشافعية بخمسين عثمانياً ، وأما المدرسة الرابعة العثمانية فقد جعلها المرحوم الواقف لاحياء مذهب الامام أحمد بن حنبل ، فلم يوجد بمكة يومئذ من يكون ثابتاً في مذهب الامام أحمد بن حنبل ، فعدل عنه الى علم الحديث الشريف ، وجعلت تلك المدرسة ـ داراً للحديث ـ بخمسين عثمانياً ، يقرأ فيها الصحاح الستة . انتهى[1].

أقول : وأود أن نذكر أن ما أورده الغازي من أخبار هذه المدارس وما ذكره صاحب الاعلام الذي كان مدرساً بالمدرسة الحنفية وهي احدى المدارس الأربع التي بناها السلطان سليمان يعطي لنا صورة عن بعض أوجه النشاط العلمي في مكة المكرمة في أواخر القرن العاشر الهجري .

وقد لفت نظري ما ذكره صاحب الاعلام عن أنه كان يلقي درساً في الطب على طلبته في المدرسة الحنفية ، ولابد أن يكون لهذا الدرس مثيل في المدارس الأخرى ، وبالرغم من أن الطابع الديني يغلب على هذه المدارس وهي أصلاً إنما انشئت لتعليم الطلاب المذاهب الأربعة إلا أن النشاط العلمي في المدرسة كان متنوعاً فيما يبدو ، وقد خصصت المدرسة الرابعة لدراسة علم الحديث لأن المذهب الحنبلي لم يكن منتشراً في مكة في ذلك الزمان ، وبالنسبة للمرتبات التي ذكرها القطبي يقول الشيخ / حسين عبدالله باسلامة :

ان هذه النقود العثمانية ربما كانت أجزاء من العملة الفضية .

نهاية المدارس الأربعة :

يقول الشيخ / حسين باسلامة في كتابه « تاريخ عمارة المسجد الحرام » المؤلَّف في سنة ١٣٥٤هـ وأما المدارس المذكورة فهي باقية على حكمها بناءاً ، وشكلاً الى هذا العصر .

وأما حالتها الحاضرة فصارت احداها مركزاً لرئاسة القضاء ، والثانية مركزاً للقضاء الشرعي والثالثة داراً للكتب الموقوفة لعموم القراء ، والرابعة بجناحيها تصرَّف فيها بالبيع أحمد باشا عامل محمد علي باشا خديوي مصر منذ مائة سنة من صدور هذا المؤلف وأصبحت ممتلكة[2].

ونستطيع أن نتصور أن السلطان سليمان الذي أنشأ المدارس الأربعة والتي كملت في عهد نجله السلطان سليم ، أن المصروفات التي كانت تنفق على هذه المدارس ومدرسيها وطلابها ، كانت تصل سنوياً مع أمير الحج الشامي انقطعت فتوقفت الدراسة بها ، أما المدرسة التي تصرف فيها بالبيع أحمد باشا عامل محمد علي باشا خديوي مصر ، فلعل ذلك تم

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤٩/ ٤٥٦ .

(٢) تاريخ عمارة المسجد الحرام ص ٨١ .

حينما وصل محمد علي باشا خديوي مصر الى الحجاز سنة ١٢٢٨ واستولى على الحجاز بأمر من الدولة العثمانية[١]، وبقي أحمد باشا والياً على مكة من قبله ، فتصرف في احدى المدارس بالبيع كما يقول الشيخ / باسلامه ، ويقول السيد أحمد زيني دحلان عن أحمد باشا هذا :

أنه تولى منصب ولاية الحجاز سنة ١٢٣٥ بعد وفاة أخيه خليل بك ، وطالت مدته بالحجاز حتى صار يقال له أحمد باشا الحجاز ، فقد تولى سنة خمس وثلاثين وعزل سنة أربع وأربعين ، وأعيد سنة ثمان وأربعين ، ومكث الى سنة ست وخمسين ، وهو ابن أخت محمد علي باشا[٢]، ولعل طول بقاء أحمد باشا في الولاية مكّن له الاستيلاء على المدرسة الرابعة والتصرف فيها بالبيع .

* * * *

(١) أمراء البلد الحرام ٣٢٧ .

(٢) أمراء البلد الحرام ٣٣٩/٣٤٠ .

مدرسة محمد باشا بسويقة

نقل الغازي بالارج المسكي مايلي :

ومن المدارس مدرسة الوزير محمد باشا بجانب رباطه ولها معلوم معين من غلال وقفه بمكة المشرفة ، وكانت في أصل الوقفية بيماراستان ، ثم قلبت مدرسة .

أقول : البيرامستان هو المستشفى باصطلاح العصر الحديث .

وقف السلطان سليمان خان :

نقل الغازي عن كتاب منائح الكرم مايلي :

ومما حدث في زمن الشريف حسن أن محمد باشا وزير مولانا السلطان سليمان خان أمر أن يبنى له موضع بالقرب من الحرم يكون محلاً للفقراء وصوناً للحرم الشريف ، وأن يبنى له مساطب تصلح للمرضى ، فتكون دار الشفاء له ، وأن يبنى خارج ذلك دكاكين وبيوت تؤجر وتصرف غلالها في مصلحة هذا المحل ، وأمر ببناء حمَّام في وسط هذا البلد يكون عظيم الشأن فبني جميع ذلك ، وعُمِّرتْ له أوقاف كثيرة بمكة ووردت صدقاته سنة ٩٧٤ أو سنة ٩٨٤ انتهى .

الباقي من المدارس :

جاء في تحصيل المرام تعليقاً على المدارس التي بجوار الحرم مايلي :

لم يبق من المدارس إلا مدرسة محمد باشا بباب الزيادة ، والداودية ، وكذلك رباط وراء المدارس السلطانية يسكنها الفقراء وما عداها توالت عليها الأيدي . انتهى .

الأوقاف تتغير عبر الأزمان :

ذكر الغازي نقلاً عن شفاء الغرام في الفصل الخاص بالرباطات :

رباط السدرة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على يسار الداخل من باب السلام ،

وكان موقوفاً في سنة ٤٠٠ ، وموضعه دار القوارير التي بنيت في زمن الرشيد على ما ذكر الأرزقي ودار القوارير موضعها مدرسة قايتباي . انتهى[١] .

أقول يفهم من هذا النص أن الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي تولّى الخلافة مابين عامي ١٧٠ الى ١٩١ بنى في الجانب الشرقي من المسجد الحرام داراً سميت دار القوارير ، ثم تحولت هذه الدار بعد أكثر من مائة عام لتكون رباطاً سمي رباط السدرة ، وبعد نحو خمسمائة عام تحولت لتكون مدرسة السلطان قايتباي في سنة ثمانمائة وأربع وسبعين ، وقد تحولت هذه المدرسة في الأزمان الأخيرة لتكون منزلاً يسكنه أمراء الحج المصري ، كما جاء تفصيله في الحديث عن مدرسة قايتباي قبل .

وقد بنى السلطان قايتباي الى جانب مدرسته هذه رباطاً ، وكان مكانه رباطاً بناه قاضي القضاة أبوبكر بن محمد بن عبدالله بن عبدالرحيم المراغي ، ولم يذكر الغازي تاريخ بناء الرباط المذكور ولكنه قديم حتماً ، وقد ذكر أن السلطان قايتباي استبدل الأماكن التي بني محلها المدرسة والرباط أي أنه اتفق مع نظار الوقف على شرائها واستبدال ماهو خير منها للوقف كما هو معلوم في مثل هذه الأحوال .

وقد استبدل السلطان سليمان العثماني رباط الخليفة الناصر العباسي الذي أوقفه سنة خمسمائة وتسع وسبعين على الصوفية ، وبنى في موضعه المدارس السلطانية سنة ٩٧٠ للهجرة التي سبق الحديث عنها قبل[٢] .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٦٢/٤٦٤ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٦٥/٤٦٦ .

الأربطة في مكة

الأربطة مفردها « رباط » وهي الأماكن التي تبنى ويخصص سكنها للفقراء والمحتاجين من الرجال والنساء وقد عرفت مدن الحجاز كثيراً من الأربطة التي شيَّدها وأوقفها أهل الخير لهذه الأغراض ، ولاتزال لهذه الأربطة بقايا في كل من مكة والمدينة وجدة ، وقد عقد الشيخ الغازي فصلا خاصاً عن الأربطة في مكة .

وقد وجدت فيما أورده عنها بعض الغرائب الخاصة في شروط الوقف فمن ذلك :

رباط الطبري :

رباط الحافظ أبو عبدالله بن منده ملاصق لزيادة دار الندوة ويعرف في وقته برباط الطبري وقد أوقفه بانيه على القادمين من أصفهان أربعين يوماً ، وعلى سائر الناس عشرة أشهر وعشرين يوماً .

أقول : الأربعون يوماً التي خصصت لأهل أصفهان لابدَّ وأن تكون في أيام الحج حين قدومهم حاجين الى مكة المكرمة[1] .

رباط رامشت :

عند باب الحزورة ، ورامشت هو الشيخ / أبو القاسم واسمه ابراهيم بن الحسن الفارسي وقفه على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعة من سائر العراق وتاريخه سنة تسع وعشرين وخمسمائة[2] .

أقول : كانت بدعة التصوف في ذلك الزمان منتشرة في العالم الاسلامي ، وكان بعضهم يلبس ملابس خاصة يعرفون بها ، وكل هذه البدع بعيدة عن صفاء العقيدة وتوحيد العبادة لله تعالى .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٤٦ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٦٧ .

رباط الشيخ / غياث الدين :

وموقعه قبالة باب الصفا ، أمر بانشائه السلطان شاه شجاع صاحب بلاد فارس ويقال له رباط الشيخ غياث الدين الأبرقوهي لتوليه لأمره وعمارته ، وتاريخ وقفيته سنة سبعمائة واحدى وسبعين ، وهو وقف على الأعاجم من بلاد فارس المجردين دون الهنود[1].

الرباط العباسي :

وهو بالمسعى عند العلم الأخضر ، وكان مطهرة انشأها الملك المنصور لاجين المنصوري ، وقد حوله الى رباط الملك الناصر قلاوون الألفي[2] .

مصير الأربطة :

نقل الغازي عن الشيخ الصباغ بعد أن أورد أسماء الأربطة الكثيرة في مكة مايلي :

قلت لم يعرف الآن شيء مما ذكر ، وقد توالت عليه الأيدي ، والموجود الآن شيء قليل منها . . . الخ[3].

رباط البصري :

نقل الغازي عن الطبري في اتحاف فضلاء الزمن مايلي :

وفي سنة ألف ومائة واحدى وثلاثين بنى الشيخ / سالم بن عبدالله البصري رباطاً وجعل له ثلاث طبقات ، في كل طبقة عشرة خلاوي ومحل زائد لشيخ الرباط ، وأوقفه على آل باعلوي وأرسل الى ـ الكرزار ـ أني قد بنيت رباطاً وأريد منكم المعونة فأجروا لنا في بندر جدة لكل خلوة قرش ، وقرش للزيت ، وأربع قروش للسقا ، تأخذ كل سنة من بندر جدة[4].

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٦٨ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٦٩ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٧٠ .
(٤) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٧٤ .

ذكر من دخل مكة والمدينة من النصارى والافرنج

ذكر الغازي ما ذكره الأزرقي عن سيل الجحاف الذي دهم الناس بمكة صباح يوم التروية من سنة ثمانين للهجرة قبل الفجر ، وما أحدثه هذا السيل من الفزع فقد امتلأ الوادي بالماء وهدم البيوت الشارعة على المسجد الحرام مما اضطر الناس للاتجاه الى الجبال خشية على أنفسهم ، وكان هذا السيل في خلافة عبدالملك بن مروان ، فلما علم بأمره بعث الى عامله مالاً كثيراً لاصلاح البيوت التي تخربت ، ولعمل ضفاير لها وللمسجد الحرام ، وبعث مهندساً نصرانياً للقيام بهذا العمل كما هو موضح في صفحة ٤٧٩ من المجلد الثاني من افادة الأنام .

وعلى ذكر دخول هذا المهندس النصراني الى مكة ذكر الشيخ الغازي مقالة لأحمد زكي باشا سكرتير مجلس الوزراء في مصر ، في ذِكْرِ من زار مكة والمدينة من نصارى الافرنج وهذا نصها :

قد تمكّن طائفة من الافرنج من دخول الحجاز ـ ومن زيارة البقاع المقدسة والأماكن المطهرة ، ولكنهم لم يكتبوا عنها « بالمرة » وإن كانوا كتبوا فمن باب الاستطراد ، ومن هذه الفئة :

أولاً : الثلاثة النصاري الذين رآهم « نيبور » في مكة ، فقد روى أن ملاحاً انجليزياً توجه اليها في سنة ١١٧٥ للهجرة قاصداً أوربا عن طريق القسطنطينية ، وأن رجلا آخر أتى اليمن عن طريق مكة وركب البحر سراً الى الهند ، وأن تاجراً فرنسياً ذهب الى مكة لمعالجة أمير الحج بعد أن أعطاه الأمان على نفسه ، وعلى دينه ولكنهم اضطروه في أثناء الطريق الى الدخول في دين الاسلام .

ثانياً : توماس ـ اكيت ـ وهو عسكري اسكتلندي ـ أسره المصريون في محاربة الانجليز مع محمد علي الكبير بمدينة الاسكندرية سنة ١٨٤١ ميلادية ، ثم أسلم وانتهى أمره أن صار والياً على المدينة المنورة ، ثم قتل في محاربة الوهابين .

ثالثاً : انجليزي في الجيش الذي حارب محمد علي بالاسكندرية أيضاً فقد أسره المصريون ودخل الاسلام باسم عثمان ، وتمكن بدهائه من الاستحواذ على كل أموال سبيه المسلم وكان يجتهد في التوفيق بين التوراة والانجيل والقرآن .

رابعاً : الكابتن جورج فواسترساربر ، ذهب الى المدينة في سنة ١٢٣٩ رسولاً الى ابراهيم باشا القائد المصري ، وامتاز على من عداه من الأوربين الذين دخلوا الحجاز بأنه بقي محافظاً على زيه الأفرنجي ، ولكنه لم يقترب من أسوار المدينة .

أرسلته شركة الهند الشرقية ليهنىء ابراهيم باشا على انتصاراته ، ويعرض عليه مساعدة المراكب الانجليزية ، ثم عاد من ينبع وهو أول أوربي اجتاز شبه جزيرة العرب من الشرق الى الغرب .

سابعاً : الطلياني الذي لقي في سفره من الأهوال مالا يوصف ، وفي آخر الأمر ادعى الاسلام ، وتردد كثيراً بين مكة والمدينة وجمع له المسلمون اعانة تاجر بها فأصبح من ذوي اليسار ومشاهير التجار .

ثامناً : دوتي الانجليزي ، فقد كتب رحلته في الحجاز وما لاقاه من المشاق ولم - يرزأ - أحداً فرمي بل سيق الى الطائف والى جدة في خطب طويل .

تاسعاً : في سنة ١٢٠٠ للهجرة تمكن الدكتور المورسي الفرنسي من الحج ، وقد كان مقيماً في الجزائر ، وهو من الأوربيين الذين تمكنوا كل التمكن من زيارة الكعبة المعظمة ، وهو قد أسلم اسلاماً خالصاً لم يعتوره أدنى ريب .

عاشراً : اولاننس شارل هوبر ، فقد اقترب كثيراً من مكة ، عند عودته من - حائل - سنة ١٢٠٠ وشاهد الحرم وجباله عن بعد ، ثم تمكن بفضل مساعي خادمه من النجاة الى جدة ، وهو مدفون بها ، وقبره موجودٌ الى الآن في جبانتها ، وقد صوّره كور تلمون بالفوتوغرافية وطبعه في رحلته قال :

وهناك طائفة من الافرنج المستقلين المتظاهرين بالاسلام ، وقد كتبوا كثيراً أو قليلاً عن الحرمين الشريفين ، ودوّنوا ما شاهدوه في موسم الحج ، وما وصلوا اليه من المعلومات الصادقة أو البعيدة عن الحق وإليك بيانهم بحسب ترتيبهم التاريخي دون الشرح والتفصيل :

فأولهم حامل رايتهم الايطالي - بارتيما - فهو فاتح هذا الباب لكل من أتى بعده من الأفراد وكانت زيارته للحرمين في سنة ٩٠٨ للهجرة في أيام السلطان قانصوه الغوري ، وتسمى باسم يونس .

الثاني : الفرنسي تنسان لابان في سنة ٩٦٨ للهجرة .

الثالث : برهان الألماني - ويلد - في سنة ١٠١٦ للهجرة .

الرابع : الانجليزي جوزيف تبس في سنة - ١ -

---

(١) التاريخ غير واضح .

الخامس : الأسباني باديابيش في سنة ١٢٢٣ للهجرة ، باسم علي بك العباسي ، وتحصل على شهادة على أنه من الأشراف من سلالة العباسيين .

السادس : الألماني (أول ريخ جاسبار شتيرن) في سنة ١٢٢٤ للهجرة .

السابع : السويسري (جون لويس بوركهارت) في سنة ١٢٣٠ للهجرة وتسمى باسم الشيخ حاج ابراهيم وذكر الريحاني أيضاً في تاريخ نجد دخول هؤلاء الثلاثة أي (باديا ، أرريخ ، بوركهارت) فقال : ان ثلاثة من العلماء المستشرقين المستعربين دخلوا مكة يوم كان الوهابيون مستولين عليها ، أول هؤلاء رجل أسباني اسمه رولد موباديا ، انتحل نسباً وديناً عربياً وجاء من قادش عن طريق الجزائر الى الحجاز وهو علي بك العباسي الأمير المكرم والعالم المحترم رسول بونابرت الى البلاد العربية ، أجل قد جاء حاجاً مستكشفاً فنُظِرَ في جدة تحفُّه الخدم والحشم وصار الى مكة المكرمة محرماً مثل من جاءوها من أهل نجد ، فدخلها في ٢٣ يناير ١٨٠٧ ميلادية الموافق أربعة عشر ذو القعدة ١٢٢١ للهجرة .

وقد شاهد جموع الوهابيين ، وحج معهم واعتمر ، وكان في ظاهره قحاً عربياً ومسلماً حقاً ، لا تعيبه كلمة يقولها ولا تخونه فعلة أو اشارة فما شكَّ أحد في دينه أو نسبه .

علي العباسي يصف الشريف غالب :

وقد وصف العباسي الشريف غالب أمير مكة في ذلك الزمن فقال :

انه في العقد الرابع من العمر وأنه على جهله ذو حصافة ودهاء ، رآه لأول مرة في مجلسه وهو يدخن النارجيلة التي كانت محجوبة خوفاً من الوهابيين ، ولم يرَ السائح الأوربي غير الأريج الذي كان يتصل من خُرْقٍ في الحائط بالنارجيلة (لعله يقصد اللي أو الأنبوب المتصل بالنارجيلة) ورآه في الغرفة المجاورة للمجلس ، والعباسي هذا كان عالماً يحمل في حقائبه أدوات الرصد والمساحة فاستخدمها في مكة وجوارها دون أن يعترضه أحد من الناس ، بل كان محترماً من الجميع ، وقد حاز فوق ذلك شرفاً لم يحزه سواه من المستشرقين ولا يحوزه إلا الأفراد القلائل من المسلمين ، ألا وهو شرف كناسة الكعبة ، ولكنه على ما يظهر لم يفلح حتى النهاية في تنكره ، فعندما قصد الى المدينة زائراً صدُّه عنها الوهابيون ، فعاد الى ينبع ، ومنها الى مصر فباريس ، حيث اجتمع بنابليون ، وعين في حاشية أخيه يوسف بونابرت ، وقد عاد علي بك الى الشرق في سنة ١٨١٨ ميلادية ، فسافر من دمشق ليقوم برحلة ثانية الى البلاد العربية ولكنه وهو لا يزال في أول الطريق أصيب بالدسنتاريا فمات بالمزاريب .

ومن هؤلاء العالم الألماني الريخ زتش الذي قضى عشرين سنة يدرس ويتأهب لرحلته في الشرق ، فجاء سورية سنة ١٨٠٥ ، وأقام في الشرق الأدنى بضع سنين ثم سافر الى الحجاز في زي درويش اسمه الحاج موسى ، فدخل مكة حاجاً سنة ١٨١٠ وارتحل منها الى اليمن ، فزار صنعاء ، ونزل الى عدن ، وقد كان في نية ـ رتش ـ أن يجتاز شبه الجزيرة العربية الى الخليج

ليسوح في الشرق الأوسط « فعارض » عدن ووجهته الجبال ، ولكن عند مروره « بتعز » اعترضه بعض الناس وقد ارابهم أمره فقتلوه .

الثالث : من المستشرقين الذين ساحوا في الحجاز السويسري الشهير (بركهرت) المسمى بالحاج عبدالله ، صديق محمد علي ، جاء الى الحجاز عندما كان محمد علي هناك ، فنزل في جدة في ١٥ تموز ١٨١٤ ، وسار منها الى االطائف ثم رحل الى مكة المكرمة في ١٥ رمضان ١٢٣٠ الموافق ٤ أغسطس ١٨١٤ بعد استئذان صديقه العظيم ، وهو يومئذ سيد الحرمين فحجَّ مع من حجوا في ذلك العام ، وأقام في مكة ثلاثة أشهر ، ثم سافر الى المدينة فأدَّى الزيارة في أبريل سنة ١٨١٥ يوم كان محمد علي باشا هناك ولكنه مرض في المدينة ، فعاد الى القاهرة في ربيع ذلك العام ، وتوفي فيها وكان بركهرت في قيافته وفي اسلامه محترماً موقراً ، وقد قال يصف نعمة ـ الحج ـ بها ،«وماشعرت في مكان آخر بمثل الطمأنينة التي كنت أشعر بها وأنا في مكة» انتهى .

قال الشيخ / أحمد زكي باشا :

الثامن : الطلياني (جوفاني فيناتي) في سنة ١٢٣٠ للهجرة باسم الحاج محمد .

التاسع : ليون ردش في سنة ١٢٥٧ باسم الحاج عمر .

العاشر : الفرنسي (دكوبريه) في سنة ١٢٥٧ باسم الحاج عبدالحميد .

الحادي عشر : الفنلندي (جورج أغسطوس دالين) في سنة ١٢٦١ باسم ولي الدين .

الثاني عشر : الانجليزي سير ريتشارتن في سنة ١٢٦٩ باسم الحاج عبدالله .

الثالث عشر : الألماني هريش ديهرماترذ في سنة ١٢٧٦ باسم سيد عبدالرحمن .

الرابع عشر : الانجليزي هرمن بيكبل في سنة ١٢٧٨ باسم الحاج عبدالواحد .

الخامس عشر : الانجليزي جون دركين في سنة ١٢٩٤ باسم الحاج محمد أمين .

السادس عشر : الهولندي (ك سنوك هورخرونيه) في سنة ١٣٠٣ باسم عبدالغفار .

يقول أحمد زكي باشا وهو صديقي ومن كبار المستشرقين ولا يزال موجوداً الى الآن .

أقول : وقد ألف سنوك هذا كتاباً عن رحلته الى مكة وقامت مشكورة بنشره وترجمته جامعة أم القرى بمكة المكرمة وعنوان الكتاب « مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري » .

وهو من أهم الكتب التي تصور الحياة في مكة في زمنه .

السابع عشر : الفرنسي خرفي كور تلمون في سنة ١٣١١ باسم عبدالله .

يقول عنه أحمد زكي باشا وقد تعرف بي عند رجوعه الى القاهرة| (١) كثيراً ولا يزال على قيد الحياة .

الثامن عشر : السويسري الدكتور هيس في سنة ١٣٣٨ ولا يزال باقٍ الى الآن ينفع بعلمه الواسع خصوصاً فيما يتعلق ببلاد العرب وأهلها ، وهو من الأصدقاء ومن كبار المستشرقين

(١) الكلمة غير واضحة .

وهو أكبر من رحل الى الحجاز من الافرنج . انتهى ما ذكره أحمد زكي باشا[1] .

وفي المجلد الأول من مجلة المنار ص ٧٨٣ في سنة ١٨٠٥ ميلادية تمكن الفرنسي - روش - وكان مترجماً لدى الأمير عبدالقادر الجزائري من الدخول الى مكة بصفته وبزي عربي ، وعرض على أمير مكة الشريف محمد بن عون أنه وافد من قبل الأمير ليحصل على التصديق من علماء العرب على فتوى أفتى بها علماء مصر والقيروان .

وسافر من مكة للطائف ، ولدى عودته بمكة للحج دَلَّ عليه بعض الحجاج الجزائريين فكشفوا خبره وقبضوا عليه وساقوه الى السجن والناس حوله تحاول الفتك به .

فسلمه شريف مكة كتاب أمان وبعض نفقة يستعين بها على سفره وأشخصه الى جدة .

وفي سنة ١٨١٤ أو ١٨١٥ احتال السائح السويسري بوكهارت حتى دخل مكة والمدينة ورجع مزوداً ببعض المعلومات عن حالة البلاد الجغرافية ، وعن أهلها وتظاهر في آخر أمره بالاسلام وعليه مات ، وقبره بمصر وعليه اسمه هكذا - عبدالله بوكهارت المشهور عند العامة باسم الشيخ بركات - انتهى .

وفي الرحلة الحجازية لمحمد لبيب البتنوني تحدث عن الافرنج الذين رحلوا الى الحجاز فقال عن بوركهارت أنه سويسري لوزاني المولد وفد الى مصر ودخل الأزهر بعد أن ادعى الاسلام ، وسمى نفسه ابراهيم المهدي ، وتعلم في الأزهر العربية ، ثم سافر الى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين ، وكتب عنها كتابه ، الذي هو أحسن ما كتبه الفرنجة خصوصاً في صفة بلاد العرب وقبائلها ومات في مصر على زيه الاسلامي [2].

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٨٠ / ٤٩٠ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٤٩٤ / ٤٩٥ .

أصناف العملة بمكة وأسعارها

صرف القرش بأربعين ديواناً ، والأحمر بقرشين ، والمشخص بأربعة قروش ، والريال بقرشين وثمن .

كانت هذه الأسعار في سنة ١١٤٠ كما نقل الغازي عن خلاصة الكلام(١) .

اورد الشيخ عبدالله الغازى فى الفصل الخاص بأحوال المعيشة وغلائها فى مكة المكرمة قصيدة للشيخ زين العابدين بن أحمد الشماع هذا نصُّها :

الحمد لله مبيد الدهور ... عالم ما يخفى بطي الصدور
مسيِّر الأفلاك في أفقها ... ومجريَ الفلك بماء البحور
فقد جرى في مكّةٍ محنةٌ ... قد عمَّت الدنيا وفي كل دور
جرى غلاءٌ ما سمعنا به ... ولا مضى في سابقات العصور
قد أذهب الأرواح حتى لقد ... ضاقت على الموتى فسيح القبور
وقد غدى من عظم أهواله ... كل فتىً منا عديم الشعور
أقام في أم القرى ماكثا ... ثلاثة أعوام وأدنى شهور
وبعد ما حلَّ بنا وانقضى ... وارتحل الهم ووافى السرور
قامت حروب نارها تلتظي ... ينفر منها الطبع كل النفور
وقتلة ما قد جرى مثلها ... في سُوْحِ بيت الله بادي الظهور
من رمم القتلى وأشباهها ... قد شبع الوحش وبعض الطيور
وها هي الآن وقد بدت ... تشعل نارا مالها من فتور
وأغما كلما لنا مثل ما ... رواه خير الرسل وافي النذور
ونسأل الرحمن سبحانه ... يفرِّجُ الكرب ويمحو الشرور
وعامنا قد صح تاريخه ... ألا إلى الله تصير الأمور

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٥٦٥ .

يقول الشيخ / الغازي في هذا الصدد ما يلي :

وفي عاشر جمادي الآخرة سنة ١١١٨ أخذ الأشراف قافلة كبيرة من جدة ولم يفزع لها أحد من جانب الشريف ، وانما الشريف عزم على الركوب عليهم ، وَرْفعِهِمْ عن الطريق فأرسل يستصرخ عرباً وأرسل ـ لايوز بك ـ يطلبه بعض مدافع فامتنع أن يعطيه وقال :

أنا لا أستغني عنها ، فأمر بفتح بيت سليمان باشا لأنه بلغه أن في الدهليز أربعة مدافع مدفونة وكان الأمر كذلك ، فأخرجها ، وأخرج أيضاً من البيت بَطَّةً ملآنة بارود ، واشتد الكرب ، وعزَّ كل شيء من الأقوات وغيرها من حطب وفحم وملح لانقطاع الطريق ، وقد أرَّخ هذه السنة الأديب الشيخ/ زين العابدين بن أحمد الشماع بالقصيدة التي أوردناها آنفا(١) .

أقول : كانت امارة مكة محل تنازع شديد بين الأشراف فقد وليها الشريف عبدالكريم بن محمد بن يعلي بدلاً من الشريف سعيد بن سعد بعد أن حصل على أمر من السلطنة العثمانية له بها ودخل مكة في السادس من شعبان سنة ١١١٧ ولكن الشريف سعيد جمع جموعاً من العربان قاصداً مهاجمة مكة ، وخرج الشريف عبدالكريم لملاقاته ـ بالمليساء ـ قرب الطائف ، واقتتل الفريقان وانهزم الشريف سعيد في هذه المعركة ، وانسحب الى ليَّةَ من ضواحي الطائف .

وكانت الأحوال مضطربة بسبب الاقتتال بين الأشراف على الامارة ، وتداولها بينهم وقد انعكس ذلك على الحالة العامة ، ففي موسم حج عام ١١١١ ، حصلت مشاجرة بين المحمل الشامي والمحمل المصري تبودل فيها اطلاق الرصاص بين الفريقين في يوم عرفة .

ومن المؤكد أن هذه الأحوال قد أثَّرتْ على حالة الأمن لانقطاع الطريق وشُحِّ الغذاء ، وهو الأمر الذي صوره الشيخ زين العابدين في قصيدته التي أوردناها آنفا(٢) .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٥٨١/٥٨٤ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب خلاصة الكلام ص ١٩٨ وما بعدها .

قطعِ الطريق على الحجاجِ

ذكر ابن فهد في حوادث سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ما نصه :
وفيها نهبت بنو سليم حاج مصر والشام ، وكانوا عَالَماً كثيراً وأخذ جميع ما كان معهم من الأموال ، وكان مالاً لا حدَّ له ، لأنَّ كثيراً من الناس من أهل الثغور والشام هربوا خوفاً من الروم بأموالهم وأهليهم وقصدوا مكة ليسيروا منها الى العراق فأخذوا وقتل أمير الركب وهلك من الناس مالا يحصى ، وتمزقوا في البراري ، ولم يسلم إلا القليل ، ورَدَّ على الحاج بعض ما أخذ منهم في السنة التي بعدها[1] .

العرب يضعون الحنظل في المياه للحجاج :
وقال ابن فهد أيضاً في حوادث سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وفيها أصاب حاج العراق رياح وأهوال ، وطرحت العرب من خفاجة الحنظل في المياه فهلكوا عطشاً ثم أخذوهم ونهبوهم[2] .

أمير مكة محمد بن أبي هاشم ينهب أموال الحجاج :
وفي درر الفرائد ، وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة حج الناس من الشام ، فلما قضوا حجهم وعادوا سائرين ، أرسل اليهم أمير مكة محمد بن أبي هاشم عسكراً فلحقوهم بالقرب من مكة ، فنهبوا كثيراً من أموالهم وجمالهم ، فعادوا مستغيثين به وأخبروه ، وسألوه أن يعيد اليهم ما أخذ منهم ، وشكوا اليه بُعْدَ ديارهم فلم يغثهم بما فيه كبير جدوى ، وأعاد بعض ما أخذوا منهم ، فلما ايسوا منه عادوا من مكة على أقبح صفة ، فلما بعدوا عن مكة ، ظهر عليهم جموع من العرب في عدة جهات ، فضايقوهم على مال أخذوه من الحاج بعد أن قتل منهم

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٠٤/٦٠٥ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٠٥ .

جماعة وافرة ، وهلك كثير بالضعف والانقطاع وعاد السالم منهم على أقبح صورة ، وفي حالة عجيبة(١) .

نهب الحجاج بالحرم الشريف :

وفي سنة تسع وثلاثين وخمسمائة نهب أصحاب هاشم بن فليتة أمير مكة ، نهبوا الحجاج بالحرم الشريف وهم يطوفون ، وذلك لفتنة كانت هناك بين أمير الحج وبين هاشم أمير مكة ، كذا في تحصيل المرام(٢) .

أقول : وقعت الفتنة بين هاشم بن فليتة أمير مكة وبين أمير الحج العراقي فنهب أعوان أمير مكة الحجاج العراقين وهم يطوفون بالكعبة المعظمة .

وقد دامت ولاية هاشم بن فليتة بمكة الى سنة ٥٤٩ ، وقيل الى سنة ٥٥٩(٣) .

أعراب بني زغب يقاتلون حجاج العراق وينهبونهم :

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة كان قيماز الارجواني أميراً للحاج العراقي ، فلما وصل الحاج العراقي الى مكة طمع أمير مكة فيهم واستزرى بقيماز ـ لعله يقصد أنه ازدراه واستضعفه ـ فطمع العرب ووقفوا في الطريق وبعثوا يطلبون رسومهم فقال قيماز للركب « المصلحة أن يعطوا ونكتفي شرهم » فامتنع الركب من ذلك فقال لهم : فاذا لم تفعلوا فلا تزوروا هذه السنة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغاثوا عليه فقالوا نمضي الى سنقر فنشكوه ، فسار بهم الى أن وصلوا الى مضيق بين مكة والمدينة ، فخرج عليهم العرب من بني زغب بعد عصر يوم السبت الرابع عشر من المحرم من سنة خمس وأربعين وخمسمائة فقاتلوهم وتكاثر العرب وظهر عجز قيماز عنهم ، فطلب لنفسه أماناً ، واستولوا على الحجاج فأخذوا من الثياب والأموال والحجاج مالا يحصى وأخذوا من الدنانير ألوفاً كثيرة ، فتحدث جماعة من التجار أنه أخذ من هذه عشرة آلاف ، ومن هذا عشرون ألفاً ، ومن هذا ثلاثون ألفاً ، وأخذ من خاتون أخت مسعود ما قيمته مائة ألف دينار ، وتقطَّع الناس وهربوا على أقدامهم يمشون في البرية ، فماتوا من الجوع والعطش والعري ، وقيل أن النساء طيَّنَّ أجسادهن لستر العورة ، وما وصل قيماز الى المدينة إلا في نفر قليل وتحملوا منها الى البلاد ، وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل الى البلاد .

كذا في أتحاف الورى في أخبار أم القرى (٤).

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٠٧/٦٠٨ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٠٨ .
(٣) خلاصة الكلام ص ٣٣ .
(٤) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٠٨/٦١٠ .

القتال بين أمير الحج وصاحب مكة :

وفي سنة خمسمائة وست وخمسين حج الناس فحصلت فتنة وقتال بين صاحب مكة وأمير الحج فرحل الحجاج ، ولم يقدر بعضهم على طواف الافاضة .

قال ابن الأثير : وكان ممن حج ولم يطف جَدَّتُه أمُّ أبيه ، فأتت في العام المقابل وطافت وأحرمت بحجة أخرى وأهدت . انتهى .

ذكره أبو الفداء كذا في تحصيل المرام[1] .

عساكر مصر يخرجون أهل مكة من بيوتهم وينهبون القوافل :

وفي سنة تسعمائة واثنين وثلاثين ورد من مصر سليمان الريس متوجهاً الى اليمن ومعه نحو أربعة آلاف عسكري جهزهم الوزير الأعظم ابراهيم باشا صاحب مصر لأخذ اليمن مدداً لمن سبق من الباشوات فوصلوا جدة في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وصار العسكر يتعرضون العرب بالنهب فانقطعت الميرة عن مكة بسبب ذلك ، وحصل بها غلاء لذلك ، ثم وصلت طائفة من العسكر الى مكة وأخرجوا الناس من بيوتهم وسكنوها ، وكثر أذاهم ، فسلطت عليهم العربان وقتلتهم في طريق جدة ، وأينما وجدوهم ، الى أن قتلوا تاجرين عظيمين من تجار مكة ظناً بهم أنهم من العسكر فأمر الشريف حسن العربان بعدم القتل ، لكن بعدما ألحَّ فيهم القتل ، وامتلأ طريق جدة من رممهم ، فبعث الشيخ الشيخ محمد بن عراق جماعته فدفنوا مافي الطريق من جثث القتلى ، ولما كثر العسكر المذكور بمكة نصبوا بيارقهم بالمسجد الشريف من باب السلام الى باب علي ، فشكى الناس ذلك الى الشيخ محمد بن عراق ، فجلس الشيخ في المسجد ودعى الأمير خير الدين وبعض رؤساء العسكر ونهرهم وأمرهم بالخروج من بيوت الناس فأكبُّوا على رجليه يقبلونها وقالوا : قصدنا الحج ونتوجه فقال لهم : اذهبوا الى منى ، فإن بها بيوتاً خالية فاسكنوها ، فامتثلوا أمره ، وخرجوا الى منى ، وقتلوا بعض المسئولين منهم امتثالاً لأمر الشيخ محمد[2] .

القتال بين أمير الحج المصري وبين أهل ينبع :

في سنة سبعين ومائة وألف ، كان أمير الحج المصري محمود درويش بك ابن دفتردار مصر سابقا ، وحصل بينه وبين أهل ينبع قتال عظيم وقتل منهم كثيراً ، ونهب السوق وشال الحج وتوجه حين الوقعة ، وكانت شديدة الحر ومات بها خلق كثير ، وأيضاً مات من البهائم شيء عظيم .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦١٠/٦١١ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٢٦/٦٢٨ .

وفي عودته من المدينة توجه الحج الشامي عن طريق الشرقية حتى طلع على ـ مُكُرَهْ ـ وحصل له مشاق كثيرة من الحرِّ وموت الخلائق والبهائم ، ثم نهب الحج الشامي بأجمعه حتى انهم أخذوا المحمل عن آخره ، واجتمعت عليه العربان من كل محل ومكان(١) .

قبيلة حرب تقطع الطريق وتقاتل أمراء الحج :

نقل الغازي عن تاج تواريخ البشر القصة التي أوردها السيد جعفر البرزنجي عن قبيلة حرب ومشايخها الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج وينهبونهم ويقاتلون أمراء الحج نلخصها فيما يلي :

في حج سنة ١١٧٥ جمع شيخ مشايخ قبيلة حرب،عيد الظاهري الجموع الكثيرة من العربان حتى قيل أنه اجتمع معه نحو سبعين قبيلة من البادية كانوا يقطعون الطرق وينهبون الحجاج ويعيثون في الأرض فسادا وقد قام عيد الظاهري هذا بمتابعة الحج الشامي بمن معه من القبائل الى أن وصلوا الى تبوك فحصرهم فيها ، وبقي الحجاج محاصرين بها مدة ستة عشر يوما وأرسل أمير الحاج الشامي يستنجد بأمير الشام ليرسل اليه فرقة من جنود الدولة العلية ، ولكن والي الشام لم يسعف أمير الحج ، ولم يستجب لطلب النجدة ، وكانت الشام نفسها أحوالها غير مستقرة وعلم أمير الحاج الشامي أن طلبه لم يجب فقرَّر مغادرة تبوك بمن معه من الحجاج وغادرها في منتصف الليل وأحسَّت قبائلٍ حرب بتحرك ركب الحاج الشامي فساروا خلفهم ، فلما أحس أمير الحج أن الأعراب يحفون بالركب أمر بالتوقف لقتالهم ونشبت الحرب بين الطرفين ، وقتل خلق كثير من الجانبين .

وحدث أن اعثرت فرس أمير الحاجِ فوقع الى الأرض فظنَّ من حوله من الحجاج أنه قتل فشاع أمر مقتله بين الحجاج ، فدبَّ فيهم الجزع وانهزموا ، وقتل غالبهم ونهب جميع متاعهم ، وهتكت أستار المخدرات ، وأسرت النساء والبنات أو تمزقوا كل ممزق .

يقول الراوي : وبلغ عيد الشقي العنيد ما أمَّله ، واستحوذ هو وجنوده على جميع أموال الحجاج ، وخيلهم ورجلهم ، ورجع بالغنائم وتفرَّق من بقي من الحجاج في كل طريق .

أما أمير الحاج الشامي الذي ظن به القتل فقد لجأ الى قرية قريبة واعتصم بها .

السلطان العثماني يهتم بالأمر :

وصلت أخبار هذه المقتلة التي وقعت من قبائل حرب على الحجاج الى الاستانة ، وصادف هذا تولي السلطان مصطفى الثالث بعد وفاة والده السلطان أحمد الثاني في عام ١١٧١ فغضب السلطان واهتم بالأمر أعظم اهتمام ، واستشار وزراءه فوقع الاختيار على الوزير عبدالله باشا الحسبه جي ، نسبة الى قرية من قرى ديار بكر ، فأسند اليه السلطان ولاية الشام وإمارة

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٤١/٦٤٢ .

الحج ، ووصل الوالي الجديد وباشر مهام ولايته ، ولما وصل الى المدينة المنورة في طريقه الى مكة أرسل اليه عيد الظاهري شيخ قبيلة حرب ابن عمه برسالة يقول فيها :

انه مقيم على الطاعة للدولة العثمانية ويطلب من الوالي صرف العوائد المقررة له ولقبيلته ، ومقدار هذه العوائد ألف قرش باسمه وخمسة آلاف باسم قبائل حرب ، وأجاب الوالي على رسالة عيد هذا بأنه مسرور لاقامته على هذه الطاعة ووعده بصرف العوائد المقررة بعد عودته من الحج كما جرت العادة بذلك .

ولكن عيداً لم يقبل من الباشا هذا التسويف وترددت الرسل بينه وبين الوالي دون جدوى ، وتحرك الوالي من المدينة المنورة يقصد مكة بمن معه من حجاج الشام ولكن عيداً ومع من معه من الأعراب كمنوا لهم في وادي الصفراء ، وأرسل اليهم عيداً رسوله يقول :

لا نسمح بمروركم حتى تصرفوا العوائد ، ولم يستجب الباشا لطلبه ، فقام عيد ومن معه باطلاق الرصاص على العساكر والحجاج ، وكان أمير الحاج مستعداً لملاقاته فنشبت المعركة بين الطرفين ، ولم تمض ساعة ونصف الساعة إلا وكان قد قتل من قبائل حرب سبعين قتيلاً بينهم شيخهم عيد .

وأسر منهم عددٌ آخر ، وتفرق جمع الأعراب ، وواصل الباشا سفره الى مكة المكرمة فبلغها في أمان ، ولقي الباشا في مكة أميرها سعيد بن سعد بن زيد الذي أشار على الباشا بأن يسلك في عودته الى المدينة المنورة طريق الفرع .

ولم تستسلم قبائل حرب للهزيمة التي نزلت بها فولوا عليهم ابن شيخهم القتيل في المعركة .

وجمعوا القبائل من كل حدب وصوب ، وقطعوا الدروب على سالف عاداتهم ورصدوا عودة الحج الشامي ، فطمُّوا الآبار التي في الطريق ، وغوَّروا المياه واستطاع أمير الحج الشامي الوصول بالركب الى المدينة المنورة من الطريق الذي سلكه بأمان .

وبعد أن بقي بها ثلاثة أيام خرج لملاقاة قبائل حرب بعساكره فسار اليهم حيث كانوا بالخيف ونشبت بينهم معركة عظيمة استمرت ثلاثة أيام .

واستعملت فيها المدافع وهزمت قبائل حرب هزيمة منكرة قتل فيها شيخهم ابن عيد وأربعة عشر من مشايخ القبائل المشاركة في القتال وعاد الباشا الى الشام مكللاً بالنصر بعد أن عين شيخاً لقبائل حرب ممن يدينون بالطاعة والولاء للدولة العثمانية وكانت هذه الوقعة في عام ١١٧٦ .

يقول الشيخ الغازي : وقد أفرد لها تاريخاً الفاضل السيد جعفر البرزنجي لخصت منه القصة سماه « البعث الفرجي » .

ونقل الغازي ذلك عن تاج تاريخ البشر للحضراوي[1] .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٤٢/٦٥٠ .

الدولة العثمانية تمنع بيع الرقيق فى الحجاز

في سنة ألف ومائتين واثنين وسبعين صدر الأمر من الدولة العثمانية الى كامل باشا والي جدة يمنع بيع الرقيق في جدة ومكة ، وأبلغ والي جدة ومكة بهذا الأمر ، وكان هذا الأمر تنفيذاً لاتفاق بين الدولة العثمانية وبعض الدول الغربية[1] .

جمع قائم مقام الوالي بمكة دلالي الرقيق وأبلغهم الأمر الصادر بمنع الرقيق من الدولة العثمانية .

اضطرب الناس في مكة لذلك واجتمع جماعة من طلبة العلم عند رئيس العلماء الشيخ جمال ، محتجين بأن هذا المنع يخالف الشرع الذي أجاز بيع الرقيق واتفق رأي المجتمعين أن يذهبوا الى قاضي الشرع بمكة ويخبروه باعتراضهم ليقوم القاضي بابلاغ الوالي كامل باشا بذلك ، ليتولَّى هو مراجعة الدولة في الأمر .

وفي مسيرة المعترضين الى القاضي تجمَّعت معهم جموع من العامة والغوغاء حتى وصلوا الى بيت القاضي ففزع لرؤية الجموع الغفيرة فدخل هارباً منهم الى بيت الحريم .

ازداد هيمان الناس واضطرابهم ، ورأى عساكر الضابطية في دار الحكومة تجمع الناس وهيجانهم ، وكان بعضهم يحمل السلاح وينادي بالجهاد فقام العسكر من جانبهم بمواجهة هذه الجموع ، وتطوَّر الأمر الى اطلاق الرصاص من الجانبين وثارت بسبب ذلك فتنة عظيمة في أسواق مكة وطرقاتها ، وتبادل العسكر وبعض الناس اطلاق الرصاص في المسجد الحرام ، وقتل بعض الناس من جرَّاء هذه الفتنة العمياء .

شريف مكة يتدخل لاطفاء الفتنة :

فزع الناس الى الشريف منصور بن الشريف يحيى بن سرور في داره وأخبروه بواقع الحال ، فأمر منادياً ينادي في مكة يأمر الناس بالكف عن القتال والهدوء ، وأمر العساكر

(١) انظر ما كتبه السباعي في تاريخ مكة ص ٥٣٢/٥٣٤ .

بالرجوع الى القلعة والبقاء فيها ، وقام الشريف عبدالله بن ناصر بادخال بعض العساكر في دار الشريف محمد بن عون ، وتم اطفاء الفتنة[1].

أقول : ان الرقيق الذي أباح الشرع بيعه هو الرقيق الذي يسلبه المسلمون في حرب جهادية ، أما الرقيق الذي كان منتشراً التداول فيه بالبيع والشراء ، فلم تكن تنطبق عليه هذه الشروط ، لأنَّ هؤلاء الأرقاء كان يسرقون من ديارهم وأهليهم ويؤخذون ليباعوا في البلاد الأخرى ، وكان الواجب على القاضي الاستماع الى الناس بدلاً من الهرب منهم .

وكان الواجب على العلماء ارشاد الناس الى حقيقة الوجه الشرعي في الأمر ومعالجة المسألة بالهدوء والحكمة ، فقد كان بيع الرقيق وشراءه منتشراً منذ عشرات السنين ، والناس تدفع فيه الأموال الكثيرة وهم يظنون أنه بيع شرعي لا شبهة فيه وكان يجب التمهيد لذلك باظهار حقيقة حكم الشرع في هذا الأمر ، وتحبيب الناس القادرين على عتق الرقيق الذي يملكونه .

والى جانب ذلك ترصد الدولة مبلغاً من المال لتعويض الناس أثمان رقيقهم وتتولى هي عتق الرقيق ، كما فعلت الحكومة السعودية في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله ، في حوالي سنة ١٣٨٣هـ وبذلك وضعت نهاية لبيع الرقيق وشرائه وخلصت البلاد من هذه العادة السيئة واللاانسانية .



(١) نفس المصدر ص ٦٥٠/٦٥٣ .

شورة القبورى بمكة

في شهر شوال من عام ألف وثلاثمائة وست وعشرين حدثت بمكة فتنة كادت أن تفضي الى محنة عظيمة وخلاصة أسبابها أن الدولة العثمانية كلفت أحمد القبوري - وهو الذي كان يتولى حفر القبور للموتى ودفنهم - بتعمير الجدار المحيط بالمقابر منعاً لرواد القهاوي المحيطة بمقبرة المعلاة من استعمال هذه القبور لقضاء حاجاتهم ، كما أمر القبوري باعمار القبور المتهدمة ، وأن يصرف على بناء الجدار وعمارة القبور المتهدمة مما يستوفيه من الناس الذين يدفنون موتاهم .

وعمد أحمد القبوري الى زيادة ما يتقاضاه على عمله زيادة كبيرة وشاع بين الناس أن الحكومة فرضت للقبوري خمسة ريالات مجيدية على كل قبر يأخذ منها لنفسه ريالاً واحداً ويستعمل الريالات الأربعة لبناء الجدار وتعمير القبور .

وجاءت جنازة أحد الفقراء من التكارنة ، فلما طالبهم القبوري بالمبلغ ، امتنعوا وتضاربوا وقصدوا الى دار الحكومة بالحميدية ، واغتنم السفهاء من الناس هذه الفرصة فانضموا الى القوم وساروا من المقبرة الى دار الحكومة وهم يصيحون باطل ، باطل ، أن تفرض الحكومة ضريبة على دفن الموتى مقدارها خمسة ريالات ، وسارت جموع الناس محتجين الى دار الوالي ، وحينما سمع الوالي بالأمر نفى أن يكون قد أصدر أمراً بذلك ، ولكن الغوغاء أشاعوا الفتنة والاضطراب ، وهجموا بالسلاح على دار الحكومة وعلى بعض المواقع العسكرية ، وجرى اطلاق الرصاص فيما بين الصفا وباب الوداع بالمسجد الحرام ، وقتل في هذه الموقعة بعض الأهلين وبعض العساكر ، ولم تخمد الفتنة إلا بعد أن تدخل بعض الأشراف ووكيل الامارة لاخمادها ، وشارك في ذلك بعض أعيان مكة .

وقامت الحكومة بالقبض على أحمد القبوري ، وعشرين من أعوانه ، واتهم محمد علي بن عبدالواحد الذي كان كاتباً للشريف عون أولاً ، ثم كاتباً للشريف علي في مدة امارته ، اتهم

بأن له يداً في تدبير هذه الفتنة ، فقبض عليه ، ونفي هو والقبوري وأعوانه الى الاستانة وسجنوا هناك مدة ، وقد توفي محمد علي عبدالواحد في الاستانة ، ثم رحل القبوري وجماعته الى بيروت لمحاكمتهم بها ، ثم أطلق سراحهم وعادوا الى مكة بعد سنة من ترحيلهم عنها[1] .

* * * *

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٥٣/٦٥٦ .

الضرائب على الحجاج

كان أمراء مكة قد فرضوا لأنفسهم ضرائب نقدية يتقاضونها من الحجاج القادمين الى مكة للحج أو للعمرة ، وكانت هذه الضرائب تستوفى بميناء عيذاب من الحجاج القادمين عن طريق البحر ، ومن لم يُؤَدِّ هذه الضريبة منهم تستوفى منه في مدينة جدة حين وصوله اليها ، وكان مقدار الضريبة سبعة دنانير مصرية على كل انسان وتمَّ ابطال هذه الضرائب في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ولذلك قصة ذكرها مؤرخو مكة قالوا :

ان الشيخ علوان الأسدي الحلبي حضر الى جدة للحج ، فلما وصل الى جدة طولب بالضريبة فامتنع وأراد الرجوع من حيث أتى ، ويبدو أن الرجل كان اسمه معروفاً ، فخشي وكيل الأمير مكثر بن عيسى صاحب مكة من العاقبة ، واستمهل الشيخ علوان ، حتى يبلغ الأمير بأمره ، وحينما أبلغ مكثر بذلك ، أمر باعفاء الشيخ ومن معه جميعاً من الضريبة ، ولما وصل الشيخ علوان الى مكة اجتمع به الأمير مكثر وقال له :

اننا مضطرون لفرض هذه الضرائب لأن واردات مكة لا تفي بالمصاريف اللازمة لها فكتب الشيخ علوان الى السلطان صلاح الدين بالأمر ، فأمر السلطان صلاح الدين بابطال الضرائب لقاء أن يرسل الى مكة في كل عام ألفين من الدنانير وألفي أردب قمح ، وقيل مقابل ثمانية آلاف أردب من القمح ، وقيل إن الذي فرض هذه الضريبة لأمير مكة على حجاج المغرب الخلفاء العبيديون الذين تولوا الخلافة بمصر(١) .

وربما كانت هذه الضريبة من الدنانير على الحجاج ، فقد ورد أنه كانت هناك ضرائب أخرى تؤخذ بمكة من الحب والتمر والغنم والسمن ، ورفعت هذه الضرائب في زمن السلطان حسن بن قلاوون صاحب مصر ، يقول الفاسي في شفاء الغرام :

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٦١/٦٦٢ .

وفي سنة ستين وسبعمائة رسم السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسن بن قلاوون باسقاط المكوس من مكة ، ورتّب لصاحب مكة ثمانية وستين ألف درهم من بيت المال بمصر وألف أردب حبّ ، وقرر ذلك في ديوان السلطان المذكور وأمضى ذلك الولاة بالديار المصرية الى تاريخه ، وكتب بذلك في أساطين المسجد الحرام جهة باب الصفا وغيره ، فطابت نفس أمير مكة المشرفة وعمل به هو ومن بعده من أمراء مكة . انتهى[١] .

بيان المكوس المقررة :

وأورد الغازي نقلاً عن كتاب المنتقى بيان المكوس التي كانت تؤخذ على البضائع الواردة الى مكة المكرمة على الصورة التالية : مُدُّ حَبٍّ جُدِّي ، وهو مُـدَّانِ مكيين من كل جمل حب يصل من جدة ، ومُـدٌّ مكي وربع مكي من كل جمل حب يصل من جهة الطائف وبجيلة ، وثمانية دنانير مسعودية على كل جمل من التمر واللبان الذي يصل الى مكة ، وثلاث دنانير مسعودية على كل شاة تصل اليها ، وسدس ثمن ما يباع بمكة من السمن والعسل والخضر ، وذلك بأن يحصي ثمنها مسعودية فاذا عرف أخذ على كل خمسة دنانير دينار مسعودي من ثمن سلة التمر اذا بيعت بالسوق من الذي باعها .

قالوا : ان الذي نبه الملك الأشرف الى ما يعانيه أهل مكة من هذه المكوس هو الأمير بلبغا المعروف بالخاسكي مدير المملكة الشريفة في دولة الملك الأشرف حيث نبهه الى ذلك بعض أهل الخير .

ويقول البتنوني في الرحلة الحجازية :

ان بعض أمراء مكة عمدوا الى الأساطين المنقوش عليها ابطال هذه المكوس فكسوها بعجينة من الجبس حتى لا يقرأها الناس[٢].

الملك الأشرف يضاعف النقود لأمير مكة :

وفي درر الفرائد ما يلي :

وفي سنة سبعمائة وتسع وستين اتفق الحال مع الشريف عجلان صاحب مكة أن يرتب له من بيت المال في كل سنة مائة وستون ألف درهم ـ نقره ـ تحمل اليه من مصر ، وألف أردب قمح ، ويترك الجَبَا من مكة في كل ما يؤكل ويجلب اليها من الحبوب والخضروات والثمار والغنم والخشب والسمن والعسل ، وأشهد على نفسه بذلك وكتب ثلاث محاضر يجعل واحد بمكة وواحد بالمدينة ، وواحد بقلعة الجبل بالقاهرة ، وقيد ذلك في ديوان الأشرف شعبان وأمضى الولاة بعد ذلك الى أن انقطع . انتهى[٣] .

---

(١) افادة الانام مجلد ٢ ص ٦٦١/٦٦٢

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٦٣/٦٦٥ .

(٣) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٦٦/٦٦٧ .

الشريف حسن بن عجلان والقاضي شهاب الدين المحلي :

وفي أتحاف الورى أنه في سنة ثمانمائة وأربع حصل للسيد حسن بن عجلان خمسة وستون ألف مثقال وأزيَدْ فيما قيل عن القاضي شهاب الدين أحمد بن القاضي برهان الدين المحلي ، وجماعة من تجار الكارم ، لأن المركب الذي كانوا فيه ـ انصلح ـ بمقربة من مكة فأعطوه هذا المقدار عن الربع الذي يأخذه ولاة البلد فيما ينصلح في بلادهم من الجلاب .

واشتد غضب القاضي برهان بن المحلي بسبب ذلك على السيد حسن وسعى في ارسال شخص من خواص السلطان بمصر يطالبه بذلك فوصل اليه في آخر رجب ، وبلغ رسالته ، فاعتذر بتفرق ذلك من يده ، ووعده بالخلاص وماطل[1] .

وفي الاعلام :

ان السلطان أبو الفتح سيف الدين قطز الظاهري ، قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهبي تحمل له من خزينة مصر في كل عام ، مقابل ترك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة ، وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد الحرام من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا ، والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة في المسجد الحرام الى الآن . انتهى[2] .

السلطان قايتباي يبطل المكوس بمكة :

وفي الاعلام ما يلي :

وفي أول ولاية السلطان قايتباي أرسل الى مكة مراسيم تتضمن بابطال جميع المكوسات والمظالم ، وأن ينقر ذلك على اسطوانة من أساطين الحرم الشريف في باب السلام .

مراكب الهند تتحول من عدن الى جدة :

كانت مراكب الهند التي تحمل البضائع الى جدة تصل أولاً الى ميناء عدن وتفرغ بضاعتها فيه ، ثم تنقل هذه البضائع في الجلاب ـ المراكب الشراعية ـ الى جدة .

وفي سنة ثمان وعشرين وثمانمائة بلغ صاحب مصر وصول مراكب من الهند الى بندر جدة ، فأحبَّ أخذ مكوسها فبعث بعض مسالمة القبط سعد الدين بن المرة فقدم مكة ، وصادف وصول أربعة عشر مركباً موسوقة بضائع من الهند فأخذ منها العشر وهذا أول ما أخذ العشر لصاحب مصر بجدة .

وسبب تحول مراكب الهند من عدن الى جدة كثرة الظلم عليهم في عدن فتركوه وصاروا يفدون الى بندر جدة ، فاستمر بندر جدة يعمر ويتلاشى أمر عدن الى أن ضعف بسبب ذلك صاحب اليمن وقلَّ مدخوله ، وضعف متحصله .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٦٧/٦٦٨ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٦٨/٦٦٩ .

حصيلة الضرائب بجدة تنقل الى مصر :

وكان المتحصل في هذه السنة من عشور بندر جدة ما ينوف على سبعين ألف دينار ذهب حملت الى خزينة مصر[1].

السلطان الأشرف برسباي أول من فرض المكوس بجدة :

ونقل السنجاري عن ابن فهد أن السلطان الأشرف برسباي هو أول من فرض العشور بجدة في سنة ٨٨٤ ، وأورد الخبر عن وصول المراكب الهندية وعددها أربعة عشر مركباً موسوقة بالبضائع من الهند ، وكان قائد المراكب الهندية ابراهيم الناخودة ، وأرسل السلطان مع سعد الدين بن ابراهيم الذي تولّى استلام العشور الأمير رأس نوبه أونبغا وشاد الديوان شاهين العثماني .

يقول ابن فهد :

وصار قطر جدة وظيفة سلطانية يخلع على متولّيها ويتوجه اليها في كل سنة أوان ورود المراكب اليها متولٍ جديد ، يأخذ ما على التجار من العشور ، ويحضر بها الى القاهرة ، وبلغ ما حمل الى الخزانة من ذلك سبعين ألف دينار ذهب .

وقد علّق القطب الحنفي على ما ذكره ابن فهد فقال :

وزادت هذه المظلمة في زماننا حتى صاروا يأخذون من الوارد ما يزيد على العشر بكثير .

، وعلّق السنجاري على ذلك فقال :

وفي زماننا هذا زادت زيادات كثيرة وصار صاحب جدة يأخذ ما يريد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، انتهى مافي تاريخ السنجاري[2] .

أقول : ذكر ابن اياس في كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور شيئاً عن المكوس التي فرضها السلطان برسباي على جدة ، فذكر أنها كان في سنة ٨٢٨ وليس في سنة ٨٨٤ كما ذكر ابن فهد لأن برسباي تسلم السلطنة سنة ٨٢٥[3] .

تعليق ابن فهد على فرض المكوس :

قال ابن فهد بعد ذكر هذه الواقعة :

فجاء للناس ما لا عهد له ـ به ـ قبله ، فإن العادة لم تزل من قديم الدهر ، في الجاهلية والاسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة الى مكة لتصرف في أشرافها ومجاوريها فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة ويلزم اشرافها بجمله .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٠ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٠/٦٧١ .

(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٩٦/١٠٣ .

سلاطين المماليك يأمرون التجار بحمل البضائع الى مصر :

ويواصل ابن فهد تعليقه فيقول :

ومع ذلك منع التجار أن يسيروا في الأرض ، ويبتغوا من فضل الله ، وكلفوا أن يأتوا الى القاهرة حتى يؤخذ منهم المكوس على أموالهم ، فانه في هذه السنة في أيام الموسم منع التجار أن يتوجّهوا من مكة الى بلاد الشام بما ابتاعوه من أصناف تجارات الهند ، وألزموا أن يسيروا مع الركب الى مصر ، حتى يؤخذ منهم مكوس ما معهم ، فتوجهوا مع الحاج فلما نزل الحاج (بركة الحاج) خارج القاهرة ـ خرج مباشروا الخاص وأعوانهم واستقفوا تفتيش محاير القادمين من الحجاج والتجار وأحمالهم وأخرجوا سائر ما معهم من الهدية ، وأخذوا المكوس ، حتى أخذوا من المرأة الفقيرة مكس النطع الصغير عشرة دراهم مكوس . انتهى[١].

منادي السلطان في عرفات :

ونقل الغازي عن درر الفرائد ما يلي :

ومن الغرائب اظهار النداء في يوم عرفة بالموقف الأعظم لجميع الناس عامة ، من اشترى بضاعة للبحر وسافر بها الى غير القاهرة حلَّ دمه وماله للسلطان .

فسافر التجار القادمين من الأقطار مع المركب المصري ، ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم بها ثم اذا سافروا من القاهرة الى بلادهم يؤخذ منهم المكوس بالشام أيضاً ، وغيرها فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم . انتهى ، وكان ذلك في سنة ثلاثين وثمانمائة كما ذكر ابن فهد[٢].

السلطان يخصص لشريف مكة ثلث مكوس المراكب الهندية :

وفي يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة ثمانمائة واثنين وثلاثين وصلت المراسم من الأشرف صاحب مصر بالانعام على مولانا الشريف بركات بن حسن ، ثلث ما يتحصل من عشور المراكب الهندية ، وأن الثلثان ـ الثلثين ـ يحملان الى الخزانة فحصل للشريف بذلك غاية السرور[٣].

مضاعفة المكوس على بضائع اليمن :

وفي سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة كتب السلطان صاحب مصر بأن يؤخذ من التجار الشاميين والمصريين اذا وردوا جدة ببضائع اليمن عشران ـ عشرين ـ أي تضاعف المكوس عليهم وأن من قدم الى جدة من التجار اليمنيين ببضاعة ، تؤخذ بضاعته بأجمعها للسلطان من غير ثمن

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٢/٦٧٤ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٤ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٥ .

يدفع له عنها وسبب ذلك أن تجار الهند في هذه السنين صاروا عندما يعبرون من باب المندب ، يجوزون عن بندر عدن حتى يرسوا بساحل جدة ، فاقفرت عدن من التجار ، وضعف حال ملوك اليمن لقلة متحصله ، وصارت جدة هي بندر التجار ، ويحصل لسلطان مصر من عشور التجار الواردين من الهند عشر بضائعهم ، ويؤخذ من العشور رسوم تقررت للناظر ، والشاد ، وشهود القبان والصيرفي ونحو ذلك من الأعوان وغيرهم .

وصار يحمل من قبل سلطان مصر مرجان ونحاس ، وغير ذلك مما يحمل من الأصناف الى بلاد الهند فيطرح على التجار ، ويتشبه به في ذلك غير واحد من أهل الدولة ، فضاق التجار بذلك ذرعاً ، ونزل جماعة منهم في السنة الماضية الى عدن فتنكر السلطان بمصر عليهم لما فاته من أخذ عشورهم ، وجعل عقوبتهم أن من اشترى بضاعة من عدن ، وجاء بها الى جدة أن كان من الشاميين أو المصريين أن يضاعف عليه العشر بعشرين ، وإن كان من أهل اليمن تؤخذ بضاعته بأسرها .

الشريف بركات يتدخل لابطال المرسوم :

ويواصل الشيخ / الغازي حديثه نقلاً عن اتحاف الورى فيقول :

فمن لطف الله تعالى بعباده أنه لم يعمل بشيء من هذا الحادث لكن قرئت هذه المراسم تجاه الحجر الأسود ، فراجع السيد بركات أمير مكة السلطان صاحب مصر في ذلك ، حتى عفى من التجار ، وأبطل مارسم به ، كذا في أتحاف الورى[1] .

السلطان يمنح الشريف بركات نصف العشور :

وفي سنة ثمانمائة وأربعين وصل قاصد من مصر للسيد بركات ومعه كتاب من صاحب مصر ، مذكور فيه أنه أنعم عليه بنصف عشور جدة من المراكب الهندية .

السلطان ينقص حصة أمير مكة :

وفي سنة ثمانمائة وثلاث وأربعين وصلت مراسم تتضمن أن جميع الجلاب الواصلة من البحر الى جدة من سائر البلاد ليس لصاحب مكة من عشرها إلا الربع وثلاثة الأرباع تحمل الى مصر .

تركات المتوفين للسلطان :

وأن جميع ما مات بمكة من غير أهلها ليس لصاحب مكة من تركته شيء ، وكله لصاحب مصر وأن صاحب مكة ليس له إلا تركة من مات من أهل مكة .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٥/٦٧٧ .

السلطان يعفي الشريف بركات من تقبيل خف المحمل :

وأن السلطان قد أعفى السيد بركات من تقبيل خُفِّ المحمل الذي يأتي بالمحمل ، فشكر ذلك من فضل السلطان .

العشور يؤخذ صنفاً لا مالاً :

وان لا يؤخذ من التجار الواردين غير العشر فقط ، يؤخذ صنفاً لا مالاً من كل عشر وأن يبطل ما كان يأخذه غير العشر من الرسوم ـ كذا في تاريخ السنجاري ـ[1].

التجار المصريون يزاحمون تجار مكة :

وذكر ابن فهد ما أورده السنجاري وزاد عليه أن السلطان أمر بمنع الباعة من المصريين الذين سكنوا مكة ، وجلسوا بالحوانيت في المسعى وحكروا المعاش ، وتلقوا الجلب من ذلك وأن يخرجوا من مكة ، فشكر ذلك أيضاً وشكر السلطان أو الناس ذلك ، لعل صحة الجملة ـ وشكر الناس للسلطان ذلك ـ لأن هؤلاء البياعين كثر ضررهم ، وتقووا بحماية المماليك لهم فغلت الأسعار ، وأحدثوا بمكة أحداثاً لم يعهد لها وعجز الحكام عن منعهم لتقوية المماليك المجردين لهم بما يأخذوا منهم من المال . انتهى[2] .

السلطان يصدر مراسيم تتعلق بالرسوم والتركات :

وفي أتحاف الورى :

وفي سنة احدى وثمانين وثمانمائة ، ثاني عشر ذي القعدة ، وصل الى مكة المشرفة نائب جدة قُرْأغا عتيق أروادار الكبير جاني بك ، ومعه مراسم للشريف محمد بن بركات ، وقاضي القضاة برهان الدين الشافعي كمال الدين ، وباش الترك قايتباي فدخلوا جميعاً الى المسجد الحرام وجلسوا بالحطيم ، فقرىء مرسوم الشريف ثم القاضي برهان الدين ، ثم أخيه ، ثم باش الترك ، وتاريخ المراسيم رابع عشر شوال من السنة ، ومضمونهم واحد هو :

ان الواصل الى مكة من المرجان وغيره من بضائع الهند لا يترك شيء منه يذهب به الى اليمن ، حتى لا تبقى المراكب الهندية تدخل اليمن .

والواصل من اليمن من بضائع الهند يكون بين السلطان وبين الشريف نصفين ، ولم تجر بذلك عادة قبل ذلك ، بل كان ذلك مما يختص بالشريف ومن مات بجدة ومكة ولم يكن له وارث يكون من أشرفي الى ألف للشريف ، وما فوق ذلك للسلطان ، ومن مات وله وارث غائب لم يختم على مال الميت القاضي على العادة بل ذلك الى نائب جدة قُرْأغا ، والفلفل الواصل الى جدة من الهند يؤخذ منه للسلطان بسعر العام الماضي والذي قبله ، ولا يعارض نائب جدة في شيء مما يريده ، والمتوجه عليه فانه من المقربين انتهى[3] .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٩/ ٦٨٠ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٧٩/ ٦٨٠ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٨٠/ ٦٨١ .

العطارون والبزارون يعتصمون بمكة :

وفي سنة ست وثلاثين وألف ثامن عشر عاشوراء ، عزَّل من السوق جميع العطارة والبزارة ، ودخلوا على ضريح السيد نعمة الله القادري ، نزيل شعب عامر ، وسبب ذلك أن كل شريف من الأشراف استخرج رجلاً منهم على قواعدهم أنه رِجَّالُه وأنه اليه في قواعدهم أن كل ما أراد شيئاً أخذه منه ، وان امتنع تصرَّف فيه بكل ما يختار ، وما أحد يعارضه ، ولا صاحب ، حتى ان شريفا يقال له عبدالمعين بن حسن ، نادى على ابن عبدالله شلبي وطلب منه بعض شيء من المعاملة فامتنع ، فسلَّ سيفه عليه وتهدَّده ، فخاف على نفسه ، وألقى بنفسه من طاقة في بيت الشريف فانكسرت رجله .

وفي ظهر ذلك اليوم نادى منادي الشريف ، في حال العطارة والبزارة بأنهم رعية الله ، ورعية السلطان أحمد ، ورعية ملك مكة ، يبسطون دكاكينهم ، ليس لأحد من الأشراف يتعرضهم فبسطوا ، ثم أرسل شريف من ذوي عبدالله ، يقال له زين العابدين لرجل من العطارة ، وناداه وأظهر وصلا من الشريف يتضمن بأنه رجَّالُه ، فقال العطار أنا رعيةٌ السلطان ورعية الشريف فضربه على فمه وفوق رأسه ، حتى أدمى وجهه وحبسه ، ولا فُكَّ حتى أخذ منه شيئا .

فاجتمعت العطارة والبزارة ، ومضوا الى شيخ الجماعة فاستنظرهم ثلاثة أيام ، فلم يجدوا عنده جواباً شافياً فعرفوا بطلان المناداة الاولى ، وهذه سالفة بين الأشراف لا يمكن قطعها .

وفي هذه المدة فقد من السوق كل شيء ، وطلعت الأسعار ، وزاد العيار ، ولا في السوق إلا الفول والزيت الحار فقلت :

كل شيء عز نائله ... فهو مفقود ومجهول
بسوقنا حيث الغلاء به ... ليس إلا الزيت والفول

كذا في اتحاف فضلاء الزمن[1] .

شاعر يصف خطباء العصر في مكة :

شكى المنبر المكي جَوْرَ ائمة ... عليه بأنواع المواعظ يلعبوا
وقال آلهي أنت أدرى بحالهم ... يقولون مالا يفعلون ويكذبوا

وقال آخر :

لقد كانت الخطبة فيما مضى ... لمن له في العلم أوفى نصيب
حتى اضمحلت بأناس اتوا ... من فارط الجهل بشيء عجيب
فصار من قلة عقل الفتى ... وجهله ان قيل هذا خطيب

هذا الشعر قيل في امام خطب في مكة سنة سبع وثلاثين ومائة وألف نقلاً عن اتحاف فضلاء الزمن[2] .

(١) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٣٧/٦٣٩ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ٦٣٩/٦٤١ .

السماط

قال العلامة جعفر اللبني رحمه الله في شرح رسالة ابن زيدون : السماط من الطعام ما يُمَدُّ عليه ، والعامة تضم السين وهو في عرف أهل مكة ومن قرب منهم ، طعام يجمع أنواع المأكولات الموجودات يومئذ في البلد من حلو وحامض ، ومن فواكه ويجلب اليه ما يمكن جلبه من أقرب المحلات ويُصفُّ على أشكال مخصوصة ، لهم فيها اصطلاحات يصنع في الولائم العظام ، ويعرف أوضاعه أساتذة لهم مهارة فيه ، وهي عادة قديمة في مكة واذا قَصرَ عن بعض الأطعمة سمي طرافة أو نصف سماط . انتهى (١) .

اقامة الصلاة في المسجد الحرام بائمة أربعة :

نقل السنجاري عن التقي الفاسي :

ان الصلاة في المسجد الحرام كانت تقام بائمة أربعة على المذاهب الأربعة ، ويقول التقي الفاسي عن ذلك :

وأما حدوث صلاة هذه الائمة الأربعة على هذه الصيغة لا أعلم في أي وقت كان ، ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودين مع الشافعي سنة أربعمائة وسبع وتسعين ، وأن الحنبلي لم يكن موجوداً ، وأنما كان أمام الزيدية .

ثم قال : ووجدت ما يدل على أن الحنبلي كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى (٢) .

محمل الحج وتاريخ المحامل :

ذكرنا في الجزء الثالث من أعلام الحجاز شيئاً من المحامل التي كانت تصل بحجاج الأقطار الاسلامية الى مكة ، وقد أورد الشيخ الغازي معلومات أخرى رأيت اضافتها الى ما سبق ذكره (٣) .

---

(١) هامش المجلد الثاني من افادة الأنام صفحة (٩) .

(٢) افادة الأنام مجلد ٢ ص ١٥/١٦ .

(٣) راجع أعلام الحجاز ج ٣ ص ٣٠/٣٢ .

جاء في كتاب الكنز المدفون للسيوطي :

ان أول من أحدث المحامل في طريق مكة شرفها الله الحجاج بن يوسف الثقفي ، وذكر صاحب درر الفرائد : المحامل أربعة ، العراقي ، والمصري ، والشامي ، واليمني ، وحج في بعض السنين الحلبيون بمحمل ، وحج آخرون بمحامل في سنين مختلفة .

المحمل العراقي :

كان المحمل العراقي أعظم المحامل في وقته ، لأن الخلافة الاسلامية كانت في مدينة بغداد عاصمة العراق ، وان معوَّل أقاليم الاسلام على ما يصدر منها ، ويرد اليها . . . الخ .

ثم قال :

ولقد اعتنى أبو سعيد بن خدابنده بأمر حاج العراق عناية تامة ، وغشّى المحمل بالحرير ورصَّعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت ، وأنواع الجواهر الأخرى التي بلغت قيمة الحلية فيه (٢٥٠,٠٠٠ دينار) من الذهب المصري أو (١٢٥,٠٠٠ جنيه) وجعل للمحمل خزاً يسبل عليه اذا وضع ، ولما تقلَّص ظل الخلافة عن طريق العراق ، وآل الأمر الى الملوك المتغلبين من الأمراء والأعيان .

ضعف شأن المحمل العراقي فكان العربان يستهترون بركبه ، وكثيرا ما اعتدوا عليه .

وفي سنة ٦٣١ رجع الحج العراقي إذْ طَمَّ عرب الاجاورة الآبار ، واختلف الحجاج مع العربان حتى ضاق الوقت ، وفي السنوات ٦٣٣ : ٦٣٦ ، وسنة ٦٣٩ لم يحج العراقيون لدخول التتر بغداد ، ثم صار المحمل العراقي يجيىء مرة وينقطع أخرى الى القرن التاسع الهجري[١] .

السلطان سليم أول من رتب ارسال الغلال الى مكة والمدينة :

نقل الغازي عن ابراهيم رفعت باشا في مرآة الحرمين ، ان السلطان سليم هو أول من رتَّب صدقة الحب لأهل الحرمين ففي سنة ٩٢٤ وصل من السويس الى جدة سفائن تحمل سبعة آلاف أردب من القمح جهزها خاير بك نائب السلطنة بمصر منها ألفين أردب لأهل المدينة ، والخمسة الباقية لأهل مكة ، وأخذ سلاطين آل عثمان يزيدون هذه الصدقات كلما تولى سلطان جديد ، حتى وصلت الى اثنى عشر ألف أردب لمكة ، وثمانية آلاف لأهل المدينة[٢] .

أول من أرسل صرة النقود الى مكة المقتدر العباسي :

وفي مرآة الحرمين ، ان أول من أرسل صرة النقود الى الحرمين المقتدر بالله العباسي سنة ٣٢٠ هجرية ، ثم تبعه الأمراء والخلفاء كل يزيد منهم على سلفه ما يليق بكرم نفسه ، وأول

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢٨ / ٣٠ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٤٢ / ٥٣ .

من جهز صَرَّ النقود الى مكة من سلاطين آل عثمان السلطان محمد خان بن السلطان يلدرم خان ، وكانت ترسل من بلاد الروم قبل تولي آل عثمان أمر الحرمين ، واقتفى أثره ولده السلطان مراد خان فكان يرسل أضعاف ما أرسله أبوه ، فالسلطان بايزيد خان ضاعف الصدقة .

ولما آل الأمر الى السلطان سليم خان أرسل الصدقات أضعاف ما كان يرسله أبوه(١) .

وقال ابن فهد في حوادث سنة ست وثلاثمائة ما يلي :

وفي أيام المقتدر بالله وهي من سنة خمس وتسعين ومائتين الى أواخر سنة عشرين وثلاثمائة في وزارة حامد بن العباس ، رتّب علي بن عيسى بن الجراح لأن يحمل الى الحرمين الشريفين والى المجاورين بهما ، والى أرباب الوظائف بمكة والمدينة في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار وخمسة آلاف دينار وأربعمائة وستة وعشرين ديناراً .

هكذا قال الامام السروجي في باب زكاة المال من كتاب الغاية في شرح الهداية(٢) .

السلطان نور الدين الشهيد أول من أرسل الطواشية الى المدينة :

نقل الغازي عن أتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ما يلي :

وفي سنة خمسمائة وسبع وخمسين حسَّنوا للسلطان نور الدين الشهيد أن يرسل بعض خدم طواشيته الى المدينة المنورة ، ليكونوا سدنة لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرمه المحترم فاستحسن ذلك إلا أنه قال :

كيف نعمل شيئاً ما سبقنا عليه أحد من الخليفة ـ الخلفاء ـ قبلنا ، فلم يزالوا به حتى وافقهم على ذلك ، فجعل اثنا عشر طواشياً لا غير ، وشرط أن يكونوا حُفَّاظاً للقرآن ، ولربع العبادات لذلك(٣) ، وأن يكونوا أحباشاً فإن لم يكونوا فأرواماً ، فإن عُدِمُوا فتكارنة ، وإن لم يوجد فهنود ، واستمر الأمر مستقيما مدة ، ثم مازال فَقْدَ شيء بعد شيء ، حتى صار الآن من الهنود ، وصاروا عامية ليسوا بأهل علم ، وكانوا اثنا عشر فعادوا فوق الأربعين ، فسبحان من يغير ولا يتغير ، وأنكروا علماء المدينة ذلك وألفوا في ذلك تأليفاً ولكن يد الخلافة لا تطاولها يد . انتهى(٤) .

المهدي العباسي يأمر بنفي المغنين من مكة :

وفي سنة تسع وخمسين ومائة أو في التي بعدها أمر المهدي بنفي كل من بمكة من المغنين ومنع فِتْيَتَها من الغناء ، وأخرج كل من فيها من المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٦١/٦٢ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٨٦/٨٧ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٩٦/٩٧ .
(٤) الجملة غير واضحة لعل المراد أن يكونوا على علم بالعبادات وأركانها .

الرجال بالنساء ، ومنع مِنْ لعب الشطرنج ، وغيره من الأمور التي تجرُّ الى اللهو والطرب ، وطهَّرها من كثير من المباحات الملهية عن الصلوات ، والمُشْغلة عن اغتنام القرب وألزم حجبة الكعبة اجلالها وتوقيرها ، وتنزيهها ، وتطييبها للزائرين وتجميرها وفتح بابها بالسكينة والخشوع ، وزجر النساء عن الخروج الى المسجد متعطرات[1] .

المهدي أول من أقام البريد بين مكة والمدينة :

وفي صفر سنة ست وستين ومائة أمر المهدي باقامة البريد بين مكة والمدينة ، فخصصت لذلك بغال وأبل ، ولم يكن هناك بريد من قبل[2] .

المستضيء بالله العباسي يأمر بعمارة الأميال الخضر بالمسعى :

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين المستضيء بالله بعمارة الأميال الخضر بالمسعى المعظم[3] .

المظفر كوكبري ينشيء الاعلام الثلاثة بعرفة :

وفي سنة خمس وستمائة في شهر شعبان ، انشئت الاعلام الثلاثة التي هي بين منتهى أرض عرفة ووادي عرنة ، أمر بانشائها المظفر كوكبري بن علي بكتكين صاحب اربل[4] .

اغلاق أبواب المسجد الحرام باستثناء أربعة أبواب :

في سنة ثلاثين وثمانمائة وصل مرسوم صحبة الحاج يتضمن منع الباعة من بسط البضائع أيام الموسم في المسجد الحرام ومن ضرب الخيام في المسجد على مساطب وأمامها ، وأن يترك المنبر الذي يُخْطَبُ عليه يوم الجمعة في مكانه مساماتاً لمقام ابراهيم ، ومقام الشافعي ، وأن لا يُجرَّ الى جانب الكعبة لأنَّ عند جَرِّه على عجلات يزعج الكعبة اذا أسند اليها ، وأن يخطب الخطيب عليه هناك ، وأن تُسَدَّ أبواب المسجد بعد انقضاء الموسم إلا أربعة أبواب هي باب السلام وباب العمرة وباب ابراهيم وباب الصفا ، وأن تُسَدَّ الأبوابِ الشارعة من البيوت الى سطح المسجد فامتثل جميع ذلك ، ولم يعرف قَطُّ أن أبواب المسجد غُلِّقَتْ إلا في هذه الحادثة ، وصعب عليهم بُعْدُ الأبواب فروجع السلطان في ذلك فأمر بفتح باب الزيادة ، وباب الجنائز ، وقد نظم الشاعر شهاب الدين أحمد بن سعد بن أحمد الحنفي قصيدة يخاطب فيها

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١١٤/ ١١٥ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١١٥ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١١٦ .
(٤) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١١٦ .

أهل مصر في غلق أبواب المسجد ، ومنبر الخطيب ، وعزل القاضي ، يقول فيها :

يا أهل مصر يا كرام الورى ... ما بالكم جئتم بأمر عجيب
أغلقتم الأبواب عن طائف ... وعن مُصَلٍّ داخلٍ من قريب
ومنبر الخطبة أضحى إذاً ... من فرقة البيت حزيناً كئيب
ومنصب الشرع الشريف الذي ... شيبتموه قبل وقت المشيب
فبالذي شرَّفكم دائما ... بخدمة البيت وقبر الحبيب
مُنّوا على سكان أم القرى ... بَعوْد قاضيهم وقُرْب الخطيب
وفَتِّحوا الأبواب التي غُلِّقَتْ ... حتى يرى ما كان ضَنْكاً رحيب
فضلا فقد أصبح جيرانها ... في حيرة عظمى وأمر عصيب

ثم جاء في الموسم مرسوم صحبة الركب المصري أن تفتح الأبواب كلها ويعزل البوابون القدماء ، وكانوا قضاة وفقهاء ، ويولّى على أبواب الحرم بوابون يتفرَّغون لهذه الحرفة ، ويحرصون على نظافة الأبواب وما حولها ، ويمنعون دخول ما يَضُرُّ المصلين ويلازمون الأبواب ليلاً ونهاراً ، ورُتِّبَتْ لهم الرواتب على هذه الخدمة(١) .

أول قاض يرد الى مكة من الروم :

كان قضاة مكة يعينون من علماء مكة ، وفي سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة عيَّنت الحكومة العثمانية قاضياً من الروم وأرسلته الى مكة ، وهو أول قاض يرد من الروم(٢) .

ترك القمائم أمام البيوت جزاؤها الضرب على الأقدام :

وفي صبح يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة ظننا سنة خمس عشرة وتسعمائة ، شق الأمير ـ خير بك المعمار ـ المسعى وغيره ، ونادى بشيل القمائم من أمام البيوت ، ثم مرَّ على بيت الزمزمي ، فرأى أمام بيتهم بعض شيء من ذلك ، فسأل عن أصحابه فحضر اليه ثابت بن حسن الزمزمي فوشحه بعصا ، ثم أمر به فوضع في الأرض فضربه تحت رجليه ، ثم مرَّ على رباط السيد حسن عجلان ، فرأى شيئاً تحت جانبه مما يلي زقاق الحمام ، فنادى شيخ الرباط ، فحضر اليه شيخه وهو أحمد الفقيه بن عبدالمعطي بن حسَّان فوضع الآخر وضربه تحت رجليه ، ثم مرَّ على أوقاف الجمالي ناظر الخاص ، فرأى شيئاً من ذلك ، فسأل عن المتكلم على ذلك ، فقيل محمد زمان ، فحضر فضربه على رجليه ضرباً كثيرا ، وطيف به البلاد ، فلما رأى الناس منه ذلك بادروا بشيل ما تحت بيوتهم ، نقلاً عن بلوغ القرى(٣) .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١٢٥/١٢٩ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١٤٧ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٣ ص ١٥٢/١٥٣ .

الشريف سرور يبني بيتاً في عرفة :

وفي سنة ألف ومائتين أرسل الشريف سرور ستين من المعلمين غير أتباعهم الى عرفة ليبنوا له بيتاً ، ولم يسبق لغيره بناء بيت في عرفة ، نقلاً عن خلاصة الكلام(١) .

دار الامارة بسوق الليل :

وفي الرحلة الحجازية للبتنوني : أن دار الامارة في سوق الليل قد بناها والي مصر محمد علي باشا سنة ١٢٢٨ لتكون دار الحكومة الحجازية ، ولما ترك ولايتها جعلت مقراً لامارة مكة الى الآن(٢) .

أقول : أدركت دار الامارة في الخمسينات من القرن الماضي ، وهي مقر لدائرة الأمير فيصل بن عبدالعزيز ـ الملك فيما بعد ـ الذي كان نائباً لوالده الملك عبدالعزيز في الحجاز ، وهي مكونة من عدة بيوت متلاصقة وتقع في محلة الغزة ، وقد هدمت فيما بعد .

عمارة قلعة أجياد :

كنت ذكرت في الجزء الثالث من أعلام الحجاز ان الوالي عثمان نوري باشا عمَّر قلعة أجياد ، وقد وجدت في افادة الأنام تفصيلا عن بناء هذه القلعة وما حدث لها من تعمير أورده فيما يلي :

في سنة ألف ومائة وستة وتسعين شرع مولانا الشريف سرور في عمارة القلعة التي في أجياد بعد أن اشترى ما حولها من البيوت ، وأنفق في عمارتها مالاً كثيراً ، ثم نقض بعد سنتين كثيراً من بنائها وأعاده على أحسن اتقان .

وقد جَنَّدَ الشريف غالب جميع العمال والمعلمين الذين في مكة وجدة والطائف واشترى بيوتاً كثيرة وخاصة في شعب عامر وهدمها ليستعمل أحجارها ، وتم هدم هذه البيوت بالتفجير ، فهدمت في أيام قلائل وتحولت الى أكوام ، فانطلق المنادي في شوارع البلاد على جميع الحاضر والباد ، حتى العبيد والعساكر ، والأكابر ، والصغار وأرباب الحرف ، وكلفهم الحضور ونقلِ هذا الدمار ، ومن لم يكن له استطاعة بالمشاركة الشخصية فعليه ارسال أتباعه ، وعيَّن للعاملين أجرة للعمل ، وقد بلغت الأجرة اليومية ألفي قرش ، نقلاً عن خلاصة الكلام ، وكتاب أشراف مكة وامراؤها(٣) .

الشريف غالب يبني الأبراج التي بأطراف مكة وقلعة لعلع :

وفي سنة ألف ومائتين وخمسة عشرة بنى الشريف غالب بن مساعد الأبراج التي بأطراف مكة ، والقلعة التي على جبل لعلع المطل على العبادي ، ذكر ذلك السيد دحلان في خلاصة الكلام .

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢١٢ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢١٥ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢١٣/٢١٤ .

وفي السابع والعشرين من رجب سنة ألف ومائتين وواحد وعشرين أمر مولانا الشريف غالب أن يبنى له حصن على رأس الجبل المسمى بجبل الهندي ، وتم بناؤه في عاشر رمضان ، فحصَّنه بالرجال والذخائر .

أقول : ويبدو أن هذه القلعة تعرضت للخراب فقام بتعميرها وتوسيعها وأحكم عمارتها وأتقنها والي الحجاز عثمان نوري باشا في سنة ألف وثلاثمائة كما جاء في سالنامة الرحلات(١) .

السلطان عبدالحميد يبني قشلة جرول :

وفي سنة ١٣١٨ بنى قشلة جرول السلطان عبدالحميد واحتفل بافتتاحها في الخامس عشر من ذي الحجة من العام المذكور ، وكان السلطان عبدالحميد أمر ببنائها من ماله الخاص لتكون نزلاً لفقراء الحجاج ، وقد حضر حفلة الافتتاح ابراهيم رفعت باشا مؤلف كتاب مرآة الحرمين ، ووصف المبنى وصفاً جيداً ، ثم علق على ذلك فقال :

وأعجب لهذا السراي التي بها ناظر ، وخدم ، وطباخون ، يأخذون مرتبهم من ثلاث سنين خلت ، في حين أنه لا توجد حجرة من حجراتها مفروشة ولا يوجد بها فقير واحد ، وقد بلغني أن جلالة السلطان أنفق على اقامتها تسعين ألف جنيه مجيدي . انتهى(٢) .

الثلج يحمل الى المهدي من العراق الى مكة :

حجَّ الخليفة العباسي الثالث أبو عبدالله ولد المنصور الملقب بالمهدي ، وحمل له الأمير محمد بن سليمان الثلج حتى وافى به مكة ، وهذا شيء لم يتم لأحد قبله ، وقسَّم المهدي في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة ، وهي ثلاثون ألف درهم ، وصل معه بها من العراق ، وثلاثمائة ألف دينار وصلت اليه من مصر ، ومائتا ألف دينار وصلت اليه من اليمن ، ومائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب ، فرَّق جميع ذلك على أهل الحرمين ، ذكره ابن فهد(٣) .

أقول : ذكرت في الجزء الثالث من أعلام الحجاز أن الثلج حمل الى الرشيد بمكة نقلاً عن تاريخ مكة للسباعي ، وأود أن أذكر هنا أن المهدي العباسي هو والد الرشيد فاذا صح أنه نقل اليه الثلج بمكة ، فيكون أول من نقل اليه الثلج من العراق الى مكة .

جميلة بنت ناصر وأعمالها في الحج :

وفي سنة ثلاثمائة وست وستين حجت جميلة بنت ناصر الدولة التي يضرب بها المثل في أفعال البِر .

كان معها أربعمائة محمل على لون واحد ، ولم يعلم هي في أي محمل ، ولما رأت البيت الحرام نثرت عليه عشرة آلاف دينار ، وكست المجاورين بالحرمين وأنفقت أموالاً عظيمة ـ

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢١٤/٢١٥ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢٢١/١٢٤ .
(٣) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٢٨٠/٢٨١ .

والذي أنفقته في حجها ألف ألف وخمسمائة ألف دينار من ضرب أبيها وزوجها وزوجت كل علوي وعلوية بالحرمين ، وسقت أهل عرفة كلهم السويق ، والسكر والثلج حملته معها ، وحملت معها البقول مزروعة في مراكن الخشب وأعدت للفقراء خمسمائة بعير تحملهم عليها في الطريق .

ولم توقد في الحرم مدة اقامتها إلا بشمع العنبر .

وأعتقت بمكة ثلاثمائة عبد ومائتي جارية ، وأغنت جميع الفقراء المجاورين .

كذا في تاريخ السنجاري ، وتحصيل المرام ، وفي الأتحاف .

وكان معها عشرة آلاف جمل وألف عجل[١] .

الأمير عثمان الزنجبيلي يحمل الحجاج بين عرفة والمزدلفة :

وفي سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وصل مكة صاحب عدن الأمير عثمان الزنجبيلي ، وفي الثامن من ذي الحجة بكّر الناس بالصعود الى منى ، وغدوا فيها الى عرفة وتركوا المبيت بها لخوف الأعراب المغيرين على الحجاج في طريقهم الى عرفات ، واجتهد الأمير عثمان الزنجبيلي في حفظ الحاج اجتهاداً بل جهاداً يرجى لديه المغفرة لجميع خطاياه .

وذلك أن تقدم جميع أصحابه شاكين السلاح الى المضيق الذي بين مزدلفة وعرفات فضرب قبته في المضيق بين الجبلين ، بعد أن قدم أحد أصحابه فصعد بفرسه الى رأس الجبل الذي على يسار المار الى عرفات فأمرَّ جميع الحاج ، واتصل صعود الناس ذلك اليوم كله ، كلها الى يوم الجمعة كله ، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصي عدده إلا الله عز وجل[٢] .

السلطان غياث الدين ملك بنقالة يرسل أموالاً لبناء مدرسةٍ ورباط بالمدينة :

في ذكر ما أرسله السلطان غياث الدين ملك بنقالة الى مكة ذكر الغازي عن صدقته للمدينة المنورة مايلي :

وكان السلطان غياث الدين أرسل مع ياقوت الغياثي خادماً يسمى حاجي اقبال أرسله بصدقة أخرى عنده لأهل المدينة المنورة ، وجهّز مالاً ليبني له بها مدرسة ورباطاً ، وهدية الى أمير المدينة يومئذ جماز الحسيني ، فانكسرت السفينة التي فيها هذه الأموال وغيرها بقرب جدة فأخذ الشريف حسن بن عجلان ربع ما خرج من البحر على عادتهم اذا انكسرت سفينة عندهم ، وأخذ ما يتعلق بالسيد جماز الحسيني لأنه عصى ، وظهرت منه شنايع بالمدينة المنورة ، من أخذ مفتاح خزانة النبي صلى الله عليه وسلم من قاضي المدينة جبراً بعد أن أهانه ، وهو القاضي زين الدين أبوبكر بن حسين المراغي ، وضرب شيخ الخدام ، وأخذ من خزانة النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر خوشخانة وصندوقين كبيرين ، وصندوقاً صغيراً كلها ممهورة فيها ذهب لملوك العراق ، وخمسة آلاف كفن ، وصادر الخُدّام ، وأخذ

---

(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٣١٢/٣١٣ .

(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٣١٥/٣١٦ .

قناديل الذهب من الحجرة ، فمنعه الله ، ونهب العربان ما جمعه ومات .

فأرسل الشريف حسن بن عجلان الى المدينة الشريفة عسكراً وصلوا اليها وولى عليها عجلان بن نمير الحسيني ، وكل ذلك سنة أحد عشر وثمانمائة . انتهى[1].

وزير السلطان مراد يمزج الماء بالسكر والعسل ويسقي الحجيج :

وفي سنة خمسين وثمانمائة حج وزير من وزراء السلطان مراد الثاني وجاء بصدقات جليلة وخيرات وافرة لأهل الحرمين الشريفين ، ورمى في بركة قُبَّة العباس بالحرم الشريف ثلاثمائة وستين رأس سكر وعدة قناطير من العسل وسقى الناس ، وملأ القرب ، وخرج بها الساقون الى المسعى يسقون الناس ، وصرف على الحجاج وأهل الحرمين أموالاً جزيلة . كذا في الاعلام[2].

أول مكوس فرضت على جدة :

وفي سنة ثمانمائة وثمان وعشرين عين سلطان مصر سعد الدين بن ابراهيم بن المرة القطبي لأخذ مكوس جدة وهو أول مكس أخذ من جدة ، واستمر من يومئذ عمال الى الآن ببندر جدة .

أقول : كان السلطان بمصر هو الأشرف سيف الدين أبوالنصر برسباي الظاهري[3].

الجودرية اسم حارة بالقاهرة :

ذكر ابن اياس في بدائع الزهور أن السلطان برسباي أمر بكبس حارة الجودرية ، وكان مختفياً بها أحد المتصوفة الذين يطلبهم السلطان ، فكبست الحارة وأخليت وبقيت خالية مدة طويلة[4].

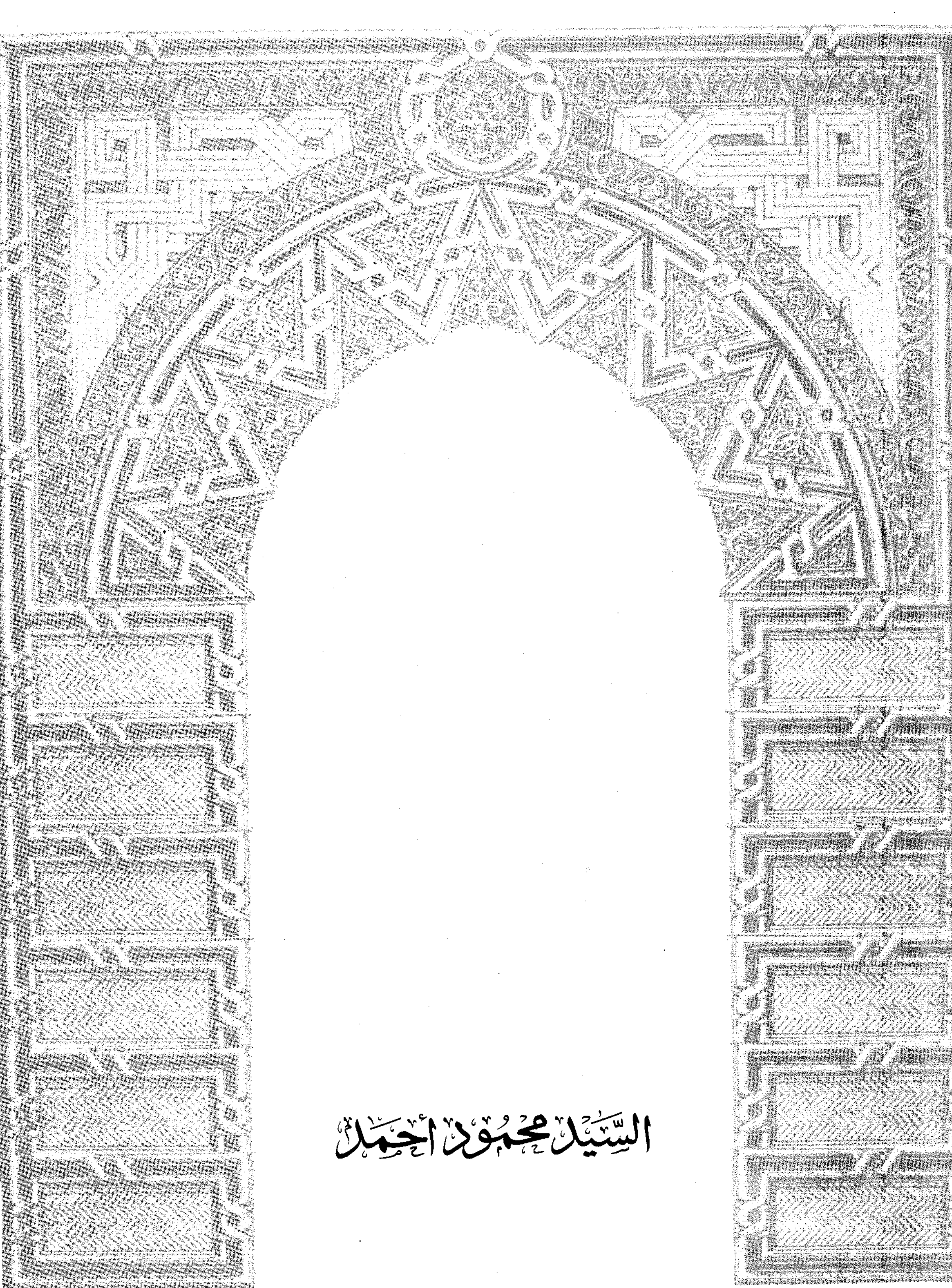
وفاة الشيخ عبدالله غازي :

توفي الشيخ عبدالله الغازي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وخمسين ، تغمده الله برحماته الواسعة[5].

ونختم الحديث عن كتاب افادة الأنام راجين لمؤلفه الشيخ عبدالله غازي الرحمة والغفران ، متمنياً أن تهتم جامعاتنا العزيزة بنشر مؤلفه الموسوعي الكبير وتحقيقه قريباً بإذن الله .



(١) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٣٣٣/٣٣٥ .
(٢) افادة الأنام مجلد ٣ ص ٣٣٦/٣٣٧ .
(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦ .
(٤) بدائع الزهور ص ١٠٥ .
(٥) سيرة وتراجم ص ٢٠٢ .



السيد محمود أحمد



السيد محمود أحمد

السَّيِّد محمُود أحمَد

أسمر اللون واسع العينين أقنى الأنف متوسط القامة ، أقرب الى النحافة منه الى الامتلاء ، تزين وجهه لحية سوداء تشمل الشارب والعارضين ، يرتدي العباءة ويسدل على رأسه شالاً أبيض بدون عقال ، وهو الزي الذي يتميز به رجال الدين والقضاة .

ولد السيد محمود أحمد سنة ١٣٠٨هـ بالهند وقدم مع والده الى المدينة وهو في الثامنة من العمر ، وتعلم بالمدرسة الاعدادية بالمدينة في العهد العثماني ، وتخرج منها سنة ١٣٢٥هـ ، وتابع دراسته في المسجد النبوي الشريف في حلقات الدروس على العلماء الذين كانت تملأ حلقاتهم رحاب المسجد الشريف .

وظائفه :

عمل كاتباً بالمحكمة الشرعية بالمدينة المنورة في العهد العثماني ، وفي العهد الهاشمي رُقِّي بأمر ملكي الى وظيفة رئيس الكتاب فيها .

ثم عين قاضيا بمدينة جدة عام ١٣٤٩هـ ولكن صحته توعكت فاستقال من وظيفة القضاء وعاد الى المدينة المنورة بعد عامين قضاهما في جدة .

وبعد عوته الى المدينة عين كاتباً للعدل بالمدينة المنورة ، وفي عام ١٣٦٤ عين عضواً في رئاسة القضاة بأمر ملكي .

ثم عين عضواً في المجلس الاداري وترأس مجلس الاوقاف بالمدينة المنورة ، كما ترأس المجلس البلدي بها[١] .

التجارة والتطوير :

المدينة المنورة كما هو معروف بلد زراعي ، تقوم حياة سكانه على الزراعة ، وعلى استقبال

---

(١) مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة ص ١٣/ ١٤ .

الوافدين اليه لزيارة المسجد النبوي الشريف ، والسلام على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

وكانت الزراعة في المدينة المنورة تعتمد على الوسائل القديمة في ري المزروعات حيث تستخدم الحيوانات في سحب المياه من الآبار لري الزرع ، وشاهد الشاب السيد محمود ذلك ، ولكنه كان الى جانب عمله في المحاكم الشرعية وفي دوائر القضاة متفتح الذهن راغباً في ادخال التطوير المفيد ، وكان قد تعلم اللغة الانجليزية وكاتب بعض المصانع في انجلترا بحكم عمله التجاري الذي بدأه فقام باستيراد طلبات سحب المياه المزودة بمكائن رستن ، وجرى تركيب أولى المكائن في المدينة المنورة فأحدث هذا العمل ثورة في طرق الري التي كانت مستخدمة ، واتجه القادرون من أصحاب البساتين والزراع الى استخدام هذه الآلات في ري مزارعهم ، فكانت نقلة عظيمة في الري ، استخدمت فيها الآلة بدلا من الحيوان .

وكان السيد محمود أحمد هو رائد هذا العمل العظيم في المدينة المنورة .

ولم يكتف محمود أحمد بهذا ، ولكنه وقد رأى ما تفعله الآلة استورد أول آلة لطحن الحبوب ، بعد أن كانت المطاحن تدار كذلك بالحيوانات فحلّت الآلة محلها ، وكان هذا تطوراً آخر أدخله محمود أحمد على حياة المدينة المنورة .

والصيف في المدينة المنورة شديد الحرارة تصل الحرارة فيه الى أعلى الدرجات فتتجاوز الأربعين درجة في الظهر والأصيل ، وهي في أشد الحاجة الى الوسائل التي تخفف هذه الحرارة على الناس ، واستورد السيد محمود أحمد أول مصنع للثلج في المدينة المنورة ، فكان بحق رائداً من الرواد أدخل الآلات في حياة الناس فاستغنوا بها عن استعمال الحيوانات ، وادخل الرفاهية الضرورية بايجاد الثلج ميسورا في المدينة المنورة يقبل الناس علـــى شرائه واستعماله لمقاومة الحرارة الشديدة في الصيف .

قد يقول البعض ، ولكنه بادخاله هذه الآلات في المدينة المنورة ربح ربحاً عظيماً وجوابي على ذلك ، ان الربح حلال طيب ، وان هذا لا يطعن في ريادته في هذا المجال .

وقد يتمحك المتمحكون وما أكثرهم فيقولون انه احتكر استيراد هذه الآلات وتحكم في أسعارها .

وجوابي على هذا ان المصانع التي تنتج الآلات سواء لتوليد الكهرباء أو لرفع المياه أو لادارة المطاحن ، أو لصنع الثلوج تعد بالمئات ان لم تكن بالآلاف فلماذا لم يتقدم غيره للبحث عن هذه المصانع ويستورد منها كما استورد محمود أحمد ويثري كما أثرى ؟

وهنا يظهر الفارق بين العامل المُجِد ، وغيره من الناس .

وبعد هذه المقدمة التي رأيتها ضرورية بين يدي البحث أصل الى السبب الأعظم الذي دفعني للكتابة عن محمود أحمد ووضعه بين أعلام الرجال الذين أكتب عنهم وأترجم لهم في هذا الكتاب وما سبقه من أجزاء .

لمحمود أحمد مكرمة صنعها وأخفاها عن الناس ويأبى الله تعالى إلا أن يظهرها فالعمل الطيب كالعطر الزكي الرائحة لابد أن ينِمَّ عن نفسه ، فتظهر آثاره ويشتمُّه الناس عطراً شذيا .

في عام ١٣٦٩ كان السيد محمود أحمد يتولى رئاسة مجلس الأوقاف في المدينة ورأى أن المكائن الكهربائية التي تضيء المسجد النبوي الشريف في حاجة الى تقوية فاستأذن الملك عبدالعزيز يرحمه الله أن يسمح له باستيراد مكينة كهرباء لتقوية الاضاءة ، وبعد حصوله على الاذن الملكي استورد على حسابه مكينة كهربائية بقوة مائتي كيلووات ، مع كافة مستلزماتها من تمديدات وكوابل ، واستورد معها مائتي مروحة هوائية ومصابيح الفلوراسنت ، وتم تركيب هذه المكنة ، كما تم تركيب المراوح والمصابيح الفلوراسنت لتقوية الاضاءة بالمسجد النبوي الشريف .

وقد أخبرني من أثق بروايته أن السيد محمود أحمد كتم هذا العمل عن الناس فلم يعلن عنه في الصحف ، ولم ينشر خبره بين الناس ، وانما بقي مكتوماً في دائرة ضيقة بين السيد محمود وموظفي الأوقاف الذين تسلموا المكينة الكهربائية والمراوح والمصابيح عمل هذا ابتغاء مرضات الله تعالى ، ورغبة فيما عنده ، وتعبيراً عن حبه العظيم للرسول صلوات الله وسلامه عليه وتعلقاً بمسجده الشريف ، وقد رأيت بهذه المناسبة أن نستكمل الحديث عن اضاءة المسجد النبوي الشريف بالكهرباء فأقول :

اضاءة المسجد النبوي بالكهرباء :

في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ذكرت عن انارة المسجد النبوي الشريف بالكهرباء مايلي :

كانت الاضاءة في المسجد النبوي تعتمد على قناديل الزيت التي لا تزال بقاياها معلقة في العوارض الحديدية بين أعمدة المسجد ، كما كانت الشموع توقد في المسجد للاضاءة الى جانب القناديل .

وأول من أضاء المسجد النبوي الشريف بالكهرباء هو السلطان عبدالمجيد الثاني العثماني الذي بعث مكينة كهربائية لاضاءة المسجد ، وكان بدء الانارة فيه بالكهرباء يوم ٢٥ شعبان ١٣٢٦ للهجرة ، وهو يوم الاحتفال بافتتاح سكة حديد الحجاز بالمدينة المنورة[1] .

ويقول السيد حبيب محمود أحمد رئيس مجلس الأوقاف الأعلى بالمدينة المنورة عن هذه المكينة أنها كانت من مصنع رستن الانجليزية وانها كانت تدار بغاز الفحم ، وقد وردت هذه المكينة مع كافة اللوازم للاضاءة ، وانه تم بناء محطة توليد الكهرباء شمال المسجد الشريف في المنطقة المعروفة بدار الضيافة ، وبعد إكمال التمديدات والتجهيزات أضيء المسجد النبوي

---

(١) اعلام الحجاز ٢ ص ٢٠٥ .

الشريف بالتيار الكهربائي لأول مرة ، ثم ألحق السلطان ذلك بمحرك آخر من مصنع تانجي الانجليزي ، وكان المحركان يتناوبان على العمل[١] .

وذكرنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز :

ان الحاج الشاوي الجزائري ـ ويسميه السيد حبيب أحمد ـ ابشاري الجزائري ، أهدى للمسجد النبوي الشريف مكينة جديدة لاضاءته بعد أن ظلت المكائن المرسلة من السلطان العثمانية تعمل أكثر من ربع قرن وتم وصول المكينة المهداة من الحاج ابشاري أو الشاوي سنة ١٣٥٣ للهجرة[٢] .

وكذلك أهدى الوزير المصري الأسبق أحمد حمزه مكينة كهربائية رائعة للمسجد النبوي الشريف بعد وصول المكينة التي أهداها الحاج الجزائري ، فيكون مجموع المكائن الكهربائية الى ذلك الوقت أربع مكائن كهربائية[٣] .

وفي عام ١٣٦٩ هـ أهدى السيد محمود أحمد المكينة الكهربائية التي قدمنا الحديث عنها ،وفي عام ١٣٧٤هـ قامت الدولة بانشاء محطة خاصة لاضاءة المسجد النبوي الشريف ضمن مشروع التوسعة الاولى للمسجد النبوي الشريف ، والتي كانت نواة لتأسيس شركة كهرباء المدينة المنورة[٤] .

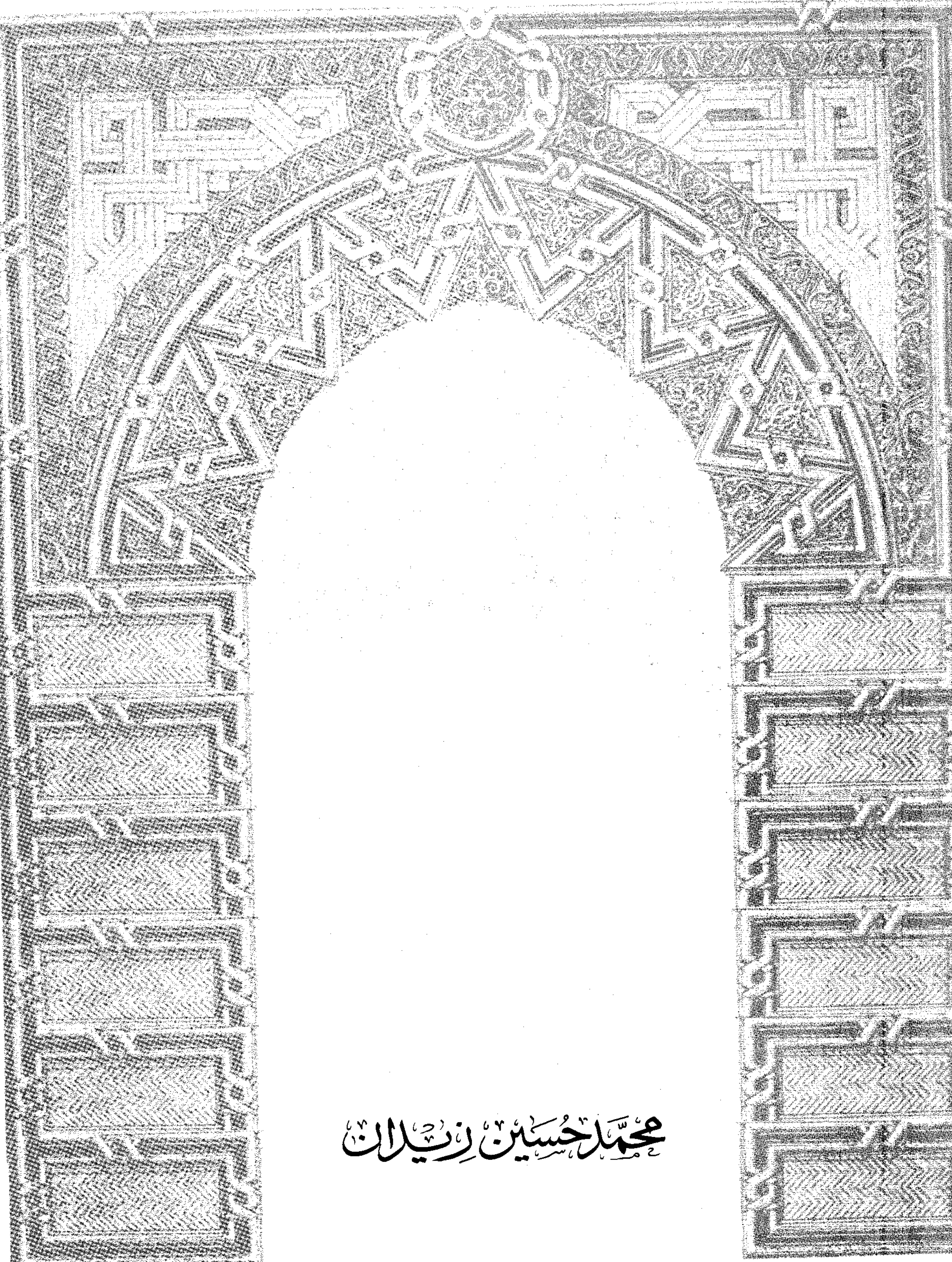
وبهذا الايضاح التفصيلي نكون قد استكملنا ايراد ما يتعلق باضاءة المسجد النبوي الشريف بدءاً من سنة ١٣٢٦هـ الى انشاء المحطة الكهربائية الخاصة به من قبل الحكومة السعودية سنة ١٣٧٤هـ ، ثم تأسيس شركة كهرباء المدينة المنورة .

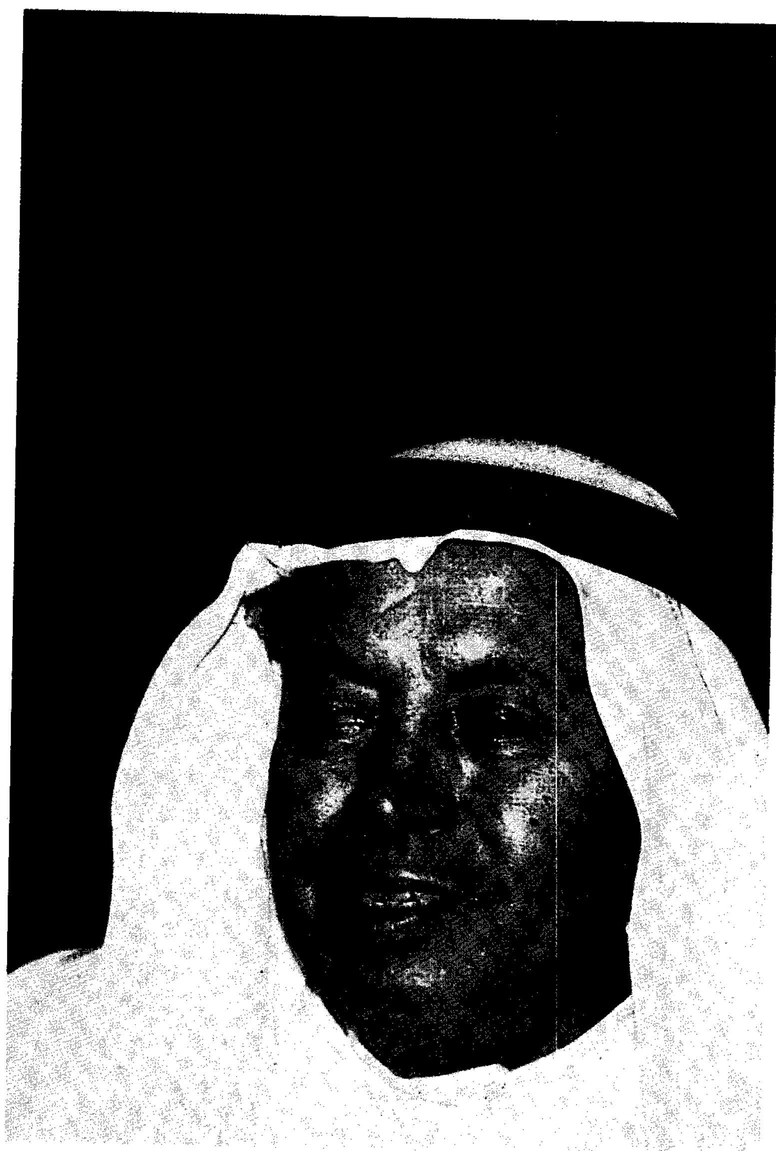
وفاة السيد محمود أحمد :

مرض السيد محمود أحمد مرضاً طويلاً ، وقاوم كل المحاولات التي بذلت معه للعلاج في خارج المدينة الى أن وافاه الأجل المحتوم في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٩٢ هـ ، ودفن بها كما كان يتمنى رحمه الله رحمة واسعة ، انه سميع مجيب .



(١) من رسالة خاصة من السيد حبيب محمود احمد الى المؤلف .
(٢) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) رسالة خاصة من السيد حبيب محمود أحمد الى المؤلف .
(٤) رسالة خاصة من السيد حبيب محمود أحمد للمؤلف .


محمد حسين زيدان



محمد حسين زيدان

محمّد حسين زيدان

أصفر اللون ، متوسط القامة ، واسع العينين ، حليق اللحية والعارضين ، كان نحيف البدن في شبابه فلما علت به السن صار أقرب الى الامتلاء ، وفي السنوات الأخيرة من عمره عشي بصره فكان يرى الأشباح ولكنه لا يميز التفاصيل ، ولكن مرض عينه لم يقعده عن الحركة والعمل ، فكان يملي ما يريد أن يكتب ، ويزور من يحب زيارته وكان يرافقه غالباً صديق عمره السيد يسن طه ، مدَّ الله في حياته .

ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٥ للهجرة ، وتلقى تعليمه في الكُتَّاب مثل أبناء جيله في ذلك الزمن ، والتحق بالمدرسة الراقية الهاشمية وتخرج منها سنة ١٣٤٣ هـ كما درس على المشايخ في حلقات المسجد النبوي الشريف ، وعمل بالتدريس في المدرسة السعودية بالمدينة مدرساً للمواد الدينية والتاريخ سنة ١٣٤٦ هـ ، ثم قام بتدريس العقيدة السلفية في دار الأيتام بالمدينة المنورة ، ثم عين مديراً مساعداً لها واستمر عمله بالتدريس الى سنة ١٣٥٨ هـ .

وانتقل الزيدان من المدينة المنورة الى مكة المكرمة سكرتيراً لشيخ مشايخ الجاوه الشيخ / حامد عبدالمنان في النصف الثاني من الخمسينات ولعل ذلك كان سنة ١٣٥٨ هجرية[١] .

ثم انتقل الى العمل الحكومي عام ١٣٥٨هـ ، فعين سكرتيراً للمجلس المالي بوزارة المالية ، فرئيساً للقسم الحسابي ، ثم رئيساً للمحاسبة .

ثم عين مديراً عاماً مساعداً لمديرية الحج بمكة ، وانتقل بعدها مديراً لمالية مكة ، ثم مديراً عاماً لشئون الرياض ، ثم مفتشاً عاماً للحج .

وترك العمل الحكومي في سنة ١٣٧٤ ليتفرغ للعمل الصحفي فشغل منصب مدير تحرير جريدة البلاد ، ثم رئيساً لتحريرها ، كما ترأس بعدها تحرير جريدة الندوة وكان خلال رئاسته لتحرير الصحيفتين وبعدها كاتباً بارزاً في الصحف ، وفي صحف المنطقة الغربية خاصة .

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٥ .

كان الزيدان يرحمه الله صاحب ثقافة موسوعية ، وكان فصيح اللسان قوي الجنان خطيباً مفوهاً ، اذا اعتلى المنبر ارتجل فأسمع وأبدع ، وحينها بث الاذاعة ثم التلفزة براجمها كان هو أحد فرسان الكلمة ، بل كان من أحب المتحدثين الى السامعين والمشاهدين ، واني لأذكر برنامجه الناجح في سير الصحابة الذي كان يبثه التلفاز في شهور رمضان لسنوات مضت ، ثم توقف مع انه كان من أنجح البرامج التلفزيونية وأحبها الى الناس .

وقد جمع الزيدان يرحمه الله أحاديثه في هذا البرنامج وأضاف اليها ما يماثلها ونشرها في كتاب سماه « سيرة بطل » وحينها تأسست رابطة العالم الاسلامي عمل الزيدان مساعداً لأمين عام الرابطة .

وحينها انشئت دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عين عضواً في مجلس ادارة الدارة ، وكان لمكانته الثقافية أكبر الأثر في اختياره لهذا المنصب .

ثم عين رئيساً لتحرير مجلة الدارة ، وهي مجلة تعني بالآثار التاريخية للمملكة سياسية وثقافية وعمرانية ، وكان الزيدان يرحمه الله يمثل مجلة الدارة في الندوات العلمية والمؤتمرات(١) أصدر الزيدان ثمانية عشر كتاباً نورد أسماءها فيما يلي :

مؤلفات الزيدان :

- سيرة بطل .
- أشياخ ومقالات .
- تمر وجمر .
- محاضرات في الثقافة .
- بنو هلال .
- عبدالعزيز والكيان الكبير .
- المنهج المثالي لكتابة التاريخ .
- صور .
- كلمة ونصف .
- خواطر مجنحة .
- قضايا ومقالات في الشرق الأوسط .
- العرب بين الارهاص والمعجزة .
- رحلات الأوربيين الى نجد وشبه الجزيرة العربية .
- ذكريات .
- فواتح مجلة الدارة .
- مع الأيام .

(١) استقيت هذه المعلومات من رسالة ابنه الاستاذ حسين محمد زيدان بتاريخ ١٤١٤/٢/٧هـ .

ـ المقالات .

مخلاة الكاتب كشكول القارىء ، وقد صدر منه الجزء الأول والثاني ، وهناك خمسة أجزاء معدة للطبع كما ذكر لي نجله الكريم الاستاذ/ حسين زيدان .

ذكرياتي عن الزيدان :

عرفت الاستاذ/ محمد حسين زيدان أول ما عرفته كاتباً في الصحف يتميز باسلوب فريد ، فقد كان أحد كتاب جريدة المدينة المنورة حين صدورها فى ٢٥ محرم سنة ١٣٥٦هـ بل كان أحد أفراد هيئة التحرير ، كما ذكر الاستاذ عثمان حافظ(١) .

كما أنه كان يرسل مقالاته الى جريدة صوت الحجاز في مكة المكرمة .

وعرفته كذلك من رسائله التي كان يبعث بها الى الشيخ محمد سرور الصبان الذي كان يتلقى الرسائل من الناس على مختلف طبقاتهم ، حينما كنت أعمل سكرتيراً خاصاً له منذ نهايةب عام ١٣٥٥هـ في مكة .

وحينما وصل الزيدان الى مكة سنة ١٣٥٨هـ للعمل في مكتب الشيخ حامد عبدالمنان شيخ مشايخ الجاوه اذ ذاك كان يسكن في بيت الشيخ حامد عبدالمنان في سوق الليل ، وكان منزل الشيخ محمد سرور يرحمه الله على بعد خطوات من منزل الشيخ عبدالمنان .

وكان الزيدان يتردد على مكتب الشيخ / محمد سرور ، وكنت أرى الزيدان كثيراً في تلك الأيام .

كان قد ترك المدينة المنورة ، وله فيها ذكريات وصداقات ، ذكريات عزيزة وصداقات حميمة ، وكان يشعر بشيء من الوحشة أول مقدمه الى مكة ، وكان يتحدث عن المدينة والعواطف تتدفق في كلماته ، والشوق يتجلى في ذكرياته ، فكان يخرج معنا في الأصائل والأماسي الى ظاهر مكة في المسفلة وجرول ، وكنا مجموعة من الأدباء الشباب اتفقت مشاربهم ، وتشابهت آمالهم ، يتحدثون عما قرأوا ويزجون أوقات فراغهم في هذه المجالس التي تضمهم في المساء وصدر الليل .

وحينما حل الصيف كان الزيدان أحد أفراد هذه المجموعة التي تجتمع أصيل كل يوم في الطائف في قروة في سفح جبل السكارى ، وفي الفضاء الفسيح الممتد أمام الثكنة العسكرية هناك .

وحينما دعوته أول مرة الى بيتي في الطائف ، ورأى الجبل شامخاً وهو يجلس في الروشان قال لي ان هذا المنظر يذكرني بالمدينة وجبالها . .

ما أكثر ما كانت المدينة في قلب الزيدان وفي روحه يرحمه الله ، وكتابه ذكريات العهود الثلاثة من أمتع ما كتب عن المدينبة وسأتحدث عنه حينما نتحدث عن مؤلفاته يرحمه الله .

---

(١) تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١٦٢ .

كان يزورني ذات صباح في مكتب الشيخ محمد سرور الصبان بالقشاشية ، وكان له مكتب بها ، وكان هذا المكتب في مواجهة مدرسة الفلاح في مكة المكرمة .

وكان الحاج محمد على زينل مؤسس الفلاح يرحمه الله قد وصل الى مكة لزيارة المدرسة في ذلك الصباح ، وكنت أرغب في السلام عليه ، فاصطحبت الزيدان يرحمه الله وذهبنا الى مدرسة الفلاح ، كان الحاج محمد علي زينل يرحمه الله قد سبقنا الى الوصول الى المدرسة ، وكان وصحبه يجلسون في صالة الاستقبال ، وكلمات الترحيب تلقى أمامه من الطلبة والمدرسين ، وكان السيد محمد علوي مالكي يرحمه الله استاذاً بمدرسة الفلاح كما كان من قبل تلميذاً بها ، ووقف السيد علوي أمام مؤسس الفلاح وقفة التلميذ أمام الاستاذ ، فقد كان الجميع يقرون له بالفضل ، ويعدُّونه الأب الروحي لهم .

وقف السيد علوي مالكي أمام مؤسس الفلاح يلقي كلمة كلها الثناء والاعزاز والحب والتقدير .

وانتفض الزيدان يرحمه الله وكان الى جانبي واندفع يرتجل خطاباً يتساءل فيه ويوجه الخطاب الى مؤسس الفلاح وكأنه يقول له : من أنت الذي يقف هذا العالم الجليل بين يديك ليرتِّل لك آيات الثناء .

ورد الحاج محمد علي زينل بأدبه الجم وتواضعه الكبير على الزيدان يؤيده ويقول :

نعم من أنا حتى يقوم السيد علوي مالكي العالم الفاضل الجليل ليثني عليَّ وماذا أكون الى جانب علمه وفضله ، ودينه وتقواه . . . ؟

هكذا كان الزيدان اذا انفعل لا يملك زمام نفسه . . . ؟ وهكذا كانت ملكته الخطابية وقدرته على الارتجال تفسحان له مكاناً للخطابة والكلام . . . ؟

لم يكن الزيدان قد عرف مقدار الحب العظيم الذي كان يحظى به مؤسس الفلاح في مكة وجدة اللتين حظيتا بمدارسه العظيمة فيهما .

كان الزيدان مدنياً ـ مدني المولد والنشأة والهوى ـ ولم يكن الحاج محمد علي زينل معروفاً في المدينة بمقدار عرفان الناس له في مكة وجدة ، ولهذا فقد كان استغراب الزيدان ان يقف السيد محمد علوي مالكي « وكانت شهرته بالعلم والفضل تعم الحجاز كله » كان استغرابه عظيماً أن يقف هذا العالم الجليل وقفة التلميذ أمام مؤسس الفلاح وعلى أي حال فان الزيدان يرحمه الله أخذ من هذه الوقفة الدليل على عظمة مؤسس الفلاح ، واستحقاقه لما لقي ويلقى من حفاوة وتقدير .

محاضرات جمعية الاسعاف بمكة :

وعلى ذكر ملكة الزيدان الخطابية ، فقد كانت تعقد في جمعية الاسعاف بمكة المكرمة محاضرات أسبوعية يدعى اليها العلماء والأدباء والمؤرخون ليحاضروا فيها ، وكان يجتمع لسماع هذه المحاضرات جمع غفير وقد أصدرت جمعية الاسعاف ـ التي تحولت فيما بعد الى

جمعية الهلال الأحمر ـ أصدرت كتاباً ضم بعض المحاضرات التي ألقيت في الجمعية ، وكان من أبرز محاضريها السيد محمد شطا يرحمه الله ، وكان يتحدث في محاضراته عن قصص الأنبياء ، كما كان من أبرز المحاضرين الدكتور الفلسطيني حسني الطاهر ، وكان يعمل في مستشفى أجياد في مكة المكرمة ، ومن المحاضرين الذين تحدثوا في الجمعية السيد صالح شطا ، والشيخ أحمد ابراهيم الغزاوي وكانت محاضراته بعنوان « ما نحن أحوج اليه » وقد ألقى بها الأديب الجهير حمزة شحاته محاضرته الطويلة الرجولة عماد الخلق الفاضل والتي استمر في القائها حوالي الخمس ساعات وقد طبعت في كتاب خاص أصدرته شركة تهامة سنة ١٤٠١هـ ، وكان لي شرف القاء محاضرة فيها عن شعر الغزل والشعراء الغزلون قديما في الحجاز ، وقد بحثت عن هذه المحاضرة بين أوراقي فلم أجدها ، فلم أكن احتفظ بما أكتب وأنظم إلا في السنوات الأخيرة .

وقد ألقى الزيدان في جمعية الاسعاف محاضرة بعنوان رعاية الشباب ، وكان يرتجل الكلام ولا يستعين بأوراق مكتوبة ، كما يفعل الكثيرون من الخطباء ، وهي مقدرةٌ يعد الزيدان فيها واحداً من أفراد قلائل كانوا قادرين على الارتجال في ذلك الزمان .

ذكريات الزيدان :

كتاب الزيدان ذكريات العهود الثلاثة من أمتع ما كتبه الزيدان ، فقد امتد به العمر ليشهد العهد العثماني والعهد الهاشمي ثم العهد السعودي في الحجاز ، وقد اختزنت ذاكرته القوية أحداثاً كثيرة في هذه العهود مما رأى وسمع ، وأضاف الى ذلك رحلات عديدة ، وقراءات موسوعية كثيرة .

فسرد هذه الذكريات في مقالات نشرها في جريدة المدينة ، وربما في غيرها من الصحف ، ثم طبعها في كتاب ، وقد رأيت أن أشرك القراء في بعض هذه الذكريات الغنية بالمعلومات التاريخية والطرائف ، وان كنت أفضل أن يقرأها القراء بقلم الزيدان يرحمه الله .

والآن الى بعض هذه الذكريات .

المخزن :

يقول الاستاذ/ محمد حسين زيدان ان من الآثار التي تركها حكم محمد علي باشا رأس الاسرة الخديوية الحاكمة في مصر ، من الآثار التي تركها في المدينة ـ المقاس المعروف بالمخزن ـ أي تقسيم الأرض الى مخازن ، والمخزن هو ستة أمتار في سبعة أمتار ومجموعه اثنان وأربعون متراً ، وهذا المقاس يساوي واحد في المائة من مساحة الفدان[1] .

أقول : ان الأراضي تباع في جميع أنحاء المملكة بالمتر بينما ان البيع بالمخزن هو السائد في المدينة المنورة ، ولعل بقاء هذا الاصطلاح في المدينة يرجع الى طبيعة أرضها الزراعية فان حكم محمد علي باشا لم يقتصر على المدينة وحدها وانما عمَّ الحجاز كله .

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٣٠ .

الوظائف في عهد محمد علي باشا :

السباهية : يعني الخيالة .

القلعجية : يعني حماة القلعة .

النوباتشية : حماة الأبواب .

البيرقدارية : أصحاب البيرق ـ العلم والبنديرة أو الرايه .

باب عرب : وهو الذي ينتهي اليه أمر القبائل العربية اذا ما اختلفوا يحكمونه[١] .

باب المجيدي :

كان المحل الذي يسمى باب المجيدي في الوقت الحاضر هو وادي مشعط[٢] .

مدحت باشا أبو الدستور :

كان مدحت باشا يلقب في دولة الخلافة العثمانية بأبي الدستور ، فقد أصدر الدستور العثماني في أواخر سنة ١٢٩٣هـ الموافقة لسنة ١٨٧٦ ميلادية حينما تولى منصب الصدارة العظمى في الاستانة ، ولكن السلطان عبدالحميد عزله من منصبه وانتهى به الأمر الى أن نفي الى مدينة الطائف بالحجاز ، وبقي فيها بضع سنوات ، ثم قتل غدراً بأمر السلطان[٣] .

يقول الاستاذ/ محمد حسين زيدان : ان جثمان مدحت باشا دفن في الطائف أمام باب الريع ، وان مصطفى كمال أرسل وفداً الى الملك عبدالعزيز يرحمه الله لنبش القبر واستلام جثمانه والعودة به الى تركيا ، وان مكان القبر لم يعرفه الا محمد خوجه وكمال خوجه ، فقد دلا الوفد التركي على مكانه ، فنبشوا القبر وحملوا الرفات وعادوا بها الى تركيا[٤] .

محمد خوجة وكمال خوجة كانا من أصل تركستاني وكان لهما محل كبير للخياطة في محلة أجياد ، وقد توفيا الى رحمة الله تعالى ، ومن أبنائهم الآن الأطباء ورجال الأعمال ، والسفير السعودي حالياً في موسكو الاستاذ/ عبدالعزيز خوجه هو ابن أخيهما محيي الدين ، وكانا يصيِّفان بالطائف كل عام ، ولابد أنهما علما بموضع قبر مدحت باشا فدلا عليه .

عبدالحميد بدوي باشا :

كان عبدالحميد بدوي باشا القاضي المصري في محكمة العدل الدولية في لاهاي من أعظم رجال القانون في العالم ، حتى اختير لهذا المنصب الرفيع بعد أن تدرج في الوظائف القضائية الكبرى في مصر ، وكان أبوه محمد بدوي من محبي المدينة المنورة والمترددين عليها ، وقد تلقى

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٣) انظر تفصيل ذلك في الاعلام ج ٧ ص ١٩٥ .

(٤) ذكريات وعهود ص ٣١ .

عبدالحميد بدوي وهو طفل تعليمه التحضيري في المدينة المنورة ، يقول الاستاذ/ محمد حسين زيدان عنه ، قال الدكتور طه حسين وهو يقدمه حين اختياره عضواً في مجمع اللغة العربية في مصر :

لقد حَفَّتْه بركة المدينة حيث أول ما فكَّ الحرف فيها[1] .

الداودية :

نسبة الى داود باشا الوالي التركي الذي ثار على السلطان العثماني وأسس ملكاً في العراق ، وصك عملة في أحد وجهيها ـ ياداود انا جعلناك خليفة في الأرض ـ وقد انتصر السلطان على داود باشا وأسر ورحِّل الى المدينة المنورة ، فبستان الداودية خارج باب الشامي ، كان باسمه ، ويقول الاستاذ الزيدان : ولا أدري هل الداودية في مكة مثل الداودية بالمدينة أم هو داود آخر[2] .

أقول : الداودية في مكة ـ أو مدرسة الداودية بناها الملك المنصور عمر بن علي صاحب اليمن ـ بين مدرستي دار السلسلة وطاب الزمان ـ وكانت عمارتها في سنة ستمائة واحدى وأربعين ، وتعرف الآن بالداودية أوقفها الملك المنصور على الفقهاء الشافعية والمحدثين[3] .

الخديوي عباس يبتعث طلاباً من الحجاز الى مصر :

ذكر الاستاذ/ محمد حسين زيدان ان الخديوي عباس حينما حضر الى الحج سنة ١٣٢٨هـ ابتعث من مكة عبدالرؤوف الصبان للدراسة في مصر ، كما ابتعث من المدينة حسن ناصر بن دياب ناصر ، وقال الزيدان تعليقاً على ذلك : كان يقلد السلطان عبدالحميد ، يريد أن يجمع حوله رجالاً من هنا وهناك[4] .

أوائل المبتعثين من الحجاز :

أما أوائل المبتعثين من الحجاز فقد كانوا في أواسط العشرينات في عهد الدولة العثمانية ، أولهم جميل أحمد شقيق أحمد الفيض آبادي مؤسس مدرسة العلوم الشرعية بالمدينة ، وحسين طه وأحمد أبوبكر حمد الله ، ومحمد المغيربي وعبدالقادر عبدالجواد[5] .

طلب فصل المدينة عن مكة في العهد العثماني :

يقول الاستاذ/ محمد حسين زيدان ما ملخصه :

كانت المدينة المنورة تابعة لشريف مكة في العهد العثماني ، فلما وصل قطار السكة الحديدية

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص٣٣ .
(٢) ذكريات العهود الثلاثة ص ٣٣ .
(٣) انظر ترجمة الشيخ عبدالله الغازي في القسم الخاص بالمدارس في هذا الكتاب .
(٤) ذكريات العهود الثلاثة ص ٣٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٨ وانظر ترجمة محمد المغيربي في الجزء الثالث من أعلام الحجاز ص

بين الشام والمدينة ، أراد الاتحاديون أن يفصلوا المدينة عن سلطة شريف مكة ويلحقونها بالشام ، فانتدبوا علي رضا الركابي ، وهو من نوابغ الضباط السوريين ، وكان لم ينضم الى القوميين العرب ، وانما بقي ولاؤه خالصاً للعثمانيين .

انتدب الاتحاديون علي رضا الركابي فجاء الى المدينة وسعى لتحقيق طلب الانفصال ، يقول زيدان : فالقدامى من الأسر لم يلّبوا طلبه ، والمحدثون منهم كانوا له ، ولم يشذ عن الأسر القومية إلا الشيخ أبوالحسن السمان .

استطاع الركابي أخذ تواقيع أهل المدينة الذين أشرنا اليهم على مضبطة يطلبون فيها فصل المدينة عن مكة وضم المدينة الى الشام ، وكانت الأسباب التي استندوا اليها هي سرعة الاتصال ، القطار والتلغراف .

وكان وصول التلغراف الى المدينة سنة ١٣١٨هـ ، وكان في خفارة علي ناصر .

يقول زيدان : وتم فصل المدينة ، والواقع أن ذلك قد يسَّرَ كثيراً من الأعمال بينها شريف مكة الحسين بن علي يرحمه الله قد غضب ، فعاتب السمان لأنه ابن لصديقه ، كان مُرًّا في عتابه ، وقاسياً في شكيمته ، ولكن لا حول ولا قوة له ، فمضى الأمر(١).

احسان الله البواب الجاسوس :

عرفت وعرف معي أهل جدة احسان الله الهندي الذي كان يعمل نائباً للقنصل الانجليزي بجدة في أواخر العهد الهاشمي وأوائل العهد السعودي ، وكان رجلا عظيم النفوذ لدى الانجليز ، أو هكذا كان يتصوره الناس وخصوصاً أولئك الذين ترتبط مصالحهم بحجاج الهند ، وكانت الهند مستعمرة انجليزية ، وكنت اسمع الناس يتحدثون عن احسان الله هذا ويصفونه بأنه كان بواباً في المسجد النبوي الشريف لسنوات طويلة بالمدينة المنورة ، وقد أيَّد الاستاذ حسين زيدان هذه الرواية وذكر عنها ما خلاصته :

انه رجل من مسلمي الهند بقي مدة ثمانية عشر عاماً في المدينة المنورة بواباً على باب النساء أحد أبواب المسجد النبوي ، وتربطه صلات قرابة بكل من : عبدالحق النقشبندي ، وعبدالحميد عنبر من جهة النساء ، وكانت هذه القرابة هي الساترة لأحواله ، ولم يعرف عنه أهل المدينة إلا أنه البواب على باب المسجد ـ وبواب المسجد هو الذي توضع لديه أحذية الداخلين الى المسجد لحفظها في أدراج خاصة خارج المسجد ـ الى جانب مراقبة ما يجب منع دخوله الى المسجد .

يقول الزيدان ما معناه :

وكم كان استغراب أهل المدينة الذين رحَّلهم فخري باشا الى الشام ومنهم زين صافي ، وزين مدني ، وأسعد طرابزوني وابراهيم شاكر وغيرهم ، كم كان استغرابهم عظيما حينما

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٤١/٤٢ .

احتل فيصل بن الحسين دمشق بعد أن نزح عنها جمال باشا وحين دالت دولة الأتراك ، وجاء المرشال اللنبي الى دمشق ليوطد الأمر لفيصل رأى هؤلاء المدنيون احسان الله البواب على باب النساء ، ضابطاً كبيراً يدخل مع اللنبي . . . الخ[1] .

أقول :

ظل احسان الله يقوم بوظيفة نائب القنصل الانجليزي في جدة سنوات طويلة ، ثم نقله الانجليز منها الى عدن ، ورُحِّل ورحلت معه عائلته الى هناك ، ويبدو أن نقله الى عدن انما تم بعدما عرف عن صلته بالمخابرات البريطانية وشاع ذلك كثيرا ، وربما لأسباب أخرى والله أعلم .

الشيخ مخلوف والبشير الابراهيمي :

يقول الاستاذ/ محمد حسين زيدان ، اجتمع في حج أحد الأعوام في مخيام الشيخ محمد سرور الصبان وزير المالية الأسبق الشيخ محمد حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية في ذلك الزمان والشيخ البشير الابراهيمي الجزائري ، وكانوا ضيوفاً عليه في عرفات ، وأخذ المستفتون من الحجاج يتوافدون يسألون مفتي الديار المصرية عما يرغبون الاستفسار عنه من شئون الحج ، فكان الشيخ مخلوف يسأل السائل عن مذهبه ويجيب عليه بحسب مقتضى مذهبه وطلب البشير الابراهيمي من الشيخ محمد سرور اغلاق الصيوان بحيث لا يدخل أحد ، ثم وجه خطابه للشيخ مخلوف قائلا :

لماذا تسأل عن المذهب . . . ؟فأنت تعرف القاعدة ، العامي لا مذهب له ، المذهب للمفتي ، إن رأى مخرجا يَسَّرَ عليه ، وان رأى مسرفاً عسَّر عليه ، كلمة حق ينتصر به الحق ولا يهزم المذهب[2] .

الامام يعين بفرمان :

كانت الامامة في المسجد النبوي الشريف تتم بصدور فرمان من السلطان العثماني باسناد الامامة اليه ، وكانت الامامة دائماً لمن يتبعون الامام أبي حنيفة النعمان لأن السلطان العثماني والخديوي المصري يتبعان الامام أبي حنيفة ، فاذا صدر الفرمان بأن يكون ـ الأفندي ـ فلان اماماً ، فأبناؤه يرثون الامامة ، ولا يسألون أن يقوموا بالوظيفة فالواحد منهم ولو لم يفك الحرف ـ امام بالوراثة ، حتى اذا وصل اليه الترتيب لأداء الصلاة يتخذ قارئا ينوب عنه في أداء المهمة ، فهي مراتب افتخار يمتازون بها ويحرصون عليها .

---

(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٤٢/٤٣ .

(٢) ذكريات العهود الثلاثة ص ٤٤ .

فالصلاة الجامعة يؤديها الامام الحنفي ، وبعده يأتي الامام الشافعي يصلي بالذين لم يدركوا الجماعة الاولى ، وهو أيضاً صاحب رتبةٍ منح الامامة بالفرمان ، وان تخلف بعض المصلين يأتي امام على مذهب مالك يصلي في محراب المواجهة ، ولم يكن بالمدينة امام على مذهب الامام أحمد بن حنبل ، وذلك لأسباب سياسية في ذلك الزمان[1].

أقول :

أوردنا في الجزء الثاني من أعلام الحجاز نبذة عن الائمة في المسجد الحرام والمقامات الأربعة وفيها الكثير من المعلومات في هذا الباب[2] .

الريال المجيدي :

السلطان عبدالمجيد العثماني هو الذي صك الريال المجيدي ، وكان التعامل قبله بالريال الفرنسي الذي جلبته الحملة الفرنسية على مصر والشام ، وليس هو ريالاً فرنسياً ، ولكنه ريال نمساوي عليه صورة الامبراطورة ماري تريزا امبراطورة النمسا .

ثم طبع السلطان عبدالمجيد الريال المجيدي ، والسلطان رشاد الريال الرشيدي .

أصناف العملة الذهبية :

الجنيهات الانجليزي والعثماني ، والمسكوفي نسبة الى موسكو ، والفرنسي واسمه المنتو وقد أطلق المغاربة اسم لويز على الجنيه الفرنسي يعني لويس .

وحينما وصلت الريالات الفرنسية الى سوريا ولبنان أطلق عليها السوريون واللبنانيون كلمة مصريات ومصاري لأن هذه العملة من بقايا حملة ابراهيم باشا على الدولة العثمانية[3] .

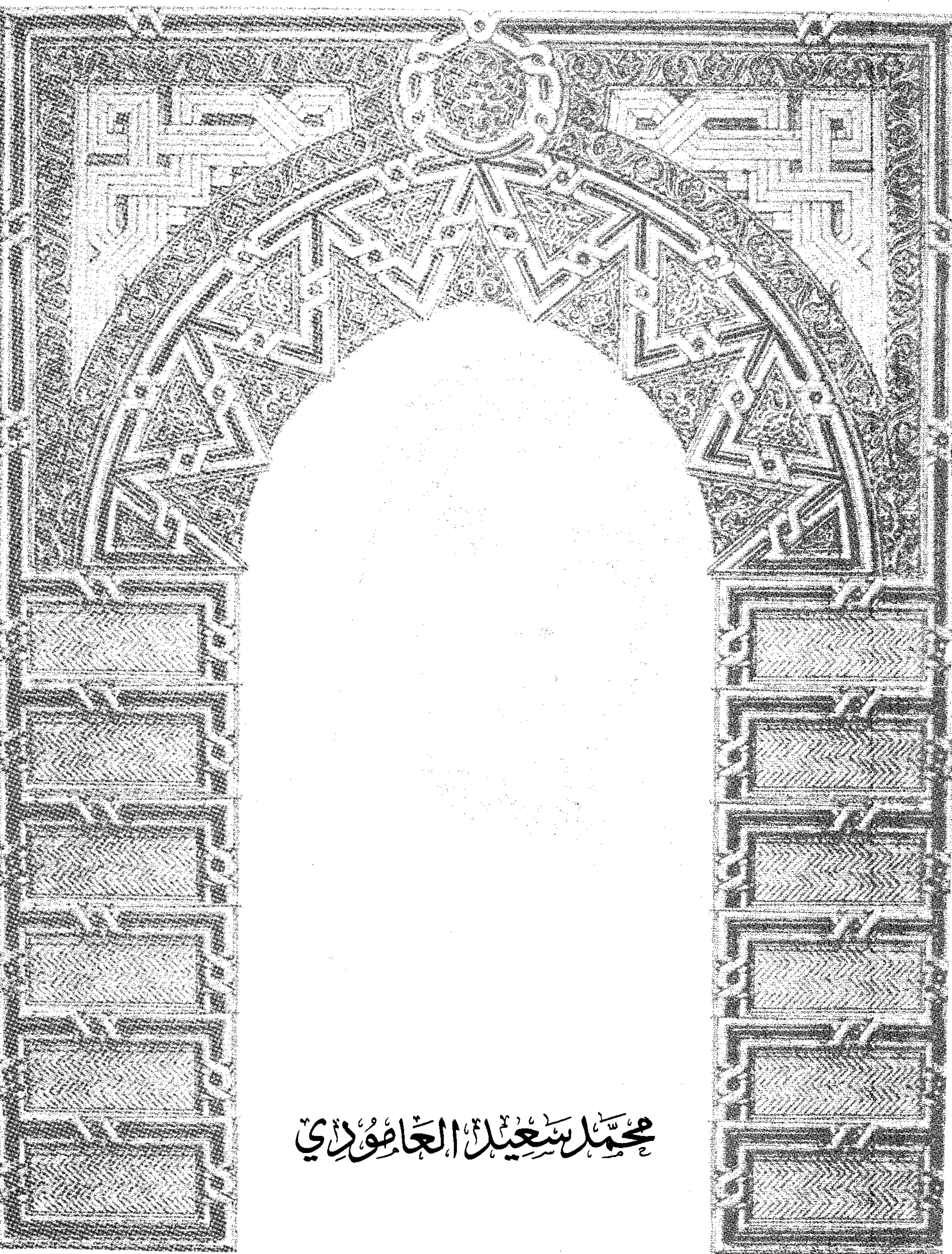
هذا ما رأيت أن أشرك القراء في قراءته من ذكريات الاستاذ/ محمد حسين زيدان يرحمه الله في كتابه الممتع ذكريات العهود الثلاثة ، وكما ذكرت قبل فإني أفضل أن يقرأ القارىء الزيدان بقلمه وبأسلوبه الخاص الذي تفرد به وعرف عنه .

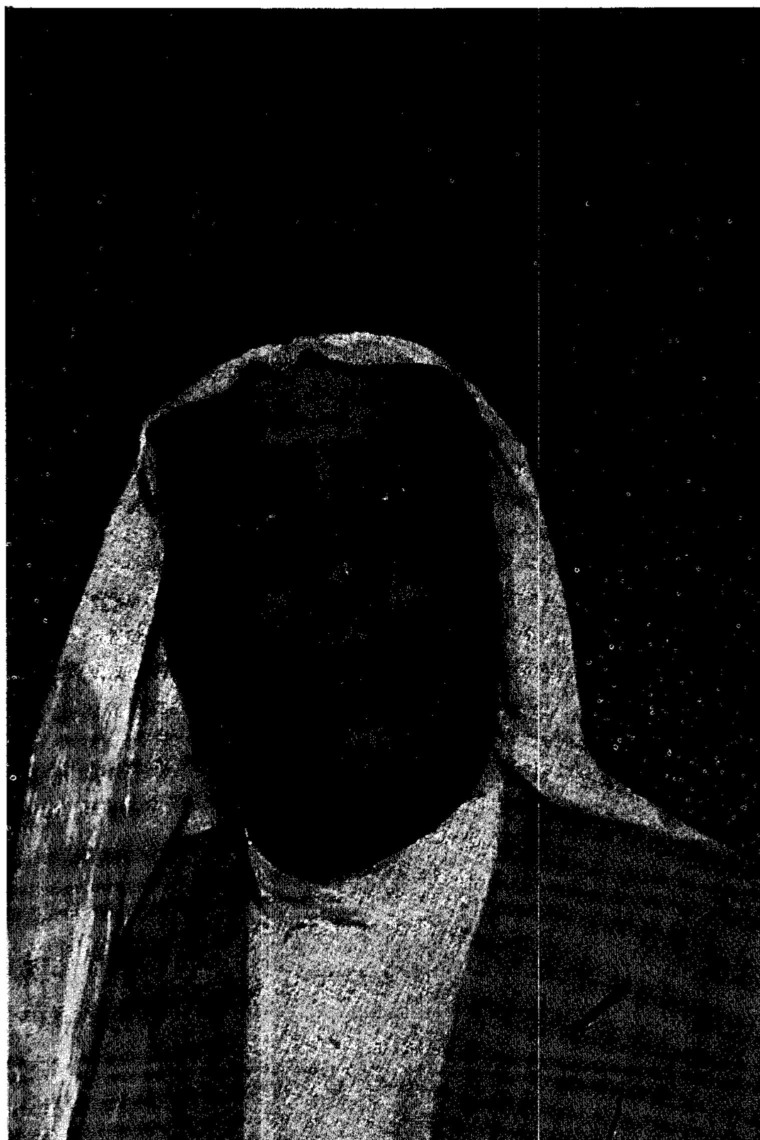
وفاة الزيدان :

مرض الزيدان وتردد على المستشفيات ، وكان في أيامه الأخيرة قد غشيته كآبة رانت على نفسه ، وتوفي صباح السبت التاسع والعشرين من شهر شوال سنة ١٤١٢هـ ، تغمده الله برحماته الواسعة ، إنه كريم رحيم .



(١) ذكريات العهود الثلاثة ص ٤٦ .
(٢) أعلام الحجاز ج ٢ ص ٣٦/٤٩ .
(٣) ذكريات العهود الثلاثة ص ٥٦ .


محمد سعيد العامودي



محمد سعيد العامودي

محمّد سَعيد العَامودي

طويل القامة ، أسمر اللون ، أقرب الى النحافة منه الى الامتلاء ، أقنى الأنف ، ساجي النظرات ، حليق اللحية والشارب ، تلمح في وجهه سيماء الحياء المشوب بالوقار والاتزان .
ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣هـ ، وتعلم بمدرسة الفلاح وتخرج منها ، وعمل مع أبيه وكان تاجراً يشتغل بتجارة الأقمشة ، وله حانوت في السويقة ، وهي السوق الخاصة بتجار الأقمشة والعطور ، وقد أدخلت سويقة في المسجد الحرام في توسعته الاولى ، وكان موضعها مجاوراً للمسعى ولها مدخل من المسعى ، ومدخلها الآخر من الشبيكة .

وانتقل محمد سعيد العامودي من العمل مع والده الى الوظائف الحكومية فعمل في وظائف كتابية وادارية مختلفة منها رئاسة ديوان التحرير بمصلحة البريد والبرق العامة بمكة المكرمة ، وحينما صدرت جريدة صوت الحجاز اختير للاشراف على رئاسة التحرير لفترة قصيرة ، ولكنّ عمله الحكومي في ادارة البرق والبريد لم يسمح له بالاستمرار في العمل فيها .

واختير عضواً بمجلس الشورى فظل به لمدة ثلاث سنوات ، وقام بادارة ورئاسة تحرير مجلة الحج منذ عام ١٣٦٩هـ الى نهاية عام ١٣٩١هـ .

كما عمل في رئاسة تحرير مجلة رابطة العالم الاسلامي من عام ١٣٨٥هـ الى نهاية عام ١٣٩٨هـ ، والى جانب هذه الأعمال كانت له مشاركات في أعمال أدبية واجتماعية متنوعة .
فقد اختير من قبل وزارة المعارف مرتين لعضوية المجلس الأعلى للعلوم والآداب ، وكان من الأعضاء المؤسسين في لجنة مشروع القرش ، ولجنة النشر والتأليف ، ولجنة نشر مخطوطات التواريخ الحجازية ، قبل أن تتوقف هذه اللجان عن العمل .

كما شارك في الدورة الثقافية التاسعة ضمن وفد وزارة المعارف للجامعة العربية التي عقدت في سنة ١٣٧٤هـ .

وقام برحلات عديدة أثناء عمله الوظيفي والصحفي الى القاهرة وتونس وايران والجزائر[1].

مؤلفاته :

من تاريخنا : دراسات ، نشر عام ١٣٧٤هـ وأعيد طبعه باضافة فصول جديدة عام ١٣٨٧ وطبع الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١ .

قام مع الاستاذ/ أحمد علي بتحقيق كتاب المختصر من نشر النور والزهر وظهرت طبعته الاولى سنة ١٣٩٨ وأعيد طبعه سنة ١٤٠٦هـ .

رباعياته : ديوان شعر نشر سنة ١٤٠١هـ .

رامز وقصص أخرى نشر سنة ١٤٠٣هـ .

من حديث الكتب ثلاثة أجزاء نشر سنة ١٤٠٣هـ .

من أوراقي : مقالات أدبية نشر سنة ١٤٠٤هـ .

بقية الرواد :

يعتبر الاستاذ/ محمد سعيد العامودي يرحمه الله البقية الباقية من جيل الأدباء الرواد في الحجاز ، وكثيراً ما قرأت في الصحف اسماءاً نُعِتَ أصحابها بأنهم من الرواد أو من الرعيل الأول للأدباء وهم مع احترامي لهم ومحبتي ليسوا كذلك .

وقد رأيت وأنا أتحدث عن الاستاذ/ محمد سعيد العامودي أن أتحدث عن جيل الرواد هذا وأن أذكر اسماءهم بالتحديد لايضاح الأمر من الناحية التاريخية على الأقل .

كان ظهور كتاب أدب الحجاز في سنة ١٣٤٤هـ وكتاب المعرض وكتاب خواطر مصرحة سنة ١٣٤٥ كان ظهور هذه الكتب الثلاث هو البشير بظهور جيل الرواد في الأدب في الحجاز .

هذه الكتب الثلاث قام باصدارها ونشرها معالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله ، أما الكتاب الأول فقد قدم فيه قصائد لتسعه من الشعراء ، وأما الكتاب الثاني فكان سؤاله موجهاً الى الأدباء ، هل الأوْلى الالتزام في الكتابة باللغة العربية الفصحى أو الكتابة باللغة العامية ، وكانت قد انتشرت الدعوة الى الكتابة باللغة العامية بدعوى أن الناس أقدر على فهمها ، وقد أجاب على هذا السؤال ثلاثة عشر كاتباً وكانت اجاباتهم كلها الاصرار والالتزام بالكتابة باللغة الفصحى التي هي لغة القرآن ، وقد شارك في كتاب المعرض ثلاثة عشر كاتباً .

---

(١) جريدة عكاظ العدد ٨٩٧٩ ٣ شعبان ١٤١١هـ ، كتاب رباعياتي .

وأنقل هنا عن كتابي ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز الذي طبع طبعته الاولى في سنة ١٤٠١هـ ما ذكرته عن الادباء الذين اشتركوا في الكتابين « فإذا استثنينا الاسماء المكررة التي شارك بعض أصحابها في كتاب أدب الحجاز خلص لنا ثلاثة عشر أديباً بعضهم يجمع بين الشعر والنثر والبعض الآخر ينفرد بالكتابة دون الشعر وهؤلاء هم الطلائع الاولى التي كانت بشيراً بميلاد الأدب الحجازي الحديث وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد اسم الرعيل الأول ، بعضهم فرض اسمه على الحياة الأدبية الى أن أسلم الروح كالاستاذ/ محمد حسن عواد يرحمه الله ، وبعضهم لا يزال يعمل في صمت ودأب كالاستاذ/ محمد سعيد العامودي ـ أمد الله في عمره ـ وبعضهم استمر في العطاء طويلاً ثم توقف ، وأغلبهم فارق الحياة الدنيا وأصبح في ذمة التاريخ » .

هذا ما كتبته في ملامح الحياة الاجتماعية قبل ثلاثة عشر عاماً ، واذا كان لابد من ذكر الأسماء فإن الثلاثة عشر أديباً الذين ظهرت اسماؤهم في الكتابين هم :

الأساتذة :

عبدالوهاب آشي : كاتب وشاعر كان أحد ثلاثة تولوا الاشراف على جريدة صوت الحجاز حين ظهورها ، والراجح أن بعض قصائده جمعت في ديوان صغير .

محمد صبحي : وصل الى مكة صغيراً وتلقى تعليمه بها وربما يكون قد عاد الى سوريا بعد ذلك .

محمد حسن عواد : كاتب وشاعر ومؤلف ، وقد ترجمنا له في الجزء الأول من أعلام الحجاز(١) .

محمد عمر عرب : من أوائل من كتب الشعر المنثور ، وقد أجاد فيه كثيراً ولم تصدر له مؤلفات ، وقد عمل في ديوان النيابة العامة سنوات طويلة .

محمد صلاح خليدي : شاعر توفي في الخامسة والعشرين من العمر في مسقط رأسه في الهند .

عبدالقادر عثمان : كاتب كان يعمل في مكتب الحاج محمد علي زينل رضا مؤسس الفلاح ، وبعد عودته من الهند عمل في جدة .

عبدالوهاب النشار : كاتب شاعر ، عمل في التدريس بمدرسة الفلاح بجدة ، وتولى ادارتها وأخرج أجيالاً من المتعلمين ، ثم عمل في التجارة وتفرغ لها .

محمد جميل حسن : كاتب ومدرس ، وقد ترجمنا له في أعلام الحجاز(٢) .

حامد كعكي : كاتب ، وكان يعمل في قسم التحريرات بوزارة المالية بمكة المكرمة .

عثمان قاضي : كاتب من مدينة الطائف ، كان مديراً لادارة البرق والبريد بها وتوفي شاباً .

---

(١) أعلام الحجاز ج ١ ص ١٧٩/٢١٨ .

(٢) أعلام الحجاز ج ١ ص ١٦٩/١٧٥ .

محمد البياري : كاتب شاعري الأسلوب عمل في ديوان النيابة العامة ، وليس له مؤلفات .

محمد علي رضا : كاتب عمل في الوظائف الحكومية ، وآخرها كان في مديرية الأوقاف بمكة ، وليس له مؤلفات .

عبدالله فدا : كاتب ، كان يعمل في تجارة الكتب وله حانوت لبيع الكتب في باب السلام بمكة المكرمة ، وليس له مؤلفات .

محمد سرور الصبان : كاتب وشاعر مقل واليه يرجع الفضل في التعريف بالأدب الحجازي وكانت له في مطلع شبابه مكتبة في مكة المكرمة ، قامت بنشر كتاب أدب الحجاز والمعرض ، وكتاب خواطر مصرحة لمحمد حسن عواد ، وقد كان موظفاً بالبلدية ثم عمل في وزارة المالية وأسس شركة الطبع والنشر التي كانت تصدر جريدة صوت الحجاز وقد تولى وزارة المالية في عهد الملك سعود ، وطبع على نفقته كثيراً من الكتب القيمة الهامة ، وقد ترجمنا له في الجزء الأول من أعلام الحجاز(١) .

السيد هاشم السباك : كاتب ، وموظف وقد اشتغل بالمحاماة وليس له مؤلفات .

أحمد ابراهيم الغزاوي : شاعر وكاتب ، وقد عينه الملك عبدالعزيز آل سعود يرحمه الله شاعراً له وسماه ـ حسّاناً ـ عمل في المحاكم الشرعية وفي عضوية مجلس الشورى بمكة المكرمة الى أن صار وكيلاً لرئيس المجلس ، وكان ينشر قطعاً نثرية بعنوان « من شذرات الذهب » في مجلة المنهل ، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً أصدرتها مجلة المنهل في كتاب خاص بعد وفاته ولم يُجمع شعره الكثير حتى الآن .

السيد بكر حمدي : كاتب ، كان يعمل في المحاكم الشرعية وفي رئاسة القضاة وليس له مؤلف .

هؤلاء هم الرواد الذين ظهرت آثارهم في كتابي أدب الحجاز والمعرض ، ومنهم صاحب المقالة والمقالتين أو القصيدة والقصيدتين ، ومنهم من ألّف الكتب ، وأثرى الحياة الفكرية والأدبية الى أن توفاه الله تعالى ، ومنهم من عمل بالأدب ثم شغلته الحياة عنه ، فهم بشر ينطبق عليهم ما ينطبق على البشر ، فاذا استعرضنا هذه الأسماء تبين لنا أن الاستاذ محمد سعيد العامودي يرحمه الله هو أحد هؤلاء الرواد الكبار الذي واصل المسيرة كاتباً وباحثاً ومؤلفاً طيلة حياته مع التواضع الجم وحسن الخلق يرحمه الله .

وهناك الجيل الثاني والثالث الذين أتوا بعدهم والذين ساروا على دربهم ، وقد صدرت المؤلفات تضم آثارهم وتشرح أفكارهم .

---

(١) أعلام الحجاز الجزء الأول ص ٢٤١ / ٢٥٢ .

ولست في حاجة لأن أذكر للقارىء أسماء الأدباء الذين استمر عطاؤهم الى أن فارقوا الحياة الدنيا ، والأدباء الذين أخذتهم مشاغل الحياة اليومية عن الكتابة والأدب فإن ذلك كله معروف لمن يتابع الحياة الأدبية في هذه البلاد .

هناك الجيل الثاني الذي ظهر بعد جيل الرواد ، ومن أبرز اسمائه : أحمد قنديل ومحمد حسين كتبي ، ومحمد حسن فقي وحمزة شحاته وعزيز ضياء ، ومحمد عمر توفيق ، وضياء الدين رجب ، ومحمدحسين زيدان ، وعبدالقدوس الأنصاري ، وطاهر زمخشري واعتذر عن استقصاء الأسماء فليس هذا مجاله ، وانما القصد هو تصحيح مفهوم شاع بين الناس واعطائه الملامح الحقيقية انصافاً للجيل الأول من الرواد ، والذين نتحدث اليوم عن آخر فارس منهم ، ولمن أراد المزيد من هذا البحث أن يرجع الى الموسوعات الأدبية التي تؤرخ للأدباء السعوديين مثل أدب الحجاز ، ووحي الصحراء ـ الموسوعة الأدبية لعبدالسلام الساسي وغيرهم ، وأن يرجع كذلك الى الصحف والمجلات التي صدرت في تلك الأزمان .

نعود بعد هذا الاستطراد الى الاستاذ/ محمد سعيد العامودي يرحمه الله فهو البقية الباقية من جيل الرواد الأوائل بحق ، والذي استمر في العطاء الى آخر أيام حياته ، وقد امتد به العمر حتى تجاوز الثمانين من العمر يرحمه الله .

يمتاز الاستاذ/ محمد سعيد العامودي بالاخلاص والتفاني في عمله الأدبي لا ابتغاء مصلحة أو شهرة فقد كان أبعد ما يكون عنهما .

حدثني الاستاذ/ علي مختار وكيل وزارة الحج أن الاستاذ/ محمد سعيد العامودي كان يقوم باصدار مجلة الحج ، وكان هو الذي يتولى كل شيء في المجلة من رئاسة التحرير الى جمع المقالات وترتيب الأعداد والاشراف على الطبع والتوزيع وكان كلما يتقاضاه من وزارة الحج ثلاثمائة ريال لمجلة شهرية من الألف الى الياء ، استمر محمد سعيد العامودي يقوم باعبائها ثلاثة وعشرين عام فأي انكار للذات ؟ وأي ترفع عن طلب الدنياب وأسبابها ؟

مجلة الحج مجلة تصدرها الدولة ، وكان بوصفه رئيساً لتحريرها يستطيع أن يستخلص لها ميزانية شهرية إن لم تصل الى عشرات الألوف فإنها حتماً تصل الى الألوف .

ولكن محمد سعيد العامودي لم يكن يمارس اصدار المجلة لغرض مادي ، وإنما كان يمارس عمله ارضاءاً لمطامحه الفكرية والأدبية ، فقد كان يعيش وأسرته على المرتب الذي يتقاضاه من عمله الحكومي في ادارة البرق والبريد العامة ، وفي مجلس الشورى ، وكانت مجلة الحج بالنسبة له واجباً أدبياً يؤديه في رضا واغتباط .

ومع مجلة الحج تولي رئاسة تحرير مجلة رابطة العالم الاسلامي ، واستمر في مجلة الرابطة الى نهاية عام ١٣٩٨ بعد أن علت به السن ، وأقعدته الشيخوخة ، هناك ميزة أخرى لمحمد سعيد العامودي هي البعد عن المهاترات كان الرجل كريماً ينأى بنفسه عن الضجيج فلم يعرف عنه أنه شارك بقلمه في معركة من المعارك الأدبية التي كان بعض أدبـاء الجيل

يخوضونها ، ولم يكن مع هذا الترفع محتجباً عن دنيا الفكر ، فلقد كان يقرأ الكتب ويختار منها ما يكتب عنه ، وأمامي كتابه من حديث الكتب ، وقد صدر في ثلاثة أجزاء تتحدث عن تسعة وستين كتاباً من أهم الكتب التي صدرت في العالم العربي أو ترجمت عن لغات عالمية أخرى ، فلم يكن الرجل يعيش في صومعته ، وانما كان يعيش في دنيا الفكر ، يقرأ ، ويكتب عما يقرأ ولكنه يؤثر أن يكتب المعجب والمفيد .

ولا نستطيع الاسهاب في مؤلفات محمد سعيد العامودي ، ولكني أتحدث عن بعض هذه الكتب في محاولة لاكمال الصورة أو تقريبها أمام القراء .

المختصر من كتاب نشر النور والزهر :

كتاب نشر النور والزهر ألفه القاضي والعالم المكي الشيخ عبدالله مرداد أبوالخير وهو يضم تراجم ـ أفاضل مكة ـ كما وصفه مؤلفه من القرن العاشر الى القرن الرابع عشر الهجري وكان الكتاب مخطوطاً ، وقد ذكر الاستاذ/ العامودي في التعريف به ما يغني عن تكرار ذلك هنا .

هذا الكتاب توفَّر الاستاذ/ محمد سعيد العامودي ومعه الاستاذ/ أحمد علي على اختصاره وترتيبه والتعليق عليه ونشره .

انه يتحدث عن علماء البلد الحرام وأدبائه على مدى خمسمائة عام ، فهو من أهم الكتب من الناحية التاريخية ، ولعله من أوفى ما كتب في تراجم علماء مكة وأدبائها بعد كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، للفاسي المتوفي سنة ٨٣٢ هجرية ، والذي ترجم فيه لنحو ثمانمائة عالم من علماء مكة وعالماتها والذي قام بنشره معالي الشيخ محمد سرور الصبان في سنة ١٣٧٩ هجرية .

واذا كان الفاسي قد توفي في الثلث الأول من القرن التاسع الهجري ، فإن كتاب الشيخ / عبدالله مرداد الذي يترجم لأفاضل مكة علماء وأدباء من القرن العاشر الهجري يعتبر امتداداً لهذه التراجم لعلماء وأدباء البلد الحرام عبر التاريخ .

يضم كتاب نشر النور والزهر تراجم لستمائة عالم وأديب ، كما يضم تراجم لبعض النساء اللاتي بلغن درجة من العلم سمحت لهنَّ بالقاء الدروس وتعليم التلاميذ من الرجال والنساء ، ولعل هذا الأمر يكشف لنا جانباً مجهولاً عن النشاط العلمي للمرأة في البلد الحرام في القرون الماضية ، ويبين لنا كيف أن أنوثة المرأة لم تقف حائلاً بينها وبين أن تطلب العلم حتى تنال منه ما يؤهلها لأن تجلس مجلس المعلم للناس .

كما يوضح للمتأمل أن الحياة العلمية في مكة المكرمة كانت تتسم بالنشاط العلمي عبر هذه القرون التي غابت أخبارها عنا ، فلم يكن تصورنا عنها واضحاً ، ولا صحيحاً ، والمرء عدو ما يجهل .

وقد استعان الشيخ المرداد بمن سبقه من المؤرخين في التراجم التي أوردها وأشار الى ذلك ، فبينَّ المصادر التي استقى منها المعلومات التي أوردها عن المترجم لهم ، وناقش في بعض

الأحيان ما وجده في هذه المصادر من أخبار غير صحيحة أو تحامل من بعض المؤلفين وهو جهد مشكور للمؤلف .

يقول الاستاذ/ محمد سعيد العامودي والاستاذ/ أحمد علي في تعريفهما بالكتاب :

انا على يقين من أن قارئه سوف يشعر بارتياح عظيم ، حين يتبين له من خلال كل سطوره .

ان حركة التعليم الديني في أم القرى لم تتوقف أو تضعف في أي عهد من العهود ، برغم كل الظروف والأحداث والفتن ، وانما ظلت مستمرة مضيئة منذ القرن الهجري الأول الى اليوم ، وهذا من فضل الله ـ ولا شك ورعايته للبلد الحرام[1] .

ونكتفي بهذه الكلمة الموجزة عن هذا الكتاب الذي أود من القارىء أن يقرأه ليطلع على تاريخ الحركة العلمية الدينية في البلد الحرام عبر خمسمائة عام ممثلة في تراجم موجزة عن رجال العلم والأدب في هذه البلاد .

من حديث الكتب :

ذكرنا في التعريف بالاستاذ/ العامودي يرحمه الله كتابه أو على الأصح كتبه الثلاث التي سماها ـ من حديث الكتب ـ والتي تحدث فيها عن تسعة وستين كتاباً في مختلف العلوم والفنون ، وأود أن أذكر هنا كلمة موجزة للتعريف بهذا الكتاب القيم ذي الأجزاء الثلاث .

كان محمد سعيد العامودي يقرأ الكثير من الكتب ولكنه لا يتحدث إلا عما يعجبه منها وكان هذا الحديث تلخيصاً موجزاً للكتاب يخرج منه القارىء بفكرة موجزة عن محتوياته فإما أن يدفعه هذا التلخيص الى البحث عن الكتاب وقراءته ان كان من هواة القراءة ، وإما أن يخرج منها بفكرة عن أهم ما ورد فيه .

وتلخيص الكتب فن لا يقدر عليه إلا كاتب استطاع الاحاطة بمحتويات الموضوع الذي يقوم بعرضه على القارىء ، فيقدم له في سطور ما بسطه المؤلف في صفحات ، وليس هذا بالأمر الهين ولا اليسير ، واستطيع أن أقول ان الاستاذ/ محمد سعيد العامودي يرحمه الله قد وفق في حديثه عن الكتب توفيقاً عظيماً ، أولاً باختياره للكتب التي يتحدث عنها ، وثانياً بعرضها عرضاً جيداً في أسلوب جميل ، وفي لغة سهلة لا غموض فيها ، ولا يتسع المقام للافاضة في الحديث عن هذه الكتب فمن الخير للقارىء أن يقرأها بنفسه ليخرج منها بالفائدة التي توخاها المؤلف وهو يتحدث عنها ويوجزها .

مؤلفاته الأخرى :

وليس حديث الكتب هو كلما كتبه الاستاذ/ العامودي فقد نظم الشعر ، وكتب القصة ، كما كتب المقالة ، وقد أثبتنا في صدر هذه الترجمة أسماء مؤلفاته المطبوعة وتواريخ نشرها ، وقد

---

(١) المختصر من نشر النور والزهر ص ١٠ .

أخبرني ابنه الاستاذ/ عمر محمد سعيد العامودي المحامي والكاتب المعروف أن والده ترك أوراقاً كثيرة مما لم ينشر من انتاجه ، وأرجو أن يتم جمعها وترتيبها ونشرها ، ومن أجدر بهذه المهمة من أبنائه . . ؟ وفقهم الله .

أريد أن أقول ان محمد سعيد العامودي كان أديباً مارس الفنون الأدبية كلها من شعر ونثر وكتب القصة الى جانب المقالة ، واذا كان قد آثر التفرغ للبحث فكان نصيب النثر في أدبه هو النصيب الأكبر فذلك راجع الى أنه وجد فيه المجال الأكبر للتعبير والأجدى في الافادة والتنوير .

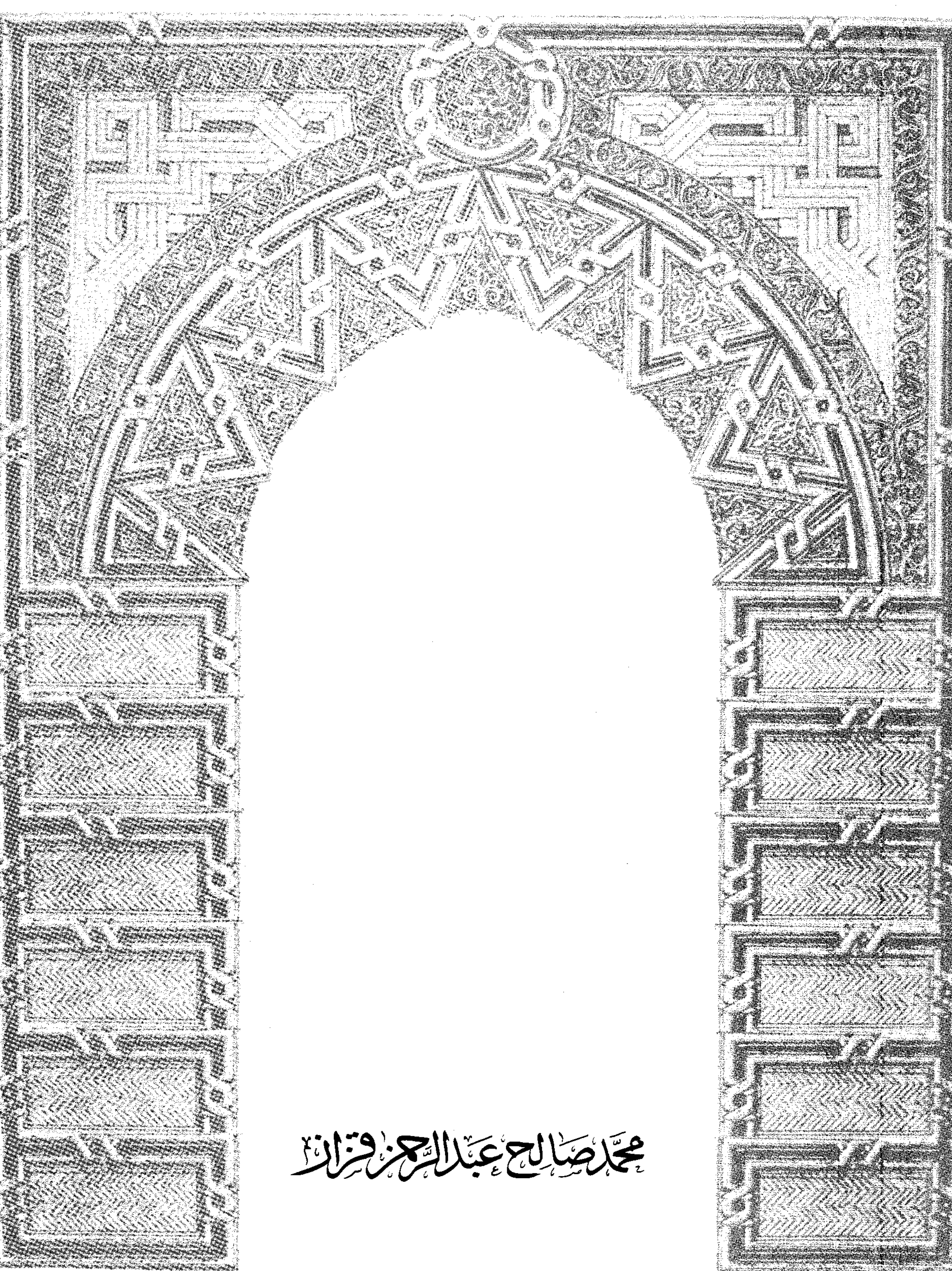
وفاة العامودي :

توفي الاستاذ/ محمد سعيد العامودي يوم السبت الثاني من شعبان سنة ١٤١١هـ بعد مرض طويل وعن عمر يناهز الثامنة والثمانين عاماً ، وقد كان رائداً من رواد الأدب والفكر مجاهداً بقلمه داعياً الى الله على بصيرة ، وخلّف وراءه من الآثار المطبوعة والمكتوبة ما ينبىء عن حياة حافلة بالفكر والعمل .

وأرجو أن يوفق الله تعالى أبناءه الكرام الاستاذ/ عمر ، والاستاذ/ أحمد لاخراج ما ترك من آثار مخطوطة ونشرها لينتفع بها القراء والأدباء .

رحم الله محمد سعيد العامودي رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جناته ودار مغفرته ورضوانه .




محمد صالح عبد الرحمن قزاز



محمد صالح عبدالرحمن قزاز

محمد صالح عبد الرحمن قزاز

طويل القامة ، حنطي اللون ، متوسط الجسم مشرق الوجه بابتسامة دائمة ، تنم نظراته عن ذكاء وقاد تكسو وجهه لحية خفيفة لمع فيها بياض المشيب لما علت به السن .

ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٠١ للهجرة ، وتعلم القراءة والكتابة فيها ، وحفظ القرآن الكريم كاملاً ، وكان جهوري الصوت يحسن القراءة والترتيل ، وتولى إمامة الناس في صلاة التراويح كما كان يفعل أمثاله من حفظة القرآن الصغار .

انتقلت أسرته الى الطائف في أواخر العهد الهاشمي فقد أسندت اليهم اعاشة الجند في الطائف ، وعين الشاب محمد صالح القزاز أميناً للصندوق في مالية الطائف ، وحينما نقل مدير المالية الشيخ / عبدالله قاضي الى جيزان في العهد السعودي ، تولى صالح قزاز مديرية المالية في الطائف .

ثم عين مديراً لمالية مكة المكرمة ، ثم اختير ناظراً عاماً للجمارك يوم كانت واردات الدولة تعتمد على الجمارك قبل ظهور الزيت وتسويقه ، وحينما شكلت أول مديرية لشئون الحج عين الشيخ محمد سرور الصبان رئيساً لها فاختار صديقه الشيخ محمد صالح القزاز ليكون مديراً عاماً مساعداً له سنة ١٣٦٥ ، ثم أصبح مديراً لها سنة ١٣٦٨ .

وحينما قررت الدولة تشكيل مديرية لشئون الزراعة اختير مديراً لها الى جانب عمله كمدير لادارة الحج .

وحينما قرر جلالة الملك عبدالعزيز يرحمه الله جلب الماء الى جدة اختار الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية إذ ذاك الشيخ صالح قزاز للمفاوضة لشراء وجبات الماء من ملاك عيون وادي فاطمة لاسالتها الى مدينة جدة ، واشترك معه رجال آخرون واشتريت منهم وجبات في ثماني عيون فصّلها الاستاذ عبدالقدوس الأنصاري في كتابه موسوعة مدينة جدة[1] وكان شراء

---

(١) انظر قصة الماء في مدينة جدة عبر التاريخ في كتاب موسوعة مدينة جدة ص ١٤١/١٧٣ .

هذه الوجبات هو الذي مكَّن الدولة من ايصال الماء الى مدينة جدة في قنوات تمتد من وادي فاطمة الى مدينة جدة مما كان سبباً في تطور المدينة واتساعها فالماء اكسير الحياة ، وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حي** ﴾ .

وحينما وفق الله تعالى جلالة الملك عبدالعزيز يرحمه الله للعمارة الاولى للمسجد النبوي الشريف وأسند أمر هذه العمارة العظيمة الى المعلم محمد بن لادن يرحمه الله طلب من معالي الشيخ عبدالله السليمان ترشيح شخص لادارة المشروع حيث أن ابن لادن سيتفرغ للقيام بالأعمال الهندسية والانشاء ، فاختير الشيخ صالح قزاز لادارة المشروع ، ومنه انتقل الى ادارة مشروع العمارة السعودية الاولى للمسجد الحرام ، وأسند أمر اصلاح قبة الصخرة بالقدس الى المعلم محمد بن لادن ، فتولى الشيخ صالح قزاز ادارة المشروع كذلك ، وهكذا جمع الله لهذا الرجل الاشراف على تعمير أعظم مساجد الاسلام في مكة والمدينة وبيت المقدس .

وحينما تأسست رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة ١٣٨٢ واختير معالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله أميناً عاماً لها ، اختار صديقه الشيخ صالح قزاز أميناً عاماً بالوكالة يقوم بأعمال الأمين العام للرابطة في حضور الأمين أو غيابه .

وحينما توفى الشيخ / محمد سرور الصبان يرحمه الله سنة ١٣٩٣ اختير الشيخ صالح قزاز أميناً عاماً للرابطة ، وكان قد رشح لها أحد الوزراء ولكن المجلس التأسيسي للرابطة وهو مكوَّن من علماء المسلمين في جميع أنحاء العالم الاسلامي اختار وباجماع الآراء الشيخ صالح قزاز ليكون الأمين العام للرابطة وطلبوا من جلالة الملك فيصل يرحمه الله الموافقة على اختيارهم فتم لهم ما أرادوا ، وتجدد اختيار الشيخ صالح قزاز للأمانة العامة للرابطة لفترة ثانية ، وكان راغباً في التخلي عن أعمال الرابطة بعد أن قضى فيها أعواماً كثيرة وبدأت السنُّ تعمل عملها في صحته . وأتمَّ الفترة الثانية وقدم استقالته الى المجلس التأسيسي للرابطة ، حاول أعضاء المجلس اثناءه عن الاستقالة فزاره وفد منهم بمنزله لهذه الغاية فقال لهم :

الرابطة أمانة عظيمة ولا أستطيع القيام بواجبها فأرجو اعفائي ، وأمام اصراره قُبلت الاستقالة وتم تعيين فضيلة الشيخ محمد الحركان يرحمه الله أميناً عاماً للرابطة حيث بقي فيها الى أن توفاه الله .

رجل المهمات العظيمة :

كان الشيخ صالح قزاز رجل المهمات العظيمة بحق ، وذلك لما يتمتع به من أخلاص في العمل ، ونزاهة في الضمير ، والرغبة في تحقيق الخير أينما حلَّ وَرَحِل .

ولعل الكثيرين لا يعلمون أن الشيخ صالح قزاز يرحمه الله لم يكن يتقاضى من المعلم محمد بن لادن أجراً حينما كان يقوم بادارة الأعمال العظيمة في توسعة المسجد النبوي الشريف الاولى ثم في توسعة المسجد الحرام ، ثم في اصلاح مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس ولذلك قصة نوردها فيما يلي :

الرغبة في الهجرة الى المدينة :

يقول صديقنا الاستاذ حسن قزاز الكاتب ورجل الأعمال وتربطه صلة القرابة بالشيخ صالح قزاز يقول : في بداية عام ١٣٧١ كنا بعوائلنا « يقصد عوائل آل قزاز » جميعاً في زيارة المسجد النبوي الشريف ، وفي ضحى أحد الأيام اصطحبني الشيخ/ صالح الى المسجد وصلّينا في الروضة المطهرة الشريفة ، ثم وقفنا مسلّمين على الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

التفت الشيخ صالح إليَّ قائلا : أتمنى لو أحصل على راتب تقاعد مقداره ألف ريال شهرياً أعيش به في هذا المكان الطاهر بجوار المسجد النبوي الشريف ، وأقضي بقية عمري في هذه الرحاب الطاهرة .

يقول حسن قزاز : قلت له ياعم صالح إنك لا تزال في عنفوان رجولتك وأمامك الحياة طويلة ودواعي الطموح كثيرة .

قال الشيخ صالح ان شعوراً خفياً يدفعني لهذه الأمنية وأرجو أن يحققها الله .

يقول حسن قزاز وعُدْنا من المدينة الى الطائف .

ومضت سنوات وأقام الشيخ صالح قزاز وأخوه الشيخ أحمد قزاز في منزلهما بالطائف حفلاً لتكريم معالي الشيخ عبدالله السليمان وزير المالية رحمه الله ، وفي هذا الحفل أعلن الشيخ عبدالله السليمان أن جلالة الملك عبدالعزيز يرحمه الله أمره بعمارة المسجد النبوي الشريف بعدما ذكرت الصحف المصرية أن تصدعاً حدث في بعض الأعمدة ، ودعى مصطفى النحاس باشا المسلمين الى التبرع لعمارة المسجد ، وتقدم البعض بتبرعاتهم ، ولكن الملك عبدالعزيز يرحمه الله أبى أن يقبل تبرعاً من أي جهة كانت وأعلن قائلاً : نحن أولى بتعمير المسجد الشريف ، وطلب أن تعاد للناس تبرعاتهم وأصدر أمره الى وزير ماليته الشيخ عبدالله السليمان لتنفيذ العمارة المطلوبة .

وقال الشيخ عبدالله السليمان ، لقد كلفت المعلم محمد بن لادن بالقيام بالعمارة المطلوبة التي تشمل ازالة التصدعات وتوسعة المسجد وهي التوسعة الاولى التي تمت في العهد السعودي[1] .

وفي هذا الاجتماع طلب الشيخ محمد بن لادن اختيار رجل كفء ليقوم بعبىء الأعمال الادارية لهذا المشروع العظيم لأنه سيتفرغ للأعمال الهندسية وأعمال البناء .

وفي هذا الاجتماع تم اختيار الشيخ صالح قزاز ليكون هو الرجل الاداري الذي يطلبه المعلم محمد بن لادن .

وتحققت أمنية الشيخ/ صالح قزاز وانتقل الى المدينة المنورة لا ليكون مهاجراً في رحاب

---

(١) انظر كلما يتعلق بهذه التوسعة في الجزء الثاني من أعلام الحجاز ص ٤٣ ـ ٥٣

المسجد النبوي الشريف ، وانما ليكون مشرفاً على عمارة المسجد النبوي الشريف وتوسعته ، وابرازه في أجمل الحلل .

ولكن هل اكتفى صالح قزاز بأن حقق الله له أمنية غالية تمناها وأجاب الله دعوة دعاها وهو في الروضة المطهرة ، وفي رحاب المسجد النبوي الشريف . . . ؟

لم يكتف صالح قزاز بهذا ، وانما قرَّر بينه وبين نفسه أن يقوم بهذا العمل دون أن يتقاضى أجراً من المعلم بن لادن ، أراد أن يكون عمله في ادارة هذا العمل العظيم قربى الى الله تعالى ، خالصاً لوجهه ؟

كتب خطاباً سرياً الى جلالة الملك فيصل وكان نائباً لجلالة والده في الحجاز يرحمهما الله تعالى ، كتب اليه قراره بأن لا يتقاضى من المعلم بن لادن أي أجرٍ على قيامه بهذا العمل ، وطلب من سموه تدبير راتب شهري له يعيش وأسرته عليه .

واستجاب يرحمه الله فأصدر أمراً الى وزارة الخارجية وكان وزيرها ،بتعيين صالح قزاز وزيراً مفوضاً في وزارة الخارجية ، ومن راتب هذه الوظيفة الاسمية كان صالح قزاز يعيش وينفق على أسرته حتى وفاته(١) .

في رابطة العالم الاسلامي :

وحينما اختار الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله الشيخ صالح قزاز ليكون وكيلاً له في رابطة العالم الاسلامي سنة ١٣٨١ ، ثم اختير أميناً عاماً لها بعد وفاة الشيخ محمد سرور لم يتقاض صالح قزاز راتباً من الرابطة طيلة عشرين عاماً بل كان يتحمل النفقات التي يتقاضاها عمله ، ويجنب صندوق الرابطة أن يتحملها ، يقول الشيخ محمد صفوت السقا الأمين العام المساعد لرابطة العالم الاسلامي ما يلي :

وشهادة لله أزكيها ويعرفها كل من كان له شرف العمل معه ـ مع صالح قزاز ـ في الرابطة أنه لم يقبض ريالاً واحداً كراتب أو تعويض أو حتى كمساهمة في النفقات التي يتطلبها العمل في الرابطة ، فكانت السيارة من ماله وسائقها وحتى أجور السفر ، وكانت كل الولائم التي نقيمها على مدار العام في داره من جيبه من مرتبه الذي يتقاضاه من تقاعده . . . الخ .

لقد أكرمني الله أن أكون مطوفاً للعلماء :

ويواصل الشيخ محمد صفوت السقا حديثه عن الشيخ صالح قزاز فيقول :

وعندما يقوم باسقبال الوفود والاشراف على راحتهم من مختلف أنحاء العالم يقول : تعلم أنني تركت الطوافة هرباً ولكن الله سبحانه وتعالى أكرمني أن أعمل مطوفاً لعلماء العالم الاسلامي بحكم طبيعة عملي في الرابطة ، ويا أخ صفوت مهنة الطوافة تشريف وتكريم لأهل مكة المكرمة ، وكم كان يتمنى أن يتفرغ للتدريس في الحرم المدني والمكي(٢) .

---

(١) انظر مقال حسن قزاز بجريدة الندوة العدد ٩١٢٤ بتاريخ ٢ رجب ١٤٠٩هـ .

(٢) انظر مقال محمد صفوت السقا في جريدة المدينة المنورة العدد ٧٩٤٩ بتاريخ ٢ رجب ١٤٠٩هـ .

عمل وانجاز :

كان الشيخ صالح قزاز يهب نفسه للعمل الذي يوكل اليه مدفوعاً بالرغبة في الانجاز والاصلاح .

اختير مديراً عاماً لأول مديرية للزراعة حين تأسيسها عام ١٣٦٨ للهجرة ، وجاء هذا الاختيار ليجمع الرجل بين عمله في مديرية الحج العامة ، ومديرية الزراعة ، يقول معالي الاستاذ/ عبدالله الدباغ وزير الزراعة الأسبق الذي عمل مساعداً للشيخ صالح قزاز في مديرية الزراعة في جدة حين تأسيسها مايلي :

لم أر في حياتي رجلاً كالشيخ محمد صالح قزاز في نشاطه ، ودأبه وحرصه على أداء واجبه وأكثر من واجبه في تفان واخلاص .

لم يكن يعرف للراحة طعماً ، فنهاره كله عمل من حين أن يصبح الى أن يمسي وحتى يأوي الى فراشه .

كان يرحمه الله أول الحاضرين الى مكتبه وآخر من يخرج منه الى داره ، وكانت داره مكتباً آخر يمتد فيها العمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، والاجازة الاسبوعية كان يقضي معظمها في زيارات للمناطق الزراعية يتفقد أحوالها ، ويبحث مشاكلها ، ويحل منها ما كان قادراً على حلّه .

وكانت مسئوليته في أعمال الحج تتطلب منه الانتقال يومياً بين مكة وجدة أكثر من مَرَّةٍ في اليوم الواحد أحياناً ، خصوصاً في موسم الحج حرصاً منه على قضاء مصالح الحجاج ، وكنت أرافقه في بعض المرات ، وعندما نكون سوياً في المقعد الخلفي للسيارة يطلب مني الانتقال الى جانب السائق لينال هو قسطاً من الراحة بالاسترخاء بعض الوقت بعد عناء العمل ليلاً .

وكان بتوجيه من جلالة الملك عبدالعزيز يرحمه الله وبأمر من معالي الشيخ عبدالله السليمان أول من أدخل مضخات الماء لتوزع على المزارعين في مختلف مناطق المملكة كوسيلة بديلة للطريقة التقليدية لرفع المياه من الآبار .

كما كان أول من فكّر في اصلاح عدد من عيون المياه التي توقف جريانها في وادي فاطمة وغيره من الوديان ، كما أوجد وحدات الخدمة الزراعية المجهزة بآلات التسوية والحراثة لاقامة العقوم وحراثة الأرض للمزارعين في مناطقهم واستورد في عهده الكثير من شتلات أشجار الفاكهة من مصر ولبنان وزعت على المزارعين بدون مقابل .

كل هذا بالرغم من ضآلة الميزانية السنوية لمديرية الزراعة في ذلك الوقت ، والتي أذكر أنها لم تتجاوز اثنى عشر مليون ريال .

ويواصل الاستاذ/ عبدالله الدباغ حديثه فيقول :

ان أكثر ما شدني للشيخ محمد صالح قزاز هو ايمانه العميق ، وعزوفه عن رغد العيش وميله الى التقشف مع ما أنعم الله به عليه من وفرة في الرزق وكرم في العطاء .

كان عندما يضطر الى البقاء طيلة نهارة في جدة لم يكن له بيت يأوي اليه بعد الغذاء ولا فندق يذهب اليه ليرتاح بعض الوقت لكي يستأنف عمله بعد ذلك ، فكان يفترش المكاتب الحديدية في فرع مديرية الزراعة بجدة جاعلاً ذراعه وسادة لرأسه ، وذلك حتى لا يغريه الفراش الناعم الوثير باطالة فترة راحته .

وعندما يكون في البادية لا تختلف معيشته في نومه وطعامه مع معيشة أهل البادية بخشونتها وقسوتها(١) .

مدارس تحفيظ القرآن الكريم :

كان الشيخ صالح قزاز من أوائل الرجال الذين ساهموا في تأسيس مدارس تحفيظ القرآن الكريم التي بدأت في سنة ١٣٨٢ في مكة المكرمة ، ثم انتشرت في جميع أرجاء المملكة ، ولم يكتف الشيخ / صالح قزاز بالمساهمة فيها بجهده . ولكنه ساهم كذلك بماله ، فأوقف عليها عمارة في محلة الشامية بمكة المكرمة تساهم غلتها في واردات الجماعة ، يقول الدكتور حسن محمد باجوده ، رئيس قسم الدراسات العليا بجامعة أم القرى ، والأمين العام لجماعة تحفيظ القرآن الكريم بمكة المكرمة مايلي :

نستطيع أن نقول ان كل إمام يؤم المسلمين حالياً في مكة المكرمة ، وبخاصة في شهر رمضان في صلاتي التراويح والقيام والجماعة لتحفيظ القرآن الكريم في مساجد مكة وفيها ما يزيد على ستمائة شاب يؤمون المسلمين في ليالي رمضان نقول :

ان للشيخ صالح قزاز بفضل الله تعالى يداً على هؤلاء .

ونستطيع القول ذاته عن كل الذين حفظوا القرآن الكريم في جماعة تحفيظ القرآن الكريم وفي العديد من جهات المملكة .

ويبدو هذا الأمر على حقيقته عندما نستعرض جهوده رحمه الله في سبيل النهوض بهذه الجماعة سنة ١٣٨٢هـ ، وكان رئيس هذه الجماعة الشيخ محمد يوسف سيتي الباكستاني الجنسية صاحب هذه الفكرة ، وقد تبنى هذه الجماعة عدد من الرجال الأفاضل ومنهم الشيخ محمد صالح القزاز يرحمه الله .

ويواصل الدكتور باجوده حديثه فيقول :

هذا الرجل جعل كل نشاطه بعد نهاية خدمته للأمانة ـ أمانة رابطة العالم الاسلامي ـ جعل كل همه أن يخدم القرآن الكريم ، فلقد كان في المملكة جماعة مكة ، وترتبط بها الجماعات الأخرى في جدة والطائف والرياض ، وبلجرشي والليث وغيرها ، وكانت المساعدات التي تتدفق على جماعة مكة تنال تلك الجماعات حظها منها .

الشيخ صالح رحمه الله وجه الجماعة وجهة الحفظ للشباب ترتيلاً بقصد أن يأتي الشباب صلاة الجماعة في المحاريب .

---

(١) جريدة عكاظ العدد ٨٢٥٦ في ٨ رجب ١٤٠٩هـ .

وبفضل الله تعالى نهضت الجماعات واستقلّت ونمت الجماعات .

وكان للشيخ القزاز بعد الله ثم المسؤولين الغيورين على هذا الكيان كبير الفضل فمثلاً وقف للجماعة عمارة في الشامية وحوّل حسابها للجماعة .

ومما ينبغي أن يذكر أن الشيخ القزاز مع فريق من الجماعة كانوا يصلون العشاء في رمضان ، وينطلقون الى مساجد مكة التي يؤم أبناء الجماعة فيها المساجد من أجل توجيههم ونصحهم واعطائهم المكافآت .

كان رحمه الله حريصاً على تشجيع الشباب على حفظ القرآن والقراءة في كل المناسبات ، فكان يتيح لهم الفرص في المواسم وفي افتتاح الندوات ، بل كان يأخذ فريقاً على حساب الرابطة للحج كل ذلك احتفاءاً بِحَملة القرآن ، وتشجيعاً للبراعم الصغيرة .

وبفضل الله تعالى ثم بفضل المنزلة التي يتمتع بها في قلوب الناس انهال الخير على جماعة التحفيظ في مكة فدعمته الحكومة ، وقام بدوره بدعم الجماعات الأخرى فالمساعدة السنوية مستمرة ، والملك خالد رحمه الله أعطى مبلغاً كبيراً أقامت به عمارة مؤجرة للمالية تنتفع بها الجماعة ومدارسها للبنين والبنات التي تشتمل كل أحياء مكة المكرمة .

ويقول الدكتور باجودة :

في الحرم وحده ٤٥ مدرسة للبنين بين باب السلام وباب العمرة اضافة الى معهد الأرقم ومقره الحرم أيضاً .

كان رحمه الله حريصاً على تخريج المدرسين المجودين فأقام معهد الأرقم بن أبي الأرقم وبه الآن أربعمائة طالب ولله الفضل والمنة ، ومدارس البنات بلغ تعدادها أربعاً وعشرين مدرسة .

والحقيقة أن الشيخ القزاز يرحمه الله كان في السنوات الأخيرة شبه منقطع في منزله ولكنه كان في نفس الوقت يوجه نشاطه كله للجماعة ، فكان يدير أمورها من منزله ، ويعتبر كل صاحب مسألة أن الشيخ القزاز هو صاحبها لشدة حبه للجماعة والقرآن .

ثم يختم الدكتور باجودة حديثه قائلاً :

مرت سبعة وعشرون سنة على الجماعة ، وحفظ بها حوالي ألف وخمسمائة شاب القرآن الكريم ، وفي العام الماضي وحده كان عدد الحفاظ مائة وستين شاباً[1] .

هذه شهادات الرجال الذين عملوا مع الشيخ صالح قزاز في المجالات المختلفة ، شهاداتهم بعد أن فارق الرجل هذه الحياة الدنيا ، وصار في رحاب الله تعالى نطقت بها ألسنتهم ابراءاً للذمة ، واظهاراً للفضل الذي كان صاحبه أزهد الناس في ذكره والاشارة اليه .

---

(١) جريدة عكاظ العدد ٨٢٥٠ في رجب ١٤٠٩هـ .

معرفتي بالشيخ صالح قزاز :

عرفت الشيخ صالح قزاز وأخاه الشيخ أحمد يرحمهما الله في النصف الثاني من القرن الماضي . فقد كنت أعمل سكرتيراً لمعالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله ، وتوجه الى الطائف في أوائل صيف سنة ١٣٥٦ للهجرة ، ونزل وأنا بمعيته في بيت القزاز بالطائف ، وكان الشيخ أحمد وأخوه الشيخ صالح يسكنون في منزل بجوار باب الريع ، وكان منزلهما دار ضيافة للقادمين من أعيان المكيين ، ولم تكن الفنادق إذ ذاك قد عرفت في الحجاز ، وانما كان الناس ينزلون على بيوت أقربائهم ومعارفهم ، وكانت كل الدور معدة لاستقبال الضيوف القادمين اليها والذين يلقون كل ترحيب واكرام .

رأيت الشيخ صالح وكان في كمال رجولته مشرق الوجه ، دائم الترحيب بالناس ، وكان جهوري الصوت ، يجيد ترتيل القرآن الكريم ، فكان الشيخ محمد سرور الصبان يقدمه لإمامة الناس بالصلاة في منزله حينما يفد لزيارته قبل الغروب .

وحينما أسندت اليه مديرية الزراعة في جدة سنة ١٣٦٦ ازدادت صلتي به وثوقاً . كانت مديرية الزراعة قد بدأت في ادخال رافعات المياه وتوزيعها على المزارعين ، وكانت تشجع المزارعين باعطائهم الآلات بقروض ميسرة تتحمل مديرية الزراعة جزءاً منها ، وتقسط باقي القيمة على المزارعين أقساطاً سهلة .

وسافرت الى أمريكا سنة ١٩٤٨ للميلاد ، واتصلت باحدى الشركات التي تصنع طلمبات الماء ، وتأكدت من جودتها فاستوردت ثلاث رافعات ذات مقاسات مختلفة لتقديمها لمديرية الزراعة لتجربتها توطئة لاستيرادها بكميات تجارية .

وحينما وصلت الرافعات ذهبت لمقابلة الشيخ صالح قزاز يرحمه الله وقلت له انكم تشترون الرافعات من شركة بكتل وتتحملون جزءاً من القيمة مساعدة للمزارعين ، وأنا على استعداد لأن أقدم لكم الرافعات بالأسعار التي تباع على المزارعين ، ولا تتحملون الفروق التي كنتم تتحملونها ، ولكني أريد أولاً أن تجربوا هذه الآلات فاذا تأكدتم من جودتها عملت على استيرادها ، وأمر الشيخ صالح قزاز باستلام المكائن الثلاث التي استوردتها وبعد فترة اتصل بي تليفونيا وقال :

ماهو العدد الذي لديك من الطلمبات اثنين بوصة . . . ؟

قلت : إن ما لديَّ قدمته لك وأنا في انتظار نتائج التجربة .

قال : المكائن جيدة ونحن على استعداد لشرائها فاعمل على توريدها .

واستوردت الدفعة الاولى ثلاثين مكينة وطلمبة وقبل اخراجها من الجمارك اتصل بي يرحمه الله تليفونياً وقال :

لقد حَوَّلْت عليك مزارعين من الطائف بثلاثين مكينة ، ومع كل واحد منهم أمراً بالتحويل .

وعجبت من معرفة الشيخ صالح قزاز بأمر المكائن الثلاثين وهي مازالت في الجمارك ، ثم علمت أنه علم من ادارة الجمارك بوصولها ، وتكررت المسألة ، فلا تصل شحنة من هذه المكائن الزراعية إلا والمزارعون حاضرون لاستلامها ، وهكذا كان الشيخ صالح قزاز يرحمه الله مثابراً ودقيقاً في عمله ، وبفضل هذه المثابرة وهذا الاخلاص انتشرت المكائن الزراعية في جميع قرى الطائف ووديانه ، واستفاد المزارعون منها فائدة عظيمة في تطوير الزراعة واستبدال الحيوان بالآلة في زمن وجيز .

ولا شك أن ما تم في الطائف تم في نفس الوقت في أماكن أخرى من المملكة وتعددت الآلات الزراعية وأصنافها حسب طبيعة المناطق الزراعية ومتطلباتها .

هذه تجربة عملية أتيح لي أن أتعرف منها على اخلاص الرجل في عمله ومتابعته له . وحينما اطلعت على أول تقرير للأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامي وجدت فيه مرتب الأمين العام وكان معالي الشيخ محمد سرور الصبان يرحمه الله ، ومرتب الأمين العام المساعد وهو الشيخ صالح قزاز قد حسم من بند المصروفات لأن الرجلين كانا يعملان بدون مرتب ابتغاء مرضاة الله تعالى ، ولم استغرب أن يحدث هذا من الأمين العام فقد كان في بحبوحة من العيش بما أفاء الله عليه ، ولكني أكبرت في الشيخ صالح قزاز يرحمه الله خدمته للرابطة بدون مقابل بل تحمله النفقات في سبيل أداء الواجب كما فصل ذلك الشيخ محمد صفوت السقا في الكلمة التي نقلناها قبل ، ولم افاجأ باصرار الأعضاء المؤسسين في الرابطة بعد ذلك على اختيار الشيخ صالح قزاز أميناً للرابطة بعد وفاة أمينها العام الشيخ محمد سرور الصبان ، ثم محاولتهم التأثير عليه ليبقى في الأمانة بعد أن علت به السن ، ولم يعد قادراً على القيام بأعباء العمل العظيم .

وقد تبين أن رغبة الشيخ صالح قزاز في العمل بدون مرتب كانت رغبة قديمة نفذها منذ أسند اليه الاشراف على عمارة المسجد النبوي الشريف السعودية الاولى عام ١٣٦٨ للهجرة ، وقبل اختياره أميناً عاماً مساعداً لرابطة العالم الاسلامي بربع قرن ، وقد كشف لنا أمر هذه الحسنة الاستاذ/ حسن قزاز جزاه الله خير الجزاء في الكلمة التي نقلناها عنه قبل ، وقد تجنب الشيخ صالح قزاز الاشارة اليها أو اظهارها للناس رغبة فيما عند الله ، ولكن العمل الطيب كالعطر الزكي الرائحة ينم عن نفسه ، وقد شاء الله تعالى أن يظهر هذا العمل الطيب للناس بعد وفاة صاحبه ليذكر له بالخير وليترحم عليه كل من اطلع عليه .

اعتكف الشيخ صالح قزاز في داره بعد استقالته من الرابطة ، وانقطع برغبته عن الناس ولكنه لم ينقطع عن متابعته لأعمال جماعة تحفيظ القرآن الكريم التي احتضنها منذ عام ١٣٨٢ ، والتي أراد الله تعالى لها النمو والانتشار ، وتخرج منها الائمة والمدرسون والحفاظ ولا تزال تعمل وتنمو كما بيّن ذلك الدكتور باجوده في كلمته التي نقلناها قبل ، وأراد الله تعالى أن يتم فضله على الشيخ صالح قزاز فأوقف عمارته الكبيرة بالشامية على جماعة تحفيظ القرآن الكريم في حياته ، وأصبح ريع هذه العمارة ملكاً للجماعة يصرف عليها .

ولابد أن نذكر أن الشيخ صالح قزاز وأخوه الشيخ أحمد قزاز حينما انتقلوا من الطائف ، وأقاموا في مكة المكرمة اشتروا قطعة أرض كبيرة خارج مكة المكرمة ، وبتوالي السنين واتساع العمران ارتفعت قيمة هذه الأرض فباعوا أجزاءاً منها وأنشأ الشيخ صالح قزاز عمارته في الشامية من قيمة هذه الأرض التي أكرمه الله تعالى بها في آخر حياته ، فاستعملها في أشرف القربات وأكرمها في خدمة القرآن الكريم .

وفاة الشيخ صالح قزاز :

توفي الشيخ صالح قزاز في ٣٠ جمادي الآخرة من عام ١٤٠٩ للهجرة من عمر يناهز التسعين عاماً ، ودفن في مكة المكرمة ، تغمده الله بواسع رحماته ، وجزاه الله خير الجزاء ، انه سميع مجيب .



(مصادر الكتاب)

اسم الكتاب	المؤلف والمطبعة وتاريخ الطبع
١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ صفوة التفاسير	محمد على الصابونى ، مطابع دار القرآن الكريم ـ بيروت الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .
٣ ـ التاريخ القويم لبيت الله الكريم	محمد طاهر الكردي ـ الطبعة الاولى ١٣٨٥هـ .
٤ ـ افادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام	عبدالله محمد الغازي ـ مخطوط .
٥ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار	أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأرزقي ـ الطبعة الثالثة دار الثقافة بمكة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .
٦ ـ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه	الامام أبوعبدالله محمد بن اسحاق الفاكهي ـ تحقيق الاستاذ/ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة مكة المكرمة الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م .
٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة	عز الدين بن الاثير أبوالحسن علي بن محمد الجزري ـ القاهرة ١٩٧٣م .
٨ ـ أعلام الحجاز الجزء الأول	محمد علي مغربي ـ مطابع دار العلم الطبعة الثانية سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .
٩ ـ أعلام الحجاز الجزء الثاني	محمد علي مغربي ـ مطابع دار العلم الطبعة الاولى سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .
١٠ ـ امراء البلد الحرام	السيد أحمد بن السيد زيني دحلان الدار المتحدة للنشر والتوزيع بيروت/ لبنان .

١١ ـ البداية والنهاية — أبوالفداء الحافظ بن كثير مكتبة دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

١٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — جمال الدين أبوالمحاسن يوسف بن تغري بردي اصدار وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٣ ـ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين — الامام أبوالطيب التقي الفاسي محمد بن أحمد الحسيني المكي مطبعة السنة المحمدية بمصر ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م .

١٤ ـ أعلام الحجاز ـ الجزء الثالث — محمد علي مغربي ـ مطبعة المدني بالقاهرة ـ الطبعة الاولى سنة ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

١٥ ـ الاعلام — خير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت الطبعة الخامسة مايو ١٩٨٠م .

١٦ ـ السيد أحمد الفيض آبادي — عبدالقدوس الأنصاري .

١٧ ـ بين السجن والمنفى — أحمد عبدالغفور عطار الطبعة الاولى بمكة المكرمة سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

١٨ ـ أجنحة بلا ريش — حسين سرحان ـ اصدار نادي الطائف الأدبي الطبعة الثانية سنة ١٣٩٧هـ .

١٩ ـ الصوت والصدى — حسين سرحان .

٢٠ ـ الهوى والشباب — أحمد عبدالغفور عطار سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٢١ ـ تاريخ التمدن الاسلامي — جورجي زيدان ـ مطبعة الهلال بمصر سنة ١٩٣١م .

٢٢ ـ تاريخ مكة — أحمد السباعي . الطبعة الرابعة ـ اصدار نادي مكة الثقافي سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٢٣ ـ الذهب المسبوك — للمقريزي .

٢٤ ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام — الشيخ/ حسين عبدالله باسلامة .

٢٥ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور — محمد بن أحمد بن اياس الحنفي ـ اصدار لجنة المستشرقين الألمانية ـ طبع دار احياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٧٥م .

٢٦ ـ المماليك — الدكتور السيد الباز العريني ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٧٩م .

٢٧ ـ ذكريات العهود الثلاثة — محمد حسين زيدان ـ الطبعة الثانية ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م .

٢٨ ـ مأدبة الله في الأرض — أحمد محمد جمال ـ منشورات نادي القصيم الأدبي ، بريدة الطبعة الاولى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٢٩ ـ صقر الجزيرة — أحمد عبدالغفور عطار ـ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م .

٣٠ ـ شعر حسين سرحان — أحمد عبدالله صالح المحسن اصدار النادي الثقافي الأدبي بجدة سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٣١ ـ مذكرات صالح جمال — مخطوط .

٣٢ ـ التقرير السنوي لجمعية البر بمكة المكرمة — سنة ١٤١٢هـ ـ ١٤١٣هـ .

٣٣ ـ نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهور — عبدالله مراد أبوالخير . الطبعة الثانية لعالم المعرفة جدة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .
عمر عبدالجبار

٣٤ ـ سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر — الطبعة الثانية جدة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م .

٣٥ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي ـ طبع دار احياء الكتب العربية بمصر ١٩٥٦م .

٣٦ ـ دولة الظاهر بيبرس — الدكتور محمد جمال سرور ـ دار الفكر العربي سنة ١٩٦٠م .

٣٧ ـ ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز — محمد علي مغربي ـ مطابع دار العلم بجدة الطبعة الاولى سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .

٣٨ ـ عثمان بن عفان ذو النورين — محمد علي مغربي مطابع دار العلم بجدة الطبعة الاولى سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

٣٩ ـ تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية — عثمان حافظ ، الطبعة الثانية شركة المدينة للطباعة والنشر جدة سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

٤٠ ـ رباعياتي — محمد سعيد العامودي .

٤١ ـ موسوعة مدينة جدة — عبدالقدوس الأنصاري مطابع الروضة بجدة الطبعة الثانية سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م .

الصحف والمجلات :

٤٢ ـ مجلة المنهل ، مجلة الأربعاء ، جريدة المدينة ، جريدة عكاظ ، جريدة الندوة ، جريدة الشرق الأوسط .

كتب صدرت للمؤلف

- **البعث** : رواية طويلة صدرت الطبعة الاولى منها في عام ١٣٦٤هـ وأعيد طبعها مع قصص أخرى سنة ١٤٠٣هـ .
- **حبات من عنقود** : مجموعة من الأحاديث القصيرة صدرت عام ١٣٨٧هـ ، وأعيد طبعها في سنة ١٤٠٥هـ .
- **لعنة هذا الزمن** : مجموعة مقالات تتعلق بالأحداث العربية والاسلامية صدرت سنة ١٣٨٧هـ .
- **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة** : تراجم لثلاثين من أعلام الرجال في الحجاز صدرت طبعته الاولى عام ١٤٠١هـ ، وصدرت الطبعة الثانية في سنة ١٤٠٥هـ .
- **ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة** : تصوير للحياة الاجتماعية في الحجاز خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر للهجرة ، صدرت طبعته الاولى سنة ١٤٠٢هـ وصدرت الطبعة الثانية في سنة ١٤٠٥هـ ، وصدرت الطبعة الثالثة في سنة ١٤٠٥هـ ، وهي خاصة بالمكتبات المدرسية لوزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية .
- **أبوبكر الصديق خليفة رسول الله** : الكتاب الأول في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٣هـ .
- **عمر بن الخطاب أمير المؤمنين** : الكتاب الثاني في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٣هـ .
- **الجزء الثاني من أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة** : تراجم لعشرة من أعلام العلماء والمؤرخين والشعراء والأدباء مع دراسة لآثارهم المطبوعة والمخطوطة دراسة وافية ، صدر في سنة ١٤٠٤هـ .
- **الاسلام في شعر شوقي** : بحث قُدم الى المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي عقد بمكة

المكرمة من غرة ربيع الأول ١٣٩٤هـ الى السابع منه ، وهو دراسة لشعر شوقي الاسلامي وخاصة في أماديحه النبوية صدر في عام ١٤٠٤هـ .

- **عثمان بن عفان ذو النورين** : الكتاب الثالث في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٤هـ .
- **علي بن أبي طالب والحسن بن علي** : الكتاب الرابع في سلسلة أعلام الصحابة صدر في سنة ١٤٠٧هـ .
- **تاريخ الدولة الأموية** : تاريخ مفصل للأحداث السياسية في الدولة الأموية منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان الى مروان بن محمد الحمار آخر الخلفاء الأمويين مع تراجم للخلفاء الأمويين جميعاً صدر سنة ١٤٠٩هـ .
- **الجزء الثالث من أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية** : صدر سنة ١٤١٠هـ .
- **لمحات من تاريخ الحجاز قبل الاسلام** : صدر سنة ١٤١٤هـ .

تاريخ الحجاز قبل الاسلام تاريخ قديم حاول المؤلف فيه الالمام بملامح هذا التاريخ فتحدث عن بناء الخليل ابراهيم عليه السلام للكعبة المشرفة وما أمكن الوصول اليه من اخبار مكة قبل الاسلام ، وتحدث الكتاب عن يثرب وغزو اليهود اليها ووصول الأوس والخزرج اليها وعن شمال الحجاز النبوات التى ظهرت فى الحجر ومدين أبناء اسماعيل عليه السلام وانتقالهم الى شمال الحجاز ثم عودتهم الى مكة المكرمة .



الفهارس

الصفحة

فهرس الصـور

فهرس الأعلام

* * * *

فهرس الكتب والمجلات والصحف

* * * *

فهرس الموضوعات والأماكن

* * * *

فهرست الكتاب

الموضــوع الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع | الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطابع دار البلاد ـ جدة ـ ت : ٦٧٠٠٣٣٣